الْمُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْمُنَزَّل

العُشْر الأَوَّل

يَحْيَى بن عَبْد العَزِيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

وهي مكية بالاتفاق، خلافًا لمجاهد، قال الحسين بن الفضل: لكل عالم هفوة، وهذه هفوة مجاهد، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، وهذه الآية في سورة الحجر، وسورة الحجر مكية بالإجماع، ثم إنه ما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير الفاتحة، قال ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقرَأ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ». متفق عليه من حديث عبادة ﵁. ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة.

فَصْلٌ: فِي مَعْنَى السُّوْرَةِ

السورة تُجمع: سُوَرًا، وهي بغير همز، ومعناها: المنْزلة في منازل الارتفاع، قال الشاعر:

أَلَــــمْ تَــــرَ أَنَّ اللهَ أعطــــاكَ سُــــورَةً ... تَــرَى كــلَّ مَلْــكٍ دُونَهــا يَتَذَبْــذَبُ

وقد همز بعضهم السورةَ من القرآن. وتأويلُها، في لغة من هَمَزها، القطعةُ التي قد أفضِلت من القرآن عما سواها وأبقيت. وذلك أن سؤر كل شيء: البقية منه تَبقى بعدَ الذي يُؤخذ منه، ولذلك سميت الفضْلة من شراب الرجل سُؤْرًا.

فَصْلٌ: فِي مَعْنَى الآيَةِ

الآية سُميت بذلك؛ لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها، وابتداؤها، كالآية التي تكون دلالة على الشيء يُستدل بها عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وقيل: الآية: القِصَّة، والمعنى: رسالة مني، وخبراً عني، فيكون معنى الآيات: القصص، قصة تتلو قصة بفُصُولٍ ووُصُول.

فَصْلٌ: فِي فَضَائِلِ سُوْرَةِ الفَاتِحَةِ

عن ابن عباس ﵄ قال: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ. فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ». رواه مسلم.

وعن عبد الله بن جابر ﵁ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكَ يَا عَبْدَ الله بْنَ جَابِرٍ بِخَيْرِ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «اقْرَأْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حَتَّى تَخْتِمَهَا». رواه أحمد بسند حسن.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ، وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ، وَلاَ فِي الزَّبُورِ، وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ». رواه الترمذي بسند صحيح.

فَصْلٌ: فِي أَسْمَاءِ الفَاتِحَةِ التِي صَحَّ دَلِيلُهَا

أولاً: الصلاة: لأن الصلاة لا تجزي بدونها، قال ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﵁.

ثانيًا: فاتحة الكتاب: لحديث عبادة بن الصامت ﵁ عند الشيخين، وقد سميت بذلك لأنها يفتتح بكتابتها المصاحف، والصلاة.

ثالثًا: أم القرآن: لحديث عبادة بن الصامت ﵁ قال: قال ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»، وفي لفظ مسلم: «بِأُمِّ الْقُرْآنِ». وسميت بذلك لتقدمها على سائر السور، ولشمولها على مقاصد الشريعة، والعرب تسمي كل جامع أمرًا أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع: أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أُمَّ الرأس، وكقولهم لمكة: أُمِّ القرى؛ لتقدمها على غيرها وجودًا وفضلًا، والفاتحة جامعة للتوحيد في مطلعها، وللدعاء في آخرها، وبين ذلك إثبات الجزاء، وتحقيق المحبة، والخوف، والتوكل، والرجاء، والرد على أهل البدع والخرافات، وإخلاص العمل لله ﷻ، واتباع الرسول ﷺ.

رابعًا: السبع المثاني والقرآن العظيم: لأنها سبع آيات، تثنى قراءتها في كل صلاة تطوع ومكتوبة، ولشمولها على مقاصده، عن أَبِي سَعِيدِ بنِ المُعَلَّى ﵁ قَالَ: «كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ أُجِبْهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ -، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾؟ ثُمَّ قَالَ لِي: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ». رواه البخاري. ولا خلاف مع ما جاء عن ابن عباس ﵄ عند أبي داود بسند جيد: أن السَّبع المَثَانِي هيَ: السَّبع الطوال؛ لأن المعنى يشمل الجميع، يعني: الفاتحة، والسبع الطوال.

خامسًا: الرقية: أي: يقرأ بها على المريض فيشفى بإذن الله. عن أبي سعيد ﵁ قال: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ (دَوَاءٍ أَوْ) رَاقٍ؟ (فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا. فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ)، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفِلُ، فَبَرَأَ -وَفِي رِوَايَةٍ: رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، (فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً)، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً؟ قَالَ: لَا، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ-، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ. فَسَأَلُوهُ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ». رواه الشيخان.

فَصْلٌ: فِي حُكْمِ قِرَاءَةِ الفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ

الراجح: وجوب قراءتها في كل ركعة للإمام والمنفرد والمأموم؛ ما لم يعرض ما يمنع ذلك إما بالمعنى، أو بالحس، فالمعنى: كأن لا يعطيه الإمام فرصة لقراءتها، والحس: كأن يأتي والإمام في حال الركوع، أو يأتي في وقت لا يتسع إلا لقراءة بعضها، ففي هذه الحال يسقط وجوبها على المأموم، وقد جاء عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ -وَفِي رِوَايَةٍ: بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ- فَهِيَ خِدَاجٌ -ثَلَاثًا- غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ! فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ». رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت ﵁ قال: «كُنَّا خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: لَعَلَّكُمْ تَقْرَأُونَ خَلْفَ إِمَامِكُمْ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، هَذًّا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: لَا تَفْعَلُوا إِلاَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ». رواه أبو داود بسند جيد.

ولهذا استحب الإمام الشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وإسحاق: سكوتَ الإمام بين الفاتحة والسورة في صلاة الجهرية، حتى يتسنّى للمأمومين قراءة الفاتحة، ولعلهم يحسِّنون حديث سمرة بن جندب ﵁: «أَنَّهُ حَفِظَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ سَكْتَتَيْنِ: إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلاَةَ، وَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْقِرَاءَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾». رواه أبو داود وحسنه الترمذي.

وعلى هذا؛ فحديث أبي هريرة ﵁ الذي رواه أبو داود بسند صحيح: «مَا لِي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ». يقال فيه: هو محمول على أنه إذا لم يسكت الإمام لقراءة المأمومين؛ لأنه على هذه الحال أسقط وجوبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وكذا يحمل أيضًا على ذلك حديث حديث جابر ﵁، قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَن كَانَ لَهُ إِمَامٌ، فَقِرَاءَةُ الإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ». رواه ابن ماجه وأحمد ولا يصح.

فَصْلٌ: فِيمَن لَمْ يَسْتَطِع قِرَاءَةَ الفَاتِحَةِ لِعَوَارِض

من لم يستطع قراءة الفاتحة لجهله، أو لأعجميته، أو نحو ذلك من العوارض، فقد جاء عن عَبدِ الله بنِ أَبِي أَوفَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا؛ فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ! قَالَ: قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا لِي؟ قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي. فَلَمَّا قَامَ قَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلأَ يَدَهُ مِنَ الْخَيْرِ». رواه أبو داود بسند لا بأس به.

فَصْلٌ: فِي تَفْسِيرِ (أَعُوذُ بِاللَّه مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم)

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: إذا أردت أن تقرأ، فأوقع الماضي موقع المستقبل، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، أي: إذا أردتم القيام.

قال الشاعر:

وَإِنِّي لَآتِيكُمْ لِذِكْرِي الَّذِي مَضَى ... مِنَ الْوُدِّ وَاسْتِئْنَافِ مَا كَانَ فِي غَدِ

أراد ما يكون في غد.

والمعنى: أستجيرُ بالله من كل متمردٍ، من الإنس والجن وكل شيء، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، قال الشاعر:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أُحَاذِرُهُ

والأمر بالاستعاذة على الاستحباب عند الجمهور، وهي بالإجماع ليست من القرآن، ولا آية منه، وقد جاء عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي صَلاَةً، فَقَالَ: -وَفِي رِوَايَةٍ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي التَّطَوُّعِ-: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا -ثَلَاثًا-، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، مِنْ نَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ، وَهَمْزِهِ. قَالَ: نَفْثُهُ الشِّعْرُ، وَنَفْخُهُ الْكِبْرُ، وَهَمْزُهُ الْمُوتَةُ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْثِهِ، وَنَفْخِهِ». رواه أحمد بسند حسن.

وفائدة الاستعاذة: السلامة من وسْوَسةِ الشيطان في القراءة، وضررِه في الدين، أو صدِّه عن الحق، قال

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ يعني: قراءته.

والشيطان: سمِّي بذلك لأنه بعيدٌ عن الحقِّ، وقد روى ابن جرير، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه ركب برذونًا فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا، فنَزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي. صححه ابن كثير.

والرجيم: فَعِيلٌ، بمعنى: مفعول، أي: ملعون ومشتوم، وأصل الرجم: الرمي بالقول، أو الفعل، قال تعالى عن والد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾.

القَوْل في تَفْسِيرِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ المعنى: أبدأُ بتسمية الله قبل قراءتي، أو: أقرأ مبتدئًا ببسم الله، قال تعالى في أول سورة نزلت من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وقد جاء عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا ذَكَرَتْ قِرَاءَةَ رَسُولِ الله ﷺ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً». رواه أبو داود بسند حسن.

وهي آية فاصلة مستقلة في بداية كل سورة، بِخلاف سورة النمل، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَعرِفُ فَصلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنَزَّلَ عَلَيهِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾». رواه أبو داود بسند صحيح.

ولفظةُ ﴿بِسۡمِ﴾: مفرد مضاف، فيعم جميع أسماء الله الحسنى.

و﴿ٱللَّهِ﴾ أي: الإله الذي يألهه كل شيء، ويعبده كل مخلوق، وهو علم على الذات الإلهية المقدسة، وهو اسم لا يسمى به غيره إطلاقًا، وقيل: إنه الاسم الأعظم، قال ابن جرير: ولا شك أن التأله التفعل من أَلِه يأله.

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: ذو رحمة، وهو مشتق من الرحمة لجميع خلقه، في الدنيا بما أعطاهم من النعم، وفي الآخرة في تسويته بينهم في عدله وقضائه، فلا يظلم أحدًا، وهو اسم لا يسمى به غيره إطلاقًا، قال ابن جرير: والعرب كثيرًا ما تبني الأسماء من فَعِل يَفعَل على فَعْلان كقولهم من غضب يغضب غضبان.

قوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: ذو رحمة، وهو مشتق -أيضًا- من الرحمة، ولكنها خاصةٌ بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾، قال ابن جرير: ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء إذا كان فيها مدح أو ذم على فعيل كما قالوا من علم: عالم وعليم، فالرحمن: خاص الاسم، لا يسمى به غير الله تعالى، عام الفعل لجميع خلقه، والرحيم: عام الاسم، قد يسمى به غير الله تعالى، قال تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ خاص الفعل للمؤمنين فقط، وكلٌ من الرحمن الرحيم ثناء من

العبد لربه، لما اتصف به من صفات كمالية، وأفعال دائرة بين رحمته وعدله، لما جاء في حديث أبي هريرة ﵁: «وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الشكر والثناء الكامل لله ﷻ، فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته، وملكه، وعن الأسود بن سريع، أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْحَمْدُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾». حديث حسن، رواه الطبري. وعن أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي». رواه سلم. وقال كعب ﵁ قال: من قَالَ: الحَمدُ للهِ، فَذَلِكَ ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ. رواه الطبري بسند جيد.

قال ابن جرير: ولا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب أن الحمد لله قد ينطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع في موضع الحمد، وقيل: الشكر أعم من الحمد؛ لأنه باللسان والجوارح والقلب، والحمد يكون باللسان، قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ الْمُحَجَّبَا

وقيل: الحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر وفيه معنى الشكر والمدح، ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وقيل: الحمد ثناء على الممدوح بصفاته، في غير سبق إحسان.

وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ كَلامٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدُ للهِ فَهُوَ أَجْذَمُ». حديث حسن، رواه أبو داود. والشكر: ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، فالحمد إذًا يقع على الثناء والتحميد والشكر، قال بعض أهل العلم: لَمَّا عَلِمَ سبحانه عَجزَ عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه، كما قال ﷺ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيكَ، أَنْتَ كَمَا أَثنيتَ عَلَى نَفسِكَ». رواه مسلم من حديث عائشة ﵂.

قال ابن تيمية: الحمد يكون على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر، وحمد لما يستحق هو بنفسه من نعوت كماله؛ وهذا لا يكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد، فإن قيل ما معنى ما جاء عند الترمذي بسند جيد عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ»؟. فالجواب على تقدير أفضل الدعاء ما كان مبدوءًا بالحمد.

قوله: ﴿رَبِّ﴾ أي، السيد المربي الكامل المطاع، والمعبود بحق، والمالك المتصرف، الذي لا شبيه له ولا مثيل، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، والتربية نوعان: عامة لجميع الخلائق؛ حيث خلقهم ورزقهم وهداهم لمصالحهم، وخاصة

للمؤمنين والمحسنين؛ حيث وفقهم، وسددهم، ورزقهم العلم النافع، والعمل الصالح.

قوله: ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: جمع عَالم، وهو ما سوى الله، وهو مشتق من العلامة؛ لأنه عَلَمٌ دال على وجود خالقه. قال ابن المعتز:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَـٰهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

والعَالَم: جمعٌ لا واحد له من لفظه، كالأنعام، والرهط، والجيش، ونحو ذلك، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله: السموات والأرضون ومن فيهن، وما بينهن مما يُعلم أو لا يعلم. رواه ابن جرير.

قوله: ﴿مَـٰلِكِ﴾ و ﴿مَلِكِ﴾ قراءتان سَبعِيّتَانِ متواترتان، والمعنى: لا مالك ولا ملك يوم القيامة إلا الله، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فأجاب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ: أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: يَأْخُذُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- أَنَا الْمَلِكُ! حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟». رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». متفق عليه. وعن عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي اللهُ تَعَالَى العِبَادَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَن قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ». رواه أحمد بسند حسن.

قوله: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: محاسبون ومجزيون.

حَصَادُكَ يَوْمًا مَا زَرَعْتَ وَإِنَّمَا يُدَانُ الْفَتَى يومًا كَمَا هُوَ دَائِنُ

وقال آخر:

وَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلُ وَاعْلَمْ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

وهو اسم من أسماء يوم القيامة قال تعالى عن الخراصين: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، وقال: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ

مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، وقال: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه تمجيد الله ﷻ، وتفويض الأمر إليه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي». رواه مسلم.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: لا نعبد ولا نستعين بغيرك، فقدّم المفعول على فعله، وكرره للاهتمام والحصر، وشأن العرب تقديم الأهم.

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسر الفاتحة هذه الآية، وهي التي بين الله وبين عباده، لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». رواه مسلم. فأولها: تبرؤ من الشرك، والكبر، وآخرها: تبرؤ من الحول والقوة والقدرة، وتفويض الأمر إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾، قال ابن القيم: الرياء دواءه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والكبرياء دواءه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

قال ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، والعبادة أصلها الذِّلة، والعرب يسمون الطريق المذلل الذي وطَأته الأقدام: مُعَبَّدًا، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، أو: ما يجمع كمال المحبة والشكر، والخضوع والخوف.

والاستعانة: طلب العون والتأييد والتوفيق.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يومًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواه الترمذي بسند جيد. وفي رواية عند أحمد بسند جيد: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

قال بعض السلف: للعبادة ثلاث ركائز:

أولًا: الحب مع الذل.

ثانيًا: الخوف.

ثالثًا: الرجاء. فمن عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عَبَدَ الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن

عبده بالخوف وحده فهو حروري أي: خارجي، ومن عَبَدَهُ بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

قال ابن القيم: العبودية نوعان:

١- عبودية أهل السماوات والأرض، برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، وهذه عبودية القهر والملك.

٢- وعبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة والمحبة والاتباع؛ وهي عبودية المؤمنين.

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». رواه مسلم.

قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ أي: سؤال ودعاء، وهو أكمل أحوال السائل؛ أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته، وحاجة المؤمنين، والمعنى: ألهمنا، ووفقنا الصراط. قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». رواه مسلم.

والعبد مُفتقر في كل ساعة إلى الله، في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره وازدياده منها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، قال ابن جرير: والعرب تقول: هديت فلانًا الطريق، وهديته للطريق، إذا أرشدته إليه وسددته له، قال تعالى: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وكل ذلك فاش في منطقها.

والآية تؤكد أن هناك أبوابًا من الهداية لم تفتح بعد، وأننا بحاجة إلى أن ندعو الله تعالى أن يهدينا ويوفقنا إليها، وهذا يعلمنا أننا لا نقف عند مستوى واحد من العلم والمعرفة، وليس صحيح أن ما وصلنا إليه يكفي.

قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: الطريق الواضح، الذي لا اعوجاج فيه، وهو واحد لا ثاني له، بخلاف طرق الضلال فإنها كثيرة، وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ فَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾». رواه ابن ماجه بسند جيد.

والمقصود بالصراط المستقيم: الإسلام، والأقوال متفقة على أنه اتباع القرآن، واتباع كلام سيد الأنام ﷺ، قال ابن القيم: والصراط تارة يضاف إلى الله، وهو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا

صِرَٰطِى مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾، وتارة يضاف إلى العباد؛ كما في الفاتحة؛ لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم، والمارُّون عليه، وقد أخبر أن الصراط عليه سبحانه، وأنه سبحانه على الصراط المستقيم.

وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، عَلَى كَنَفَيِ الصِّرَاطِ دَارَانِ لَهُمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، عَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَهُ، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وَالأَبْوَابُ الَّتِي عَلَى كَنَفَيِ الصِّرَاطِ حُدُودُ اللهِ، فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حُدُودِ اللهِ حَتَّى يُكْشَفَ السِّتْرُ». رواه الترمذي بسند جيد من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه. وعن جابر رضي الله عنه موقوفًا قال: «الصِراط المُستَقِيم: الإسلام، وهو أوسَع مِمّا بين السَّماء والأرض». رواه ابن جرير بسند جيد. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا قال: «الصِّرَاط المستَقِيم كِتَابُ الله». رواه ابن جرير بسند جيد.

قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: الذين أنعَمَ الله عَلَيهم، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: اليهود ومن شابههم، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ». حديث حسن، رواه الترمذي من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وعَنِ الشَّرِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: «مَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا جَالِسٌ هَكَذَا، وَقَدْ وَضَعْتُ يَدِيَ الْيُسْرَى خَلْفَ ظَهْرِي، وَاتَّكَأْتُ عَلَى أَلْيَةِ يَدِي، فَقَالَ: أَتَقْعُدُ قِعْدَةَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ؟». رواه أبو داود بسند صحيح.

قال ابن جرير: والقراء مجمعون على قراءة (غَيرِ) بجر الراء منها؛ لأنها إما صفة للذين، على تقدير: صراط الذين أنعمت عليهم صراط غير المغضوب عليهم.

قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: النصارى، ومن شابههم، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ». حديث حسن رواه الترمذي من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. والضَّلال: هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق، ومنه: ضل اللبن في الماء، إذا غاب، قال تعالى عن الكفار: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي غبنا بالموت، وقال الشاعر:

أَلَــــمْ تَسْــــأَلْ فَتُخْبِـــرَكَ الـــدِّيَارُ عَـــنِ الْحَـــيِّ الْمُضَـــلَّلِ أَيْـــنَ سَـــارُوا

وقد ذكر الله ﷻ في مطلع الفاتحة قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وختمها بقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

قال ابن القيم: أقسام الناس بحسب معرفة الحق والعمل به ثلاثة:

الأول: عالم بالحق عامل به، من الذين أنعم الله عليهم.

الثاني: عالم بالحق متبع لهواه، من المغضوب عليهم.

الثالث: جاهل بالحق، من الضالين.

فصل: في التأمين بعد الفاتحة

يستحب أن يقال بعد نهاية الفاتحة: آمين، بالمد أو بالقصر، أي: استجب، وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلاَمِ وَالتَّأْمِينِ». رواه ابن ماجه بسند صحيح. وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ سَئِمُوا دِينَهُمْ، وَهُمْ قَوْمٌ حُسَّدٌ، وَلَمْ يَحْسِدُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَفْضَلَ مِنْ ثَلاثٍ: رَدِّ السَّلامِ، وَإِقَامَةِ الصُّفُوفِ، وَقَوْلِهِمْ خَلْفَ إِمَامِهِمْ فِي الْمَكْتُوبَةِ: آمِينَ». رواه الطبراني بسند حسن.

وعن وائل بن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: آمِينَ. وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ». رواه أبو داود بسند جيد. وعن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ تَسْبِقْنِي بِآمِينَ». حديث حسن، رواه أبو داود. وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَيَرتَجُّ بِهَا المَسجِدُ». رواه ابن ماجه بسند جيد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا -وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ-؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: آمِينَ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». متفق عليه.

انتهى تفسير سورة الفاتحة، ولله الحمد.

  

سُورَةُ البَقَرَة

وهي مدنية كلها بلا خلاف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾

قوله: ﴿الٓمٓ﴾ هي فواتح يفتتح الله عز وجل بها بعض السور؛ لتدل على انقضاء سورة وابتداء أخرى، وانقطاع ما بينهما، والله أعلم بمراده فيها، ولعلها من أسرار الآيات التي قال ﷻ فيها: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، قال بعض السلف: لكل كتاب سر، وسر القرآن فواتحه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: هذا القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هذه، وقد جاء العكس، يعني: (هذا) بمعنى: (ذلك)، قال ﷺ كما في حديث أنس رضي الله عنه: «يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ». متفق عليه. أي: ذلك البحر.

قوله: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ أي: لا شك. وهو مصدر. وقيل: هو خبر ويحمل معنى النهي، أي: لا ترتابوا.

قوله: ﴿هُدًى﴾ أي: من الضلالة، والهُدَى نوعان:

الأول: هدى دلالة ودعوة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو المقصود من هذه الآية.

والآخر: هُدى تأييد وتوفيق، وهو الذي لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

وقد خص الله المتقين بهداية القرآن وإن كان هديًا للخلق أجمعين؛ تشريفًا وكرامة لهم، وبيانًا لفضلهم؛ لأنهم المنتفعون به حق الانتفاع.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ أصل الإيمان لغة: التصديق، مع الاطمئنان والسكون، قال الله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، وشرعًا: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: ما غاب حسًا أو معنى، من جنة ونار ونحو ذلك، وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أمر محمد ﷺ كان بيّنًا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيبٍ. ثم قرأ هذه الآية». رواه الحاكم بسند جيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قُتلوا على الكفر وماتوا عليه. وقيل: هي عامة ومعناها الخصوص، أي: فيمن حقت عليه كلمة العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾، والكفر في اللغة: تغطيه الشيء، ولذلك سمى العرب الليل كافرًا.

قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: معتدل عندهم الإنذار وعدمه، وهو مأخوذ من التساوي، كقولك: متساوٍ هذان الأمران عندي، وهما عندي سواء، قال تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يعني: حتى يستوي علمك وعلمهم بما عليه كل فريق منهم للفريق الآخر.

قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ الختم: الطبع، والطبع يكون على القلوب والأسماع؛ لأنها أوعية العلم. قال تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾. وقال ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ». رواه أحمد من حديث أبي موسى رضي الله عنه بسند جيد.

وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد والصدر، قال تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾، وقد يعبَّر عنه بالعقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾.

وقد وصف الله قلوب الكفار بالختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرين، والموت، والانصراف، والحمية، والإنكار، والأقفال، والختم أشد من ذلك كله.

قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: غطاء، والغشاوة إنما تكون على الأبصار، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وهي غطاء.

قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بما يظهرون بألسنتهم من القول والتصديق، وما يضمرون في قلوبهم من الشك والتكذيب؛ ليدفعوا عن أنفسهم حكم الله من القتل والسبي.

وقرئت ﴿وما يخادعون﴾، والأول أصح؛ لأن المنافق قد أوجب خديعة الله لنفسه بما ركب من خداعه ربه ورسوله والمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك يكون في الأجساد والأديان، وهو هنا: شكهم في أمر رسول الله ﷺ وتحيرهم فيه، فلا هم موقنون ولا هم منكرون، ولكنهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهم في ريبهم يترددون، فزادهم الله من جنس عملهم شكًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجع.

قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ فيها قراءتان، بالتشديد، أي: يكذِّبون نبي الله، وبالتخفيف، أي: يكذبون في قولهم: (آمنا).

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تعصوا الله، والإفساد هنا: هو العمل بما نهى الله عز وجل، وتضييع ما أمر بحفظه، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ و﴾، وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، ومن الفساد اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: أصحابَ محمد. وسُمِّي الناس بذلك: إما من النسيان. كما قال الشاعر:

لَا تَنْسَيَنْ تِلْكَ الْعُهُودَ فَإِنَّمَا ... سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِي

أو من الأُنس كما قال الشاعر:

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِأُنْسِهِ

أو من النَّوْس: وهو الحركة.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه، وهو الجاهل الضعيف الرأي، القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار، وقد سمى الله الصبيان والنساء سفهاء بقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ وعنى المنافقون بالسفهاء: أصحاب الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: خلوا بشياطينهم، أو مع

شياطينهم؛ لأن حروف الصفات تتعاقب، قال الله تعالى عن عيسى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مع الله، وقيل: بمعنى: ذهبوا وانصرفوا؛ لتعديته بـ (إلى).

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يستهزئ بهم، من قبيل المجازاة والمقابلة لصنيعهم، كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، وقال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا». متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «فَوَاللهِ لَا يَسْأَمُ اللهُ حَتَّى تَسْأَمُوا».

ومن استهزاءِ الله بهم في الدنيا استدراجه لهم كما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ وأما في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًاۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يملي لهم ويزيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قوله: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي: تجاوزهم في الضلال والبغي، من قولك: طغى فلان يطغى طُغيانًا، إذا تجاوز في الأمر حَدَّه فبغى، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يعمون ويترددون ويتحيرون، والعمى: يكون غالبًا في العين، وقد يكون في القلب، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، وأما العَمَهُ فإنما يكون في القلب، يقال: عَمِه فلان يَعْمه عَمَهَانًا وعُمُوها إذا ضَلَّ.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: أخذوا الكفر وتركوا الإيمان، فرغبوا الكفر والضلال رغبة المشتري بالسلعة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وذلك هو معنى الشراء؛ لأن كل مشترٍ شيئًا فإنما يستبدل مكان الذي يؤخذ فيه من البدل آخر بديلًا منه.

قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ أي: في تجارتهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ

فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ
يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ
كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾

قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: شبههم، يقال: مَثَل، ومِثِل ومثيل، والجمع: أمثال، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾، والمثل: الشبه، وهذا مثل ضربه الله للمنافقين؛ أنهم كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوءه، وقد أخبر الله خبرهم بقوله: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿صُمُّۢ﴾ أي: لا يسمعون داعي الحق.

قوله: ﴿بُكۡمٌ﴾ أي: خرس عن التكلم بالحق.

قوله: ﴿عُمۡيٞ﴾ أي: عن رؤية دلائل الحق. فهم لا يعقلون الهدى ولا يرجعون عن اشترائهم الضلالة بالهدى، وعلى هذا فالآية من المؤخر الذي معناه التقديم. وأنّ معنى الكلام: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، صُمٌّ بكم عميٌ فهم لا يرجعون، مَثلهم كمثل الذي استوقدَ نارًا...

قوله: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (أو) بمعنى (و) فحذف المثل واكتفى بدلالة ما مضى من الكلام.

قال الشاعر:

نَــالَ الْخِلافَــةَ أَوْ كَانَــتْ لَــهُ قَــدَرًا ... كَمَـا أَتَـى رَبَّـه مُوسَـى عَلَـى قَـدَرِ

أي وكانت.

والمعنى: أو كمثل صيب. وقيل: للتخيير، أي: مثلهم بهذا أو بهذا.

وقيل: الأول لنوع من المنافقين، والآخر لنوع، وقد رجح الأول الطبري، ورجح الأخير ابن كثير، والأظهر ما ذهب إليه الطبري.

والصَّيِّب: المطر. قال ﷺ في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ إِذَا رَأَى الْمَطَرَ قَالَ: اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا».

رواه البخاري. وهو مثل لما أظهره المنافقون من التصديق.

والصيب من قولك: صَابَ المطر إذا انحدر ونزل. هو في الأصل (صَيْوِب)، ولكن الواو لما سَبقتها ياء ساكنة، صيرتا جميعًا ياءً مشددةً، كما قيل: سيِّد، من ساد يسود، وجيِّد، من جاد يجود. وكذلك تفعل العربَ بالواو إذا كانت متحركة وقبلها ياء ساكنة، تصيِّرهما جميعًا ياءً مشددةً.

قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ إشارة إلى ما أبطنوه من الشك والتكذيب.

قوله: ﴿وَرَعْدٌ﴾ إشارة إلى ما في قلوبهم من الخوف من وعيد الله.

قوله: ﴿وَبَرْقٌ﴾ إشارة إلى ما يلمع في قلوبهم أحيانًا من نور الإيمان؛ ولذا فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم؛ ليتَّقُوا وعيد الله الذي أنزله في كتابه، بما يبدونه بألسنتهم، كما يتقي الخائف أصوات الصواعق بتغطية أذنيه حذرًا منها.

قوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: من الموت. وإنما نصَب قوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ على نحو ما تنصب به التكرمة في قولك: زُرْتك تَكرمةً لك. تريد بذلك: من أجل تكرمتك، وكما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾، كما أنه محيط بهم بعلمه قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾، قال ابن القيم: مدار الأسماء أربعة وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، على الإحاطة، وهي إحاطات زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقرب والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فلا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا يحجب منه ظاهرٌ باطنًا، بل الباطن له ظاهر قريب، والسر عنده علانية.

قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يكاد نور الإيمان يستلب أبصارهم، فكلما رأوا فيه ما يعجبهم ثبتوا عليه، وإذا رأوا ما لا يعجبهم أقاموا على نفاقهم وثبتوا على ضلالتهم، والخطف: السلب، ومنه قيل للخُطاف الذي يُخرج الدلو من البئر: خُطَّاف لاختطافه واستلابه ما علق به، ومنه ما جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّ لِلْجِنِّ انْتِشَارًا وَخَطْفَةً)». رواه الشيخان.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: ذهب بالأسماع والأبصار، وقد وحَّد السمع لأنه عنى به المصدر، وهو بمعنى الجماعة، قال تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترتد إليهم

أطرافهم، وقال تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: اصرفوا العبادة له وحده دون ما سواه، وجاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». متفق عليه.

وبنحوه من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم، وهو ما يسمى بحديث جبريل عليه السلام.

وفي حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. (فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا لَهُ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَرَبٌ مَا لَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ». متفق عليه.

فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَتَصُومُ رَمَضَانَ. قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا». متفق عليه.

وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». متفق عليه.

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ». متفق عليه، وفي رواية لمسلم: «عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ».

وعن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا» وفيه: «قال يحيى بن زكريا لبني إسرائيل: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي، فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ! فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟». حديث صحيح رواه الترمذي.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: بعبادتكم سخط ربكم وغضبه أن يحل عليكم، و (لعل) هنا لليقين؛ لأنها من كلام الله، وقيل: العرب تستعمل (لعل) مجردة من الشك بمعنى لام كي، والمعنى: لتتقوا.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي: مِهادًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، وقرارًا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سميت بذلك لعلوها على الأرض، وكل شيء كان فوق شيء فهو لما تحته سماء، كما يقال لسقف البيت: سماء البيت، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، وقيل: سما فلان لفلان، إذا أشرف له وقصد نحوه عاليًا عليه.

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد: جمع ند، وهو العدل والمثيل والسمي، وقد سُئل رسول الله ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وفي حديث قُتَيْلَةَ -وهي امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ-: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ: تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ! وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ! فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ». رواه النسائي بسند صحيح.

قال الشاعر:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ند له ولا مثيل، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوانكم، وكل من يشهدونكم ويظاهرون على كفركم، ولينصر بعضكم بعضًا، والشهداء: جمع شهيد، كما أن الشركاء جمع شريك، والشهيد يسمى به الشاهد على الشيء لغيره بما يحقق دعواه، وقد يسمى به المشاهِد للشيء، كما يقال: فلان جليس فلان، يعني به مجالِسه، ونديمه يعني به منادِمَهُ، وكذلك يقال: شهيده يعني به مُشَاهِده.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في قولكم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾.

قوله: ﴿وَقُودُهَا﴾ أي حطبها، والعرب تجعله مصدرًا، وهو اسم، إذا فتحت الواو، بمنزلة الحطب. فإذا ضَمت الواو من (الوقود) كان مصدرًا من قول القائل: وَقدَت النارُ فهي تَقِد وُقودًا وقِدَة ووَقَدانًا ووَقْدًا، يراد بذلك أنها التهبتْ.

قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هُيِّئَت وأرصدت للكافرين، وهي مخلوقة موجودة الآن، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا! فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا! ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ،

اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا! فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ! قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا! فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا! فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا». رواه أبو داود بسند جيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾

قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: بين يدي الجنات والبساتين، قال تعالى في سورة يونس: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: ما بين أيديهم، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي: دونها بين يديها، وكما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: من دوني وبين يدي.

قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من ثمار الدنيا، وقيل: من ثمار الجنة، لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون، وإن خالفه في الطعم، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الجَنَّةِ إِلا الأَسْمَاء». رواه مسدد كما في المطالب العالية بسند صحيح.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَسْفَلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَجْمَعِينَ دَرَجَةً لِمَنْ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ عَشَرَةُ آلافِ خَادِمٍ، بِيَدِ كُلِّ خَادِمٍ صَحْفَتَانِ صَحْفَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَصَحْفَةٌ مِنْ فِضَّةٍ». رواه الطبراني في الأوسط بسند قوي.

قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: مُطَهَّرَةٌ من كل أذى ورذيلة، وقد جاء عند ابن الأعرابي في معجمه بسند لا بأس به، عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «﴿فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: مِنَ الحَيْضِ وَالغَائِطِ وَالبُزَاقِ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُفْضِي إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْضِي فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ». رواه البزار بسند صحيح.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ». متفق عليه، ولمسلم: «وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ».

وعن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ الْحُلَلِ كَمَا يُرَى الشَّرَابُ الأَحْمَرُ فِي الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ». حديث صحيح رواه البزار من حديث ابن مسعود ﵁.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: إن الله لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة في الصغر والقلة فما فوقها مثلًا.

قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته، يقال: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ، إذا خرجت من قشرها، وسميت الفأرة فويسقة: لخروجها عن جحرها، فالمنافق والكافر كل منهما فاسق لخروجه عن طاعة ربه، قال تعالى عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ يعني: خرج عن طاعته واتباع أمره. قال أهل العلم: الفسق نوعان:

١- فسق مُخرج عن الملة، كفسق إبليس وأتباعه من المشركين والكافرين.

٢- وفسق لا يخرج من الملة، وهو فسق الموحدين من أهل الإسلام.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: أحبار اليهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ فتركوا ما عهد الله إليهم من الإقرار بالنبي محمد ﷺ وبما جاء به، وتبيين نبوته للناس، ويدخل في حكم هذه الآية كل من كان يتصف بهذه الصفة من المنافقين والكفار، في نقض العهد، وقطع الأرحام، والإفساد في الأرض.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: من بعد أن أكدوه باليمين. والمواثقة: المعاهدة، قال تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾.

قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: الأرحام وغيرها، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾، وقد جاء عن أبي بكرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا -مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ- مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ». حديث صحيح رواه أبو داود.

وعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ». متفق عليه.

أما المؤمنون حقًا فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

وقد جاء في حديث مصعب بن سعد قال: «سَأَلْتُ أَبِي: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ هُمُ الْحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا، هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحَرُورِيَّةُ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾. وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ». رواه البخاري.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ جمع خاسر، أي: الناقصون أنفسَهم حظوظَها كما يخسر الرجل في تجارته.

قوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام توبيخ وتأنيب وتعجب، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ والمعنى: ويحكم، أين تذهبون؟!

قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ أي: في الأصلاب.

قوله: ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ أي: هي حياة ما بعد البرزخ. قال تعالى عن أهل النار: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، والعرب تقول للشيء الدارس والأمر الخامل الذكر: هذا شيء ميت، وهذا أمر ميت، وكذلك الخلق كانوا خاملين لا ذكر لهم، ولم يكونوا شيئًا، فجعلهم بشرًا يُذكَرون وَيُعرَفُون.

وربما كان المعنى في هذه الآية: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أن الأولى بعد حياتنا الدنيا، والثانية حين ينفخ في الصور يوم البعث.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ فيه دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، إلا ما دلّ الدليل على تحريمه ونجاسته، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: علا وارتفع، أو بمعنى: قصد، لأنه عدي بـ(إلى)، فالله تعالى علا وارتفع. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾، كقول القائل: استوى فلان على سريره أي: عُلوَّه عليه، قال بعض السلف: إذا عدي

الاستواء بـ (إلى) فمعناه قصد بإرادته، وإذا عدي بـ (على) فمعناه علا واستقر، وإذا قرن بالواو فمعناه تساوى، وإذا جرد في الحروف فمعناه الكمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

قال الشاعر:

وَقَدْ حَلَّقَ النَّجْمُ الْيَمَانِيُّ فَاسْتَوَى

أي: ارتفع وعلا، قال مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: هَيَّأَهُن وأتم خلقهن، ودبَّرهن وقومهن وحبكهن، وأجرى في بعضهن شمسه، وقمره، ونجومه، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، والتسوية في كلام العرب: التقويم، والإصلاح، والتوطئة، كما يقال: سَوَّى فلان لفلان هذا الأمر، إذا قوّمه وأصلحه ووطَّأه له.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ فيه دلالة على أن الله يتكلم، ويقول بلفظ وصوت، متى شاء، وكيف شاء، وبما شاء، وقد جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ». رواه البخاري وأصله عند مسلم.

قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وهم عباد مكرمون خلقوا من نور، وأصل الملاك الرسالة، وسميت الملائكة بالرسل؛ لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه.

قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: يسكنها ويعيش فيها، ويخلف بعضهم بعضًا، من قولك

خلف فلان فلانًا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ويقال: خلف الخليفة يخْلف خِلافة وخِلِّيفَى، بمعنى: الخلافة، ويدخل في ذلك من يكون بينهم من هو خليفة عليهم يقيم فيهم حكم الله.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ أي: قالت الملائكة على سبيل الاستفهام والاسترشاد والاستخبار والاستكشاف؛ للحكمة وطلبِ العلم، لا على وجه الاعتراض والإنكار، وقد أخبروا بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. وأصل التسبيح: التنزيه. وأصل التقديس التطهير والتعظيم، ومنه ومنه قوله ﷺ في ركوعه وسجوده كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ». رواه مسلم.

وأولى التأويلات: أن الله تعالى أخبر الملائكة بأن ذرية الخليفة يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، ولم يأت في السياق لدلالة السياق عليه.

قوله: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ أي: سجود تحيةٍ، وطاعة لله وامتثالًا لأمره؛ لا عبادةً له، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ وقد كان مشروعًا في الأمم الماضية، ثم نسخ في ملة الإسلام، قال ﷺ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ؛ لِمَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ». رواه أبو داود بسند جيد من حديث قيس بن سعد رضي الله عنه. ثم إنه يقال: السجود لآدم طاعة لله وامتثالًا لأمره لا عبادة لآدم.

وجاء عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ آدَمُ رَجُلًا طُوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ». رواه الحاكم بسند حسن. وقال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا...فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ». متفق عليه.

قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: إلا إبليس لم يكن من الساجدين، ولم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن، وهو أصلهم، كما أن آدم أصل الإنس، وإنما ألحق بهم؛ لأنه مُتَشبهٌ بأفعالهم، ومتصنعٌ بأوصافهم؛ فَذُكر من جملتهم تبعًا، قال ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها: «خُلِقَتْ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَار، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». رواه مسلم.

وإبليس: من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندم والحزن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من الخير، نادمون حزنًا. وأبلس الرجل: سكت غمًا وانكسر وتحيَّر ولم ينطق.

فإن قيل: ما أبرز المحاب التي أرادها الله تعالى من خلق إبليس؟

فالجواب:

١- حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت.

٢- حصول الخوف والحذر من سطوة الله، والاعتبار بما حصل لإبليس.

٣- استخراج ما في طبائع البشر من الشر؛ فإبليس يستخرج بإذن الله ما في قلوب أهل الشر.

٤- ظهور الآيات والعجائب بسبب الكفر والشر وطاعة إبليس، كآية الطوفان، والريح، وانقلاب النار على إبراهيم عليه السلام بردًا وسلامًا.

قوله: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: حواء، ويقال: لامرأة الرجل: زوجه وزوجته.

قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي: عيشًا هنيئًا واسعًا، يقال: أرغد فلان، إذا تحقق له ذلك.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا﴾ أي: استزلهما، من زلَّ الرجل في دينه إذا أخطأ، والزلل حصل بعد قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾، وكان ذلك عن طريق الوسواس، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: آدم وحواء، يقال: هبط فلان أرض كذا إذا حَلَّ.

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضع الاستقرار والمنْزل.

قوله: ﴿وَمَتَـٰعٌ﴾ أي: ما يُستمتع به. وقد قيل: متاعٌ قليلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِق.

قوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: الموت، أو قيام الساعة لمن يقول: إن المستقر القبور، ويقال للوقت البعيد والمدة: الحين، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، ويقال: للساعة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾، ويقال: للغدوة والعشية، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ ألهمه إياها، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾، فدعوا بها فاجتباهما، وقَبِلَ دعاءهما.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ

وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يا بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وكان له اسمان، وهو بمعنى: عبد الله، وقد نُسبوا إلى يعقوب عليه السلام، كما نسب ذرية آدم إلى آدم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، ونعمته عليهم: ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ أي: ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وبقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي: أول من يكفر به؛ لأن مَنْ خلْفكم تبعٌ لكم؛ فإثمهم عليكم.

قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾ أي: لا تخلطوا، قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: خلطنا عليهم ما يخلطون.

تَـرَى الْجَلِـيسَ يَقُـولُ الْحَـقَّ تَحْسَـبُهُ ... رُشْـدًا وَهَيْهَـاتَ فَـانْظُرْ مَـا بِـهِ الْتَبَسَـا
صَـــدِّقْ مَقَالَتَـــهُ وَاحْـــذَرْ عَدَاوَتَـــهُ ... وَالْـبَسْ عليـه أمـورا مثـل مـا لبسـا

قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أداؤها بحدودها وفروضها وخشوعها وتلاوتها، كما قال ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي». رواه البخاري من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه. والصلاة في كلام العرب: الدعاء، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

وتطلق الصلاة على الرحمة، ومنه: «اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ»، وتطلق على العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾، وتطلق على القراءة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا

تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، وسُميت الصلاة الشرعية بذلك لأن المصلي متعرض لاستنجاح مطلبه من ثواب الله تعالى بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجاته، مثل ما يتعرض الداعي بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤاله.

قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزكاة أصلها: نماء المال وزيادته، يقال: زكا الزرع، إذا كَثُر، ويقال لها: زكاة؛ لأنها تزكي ما بقي من المال، وتطهِّره إن كان فيه مظلمة لأحد، قال تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ يعني: بريئة وطاهرة من الذنوب.

قوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: اخضعوا لله بالطاعة، مِن: ركع فلان لكذا وكذا، إذا خضع له.

وفي هذه الآية دليل على وجوب صلاة الجماعة في المسجد الذي يؤذن فيه، فـ (مع) تقتضي المعية والجماعة، قال جماعة من أهل التفسير: الأمر بالصلاة أولًا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: (مع) شهود الجماعة، وقد جاء عن أبي الدرداء ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ إِلاَّ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ الْمُنَادِيَ فَلَمْ يَمْنَعْهُ مِن اتِّبَاعِهِ عُذْرٌ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ الصَّلاَةُ الَّتِي صَلَّى». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أُبَيِّ بن كعب ﵁ قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا الصُّبْحَ، فَقَالَ: أَشَاهِدٌ فُلاَنٌ؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: أَشَاهِدٌ فُلاَنٌ؟ قَالُوا: لاَ. إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلاَتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَيْتُمُوهُمَا وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكَبِ، وَإِنَّ الصَّفَّ الأَوَّلَ عَلَى مِثْلِ صَفِّ الْمَلاَئِكَةِ، وَإِنَّ صَلاَةَ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَى مِنْ صَلاَتِهِ وَحْدَهُ، وَصَلاَتُهُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَى مِنْ صَلاَتِهِ مَعَ الرَّجُلِ، وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى». رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿۞أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ استفهام توبيخ وذم، والمراد هنا: ذمُّهم على تركهم للبر، لا على أمرهم بالبر مع تركهم له؛ لأن الأمر بالمعروف واجب، ولكن معه واجب آخر وهو فعل المأمور به، كما قال تعالى عن شعيب ﵇: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، والقيام بالواجبين هو الكمال. وقال أبو الدرداء ﵁: «لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللهِ، ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا». رواه عبد الرزاق بسند صحيح.

والإخلال بأحدهما هو ذم من وجه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، قال سعيد ابن جبير: لو كان المرء لا يأمر

بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء؛ ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. قال مالك: وصدق، من ذا الذي ليس فيه شيء؟ قال أبو الأسود:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة.

قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: اطلبوا العون بالصبر، وهو: منع النفس محابها، وكفُّها عن هواها، ولذلك قيل للصابر على المصيبة: صابر؛ لكفه نفسه عن الجزع، وقيل لشهر رمضان: شهر الصبر؛ لصبر صائميه عن المطاعم والمشارب نهارًا، كما تُصَبِّر الرجل المسيء للقتل فتحبسه عليه حتى تقتله، ولذلك قيل: قتل فلان فلانًا صبرًا، أي: حبسه عليه حتى قتله، فالمقتول مصبور، والقاتل صابر، والصبر إنما يكون على طاعة الله، وعلى المصائب التي من عند الله، وعن محارم الله، قال سعيد بن جبير: الصبر: اعتراف العبد بما أصيب فيه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى فيه إلا الصبر.

وعن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قُلْتُ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ». رواه أحمد بسند حسن.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ الله عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ». حديث حسن، رواه البزار.

قال الإمام ابن تيمية: أقسام الناس في الصبر: منهم من يكون فيه صبره بقوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القوة والجزع، ومنهم من يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس وهو المؤمن المحمود.

وقد جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وجدنا خير عيشنا في الصبر. رواه أحمد في الزهد وصححه ابن حجر.

وأما الصلاة فهي الإقبال على الآخرة، ورفض الدنيا، وهجر النعيم، وكل ذلك يسلي النفوس، وينسي الهموم والأحزان، وكان رسول الله ﷺ: «إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى». رواه أبو داود بسند حسن من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحّى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾. رواه ابن جرير وحسنه ابن حجر.

وقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه بذلك بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، وخصت بذلك: تنويهًا بذكرها، وهي

من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة، وقيل: الصلاة والصبر؛ ولكنه كنى الأغلب وهو الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فرد الكناية إلى الفضة؛ لأنها الأغلب، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فردّ الكناية إلى التجارة؛ لكونها الأغلب والأهم، وقيل: للاستعانة أو الوصية، وهو الأرجح، والله أعلم، كقوله تعالى في قصة قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: ما يلقى هذه الوصية.

قوله: ﴿لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ أي: لشديدة شاقة ثقيلة؛ إلا على الخاشعين، وأصل الخشوع: التواضع والتذلل.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: يوقنون، والعرب تسمي اليقين ظنًا، والشك ظنًا، كما يسمون المغيث والمستغيث صارخًا، قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: أيقنوا، وقال تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: إني فضلت أسلافكم، فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء، والنعم عند الآباء نعمًا عند الأبناء؛ لكون الأبناء من الآباء، وأخرج جل ذكره قوله: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ مخرج العموم، وهو يريد به خصوصًا؛ لأن المعنى: وإني فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهريه وفي زمانه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وهذا الاختيار لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردة، وهم أبغض خلقه إليه، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فهم كانوا خير البشر في زمانهم بتمسكهم بشرع الله وتوحيده، فلما بدّلوا وغيّروا وفسقوا غضب الله عليهم، وأحلّ نقمته عليهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

ولا شك أن أمة محمد ﷺ أفضل من أمة بني إسرائيل بنص القرآن، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، وجاء في حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ». رواه الترمذي بسند حسن.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تغني، والجزاء في كلام العرب: القضاء والتعويض، يقال: جزيته قرضَه بمعنى: قضيته دينه، ومن ذلك: جزى الله عني فلانًا خيرًا أو شرًا، بمعنى: أثابه وقضاه عني، وقيل: أجزى، بلا همز: قضى، وأجزأ، بالهمز: كافأ، والمعنى: لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، وقال: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، ومن السنة ما جاء في حديث معاذة: «أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ: أَتَجْزِي إِحْدَانَا صَلاتَهَا إِذَا طَهُرَتْ؟». متفق عليه. أي: تقضي إحدانا، وفي حديث البراء ﵁ عند الشيخين في قصة أبي بردة ﵁: «وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ». أي: لن تغني.

قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ يعني: من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

أما للمؤمنين: فقد دلت الأخبار الصحيحة على ثبوتها للرسول ﷺ، وللملائكة، وللمؤمنين، قال ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنْ شَاءَ اللهُ- أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ». متفق عليه من حديث أبي هريرة ﵁، وفي رواية لمسلم: «فَهِيَ نَائِلَةٌ -إِنْ شَاءَ اللهُ- مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا». وفي حديث أبي سعيد الخدري ﵁ عند الشيخين: «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلائِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ».

قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فدية، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ

جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾

قوله: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم﴾ أي: نجاة آبائهم، وهي نجاة لهم.

قوله: ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: أهل دينه وقومه وأشياعه، قال تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وأصل (آل) أهل، فأبدلت الهاء همزة، و (فرعون) قيل: إنه اسم ذلك الملك بعينه، وقيل: إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة بمصر، مثل كسرى للفرس، وقيصر للروم، والنجاشي للحبشة، وتُبّع لمن ملك اليمن، وبطليموس لمن ملك الهند، وكل عاتٍ فهو فرعون، والعتاة: الفراعنة، وذو فرعنة: أي دهاء ومكر.

قوله: ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ أي: يذيقونكم على الدوام.

قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أشده.

قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ﴾ أي: اختبار وامتحان، والبلاء قد يكون بالخير، وقد يكون بالشر، والأكثر بالشر، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وقال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾.

وقد جاء البلاء بالنعمة، قال تعالى: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾.

قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة.

قوله: ﴿وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ نعت ووصف للتوراة، فهي الفصل بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ فالعطف هنا: للبيان والتفسير. قال الشاعر:

وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا

وقال آخر:

وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ

قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ نظير: لعلكم تتقون، وتشكرون، أي: لتهتدوا.

قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ أي: خالقكم، والبرية: الخلق، وهو من: برأ الله الخلق يبرؤ، فهو بارئ، وقيل: هي مأخوذة من البرى، وهو التراب، وقيل: مأخوذة من قولك: بريت العود، فلذلك لم يهمز.

قوله: ﴿جَهۡرَةٗ﴾ أي علانية عيانًا، يطلع عليهم، ومنه الجهر بالقراءة وهو ظهورها، والمجاهرة بالمعاصي: أي: المظاهرة بها، ولذلك قيل: جاهر فلان بهذا الأمر مُجاهرة وجهارًا: إذا أظهره وأعلنه.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أي: أحييناكم من بعد موتكم، وأصل البعث: إثارة الشيء من محلِّه، ومنه قيل: بعث فلان راحلته، إذا أثارها من مبركها لتسير، وقيل: بعثت فلانًا لحاجتي، إذا أقمته من مكانه الذي هو فيه للتوجه فيها، ومن ذلك قيل ليوم القيامة: يوم البعث؛ لأنه يوم يثار الناس فيه من قبورهم لموقف الحساب، وفي ذلك احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، وكانت هذه الموتة ثم الحياة للسبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿ٱلْغَمَامَ﴾ جمع غمامة، وهو ما غم السماء فألبسها من سحاب، وكل مغطى تسميه العرب مغمومًا.

قوله: ﴿ٱلْمَنَّ﴾ أي: نِعَمٌ مَنَّ الله بها عليهم، ومن ذلك: الكمأة، قال ﷺ كما في حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عند الشيخين: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». وفي رواية لمسلم: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُوسَى».

وعن قتادة قال: حُدِّثْتُ أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: «أَخَذْتُ ثَلَاثَةَ أَكْمُؤٍ أَوْ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا فَعَصَرْتُهُنَّ فَجَعَلْتُ مَاءَهُنَّ فِي قَارُورَةٍ فَكَحَلْتُ بِهِ جَارِيَةً لِي فَبَرَأَتْ». رواه الترمذي، وقال ابن حجر: إسناده صحيح إلى قتادة.

قوله: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طير يشبه الحمام، لذيذ الطعم، أكله يذهب الحزن، وقيل: العسل، والأول عليه جمهور المفسرين.

قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: لا تضرُّه معصية عاص، ولا يتحيَّف خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عدل عادل. وقد جاء في حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله: ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: بيت المقدس، قال مجاهد: وله بابٌ اليوم يسمى بباب حطة، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

قوله: ﴿سُجَّدًا﴾ يعني: راكعين منحنين، وأصل السجود: الانحناء لمن سجد له معظمًا بذلك، فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له فهو ساجد له.

قوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: من قول القائل: حَطَّ الله عنك خطاياك، فهو يحطها حِطة، والمعنى: احطط عنا خطايانا، أو تب علينا. فبدلوا وخالفوا ولو قالوها لحُطت أوزارهم، قال النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ». متفق عليه.

قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: نستر عليكم فلا نفضحكم، وأصل الغفر التغطية والستر، فكل ساتر شيئًا فهو غافره، وفي ذلك قيل للبيضة من الحديد التي تتخذ جُنة للرأس: مغفر، ومثله غمد السيف، وهو ما تغمدَّه فواراه.

قوله: ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابًا، ومنه الطاعون، قال ﷺ كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه: «رِجْزٌ، أَوْ عَذَابٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ، ثُمَّ بَقِيَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ، فَيَذْهَبُ الْمَرَّةَ وَيَأْتِي الْأُخْرَى، فَمَنْ سَمِعَ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا يُقْدِمَنَّ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ بِأَرْضٍ وَقَعَ بِهَا فَلَا يَخْرُجْ فِرَارًا مِنْهُ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تفسدوا. وقيل: لا تسعوا، والأول أصح. وقوله: ﴿مُفْسِدِيْنَ﴾ حال، وتكرر المعنى تأكيدًا لإخلاف اللفظ؛ لأن أصل العثا: شدة الإفساد، يُقال: عَثِيَ فلان في الأرض: إذا تجاوز في الإفساد غايته.

قوله: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي: المَنُّ والسلوى.

قوله: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ أي: كل نبات ما له ساق، كالبصل والكراث، قال جابر رضي الله عنه: «أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِدْرٍ فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ فَوَجَدَ لَهَا رِيحًا، فَسَأَلَ، فَأُخْبِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبُقُولِ، فَقَالَ: قَرِّبُوهَا. -إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ-، فَلَمَّا رَآهُ كَرِهَ أَكْلَهَا؛ قَالَ: كُلْ؛ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي». متفق عليه.

قوله: ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ أي: الخيار، قال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ الرُّطَبَ بِالْقِثَّاءِ». متفق عليه. وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ الْبِطِّيخَ بِالرُّطَبِ، فَيَقُولُ: نَكْسِرُ حَرَّ هَذَا بِبَرْدِ هَذَا، وَبَرْدَ هَذَا بِحَرِّ هَذَا». حديث صحيح رواه أبو داود. وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ

اللهِ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرُّطَبِ وَالخِرْبِزِ». رواه النسائي في الكبرى بسند صحيح. والخربز: نوع من البطيخ.

قوله: ﴿وَفُومِهَا﴾ أي: الحنطة، وقيل: الثوم.

قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أخس وأوضع وأصغر قدرًا، وهو من قولهم: هذا رجل دنيءٌ بيِّن الدناءة، وإنه ليُدني في الأمور بغير همز، إذا كان يتبع خسيسها، وقد ذكر الهمز عن بعض العرب، يقولون: ما كنت دانئًا، ولقد دنأت.

قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ أي: انزلوا أي بلدة من البلاد، أو مصرًا من الأمصار يوجد فيه ما سألتم؛ لأنهم كانوا في البوادي والفيافي.

قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أي: فرضت عليهم وألزموها، من قول القائل: ضرب الإمام الجزية على أهل الذمة.

قوله: ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: الهوان والصغار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ وقد كان رسول الله ﷺ يقول كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ». حديث صحيح رواه أبو داود.

قوله: ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الفاقة والحاجة والاستكانة، فصار العز ذلًا، والنعم بؤسًا، والرضا غضبًا، وأُلزموا ذلك كله شرعًا وقدرًا وقضي عليهم به، فلا يوجد اليوم يهودي وإن كان غنيًا خاليًا من زِيِّ الفقر وخضوعه ومهانته، وكل من وجدهم استذلهم وأهانهم.

قوله: ﴿وَبَآءُو﴾ أي: انقلبوا ورجعوا، ومنه قوله تعالى عن ابن آدم: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال ﷺ كما في حديث سيد الاستغفار الذي رواه البخاري من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». أي: أُقرُّ بها وأُلزمها نفسي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ثبتوا على إيمانهم وتركوا تبديله.

عن مجاهد قال: قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَهْلِ دِينٍ كُنْتُ مَعَهُم، فَذَكَرَ مِنْ صَلاتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾». رواه ابن أبي حاتم، وصححه ابن حجر.

وعن مُجَاهِدٍ قَالَ: «لَمَّا قَصَّ سَلْمَانُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قِصَّةَ أَصْحَابِ الدَّيْرِ قَالَ: هُمْ فِي النَّارِ. قَالَ سَلْمَانُ: فَأَظْلَمَتْ عَلَيَّ الْأَرْض فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْزَنُونَ﴾ قَالَ: فَكَأَنَّمَا كُشِفَ عَنِّي جَبَلٌ». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: اليهود، أتباع موسى عليه السلام، سُموا بذلك لأنهم قالوا: إنَّا هُدنا إليك أي: تُبنا، وقيل: لنسبتهم إلى يهود، أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، أو لأنهم يتهودون: يعني يتحركون عند قراءة التوراة.

قوله: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أي: أتباع عيسى عليه السلام، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، أو لأنهم نزلوا أرضًا يقال لها: ناصرة، أو لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ قومٌ لا دين لهم، يعتقدون تأثير النجوم، خرجوا من دين أهل الكتاب لَمَّا ظهر لهم تحريفه، ومعهم أصل التوحيد، وقيل: إنهم جملة من فرق النصارى، والصابئ في اللغة: من خرج ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: صابئ، ومعنى الآية إضافة إلى ما سبق في سبب النزول أن هؤلاء جميعًا إذا آمنوا بالرسول ﷺ وبما جاء به لا يضرهم ما كانوا عليه قبل ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: العهد المؤكد بيمين ونحوه، فكل واحد منهم أُخِذَ عليه الميثاق بمفرده، وهذا الميثاق هو الذي أخبر الله ﷻ عنه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: الجبل الذي ناجى الله موسى عليه في سيناء، وقد أقسم الله ﷻ به بقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾، وبقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾، ورَفْعُهُ مُفَسَّرٌ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَ﴾ وقد أخذه الله ﷻ من أصله ورفعه فوقهم كأنه سحابة.

قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القوة هنا: الجدِّية في الأداء، والاجتهاد من غير تقصير ولا توان، والاستجابة التامة لوعده ووعيده.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ أي: تجاوزا الحد في كل شيء، ومعناه هنا: ركبوا ما نهوا عنه في يوم السبت، وهو يوم أخذ عليهم تعظيمه وهو يوم عيدهم، فلا يحلّ لهم فيه اصطياد الحيتان، قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾. فصاروا بسبب اعتدائهم مطرودين ذليلين، قال الشاعر:

كَالْكَلْبِ إِنْ قُلْتَ لَهُ اخْسَأ انْخَسَأ

يعني: إن طردته انطرد ذليلًا صاغرًا. قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾، ولا يصح أن يقال لليهود: أبناء القردة والخنازير، وإنما يقال لهم: إخوان القردة والخنازير؛ لأن النبي ﷺ قال كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ». رواه مسلم. وعن مجاهد فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ قَالَ: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ تَحْتَ حُصُونِهِمْ، فَقَالَ: يَا إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَيَا إِخْوَانَ الْخَنَازِيرِ وَيَا عَبَدَةَ الطَّاغُوتِ». رواه ابن جرير.

قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا﴾ أي: عقوبة وعبرة لمن بين يدي أهل القرية قال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ لأنهم يسمعون فيعتبرون، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ». رواه ابن بطة، وجوده ابن تيمية.

قوله: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾ أي: سخرية ولعبًا.

قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾ أي: لا مسنة ولا هرمة.

قوله: ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾ أي: ولا صغيرة لم تلد.

قوله: ﴿عَوَانُۢ﴾ أي: وسط أو نصف، وهي التي قد ولدت بطنا أو بطنين.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ﴾ أي: الصفرة المعروفة، وقيل: سوداء، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ أي: سود.

قوله: ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ أي: خالص شديد لونها، ليس فيها سوى لون جلدها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا

ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ
مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ
يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا
بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦

قوله: ﴿تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ أي: تلتبس علينا لكثرتها؛ فلم نهتد إلى البقرة المقصودة.

قوله: ﴿لَّا ذَلُولٞ﴾ أي: غير مذللة بالعمل.

قوله: ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ أي: سليمة من جميع العيوب.

قوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ أي: لا لون فيها سوى لونها، كقولهم: فاقع لونها.

والقصة أنه قُتِل رجل من بني إسرائيل فاختلف في قاتله، واختصموا من أجله، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾، فأتوا موسى عليه السلام؛ فأوحى الله إليه ما أوحى، فأمرهم موسى عليه السلام بذلك، فشدَّدُوا على أنفسهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل لَوْ أَخَذُوا أَدْنَى بَقَرَة فَذَبَحُوهَا لَكَفَتْهُمْ، وَلَكِنْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ الله عَلَيْهِمْ». رواه ابن جرير، وصححه ابن حجر.

وقد ذكر الله عز وجل إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع: أولها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾، ثم هذه الآية، ثم قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، ثم قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة.

قال ابن تيمية: وطرق القرآن في بيان إمكان المعاد تارة يخبر عمن أماتهم ثم أحياهم، وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الأولى، فإن الإعادة أهون من الابتداء، وتارة يستدل على ذلك بخلق السماوات والأرض، فإنَّ خلقهما أعظم من إعادة الناس، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾، وتارة يستدل على إمكانه بخلق النبات، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله: ﴿أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ (أو) بمعنى الواو، فيكون التقدير: كالحجارة وأشد قسوة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾، وتأتي بمعنى (بل)، فيكون التقدير: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بما عرَّفكم الله به في

التوراة من نعت محمد ﷺ، وبما حكم عليكم به إن لم تؤمنوا به، وأصل الفتح: النصر، والقضاء، والحكم، ويُقال منها: اللهم افتح بيني وبين فلان، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي: احكم بيننا.

قوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ﴾ جمع أُمِّي، وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، وقال النبي ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسُبُ». متفق عليه. أي: لا نقتصر في عبادتنا ومواقيتها على كتاب ولا حساب، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾

قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: تخرص الكذب، واختلاق الأباطيل، وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: إلا تلاوة، فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعًا، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: تلا. وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

قوله: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يَشُكُّون، وهو خلاف العلم، قال تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾.

قوله: ﴿فَوَيۡلٞ﴾ أي: هلاك ودمار، وقيل: الفضيحة والخزي، وهي كلمة مشهورة في اللغة تستعمل في الشر والعذاب.

قوله: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: تكذيب من الله ﷻ للذين قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا﴾ وإخبار منه لهم أنه معذب من أشرك به، والشرك هو السيئة والخطيئة الوحيدة التي تحيط بالعبد ويموت عليها فتهوي به في النار خالدًا مخلدًا، لأن الإحاطة: هي الإحداق بالشيء، قال تعالى:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾، أما غيرها من الكبائر والصغائر فهي سيئات وخطايا، لكن لا تحيط بالعبد، وقد قال تعالى في موضعين من كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، والأخبار النبوية تواترت وتظاهرت بأنهم غير معنيين بهذه الآية؛ ولذا فالذي عناهم الله عز وجل في هذه الآية: هم أهل الشرك والكفر الذين ماتوا على ذلك بشهادة جميع الأمة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله: ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ أي: تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم، وهو فعل مضارع حذف منه أحد التائين، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره إلى الآخر، لتقوية بعضهم ظهر بعض، والظهير: المعين؛ فهم كانوا يعاونون أهل الشرك على سفك دماء أهل ملّتهم وإخراجهم من ديارهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقًا لما في التوراة وأخذًا بها، وفي حكم التوراة: أن لا يُقتل ولا يُخرج أحد من داره ولا يظاهر عليه، ابتغاء عَرضٍ من أعراض الدنيا.

قوله: ﴿خِزْيٌ﴾ أي: ذل وهوان وصغار.

قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي: اتبعنا بعضهم بعضًا على منهاج واحد وشريعة واحدة، فكل من بعث بعد موسى عليه السلام إلى زمان عيسى عليه السلام فإنما بعث بإقامة التوراة والعمل بما فيها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج والدلائل على نبوته من: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلقِه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، والإخبار بكثير من الغيوب مما يدخرون في بيوتهم، ومن البينات: إيتائه الإنجيل إضافة إلى فهم ما تضمنته التوراة.

قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: جبريل عليه السلام، وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا

فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فعطف إتيانه الكتاب على تأييده بجبريل عليه السلام، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، وقد قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ -يعني حسان- بِرُوحِ القُدُسِ». متفق عليه. وسمي بروح وأضيف إلى القدس، لأنه روح من عند الله من غير ولادة والد ولده، والقدس: الطهر. وَقَالَ حَسَّانُ:

وَجِبْرِيـــلُ رَسُـــولُ اللهِ فِينَـــا ... وَرُوحُ الْقُـــدُسِ لَـــيْسَ بِـــهِ خَفَـــاءُ

قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، وهو الرجل الذي لم يختتن، والمرأة: (غلفاء)، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾، والغلاف الغطاء، وقلب أغلف: أي مستور عن الفهم والتمييز، والمعنى: أن اليهود يعتقدون أنهم قوم مرفوع عنهم القلم، وأنهم لا يذنبون، لأن قلوبهم مغطاة بأغطية شديدة مانعة من كل ذنب ومعصية، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ليس كما زعموا، ولكن الله أبعدهم من رحمته، ولعن الله: الطرد والإبعاد عن رحمته.

قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: قليلٌ مَن يؤمن منهم. وقيل: فقليل إيمانهم؛ لأنهم آمنوا بموسى وكفروا بمحمد ﷺ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ * وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي: يستنصرون به على مشركي العرب قبل البعثة، يقولون: إذا بُعث النبي الذي أظلنا زمانه سيقتلكم أيها المشركون وسنقاتلكم معه، ويقولون: اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الذين كفروا.

قوله: ﴿بِئْسَمَا﴾ أي: ساء، وهي كلمة ذم وتوبيخ، وهي ضد: نِعِمَّا.

قوله: ﴿بَغۡيًا﴾ يعني: حسدًا، قال تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذًا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾.

قوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾ استوجبوا واستحقوا غضبًا مع غضب، فالغضب الأول: كفرهم الذي كان قبل عيسى عليه السلام لعبادتهم العجل، وتضييعهم التوراة، ثم كفرهم بعيسى، والغضب الثاني: كفرهم بمحمد ﷺ.

قوله: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لأن كفرهم سببه البغي والحسد والكبر، فقوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين ذليلين.

قوله: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: يكذبون ويجحدون بما سِوَى التوراة.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: إلهًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾.

قوله: ﴿وَأُشۡرِبُواْ﴾ أُشرب الشيء: إذا سُقي منه حتى روي، أي: جعلت قلوبهم تشرب حب العجل، الذي خلص إلى قلوبهم فأعماهم وأصمَّهم. وقد قيل:

وَالْحُبُّ يُشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَاءُ

قوله: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ﴾ لأنهم كانوا يقولون: نؤمن بما أنزل علينا، وقد كذّبهم الله عز وجل لأن التوارة تنهى عن ذلك كله وتأمر بخلافه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ خاصة بهم وصافية لا يشاركهم فيها أحد؛ لأنهم قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَوْ تَمَنَّوْا المَوْتَ لَشَرَقَ أَحَدُهُمْ بِرِيْقِهِ، وَلَمَاتُوْا جَمِيْعًا». رواه ابن جرير. وفي رواية عند أحمد: «ولَو خَرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ – يعني: نصارى نجران– لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا». صححها ابن حجر. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وسميت هذه المباهلة: تمنيًا؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولاسيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء حالهم بعد الموت، وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وقد عطفهم معهم، وهو من باب عطب الخاص على العام.

قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّـجِبْرِيلَ﴾ نزلت هذه الآية كما حكاه ابن جرير إجماعًا جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، وقد جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الملائِكَةِ». رواه البخاري. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، وخُصا بالذكر لأن السياق في الانتصار لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقُرن معه ميكائيل؛ لأن اليهود زعموا أنه ولي لهم، فأخبر الله ﷻ أن من عادى أحدهما فقد عادى الآخر، ولأن ميكال ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر، وهي وظيفته، وميكال موكل بالنبات والقطر، ذاك بالهدى، وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل قال: «للَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». رواه مسلم.

قوله: ﴿نَّبَذَ﴾ أي: طرح.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ

ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۚ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: اتبعت اليهود ما تتلوه الشياطين وترويه على ملك سليمان، وعدّاه بـ(على) لأنه تضمن تتلو: تكذب. وقيل: على ها هنا بمعنى في، وذلك أن العرب تضع (في) موضع (على) و(على) في موضع (في) من ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يعني: على جذوع النخل.

وقد روت الشياطين أن سليمان كان يملك الناس ويسيرهم بالسحر ولم يكن نبيًا. فأخبر الله عز وجل بطلان ما قالوه، وأخبر أنهم هم أهل السحر والكفر.

قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ أي: من السحر، فالسحر سحران: سحر تُعلِّمه الشياطين، وسحر يُعلِّمه هاروت وماروت ببابل، وهي أرض بالعراق، وهما ملكان أنزلهما الله إلى الأرض بصورة بشر، وأذن لهما في تعليم الناس أسرار السحر؛ اختبارًا وامتحانًا لعباده بعد أن أخبر على ألسنة الرسل تحريمه، وأمر هاروت وماروت أن يقولا لمن أراد التعليم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

والسحر لغة: عبارة عما لطف ودَق وخفي مأخذه وسببه. قال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا». رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه مسلم من حديث عمار رضي الله عنه.

وهو في الشرع: خِدَعٌ ومخاريق ومعان يفعلها الساحر حتى يخّيل إلى المسحور الشيء أنه بخلاف ما هو به، نظير الذي يرى السراب من بعيد فيخّيل له أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سريعًا يخيل له أنه ما عاين من الأشجار والجبال سائر معه، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ...». متفق عليه. وقال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

والسحر أنواع، منها:

- سحر أصحاب النفوس القوية، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ». متفق عليه. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ؛ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا». رواه مسلم.
- ومنها سحرٌ حاصلٌ بالاستعانة بالجن؛ ويُتحصل بأعمال من الرقى والدخن.

- ومنها سحر التخييل والشعوذة؛ كما هو فعل سحرة فرعون، والسحر الذي يأتي به الدجال.

ومبنى هذا على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء المعين دون غيره. والسحر حقيقة، وهو حق، وفعله من كبائر الذنوب، وذكر بعض السلف أن للعلوم أنواعًا، منها:

أولًا: علمٌ هو حياة الدين والدنيا، وهو علم التوحيد.

ثانيًا: علم هو غذاء الدين، وهو علم التذكر والتدبر لمعاني القرآن والحديث.

ثالثًا: علم هو دواء الدين، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها.

رابعًا: علم هو هلاك الدين، وهو علم السحر ونحوه.

وقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى كفر فاعل السحر، قال تعالى عن الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: نصيب وحظ، وقد جاء في حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكِهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ». رواه البزار بسند جيد من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحدُّ الساحر: ضربةٌ بالسيف، وقد جاء في حديث بَجَالَةَ، قَالَ: «كُنْتُ كَاتِبًا لِجَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ -عَمِّ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ- إِذْ جَاءَنَا كِتَابُ عُمَرَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ: اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ. فَقَتَلْنَا فِي يَوْمٍ ثَلَاثَ سَوَاحِرَ». رواه أبو داود بسند صحيح. فإن تاب قَبْل ذلك قُبلت توبته، وقد جاء عن عمرة قالت: «اشتكت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فطال شكواها، فقدم إنسان المدينة يتطبب، فذهب بنو أخيها يسألونه، عن وجعها، فقال: والله إنكم تنعتون نعت امرأة مطبوبة. قال: هذه امرأة مسحورة، سحرتها جارية لها. قالت: نعم أردتُ أن تموتي فَأُعْتَق، قال: وكانت مدبرة، قالت: بيعوها في أشد العرب مَلَكَةً، واجعلوا ثمنها في مثلها». رواه أحمد بسند صحيح.

ويدفع السحر بالمعوذات، وآية الكرسي، وسورة البقرة عمومًا، وقد دلَّ على ذلك حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾». رواه مسلم. وفي حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ سَلَّامٍ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ». رواه مسلم.

وعن سعيد بن المسيب قال: لا بأس بالنشرة، إنما هي عما يضر، ولم ينه عما ينفع. وذكر الأثرم في سننه، وأبو عمر ابن عبد البر عن سعيد في الرجل يؤخذ عن امرأته فيلتمس من يداويه. وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإذن الكوني، قال ابن القيم: والإذن نوعان: إذن كوني كما في هذه الآية، وإذن شرعي كقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ أي: من المراعاة وهي الإنظار والإمهال، ولكن اليهود حرَّفوها، فجعلوها كلمة مَسَبَّة واستهزاء، من قولهم للنبي ﷺ: يا أرعن، مشتقة من الرعونة وهي (الحمق)، وتحريف الكلام صفة أصيلة من صفات اليهود، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾، ثم أمر الله عز وجل أن يختاروا لخطاب نبيه أحسن الألفاظ وأرقى المعاني، وراعنا فيها احتمال معنى أرعنا نرعك حتى نسمع منك وتسمع منا، ونفهمك وتفهم عنا.

وأما ﴿ٱنظُرْنَا﴾ فهي إفراد المسألة للرسول ﷺ لينتظرهم ويمهلهم ليعقلوا عنه بتبجيل منهم له وتعظيم، فلا فظاظة ولا غلظة ولا جفاء ولا تجهم.

قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ أي: ما يحب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أصل النسخ: النقل والإزالة، والمعنى: نرفع حكم شرعي ونبدله بحكم آخر، وهذا في الأمر والنهي، وأما الأخبار فلا يكون فيه ناسخ ولا منسوخ، وقد ذهب علماء الأصول إلى أن النسخ هو رفع حكم بدليل شرعي متأخر.

قُرئت ﴿نُنسِهَا﴾ أيضًا (ننسأها)، فالأولى من النسيان، والثانية من التأخير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، وقد فرض الله قيام الليل ثم نسخ، وفرض عليهم صيام أيام معدودات ثم نسخن بصيام

شهر رمضان، وهكذا، وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ -وَفِي رِوَايَةٍ: لَحْنِ- أُبَيٍّ؛ وَذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ: لَا أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ! وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾». رواه البخاري. وفي حديث أبي العلاء بن الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْسَخُ حَدِيثُهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَمَا يَنْسَخُ الْقُرْآنُ بَعْضُهُ بَعْضًا». رواه مسلم.

قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أتريدون، استفهام. أو: بل تريدون.

وفيه نهيٌ وتحذير للمسلمين أن يقتدوا باليهود، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». متفق عليه. وفي حديث سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». متفق عليه. كما أنهم نهوا عن أسئلة التعجيز، كسؤال اليهود موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، وسألت قريش رسول الله ﷺ أن تأتيهم آية، أو يكلمهم الله، وأما سؤال التعلم فقد أمر الله به وأقرهم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، وقوله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ونحو ذلك.

قوله: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وسطه، والسبيل: الطريق الواضح.

قوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وقد جاء في حديث أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ اللهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ». رواه البخاري.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قوله: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: تذلل وأذعن وخضع، وإنما سمي المسلم مسلما لخضوع جوارحه لطاعة ربه. قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا

وخص الوجه لأنه أكرم أعضاء ابن آدم، وكانت العرب تذكر الشيء فتضيفه إلى وجهه، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾، وقد جمعت هذه الآية شرطي القبول، وهما:

الإخلاص لله وحده قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

والشرط الثاني: وهو محسن، يعني: موافقته للشريعة، بمتابعته للرسول ﷺ، قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ». متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾، قال ابن القيم: أقسام الناس بحسب الإخلاص والمتابعة أربعة:

١. أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهؤلاء أسعد الناس بالحق.

٢. من لا إخلاص له ولا متابعة.

٣. من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر.

٤. مَن أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله، والكل هالك ما عدا القسم الأول.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: كفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها الميثاق على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وقالوا: ليس النصارى على دين صحيح، فدينهم باطل، وكفر النصارى بموسى، وقال النصارى في

اليهود مثل ذلك، وقد فعلوا ذلك عن علم، عنادًا وكفرًا.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: كل جاهل مكابر، بما في ذلك مشركو العرب فقد قالوا: ليس محمد ﷺ على شيء.

قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قال الإمام ابن تيمية في منهاج السنة:

أولًا: اختلفوا في اليوم الذي يكون فيه الاجتماع، فاليهود لهم السبت، والنصارى لهم الأحد، بعد أن عدلوا عن الجمعة التي هدانا الله لها.

ثانيًا: اختلفوا في القبلة، فمنهم من يصلي إلى المشرق، ومنهم من يصلي إلى المغرب وكلاهما مذموم.

ثالثًا: اختلفوا في إبراهيم، فاليهود قالوا: يهوديًا، والنصارى قالوا: نصرانيًا.

رابعًا: اختلفوا في عيسى فاليهود جعلوه ابن بغية، والنصارى جعلوه إلهًا.

خامسًا: اختلفوا في الكتب، فآمن هؤلاء ببعض، وهؤلاء ببعض.

سادسًا: اختلفوا في الدين، فأخذ هؤلاء دينًا، وهؤلاء دينًا.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: لا أحد أشد تعديًا وجرأة على الله، وخلافًا لأمره.

والمساجد: كل موضعٍ عُبِدَ اللهُ فيها ركوعًا وسجودًا.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ حسيًا: بهدمها أو تنجيسها أو إهانتها، ومعنويًا: بمنع روادها من العبادة فيها.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي لا تمكنوا هؤلاء الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها من دخولها إذا قدرتم على ذلك إلا تحت الهدنة والجزية، وهو خبر بمعنى الطلب، وهذه الآية بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وقد أنجز الله وعده ونصر عباده.

قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الخزي: الهوان والذلة، ومنه أداء الجزية، والعار والقتل والصغار، وقد جاء في حديث بسر بن أرطأة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَدْعُو اللَّهُمَّ: أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ». حديث حسن، رواه أحمد.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: ربهما ورب ما بينهما ومالكهما.

قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: هنالك الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾، وفيها إثبات الوجه لله تعالى، وهو وجه يليق بجلاله، لا يشبه الوجوه، عليه من الأنوار ما لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه جميع خلقه، سبحانه، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

وقد جاء في حديث الحارث الأشعري في وصية يحيى بن زكريا -عليهما السلام- لبني إسرائيل: «وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ». حديث صحيح، رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي حَائِطِ الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَاةً فَحَتَّهَا، ثُمَّ قَالَ: إِذَا تَنَخَّمَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَتَنَخَّمْ قِبَلَ وَجْهِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّمَا يُنَاجِي اللهَ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ)، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا)، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى». متفق عليه. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى». متفق عليه. وفي حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟ قَالَ: فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟ قَالَ: فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟ قُلْنَا: لَا أَيُّنَا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ». رواه مسلم.

وفي هذه الآية: التيسير في استقبال القبلة في حالة البعد؛ وذلك لمشقة إصابة عين الكعبة، وقد قال رسول الله ﷺ لأهل المدينة ومن كان بجنبهم كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ». رواه الترمذي بسند جيد. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾». رواه مسلم وأصله عند البخاري. وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: «فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ الْمَكْتُوبَةَ نَزَلَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ». رواه البخاري. فالآية جاءت مجيء العموم، والمراد الخصوص، فهي في حالة السفر مع جهل القبلة، والخوف، والتطوع في السفر مع عدم التمكن من استقبال القبلة، والدعاء، والسجود للشكر والتلاوة والآيات، وأما غير ذلك فخارجة بقوله تعالى: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي: يسع خلقه كلهم بالكفاية، والرعاية، والجود، والأفضال، والتدبير، مع علمه -سبحانه وتعالى- بحاجتهم وما يختلج في صدورهم، ويصلح شأنهم.

قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ وقد أكذبهم الله تعالى: قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ

وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ: فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا». رواه البخاري.

قوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: مطيعون ومقرون له بالعبودية، والقنوت في كلام العرب له معان، منها: الطاعة، والقيام، والكف والإمساك عن الكلام، ولكل معنى شواهده من النصوص القرآنية والنبوية، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾.

قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مبدعهما من غير أصل.

قوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ أي: إذا أحكم؛ فأصل القضاء: الإحكام، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: فصل الحكم فيه بين عباده، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: أخبرناهم وأعلمناهم.

والله تعالى إذا أحكم أمرًا فتممه قال له كن فيكون، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ هم مشركو العرب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، وقال تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾.

قوله: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ يعني: أشبهت قلوبُ مشركي العربِ قلوبَ من قبلهم في الكفر والعناد، كما

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: مبشرًا من أطاعك بالثواب والنعيم المقيم، ومنذرًا من عصاك بالحسرة والعذاب الأليم.

قوله: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ قُرئت: (ولا تسأل) جزمًا بمعنى النهي، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال عن صفة النبي ﷺ: «وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ...». رواه البخاري.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝١٢٣ ۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٢٦﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: أحلّ حلاله، وحرَّم حرامه، واتبعه حق اتباعه، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: اتبعها، ولم يحرِّفه عن مواضعه.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: بمحمد ﷺ، وبالقرآن يقينًا وحتمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾، وقد أثنى الله عز وجل على جملة منهم، وهم أولوا العلم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ

مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ﴾ أي: اختبر وامتحن وكلَّف.

قوله: ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أي: خليل الرحمن، وأبو الأنبياء، ومعنى إبراهيم في العربية: أب رحيم، وقد جاء في حديث سمرة رضي الله عنه الطويل في الرؤيا أنه رأى إبراهيم، قال ﷺ: «وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ». رواه البخاري من حديث سمرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: سنن الإسلام، كالتوحيد، ومناسك الحج، وسنن الفطرة، وقد أجمع العلماء على أن إبراهيم عليه السلام أول من اختتن، قال ﷺ: «اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَتَنَ بِالْقَدُومِ». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: «ابْتَلاهُ اللهُ بِالطَّهَارَةِ، خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ، فِي الرَّأْسِ قَصُّ الشَّارِبِ، وَالْمَضْمَضَةُ وَالاسْتِنْشَاقُ وَالسِّوَاكُ وَفَرْقُ الرَّأْسِ، وَفِي الْجَسَدِ تَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، وَنَتْفُ الإِبطِ، وَغَسْلُ مَكَانِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ». رواه الحاكم بسند حسن.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ مِنْ الفِطْرَةِ، أَوْ الفِطْرَةُ خَمْسٌ: الخِتَانُ، وَالاسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ». متفق عليه. وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنْ الفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ المَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ البَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَحَلقُ العَانَةِ، وَانْتِقَاصُ المَاءِ، وَنَسِيتُ العَاشِرَةَ إِلا أَنْ تَكُونَ المَضْمَضَةَ». رواه مسلم.

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ رَجُلٍ أَقْلَفَ: أَيَحُجُّ بَيْتَ اللهِ؟ فَقَالَ: لاَ، نَهَانِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى يَخْتَتِنَ». رواه ابن أبي شيبة كما في المطالب، وحسنه ابن حجر.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا». رواه الترمذي بسند صحيح.

والكلمات تطلق ويراد بها القدرية، كقوله تعالى عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾، وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾.

قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: أدّاهن تامات، قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: قدوة في الدين، والإمام اسم لمن يؤتم به، وإمامة إبراهيم عليه السلام عامة مؤبدة، إذ لم يُبعث بعده نبي إلا كان من ذريته.

قوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: تكون فيهم إمامة الدين، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته، ولكن أخبره سبحانه أنه سيكون في ذريته ظالمون، لا طاعة لهم ولا مكان لهم، خلافةً، وحكمًا، وإفتاءً، وشهادةً، قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾، وفيها دلالة على أن شرط جميع من كان محل الإئتمام به في أمور الدين: العدالة والصلاح، ومن ذلك الصلاة، فلا يَؤم من كان فاسقًا، أو ظالمًا على وجه الاستمرارية، يعني: يكون إمامًا راتبًا، أما إذا كانت الحالة استثنائية؛ فلا بأس؛ لأن من صحت صلاته صحت إمامته.

قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي: الذي فيه الكعبة.

قوله: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: من ثاب القوم إذا رجعوا، فصار البيت مرجعًا للناس يأتونه كل عام ويرجعون إليه فلا يقضون منه وطرًا، استجابة لدعوة نبيه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

قوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ أي: من الظلم، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: يدفع عنهم السوء بسبب تعظيمهم له، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قال عمر رضي الله عنه: «وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ) مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ (مُصَلًّى! فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾) ...» متفق عليه. ومقام إبراهيم قريب جدًا من بناء البيت، والعرب تعرفه في جاهليتها.

وَمَوطئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ

وقد كانت بادية أصابع رجليه، وأخمص قدميه، وأثر عقبيه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه كما عند الفاكهي في أخبار مكة قال: رأيت المقام فيه أصابعه، وأخمص قدميه، والعقب غير أثر أذهبه مسح الناس بأيديهم. ولا شك أنهم إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، وقد كان المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمين الداخل من الباب، وكان إبراهيم لما فرغ وضعه في هذا المكان؛ لأنه مكان الانتهاء من بناء الكعبة، وإنما أخّره إلى المكان المعروف حاليًا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد أُمِرَت الأمة الإسلامية بالاقتداء به، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان المقام في زمن النبي ﷺ وفي زمن أبي بكر ملصقًا بالبيت، ثم أخّره عمر». رواه البيهقي في الدلائل، وقواه ابن حجر في الفتح.

وقال ﷺ كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه: «اقْتَدُوْا بِاللَذَيْنِ مِن بَعْدِي وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ». رواه الترمذي بسند حسن. وفي حديث أبي قتادة رضي الله عنه، قال ﷺ: «فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا». رواه مسلم. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ». رواه البخاري.

وقد كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من الطواف: «نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ يَقْرَأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَعَهِدۡنَآ﴾ أي: أمرنا.

قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ أي: الكعبة المشرفة، والتطهير: يكون من الأصنام، وعبادة الأوثان، والأذى، والنجاسة، وإضافة البيت إلى نفسه سبحانه إضافة تشريف. قال ابن تيمية: أنواع المضاف إلى الله عز وجل قسمان:

الأول: إضافة صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾.

الثاني: إضافة عين تقوم بنفسها كهذه الآية.

وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ، وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ أي: المقيمين به، والمجاورين له، والعكوف في اللغة اللزوم والإقبال، قال الإمام مالك: الطواف بالبيت لأهل الأمصار أفضل من الصلاة فيه، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقًا.

قوله: ﴿قَالَ﴾ أي: رب العالمين.

قوله: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ أي: أدفعه وأسوقه، قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، ومعنى الاضطرار: الإكراه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾.

قوله: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ الموضع الذي يصير إليه الكافر بالله من عذاب النار.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ

ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ
ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ
مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِىۖ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ أي: جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، وقد جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ؛ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ -وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ-، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعَنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾... وفيه: ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا. وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي -وَفِي رِوَايَةٍ: ضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ-، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾». رواه البخاري.

وأما الحجر الأسود: فقد جاء في الحديث الذي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نَزَلَ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ». رواه الترمذي بسند جيد. وفي رواية عند الطبراني: «لَولا مَا مَسَّهُ مِن رِجسِ الجَاهِلِيَّةِ مَا مَسَّهُ ذُو عَاهَةٍ إلا بَرَأَ». حسنها المنذري.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «الْحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ». رواه أحمد بسند صحيح.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الحَجَر: «وَاللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ

يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ؛ يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ». رواه الترمذي بسند جيد.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ هَذَا الرُّكْنَ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ يُصَافِحُ بِهَا عِبَادَهُ مُصَافَحَةَ الرَّجُلِ أَخَاهُ». رواه ابن أبي عمر كما في المطالب، وصححه ابن حجر.

ووضعه إبراهيم في موضعه الذي هو الآن فيه.

والإضافة في قوله: يمين الله في الأرض. إضافة تشريف كما سبق في قوله سبحانه ﴿بَيْتِيَ﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ أي: جماعة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وتكون الأمة لواحد إذا كان يُقتدى به في الخير، ومنه قوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾، وتطلق على الدِّين والمِلّة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وتطلق على الحين والزمان، قال تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ وتطلق ويراد بها حسن القامة.

قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، وسميت المناسك بذلك لأنها تُعتاد ويُتردد إليها بالحج والعمرة، وقيل: النسك: عبادة الله، والناسك سمي ناسكًا بعبادة ربه، فيكون المعنى: أرنا وعلِّمنا عبادتك كيف نعبدك؟ وأين نعبدك؟ وما يرضيك عنا فنفعله؟

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وكانت الاستجابة لدعوتهما ببعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون، فالدعوة الطيبة تستجاب، ولكنها تتحقق في أوانها الذي يقدره الله بحكمته، وقد جاء في حديث العرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ فِي أُمِّ الكِتَابِ، لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ: دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ: أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ، وَكَذَلِكَ تَرَى أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ». حديث حسن، رواه أحمد.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن.

قوله: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أقوال وأفعال الرسول ﷺ، وهي السنة والفقه فيها، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ يطهرهم من الشرك وعبادة الأوثان.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: المنيع الغالب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾.

قوله: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل.

قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: ما يزهد ويترك ملة إبراهيم إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويفيدها في معادها.

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ الاصطفاء: الاختيار والاجتباء للخلة والإمامة، وكان ذلك بعد أن أجاب ربه تعالى بقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وبعد أن أعلن التوحيد للناس أجمعين بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم وصَّى بنيه بذلك وعهد إليهم وأمرهم به.

قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أكنتم حضورًا؟ وإذا لم يكن كذلك فاعلموا أنه لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مشركًا، إنما هو حنيف مسلم.

قوله: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عَدَّ إسماعيل من الآباء للتغليب؛ ولأن العم بمنْزلة الأب، والعرب لا تمنع أن يجعل الأعمام بمعنى الآباء، والخالات بمعنى الأمهات، وهذا من باب التغليب، وقد استدل بهذه الآية من جعل الجد أبًا فورثه وحجب به الإخوة، كما هو قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما جاء عند البخاري، ولم يختلف عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤١﴾

قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مستقيمًا. متبعًا، مائلًا إلى دين الإسلام. وسمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)؛ لأنه أول إمام لزم العباد الذين كانوا في عصره، أو جاؤوا بعده إلى يوم القيامة اتباعه في مناسك الحج والائتمام به فيه، قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته ولم يشرك بالله فهو حنيف مسلم. قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الْآيَةَ». رواه البخاري.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾. وَفِي رِوَايَةٍ: الَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أي: كل نبي جاء بعد يعقوب من سلالته، وهم شعوب بني إسرائيل وقبائلهم التي تفرعت عن أولاد يعقوب عليهم السلام الاثني عشر، ولَدَ كل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط.

قوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ أي: فراق وعصيان ومحاربة، فمن شاقَّ فقد حارب، وإذا حارب فقد شاقَّ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ أي فراق بينهما.

قوله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: صبغنا الله صبغة، والمراد بها: دينه الذي فطر الناس عليه؛ لظهور أثره على صاحبه، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، والمعنى: الزموا دين الإسلام لزومًا يظهر أثره عليكم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: اليهود، والمنافقون، في حديث البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَا﴾، فَوُجِّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ-، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَفِي رِوَايَةٍ: فِي صَلَاةِ العَصْرِ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ. فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، وَفِي رِوَايَةٍ: فتوَجَّهَ نَحوَ الكَعْبةِ، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ -وَهُمُ الْيَهُودُ-: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾». متفق عليه.

قوله: ﴿أُمَّةً﴾ الأمة: القرن من الناس، والوسط: الخيار العدول.

قال الشاعر:

لَا تَــذْهَبَنَّ فِــي الْأُمُــورِ فَرَطـا لَا تَسْــأَلَنَّ إِنْ سَــأَلْتَ شَــطَطَا

وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا وَسَطَا

أو التوسط في الدين، فلا غلو النصارى في عيسى عليه السلام، ولا تقصير اليهود في قتل الأنبياء، وتحريف الكلم، وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ-، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ». رواه البخاري.

وفي الآية دلالة على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم بإجماعهم معصومون من الخطأ، كما أن فيها دلالة على تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم.

قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: عِلْمَ مُعَاينةٍ وظهورٍ يترتب عليه الجزاء، وتقوم على الناس فيه الحجة، وإلا فالله سبحانه عالم الغيب والشهادة، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، والمعنى: لنعلم من يطع الرسول ﷺ فيصدقه، ممن يرجع إلى الكفر شكًا في الدين، وظنا أن النبي ﷺ في حيرة من أمره، وقد ارتد لذلك جماعة، كقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: التحول شطر المسجد الحرام كان شاقًا على نفوس بعض الناس.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يثيبكم عليها، وقد جاء في حديث البَرَاءِ ابن عازب رضي الله عنه، قال: «وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى القِبلَةِ قَبلَ أَن تُحَوَّلَ قِبَلَ البَيتِ رِجَالٌ قُتِلُوا، لَم نَدرِ مَا نَقُولُ فِيهِم، فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾». رواه البخاري.

وفي الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يدخل فيه أعمال الجوارح، يعني: أن الإيمان قول، وعمل، واعتقاد.

قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كان رسول الله ﷺ يرفع بصره إلى السماء متطلعًا إلى

الوحي ومتشوقًا للأمر باستقبال الكعبة، وكان يَوَدّ ذلك؛ لأنها قبلة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولأنه أدعى إلى إسلام العرب.

والتقلب: التحول والتصرف، والشطر: النحو والقصد والتلقاء. والبيت كله قبلة، وقبلة البيت: التي فيها الباب، وقد جاء في حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيْتَ دَعَا فِي نَوَاحِيهِ كُلِّهَا، وَلَمْ يُصَلِّ حَتَّى خَرَجَ مِنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فِي قُبُلِ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ: هَذِهِ الْقِبْلَةُ». متفق عليه.

وقد أجمع العلماء على أن من شاهدها فُرِض عليه استقبالها، وإن ترك ذلك فلا صلاة له، وأجمعوا على أن من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها، وقد جاء في حديث عمير بن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْكَبَائِرُ؟ فَقَالَ: هُنَّ تِسْعٌ...، وَفِيهِ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ، وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا». حديث حسن، رواه أبو داود.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين في القبلة، فهي قبلة إبراهيم، وقبلة الأنبياء غيره -عليهم الصلاة والسلام-.

قوله: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: لكل قوم قبلة، كقوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾.

قوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ فيه أفضلية العبادات في أول وقتها، والمبادرة إليها.

قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ أي: حتى لا يقول اليهود: يجحد ديننا، ويتبع قبلتنا، ويقول المشركين: يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: ظلموا أنفسهم بعنادهم، وجحودهم رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم مشركو العرب، وقريش على وجه الخصوص؛ لأن لهم دعوى باطلة وخصومة بغير حق بقولهم: رجع

محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، والاستثناء متصل، والمعنى: لا يكون لأحد عليكم كلام إلا كلام هؤلاء.

قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ أي: كما أرسلت إليكم رسولًا فاذكروني، فبالشكر تدوم النعم، والذكر من الشكر، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

وقد جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ». حديث صحيح، رواه أبو داود. وقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على تبليغ رسالة ربه، وقد جاء في حديث جابر ﵁ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ، فقال: أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلاَمَ رَبِّي». رواه أبو داود بسند صحيح. وفي رواية عند أحمد بسند صحيح: «مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى وَغَيْرِها، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ مِنْ يَثْرِبَ فَصَدَّقْنَاهُ ... حَتَّى قَالَ: وَتَمْنَعُونِي مِمَا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ؛ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ».

قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ...» متفق عليه. وفي رواية عند ابن ماجه بسند جيد: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ».

وعن أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذِكْرُ اللهِ. قَالَ مُعَاذٌ: مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن معاذ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلاَّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهَا». رواه الطبراني، وجوده المنذري. وفي حديث أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا فِي حَجْرِهِ دَرَاهِمُ يَقْسِمُهَا وَآخَرُ يَذْكُرُ اللهَ كَانَ الذَّاكِرُ لِلَّهِ أَفْضَلَ». رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه المنذري.

قال ابن القيم: أوجه الدعوة لذكر الله ﷻ في القرآن: إما بالأمر مطلقًا ومقيدًا، وإما النهي عن ضده، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، وإما بتعليق الفلاح على استدامته وكثرته، وإما بالثناء على أهله، وإما بالإخبار عن خسران من لهى عنه بغيره، وإما جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له، كما في هذه الآية، وإما بالإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾، وقد جعل الله ﷻ ذكره أكبر من كل شيء، وجعله قرين الصلاة والصيام، والحج، والجهاد، وأمر بأن يكون خاتمة كل شيء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ قال ﷺ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ...». رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جَعْفَرًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ». رواه الترمذي بسند حسن. وفي حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هَنِيئًا لَكَ يَا عَبْدَ اللهِ؛ أَبُوكَ يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ». رواه الطبراني بسند حسن. وفي رواية عند أحمد بسند جيد: «أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِي فَأَشَالَهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ».

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ -أَوْ: شَجَرِ الْجَنَّةِ». رواه الترمذي بسند صحيح. وفي رواية عند النسائي بسند صحيح: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهَرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». رواه أحمد بسند حسن.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «مَاتَ أَبُو طَلْحَةَ غَازِيًا فِي الْبَحْرِ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُونَهُ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ». رواه ابن حبان بسند جيد.

وقد جاء في سهولة خروج روح الشهيد قوله ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ

مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ». رواه الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي هذا الحديث بشارة لعموم المؤمنين، وخصَّ القرآن الشهداء تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا لهم، ومن علم أن الموت حق يأتي في موعده أيقن أن الجهاد في سبيل الله لا يقدم ولا يؤخر.

وفي الآية دليل صريح على نعيم البرزخ وعذابه، كما تواترت بذلك نصوص الشريعة.

قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ﴾ أي: نمتحنكم، قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ يعني: من العدو.

قوله: ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ أي: القحط.

قوله: ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ بالهلاك.

قوله: ﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾ أي: بالقتل، والموت، والأمراض.

قوله: ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فلا تنبت المزارع كعادتها.

قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ عن أم سلمة ﵂ قالت: قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ -وَفِي رِوَايَةٍ: مَا أَمَرَهُ اللهُ-: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا. قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ: رَسُولَ اللهِ ﷺ». رواه مسلم.

وفي حديث قُرَّةَ بن إياس ﵁ قال: «كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ، يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ، فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهَلَكَ، فَامْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الْحَلْقَةَ؛ لِذِكْرِ ابْنِهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَقَالَ: مَا لِي لاَ أَرَى فُلاَنًا؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، بُنَيُّهُ الَّذِي رَأَيْتَهُ هَلَكَ. فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنْ بُنَيِّهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلَكَ، فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: يَا فُلاَنُ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ: أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ، أَوْ لاَ تَأْتِي غَدًا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلاَّ وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ، يَفْتَحُهُ لَكَ؟ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ! قَالَ: فَذَاكَ لَكَ». رواه النسائي بسند جيد. وفي رواية عند أحمد بسند صحيح: «فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَهُ خَاصَّةً أَمْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: بَلْ لِكُلِّكُمْ».

وفي حديث أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلاَئِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟

فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ». حديث حسن، رواه الترمذي.

وفي حديث أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ كُلِّ خَيْرٍ، يَحْمَدُنِي وَأَنَا أَنْزِعُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ». رواه أحمد بسند حسن.

قال أبو العتاهية:

اصْــبِرْ لِكُــلِّ مُصِــيبَةٍ وَتَجَلَّــدِ ... وَاعْلَــمْ بِــأَنَّ الْمَــرْءَ غَيْــرُ مُخَلَّــدِ
فَــإِذَا ذَكَــرْتَ مُحَمَّــدًا وَمُصَــابَهُ ... فَــاذْكُرْ مُصَــابَكَ بِــالنَّبِيِّ مُحَمَّــدِ

قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: عليهم مغفرته، ورحمته، ورأفته، وجاء في حديث عمر ﵁ قال: «نِعمَ العَدلانِ وَنِعمَ العلاوةِ. وَقَرَأَ الآية». رواه البخاري معلقًا. فالعدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة: الاهتداء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ الصفا لغة: الصخرة الملساء، والمروة في لغة: الحصاة الصغيرة، وفي الشرع: الجبلان المسميان بهذين الاسمين اللذين في حَرَمِه، وهما من معالم الله التي جعلها معلمًا ومشعرًا يعبدونه عندها بالدعاء والذكر وكل ما فرض عندها من عمل، وقد جاء في حديث عروة ﵁ قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ ﵂ فَقُلْتُ لَهَا: «أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾، فَلَا أُرَى عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَلَّا! لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ كَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا. إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ: كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْدٍ، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾. وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا؛ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أن يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا». متفق عليه. وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾». متفق عليه.

وفي حديث ابن عباس ﵄: «وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى

جاوَزَتِ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا -وَفِي رِوَايَةٍ: وَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ! -تَعْنِي الصَّبِيَّ-، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا، فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا! فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا-، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا». رواه البخاري.

وفي حديث جابر رضي الله عنه الطويل: «ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ». رواه مسلم. وفي رواية عند النسائي بسند صحيح: «فَابْدَؤُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ».

قوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: حج التطوع أو العمرة، فإن الله شاكر يثيب على القليل بالكثير.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ما أوضح لهم من أمره في الكتب المتقدمة، كالتوراة والإنجيل وهو مكتوب فيهما، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». حديث حسن، رواه أبو داود. وفي لفظ ابن ماجه بسند جيد: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَحْفَظُ عِلْمًا فَيَكْتُمُهُ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وَاللهِ لَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ، مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾». رواه البخاري.

وفي المقابل من دعا إلى هدى قال فيه ﷺ في الحديث الصحيح: «وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ». رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وهنا مسألة عقدية وهي: أنه لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين وفي غيرهما؛ وإنما الخلاف في لعن الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يلعن؛ لأننا لا ندري بم يختم الله له، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، فالناس يلعنونه يوم القيامة ليتألم قلبه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ وقالت طائفة: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره أبو بكر ابن العربي المالكي، واحتج بما جاء عند البخاري في الرجل الذي أُتي به وهو سكران، فقال رجل: لَعَنَهُ اللهُ مَا أَكْثَرُ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ! فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ». رواه البخاري. فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يُلعن، وأما لعن العاصي مطلقًا

فيجوز إجماعًا، قال ﷺ فيما كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ؛ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ جاء من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ و﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾». رواه أبو داود بسند حسن.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝١٦٥ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ كل واحد منهما يخلف مكان صاحبه، وقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾.

قوله: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ أي: السفن، قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، فما كان عند أهل هذه الأقاليم من معايش فإنه ينقل لتلك الأقاليم الأخرى لينتفعوا بها والعكس.

قوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: فرّق، من قول القائل: بثَّ القائد سراياه، إذا فرَّقهم، قال تعالى: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾، والدابة: اسم لكل ذي روح يدب على الأرض.

قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ مرة تكون لواقح: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ». رواه مسلم.

ومرة تكون عقيمًا: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَى مَخِيلَةً فِي السَّمَاءِ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَدَخَلَ وَخَرَجَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَدْرِي، لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ الْآيَةَ». متفق عليه. وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «كَانَتِ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ إِذَا هَبَّتْ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ». رواه البخاري.

ومرة تكون عذابًا أليمًا، ومرة جنوبًا، أو شمالًا، أو شرقًا، أو غربًا، وصَبًا قبولًا ودَبورًا، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلاَ تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا». حديث حسن، رواه أبو داود. وفي حديث سلمة رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اشْتَدَّ الرِّيحُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَقْحًا لاَ عَقِيمًا». رواه ابن حبان بسند صحيح. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سمي سحابًا؛ لأن بعضه يجر ويسحب بعضًا، قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: يحبونها كحب المؤمنين لله ﷻ.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ والذين آمنوا أشد حبًا لله من المشركين للأنداد، أو الآية على ظاهرها: وهو أن المشركين يحبون الأنداد كحبهم الله، وقد جاء في حديث معاذ رضي الله عنه قال: «احْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا، فَثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَجَوَّزَ فِي صَلاَتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ، فَقَالَ لَنَا: عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ. ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ: أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ: إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ، وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلاَتِي فَاسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ! قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لاَ أَدْرِي رَبِّ -قَالَهَا ثَلاَثًا-، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ! قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ. قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ. قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلاَمِ، وَالصَّلاَةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ: سَلْ. قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ. أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّهَا حَقٌّ؛ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا». حديث صحيح، رواه الترمذي.

قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: لو عاينوا العذاب لعلموا.

قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ ومنهم الملائكة قالوا: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ و﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، ومنهم الجن: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يعني: التواصل الذي كان بينهم في الدنيا، والسبب هنا: الناحية، والكَرَّة، والرجعة إلى الدنيا، جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال: «المودة». رواه الحاكم وصححه. قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۢ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ﴾ أي: ندامات، فأعمال الكافرين ذهبت واضمحلت، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فيه دليل على خلود الكفار فيها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ الْحَلالِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ». حديث حسن، رواه الطبراني في الأوسط. وفي حديث كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ». رواه الترمذي بسند جيد.

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ». رواه ابن ماجه بسند جيد.

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ فَرَّ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لأَدْرَكَهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ». رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه المنذري. وَفِي حَدِيثِ حَبَّةَ، وَسَوَاءٍ ابْنَيْ خَالِدٍ رضي الله عنهما، قَالاَ: «دَخَلْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُعَالِجُ شَيْئًا فَأَعَنَّاهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُءُوسُكُمَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رواه ابن ماجه بسند حسن. وفي حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ». حديث حسن رواه ابن ماجه.

وفي الآية دلالة على أن الأصل في الأشياء الإباحة، أكلًا وانتفاعًا، وأن المحرَّم نوعان: إما محرَّم لذاته؛ وذلك لخبثه، وإما محرَّم لما يعرض له.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: آثاره وطرقه، وما يزينه لكم من أنواع المعاصي والآثام، والخطوات: هي بُعد ما بين القدمين، وتستعمل مجازًا في جميع آثاره، وطرقه، ونزعاته، وكل معصية لله تعالى ورسوله ﷺ فهي من خطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ سمي السوء سوءًا لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والفحشاء: قبح المنظر.

قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحوامي، وزعمهم أن الله حرَّم هذا، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وقد جعل الله ﷻ القول عليه بغير علم من عظائم الأمور، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ

ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: ما وجدنا. قال الإمام ابن القيم: الأسباب المانعة من قبول الحق:

أولًا: الجهل به.

ثانيًا: بغض الآمر بالحق ومعاداته.

ثالثًا: ألفه وعادته على ما كان عليه آباؤه.

رابعًا: توهم المدعو أن الحق الذي دعي إليه يحول بينه وبين ملذاته.

خامسًا: خوفه من قومه وعشيرته بضياع ملكه.

سادسًا: الحسد، وهو من أعظم الأسباب.

قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ أي: يصوِّت، والمعنى: كمثل البعير، والحمار، والشاة، إن قلت لبعضها: كُل، لا يعلم ما تقول، وكذلك الكافر يسمع صوتك بالحق، لكنه لا يعقل ولا يفقه ما تقول، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقيل: المعنى موقف الآلهة والأنداد التي تُعبد من أصحابها، كموقف الدواب العجماء من رعاتها، والمعنى الأول أولى.

قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي: دهنها، ولبنها، وأنفحتها، ولحمها، وشحمها، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، إلا ما جاء الدليل على تخصيصه، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾، وكما في حديث العنبر الذي أكل الصحابة منه شهرًا. متفق عليه. وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ

الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول ﷺ قال: «أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ». حديث حسن، رواه ابن ماجه.

وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ الْمَيْتَةِ. أَوْ: إِنَّ الْمَيْتَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ النُّهْبَةِ». رواه أبو داود بسند جيد. وعن عبد الله بن عُكَيم رضي الله عنه قال: «قُرِئَ عَلَينَا كِتَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَرْضِ جُهَيْنَةَ وأَنَا غُلاَمٌ شَابٌّ: أَنْ لاَ تَنْتَفِعُوا مِنَ الْمَيْتَةِ بِإِهَابٍ وَلاَ عَصَبٍ». حديث صحيح رواه أبو داود.

والميتة بالتخفيف والتشديد، قال الشاعر:

لَـيْسَ مَـنْ مَـاتَ فَاسْـتَرَاحَ بِمَيْـتٍ ... إِنَّمَـا المَيْـتُ مَيِّـتُ الأَحْيَـاءِ

قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: ما ذبح للطواغيت، أو باسم فلان، أو لم يذكر اسم الله تعالى عند ذبحه عمدًا، والإهلال: رفع الصوت.

قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: الحرام في أكله، وأصل البغي في اللغة: قصد الفساد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾.

قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: ولا متجاوز الذي أبيح له منه، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

قوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ أي: لا حرج؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، وقال ﷺ كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ». متفق عليه. وقد استدل به على تحريم أخذ الأجرة على الإفتاء.

قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: بما يحبون ويشتهون، فأما بما يسوؤهم ويكرهون فإنه سيكلمهم، قال تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم.

قوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾ أي: ما أجرأهم، وهو بمعنى: الاستفهام، وكأنّه قال: فما الذي صبرهم؟ أي شي صبرهم؟، والنار لا صبر عليها لأحد، وقيل: هو بمعنى التعجب، أي: ما أشد جراءتهم! كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ أي: تعجبًا من كفره بالذي خلقه فسواه وعدله، وقيل: سيكونون في عذاب شديد يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب، وقيل: فما أدومهم لعمل المعاصي التي ستفضي بهم إلى النار.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: لتحقيق الحق، وإبطال الباطل، وإثابة المحسن، ومعاقبة المسيء، فما لأحد حجة ولا عذر، وقد جاء عند الذهلي في الزهريات بسند جيد عن سعيد بن المسيب: أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس اجتمعوا ليلًا يسمعون القرآن سرًا، فذكر القصة وفيها: أن الأخنس أتى أبا سفيان فقال: ما تقول؟ قال: أعرف وأنكر، قال أبو سفيان: فما تقول أنت؟ قال: أراه الحق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾

قوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ جاء عن مجاهد: «أن أبا ذر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية». رواه ابن راهويه كما في المطالب، وقال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد وله شاهد.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ، فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ». حديث صحيح رواه أحمد.

قوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ أي: ليس الصلاة وحدها هي البر، ولكن البر الصلاة وغيرها من شعائر الإيمان والإسلام، وأول ذلك ما ثبت في القلوب من الإخلاص لله، كما قال ذلك في الأضحية والهدى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾، ثم إن فيها إبطالًا لما عليه اليهود من توجه قِبَل المغرب في صلاتهم، ولما عليه النصارى من توجه قبل المشرق.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: بر من آمن، كما يقال: الجود حاتم، يعني إنما الجود جود حاتم، كما قال: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: أهل القرية.

قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ اسم جنس يشمل الكتب السماوية المنزلة كلها، والتي ختمت بأشرفها وهو القرآن الكريم المهيمن على ما قبلها.

قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: محبًا له وهو ينفقه، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى». متفق عليه. قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾.

قوله: ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: جمع يتيم، وهو من لا كاسب له وقد مات والداه، وهو ضعيف الأخذ لنفسه، ضعيف العطاء، وقد جاء في حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ». رواه أبو داود بسند لا بأس به. وهذه العلة في الغالب، لكن قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَنْبُتُ لِحيَتُهُ وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الأَخذِ لِنَفسِهِ، ضَعِيفُ العَطَاءِ مِنهَا، فَإِذَا أَخَذَ لِنَفسِهِ مِن صَالِحِ مَا يَأخُذُ النَّاسُ فَقَد ذَهَبَ عَنهُ اليُتمُ».

قوله: ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ أي: جمع مسكين، وهو من لا يجد ما يكفيه في قوته وكسوته، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَيَسْتَحْيِي، أَوْ: لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا)». متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر المجتاز، الذي فرغت نفقته، أو من يريد سفرًا لحاجة أو ضرورة، ويدخل في ذلك الضيف.

قوله: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ عن أم بُجيد رضي الله عنها قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ! إِنَّ الْمِسْكِينَ لَيَقُومُ عَلَى بَابِي فَمَا أَجِدُ لَهُ شَيْئًا أُعْطِيهِ إِيَّاهُ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنْ لَمْ تَجِدِي لَهُ شَيْئًا تُعْطِينَهُ إِيَّاهُ إِلَّا ظِلْفًا مُحْرَقًا فَادْفَعِيهِ إِلَيْهِ فِي يَدِهِ». رواه أبو داود بسند حسن.

ويتأكد إعطاء السائل إذا سأل بالله؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: المكاتبون الذي لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم.

قوله: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي: حال الفقر والجوع. ونُصبت الصابرين على وجه المدح؛ إما على تقدير: وامدح الصابرين، أو نعت (مَن).

قوله: ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: حال المرض والسقم، قال تعالى عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ أي: وقت شدة القتال في الحرب؛ لأن الإنسان حينها يجزع من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابًا ورجاء لثواب الله تعالى.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ أي: فُرِض، وقد كان هذا لمن قبلنا: إما القتل أو العفو، فلا دِيَة، وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقِصَاصُ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَةُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الأُمَّةِ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾، فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ، ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾: يَتَّبِعُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُؤَدِّي بِإِحْسَانٍ، ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ مِمَّا كُتِبَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ». رواه البخاري. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة الرُّبَيع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ». متفق عليه.

وسبب هذه الآية هم يهود قريظة وبنو النضير، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يفادى بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر، فأمر الله بالعدل في القصاص.

وقد ذهب البخاري، وعلي بن المديني، والنخعي إلى قتل السيد بعبده، لعموم آية المائدة، ولحديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ». حديث حسن رواه أبو داود.

وخالفهم الجمهور؛ فذهبوا إلى أن لا يقتل الحر بالعبد؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، ولأنه لا يقاد بطرفه، ففي النفس بطريق الأولى، وحديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضعيف.

كما ذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، لما جاء من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يُقتَلُ مُسلِمٌ بِكَافِرٍ». رواه البخاري. ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا.

وذهبوا أيضًا إلى أن الرجل يقتل بالمرأة والعكس، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «المسلِمُونَ تتكَافَأُ دِمَاؤُهم». رواه أبو داود بسند جيد. وكذلك يقتل الجماعة بالواحد، وذلك كالإجماع.

قوله: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ العفو: قبول الدية في العمد، وهو في اللغة: البذل، وفي الآية دليل على أن القاتل لا يَكْفُر، لإثبات الأخوة الدينية هنا، وكذا لا يكفر المسلم بسائر المعاصي الكبيرة أو الصغيرة، ماعدا الشرك، خلافًا للمعتزلة والخوارج.

قوله: ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: يطلب ولي المقتول الدية بهدوء وحسن معاملة، ولا يطلب زيادة على الدية المتعارف عليها.

قوله: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: أن يؤدي القاتل أو من يقوم مقامه الدية بالتمام والكمال، ويكون ذلك بإحسان وطيب نفس، حتى تبقى الإخوة الإسلامية قائمة بين المتقاتلين، وبالتالي فلا يتعدّى القتل إلى الآخرين.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ لأن من كان قبلكم لا تقبل منهم الدية، فإما القتل أو العفو.

قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ أي: سلامة للأمة والمجتمع والنفوس؛ لأن أهل السفه والجهل يرتدعون بالموت، وكم من رجل سفيه قد هَمَّ بداهية، ولولا مخافة القصاص لوقع بها.

قوله: ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ العقول.

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: فُرِضَ، وحضور الموت يعني: أسبابه. قال الشاعر:

أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي حُدِّثْتَ عَنْهُ ... فَلَيْسَ لِهَارِبٍ مِنِّي نَجَاءُ

قوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ أي: مالًا.

قوله: ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ أي فالوصية.

قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: واجبًا، وقد اختلف: هل الوصية هذه منسوخة بآية الميراث أو لا؟ والصواب: أن آية الميراث نسخت الوصية للوالدين، وأما الوصية للأقربين فلم تنسخها مطلقًا؛ وإنما نسخت وجوبها وأبقت استحبابها؛ فيستحب لمن ترك مالًا كثيرًا أن يوصي بشيء من ماله للأقربين الذين حرموا من الميراث، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أما الوارثون: فقد قال ﷺ كما في حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ أَعطَى كُلَّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ يعني: بدل في غير ما أوصى به الموصي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا

مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾ أي: من الذين يحضرون الميت وهو يوصي.

قوله: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ أي: من الميت، يعني: جورًا، وميلًا، وخطأ، فعليهم أن يأمروه بالعدل، وبالمقابل يأمروا أقرباءه بقبول ما يوصي به الميت، فلا يمنعوه مما أذن الله له فيه، وأباحه له، والتوجيه الآخر: إذا أخطأ الميت في وصيته، أو خاف فيها، فلا حرج على الأولياء الصلحاء أن يردوا خطأه إلى الصواب، والقول الأول أوجه، والوصية مشروعة، ولكن لا تتعدى الثلث، قال ﷺ كما في حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ». متفق عليه. وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لو غَضَّ النَّاسُ إِلى الرُّبعِ، لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ». متفق عليه.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: كتابة شرعية أمرية فرضية، قال ابن القيم في شفاء العليل: الكتابة نوعان:

١- كتابة كونية بمعنى القدر، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

٢- وكتابة شرعية أمرية بمعنى الأمر كهذه الآية.

والصيام: الكف عما أمر الله بالكف عنه مع اقتران النية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ؛ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ». رواه البخاري. وفي رواية: قال الله تعالى: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي». رواه البخاري. يقال: صامت الخيل؛ إذا كَفَّت عن السير، ومنه قوله تعالى عن مريم: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

قال النابغة:

خَيْـلٌ صِـيَامٌ وَخَيْـلٌ غَيْـرُ صَـائِمَةٍ ... تَحْـتَ الْعَجَـاجِ وَخَيْـلٌ تَعْلُـكُ اللُّجُمَـا

قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وقد جاء في حديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصية يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني إسرائيل قال: قال رسول الله ﷺ: «قال يحيى: وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ

يَعْجَبُ، أَوْ: يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ». حديث صحيح، رواه الترمذي.

قيل: إنهم كانوا يصومون شهرًا كاملًا، على نحو صيام هذه الأمة في آخر الأمر، وقيل: إنهم كانوا يصومون ثلاثة أيام من كل شهر، كما هو الحال في صيام هذه الأمة في أول الأمر، كما قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «وَأَمَّا أَحْوَالُ الصِّيَامِ: فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَجَعَلَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَقَالَ يَزِيدُ: فَصَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ، مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَصَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ عز وجل فَرَضَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾، قَالَ: فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مِسْكِينًا فَأَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ اللهَ عز وجل أَنْزَلَ الْآيَةَ الْأُخْرَى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾». حديث حسن، رواه أحمد. والحال الثالثة ستأتي عند قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: ليتحقق لكم التقوى الذي به النجاة من النار والفوز بالجنة، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيهِ رَمَضَانُ؛ ثُمَّ انسَلَخَ قَبلَ أَن يُغفَرَ لَهُ». حديث صحيح، رواه الترمذي. وفي حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْتُ: آمِينَ. قَالَ: وَمَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا، فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْتُ: آمِينَ». رواه ابن حبان بسند جيد. وفي حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: الصِّيَامُ أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ». حديث حسن، رواه أحمد.

وفي حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عُتَقَاءُ عِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ». رواه أحمد بسند لا بأس به. وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ». حديث حسن، رواه الترمذي.

وفي صوم التطوع جاء في ذلك عِدَّة أحاديث، منها ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا». متفق عليه. وفي حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». رواه الترمذي بسند حسن. وفي حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: مُرْنِي بِأَمْرٍ آخُذُهُ عَنْكَ. قَالَ: عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لاَ مِثْلَ لَهُ». رواه النسائي بسند صحيح. وفي رواية عند

أحمد بسند صحيح: «أَنْشَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةً فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لِي بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ. قَالَ: فَسَلِمْنَا وَغَنِمْنَا، قَالَ: ثُمَّ أَنْشَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوًا ثَانِيًا، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لِي بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ. قَالَ: ثُمَّ أَنْشَأَ غَزْوًا ثَالِثًا، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَتَيْتُكَ مَرَّتَيْنِ قَبْلَ مَرَّتِي هَذِهِ، فَسَأَلْتُكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ لِي بِالشَّهَادَةِ، فَدَعَوْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسَلِّمَنَا وَيُغَنِّمَنَا، فَسَلِمْنَا وَغَنِمْنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَادْعُ اللهَ لِي بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ. قَالَ: فَسَلِمْنَا وَغَنِمْنَا، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْنِي بِعَمَلٍ، قَالَ: عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ ... قَالَ: فَمَا رُئِيَ أَبُو أُمَامَةَ، وَلَا امْرَأَتُهُ، وَلَا خَادِمُهُ إِلَّا صُيَّامًا، قَالَ: فَكَانَ إِذَا رُئِيَ فِي دَارِهِمْ دُخَانٌ بِالنَّهَارِ، قِيلَ: اعْتَرَاهُمْ ضَيْفٌ، نَزَلَ بِهِمْ نَازِلٌ، قَالَ: فَلَبِثَ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَرْتَنَا بِالصِّيَامِ، فَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ بَارَكَ اللهُ لَنَا فِيهِ».

قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ نصبت بمضمر من الفعل، والتقدير: أن تصوموا أيامًا، والأيام المعدودات -كما سبق- الثلاثة أيام من كل شهر، وذلك في أول الأمر، وقد جاء عند النسائي بسند جيد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ؟ صَوْمُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ»، والوحَر: الحقد والغيظ. وروى مسدد من طريق مجاهد: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا وَغَرُ الصَّدْرِ؟ قَالَ: إِثْمُهُ وَغِلُّهُ».

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ جاء في حديث سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا» متفق عليه، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قرأ هذه الآية فقال: «لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ: هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْمَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ، لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا، فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا» رواه البخاري.

قوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ أي: شهر الصيام، والأصل أنه ثلاثون يومًا، ولكن قد يكون تسعة وعشرين يومًا، وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلاَثِينَ» متفق عليه. وفي حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا» متفق عليه، وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَا صُمْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تِسْعًا وَعِشْرِينَ أَكْثَرُ مِمَّا صُمْنَا مَعَهُ ثَلاَثِينَ» رواه أبو داود بسند جيد.

وتثبت رؤية هلال شهر رمضان برجل واحد لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «تَرَاءَى النَّاسُ الْهِلاَلَ، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنِّي رَأَيْتُهُ، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وأما رؤية هلال شوال فإنها لا تثبت إلا برؤية رجلين، لحديث رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَقَدِمَ أَعْرَابِيَّانِ فَشَهِدَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِاللهِ لأَهَلاَّ الْهِلاَلَ أَمْسِ عَشِيَّةً،

فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ أَنْ يُفْطِرُوا، وَأَنْ يَغْدُوا إِلَى مُصَلَّاهُمْ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ قيل: نزل في ليلة القدر في رمضان من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، ثم أُنزل إلى محمد ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه، وقد جاء في حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الفُرْقَانُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ» حديث حسن، رواه أحمد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبيه ﷺ ما شاء، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءها الله، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ رواه الضياء. وقد مضى هذا المبحث في مقدمة هذا التفسير.

قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: هاديًا من الضلالة.

قوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: آيات واضحات بما يهدي إلى الحق من الأحكام.

قوله: ﴿وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ ما يفرق به بين الحق والباطل.

قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ أي: من حضر رمضان فعليه صيامه.

قوله: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ عن أنس بن مالك القشيري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَضَعَ شَطْرَ الصَّلَاةِ -أَوْ: نِصْفَ الصَّلَاةِ- وَالصَّوْمَ عَنِ الْمُسَافِرِ، وَعَنِ الْمُرْضِعِ أَوِ الْحُبْلَى» رواه أبو داود بسند حسن، والمسألة على التخيير، وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال أنس رضي الله عنه: «كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ» متفق عليه، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، حَتَّى يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَابْنِ رَوَاحَةَ» متفق عليه.

وقد اختلف العلماء: أيهما أفضل في السفر: الفطر أو الصيام؟ والصحيح أن من يشق عليه الصوم في السفر فالفطر أفضل له، قال ﷺ حين رأى رجلًا قد ظُلل عليه فقال: «مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: صَائِمٌ. فَقَالَ: لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ». متفق عليه. وأما إذا كان الصيام لا يشق عليه في السفر، فالصحيح أنه يصوم، لفعل النبي ﷺ كما سبق، ولما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ حَمْزَةَ بْنَ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: -وَفِي رِوَايَةٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَسْرُدُ الصَّوْمَ- أَأَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ -وَكَانَ كَثِيرَ الصِّيَامِ-، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ». متفق عليه. وقد جاء عند الطبري عن نافع: أن ابن عمر كان لا يصوم في السفر، ولا يكاد يفطر في الحضر.

قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لا يجب فيها التتابع على الصحيح.

قوله: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ أي: عدة الشهر، وفيه دليل على اعتبار العدد إذا لم ير الهلال، ولا يرجع إلى قول الحسابيين أو المنجمين.

قوله: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: عند انقضاء عبادتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وقد جاء في السنة استحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير، بعد الصلوات المكتوبات، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنْتُ أَعْرِفُ انْقِضَاءَ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالتَّكْبِيرِ». متفق عليه؛ ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية.

قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ أي: قريب في علوِّه، عَلِيٌّ في دُنُوِّه. ولا شك أن الذي ينظر في آيات القرآن التي كان فيها سؤال للنبي ﷺ بقوله تعالى: (يسألونك) فإنه يلاحظ أنه يأتي بعدها: (قل) فيجعل رسول الله ﷺ واسطة بين الله تعالى وعباده، أما في هذه الآية فجاء بكلمة (قريب) لتشير أنه لا واسطة بين العبد وربه وقت الدعاء، فالله قريب ممن دعاه وطلبه.

وربما كان مناسبة الآية أنها جاءت بعد آيات الصيام لمظنة استجابة الدعاء حال الصوم، وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً مَا تُرَدُّ». حديث حسن، رواه ابن ماجه.

والمعنى: إذا سألك يا محمد أحد أي ساعة يدعونني؟ وذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وقال رسول الله ﷺ كما في حديث النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ؛ قَالَ رَبُّكُمْ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾»، رواه أبو داود بسند صحيح، وعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»، رواه أبو داود بسند لا بأس به، وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلاَّ آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ! قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ». رواه الترمذي بسند جيد، وفي الباب عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أحمد بسند جيد، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ». رواه ابن ماجه بسند جيد. وقال ﷺ كما في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -حين سمعهم يرفعون أصواتهم بالتكبير-: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا (وَفِي رِوَايَةٍ: بَصِيرًا) قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ». متفق عليه.

وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ جاء عن يزيد بن أبي حبيب قال: خرج ابن أبي سرح إلى الرملة فلما كان عند الصبح قال: اللهم اجعل آخر عملي الصبح؛ فتوضأ؛ ثم صلى؛ فسلم عن يمينه؛ ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه.

وجاء عن حميد بن هلال قال: كان بين مطرف ورجل شيء، فقال له مطرف: إن كنت كاذبًا؛ فعجل الله حينك؛ فسقط مكانه ميتًا.

وهناك مواطن فيها مظنة الإجابة منها: يوم عرفة، والأحاديث في ذلك مشهورة، ومن ذلك ما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟». رواه مسلم.

وفي حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». رواه الترمذي بسند حسن.

ومن الأوقات التي يرجى استجابة الدعاء فيها: ساعة الجمعة، كما قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ». متفق عليه.

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ». رواه أبو داود بسند جيد.

وفي حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثِنْتَانِ لاَ تُرَدَّانِ–أَوْ: قَلَّمَا تُرَدَّانِ–: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَفِي رِوَايَةٍ: وَوَقْتُ الْمَطَرِ». رواه أبو داود بسند جيد.

ومن أدب الدعاء ما جاء عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلاَتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: عَجِلَ هَذَا! ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ». رواه أبو داود بسند جيد.

وقد أخبر النبي ﷺ عن ثلاث دعوات مستجابات لا محالة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ». رواه أبو داود بسند لا بأس به. وفي رواية عند أحمد بسند حسن: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ»، وفي رواية عند الترمذي بسند صحيح: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ

السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ أي: أبيح بعد أن كان محظورًا، وهذا في الليل، أما النهار: فقد جاء عن مسروق قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما يحل للرجل من امرأته وهي صائمة؟ قالت: كل شيء إلا الجماع. رواه عبد الرزاق وصححه ابن حجر، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَبِّلُ وَيُبَاشِرُ وَهُوَ صَائِمٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ ضَحِكَتْ-، وَكَانَ أَمْلَكَكُمْ لِإِرْبِهِ». متفق عليه.

فإن جامع الرجل زوجته في نهار رمضان؛ ففيه الكفارة المغلظة؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: هَلَكْتُ! قَالَ: وَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ. قَالَ: تَسْتَطِيعُ تُعْتِقُ رَقَبَةً؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: اجْلِسْ. فَجَلَسَ، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ -وَالْعَرَقُ: الْمِكْتَلُ الضَّخْمُ-، قَالَ: خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ. قَالَ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنَّا؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: (وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ!) مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحْوَجُ مِنَّا-، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. قَالَ: أَطْعِمْهُ عِيَالَكَ». متفق عليه.

قوله: ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: الجماعُ وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته من التقبيل ونحوهما. والرفث: كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة، ويكون في غير هذا الموضع بمعنى: الفحش في القول والمنطق.

قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي: لتجردهما عند النوم، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه، يصير بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه، وقد يطلق اللباس ويراد به السكنى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: سكنًا، فالمرأة تسكن لزوجها والعكس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها فتجامعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العِشاء.

قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي: جامعوهن.

قوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: من الولد، وقيل: ليلة القدر، والمعنى: اطلبوا جميع معاني الخير، وقد كان لهذه الآية سبب: فقد جاء عن ابنَ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: «حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ أَمَرَهُمْ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ أُنْزِلَ رَمَضَانُ، وَكَانُوا قَوْمًا لَمْ يَتَعَوَّدُوا الصِّيَامَ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَلَيْهِمْ شَدِيدًا فَكَانَ مَنْ لَمْ يَصُمْ أَطْعَمَ مِسْكِينًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فَكَانَتِ الرُّخْصَةُ لِلْمَرِيضِ، وَالْمُسَافِرِ فَأُمِرُوا بِالصِّيَامِ. قَالَ: وَحَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا قَالَ: وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَفْطَرَ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُصْبِحَ، قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَأَرَادَ امْرَأَتَهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ نِمْتُ فَظَنَّ أَنَّهَا تَعْتَلُّ فَأَتَاهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَرَادَ الطَّعَامَ فَقَالُوا: حَتَّى نُسَخِّنَ لَكَ شَيْئًا، فَنَامَ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾». رواه أبو داود بسند صحيح.

وفي حديث البراء رضي الله عنه قال: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَحَضَرَ الْإِفْطَارُ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ. وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ! فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾». رواه البخاري.

وفي رواية عند البخاري: «لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾».

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: فَكَانَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا صَلَّوْا الْعَتَمَةَ حَرُمَ عَلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالنِّسَاءُ، وَصَامُوا إِلَى الْقَابِلَةِ، فَاخْتَانَ رَجُلٌ نَفْسَهُ، فَجَامَعَ امْرَأَتَهُ وَقَدْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَلَمْ يُفْطِرْ، فَأَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ يُسْرًا لِمَنْ بَقِيَ، وَرُخْصَةً وَمَنْفَعَةً؛ فَقَالَ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وَكَانَ هَذَا مِمَّا نَفَعَ اللهُ بِهِ النَّاسَ، وَرَخَّصَ لَهُمْ وَيَسَّرَ». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «أُنْزِلَتْ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، وَلَمْ يَنْزِلْ ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، وَلَمْ

يَزَلْ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ بَعْدُ: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». متفق عليه.

وعن عدي بن حاتم ﵁ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾؛ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ، وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ (أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ)». متفق عليه.

ولا يقولن قائل: إنّ الإمساك بطلوع الشمس، كما أن الإفطار بغروب الشمس؛ فقد جاء في حديث عائشة وابن عمر ﵃: «أَنَّ بِلَالًا كَانَ يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ- كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ؛ (فَإِنَّهُ لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ). قَالَ الْقَاسِمُ: وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَذَانِهِمَا إِلَّا أَنْ يَرْقَى ذَا وَيَنْزِلَ ذَا». متفق عليه.

وفي حديث ابن مسعود ﵁: «لِيَرْجِعَ قَائِمَكُمْ، وَلِيُنَبِّهَ نَائِمَكُمْ». متفق عليه. وفي حديث سمرة ﵁ قال ﷺ: «لَا يَغُرَّنَّكُمْ مِنْ سَحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا بَيَاضُ الْأُفُقِ الْمُسْتَطِيلُ هَكَذَا، حَتَّى يَسْتَطِيرَ هَكَذَا. وَحَكَاهُ حَمَّادٌ بِيَدَيْهِ. قَالَ: يَعْنِي مُعْتَرِضًا» رواه مسلم، وقال ﷺ: «الْفَجْرُ فَجْرَانِ: فَأَمَّا الْفَجْرُ الَّذِي يَكُونُ كَذَنَبِ السَّرْحَانِ فَلَا تَحِلُّ الصَّلَاةُ فِيهِ، وَلَا يَحْرُمُ الطَّعَامُ، وَأَمَّا الَّذِي يَذْهَبُ مُسْتَطِيلًا فِي الْأُفُقِ فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلَاةَ، وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ». رواه الحاكم من حديث جابر ﵁.

قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ يعني: غروب الشمس، قال ﷺ كما في حديث عمر ﵁: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ (مِنْ هَاهُنَا)، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ (مِنْ هَاهُنا)، وغَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ العكوف: أصله المقام، وحبس النفس عن الشيء، والمباشرة هنا: الجماع، أو ما قام مقامه، مما يوجب الغسل، أما اللمس والمعاطاة فليس داخلًا في ذلك، وقد قالت عائشة ﵂: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُدْخِلُ عَلَيَّ رَأْسَهُ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَأُرَجِّلُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَنَا حَائِضٌ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَغْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ-، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةٍ إِذَا كَانَ مُعْتَكِفًا». متفق عليه. وفي حديث صفية بنت حيي ﵂ قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﵄». متفق عليه.

وعن عائشة ﵂ قالت: «السُّنَّةُ عَلَى الْمُعْتَكِفِ: أَنْ لاَ يَعُودَ مَرِيضًا، وَلاَ يَشْهَدَ جَنَازَةً، وَلاَ يَمَسَّ امْرَأَةً وَلاَ يُبَاشِرَهَا، وَلاَ يَخْرُجَ لِحَاجَةٍ إِلاَّ لِمَا لاَبُدَّ مِنْهُ، وَلاَ اعْتِكَافَ إِلاَّ بِصَوْمٍ، وَلاَ اعْتِكَافَ إِلاَّ فِي مَسْجِدٍ جَامِعٍ». رواه أبو داود بسند جيد.

والاعتكاف سنة داوَمَ عليها رسول الله ﷺ، فقد جاء حديث عائشة ﵂ قالت: «كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ

الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ». متفق عليه.

قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فيها سد أبواب الذرائع المفضية إلى ما حرم الله ﷻ.

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلمز بعضكم بعضًا، ولا يقتل بعضكم بعضًا، وذلك لأن المؤمنين إخوة، فقاتل أخيه كقاتل نفسه، ولامِزُه كلامِزِ نفسه.

قوله: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ﴾ أي: تخاصموا، وأصل الإدلاء: إرسال الرجل الدلو بحبل متعلق به في البئر، فيقال: أدلى فلان بحجته، أي: أرسلها، والمعنى: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم، قال ﷺ كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرُكْهَا». متفق عليه.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

وفي حديث رفاعة رضي الله عنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَرَأَى النَّاسَ يَتَبَايَعُونَ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا إِلاَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ» رواه الترمذي بسند جيد، وفي حديث عبد الرحمن بن شبل رضي الله عنه بنحوه، وفيه: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَحَلَّ الْبَيْعَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فَيَكْذِبُونَ، وَيَحْلِفُونَ فَيَأْثَمُونَ». رواه أحمد بسند جيد.

وعن قيس بن أبي غَرَزَةَ رضي الله عنه قال: «كُنَّا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُسَمَّى السَّمَاسِرَةَ، فَمَرَّ بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَمَّانَا بِاسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالْحَلِفُ، فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ يعني: لماذا تزيد أحيانًا؟، وتنقص أحيانًا؟، وتختفي أحيانًا؟ والهلال يظهر قليلًا قليلًا حتى يكون بدرًا، ثم ينقص قليلًا حتى يكون كالعرجون القديم.

قوله: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي: وقت صيامهم وفطرهم؛ فإذا رأوا هلال شهر رمضان صاموا، وإذا رأوا هلال شوال أفطروا؛ فإن غُمِّي عليهم، أتموا ثلاثين، وقد جاء ذلك في حديث ابن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهم عند الشيخين، وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلاَلَ قَالَ: اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْيُمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلاَمَةِ وَالإِسْلاَمِ. رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ». رواه الترمذي بسند لا بأس به.

وعن عبد الله بن هشام قال: كان أصحاب النبي ﷺ يتعلمون هذا الدعاء إذا دخلت السنة أو الشهر:

اللهم أدخله علينا بالأمن، والإيمان، والسلامة، والإسلام، ورضوان من الرحمن، وجواز من الشيطان. رواه الطبراني.

كما أن الأهلة للصيام، فهي لعدة نسائهم، وحلول ديونهم، ووقت حججهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ جاء في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا، كَانَتِ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاؤُوا لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَ﴾. وَفِي رِوَايَةٍ: كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَوُا الْبَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾». متفق عليه.

والمعنى: أن البر ليس بالمظاهر والتنطع المصطنع، وإنما هو تقوى محله القلب، ولذا ينبغي في كل أمر، أن يأتيه الإنسان من طريقه السهل، سواء كان في الأمر بالمعروف، أو النهي عن المنكر، أو التعليم، ونحو ذلك، وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا». متفق عليه.

قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ جاء في حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا». رواه مسلم. وفي رواية عند أحمد: «وَلَا أَصحَابُ الصَّوَامِعِ»، ويدخل في ذلك من أعطى الجزية، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾. وعند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ».

أما إذا كان النساء والصبيان لهم مشاركة مباشرة أو غير مباشرة، فقد جاء في حديث الصَّعْب بن جَثَّامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، قَالَ: هُمْ مِنْهُمْ». متفق عليه.

وليحذر المسلم من تغليب الحظ النفسي وحب الانتقام والثأر في مثل هذه المواطن التي قد يتخبط الشيطان فيها صاحبه مستغلًا حماسته وهيجانه، والذي يقرأ التاريخ يدرك هذا جيدًا، فالبصير الموقن بلقاء

الله وحسابه يكن على باله أن الدماء وإزهاق النفوس لا يستهان بها، فلا يُقدم عليها إلا من بعد الحجة والبرهان عن الله ورسوله ﷺ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: اقتلوهم في أي مكان تمكَّنتم من قتلهم وأبصرتم مقاتلهم، والثقفة بالأمر: الحذق به والبصر، يقال: إنه لثقف لقف، إذا كان جيد الحذر في القتال بصيرًا بمواقع القتل، وأما التثقيف فمعنى غير هذا، وهو التقويم.

قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: الشرك بالله، فابتلاء المؤمن ليصير مشركًا أشد عليه من أن يقتل مقيمًا على دينه، متمسكًا عليه، وقيل: ما أنتم عليه مقيمون أكبر من القتل.

قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقد نسخت بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم بالقتل أو غيره، ومن انتهى فليس بظالم، فلا عدوان عليه.

قوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ إِلاَّ أَنْ يُغْزَى أَوْ يُغْزَوْا، فَإِذَا حَضَرَ ذَلِكَ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ» رواه أحمد، وصححه ابن حجر،

والشهر الحرام هنا: ذو القعدة، وقد صدّ المشركون فيه رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وقد دخل رسول الله ﷺ فيه البيت من العام المقبل، واعتمر وأقام فيه ثلاثة أيام على كره ومراغمة للمشركين، واقتص الله منهم، وذو القعدة سمي بذلك: لأنهم كانوا يحرمون فيه القتل والقتال، فيقعدون فيه عن المغازي والحروب، فسمّاه الله بالشهر الحرام، الذي كانت العرب تسميه به.

قوله: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي: جمع حرمة، وهي الشهر الحرام، والبلد الحرام، وحرمة الإحرام.

قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: قال حذيفة رضي الله عنه: «نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ». رواه البخاري. وعن أسلم بن أبي عمران قال: «غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ، مَهْ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ! فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ رضي الله عنه: إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ: لَمَّا نَصَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَأَظْهَرَ الإِسْلاَمَ قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، فَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ. قَالَ أَبُو عِمْرَانَ: فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ رضي الله عنه يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ». رواه أبو داود بسند صحيح.

عن مدرك بن عوف أنه كان عند عمر رضي الله عنه فقال رجل... وفيه: فقال: يا أمير المؤمنين ورجل شرى نفسه، فقال مدرك بن عوف: ذلك والله خالي يا أمير المؤمنين، زعم الناس أنه ألقى بيده إلى التهلكة، فقال عمر: كذب أولئك ولكنه ممن اشترى الآخرة بالدنيا. رواه ابن أبي شيبة، وصححه ابن حجر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًا لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ». رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أتموا أعمال الحج والعمرة بعد الدخول فيهما وإيجابهما، وذلك بعد أن يقول المحرم: لبيك عمرة، أو لبيك حجًا، فالإتمام واجب وإن كان الحج تطوعًا، أما بالنسبة للعمرة فالصحيح أنها ليست واجبة، وإن كان الظاهر الوجوب، ولكنها مستحبة، فقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْعُمْرَةِ: أَوَاجِبَةٌ هِيَ؟ قَالَ: لاَ، وَأَنْ تَعْتَمِرُوا هُوَ أَفْضَلُ». صححه الترمذي، وفي حديث عمر رضي الله عنه في سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام وفيه: «وَأَن تَحُجّ وَتَعتَمِر». رواه ابن خزيمة بسند صحيح.

أما الحج فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند الشيخين: «بُنِيَ الإِسلامُ عَلَى خَمسٍ» وذكر منها الحج، إلى غير ذلك من الأحاديث الدَّالة على وجوب الحج مرة في العمر، دون العمرة،

ثم إن العمرة قد دخلت في الحج، وقد جاء في حديث جابر ﷺ قال: «فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الْأُخْرَى، وَقَالَ: دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ. مَرَّتَيْنِ. لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ». رواه مسلم.

قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ الإحصار: المنع والحبس عن الوصول إلى البيت الحرام، بمرض، أو كسر، أو سجن، أو ذهاب نفقة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: حابسًا، فإذا كان ذلك أرسل الحاج أو المعتمر هديه: شاة، أو سُبع بقرة، أو سُبع بدنة، وعن جابر ﷺ قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ كُلُّ سَبْعَةٍ مِنَّا فِي بَدَنَةٍ». رواه مسلم، فإذا بلغ محله صار حلالًا، ويقال للبدنة: هدية، وسمي بالهدي؛ لأنه بمنزلة الهدية، يهديها الرجل إلى غيره متقربًا بها إليه.

وعن الحجاج بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كُسِرَ أَوْ عَرِجَ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَوْ مَرِضَ- فَقَدْ حَلَّ، وَعَلَيْهِ الْحَجُّ مِنْ قَابِلٍ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن عائشة ﷺ قالت: «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ لَهَا: لَعَلَّكِ أَرَدْتِ الْحَجَّ؟ قَالَتْ: وَاللهِ لَا أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً. فَقَالَ لَهَا: حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٣٣﴾ فإن لم يتمكن ففي محل أكله والانتفاع به، وقد جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: لما كتب رسول الله ﷺ القضية بينه وبين مشركي العرب، وذلك عام الحديبية، قال لأصحابه: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا. قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا» رواه البخاري، والمعلوم أن الحديبية ليست من الحرم، وقد استدل بها على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج.

قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ النسك في لغة العرب: الذبح لله، وقد جاء في حديث كعب بن عجرة ﷺ، قال: «حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي، فَقَالَ: مَا كُنْتُ أُرَى أَنَّ الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا، أَمَا تَجِدُ شَاةً؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ. فَنَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً، وَهِيَ

لَكُمْ عَامَّةً» متفق عليه. فتبين أن المفتدي له الخيار في فعل أيِّ الثلاث شاء.

أما الترتيب: فإنما يلزم في جزاء قتل الصيد، كما سيأتي في سورة المائدة، قال ابن جرير: ففي أي مكان نسك، أو أطعم، أو صام، فيجزي عن المفتدي. وقال آخرون: الدم والإطعام بمكة، قياسًا على هدي جزاء الصيد، قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ (هديًا): فِعل هدي وجب من جزاء أو فدية في إحرام، فسبيله سبيل جزاء الصيد في وجوب بلوغه الكعبة، وحكم الصدقة له حكم الهدي لأنه مثله، وأجمعوا على أن الصيام مجزئ عن الحالق رأسه من أذى حيث صام من البلاد.

وهل يأكل المفتدي من النسك إن اختاره؟ الصحيح: أن الفدية وجزاء الصيد والنذر لا يُؤكل منها، إنما هي حق للمساكين، أما المتعة، والهدي، والتطوع، والعقيقة، والأضحية فيُؤكل منها، ويستحب التصدق والإهداء ببعضها.

قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ ويشمل التمتع هنا من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولًا، فلما فرغ منها أحرم بالحج، وهذا الأخير هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، أما التمتع العام فهو يشمل كلا الأمرين، والقِران سُمي تمتعًا لأن صاحبه تمتع بإسقاط أحد السفرين، وذلك أن حق العمرة أن تقصد بسفر، وحق الحج كذلك؛ فلما تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هديًا، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من قال: تمتع رسول الله ﷺ، وآخر يقول: قرن، ولا خلاف أنه ساق الهدي.

قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي: في أيام الحج، فلا يتجاوز أيام التشريق، والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، وقد جاء في حديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنهم، قالا: «لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ». رواه البخاري.

قوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يعني: إلى أوطانكم، وقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِشَيْءٍ حَرُمَ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْدَى فَلْيَطُفْ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلْيُقَصِّرْ، وَلْيَحْلِلْ، ثُمَّ لْيُهِلَّ بِالْحَجِّ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ». متفق عليه.

قوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي: لتوكيد الكلام، كما يقال: سمعته بأذني، قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: لا متعة لأهل الحرم خاصة دون غيرهم، وأهل الحرم: كل من كان بمكة وما حولها على مسافة لا يصدق عليها سفرًا؛ لأن حاضر الشيء في كلام العرب هو الشاهد له بنفسه، فمن كان على مسافة يقصر فيها الصلاة ويسوغ الفطر لم يكن كذلك،

وإنما يكون غائبًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: وقت الحج، وهما شهران وبعض شهر؛ لأن العرب لا تمتنع خاصة في الأوقات من استعمال ذلك، فتقول: اليوم يومان منذ لم أره، وإنما تعني: يومًا وبعض آخر، وكما قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وإنما يتعجل في يوم ونصف. وقال البخاري: قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. فكل ذلك يشرع فيه الإهلال بالحج، أما قبل ذلك وبعده فلا يصلح، وهذا مذهب الشافعي، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند ابن خزيمة: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج. أي لا ينبغي أن يكون الحج إلا فيها.

قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: أوجب على نفسه وألزمها، ولبى بالحج.

قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: لا تعريض بذكر الجماع وهو أدنى الرفث.

قوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي: ولا ارتكاب المعاصي كلها، من سباب أو شتام أو تنابز، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ﴾، وقال ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ»، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: الرَّفَث: الجِمَاع، والفُسوق: ما أصيب من معاصي الله من صيد وغيره، والجِدال: السباب والمنازعة. صححه الحاكم.

ومن ذلك ارتكاب ما نهي عنه حال الإحرام من قتل صيد، وأخذ شعر، وتقليم أظفار، أو تطيب، أو لبس مخيط للرجال، ونحو ذلك من محظورات الإحرام. ولا جدال، ولا مماراة للآخرين، مما يؤدي إلى غضب وتغاير للقلوب، سواء كان في مسائل الحج، أو في غيرها من أمور الدنيا أو الدين، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «مَن حَجَّ هَذَا البَيتِ فَلَم يَرفُث وَلَم يَفسُق، رَجَعَ كَيومَ وَلَدَتهُ أُمُّهُ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟﴾ جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ. فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟

فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾». رواه البخاري. وفي حديث أنس ﵁ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا؛ فَزَوِّدْنِي. قَالَ: زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى. قَالَ: زِدْنِي. قَالَ: وَغَفَرَ ذَنْبَكَ. قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! قَالَ: وَيَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ». حسنه الترمذي. وقال ﷺ كما في حديث بريدة ﵁: «النَّفَقَةُ فِي الْحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ». حديث حسن، رواه أحمد.

قوله: ﴿فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قال تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ فذكر اللباس الحسي، ثم عطف عليه اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة، وقد جاء عن أبي هريرة ﵁ قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن أَكثرِ مَا يُدخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ فَقَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ. وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ». صححه الترمذي.

قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ جاء عن ابن عباس ﵄ قال: «كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ فَكَأَنَّهُمْ تَأَثَّمُوا فِيهِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ. قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ». رواه البخاري.

قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ أي: إذا رجعتم من حيث بدأتم، وعرفة: موضع الوقوف في الحج، قيل: هي مأخوذة من العرف، وهو الطيب ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾، بخلاف منى التي فيها الفروث والدماء. وقيل: لأن فيها الصبر والخشوع، يقال رجل عارف: إذا كان صابرًا خاشعًا، وهي عمدة أفعال الحج، وقد جاء عن عبد الرحمن بن يعمر ﵁: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ رَجُلًا يَوْمَ عَرَفَةَ فَنَادَى: الْحَجُّ يَوْمُ عَرَفَةَ، مَنْ جَاءَ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ لَيْلَةِ جَمْعٍ فَتَمَّ حَجُّهُ. أَيَّامُ مِنًى ثَلَاثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ». رواه أبو داود بسند صحيح. وعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مَن مَلَكَ فِيهِ سَمعَهُ، وَبَصَرَهُ، وَلِسَانَهُ غُفِرَ لَهُ». رواه أحمد وصححه ابن حجر.

وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟». رواه مسلم.

ووقت الوقوف بعرفة من الزوال يوم عرفة، إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر، والوقت الفاضل من الزوال يوم عرفة إلى غروب الشمس؛ لما جاء في حديث جابر ﵁ الطويل: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا، حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ خَلْفَهُ، وَدَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ، وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ. كُلَّمَا أَتَى حَبْلًا مِنَ الْجِبَالِ أَرْخَى لَهَا قَلِيلًا، حَتَّى تَصْعَدَ، حَتَّى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا». رواه مسلم.

قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ أي: في المزدلفة، وقد جاء عند الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: المَشعَرِ الحَرَامِ: المُزدَلِفَة كُلهَا. وسميت بالمشعر الحرام: لأنها داخل الحرم، والوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، على قول، لما جاء من حديث عروة بن مضرس رضي الله عنه، قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْمَوْقِفِ -يَعْنِي بِجَمْعٍ- فَقُلْتُ: جِئْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ جَبَلَيْ طَيِّءٍ، أَكْلَلْتُ مَطِيَّتِي، وَأَتْعَبْتُ نَفْسِي، وَاللهِ مَا تَرَكْتُ مِنْ حَبْلٍ إِلاَّ وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَهَلْ لِي مِنْ حَجٍّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَدْرَكَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلاَةَ، وَأَتَى عَرَفَاتٍ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ وَقَضَى تَفَثَهُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وقيل: إن الوقوف بها واجب يجبر بدم، وقد في حديث جابر رضي الله عنه الطويل: «حَتَّى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، وَصَلَّى الْفَجْرَ، حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ، بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ، حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ» رواه مسلم، وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «وَقَفْتُ هَاهُنَا، وَعَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَوَقَفْتُ هَاهُنَا، وَجَمْعٌ كُلُّهَا مَوْقِفٌ» رواه مسلم. وكما يقال لها المشعر والمزدلفة وجمع يقال لها قزح، فقد جاء في حديث علي رضي الله عنه: «فَلَمَّا أَصْبَحَ -يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ- وَوَقَفَ عَلَى قُزَحَ فَقَالَ: هَذَا قُزَحُ وَهُوَ الْمَوْقِفُ». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الضالين.

قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾». متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كثيرًا ما يأمر الله عز وجل بعد قضاء العبادات بذكره، فقد جاء في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا». رواه مسلم. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره الندب إلى التسبيح، والتحميد، والتكبير ثلاثًا وثلاثين.

وهنا -يعني في الحج- أمر الله باستغفاره، وسيد الاستغفار كما قال ﷺ في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَاصَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». رواه البخاري.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل جاء يسأل عن الحج: «فَإِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ تَؤُمُّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لا تَضَعْ نَاقَتُكَ خُفًّا وَلا تَرْفَعُهُ إِلا كَتَبَ اللهُ لَكَ بِهِ حَسَنَةً، وَمَحَا عَنْكَ خَطِيئَةً، وَأَمَّا رَكْعَتَاكَ بَعْدَ الطَّوَافِ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بَعْدَ ذَلِكَ كَعِتْقِ سَبْعِينَ رَقَبَةً، وَأَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَهْبِطُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلائِكَةَ؛ يَقُولُ: عِبَادِي، جَاءُونِي شُعْثًا مِنْ كِلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، يَرْجُونَ رَحْمَتِي، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ كَعَدَدِ الرَّمْلِ، أَوْ كَقَطْرِ الْمَطَرِ، أَوْ كَزَبَدِ الْبَحْرِ لَغَفَرَهَا، أَوْ لَغَفَرْتُهَا، أَفِيضُوا عِبَادِي، مَغْفُورًا لَكُمْ وَلِمَنْ شَفَعْتُمْ لَهُ. وَأَمَّا رَمْيُكَ الْجِمَارِ فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا كَبِيرَةٌ مِنَ الْمُوبِقَاتِ، وَأَمَّا نَحْرُكَ فَمَذْخُورٌ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، وَأَمَّا حِلاقُكَ رَأْسَكَ فَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَلَقْتَهَا حَسَنَةٌ، وَيُمْحَى عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْكَ فَيَقُولُ: اعْمَلْ فِيمَا تَسْتَقْبِلُ، فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى». رواه البزار بسند لا بأس به.

قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ لأنهم كانوا يذكرون فعل آبائهم في الجاهلية لا سيما إذا وقفوا بعرفات، فأمرهم الله تعالى هنا بذكرٍ هو أشد من ذكرهم آباءهم مع التملق والاستكانة، وتضرع كتضرع الولد لوالده والصبي لأمه وأبيه؛ لأنه هو المنعم حقًا، والمتفضل جمًا.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ جاء عن أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾» متفق عليه. وعن عبد الله بن السائب رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ: «﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾» رواه أبو داود بسند حسن، وعن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ، فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سُبْحَانَ اللهِ! لَا تُطِيقُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: لَا طَاقَةَ لَكَ بِعَذَابِ اللهِ-، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟ قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ومن ذكر الله: التوحيد، والتكبير، ورمي الجمار. قال ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ، لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ» رواه أبو داود بسند حسن. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَمَيْتَ الْجِمَارَ كَانَ لَكَ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه البزار، وحسنه ابن حجر.

والأيام المعدودات: أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام بعد النحر، قال ﷺ كما في حديث نبيشة الهذلي رضي الله عنه: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ» رواه مسلم. وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلاَمِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: بعد النحر، شريطة تقوى الله في الحالتين.

قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في هذه الآية إرشاد للمتعجل أن لا يقول للمتأخر: أنت آثم، وإرشاد للمتأخر أن لا يقول للمتعجل: أنت آثم، وقد جاء عن عبد الرحمن بن يعمر رضي الله عنه قال: ««أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ رَجُلًا يَوْمَ عَرَفَةَ فَنَادَى: الْحَجُّ يَوْمُ عَرَفَةَ، مَنْ جَاءَ قَبْلَ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ لَيْلَةِ جَمْعٍ فَتَمَّ حَجُّهُ. أَيَّامُ مِنًى ثَلاَثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ». رواه أبو داود بسند صحيح

ومن التقوى المتابعة بين الحج والعمرة، قال ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ المقصود بهم: المنافقون ومن على شاكلتهم، قوم يجتالون الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصَّبِر، ومنهم من يُشهد الله على ما في قلبه أن قوله موافق لاعتقاده، وأنه مؤمن بالله ورسوله وهو كاذب.

قوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي: شديد الخصومة والمجادلة بالباطل، قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، وقال ﷺ كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي: بالعدوان والظلم، فيحبس الله بسببه القطر، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ، وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ، وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَرُ، وَالدَّوَابُّ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي: الزرع.

قوله: ﴿وَٱلنَّسۡلَ﴾ أي: العقب والولد لكل دابة.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ أي: الحمية والغضب بسبب ما قام في قلبه من الإثم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

قوله: ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: كافيته عقوبة، فهي بئس الفراش والوطاء، وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا تواضع العبد لله رفع الله حكمته، وقال: ارتفع نعشك الله، فهو في نفسه حقير، وفي أعين الناس أمير، وإذا تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض، وقال: اخسأ أخسأك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير، حتى إنه أحقر في أعينهم من الخنزير. ذكره ابن حجر في الأمالي المطلقة، وقال: هذا موقوف صحيح الإسناد.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ يعني: يبيع نفسه طلبًا لرضوان الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وقد جاء عن نعيم بن همَّار: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الَّذِينَ إِنْ يُلْقَوْا فِي الصَّفِّ يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا، أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ فِي الغُرَفِ العُلَى مِنَ الجَنَّةِ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ، وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا فَلاَ حِسَابَ عَلَيْهِ». رواه أحمد بسند حسن.

وعن عبد الله بن حبشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ. قِيلَ: فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ جَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ. قِيلَ: فَأَيُّ الْقَتْلِ أَشْرَفُ؟ قَالَ: مَنْ أُهَرِيقَ دَمُهُ وَعُقِرَ جَوَادُهُ». رواه أبو داود بسند لا بأس به.

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ». رواه الترمذي بسند صحيح.

قال بعض السلف: أمهات الفضائل أربعة:

الأول: العلم بالله عَزَّوَجَلَّ، وبرسوله ﷺ، وبالشرع المنزَّل.

الثاني: الدين والاستسلام لرب العالمين.

الثالث: الشجاعة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ﷻ.

الرابع: الكرم ابتغاء رضوان الله ﷻ.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ أي: طبقوا الإسلام وخذوه جميعًا، ولا تتركوا منه شيئًا، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةً﴾ ونصبت على الحال.

قوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ أي: عدلتم عنه بعد إقامة الحجة.

قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ يعني: المكذبين بمحمد ﷺ وبما جاء به.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: مجيئه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾

قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ قيل: هم القرون الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام، وهم عشرة قرون، وقد جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟، قَالَ: نَعَمْ، مُكَلَّمٌ. قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: عَشَرَةُ قُرُونٍ» صححه ابن حبان. وقد كانوا على الحق، على دين آدم عليه السلام؛ فاختلفوا وتفرقوا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فتوعَّد على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، فكان أول من بعث نوحًا عليه السلام.

قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

مُّسْتَقِيمٍ﴾ جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعدَ غَدٍ». متفق عليه. وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». رواه مسلم.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ جاء في حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ -وفِي رِوَايَةٍ: فَقَعَدَ وهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ- قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ». رواه البخاري.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾، وقد حصل للنبي ﷺ وأصحابه من ذلك يوم الأحزاب، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا: الْفِتَنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ». رواه أبو داود بسند حسن.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢١٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩﴾

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي: عن قتال فيه، وموقع (فِيهِ) بدل اشتمال؛ لأن السؤال اشتمل على الشهر وعلى القتال.

عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ بَعَثَ رَهْطًا، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ أَوْ عُبَيْدَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَنْطَلِقَ بَكَى صَبَابَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَلَسَ فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ مَكَانَهُ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا، وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَقْرَأَ الْكِتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: لَا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى الْمَسِيرِ مَعَكَ. فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ اسْتَرْجَعَ ثُمَّ قَالَ: سَمْعٌ وَطَاعَةٌ لِلهِ وَرَسُولِهِ. فَخَبَّرَهُمُ الْخَبَرَ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، فَرَجَعَ رَجُلَانِ وَمَضَى بَقِيَّتُهُمْ، فَلَقُوا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَتَلُوهُ، وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ أَوْ جُمَادَى، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: قَتَلْتُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ! فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا وِزْرًا فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾. رواه الطبراني وحسنه ابن حجر.

قوله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ يعني: القتال فيه كبير، لأن العرب كانت لا تقاتل فيه؛ فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيجه تعظيمًا لهذا الشهر.

قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرُۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: الصَّد عن سبيل الله، والكفر بالله، والصَّد عن المسجد الحرام، وإخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.

قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: الشرك في المسجد الحرام، وصد المسلم عن دينه، أكبر من القتال الذي استنكرتموه واستكثرتموه، وقد نُسخ النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحرم، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾، وقد تظاهرت الأخبار أن النبي ﷺ غزا هوازن وثقيفًا، وأرسل أبا عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أوطاس في بعض أشهر الحرم.

قوله: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ جاء في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً! فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الْآيَةَ. قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً! فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ نَادَى: أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ. فَدُعِيَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً! فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا». رواه أبو داود بسند صحيح. قال بعض أهل العلم: ودلَّ

على تحريمها أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ والإثم هو: الخمر.

قال الشاعر:

شَـرِبْتُ الْإِثْـمَ حَتَّـى ضَـلَّ عَقْلِـي ... كَـذَاكَ الْإِثْـمُ يَـذْهَبُ بِـالْعُقُولِ

والخمر كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا خَامَرَ العَقْل. متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: القمار، كان الرجل في الجاهلية يقامر الرجل على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله، والميسر مأخوذ من اليسر، والياسر: اللاعب بالقداح، وكل شيء فيه قمار من نرد وشطرنج وبليارد ونحوها، فهو ميسر، حتى لعب الصبيان بالورقة ونحو ذلك، إلا ما أبيح في الرِّهان في الخيل والإبل والرماية.

قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لما يحصل بسببهما من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش.

قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: باللَّذة والفرح في الخمر، وإصابة المال بلا كد في الميسر في بيعها، وربما نفعت البدن في تهضيم الطعام وإخراج الفضلات، وقيل: إن الله سبحانه وتعالى سلب منافعها لَمَّا حَرَّمها، وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ. ذكره البخاري في صحيحه معلقًا، قال الشاعر الجاهلي:

رَأَيْـتُ الْخَمْـرَ صَـالِحَةً وَفِيهَـا ... خِصَـالٌ تُفْسِـدُ الرَّجُـلَ الْحَلِيمَـا

فَـلَا وَاللهِ أَشْـرَبُهَا صَـحِيحًا ... وَلَا أُشْـفَى بِهَـا أَبَـدًا سَـقِيمَا

وَلَا أُعْطِـي بِهَـا ثَمَنًـا حَيَـاتِي ... وَلَا أَدْعُـو لَهَـا أَبَـدًا نَـدِيمَا

فَـإِنَّ الْخَمْـرَ تَفْضَـحُ شَـارِبِيهَا ... وَتُجْنِـيهِمْ بِهَـا الْأَمْـرَ الْعَظِيمَـا

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي: عن قدر الإنفاق.

قوله: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: ما سهل وتيسر وفضل ولم يشق على النفس، قال الشاعر:

خُـذِي الْعَفْـوَ مِنِّـي تَسْـتَدِيمِي مَـوَدَّتِي ... وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

وقال ﷺ كما في حديث حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى» متفق عليه، وفي حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ

مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ قيل إنها نزلت بعد قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. ثم نزلت هذه الآية لتؤكد أنه ليس محظورًا إصلاح أموال اليتامى، ومخالطة طعامهم وشرابهم بطعام الغير وشرابه، وهو من يسر الإسلام؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: أحرجكم فَضَيَّقَ عليكم، ولكنه وسَّع ويسَّر، فقال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي وَالِي الْيَتِيمِ –وَفِي رِوَايَةٍ: الَّذِي يُقِيمُ عَلَيْهِ، وَيُصْلِحُ فِي مَالِهِ– إِذَا كَانَ فَقِيرًا، أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ مَكَانَ قِيَامِهِ عَلَيْهِ بِمَعْرُوفٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: بِقَدْرِ مَالِهِ» متفق عليه. نزلت هذه الآية في والي مال اليتيم.

فالعَنَت: المشقة، كما قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾، وعن ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي فَقِيرٌ لَيْسَ لِي شَيْءٌ، وَلِي يَتِيمٌ! قَالَ: فَقَالَ: كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلاَ مُبَاذِرٍ وَلاَ مُتَأَثِّلٍ». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي: الكافرات عمومًا، ماعدا نساء أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وقد حكى ابن جرير الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات، وقد روي عند ابن أبي شيبة عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر أن خلِّ سبيلها، فكتب إليه: إن كانت حرامًا خلَّيت سبيلها، فكتب إليه: إني لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وكره ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ذلك، فعن نافع، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ نِكَاحِ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ قَالَ: إِنَّ اللهَ حَرَّمَ الْمُشْرِكَاتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَعْلَمُ مِنَ الْإِشْرَاكِ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ رَبُّهَا عِيسَى، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ. رواه البخاري.

قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ هذا بالإجماع على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه؛ لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في اليهودية والنصرانية، تكون تحت

النصراني أو اليهودي، فتسلم هي، قال: يفرق بينهما، الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. رواه الطحاوي. وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾، وفي هذه الآية نص على أنه: «لا نِكَاحَ إلا بِوَلِيٍّ». كما في الحديث، رواه أبو داود بسند جيد. وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، فَإِنْ دَخَلَ بِهَا فَالْمَهْرُ لَهَا بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، فَإِنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾، وقد نزلت هذه الآية في معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما عضل أخته عن مراجعة زوجها. رواه البخاري. ولولا أن له حقًا في الإنكاح ما نهى عن العضل، وقال الله تعالى على لسان شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. وفي حديث حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين تأيمت، وعقد عليها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النكاح ولم تعقده. كما عند البخاري.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا». حديث حسن، رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: المشركون والمشركات.

قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي: يسألونك عن الحيض، قال الشاعر:

إِلَيْكَ أَشْكُو شِدَّةَ الْمَعِيشِ ... وَمَرَّ أَعْوَامٍ نَتَفْنَ رِيشِي

قوله: ﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي قذر ودم نجس، وقد جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ. رواه مسلم.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَتْ إِحْدَانَا إِذَا كَانَتْ حَائِضًا، فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُبَاشِرَهَا؛ أَمَرَهَا أَنْ تَتَّزِرَ فِي فَوْرِ حَيْضَتِهَا، ثُمَّ يُبَاشِرُهَا، وَأَيُّكُمْ يَمْلِكُ إِرْبَهُ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْلِكُ إِرْبَهُ؟». متفق عليه.

والحيض: أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ كما جاء في الحديث عند الشيخين، وإذا نزل بالمرأة لا تصلي، ولا تصوم، ولا يجامعها زوجها، فعن معاذة: «أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَتَجْزِي إِحْدَانَا صَلَاتَهَا إِذَا طَهُرَتْ؟ فَقَالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ كُنَّا نَحِيضُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَا يَأْمُرُنَا بِهِ» متفق عليه. وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا».

متفق عليه.

وقد جاء في غسل دم الحيض حديث أسماء رضي الله عنها قالت: «جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِحْدَانَا تَحِيضُ فِي الثَّوْبِ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟ قَالَ: تَحُتُّهُ، ثُمَّ تَقْرُصُهُ بِالْمَاءِ، وَتَنْضَحُهُ، وَتُصَلِّي فِيهِ» متفق عليه، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «مَا كَانَ لِإِحْدَانَا إِلَّا ثَوْبٌ وَاحِدٌ تَحِيضُ فِيهِ، فَإِذَا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ دَمٍ قَالَتْ بِرِيقِهَا فَقَصَعَتْهُ بِظُفْرِهَا». رواه البخاري.

وعن أم قيس رضي الله عنها قالت: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ دَمِ الْحَيْضِ يَكُونُ فِي الثَّوْبِ، فَقَالَ: حُكِّيهِ بِضِلَعٍ، وَاغْسِلِيهِ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ». رواه أبو داود بسند جيد.

ويلحق دم النفاس بدم الحيض في الحكم تمامًا، ولا تقرب الحائض المساجد، لما جاء في حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: «أُمِرْنَا أَنْ نُخْرِجَ الْحُيَّضَ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَالعَوَاتِقَ- يَوْمَ الْعِيدَيْنِ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَدَعْوَتَهُمْ، وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ عَنْ مُصَلَّاهُنَّ». متفق عليه، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِنِّي لاَ أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلاَ جُنُبٍ». رواه أبو داود بسند حسن.

وأما الاستحاضة وهو: الدم الذي ليس بعادة، ولا طبع فيهن ولا خلقة وإنما هو عرق انقطع، وهو سائل دمه أحمر، فهذا حكمه: أن تكون المرأة فيه طاهرة، لا يمنعها من صلاة، ولا صوم، ولا جماع، بإجماع العلماء، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ أَبِي حُبَيْشٍ، سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ: إِنِّي أُسْتَحَاضُ فَلاَ أَطْهُرُ، أَفَأَدَعُ الصَّلاَةَ، فَقَالَ: لَا إِنَّ ذَلِكِ عِرْقٌ، وَلَكِنْ دَعِي الصَّلاَةَ قَدْرَ الأَيَّامِ الَّتِي كُنْتِ تَحِيضِينَ فِيهَا، ثُمَّ اغْتَسِلِي وَصَلِّي». متفق عليه.

عَنْ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ رضي الله عنها، قَالَتْ: «كُنْتُ أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْتَفْتِيهِ وَأُخْبِرُهُ، فَوَجَدْتُهُ فِي بَيْتِ أُخْتِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَرَى فِيهَا؟ قَدْ مَنَعَتْنِي الصَّلاَةَ وَالصَّوْمَ! فَقَالَ: أَنْعَتُ لَكِ الْكُرْسُفَ؛ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الدَّمَ. قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ! قَالَ: فَاتَّخِذِي ثَوْبًا. فَقَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّمَا أَثُجُّ ثَجًّا! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سَآمُرُكِ بِأَمْرَيْنِ أَيَّهُمَا فَعَلْتِ أَجْزَأَ عَنْكِ مِنَ الآخَرِ، وَإِنْ قَوِيتِ عَلَيْهِمَا فَأَنْتِ أَعْلَمُ. قَالَ لَهَا: إِنَّمَا هَذِهِ رَكْضَةٌ مِنْ رَكَضَاتِ الشَّيْطَانِ، فَتَحَيَّضِي سِتَّةَ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ فِي عِلْمِ اللهِ، ثُمَّ اغْتَسِلِي، حَتَّى إِذَا رَأَيْتِ أَنَّكِ قَدْ طَهُرْتِ وَاسْتَنْقَأْتِ فَصَلِّي ثَلاَثًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَوْ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً وَأَيَّامَهَا، وَصُومِي، فَإِنَّ ذَلِكَ يُجْزِيكِ، وَكَذَلِكَ فَافْعَلِي فِي كُلِّ شَهْرٍ كَمَا تَحِيضُ النِّسَاءُ وَكَمَا يَطْهُرْنَ، مِيقَاتُ حَيْضِهِنَّ وَطُهْرِهِنَّ، وَإِنْ قَوِيتِ عَلَى أَنْ تُؤَخِّرِي الظُّهْرَ وَتُعَجِّلِي الْعَصْرَ، فَتَغْتَسِلِينَ وَتَجْمَعِينَ بَيْنَ الصَّلاَتَيْنِ: الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَتُؤَخِّرِينَ الْمَغْرِبَ وَتُعَجِّلِينَ الْعِشَاءَ، ثُمَّ تَغْتَسِلِينَ وَتَجْمَعِينَ بَيْنَ الصَّلاَتَيْنِ؛ فَافْعَلِي، وَتَغْتَسِلِينَ مَعَ الْفَجْرِ فَافْعَلِي، وَصُومِي إِنْ قَدَرْتِ عَلَى ذَلِكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَهَذَا أَعْجَبُ الأَمْرَيْنِ إِلَيَّ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِنْ قَوِيتِ فَاغْتَسِلِي لِكُلِّ

صَلاَةٍ». رواه أحمد وأبي داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «مَنْ أَتَى امْرَأَةً حَائِضًا فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» حديث صحيح، رواه أبو داود، ومن قربها فعليه أن يتوب توبة نصوحًا، ويستغفر الله، ويتصدق، قال رسول الله ﷺ كما جاءحديث ابن عباس ﵄: «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، قَالَ: يَتَصَدَّقُ بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وَعَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: «كَانَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁ امْرَأَةٌ تَكْرَهُ الْجِمَاعَ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَهَا اعْتَلَّتْ عَلَيْهِ بِالْحَيْضِ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ صَادِقَةٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِخُمُسَيْ دِينَارٍ» رواه الدارمي وحسنه ابن حجر. وعن ابن عباس ﵄ موقوفًا قال: إذا كان دمًا أحمر فدينار، وإذا كان دمًا أصفر فنصف دينار. رواه الترمذي وحسنه ابن حجر.

وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء، أو تتيمم إن تعذَّر ذلك عليها.

قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: في الفرج، ولا تعدوه إلى غيره، إلى الدبر والعياذ بالله، فإنه أمر الشيطان، ومحل الأقذار والأذى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ جاء في حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ». رواه أحمد والنسائي بسند جيد.

وفي الآية إثبات المحبة الإلهية لمن تاب توبة نصوحًا، وتطهر التطهر المشروع، وبالمقابل فيه ذم لمن أقام على المعصية، ورغب عن التوبة، واستحسن النجاسة.

وقد جاء عن عبد الرحمن بن حسنة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا لَقِيَ صَاحِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ كَانُوا إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَوْلُ قَطَعُوا مَا أَصَابَهُ الْبَوْلُ مِنْهُمْ، فَنَهَاهُمْ؛ فَعُذِّبَ فِي قَبْرِهِ» رواه أحمد وأبو داود بسند جيد.

وفي حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ» رواه أحمد وابن ماجه بسند جيد، وقالت عائشة ﵂: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ غَائِطٍ قَطُّ إِلاَّ مَسَّ مَاءً» رواه ابن ماجه بسند جيد.

وفي حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ وَفِي يَدِهِ غَمَرٌ ولَمْ يَغْسِلْه فَأَصَابَهُ شَيْءٌ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». حديث صحيح، رواه أبو داود.

وفي حديث عمار بن ياسر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلاَثَةٌ لاَ تَقْرَبُهُمُ الْمَلاَئِكَةُ: جِيفَةُ الْكَافِرِ،

وَالْمُتَضَمِّخُ بِالْخَلُوقِ، وَالْجُنُبُ إِلاَّ أَنْ يَتَوَضَّأَ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ يعني: موضع الولد، قال الشاعر:

إِنَّمَا الْأَرْحَامُ أَرْضُو ... نَ لَنَا مُحْتَرَثَاتُ
فَعَلَيْنَا الزَّرْعُ فِيهَا ... وَعَلَى اللهِ النَّبَاتُ

ففرج المرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات، و (أَنَّى) بمعنى: كيف ومتى، وقد جاء عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه قال: «كَانَتِ الْيَهُودُ يَقُولُونَ: إذا أَتَى الرَّجُل امْرَأَتهُ فِي قُبلهَا مِن دُبرهَا كَانَ الوَلَدُ أحول؛ فَأَنْزَلَ الله قَولَهُ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾»، وفي رواية عن الزهري: «إِنْ شَاءَ مُجَبِّيَةً، وَإِنْ شَاءَ غَيْرَ مُجَبِّيَةٍ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ» رواه مسلم، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قَالَ: يَأْتِيهَا فِي» رواه البخاري. وفي رواية عند ابن جرير: «نَزَلَت فِي إِتْيَان النِّسَاء فِي أَدْبَارِهن»، يعني: فِي قُبلهَا مِن دُبرِهَا؛ لما جاء عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما: قد أكثر عليك القول أنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى بأن يؤتى النساء في أدبارهن، قال نافع: لقد كذبوا علي، ولكن سأخبرك، كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يومًا، وأنا عنده، حتى بلغ: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال: يا نافع، هل تعلم ما أمر هذه الآية؟ إنا كنا معشر قريش نجبي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار؛ أردنا منهن مثل ما كنا نريد من نسائنا؛ فإذا هن قد كَرِهْن ذلك وأعظمنه، وكانت نساء الأنصار إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. أي: مقبلات ومدبرات ومستلقيات، يعني: موضع الولد. رواه النسائي بسند صحيح، وبنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أبي داود.

وعلى هذا يزول الإبهام فيما رواه نافع قال: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَانٍ، قَالَ: تَدْرِي فِيمَ أُنْزِلَتْ ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: يَأْتِيهَا فِي» رواه البخاري، وفي بعض النسخ: زاد البرقاني: «يعني الفَرجَ».

ثم إنه قد جاء عن أبي الحباب قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: ما تقول، في الجواري حين أحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكرت الدبر. فقال: هل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟. رواه الدارمي بسند جيد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، أَوْ أَتَى امْرَأَةً حَائِضًا، أَوْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». رواه أبو داود، وجوده ابن حجر.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن إتيان المرأة في دبرها؟ فقال: ذلك الكفر. رواه النسائي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا» حديث حسن، رواه أبو داود، وفي رواية: «لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا» رواه ابن ماجه بسند جيد. وفي حديث ابن

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بنحوه، وفيه: «أَتَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً». حسنه الترمذي.

وعن خزيمة بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ». رواه ابن ماجه وصححه ابن الملقن.

وما يروى عن الشافعي أنه يُبيح ذلك، فهو باطلٌ ليس بصحيح، قال أبو نصر الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو: لقد كُذب على الشافعي؛ لأن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه، قال البيهقي: تيقنًا بطرق لا محيد عنها نهي النبي ﷺ عن أدبار النساء، وجزمنا بتحريمه، ولي مصنف في ذلك كبير.

وأما مالك: فقد روى الخطيب من طريق إسرائيل بن روح قال: سألت مالكًا عن ذلك فقال: ما أنتم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع؟.

بقي أن يقال: غريب أن يكون موضع البراز والقاذورات موضع إتيان، وأغرب من ذلك أن ينسب هذا إلى ابن عمر أو غيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو الأئمة الأربعة، وما جاء في هذا من الآثار؛ فهي آثار إما مكذوبة، وإما آثار مبهمة ومجملة، والكل مرده إلى الأحاديث الصريحة الصحيحة أولًا، ثم إلى العقل والفطرة والذوق ثانيًا، ولا أظن أحدٌ عنده دين أو عقل يرغب عن ذلك، وما يأبى ما ذكرنا إلا ثلاثة أجناس: الأول: مَن في قلبه مرض، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، والثاني: الرجل الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، والثالث: الخبيث النجس، وأنت ترى كيف جمع الله عَزَّ وَجَلَّ بين تحريم إتيان الحائض، وبين الإشارة إلى تحريم إتيان النساء إلا فيما يكون فيه الزرع، فالكل ممقوت، والكل نجاسة، وإن كان إتيان الدبر أعظم فحشًا وأشد قبحًا وشناعة من وطء الزوجة وهي حائض، وكما جمعها الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه، فقد جمعها رسوله ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما سبق «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، أَوْ أَتَى امْرَأَةً حَائِضًا، أَوْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». رواه أبو داود وجوده ابن حجر.

قوله: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: من الخير، قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ومن ذلك تقديم تسمية الله عند الجماع، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وقد نزلت هذه في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حين حلف أن لا ينفق على مسطح، كما جاء عند الشيخين،

فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالحنث، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وَاللهِ لَأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ» متفق عليه، فالأيمان لا تمنع الخير والبر عند أهل الخير والبر، ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، قال ﷺ: «إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» متفق عليه.

ومعنى الآية: لا تجعلوا الحلف بالله حجة لكم، وقوة لأيمانكم في ترك فعل الخير؛ لأن العرضة في كلام العرب: الشدة والقوة، يقال: هذا الأمر عرضة لك، يعني: قوة لك، ويقال: فلانة عرضة للنكاح، أي: قوية.

قوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ يعني: أن لا تبروا؛ فلا تفعلوا ما هو برٌ وخير، كما قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ أي: لئلا تضلوا. قال الشاعر:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيكَ وَأَوْصَالِي

والمعنى: لا أبرح.

وقيل: المعنى: لا تستكثروا من اليمين فتكون مبتذلة في كل حق وباطل، فإنه أهيب للقلوب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾، وذم من كثرة الحلف باليمين فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ والعرب تُمتدح بقلة الأيمان، فتكون ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ أي: أقلوا الأيمان لما فيه من البر والتقوى؛ فإن الإكثار يكون معه الحنث، وقلة رعي لحق الله تعالى، والقول الأول أولى وأوجه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾

قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: لَا وَاللهِ، وَبَلَى وَاللهِ» رواه البخاري، واللغو: ما لا يحتاج إليه

في الكلام، أو كان مذمومًا، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾، وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ؛ فَقَدْ لَغَوْتَ» متفق عليه، فمن حلف بسرعة وعجلة ولم يقصد الحلف واليمين فإنه لغو، لا كفارة عليه، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى؛ فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». متفق عليه.

فالقوم حديثي عهد بجاهلية، وقد ألفوا ما كانوا عليه من غير قصد، ويدخل في ذلك مَن حلف على شيء وهو يرى أنه كما حلف عليه وأنه صادق فيه، ومن ذلك من حلف على فعل معصية، أو حلف مكرهًا كل ذلك لا كفارة له.

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يحلفون، والفيء: الرجوع من حال إلى حال، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني: حتى ترجع، وقد آلى النبي ﷺ من أزواجه شهرًا تأديبًا لهن، وقد جاء عند مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إذَا آلَى الرّجُل مِنْ امْرَأتِهِ لَم يَقَع عَلَيْهِ طَلاقٌ، وإنْ مَضَت أرْبَعة أشْهُرٍ حَتّى يُوقف: فَإمّا يُطَلّق، وإمّا أنْ يَفِيء. والفيء هنا كناية عن الجماع، والمعنى: إذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته؛ فليس له الزيادة على أربعة أشهر، وإذا آلى فغشيها قبل الأربعة أشهر كفر عن يمينه.

قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي: حِيَض، أو أطهار، إذا كنَّ ذوات حيض وطهر، لا من كانت حاملًا أو كانت كبيرة لا تحيض، فعدة الحامل وضع حملها، وعدة الكبيرة ثلاثة أشهر -كما سيأتي- وعدة الأمَة حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، أما عدة أم الولد، فقد جاء عند ابن ماجه من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: لا تفسدوا علينا سنة نبينا محمد ﷺ، عدة أم الولد أربعة أشهر وعشرًا.

وعند مالك من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها حيضة. يعني إذا طلقت قبل البناء بها، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾؛ لأن القرء هو الحيض على قول، قال ﷺ لفاطمة بنت حبيش رضي الله عنها: «اجْتَنِبِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ مَحِيضِكِ، ثُمَّ اغْتَسِلِي، وَتَوَضَّئِي لِكُلِّ صَلَاةٍ، ثُمَّ صَلِّي، وَإِنْ قَطَرَ الدَّمُ عَلَى الْحَصِيرِ. وفي رواية: اجْلِسِي أَيَّامَ أَقْرَائِكِ ثُمَّ اغْتَسِلِي» رواه أحمد، وأصله في الصحيحين، فالزوج أحق بها ما لم تنته من الحيضة الثالثة، ويكون طلاقه في طهر لم يجامعها فيه.

وعلى القول الآخر: أن الأقراء هي الأطهار، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَتَدْرُونَ مَا الأَقْرَاءُ؟ وَإِنَّمَا الأَقْرَاءُ: الأَطْهَارُ. رواه مالك. وعلى هذا: فالزوج أحق بها ما لم تحض الحيضة الثالثة.

والحاصل: أن العرب تسمي الحيض: قرءًا، وتسمي الطهر: قرءًا، وتسمي الطهر والحيض جميعًا: قرءًا، ولم يختلف أهل العلم بلسان العرب في ذلك، وإنما اختلفوا في المراد من الآية على قولين، قال هذا ابن عبد البر، ولعل القول الأرجح قول من قال: إن القرء هنا الحيض، والله أعلم.

وتُلحق الأَمَةُ إذا أعتقت في هذا الحكم، وقد جاء عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ: «جَعَلَ عِدَّةَ بَرِيرَةَ عِدَّةَ الْمُطَلَّقَةِ» رواه الدارقطني، وقواه ابن حجر ، وعند ابن أبي شيبة بأسانيد صحيحة عن عثمان وابن عمر، وزيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: أن الأمة إذا أعتقت تحت العبد؛ فطلاقها طلاق عبد، وعدتها عدة حرة.

قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي: أزواجهن، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: ربًّا، لعلوه في الربوبية، فالزوج: بعل؛ لأنه يعلو الزوجة بما قد ملك من عصمتها.

قوله: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحًا﴾ يعني: في العدة، ولا يلزم شيء من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة، وهذا بالإجماع، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٍ﴾ فذكر الإشهاد في الرجعة، ولم يذكره في النكاح، ولا في الطلاق، ولكن إذا راجعها بعد انقضاء العدة، فلا حق له؛ لأنها بانت منه بينونة صغرى، ولذا فهي أحق بنفسها وتصير أجنبية منه لا تحل له إلا بخطبة، ونكاح مستأنف بولي وإشهاد، وهذا فيمن لم يطلق التطليقة الثالثة.

وقد اختلف أهل العلم: هل الرجعة تحصل بالوطء؟ يعني: بالفعل دون القول أم لا؟ ولعل الأقرب حصولها بذلك، لكن يُشهد على ذلك.

واختلفوا هل يسافر بها قبل أن يراجعها أو لا؟ ولعل الأقرب جواز السفر بها؛ لأنها في حكم الزوجات، ترثه ويرثها، كما أن له أن يرى محاسنها ويخلو بها ما دامت في العدة، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، وتعود الحياة الزوجية إلى مجاريها، ويجعل الله بعد عسر يسرًا.

قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: من حسن الصحبة والعشرة والتصنع والْمُآتاة، قال ﷺ كما في حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» رواه مسلم. وفي حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ -أَوِ: اكْتَسَبْتَ-، وَلاَ تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلاَ تُقَبِّحْ، وَلاَ تَهْجُرْ إِلاَّ فِي الْبَيْتِ». رواه أبو داود بسند حسن.

وعن إياس بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللهِ! فَجَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ

اللهِ ﷺ فَقَالَ: ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ! فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ! لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وقد جاء عند البيهقي عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أمراء الأجناد في رجال غابوا عن نسائهم، فأمرهم أن يأخذوهم بأن ينفقوا، أو يطلقوا، فإن طلقوا بعثوا بنفقة ما حبسوا.

قال عمر بن عبد العزيز:

إنِّي لأَمْنَحُ مَنْ يُوَاصِلُنِي ... مِنِّي صَفَاءً لَيْسَ بالمَذْقِ
وَإِذَا أَخٌ لِي حَالَ عَنْ خُلُقٍ ... دَاوَيْتُ مِنْهُ ذَاكَ بِالرِّفْقِ
وَالمَرْءُ يَصْنَعُ نَفْسَهُ وَمَتَى ... مَا تَبْلُهُ يَنْزِعْ إِلى العِرْقِ

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما أحب أن أستنظف حقي عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ رواه ابن أبي شيبة، ولا شك أن ابن عباس رضي الله عنهما إنما أراد الزينة التي تليق بالرجال، ولا تخالف شريعة الإسلام، لا كما يفهم مَنْ لا بصيرة له؛ فربما ذهب إلى حلق لحيته، أو وضع المكياج على وجهه، ونحو ذلك بحجة التزين لزوجته.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ إِلاَّ ثَلاَثٌ: تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمُلاَعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ» حديث حسن، رواه أبو داود، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «وَتَعَلُّمُ الرَّجُلِ السِّبَاحَةَ». رواه النسائي، وحسنه ابن حجر.

قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: منْزلة ورتبة في الميراث، والجهاد، والقوامة، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، وكذا الإمرة، والطاعة، والْخَلق، والْخُلُق، وقد جاء عن قيس بن سعد قال رضي الله عنه: قال ﷺ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ؛ لِمَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: عدد الطلاق الذي يكون فيه الرجعة على زوجته، وقد جاء عند البيهقي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الطلاق بالرجال، والعدة بالنساء. وبعد هذا العدد وهي الطلقة الثالثة تبين بها الزوجة بينونة كبرى؛ فلا تحل حتى تنكح زوجًا غير زوجها الأول.

وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ النَّاسُ، وَالرَّجُلُ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ مَا شَاءَ أَنْ يُطَلِّقَهَا، وَهِيَ امْرَأَتُهُ إِذَا ارْتَجَعَهَا وَهِيَ فِي العِدَّةِ، وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ، حَتَّى قَالَ رَجُلٌ لامْرَأَتِهِ: وَاللهِ لَا أُطَلِّقُكِ فَتَبِينِي مِنِّي،

وَلاَ آوِيكِ أَبَدًا. قَالَتْ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: أُطَلِّقُكِ، فَكُلَّمَا هَمَّتْ عِدَّتُكِ أَنْ تَنْقَضِيَ، رَاجَعْتُكِ، فَذَهَبَتِ الْمَرْأَةُ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَسَكَتَتْ عَائِشَةُ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَاسْتَأْنَفَ النَّاسُ الطَّلَاقَ مُسْتَقْبَلًا، مَنْ كَانَ طَلَّقَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ طَلَّقَ». صححه الترمذي.

وعن علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: ما طلق رجل طلاق السنة فندم أبدًا. رواه ابن أبي شيبة، وصححه ابن حجر.

قوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: فلا يطلق الثالثة ولا يسيء صحبتها.

قوله: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: يطلقها الثانية ويتركها حتى تنتهي عدتها، أو يطلقها الثالثة. والتسريح: من سرح القوم وهو ما أطلق من نعمهم للرعي قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾، ويوفيها حقها، فلا يؤذيها، ولا يشتمها، ويعطيها مهرها إذا كان لها مهر مُؤخر، والمتعة على قدر الميسرة، كما قال تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

وعن أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فَأَيْنَ الثَّالِثَةَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾» رواه الدارقطني بسند لا بأس به.

وهل يلزم الطلاق الثلاث في كلمة واحدة؟

الجمهور: على لزومه.

وابن تيمية وأهل الظاهر: لا يقع إلا واحدة، ولعله أوجه وأرجح، فقد جاء عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: «كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَتَيْنِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَثَلَاثًا- مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ: طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ! فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ» رواه مسلم.

ولا شك أن المعوّل هو ما كان على عهد رسول الله ﷺ، ولاسيما والأمر يتعلق بحكم له تبعاته الشاقة.

والطلاق يكون على ضربين:

١- طلاقُ سنةٍ وقعَ على وجهٍ ندبَ إليه الشارعُ وهو المعتبر.

٢- والآخر: طلاقُ بدعةٍ، كأن يطلق في حيض أو نفاس أو ثلاثًا في كلمة واحدة.

فإن فعل فمن أهل العلم من اعتبره وأمضاه، ومنهم من لم يعتبره وألغاه، وقد ذهب إلى الأخير ابن تيمية، وابن القيم وهو الحق -إن شاء الله- لأن الإسلام لا مكان فيه للبدع، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

رواه مسلم.

وقال تعالى في آيات الطلاق: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، والطلاق من ناحية أخرى على ضربين: صريح، وكناية.

فالصريح: بلفظ الطلاق، لا يحتاج إلى نية.

وأما الكناية: فهو مفتقر إلى نية، كأن يقول: الحقي بأهلك، أو: لا أريدك زوجة، ونحو ذلك، وأما الألفاظ التي ليست من ألفاظ الطلاق، ولا يكنى بِها عن الفراق؛ فالجمهور على عدم إيقاعه، حتى ولو نوى الطلاق، وهو الحق.

قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لا يأخذ الأزواج ما أعطوا من صداق عن طريق المضايقة عليهن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠﴾، وإنما يسرحوهن بإحسان، إلا أن يظنا ويخافا ألا يقيما حدود الله، فالمرأة عندما يكون منها النشوز، والبغض ابتداءً، والزوج يقابل ذلك بالتقصير وترك الحقوق؛ فلا بأس هنا بالمخالعة.

وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «جَاءَتْ امْرَأَةُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لاَ أَعْتِبُ عَلَى ثَابِتٍ فِي دِينٍ وَلاَ خُلُقٍ، وَلَكِنِّي لاَ أُطِيقُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ. قَالَتْ: نَعَمْ» رواه البخاري. وقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ وهذا ما يسمى بالْخُلعِ، وهو جائز إذا كان الشقاق والنشوز من جانب المرأة لا من جانب الرجل، قال تعالى: ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

وقد استدل بهذه الآية على جواز الخُلع بأكثر مما أعطاها، وقد جاء عن مجاهد قال: إذا خلعها جاز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها، ثم تلا هذه الآية.

وجاء عن الربيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: اختلعت فيما دون عقاص رأسي. فأجاز ذلك عثمان رضي الله عنه. رواه ابن الجعد. ولكنه ليس من مكارم الأخلاق، وهو رأي مالك، أما أحمد بن حنبل: فإنه لا يجيز ذلك، وكما أنه لا يُجوِّز للرجل أن يعضل المرأة بغية الافتداء، كذلك لا يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق من غير ما بأس، قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلاَقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ» حديث صحيح، رواه أبو داود من حديث ثوبان رضي الله عنه، وقال ﷺ: «الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ» حديث صحيح، رواه أبو داود من حديث ثوبان رضي الله عنه.

واختلف العلماء: هل الخلع طلاق أو فسخ؟

والصحيح -والله أعلم- أنه ليس بطلاق، وإنما هو فسخ بإكراه؛ لأنه جاء من اختيار الزوجة، لا من اختيار الزوج، وإنما الزوج أُجبر وأُكره على ذلك، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس، وأحمد، وقد جاء عند إسماعيل القاضي، والدارقطني، عن طاوس قال: الخلع ليس بطلاق، فلما أنكر عليه أهل مكة اعتذر وقال: إنما قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. رواه الفاكهي، وعند أحمد بلفظ الخلع تفريق وليس بطلاق، قال أحمد: وليس في الباب أصح منه.

وعلى هذا: من طلق امرأته تطليقتين؛ ثم خالعها؛ ثم أراد أن يتزوجها، فله ذلك، وما سبق من الخلع يكون لغوًا، ثم إن الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك فليس الخلع بشيء، ولكن إذا قبل الزوج المخالعة بارتياح نفس، وطيب قلب، وقناعة بالفراق؛ فإنه يعتبر طلاقًا، ولعل هذا جمع بين القولين، وتكون عدتها عدة المطلقة ثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض، وهو أولى ممن قال: إن عدتها حيضة واحدة وللزوج إرجاعها برضاها بولي وصداق قبل زوج أو بعده.

قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الطلقة الثالثة، بعد أن أرسل عليها الطلاق مرتين، وقد جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إذا طلق العبد امرأته تطليقتين؛ فقد حرمت عليه حتى تنكح زوجًا غيره، حُرَّة كانت أو أمَة، وعدة الحرائر ثلاث حيض، وعدة الأمة حيضتان. رواه مالك.

قوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ أي: يطأها في نكاح صحيح، فلو وطئها في غير نكاح، ولو في ملك اليمين فلا يعتبر؛ لأنه ليس بزوج، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج، لم تحل للأول، كما قال النبي ﷺ لامرأة رفاعة حين طلبت الرجوع إليه بعدما رفضت زوجها الثاني، وقالت: والله يا رسول الله ما معه إلا مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابِها، فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ وَتَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ». متفق عليه.

وأما نكاح المحلل الذي قَصدهُ يُحلها للأول باتفاق معه أو معها؛ إذا صرح بمقصوده في العقد فهو باطل، وقد قال ﷺ كما في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ». حديث صحيح، رواه أبو داود.

وعن عبد الله بن شريك قال: سمعت ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول في رجل تزوج المرأة يحللها، قال: هما زانيان، وإن مكثا عشر سنين، أو عشرين سنة، إذا تزوجها لذلك. رواه مسدد.

قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الثاني، وبانت منه.

قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: لا حرج أن يتزوجها زوجها الأول، وتكون عنده على ثلاث تطليقات إذا كان طلقها أول الأمر ثلاثًا، وقد حكي في ذلك الإجماع.

وأما إذا كان قد طلقها تطليقة أو تطليقتين في أول الأمر، ثم بانت منه وتزوجت، ثم رجعت إلى زوجها الأول، فهل تكون على ما بقي من طلاقها؟ أو تكون عنده على ثلاث تطليقات؟ اختلف العلماء في ذلك، والحق أن الزوج الثاني قد هدم جميع التطليقات، واحدة كانت، أو اثنتين، أو ثلاثًا، وأن المرأة بعد رجوعها إلى زوجها الأول تستأنف الأمر من جديد، وهو قول أبي حنيفة، خلافًا لمذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وقد استدلوا بما جاء عن أبي هريرة ﵁ قال: سألت عمر عن رجل من أهل البحرين طلق امرأته تطليقتين، وانقضت عدتها، ثم تزوجها رجل فطلقها، فرجعت إليه، قال: هي على ما بقي من الطلاق. رواه سعيد بن منصور.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: إذا قاربن بلوغ الأجل.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ لأنها جَدٌّ كلها، من هزل فيها لزمته، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﵁: «ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ». حديث حسن، رواه أبو داود.

وعن سليمان بن أرقم، أن الحسن حدثهم، أن الناس كانوا على عهد رسول الله ﷺ يطلق الرجل أو يعتق، فيقال: ما صنعت؟ فيقول: إنما كنت لاعبًا....قال الحسن: وفيه نزلت: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾. رواه ابن جرير.

ولما قال أهل النفاق ما قالوا، كما أخبر الله ﷻ عنهم في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: لا تحبسوهن ولا تضيقوا عليهن، وكل مشكل عند العرب معضل، قال الشافعي:

إِذَا الْمُعْضِلَاتُ تَصَدَّيْنَنِي كَشَفْتُ حَقَائِقَهَا بِالنَّظَرْ

ومنه: الداء العضال.

وقال الشاعر:

وَلَـيْسَ أَخُـوكَ الـدَّائِمُ الْعَهْـدِ بِالَّـذِي   يَــذُمُّكَ إِنْ وَلَّــى وَيُرْضِــيكَ مُقْــبِلَا
وَلَكِنَّـــهُ النَّـــائِي إِذَا كُنْـــتُ آمِنًـــا   وَصَــاحِبُكَ الْأَدْنَــى إِذَا الْأَمْــرُ أَعْضَــلَا

وقد جاء عن معقل بن يسار رضي الله عنه: أن أخته طلقها زوجها؛ فتركها حتى انقضت عدتها؛ فخطبها؛ فأبى معقل؛ فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾. رواه البخاري.

قوله ﴿يُرْضِعْنَ﴾ أي: وجوبًا، وهو خبر معناه الأمر لبعض الوالدات اللاتي في عصمة الزوج، أو كانت مطلقة، أو كان الأب ميتًا، ولا مال للطفل، وقادرة على الإرضاع والطفل بحاجة إلى اللبن، أما من كانت مطلقة أو يشق عليها الرضاع، أو الطفل لا يحتاج إلى اللبن فالأمر على الندب، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾، والآية فيها دلالة على مبلغ غاية الرضاع التي متى اختلف الوالدان في رضاع المولود بعده، جعل حدًا يفصل به بينهما، وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي، وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ». رواه مسلم . يعني: تكمل رضاعه. وفي حديث البراء رضي الله عنه بلفظ: «إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ» رواه البخاري، وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا». رواه أبو داود، وحسنه ابن حجر.

وأما المطلقة ببينونة فلا رضاع عليها، والرضاع على الزوج إلا أن تشاء هي، فهي أحق بأجرة المثل، هذا مع يسر الزوج، فإن كان معدمًا لم يلزمها الرضاع؛ إلا أن يكون المولود لا يقبل غيرها فتجبر حينئذ على الإرضاع، فإن أصابها عذر يمنعها منه؛ عاد الإرضاع إلى الأب.

قوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ تأكيد على تمام الحولين، لا أنه حول وبعض آخر؛ لأن العرب تقول: أقام فلان حولين، وإنما أقام حولًا وبعض آخر، وكما سبق في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، ومعلوم أن المتعجل إنما يتعجل في يوم ونصف، وهذا حد لجميع الولدان، فالذي مثلًا ولد لستة أشهر، كان رضاعه حولين كاملين، لمن أراد أن يتم الرضاعة، كما قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، والذي وُلِد لتسعة أشهر له حولان لمن أراد أن يتم الرضاعة.

وقد جاء عن بعجة بن عبد الله الجهني قال: «تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان، فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط، فيقضي الله في ما يشاء، فلما أتى بها عثمان أمر

برجمها، فبلغ ذلك عليًا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تمامًا لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم تجده بقي إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدوها قد فرغ منها، قال: فقال بعجة: فوالله ما لغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه قال: ابني والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه الله بهذه القرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات. رواه ابن أبي حاتم، وصححه ابن حجر.

وقد ذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، وقد جاء عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ إِلاَّ مَا فَتَقَ الأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ قَبْلَ الْفِطَامِ» صححه الترمذي، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال النبي ﷺ: «انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ، فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ» متفق عليه.

وذهبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى اعتبار رضاع الكبير، وأنه يؤثر في التحريم، محتجةً بحديث سالم مولى أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه، وكان ذا لحية حتى يدخل عليها، ولا يكون في نفس أبي حذيفة شيء، ففعلت، وخالف عائشة سائر أزواج النبي ﷺ وقلن: «وَاللهِ مَا نَرَى هَذَا إِلا رُخْصَةً أَرْخَصَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لِسَالِمٍ خَاصَّةً، فَمَا هُوَ بِدَاخِلٍ عَلَيْنَا أَحَدٌ بِهَذِهِ الرَّضَاعَةِ وَلا رَائِينَا» رواه مسلم.

وقد ذهب ابن تيمية: إلى أن الرضاع يعتبر فيه الصغر إلا فيما دعت إليه الحاجة، كرضاع الكبير الذي لا يستغنى عن دخوله على المرأة، ويشق احتجابها منه، وتكون قصة سالم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخصصة لعموم: «إِنَّمَا الرضاعةُ منَ المجَاعَة» ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: الأب والد الصبي، عليه رزق أم الصبي المطلقة، وكسوتها بالمعروف ما دامت ترضع ابنه، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾، وكذا إذا كانت المرأة المطلقة حاملًا فعلى الأب النفقة؛ لأنها حامل بابنه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وقد أجمع العلماء على وجوب نفقة الولد على الوالد إذا كان صغيرًا، أو كبيرًا ضعيفًا، أو عاجزًا.

وفي هذه الآية دليل على أن الحضانة للأم، قال ابن المنذر: أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الزوجين إذا افترقا ولهما ولد أن الأم أحق به ما لم تنكح.

وقال أبو عمر ابن عبد البر: لا أعلم خلافًا بين السلف في المرأة المطلقة إذا لم تتزوج أنها أحق بولدها من أبيه، ما دام طفلًا صغيرًا لا يُميِّز شيئًا إذا كان عندها في حرز وكفاية، ولم يثبت فيها فسق ولا تبرج.

وقال ابن المنذر: وقد أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على: أن لا حق للأم في الولد إذا

تزوجت.

قوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: فتأبى أن ترضع طفلها إضرارًا بأبيه، أو تطلب أكثر من أجر مثلها.

قوله: ﴿وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ أي: لا يحل للأب أن يمنع الأم من ذلك مع رغبتها في الإرضاع ليحزنها، ولا تكون العداوة بينهما سببًا للإضرار بالولد، وقد جاء عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ». حديث حسن، رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَ﴾ يعني: على من ورث الصبي بعد موت أبيه، كائنًا من كان، مثل ما كان على أبيه في حياته من أجر رضاعة، أو نفقة للأم والصبي؛ إذا لم يكن للمولود مال، وقيل: المعنى بالوارث: المولود، فيجب عليه إذا ورث أباه إرضاع نفسه، ومثل ما كان على والده من رزق والدته وكسوتها بالمعروف إن كانت من أهل الحاجة، ولا زوج لها تستغني به، وهذا القول وجيه، والقول الأول أوجه، وبه قال أحمد وإسحاق.

وقد استدل بهذه الآية على وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وقد جاء في حديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ مَلَكَ ذَا رَحِمٍ مُحَرَّمٍ فَهْوَ حُرٌّ» رواه أبو داود، وجوده ابن الملقن.

قوله: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي: فطامًا من اللبن قبل الحولين.

قوله: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ أي: لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا احتاج الأمر إلى ذلك، مثل قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أي: كالوا لهم أو وزنوا لهم. قال الشاعر:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ ... فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

أي: أمرتك بالخير.

قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: إذا أعطيتم أجرة ما يرضع به الصبي، كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ

يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: المدخول، وغير المدخول بهن، بالإجماع، فقد جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فِي رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً فَمَاتَ عَنْهَا، وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا، وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا الصَّدَاقَ-، قَالَ: إِنَّ لَهَا صَدَاقًا كَصَدَاقِ نِسَائِهَا، لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ، وَإِنَّ لَهَا الْمِيرَاثَ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ. فَقَامَ نَاسٌ مِنْ أَشْجَعَ فِيهِمْ الْجَرَّاحُ وَأَبُو سِنَانٍ، فَقَالُوا: يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، نَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَاهَا فِينَا فِي بِرْوَعَ بِنْتِ وَاشِقٍ» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: يحتبسن معتدات، فلا زواج، ولا طيب، ولا زينة، ولا مفارقة عن السكن الذي كنَّ يسكنَّه في حياة أزواجهن، قال ﷺ للفريعة بنت مالك -وهي أختُ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه- وكان متوفى عنها زوجها: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: «كُنَّا نُنْهَى أَنْ نُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَلَا نَكْتَحِلَ، وَلَا نَتَطَيَّبَ، وَلَا نَلْبَسَ ثَوْبًا مَصْبُوغًا إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ، وَقَدْ رُخِّصَ لَنَا عِنْدَ الطُّهْرِ إِذَا اغْتَسَلَتْ إِحْدَانَا مِنْ مَحِيضِهَا فِي نُبْذَةٍ مِنْ كُسْتِ أَظْفَارٍ». متفق عليه.

وأما عدم خروج المعتدة من بيتها فقد جاء أن النبي ﷺ قال للفريعة بنت مالك، حين توفي عنها زوجها: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» وقد سبق، فاعتدت فيه أربعة أشهر وعشرًا، وإن كان قد جاءها النعي في غير بيت زوجها؛ فإنها ترجع إلى بيت زوجها، ويجوز لها أن تخرج في حوائجها، ولكن لا تبيت إلا في منْزل زوجها، وهذا الإحداد يدخل فيه: الحرائر، والإماء، الكبار والصغار، ويشمل الإحداد المطلقة طلاقًا رجعيًا، أما البائن بينونة صغرى أو كبرى فلا؛ لأنها ترثه ويرثها.

قوله: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾ أي: بخلاف الحوامل، فإن عدَّتهنَّ بوضع الحمل، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾، وقد جاء من حديث سبيعة الأسلمية رضي الله عنها: «أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ -وَهُوَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا- فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ -رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ- فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ، تُرَجِّينَ النِّكَاحَ؟ فَإِنَّكِ وَاللهِ! مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، وَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي» رواه مسلم. قال ابن شهاب: فلا أرى بأسًا أن تتزوج حين وضعت، وإن كانت في دمها غير أن لا يقربها زوجها حتى تطهر.

وأما الأمة فعدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أبيح لهن فيه ما كان محظورًا عليهن، وذلك بعد انتهاء العدة.

قوله: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: من تطيب، وتزين، وانتقالٍ من مسكن، ولكن بالمعروف، بما أذن الله فيه وأباحه، وقد جاء عن أم مُبَشِّرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ امْرَأَةَ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، فَقَالَتْ: إِنِّي شَرَطْتُ لِزَوْجِي أَنْ لا أَتَزَوَّجَ بَعْدَهُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ هَذَا لا يَصْلُحُ». رواه الطبراني وحسنه ابن حجر.

وأما بالنسبة لمن فقدت زوجها؛ فقد جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في امرأة المفقود: تربص أربع سنين. رواه ابن أبي شيبة. فإن تزوجت؛ فقد جاء عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لو تزوجت امرأة المفقود فهي امرأة الأول، دخل بها الثاني أو لم يدخل. قال ابن حجر: أخرجه أبو عبيد بسند حسن.

قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا حرج أيها الرجال من التعريض في خطبة النساء، وهو ما كان من لحن الكلام الذي يفهم به السامع، لا مما يفهم بصريحه، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية قال: «يَقُولَ: إِنِّي أُرِيدُ التَّزْوِيجَ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّهُ يُسِّرَ لِي امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ» رواه البخاري. ولا ينتصب للخطبة ما دامت في العدة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: «فَإِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي» رواه مسلم.

أما المطلقة طلاقًا رجعيًا ولم تنته من العدة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها؛ لأنها لا زالت زوجة لمن طلقها، ترثه ويرثها، تحل له ويحل لها.

قوله: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أخفيتم من خطبتهن العزم على نكاحهن وهن في العدة، والمكنون: المخبوء والمستور، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: إما سرًا، وإما إعلانًا، في نفوسكم، أوبألسنتكم، فرخص في التعريض دون التصريح.

قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: أخذ العهد عليهن أن لا ينكحن غيركم، أو القول: إني ناكحك صريحة.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: التعريض المذكور سلفًا.

قوله: ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ يعني: في العدة، وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ يعني: تمام العدة، والكتاب: هو الحد الذي جعل في المدة، وسُمِّيَ كتابًا، لأن حدَّه وفرضه كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ فالكتاب: الفرض، يعني: حتى يبلغ الفرض أجله، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: فُرِضَ.

وقد جاء عند أبي داود والترمذي بسند جيد: أَنَّ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ – وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: «جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ؛ فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدٍ لَهُ أَبَقُوا، فَقَتَلُوهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي؛ فَإِنِّي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَسْكَنٍ يَمْلِكُهُ، وَلَا نَفَقَةٍ، فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَخَرَجْتُ، ثُمَّ دَعَانِي فَقَالَ: كَيْفَ قُلْتِ؟ فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَقَالَ: امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ. قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرْتُهُ فَاتَّبَعَهُ، وَقَضَى بِهِ».

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها، ولكن تُعطى التعويض من زوجها بحسب حاله.

قوله: ﴿مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ﴾ أي: وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهرًا، كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَاهَا فَجَاءَهَا بَأۡسُنَا بَيَاتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ أي: وهم قائلون.

قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

اختلف العلماء هل تجب المتعة؟ أي: التعويض لكل مطلقة، أو إنما تجب لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تجب لكل مطلقة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾.

والقول الثاني: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كان مفروضًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾، وقد جاء عن سهل بن سعد، وأبي أسيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: «تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَاحِيلَ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقِيَّيْنِ». رواه البخاري معلقًا.

القول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها وجب المهر، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع وكان عوضًا لها عن المتعة.

وكل قول له وجه، ولكن القول الأول أوجه الجميع، قال تعالى: ﴿مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وفي الآية الأخرى على المتقين: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وهي دلالة على الوجوب، لقوله: ﴿حَقًّا﴾ أوجبت فأحققت، ولقوله: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾؛ لأن الله ﷻ بيَّن حكم طلاق صنفين من طلاق النساء، أحدهما: المفروض له، والآخر: غير مفروض له. ولذلك قال سبحانه: ﴿أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾ أي: قبل المسيس؛ لأن الله قال: ﴿مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾، ثم قال: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ فأوجب المتعة للصنفين.

وقال سعيد بن جبير: لكل مطلقة متاع بالمعروف. وقد انعقد الإجماع على أن المتعة للمطلقة غير المفروض لها قبل المسيس واجبة بقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ ووجوب نصف الصداق للمطلقة المفروض لها قبل المسيس بقوله: ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾، والحكمة من إيجاب المتعة للمطلقة تأليف قلبها، وجبر خاطرها الذي كُسر بالطلاق.

وخلاصة القول أن المطلقات أربع:

١- مطلقةٌ مدخولٌ بها مفروضٌ لها كما في هذه الآية، فلا يُسترد منها شيء من المهر، وعدتها ثلاثة قروء.

٢- ومطلقةٌ غير مفروضٍ لها ولا مدخول بها: فهذه الآية في شأنها ولا مهر لها، ولها المتعة، كما في آية الأحزاب ولا عدة عليها.

٣- ومطلقةٌ مفروضٌ لها غير مدخول بها: ذكرها الله بعد هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾.

٤- ومطلقةٌ مدخولٌ بها غير مفروض لها: ذكرها الله ﷻ بقوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ أي: اللواتي أُحل لهن عليكم نصف تلك الفريضة، فيتركنه لكم.

قوله: ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ أي: الزوج يعطيها الصداق كاملًا، وقيل: ولي المرأة، والقول الأول: هو الأرجح؛ لأن الآية قسمان: قسم يخص المرأة ومن معها من أوليائها، لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾، وقسم يخص الزوج الذي يملك عقدة النكاح، فإن شاء أمضاه وأمسك المرأة، وإن شاء فسخه

وطلقها.

قوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: الرجال والنساء.

قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: لا تنسوا الإحسان والصلة، وليتفضل الزوج بتمام الصداق، أو العفو عما يجب له الرجوع به عليها، فإن شح فلتتفضل المرأة بذلك برد جميعه عليه، إن كانت قد قبضته منه، فإن لم تكن فتعفو عن جميعه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أي: في وقتها، فعن ابن مسعود ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا» متفق عليه، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ: مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ: عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ، وَصَامَ رَمَضَانَ، وَحَجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَأَدَّى الأَمَانَةَ. قَالُوا: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، وَمَا أَدَاءُ الأَمَانَةِ؟ قَالَ: الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: «صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْرِعًا، قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، وَقَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: أَبْشِرُوا! هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي: قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى». رواه ابن ماجه بسند جيد.

وقوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ أي: العصر، ووسط الشيء: خيره وأعدله، وقد جاء في حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق: «حَبَسُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى -وَفِي رِوَايَةٍ: (وَهِيَ) صَلَاةُ الْعَصْرِ- حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ؛ مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ -أَوْ: أَجْوَافَهُمْ- نَارًا» متفق عليه.

ولصلاة العصر مزية، قال ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ» متفق عليه، وفي حديث بريدة رضي الله عنه قال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» رواه البخاري.

وفي حديث أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا، فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَا صَلَاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ. وَالشَّاهِدُ النَّجْمُ» رواه مسلم.

وأما مع صلاة الفجر فقد قال ﷺ كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» متفق عليه. وعند مسلم من حديث عمارة بن رُؤَيبَة الثقفي، قال ﷺ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا. يَعْنِي الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ»، وفي حديث جرير رضي الله عنه قال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ- كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾». متفق عليه.

قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أجمعت الأمة على أن القيام في صلاة الفرض واجب على كل صحيح قادر، إمامًا أو مأمومًا، فإن صلَّى الإمام قاعدًا لعذر فللمأمومين حينئذ أن يصلوا قعودًا كما ثبت في حديث أنس، وأبي هريرة رضي الله عنهما قال ﷺ: «وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا، فَصَلُّوا جُلُوسًا أجمَعُونَ». متفق عليه.

قوله: ﴿قَٰنِتِينَ﴾ جاء في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «إِنْ كُنَّا لَنَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، يُكَلِّمُ أَحَدُنَا صَاحِبَهُ بِحَاجَتِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ». متفق عليه. فالقنوت يراد به: الطاعة والخضوع والخشوع والسكوت والدعاء والقيام، قال ﷺ كما في حديث جابر رضي الله عنه: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ». رواه مسلم. وفي حديث عبد الله بن حُبْشي رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: طُولُ الْقِيَامِ»، رواه أبو داود بسند حسن.

قال ابن القيم: والقنوت يكون خاصًا كقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، وقد يكون عامًا كقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا﴾ أي: صلُّوا قيامًا على أرجلكم بالأرض، أو مشاة، قال تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: مشاة وركبانًا.

قوله: ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: على الدَّواب مستقبلي القبلة، أو غير مستقبليها، وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما وصف صلاة الخوف، قال: «فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ هُوَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ صَلَّوْا رِجَالًا قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا، (مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ، أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا. قَالَ نَافِعٌ: لَا أُرَى عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ» متفق عليه، وفي رواية: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «فَإِذَا كَانَ خَوْفٌ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَلِّ رَاكِبًا أَوْ قَائِمًا تُومِئُ إِيمَاءً» رواه مسلم.

وعن عبد الله بن أنيس الجهني رضي الله عنه قال: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى خَالِدِ بْنِ سُفْيَانَ الْهُذَلِيِّ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ. قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَحَضَرَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا أَنْ أُؤَخِّرَ

الصَّلَاةَ، فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي وَأَنَا أُصَلِّي أُومِئُ إِيمَاءً». رواه أبو داود بسند حسن.

فإن لم يقدروا على الإيماء أخَّروا الصلاة حتى ينكشف القتال، قال أنس رضي الله عنه: «حَضَرْتُ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ حِصْنِ تُسْتَرَ عِنْدَ إِضَاءَةِ الْفَجْرِ وَاشْتَدَّ اشْتِعَالُ الْقِتَالِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ، فَلَمْ نُصَلِّ إِلَّا بَعْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ، فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى، فَفُتِحَ لَنَا. وَقَالَ أَنَسٌ: وَمَا يَسُرُّنِي بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». رواه البخاري معلقًا.

ومثل ذلك ما سبق من تأخير صلاة العصر يوم الخندق، وقول النبي ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ (الْعَصْرَ) إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ. فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ (الْعَصْرُ) فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي؛ (لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ). فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ». متفق عليه.

قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: صلوا كما أمرتم بالتمام والكمال، كما قال تعالى في سورة النساء بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ﴾ جاء عند البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال: يا ابن أخي، لا أغير شيئًا منه من مكانه. ومعنى كلام عثمان: أن الأمر توقيفي، وأنه وجدها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدها. والمعنى: أن مقام المتوفى عنها زوجها في بيت زوجها حول كامل، ثم نزلت قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ وقبل نزول الميراث، وكما قال ﷺ كما في حديث زينب بنت أم سلمة: «إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ! وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ» متفق عليه، قال ابن عبد البر: وقد انعقد الإجماع على ذلك.

قوله: ﴿غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ﴾ أي: ليس لأولياء الميت ووارثي المنْزل إخراجهن حولًا كاملًا إن اخترن ذلك.

قوله: ﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖ﴾ أي: إذا انقضت عدتهن بأربعة أشهر وعشرًا، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج فلا يمنعن من ذلك.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي: ألم تعلم؟ فالرؤيا رؤية قلب، لا رؤية عين.

قوله: ﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾ أي: جمع ألف، وقيل: وهم مؤتلفون، والأول أقوى، خرجوا فرارًا من الطاعون أو من الجهاد.

قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وأصل القرض: القطع، ومنه: المقراض، وأقرضت له من مالي أي: قطعت له، والقرض الحسن هو الذي جمع أوصاف الحسن، من نية صالحة، وسماحة صادقة.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ جاء عند أبي داود بسند صحيح من حديث أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ غَلا السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، غَلاَ السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلاَ مَالٍ»، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، سَعِّرْ! فَقَالَ: بَلْ أَدْعُو. ثُمَّ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، سَعِّرْ! فَقَالَ: بَلِ اللهُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو...». رواه أبو داود بسند صحيح.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدُومٍ وَلَا ظَلُومٍ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ أي: أشراف الناس، كأنهم ممتلئون شرفًا، وقيل: القوم، قال ﷺ كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه: «أَحْسِنُوا الْمَلَأَ، كُلُّكُمْ سَيَرْوَى». رواه مسلم.

قوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ يعني: هل أنتم، قريب من التولي والفرار؟

قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: التابوت أو الصندوق الذي كان بنو إسرائيل إذا لقوا عدوًا لهم غلبوهم به، وقد قيل كان هذا التابوت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، كعصا موسى، ورضاض من الألواح حين انكسرت، وثياب موسى وهارون، وكانوا يستفتحون به على عدوهم ويقدمونه في القتال، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتتقوى، فلما عصوا الله سُلِب منهم، فغلبهم أعداؤهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ وقال

ﷺ لأسيد بن الحضير رضي الله عنه حين تغشته سحابة وهو يقرأ سورة الكهف: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ» متفق عليه. والسكينة في كلام العرب من قول: سكن فلان إلى فلان كذا وكذا، إذا اطمأن إليه وهدأت عنده نفسه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي: رَحَلَ بالجند وخرج بهم للجهاد، وقد جاء عن البراء رضي الله عنه، قال: «حَدَّثَنِي أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا: أَنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهَرَ، بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ. قَالَ الْبَرَاءُ: لَا وَاللهِ مَا جَاوَزَ مَعَهُ النَّهَرَ إِلَّا مُؤْمِنٌ». رواه البخاري.

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي: يوقنون بالبعث.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ يعني: صاروا في البراز، وهو الأفيح من الأرض المتسعة.

قوله: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وكان رسول الله ﷺ إذا لقي العدو يقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ» حديث صحيح، رواه أبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وعن أبي موسى رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ» رواه أبو داود بسند جيد، ودعا النبيُّ ﷺ يومَ بدر حتى سقط رداؤه وهو يقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ» رواه مسلم، وكان يقول كما في حديث عبد الله ابن أبي أوفى رضي الله عنه عندما يلقى العدو: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ -وَفِي رِوَايَةٍ: سَرِيعَ الْحِسَابِ- اهْزِمْهُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَزَلْزِلْهُمْ-، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ» متفق عليه. وعند مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه في قصة صاحب الأخدود حين قال: «فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا

بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ» الحديث.

قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ وذلك أن طالوت اختار داود من بين قومه لقتال جالوت. وأعطى داود ملك طالوت من بعده.

قوله: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: النبوة.

قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: منطق الطير، وصناعة اللبوس وهي: الدروع، وأعطاه من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ إلى آخر الآيات في سورة سبأ.

قوله: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: أهل الطاعة بالحق الذي معهم يدفعون باطل أهل الباطل، وقيل: يدفع الله العذاب بمن يعبده حقًا، عمن هو مفرط في جنب الله، كما قال الشاعر:

لَوْلَا عِبَادٌ لِلْإِلَهِ رُكَّعُ ... وَصِبْيَةٌ مِنَ الْيَتَامَى رُضَّعُ
وَمُهْمَلَاتٌ فِي الْفَلَاةِ رُتَّعُ ... صُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ الْأَوْجَعُ

وقيل: لولا أن الله يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود عليه السلام، لهلكوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ...﴾ هذه آية الكرسي، وقد أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». رواه مسلم.

وفي حديث أُبي ابن كعب رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ عن آية الكرسي: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ المَلِكَ عِنْدَ سَاقِ العَرْشِ» رواه أحمد بسند جيد.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ... وذكر القصة وفيها: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا؛ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ-، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ. تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ» رواه البخاري معلقًا.

وفي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ جَرِينٌ فِيهِ تَمْرٌ، وَكَانَ مِمَّا يَتَعَاهَدُهُ فَيَجِدُهُ يَنْقُصُ، فَحَرَسَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِدَابَّةٍ كَهَيْئَةِ الْغُلَامِ الْمُحْتَلِمِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: مَا أَنْتَ، جِنٌّ أَمْ إِنْسٌ؟ فَقَالَ: جِنٌّ. فَقُلْتُ: نَاوِلْنِي يَدَكَ. فَإِذَا يَدُ كَلْبٍ، وَشَعْرُ كَلْبٍ! فَقُلْتُ: هَكَذَا خُلِقَ الْجِنُّ؟! فَقَالَ: لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنُّ أَنَّهُ مَا فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنِّي. فَقُلْتُ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ؛ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُصِيبَ مِنْ طَعَامِكَ. قُلْتُ: فَمَا الَّذِي يَحْرِزُنَا مِنْكُمْ؟ فَقَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ، آيَةُ الْكُرْسِيِّ. قَالَ: فَتَرَكْتُهُ، وَغَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: صَدَقَ الْخَبِيثُ» رواه ابن حبان بسند جيد.

وعن علي رضي الله عنه قال: ما أرى أحدًا يعقل في الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي. رواه ابن أبي شيبة.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلا أَنْ يَمُوتَ» رواه الطبراني بسند حسن.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ كَانَ فِي ذِمَّةِ اللهِ إِلَى الصَّلاةِ الأُخْرَى» رواه الطبراني بسند حسن.

والقيوم: من القيام، والقيِّم: القائم برزق ما خلق، قال الشاعر:

إِنَّ ذَا الْعَرْشِ لَلَّذِي يَرْزُقُ النَّا ... سَ وَحَيٌّ عَلَيْهِمْ قَيُّومُ

وعن علي رضي الله عنه قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَاتَلْتُ شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ، ثُمَّ جِئْتُ مُسْرِعًا لأَنْظُرَ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ، يَقُولُ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا حَيُّ يَا قَيُّوم. لا يَزِيدُ عَلَيْهِمَا، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَهُوَ يَقُولُ ذَلِكَ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ» رواه البزار بسند حسن. وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ، وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ». رواه النسائي بسند صحيح.

قوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ السِّنَة: النعاس، وهو ما كان في العين، فإذا صار في القلب صار نومًا، وقد جاء في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ -وَفِي رِوَايَةٍ: يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ-، حِجَابُهُ النُّورُ -وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ-، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» رواه مسلم.

قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ كقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ كقوله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾، وكقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ كقوله إخبارًا عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾.

قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾، و كما قال الله تعالى عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾، وكقول الخضر لموسى عليه السلام حين نقر العصفور من البحر: «يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ» متفق عليه.

قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الكرسي موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره. صححه الحاكم، وعن أبي موسى رضي الله عنه مثله. رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة، وصححه ابن حجر.

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ» صححه ابن حبان.

وقد يطلق الكرسي ويراد به العرش، فقد جاء عن جابر ﵁ قال: «لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ، الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا!. قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: صَدَقَتْ! صَدَقَتْ! كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟» رواه ابن ماجه بسند جيد.

وعن ثعلبة بن الحكم ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا قَعَدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ لِقَضَاءِ عِبَادِهِ: إِنِّي لَمْ أَجْعَلْ عِلْمِي، وحُكْمِي فِيكُمْ، إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ، عَلَى مَا كَانَ فِيكُمْ، وَلَا أُبَالِي». حديث حسن، رواه الطبراني.

قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ أي: لا يشغله، ولا يشق عليه.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ والعلو: هو علو الذات والقدر والمنْزلة، فهو الشريف العالي عن خلقه، البائن منهم، الذي ليس فوقه شيء.

قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ جاء عند أبي داود عن ابن عباس ﵄ قال: كانت المرأة تكون مقلاتًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، قال أبو داود: المقلات التي لا يعيش لها ولد.

وقيل: إن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النَّسخ والتبديل، إذا أدّوا الجزية، والذين يُكرهون هم أهل الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

وقيل: إنها منسوخة بآية القتال، وإنه يجب أن يدعى جَميع الأمم، فمن أبَى ولم يقبل الجزية قوتل، قال تعالى: ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وفي حديث أبي هريرة ﵁، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: «عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ» رواه البخاري، وعن أنس ﵁: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمْ. قَالَ: أَجِدُنِي كَارِهًا! قَالَ: أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا» رواه أحمد بسند صحيح. والمعنى: إن الله سيرزقك حسن النية.

قوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي: الحق والصواب، من الباطل، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ

وَمَا غَوَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: كل من طغى على الله، وكل رأس في الضلال، إنسانًا كان أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو ساحرًا، أو كاهنًا، فهو طاغوت، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، وقد يكون واحدًا أو جمعًا، قال تعالى: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ والجمع طواغيت.

قوله: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: الإسلام، وهو عروة متينة، كم جاء في تأويل النبي ﷺ لرؤيا عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «الرَّوْضَةُ الإِسْلَامُ، وَذَلِكَ العَمُودُ عَمُودُ الإِسْلَامِ، وَتِلْكَ العُرْوَةُ عُرْوَةُ الوُثْقَى، فَأَنْتَ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ» متفق عليه. قال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾.

قوله: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انكسار لها ولا انقطاع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾

قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وقوله عن رسوله ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» متفق عليه.

قوله: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فالحق واحد، والكفر أجناس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: بقلبك، وهو استفهام تعجب، يعني: أعجبوا إلى الذي حاج في وجود ربه وزعمه أنه الإله، وهو ملك من الملوك، يقال: إنه النمرو بن كنعان، مَلَكَ الدنيا كلها. قال مجاهد: مَلَكَ الدنيا مشارقها ومغاربها أربعةٌ: مؤمنان، وكافران، المؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود، وبختنصر.

قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: سكت وأُخرس لانقطاع حجته.

قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، وخالية من أهلها، فالعروش: الأبنية، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.

قوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: كان معه مأكول ومشروب، فقال له الله تعالى: انظر إلى ما معك من طعام وشراب فإنه لم يتغير منه شيء مع طول الزمان.

قوله: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: ننشرها ونركب بعضها على بعض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾، والنشز: المرتفع من الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ أي: ترفعًا، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي: ارتفعوا وانضموا.

قوله: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ الكسوة: ما وارى من الثياب، وشبه اللحم به، قال لبيد:

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي ... حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلَامِ سِرْبَالَا

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ» متفق عليه. والمعنى: إذا لم أشك أنا في

قدرة الله على إحياء الموتى، وأنتم تعلمون ذلك جيدًا، فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وهذا على سبيل التواضع لأبيه إبراهيم، وأخيه يوسف، وقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما فيه طلبُ زيادةِ العلم واليقين والإيمان بالعيان؛ فإن العيان يفيد المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال؛ كما قال النبي ﷺ في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ» رواه أحمد بسند حسن.

قوله: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: قَطِّعْهُن قطعًا. يقال: صار الشيء يصوره أي قطعه.

فَلَمَّا جَذَبْتُ الْحَبْلَ أَطَّتْ نُسُوعُهُ ... بِأَطْرَافِ عِيدَانٍ شَدِيدٍ سُيُورُهَا
فَأَدْنَتْ لِي الْأَسْبَابُ حَتَّى بَلَغْتُهَا ... بِنَهْضِي وَقَدْ كَادَ ارْتِقَائِي يَصُورُهَا

والمعنى فيه تقديم وتأخير، فخذ أربعة من الطير إليك فصرهن، وقيل: المعنى: أملهن إليك ثم قطعهن.

قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ» رواه مسلم، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى بِلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعِنْدَهُ صُبَرٌ مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: أَدَّخِرُهُ. فَقَالَ: أَمَا تَخْشَى أَنْ تَرَى لَهُ بُخَارًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ أَنْفِقْ بِلالُ! وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا». رواه البزار بسند لا بأس به.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ- فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» متفق عليه. فعمل المخلص لا يبور، بل يتقبله الله وينميه، حتى إذا مات العبد وجد ما يسرُّه من فضل الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها.

والْمَنُّ: ذكر النعمة على معنى التعديد والتقريع بها، أو التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطي

فيؤذيه، وهي من الكبائر، قال ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ثَلَاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ. وَثَلَاثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى» رواه النسائي بسند جيد.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لا يَقْبَلُ اللهُ لَهُمْ صَرْفًا وَلا عَدْلا: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ» رواه ابن أبي عاصم في السنة بسند حسن.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: خَابُوا وَخَسِرُوا! مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» رواه مسلم.

والأذى: السَّبُ، والتَّشكِّي، وهو أعمّ من الْمنّ؛ لأن الْمَنّ جزء من الأذى ونص عليه لكثرة وقوعه.

قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: جميل، كدعاء، أو تلقي بوجه طلق، قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» رواه مسلم.

تَلْقَى الْكَرِيمَ فَتَسْتَدِلُّ بِبِشْرِهِ ... وَتَرَى الْعُبُوسَ عَلَى اللَّئِيمِ دَلِيلًا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ صَائِرٌ ... خَبَرًا فَكُنْ خَبَرًا يَرُوقُ جَمِيلًا

قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وستر منه لما علم من خلته وسوء حالته، والتجاوز عنه إذا ألح وأغلظ وجفا.

قوله: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي: الصفا، وهي الحجارة الملساء.

قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ أي: المطر الشديد العظيم المتتابع، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديدًا.

قوله: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي: جردًا نقيًا، لا شيء عليه من نبات وغيره، وهو من الأرض، ما لا ينبت فيه شيء.

قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: استئناف لبيان مثل المنافق المنفق رئاء الناس، أي: لا يجدون له ثوابا في الآخرة، كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب الذي كان عليه لإذهاب المطر له.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم

بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

قوله: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تثبتًا أين يضعون صدقاتهم، وقيل: يتثبت، فإن كان لله أمضاه، وإن خالطه شك أمسك، وقيل: متحققين ومتثبتين، صحيحة عزائمهم، موقنين أن الله سيجازيهم، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» متفق عليه. وهذا الأخير هو الأرجح.

قوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: ما ارتفع من الأرض عن السيل، سُميت رَبوَة لأنَّها ربت، أي: انتفخت فعظمت، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: زائدة.

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: الرذاذ، أو المطر الضعيف من القطر الخفيف أو الندى.

قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ! فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا نَعْلَمُ، أَوْ لَا نَعْلَمُ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ» رواه البخاري.

قوله: ﴿إِعْصَارٌ﴾ أي: ريح شديدة فيها سموم تهب من الأرض إلى السماء كأنها عمود.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ- فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكُمْ؛ فَكُلُوا مِنْ كَسْبِ أَوْلَادِكُمْ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: النبات والمعادن والرّكاز.

قوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: لا تعمدوا ولا تقصدوا وتؤموا، وقوله: ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ أي: الردئ غير الجيد.

وقد جاء عن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْجُعْرُورِ وَلَوْنِ الْحُبَيْقِ أَنْ يُؤْخَذَا فِي الصَّدَقَةِ» رواه أبو داود بسند جيد. قال الزهري: هما لونين من تمر المدينة. فنهى رسول الله ﷺ أن يؤخذا في الصدقة.

وعن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسْجِدَ وَبِيَدِهِ عَصًا، وَقَدْ عَلَّقَ رَجُلٌ قَنَا حَشَفًا، فَطَعَنَ بِالْعَصَا فِي ذَلِكَ الْقِنْوِ، وَقَالَ: لَوْ شَاءَ رَبُّ هَذِهِ الصَّدَقَةِ تَصَدَّقَ بِأَطْيَبَ مِنْهَا. وَقَالَ: إِنَّ رَبَّ هَذِهِ الصَّدَقَةِ يَأْكُلُ الْحَشَفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ أي: تتغاضوا فيه وتتساهلوا.

قوله: ﴿يَعِدُكُمُ﴾ أي: يخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم كي لا تنفقوا. ويقابل ما أمر به الشيطان من الفقر والفحشاء وعد الله بالفضل والمغفرة. فالله واسع العطاء، ذو فضل عظيم، وواسع المغفرة يغفر الذنوب جميعا مع التوبة النصوح.

قوله: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ أي: يؤتي العلم بالقرآن والسنة، قال ﷺ كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» متفق عليه، وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ» متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾

قوله: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ

بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَة» رواه أبو داود بسند جيد، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ (شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ)» متفق عليه؛ فالأصل أن الإسرار في الصدقة أفضل لهذه الآية، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به؛ فيكون أفضل من هذه الحيثية.

قال الشاعر:

خِلٌّ إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا لِتَسْأَلَهُ ... أَعْطَاكَ مَا مَلَكَتْ كَفَّاهُ وَاعْتَذَرَا

يُخْفِي صَنَائِعَهُ وَاللهُ يُظْهِرُهَا ... إِنَّ الْجَمِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَا

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم، وهم مشركون، فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ حتى بلغ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، قال: فرخص لهم. صححه الحاكم.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منعوا وحبسوا، وسكنوا المدينة منقطعين إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وهم المهاجرون.

قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: سفرًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: العفة عن الشيء وترك المسألة، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ». متفق عليه.

قوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: علاماتهم وآثارهم، ومن ذلك الخشوع، والتواضع، وجهد الحاجة، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾. قال الشاعر:

غُلَامٌ رَمَاهُ اللهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا ... لَهُ سِيمِيَاءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ

قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: ملحفين، ويقال: وليس للملحف مثل الرد؛ فالإلحاف: الإلحاح، فهم لا يسألون الناس إلحاحًا، ولا غير إلحاح، وقد جاء عن معاوية رضي الله عنه، قال ﷺ: «لَا تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ، فَوَاللهِ لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ» رواه مسلم. وعند أبي داود بسند صحيح، عن رجل من بني أسد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ مِنْكُمْ وَلَهُ أُوقِيَّةٌ أَوْ عِدْلُهَا فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا».

وعن المغيرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ» متفق عليه.

وعن عمران رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَسْأَلَةُ الْغَنِيِّ شَيْنٌ فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه أحمد بسند لا بأس به، وفي حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ، فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنَ النَّارِ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا يُغْنِيهِ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَمَا الْغِنَى الَّذِي لَا تَنْبَغِي مَعَهُ الْمَسْأَلَةُ؟ - قَالَ: قَدْرُ مَا يُغَدِّيهِ وَيُعَشِّيهِ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمَسَائِلُ كُدُوحٌ؛ يَكْدَحُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ، إِلاَّ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ ذَا سُلْطَانٍ، أَوْ فِي أَمْرٍ لاَ يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن خالد بن عدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ مِنْ أَخِيهِ مَعْرُوفٌ مِنْ غَيْرِ إِشْرَافٍ ولاَ مَسْأَلَةٍ فَلْيَقْبَلْهُ ولاَ يَرُدَّهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ». رواه أحمد بسند جيد.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا؛ وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟ فَقَالَ ثَوْبَانُ رضي الله عنه: أَنَا. فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أَبِي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ ... وَذَكَرَ مِنْهَا: وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ» رواه الترمذي بسند حسن.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: «جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ» رواه الطبراني بسند حسن.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يأخذونه، فعبّر عن الأخذ بالأكل، لأن الأخذ إنما يراد للأكل.

والربا في اللغة: الزيادة، ومنه حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قال: «وَايْمُ اللهِ، مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ

لُقْمَةٍ إِلا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا» متفق عليه، ويطلق على كسب الحرام، كما قال تعالى: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾، ولم يرد به الربا الشرعي الذي حكم بتحريمه علينا، وإنما أراد المال الحرام، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ يعني به: المال الحرام من الرشاوي، وما استحلوه من أموال الأميين، حيث قالوا: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾.

ويطلق الربا في الشرع على شيئين: ربا النسيئة، وربا الفضل، والجميع محرم من كبائر الذنوب، وأعظمها وأشدها النسيئة، كما قال ﷺ في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «لَا رِبَا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ» متفق عليه، وقال ﷺ في حجة الوداع كما في حديث جابر رضي الله عنه: «وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا: رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ» رواه مسلم. وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ» متفق عليه.

وقال ﷺ كما في حديث جابر رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ» رواه مسلم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا إِلَّا أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» رواه أحمد بسند جيد.

وأما دليل ربا الفضل فقد قال ﷺ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ؛ فَمَنْ زَادَ أَوْ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرْبَى، الآخِذُ وَالْمُعْطِي فِيهِ سَوَاءٌ» رواه مسلم. وَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ رضي الله عنه بِنَحْوِهِ، وَفِيهِ: «سَوَاءً بِسَوَاءٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّبَا سَبْعُونَ حُوبًا، أَيْسَرُهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ» رواه ابن ماجه بسند لا بأس به.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «الرِّبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا» رواه ابن ماجه بسند لا بأس به.

وفي حديث عبد الله بن حنظلة رضي الله عنه -غسيل الملائكة- قال: قال رسول الله ﷺ: «دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً» رواه أحمد بسند حسن.

قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ أي: كمثل المصروع عندما يقوم من صرعه وجنونه، تلك صفتهم التي يعرفون بها يوم القيامة، وفي هذا دليل على صرع الجن للإنس، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرَدِّي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْغَرَقِ وَالْحَرَقِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا،

وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا». حديث حسن، رواه أبو داود.

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرَصِ وَالْجُنُونِ وَالْجُذَامِ، وَمِنْ سَيِّءِ الأَسْقَامِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وفي حديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ وهو يحدث حديث الرؤيا: «فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ حَسِبْتُ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قَالَ: فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: آكِلُ الرِّبَا» متفق عليه.

وآية الربا هي من آخر الآيات نزولًا، لما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقَرَأَهُنَّ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ حَرَّمَ تِجَارَةَ الْخَمْرِ» متفق عليه.

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الرِّبَا» رواه البخاري. وفي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ آخِرَ مَا نَزَلَتْ آيَةُ الرِّبَا، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ وَلَمْ يُفَسِّرْهَا لَنَا، فَدَعُوا الرِّبَا وَالرِّيبَةَ» حديث حسن، رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما كان أكل من الربا قبل التحريم، كما قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

قوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يذهب بركته، أو ينقصها، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلاَّ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ» رواه ابن ماجه بسند جيد، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: ينميها في الدنيا بالبركة، ويكثر ثوابها في الآخرة، وقد سبق حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ- فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كفور القلب، أثيم القول والفعل، والمرابي كذلك.

قوله: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: بحرب الله لكم، أو: أنتم حرب على الله ولرسوله، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه. رواه ابن جرير.

قوله: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ أي: الذي لا ربا فيه.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ أي: إنظار المعسر إلى حال يسره، بدون ضريبة لهذا الإنظار، خلاف لما كان عليه أهل الجاهلية، يقول أحدهم لمدِينِه إذا حل عليه الدَّين: إما أن تقضي، وإما أن تربي.

قوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: وإن تتركوا رأس المال بالكلية، وتضعوه عن المدِين خير لكم، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي اليسر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة ﵁: «كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا. فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ» متفق عليه، وفي حديث حذيفة ﵁: «قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَاتَ رَجُلٌ، فَقِيلَ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ؟ قَالَ: كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، فَأَتَجَوَّزُ عَنِ الْمُوسِرِ، وَأُخَفِّفُ عَنِ الْمُعْسِرِ. فَغُفِرَ لَهُ» متفق عليه. وفي رواية: «أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ -قَالَ: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ - قَالَ: يَا رَبِّ، آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ ... قَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ؛ تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي» رواه مسلم.

وفي حديث أبي قتادة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ» رواه مسلم.

وفي حديث بريدة ﵁ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ. قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ. قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ تَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ. ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ. قَالَ لَهُ: بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ» رواه أحمد بسند حسن، وقد اقتصرنا من الأحاديث على ما ذكرنا.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، فِي قَوْلِهِ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَنَّهَا آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ» حديث حسن رواه الطبراني. قال ابن جريج: يقولون إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال، وقيل: ثلاثين يومًا، وقيل: ثلاث ليال.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ

إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا والآخر في الذمة نسيئة، وقد قال ﷺ في قصة إعطاء آدم عليه السلام لابنه داود أربعين سنة من عمره: «فَقَالَ اللهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ. قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ. ثُمَّ بَسَطَهَا فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ. فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ - أَوْ: مِنْ أَضْوَئِهِمْ - قَالَ: يَا رَبِّ! مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ: يَا رَبِّ، زِدْهُ فِي عُمْرِهِ. قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كُتِبَ لَهُ. قَالَ: أَيْ رَبِّ، فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. قَالَ: ثُمَّ أُسْكِنَ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أُهْبِطَ مِنْهَا، فَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لِنَفْسِهِ، فَأَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: قَدْ عَجَّلْتَ، قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ! قَالَ: بَلَى وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لِابْنِكَ دَاوُدَ سِتِّينَ سَنَةً، فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ؛ فَمِنْ يَوْمِئِذٍ أُمِرَ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُودِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ بِالتَّمْرِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي الثِّمَارِ- السَّنَتَيْنِ (وَالثَّلَاثَ)، فَقَالَ: مَنْ أَسْلَفَ فِي (شَيْءٍ) -وَفِي رِوَايَةٍ: تَمْرٍ- فَفِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ» متفق عليه، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَبَايَعُونَ لُحُومَ الْجَزُورِ إِلَى حَبَلِ الْحَبَلَةِ، وَحَبَلُ الْحَبَلَةِ: أَنْ تُنْتَجَ النَّاقَةُ مَا فِي بَطْنِهَا، ثُمَّ تَحْمِلَ الَّتِي نُتِجَتْ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ» متفق عليه.

قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ يعني: الدَّين والأجل، والأمر هنا للوجوب، لئلا يقع جحود أو نسيان، وقد ذهب إليه الطبري، وقيل للإرشاد والاستحباب، وقد ذهب إليه ابن كثير، وهو قول الجمهور، وإذا كان الغريم أمينًا تقيًا فما يضره الكتاب.

قوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: لا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه، وقد جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ. قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَعْلَاهَا ثَمَنًا، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ». حديث حسن، رواه أبو داود.

قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ﴾ أي: في الأموال وما يقصد به المال، وقد جاء في حديث أبي سعيد ﵁: «وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا» متفق عليه.

قوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: شهودٌ عدولٌ مرضيون، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، وعن عبد الله بن أبي مليكة قال: أرسلت إلى ابن عباس ﵄، أسأله عن شهادة الصبيان، فقال: قال الله عز وجل: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وليسوا ممن نرضى. قال: فأرسلت إلى ابن الزبير أسأله، فقال: بالحري إن سئلوا أن يصدقوا. صححه الحاكم.

وقد بيَّن الله ﷻ أكمل الطرق وأقواها لحفظ حقوق خلقه، وبيَّن رسوله ﷺ نوعًا آخر لحفظ الحقوق، فقد في حديث ابن عباس ﵄ «قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَمِينٍ وَشَاهِدٍ» رواه مسلم، وجاء عند الشيخين من حديث ابن عباس ﵄: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بِالْيَمِينِ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ» متفق عليه.

قوله: ﴿أَن تَضِلَّ﴾ أي: تنسى المرأة الشهادة التي أدلت بها، وهذا في الحقوق الدنيوية، أما الحقوق الدينية، كالرواية، والفتوى؛ فإن المرأة تقوم مقام الرجل.

قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ يعني: للتحمل، فعليهم الإجابة والشهادة من الشاهد، والكتابة من الكاتب، فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وعن زيد بن خالد الجهني ﵁ قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا» رواه مسلم، وقد كان ذلك في الأموال دون غيرها، لأن الأموال كثَّر الله أسباب توثيقها لكثرة جهات تحصيلها، وعموم البلوى بها وتكررها؛ فجعل التوثيق: تارة بالكتابة، وتارة بالإشهاد، وتارة بالرَّهن، وتارة بالضمان، وأدخل في جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال.

قوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق صغيره وكبيره، قليله وكثيره. قال الشاعر:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل.

قوله: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أثبت للشهادة، إذا وضع خطه ثم رآه تذكَّر به الشهادة، قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

قوله: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي: أقرب إلى عدم الشك.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ يعني: يدًا بيد.

قوله: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتقابضوها.

قوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هل الأمر للوجوب أو للندب؟

عند الجمهور: على الإرشاد والندب، والدليل: ما جاء في حديث عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ: أَنَّ عَمَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَشْيَ، وَأَبْطَأَ الأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الأَعْرَابِيَّ فَيُسَاوِمُونَهُ بِالْفَرَسِ، وَلاَ يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ، فَنَادَى الأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسَ وَإِلاَّ بِعْتُهُ! فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الأَعْرَابِيِّ فَقَالَ: أَوَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟ فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: لاَ، وَاللهِ مَا بِعْتُكَهُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلَى قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ! فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيدًا! فَقَالَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ. فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: بِمَ تَشْهَدُ؟ فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ ﷺ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ». رواه أبو داود بسند صحيح.

حديث العداء ابن خالد بن هوذة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَذَا مَا اشْتَرَى الْعَدَّاءُ بْنُ خَالِدِ بْنِ هَوْذَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ: اشْتَرَى مِنْهُ عَبْدًا -أَوْ: أَمَةً-، لاَ دَاءَ، وَلاَ غَائِلَةَ، وَلاَ خِبْثَةَ، بَيْعَ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ». رواه الترمذي بسند حسن.

ومنهم: من ذهب إلى الوجوب؛ لحديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيهِ، وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾». رواه الحاكم بسند جيد.

وقد جاء فيمن تُرَدُّ شهادته ما رواه ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَدَّ شَهَادَةَ الْخَائِنِ وَالْخَائِنَةِ، وَذِي الْغِمْرِ عَلَى أَخِيهِ، وَرَدَّ شَهَادَةَ الْقَانِعِ لأَهْلِ الْبَيْتِ، وَأَجَازَهَا لِغَيْرِهِمْ» رواه أبو داود بسند جيد، وفي رواية عند أبي داود بسند جيد: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لاَ تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلاَ خَائِنَةٍ، وَلاَ زَانٍ وَلاَ زَانِيَةٍ».

قوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي: لا يضار الكاتب فيكتب خلاف ما يُملي، ولا الشاهد فيشهد بخلاف ما سمع، وقيل: معناه: لا يضر بهما، ما على المحسنين من سبيل، فيراعيان إن كانا مشغولين.

قوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ يعني: المضارة.

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: معصية.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

قوله: ﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞ﴾ أي: في يد صاحب الحق بدل الكتابة، وقدجاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ». رواه البخاري.

قال بعض العلماء: الرهن في السفر بنص القرآن، وفي الحضر ثابت بسنة النبي ﷺ وهذا الكلام في غاية الصحة.

فالرهن: احتباس العين وثيقة بالحق؛ ليستوفي الحق من ثمنها أو ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «الرَّهْنُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا، وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا، وَعَلَى الَّذِي يَرْكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةُ». رواه البخاري.

وهل يغلق الرهن؟ يعني يشترط المرتهن أنه له بحقه إن لم يأته به عند أجله، وكان هذا فعل الجاهلية، قال الشاعر:

وَفَارَقَتْكَ بِرَهْنٍ لَا فَكَاكَ لَهُ ... يَوْمَ الْوَدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا

والجواب: أنه باطل، بقول الرسول ﷺ كما في أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَغْلَقُ الرَّهْنُ، لَهُ غُنْمُهُ، وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ». رواه ابن ماجه، وحسنه الدارقطني.

قوله: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ قال أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هذه نسخت ما قبلها. رواه ابن ماجه. وقال ﷺ كما في حديث سمرة رضي الله عنه: «عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّي» حديث صحيح، رواه أبو داود.

وعن عمر رضي الله عنه قال: لا يغرنك صلاة امرئ، ولا صيامه، ولكن إذا حدث صدق، وإذا أؤتمن أدى، وإذا أشفى ورع. رواه مسدد، وصححه ابن حجر.

قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وقد جاء في الدَّين نبذة من الأحاديث نذكر بعضها تتميمًا للفائدة:

أولًا: الأدعية النبوية في التعوذ منه: عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ» رواه البخاري، وعن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا، وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ. فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ! فَقَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ». متفق عليه.

ثانيًا: الأدعية النبوية لمن ابتلي به: عن علي رضي الله عنه قال: «أَنَّ مُكَاتَبًا جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَجَزْتُ عَنْ كِتَابَتِي فَأَعِنِّي، قَالَ: أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ صِيرٍ دَيْنًا أَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ؟ قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ» رواه الترمذي بسند صحيح. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «أَلَا أُعَلِّمُكَ دُعَاءً تَدْعُو بِهِ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ دَيْنًا لَأَدَّاهُ عَنْكَ؟ قُلْ يَا مُعَاذُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، رَحْمَانَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، تُعْطِيهِمَا مَنْ تَشَاءُ، وَتَمْنَعُ مِنْهُمَا مَنْ تَشَاءُ، ارْحَمْنِي رَحْمَةً تُغْنِي بِهَا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ سِوَاكَ» رواه الطبراني بسند جيد. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ». رواه مسلم.

ثالثًا: من أخذها يريد أداءها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ» رواه البخاري، وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ مَعَ الدَّائِنِ

حَتَّى يُقْضَى دَيْنُهُ، مَا لَمْ يَكُنْ فِيمَا يَكْرَهُ اللهُ» رواه ابن ماجه بسند جيد.

رابعًا: من أخذها وهو لا يريد أداءها: عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ» رواه البخاري، وعن صهيب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ يَدِينُ دَيْنًا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَنْ لاَ يُوَفِّيَهُ إِيَّاهُ؛ لَقِيَ اللهَ سَارِقًا». رواه ابن ماجه بسند لا بأس به.

خامسًا: حال المدين في حياته وبعد موته: عن عقبة بن عامر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِهَا. قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الدَّيْنُ» رواه أحمد بسند لا بأس به. وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ» رواه أحمد والترمذي بسند حسن.

وعن أبي قتادة ﵁ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْت إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: أَرَأَيْت إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ» رواه مسلم.

وفي حديث ابن عمرو ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ» رواه مسلم.

وعن محمد بن جحش ﵁، قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعَ رَاحَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا نُزِّلَ مِنَ التَّشْدِيدِ؟ فَسَكَتْنَا وَفَزِعْنَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ سَأَلْتُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نُزِّلَ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيِيَ، ثُمَّ قُتِلَ ثُمَّ أُحْيِيَ، ثُمَّ قُتِلَ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ؛ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ» رواه النسائي بسند لا بأس به.

وعن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ «كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمُتَوَفَّى عَلَيْهِ الدَّيْنُ، فَيَسْأَلُ: هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ فَضْلًا؟ فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً صَلَّى، وَإِلَّا قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ. فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ قَالَ: أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ» متفق عليه.

قوله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عن أبي هريرة ﵁ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ

أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، قَالَ: نَعَمْ. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قَالَ: نَعَمْ» رواه مسلم.

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ» رواه مسلم.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في قوله تعالى: «﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا». رواه مسلم.

وعن سعيد بن مرجانة: كنت عند ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فتلا هذه الآية فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى حتى سمع نشيجه، فقمت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، و الله لقد وجد المسلمون حين نزلت مثل ما وجد، فأنزل الله ما بعدها. رواه ابن جرير.

قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ قال عكرمة: «﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ في الشهادة إذا كتمها.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، (وَيَسْتُرُهُ)، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ (وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ) قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ (فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ): ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ». متفق عليه. وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» رواه ابن ماجه بسند جيد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» متفق عليه. وفي رواية في السيئة: «وَمَحَاهَا اللهُ، وَلا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إلا هَالِكٌ» رواه مسلم.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «يَقُولُ اللهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ». متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ! قَالَ: وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نعَمْ. قَالَ: ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» رواه مسلم، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ، قَالَ: تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ» رواه مسلم.

قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ» متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثًا حِينَ أُسْرِيَ بِهِ: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ» رواه مسلم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلاَ يُقْرَأَينِ فِي دَارٍ ثَلاَثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ» رواه أحمد والترمذي بسند جيد.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي» رواه أحمد بسند جيد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ. فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ» رواه مسلم.

قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أي: جبريل، وإسرافيل، وميكائيل، ومنكر، ونكير، ومالك خازن النار، وملك الموت، والموكلون بحفظ العبد، وخزنة الجنة والنار، والْمُبَشِّرُونَ للمؤمنين عند موتهم، وحملة العرش، والسَّيَّاحون في الأرض المبتغون مجالس الذكر، وملك الجبال، والطائفون والداخلون للبيت المعمور في السماء السابعة، والرَّاكعون الساجدون في السماوات السبع، ومنهم غير ذلك، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بما لا يشق على النفس، والوسع: الطاقة.

قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تؤاخذنا بالعقاب إن تركنا الصواب لا عن عمد، كما آخذت به من قبلنا.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: ثقلًا غليظًا صعبًا شديد العمل، ويطلق على العهد، قال تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾.

وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فَقَرَأَ فِيهَا: إِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ، لَا الْيَهُودِيَّةُ وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ» رواه الترمذي بسند حسن. وفي رواية: كانت في سورة لم يكن، فنسخت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ» رواه أحمد بسند حسن.

وعن عائشة رضي الله عنها في قصة لعب الحبشة يوم العيد، قال رسول الله ﷺ: «لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ» رواه أحمد بسند حسن. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» رواه البخاري.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: «قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ: اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن العباس رضي الله عنه قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ. قَالَ: سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ. فَمَكَثْتُ أَيَّامًا ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ. فَقَالَ لِي: يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَدْعُو بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ كُلَّ غَدَاةٍ: اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. يُعِيدُهَا ثَلاَثًا حِينَ يُصْبِحُ، وَثَلاَثًا حِينَ يُمْسِي» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: ولينا وناصرنا.

وبهذا القدر قد انتهى تفسير أولى الزهراوين -سورة البقرة- جعلها الله غمامة تظلني والمسلمين يوم القيامة، والحمد لله أولًا وآخرًا.

  

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

ثاني الزهراوين، وهي مدنية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾

قوله: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ التوراة: معناها: الضياء والنور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وقيل: من التورية، وهي التعريض بالشيء والكتمان لغيره، فكأنَّ أكثر التوراة معاريض وتلميحات من غير تصريح وإيضاح، والحق هو الأول.

والإنجيل: من نجلت الشيء، إذا استخرجته، فالإنجيل مستخرج علوم وحكم، ومنه سمي الولد والنسل نجلاً لخروجه، فسمي الإنجيل بهذا الاسم لأن الله تعالى أخرج به دارساً في الحق عارفاً، وقيل: لأنه وسع عليهم ويسر لهم.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ أي: القرآن

قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: الآيات المحكمات؛ لأن الآيات المتشابهات ترد إليها، قال ابن القيم: أنواع الإحكام ثلاثة:

أولاً: الإحكام الذي في مقابلة المتشابه، كما في هذه الآية.

ثانيًا: الإحكام في مقابلة نسخ ما يلقي الشيطان، كقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

ثالثًا: الإحكام في مقابلة الآيات المنسوخة، كما يقوله السلف كثيرًا: هذه آية محكمة غير منسوخة.

قوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئًا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد.

وقيل: المتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه، مثل وقت الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والحروف المقطعة في أوائل السور، قال القرطبي: هذا أحسن ما قيل في المتشابه.

وقال النحاس: أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات: إن المحكمات ما كان قائمًا بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره، نحو: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، والمتشابهات نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يرجع فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، وإلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وليس المراد من هذه الآية كالمراد في قوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ فالمعنى في هذه الآية من يشبه بعضه بعضًا ويصدق بعضه بعضًا، وأما هنا فالمقصود ما كان من باب الاحتمال والاشتباه، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: التبس علينا.

وقال ابن كثير: وأحسن ما قيل: إن المحكمات الواضحات البينات في الدلالة لا التباس فيها على أحد، والمتشابهات التي فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الحق، ومنه: زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: تحريفه على ما يريدون، وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النبي ﷺ تلا هذه الآية وقال: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ». متفق عليه، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على لفظ الجلالة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما عند الطبري: التفسير على أربعة أوجه:

١- وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢- وتفسير لا يعذر أحد بجهالته.

٣- وتفسير يعلمه العلماء.

٤- وتفسير لا يعلمه إلا الله.

وعند عبد الرزاق عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأ: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ، وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ: آمَنَّا بِهِ. فتكون الواو للاستئناف. وجاء عند الطبري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، قالت: كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه، ولم يعلموا تأويله.

ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ قال ابن كثير: وعليه كثير من المفسرين، وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد، وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: أنا ممن يعلم تأويله. رواه الطبري، وقد قال النبي ﷺ قال له: «اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: ضَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ. وَفِي رِوَايَةٍ: الْكِتَابَ» رواه البخاري، وفي رواية عند أحمد بسند صحيح: «وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل».

ومن العلماء من فصَّل فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان:

أحدهما: حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على لفظ الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه إلا الله، ويكون الراسخون مبتدأ وما بعدها خبر.

[الثاني] وأما إن أريد بالتأويل التفسير والبيان، والتعبير عن الشيء كقوله: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ أي: بتفسيره، فالوقف على: الراسخون في العلم؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به، وقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «المِرَاءُ فِي القُرْآنِ كُفْرٌ» رواه أبو داود بسند صحيح. وفي رواية عند أبي يعلى بسند حسن: «وَالْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ -ثَلاثًا-، مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ».

قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ الرسوخ: الثبوت في الشيء، ورسخ الإيمان في قلب فلان يرسخ رسوخًا، فالراسخون يردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكمًا، قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ على تقدير (يَقُولُونَ) حكاية عن الراسخين، وقد جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلاَ تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» رواه أبو داود بسند جيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي

ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ
ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن
ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لن تدفع، ولن تنفع، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾.

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي: حطبها، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: كصنيع وعادة وشأن، وقد قيل: للشمس والقمر: الدائبان.

قوله: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾ أي: علامة.

قوله: ﴿فِئَةٞ﴾ أي جماعة من المسلمين والمشركين.

قوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِ﴾ أي: رأى المشركون المسلمين يزيدون عليهم بالضعف، وقد كان المشركون في الحقيقة ألفًا، والمسلمون ثلاث مائة وأربعة عشر، قال تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾، ويحتمل أن الكافرين كانوا مثلي المسلمين في رأي العين، وثلاثة أمثالهم حقيقة في العدد؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وليفرق بين الحق والباطل، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: لمن له بصيرة وفهم.

قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» متفق عليه، وإذا قصد بهن العفاف، والأولاد كن مطلبًا شرعيًا، قال ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحة» رواه مسلم، وقال ﷺ كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». رواه النسائي بسند صحيح.

قوله: ﴿وَٱلۡبَنِينَ﴾ قال ﷺ في حديث يعلى العامري رضي الله عنه قال: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ» حديث حسن رواه ابن ماجه، وفي رواية عند الحاكم وصححها: «مَحزَنَةٌ». وفي حديث الأشعث رضي الله عنه: «فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ، وَأَجْرًا إِذَا قُبِضُوا، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ، إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ». رواه أحمد بسند صحيح.

وإذا قصد بهم، تكثير الأمة الإسلامية، وليعبدوا الله، ويجاهدوا في سبيله، فهو مطلب شرعي محمود، كما جاء في حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُوْد، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأمَمُ يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه أبو داود بسند جيد. وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَأُكَاثِرُ بِكُمُ الْأُمَمَ فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي» رواه أحمد بسند جيد.

قوله: ﴿وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: المضعَّفة، والقناطير: جمع قنطار، وهو المال الكثير، والعرب تقول: قنطر الرجل: إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، وقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، وقد جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ﴾ واحد الخيل خائل، مثل طير طائر، وسمي بذلك لأنه يختال في مشيه، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: هِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَلِرَجُلٍ وِزْرٌ...» متفق عليه، وقال ﷺ كما في حديث عروة البارقي رضي الله عنه: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ، وَالْمَغْنَمُ» متفق عليه.

يقال له: الفرس، واحده فرس، كالقوم، والرهط، والإبل، والنساء، ونحوها، وقد جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ سَحَرٍ بِدَعْوَتَيْنِ: اللَّهُمَّ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، وَجَعَلْتَنِي لَهُ، فَاجْعَلْنِي أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ» رواه النسائي بسند جيد. وعن نعيم بن أبي هند الأشجعي: «أَنَّهُ رُئِيَ يَمْسَحُ خَدَّ فَرَسِهِ، فَقِيلَ لَهُ فِيْ ذَلِكَ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَاتَبَنِي فِي الْفَرَسِ» رواه الطيالسي بسند جيد.

وخيرها كما قال ﷺ في حديث أبي قتادة رضي الله عنه: «خَيْرُ الْخَيْلِ الْأَدْهَمُ الْأَقْرَحُ الْأَرْثَمُ، ثُمَّ الْأَقْرَحُ الْمُحَجَّلُ طَلْقُ الْيَمِينِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَدْهَمَ فَكُمَيْتٌ عَلَى هَذِهِ الشِّيَةِ» رواه الترمذي بسند صحيح. (والأدهم: شديد السواد، والأقرح: ما كان في وجهه بياض يسير، والأرثم: الأبيض الأنف والشفة العليا، والكميت من الخيل: الأحمر الذي يميل إلى السواد).

قوله: ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: الراعية الوسيمة في المروج والمسارح، قال تعالى: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، قال الشاعر:

مِثْلَ ابْنِ بَزْعَةَ أَوْ كَآخَرَ مِثْلِهِ ... أَوْلَى لَكَ ابْنَ مُسِيمَةِ الأَجْمَالِ

يعني: ابن راعية الإبل، والوسيمة من قولهم: رجل وسيم، إذا كان جميلًا حسنًا.

قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ هي: كل ما يرعى، مذكر أو مؤنث، لاسيما الإبل والبقر والغنم، وإذا قيل: النعم فهو

الإبل خاصة، قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما عند الشيخين: «فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ». وقال حسان:

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ ... خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ

وعن عروة البارقي رضي الله عنه قال ﷺ: «الإِبِلُ عِزّ لِأَهْلِهَا، وَالغَنَمِ بَرَكَة» رواه ابن ماجه بسند حسن. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال ﷺ: «الشَّاةُ مِنْ دَوَابِّ الجَنَّةِ» رواه ابن ماجه بسند لا بأس به.

وقال النبي ﷺ لأم هانئ رضي الله عنها: «اتَّخِذِي غَنَمًا؛ فَإِنَّ فِيهَا بَرَكَةً» رواه ابن ماجه بسند جيد. وفي رواية عند أحمد بسند صحيح: «اتَّخِذِي غَنَمًا يَا أُمَّ هَانِئٍ، فَإِنَّهَا تَرُوحُ بِخَيْرٍ، وَتَغْدُو بِخَيْرٍ».

قوله: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ أي: كل ما يحرث، وقد قال ﷺ في خير الأسماء: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ» رواه أبو داود وصححه ابن تيمية. وعن أبي أمامة رضي الله عنه: «وَرَأَى سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ آلَةِ الْحَرْثِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الذُّلَّ» رواه البخاري، ولكن قد جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَل مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلا كَانَ لهُ بِهِ صَدَقَةٌ» متفق عليه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يتمتع به ثم يذهب ولا يبقى، وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ. فَقَالَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ» حديث حسن، رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: المرجع. قال الشاعر:

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

وقال آخر:

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ ... وَغَائِبُ المَوْتِ لَا يَؤُوبُ

قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رضا كثير، وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» متفق عليه، قال تعالى في سورة براءة: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ

وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أو على تقدير: هم الذين يقولون: يا ربنا.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: الخاشعين في عبادتهم.

قوله: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ أي: أواخر الليل قبيل الفجر، كقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» متفق عليه، وفي رواية عند مسلم: «فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ»، وفي رواية عند مسلم: «ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدُومٍ وَلَا ظَلُومٍ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ»، وفي حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما: «إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ» رواه مسلم.

وقد كان الاستغفار بالسَّحَرِ من هدي الرسول الله ﷺ، وقالت عائشة رضي الله عنها: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَأَوْسَطِهِ، وَآخِرِهِ، فَانْتَهَى وِتْرُهُ إِلَى السَّحَرِ» متفق عليه.

قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: بيَّن وأعلم وقضى وحكم وأخبر وكفى به شهيدًا، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾، فالله سبحانه وتعالى أعظم شاهد على أعظم مشهود، وهو توحيده، وقيامه بالقسط، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾.

قال بعض السلف: مراتب شهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية أربعة:

الأولى: العلم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

والثانية: التعلمُ والخبر، كما قال تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

والثالثة: الإعلام والإخبار القولي والفعلي، قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره

المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو.

والرابعة: الأمر بذلك والإكرام به، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

وأما شروط لا إله إلا الله فهي:

أولًا: العلم، وضده الجهل.

ثانيًا: اليقين، وضده الشك.

ثالثًا: القبول، وضده الرد.

رابعًا: الانقياد، وضده الترك.

خامسًا: الإخلاص، وضده الشرك.

سادسًا: الصدق، وضده الكذب.

سابعًا: المحبة، وضدها البغض.

وأما أركانها فركنان: الأول: النفي (لا إله حق)، الثاني: الإثبات (إلا الله).

قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: وشهد على شهادة الله العظيمة الملائكة والعلماء الذين هم حملة العلم ورواته، ويكفي للعلماء فخرًا وقدرًا، استشهادهم الله ﷻ على أعظم مشهود وهي وحدانيته سبحانه، ولشرف العلماء أمر الله ﷻ نبيه أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا العِلمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» رواه أبو داود بسند قوي، وفي حديث صفوان رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَّكِئٌ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى بُرْدٍ لَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بطالبِ الْعِلْمِ، طَالِبُ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ، فَمَا جِئْتَ تَطْلُبُ؟» رواه الطبراني، وجوده المنذري.

قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وفيها دليل على أن الإسلام والإيمان مترادفان، وقد جاء عن رجل من أصحاب

النبي ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، إِلا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ» حديث حسن، رواه أبو داود. وعن المنذر الأسلمي رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ نحوه، وفيه قال: «فَأَنَا الزَّعِيمُ، لآخُذَنَّ بِيَدِهِ فَلأُدْخِلَنَّهُ الْجَنَّةَ» رواه الطبراني بسند حسن.

قال بعض السلف: الأمور الجامعة للإسلام:

أولًا: قول القلب، وهو تصديقه وإيقانه.

ثانيًا: قول اللسان، وهو النطق بالشهادتين أن لا إله إلا الله وأن محمدًا ﷺ رسول الله، والإقرار بلوازمها.

ثالثًا: عمل القلب، وهو النية، والإخلاص، والمحبة، والانقياد، والإقبال على الله ﷻ، والتوكل عليه، ولوازم ذلك وتوابعه.

رابعًا: عمل اللسان والجوارح، كتلاوة القرآن، والركوع، والسجود.

قوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك بالأقاويل المزورة والمغالطات.

قوله: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: لشرفه، ومنه الحديث الذي رواه علي رضي الله عنه، قال ﷺ في سجوده: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، بِحَولِهِ وقُوَّتِهِ» رواه مسلم، وفي حديث البراء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ...» متفق عليه. قال الشاعر:

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا

والمعنى: أخلصت عبادتي لله وحده.

قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ وقرئت (ومن اتبعني)؛ والكل صحيح، قال الشاعر:

لَيْسَ تخفى يَسارَتِي قَدْرَ يَوْمٍ ... وَلَقَدْ تُخْفِ شِيمَتِي إِعْسَارِي

واتباعه: أي على دينه يقولون كما قال، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾.

قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: اليهود والنصارى.

قوله: ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: من لا كتاب لهم وهم المشركون.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ٢٤ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥ قُلِ ٱللَّهُمَّ
مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ
وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ
مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ
أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ منادى وأصلها، يا الله، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ قد يكون النبوة والرسالة، وقد يكون الغلبة والمال والجاه.

قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من العزة: وهي العلو والقهر والغلبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾، وضدها الذلة، قال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾، فقال سبحانه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ﴾، وقال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾.

قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي: تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر، أو تَعاقُب الليل والنهار، كأن زوال أحدهما ولوج في الآخر.

قوله: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي: تخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وكذا إخراج الدجاجة حية من البيضة، وهي ميتة ونحو ذلك.

قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ أي: قد برئ من الله وخرج من حزبه وأوليائه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ

بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: إنا لنكشر في وجوه أقوام، ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتلعنهم. رواه البيهقي. قال البخاري: قال الحسن البصري: التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة. لكن لا يقتل بها، ولا يأتي مأثمًا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: التقاة: التكلم باللسان والقلب مطمئن بالإيمان، فلا يبسط يده فيقتل، ولا إلى إثم فإنه لا عذر له. صححه الحاكم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾

قوله: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ أي: عتيقًا، خالصًا لله تعالى لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، خادمًا لبيت المقدس، حبيسًا عليه، مفرغًا لعبادة الله تعالى.

قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ أي: لا تصلح لخدمة البيت، لما يصيبها من الحيض والأذى، ولا تصلح لمخالطة الرجال، وليس عندها القوة والجَلَد في العبادة.

قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا. ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾» متفق عليه، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المنخوس وإغواؤه، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإغواء فعصمهم الله مما يرومه الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾.

قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ﴾ يعني: من أمها.

قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ أي: جعل شكلها مليحًا ومنظرها بهيجًا، ويَسَّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم الخير والعلم والدِّين.

قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: كافلًا لها، قال تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ لتقتبس منه علمًا نافعًا وعملًا صالحًا، وكان زوج أختها، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس ﷺ، قال ﷺ: «ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ» متفق عليه، وعلى هذا فهي في حضانة خالتها، وقد قال رسول الله ﷺ: «الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ» رواه البخاري.

قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ أي: محل العبادة لملازمتها له.

قوله: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾ أي: فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وهذا من كرامات الأولياء.

قوله: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لك هذا؟

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾

قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ ظرف يستعمل للزمان والمكان، وأصله للمكان وكذا (هناك) للزمان والمكان، وأصله للمكان.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك.

قوله: ﴿ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: نسلًا صالحًا، والذرية: تكون واحدة، وتكون جمعًا ذكرًا أو أنثى، وهو هنا واحد، لقوله تعالى: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ ولم يقل: أولياء، وإنما أنَّثَ (طيِّبة) لتأنيث لفظ (الذرية).

وقد دلَّت هذه الآية على طلب الولد، وهي سُنَّة المرسلين والصديقين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾، وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «رَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لاخْتَصَيْنَا» متفق عليه، وقال تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾،

والنصوص في هذا الباب أكثر من أن تحصر.

قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: في حال صلاته، فإذا شغل المرء نفسه برضا الله عز وجل وعبادته فإنه يعطيه أفضل ما يُعطي السائلين كما حدث مع زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وروي عن عبدالله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يُذَكِّرُ الملائكة في كل القرآن. رواه ابن المنذر. ولعله اختار ذلك لأن المشركين يقولون: الملائكة بنات الله، وهذا احتجاج لا يحصل منه شيء؛ لأن العرب تقول: قالت الرجال، وقال الرجال، والحجة عليهم، قال تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾، وقد ذَكَّرَهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهذا إجماع، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، وقال تعالى عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾، وهو الوحي من أمره، وهذا جائز في العربية، أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ والمقصود به نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل: ناداه جميع الملائكة، وهو الأظهر.

قوله: ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ قيل: سمي بذلك لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوة. وقيل: لأن الله أحيا به الناس بالهدى. وقيل: لأنه أحيا به رحم أمه. وكل ما قيل معتبر وله حظ من الواقع.

قوله: ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه.

قوله: ﴿وَسَيِّدٗا﴾ أي: بعلمه وعبادته وتقواه، وفيه جواز تسمية الإنسان سيدًا، لكن بدون (أل) التعريف، كما يجوز أن يسمى عزيزًا أو كريمًا، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما دنا سعد من المسجد: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» متفق عليه، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» رواه البخاري.

قوله: ﴿وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أصله من الحصر وهو الحبس، والحصور: الذي لا يأتي النساء من غير عِلَّة ولا عيب ولا مرض، إنما يحصر نفسه ويمنعها عن الملذات والشهوات والمعاصي، وعلى رأسها إتيان النساء، وكان هذا خاص بيحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: محبسًا.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي: ذكرًا، مشتق من الغلمة: وهو شدة طلب النكاح، ومنه اغتلم البحر، إذا هاج وتلاطمت أمواجه.

قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ أي: عقيم لا تلد. يقال إنه كان ابن مائة وعشرين سنة، وامرأته بنت ثمان وتسعون سنة.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ أي: علامة يعرف بها صحة هذا الأمر، وأنه من عند الله.

قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًا﴾ أي: لا تستطيع الحديث والتكلم إلا بالإشارة بالحاجبين، أو العينين، أو اليدين، مع أنك صحيح وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ وقد استدل بهذه الآية، على أن الإشارة تنْزل منْزلة الكلام.

قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ﴾ أي: من حين زوال الشمس إلى أن تغيب، وهو جمع عشية، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾.

قوله: ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم، وقيل: العالمين جميعًا، وهو الصحيح، قال ﷺ كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» متفق عليه، وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ» متفق عليه، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «سَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِينَ: مَرْيَمُ، ثُمَّ فَاطِمَةُ، ثُمَّ خَدِيجَةُ، ثُمَّ آسِيَةُ». أورده ابن عبد البر، وحسنه ابن حجر.

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» حديث صحيح، رواه الترمذي.

قد سمى الله ﷻ مريم في كتابه بقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: صلي مع المصلين، وكان ذلك، إلهامًا، والوحي: الإرسال، وهو في اللغة: الإعلام في خفاء، فالإلهام يسمى وحيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾، وقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾، وقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ﴾.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ أي: بحضرتهم.

قوله: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ أي: قداحهم وسهامهم، وقيل: الأقلام التي يكتبون فيها التوراة، وهو الأقرب.

قوله: ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ أي: يحضنها، فاتفقوا أن يجعلوا الأقلام في الماء الجاري، فمن وقف قلمه، ولم يَجُرَّه الماء فهو الذي يحضنها، فجرت الأقلام ووقف قلم زكريا عليه السلام.

وقد استدل بهذه الآية على إثبات القرعة، إذا كان المقروع بينهم من جنس واحد، قال المنذري: واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، وترجم البخاري باب القرعة في

المشكلات، قول الله ﷻ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾، وساق حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: مَثَلُ الْمُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللهِ- وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ؛ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا! -وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَخَذَ فَأْسًا، فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي، وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ! - فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ» متفق عليه. وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ؛ لَاسْتَهَمُوا» متفق عليه.

قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: قوله: كن فيكون.

قوله: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ قيل: هو لقب، وقيل: اسم؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، أما المسيح الدجال فسمي بالمسيح؛ لأنه يمسح الأرض كلها، إلا مكة والمدينة، كما قال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ» متفق عليه، ولأنه ممسوح العين، كما تواترت بذلك الأحاديث.

قوله: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: شريفًا، ذا جاه ومنْزلة عالية، وقدر، في الدنيا بالنبوة، وفي الآخرة بالشفاعة والدرجات العلا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ أي: مضجع الصبي في رضاعه، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ... الحديث» متفق عليه، وفي حديث صهيب رضي الله عنه في قصة أصحاب الأخدود

حين تقاعست الأم ومعها صبي لها فقال: «يَا أُمَّهِ! اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ» رواه مسلم، وكذا شاهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتبين بذلك أن الذين تكلموا أكثر من ثلاثة، ولعل الجمع بين حديث: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلا ثَلاثَةٌ» وبين بقية النصوص أن الحديث متقدم، يعني: قبل أن يوحى إليه بقصة يوسف، وأصحاب الأخدود، ويحتمل أن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المقصود به: الصغار جدًا الذين لا يزالون يمهدون، أما الآخرون: فكانوا أكبر من ذلك.

قوله: ﴿وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ما بين الشباب والشيخوخة، قال أهل اللغة: الكهل: من ناهز الأربعين، يعني من ثلاث وثلاثين فما فوق، فقبل ست عشرة سنة حدث، ثم شاب إلى اثنين وثلاثين، والمقصود، أنه كلمهم في المهد آية وعلامة، وكلمهم كهلًا، بالوحي والرسالة.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي: الكتابة والخط، ولعل هذا هو السر في قول الرسول ﷺ كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ...» متفق عليه، يعني: بخلاف من قبلنا، فهم يعتمدون في عباداتهم على الكتابة والخط، وقد كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يحفظ ويخط التوراة والإنجيل.

قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه.

قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار، وحيَّرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من العظيم الجبار انقادوا للحق وصاروا من الأبرار، وأما عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم بما لا سبيل لأحد إليه، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو إبراء الأكمه والأبرص، وبعث من في قبره؟ وأما محمد ﷺ فبعث في زمان الفصحاء والبلغاء والشعراء، فأتاهم بكتاب لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله لعجزوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: بما أكل أحدكم الآن، وبما هو مدخر لغد.

قوله: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: ناسخ لبعضها، وقيل: مثبت لها جميعًا، ولكن كاشف ومبين لما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، ولعل القول الأول هو الأقرب.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ أي: علم وعرف منهم الإصرار على الكفر؛ لأن

الإحساس هو العلم بالشيء، قال تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، ويقال للحس: القتل، قال تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾.

قوله: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مع الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم، وقيل: على بابها، أي: من أنصاري في السبيل إلى الله، أو في الدعوة إلى الله كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلاَمَ رَبِّي» رواه أبو داود بسند صحيح. وفي حديث جابر رضي الله عنه، قال: مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوَاسِمِ بِمِنَى وَغَيْرِها، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ مِنْ يَثْرِبَ فَصَدَّقْنَاهُ... حَتَّى قَالَ: وَتَمْنَعُونِي مِمَا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ؛ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ» رواه أحمد وحسنه ابن حجر.

قوله: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: أصحاب عيسى عليه السلام، قيل: إنهم كانوا اثني عشر رجلًا، وسموا بذلك لنصرتهم، ونقاء قلوبهم وبياضها، قال الشاعر:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا ... وَلا تَبْكِنَا إلا الكِلابُ النَّوابِحُ

أي: النساء لبياضهن، وأصل الحور في اللغة: البياض.

وأما النصرة: فقد قال ﷺ كما في حديث أنس رضي الله عنه: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ» متفق عليه. وكان ذلك يوم الخندق، حين انتدب الناس، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ...» رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: مع أمة محمد ﷺ. صححه الحاكم. قال تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: هَمُّوا وأجمعوا أمرهم على قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمكر: الخديعة والحيلة.

قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي: ألقى شبه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على من قصد قتله فقتلوه، ورفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء من بين أظهرهم وهم لا يشعرون، وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «المَكرُ والخِدَاعُ فِي النَّارِ» رواه ابن حبان بسند جيد. وقال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْلا أَنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «المَكْر وَالخَدِيعَة فِي النَّارِ، لَكُنْت مِنْ أَمْكَرِ النَّاسِ» رواه البيهقي، قال ابن الملقن: إسناده لا بأس به.

وقد سبق أن هذا المكر الإلهي إنما هو من باب المعاملة والمقابلة بالمثل، كقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾، وقوله عن الكفار: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ ونحو ذلك.

قوله: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: وفاة نوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، وكان رسول الله ﷺ إذا قام من نومه يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» رواه البخاري.

وعن حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ يَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا، النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ» رواه البزار بسند جيد.

قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، ومنه يقال: توفيت مالي من فلان إذا قبضته، وهي كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ والضمير في قوله: ﴿قَبۡلَ مَوۡتِهِ﴾ عائد إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقوله: ﴿إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِ﴾ حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، وقيل: على التقديم والتأخير، لأن الواو لا توجب الرتبة، والمعنى: إني رافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد النزول، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي: لولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزامًا.

قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: أمة محمد ﷺ لأنهم هم أتباع الرسل، والشهداء للرسل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ» متفق عليه، فهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وصدقه في قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ فهو التابع الحقيقي، أما من قال بأنه ابن الله، أو هو الله، أو

هو ثالث ثلاثة -كما سيأتي في سورة المائدة- فهو التابع الوهمي، والكافر الحقيقي.

وقد جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا -وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ) حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا-، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» متفق عليه.

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وأَمَّكم مِنْكُمْ»، وفي رواية: «وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ» يعني: أمّكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة ﵁ قوله ﷺ: «فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَأَمَّهُمْ» رواه مسلم، وفي حديث جابر ﵁ فيقول إمامهم لعيسى: «تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لَا؛ إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ» رواه مسلم، والجمع بين هذين الحديثين: أن حديث أبي هريرة ﵁ في أول الأمر، وحديث جابر ﵁ بعد ذلك، والحاصل: أنه يكون حاكمًا، بشريعة محمد ﷺ أصولًا وفروعًا، ويجدد ما اندثر منها، ويعيد بعض أهل الكتاب إلى رشدهم، ويؤمنون به على شريعة الإسلام بعد أن كانوا كافرين بالإسلام، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: خلق الله آدم ﵇ بدون أب ولا أم، ولم يكن إلهًا، ولا ابنًا، ولا ثالث ثلاثة، وعيسى ﵇ من باب أولى، وهذا قياس الأولى، والكل من آيات الله ودلائل على قدرة الله، فآدم من دون أحد، وحواء من آدم من ضلعه الأيسر بدون ذكر ولا أنثى، وعيسى من أنثى بدون ذكر، والله يخلق ما يشاء ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ومن ادعى غير ذلك، فالحق يدعوه إلى المباهلة واللعان.

قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ عن ابن عباس ﵄ قال: لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا. رواه أحمد.

وعن حذيفة ﵁ قال: «جَاءَ العَاقِبُ وَالسَّيِّدُ، صَاحِبَا نَجْرَانَ، إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلاَعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لاَ تَفْعَلْ، فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلاَعَنَّا لاَ نُفْلِحُ نَحْنُ، وَلاَ عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالاَ: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلاَ تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ: لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ. فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ. فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ». رواه البخاري.

قال الزهري: كان أهل نجران أول من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾.

وفي حديث سعد رضي الله عنه قال: «لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا، وَفَاطِمَةَ، وَحَسَنًا، وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: اللهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلِي» رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٦٣ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٦٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٨ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٦٩ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠﴾

قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ عَلى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» متفق عليه.

قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾أي: إلى العدل الذي يستوي فيه الطرفان. قال زهير:

أَرُونِــي خُطَّــةً لَا ضَــيْمَ فِيهَــا يُسَــوِّي بَيْنَنَــا فِيهَــا السَّــوَاءُ

وكلمة العدل التي تساوى فيها جميع الأمم: عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهذه الآية في الركعة الثانية من نافلة الفجر، ويقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾. رواه مسلم.

قوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: في التحليل والتحريم، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: كيف تدعون أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، وقد كان زمنه قبل أن تنزل التوراة والإنجيل؟ أين عقولكم؟ إنما تتكلمون فيما لا تعلمون.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾

قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ يعني: أوله، وسمي وجهه لأنه أحسنه، فكانت طائفة من اليهود يتظاهروا بالإيمان في الصباح، وإذا جاء المساء كفروا.

قوله: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ أي: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو لئلا يؤتى، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ أي: لئلا تضلوا.

قوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ أي: حتى لا يحاجوكم.

قال الشاعر:

وَكُنْتُ إِذَا غَمَزْتُ قَنَاةَ قَوْمٍ ... كَسَرْتُ كُعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمَا

ومنه قولهم: لا نلتقي أو تقوم الساعة.

قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ أي: يدفعه إليك برضا نفس.

قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ أي: لجشعهم يستبيحون أموال المسلمين، فلا يؤدي الواحد منهم الدَّين أو الأمانة إذا كان للمسلم إلا ما دام عليه قائمًا بالمطالبة، والإلحاح في استخلاص الحق، وإذا كان هذا في الدنيا، فغيره من باب أولى، والدينار أربعة وعشرون قيراطًا.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ أي: حرج في أكل أموال الأميين -ويعنون بهم العرب والمسلمين-.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ. قَالَ: فَقَالَ الأَشْعَثُ: فِيَّ وَاللهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَكَ بَيِّنَةٌ. قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: احْلِفْ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ» متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يحرفون ويعدلون به عن القصد، وأصل اللَّيّ: الميل والمطل، قال تعالى: ﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ أي: عنادًا عن الحق، وميلًا عنه، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ أي: لا تعرجون عليه، وعن الشريد الثقفي رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗا﴾، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖ﴾، وقال تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

قوله: ﴿لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: عيسى عليه السلام على قول، و(البشر) يقع على الواحد والجمع؛ لأنه بمنْزلة المصدر، وإذا كان هذا لا يصلح لنبي مرسل فغيره من باب أحرى وأولى.

قوله: ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: العلم والفهم والأحكام.

قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: عابدين لي.

قوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: علماء، حكماء، حلماء، فقهاء، تربون الناس بدين الله على صغار العلم وكباره، وتدبرون أمور الناس بفقه وفهم وتصلحونهم. قال الشاعر:

لَوْ كُنْتُ مُرْتَهَنًا فِي الْجَوِّ أَنْزَلَنِي ... مِنْهُ الْحَدِيثُ وَرَبَّانِيُّ أَحْبَارِي

قال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس رضي الله عنهما: اليَومَ مَاتَ رَبَّانِّي هَذِهِ الأمَّة. رواه الحاكم

قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: من التفهيم.

قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: من التدريس والتحفيظ، وفيه مشروعية مدارسة أحكام الشارع، قال بعض السلف: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ». رواه أبو داود بسند جيد.

وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: استفهام على طريقة الإنكار والتعجب، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وقال إخبارًا عن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي» متفق عليه.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ قال بعض أهل اللغة: للذي آتيتكموه، من كتاب وصواب، من قول وعمل، وعلم نافع.

قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي: جواب الجزاء، كقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾ وهو ميثاق على الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضًا، ويأمر بعضهم بالإيمان بعضًا، ويأمرون أتباعهم بذلك، حتى إذا جاء محمد ﷺ يؤمنون به وينصرونه إن أدركوه، أو يبشرون به إن لم يدركوه، ويأخذوا الميثاق على أممهم أن يتبعوه.

قوله: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ أي: عهدي، لأنه منع وتشديد، وقد جاء في حديث عبد الله بن ثابت رضي الله عنه، قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ» رواه أحمد، وله شاهد عند البيهقي بسند حسن من حديث عبد الله بن الحارث رضي الله عنه، وقد سبق الإخبار عن نزول عيسى عليه السلام وحكمه بالقرآن وسنة محمد ﷺ، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا» رواه مسلم.

قوله: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ أي: طائعين ومكرهين، وهما مصدران في موضع الحال، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، وإسلام الكافر كُرهًا مع بقاء سجوده لغير الله لا ينفعه، قال تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾

قوله: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ أَسْلمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ تَندَّمَ، فَأَرْسَل إلى قَوْمِهِ: سَلُوا لِي رَسُول اللهِ ﷺ هَل لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجاءَ قَوْمُهُ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ فُلانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَل لهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فَأَرْسَل إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ» رواه النسائي بسند صحيح.

والمعنى: لا يهدي الله المرتدين والظالمين ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم، أما إذا تابوا وأنابوا فقد وفقهم الله، وقال في حقهم: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخرون ولا يؤجلون.

قوله: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ يعني: لا تقبل توبتهم عند الموت ومعاينة البأس، كما قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ

ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، أما قبل الموت فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقال ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ» حديث حسن رواه الترمذي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ قَوْمًا أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، ثُمَّ أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، فَأَرْسَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَسْأَلُونَ لَهُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾». رواه البزار وجوده ابن كثير. فهؤلاء قوم متلاعبون ومستهزئون، وارتدادهم جاء على بصيرة منهم، فحق عليهم كلمة العذاب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: أنفقه فيما يراه قُربة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ؛ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» رواه مسلم.

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا -وَفِي رِوَايَةٍ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ-: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ - قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبِيتَ إِلَّا الشِّرْكَ!» متفق عليه.

الْمُحَرَّر فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل

العُشْر الثاني

يَحْيى بن عَبْد العَزِيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ آل عمران

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: الجنة، وقيل: إنه العمل الصالح والتقوى، قال ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ...» متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا (وَفِي رِوَايَةٍ: وَيَسْتَظِلُّ بها)، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ! وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ. فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ» متفق عليه.

قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: أَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلاَّ لُحُومَ الإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا، فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا. قَالُوا: صَدَقْتَ» حسنه الترمذي.

وفي حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «شِفَاءُ عِرْقِ النَّسَا أَلْيَةُ شَاةٍ أَعْرَابِيَّةٍ تُذَابُ، ثُمَّ تُجَزَّأُ ثَلاَثَةَ أَجْزَاءٍ، ثُمَّ يُشْرَبُ عَلَى الرِّيقِ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُزْءٌ» رواه ابن ماجه بسند صحيح.

قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أول مسجد بُنِيَ في الأرض لعبادة الله ﷻ هو المسجد الحرام، فقد جاء عند الشيخين من حديث أبي ذر ﷺ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى. قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ؛ (فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ). وَفِي رِوَايَةٍ: وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ» والذي بناهما إبراهيم ﷺ ثم جدَّد سليمان ﷺ، المسجد الأقصى كما جاء في حديث ابن عمرو ﷺ قال ﷺ: «إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خِلاَلاً ثَلاَثَةً: سَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ، فَأُوتِيَهُ. وَسَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَأُوتِيَهُ. وَسَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ أَنْ لاَ يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لاَ يَنْهَزُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» رواه النسائي بسند جيد.

قوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي: الذي بمكة، واللام: للتوكيد، وبكة من أسماء مكة، وسميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة ويذلون عندها ويخضعون، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كما في حديث عبد الله بن الزبير ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ لأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ» رواه الترمذي بسند حسن.

وقيل: لأن الناس يتباكون فيها ويزدحمون، وهي أحب البلاد إلى رسول الله ﷺ، فقد جاء عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ ابْنِ حَمْرَاءَ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَةِ، فَقَالَ: وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ» رواه الترمذي بسند صحيح.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: وجوب الحج، وقيل: قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، والأول أصح، وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا. فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ...» رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «حِجَّةٌ لِمَنْ لَم يَحجَّ خَيْرٌ مِن عَشرِ غَزَوَاتٍ، وَغَزوَةٌ لِمَن قَد حَجَّ خَيْرٌ مِن عَشرِ حِجَجٍ» رواه البيهقي بسند جيد. وفي حديث ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ» حديث حسن، رواه أبو داود. وفي حديث ابن عباس، أو عن الفضل بن عباس، أو عن أحدهما عن صاحبه بنحوه وزاد: «فَإِنَّهُ قَدْ تَضِلُّ الضَّالَّةُ، وَيَمْرَضُ الْمَرِيضُ، وَتَكُونَ الْحَاجَةُ» رواه أحمد بسند حسن.

قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي: الزاد، والراحلة، والقدرة على السير، والمحرم للمرأة، وقد جاء

في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فَرِيضَةَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى الرَّاحِلَةِ فَهَلْ يَقْضِي عَنْهُ أَنْ أَحُجَّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ» متفق عليه.

ويجوز حج الصغير، ولكن إذا كبر حج حجة الإسلام، جاء في ذلك حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنْ امْرَأَةٌ رَفَعَتْ صَبِيًّا لَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ» رواه مسلم.

قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديًا أو نصرانيًا. رواه أبو نعيم.

قوله: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: مائلة عن الحق، والعوج: الميل والزيغ في الدِّينِ والقول والعمل، قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعْوَجُّوا عن دعائه، والعائج: الواقف، قال الشاعر:

هَلْ أَنْتُمْ عَائِجُونَ بِنَا لَعَنَّا ... نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَام

والرجل الأعوج: السيئ الخلق.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: عقلاء، تقرؤون في التوراة: لا يقبل الله دِينًا غير الإسلام.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فَقَالَ: لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟» رواه الترمذي بسند صحيح.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا في قوله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. رواه ابن أبي شيبة، وصححه الذهبي.

وجاء عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ» رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾ أي: تمسّكوا وامتنعوا.

قوله: ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدين الله ﷻ والقرآن، وقد جاء في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَلا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ ﷻ هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلالَةٍ» رواه مسلم، وقد سبق الحديث عن القرآن بشيء من التفصيل في مقدمة هذا التفسير.

وأصل الحبل في اللغة: السبب الذي يوصل إلى البغية والحاجة، ويقال للجماعة: الحبل، قال ابن المبارك:

إِنَّ الْجَمَاعَةَ حَبْلُ اللهِ فَاعْتَصِمُوا ... مِنْهُ بِعُرْوَتِهِ الْوُثْقَى لِمَنْ دَانَا

وقيل: هو عهد الله، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: عهد وذمة.

قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: التزام الجماعة، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ» رواه مسلم.

وقد وقع الاختلاف في هذه الأمة كما حدث في الأمم السابقة، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى -أَوِ: اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ- فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى -أَوِ: اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ- فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً» رواه أبو داود بسند جيد، وفي حديث معاوية رضي الله عنه بنحوه وفيه: «ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ لِصَاحِبِهِ، لاَ يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلاَ مَفْصِلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ أي: صرتم، وكل ما في القرآن (أصبحتم) فمعناه: صرتم، كقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ أي: صار غائرًا.

قوله: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ أي: حرف، وشفا كل شيء حرفه، وكذلك

شفيره، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾. ومنه شفا المريض على الموت.

قوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: يصلحون ما أفسد الناس مع صلاح أنفسهم، و (من) للتبعيض؛ لأن الدعوة إلى الخير فرض كفاية، لا تلزم كل الأمة، كما أنها لا تليق بكل أحد كالجاهل، قال ﷺ كما في حديث زيد بن ملحة رضي الله عنه: «طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ؛ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي» صححه الترمذي. وفي حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: «فَقِيلَ: مَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ» رواه أحمد بسند لا بأس به. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنَ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ» رواه ابن ماجه بسند صحيح.

وفي أبي هريرة، وابن عمر رضي الله عنهم: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» رواه مسلم.

قوله: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ أي: يقوم المؤمنون الموحدون يوم القيامة ووجوههم ضاحكة مبيضَّة عليها نضْرَة النعيم، ويقوم الكافرون والمنافقون والمبتدعة ووجوههم حزينة مُسْوَدَّة، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: «أَنَّهُ رَأَى رُءُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: الْخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾. قَالَ أَبُو غَالِبٍ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلاَّ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا أَوْ أَرْبَعًا -حَتَّى عَدَّ سَبْعًا- مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ» حسنه الترمذي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾

قوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ جاء في حديث معاوية ابن حيدة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾: «إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ» رواه الترمذي بسند حسن.

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» رواه مسلم.

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ» حسنه الترمذي.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: خير الناس للناس؛ تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام. رواه البخاري.

قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ يعني: أهل الكتاب في حربهم وكذبهم وتحريفهم وبهتم، لا أن تكون لهم الغلبة، فالاستثناء متصل، وهو وعد من الله للمؤمنين بأن العاقبة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

قوله: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وجدوا وكانوا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي: لكنهم يعتصمون بحبل من الله متعلق بمشيئته، وهو الذمة من الله تعالى، والعهد بأن يسلموا.

قوله: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أمان منهم، وعهد من المسلمين ببذل الجزية، واعتمادهم على غيرهم ممن يمدهم بأسباب القوة، وكذلك ضعف المسلمين وبعدهم عن دينهم هو حبل لليهود.

قوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ أي: غير متساوين في الخير والشر، وقيل: المعنى ليس أمة محمد ﷺ وأهل الكتاب سواء، وقيل: ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء، فعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس كغيره ممن بقي على يهوديته أو نصرانيته.

قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: مستقيمة ومطيعة ومتبعة.

قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لا يضيع أجرهم، بل يجازيهم به أوفر الجزاء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

قوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد معه جليد.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ أي: خاصة لكم، أقرباء وأصدقاء وأولياء يستبطنون الأمر، والبطانة من البطن، الذي هو خلاف الظهر:

أُولَئِكَ خُلَصَائِي نَعَمْ وَبِطَانَتِي ... وَهُمْ عَيْبَتِي مِنْ دُونِ كُلِّ قَرِيبِ

ولذا ينصح بأن لا يتخذ المرء ولا يصاحب كل مَن كان على خلاف مذهبه ودينه، وقد جاء في حديث أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» رواه أبو داود بسند حسن.

وفي حديث أبي ذر ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «الْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ» رواه الحاكم، قال ابن حجر: إسناده حسن؛ لكن المحفوظ أنه موقوف عن أبي ذر أو عن أبي الدرداء ﵄.

وعن أبي سعيد ﵁ عن النبي ﷺ قال: «مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا استَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ- إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ» رواه البخاري. قال الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

قوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من سواكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك.

قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصروا في إيذائكم، وإفسادكم، فلا يتركون الجهد في ذلك، فشعارهم: المكر والخديعة.

قوله: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: تمنّوا أن تكونوا دائمًا في مشقة وضيق وكرب ومعاناة.

قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: ليس عندكم منه شك ولا ريب، وهم خلاف ذلك، وأنتم تؤمنون بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم وبنبيكم.

قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ أي: أطراف الأصابع. ويعبر عن شدة الغضب بِعَضِّ الأنامل عند العرب، وإن لم يكن ثم عضٌّ. قال الشاعر:

إِذَا رَأَوْنِي أَطَالَ اللهُ غَيْظَهُمُ ... عَضُّوا مِنَ الْغَيْظِ أَطْرَافَ الْأَبَاهِيمِ

والعض: عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: من الحنق.

قوله: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ﴾ أي: خرجت بالصباح.

قوله: ﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ أي: من منزلك من عند عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

قوله: ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾ أي: في غزوة أحد، وفيها نزلت على قول الجمهور، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾ وهذا إنما كان يوم أحد، وكان المشركون قصدوا المدينة في ثلاثة آلاف رجل، ليأخذوا بثأرهم في يوم بدر، فنزلوا عند أحد، وذلك سنة ثلاث من الهجرة والرسول ﷺ بالمدينة.

وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيْتُ سَيْفِي ذَا الْفَقَارِ فَلاًّ، فَأَوَّلْتُهُ فَلاًّ يَكُونُ فِيكِمْ، وَرَأَيْتُ أَنِّي مُرْدِفٌ كَبْشًا فَأَوَّلْتُهُ كَبْشَ الْكَتِيبَةِ، وَرَأَيْتُ أَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ. فَكَانَ الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ» رواه أحمد بسند جيد. وفي حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ بنحوه وفيه: «رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي مُرْدِفٌ كَبْشًا، وَكَأَنَّ ظُبَةَ سَيْفِي انْكَسَرَتْ، فَأَوَّلْتُ أَنِّي أَقْتُلُ صَاحِبَ الكَتِيبَةِ، وَأَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُقْتَلُ» حديث حسن، رواه أحمد.

وعن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ، وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بِأُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ، فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقَرًا، وَاللهُ خَيْرٌ، فَإِذَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَثَوَابِ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ» متفق عليه، والتبوُّء: اتخاذ المنْزل، قال ﷺ كما في الحديث المتواتر من حديث عليٍّ وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» متفق عليه. أي: ليتخذ فيها منزلًا، والتبوء هنا: اتخاذ المصاف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾

قوله: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ جاء في

حديث جابر رضي الله عنه قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بَنِي سَلِمَةَ، وَبَنِي حَارِثَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِل، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾» متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وكان في السابع عشر من رمضان، يوم الجمعة لثمانية عشر شهرًا من الهجرة، وبدر ماء بين مكة والمدينة سمي به الموضع.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ يعني: قليلين، وكانوا ثلاث مائة وأربعة عشر رجلًا، وكان عدوهم ألفًا.

قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ أي: يوم بدر على القول الصحيح، لا يوم أحد.

قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾ أي: قاصدوكم بسرعة، لنصركم والأخذ على أيدي الكافرين بجد وغضب، والفور: الغليان، قال تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

قوله: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُعَلَّمين بعلامات، قيل: بالعمائم السود، وقيل: بالعمائم البيض.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: إنزال الملائكة، وإلا فإنما النصر من عند الله، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: ليهلك أمة من الكافرين بالقتل.

قوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ أي: يحزنهم، والمكبوت: المحزون، قال بعض أهل اللغة: والأصل يكبدهم، أي: يصيبهم بالحزن والغيظ في أكبادهم، فأبدلت الدال تاء، والعرب تقول للعدو: أسود الكبد، كأنّ الأكباد لما احترقت بشدة العداوة اسودَّت.

قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ جاء في حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾» رواه مسلم، ورواه البخاري معلقًا.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ-، إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ. اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ-. اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ. يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي

بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا -لِأَحْيَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ-، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الْآيَةَ» متفق عليه.

وفي أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لا يَقْنُت إِلا إِذَا دَعَا لِقَوْمٍ، أَوْ دَعَا عَلَى قَوْم» صححه ابن خزيمة.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ أي: لأنهم كانوا يبيعون البيع إلى أجل، فإذا حلَّ زادوا في الثمن على أن يؤخروا، فكأن الطالب يقول: أتقضي أم تربي؟ وقد تقدم الحديث عن الربا في سورة البقرة بشيء من التفصيل، فهذه الآية نهيٌ عن ربا الفضل، وآية البقرة نهيٌ عن الجميع، سواء كان فضلًا، أو نسيئة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ جاء في حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» حديث حسن رواه أبو داود.

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ» رواه ابن ماجه بسند جيد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي! قَالَ: لَا تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لَا تَغْضَبْ» رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَاذَا يُبَاعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللهِ عز وجل؟ قَالَ: لَا تَغْضَبْ» رواه أحمد بسند جيد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» متفق عليه.

ويحسن عند الغضب ما قاله رسول الله ﷺ كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَقَفَ الْعِبَادُ لِلْحِسَابِ جَاءَ قَوْمٌ... ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ: لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ. ثُمَّ نَادَى الثَّانِيَةَ: لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ: وَمَنْ ذَا الَّذِي أَجْرُهُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ.. ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ: لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَقَامَ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا، فَدَخَلُوهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» رواه الطبراني، وحسنه المنذري.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جاء عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ؛ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي» رواه أحمد بسند لا بأس به.

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا» حديث حسن، رواه ابن ماجه.

وفي حديث الزبير رضي الله عنه مرفوعًا: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الاسْتِغْفَارِ» رواه الطبراني بسند لا بأس به.

وعن زيد رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» رواه البخاري.

وفي حديث الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ» رواه مسلم.

ومعنى لفظة (ليغان) أي: ما يتغشى القلب من الغفلة عن ذكر الله عز وجل.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قَالَ: «إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وسيد الاستغفار كما جاء في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَاصَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ -وَفِي رِوَايَةٍ: حِينَ يُصْبِحُ- مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ -وَفِي رِوَايَةٍ: حِينَ يُمْسِي- وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» رواه البخاري.

قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ، ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» رواه مسلم، وفي حديث أنس رضي الله عنه بنحوه، وفيه: «لَخِفتُ عَلَيكُم مَا هُوَ أَعْظَمَ مِن ذَلِكَ: العَجَبُ العَجَبُ» رواه البزار بسند حسن.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنبَرِ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ!» رواه أحمد بسند جيد.

قال الشاعر:

يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إِذَا اعْتَرَفْ ... بِمَا جَنَى مِنَ الذُّنُوبِ وَاقْتَرَفْ

وَقَالَ آخَرُ:

أَقْرِرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ اطْلُبْ تَجَاوُزَهُ ... إِنَّ الْجُحُودَ جُحُودَ الذَّنْبِ ذَنْبَانِ

قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: ما أحسن هذا الأجر الذي حازوه بالطاعة، وفيها مدح وثناء من الله لجنته، وما أعده للصالحين والتائبين.

قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: جمع سنة، وهي: الطريق المستقيم، يقال: فلان على السنة، أي: على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء، ويقال: سنَّ فلانٌ سُنة، إذا عمل عملًا اقتدي به، وقد تكون خيرًا أو شرًا، ويقال: للأمة السنة، وللأمم السنن.

ومعنى الآية: أنه قد مضى لمن قبلكم من الأفراح والأتراح ما يكون عبرة لكم، فقد حل الهلاك

والوبال على المكذبين كعاد وثمود، وصارت العاقبة وحسن المآب لأتباع الرسل.

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: لا تضعفوا، ولا تجبنوا.

قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ يعني على ظهور المشركين برهة من الوقت عليكم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة.

قوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: كما أنه أصابكم جراح وآلام يوم أحد، فقد أصاب القوم جراح وآلام يوم بدر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، والقَرح، والقُرح: الجرح.

قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ الدّولة: الكرَّة، أي: يبدل الله تعالى الأيام ويجعلها تدور بالسراء والضراء على الناس ليختبر إيمانهم. قال الشاعر:

فَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ وقد تقدم بيان هذا العلم في سورة البقرة، وأنه العلم الذي يترتب عليه والثواب أو العقاب.

قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: يكرمكم بالشهادة، والشهيد أي: الشاهد، الحاضر للجنة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يختبر النفوس، ويطهر الذنوب، والتمحيص: درجة بعد الفرز والتمييز.

قوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: الشهادة.

قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ أي: قبل أن تلقوا أسبابه، وقد ثبت في حديث عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ» متفق عليه.

قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الذي هو خليل الرحمن وسيد ولد عدنان، المحمود بكثرة خصاله وحسن أفعاله قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قال عباس بن مرداس:

يَا خَاتِمَ النُّبَآءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ ... بِالْخَيْرِ كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَا

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ -قَالَ إِسْمَاعِيلُ: يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ-، فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ-، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ، حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ-، فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: وبَكَى-، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا -وَفِي رِوَايَةٍ: أَمَّا الْمَوْتَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا-. ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ، عَلَى رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ» رواه البخاري.

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ! فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ! فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ؛ قَالَ اللهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. قَالَ: وَاللهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا. قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ عُمَرَ قَالَ: وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ» رواه البخاري.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ

مِنْ مُصِيبَتِي» حديث حسن رواه ابن ماجه.

وعن سهل بن سعد ﵄، قال رسول الله ﷺ: «سَيُعَزِّي النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ بَعْدِي لِلتَّعْزِيَةِ بِي. فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: مَا هَذَا؟ فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ لَقِيَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يُعَزِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ» رواه ابن أبي شيبة، وحسنه ابن حجر.

قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي: رجعتم إلى ما كنتم عليه، وكنتم كفارًا مرتدين، ومنه قوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، وكقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: بقضاء الله وقدره، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وقال: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾، وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، ولهذا قال هنا ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الجزاء الأوفى والنعيم الذي لا يبلى.

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: كم من نبي، وقال الخليل وسيبويه هي: (أي)، دخلت عليها كاف التشبيه. وقرأ ابن كثير (وكائن) قال الشاعر:

وَكَائِنْ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ ... يَرَانِي لَوْ أُصِبْتُ هُوَ الْمُصَابَا

وقال آخر وقد جمع بينهما:

كَأَيِّنْ أَبَدْنَا مِنْ عَدُوٍّ بِعِزِّنَا ... وَكَائِنْ أَجَرْنَا مِنْ ضَعِيفٍ وَخَائِفِ

قوله: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: جماعات وألوف كثيرة، وقيل: هم العلماء الصُّبر، قال الخليل: رِبِّيُّونَ، نسبوا إلى التألُّه والعبادة، ومعرفة الربوبية.

قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي: ما ذلوا، وما خضعوا، لعدوهم، فكان جزاؤهم محبة الله ﷻ لهم.

قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوزنا الحد، والإسراف في اللغة: الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد، وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ -وَفِي رِوَايَةٍ: خَطَئِي- وَعَمْدِي، وَجَهْلِي، وَهَزْلِي -وَفِي رِوَايَةٍ: وَجِدِّي-، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ يعني: الخوف والفزع، قال ﷺ كما في حديث جابر رضي الله عنه: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...» متفق عليه، وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال ﷺ: «وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي» رواه أحمد بسند جيد.

قوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ يعني: حجة ولا بيانًا، ولا عذرًا ولا برهانًا، ومنه قيل للوالي: سلطانًا؛ لأنه حجة الله ﷻ في الأرض، فالسلطان يستضاء به في إظهار الحق، وقمع الباطل.

قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مكانهم ومستقرهم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتلونهم وتستأصلونهم، ويقال: سنة حسوس أي: جدبة تأكل كل شيء. قال الشاعر:

إِذَا شَكَوْنَا سَنَةً حَسُوسَا ... تَأْكُلُ بَعْدَ الأَخْضَرِ الْيَبِيسَا

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم وضعفتم. والتقدير: حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم. وقيل: الجواب صرفكم عنهم (وثم) تكون زائدة.

قوله: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم، يعني: الرماة، حين قال بعضهم: نلحق الغنائم، وقال بعضهم: بل نثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي ﷺ بالثبوت فيه.

قوله: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أي: أمر رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ يعني: من الغلبة التي كانت للمسلمين في أول الأمر يوم أحد.

قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: الذين ثبتوا حيث أمرهم رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ أي: بعد أن استوليتم عليهم، وهزمتموهم، وكان من المقرر أن تستأصلوهم، ولكن لما انهزمتم واختلفتم وعصيتم صرفكم عنهم، فلم تحققوا ما تريدون.

قوله: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ أي: هربتم لا يلتفت بعضكم على بعض، والإصعاد: السير في مستوى من الأرض، وبطون الأودية والشعاب، والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح، فيحتمل أن يكون صعودهم في الجبل بعد إصعادهم في الوادي، ويقال لبداية السفر: الإصعاد.

قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي: في آخركم، وهو يدعوكم إلى عدم الفرار، جاء عند البخاري من حديث البراء رضي الله عنه قال: «جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ -وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا- عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ... وفيه: فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ» رواه البخاري.

قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي: غَمَّان، فالغم الأول: القتل، والجراح، والغم الثاني: الإرجاف بقتل الرسول ﷺ.

وقيل: الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغم الثاني: ما أصابهم من القتل والهزيمة.

والغم في اللغة التغطية، ومنه: غم الهلال إذا لم ير، والباء في: ﴿بِغَمّٖ﴾ (على) أو (مع) أي: غم على غم، أو مع غم، وقيل: على بابها، والمعنى: أنهم غموا النبي ﷺ بمخالفتهم، فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم، وقيل: فأثابكم غمًا يوم أحد بغمّ يوم بدر للمشركين، والقول الأول: أقرب الأقوال.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾

قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ وَفِي حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه قَالَ: «غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ. قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ

وَآخُذُهُ» رواه البخاري، والنعاس كما هو مشهور إنما يحصل للآمن، أما الخائف فلا يحصل له شيء من ذلك، ولكنها السكينة والرحمة هنا، والأَمَنَة والأمن سواء.

قوله: ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: المنافقون، فقد حملتهم أنفسهم على الهم والغم، والطائفة: تطلق على الواحد والجماعة.

قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: ظن السوء، فقد ظنوا أن أمر رسول الله ﷺ باطل، وأنه لا ينصر كظن أهل الجاهلية، وقد حُرِمُوا من النعاس: الأمنة، وتُرِكُوا للقلق والجزع والخوف، قال تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾.

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: استفهام، ومعناه: الجحد، أي: ما لنا شيء من أمر الخروج، وإنما خرجنا كرهًا، بدليل قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾.

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني: القدر خيره وشره.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ يعني من تولى يوم أحد من المسلمين إنما حمله على ذلك زلل الشيطان ووسوسته، حيث ذكرهم واستدعى خطايا سلفت منهم فكرهوا الثبات لئلا يقتلوا.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: المنافقين.

قوله: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سافروا فيها للتجارة وغيرها.

قوله: ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ أي: غزاة، والغزو: قصد الشيء.

قوله: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ظنهم السيِّئ.

قوله: ﴿حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ الحسرة: ندامة على فائت لم يقدر بلوغه، قال الشاعر:

فَوَا حَسْرَتَى لَمْ أَقْضِ مِنْهَا لُبَانَتِي ... وَلَمْ أَتَمَتَّعْ بِالْجِوَارِ وَبِالْقُرْبِ

قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ أي: ليغفرن لكم، ويرحمكم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ

عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾

قوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فبرحمة، فبما صلة بمعنى التأكيد، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ وليست بزائدة على الإطلاق، وإنما أطلق عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زاد عملها، والباء سببية.

قوله: ﴿لِنتَ لَهُمۡ﴾ أي: صرت لينًا سهلًا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾ أي: جافيًا، جاء في حديث ابن عمرو رضي الله عنهما في صفة النبي ﷺ: «لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ» رواه البخاري.

وكان ﷺ يقول كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» رواه أبو داود بسند صحيح. وفي رواية عند أحمد بسند صحيح: «خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمِ»، وفي لفظ صحيح عند أحمد: «خَيْرُكُمْ إِسْلَامًا أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا إِذَا فَقِهُوا».

وقال ﷺ كما حديث عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وكان يقول ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ» رواه البزار بسند حسن.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الْفَاحِشِ، وَلاَ الْبَذِيءِ» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ لَيْسَ مِنَ الإِسْلاَمِ فِي شَيْءٍ» رواه أحمد بسند جيد. وفي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ فَاحِشٍ مُتَفَحِّشٍ» رواه أحمد بسند جيد.

وتظهر غلظة القلب بتجهم الوجه، وقلة الإشفاق والرحمة. قال الشاعر:

يَبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ ... لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ

قوله: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ أي: تفرقوا، وأصل الفض: الكسر، ومنه قولهم: لا فض الله فاك.

قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها بجري أو غيره. ويقال للموضع الذي تركض فيه: مشوار. وقد يكون من قولهم: شرت العسل واشترته فهو مشور ومشتار إذا أخذته من موضعه.

والشورى من قواعد الشريعة، ولم يُحكَ في ذلك خلاف، قال تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾. قال الشاعر:

شَاوِرْ صَدِيقَكَ فِي الْخَفِيِّ الْمُشْكِلِ ... وَاقْبَلْ نَصِيحَةَ نَاصِحٍ مُتَفَضِّلِ

فَاللهُ قَدْ أَوْصَى بِذَاكَ نَبِيَّهُ ... فِي قَوْلِهِ: (شَاوِرْهُمْ) وَ (فَتَوَكَّلْ)

وقد أمر الله عز وجل بذلك ليعطف قلوبهم، ويذهب ضغائنهم، ويطيب نفوسهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم، وهذا بلا شك فيما ليس فيه وحي، وقد استشارهم يوم بدر كما جاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه، واستشارهم يوم الخندق، وشاوَرَهم يوم الحديبية كما جاء عند البخاري من حديث المسور ومروان، وشاورهم في قضية الإفك كما عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال بعض أهل العلم: من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، ثم إن هذا الأمر لنبيه ﷺ متضمن تعليم الأمة للمشورة، وقد قال النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ» رواه أبو داود، وصححه الترمذي. قال الشاعر:

وَإِنْ بَابُ أَمْرٍ عَلَيْكَ الْتَوَى ... فَشَاوِرْ لَبِيبًا وَلَا تَعْصِهِ

وقد قيل: ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار، قال البخاري: وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: يخون في الغنيمة، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ أي: ما كان الله ليتخذ ولدًا، والغلول: أخذ الشيء من الغنائم في خفاء، ومنه: تغلل الماء في الشجر، إذا تخللها.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ فِي قَطِيفَةٍ حَمْرَاءَ فُقِدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَعَلَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَهَا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ» رواه أبو داود بسند جيد.

ويقال للخيانة: إغلال، وفي الأثر عند أبي داود بسند حسن: «لا إِغْلالَ وَلا إِسْلالَ» أي: لا خيانة ولا سرقة، وقال ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ،

وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَاءِهِمْ» رواه الترمذي بسند صحيح.

قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: حاملًا ما أخذ من الغلول على عنقه، وقد جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال: «قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، قَالَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ﵁ أيضًا قال ﷺ في عبدٍ له قتل يوم خيبر: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ -لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ- لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا» متفق عليه.

وعن عدي بن عميرة الكندي ﵁ قال ﷺ: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ. قَالَ: وَمَا لَكَ. قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ: مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى» رواه مسلم.

وعن عبادة ﵁ قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ مِنَ الْمَقَاسِمِ، ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْبَعِيرِ فَأَخَذَ مِنْهُ قَرَدَةً، -يَعْنِي وَبَرَةً-، فَجَعَلَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذَا مِنْ غَنَائِمِكُمْ، أَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، فَمَا دُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشَنَارٌ وَنَارٌ» رواه ابن ماجه بسند حسن.

وعن أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي، وَلَنْ تَنَالَهُمَا شَفَاعَتِي-أَوْ: لَنْ أَشْفَعَ لَهُمَا-: أَمِيرٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ عَسُوفٌ، وَكُلُّ غَالٍ مَارِقٍ» رواه مسدد بسند حسن.

وعن ابن عمرو ﵄ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَصَابَ غَنِيمَةً أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّاسِ، فَيَجِيئُونَ بِغَنَائِمِهِمْ، فَيُخَمِّسُهُ وَيُقَسِّمُهُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِزِمَامٍ مِنْ شَعَرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا فِيمَا كُنَّا أَصَبْنَاهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ. فَقَالَ: أَسَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كُنْ أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلَنْ أَقْبَلَهُ عَنْكَ» رواه أبو داود بسند حسن.

أما ما أجمع العلماء على جوازه كأكل المطاعم في أرض العدو، فلا يدخل في هذا الباب، وفي هذا ما جاء في حديث عبد الله بن المغفل ﵁ قال: «كُنَّا مُحَاصِرِينَ قَصْرَ خَيْبَرَ، فَرَمَى إِنْسَانٌ بِجِرَابٍ فِيهِ شَحْمٌ، فَنَزَوْتُ لِآخُذَهُ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ» متفق عليه، وفي رواية لمسلم: «فَالْتَزَمْتُهُ فَقُلْتُ: لا

أُعْطِي اليَوْمَ أَحَدًا مِنْ هَذَا شَيْئًا».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كُنَّا نُصِيبُ فِي مَغَازِينَا الْعَسَلَ وَالْعِنَبَ، فَنَأْكُلُهُ وَلَا نَرْفَعُهُ» رواه البخاري.

ومن الغلول هدايا العمال، فقد جاء في حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه: «اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى: ابْنَ اللُّتَبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟...» متفق عليه.

وعن المستورد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلاً فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَكْتَسِبْ خَادِمًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكَنًا. قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أُخْبِرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ اتَّخَذَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ، أَوْ سَارِقٌ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أهل الخير والشر، قال ﷺ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوْ المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» متفق عليه.

وقال الله تعالى عن أهل الشر: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وقال ﷺ في شأن أبي طالب كما في حديث العباس رضي الله عنه: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» متفق عليه، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ» رواه مسلم.

قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ قال ابن القيم: البعث نوعان: بعث ديني كما في هذه الآية، وبعث كوني كقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾.

قوله: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم عربيًا، لا ملكًا ولا عجميًا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

قوله: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ أي: يوم أحد، حيث قُتل من المسلمين سبعون رجلًا.

قوله: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يعني: يوم بدر بأن قتلتم منهم سبعين، وأسرتم سبعين، والأسير في حكم المقتول، لأن الآسر يقتل أسيره إن أراد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾

قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ يعني: يوم أحد.

قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾ أي: قاتلوا دفعًا عن أنفسكم وحريمكم.

قوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ أي: يجري لهم أجر أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا لا ينقص منه شيء، قال الشاعر:

مَــوْتُ التَّقِــيِّ حَيَــاةٌ لَا فَنَــاءَ لَهَــا ... قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

قال ﷺ كما في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ أَوْ: شَجَرِ الْجَنَّةِ» رواه الترمذي بسند صحيح. وفي رواية عند النسائي بسند صحيح: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ عَلَى بَارِقِ نَهَرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» رواه أحمد بسند جيد.

وأما في عالم البرزخ فهم في حياة خاصة فيها يرزقون فرحين مستبشرين، وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: «لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِي: يَا جَابِرُ! مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتُشْهِدَ أَبِي وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْنًا! قَالَ: أَفَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً! قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ لاَ يُرْجَعُونَ. قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾ الآيَةَ» رواه الترمذي بسند حسن.

قوله: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ أي: من إخوانهم المؤمنين والمجاهدين، أنهم سيقدمون عليهم.

قوله: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ أي: بثواب من الله وزيادة عليه، وقد جاء في حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَامَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ» حديث صحيح رواه الترمذي.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في بعض غزواته: «دَعُوا لِي النَّجدِي، فَوَالذِي نَفسِي بِيَدِه إِنَّهُ لَمِن مُلُوكِ الجَنَّةِ. فَلَمَّا استُشهِدَ قَعَدَ عِندَ رَأسِهِ مَسرُورًا يَضحَكُ فقال: أَمَّا مَا رَأيتُم مِن استِبشَارِي فَإِنِّي رَأيتُ كَرَامَةَ رُوحِهِ عَلَى الله ﷻ، وَأَمَّا إعرَاضِي عَنهُ فَإِنَّ زَوجَتَهُ مِنَ الحُورِ العِيْنِ عِندَ رَأسِهِ» رواه البيهقي وحسنه المنذري.

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً، فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ: لَوْنُهَا لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ، وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعَ الشُّهَدَاءِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن حسناء بنت معاوية الصَّرِيمِيَّة رضي الله عنها: «أَنَّهَا سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ: مَنْ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الجَنَّةِ، وَالمَوْلُودُ فِي الجَنَّةِ، وَالوَئِيدُ فِي الجَنَّةِ» رواه أبو داود بسند لا بأس به.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَكَفَّلَ -وَفِي رِوَايَةٍ: انْتَدَبَ- اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، (وَفِي رِوَايَةٍ: وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ) لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَّا إِيمَانٌ بِي وتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي-؛ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ حَمُولَةً، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، وَيَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقُتِلْتُ، ثُمَّ أُحْيِيتُ، ثُمَّ قُتِلْتُ، ثُمَّ أُحْيِيتُ. وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ أُقْتَلُ، (ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ). وَفِي رِوَايَةٍ: كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُهُ الْمُسْلِمُ فِي سَبِيلِ اللهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ- يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهَا إِذْ طُعِنَتْ، تَفَجَّرُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالْعَرْفُ عَرْفُ الْمِسْكِ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» رواه البخاري. وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ

اللهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ! فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ. قَالَ: لَا أَجِدُهُ. قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ، فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟ (قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁: إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ)» متفق عليه، وفي رواية قال ﷺ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى» رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ» متفق عليه.

وعن أُمِّ حَرَامٍ ﵂: أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا. قَالَتْ أُمُّ حَرَامٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا فِيهِمْ؟ قَالَ: أَنْتِ فِيهِمْ. ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ. فَقُلْتُ: أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا» رواه البخاري.

وعن جابر ﵁ قال: «قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ، فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: فِي الْجَنَّةِ. فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ» متفق عليه.

وعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» متفق عليه.

وعن أنس ﵁ قال ﷺ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ» رواه الترمذي بسند حسن.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَاحَ رَوْحَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، كَانَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْغُبَارِ مِسْكًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه ابن ماجه بسند حسن.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا خَالَطَ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ رَهَجٌ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ» رواه أحمد بسند صحيح.

وعن أبي نجيع السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَهُ دَرَجَةٌ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أبي عنبة الخولاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ شُهَدَاءَ اللهِ فِي الأَرْضِ أُمَنَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ فِي خَلْقِهِ، قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا» رواه أحمد بسند حسن.

وعن نعيم بن هَمَّار الغطفاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الَّذِينَ إِنْ يُلْقَوْا فِي الصَّفِّ يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا، أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ فِي الغُرَفِ العُلَى مِنَ الجَنَّةِ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ، وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا فَلاَ حِسَابَ عَلَيْهِ» رواه أحمد بسند لا بأس به.

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَتَى عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى أُقْتَلَ، أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الجَنَّةِ؟ -وَكَانَتْ رِجْلُهُ عَرْجَاءَ- فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ. فَقُتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ وَمَوْلًى لَهُمْ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الجَنَّةِ. فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِمَا وَبِمَوْلاَهُمَا فَجُعِلُوا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ» رواه أحمد بسند صحيح.

وعن ابن أبي عميرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي أَهْلُ الْوَبَرِ وَالْمَدَرِ» رواه النسائي بسند جيد.

وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلاَّ الشَّهِيدَ؟ قَالَ: كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً» رواه النسائي بسند صحيح.

وعند الدارمي من حديث عتبة بن عبد السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقَتْلَى ثَلاَثَةٌ: مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ، فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ فِي خَيْمَةِ اللهِ تَحْتَ

عَرْشِهِ، لاَ يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلاَّ بِدَرَجَةِ النُّبُوَّةِ. وَمُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ، مُمَصْمِصَةٌ مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ -إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءٌ لِلْخَطَايَا-، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ. وَمُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَإِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ، فَذَاكَ فِي النَّارِ، إِنَّ السَّيْفَ لاَ يَمْحُو النِّفَاقَ» رواه الدارمي بسند جيد.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: أجابوا، وعن عروة بن الزبير قال: «قَالَتْ لِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي! كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ: (لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا؛ قَالَ: مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟ فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا. قَالَ: كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ)» متفق عليه.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ عام ومعناه خاص، كقوله: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، وقيل: هم جماعة عبد القيس، وقيل: المنافقون.

قوله: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ أي: كافينا، وحسب مأخوذ من الإحساب: وهو الكفاية، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾» رواه البخاري.

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟ فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا» رواه الترمذي بسند جيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾

قوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ يعني الذين خرجوا في طلب المشركين وهم السبعون رجلًا.

وقد جاء عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يُذْهِبُ اللهُ بِهِ الْهَمَّ وَالْغَمَّ» حديث صحيح، رواه أحمد.

قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم بأوليائه، أو من أوليائه، ويوهمكم أنهم ذووا بأس شديد، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذركم ببأس شديد، وقيل: يخوف أولياءه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين، والقول الأول أوجه.

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ: إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه ابن حبان بسند جيد.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يبادرون ويقعون فيه سريعًا بنصرته، وهم أهل مكة، أو المنافقون، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وكقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ أي: نطيل أعمارهم، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: يفرق بين شيئين مختلطين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: انفصلوا، وافترقوا، وانقطعوا عن أصحاب الجنة، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: تتقطع.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: سوف يطوقون بما بخلوا به من زكاة، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ –

وَفِي رِوَايَةٍ: يَفِرُّ مِنْهُ صَاحِبُهُ، فَيَطْلُبُهُ-، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ (-يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ-)، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ. ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الْآيَةَ» رواه البخاري.

وقيل: يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق، يقال: طوق فلان عمله طوق الحمامة أي: ألزم عمله، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ؟» رواه البخاري. وجاء مرفوعًا من حديث جابر رضي الله عنه رواه البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح.

والفرق بين البخل، والشح:

أن البخل: الامتناع من إخراج ما حصل عندك، والشح: الحرص على تحصيل ما ليس عندك، وقال ﷺ كما في حديث جابر رضي الله عنه: «اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» رواه مسلم.

وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا» رواه النسائي بسند صحيح، وفي رواية عند النسائي بسند صحيح: «وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الْإِيمَانُ وَالْحَسَدُ».

وعن خالد بن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَرِيءٌ مِنَ الشُّحِّ: مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ» رواه الطبراني، وحسنه ابن حجر.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: يرثهما بعد فناء أهلهما، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ أي: اليهود.

قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ يعني في صحائف الأعمال ليكون حجة عليهم وهو تهديد ووعيد رهيب، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني: أسلافهم، لكن لما رضوا بذلك صحت الإضافة إليهم، بل واشتركوا في الخطيئة، قال ﷺ كما في حديث العرس بن عميرة رضي الله عنه: «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا -وَقَالَ مَرَّةً: أَنْكَرَهَا- كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أي: أعطانا عهدًا وميثاقًا، وهو بدل من: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾.

قوله: ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: كان النبي من بني إسرائيل يذبح القربان ويدعو، فتأتي نار فتأكله.

قوله: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ يعني: من القربان.

قوله: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المزبورة، يعني: المكتوبة، وكل زبور فهو كتاب، فالزبر: الكتب المتلقاة من السماء كصحف إبراهيم وموسى، والصحف المنزلة على المرسلين.

قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وقد جاء في حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مُثِّلَ ابْنُ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً، إِنْ أَخْطَأَتْهُ الْمَنَايَا وَقَعَ فِي الْهَرَمِ حَتَّى يَمُوتَ» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ» رواه أبو يعلى وجوده المنذري.

وقد حث الرسول ﷺ على كثرة ذكر الموت بقوله ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ» رواه الترمذي بسند جيد.

قال الشاعر:

الْمَـوْتُ بَـابٌ وَكُـلُّ النَّـاسِ دَاخِلُـهُ ... فَلَيْـتَ شَـعْرِيَ بَعْـدَ الْبَـابِ مَـا الـدَّارُ

قوله: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ أي: أبعد، قال رسول الله ﷺ كما في حديث أنس رضي الله عنه: «مَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا» رواه البخاري. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي بنحوه، وزاد: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾».

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال ﷺ: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» رواه مسلم.

قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ

وَأَبۡقَىٰٓ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾.

وعن المستورد رضي الله عنه قال ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ، إِلا كَمْا يَضعُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ» رواه مسلم. قال الشاعر:

هِـــيَ الـــدَّارُ دَارُ الْأَذَى وَالْقَـــذَى ... وَدَارُ الْفَنَـــــاءِ وَدَارُ الْغِيَـــــرْ
فَلَـــــوْ نِلْتَهَــــا بِحَــــذَافِيرِهَا ... لَمُـــتَّ وَلَـــمْ تَقْـضِ مِنْهَـا الْـوَطَرْ
أَيَـــا مَـــنْ يُؤَمِّـــلُ طُـــولَ الْخُلُـــودْ ... وَطُـــولُ الْخُلُـــودِ عَلَيْـــهِ ضَـــرَرْ
إِذَا أَنْـــتَ شِـــبْتَ وَبَـــانَ الشَّـــبَابْ ... فَـلَا خَيْـرَ فِـي الْعَـيْشِ بَعْـدَ الْكِبَـرْ

قوله: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: ما يؤذيكم، وقد جاء في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى إِكَافٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَسَارَ حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللهِ، وَفِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا! فَسَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ ووَقَفَ وَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ! إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ وَفِي رِوَايَةٍ: يُخَفِّضُهُمْ- (حَتَّى سَكَتُوا)، فَرَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ: أَيْ سَعْدُ! أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟ -يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ-، قَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَلَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ مَا أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اجْتَمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ، فَلَمَّا رَدَّ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، (وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗا﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ اللهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ؛ قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ! فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا)» متفق عليه.

قوله: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: من شدة صلابتها وعزيمتها التي يعزم

عليها لوجوبها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أي: الكتاب، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ جاء عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: «أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ؟ إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ. ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾» متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ الْآيَةَ» متفق عليه.

فالآية إذًا في المنافقين، وأهل الكتاب، والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، قال النبي ﷺ كما في حديث أسماء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» متفق عليه.

وعن ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «وَمَنِ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قِلَّةً، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ فَاجِرَةٍ» رواه مسلم.

قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بمنجاة.

قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال رسول الله

ﷺ كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا» رواه ابن حبان بسند جيد.

وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل قرأها إلى آخر السورة كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند الشيخين.

أما غير أولي الألباب، فقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ» رواه مسلم، ورواه البخاري معلقًا.

وعن عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال له: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ» رواه البخاري.

وقال تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وقال تعالى في الدعاء: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

وعن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ. قَالَ: لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا: الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله، يدخلون الجنة وهم يضحكون. رواه ابن أبي شيبة.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» رواه الحاكم، وحسنه المنذري.

قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليستدلوا به على قدرة صانعهما؛ لأن التفكر يزيد البصائر بصيرة، ويزيل عن العقول الشك، والحيرة، ويجعل العاقل ذا عبرة، وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في الله. رواه المروزي في العرش، وجوده ابن حجر.

قال الشاعر:

إِذَا الْمَــــرْءُ كَانَـــــتْ لَـــــهُ فِكْـــرَةٌ فَفِـــي كُـــلِّ شَـــيْءٍ لَـــهُ عِـــبرَة

فالفكر نور يدخل القلب، ومرآة تري صاحبها الحسنات والسيئات، قال بعض السلف: ما طالت فكرة امرئ إلا فهم، ولا فهم إلا علم، ولا علم إلا عمل.

قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي عبثًا وهزلًا، والباطل الزائل الذاهب، ومنه قول لبيد:

أَلَا كُـــلُّ شَـــيْءٍ مَـــا خَـــلَا اللهَ بَاطِـــلُ وَكُـــلُّ نَعِـــيمٍ لَا مَحَالَـــةَ زَائِـــلُ

قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: أبعدته، وأهلكته.

وقد تمسَّك الخوارج بهذه الآية على أن كل مَن يدخل النار ينبغي ألا يكون مؤمنًا، وبالآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، ولا شك أن ما ذهبوا إليه مردود بالأدلة الكثيرة الدالة على أن مرتكب الكبيرة، وإن دخل النار لا يزول عنه اسم الإيمان، وهي أكثر من أن تحصر.

وهنا قوله: ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ أي: تدخله خالدًا مخلدًا، وهم الكفار الظالمون، وقد جاء في حديث يزيد الفقير قال: «كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ، فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ. قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ -جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ- عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ! مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾، وَ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾؟ فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟ قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ -يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ- قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ. قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ.. قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ: أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ، فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ. فَرَجَعْنَا، قُلْنَا: وَيْحَكُمْ! أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟! فَرَجَعْنَا، فَلَا وَاللهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ» رواه مسلم.

وعن مسلم بن الحارث التميمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهِ فَقَالَ: إِذَا انْصَرَفْتَ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ ثُمَّ مِتَّ فِي لَيْلَتِكَ كُتِبَ لَكَ جِوَارٌ مِنْهَا، وَإِذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ فَقُلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ فِي يَوْمِكَ كُتِبَ لَكَ جِوَارٌ مِنْهَا» رواه أبو داود بسند لا بأس به.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ أَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ. وَمَنِ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ» حديث حسن، رواه الترمذي.

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ اللام بمعنى: إلى، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: إلى هذا، والمعنى: سمعنا داعيًا يدعو الناس إلى الإيمان وهو محمد ﷺ أو القرآن، وقد أخبر الله ﷻ عن الجن بقوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ في موضع نصب على حذف حرف الخفض، أي بأن آمنوا.

قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: مع جملة الأنبياء والصالحين.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: من الرحمة والفضل.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي: الوعد بالبعث والجزاء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾

قوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: «يَا رَسُولَ اللهِ، لَا أَسْمَعُ اللهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

قوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: دينكم واحد، وجميعكم في ثوابي سواء.

قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ أي: ديني، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

قوله: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ أي: قاتلوا الكفار، فقَتَلُوا أو قُتِلوا، وهذا أعلى المقامات، وقد جاء في حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ» رواه مسلم.

قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي، وَأَسْلَمَ وَهَاجَرَ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي، وَأَسْلَمَ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجَنَّةِ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا، يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أَنْ

يَمُوتَ» رواه النسائي بسند جيد.

قوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إضافة إليه، ونسبة إليه؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلًا كثيرًا.

قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ الخطاب لمحمدٍ ﷺ والمراد أمته معه. كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.

قوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، وقال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: قليلًا.

قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: ثوابًا ورزقًا، والنُّزل: ما يهيأ ويُعَدُّ للضيف، وهو النَّزيل، والجمع: أنزال، وفي حديث ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ في اليهودي الحبر الذي سأل رسول الله ﷺ فقال: «فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ. قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا.. قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا» رواه مسلم.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: وما أنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، كالنجاشي ملك الحبشة، ولذلك لما مات نعاه النبي ﷺ وخرج بهم إلى المصلى فصلى بهم وكبَّر أربع تكبيرات، وقال: «قُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ» متفق عليه، وفي رواية عند الشيخين: «اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ».

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيِّ حِينَ نُعِيَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تُصَلِّي عَلَى عَبْدٍ حَبَشِيٍّ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية». رواه البزار بسند جيد.

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: نزل بالنجاشي عدو من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت معنا، فقال: لا، دواء بنصرة الله خير من دواء بنصرة الناس، قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾. صححه الحاكم والذهبي.

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، وهذه الصفات وجدت في قليل من اليهود كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولم يبلغوا عشرة،

كما قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَآمَنَ بِيَ الْيَهُودُ» متفق عليه.

وأما النصارى فهم أكثر من اليهود قربًا قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقال ههنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ جاء في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ... الحديث». متفق عليه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ أي: غالبوا الأعداء والكفار، فلا يكونوا أشد صبرًا منكم. قال عنترة:

فَلَمْ أَرَ حَيًّا صَابَرُوا مِثْلَ صَبْرِنَا ... وَلَا كَافَحُوا مِثْلَ الذِينَ نُكَافِحُ

قوله: ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أي: أقيموا على الجهاد، والأصل: رابطوا أعداءكم بالخيل فارتبطوها كما يرتبطونها، قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، ولكن الرباط هنا أعم من ذلك، فكل ملازم لثغر من ثغور الإسلام فهو مرابط، فالمرابطة عند العرب: العقد على الشيء حتى لا ينحل فيعود إلى ما كان عليه.

وقد سمى النبي ﷺ من جلس ينتظر الصلاة بعد الصلاة بالمرابط، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ». رواه مسلم.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه بلغه أن أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حصر بالشام وقد تألب عليه القوم، فكتب إليه عمر: سلام عليك أما بعد، فإنه ما ينزل بعبد مؤمن من منْزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجًا، ولن يغلب عسر يسرين و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فكتب إليه أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سلام عليك، أما بعد، فإن الله يقول في كتابه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ فخرج عمر بكتابه، فقعد على المنبر، فقرأه على أهل المدينة، ثم قال: يا أهل المدينة إنما يعرض بكم أبو

عبيدة أن ارغبوا في الجهاد. صححه الحاكم والذهبي.

وقال ﷺ في الرباط للجهاد كما في حديث سهل رضي الله عنه: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا». رواه مسلم.

وعن سلمان رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ» رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ أَجْرَى عَلَيْهِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَّانِ، وَبَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفَزَعِ» رواه ابن ماجه بسند جيد.

وعن عثمان رضي الله عنه قال ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وقال ﷺ لرجل رابط ليلة كما في حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه: «هَل نَزَلتَ اللَيْلَةَ؟ قَال: لَا، إِلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيًا حَاجَةً، فَقَال لهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَدْ أَوْجَبْتَ؛ فَلاَ عَلَيْكَ أَنْ لاَ تَعْمَلَ بَعْدَهَا» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ» حسنه الترمذي، وفي حديث أبي ريحانة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «حُرِّمَتْ عَيْنٌ عَلَى النَّارِ، سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ» رواه النسائي بسند جيد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ» رواه الترمذي، وقد سبق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ». رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ، فَأَعْجَبَتْهُ، فَقَالَ: لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ! وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: لاَ تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ؟» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

انتهى تفسير سورة آل عمران ثاني الزهراوين وذلك مساء يوم الاثنين الموافق ١٤٢٣/٨/١هـ من الهجرة

النبوية الشريفة.

  

سُورَةُ النِّسَاءِ

وهي مدنية، وقد جاء عند البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ ﷺ» تعني: قد بنى بها بالمدينة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ أي: من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي: وخلق حواء من ضلع من أضلاع آدم، وقد جاء عند الشيخين من حديث أَبِي هريرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ؛ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ».

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: الذي به تُعاقِدون، وتُعاهِدون، وتَتعاطَفُون، حيث يقول بعضكم لبعض: أسألك بالله، وأنشدك بالله.

قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ على العطف، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وهي القرابة، وقد جاء عند مسلم من حديث جرير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ، عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ، أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ صَعِدَ مِنْبَرًا صَغِيرًا، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ. حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة الحاجة وفيها: «ثُمَّ تَلا هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، وَآية الأحزاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وجاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «مَا الإِحسَانُ؟ فقال رسول الله ﷺ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي: تعطوا زيفًا، وتأخذوا مكانه جيدًا.

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: لا تخلطوا أموالهم فتأكلوها مع أموالكم جميعًا، وفيها النهي عن اعتقاد أن أموال اليتامى كأموالهم من حيث الأكل والانتفاع، والتسلط عليها بالهدايا ونحو ذلك، وقالت طائفة: (إِلَى) بمعنى: (مع)، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والمعنى الأول: أولى.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا عظيمًا، والتحوب: التحزن، وقد جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سُئل عن الكبائر فقال: ما بَيْنَ أَوَّلِ سُورَةِ النَّسَاءِ إِلَى رَأْسِ ثَلاثِيْن. رواه البزار.

قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عُرْوَةَ: أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ إِلَى ﴿وَرُبَـٰعَ﴾، فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي، هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: (فَيَتَزَوَّجُهَا عَلَى مَالِهَا) وَيُسِيءُ صُحْبَتَهَا، (وَلَا يَعْدِلُ فِي مَالِهَا) -، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، وَالَّذِي ذَكَرَ اللهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ فِيهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾».

قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ما أعجبكم وارتاحت إليه نفوسكم منهنَّ، وقد قال النبي ﷺ كما عند الشيخين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ».

وعن إبراهيم بن ميسرة قال: قال لي طاوس ونحن نطوف: لتنكحن أو لأقولن لك ما قَالَ عُمَر بن الْخَطَّاب لأَبِي الزَّوَائِد: مَا يَمْنَعُكَ عَنِ النِّكَاحِ إِلا عَجْزٌ أَوْ فُجُورٌ. رواه سعيد بن منصور، وصححه ابن حجر.

وفي هذا الخطاب مشروعية رؤية المرأة قبل خطبتها، كما أن فيها استحباب نكاح الجميلة؛ لأنه أقرب إلى العفاف، وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث جابر رضي الله عنه: «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمُ الْمَرْأَةَ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وعن أبي حميد، أو أبي حميدة رضي الله عنه بلفظ: «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً، فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، إِذَا كَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا لِخِطْبَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ لا تَعْلَمُ» رواه أحمد بسند صحيح.

وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ فَإِنَّ فِي عُيُونِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا».

قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: اثنتان أو ثلاث أو أربع، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ ولا ينفي ما عدا ذلك من الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع.

قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة.

وقد جاء عن قيس ابن الحارث رضي الله عنه قال: «أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي ثَمَانُ نِسْوَةٍ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا» رواه أبو داود بسند لا بأس به.

قال ابن كثير: وقد انعقد الإجماع على ذلك.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْلَمَ، وَلَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَسْلَمْنَ مَعَهُ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ» رواه الترمذي بسند حسن.

قال ابن جرير: وتأويل هذه الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ فكذلك فخافوا في النساء، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن من واحدة إلى الأربع، فإن خفتم الجور في الواحدة أيضًا فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم فإنه أحرى أن لا تجوروا عليهن.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا أمر معناه النهي، والمعنى: فلا تنكحوا إلا ما طاب لكم من النساء، والعرب تخرج الكلام بلفظ الأمر ومعناه فيه النهي، أو التهديد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وقال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي: لا تجوروا ولا تميلوا، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَنْ لا تَمِيلُوا. رواه سعيد بن منصور

ومنه عول الفرائض؛ لأن سهامها إذا زادت دخلها النقص، قال الشاعر:

بِميــزَانِ قِسْــطٍ لا يُخِــسُّ شَــعِيرَةً وَوَازِنِ صِــدْقٍ وَزْنُــهُ غَيْــرُ عَائِــلِ

وقيل: تحتاجوا. كما قال الشاعر:

وَمَــا يَــدْرِي الْفَقِيــرُ مَتَــى غِنَــاهُ وَمَــا يَــدْرِي الْغَنِــيُّ مَتَــى يَعِيــلُ

أي: يفتقر.

وقيل: ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ أي: فقرًا، وهو مأخوذ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين، قال النبي ﷺ: «وابْدَأ بِمِنْ تَعُول». قال الشاعر:

وَإِنَّ الْمَــوْتَ يَأْخُــذُ كُــلَّ حَــيٍّ بِــلَا شَــكٍّ وَإِنْ أَمْشَــى وَعَــالَا

أي: كثرت ماشيته وعياله. والأول هو الأولى.

قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ أي: مهورهن عطية واجبة، وفريضة لازمة دون مقابل يترتب عليهنَّ، والخطاب للأزواج، وهو دليل على وجوب المهر للمرأة، وهو مُجْمَع عليه، كما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وليس ذلك عوضًا عن البضع؛ لأن تعالى سماه (نحلة) والنحلة ما لم يعوض عليه، فهي للزوجات لا عوض عن الاستمتاع، لأن كلًا منهما يستمتع بصاحبه، ولذلك لم يفتقر عقد النكاح إلى تسمية مهر، ولهذا استحب أن يكتب في الصدقات: هذا ما أصدق فلان، وهذا ما نحل فلان، وقد جاء عند الشيخين من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلامًا، فَقَالَ: أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ؟. قَالَ: لاَ. قَالَ: فَارْجِعْهُ»، وفي رواية عند مسلم: «فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي. ثُمَّ قَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَلاَ إِذًا».

قوله: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ أي: إن وهبت الزوجة به للزوج بعد تسميته عن طيب نفس ورضا منها.

قوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ أي: لا أثم في ذلك، و عند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ ثَلاثًا»، ولمسلم: «وَيَقُولُ: إِنَّهُ أَرْوَى، وَأَبْرَأُ، وَأَمْرَأُ».

قوله: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ أي: ضعاف العقول من الرجال والنساء والصبيان؛ لأنهم لا يحسنون التصرف فيها، فإذا أحسنوا زال عنهم السفه.

قوله: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا﴾ مصدر قام، أي: تقوم بمعاشكم وصلاح أولادكم.

قوله: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اختبروا عقولهم، وصلاح دينهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي: الحلم، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ أي: البلوغ، وحال النكاح والبلوغ يكون بخمسة أشياء، ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء، واثنان يختصان بالنساء، وهما: الحيض والحبل، والثلاث: إنبات شعر العانة، أو البلوغ بأن يبلغ خمسة عشر سنة، أو الاحتلام بأن يرى في النوم ما يرى الرجل من امرأته، ويرى الماء إذا استيقظ.

قوله: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ﴾ أي: أبصرتم، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، أي: أبصر، وتقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى أحدًا معنا؟ أي: تبصر.

قوله: ﴿رُشۡدًا﴾ يعني: صلاحًا في العقل والدين.

قوله: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافًا﴾ أي: بغير ما أباحه الله؛ لأن الأصل في الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لا يباح، وربما كان ذلك في الإفراط، وربما كان في التقصير، والسَّرف الخطأ في الإنفاق.

قوله: ﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ أي: مبادرة كبرهم، وهو حال البلوغ.

قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أُنْزِلَتْ فِي وَالِي الْيَتِيمِ أَنْ يُصِيبَ مِنْ مَالِهِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا بِقَدْرِ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ».

وجاء في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته، وإن استغنيت استعففت. رواه البيهقي.

قوله: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على الأيتام باستيفاء ذلك منكم، ودفعكم لمالهم.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ يعني: محاسبًا، وشاهدًا، ورقيبًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ٧ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا ٨ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارًاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرًا ١٠ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ

وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾

قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ أي: ممن لا يرث، فأعطوهم منه شيئًا قبل القسمة، وقد جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي محكمة وليست بمنسوخة.

وذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم إلى أنها منسوخة بآية المواريث التي بعدها، والجمع بين القولين: أن هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين إذا حضروا قسمة الميراث الكثير فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه، فشرع اللطيف الرحيم، أن يعطى لهم شيء منه استحبابًا على وجه الصدقة والإحسان، وجبرًا لكسر قلوبهم، لا وجوبًا على وجه الميراث أو الوصية، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾.

قوله: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ حذفت الألف من ﴿وَلْيَخْشَ﴾ للجزم بالأمر، ولا يجوز عند سيبويه إضمار لام الأمر إلا في ضرورة الشعر وأجاز الكوفيون ذلك وأنشد الجميع:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ ... إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبَالَا

وتبالا: سوء العاقبة وأصله: وبال أبدلت الواو تاء.

والمعنى أن الناس صنفان: صنف يموت ووراءه من الورثة ما هم مستقلون بأنفسهم أغنياء؛ فحينئذ تكون الوصية مندوبة بالثلث أو بالربع ونحو ذلك، وإن كان ورثة الميت ضعفاء مساكين ضعيفي ذات اليد فليتق الله صاحب الميراث ولا يضر في وصيته.

جاء عند الشيخين من حديث سعد رضي الله عنه قال: «عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا، (قَالَ: يَرْحَمُ اللهُ ابْنَ عَفْرَاءَ) -، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ؛ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَالثُّلُثِ؟ قَالَ: وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ».

قال ابن حجر: وأخرج الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت تنبيهًا للأوصياء

على حفظ أموال اليتامى. وهو حسن لكن يحتاج إلى حمل القول في قوله: ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ على جميع الأعمال البدنية واللفظية والقلبية.

قوله: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في مباشرة أموال اليتامى، لقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾، وهو قول وجيه لقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾ الآية.

وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ... وَذَكَرَ مِنْهَا: وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ، وَالْمَرْأَةِ» رواه ابن ماجه بسند حسن.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ لَتَأْتِي امْرَأَةٌ تُبَادِرُنِي، فَأَقُولُ لَهَا: مَالَكِ، وَمَنْ أَنْتِ؟، فَتَقُولُ: أَنَا امْرَأَةٌ قَعَدْتُ عَلَى أَيْتَامٍ لِي» رواه أبو يعلى بسند لا بأس به.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ قيل: إنهم يقومون يوم القيامة والنار تخرج من أفواههم وبطونهم.

قوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ كقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ والسعير: الجمر المشتعل.

قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ أي: المسلمين، لقوله ﷺ: «لا يَرِث المسْلِمُ الكَافِرَ، وَلا الكَافِرُ المسْلِمَ». متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وهذه الآية مع الآية الخاتمة لسورة النساء هنّ آيات علم الفرائض، إضافة إلى قليل من الأخبار النبوية، ومناسبة هذه الآية ما ثبت عند الشيخين من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي، وَأَنَا مَرِيضٌ لاَ أَعْقِلُ، فَتَوَضَّأَ وَصَبَّ عَلَيَّ مِنْ وَضُوئِهِ، فَعَقَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَنِ المِيرَاثُ؟ إِنَّمَا يَرِثُنِي كَلاَلَةٌ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الفَرَائِضِ. وفي رواية: فَنَزَلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾». وفي رواية عند مسلم: «﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾».

عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ فِي الأَسْوَافِ، فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ بِابْنَتَيْنِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَاتَانِ بِنْتَا ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدِ اسْتَفَى عَمُّهُمَا مَالَهُمَا كُلَّهُ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا إِلَّا أَخَذَهُ! فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ لَا تُنْكَحَانِ أَبَدًا إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ. قَالَ: وَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآيَةَ، فَقَالَ رَسُولُ

اللهِ ﷺ: ادْعُوا لِي الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا. فَقَالَ لِعَمِّهِمَا: أَعْطِهِمَا الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَلَكَ». رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: إذا اجتمعتا معه، فله نصف المال، ولهما النصف، فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان، وإن انفرد حاز المال، وقد جاء عند البخاري من ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ الْمَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، فَنَسَخَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ وَالثُّلُثَ، وَجَعَلَ لِلْمَرْأَةِ الثُّمُنَ وَالرُّبُعَ، وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ وَالرُّبُعَ».

قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوي الميت، الأم والأب.

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: إذا انفردا ولم يكن معهما زوج أو زوجة، أما إذا كان معهما زوج فالزوج يأخذ النصف، والأم تأخذ ثلث الباقي لا ثلث الكل، وأما الأب فيأخذ ما تبقى أي: ضعف ما أخذت الأم، وأما إذا كان معهما زوجة، فكذلك تأخذ الزوجة الربع، والأم ثلث الباقي، ويأخذ الأب ما تبقى، وهذه هي مسألة عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسماة بالعمريتين، وهي ثابتة، بإسناد صحيح عند مالك، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء، وهو الصحيح الذي لا ينبغي أن يقال بخلافه، لموافقته نص الشريعة العام أن للذكر مثل حظ الأُنثيين، والأم والأب من الميت بمنْزلة واحدة.

قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ أي: اثنان فما فوق أشقاء، أو لأب، أو لأم، اثنان فصاعدًا، ذكورًا أو إناثًا.

قوله: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ أي: والباقي للأب ولا شيء للإخوة، فيحجبون الأم حجب نقصان من الثلث إلى السدس، مع أنهم محجوبون بالأب حجب حرمان.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: من بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء دينه، وتقديم الوصية على الدَّين، وإن كانت مؤخرة عنه في الوفاء للاهتمام بها، وقد أجمع السلف على أن الدَّين مقدم على الوصية، والوصية مقدمة على تقسيم الميراث، وقد قال علي رضي الله عنه: «إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى بِالدَّيْنِ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ، وَإِنَّ أَعْيَانَ بَنِي الأُمِّ يَرِثُونَ، دُونَ بَنِي الْعَلاَّتِ: الرَّجُلُ يَرِثُ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ دُونَ أَخِيهِ لأَبِيهِ» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

قد أجمع العلماء على أن الأولاد إذا كان معهم من له فرض مسمى أعطيه، وكان ما بقي من المال للذكر مثل حظ الأُنثيين، لقوله ﷺ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا تَرَكَتِ الْفَرَائِضُ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ» متفق عليه.

وأجمعوا أن بنات الصلب إذا كن اثنتين فصاعدًا حجبن بنات الابن أن يرثن بالفرض، فإن كانت بنت الصلب واحدة فإن ابنة الابن، أو بنات الابن يرثن مع بنات الصلب تكملة الثلثين، وبنات الابن يقمن مقام

البنات عند عدمهن، وكذلك أبناء البنين يقومون مقام البنين في الحجب والميراث، فلما عدم من يستحق منهن السدس كان ذلك لبنت الابن، وهي أولى بالسدس من الأخت الشقيقة للمتوفى.

وقد جاء عند البخاري من حديث هزيل بن شَرحبيل قال: «سُئِلَ أَبُو مُوسَى رضي الله عنه عَنْ بِنْتٍ وَابْنَةِ ابْنٍ وَأُخْتٍ، فَقَالَ: لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَأْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ فَسَيُتَابِعُنِي. فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ! أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لِلابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِابْنَةِ ابْنٍ السُّدُسُ؛ تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ. فَأَتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْحَبْرُ فِيكُمْ».

فإن كان مع بنات الابن أو بنت الابن ابن في درجتها أو أسفل منها عصبها، فكان النصف الثاني بينهما للذكر مثل حظ الأُنثيين.

وأجمع العلماء أن الجدة لا تدخل في مسمى الأم فرضًا، فلا يفرض لها الثلث، وأما الجد ففيه خلاف هل هو في الحكم مثل الأب، وبالتالي فهو يحجب الإخوة أو لا؟ والصحيح أنه ينْزل منْزلة الأب إلا في العمريتين، فالأم معه ترث ثلث الكل لا ثلث الباقي، وقد قضى بحجبه للإخوة أبو بكر رضي الله عنه، ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام حياته، وهو الحق الذي لا مرية فيه، وإن خالف من خالف.

وأجمعوا أن الجدة ترث السدس عند عدم وجود الأم، لحديث بريدة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم جَعَلَ لِلْجَدَّةِ السُّدُسَ، إِذَا لَمْ تَكُنْ دُونَهَا أُمٌّ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وكان الأوزاعي يورث ثلاث جدات، واحدة من قبل الأم، واثنتين من قبل الأب، وهو رأي ثاقب، وقد جاء في حديث المغيرة رضي الله عنه قال: «حَضَرْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَعْطَاهَا السُّدُسَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: هَلْ مَعَكَ غَيْرُكَ؟ فَأَنْفَذَهُ لَهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ جَاءَتْ الْجَدَّةُ الْأُخْرَى إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا فَقَالَ: مَا لَكِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى شَيْءٌ، وَمَا كَانَ الْقَضَاءُ الَّذِي قُضِيَ بِهِ إِلا لِغَيْرِكِ، وَمَا أَنَا بِزَائِدٍ فِي الْفَرَائِضِ، وَلَكِنْ هُوَ ذَلِكَ السُّدُسُ، فَإِنِ اجْتَمَعْتُمَا فِيهِ فَهُوَ بَيْنَكُمَا، وَأَيَّتُكُمَا خَلَتْ بِهِ فَهُوَ لَهَا» حديث حسن، رواه أبو داود.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ أي: مَن لا والد له ولا ولد، مشتقة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه يقال: روضة مكللة إذا حفت بالنور، فسموا القرابة كلالة؛ لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه، يعني: حواشيه لا أصوله ولا فروعه، وقد صحَّ عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «الكلالة من لا ولد له ولا والد». رواه عبد الرزاق. وبذلك قال الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف، قال الطبري: الصواب أن الكلالة هم من يرثون الميت من عدا ولده ووالده، لصحة خبر جابر رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ﴾ أي: للمورث كلالة أخ أو أخت من أُم، وقد انعقد الإجماع على ذلك، وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يقرأ: (وله أخ أو أخت من أم)، وكذا قرأ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. رواه البيهقي، وصححه ابن حجر.

كما أنه انعقد على أن الإخوة المذكورين في آخر السورة: الإخوة الأشقاء، والإخوة لأب.

وهنا مسألة وهي أن الأخوة لأم يخالفون بقية الورثة:

١- أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم.

٢- وأن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء.

٣- ولا يرثون إلا إذا كان ميتهم من يورث كلالة، فلا يرثون مع أب، أو جد، أو ولد، أو ولد ابن، ولا يزادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإناثهم.

وأما في مسألة المشركة، وهي زوج وأم، أو جدة واثنان من ولد الأم، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين، فقد ذهب الجمهور على أن الزوج له النصف، والأم أو الجدة لها السدس، ولولد الأم الثلث، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك، وقد صح ذلك عن عثمان رضي الله عنه.

وذهب آخرون أنه لا تشريك بينهم بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين؛ لأنهم عصبة، وهو مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه والمشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو الصحيح إن شاء الله، وبه قال أحمد بن حنبل.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرٍّ﴾ أي: غير مدخل الضرر على الورثة، بأن يوصي بأكثر من الثلث قاصدًا الضرر، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ -أَوِ الْمَرْأَةَ- بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوتُ، فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ. وَقَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرٍّ﴾، حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أبي ثعلبة الخُشني رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَنَهَى عَنْ

أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَغَفَلَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» حديث حسن، رواه الطبراني.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي: الزنا.

قوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ أي: من رجالكم المسلمين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾.

قوله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ أي: امنعوهن من مخالطة الناس.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: حتى تأتي ملائكة الموت، فتقبض أرواحهنَّ.

قوله: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ عن ابن عباس ﭫ في هذه الآية قال: كُنَّ يُحبَسنَ فِي البُيُوتِ حَتَّى يَمُتْنَ، فَلَمَّا نَزَلَت سُورَةُ النُّورِ وَنَزَلَت الْحُدُود نَسَختَها. رواه البزار.

وجاء عند مسلم من حديث عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ ﭬ قال: «كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ لَهُ وَجْهُهُ.. قَالَ: فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَلُقِيَ كَذَلِكَ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ: خُذُوا عَنِّي، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا: الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ رَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ».

وعن جابر ﭬ قال: «جَاءَتِ الْيَهُودُ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَنَيَا، فَقَالَ: ائْتُونِي بِأَعْلَمِ رَجُلَيْنِ مِنْكُمْ. فَأَتَوْهُ بِابْنَيْ صُورِيَا، فَنَشَدَهُمَا: كَيْفَ تَجِدَانِ أَمْرَ هَذَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالاَ: نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ: إِذَا شَهِدَ أَرْبَعَةٌ أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ رُجِمَا. قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تَرْجُمُوهُمَا؟ قَالاَ: ذَهَبَ سُلْطَانُنَا، فَكَرِهْنَا الْقَتْلَ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالشُّهُودِ، فَجَاءُوا بِأَرْبَعَةٍ فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرَجْمِهِمَا» رواه أبو داود بسند حسن.

وقد ذهب الجمهور إلى الاكتفاء بالرجم بالنسبة للثيب لقصة ماعز والغامدية ﭫ؛ لأنه رجمهما ولم يجلدهما، وذهب أحمد إلى العمل بمقتضى حديث عبادة ﭬ، فيجمع بين الجلد والرجم، ولعل القول

الأول هو الأقرب للصواب.

ولا تقام الحدود في المساجد، لما جاء في حديث حكيم بن حزام ﵁ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُسْتَقَادَ فِي الْمَسْجِدِ، وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ الأَشْعَارُ، وَأَنْ تُقَامَ فِيهِ الْحُدُودُ» حديث حسن، رواه ابو داود.

قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي: فاحشة الزنا، أو اللواط من الرجال، فآذوهما بالضرب بالنعال، وآذوهما بالسب والتوبيخ والتعيير، يقال لهما: فسقتما وخالفتما أمر الله ﷻ، وقد جاء في حديث ابن عباس ﵄ قال: قال ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» حديث حسن، رواه أبو داود.

قوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾ أي: لا تؤذوهما، وكان هذا قبل نزول الحدود، فلما نزلت الحدود نسخت هذه الآية.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: السوء الذي ذكره الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ فيعم الكفر والمعاصي، فكل من عصى الله فهو جاهل حتى يتوب وينْزع، قال قتادة: أجمع الصحابة على أن كل معصية فهي بجهالة عمدًا كانت أو جهلًا.

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعني: يتوبون قبل الغرغرة عند الموت، لأن كل ما كان قبل الموت فهو قريب، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ» حديث حسن رواه الترمذي.

وعن صفوان بن عسال ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا عَرْضُهُ، خَلَقَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ، لاَ يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ» رواه الترمذي بسند جيد. وفي حديث ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، سَبْعَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَبَابٌ مَفْتُوحٌ لِلتَّوْبَةِ» رواه الحاكم بسند جيد.

وعن أبي سعيد ﵁ قال: قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي» رواه أحمد بسند جيد. قال الشاعر:

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ تَوْبَةً مَرْجُوَّةً ... قَبْلَ الْمَمَاتِ وَقَبْلَ حَبْسِ الأَلْسُنِ
بَادِرْ بِهَا غَلْقَ النُّفُوسِ فَإِنَّهَا ... ذُخْرٌ وَغُنْمٌ لِلْمُنِيبِ الْمُحْسِنِ

والمبادرة في الصحة أفضل وألحق لأمله في العمل الصالح، والبعد كل البعد: الموت، قال الشاعر:

يَقُولُونَ لَا تُبْعِدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَنِي ... وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا

قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ أي: لا يقبل الله توبة من ارتكب المعاصي واستمر عليها، إلى أن فاجأه الموت أوأخذ في النَّزع، فلا تنفعه توبته ولا تقبل منه عند خروج روحه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾، ولذا لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق، قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ أي: إكراهًا، وجبرًا، وقسرًا، جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية قال: «كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ: إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ».

قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: تمسكوهن لتمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم بإمساكهن، ولا رغبة لكم فيهن ضرارًا، فكان الرجل تكون عنده المرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي منه بمهرها.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: يفعلن فاحشة الزنا، أو النشوز، أو سوء خُلُقهنَّ، فإن فعلن ذلك فلكم أن تضاروهن حتى يفتدين منكم ويختلعن.

قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالإجمال في القول، والنفقة، والمبيت، قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ والمعاشرة: المخالطة، والممازجة، وقد جاء في حديث إياس بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ! لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ» حديث حسن، رواه أبو داود.

قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لدمامة أو سوء خلق من غير ارتكاب ما يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ من نشوز أو فاحشة، فهذا يندب عليه التحمل والصبر.

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: فعسى الله أن يخرج منهنَّ أولادًا صالحين، قال رسول الله ﷺ كما عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

والمعنى: لا يبغضها بغضًا كليًا يحمله على فراقها، بل ينبغي أن يغفر سيئاتها لحسناتها، ويتغاضى عما

يكره لما يحب، ولعل الله يجعل فيهن من الخير ما لا يعلمه إلا هو ﷻ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: مفارقة زوجة، واستبدال مكانها أخرى، بأن طلقتموها.

قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ أي: مهرًا كثيرًا، وفيه دليل على جواز الصداق بالمال الجزيل، وقد جاء في حديث أبي العجفاء السلمي قال: «خَطَبَنَا عُمَرُ ﵁ فَقَالَ: أَلاَ لاَ تُغَالُوا بِصُدُقِ النِّسَاءِ؛ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللهِ، لَكَانَ أَوْلاَكُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ وَلاَ أُصْدِقَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً» رواه أبو داود بسند قوي. وفي لفظ عند سعيد بن منصور: «ثُمَّ نَزَلَ فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَوْ قَوْلُكَ؟ قَالَ: بَلْ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا ذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَهَيْتَ النَّاسَ آنِفًا أَنْ يُغَالُوا فِي صُدُقِ النِّسَاءِ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾. فَقَالَ عُمَرُ: كُلُّ أَحَدٍ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: إِنِّي نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُغَالُوا فِي صُدُقِ النِّسَاءِ، أَلا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَا لَهُ».

وقد أجمع العلماء على أن لا تحديد في أكثر الصداق، وخير النكاح أسهله على الرجل من حيث تخفيف المهر عليه وغيره، كما قال ﷺ في حديث عمر بن الخطاب ﵁: «خَيْرُ النِّكَاحِ أَيْسَرُهُ» حديث صحيح، رواه أبو داود.

وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ تَيْسِيرَ خِطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرَ صَدَاقِهَا، وَتَيْسِيرَ رَحِمِهَا» رواه أحمد بسند جيد.

قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بالجماع، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر ﵄ في المتلاعنين حين قال الزوج: مَالِي، قَال: «لَا مَالَ لَكَ؛ إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَذَاكَ أَبْعَدُ لَكَ». وفرّق بينهما.

قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا شديدًا، وهو ما أمر الله به من إمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان عند عقد الزواج بهنَّ، كما قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في خطبة الوداع: «فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ...». الحديث.

وقيل: هي قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، وفيها دليل على الإيجاب والقبول في عقد النكاح.

قوله: ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: سببًا لمقت الله، فهو أشد البغض، وهو مبغوض مستحقر؛ لأنه يؤدي إلى مقت الابن أباه، بعد أن يتزوج بامرأته، فالغالب أن من يتزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله.

وعن معاوية بن قرة، عن أبيه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ أَبَاهُ جَدَّ مُعَاوِيَةَ إِلَى رَجُلٍ عَرَّسَ بِامْرَأَةِ ابْنِهِ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَخَمَّسَ مَالَهُ». رواه النسائي، وحسنه ابن حجر.

وعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: «لَقِيتُ عَمِّي وَمَعَهُ رَايَةٌ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيهِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَآخُذَ مَالَهُ» رواه أبو داود بسند جيد.

وقد أجمع العلماء على تحريم مَنْ وطئها الأب بتزويج، أو ملك، أو شبهة، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون جماع، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها، لو كانت أجنبية، والصحيح أنها تحرم أيضًا وهو قول أحمد.

قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أي: بما في ذلك الجدات من قِبَلِ الأب أو الأم، وقد جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حَرُمَ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ، وَمِنَ الصِّهْرِ سَبْعٌ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الْآيَةَ».

قوله: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أي: بما في ذلك بنات الأولاد وإن سفلن، وفيه دليل على تحريم البنت الشرعية المخلوقة من ماء أبيها، أما البنت المخلوقة من ماء الزاني فقد استدل جمهور العلماء وهو مذهب مالك، وأحمد، وأبي حنيفة على تحريمها عليه، بعموم قوله: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾، وأباحها الشافعي لأنها ليست بنتًا شرعية، ولم تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ بالإجماع، ولا ريب أن ما ذهب إليه الشافعي ضعيف، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخبر عن جريج قوله: «مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي». وهذا يدل على أن الزنا يحرم كما يحرم الوطء الحلال، لأنه سماه هنا أبًا وهو أب غير شرعي.

قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ أي: قبل استكمال الحولين خمس رضعات، كما جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ». وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الشيخين، قال ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ». والصحيح أنه لا يستثنى

من ذلك شيء، وعدد الرضعات اللاتي يحرمن خمس رضعات، جاء عند مسلم من حديث عائشة رَضِوَاللَّهُعَنهَا قالت: «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ».

وعن سهلة بنت سهيل رَضِوَاللَّهُعَنهَا، قال ﷺ: «أَرْضِعِيهِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ. فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِهِ مِنَ الرَّضَاعَةِ» رواه أحمد بسند صحيح.

فلا تحرم الرضعة ولا الرضعتان، يعني: المصة أو الإملاجة، كما في حديث أم الفَضل بنت الحارث عند مسلم. واسمها لبابة، وهي والدة ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنهُم.

والذي يحرم هو لبن الزوج، كما ذهب إليه جمهور الأئمة الأربعة؛ لأن اللبن در بسبب ولده، فقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِوَاللَّهُعَنهَا قالت: «جَاءَ عَمِّي مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيَّ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ، حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّهُ عَمُّكِ، فَأْذَنِي لَهُ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ، وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ عَمُّكِ، فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ».

قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: بمجرد العقد.

قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: جمع ربيبة: وهي بنت الزوجة من غيره، لا تحرم حتى يدخل بأمها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، وهو خاص بالربائب، وهذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فالربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره.

وقد ثبت عند الشيخين من حديث أم حبيبة رَضِوَاللَّهُعَنهَا قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ لَكَ فِي بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ؟ قَالَ: فَأَفْعَلُ مَاذَا؟ قُلْتُ: تَنْكِحُ. قَالَ: أَتُحِبِّينَ؟ قُلْتُ: لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَرِكَنِي فِيكَ - وَفِي رِوَايَةٍ: فِي خَيْرٍ- أُخْتِي. قَالَ: إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِي. قُلْتُ: بَلَغَنِي أَنَّكَ تَخْطُبُ -وَفِي رِوَايَةٍ: دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ-. قَالَ: ابْنَةَ أُمِّ سَلَمَةَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي مَا حَلَّتْ لِي؛ أَرْضَعَتْنِي وَأَبَاهَا ثُوَيْبَةُ، فَلَا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ». وهو قول الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور السلف.

وقد ذهب علي ابن أبي طالب رَضِوَاللَّهُعَنهُ إلى خلاف ذلك، فقد جاء في حديث مالك بن أوس رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: كانت عندي امرأة قد ولدت لي فتوفيت، فوجدت عليها، فلقيت علي بن أبي طالب، فقال: ما لك؟ فقلت: توفيت المرأة، فقال: ألها ابنة؟ قلت: نعم، قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، هي في الطائف، قال: فانكحها، قال: قلت: فأين قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾؟، قال: إنها لم تكن في حجرك، وإنما ذلك إذا

كانت في حجرك. رواه عبد الرزاق.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أفتى من سأله إذ تزوج بنت رجل كانت تحته جدتها ولم تكن البنت في حجره. ذكره ابن حجر في الفتح وصححه.

ولا بأس بزواج المرأة وابنة ضرتها يعني في الجمع بينهما، فقد جاء في حديث عبد الله بن صفوان: أنه تزوج امرأة رجل من ثقيف وابنته من غيرها، قال أيوب فسئل عن ذلك ابن سيرين فلم ير به بأسًا.

قوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ أي: زوجات الأبناء من الصلب، لا الأدعياء، كما كان يدعون في الجاهلية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾، بخلاف من تبنيتموهم فلكم نكاح حلائلهم، وسميت حليلة لأنها صارت حلالًا، ولأنها تحل مع الزوج حيث حلَّ، وترحل معه حيث رحل، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَأَلْتُ، أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. -وَفِي رِوَايَةٍ: قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ! - قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ. قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾».

وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وابنه، وعلى أجداده وولد ولده.

قوله: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ أي: من نسب أو رضاع، ويلحق بهما بالسنة الجمع بين المرأة، وبين عمتها أو خالتها، قال ﷺ كما عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، ولَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا». ويجوز نكاح كل واحدة على الانفراد، وملكهما معًا ويطأ واحدة.

قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ جاء عن فيروز الديلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَسْلَمْتُ وَتَحْتِي أُخْتَانِ! قَالَ: طَلِّقْ أَيَّتَهُمَا شِئْتَ» رواه أبو داود بسند حسن. وكذا يحرم الجمع بين الأختين في ملك اليمين لعموم الآية.

وقد أجمع المسلمون على أن معنى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ...﴾ الآية، أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، وكذلك يجب أن يكون نظرًا وقياسًا الجمع بين الأختين بملك اليمين، وأمهات النساء والربائب.

واختلف العلماء فيما لو طلق زوجته طلاقًا لا يملك رجعتها هل له أن ينكح أختها؟ أو أربعًا قبل أن تنقضي عدة المطلقة أو لا؟ فذهب أحمد وأصحاب الرأي إلى المنع، وذهب الشافعي ومالك إلى جواز

ذلك، والأحوط القول الأول، والأقرب القول الثاني.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: عطف على ما قبله من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾، فيحرم نكاح المرأة المتزوجة بزوج، ولذا فالوقف الطويل هنا قبيح، والتحصن: التَّمنُّع، ومنه الحصن لأنه يمتنع فيه، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، ومنه الحصان للفرس، لأنه يمنع صاحبه من الهلاك، والحَصان: المرأة العفيفة، لمنعها نفسها من الهلاك، قال حسان يمدح عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما عند الشيخين من حديث مسروق:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنّ بِرِيبَةٍ ... وتُصْبِح غَرْثَى مِنْ لُحوم الغَوَافِل

والمحصنات هنا ذوات الأزواج، فيقال: امرأة محصنة أي: متزوجة، وامرأة محصنة، أي: حرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ومحصنة أي: عفيفة، قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

والحرية تمنع الحرة مما يتعاطاه الإماء، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر، وكان عرف الإماء في الجاهلية الزنا، وقد قالت هند بنت عتبة للنبي ﷺ حين بايعته: «وَهَلْ تَزْنِي الحُرَّة؟» رواه أبو يعلى.

وقد جاء الإسلام بالإحصان والخلق الرفيع، وقد قال ﷺ: «الإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ؛ لاَ يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ» رواه أبو داود بسند جيد. قال الشاعر:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَا ... يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ وَالْإِسْلَامُ

وقال آخر:

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا

قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: استثناء الإماء ملك اليمين، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسَ، فَلَقُوا عَدُوًّا فَقَاتَلُوهُمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا، فَكَأَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ؛ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أَيْ: فَهُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ».

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَبَايَا أَوْطَاسَ: لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ، وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً» رواه أبو داود بسند حسن.

وقد ذهب الجمهور وهو الصحيح إلى أن بيع الأمة ليس طلاقًا لها، والدليل كما عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قصة بريرة، فقد قال رسول الله ﷺ: «اشْتَرِيهَا وَأَعْتِقِيهَا». ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيَّرها بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، فلو كان بيعًا ما خيّرها.

قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كتبه عليكم.

قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: غير هؤلاء المذكورات، ولكن جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، ولَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا». وعند الحاكم عن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن عليًا تزوج أمامة بعد موت خالتها.

قوله: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ أي: ما يحصن فروجكم، فلكم أن تتزوجوا بأربعة نسوة، ولكم أن تشتروا من السراري ما شئتم.

قوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: سالكين طريق الزنا والفجور والسفاح: مأخوذ من سَفْح الماء، إذا صُبَّ وسال، والسفاح هو الزنا.

قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: تلذذتم بهن، والأجور: المهور، وسمي أجرًا لأنه أجر الاستمتاع، فإذا جامعها مرة واحدة فقد وجب المهر كاملًا إن كان مسمى، أو مهر المثل إن لم يسمَّ، كما قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾.

وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعًا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، قال ﷺ يوم فتح مكة كما عند مسلم من حديث سبرة الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا». وفي رواية لمسلم: «فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ».

وهي أن يتزوج الرجل المرأة بشاهدين، وإذن الولي، إلى أجل مسمى، وعلى أن لا ميراث بينهما ويعطيها ما اتفقا عليه، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، ويستبريء رحمها؛ لأن الولد يلحق به بلا شك، فإن لم تحمل حلَّت لغيره، وأما ما تفعله الرافضة حقيقة، والشيعة اسمًا وزعمًا، من المتعة فهو الزنا بعينه، ومن فعله فحده الرجم إن كان محصنًا، وقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما عند مسلم: فَلَنْ أُوتَى بِرَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ إِلَّا رَجَمْتُهُ بِالْحِجَارَةِ.

قوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مفروضة.

قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أي: من زيادة أو نقصان في المهر، فلو أقنع الزوج زوجته، وأرجع ما كان أعطاها بطيب نفس وقناعة تامة فلا جناح عليه، ولكن المهم استقرار الفريضة، وأنه لا نكاح بدون مهر، ولو خاتم من حديد، أو تحفيظ سورة من القرآن إن لم يجد، ولا حجة فيما روي عند النسائي عن أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خطب أم سليم فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تُسلم فذاك مهري وما أسألك غيره، فأسلمَ فكان ذلك مهرها. قال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم؛ الإسلام، فإن ذلك خاص به، أو لأنه لا يملك شيئًا يقدمه غير ذلك.

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي: غنى وسعة في المال.

قوله: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر العفيفات.

قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: الإماء المسلمات، فلا يجوز للحر المسلم أن ينكح الإماء المسلمات، ولا المشركات إلا أن لا يستطيع طولًا، أو يخاف الزنا على نفسه فله أن ينكح الإماء المسلمات دون المشركات والكتابيات، والعرب تقول للمملوك كبيرًا وصغيرًا: فتى، وللمملوكة: فتاة، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي» متفق عليه، ويطلق الفتى والفتاة على الأحرار في بداية الشباب.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فلا يستنكف من التزوج بالإماء عند الضرورة؛ لأنه ربما كانت أفضل عند الله من الحرة.

قوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: أنتم وهن سواء في الدِّين، فلا تستنكفوا من نكاحهن.

قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: مواليهن، فهم المالكون لهنَّ، فلا ينكح العبد إلا بإذن سيده، ولا تنكح الأمة إلا بإذن سيدها، وقد أجمع العلماء على أن النكاح بدون إذن المالك فاسد، وقد جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَهُوَ عَاهِرٌ» أي: زانٍ.

فإن كان مالك الأَمَة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، وَلا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا» حديث حسن، رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: مهورهن من غير مطل ولا نقص، وفيها دليل على وجوب المهر للأمة، وليس للسيد أن يأخذ مهر أمته، ويدعها بلا جهاز.

قوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي: عفائف عن الزنا.

قوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي: غير زانيات.

قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: أخلاء وأصحاب وأصدقاء على الفاحشة يزنون بهن سرًا، وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا، ولا تعيب اتخاذ الأخدان، فجاء الإسلام فعاب الجميع ومقته، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: خمسون جلدة، وهي على نصف الحرة، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، وهذا الحكم إنما هو من كتاب الله ﷻ في حق الأمة المتزوجة، وأما الأمة غير المتزوجة فقد جاء حكمها في السنة إذا زنت أن تجلد كذلك، وقد خطب عليٌّ رضي الله عنه فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَقِيمُوا عَلَى أَرِقَّائِكُمُ الْحَدَّ، مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُحْصِنْ، فَإِنَّ أَمَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ زَنَتْ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَجْلِدَهَا، فَإِذَا هِيَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِنِفَاسٍ، فَخَشِيتُ إِنْ أَنَا جَلَدْتُهَا أَنْ أَقْتُلَهَا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَحْسَنْتَ. وَفِي رِوَايَةٍ: اتْرُكْهَا حَتَّى تَمَاثَلَ» رواه مسلم. وقال ﷺ: «إِذَا زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ بِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ» متفق عليه، والضفير: الحبل.

قال الزهري: الأمة المتزوجة محدودة بالقرآن، والأمة الغير متزوجة محدودة بالحديث، ولا رجم على الأمة على القول الصحيح.

قال الشافعي: ولم يختلف المسلمون على ذلك.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: يجوز نكاح الإماء المملوكات المسلمات بشرطين:

أحدهما: عدم وجود الطَّول، وهو الغنى.

والآخر: خشية العنت وهو الوقوع في الزنا.

والعنت: الزنا، وأصله من المشقة والضرر، سمي الزنا به لأنه سبب في المشقة بالحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة، وخرج بذلك المملوكات الكافرات، فلا يحل له نكاحها ولو عُدِم المال، وخاف المشقة والزنا.

قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: سنن الأنبياء في التحليل

والتحريم، فتتبعوهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنًا وَظُلۡمًا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي: لا يكاد يملك هواه وشهوته وغضبه، إلا من عصمه الله، ومن ذلك عدم صبره عن النساء، قال ابن المسيب: لقد أتى عليّ ثمانون سنة، وذهبت إحدى عيني، وأنا أعشو بالأخرى، وصاحبي أعمى أصم -يعني ذكره لا يتحرك- وإني أخاف من فتنة النساء.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن إن كانت تجارة بينكم عن تراض منكم وطيب نفس، فلكم أن تأكلوها، والتجارة: هي البيع والشراء، وفي اللغة: المعاوضة، ومنه الأجر الذي يعطيه الله ﷻ عبادة الصالحين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وقال: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾.

وقد ذم الشارع الكذب في التجارة، فقد جاء عن رفاعة رضي الله عنه: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَرَأَى النَّاسَ يَتَبَايَعُونَ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا إِلاَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ» حديث حسن، رواه الترمذي.

وفي هذه الآية احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نصًا، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا، وخالف الجمهور، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي كذلك الأفعال، فصححوا المعاطاة، وهذا القول هو الصحيح قطعًا، وقد جاء في حديث رجل من الأنصار: «أَنَّ امْرَأَةً أَرْسَلَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا، فَجَعَلَ يَلُوكُ لُقْمَةً فِي فَمِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَجِدُ لَحْمَ شَاةٍ أُخِذَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ أَهْلِهَا! فَأَرْسَلَتِ الْمَرْأَةُ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَى الْبَقِيعِ تُشْتَرَى لِي شَاةٌ، فَلَمْ أَجِدْ، فَأَرْسَلْتُ إِلَى جَارٍ لِي قَدِ اشْتَرَى شَاةً: أَنْ أَرْسِلْ إِلَيَّ بِهَا بِثَمَنِهَا، فَلَمْ يُوجَدْ، فَأَرْسَلْتُ إِلَى امْرَأَتِهِ فَأَرْسَلَتْ إِلَيَّ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَطْعِمِيهِ الأُسَارَى» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَفْتَرِقَنَّ اثْنَانِ إِلاَّ عَنْ تَرَاضٍ» رواه أبو داود بسند جيد، وفي حديث عمرو بن يثربي رضي الله عنه، قال ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لامْرِئٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلاَّ مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ» رواه أحمد بسند جيد.

وعن جَابِر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى» رواه البخاري. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ، سَمْحَ الشِّرَاءِ، سَمْحَ الْقَضَاءِ» رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: بارتكاب محارم الله مما يؤدي إلى هلاكها، كالقتل، وأكل أموال الناس بالباطل، وقد جاء عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السُّلاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنِ اغْتَسَلتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَليْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا عَمْرُو، صَليْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الاغْتِسَالِ، وَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يَقُل شَيْئًا». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، وعند الشيخين من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفسَهُ بِشَيءٍ عُذِّبَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ».

قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: كل ذنب حكم الشرع عليه بالعقاب، أو عظَّم ضرره، كالقتل، والزنا، والسرقة، وأعظمها الشرك، وهو الذنب الخطير، والظلم الكبير، وهو الذي لا يغفره الله، وترك الصلاة، واليأس والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، والقتل، واللواط، والزنا، والخمر، وشهادة الزور، وغير ذلك، ولا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.

قوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم الصغيرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ...﴾ الآية.

قوله: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: الجنة، قال أبو سعيد بن الأعرابي: سمعت أبا داود السجستاني يقول: سمعت أحمد بن حنبل يقول: المسلمون كلهم في الجنة، فقلت له: وكيف؟ قال: يقول الله ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ يعني:

الجنة.

قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: الحسد، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وكذا خطبة الرجل على خطبة أخيه، وبيعه على بيعه، وقد جاء في حديث أم سلمة رَضِوَاللَّهُعَنهَا قالت: «يَغْزُو الرِّجَالُ، وَلاَ تَغْزُو النِّسَاءُ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾» رواه الترمذي بسند لا بأس به. وفي رواية: «قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ أَسْمَعُ اللهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾» رواه الترمذي بسند حسن.

وفي حديث أم عمارة الأنصارية رَضِوَاللَّهُعَنهَا: «أَنَّهَا أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا أَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا لِلرِّجَالِ، وَمَا أَرَى النِّسَاءَ يُذْكَرْنَ بِشَيْءٍ! فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآيَةَ» رواه الترمذي بسند جيد.

ولا يدخل في ذلك الغبطة، وهو أن يشتهي ويتطلع الرجل أن يكون له حال صاحبه، وإن لم يتمن زوال حاله، وقد جاء عند الشيخين من ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنهُمَا قال:قال النبي ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ».وكذا لا يدخل تمني فعل الصالحات، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ».

قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: بالدعاء، قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» رواه الترمذي بسند حسن. قال الشاعر:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وعن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْخَلَ الْبُخَلاَءِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلاَمِ، وَأَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجِزَ عَنِ الدُّعَاءِ». رواه أبو يعلى بسند جيد.

وعن أنس رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ» رواه الترمذي، وصححه ابن حبان.

وعن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ أي: ورثة من أقارب وعَصَبَة، والعرب تسمي العم مولى، كما قال الشاعر:

مَهْـلًا بَنِـي عَمِّنَـا مَهْـلًا مَوَالِينَـا لَا تَنْبُشُـوا بَيْنَنَـا مَـا كَـانَ مَـدْفُونَا

ويسمى الناصر مولى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، وقد جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحم للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له.

قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: جمع يمين، بمعنى القسم أو اليد، والمعنى: الحلفاء الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث، قال ﷺ: «لا حِلفَ فِي الإِسْلامِ» رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه، وزاد مسلم من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه: «وَأَيُّمَا حِلفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إِلا شِدَّةً»، وكانوا في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف، ثم نسخ وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعهود، والعقود، والحلف الذي كانوا قد تعاقدوا قبل ذلك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بالعلم، والعقل، والولاية، والقوة، والجهاد، والميراث، واستمرار العبادة، وغير ذلك.

قوله: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ﴾ أي: خاضعات لربهنَّ، مطيعات لأزواجهن.

قوله: ﴿حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: لفروجهن وعرضهن وأموال أزواجهنَّ في غيبتهم.

قوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: بحفظ الله لهنَّ، أو بالذي حفظ الله، والمحفوظ من حفظه الله.

وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ: إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ» رواه أبو داود بسند لا بأس به، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه، وفيه: «قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟... وفيه: وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا،

وَمَالِهَا، بِمَا يَكْرَهُ» رواه النسائي بسند جيد.

وعن فضالة بن عبيد رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُ قَالَ: ثَلاَثَةٌ لاَ تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الجَمَاعَةَ وَعَصَى إِمَامَهُ وَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَقَ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا، قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا، فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، فَلاَ تَسْأَلْ عَنْهُمْ. وَثَلاَثَةٌ لاَ تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ نَازَعَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رِدَاءَهُ؛ فَإِنَّ رِدَاءَهُ الكِبْرِيَاءُ، وَإِزَارَهُ العِزَّةُ، وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللهِ، وَالقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» رواه أحمد بسند جيد.

وعن أنس رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِنِسَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: كُلُّ وَلُودٌ وَدُودٌ، إِذَا غَضِبَتْ أَوْ أُسِيءَ إِلَيْهَا أَوْ غَضِبَ، أَيْ زَوْجُهَا، قَالَتْ: هَذِهِ يَدِي فِي يَدِكَ لا أَكْتَحِلُ بِغُمْضٍ حَتَّى تَرْضَى» رواه الطبراني بسند حسن.

وعن سعد ابن أبي وقاص رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاَثَةٌ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ. وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ» رواه أحمد بسند حسن.

وعن عبد الرحمن بن عوف رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شِئْتِ» حديث حسن، رواه أحمد.

وعن الحصين بن محصن: «أَنَّ عَمَّةً لَهُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فِي حَاجَةٍ، فَلَمَّا فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا، قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟ قَالَتْ: مَا آلُوهُ إِلاَّ مَا عَجَزْتُ عَنْهُ. قَالَ: فَانْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» رواه أحمد بسند جيد.

قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي: تتيقنون عصيانهن وتعاليهن، والنشوز مأخوذ من النَّشز: وهو ما ارتفع من الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي: ارتفعوا وانهضوا.

قوله: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: بكتاب الله ﷻ وما جاء فيه من طاعة الزوج، وبسنة رسول الله ﷺ، كقوله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ؛ لِمَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ» رواه أحمد بسند حسن.

وعند ابن ماجه بسند جيد عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ، قال ﷺ: «وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ» أي: على ظهر إكاف البعير.

وبقوله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا؛ لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ. وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى تَرْجِعَ». متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ.

وبما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وبما قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى امْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ» حديث صحيح، رواه البزار من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

وبما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: «أَتَى رَجُلٌ بِابْنَتِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ ابْنَتِي هَذِهِ أَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَطِيعِي أَبَاكِ. فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لا أَتَزَوَّجُ حَتَّى تُخْبِرَنِي مَا حَقُّ الزَّوجِ عَلَى زَوْجَتِهِ. قَالَ: حَقُّ الزَّوجِ عَلَى زَوْجَتِهِ لَوْ كَانَتْ بِهِ قُرْحَةٌ فَلَحِسَتْهَا، أَوِ انْتَثَرَ مَنْخِرَاهُ صَدِيدًا أَوْ دَمًا، ثُمَّ ابْتَلَعَتْهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ. فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تُنْكِحُوهُنَّ إِلا بِإِذْنِهِنَّ» رواه أحمد بسند جيد.

وبما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُ الْمَرْأَةُ حَقَّ الزَّوْجِ مَا قَعَدَتْ مَا حَضَرَ غَدَاءُهُ وَعَشَاءُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ» رواه البزار بسند جيد.

وبما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لاَ تُؤْذِيهِ، قَاتَلَكِ اللهُ! فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا» رواه الترمذي بسند حسن.

قوله: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: فلا يجامعها، وقد جاء عن معاوية القشيري رضي الله عنه قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ -أَوِ: اكْتَسَبْتَ-، وَلاَ تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلاَ تُقَبِّحْ، وَلاَ تَهْجُرْ إِلاَّ فِي الْبَيْتِ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ أي: ضربًا غير مبرح، كما قال ﷺ في خطبة الوداع: «وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ». رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، أما الضرب بمجرد الخلافات الصغيرة، فهذا لا شك أنه مذموم، وقد جاء عن إياس بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لاَ تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللهِ! فَجَاءَ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ! فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ! لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ» حديث حسن، رواه أبو داود، ويختلف الحال في أدب الرفيعة والدنيئة، فأدب الرفيعة العذل (أي: اللوم)، وأدب الدنيئة السوط. قال الشاعر:

وَاللَّـــــوْمُ لِلْحُـــــرِّ مُقِـــــيمٌ رَادِعٌ   وَالْعَبْـــــدُ لَا يَرْدَعُـــــهُ إِلَّا الْعَصَـــــا

وقال آخر:

الْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ

ويلحى، أي: يلام.

قوله: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أي: برضاهما، ويوكل الزوج حَكَمَهُ في طلاق وقبول عوض عليه، وتوكل هي حَكَمها في الاختلاع، فيجتهدان ويأمران الظالم بالرجوع، أو يفرقان إن رأياه، فهما قاضيان لا شاهدان، وقد جاء عن عَبِيدة السلماني في هذه الآية قال: جاء رجل وامرأة إلى علي مع كل واحد منهما فئام من الناس، فلما بعث الحكمين، قال: رويدكما حتى أعلمكما ماذا عليكما، هل تدريان ماذا عليكما، إنكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما، ثم أقبل على المرأة فقال: قد رضيت بما حكما؟ قالت: نعم رضيت بكتاب الله علي ولي، ثم أقبل على الرجل فقال: قد رضيت بما حكما؟ قال: لا ولكن أرضى أن يجمعا ولا أرضى أن يفرقا، فقال علي: كذبت والله لا تبرح حتى ترضى بمثل الذي رضيت. رواه النسائي.

وقد أجمع العلماء على أن الحكمين إذا كانا موكلين من جهة الزوجين لا من جهة الحاكم فلهما الجمع والتفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة، أو بطلقتين، أو بثلاث فعلا، فإن لم يوكلهما الزوجان فقولهما نافذ في الجمع إجماعًا، وأما التفرقة فلا، والجمهور على اعتباره خلافًا لأحمد.

قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القريب منك في الجوار أو النسب، وقد جاء في حديث حكيم بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الصَّدَقَاتِ: أَيُّهَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ» حديث حسن، رواه الدارمي.

قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: الجار الغريب البعيد عنك في الجوار أو النسب، وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ، فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا». رواه البخاري. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الحديث مفسِّر للآية.

وقد جاءت نصوص تؤكد حق الجار، منها ما جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ». متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ» حديث صحيح، رواه الترمذي.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ جَارَانِ» حديث صحيح، رواه أحمد.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاَتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا؛ غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا! قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاَتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ، وَلاَ تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قَالَ: هِيَ فِي الجَنَّةِ» حديث صحيح، رواه أحمد.

وعن المقداد ﵁ قال: «قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟ قَالُوا: حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ. وَقَالَ ﷺ: مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟ قَالُوا: حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ؛ فَهِيَ حَرَامٌ. قَالَ: لأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ» حديث صحيح، رواه أحمد.

وعن أبي ذر ﵁ قال: «إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ» رواه مسلم.

وعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ» حديث حسن، رواه الطبراني.

وعن ابن عباس ﵄، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ المُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ» حديث حسن، رواه الحاكم. قال الشاعر:

قِـــدْرِي وَقِـــدْرُ الْجَـــارِ وَاحِـــدَةٌ وَإِلَيْـــهِ قَبْلِـــي تُرْفَـــعُ الْقِـــدْرُ

وعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَشْبَعُ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ» حديث حسن، رواه أحمد.

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: الرفيق في السفر، قال بعض السلف: للسفر مروءة، وللحضر مروءة، فأما المروءة في السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله، وأما المروءة في الحضر: فالإدمان إلى المساجد، وتلاوة القرآن، وكثرة الإخوان في الله ﷻ، وقد قال رسول الله ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ» رواه الترمذي بسند حسن.

وقيل: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: الزوجة لأنها تصاحب زوجها، والصحيح تناوله للجميع. قال الشاعر:

إِذَا مَـا رَفِيقِـي لَـمْ يَكُـنْ خَلْـفَ نَـاقَتِي لَـهُ مَرْكَـبٌ فَضْـلًا فَـلَا حَمَلَـتْ رِجْلِـي

وَلَمْ يَكُ مِنْ زَادِي لَهُ شَطْرُ مِزْوَدِي فَلَا كُنْتُ ذَا زَادٍ وَلَا كُنْتُ ذَا فَضْلِ
شَرِيكَانِ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ وَقَدْ أَرَى عَلَيَّ لَهُ فَضْلًا بِمَا نَالَ مِنْ فَضْلِي

قوله: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر المنقطع عن ماله، وقد قال النبي ﷺ: «لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يُضِيفُ» حديث حسن، رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وقد جاء في حق الضيف حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ، فَلَا يَقْرُونَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ». متفق عليه.

وعن أبي شريح قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ. قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ». متفق عليه.

وعن أبي كريمة المقدام بن معديكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَصْبَحَ بِفِنَائِهِ فَهُوَ عَلَيْهِ دَيْنٌ: إِنْ شَاءَ اقْتَضَى، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ» رواه أبو داود بسند صحيح. وفي رواية: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مَحْرُومًا، فَإِنَّ نَصْرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، حَتَّى يَأْخُذَ بِقِرَى لَيْلَةٍ مِنْ زَرْعِهِ وَمَالِهِ» حديث صحيح، رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ» حديث حسن، رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أي: من الأرقاء والممالك.

وقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ». متفق عليه.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ». رواه مسلم.

وعن معاوية القشيري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَسْأَلُ رَجُلٌ مَوْلاَهُ مِنْ فَضْلٍ هُوَ عِنْدَهُ فَيَمْنَعُهُ إِيَّاهُ إِلاَّ دُعِيَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَضْلُهُ الَّذِي مَنَعَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن المقدام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ» رواه أحمد بسند حسن.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ،

ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ: اعْفُوا عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن عمرو بن حُرَيث ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ» حديث حسن رواه ابن حبان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: متكبرًا معجبًا بنفسه.

قوله: ﴿فَخُورًا﴾ أي: كثير التعاظم على الناس بما أوتي، وقد جاء عن جابر بن عتيك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللهُ: فَأَمَّا الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ. وَإِنَّ مِنَ الْخُيَلاَءِ مَا يُبْغِضُ اللهُ، وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللهُ: فَأَمَّا الْخُيَلاَءُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّتِي يُبْغِضُ اللهُ فَاخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ وَالْفَخْرِ» رواه أبو داود بسند جيد.

ومن الاختيال والفخر المذموم ما جاء عن معاوية ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وقال أبو رجاء الهروي: لا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالًا فخورًا، وتلا هذه الآية، ولا عاقًا إلا وجدته جبارًا شقيًا وتلا: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿قَرِينًا﴾ أي مقارنًا ومصاحبًا وخليلًا. قال الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: وزن ذرة، كأصغر نملة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». رواه مسلم.

وزاد في رواية: «ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَاجِدٌ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَؤُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾». متفق عليه.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً: يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا». رواه مسلم.

قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ أي: كيف يكون حال الكفار إذا جاء نبيها ورسولها شاهدًا عليهم بما عملوا، قال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ =وَفِي رِوَايَةٍ: إِنِّي أُحِبُّ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَشْتَهِي- أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي=. فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾،

قَالَ: (حَسْبُكَ الْآنَ) (وَفِي رِوَايَةٍ: أَمْسِكْ). فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ». متفق عليه.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: يتمنى الكفار أن يجعلون والأرض سواء، أو لانشقت بهم الأرض، وخسفت بهم، حين رأوا ما قدمت أيديهم، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: شاربي الخمر، وهو ضد الصحو، ويقال: سكرت عينه، إذا تحير وذهب عقله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، وقد بيّنا في سور البقرة النسخ النهائي، واستقرار تحريم الخمر إلى يوم القيامة، وقد جاء عن علي ﵁: «أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ دَعَاهُ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَسَقَاهُمَا قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الخَمْرُ، فَأَمَّهُمْ عَلِيٌّ فِي المَغْرِبِ فَقَرَأَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فَخَلَطَ فِيهَا، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لأَسْقِيَنَّهُ مِنْهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ، وَمَنْ تَرَكَ الْحَرِيرَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لأَكْسُوَنَّهُ إِيَّاهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ» رواه البزار بسند لا بأس به.

وعن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذَ رَجُلا، فَخَيَّرَهُ بَيْنَ أَنْ يَشْرَبَ الْخَمْرَ، أَوْ يَقْتُلَ نَفْسًا، أَوْ يَزْنِيَ، أَوْ يَأْكُلَ لَحمَ الْخِنْزِيرِ، أَوْ يَقْتُلُوهُ إِنْ أَبَى، فَاخْتَارَ أَنْ يَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَأَنَّهُ لَمَّا شَرِبَهَا لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ شَيْءٍ أَرَادُوهُ مِنْهُ. وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ لَنَا مُجِيبًا: مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْرَبُهَا، فَيَقْبَلَ اللهُ لَهُ صَلاةً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَلا يَمُوتُ وَفِي مَثَانَتِهِ مِنْهَا شَيْءٌ، إِلا حُرِّمَتْ عَلَيْهِ بِهَا الْجَنَّةُ، فَإِنْ مَاتَ فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً» رواه الحاكم بسند جيد.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ» حديث حسن، رواه ابن ماجه.

وعن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: «عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَصُومُ، فَتَحَيَّنْتُ فِطْرَهُ بِنَبِيذٍ صَنَعْتُهُ فِي دُبَّاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ بِهِ فَإِذَا هُوَ يَنِشُّ، فَقَالَ: اضْرِبْ بِهَذَا الْحَائِطَ؛ فَإِنَّ هَذَا شَرَابُ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ» رواه داود بسند جيد.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ لَهُ صَلاَةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ» رواه الترمذي بسند حسن.

وعن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ. أَوْ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ». رواه مسلم.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا» رواه أبو داود بسند جيد، وقد غير اسمها في زمننا هذا فسميت بالمشروبات الروحية، تلبيسًا على الناس وتجميلًا لها.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَبَسَ عِنَبًا أَيَّامَ الْقِطَافِ حَتَّى يَبِيعَهُ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ، أَوْ مِمَّنْ يَتَّخِذُهُ خَمْرًا فَقَدْ تَقَحَّمَ النَّارَ عَلَى بَصِيرَةٍ» حديث حسن، رواه الطبراني.

قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي: مرورًا، قال ﷺ: «إِنِّي لاَ أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلاَ جُنُبٍ» رواه أبو داود بسند حسن. وهذا محمول على المكث والبقاء، وأما المرور ونحوه فقد ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها، وأبي هريرة رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، نَاوِلِينِي الثَّوْبَ. فَقَالَتْ: إِنِّي حَائِضٌ! فَقَالَ: إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ. فَنَاوَلَتْهُ». رواه مسلم.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ أي: الغسل الأكبر، أو الوضوء، قال أحمد: متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد، لما روى أحمد وسعيد بن منصور بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك.

وعن عطاء بن يسار قال: رَأَيْتُ رِجَالا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَجْلِسُونَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمْ مُجْنِبُونَ، إِذْ تَوَضَّئُوا وُضُوءَ الصَّلاةِ. رواه سعيد بن منصور.

قوله: ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾ أي: ما انخفض من الأرض، وكانت العرب تقصده لتقضي حاجتها سترًا عن الأعين، ثم سمي بالحدث الخارج من الإنسان بذلك للمقارنة.

قوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: جامعتموهن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الْمُلامَسَةُ: الجِمَاعُ، وَلكِنَّ اللهَ يُكَنِّي بِمَا يَشَاء. رواه ابن أبي شيبة. وفي رواية عند الطبري: وَلَكِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يَكْنِي عَمَّا شَاءَ.

واللمس يطلق في الشرع على الجس باليد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: جسوه، وقد ثبت عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة؛ لأنها من بيوع الجاهلية، والملامسة: تعين بيع السلعة بمجرد لمس المشتري لها. والذي جعل

اللمس هنا الجماع هو فعل الرسول ﷺ فقد قَبَّلَ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ثُمَّ صَلَّى وَلَم يَتَوضَّأ. رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ أي: اقصدوا التراب الطاهر، فالتيمم لغة: القصد، وهو من خصائص هذه الأمة، قال ﷺ: «وَجُعِلَت لِيَ الأرض طَهُورًا وَمَسْجِدًا». متفق عليه من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال الشافعي:

عِلْمِـي مَعِـي حَيْثُمَـا يَمَّمْـتُ أَحمِلُـهُ بَطْنِـي وِعَـاءٌ لَـهُ لَا بَطْـنُ صُـنْدُوقِ

وقال آخر:

إِنِّـي كَـذَاكَ إِذَا مَـا سَـاءَنِي بَلَـدٌ يَمَّمْـتُ بَعِيـرِي غَيْـرَهُ بَلَـدَا

قوله: ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: كل ما صعد على وجه الأرض من تراب ورمل وشجر وحجر ونبات، ولكن المقصود به هنا التراب، وما كان من جنسه، قال تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: ترابًا أملسًا طيبًا، وقال: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: أرضًا غليظة لا تنبت شيئًا.

وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ». رواه مسلم.

وعن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ وَلَوْ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ فَأَمِسَّهُ جِلْدَكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أبي الجهيم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَحْوِ بِئْرِ جَمَلٍ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الْجِدَارِ فَمَسَحَ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ». متفق عليه.

وعن سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بِأَرْضٍ فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَلْيَتَوَضَّأْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَتَيَمَّمْ، فَإِنْ قَامَ صَلَّى مَعَهُ مَلَكَاهُ، وَإِنْ أَذَّنَ وَأَقَامَ صَلَّى خَلْفَهُ مِنْ جُنُودِ اللهِ مَا لَا يَرَى طَرْفَاهُ» رواه عبد الرازق بسند جيد.

وعن سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَمَسَّحُوا بِالأَرْضِ، فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ» حديث صحيح، رواه الطبراني.

قوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي: مسح الوجه والكفين بضربة واحدة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ قال لعمار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا. فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ، أَوْ ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ». وفي حديث عبد الرحمن بن أبزى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا. فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ، وَنَفَخَ فِيهِمَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ». متفق

عليه.

وسبب نزول الآية ما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ -أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ- انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالُوا: أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ! قَالَتْ: فَعَاتَبَنِي، وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: جَزَاكِ اللهُ خَيْرًا، فَوَاللهِ مَا نَزَلَ بِكِ أَمْرٌ تَكْرَهِينَهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ ذَلِكِ لَكِ وَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْرًا-. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ». متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ٥٠ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾

قوله: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ أي: لا سمعت، حال بمعنى الدعاء، أو غير مقبول منك، والأول أقرب.

قوله: ﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ أي: تحريفًا بألستهم، يوهمون بقولهم: ﴿رَٰعِنَا﴾ وهم يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ، وقد سبق ذلك في سورة البقرة.

قوله: ﴿نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ أي: نمحو ما في الوجوه من معالم، كالعين والأنف والحاجب.

وقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ أي: نجعل أبصارهم من ورائهم، أو نطمس الوجوه فلا سمع فيها ولا بصر، ولا أنف، وتكون كأدبار وجوههم، والطمس: استئصال الشيء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ أي: أعميناهم، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾

أي: أهلكها.

قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أي: نمسخهم قردة وخنازير، كحال أهل السبت منهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ، فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ: فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾. وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا: فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ، أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا: فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، القِصَاصُ لَا مَحَالَةَ» حديث حسن، رواه أحمد.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «سَأَلْتُ، أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَعْظَمُ- ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. -وَفِي رِوَايَةٍ: قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ!... الحديث». متفق عليه.

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي» حديث حسن رواه الترمذي.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ أي: قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، وفي حديث زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ؛ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: حتى لو كان صغيرًا بالغ الصغر كالفتيل، وهو الخيط الذي في شق نواة التمر، أو القشرة التي حول النواة، وهو إشارة إلى تصغيره، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ وهو النكتة التي في ظهر النواة.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾ أي: بالسحر، وكل معبود من دون الله، وأصل الجبت الذي لا خير فيه، وتقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: كل ما يعبد ويطاع من دون الله ممن طغى وتكبر وعاند واستكبر وعلى رأسهم إبليس وفرعون، وعن سعيد ابن جبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي: قال اليهود لكفار قريش حين سألوهم: أنحن أهدى سبيلًا، ونحن ولاة البيت، أَمْ محمد؟ وقد خالف دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم؟ فأجابهم اليهود: أنتم أهدى سبيلًا من محمد وأصحابه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: لو كان لهم منه شيء لم يعطوا أحدًا منه شيئًا لبخلهم وحسدهم، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ أي: بخيلًا.

قوله: ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: ولو كان بمقدار النكتة أو النقطة التي في ظهر نواة التمر. و (إذا) هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها، ولو نصب لجاز.

قال سيبويه: (إذا) في عوامل الأفعال بمنزلة (أظن) في عوامل الأسماء، أي تلغى إذا لم يكن الكلام معتمدًا عليها، فإن كانت في أول الكلام وكان الذي بعدها مستقبلًا نصبت، كقولك: أنا أزورك، فيقول مجيبًا لك: إذًا أكرمك.

فإن وقعت متوسطة بين شيئين كقولك: زيد إذًا يزورك ألغيت، فإن دخل عليها فاء العطف أو واو العطف فيجوز فيها الإعمال والإلغاء، أما الإعمال فلأن ما بعد الواو يستأنف على طريق عطف الجملة على الجملة، فيجوز في غير القرآن فإذا لا يؤتوا. وفي التنزيل ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ﴾ وفي مصحف أبي (وإذا لا يلبثوا). وأما الإلغاء فلأن ما بعد الواو لا يكون إلا بعد كلام يعطف عليه.

قوله: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: محمدًا ﷺ والمؤمنين، والحسد تعاسة وحزن دائم، وقد قيل: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، قال الشاعر:

أَلَا قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لِي حَاسِدًا ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْأَدَبْ

أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِي حُكْمِهِ ... إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

فالحسد أول ذنب عصي الله به في السماء من قِبَل إبليس لآدم، وأول ذنب عصي الله به في الأرض من قِبَل قابيل لهابيل.

قال الشاعر:

حَسَدُوا النِّعْمَةَ لَمَّا ظَهَرَتْ ... فَرَمَوْهَا بِأَبَاطِيلَ الْكَلِمْ

وَإِذَا مَا اللهُ أَسْدَى نِعْمَةً ... لَمْ يَضِرْهَا قَوْلُ أَعْدَاءِ النِّعَمِ

وقال آخر:

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسُو ... دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ». ويدخل في الأمانة، ما هو من حقوق الله ﷻ على عباده من صلاة، وزكاة، وصيام، وكفارات، ونذور، قال الشاعر:

ومـا المـالُ والأهلـونَ إلا وَدائِـعٌ ... ولابُـدَّ يومًـا أنْ تُـرَدَّ الودائِـعُ

ويدخل في الأمانة الولاية على المسلمين، وقد جاء في حديث أبي مريم الأزدي ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَلَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ؛ احْتَجَبَ اللهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن سمرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالْمِنْحَةُ مَرْدُودَةٌ، وَالدَّيْنُ مَقْضِيٌّ، وَالزَّعِيمُ غَارِمٌ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن عبادة ﵁: أن النبي ﷺ قال: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ» رواه

أحمد بسند جيد.

وإذا تلفت العارية بدون تفريط فلا ضمان عليها، قال ﷺ: «لا ضَمَانَ عَلَى مُؤْتَمَنٍ». حديث حسن، رواه الدارقطني.

قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

ومن العدل في القضاء الحكم بالبينة على المدعي، واليمين على من أنكر، وأن لا يسمع من الأول حتى يسمع من الآخر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: سميعًا لما يقال، بصيرًا بما يفعل، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذه الآية: «نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ».

قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أي: بالمعروف، ولذا لم يتقدم هذا الأمر بكلمة (وَأَطِيعُواْ)، قال ﷺ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» متفق عليه من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ». متفق عليه.

ويدخل في مسمى ولاة الأمر: أهل الفقه، والدين، والعلم إلا أنه في الحكام، والسلاطين أغلب، وقد جاء في الإمام العادل قوله ﷺ: «يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عُبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً» حديث حسن، رواه الطبراني.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ...الحديث». متفق عليه.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ». رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فإن

وافق شرع الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ وشهدا له بالحق فهو الحق، وإلا فهو الضلال.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبة، ومآلًا، وجزاء، في الدنيا والآخرة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقدرة الله ومشيئته، والغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن ربهم، لإطلاق الطاعة لهم.

قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما اختلط عليهم، ومنه (الشجر) لاختلاط أغصانه وتشابكها، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن الزبير رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الْمَاءَ يَمُرُّ! فَأَبَى عَلَيْهِ، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ. فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: آنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ولكن الله عز وجل لم يكتب على هذه الأمة شيئًا من هذه التكاليف

الشاقة رفقًا ويسرًا ورفعًا للحرج عن هذه الأمة، وإلا لو أمروا لعصوا إلا قليلًا منهم.

قال ابن كثير: يُخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبون من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه سبحانه بما كان وبما لم يكن.

قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: تصديقًا وثباتًا على الحق.

قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جاء في الصحيحين في حديث عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾. فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ».

قوله: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ أي: جمع صديق، وهم أفاضل أصحاب الأنبياء، سموا بذلك لمبالغتهم في الصدق والتصديق، والذي يحقق بفعله ما يقوله بلسانه، وعلى رأس هؤلاء أتباع الأنبياء والمرسلين، وأول هذه الأمة أبو بكر الصديق ﵁، وقد انعقد الإجماع على تسميته صديقًا.

قوله: ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ أي: اخرجوا إلى قتال العدو، وأصله من النفور وهو الفزع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وسمي يوم النفر، لأن الناس ينفرون إلى منى.

قوله: ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: جماعات متفرقات، جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسَرِيَّة بعد سَرِيَّة.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتخلفن عن الجهاد، أو يتباطأ في نفسه، ويثبط غيره عن الجهاد، كما كان يفعل عبد الله بن أُبي بن سلول، رأس المنافقين وأصحابه.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه ليس من أهل دينكم، وليس بينكم وبينه معرفة وصداقة، وهذا راجع إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾، اعترض به بين القول ومقوله، و (كأن) مخففة، واسمها محذوف.

قوله: ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ

ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ
وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ
عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ
أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ استفهام توبيخي، وقد جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّهُ تَلَا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في دعاء القنوت في صلاة الفجر: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَالْمُسْتَضْعفِينَ مِن الْمُؤْمِنِينَ». متفق عليه.

قوله: ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ أي: بالكفر، والقرية: مكة بإجماع المفسرين.

قوله: ﴿مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي: يتولى أمورنا وينصرنا.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً! فَقَالَ: إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ؛ فَلاَ تُقَاتِلُوا. فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَنَا بِالْقِتَالِ، فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾» حديث صحيح رواه النسائي، وهي كقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ...﴾ الآية، وهي على ما طبع عليه البشر من المخافة لا على المخالفة.

ولا شك أن المقصود بهم المؤمنون الذين لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، وقد جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ. قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاَءِ لِمَا لاَ يُطِيقُ» حديث حسن رواه الترمذي.

قوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: «مَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطًا لِي، أَنَا وَأُمِّي، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللهِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَيْءٌ أُصْلِحُهُ. فَقَالَ: الأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ شَرًّا خَضَّرَ لَهُ فِي اللَّبِنِ وَالطِّينِ حَتَّى يَبْنِيَ»

رواه الطبراني بسند جيد.

وعن سهل بن سعد ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن أبي هاشم بن عتبة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ خَادِمٌ وَمَرْكَبٌ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَأَجِدُنِي الْيَوْمَ قَدْ جَمَعْتُ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن خباب ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا يَكْفِي أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ» رواه أبو يعلى بسند صحيح.

قال الشاعر:

وَلَا خَيْـرَ فِـي الـدنيا لِمَـنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ ... مِـنَ اللهِ فِـي دَارِ الْمُقَـامِ نَصِـيبُ

فِـإِنْ تُعْجِـب الـدُّنْيَا رجَـالا فِإنَّهَـا ... مَتَـاع قَلِيـلٌ والـزَّوَال قريـبُ

قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: حصينة أمينة منيعة عالية، ومنه قوله: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، قال الشاعر:

وَمَـنْ هَـابَ أَسْـبَابَ الْمَنِيَّـةِ يَلْقَهَـا ... وَلَـوْ رَامَ أَسْـبَابَ السَّـمَاءِ بِسُـلَّمِ

وقد جاء في حديث جابر ﵁ قال: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ ﵇: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ لَاقِيهِ» حديث حسن، رواه الطيالسي.

وعن عبد الله ابن الشخير ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مُثِّلَ ابْنُ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً، إِنْ أَخْطَأَتْهُ الْمَنَايَا وَقَعَ فِي الْهَرَمِ حَتَّى يَمُوتَ» رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: بسبب اتباعنا لك، وهي مقولة المنافقين، كما أن هذه الآية مقولة لقوم فرعون قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ فهم يعبدون الله، كما قال سبحانه ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾.

قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: ارتكبت ما يستوجبها من الذنوب، كما قال تعالى:

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ
طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى
ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ
مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ
وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً
حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا
حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ».

قوله: ﴿حَفِيظٗا﴾ أي: حافظًا ورقيبًا، فما عليك إلا البلاغ، وما أنت عليهم بمسيطر ولا جبار.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ أي: يظهرون لك الموافقة والطاعة.

قوله: ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا وتواروا عنك.

قوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ أي: زوّروه وموّهوه وبدّلوه، وتقول العرب: أمر بُيِّت بليل إذا أحكم، قال تعالى: ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، قال الشاعر:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا ... أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَمْ يُبَيِّتِ الصِّيَامَ قَبْلَ الفَجْرِ فَلا صِيَامَ لَهُ» حديث صحيح، رواه النسائي.

يقال للأمر: يبيت عليه صاحبه، إذا كان مهتمًا به.

قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، وفيه دلالة على وجوب تدبر القرآن والتفكر في معانيه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ أي: تناقضًا، وتضادًا، واضطرابًا، ولكنه لما كان من عند الله سَلِم من كل عيب ونقص، سواء كان آيات محكمات، أو آيات متشابهات، فما أمكن تدبره تُدبر، وما لا مجال فيه للتدبر فهو مما ابتلى الله عز وجل فيه العباد فكان منهم المؤمن، قال تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ فردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، وأما الذين في

قلوبهم زيغ فردوا المحكم إلى المتشابه فضلوا، قال النبي ﷺ حين اختلف اثنان في آية فارتفعت أصواتهما: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ». رواه مسلم من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ المقصود: الإنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحقق المصلحة من ذلك، وربما كان الخبر مكذوبًا، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ». رواه مسلم.

وعند الشيخين من حديث عمر رضي الله عنه حين بلغه أن النبي ﷺ طلق نساءه فجاء من منْزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهم: «أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: لا. فَقُلْتُ: الله أَكْبَرُ»، وفي رواية عند مسلم: «فَقُمْتُ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ الله ﷺ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ...﴾ الآية، فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الأَمْرَ وَأَنْزَلَ الله ﷻ آيَةَ التَّخْيِيرِ».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يتبعونه ويطلبون علمه ويستخرجونه من مصادره، وإنما يتمكن من ذلك أهل العلم والفقه، وفيها دلالة على الاجتهاد والاستنباط إذا عُدم النص والإجماع.

قوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: بأن يباشر القتال بنفسه، ولو اضطر أن يقاتل وحده؛ لأنه قد ضمن له النصر، وكما أنه أمر للرسول ﷺ فهو أمر لكل فرد من الأمة.

قوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حُضَّ، وحُثَّ، قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾. وقال ﷺ يوم بدر لما دنا المشركون: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ». رواه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه.

قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إطماع متحقق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي: حربًا، وسطوةً، وقوةً، وعزةً.

قوله: ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: عقوبة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، وقال تعالى يوم الأحزاب: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، وقال تعالى يوم الحديبية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ من يتوسط في صلح، أو مصلحة للإسلام،

وقد جاء في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَاهُ السَّائِلُ أَوْ صَاحِبُ الْحَاجَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ- قَالَ: اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ (مَا شَاءَ)». متفق عليه.

وقال مجاهد: هِيَ شَفَاعَة النَّاس بَعْضهمْ لِبَعْضٍ.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أقوامٌ اختصَّهُم بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ العِبَادِ يُقرّهُم فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فإذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنهُم فَحَوَّلَها إلَى غَيرِهِم» حسنه المنذري.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَأَسْبَغَهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ جَعَلَ شَيْئًا مِنْ حَوَائِجِ النَّاسِ إِلَيْهِ فتبَرَّمَ، فَقَدْ عَرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ للزَّوَالِ» رواه الطبراني بسند جيد.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسُرَّهُ بِذَلِكَ سَرَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَة» حديث حسن، رواه الطبراني.

قوله: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: وزر وإثم منها، ويستعمل الكفل في النصيب من الخير والشر، قال تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي: قديرًا، قال الشاعر:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ ... وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءتِهِ مُقِيتَا

وقيل: حفيظًا وحسيبًا، ورازقًا.

قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ أي: إذا سَلَّم عليكم المسلم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وأصل التحية: الدعاء بالحياة، والتَّحِيَّات لله: جَمْع تَحِيَّة وَمَعْنَاهَا: السَّلام، وَقِيلَ: الْبَقَاء، وَقِيلَ: السَّلامَة مِنَ الآفَات وَالنَّقْص، وَقِيلَ المَلِك، وقد أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة ورده واجب، قال الله تعالى: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ وهو أمر، والأمر للوجوب، ولا صارف له عن ذلك.

وقد جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّلاَمُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَضَعَهُ فِي الأَرْضِ؛ فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِقَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُمُ السَّلاَمَ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ» رواه البزار بسند جيد.

وفي حديث هَانِئٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ يُوجِبُ لِي الْجَنَّةَ. قَالَ: عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْكَلامِ، وَبَذْلِ السَّلامِ» رواه ابن حبان بسند جيد.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجْزِئُ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِذَا مَرُّوا أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ، وَيُجْزِئُ عَنِ الْجُلُوسِ أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ. (وَفِي رِوَايَةٍ: وَالصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ)». متفق عليه.

قوله: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ أي: بأفضل مما سَلَّم عليكم، أو ردوا عليه بمثل ما سَلَّم عليكم، فإذا قال المسلم: السلام عليكم، قال الرَّادُّ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وقد جاء في حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ. فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَشْرٌ. ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ. فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: عِشْرُونَ. ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: ثَلاثُونَ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلائِكَةِ جُلُوسٍ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ، وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ. فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ. فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ». متفق عليه.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سلم عليه رجل، فقال: سلام عليك ورحمة الله وبركاته ومغفرته، فانتهره، وقال: حسبك إذا انتهيت إلى: وبركاته، إلى ما قال الله عز وجل. رواه البيهقي.

قَال عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اِنْتَهَى السَّلام إِلَى وَبَرَكَاته. ذكره ابن حجر في الفتح.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا تَلاقَوْا تَصَافَحُوا، وَإِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرٍ تَعَانَقُوا» رواه الطبراني بسند جيد.

ولا بأس بإفراد السلام كما قال ﷺ للمسيء صلاته حين سلم عليه قال: «وَعَلَيْكَ السَّلامُ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» متفق عليه.

ولا بأس بالسلام على المصلي وهو يصلي، لما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى قُبَاءٍ يُصَلِّي فِيهِ، قَالَ: فَجَاءَتْهُ الأَنْصَارُ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، قَالَ: فَقُلْتُ لِبِلالٍ: كَيْفَ رَأَيْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِينَ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي؟ قَالَ: يَقُولُ هَكَذَا-وَبَسَطَ الرَّاوِي كَفَّهُ، وَجَعَلَ بَطْنَهُ أَسْفَلَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ إِلَى فَوْقٍ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَرَدَّ عَلَيْهِ» رواه النسائي بسند صحيح.

ولا يجوز ابتداء السلام، بقوله: عليك السلام، قال ﷺ حينما سلَّم عليه جابر بن سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال:

«عَلَيْكَ السَّلاَمُ يَا رَسُولَ اللهِ -مَرَّتَيْنِ-. قَالَ: لاَ تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلاَمُ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تَحِيَّةُ الْمَيِّتِ، قُلِ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ» رواه أبو داود بسند صحيح. وكانت العرب يحيّون الموتى بذلك، قال الشاعر:

عَلَيْـكَ سَـلاَمٌ مِـنْ أَمِيـرٍ وَبَارَكَـتْ ... يَـدُ اللهِ فِـي ذَاكَ الْأَدِيـمِ الْمُمَـزَّقِ

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه سلم على الموتى كما سلم على الأحياء فقال: «السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما الكافر فيرد عليه كما جاء قال ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ». متفق عليه، ولا يُبْدَؤون بالسلام لقوله ﷺ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما قولك: كيف أمسيت؟ وكيف أصبحت؟ فهو سؤال عن حال، لا تحية، وقد جاء في حديث محمود بن لبيد قال: لَمَّا أُصِيبَ أَكْحُلُ سَعْدٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَثَقُلَ، حَوَّلُوهُ عِنْدَ امْرَأَةٍ، يُقَالُ لَهَا: رُفَيْدَةُ، وَكَانَتْ تُدَاوِي الْجَرْحَى، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهِ، يَقُولُ: كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟ وَإِذَا أَصْبَحَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَيُخْبِرُهُ» رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه ابن حجر.

وأما قول: مسَّاك الله بالخير، وصبحك الله بالخير فهو دعاء، والخليق بالمؤمن أن يبدأ أولًا بالسلام، ثم بعد ذلك بالكلام في سؤال، أو دعاء أو نحو ذلك، وهذا هو هديه عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ أي: حفيظًا وكافيًا، ومثله حسبك الله، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: كافيك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَـٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سميت بذلك لأن الناس يقومون فيه لرب العالمين، قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ

ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقيل: لأنهم يقومون من قبورهم إليها، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾.

قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ أي: لا أحد.

قوله: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: «رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ النَّاسُ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فَرِيقٌ يَقُولُ: اقْتُلْهُمْ. وَفَرِيقٌ يَقُولُ: لَا. فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾». متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي: ردَّهم إلى الكفر ونكسهم، والركس قلب الشيء على رأسه.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: تحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم لحكمهم، وهذا إثبات للموادعة بين أهل الإسلام وأهل الحرب، إن كان في الموادعة مصلحة للمسلمين، ولو لم يكن هناك جزية.

قوله: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ أي: أبغضوا قتالكم، فهم لا لكم ولا عليكم، ومنه: الحصر في القول وهو ضيق الكلام على المتكلم، ويقال لكتوم السر: الحصر.

قوله: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: المسالمة والموادعة، فانقادوا لشرع الله.

قوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ أي: المنافقين.

قوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، منهمكين في ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ أي: سطوة وحجة وبرهانًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا﴾ أي: على التحريم والنهي، لا على النفي، وهذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر هذا من مؤمن حقيقي، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بخلاف قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ فهي للنفي فلا يقدر العباد أن ينبتوا

شجرها أبدًا، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ».

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» رواه الترمذي بسند جيد.

وقال عمر ﵁: اللهم لا تجعل قتلي بيد رجل صلى لك سجدة واحدة، يحاجني بها عندك يوم القيامة. رواه مالك.

قوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أي: لكن، استثناء منقطع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾. قال الشاعر:

وَبَلْـــدَةٍ لَـــيْسَ بِهَـــا أَنِـــيسُ إلا اليَعَـــافِيرُ وَإلا العِـــيسُ

قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ جاء في حديث معاوية بن الحكم عندما أراد أن يعتق الجارية، قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: ائْتِنِي بِهَا. فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رواه مسلم.

وفي حديث عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ: «أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِجَارِيَةٍ لَهُ سَوْدَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، فَإِنْ كُنْتَ تَرَاهَا مُؤْمِنَةً أُعْتِقُهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَتَشْهَدِينَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: أَتَشْهَدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ.. قَالَ: أَتُوقِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَعْتِقْهَا» رواه مالك وصححه ابن تيمية.

قوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: مائة من الإبل، وقد ودا النبي ﷺ في عبد الله بن سهل المقتول بخيبر لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن مائة من الإبل أدخلت عليهم الدار. متفق عليه من حديث عن سهل بن أبي حثمة ﵁.

وعن ابن عمرو ﵄: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى أَنَّ مَنْ قُتِلَ خطأً فَدِيَتُهُ مِائَةٌ مِنَ الإِبِلِ: ثَلاَثُونَ بِنْتَ مَخَاضٍ، وَثَلاَثُونَ بِنْتَ لَبُونٍ، وَثَلاَثُونَ حِقَّةً، وَعَشَرَةُ بَنِي لَبُونٍ ذَكَرٍ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وفي رواية عند أبي داود بسند صحيح قال ﷺ: «أَلاَ إِنَّ دِيَةَ الْخَطَأِ شِبْهِ الْعَمْدِ -مَا كَانَ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا- مِائَةٌ مِنَ الإِبِلِ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بُطُونِها أَوْلاَدُهَا».

وفي رواية: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَوِّمُ دِيَةَ الْخَطَأِ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى أَرْبَعَ مِائَةِ دِينَارٍ أَوْ عِدْلَهَا مِنَ الْوَرِقِ، وَيُقَوِّمُهَا عَلَى أَثْمَانِ الإِبِلِ، فَإِذَا غَلَتْ رَفَعَ فِي قِيمَتِهَا، وَإِذَا هَاجَتْ رُخْصًا نَقَصَ مِنْ قِيمَتِهَا، وَبَلَغَتْ عَلَى

عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا بَيْنَ أَرْبَعِ مِائَةِ دِينَارٍ إِلَى ثَمَانِ مِائَةِ دِينَارٍ، وَعِدْلُهَا مِنَ الْوَرِقِ ثَمَانِيَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَهْلِ الْبَقَرِ مِائَتَيْ بَقَرَةٍ، وَمَنْ كَانَ دِيَةُ عَقْلِهِ فِي الشَّاءِ فَأَلْفَيْ شَاةٍ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ فِي عِمِّيًّا فِي رَمْيٍ يَكُونُ بَيْنَهُمْ بِحِجَارَةٍ، أَوْ بِالسِّيَاطِ، أَوْ ضَرْبٍ بِعَصًا؛ فَهُوَ خَطَأٌ، وَعَقْلُهُ عَقْلُ الْخَطَإِ، وَمَنْ قُتِلَ عَمْدًا فَهُوَ قَوَدٌ، وَمَنْ حَالَ دُونَهُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَغَضَبُهُ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ» رواه أبو داود بسند جيد.

وتكون الدية على العاقلة إذا كان خطأ، ولا يعلم في هذه المسألة خلاف كما قال الشافعي.

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ: عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَى أَنَّ دِيَةَ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ؟ فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ». متفق عليه.

وأما في قتل العمد فقد أجمع العلماء على أنه في مال الجاني، ولا تحمل العاقلة من الدية شيئًا، وحكم عمد الخطأ حكمه الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن الدية في شبهة العمد تقسم أجزاء.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ أي: يتصدق ورثة القتيل بالدية، فيتنازلوا عنها فلا تجب، وتبقى الكفارة واجبة في مال الجاني.

قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ أي: فلا دية في قتل مؤمن بقي بين أظهر الكفار، وإنما كفارته تحرير رقبة، وسقطت الدية لأن أولياءه كفار، ولأنه لم يهاجر، قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ أي: فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنًا فدية كاملة، وكذا إن كان كافرًا عند طائفة من أهل العلم، وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، قال النبي ﷺ: «دِيَةُ الْمُعَاهِدِ نِصْفُ دِيَةِ الْحُرِّ» رواه أبو داود بسند حسن.

وأما إن كان مملوكًا فقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي دِيَةِ الْمُكَاتَبِ يُقْتَلُ: يُودَى مَا أَدَّى مِنْ مُكَاتَبَتِهِ دِيَةَ الْحُرِّ، وَمَا بَقِيَ دِيَةَ الْمَمْلُوكِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ أي: متصلين لا إفطار بينهما، فإن أفطر من غير عذر استأنف، واختلف العلماء هل السفر عذر أو لا؟ والصحيح اعتباره عذرًا، إلا إذا سافر من أجل الفطر.

قوله: ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله ﷻ على القاتل،

رحمة من الله، فإذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين، ومن لم يستطع الصيام، هل يجب عليه إطعام ستين مسكينًا كما في كفارة الظهار أو لا؟ الأقرب القول الأول.

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي بكرة ﵁ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

والخلود قد يكون على الدوام، وذلك كائنًا للكفار والمشركين، ويكون على الأمد البعيد كما يقال عند العرب: لأخلدن فلانًا في السجن، والسجن ينقطع ويفنى، يقول الشاعر:

ولا خالدًا إلا الجبال الرواسيا

وهي تفنى بزوال الدنيا، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة، واختلف الأئمة -رحمهم الله- في تأويلها مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين، والصواب في تأويلها ما قاله ابن القيم في مدارج السالكين: لا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه، وانتفاء موانعه، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها مانع بالإجماع، وبعضها بالنص، مثل التوبة، وإقامة الحدود في الدنيا، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: طرده من رحمته وأبعده، وفي الآية إثبات الغضب لله ﷿ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلْ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» رواه الترمذي بسند حسن.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، وفي حديث ابن مسعود ﵁ قال: قال ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ». متفق عليه.

وعن ابن عمرو ﵄ قال ﷺ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» رواه الترمذي بسند حسن.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة ﵄، عن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ» رواه الترمذي بسند جيد.

وعن ابن مسعود ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا قَتَلَنِي! فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ. فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي. وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ

فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي! فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ. فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ! فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ» رواه النسائي بسند صحيح.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا قَتَلَنِي! حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ» رواه الترمذي بسند صحيح.

ولعظم قتل العمد ذهب الحنابلة وآخرون إلى أنه لا كفارة فيه، وخالفهم الشافعي فأوجب الكفارة، ولعل القول الأخير هو الأولى؛ لأن الكفارة في قتل الخطأ واجبة، وإذا كان كذلك فقتل العمد أوجب، وهذا من باب قياس الأولى.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ السلام والسِّلم واحد قاله البخاري وقرئ بها كلها. والسلم والسلام معناه: الاستسلام والانقياد كما قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾، وقال: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾.

وجاء عند الشيخين حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ، فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: (تِلْكَ الْغُنَيْمَةُ)».

قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلبون متاع الدنيا من الغنيمة، فالدنيا عرض حاضر يأكل منها البر الفاجر، ووعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ». قال الشاعر:

تَقَنَّعْ بِمَا يَكْفِيكَ وَاسْتَعْمِلِ الرِّضَا ... فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصْبِحُ أَمْ تُمْسِي
فَلَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْمَالِ إِنَّمَا ... يَكُونُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ

قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: تغنيكم عن قتل مثله لماله.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: لم تكونوا مؤمنين، فكانت تعصم دماؤكم وأموالكم بمجرد قولكم الشهادة.

قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي تأملوا وتثبتوا، وفي (إذا) معنى الشرط فلذلك دخلت الفاء في قوله: ﴿فتبينوا﴾ وقد يجازى بها، كما قال الشاعر:

وَاسْتَغْنِ مَا أَغْنَاكَ رَبُّكَ بِالغِنَى ... وَإِذَا تُصِبْكَ خَصَاصَةٌ فَتَجَمَّلِ

والجيد ألا يُجازي بها، كما قال الشاعر:

وَالــــنَّفْسُ رَاغِبَـــةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَـــا وَإِذَا تُـــرَدُّ إِلَـــى قَلِيـــل تَقْنَـــعُ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عن الجهاد.

قوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ جاء عند الشيخين من حديث البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدًا، فَجَاءَ بِكَتِفٍ فَكَتَبَهَا، وَشَكَا ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ضَرَارَتَهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾».

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاةٍ (وَفِي رِوَايَةٍ: رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ)، فَقَالَ: إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ». متفق عليه. قال الشاعر:

يَـا رَاحِلِـينَ إِلَـى البَيْـتِ الْعَتِيـقِ لَقَـدْ سِـرْتُم جُسُـومًا وَسِـرْنَا نَحْـنُ أَرْوَاحَـا

إِنَّـــا أَقَمْنَـــا عَلَـــى عُـــذْرٍ وعَـــنْ قَـــدَرٍ ومَـــنْ أَقَـــامَ عَلَـــى عُـــذْرٍ فَقَـــدْ رَاحَـــا

قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة. قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي: لهم الجنة، والنظر إلى وجه الله ﷻ، كما سيأتي في سورة يونس.

قوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملك الموت. قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الْآيَةَ». رواه البخاري.

قوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالإقامة مع الكفار، وترك الهجرة.

قوله: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عاجزين عن إقامة الدين.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جاء في حديث سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن جَرِيرٍ أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ؟ قَالَ: لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا» رواه أبو داود بسند لا بأس به.

قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ أي: ييسر ويهيئ له مكانًا يهاجر إليه ويعيش فيه، والعرب تقول: راغم فلان قومه مراغمة، ومراغمًا، قال الشاعر:

كَطَوْدٍ يُلَاذُ بِأَرْكَانِهِ عَزِيزِ الْمُرَاغَمِ وَالْمَهْرَبِ

وقيل: المراغم: الملجأ الذي يتمنع ويتخلص به من الأعداء ويراغمهم به، ورغم أنف فلان أي: لصق بالتراب، فكل من خرج وترك قومه الكفار فقد راغمهم وسَلِمَ من مكرهم وكيدهم وفتنتهم.

قوله: ﴿وَسِعَةً﴾ أي: في الرزق واتساع الصدر، وحصول الفَرَج. قال الشاعر:

وَكُنْتُ إِذَا خَلِيلٌ رَامَ قَطْعِي وَجَدْتُ وَرَايَ مُنْفَسَحًا عَرِيضَا

وقال آخَرُ:

لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعُ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ

قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ (وَفِي رِوَايَةٍ: بِالنِّيَّاتِ)، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الرجل الذي قتل مائة نفس ثم تاب وهاجر إلى بلد آخر لله وفي سبيل الله، فلما أدركه الموت أثناء الطريق قال ﷺ: «فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا. فَوُجِدَ إِلَى

هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ؛ فَغُفِرَ لَهُ». متفق عليه.

وعن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «مَاتَ رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ مِمَّنْ وُلِدَ بِهَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: يَا لَيْتَهُ مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ! قَالُوا: وَلِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ» رواه النسائي بسند حسن.

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَمْسٍ، مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ: مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ، أَوْ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ دَخَلَ عَلَى إِمَامٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ تَعْزِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ، أَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَيَسْلَمُ النَّاسُ مِنْهُ وَيَسْلَمُ» رواه أحمد بسند لا بأس به.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ حَاجًّا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْحَاجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ مُعْتَمِرًا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْمُعْتَمِرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلٍ فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْغَازِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه أبو يعلى بسند جيد.

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَفِيهِ: وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلاَمٍ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ» رواه الطبراني بسند جيد.

فالهجرة على هذه الحال أقسام، منها:

الأول: هجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وهذه باقية إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن جنادة بن أبي أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْهِجْرَةَ لاَ تَنْقَطِعُ مَا كَانَ الْجِهَادُ» رواه أحمد بسند صحيح. وفي حديث عبدالله بن وقدان السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ مَا قُوتِلَ الكُفَّارُ» رواه أحمد بسند صحيح.

الثاني: هجرة من أرض البدعة إذا لم يستطع تغييرها، قال مالك: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسب

فيها السلف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الثالث: هجرة من أرض يؤذى فيها دينًا أو بدنًا، وقد فعله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خاف قومه، قال تعالى عنه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وفعله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

ويستحب لمن خرج من بيته مطلقًا أن يقول كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ؛ يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ. فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم، قال تعالى: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: لا حرج ولا إثم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، وقد بيَّنت السنة أن المراد به السفر الطويل، وهو أربع برد، وهي مرحلتان، ويؤخذ من الآية أنه رخصة لا واجب، فالرخصة أن تُجعل الرباعية ثنائية، وهذا مطلق في السفر، سواء كان خوفًا أو أمنًا.

قال يعلى بن أمية: «قُلْتُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ! فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ». رواه مسلم.

وعن يحيى بن أبي إسحاق قال: «سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ، فَكَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ. قُلْتُ: أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا؟ قَالَ: أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا». متفق عليه.

والأحاديث في قصر الصلاة كثيرة جدًا ليس هذا مجال سردها، ولا يقال: مقصورة، بل هي تامة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَرَضَ اللهُ الصَّلاَةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً». رواه مسلم.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «الصَّلاَةُ أَوَّلُ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ (وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ)، فَأُقِرَّتْ صَلاَةُ السَّفَرِ، وَأُتِمَّتْ صَلاَةُ الْحَضَرِ». متفق عليه.

وصارف وجوب القصر في السفر إتمام بعض الصحابة، وكذا قوله: «وَالخَوْفِ رَكْعَةً»، مع أنه جاء أن الرسول ﷺ صلى أربعًا، وركعتين من الخوف، ولذا لا يقال لمن أتم: قد ارتكب محظورًا، أو صلاته باطلة، ولكن يقال: ارتكب مكروهًا، وفعَلَ خلاف الأولى، وأكثر علماء السلف والخلف على أن الصلاة الرباعية في السفر ركعتان سنة، وأما مع خوف الفتنة فالقصر أيضًا يتناول الكيفية.

وأما حَدُّ المسافة التي تقصر فيها الصلاة فالخلاف فيه كثير، وقد قال أنس رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ». رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ الظُّهْرَ أَرْبَعًا، وَالْعَصْرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ». متفق عليه، وذو الحليفة تبعد عن المدينة ستة أميال، أو سبعة.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم يَقْصُرَانِ وَيُفْطِرَانِ فِي أَرْبَعَةِ بُرُدٍ، وَهِيَ سِتَّةَ عَشَرَ فَرْسَخًا. رواه البخاري معلقـًا.

وعلى هذا فمتى شرع المسافر في سفره، وغادر وباين الأرض التي هو فيها انسحب عليه حكم السفر، وجرت عليه أحكامه قصرًا أو جمعًا أو فِطرًا، ولا حدَّ لمدته فقد يكون يومًا وقد يكون شهرًا، ما لم يتخذ الأرض التي سافر إليها سكنًا دائمًا، أو ما هو في حكم الدائم كحال اللاجئين، أو المبتعثين ابتعاثًا طويلًا، أو المتعاقدين للتدريس أو للعمل؛ لأنهم حَطُّوا الرِّحال، وجاءوا بالأهل والعيال، واشتغلوا بالتجارة وتنمية الأموال، وما عاد هناك قليل مشقة فضلًا عن كثير مشقة، ولا يحصل لهم أدنى حرج في إتمام الصلاة، ولا شك أن الأحكام تدور مع عللها وجودًا وعدمًا، فإن قال قائل: إن العلة في القصر السفر، والسفر موجود، قلنا: نعم، ولكن ليس السفر الذي تريد، وإنما هو السفر الذي لا نية للمسافر أن يقيم فيه مدة طويلة، كسفر المأسورين أو المحصورين بثلج ونحوه، والذي قال فيه رسول الله ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ». متفق عليه، فقوله: «فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ» فيها دليل على أن المسافر الذي تجري عليه أحكام السفر هو الذي شغله في سفره عمل طارئ قد ينتهي منه في أي لحظة، وقد ذهب أحمد والجمهور إلى أنه لا قصر في سفر المعصية كالباغي، وقاطع الطريق، خلافًا لأبي حنيفة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى

ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: هذه صفة من صفات صلاة الخوف، وقد جاء بالصفات الأخرى السنة النبوية، فيتوخى ما هو أحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة؛ لأن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة خلافها، وتارة تكون الصلاة عند التحام القتال، فلا يقدرون على الجماعة، وتارة يستمر القتال حتى يخرج وقت الصلاة فلا يستطيعون الصلاة على أية حال، كما حصل في غزوة الخندق، وكما حصل للصحابة عند مناهضة حصن تستر.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى الاستدلال بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة، وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: «غَزَونَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْمًا مِنْ جُهَيْنَةَ، فَقَاتَلُونَا قِتَالًا شَدِيدًا، فَلَمَّا صَلَّيْنَا الظُّهْرَ قَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ مِلْنَا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً لَاقْتَطَعْنَاهُمْ. فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَلِكَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. قَالَ: وَقَالُوا: إِنَّهُ سَتَأْتِيهِمْ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ. فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعَصْرُ صَفَّنَا صَفَّيْنِ، وَالْمُشْرِكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ. قَالَ: فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَبَّرْنَا، وَرَكَعَ فَرَكَعْنَا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الْأَوَّلُ، فَلَمَّا قَامُوا سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي، ثُمَّ تَأَخَّرَ الصَّفُّ الْأَوَّلُ، وَتَقَدَّمَ الصَّفُّ الثَّانِي فَقَامُوا مَقَامَ الْأَوَّلِ، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَبَّرْنَا، وَرَكَعَ فَرَكَعْنَا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الْأَوَّلُ، وَقَامَ الثَّانِي، فَلَمَّا سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا سَلَّمَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ... قَالَ أَبُو الزُّبَيْرِ: ثُمَّ خَصَّ جَابِرٌ أَنْ قَالَ: كَمَا يُصَلِّي أُمَرَاؤُكُمْ هَؤُلَاءِ». رواه مسلم.

وعن أبي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِعُسْفَانَ، فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ الظُّهْرَ فَقَالُوا: قَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غِرَّتَهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمْ الآنَ صَلاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، قَال: فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بِهَذِهِ الآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾» رواه أحمد وأبو داود بسند صحيح، ولم يذكر الله عز وجل في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، ولكن الأحاديث الصحيحة جاءت موضِّحة ومُفصِّلة لذلك، وبيَّنت أنَّهم أضافوا إليها أخرى.

قال ابن العربي: روي عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة الخوف أربعًا وعشرين مرة.

قال الإمام أحمد: لا أعلم أنه روي في صلاة الخوف إلا حديث ثابت، وهي كلها صحاح ثابتة، فعلى أي حديث صلى بها المصلي صلاة الخوف أجزأه. وكذا قال أبو جعفر الطبري.

قال الشافعي: حديث صالح بن خوات رضي الله عنه أشبه الأحاديث في صلاة الخوف بظاهر كتاب الله عز وجل،

وبه أقول.

ولا يعيب من صلى بأي صفة كأحمد، واختار مالك في صلاة الخوف حديث سهل بن أبي حَثْمَةَ رضي الله عنه، وكلا الحديثين ثابتين في الصحيحين، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: فَإِذَا كَانَ خَوْفٌ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَلِّ رَاكِبًا، أَوْ قَائِمًا تُومِئُ إِيمَاءً. متفق عليه. وعلى كل حال، فسرد صفات الخوف ليس هذا مكانه، وفي ما ذكر كفاية لهذه الآية.

قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فالأمر للوجوب، ومن أهل العلم من ذهب إلى الندب، والقول الأول أقوى، لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: يستأصلوكم بهجمة واحدة لا يُحتاج معها إلى ثانية.

قوله: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ أي: مفروضة مقدر وقتها، فلا تؤخر عنه.

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب الكفار.

قوله: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي: إن تتوجّعوا وتشكوا من جراحاتكم وآلامكم فإنهم يعانون مثلكم ولا يجبنون على قتالكم، كقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: ترجون الفوز بالجنة، فينبغي أن تكونوا أرغب منهم فيه، ولا يطلق الرجاء بمعنى الخوف إلا مع النفي، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون لله عظمة. وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يخافون.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي: بما أعلمك، وقد احتج بعض علماء الأصول بهذه الآية، وبحديث أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرُكْهَا». متفق عليه. على أن النبي ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد.

وقد جاء في حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: «كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ: بِشْرٌ، وَبُشَيْرٌ، وَمُبَشِّرٌ، وَكَانَ بُشَيْرٌ رَجُلاً مُنَافِقًا، يَقُولُ الشِّعْرَ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا. فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَلِكَ الشِّعْرَ قَالُوا: وَاللهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إِلاَّ هَذَا الْخَبِيثُ! أَوْكَمَا قَالَ: الرَّجُلُ. وَقَالُوا: ابْنُ الأُبَيْرِقِ قَالَهَا! قَالَ: وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ، فِي الْجَاهِلِيَّةِ

وَالإِسْلامِ... وفيه: قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا -أَهْلُ جَفَاءٍ- عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرُبَةً لَهُ، وَأَخَذُوا سِلاَحَهُ وَطَعَامَهُ، فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلاَحَنَا، فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلاَ حَاجَةَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: سَآمُرُ فِي ذَلِكَ. فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلاً مِنْهُمْ فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدَا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلاَمٍ وَصَلاحٍ يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلاَ ثَبَتٍ. قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلاَمٌ وَصَلاَحٌ، تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَبَيِّنَةٍ! قَالَ: فَرَجَعْتُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ! فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ بَنِي أُبَيْرِقٍ، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ». رواه الترمذي بسند لا بأس به.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يخونون أنفسهم بالمعاصي.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، كقول بني أُبيرق: «وَاللهِ مَا نُرَى صَاحِبَكُمْ إِلاَّ لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ. -رَجُلًا مِنَّا لَهُ صَلاحٌ وَإِسْلامٌ-... فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسِّلاَحِ فَرَدَّهُ إِلَى رِفَاعَةَ. فَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بِالسِّلاَحِ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَشَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكُنْتُ أُرَى إِسْلاَمَهُ مَدْخُولاً، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، هِيَ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلاَمَهُ كَانَ صَحِيحًا، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بُشَيْرٌ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ شُهَيدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾. فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرٍ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ

فَرَمَتْ بِهِ فِي الأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَّانَ؟ مَا كُنْتَ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ» رواه الترمذي.

قال حسان في ذلك:

وَقَدْ أَنْزَلَتْهُ بِنْتُ سَعْدٍ وَأَصْبَحَتْ ... يُنَازِعُهَا جِلْدَ اسْتِهَا وَتُنَازِعُهْ

ظَنَنْتُمْ بِأَنْ يَخْفَى الَّذِي قَدْ صَنَعْتُمُو ... وَفِينَا نَبِيٌّ عِنْدَهُ الْوَحْيُ وَاضِعُهْ

وكان بشير ينصل ويقول:

أَوَكُلَّمَا قَالَ الرِّجَالُ قَصِيدَةً ... نُحِلَتْ وَقَالُوا ابْنُ الْأُبَيْرِقِ قَالَهَا

قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يستترون من الناس خوفًا وحياء منهم، ولا يخافون من الله خالقهم وعالم أمورهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: بعلمه وسمعه وبصره واطلاعه، وهم في قبضته وإحاطته، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.

قوله: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: من عزمهم على الحلف على نفي السرقة ورمي اليهودي بها.

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: توبيخ ومعاتبة لقوم طعمة من بني أبيرق، أي: ها أنتم دافعتم عن السارق في الحياة الدنيا.

قوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استفهام معناه الإنكار والتوبيخ.

قوله: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: لا أحد لهم يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله.

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وشروط الاستغفار أربعة: الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على أن لا يعود إليه، وقد جاء عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ؛ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: جاء بالبُهت، وهو قذف ورمي المسلم بذنب هو منه بريء، قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والبهت من كبائر الذنوب والموبقات، لما جمع من عدة مفاسد، كالخطيئة، والإثم، والكذب، واتهام البريء.

قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي: علمك ما لم تكن تعلم من الأحكام والغيب، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾، وكقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ أي: من كلامهم لاسيما الذي يتحدثون به في السر والخفاء؛ لأنه كلام في معصية الله عز وجل، وكثير منه في الغيبة والنميمة والسعي في الإفساد بين الناس.

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: في أمور الخير، والطاعات المخفية، كالصدقة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

قوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ جاء عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ».

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ». رواه مسلم.

وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْمَعْرُوفِ؟ فَقَالَ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنْ تَنْزِعَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ...، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ

الوَحْشَانَ فِي الأَرْضِ...، وَمَا سَرَّ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ فَاعْمَلْ بِهِ، وَمَا سَاءَ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ فَاجْتَنِبْهُ» رواه أحمد بسند صحيح.

قال الشاعر:

مَـنْ يَفْعَـلِ الْخَيْـرَ لَا يَعْـدَمْ جَوَازِيَـهُ ... لَا يَـذْهَبُ الْعُـرْفُ بَـيْنَ اللهِ وَالنَّـاسِ

وقال آخر:

يَـدُ الْمَعْـرُوفِ غُـنْمٌ حَيْـثُ كَانَـتْ ... تَحَمَّلَهَـا كَفُـورٌ أَوْ شَـكُورُ

فَفِـي شُـكْرِ الشَّـكُورِ لَهَـا جَـزَاءٌ ... وَعِنْـدَ اللهِ مَـا كَفَـرَ الْكَفُـورُ

فعلى كل من يقدر على إسداء المعروف أن يبادره، لاسيما الدعوة إلى الله، حتى لا يفوت أو يعجز عنه، ولا يغتر بالقدرة عليه في وقته، قال بعض السلف: من أخرَّ الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فوتها.

إِذَا هَبَّـتْ رِيَاحُـكَ فَاغْتَنِمْهَـا ... فَـإِنَّ لِكُـلِّ خَافِقَـةٍ سُـكُونُ

وَلَا تَغْفُـلْ عَـنِ الْإِحْسَـانِ فِيهَـا ... فَمَـا تَـدْرِي السُّـكُونُ مَتَـى يَكُـونُ

ويحصل المعروف بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره. فإذا عجَّلته هنأته، وإذا صغرته عظمته، وإذا سترته أتممته. قال الشاعر:

زَادَ مَعْرُوفُـكَ عِنْـدِي عِظَمَـا ... أَنَّـهُ عِنْـدَكَ مَسْـتُورٌ حَقِيـرُ

تَتَنَاسَـاهُ كَـأَنْ لَـمْ تَأْتِـهِ ... وَهُـوَ عِنْـدَ النَّـاسِ مَشْـهُورٌ خَطِيـرُ

قوله: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أُمِّ كُلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»، وَقَالَتْ: «وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا». رواه مسلم.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ» حديث صحيح، رواه أبو داود.

وعن أم حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ كَلاَمِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لاَ لَهُ، إِلاَّ أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرُ اللهِ» حسنه الترمذي.

قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: يصير في شق، والشَّرع في شق.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بالمعجزات، أو بالدلالات القرآنية، والبراهين النبوية.

قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين هم على الدين، وفي الآية دليل على عصمة الأمة إذا أجمعت على حكم شرعي، وقد عول الشافعي: على هذه الآية في حجية الإجماع، قال ابن كثير: وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها.

قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أي: الأصنام والأوثان التي سموها بأسماء الإناث، كاللات، والعزَّى، ومناة الثالثة الأخرى، (وإن) نافية بمعنى (ما).

قوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أي: إبليس المتمرد الخارج من الطاعة، وكل من أظهر شرَّه فهو مَرِيد، ولهذا يقال: شجرة مرداء إذا تساقطت أوراقها وظهرت عيدانُها.

قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: حظًا مقطوعًا أدعوهم إلى طاعتي، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ الله تعالى: يَا آدَمُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ...». الحديث.

قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: أعرض عليهم الأماني الكاذبة، وأعدهم، وألقي في قلوبهم طول الحياة، وأن لا بعث ولا حساب، ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: بقطع آذان البحيرة، والسائمة، والوصيلة وتشقيقها، فالبتك: القطع، ومنه سيف باتك، أي: قاطع. قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا مَا هَوَتْ كَفُّ الغُلَامِ لَهَا ... طَارَتْ وَفِي كَفِّهِ مِنْ رِيشِهَا بِتَكُ

قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ أي: بالخصاء أو الوشم، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟».

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «نَهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ إِخْصَاءِ البَهَائِمِ نَهيًا شَدِيدًا» رواه البزار بسند جيد.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى صَبِيًّا قَدْ حُلِقَ بَعْضُ شَعْرِهِ وَتُرِكَ بَعْضُهُ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أَوْ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ وَالْمُتَوَشِّمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ». متفق عليه. ويدخل في ذلك حلق اللحية، والقزع، والخصاء، والوصل، وقد جاء في حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمَوْصُولَةَ». متفق عليه.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ الْقَزَعِ». متفق عليه. وهو حلق بعض

الرأس وترك بعضه.

وجاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ -وَفِي رِوَايَةٍ: (انْهَكُوا) الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللِّحَى». وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جُزُّوا الشَّوَارِبَ، وَأَرْخُوا اللِّحَى، خَالِفُوا الْمَجُوسَ».

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَهْلَ الكِتَابِ يَقُصُّونَ عَثَانِينَهُمْ وَيُوَفِّرُونَ سِبَالَهُمْ -أي: شواربهم-. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قُصُّوا سِبَالَكُمْ، وَوَفِّرُوا عَثَانِينَكُمْ -أي: لحاهم-، وَخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَابِ» حديث حسن رواه أحمد.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ...» وذكر منها: «إعفَاءُ اللحيَةِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلًا وضلالًا، كما قال تعالى مخبرًا عنه يوم المعاد: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ أي: محيدًا ولا مهربًا، ولا خلاصًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾﴾

قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ أي: لا أحد أصدق من الله قولًا، قال النبي ﷺ في خطبته كما في حديث جابر رضي الله عنه: «إِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا...» رواه النسائي بسند صحيح، وفي لفظ مسلم: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، وعند البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا: «إِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ عز وجل، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا».

قوله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أي: ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بالتمني، ولا بالادعاءات والمزاعم، سواء كانت من المسلمين، أو من اليهود والنصارى، أو من المشركين.

قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها لما نزلت، بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا». وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ أي: صفيًا خالص المحبة له، وقد جاء في حديث عمرو بن ميمون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قَدِمَ الْيَمَنَ صَلَّى بِهِمْ الصُّبْحَ فَقَرَأَ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: لَقَدْ قَرَّتْ عَيْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ». رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ- لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ». رواه مسلم، وفي حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا». رواه مسلم، وسُمِّي إبراهيم الخليل خليلًا لأنه أحبَّ الله عَزَّ وَجَلَّ حبًا تخلل قلبه، فلا تدع فيه خللًا إلا ملأته، قال الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِهِ سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا

وأما الخلة بين الآدميين الصداقة، وهي مشتقة من تخلل الأسرار بين المتخالِلَين، وكل واحد يسد خلة صاحبه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ». رواه أبو داود بسند جيد من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الشاعر:

مَنْ لَمْ تَكُنْ فِي اللهِ خُلَّتُهُ ... فَخَلِيلُهُ مِنْهُ عَلَى خَطَرِ

وقال حسان:

أَخِلَّاءُ الرِّجَالِ هُمُ كَثِيرٌ ... وَلَكِنْ فِي الْبَلَاءِ هُمُ قَلِيلُ
فَلَا تَغْرُرْكَ خُلَّةُ مَنْ تُؤَاخِي ... فَمَا لَكَ عِنْدَ نَائِبَةٍ خَلِيلُ
وَكُلُّ أَخٍ يَقُولُ أَنَا وَفِيٌّ ... وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِوَى خِلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِينٌ ... فَذَاكَ لِمَا يَقُولُ هُوَ الفَعُولُ

قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا، فَأَشْرَكَتْهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَذْقِ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا رَجُلًا، فَيَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا

شَرِكَتْهُ فَيَعْضُلُهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ». رواه البخاري.

وفي الصحيحين قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، وَالَّذِي ذَكَرَ اللهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ فِيهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾يَعْنِي هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حَجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ؛ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ».

قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي: الصغار؛ لأنّهم كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات ولا يعطوهم حقوقهم، وذلك قوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فنهى الله ﷻ، وبيّن لكل ذي سهم سهمه، للذكر مثل حظ الأنثيين، صغيرًا أو كبيرًا.

قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في الميراث والمهر، كما سبق في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ أي: توقعت من زوجها.

قوله: ﴿نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي: بغضًا وسخطًا وترفعًا عليها، أو إعراضًا عنها بوجهه، فلا يكلمها ولا يأنس بها، ويترك مضاجعتها، ويقصر في نفقتها، لبغضها وطموح عينه إلى أجمل منها، وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، قَالَتْ: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ لَيْسَ بِمُسْتَكْثِرٍ مِنْهَا، يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا، فَتَقُولُ: أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَمْسِكْنِي وَلَا تُطَلِّقْنِي، (ثُمَّ تَزَوَّجْ غَيْرِي، فَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيَّ، وَالْقِسْمَةِ لِي. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ﴾) -. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ». متفق عليه.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خَشِيَتْ سَوْدَةُ أَنْ يُطَلِّقَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تُطَلِّقْنِي وَأَمْسِكْنِي وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَفَعَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾» حسنه الترمذي.

والمقصود أن المرأة تكون عند الرجل، فتنبو عيناه عنها من دمامتها، أو كبرها، أو سوء خُلِقها، أو عيوب في خَلْقِها، أو نتن في رائحتها، فيكره مضاجعتها وتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئًا حلَّ له، وإن جعلت له من أيامها لزوجته الأخرى فلا حرج، ولا يُعلم في هذه المسألة خلاف بين الأئمة، وأما إذا لم يكن بها شيء من ذلك، فهي حسنة الأخلاق وحسنة التبعل، جميلة المظهر، زكية الرائحة، نظيفة البدن، حافظة للغيب، فليس له هضمها فتيلًا ولا نقيرًا، لا قليلًا ولا كثيرًا، فلها ما لزوجته الأخرى مِثلًا بمثل، سواءً بسواء، مطعمًا، وملبسًا، ومبيتًا، ونفقةً، فإن لم يفعل جاء يوم القيامة كما قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ». حديث صحيح، رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يجوز له بحال أن يعرض عليها الطلاق أو الإمساك بمجرد أنه تزوج أخرى وأحبها وأعجبته، والبصير والعاقل هو الذي يعرف أبعاد الأمور، ويذكر ما سلف من زوجته أيام شبابه وشبابِها، وقد قال النبي ﷺ كما في الحديث الحسن الذي رواه الحاكم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإِيْمَانِ»، والذي جعله البخاري بابًا في صحيحه.

وختام الكلام: الصبر على الزوجة عندما تكون سلبية مع زوجها من أَمَرِّ الصبر، وأعظم الابتلاء، والاحتساب في إمساكها والصبر عليها من عزائم الأمور، وما يفعله إلا ذو حظ عظيم.

قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي: في القسم والنفقة، بأن تترك له شيئًا طلبًا لبقاء الصحبة، فإن رضيت بذلك وإلا فعلى الزوج أن يوفِّيها حقَّها أو يفارقها.

قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي: من الفرقة والنشوز والإعراض والطلاق؛ لأن الطلاق بغيض، وقد جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ-، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً: يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ». رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا، أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْغَيْرَى لا تُبْصِرُ أَسْفَلَ الْوَادِي مِنْ أَعْلاهُ» حديث حسن، رواه أبو يعلى من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ أي: أن المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا أحب غيرها، لاسيما في الزوجة إذا كان لها ضرة، فربما حملها على بعض ما تكره، كالرغبة في الطلاق، وبالمقابل الزوج يشح بنصيبه من الشَّابَّة للكبيرة. قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ جعلنا الله منهم، آمين يا رب العالمين.

قوله: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب؛ لأن البشر لا يملكون تصريف قلوبهم ولا ميل نفوسهم وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ أي: لو حرصتم على ذلك.

قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ أي: في كل شيء حتى في النفقة، والمبيت، والسُّكنى.

قوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ أي: لا ذات زوج، ولا مطلقة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا هِيَ أَيِّم وَلا ذَات زَوْج. رواه الطبري. ومنه في حديث أم زرعٍ في قول المرأة: «زَوْجِي الْعَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ». متفق عليه. ولا شك أن هذا عذاب للزوجة وأيُّما عذاب، وقد قال النبي ﷺ كما في حديث هشام بن حكيم: «إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا». رواه مسلم. وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأهل السنن بسند لا بأس به، قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ». حديث صحيح، رواه أبو داود.

قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...». الحديث. رواه مسلم

قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾، قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره، قال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾.

قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ أي: من كان يريد بعمله ثواب الدنيا، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة لمن أراده، لا عند غيره، فَلِمَ يطلب أحدكم

الأدنى؟ وهلا طلب الأعلى بإخلاصه له، حيث كان مطلبه لا يوجد إلا عنده، كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، والمقصود أن الله بيده الثوابان، فلا يقتصر خسيس الهمة على ثواب الدنيا فقط، بل عليه التشمير لتحقيق المطلبين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: قائمين مطبقين بالعدل، و (قوامين﴾ بناء مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالعدل، في كل أحوالكم.

قوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: بالحق، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أَدُّوها صحيحة عادلة، ابتغاء وجه الله، لا تحريف فيها ولا تبديل ولا كتمان، فلا مراعاة فيها لغني، ولا شفقة فيها على فقير، فالله يتولى كل فرد بما هو أوْلى به، وأصلح له.

قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: شهادة الولد على أمه وأبيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، ولا شك أن هذا الاعتبار إنما هو لمن ثبتت عدالته، واشتهر صدقه، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «رَدَّ شَهَادَةَ الْخَائِنِ وَالْخَائِنَةِ، وَذِي الْغِمْرِ عَلَى

أَخِيهِ، وَرَدَّ شَهَادَةَ الْقَانِعِ لأَهْلِ الْبَيْتِ، وَأَجَازَهَا لِغَيْرِهِمْ» رواه أبو داود بسند جيد. (وذو الغمر: ذو العداوة وَالشَّحْنَاءُ، والقانع: السائل أو الأجير).

قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ أي: منكم وأعلم بمصالحهما.

قوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال الشعبي: أخذ الله ﷻ على الحكام ثلاثة أشياء: ألا يتبعوا الهوى، وألا يخشوا الناس ويخشوه، وألا يشتروا بآياته ثمنًا قليلًا.

وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ، وَاشْتَرَطَ أَنَّ لَهُ الأَرْضَ وَكُلَّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ، قَالَ أَهْلُ خَيْبَرَ: نَحْنُ أَعْلَمُ بِالأَرْضِ مِنْكُمْ؛ فَأَعْطِنَاهَا عَلَى أَنَّ لَكُمْ نِصْفَ الثَّمَرَةِ، وَلَنَا نِصْفٌ. فَزَعَمَ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ حِينَ يُصْرَمُ النَّخْلُ بَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ، فَحَزَرَ عَلَيْهِمُ النَّخْلَ، فَقَالَ: فِي ذِهْ كَذَا وَكَذَا. قَالُوا: أَكْثَرْتَ عَلَيْنَا يَا ابْنَ رَوَاحَةَ! قَالَ: فَأَنَا أَلِي حَزْرَ النَّخْلِ، وَأُعْطِيكُمْ نِصْفَ الَّذِي قُلْتُ! قَالُوا: هَذَا الْحَقُّ، وَبِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ، قَدْ رَضِينَا أَنْ نَأْخُذَهُ بِالَّذِي قُلْتَ» حديث صحيح رواه أبو داود.

وقد جاء التأكيد على عظم مسؤولية القضاء، وذم من طلبه، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الْقُضَاةُ ثَلاَثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ: فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ. وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ، فَإِذَا جَارَ تَخَلَّى عَنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ». رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ أي: تحرفوا القول والشهادة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ». رواه أبو داود بسند حسن من حديث الشريد رضي الله عنه.

قوله: ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أي: تكتموا، أو تتركوا أداء الشهادة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وقد جاء في حديث زيد بن خالد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا». رواه مسلم.

وقد لعن الشارع من أخذ على شهادة أو حكم رشوة، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: استفهام إنكار، أي: لا يجدون عندهم، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون ما يحدث بكم من الدوائر.

قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ننصركم ونحارب معكم؟

قوله: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: ظفر وغلبة.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نغلب عليكم، حتى خافكم المسلمون، وخذلناهم عنكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

قوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: بالاستئصال، ويدخل في ذلك ما يورده الكافرون من حجج عقلية أو شرعية، فإن الله يبطلها، واستدل بالآية على منع بيع العبد المسلم للكافر، لأنه يؤدي إلى استذلاله والتسلط عليه، وقد جاء في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا-، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا».

قوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: يريدون بصلاتهم الرياء والسمعة، وهم لا يداومون على الصلاة ولا يستمرون عليها، وقد جاء في حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ: يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا». رواه مسلم.

وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ صَلَاتَهُ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَسَاءَهَا إِذَا خَلَا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِهَانَةٌ يَسْتَهِينُ بِهَا رَبَّهُ» رواه إسحاق بسند حسن.

وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: فَضلُ صَلاةِ الرَّجُلِ فِي بَيتِهِ عَلَى صَلاتِه حَيث يَرَاهُ النَّاس كَفَضلِ الفَرِيضَة عَلَى التَّطَوِّعِ. رواه البيهقي في الشعب.

قوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مترددين بين الكفر والإيمان، وجاء في حديث ابن عمر ﵄ قال: قال ﷺ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ: تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً». رواه مسلم.

قوله: ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ أي: برهانًا وحجة ظاهرة على نفاقكم، قال ابن عباس ﵄: كل سلطان في القرآن حجة. رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ أي: في قعر جهنم؛ لأن النار دركات، كما أن الجنة درجات، فقد جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا». رواه مسلم.

قوله: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ أي: لا يعذبكم إن شكرتم نعمه وآمنتم به، استفهام بمعنى النفي، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝١٤٨ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ۝١٤٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٥٢ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ۝١٥٣ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝١٥٤﴾

قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي: من باب المقابلة، لكن لا يتعدى، ولا يتجاوز، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِئِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ». فالشّتم مثلًا يقابل بالشتم، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَاصْبِر! فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَقَالَ: اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ. فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ: فَعَلَ اللهُ بِهِ، وَفَعَلَ، وَفَعَلَ! فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ؛ لاَ تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ» رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: دينًا متبوعًا بين الإسلام واليهودية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: أُلقِي شبه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على بعض أصحابه، فالمقتول والمصلوب صاحبهم، وهو شبيه بعيسى بعد أن ألقى الله عليه شبهه فظنوه إياه، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه، وهم في بيت اثنا عشر رجلًا، من عين في البيت ورأسه يقطر ماء؛ قال: فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي؛ قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنًا، قال: فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. قال: نعم أنت ذاك. فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه، فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء

النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا. رواه الطبري في التفسير.

قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾ يعني قبل موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين ينْزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها، اليهودية والنصرانية واحدة، على ملة الإسلام، ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، على كتاب الله، وسنة محمد ﷺ، قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا -وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ) حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا-، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾». متفق عليه.

ونزوله من أشراط الساعة الكبرى، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾، وقُرئ: (لَعَلَم للساعة) أي: أمارة ودليل على اقتراب الساعة.

قوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوبة على المدح، هكذا في جميع مصاحف الأئمة، وذكر ابن جرير أنّها في مصحف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والمقيمون الصلاة)، والصحيح القراءة الأولى، كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾، وقد تقدمت الشواهد على ذلك، وقيل: على العطف على قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ أي: وبالمقيمين للصلاة، واختار ذلك ابن جرير، ولكنه لم يصب، والقول الأول الصواب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾

قوله: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: بأسمائهم وأخبارهم مع أممهم.

قوله: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ أي: لحكمة نريدها.

قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ أي: بلا واسطة، ولهذا يقال له: كليم الله، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

والتكليم قد يكون بالوحي المجرد، وقد يكون من وراء حجاب، كما في هذه الآية، وقد يكون بواسطة إرسال الرسول كما كلّم الرسول بإرسال الملائكة، وقد يكون هذا التكليم إنشاء يعني: أمرًا، أو نهيًا، أو إباحةً، وقد يكون خبرًا يعني: عن الخالق سبحانه، أو عن المخلوقين، وقد تكون الكلمات كونية كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾، وقد تكون دينية كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ﴾ ذكر هذا ابن القيم.

قوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ﴾ أي: من آمن وأطاع الله بالجنة.

قوله: ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أي: من كفر وعصى الله بالنار.

قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقد جاء عند الشيخين من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْجَنَّةَ». وعند مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ». قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾.

قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: يبين نبوتك ويشهد بما أنزله إليك من القرآن.

قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي: أنزله عن علمه، فهو عالمٌ به، أو مشتملًا على علمه الذي أراد أن يطلع عليه عباده من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من ذكر أسمائه وصفاته، وما غاب عن حواس عباده التي لا يعلمها إلا هو، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ

عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ» حديث صحيح، رواه النسائي.

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري.

وعن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً. فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ: بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» رواه أبو داود بسند جيد. وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وزاد: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» رواه أحمد بسند صحيح. وأصل الغلو: مجاوزة الحد.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، وكلمته هي قوله تعالى: كُن، وقد جاء في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ (وَرَسُولُهُ)، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ. وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: ذو روح مبتدأة من عند الله سبحانه، وإنما أضيفت الروح إلى الله عَزَّ وَجَلَّ على

وجه التشريف، كما أضيفت الناقة إليه في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، والبيت في قوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وقد قال النصارى الضالون: بأن عيسى عليه السلام جزء من الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾، فيجاب عليهم: إن لفظة (من) تأتي للتبعيض، وتأتي لابتداء الغاية، فهي هنا لابتداء الغاية، يعني: من خلقه، ومن عنده، وليست للتبعيض، وهي كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾، وهنا يقال: إذا كان عيسى جزءًا من الله، فإن ما في السماوات وما في الأرض جزء منه أيضًا، وهذا يستحيل في حق الله عز وجل، وقيل: ﴿رُوحٞ مِّنۡهُ﴾أي: رحمة منه، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾، فهو رحمة لمن اتبعه.

قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ كقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ﴾ أي: هو ثالث ثلاثة، فيعبرون بقولهم: الأب، والابن، وروح القدس، فالأب الوجود، والروح الحياة، والابن المسيح، وهو كلام فيه من التخبط والخرافة ما الله به عليم، نعوذ بالله من الخذلان.

قوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾.

قوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ أي: لن يتكبر ويأنف.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا كُبراء ممتنعين مستكبرين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾

قوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ أي: في شأن الميت إذا لم يكن له ولد أو والد يرثه، وفي حديث البراء رضي الله عنه قال: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ -وَفِي رِوَايَةٍ: كَامِلَةً- بَرَاءَةٌ». متفق عليه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «جَاءَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَعُودُنِي، وَأَنَا مَرِيضٌ لَا أَعْقِلُ، فَتَوَضَّأَ وَصَبَّ عَلَيَّ مِنْ وَضُوئِهِ، فَعَقَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَنِ المِيرَاثُ؟ إِنَّمَا يَرِثُنِي كَلَالَةٌ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الفَرَائِضِ». متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾».

وعن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ -وطَعَن بإصبعه في صدري-: «يَا عُمَرُ! أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟ وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ». رواه مسلم.

وعن عمر ﷺ قال: «ثَلَاثٌ وَدِدْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يُفَارِقْنَا حَتَّى يَعْهَدَ إِلَيْنَا عَهْدًا: الْجَدُّ، وَالْكَلَالَةُ، وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا». متفق عليه.

وعن طارق بن شهاب قال: أخذ عمر ﷺ كتفًا وجمع أصحاب الرسول ﷺ، ثم قال: لأَقضِيَنَّ في الكلالة قَضَاءً تُحدِّثُ بِهِ النِّسَاء في خُدُورِهِنَّ، فخرجت حينئذ حيّة من البيت، فتفرقوا، فقال: لو أراد الله ﷻ أن يتم هذا الأمر لأتمّه. رواه الطبري في التفسير.

قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أي: مات وليس له ولد ولا والد، وهو الكلالة، وقد تَمَسك بالآية من ذهب أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي انتفاء الولد، وقد جاء هذا عن عمر بن الخطاب ﷺ، لكن جاء عن أبي بكر ﷺ، وجمهور الصحابة ﷺ: أنه من لا ولد له ولا والد.

قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: أخت شقيقة، أو أخت لأب، فلها نصف ما ترك أخوها، ولو كان معها أب لم ترث شيئًا، لأنه يحجبها بالإجماع، وهذا بلا شك نص قرآني في معنى الكلالة عند التأمل، وجاء عن الأسود بن يزيد ﷺ قال: «قَضَى فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: النِّصْفُ لِلِابْنَةِ وَالنِّصْفُ لِلأُخْتِ». رواه البخاري.

وعن هزيل بن شرحبيل قَالَ: «سُئِلَ أَبُو مُوسَى ﷺ عَنْ بِنْتٍ وَابْنَةِ ابْنٍ وَأُخْتٍ، فَقَالَ: لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلأُخْتِ النِّصْفُ، وَأْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ فَسَيُتَابِعُنِي. فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ، وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ! أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ: لِلِابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِابْنَةِ ابْنٍ السُّدُسُ؛ تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلأُخْتِ. فَأَتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْحَبْرُ فِيكُمْ». رواه البخاري.

قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ﴾ أي: أخوها الشقيق، أو أخوها لأب، يرث جميع مالها إذا ماتت وليس لها ولد، والمسألة كلالة.

قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: إن كانت الأختان اثنتين فأكثر، فلهما الثلثان مما ترك أخوهما من الميراث، فأخذ الجماعة حكم البنتين من هذه الآية، واستفيد بحكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أي: وإن كان الورثة مختلطين، إخوة وأخوات، رجالًا ونساءً، فللذكر منهم مثل نصيب الأختين.

قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي: لئلا تضلوا وتجوروا عن الحق. كقول الشاعر:

رَأَيْنَا مَا يَرَى الْبُصَرَاءُ فِيهَا ... فَآلَيْنَا عَلَيْهَا أَنْ تُبَاعَا

يعني أن لا تباع.

انتهى تفسير سورة النساء، ولله الحمد

  

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

هي مدنية بالإجماع، جاء في حديث جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قال: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: هَلْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْمَائِدَةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَإِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ؛ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ». رواه أحمد بسند صحيح.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ أي: بالعهود، وأصل العقد: عقد الشيء بغيره، كما يعقد الحبل بالحبل يقال: وفَى وأوْفى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وفي الآية أمر لأهل الإيمان أن يوفوا بالعهد بينهم وبين ربهم من جهة، وبالعهد الذي بين بعضهم بعضًا، ومن العقود: عقدة الأيمان، وعقدة النكاح، وعقدة العهد، وعقدة البيع، وعقدة الحلف، وعقدة الشركة، وكل ما عقد الله على العباد مما أحل لهم وحرم عليهم.

قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أي: كل ذي أربع، وسميت بذلك لأنّها مبهمة لا تنطق ولا تفهم ولا تعقل، والنعم عند العرب: اسم للإبل، والبقر، والغنم خاصة، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ففصّل بين أجناس الحيوان، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ يعني: كِبارًا وصغارًا، ثم قال: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٤٣ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ يعني: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ يعني: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ يعني: المعز.

قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في القرآن، والسنة، ومنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ وكما جاء عند الشيخين من حديث أبي ثعلبة

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ».

قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ أي: استثناء من قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، والتقدير: إلا ما بيَّنه الله ورسوله لكم، إلا الصيد وأنتم محرمون، فإنه لا يحل لكم، فما كان صيدًا فهو حلال في الإحلال دون الإحرام، وما لم يكن صيدًا فهو حلال في الحالين.

قوله: ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ أي: في الحج أو العمرة، وسمي بذلك لأنه يَحرُم عليه الطيب والنساء ونحو ذلك. قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا فِيئِي إِلَيْكِ فَإِنَّنِي حَرَامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَاكَ لَبِيبُ

أي: مُلَبٍّ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يُشرع ما يشاء كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: محارم الله في الإحرام وفي غيره، وقيل: دين الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾، ومن الشعائر: ما أُشعر من الحيوانات لتُهدى إلى بيت الله.

قوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي: ولا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾.

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ». متفق عليه. وهذا دليل على بقاء تحريمها إلى آخر الزمان، وهو مذهب طائفة من السلف، ولكن أجمع العلماء على أن الله ﷻ قد أحلَّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرُم وفي غيرها، كما أنّهم أجمعوا على أن المشرك لو قلّد عنقه بلحاء جميع الأشجار لم يكن ذلك أمانًا له من القتل إذا لم يكن له عقد ذمة.

قوله: ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ أي: لا يُتعرض لكل ما أُهدِي إلى البيت الحرام، سواء قلدت بقلادة لتعرف، أم لم تقلد، وذَكَرَ المقلد مبالغة في حرمته وتأكيدًا لذلك، ولذا لا يجوز بيع الهدي ولا هبته إذا قُلّد أو أُشعِر؛ لأنه قد وجب، وإن مات موجبه لم يورث عنه ونفذ لوجهه.

وفي الآية مشروعية الإهداء إلى البيت، وتحريم الإغارة عليه وذبحه قبل بلوغ محلّه، ومنع الأكل فيه.

وقيل: القلائد: المقلد نفسه بقلائد الحرم طلبًا للأمان، والأول أولى، والقول بالعموم لا بأس به.

وقيل: لا تتركوا الإهداء إلى بيت الله الحرام، ولا تتركوا تقليدها، فإن ذلك من تعظيم شعائر الله، ولهذا لما حج رسول الله ﷺ وأهدى أشعر هديه وقلّده، وأهل بالحج والعمرة، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم. وفي الآية والحديث مشروعية تقليد الهدي، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: نسخ من سورة المائدة آيتان، آية القلائد، وقوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ﴾، قال الطبري: والصحيح أن المنسوخ: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ للإجماع على جواز قتال أهل الشرك في الشهر الحرام.

قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله من المسلمين، أو الإغارة عليهم بقصد سرقتهم.

قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: التجارة، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ أي: ويطلبون الرضوان من الله.

قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾ أي: إذا تحللتم من الإحرام فقد أبيح لكم الصيد، وهذا أمر إباحة بالإجماع؛ لأنه رفع ما كان محظورًا بالإحرام، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولذا فكل أمر بعد حظر يُرَدُّ الحكمُ إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجبًا، رده واجبًا، وإن كان مستحبًا فمستحبًا، أو مباحًا فمباحًا.

قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ﴾ أي: لا يحملنكم بُغض قوم، كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام، أن تعتدوا عليهم، فالشنآن: البغض، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: حقٌ أن لهم النار.

قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، فبالعدل قامت السماوات والأرض.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» رواه أبو داود بسند حسن.

قال الشاعر:

وَمَا العَيْشُ إلا مَا تَلَذُّ وتَشْتَهِي ... وَإِنْ لامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَفَنَّدَا

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ

فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ
عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣
يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ
فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ
ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن
يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥

قوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾ أي: تموت بالخنق بأي شكل من أشكاله.

قوله: ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ أي: تُضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كالتي تضرب بالخشبة أو الحديدة، وقد جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْمِعْرَاضِ، فَقَالَ: إِذَا أَصَبْتَ بِحَدِّهِ فَكُلْ -وَفِي رِوَايَةٍ: كُلْ مَا خَزَقَ-، فَإِذَا أَصَابَ بِعَرْضِهِ فَقَتَلَ فَإِنَّهُ وَقِيذٌ فَلَا تَأْكُلْ». متفق عليه.

قال الشاعر:

شَغَّارَةٍ تَقِذُ الفَصِيلَ بِرِجْلِهَا ... فَطَّارَةٍ لِقَوَادِمِ الأَبْكَارِ

الشغارة: هي الناقة التي ترفع قوائمها لتضرب، والفطر: الحلب بالسبابة والوسطى ويستعين بطرف الإبهام.

قوله: ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ أي: التي تقع من شاهق، أو تتردى في بئر.

قوله: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أي: التي ماتت بسبب مناطحتها لغيرها. ويقاس عليه ما ضربته السيارة ونحوها.

قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: ما عدا عليه أسدٌ أو فهدٌ أو نحو ذلك فأكل بعضها فماتت بذلك.

قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ أي: أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء الفائتة وكان حيًّا حياة مستقرة، فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت، صار حلالًا مباحًا أكله، والحكمة من الذكاة تطهير الحيوان المُذَكَّى بإخراج دمه؛ لأن الميتة إنما حرمت لاحتقان الفضلات والدم الخبيث فيها، والذكاة تزيل ذلك.

قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي: ما ذبح على النصب، وهي أصنام من الحجارة كانت حول الكعبة، وكان عددها ثلاث مائة وستون نصبًا، وكانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويُشَرِّحون اللحم ويضعونه على النصب، والنيّة فيها تعظيم النصب، لا أنَّ الذبح عليها غير جائز، وهي داخلة في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ لكن من باب عطف العام على الخاص.

قوله: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾ أي: تطلبوا علم ما قسم لكم أو لم يقسم باستعمال الأزلام، وهي

عبارة عن قداحٍ مكتوب على بعضها: نَهاني ربي، وعلى بعضها: أمرني ربي، فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه: أمرني ربي، مضى لما أراد، وإن خرج الذي عليه مكتوب: نَهاني ربي، انتهى، وقيل لهذا الفعل: الاستِقسام؛ لأنّهم كانوا يستقسمون به الرزق، كما يقال: الاستسقاء للمطر.

وقيل: مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام، وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى الصُّوَرَ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَدْخُلْ حَتَّى أَمَرَ بِهَا فَمُحِيَتْ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِأَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ، فَقَالَ: قَاتَلَهُمُ اللهُ! وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالْأَزْلَامِ قَطُّ». رواه البخاري.

ويقال لقداح الميسر: الأزلام، وهي عشرة، سبعة منها فيها حظوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها مقامرة لهوًا ولعبًا، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ولذا يقال: إنّهم كانوا يستعملونَها في الاستخارة تارة، وفي القمار تارة أخرى، وقد هدم الإسلام ذلك كله، وجاء في الاستخارة حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَآجِلِهِ؛ فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَآجِلِهِ؛ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي. قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ». رواه البخاري.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: لأنه خروج من علم الشهادة، ودخولٌ في علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ أي: انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن تتركوا دينكم، وترجعوا إلى دينهم، وقد قيل: (اليوم) المشار إليه، يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر نبيَّهُ ﷺ، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ». رواه مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ جاء في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾. قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ». متفق عليه.

والدين: عبارة عن الشرائع التي شرع سبحانه ولم ينَزّل بعدها من الأحكام إلا القليل الذي لا يكاد يذكر، كآية الربا، وعلى هذا فالمقصود: أكمل وضعه لهم ما نزل وما سينزِل، فلا يحتاجون بعده إلى زيادة،

ولا إلى دين أبدًا، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي.

قال بعض السلف: البدعة تستلزم تكذيب قول الله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وتستلزم القدح في الشريعة وأنها ناقصة، وتستلزم البدعة موت السنة، فما أحدث قوم بدعة إلا هدموا مثلها من السنة، وتستلزم حصول التفرق والتشرذم في الأمة الإسلامية، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ» رواه الطبراني بسند حسن.

قال الشاطبي: رتَّب البدع منها ما هو كفر صراح، كبدعة الجاهلية التي نبّه عليها القرآن، وكذلك بدعة المنافقين حيث اتخذوا الدين ذريعة لحفظ النفس والمال، وهذا لا يشك أنه كفر صراح، ومنها ما هو في المعاصي التي اختلف فيها، هل هي كفر أم بدعة؟ كبدع الخوارج، والقدرية، والمرجئة، ومن أشبههم من الفرق الضالة، ومنها ما هو معصية، ويتفق عليها أنها ليست بكفر كبدعة التبتل، والصيام قائمًا في الشمس، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع، ومنها ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشية عرفة، ثم قال الشاطبي في موطن آخر: البدعة مذمومة في كل وجه، ومن ذلك جهة النظر:

أولًا: قد علم بالتجارب والخبرة السارية في العالم في أول الدنيا إلى اليوم أنها غير مستقلة بمصالحها استجلابًا لها، أو مفاسدها استدفاعًا لها؛ لأنها إما دنيوية أو أخروية.

ثانيًا: أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

ثالثًا: أن المبتدع معاند للشرع ومشاق له؛ لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقًا خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد.

رابعًا: أن المبتدع قد نزل نفسه منْزلة المضاهي للشارع؛ لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق المضي على سننها.

خامسًا: أنه اتباع الهوى؛ لأن العقل إذا لم يكن متبعًا للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ أي: في مجاعة؛ لأن الضرورات تُبيح المحظورات، وخمص البطن، انكماشه وضموره من شدة الجوع، قال الشاعر:

تَبِيتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بُطُونُكُمْ ... وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا

غَرْثَى: جوعى.

وقد جاء في حديث أبي واقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا بِأَرْضٍ تَكُونُ بِهَا الْمَخْمَصَةُ فَمَا يَحِلُّ لَنَا مِنْ الْمَيْتَةِ؟ قَالَ: إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا، وَلَمْ تَخْتَفُوا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا» رواه الدارمي بسند صحيح.

قوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك، ولا يزيد في الأكل على كفايته.

قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: ما صِدتموه بالجوارح من الكلاب، والفهود، والصقور، وكل طير يُعلَّم للصيد، والصيد بالطيور كالصيد بالكلاب، لأنها تُكلّب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق، وهو مذهب الأئمة الأربعة، وقد جاء في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ -وَفِي رِوَايَةٍ: الْمُعَلَّمَ- وَسَمَّيْتَ فَأَمْسَكَ وَقَتَلَ فَكُلْ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّ أَخْذَ الْكَلْبِ ذَكَاةٌ-، وَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ؛ فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَإِذَا خَالَطَ كِلَابًا (لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهَا)، فَأَمْسَكْنَ وَقَتَلْنَ فَلَا تَأْكُلْ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّهَا قَتَلَ، وَإِنْ رَمَيْتَ الصَّيْدَ فَوَجَدْتَهُ بَعْدَ يَوْمٍ (أَوْ يَوْمَيْنِ) لَيْسَ بِهِ إِلَّا أَثَرُ سَهْمِكَ فَكُلْ، وَإِنْ وَقَعَ فِي الْمَاءِ فَلَا تَأْكُلْ» متفق عليه، ولمسلم: «فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي المَاءُ قَتَلَهُ أَوْ سَهْمُكَ؟».

وفي حديث أبي ثعلبة الخُشَني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ صَيْدٍ، فَمَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ ثُمَّ كُلْ، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ الْمُعَلَّمِ فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ ثُمَّ كُلْ، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ الَّذِي لَيْسَ مُعَلَّمًا فَأَدْرَكْتَ ذَكَاتَهُ فَكُلْ». متفق عليه، وَفِي رِوَايَةٍ عند مسلم: قَالَ فِي الَّذِي يُدْرِكُ صَيْدَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ: «كُلْهُ مَا لَمْ يُنْتِنْ».

وسميت الحيوانات التي يصطاد بها جوارح من الجرح، وهو الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيرًا، أي: كسبهم خيرًا، وفلان لا جارح له، أي: لا كاسب، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ما كسبتم من خير أو شر، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وقيل: سُميت بذلك لأنّها تجرح وتُسيل الدم.

والقول الأول هو الصواب قطعًا، وقد أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود، وعلَّمه مسلم، فيجيب إذا دُعي، وينزَجر بعد ظفره بالصيد إذا زُجر، ولا يأكل من صيده الذي صاده، وصاد به مسلم، وذكر اسم الله عند إرساله أن صيده صحيح، فإن انعدم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف، وقد استُدل بعموم الآية على إباحة صيد الأَسْوَدِ البهيم، خلافًا لمن منعه.

قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: مشتق من التكليب، وهو تدريب الكلب على الصيد حتى يعتاده ويجترئ عليه، وفي الآية جواز تعليم الحيوان وضربه للمصلحة؛ لأن التعليم والتدريب يحتاج إلى ذلك، والمُكلّب: معلم

الكلاب، ويقال للصائد: مكلّب، فعلى هذا فالمعنى: صائدين، ويقال: أَكْلَبَ: كثرت كلابه، وأَمْشَى الرجل: كثُرت ماشيته، قال الشاعر:

وَكُـــلُّ فَتًـــى وَإِنْ أَمْشَـــى فَـــأَثْرَى سَـــتُخْلِجُهُ عَـــنِ الـــدُّنْيَا مَنُـــونَ

وإذا كان الصائد من أهل الكتاب فجمهور الأمة على جواز صيده، غير مالك، فإنه فرّق بين ذلك وبين ذبيحته، وتلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: فلم يذكر الله في هذا اليهود ولا النصارى.

ولا شك أن ما ذهب إليه الجمهور هو الراجح؛ لأن ما ثبت في الذبيحة ثبت في الصيد، بل من باب أولى يثبت في الصيد.

وفي هذه الآيات جواز اتخاذ الكلاب واقتنائها للصيد، وقد جاءت السنة بزيادة الحرث والماشية، ويدخل في ذلك عموم الحراسة، قال ﷺ: «مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا -إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَةٍ أَوْ ضَارِيًا- نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ». متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَمْسَكَ كَلْبًا فَإِنَّهُ يَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ قِيرَاطٌ، إِلَّا كَلْبَ حَرْثٍ، أَوْ مَاشِيَةٍ». متفق عليه.

وقد أخذ من هذه الآية أفضلية العلم والعالم، وذم الجهل والجاهل؛ لأن الكلب إذا عُلّم كان له فضيلة على سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، لاسيما إذا عمل بما علم.

وقد جاء ذم المبالغة في تتبع أثر الصيد، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ» رواه أبو داود بسند جيد من حديث ابن عباس.

قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد.

قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إذا لم تأكل منه، فإن أكلت فلا يحل أكله، كما سبق في حديث عدي رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: عند الإرسال على الصيد، وقيل: عند الأكل، والقول الأول الراجح، وقد قال ﷺ لعمر بن أبي سلمة رضي الله عنه: «يَا غُلَامُ! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ». متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ». رواه مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وعائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ

اللهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ». رواه أبو داود بسند جيد من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وفي رواية: «وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَاكُلُ طَعَامًا فِي سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ لَوْ سَمَّى لَكَفَاكُمْ» صححه الترمذي.

وعن أُمَيَّةَ بْنَ مَخْشِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يَاكُلُ، فَلَمْ يُسَمِّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ طَعَامِهِ إِلَّا لُقْمَةٌ، فَلَمَّا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ قَالَ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَاكُلُ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللهِ اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ» رواه أبو داود بسند حسن.

وإذا لم يعلم هل ذكر على الذبح اسم الله أم لا وهم مسلمون، فالأصل البراءة والتسمية، فإن حصل شك في ذلك فقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ قَوْمًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ قَوْمًا -وَفِي رِوَايَةٍ: حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِشِرْكٍ- يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذَكَرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سَمُّوا اللهَ عَلَيْهِ وَكُلُوهُ». رواه البخاري.

قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي: طعام اليهود، والنصارى، دون غيرهم من المجوس والمشركين، والطعام: اسم لما يؤكل، والذبائح منه، وهو هنا خاص بالذبائح عند كثير من العلماء، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين، وشرط إباحة ذبيحته أن يُسَمِّيَ عند الذبح، فإن ترك التسمية لم تحل ذبيحته، والحكمة في إباحة ذبائح أهل الكتاب أنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا خلاف في دخول الفاكهة، والبُر، وكل ما لا يضر فيه تملك أحد، وكذا ما كان فيه محاولة صنعة لا تعلق للدِّينِ بها، كخبز الدقيق، وعصر الزيت، أما ما حرُم علينا من طعامهم كالخنْزير فليس بداخل تحت عموم الخطاب إجماعًا، وقد جاء في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا، فَقِيلَ: أَلَا نَقْتُلُهَا؟ قَالَ: لَا. فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». متفق عليه.

وعن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَرْنَبٍ يُهْدِيهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: هَذِهِ هَدِيَّةٌ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لا يَأْكُلُ مِنَ الْهَدِيَّةِ حَتَّى يَأْمُرَ صَاحِبَهُ فَيَأْكُلُ مِنْهَا مِنْ أَجْلِ الشَّاةِ الَّتِي أُهْدِيَتْ إِلَيْهِ بِخَيْبَرَ». رواه البيهقي في الشعب، وحسنه ابن حجر.

وفي الآية تحريم ذبائح غير أهل الكتاب، وتحريم نكاح غير الكتابيات، ولا بأس بالأكل والشرب والطبخ في آنية الكفار كلهم ما لم تكن ذهبًا، أو فضة، أو جلد خنْزير بعد أن تغسل وتغلى، جاء في حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ قَوْمٍ أَهْلِ الْكِتَابِ تَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ؛ فَإِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ آنِيَتِهِمْ فَلَا تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا ثُمَّ كُلُوا فِيهَا». متفق عليه.

قوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أُبي بن سلول حين مات ودفنه فيه؛ لأنه كان قد كسا

العباس رضي الله عنه حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي ﷺ، فأما الحديث الحسن الذي رواه أبو داود عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ»، فمحمولٌ على الندب والاستحباب والأفضلية والغالب، ولكن متى ما ظهر بقرائن الأحوال أنهم لا يذكرون اسم الله عليها، فالأولى تركها.

وعن علي رضي الله عنه قال: لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب، فإنهم لم يتمسكوا من دينهم إلا بشرب الخمر. رواه البيهقي.

قوله: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: الزواج بالحرائر العفيفات من المؤمنات.

قوله: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: العفيفات الحرائر من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍ﴾، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: «لا أعلم من الإشراك شيئًا أعظم من أن تقول المرأة: ربّها عيسى عليه السلام. رواه البخاري. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ﴾، ولا ريب أن مذهبه هنا مرجوح لمخالفة النص؛ لأن أهل الكتاب غير المشركين، قال تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، وقال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٍ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾.

قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن.

قوله: ﴿مُحۡصِنِينَ﴾ أي: متزوجين؛ لأن شرط الإحصان في النساء العفة عن الزنا، وكذا شرطه في الرجال.

قوله: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: غير زناة.

قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٍ﴾ أي: عشيقات، قال أحمد: لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، ولا يصح عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنا لهذه الآية، ولقوله ﷺ: «لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودُ إِلاَّ مِثْلَهُ» حديث صحيح، رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن شقيق قال: تزوّج حذيفة رضي الله عنه يهودية فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن خَلّ سبيلها، فكتب إليه، إن كانت حرامًا خليت سبيلها، فكتب إليه: إني لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. رواه ابن أبي شيبة في المصنف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، وهو في حق المحدث واجب، قال ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ». متفق عليه، وهو في حق المتطهر ندبٌ، ولذا فقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ». رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه قال: توضأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضوءًا فيه تجوّز خفيف، فقال: هذا وضوء من لم يحدث، وكذا روي عن عليٍّ رضي الله عنه من طرق جيدة يقوي بعضها بعضًا.

ولا يجب الوضوء في شيء من العبادات إلا في الصلاة، فقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ فَأُتِيَ بِطَعَامٍ، فَذَكَرُوا لَهُ الْوُضُوءَ، فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُصَلِّيَ فَأَتَوَضَّأَ؟!». رواه مسلم.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وكذلك يستحب الوضوء عند قراءة القرآن، لقول النبي ﷺ: «لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ». رواه الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بسند جيد. والطهارة هنا الطهارة الشرعية.

وفي الآية دليل على اشتراط النية، لأنه شرط في صحة فعله إرادة الصلاة، فلو فعله تبردًا، أو تنظُّفًا، لم يكن وضوءًا مشروعًا.

قوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: ما بين منابت شعر الرأس، ولا عبرة بالصلع إلى اللحيين طولًا، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا، واللحية من الوجه، وكانت العرب تقول: إذا نبتت لحية الغلام طلع وجهه، ويتأكد تخليل اللحية إذا كانت كثيفة، وقد جاء في حديث شقيق قال: «رَأَيْتُ عُثْمَانَ رضي الله عنه تَوَضَّأَ...وفيه: وَخَلَّلَ لِحْيَتَهُ حِينَ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا. وَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ» صححه ابن خزيمة.

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ أَخَذَ كَفًّا مِنْ مَاءٍ فَأَدْخَلَهُ تَحْتَ حَنَكِهِ، فَخَلَّلَ بِهِ لِحْيَتَهُ، وَقَالَ: هَكَذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» رواه أبو داود بسند جيد، وبعد غسل الوجه المضمضة، والاستنشاق، والكل واجب على القول الصحيح، وقد جاء في حديث لقيط بن صبرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ؟ قَالَ: أَسْبِغِ الْوُضُوءَ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعِ، وَبَالِغْ فِي الاسْتِنْشَاقِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ صَائِمًا» رواه أبو داود بسند جيد. وفي راوية جيدة عند أبي داود قال ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأْتَ فَمَضْمِضْ»، إلا أن أحمد قال: يُعيد من ترك الاستنشاق في وضوئه، ولا يعيد من ترك المضمضة في الوضوء والغسل، لقول النبي ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثُمَّ لْيَنْثُرْ». متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي رواية لمسلم: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَنْشِقْ بِمَنْخِرَيْهِ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ لِيَنْتَثِرْ»، وجمهور الفقهاء على عدم وجوب المضمضة والاستنشاق، خلافًا لأحمد.

قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، ثم إن اليد عند العرب تقع على أطراف الأصابع إلى الكتف، والرِّجل تقع على الأصابع إلى أصل الفخذ، فالمرفق داخل تحت اسم اليد، وكذا الكعبان داخلان تحت اسم الرِّجل، وقد جاء في حديث نُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُجْمِرِ قَالَ: «رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ، فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي الْعَضُدِ، ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي الْعَضُدِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ». رواه مسلم.

ويستحب إطالة الغرة، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال ﷺ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ. فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ». متفق عليه، وفي رواية عند مسلم: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ».

وعَنْ أَبِي زُرْعَةَ، قَالَ:«دَخَلْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَارًا بِالْمَدِينَةِ، فَدَعَا بِتَوْرٍ مِنْ مَاءٍ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ حَتَّى بَلَغَ إِبْطَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أَشَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: مُنْتَهَى الْحِلْيَةِ». رواه البخاري.

قوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي: الباء للإلصاق قطعًا، وقد جاء في حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ، بَدَأَ بِمُقَدَّمِ رَأْسِهِ حَتَّى ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ». متفق عليه. ولكن إذا كان على المتوضئ عمامة جاز أن يقتصر على مسح الناصية والعمامة، كما هو الحال في مسح الخفين لمن لبس الخفين، ولا بأس بمسح الرأس ثلاثًا في بعض الأحيان، وإن كان السنة الغالبة مسح الرأس مرة واحدة، وذلك لحديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مسح رأسه ثلاثًا وقال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَضَّأَ هَكَذَا» رواه أبو داود بسند جيد. ولا شك أن هذا لبيان الجواز، لا لبيان السنة؛

لأن أحاديث عثمان ﵁ في الصحاح دلّت دلالة قطعية على أن مسح الرأس إنما هو مرة واحدة، وكذا أحاديث عبد الله بن زيد، وأبي هريرة ﵄.

والرأس اسم لجملة أعضاء ومنه الأذنان، وقد جاء في حديث أبي أمامة ﵁ أن رسول الله ﷺ كان يمسح الماقَين -وهو: طرف العين الذي يلي الأنف- ويقول: «الْأُذُنَانِ مِنَ الرَّأْسِ». رواه أبو داود بسند حسن من حديث أبي أمامة ﵁، ولحديث عبد الله الصُّنَابِحِي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أُذُنَيْهِ» رواه النسائي بسند لا بأس به. وفي حديث عمرو بن عنبسة ﵁ بلفظ: «ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ». رواه مسلم.

وتمسح الأذنان ظاهرهما وباطنهما، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو ﵄: «فَأَدْخَلَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّاحَتَيْنِ فِي أُذُنَيْهِ، وَمَسَحَ بِإِبْهَامَيْهِ عَلَى ظَاهِرِ أُذُنَيْهِ، وَبِالسَّبَّاحَتَيْنِ بَاطِنَ أُذُنَيْهِ» رواه أبو داود بسند حسن. قال أحمد: إن ترك مسحهما أحببت أن يعيد.

قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب أي: اغسلوا أرجلكم غسلًا لا مسحًا، والعرب تعطف الشيء على الشيء بفعل ينفرد به أحدهما، تقول: أكلت الخبز واللبن، أي: وشربت اللبن، قال الشاعر:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا ومَاءً بارِدًا

وقال آخر:

ورأَيْتُ زَوْجَكِ فِي الوَغَى ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا ورُمْحَا

وقال آخر:

شَرَّابُ أَلْبَانٍ وَتَمْرٍ وَأَقِط

وعن عمر ﵁: «أَنَّ رَجُلًا تَوَضَّأَ فَتَرَكَ مَوْضِعَ ظُفُرٍ عَلَى قَدَمِهِ، فَأَبْصَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وُضُوءَكَ. فَرَجَعَ، ثُمَّ صَلَّى». رواه مسلم، وفي حديث بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً يُصَلِّي وَفِي ظَهْرِ قَدَمِهِ لُمْعَةٌ قَدْرُ الدِّرْهَمِ لَمْ يُصِبْهَا الْمَاءُ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعِيدَ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ». رواه أبو داود بسند جيد.

وأما من قرأ بالجر فالمقصود بذلك مسحهما عند لبس الخفين، وقد مسح رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية على خفيه، وفي حديث همام بن الحارث قال: «رَأَيْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﵁ بَالَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ، (ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى)، فَسُئِلَ، فَقَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ صَنَعَ مِثْلَ هَذَا. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَكَانَ يُعْجِبُهُمْ؛ لِأَنَّ جَرِيرًا كَانَ مِنْ آخِرِ مَنْ أَسْلَمَ». متفق عليه. وكان إسلامه بعد نزول سورة المائدة.

وقد ثبت بالتواتر مشروعية المسح على الخفين قولًا وفعلًا عن سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ،

ثم إنه على رواية الجر قد يراد بالمسح الغسل للرجلين، قال أبو زيد الأنصاري: المسح في كلام العرب يكون غسلًا، ويكون مسحًا، ومنه يقال للرجل إذا توضأ فغسل أعضاءه: قد تمسح، ويقال: مسح الله ما بك، إذا غسَّلك وطهّرك من الذنوب، وقيل: إنما خُفض للجوار، كما تفعل العرب، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ بالجر. قال الشاعر:

لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا وَغَيَّرَهَا ... بَعْدِي سَوَافِي الْمُورِ وَالْقَطْرِ

السوافي: جمع سافية وهي الريح الشديدة التي تسفى التراب أي تطيره، والمور: التراب.

فالقطر حقه الرفع ولكنه جُرَّ للجوار، قال العرب: هذا جحر ضب خربٍ.

قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ أي مع الكعبين، كما سبق تقريره في قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، والكعبان هما العظمان في مجمع مفصل الساق بلا خلاف، والكعب عند العرب مأخوذ من العلو، ومنه سُميت الكعبة، وكعبت المرأة إذا فلك ثديها، قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾.

ويتأكَّد ذلك أصابع الرجلين، وقد ثبت عند أبي داود من حديث المستورد القرشي رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا تَوَضَّأَ يَدْلُكُ أَصَابِعَ رِجْلَيْهِ بِخِنْصَرِهِ».

وقد تضمنت الآية مع الأحاديث الصحيحة الثابتة: الترتيب بين الأعضاء عند الوضوء، وفي حديث جابر رضي الله عنه حين بدأ الطواف بالصفا، قال ﷺ: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَابْدَءُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» رواه النسائي وأصله عند مسلم.

وقد أجمع سلف الأمة على الترتيب والموالاة بين الأعضاء من غير تراخ، أخذًا من مواظبة الرسول ﷺ على ذلك، وقد مَرَّ حديث الذي أُمر أن يعيد وضوءه.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ أي: اغسلوا جميع البدن وتطهروا إن كنتم في حالة جنابة، لحديث عائشة رضي الله عنها: «ثُمَّ يُفِيضُ الْمَاءَ عَلَى جِلْدِهِ كُلِّهِ». متفق عليه، وحديث ميمونة رضي الله عنها: «ثُمَّ غَسَلَ جَسَدَهُ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ رِجْلَيْهِ». متفق عليه.

والجُنُب: اسم لمن حصلت منه الجنابة، وهي إنزال المني، والجُنُب: البعيد، سُميَ به من حصلت منه جنابة: إما لأن المني بَعُدَ عن محله وانتقل عنه، أو لبعده عما كان مباحًا له قبلها من الصلاة والقراءة، وغير ذلك.

والغسل يشمل حتى ما تحت الشعر الكثيف، فيجب غسل ما تحته، بخلاف الوضوء، وكذا المرأة، لا بد من إيصال الماء إلى جلدة الرأس، فلا يجوز الاقتصار على غسل ظاهر الشعر، ولا يلزمها نقض ضفائرها، بل إذا أروت بشرة رأسها كفى.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مرضى ويضركم الماء، أو مسافرين ولم تجدوا الماء.

قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي: البول أو البراز.

قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: جامعتموهنَّ، وقد ورد تفسيرها بالجماع عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الدُّخُولُ وَالمَسِيسُ وَاللِّمَاسُ هُوَ: الجِمَاعُ. رواه البخاري معلقـًا.

قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: اقصدوا التراب الطاهر للتيمم به.

قوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ أي: بضربتين كما وضَّحت السنة.

قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: من الذنوب والآثام والخطايا، وقد جاء في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ، قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ آنِفًا، قَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ-، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ -أَوِ الْمُؤْمِنُ- فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ -أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ-، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ -أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ-، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ -أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ-، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ». رواه مسلم.

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قَالَ: «قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، فَالْوُضُوءُ، حَدِّثْنِي عَنْهُ. قَالَ: مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ؛ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». رواه مسلم.

ويستحب في الوضوء التيامن، لقوله ﷺ: «إِذَا لَبِسْتُمْ أَوْ تَوَضَّأْتُمْ فَابْدَأُوا بِأَيْمَانِكُمْ» رواه أبو داود بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ (وَفِي رِوَايَةٍ: يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ) مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ، فِي طُهُورِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَتَنَعُّلِهِ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ أي: الذي جرى ليلة العقبة، كما في

حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بَايَعْنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ». متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن حديث جابر رضي الله عنه قال: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ، فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَظَلَّ بِهَا، وَعَلَّقَ سَيْفَهُ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَظِلُّونَ، (وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْنَا)، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي مُخْتَرِطٌ صَلْتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ! -وَفِي رِوَايَةٍ: (ثَلَاثًا)-، فَشَامَهُ، ثُمَّ قَعَدَ، فَهُوَ هَذَا. قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ». متفق عليه.

قال معمر: كان قتادة يذكر نحو هذا، ويذكر أن قومًا من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأوّل: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: عريفًا على قبائلهم بالمبايعة، والسمع والطاعة لله ولرسوله، ولكتابه، وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيبًا، ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج.

قوله: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم، ووازرتموهم على الحق، ورددتم عنهم أعداءهم، والتعزير: التعظيم والتوقير، وقيل: الضرب دون الحد للتأديب والرد عن القبيح.

قوله: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: تجاهل اليهود عهد الله الذي أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمد ﷺ، كما تركوا العمل بالتوراة التي فيها نعت محمد ﷺ، ورغبوا عنها إلى ما حرفوه ووضعوه من أقوال البشر.

قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ أي: تكتشف خيانة اليهود شيئًا فشيئًا، فالغدرُ والخيانة عادتُهم وعادةُ أسلافهم، إلا قليلًا منهم لَم يخونوا، فهو استثناء متصل، ويقال: رجل خائنة، إذا بالغت في وصفه بالخيانة، وكانت خيانتهم نقضهم للعهد بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومظاهرتِهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ، كيوم الأحزاب، وغير ذلك من هَمِّهم بقتله وسَبِّهِ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾
يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾
لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾

قوله: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ أي: فرقناهم شيعًا، وأغريت الكلب أي: أولعته بالصيد.

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ زَنَيَا، فَقَالَ لِلْيَهُودِ: مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا؟ قَالُوا: نُسَخِّمُ وُجُوهَهُمَا (وَنُخْزِيهِمَا) (وَفِي رِوَايَةٍ: وَنَضْرِبُهُمَا). قَالَ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾... وفيه: (فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ، وَلَكِنَّا نُكَاتِمُهُ بَيْنَنَا)، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا». متفق عليه.

قوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أي: يتركه ولا يبيِّنه، وإنما يبين ما فيه حجة ودلالة على نبوته وصدقه، ويترك ما لَم يكن به حاجة إلى تبيينه، وقيل: يتجاوز عن كثير فلا يخبركم به.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾
وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾
يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾
قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: لم أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وافترائكم؟ ولم عذّبكم، وجعل ممن هم على ملتكم قردة وخنازير، وسلط عليهم أنواع العذاب وهم أمم أمثالكم؟

قوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: سكون وانقطاع، ومنه: فتر الماء إذا انقطع عما كان عليه من السخونة إلى البرد، وقد جاء في حديث سلمان ﵁ قال: «فَتْرَةٌ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ». رواه البخاري، وفي حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». متفق عليه.

وكانت هذه الفترة مليئة بعبادة الأوثان والنيران والصلبان، وفساد الأخلاق، وانتشار الجهل، وقد جاء عن عياض بن حمار المجاشعي ﵁: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي: تملكون أمركم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون يسومكم سوء العذاب، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ وسأله رجل فقال: «أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ! قَالَ: فَإِنَّ لِي خَادِمًا! قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ». رواه مسلم، ويقال: من استغنى عن غيره فهو ملك.

وعن عبد الله بن محصن ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا». حسنه الترمذي.

قوله: ﴿يَـٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: بيت المقدس، وأخبرهم أن الله كتبها، وضمن لهم الانتصار على الكافرين.

قوله: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾ أي: عِظَام الأجسام طِوَال، والجبار في اللغة: المتعاظم الممتنع من الذل والفقر، ويقال: نخلة جبارة، أي: طويلة.

قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: الله تعالى.

قوله: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ أي: بالإسلام واليقين والصلاح.

قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي: لا يغرنكم عِظَم أجسامهم، فأجسامهم عظيمة لكن قلوبهم

ضعيفة.

قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بمجرد دخولكم عليهم باب المدينة، غلبتموهم بإذن الله، فالمبادرة خير وبركة، تدل على عزيمة قوية وعالية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ جاء في حديث ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال يوم بدرٍ: «شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا -وَفِي رِوَايَةٍ: يَوْمَ بَدْرٍ- لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ، وَسَرَّهُ. يَعْنِي قَوْلَهُ». رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ. قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا». رواه مسلم.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: يفصل ويقض بينه وبين المتمرد على أوامر الله، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وقال الشاعر:

يَا رَبِّ فَافْرُقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي   أَشَدَّ مَا فَرَّقْتَ بَيْنَ اثنين

قوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسيرون فيها فلا يهتدون لمقصدٍ ولا قرار وأصل التيه في اللغة: الحيرة، والأرض التيهاء: التي لا يُهتدى فيها، فحق عليهم حكم الله عز وجل، وقد مات موسى عليه السلام في هذه الفترة من التيه في أرض سيناء.

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَهُ

صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ! فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ. قَالَ: أَيْ رَبِّ! ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ. قَالَ: فَالْآنَ. فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ». متفق عليه.

ولما مات موسى عليه السلام استلم الأمر من بعده يوشع بن نون، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا. فَغَزَا، فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا. فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ -يَعْنِي النَّارَ- لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا! فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ. فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ؛ فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ. فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ. فَجَاؤُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الْغَنَائِمَ؛ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَأَحَلَّهَا لَنَا». متفق عليه.

قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا تحزن ولا تأسف. قال الشاعر:

وَانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ أي: تُقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهى أن ينكح المرأة أخوها تؤمها، وينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد في كل بطن رجل وامرأة، فولدت امرأة وسيمة، وولدت امرأة دميمة قبيحة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي. قال: لا، أنا أحق بأختي، فقربا قربانًا فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». متفق عليه.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي فِتْنَةِ الْقِتَالِ قَالَ: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي، وَبَسَطَ يَدَهُ لِيَقْتُلَنِي! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كُنْ كَابْنَيْ آدَمَ. وَتَلَا يَزِيدُ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ الْآيَةَ». رواه أبو داود بسند صحيح. قال أيوب السختياني: أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفي حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنْ رسول الله ﷺ: «كَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ. وَفِي رِوَايَةٍ: كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ». رواه أبو داود بسند جيد.

وروي أن آدم لما قُتل هابيل قال:

تَغَيَّرَتِ الْبِلادُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَلَوْنُ الأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ ... وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ

في أبيات كثيرة ذكرها الثعلبي وغيره. قال ابن عباس: ما قال آدم الشعر، وإن محمدًا والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، لكن لما قتل هابيل رثاه آدم وهو سرياني، فهي مرثية بلسان السريانية أوصى بها إلى ابنه شيث وقال: إنك وصيي فاحفظ مني هذا الكلام ليتوارث، فحفظت منه إلى زمان يعرب بن قحطان، فترجم عنه يعرب بالعربية وجعله شعرًا. وقد ذكرت ذلك للطافته، وأظنه من أخبار بني إسرائيل التي لا تثبت.

قوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ جاء عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ». رواه الترمذي بسند حسن.

وعن أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ذكرا أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ» رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: يبين له طريقة دفن الموتى، فأرسل الله غرابًا يحفر ويُفتش التراب بمنقاره ورجله ليخفي غراب آخر ميت، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾، فصارت المواراة سُنَّةٌ باقية في ذريته إلى قيام الساعة، وقد جاء في حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «قَلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ عَمَّكَ الشَّيْخَ الضَّالَّ قَدْ مَاتَ، قَالَ: اذْهَبْ فَوَارِ أَبَاكَ، ثُمَّ لاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي. فَذَهَبْتُ فَوَارَيْتُهُ وَجِئْتُهُ، فَأَمَرَنِي فَاغْتَسَلْتُ، وَدَعَا لِي» رواه أبو داود بسند جيد.

ويستحب الحفر والتوسعة في اللحد، قال النبي ﷺ: «احْفِرُوا، وَأَوْسِعُوا». رواه داود بسند جيد من حديث هشام بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال ﷺ: «اللَّحْدُ لَنَا، وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا». رواه أبو داود بسند جيد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قوله: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ بالياء، وبالألف، والأخير أفصح، وهي كلمة تدعو بها العرب عند الهلاك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى

﴿ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من أجل حادثة هذين الأخوين.

قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ جاء في حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَعُرَيْنَةَ- ثَمَانِيَةً قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ، فَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَفَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا؟ قَالُوا: بَلَى. فَخَرَجُوا، فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَطْرَدُوا النَّعَمَ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ-، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُدْرِكُوا، فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ نَبَذَهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا». متفق عليه، وفي رواية عند أبي داود: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الْآيَةَ».

قوله: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾ أي: إذا قطعت أيديهم اليمنى، قطعت معها أرجلهم اليسرى.

قوله: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إلى بلد آخر، ولكن في ديار المسلمين، وقيل: المراد بالنفي: السجن، فكأنه إذا سُجن فقد نُفي من الأرض، قال بعض المسجونين:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنَ أَهْلِهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الأموات فيها ولا الأحياء

إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وَقُلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

والنفي أصله الإهلاك، ومنه: الإثبات والنفي، ومنه: النفاية، لرديء المتاع.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الشافعي: هذه الآية منزلة على أحوال: فإذا قتلوا وأخذوا المال، قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال، قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا، قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال، نُفوا من الأرض.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من المحاربين وقُطّاع الطريق قبل إمساكهم وتنفيذ العقوبة عليهم، وعلى قول من قال: إنّها في أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل.

وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل

الصحابة، وقد أجمع العلماء على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا، فأسلموا أن دماءهم تحرم، وعلى هذا، فالآية نزلت في المحاربين من أهل الإسلام لا في المشركين.

قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: في حقه سبحانه، أما القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط، ومن تاب بعد القدرة فظاهر الآية أن التوبة لا تنفع، ويقام عليه الحد.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: القربة في الأعمال، والجمع: وسائلُ، قال الشاعر:

إِذَا غَفَــلَ الوَاشُــونَ عُــدْنَا لِوَصْــلِنَا ... وَعَــادَ التَّصَــافِي بَيْنَنَــا وَالوَسَــائِلُ

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ». رواه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه البخاري.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ - قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ!». متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾

قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ أي: دائم لا ينقطع.

قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أي: قطع وإزالة الكف من رسغ اليد، فإن لم يكن له يدان فإزالة الرِّجل من مفصل القدم، ويكون في السارق خمسة شروط:

١- البلوغ.

٢- والعقل.

٣- وأن يكون غير مالك للمسروق منه.

٤- وألا يكون له عليه ولاية، فلا يقطع العبد إن سرق مال سيده والعكس، بإجماع الصحابة رضي الله عنهم.

وأما في المسروق فخمسة شروط:

١- النصاب.

٢- والحرز.

٣- وأن يكون مما يتحول ويتملك ويحل بيعه.

٤- وأن لا يكون للسارق فيه ملك.

٥- وأن يكون ممن تصح سرقته، كالعبد الصغير، لا ما تصح سرقته كالعبد الصغير؛ فإنه لا يقطع فيه، ويحسم السَّاقُ إذا قُطِع.

قال أحمد: تقطع الرجل من شطر القدم ويُترك له العقب، وتقطع اليمنى أولًا.

قال ابن المنذر: ثبت عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أنّهما قطعا اليد بعد اليد، والرجل بعد الرجل.

وقال الزّهري: لَم يبلغنا في السنة إلا قطع اليد والرجل.

والمعنى: تقطع اليد اليمنى في الأولى، فإن عاد قطعت رجله اليسرى، فإن عاد عزِّر وحبس، وبِهذا قال أحمد بن حنبل، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «تُقْطَعُ الْيَدُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا». متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَطَعَ فِي مِجَنٍّ ثَمَنُهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ؛ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ». متفق عليه.

وقد قطع رسول الله ﷺ يد المرأة المخزومية التي سرقت في عهده في غزوة الفتح وقال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». متفق عليه.

وقد اتفق الجمهور -وهو كالإجماع- على أن القطع لا يكون إلا على سرقة من حِرزٍ، وهو ما نصب عادة لحفظ أموال الناس، وقد قال ﷺ: «لَا قَطْعَ فِي ثَمَرٍ وَلَا كَثَرٍ» رواه أبو داود من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه. (والكَثَر: جُمَّار النخل، وهو شحمه الذي في أوسط النخلة).

وعن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الثَّمَرِ الْمُعَلَّقِ، فَقَالَ: مَنْ أَصَابَ بِفِيهِ مِنْ ذِي حَاجَةٍ غَيْرَ مُتَّخِذٍ خُبْنَةً فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ، وَمَنْ خَرَجَ بِشَيْءٍ مِنْهُ فَعَلَيْهِ غَرَامَةُ مِثْلَيْهِ وَالْعُقُوبَةُ، وَمَنْ سَرَقَ مِنْهُ شَيْئًا بَعْدَ أَنْ يُؤْوِيَهُ الْجَرِينُ فَبَلَغَ ثَمَنَ الْمِجَنِّ فَعَلَيْهِ الْقَطْعُ» رواه أبو داود بسند حسن.

قال الخليل والفراء في قوله تعالى: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾: كل شيء يوجد من خلق الإنسان إذا أُضيف إلى اثنين جُمع، تقول: هشّمت رؤوسهما، وأشبعت بطونَهما.

قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، فقوله: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾تعود إلى أربعة: الأيدي والأرجل، وهي جمع في الاثنين، وهما تثنية.

وليس على المنتهب والخائن والمختلس قطع، لما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ عَلَى الْمُنْتَهِبِ قَطْعٌ. وَفِي رِوَايَةٍ: ولَيْسَ عَلَى الْخَائِنِ قَطْعٌ، ولاَ عَلَى الْمُخْتَلِسِ قَطْعٌ». رواه أبو داود بسند جيد.

ولا تُقطعُ الأيدي في السَّفَر، لحديث بسر بن أرطأة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُقْطَعُ الأَيْدِي فِي السَّفَرِ» رواه أبو داود بسند قوي.

ولا يدخل في المحظور ما يحتاجه ابن السبيل، لحديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ عَلَى مَاشِيَةٍ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا صَاحِبُهَا فَلْيَسْتَأْذِنْهُ، فَإِنْ أَذِنَ لَهُ فَلْيَحْتَلِبْ وَلْيَشْرَبْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ فَلْيُصَوِّتْ ثَلاَثًا، فَإِنْ أَجَابَهُ أَحَدٌ فَلْيَسْتَأْذِنْهُ، فَإِنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فَلْيَحْتَلِبْ، وَلْيَشْرَبْ، وَلاَ يَحْمِلْ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن عبَّاد بن شُرحبيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَصَابَتْنِي سَنَةٌ، فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، فَفَرَكْتُ سُنْبُلاً، فَأَكَلْتُ وَحَمَلْتُ فِي ثَوْبِي، فَجَاءَ صَاحِبُهُ فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثَوْبِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: مَا عَلَّمْتَ إِذْ كَانَ جَاهِلاً، وَلاَ أَطْعَمْتَ إِذْ كَانَ جَائِعًا! وَأَمَرَهُ فَرَدَّ عَلَيَّ ثَوْبِي، وَأَعْطَانِي وَسْقًا -أَوْ نِصْفَ وَسْقٍ- مِنْ طَعَامٍ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: سرقته.

قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: سيرته ونيته وعمله.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها.

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: متلهفون لسماع الأكاذيب والأباطيل، التي يفتريها أحبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه.

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ أي: يتسمّعون الكلام منك، وينقلونه إلى قومٍ آخرين لم يحضروا مجلسك تكبرًا وإفراطًا في العداوة والبغضاء.

قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: كما فعلوا وحرفوا آية الرجم، فقد جاء في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ .. فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى! أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ؛ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ. فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾، يَقُولُ: ائْتُوا مُحَمَّدًا، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ أي: يأكلون الحرام، لاسيما الرشوة، والربا، والسحت في اللغة أصله: الهلاك والشدة، قال تعالى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾، وسمي المال الحرام سحتًا؛ لأنه يسحت الطاعات ويذهبها ويستأصلها، ويسحت مروءة الإنسان، وقد قال ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ». حسنه الترمذي من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا خلاف بين السلف أن أخذ الرشوة على إبطال حق أو إحقاق باطل حرام لا يجوز، وقد روى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حَجَمَ النَّبِيَّ ﷺ عَبْدٌ لِبَنِي بَيَاضَةَ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ أَجْرَهُ، وَكَلَّمَ سَيِّدَهُ فَخَفَّفَ عَنْهُ مِنْ

ضَرِيبَتِهِ، وَلَوْ كَانَ سُحْتًا لَمْ يُعْطِهِ النَّبِيُّ ﷺ». متفق عليه.

قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: أنت مخير، قال الزهري: مضت السنة أن يُرد أهل الكتاب في حقوقهم، ومواريثهم إلى أهل دينهم، إلا أن يأتوا راغبين في حكم الله، فيحكم بينهم بكتاب الله، وقيل: إنّها منسوخة بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ، وَكَانَ النَّضِيرُ أَشْرَفَ مِنْ قُرَيْظَةَ، فَكَانَ إِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْظَةَ رَجُلًا مِنَ النَّضِيرِ قُتِلَ بِهِ، وَإِذَا قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَةَ فُودِيَ بِمِائَةِ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ رَجُلاً مِنْ قُرَيْظَةَ، فَقَالُوا: ادْفَعُوهُ إِلَيْنَا نَقْتُلْهُ. فَقَالُوا: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ النَّبِيُّ ﷺ. فَأَتَوْهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾، وَالْقِسْطُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ﴾». رواه أبو داود بسند جيد. وفي رواية عند أبي داود بسند حسن: «﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ فَنُسِخَتْ، قَالَ: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾».

قوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ يعني النبي ﷺ، وعبّر عنه بلفظ الجمع، وأقوال الكفار في الحدود وفي شهادَتِهم عليها غير مقبولة بالإجماع، ولكن فعل ذلك رسول الله ﷺ على طريق إلزامهم ما التزموه وعملوا به، وإظهارًا للحجة، وتحريفهم وتغييرهم فكان منفذًا لأحكامها، وقيل: كل من بُعث من بعد موسى عليه السلام.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: يحكمون بالتوراة لليهود، لا يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرفونها.

قوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ أي: العلماء منهم الفقهاء، مأخوذ من التحبير، وهو التحسين، فهم يحبّرون العلم في صدورهم وفي كلامهم، ويزينونه بالبيان والتعليم والدعوة، وسُمي الحِبر الذي يُكتب به حبرًا، لأنه يحبر به ويحقق.

قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما استودعوا من علمه، وبسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع.

قوله: ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ أي: شهداء على الكتاب بأنه من عند الله، أو شهداء على حكم رسول الله ﷺ أنه في التوراة لئلا يُبدّل ويُغيّر.

قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ كلمة (مَنْ) من أدوات العموم، فالمعنى: من لم يحكم بشرع الله كائنًا من كان فقد كفر، وهذا الحكم عام في اليهود وغيرهم، ولكن اليهود على رأس من لم يحكم بما أنزل الله؛ لأن الآيات تتحدث عنهم، قال محمد بن إبراهيم آل الشيخ: الحكم

بغير ما أنزل الله، أنواع:

الأول: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهذا كافر كفرًا اعتقاديًا مخرجًا عن الملة.

والثاني: ألاَّ يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقًا، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس، وهذا كافر كفرًا اعتقاديًا أيضًا.

ثالثًا: ألاَّ يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، ولكن اعتقد أنه مثله، فهذا كافر كفرًا اعتقاديًا أكبر.

الرابع: ألاَّ يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله ورسوله مماثلًا لحكم الله ورسوله ﷺ، ولكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ﷺ فهذا كالذي قبله.

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله ﷺ ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعدادًا، وإمدادًا، وإرصادًا، وتأصيلًا، وتصريفًا، وحكمًا، وإلزامًا، ومراجع مستمدات. فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ بعد هذه المناقضة.

قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي: كتبنا على اليهود في التوراة، واستدل كثير من الأصوليين والفقهاء بِهذه الآية إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حُكي مقررًا ولَم ينسخ، وهو الصحيح، بشرط أن لا يَرِد دليل صريح في شرعنا يخالفه، ووجه الاستدلال أن حكم هذه الآية يوافق ما جاء في الشريعة من الجنايات بالإجماع.

قوله: ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ أي: تقطع الأذن بالأذن إذا قطعت ظلمًا، وأما إذا كان الجاني صغيرًا فلا قصاص عليه، ويكون الأرش، كما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: «أَنَّ غُلامًا لأُنَاسٍ فُقَرَاءَ قَطَعَ أُذُنَ غُلامٍ لأُنَاسٍ أَغْنِيَاءَ، فَأَتَى أَهْلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا أُنَاسٌ فُقَرَاءُ! فَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِ شَيْئًا». رواه أبو داود بسند قوي.

قوله: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أي: يقلع السن بالسن، إذا قُلع ظلمًا، جاء في حديث أنس رضي الله عنه: «(أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الأَرْشَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَبَوْا إِلَّا الْقِصَاصَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ! أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا أَنَسُ!) كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ. (فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا) -وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَضُوا بِالأَرْشِ، وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ-، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ». متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الأَسْنَانُ سَوَاءٌ: الثَّنِيَّةُ وَالضِّرْسُ سَوَاءٌ، هَذِهِ وَهَذِهِ سَوَاءٌ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي الأَسْنَانِ خَمْسٌ خَمْسٌ»، وفي رواية: «فِي الأَصَابِعِ عَشْرٌ عَشْرٌ» رواه أبو داود بسند جيد. وفي رواية عند أبي داود بسند حسن: «وَفِي المَوَاضِحِ خَمْسٌ».

قوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي: يُقتص من جانيها بأن يُفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه، هذا في الجراح التي يمكن فيها المماثلة، ولا يُخاف على النفس منها، ومن القواعد المهمة في هذا الباب أن الجراح تارة تكون في مفصل، فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد، والرجل، والكف، والقدم ونحو ذلك، وتارة تكون في عظم، قال الشافعي: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقًا، ولا شيء على المجني عليه إذا اقتص من الجاني فمات من القصاص.

قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: سامح بحقه من القصاص ابتغاء ثواب الله ﷻ، ويكون من حقه الدية، وقد جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُجْرَحُ فِي جَسَدِهِ جِرَاحَةً فَيَتَصَدَّقُ بِهَا؛ إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ» رواه أحمد بسند جيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: الحافظ والشاهد على الكتب السماوية، والناسخ لها. قال الشاعر:

إِنَّ الْكِتَابَ مُهَيْمِنٌ لِنَبِيِّنَا ... وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ

قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: شريعة، وهي الطريقة الظاهرة التي يُتوصل بها إلى النجاة، وفي اللغة: الطريق التي يُتوصل منه إلى الماء، وفي الاصطلاح: ما شرع الله لعباده من الدين، والشارع: الطريق الأعظم، وجمعها: شِرَعٌ وشِرْع، والمنهاج: الطريق المستمر، وهو النهج والمنهج، أي: البيّن الواضح، والمعنى: أن لكل أمة سُنَّة وسبيلًا، فالتوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا

في الشرائع والعبادات، أما في أصل التوحيد فلا اختلاف فيه، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: سَبِيلًا وَسُنَّة. رواه البخاري معلقًا. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وقال ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ». رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾

قوله: ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ أي: يدور الدهر علينا ويظفر اليهود بالمسلمين، وقيل: أن يدور الدهر علينا بمكروه كالجدب، والقحط، فلا يبادلوننا ولا يقرضوننا.

قوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ أي: فتح مكة، وهذه بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين، و (عَسَى) من الله ﷻ تفيد الجزم، فهي وعد محتوم.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾ قالوا ذلك على جهة التوبيخ.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ أي: بممتنع ولا صعب.

قال ابن القيم: في أحكام أهل الذمة: إنه سبحانه قد -حكم ولا أحسن من حكمه- أنه من تولى اليهود

والنصارى فهو منهم، فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم، وهذا عام خص منه من يتولاهم ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام، فإنه لا يقر ولا تقبل منه الجزية، بل إما الإسلام أو السيف، فإنه مرتد بالنص والإجماع. اهـ.

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ عن عياض الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هُمْ قَوْمُكَ يَا أَبَا مُوسَى. وَأَوْمَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ». رواه الحاكم بسند حسن.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ المَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَلاَ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ، وَأَمَرَنِي أَنْ لاَ أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لاَ أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ؛ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ» رواه أحمد بسند جيد.

وفي حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مبايعة رسول الله ﷺ، وفيه: «وَأَنْ نَقُومَ -أَوْ نَقُولَ- بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ». متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وفي رواية عند ابن ماجه بسند لا بأس به: «إِنَّ اللهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ، فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ».

ولكن من المهم اعتباره أن يعلم الآمر أو الناهي استطاعته على ما يترتب على ذلك، قال النبي ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ. قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاَءِ لِمَا لاَ يُطِيقُ». رواه الترمذي بسند حسن.

قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والحزب يُطلق على صنف من الناس، وحزب الرجل: أصحابه، والحزب: الوِرْد، قال ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ». رواه مسلم من حديث عمر رضي الله عنه، وتحزبوا، إذا اجتمعوا، والأحزاب: الطوائف التي تجتمع على محاربة الأنبياء، وقد ثبت في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ -أي: أصابه- أَمْرٌ صَلَّى». رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ﴾ لأن نظرهم فاسد وفكرهم بارد، كما قال الشاعر:

وَكَـمْ مِـنْ عَائـبٍ قَـولا صَـحِيحًا ... وآفَتُـهُ مِـنَ الْفَهـمِ السَّـقِيمِ

وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ٦٣ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾

قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ أي: في الأذان والإقامة.

قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي: تسخطون، أو تكرهون، قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ

(وَرَسُولُهُ)». متفق عليه. قال الشاعر:

مَـــا نَقَمُـــوا مِـــنْ بَنِـــي أُمَيَّـــةَ إِلا أَنَّهُـــمْ يَحْلُمُـــونَ إِنْ غَضِـــبُوا

قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: بما هو أعظم شرًا من نقمتكم على المسلمين.

قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: عندما تثوبون وتعودون إلى الله يوم القيامة، فإن لكم ثوابًا وجزاءً ثابتًا عند الله.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: اليهود، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾، ولعنهم أنبياؤهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾، ولعنتهم الملائكة والناس أجمعون: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: في الآخرة؛ لأن مكانَهم النار.

قوله: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي: لم ينتفعوا بما سمعوا، فهم كانوا يدخلون على النبي ﷺ مستصحبين في قلوبهم الكفر، ويخرجون كافرين، لم ينتفعوا بالقرآن.

قوله: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ﴾ أي: هلاَّ، أو أفلا.

قوله: ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ أي: علماء النصارى.

قوله: ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ أي: علماء اليهود.

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ أي: لا سخاء فيها، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾.

قوله: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: بالبخل، والفقر، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ والنقير: هو النقرة الصغيرة التي في ظهر نواة التمر، فهم يمسكون ويبخلون عن إفادة الخلق، حتى بالنقطة التي في ظهر نواة التمر، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾.

قوله: ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾، وفي الآية إثبات اليدين الحقيقيتين لله تعالى، يدان تليقان بجلاله سبحانه، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ. وَقَالَ: (يَدُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: يَمِينُ- اللهِ مَلأَى، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي (يَدِهِ) -وَفِي رِوَايَةٍ: يَمِينِهِ-، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، (وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْقَبْضُ- يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، وقد نهاهم نبيهم موسى عليه السلام عن هذا الإفساد فقال: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ. فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ رضي الله عنه: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟ فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ، وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا! قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ! هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟». رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: معتدلة مستقيمة غير مقصّرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام، والنجاشي، وسلمان، وصهيب، وهي كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، وكقوله عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ فجعل أعلى مقاماتِهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوقها رتبة السابقين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنّها قالت لمسروق: «وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الْآيَةَ». متفق عليه، وعن عنترة قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل، فقال: إن ناسًا يأتونا، فيخبرونا أن عندكم شيئًا لم يبده رسول الله ﷺ فقال: ألم تعلم أن الله عز وجل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأسَهُ مِنَ القُبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا؛ فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ». رواه الترمذي بسند حسن.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ، فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَظَلَّ بِهَا، وَعَلَّقَ سَيْفَهُ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَظِلُّونَ، (وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْنَا)، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي مُخْتَرِطٌ صَلْتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ! -وَفِي رِوَايَةٍ: (ثَلَاثًا)-، فَشَامَهُ، ثُمَّ قَعَدَ، فَهُوَ هَذَا. قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ» متفق عليه. وفي رواية: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾». رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: مَنْ آمن من هؤلاء المذكورين إيمانًا صحيحًا خالصًا، معتقدًا بوحدانية الله، ورضي الإسلام دينًا، ومحمدًا ﷺ نبيًا ورسولًا، وآمن باليوم الآخر.

قال الخليل، وسيبويه الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك.

وأنشد سيبويه:

وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ ... بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقِ

وقيل: إن بمعنى نعم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾

قوله: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: ظنّوا لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل، اغترارًا بإمهال الله ﷻ لهم، وبقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قوله: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي: عن الهدى، وسماع الحق.

قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أُوقعت بهم الفتنةُ فتابوا فتاب الله عليهم.

قوله: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: كسائر المخلوقين، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ أي: في الزبور، وفي الإنجيل.

قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ أمثال النجاشي ملك الحبشة وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً﴾، وفي كتابِهم: من ضربك على خدّك الأيمن، فأدِر له خدك الأيسر، وقد كان من النجاشي المسمى بأصحمة ما كان من إيواء المهاجرين الأولين وإكرامهم والدفاع عنهم، بل وإيمانه بعد ذلك، وقد صلى عليه رسول الله ﷺ حين مات، وخرج بالناس إلى المصلى، وكبر عليه أربع تكبيرات، قال: «مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَصَفَّنَا وَرَاءَهُ». متفق عليه من حديث جابر رضي الله عنه.

قوله: ﴿قِسِّيسِينَ﴾ واحدها: قسِّيسٌ، أو قِسٌّ، وهو اسم لرئيس من رؤساء النصارى، ومعناه: العالِم، وأصله من قَسَّ الشيء، إذا تتبعه فطلبه، وقيل: هم الخطباء والعلماء.

قوله: ﴿وَرُهۡبَانٗا﴾ واحدها: راهب، وهو العابد، مشتق من الرَّهبة، وهي الخوف، والرهبانية: التعبد في الصومعة.

قوله: ﴿وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: الذين آمنوا وفهموا الإسلام منهم، أما من أبى واستكبر فقد خرج عن هذا الوصف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أي: تمتلئ عيونهم بالدمع حتى يسيل من شدة الامتلاء، وذلك لرقة قلوبهم وخشيتهم لله، وهذه أحوال العلماء: يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتماوتون، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: صدقنا بنبيك واتبعنا شريعتك، فاجعلنا مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق، ويشهدون على الأمم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

المُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ المُنَزَّل

العُشْر الثالث

يَحْيَى بن عَبْد العَزِيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ المائدة

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: كفروا بالله ورسله وكتبه، فاستحقوا أن يكونوا من أصحاب النار الشديدة الاتقاد، يقال: جَحم فلان النار، إذا شدد إيقادها، ويقال لعين الأسد: جحمة، لشدة اتقادها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: لا تمنعوا أنفسكم مما أحل الله لكم من أنواع الملذات والمطاعم والمشارب، ولا تحرموها على أنفسكم تقشفًا وتزَهُّدًا، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي إِذَا أَصَبْتُ اللَّحْمَ انْتَشَرْتُ لِلنِّسَاءِ، وَأَخَذَتْنِي شَهْوَتِي، فَحَرَّمْتُ عَلَيَّ اللَّحْمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾». رواه الترمذي بسند حسن.

وعن مسروق قال: أُتِيَ عبد الله رضي الله عنه بضرع، فقال للقوم: ادنوا، فأخذوا يطعمونه، وكان رجل منهم في ناحية، فقال عبدالله: ادن، فقال: إني لا أريده، فقال: لم؟ قال: لأني حَرَّمت الضرع، فقال عبدالله: هذا من خطوات الشيطان، فقال عبدالله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ادن فكل، وكفر عن يمينك، فإن هذا من خطوات الشيطان. صححه الحاكم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ

ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أي: أخبر الله تعالى أن الإثم إنما يتعلق بفعل المعاصي، والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين، ولو حرمت في زمانهم لانتهوا كما انتهيتم، وجاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: «كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلا إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَقَالُوا: قُتِلَ فُلان، قُتِلَ فُلان وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل هذه الآيَةَ». متفق عليه.

وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: «صَبَّحَ أُنَاسٌ غَدَاةَ أُحُدٍ الْخَمْرَ، فَقُتِلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ جَمِيعًا شُهَدَاءَ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا». رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ...﴾ الآية، قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قِيلَ لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ». رواه مسلم. قال الشاعر:

تَرَكْتُ النَّبِيذَ لِأَهْلِ النَّبِيذِ ... وَصِرْتُ حَلِيفًا لِمَنْ عَابَهُ

شَرَابٌ يُدَنِّسُ عِرْضَ الْفَتَى ... وَيَفْتَحُ لِلشَّرِ أَبْوَابَهُ

قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إذا تلقوا أمر الله بالقبول والرضا والتصديق.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ أي: ثبتوا على التصديق، وآمنوا بتحريمها.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾ أي: استمروا على تقوى الله واجتناب المحرمات، وعملوا الأعمال الصالحة التي تقربهم إلى ربهم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ أي: يختبركم وأنتم مُحرِمون ببعض الصيد، وهو صيد البر خاصة دون صيد البحر.

قوله: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ أي: في متناول أيديكم وأسلحتكم، فكل شيء يناله الإنسان بيده، أو برمحه، أو بشيء من سلاحه فقتله فهو صيد، فالصغار تنال بالأيدي، والكبار تنال بالرماح.

قوله: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: ليتبين من يخاف الله ويراقبه بالغيب ممن لا يخاف الله عز وجل، فإن كان يخاف الله بالغيب فهو قوي الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: من قتل الصيد وهو محرم، فعليه جزاء من البقر والغنم والإبل، يماثل ما قتل، وقول الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه، قال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي، فأما من كان عامدًا فالجزاء والإثم جميعًا، وأما المخطئ فغير ملوم، والمثلية لا تقتضي التشابه، فيكفي التشابه القوي، فالنعامة جزاؤها بدنة، وفي البقرة وحمار الوحش: بقرة، وفي الغزال: عنْز، وفي الظَّبي: شاة، وكذا في حمام الحرم، وقد جاء في حديث جابر ﵁ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الضَّبُعِ، فَقَالَ: هُوَ صَيْدٌ، وَيُجْعَلُ فِيهِ كَبْشٌ إِذَا صَادَهُ الْمُحْرِمُ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وخالف أبو حنيفة ظاهر النص، واعتبر في كفارة الصيد للمحرم القيمة، فيقوّم الصيد دراهم في المكان الذي قتل فيه، أو في أقرب موضع إليه، ويشترى بتلك القيمة هدايًا أو طعامًا، ويطعم المساكين كل مسكين نصف صاع من بر أو شعير أو تمر.

وأما الشافعي فإنه يرى المثل من النعم، ثم يقوم المثل، وتؤخذ قيمة المثل.

قوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾ أي: يَحْكُمُ بالمثل من البقر أو الغنم أو الإبل، رجلان عدلان من المسلمين، ويجوز لقاتل الصيد أن يكون أحد الحكمين، كما نص عليه الشافعي، وأحمد.

قوله: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ أي: يهدى ويوصل إلى الحرم فيُذبح هناك، ويُفرق لحمه على مساكين الحرم.

قوله: ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي: إذا لَم يجد المحرم مثل ما قتل من النَّعم، أو لَم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، فيُقَوَّم الصيد المقتول، ثم يُشترى به طعامٌ ويصرف لكل مسكين مُدٌّ منه، وقيل: يُخيَّر بين الجزاء، والإطعام، والصيام، كما هو قول الجمهور، لظاهر، (أو) فإنّها للتخيير، والقول الآخر أنّها على الترتيب.

وطعام المساكين جاء في حديث كعب ابن عجرة ﵁: يقسم فرق بين ستة، والفرق ثلاثة آصاع، لكل مسكين نصف صاع، ولفظه: قال: «وَقَفَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ وَرَأْسِي يَتَهَافَتُ قَمْلًا، فَقَالَ: يُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَاحْلِقْ رَأْسَكَ. قَالَ: فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ إِلَى آخِرِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةٍ، أَوِ انْسُكْ بِمَا تَيَسَّرَ. وَفِي رِوَايَةٍ: بِشَاةٍ». متفق عليه.

قوله: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ العدل: المثل، فيكون الصيام ثلاثة أيام إذا لم يجد الهدي، يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، ومكان الإطعام الحرم، لا غيره من الأمكنة، لأنه بدل من الهدي.

قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: عقوبة له على فعله وهتكه حُرمة الإحرام، كما قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

أما قتل الفواسق الخمس وما في حكمها فإنه مشروع في الحل والحرم، قال ﷺ: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ، يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْحِدَأَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ». متفق عليه مخن حديث عائشة رضي الله عنها وفي رواية لمسلم: «الْحَيَّةُ».

والحدأة: طائر خبيث هو أخس الطيور، يخطف الأفراخ وصغار أولاد الكلب والجرذان، وربما يخطف ما لا يصلح له إن كان أحمر يظنه لحمًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله: ﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: وما يُطعم من صيده كالسمك منفعة لكم وللسيارة، جمع سيّار، وهو من كان بحضرة البحر، أو المسافر، وقد استدل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية؛ لأن الطعام البحري هو الميت منه، وبحديث جابر رضي الله عنه، وهو حديث العنبر. متفق عليه، وبحديث: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ». رواه أبو داود بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

واحتج بعض الفقهاء بهذه الآية على أكل جميع دواب البحر بدون استثناء، وقد استثنى بعضهم الضفدع، فقد جاء في حديث سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ: «أَنَّ طَبِيبًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ضِفْدَعٍ يَجْعَلُهَا فِي دَوَاءٍ، فَنَهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِهَا» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فالتحريم ليس صفة للأعيان، وإنما يتعلق بالأفعال، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز للمحرم قبول صيد وُهِب له، ولا شراؤه، ولا استحداث ملكه، لعموم هذه الآية، ولحديث الصّعب بن جثامة رضي الله عنه الثابت في الصحيحين، حيث ردّ عليه النبي ﷺ هدية الحمار الوحشي، وقال: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ»، ولكن إذا لم يصد من أجله فيجوز الأكل منه، لحديث أبي قتادة رضي الله عنه حين صاد حمارًا وحشيًا وأكل منه هو وأصحابه، فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ

قال: «أَمِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا، أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا». متفق عليه.

قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: خلق الله الكعبة لصالح الناس، وسميت بالكعبة لأنّها مُربعة، وأكثر بيوت العرب مُدوّرة، وقيل: سميت بذلك لبروزها، لأن كل ناتئ بارز كعب، مستديرًا كان أو غير مستدير، ومنه: كعب القدم، وكَعُب ثدي المرأة: إذا ظهر في صدرها، والبيت سمي بذلك لأنه ذو سقف وجدار، وسماه حرمًا لأنه حرم، كما قال ﷺ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ». متفق عليه من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

قوله: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: صلاحًا ومعاشًا، يقومون بها، ويعملون بشرائعها ليقوم أمر دينهم ودنياهم.

قوله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أي: يضرب الله مثلًا للحلال والحرام، والطاعة والمعصية، فالمثل عام في كل ما خبث وطاب، فالطيب وإن قل فهو نافع جيد، جميل عاقبته، والخبيث فاسد مهما كان كثيرًا، فلا يستويان أبدًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالطيب في الجنة، والخبيث في النار، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ أي: ربما ينْزل بسبب سؤالكم تشديد، وقد ورد في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ فِي المُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى المُسْلِمِينَ، فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا. قَالَ: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: فُلَانٌ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. وَفِي رِوَايَةٍ: سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَصَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ. فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَافٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ كَانَ إِذَا لَاحَى يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ! مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ». متفق عليه.

وهذا النهي في حال نزول الوحي، أما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك فهو مأمور به، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم.

قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: عفا الله عن مسائلكم السابقة التي لا ضرورة لها، فلا تعودوا لمثلها، كما

قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَغَفَلَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» حديث حسن رواه الطبراني من حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». متفق عليه.

قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: الجعل الديني، قال ابن القيم: والجعل قسمان: ديني كما في هذه الآية، وكوني كما في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ من البحر، وهو الشق، وقد كانت العرب في الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن، وكان آخرها ذكر بحروا أذنها، أي: شقوها، وحرموا ركوبها وحلبها، فلا تُركب ولا تحلب، وقد جاء في حديث سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت، ولا يحلبها أحد من الناس. متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ أي: البعير أو الناقة التي تسيب بنذر ونحوه، فكانوا يسيبونَها لآلهتهم، فلا يحمل عليها شيء، فكان الرجل إذا أصابته فاقة أو مرض ونحوه، نذر بأن يسيِّب ناقته للأصنام والطواغيت، ويجعلها كالبحيرة في تحريم انتفاع الناس بها، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ، وَفِي رِوَايَةٍ: يَجُرُّ قُصْبَهُ، وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ أي: الشاة التي ولدت سبعة أبطن، فإذا ولدت بعد ذلك أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، فإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: قد وصلت أخاها، فلم تُذبح، وكانوا يسيبونَها لطواغيتهم.

قوله: ﴿وَلَا حَامٍ﴾ أي: الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه، وأنتج من صلبه عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فكانوا يتركوه للطواغيت، ويسموه الحامي، ويعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء، ولا يركب، ولا يمنع من كلأ أو ماء، فلما جاء الإسلام حرَّم وأبطل هذه العادات كلها.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: ولكن الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه، فيقولون: الله أمرنا بهذا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ

أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا
ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا
قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾
ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: احفظوا أنفسكم، وإخوانكم من المؤمنين من المعاصي والمنكرات، قال ﷺ: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ: إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى». متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فهو خطاب لجميع المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

وعن قيس قال: «قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ» رواه أبو داود بسند جيد.

عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ، قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؟ قَالَ: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا! سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» حديث حسن، رواه أبو داود.

وعن عدي بن عميرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلاَ يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ» رواه أحمد بسند حسن.

إذا ما تُرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حينئذ ينكر المسلم بقلبه، ويشتغل بإصلاح نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ أي: يا معشر المؤمنين أوصوا وأشهدوا على وصيتهم إذا شارف أحدكم على الموت، وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ، فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا مِنْ ذَهَبٍ، فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ وُجِدَ الْجَامُ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ. فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، فَحَلَفَا: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾، وَإِنَّ الْجَامَ لِصَاحِبِهِمْ. قَالَ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾». رواه البخاري.

قوله: ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي: يُشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين، أو اثنين من غير المسلمين، إن لم تجدوا شاهدين منكم، وقد روى الشعبي، أن رجلًا من المسلمين حضرته الوفاة بدَقُوقا، ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة، فأتيا أبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، فأحلفهما بعد العصر ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيّرا، وأنّها لوصية الرجل وتركته، فأمضى شهادتَهما. رواه أبو داود.

قوله: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: توقفونهما من بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس، وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عديًّا وتميمًا بعد العصر عند المنبر، ولا يشترط أن تكون الصلاة عصرًا، وإن كانت آكد، فالمهم صلاة يجتمع الناس فيها بحضرتِهم، وقد جاء في صلاة العصر ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَيَقُولُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ). وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا -وَفِي رِوَايَةٍ: وَهْوَ كَاذِبٌ-؛ فَأَخَذَهَا». متفق عليه.

قوله: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾ أي: إن اطلع وعثر الأولياء على أن الكافرَين قد كذبا في شهادتِهما، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: اطلعوا ووقعوا عليهم، يقوم اثنان من الأولياء فيحلفان أن شهادة الكافرَين باطلة، وأن شهادتَهما أحق من شهادتِهما، وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظالمين، ولا ريب أن شهادة الأولياء بذلك مُعتبرة ومُقدمة على غيرها، وأن شهادة الكافرَين إنما اعتُبِرت لأنه لا يوجد غيرهما، وهذا إن كان الموصي أوصى في حال السفر.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ أي: إذا حُلِّفوا وأُكِّد عليهم ذلك، وكان ذلك بعد

الصلاة وحضور الناس خوفًا من الفضيحة والعقاب، سواء كان ذلك من المؤمنين أهل الموصي، أو من الشاهدين من أهل الكتاب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ أي: أوحيت لهم وحي إلهام؛ لأنه معنى من معاني الوحي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا؟ وهو من باب العرض والأدب، لا من باب الشك في قدرة الله ﷻ، وإلى هذه الآية تنسب السورة، فيقال: سورة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية باهرة، وحجة قاطعة، والمائدة هي الخوان عليه الطعام، وسميت بذلك لأنّها تميد ما عليها، أي: تُعطي، قال ابن عباس رضي الله عنهما عن الضبّ: «وَلَوْ كَانَ حَرَامًا مَا أُكِلَ عَلَى مَائِدَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». متفق عليه، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ» رواه الترمذي بسند جيد.

وقيل: سُميت بذلك لحركتها بما عليها، من قولهم: ماد الشيء، إذا مال وتحرك، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى

وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ يعني: يومًا نعظمه، وأصل العيد من عاد يعود، إذا رجع، فيقال: عيد الفطر، والأضحى؛ لأنّهما يعودان كل سنة، وقيل: لأن فيه عودًا للمرح والفرح، فهو يوم سرور الخلق كلهم.

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يكون ذلك من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل، توبيخًا لهم، فـ(إِذْ) هنا بمعنى إذا، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾، قال الشاعر:

ثُمَّ جَزَاهُ اللهُ عَنَّا إِذْ جَزَى ... جَنَّاتِ عَدْنٍ فِي العَلالِيِّ العُلا

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُلَقَّى عِيسَى حُجَّتَهُ، وَلَقَّاهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: فَلَقَّاهُ اللهُ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآيَةَ كُلَّهَا» رواه الترمذي بسند صحيح.

قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ أي: حال حياتي، وقد روى ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلاَ وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلاَءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ». متفق عليه.

قوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾ أي: إن تعذبهم فأنت مالكهم، تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك، وقد جاء في حديث ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي! وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا

نَسُوءُكَ». رواه مسلم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا، وَالْآيَةُ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾» رواه النسائي بسند جيد. وفي رواية: «صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا ! قَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا». رواه أحمد بسند حسن.

انتهى تفسير سورة المائدة، ولله الحمد.

  

سُورَةُ الأَنْعَام

وهي مكية، وسميت بالأنعام لورود ذكر الأنعام فيها، وقد جاءعند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾»، وقد ذكر ابن عبد البر الإجماع على أن سورة الأنعام مكية إلاّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الثلاث الآيات، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الأَنْعَامُ مِنْ نَوَاجِبِ الْقُرْآنِ. رواه الدارمي. والنجيب: الفاضل النفيس من كل شيء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٤ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٥ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي، فَقَالَ: خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»، وهذا الحديث معتبر، ويتعين إعماله، ولم يصب من أهمله بحجة أنه يعارض ظاهر القرآن، ولا معارضة، فظاهر القرآن إنما هو باعتبار خلق أصل الأرض لا خصائصها، وهو الطور الأول من خلقها، أما الطور الثاني، وهو الذي عليه هذا الحديث، فهو ما يخص الإنسان وله علاقة وطيدة في وجوده، ألا وهو خصائص الأرض مع وجود آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي: خلق. وقد تكون من باب الصلة، كما في قول الشاعر:

وَقَدْ جَعَلْتُ أَرَى الِاثْنَيْنِ أَرْبَعَةً ... وَالْوَاحِدَ اثْنَيْنِ لَمَّا هَدَّنِي الْكِبَرُ

قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: من العدول عن الشيء، وهو الانحراف والميل عنه، فلا يتوجهون إليه بطاعة ولا إيمان.

قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ أي: الموت، أو هو ما بين أن يُخلق إلى أن يموت.

قوله: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أي: الدَّار الآخرة، وهذا الأجل لا يعلمه إلا هو سبحانه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ أي: يشكون في أمر الساعة، وأنه إله واحد، سبحانه وتعالى عما يشركون، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ أي: إله مَن في السماوات، وإله من في الأرض.

قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾ أي: كقولك: اصبر وسوف يأتيك الخبر، أي العذاب والعقوبة.

قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أي: من أمم قبلهم لما كذبوا بالحق، وعند الشيخين من حديث عمران ﵁ قال: قال ﷺ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، وسُمي القرن؛ لأنه عالم مقترن بعضهم ببعض، فكل عالم في عصره قرن، والذي عليه أكثر أصحاب الحديث أنه مائة سنة.

قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم﴾ أي: المطر الكثير، وعبّر عنه بالسماء؛ لأنه من السماء ينْزل، ومنه قول الشاعر:

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابًا

قوله: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ شيئًا بعد شيء بكثرة، كما يقال: مذكار، للمرأة التي كثرت ولادتُها للذكور، ومئناث، للمرأة التي تلد الإناث، ودر اللبن يدر، إذا أقبل على الحالب بكثرة.

قوله: ﴿كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ أي: في صحيفة، وهذه الآية جواب لقولهم: ﴿تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾، وقد جاء عند مسلم حديث جابر ﵁: «أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ، فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ».

قوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ كقوله: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ أي: هلاّ أنزل ملك يشهد بنبوته وصدقه؟

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: لجاءهم العذاب؛ لأن الله ﷻ أجرى سنته بأن من طلب آية فأُظهرت له فلم يؤمن، أهلكه الله، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾

قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: هيئة رجل، ليتمكنوا من مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لشبهنا ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا هذا إنسانٌ وليس بملك.

قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ -وَفِي رِوَايَةٍ: سَبَقَتْ- غَضَبِي».

قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: يقسم الله ﷻ بنفسه الكريمة، أنه سيحشر الناس جميعًا، فاللام موطئة للقسم.

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ما هدأ وما تحرّك، وعلى هذا فليس المراد السكون الذي هو ضد الحركة، وإنما هو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها.

قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾.

قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق.

قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: لأنه الرزاق، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن

رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وفي الصحيحين من حديث المغيرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا سلّم بعد الصلاة: «اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يومًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» حديث صحيح، رواه الترمذي.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ أي: الغالب، وأقهر الرجل، إذا صُيّر بحال المقهور الذليل، قال ابن كثير: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء.

قوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ رفعة ومكانًا وقهرًا وغلبة واستعلاء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: ما أعظم الأشياء شهادة؟

قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: نذير لكل من بلغه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وفي حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً». رواه البخاري.

قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: استفهام توبيخ وتقريع، ولم يقل: آخر، لأن الآلهة جمع، والجمع يقع على التأنيث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ أي: بعقيدة الشرك بالله، كقوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: أحدٌ صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أي: تكذبون، وكل زعم في القرآن فهو كذب، كما قال بعض السلف، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ أي: حجتهم حين اختُبِروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وارتفعت الدعاوى.

قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: تعجب من كذبهم وافترائهم، فهم ينفون أمام عالم الغيب أنهم أشركوا به غيره، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾، ولا تعارض بين قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾؛ لأن المقصود بِهذه الآية إذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، ويكذبون على أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة جوارحهم.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية، يقال: كننت الشيء في كِنّه، إذا صُنته فيه، وأكننت الشيء: أخفيته.

قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ أي: ثقلًا وصممًا، يقال: وُقرت أذنه، أي: صُمّت، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيل سطَّره الأولون في كتبهم، وأساطير: واحدها (إسطَارة)، وقيل: (أُسْطُورة). قال الشاعر:

تَطَاوَلَ لَيْلِي وَاعْتَرَتْنِي وَسَاوِسِي ... لِآتٍ أَتَى بِالتُّرَّهَاتِ الأَبَاطِيلِ

قوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾ أي: يزجرون من يأتي، ويتباعدون عنه، قال ابن كثير: فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحدًا ينتفع.

وكان ممن نال من رسول الله ﷺ ونهى ونأى عنه عبد الله بن الزبعرى، إلا أنه قد أسلم عام الفتح وحسن إسلامه، واعتذر إلى رسول الله ﷺ، وقبل عذره وكان شاعرًا مجيدًا، فقال يمدح النبي ﷺ:

فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... قَلْبِي وَمُخْطِئُ هَذِهِ مَحْرُومُ

مَضَتِ الْعَدَاوَةُ فَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا ... وَأَتَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومُ

فَاغْفِرْ فِدًى لَكَ وَالِدَايَ كِلَاهُمَا ... زَلَلِي فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومُ

وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْمَلِيكِ عَلَامَةٌ ... نُورٌ أَغَرُّ وَخَاتَمٌ مَخْتُومُ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ ... شَرَفًا وَبُرْهَانُ الْإِلَهِ عَظِيمُ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقٌ ... حَقًّا وَأَنَّكَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمُ
وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفًى ... مُسْتَقْبَلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمُ

ولقد كان من أمر أبي طالب حمين رأى أذية قريش لرسول الله ﷺ أن قال:

وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَأَبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتَ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... وَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ يَقِينَا

وقد قال العباس رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ. قَالَ: نَعَمْ؛ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ». متفق عليه.

وَعَنِ الْمُسَيَّبِ رضي الله عنه: «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: أَيْ عَمِّ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً (أُحَاجُّ) -وَفِي رِوَايَةٍ: أَشْهَدُ- لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ... وفيه: فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾». متفق عليه. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ: يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ؛ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ٢٨
وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٢٩ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ
وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٠ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً
قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٣٢ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا
يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٣٣ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ
حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٤ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ
ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٥﴾

قوله: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهرَ وانكشف، وفيها إضراب، فإنّهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه، فسألوا الرجعة ليتخلصوا مما شاهدوه من النار.

قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من الكفر، والنفاق، والأعمال السيئة.

قوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: لو ردّوا -على سبيل الفرض لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت- لعادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك والكفر والضلال، لِعِلْمِ الله فيهم أنّهم لا يؤمنون، وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله، ومع ذلك عاند وأبى واستكبر.

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾ قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾، والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة، وسميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي: قصَّرنا وضيّعنا في الدنيا من صالح الأعمال، حين قدّمنا العجز وجعلنا غيرنا يتقدمنا إلى الخير، والفرط: المتقدم، قال ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». متفق عليه من حديث جندب رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ أي: ذنوبهم.

قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: ما أسوأ الشيء الذي يحملونه، قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهذا فيمن سنَّ في الإسلام سنة سيّئة، قال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ». رواه مسلم من حديث جرير رضي الله عنه، أما من كان إثمه على نفسه، فقد قال تعالى في حقه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ وقد جاء اللعب مقدما في أربعة مواضع: في سورة الحديد، وسورة محمد، وفي الأنعام موضعان.

قوله: ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ أي: باطل وغرور؛ لقصر مدتها وفناء لذتها، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾، فالدنيا كأحلام النائمين، قال الشاعر:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامِ نَائِمٍ ... وَمَا خَيْرُ عَيْشٍ لَا يَكُونُ بِدَائِمِ
تَأَمَّلْ إِذَا مَا نِلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَّةً ... فَأَفْنَيْتَهَا هَلْ أَنْتَ إِلَّا كَحَالِمِ

وقال آخر:

فَاعْمَــلْ عَلَــى مَهَــلٍ فَإِنَّــكَ مَيِّــتٌ وَاكْــدَحْ لِنَفْسِــكَ أَيُّهَــا الإِنْسَــانُ
فَكَــانَ مَـا قَـدْ كَـانَ لَـمْ يَـكُ إِذْ مَضَـى وَكَــانَ مَــا هُــوَ كَــائِنٌ قَــدْ كَانَــا

ولكنها دار صدق لمن صدقها، ونجاة لمن فهمها، وغنى لمن تزود منها، قال الشاعر:

لَا تُتْبِــــع الــــدُّنْيَا وَأَيَّامَهَــــا ذَمًّــــا وَإِنْ دَارَتْ بِــــكَ الــــدَّائِرَةُ
مِــنْ شَــرَفِ الــدُّنْيَا وَمِــنْ فَضْــلِهَا أَنَّ بِهَــــا تُسْــــتَدْرَكُ الْآخِــــرَةُ

وسميت الدنيا بذلك لدنوها منا، ولدناءتها، وسميت الآخرة لتأخرها عنا، وقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ». حديث حسن، رواه الترمذي.

وعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». حديث صحيح، رواه الترمذي.

قال الشاعر:

إِذَا أَبْقَــتِ الــدُّنْيَا عَلَــى الْمَــرْءِ دِينَــهُ فَمَــا فَــاتَ مِــنْ شَــيْءٍ فَلَــيْسَ بِضَــائِرِ

قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ أي: الجنة، فالآخرة نعت، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾.

قوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾.

قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي: لا ينسبونك إلى الكذب، لا في السر، ولا في العلن، فأنت عندهم يا محمد صادق وأمين، ولكنهم يكذبون ما جئتهم به من الوحي والرسالة، وقد سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان قبل إسلامه فقال: «فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا... قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا». متفق عليه.

وعن عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: قَدْ نَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَلا نُكَذِّبُكَ، وَلَكِنْ نُكَذِّبُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾» صححه الحاكم والذهبي.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، وقال

تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تكلم ووعد به، قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ أي: شق عليك.

قوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: تطلب سربًا أو سردابًا تخلص منه إلى مكان آخر، ومنه يقال: النافقاء، لجحر اليربوع، ومنه المنافق.

قوله: ﴿أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سببًا؛ لأن السلم الذي يُرتقى عليه سبب إلى الموضع، والسلم: الدّرَج، وهو مشتق من السلامة، كأنه يسلمك إلى الموضع الذي تريد.

قوله: ﴿فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ أي: ممّا اقترحوه فافعل، وهذا قطع لطمعه في هداية أشباه هؤلاء المعاندين.

قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ أي: يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وتدبر وإصغاء، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الكفار؛ لأنّهم بِمنْزلة الموتى، وهم موتى القلوب حقيقة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾.

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ

مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ أي: يذكرون الله، ويسبحون الله، فالطير أمة، والقرود أمة، والإنس أمة، والجن أمة، والحيات أمة، والنمل أمة، وهكذا، وقد تكفل الله بأرزاقها، فلا تقتلوها إلا ما أمر الله ﷻ ورسوله بذلك، كالفواسق المؤذية، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً؟. وَفِي رِوَايَةٍ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ!». متفق عليه.

قوله: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئًا من أمر الدين يحتاج الناس إليه إلا بيّناه، وقد جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا» رواه أحمد بسند حسن.

فلا شيء في أمر الدنيا إلا وقد دلّنا عليه القرآن، إما دلالة مفصلة، وإما مجملة بينها رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾.

وعن عبيد الله بن زياد عن ابْنَيْ بُسْرٍ السَّلْمِيَّيْنِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِمَا فَقُلْتُ: يَرْحَمُكُمَا اللهُ، الرَّجُلُ مِنَّا يَرْكَبُ دَابَّتَهُ فَيَضْرِبُهَا بِالسَّوْطِ وَيَكْفَحُهَا بِاللِّجَامِ، هَلْ سَمِعْتُمَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَا: لَا، مَا سَمِعْنَا مِنْهُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، فَإِذَا امْرَأَةٌ قَدْ نَادَتْ مِنْ جَوْفِ الْبَيْتِ: أَيُّهَا السَّائِلُ، إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ فَقَالَا: هَذِهِ أُخْتُنَا، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنَّا، وَقَدْ أَدْرَكَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ. رواه أحمد بسند صحيح.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ أي: حتى الوحوش، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ». رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبَهَائِمُ، وَالدَّوَابُّ، وَالطَّيْرُ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تُرَابًا فَذَلِكَ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾» حديث حسن، رواه الحاكم.

قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أخبروني إن أتاكم عذاب الله، كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون؟ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن

تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ففي وقت الضرورة تذهب عنهم أصنامهم وأندادهم، فيعلمون حينئذ من المدعو وحده؟ وقد حصل منهم ذلك في الدنيا، وسيحصل منهم يوم القيامة، ولكن في الدنيا كشف عنهم ما نزل بِهم، أما في الآخرة وعند طلوع الشمس من مغربِها ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾». متفق عليه.

قوله: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: عند نزول المقت والعذاب، ليأسِكم أنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا، ولا حياة ولا موتًا ولا نشورًا.

قوله: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون، ويذلون، ويُلِحُّون، من الضراعة، وهي الذلة.

قوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أي: فهلا إذ ابتليناهم تضرعوا، وتمسكنوا إلينا، وهو عتاب على تركهم الدعاء والتضرع قبل نزول العذاب، ويجوز أن يكونوا تضرعوا تضرع من لم يخلص، أو تضرعوا حين لابسهم العذاب، وكل ذلك غير نافع ولا مانع للعذاب، إنما الدعاء والتضرع المأمور به حال الرخاء والشدة، وحث على التضرع والدعاء بعد نزول المصيبة والابتلاء، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: من النعم والخيرات والصناعات، وقد جاء في حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ. ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾» رواه أحمد بسند حسن.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٍ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٍ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ

ﱡٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢ﱠ

قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ أي: استأصلوا عن آخرهم فلم تبق لهم باقية، فدابر الشيء: آخره.

قوله: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ أي: يعرضون عن الحجج، وصادفته مصادفةً، أي: لقيته عن إعراض من جهته.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: لست أملك خزائن الله في السماوات ولا في الأرض. أي ما تختزنه، وقد قال ﷺ: «لَا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشِيَةَ امْرِئٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تُؤْتَى مَشْرُبَتُهُ، فَتُكْسَرَ خِزَانَتُهُ، فَيُنْتَقَلَ طَعَامُهُ؟ فَإِنَّمَا تَخْزُنُ لَهُمْ ضُرُوعُ مَوَاشِيهِمْ أَطْعِمَاتِهِمْ، فَلَا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشِيَةَ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ». متفق عليه.

قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: الكافر والمؤمن، والضال والمهتدي؟ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾.

وقد جاء في حديث سعد رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا -وَفِي رِوَايَةٍ: تُدْنِي هَؤُلَاءِ؟! -. قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾». رواه مسلم.

قوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم، وجالسهم، وتودّد إليهم؛ لأنهم أتباع، قال تعالى عن نوح عليه السلام في جوابه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾، وقد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هرقل حين سأل أبا سفيان: «عَنْ أَتْبَاعِهِ: أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟». متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ

بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ قال قوم نوح لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾، وذلك أن الرسل يكون أغلب أتباعهم بادي الرأي، ضعفاء الناس، وأما الأشراف فإنّهم يستكبرون، ويخافون زوال ما هم عليه من الريادة والسيادة.

وقد كان اتّباع الضعفاء للرسل، مدعاة لعلية القوم، في السخرية والصد عن سبيل الله، قال تعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، قال تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: مع أهل التقوى والمغفرة، لا مع أهل الهوى والكبر، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». رواه مسلم. فالاستفهام للتقرير.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا فضل للصالحين واحترام لمقامهم، جاء عن عائذ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟! فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ! لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ. فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ! أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أُخَيَّ». رواه مسلم.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: أنا على دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى.

قوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بهذا البيان والقرآن. قال مصعب بن عبد الله بن الزبير:

أأقعد بعد ما رَجَفَتْ عِظَامِي ... وَكَانَ الْمَوْتُ أَقْرَبَ مَا يَلِينِي

أُجَادِلُ كُلَّ مُعْتَرِضٍ خَصِيمٍ ... وَأَجْعَلُ دِينَهُ غَرَضًا لِدِينِي

فَـأَتْرُكُ مَـا عَلِمْـتُ لِـرَأْيِ غَيْـرِي وَلَـيْسَ الـرَّأْيُ كَـالْعِلْمِ الْيَقِـينِ
وَمَـا أَنَـا وَالْخُصُـومَةُ وَهِـيَ شَـيْءٌ يُصَـرَّفُ فِـي الشَّـمَالِ وَفِـي الْيَمِـينِ
وَقَـدْ سُـنَّتْ لَنَـا سُـنَنٌ قِـوَامُ يَلُحْـنَ بِكُـلِّ فَـجٍّ أو وجـين
وَكَـانَ الْحَـقُّ لَـيْسَ بِـهِ خَفَـاءٌ أَغَـرَّ كَغُـرَّةِ الفلـق المبـين
وَمَـا عِـوَضٌ لَنَـا مِنْهَـاجُ جَهْـمٍ بِمِنْهَـاجِ ابْـنِ آمِنَـةَ الْأَمِـينِ
فَأَمَّـا مَـا عَلِمْـتُ فَقَـدْ كَفَـانِي وَأَمَّـا مَـا جَهِلْـتُ فَجَنِّبُـونِي

الوجين: شط الوادي.

قوله: ﴿مَا عِندِى مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما العذاب من عند الله وحده، وكانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاءً وسخريةً، كقولهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾، وقول أبي جهل: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي: في أمر العذاب وغيره.

قوله: ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي: القصص الحق، كما قال سبحانه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ أي: خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم بين عباده.

قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. وَفِي رِوَايَةٍ: مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ». رواه البخاري، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾». متفق عليه.

وعن بعض أزواج النبي ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هل تنبت أو لا، وكم تنبتُ؟ ومَنْ يأكلها؟ قال الشاعر:

فَـــلا يَخْفَـــى عَلَيْـــهِ الـــذَّر إمَّـــا   تَـــرَاءى لِلنَّـــوَاظِرِ أَوْ تَـــوَارى

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ۝٦٢ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٦٧ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ أي: عند نومكم، قال بعض السلف: تعلق الروح بالبدن خمسة أحوال:

الأول: تعلقها به في بطن الأم جنينًا.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلُّقها به في مجال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع: تَعَلّقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًا، بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة، فقد ورد ردها إليه وقت سلام المسلم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد خاصة لا يوجب إعادة حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبه لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا.

قوله: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي: ليستوفي كل إنسان أجلًا ضرب له.

قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة، قال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾.

قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يضيعون، ولا يقصرون، ولا يتوانون، وأصله من التقدم.

قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ قال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال ﷺ: «الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلاَنٌ. فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ. فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلاَ يُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلاَنٌ. فَيُقَالُ: لاَ مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لاَ تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ. فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ». رواه ابن ماجه بسند جيد. وفي رواية: «قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلنَّفْسِ: اخْرُجِي! قَالَتْ: لاَ أَخْرُجُ إِلاَّ كَارِهَةً. قَالَ: اخْرُجِي وَإِنْ كَرِهْتِ» رواه البزار بسند صحيح.

وفي حديث البراء ﵁: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي الْمَيِّتِ يُثَبِّتُهُ اللهُ: فَيَقُولُ الْمَلَكَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ. وَقَالَ فِي الْكَافِرِ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ» رواه أبو داود بسند حسن.

قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ أي: لا يحتاج إلى فكرة ولا روية، فهو الحكيم العليم.

قوله: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: شدائد البر والبحر، يقال: يوم مظلم، أي: شديد.

قوله: ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ أي: تظهرون، وتبطنون، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾ الكرب: الغم يأخذ بالنفس، فيقال: رجل مكروب.

قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ أي: الرجم، جاء في حديث جابر ﵁ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ. قَالَ: ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾، قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ. ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ

بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا أَهْوَنُ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ. وَفِي رِوَايَةٍ: هَاتَانِ أَهْوَنُ، أَوْ أَيْسَرُ». رواه البخاري.

قوله: ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ أي: الخسف، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾، وعن عمران رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: إِذَا ظَهَرَتِ القَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ» حديث حسن رواه الترمذي.

وعن أنس رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا أَنَسُ، إِنَّ النَّاسَ يُمَصِّرُونَ أَمْصَارًا، وَإِنَّ مِصْرًا مِنْهَا يُقَالُ لَهُ: الْبَصْرَةُ أَوِ الْبُصَيْرَةُ، فَإِنْ أَنْتَ مَرَرْتَ بِهَا أَوْ دَخَلْتَهَا فَإِيَّاكَ وَسِبَاخَهَا، وَكَلَاَّءَهَا وَسُوقَهَا، وَبَابَ أُمَرَائِهَا، وَعَلَيْكَ بِضَوَاحِيهَا؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِهَا خَسْفٌ وَقَذْفٌ وَرَجْفٌ، وَقَوْمٌ يَبِيتُونَ يُصْبِحُونَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ» رواه أبو داود بسند حسن.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «فِي أُمَّتِي خَسْفٌ، أَوْ مَسْخٌ، أَوْ قَذْفٌ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ» رواه الترمذي بسند لا بأس به.

وعن صخر العبدي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْسَفَ بِقَبَائِلَ، حَتَّى يُقَالَ: مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي فُلَانٍ» رواه أحمد بسند جيد.

قوله: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ أي: فِرَقًا يقتل بعضكم بعضًا، أو يقوي عدوكم حتى يخالطكم، وإذا خالطهم فقد لبسهم، وقد حصل التفرق كما أخبر ﷺ عن ذلك بقوله: «وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ أي: بالحرب والقتل في الفتنة، وقد جاء في حديث سعد رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِيهَا». رواه مسلم.

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا-، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ

بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». رواه مسلم.

وعن ثوبان ﵁ قال: قال ﷺ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه أبو داود بسند صحيح.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من ذلك، فقال: «وَيْلَكُمْ! لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». متفق عليه.

وعن ابن عمر ﵄ قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: بهذا القرآن.

قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لكل خبر حقيقة، ولكل عمل جزاء، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾، ولكل شيء وقت يقع فيه، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يجعلك ناسيًا، يقال: (يُنَسِّيك) بالتشديد، قال الشاعر:

إِمَّـا يُصِـبْكَ عَـدُوٌّ فِـي مُنَـاوَأَةٍ ... يَوْمًـا فَقَـدْ كُنْـتَ تَسْـتَعْلِي وَتَنْتَصِـرُ

والنسيان جائز على الإنسان، وعن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن ابن مسعود ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي». متفق عليه.

وعن عائشة ﵂ قالت: «سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَارِئًا يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَرْحَمُهُ اللهُ! لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً أَسْقَطْتُهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: أُنْسِيتُهَا- مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا». متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ

وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي: إذا اعتزلوهم، فلم يجلسوا معهم فقد برئوا من عهدتِهم، وتخلصوا من إثمهم.

قوله: ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي: أمرنا لكم بالإعراض عنهم، تذكير لهم عما فيهم، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذلك ولا يعودون إليه، ويحتمل أن يكون التذكير بالكلام مع الإعراض، لأنه أقرب لحصول المقصود.

قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

قوله: ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ أي: تفتضح، وقيل: أصله التحريم، من قولهم: هذا بسل عليك، أي: حرام، فكأنهم حُرِمُوا الجنة، وحرِّمت عليهم.

قوله: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ﴾، وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَرَّبُ إِلَى فِيهِ فَيَكْرَهُهُ، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ» رواه الترمذي وصححه الحاكم، وفي رواية عند الترمذي: «﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ قَالَ: كَعَكَرِ الزَّيْتِ، فَإِذَا قَرَّبَهُ إِلَى وَجْهِهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ» صححها ابن حبان.

قوله: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: استغوته وزينت له هواه، ودعته إليه.

قوله: ﴿حَيۡرَانَ﴾ أي: تردد فلا يهتدي لجهة أمره، والحائر: الموضع الذي يتحير فيه الماء، وحار: تردد.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعدل.

قوله: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الواقع لا محالة.

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ أي: في القرن، وفي حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال ﷺ: «الصُّورُ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا، وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ. قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ -أَوْ قَالَ:

يُنْزِلُ اللهُ- مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ، أَوِ الظِّلُّ -نُعْمَانُ الشَّاكُّ-، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ». رواه مسلم. والليت: جانب العنق، والطل: قطر الندى.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ التَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟ فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا». حديث حسن رواه الترمذي.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّفَّاخَانِ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، رَأْسُ أَحَدِهِمَا بِالْمَشْرِقِ، وَرِجْلاهُ بِالْمَغْرِبِ، يَنْتَظِرَانِ مَتَى يُؤْمَرَانِ أَنْ يَنْفُخَا فِي الصُّورِ فَيَنْفُخَانِ» رواه أحمد بسند جيد، وسيأتي مزيدًا على ذلك في سورة الزمر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ أي: واذكر عندما قال إبراهيم لأبيه آزر، وقد ثبت عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»، وَالذِّيخ: ذَكَر الضِّبَاع، والحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم عليه السلام منه ولئلا يبقى في النار على صورته فيكون فيه غضاضة على إبراهيم عليه السلام.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: نُبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والملكوت: من الملك، والواو والتاء للمبالغة في الوصف.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي: ستره بظلمته، و (جَنَّ) في اللغة: من الستر والخفاء، ولذلك يقال للطفل في بطن أمه: جنين، ويقال للجِنِّ وهم ضد الإنس: جِن، لخفائهم واستتارهم، ويقال: جَنَّة لدار النعيم، فهي مخفية ومستترة عن أعيننا، كما أنها مستترة بالأشجار والأزهار والثمار.

قوله: ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: على زعمكم وافتراضكم، وهو على وجه التدرج مع الخصم، فوافقهم في العبارة مع مخالفته لهم في الاعتقاد لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، أو أهذا ربي؟ أو مثل هذا يكون ربًا، فحذف الهمزة، وفي القرآن: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ أي: أفهم الخالدون.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب.

قوله: ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي: لا أعبد من يزول، وإنما المعبود حقًا من لا يزول، وكان في هذا المقام مناظرًا لقومه مبينًا لهم بطلان ما يعبدونه من الهياكل والأصنام والكواكب والنجوم، ومؤكدًا لهم أن المستحق للعبادة والمحبة والخوف والرجاء هو الحي القيوم، الذي لا يزول ولا يحول، لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو تنظير عقلي لا يدع مجالًا للمماطلة والتلكؤ والمماحكة، إلا لمن ضل عقله عن سواء السبيل، وقد كان في تقريره للحجة أن وافقهم ظاهرًا فيما ذهبوا إليه بادئ الأمر، ليصل بِهم إلى النتيجة القطعية التي لا تقبل الجدل، وهي عبادة الله الواحد الأحد.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ أي: طالعًا، يقال: بزغت الشمس، إذا ابتدأت بالطلوع، والبزغ: الشق، كأنه يشق بنوره الظلمة.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ﴾ أي: طالعة.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ أي: قالها على وجه السخرية والتهكم بقومه، فقال إبراهيم عليه السلام: هذا هو الرب الذي يستحق أن يعبد، ليلفت انتباههم إلى أن هذا أكبر من الكوكب، وأكبر من القمر، وأقصى ما يمكن أن يعبدوا ويتجهوا إليه، فهي أكبر آية، فإن بقيت فآلهة تستحق العبادة، وإن أفلت فهي الآلهة المزيفة، ومن دونَها أزيف، فلا يبقى حينئذ إلا عبادة من بيده ملكوت كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال الإمام ابن تيمية: المشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان:

الصنف الأول: قوم نوح، كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم.

والصنف الثاني: قوم إبراهيم، كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر.

قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: قصدت وأخلصت وتوجهت في عبادتي وتوحيدي، وذكر الوجه لأنه أظهر ما يعرف به الإنسان صاحبه.

قوله: ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق.

قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أي: فيلحقني شيء من المكروه بذنب عملته فتتم مشيئته، فهو استثناء منقطع، أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك، وأعظم أنواع الظلم الشرك بالله، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». متفق عليه.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: الأمان، فالإيمان يطلق ويراد به الطمأنينة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَمِنَ لِمَنْ كَانَتِ الْمَسَاجِدُ بَيْتَهُ الأَمْنَ وَالْجَوَازَ عَلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حديث حسن، رواه البزار.

وعن سخبرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وَابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ، وظُلِمَ فَغَفَرَ، أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» رواه الطبراني بسند لا بأس به.

قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: ما سبق من احتجاجاته حتى غلبهم بالحجة.

قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: بالعلم والفهم، والإمامة والسلطان.

قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيدخل لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه ابن أخ إبراهيم، ودخل تغليبًا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ فإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ عمه، ودخل في آبائه تغليبًا، ودخل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه ينسب إلى أمه مريم، وهي من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي ذلك دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، فلهذا لو أوصى رجل لذريته دخل أولاد البنات، بخلاف ما لو أوصى لبنيه، فإنه لا يدخل إلا بنو صلبه وبنو بنيه.

وأما قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال لابن بنته الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». رواه البخاري. فقد سمَّاه ابنًا، فهذا تجوز؛ لأنه متولد من أبي أمهم، والولد مشتق من التولد، ولذا لم يعقل المسلمون من ظاهر الآية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ إلا ولد الصلب، وولد الابن خاصة، وقيل: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي رجحه ابن جرير، والصحيح القول الأول.

قوله: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: اخترناهم، واصطفيناهم.

قوله: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: بالنبوة، والكتاب، والحكم والنبوة من أهل مكة.

قوله: ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: فوضنا بالإيمان بالنبوة والرسالة، المهاجرين والأنصار وأتباعهم.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَفِي ﴿صٓ﴾ سَجْدَةٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. ثُمَّ تَلَا: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾. ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ؛ فَسَجَدَهَا دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». رواه البخاري.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالاقْتِصَادَ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: في آخر الزمان حسن الهدي خير من بعض العمل. رواه البخاري في الأدب المفرد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ

فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ ولفظة قراطيس: جمع قرطاس، وهو الورق الذي يكتب فيه، والمعنى: أن اليهود تصرفوا في التوراة بهوى، فجمعوا التوراة وأعادوا كتابتها وأضافوا عليها من كلام أحبارهم، وسجلوها في أوراق وكتب، فخلطوا كلام الخالق بكلام المخلوقين، وقد نتج عن هذه القرطسة أن آمنوا ببعضه وأهملوا البعض الآخر.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي أنزله لا غير.

قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: مكة، وجميع آفاق العالم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وقال: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وسميت بذلك لأنها أشرف البلاد، ولتقدمها على سائر القرى والمدن وجودًا وفضلًا، وقد جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بنِ عَدِيِّ بْنِ حَمْرَاءَ الزُّهْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ رسول الله ﷺ: «وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ» رواه الترمذي بسند صحيح.

قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: في شدائده وسكراته وكرباته، والغمرة: الشدة، وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: لقبض أرواحهم وضربهم بشدة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، وذلك لأن الكافر إذا احتضر بشَّرته الملائكة بالعذاب وغضب الجبار، فتتفرق روحه في جسده وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج

أرواحهم، وبسط اليد كناية عن القوة، والشدة، وفي الآية إِثبَاتِ وُجُود عذاب القبر، خِلافًا لِمَن نَفَاهُ مُطلَقا مِن الخَوارِج وَبَعض المُعتَزِلَة، وقد جاء في حديث اِبن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: هَذَا عِند المَوت، وَالبَسط الضَّرب، يَضرِبُونَ وُجُوههم وَأَدبَارهم. رواه الطبري في التفسير. ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَـٰرَهُمۡ﴾، وهذا وإن كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه، ولكون الغالب على الموتى أن يقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة يعذب بعد موته ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله.

قوله: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: خَلِّصوا أنفسكم من العذاب إن استطعتم، فقد كنتم تزعمون أنكم تأتون بمثل ما يأتي به الله، فهذا عذاب الله، فأخرجوا أنفسكم منه، وهو سؤال فيه سخرية بهم، ليزيد في إيلامهم.

قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: المهين غاية الإهانة.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي: منفردين كما خُلقتم، وقيل: عراة كما خرجتم من بطون أمهاتكم، كقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ﴾، وقد قال ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَـٰكُمۡ﴾ أي: ما أعطيناكم وملكناكم، والخول: ما أعطاه الله للإنسان من النعم والعبيد، وقد جاء في حديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ حين نزلت: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ﴾ أي: لغيركم، ولن تنفعكم في هذا اليوم.

قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ﴾ أي: مع الله فعبدتموهم.

قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: تقطّع وصلكم، وتشتّت جمعكم.

قوله: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أي: من رجاء الأصنام، والأنداد، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي: يشق النواة أو الحبة الميتة فيخرج منها ورقًا أخضرًا.

قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ أي: صبح كل يوم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ قال قتادة: خلق هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها. رواه البخاري.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞ﴾ أي: في الأرحام مستقر، وفي الأصلاب مستودع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقر: ما كان في الرحم مما هو حي ومما هو قد مات، والمستودع: ما في الصلب. صححه الحاكم.

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ وَجْهِي: أَتَزَوَّجْتَ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ قُلْتُ: لا، وَمَا أُرِيدُ ذَلِكَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مَا كَانَ فِي صُلْبِكَ مِنَ الْمُسْتَوْدَعِيْنِ. رواه ابن منيع، وصححه ابن حجر.

وقيل: العكس، وقيل: مستقر في الأرحام، ومستقر على ظهر الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ ومستودع في القبر.

قوله: ﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ أي: كالسنابل يركب بعضه بعضًا.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ أي: عذوقًا متدلية قريبة في متناول الأيدي، وقنوان: جمع (قنو) وهو عذق التمر.

قوله: ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا﴾ أي: متشابهًا في الأوراق والمنظر.

قوله: ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي: في الطعم، فتجد الرمانتين لونهما واحد، وطعمهما مختلف، وكذا التمر والزيتون، ونحو ذلك، وخص الرُّمَّان والزيتون بالذكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم، ولحكمة أرادها الله

سبحانه، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ردهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه، ولما تتميز به عن سائر الحيوانات صبراً ونفعًا وخَلقًا.

قوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي: نظر اعتبار وتدبر، لا نظر إبصار مجرد عن الفكر، والثمر: هو ما أنتج الشجر.

قوله: ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي: نضجه، تقول: ينع وأينع، إذا نضج.

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: جعلوا الجن شركاء لله، حيث أطاعوهم في عبادة الأصنام، كالزنادقة وَعَبَدَةِ الشياطين حين قالوا: إن الله وإبليس وجهان لعملة واحدة، فالله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الجان والسباع والعقارب.

قوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد علموا أن الله هو الذي خلق الجن والشياطين، فكيف يجعلونهم شركاء له؟

قوله: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: اختلقوا وافتعلوا وزعموا أن لله سبحانه البنين والبنات، وعند العرب كان الرجل إذا كذب في النادي قيل: خرقها ورب الكعبة، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تحيط به الأبصار ولا تصل إليه كما تدرك المخلوقات، كما أنها لا تطيق رؤيته في الدنيا، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا

أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: **نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**؟. وَفِي رِوَايَةٍ: **رَأَيْتُ نُورًا**». رواه مسلم.

ومسروق قال: قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ. ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾». متفق عليه.

أما رؤيته في الآخرة فمسألة قطعية لا جدل فيها، خلافًا للمعتزلة ومن أخذ بعقائدهم، كالرافضة والخوارج لاسيما الإباضية، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، أما المؤمنون فإنهم لا يحجبون، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فالحسنى: الجنة، والزيادة: رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأما من السنة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وبلال وغير واحد من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بذلك، ولا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك والإحاطة، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم، فلا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من إحاطة العلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، وقوله ﷺ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» رواه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. فلا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هنا، فالقمر والشمس كل منهما يُرى، ولكن هل تدرك حقيقته وكنهه وماهيته؟ وترى السماء، ولكن هل تدرك الحقيقة والكنه والماهية؟ لا شك أن الجواب لا، فكذلك العظيم سبحانه، وله المثل الأعلى، يُرى غدًا في روضات الجنات، وقبل ذلك في العرصات، ومن نفى الرؤية فلا ريب أن له النصيب الكبير من قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ لأنه أراد ذلك لنفسه مختارًا.

قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: يعرف حقيقة البصر، ويحيط بها، ويعلمها على ما هي عليه، لأنه خالقه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جمع بصيرة، وهي الدلالة.

قوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي: لا أستطيع حفظكم من عذاب الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا لأنك دارست من سبقوك من أهل الكتاب، وقارأتهم، وتعلمت منهم، كقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقال تعالى عن زعيمهم الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾، قال تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تُسبوا الأوثان، حتى لا يُسب الرحمن، وهو من باب سد الذرائع، والمصلحة الحاصلة من سب الأوثان مقابلة بمفسدة كبرى، وهي مقابلة المشركين بسب الواحد الأحد.

قوله: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: جهلًا واعتداء، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي: زينا لأهل الطاعة طاعتهم، ولأهل الكفر كفرهم، في هذه الأمة ومن قبلها من الأمم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: أيمانًا مؤكدة غليظة.

قوله: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: وما يدريكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم لا يصدقون بها؟

قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان، وتقليب الشّيء: تغييره من حال إلى حال، والتّقليب: التّصرّف، وتقليب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». رواه مسلم.

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَكْثَرُ مَا كَانَ -وَفِي رِوَايَةٍ: كَثِيرًا مِمَّا كَانَ- النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ: لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ». رواه البخاري.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: فرأوها عيانًا، على شكل معجزة، لقولهم لما سألوا: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، فبينت الآية كذبهم، وأنهم لا يطلبون الآيات ليؤمنوا.

قوله: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: لو أحيينا لهم ما مات من آبائهم وأجدادهم، فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل.

قوله: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي: وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق فعاينوهم وقابلوهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾، ومنه: قُبُل الرجل ودُبُره.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». رواه مسلم.

قوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر، وكُلُّ شَيْءٍ حَسَّنْتَهُ وزَيَّنْتَهُ وَهُوَ بَاطِلٌ فَهُوَ زُخْرُفٌ، وسمي الذهب زخرفًا لزينته، وزخارف الماء طرائقه.

قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: تميل للأكاذيب والأباطيل، فينخدعوا بما يروجه ويقوله شياطين الإنس والجن من الخرافات والأكاذيب، واللام لام كي، والصغو: الميل للشيء،

ومنه: أصغيت الإناء: إذا أملته ليجتمع ما فيه، وصغت النجوم: مالت للغروب، قال تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

وفي حديث كبشة بنت كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند أبي داود بسند صحيح: دَخَلَ، فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءًا، فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، فَأَصْغَى لَهَا الإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ. أي: أماله للهرة كي تشرب. وأصغت الناقة: إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئًا حين يشد عليها الرحل.

قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي: ويعملوا ويكتسبوا ويفعلوا، بتلك الأكاذيب والأباطيل بعد أن سمعوها ورضوا بها، كما قال ﷺ: «هَلْ فِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ لَمْ يُقَارِفِ اللَّيْلَةَ؟». رواه البخاري. أي: لم يجامع أهله، ويقال: خرج يقترف أهله أي: يكتسب لهم، واقترف كذبًا.

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وقد جاء في حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لَهُمْ صَخْرَةٌ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الحَفْرِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخَذَ المِعْوَلَ، وَوَضَعَ رِدَاءَهُ نَاحِيَةَ الخَنْدَقِ وَضَرَب، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فَنَدَرَ ثُلُثُ الحَجَرِ، وَسَلْمَانُ الفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ، فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَرْقَةٌ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فَنَدَرَ الثُّلُثُ الآخَرُ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةً يَرَاهَا سَلْمَانُ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾فَنَدَرَ الثُّلُثُ البَاقِي، وَبَرَقَ بَرْقَةً، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَجَلَسَ، قَالَ سَلْمَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُكَ حِينَ ضَرَبْتَ لا تَضْرِبُ ضَرْبَةً إِلاَّ كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا سَلْمَانُ رَأَيْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الأُولَى، رُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَا حَوْلَهَا، وَمَدَائِنُ كَثِيرَةٌ حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ. فَقَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا، وَيُغَنِّمَنَا ذَرَارِيَّهُمْ وَنخَرِّبَ بِأَيْدِينَا بِلادَهُمْ. قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ وَمَا حَوْلَهَا حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ يَفْتَحُهَا عَلَيْنَا وَيُغَنِّمَنَا ذَرَارِيَّهُمْ، وَنخَرِّبُ بِأَيْدِينَا بِلادَهُمْ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ ضَرَبْتُ الثَّالِثَةَ فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الحَبَشَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ القُرَى حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: دَعُوا الحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ» رواه النسائي بسند حسن.

قوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يُخَمِّنونَ، ويحدسون، ويقدرون، ومنه الخرص للنخيل، إذا حزره ليأخذ الخراج منه، فلا يقين في ذلك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ

إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ
وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ
لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا
فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي: اتركوا المعصية في السر والعلن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ؛ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ». متفق عليه، كما أنه أمر بترك قليل الإثم وكثيره، وصغيره وكبيره.

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: حتى وإن كان الذابح مسلمًا، إذا كان ذلك عمدًا، ويدل على ذلك حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ -وَفِي رِوَايَةٍ: الْمُعَلَّمَ- وَسَمَّيْتَ فَأَمْسَكَ وَقَتَلَ فَكُلْ». متفق عليه. وفي حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ الْمُعَلَّمِ فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ ثُمَّ كُلْ». متفق عليه.

وعن رافع بن خديج رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ فَكُلْ، لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ». متفق عليه، وقال النبي ﷺ للجن لما أتاهم: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ». رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. لكن إذا حصل الشك، فلم يعلم هل ذكر اسم الله عليه أم لا، وكان الذابح مسلمًا فالأصل براءة الذمة، يعني: التسمية، وعليه ينزل حديث عائشة رضي الله عنها لما ذكرت: «أَنَّ قَوْمًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ قَوْمًا -وَفِي رِوَايَةٍ: حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِشِرْكٍ- يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذَكَرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سَمُّوا اللهَ عَلَيْهِ وَكُلُوهُ». رواه البخاري؛ فأمرهم النبي ﷺ بالتسمية للاحتياط.

ومن أهل العلم من ذهب إلى استحبابه، وحمل هذه الآية على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ أي: أهل لغير الله به، وتكون الواو في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ حالية، أي: حال كونه فسقًا، ولا يكون فسقًا حتى يكون قد أهل به لغير الله.

وقد ذهب إلى القول الأول: مالك في رواية، وأحمد في رواية، والظاهرية.

وذهب إلى القول الثاني: الشافعي، ورواية عن مالك، ورواية عن أحمد.

وقيل بالتفصيل: إن تَرَكها عمدًا حرمت، وإن تركها نسيانًا حلت، وهو المشهور عن مالك وأحمد، وأبي حنيفة، وابن راهويه، وهذا القول هو القول الجدير بالأخذ به، وعدم تجاوزه، لحديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا عند ابن ماجه بسند جيد: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»؛ ولأن القول بهذا هو القول الذي يتمشى مع يسر الشريعة، ورفع الحرج عن أهله، أرأيت لو أن رجلًا ذبح ناقة ثمنها عشرة آلاف ريال وهو بحاجة ماسة إلى لحمها، ونسي أن يذكر اسم الله عليها، إما لانشغاله بغضب، أو مصيبة، أو نفع للإسلام والمسلمين، هل نقول له: ارمِ بهذه الذبيحة ليأكلها التراب، لا ريب أن القول بهذا يتنافى مع ما جاءت به الشريعة من رفع الحرج، والله أعلم.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡ﴾ أي: يوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: أتأكلون ممّا قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله؟ يعني الميتة، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية يقولون: «مَا ذَبَحَ اللهُ فَلَا تَاكُلُوا، وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ فَكُلُوا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَـٰهُ﴾ أي: كان ميتًا بالجهل، فأحييناه بالعلم، أو كان كافرًا فأحييناه بالإيمان، فالإيمان ينشئ في القلب حياة بعد الموت، ويرسل فيه نورًا بعد الظلمات، فيصير في حياة حسية ومعنوية يظهر فيها كل شيء على حقيقته، فيرى الخير خيرًا، ويرى الشر شرًا، فيحب الفضيلة والمعروف، ويكره الرذيلة والمنكر، وتتكشف له حقائق هذا الدين تكشفًا عجيبًا، كما تتكشف له حقائق الوجود وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون، وقد كانت قلوب المسلمين قبل هذا الدين مواتًا، وأرواحهم ظلامًا، ثم إذا قلوبهم ينفح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال، وتلتقط الشارد، وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: هدى، وإيمانًا، وقرآنًا، وحكمة، وبصيرة في الدار الدنيا يميز بها بين الحلال والحرام، ونور في الدار الآخرة، يسعى نوره بين يديه وعن يمينه، قال تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِم﴾ وقوله عن المنافقين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، وقد جاء في حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ» رواه الترمذي بسند صحيح.

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا﴾ أي: عظماء وسلاطين مترفين، وصناديد وجهاء يمنعون الناس عن اتباع الهدى، ويجادلون في الله، ويصدون عن سبيل الله، ويعاندون الرسل، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، و قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وخصَّ الأكابر بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والإفساد.

قوله: ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا﴾ أي: يخططوا ويدبروا ويخترعوا طرقًا ملتوية لإفساد العامة، كقوله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾، وكقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾، والمكر: الحيلة في مخالفة الاستقامة وأصله الفَتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة، أي: يصرف عنها.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ قال تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ يعنون: لولا نُزل هذا القرآن على رجل عظيم مبجل من مكة أو من الطائف استكبارًا وغرورًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: من هو أهل للرسالة.

قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ أي: ذل دائم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ

عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: يفسح ويوسع له في صدره، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وشرحت الأمر: بينته وأوضحته، وأمارات انشراح الصدر للإسلام: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت.

قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ أي: لا يتسع لشيء من الهدى.

قوله: ﴿حَرَجًا﴾ أي: لا يخلص إليه شيء من الإيمان، وهو من أضيق الضيق.

قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في حرجه وشدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق.

قوله: ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يلقي الله العذاب على الذين لا يؤمنون بآياته.

قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: الجنة، ففيها السلامة من الآفات.

قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: أغويتم كثيرًا من البشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: الذين أطاعوهم.

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: ربنا انتفع واستمتع بعضنا ببعض، فاستمتاع الجن من الإنس أنهم تلذذوا بطاعة الإنس لهم، وأوقعوهم في الكهانة والسحر والأراجيف، وتلذذ الإنس بالجن قبولهم للإغواء، ووقوعهم في الزنا والخمر، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

قوله: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: الموت.

قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، وقد شاء الله ﷻ أن يمكثوا فيها خالدين فيها أبدًا، كما قررته الآيات الأخرى.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ أي: تهديد للظالم، إن لم يمتنع عن ظلمه سلَّط الله عليه

ظالمًا أقوى منه، قال الفضيل: إذا رأيت ظالمًا ينتقم من ظالم فقف وانظر فيه متعجبًا. قال الشاعر:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُبلى بِظَالِمِ

وقد قيل في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نكله إلى ما وكل إليه نفسه، وقيل: إن الله ﷻ إذا أراد بقوم شرًا ولى أمرهم شرارهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ فالرسل من الإنس، والنذر من الجن، والرسل إنما يكونون من الإنس فقط بالاتفاق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا سورة الرحمن على الجن، قال ﷺ: «لَقَدْ قَرَأتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ: كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا: لاَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ». رواه الترمذي بسند لا بأس به.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: من أجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقيل: إن لم يكن يعاجلهم بعقوبة الشرك حتى يبعث إليهم رسولًا، فينذرهم ويحذرهم.

قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك من أشرك منهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي: من الجن والإنس، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فلا يعاقب أحد في الآخرة إلا بذنبه، ولا يستوي قليل الشر مع كثيره، ولا كثير الخير مع قليله.

قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه أن الله تبارك وتعالى قال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». رواه مسلم.

قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أي: يهلككم، ويستأصلكم.

قوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: مثل ما أنشأكم، كقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾، وكقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾، وقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وقد أنجز الله وعده، ففتحت الأمصار بعد وفاته ﷺ وفي أيام خلفائه الراشدين، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: عبدوا وأشركوا مع الله تعالى مما خلق وبرأ وأنشأ من مخلوقاته.

قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ﴾ أي: من الزرع والثمار.

قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ أي: جزءً وقسمًا، كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، وكانوا يحرمون البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه، قربة لله.

قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: في قسمتهم، فمدبر كل شيء ومليكه، وخالق كل شيء ومدبره هو الله خالقهم سبحانه، ومع فساد أصل القسمة جاروا فيها، كقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾ أي: قتل البنات وهن أحياء مخافة الفقر، والسبي، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾.

قوله: ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ أي: الشياطين، وسموا بذلك لأنهم أطاعوهم في معصية الله، فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم، وزينوا لهم أعمالهم فاتبعوهم، وقيل: كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله: لئن ولد له كذا وكذا غلامًا لينحرن أحدهم.

قوله: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ أي: لكي يهلكوهم، فاللام لام كي.

قوله: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ أي: يشككونهم في دينهم، وكانوا على دين إسماعيل، ويخلطون عليهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾

قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ أي: حرام، ممنوعة على غير الآلهة، وأصله المنع، وسمي العقل حجرًا: لمنعه عن القبائح، قال تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ والحجر: أنثى الفرس، والحجر: القرابة، والمعنى: أنهم احتجزوا واحتجروا أموالهم لآلهتهم لا يطعمها إلا من يشاؤون، كقوله

تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: ما في بطون هذه البحائر والسوائب من اللبن والنسل، فاللبن يشربه ذكرانهم خاصة، ويمنعه إناثهم، وإذا ولدت الشاة ذكرًا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وهذا نوع آخر من أنواع معتقداتهم القبيحة.

قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: كذبهم وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾. رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَأَلْتُ، أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَعْظَمُ-؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. -وَفِي رِوَايَةٍ: قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ! - قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ... الحديث». متفق عليه.

قوله: ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جهالة وسفاهة، لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم.

قوله: ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: البحيرة والسائبة التي أحلها الله لهم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: بساتين مرفوعات، وقيل: ما انبسط على الأرض مما يفرش مثل الكروم والزروع والبطيخ.

قوله: ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: متروكات على وجه الأرض لم ترفع.

قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: في اللون، والطعم، والحجم، والرائحة، فـ (أُكُله) مبتدأ و (مختلفًا) نعت، ولكنه لما تقدم عليه وولي منصوبًا نصب، كما تقول: عندي طباخًا غلام. قال الشاعر:

الشَّـرُّ مُنْتَشِـرٌ يَلْقَـاكَ عَـنْ عُـرُضٍ ... وَالصَّـالِحَاتُ عَلَيْهَـا مُغْلَقًـا بَـابُ

وقيل: مختلفًا نصب على الحال.

قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي: متشابهًا في اللون والشكل، وغير متشابه في

الطعم والحجم، وقد جاء في حديث النَّوَّاس بن سمعان ﵁ في آخر الزمان عندما ينْزل عيسى ﵇ فيدعو الله ﷻ، فترسل السماء مطرًا فيغسل الأرض، ويبارك الله فيها، قال ﷺ: «فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا». رواه مسلم، هذا في الدنيا، فما بالك في رمان الجنة؟

وقال علي بن أبي طالب ﵁ قال: كُلُوا الرُّمَّانَ بِشَحْمِهِ، فَإِنَّهُ دِبَاغُ الْمَعِدَةِ. رواه أحمد.

قوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي: جمع ثمره، وأما قبل الحصاد فلا تجب عليكم الزكاة فيه، وقد بينت السنة متى يكون العشر، ومتى يكون نصف العشر فإن سقي بالأنهار والمطر ونحوها، كان الأول، وما سقي بالساقية كان الثاني إذا بلغ نصابًا، قال ﷺ: «لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنَ التَّمْرِ صَدَقَةٌ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ مِنَ الوَرِقِ صَدَقَةٌ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ مِنَ الإِبِلِ صَدَقَةٌ». متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ﵁. والوسق: ستون صاع، والصاع: أربعة أمداد.

قوله: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي: لا تمنعوا الصدقة كليةً، ولا تصدَّقوا بجميع أموالكم، فالإسراف في اللغة الخطأ، والإسراف في النفقة التبذير، وكل ما جاوز أمر الله فهو إسراف، وكل ما قصر عن حق الله فهو إسراف، وقيل: الإسراف التبذير والإفراط، والسَّرف: الغفلة والجهل، ورجل سَرِف الفؤاد، أي: مخطئ الفؤاد غافل، قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وعن ابن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا، مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ» رواه النسائي بسند حسن.

وقال ابن عباس ﵄: كُلْ مَا شِئْت، وَاشْرَبْ مَا شِئْت، مَا أَخْطَأَتْك اِثْنَتَانِ: سَرَف، أَوْ مَخِيلَة. رواه البخاري معلقًا.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًا﴾ أي: ما يحمل متاعكم، كالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش: فهو ما يُفرش للذبح، كالغنم، وكل ما لا يحتَمِل حَمل المتاع والعمل، قال عبد الله بن مسعود ﵁: الحمولة: ما حمل من الإبل، والفرش: الصغار. صححه الحاكم والذهبي، وسميت بالفرش للطافة أجسامها وصغرها، وقربها من الفرش، وهي الأرض المستوية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: أنشأ ثمانية أنواع أحل لكم أكلها، وقيل: منصوب على البدلية من حمولة وفرشًا، وهو منصوب بفعل مضمر، وقيل: منصوب بـ (كلوا).

قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: ذكر وأنثى الضأن، وهي ذوات الصوف من الغنم، كالنعجة، والكبش، وهي جمع ضائن، والأنثى ضائنة والجمع ضوائن، وقيل: هو جمع لا واحد له، وقيل في جمعه: ضئيين.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ أي: بيان لما حرمه الله تعالى عليهم، والآية مكية، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة المائدة وزيد في المحرمات، كالمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما لم يُذَكَّى، والخمر، ولحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير، وكل ما كان جوهره خبيثًا، أو فاسقًا كالحمار، والقرد، والكلب، والحشرات، والفئران، والقنافذ، والعقارب، والحيات، والضفادع، والأوزاغ، وحرم البغل؛ لأنه متولد من بين الحمار والفرس، وأحدها مأكول والآخر محرم، فغلب حكم التحريم؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا في عين واحدة غلب حكم التحريم.

وفي الآية دلالة على أن التحريم إنما يُعلم بالوحي لا بالهوى، وأن الله تعالى هو المشرع للأحكام، ورسول الله ﷺ مبلِّغ عن ربه ﷻ ذلك التشريع.

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي: قذرٌ ونجس، وقد جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَهُ جَاءٍ، فَقَالَ: أُكِلَتِ الْحُمُرُ. (ثُمَّ جَاءَهُ جَاءٍ، فَقَالَ: أُكِلَتِ الْحُمُرُ). ثُمَّ جَاءَهُ جَاءٍ، فَقَالَ: أُفْنِيَتِ الْحُمُرُ. فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فِي النَّاسِ: إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا رِجْسٌ. فَأُكْفِئَتِ الْقُدُورُ، وَإِنَّهَا لَتَفُورُ بِاللَّحْمِ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي: طيبات كانت مباحة لهم من قبل، عقوبة لهم على تحايلهم وتمردهم على أحكام الله ﷻ، ومن هذه الطيبات التي حرِّمت عليهم: أكل كل ذي ظُفر من الحيوانات التي لم تفرج قوائمه، ولم يكن مشقوق الأصابع، وإنما هي متصلة الأصابع، كالجمل، والنعام، والأوز، والبط، وقد جاء هذا التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما. رواه ابن أبي حاتم.

فلا تأكل اليهود الإبل، ولا النعامة، ولا الوز، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته، أما ما انفرج أكلته من

البهائم والطيور.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: وحرَّمنا على اليهود أكل شحوم البقر، وشحوم الغنم، فلم يلتزموا بذلك كعادتهم، واحتالوا على أحكام الله ﷻ، فلم يأكلوا الشحم مباشرة، وإنما أكلوه بطريقة ملتوية، فقد جاء في حديث جابر ﵁: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ! فَقَالَ: لَا؛ هُوَ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ؛ إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ». متفق عليه.

قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي: استثنى الله ﷻ من تحريم الشحوم ما عَلَق بالظهر منها، كشحم الإلية؛ لأنه شحم على العصعص، فهو حلال عليهم.

قوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أي: حلال عليهم، والحوايا: المباعر، أي: الكروش والمصارين، والأمعاء، سميت بذلك لاجتماع البعر فيها، وواحدها حاوياء، وحوية، وَهِيَ مَا تَحَوَّى وَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ مِنَ الْبَطْنِ.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: كتبنا على اليهود هذه الأحكام المشددة بسبب ظلمهم وبغيهم، وفجورهم، وتحايلهم، كقتلهم أنبياء الله تعالى، وأكلهم الربا، واستحلال أموال الناس بالباطل، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: احتجوا بكفرهم وشركهم على إرادة الله ﷻ، وأن شركهم وضلالهم أمر من الله، فهو الذي شاء ذلك وأراده، ولو أرادوا الاستقامة ما استطاعوا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، وقد سمع ابن عباس ﵄ رجلًا يقول: الشر ليس بقدر، فقال: بيننا وبين أهل القدر: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ

إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. صححه الحاكم.

قوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقبلوا أقرأ وأقص عليكم حقًا لا كذبًا ولا ظنًا، بل وحيًا من عند الله.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فالله رازقكم بسببهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: حتى يصير بالغًا، رشيدًا، قويًا، مدعومًا بالمعرفة والتجربة، وقد قيل: إن انتهاء الكهولة فيها مجتمع الأشد، وهي ما بين ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً إِلَى ثلاثِينَ، وأصله من شد النهار إذا ارتفع، والمراد بالأشد في هذه الآية هي ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل وترك البخس، وقد توعد الله تعالى على من فعله بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحابِ الْمِكْيالِ وَالْمِيزانِ: «إِنَّكُمْ قَدْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ هَلَكَتْ فِيهِ الأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ» رواه الترمذي وصححه موقوفًا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ

الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ» حديث حسن، رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ جاء في حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ فَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾» رواه ابن ماجه بسند صحيح.

ومن السبل: البدع، والشيع من سائر الملل الضالة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾.

وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أنزلنا التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، و (ثم) ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب، كما قال الشاعر:

قُــلْ لِمَــنْ سَــادَ ثُــمَّ سَــادَ أَبُــوهُ ... ثُــمَّ قَــدْ سَــادَ قَبْــلَ ذَلِـكَ جَــدُّهُ

وكثيرًا ما يذكر سبحانه القرآن والتوراة في آية واحدة، كقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، وقال عن الجن: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾.

قوله: ﴿تَمَامًا﴾ أي: كاملًا جامعًا لما يحتاج إليه في شريعته، كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾.

قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ أي: جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فمن أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة، (فالذي) مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ أي: كخوضهم. قال الشاعر:

فَثَبَّـتَ اللهُ مَـا آتـاكَ مِـنْ حَسَـنٍ ... فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْـرًا كَالَّـذِي نُصِـرُوا

قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: التوراة والإنجيل، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

قوله: ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: على اليهود والنصارى، ولم ينْزل علينا كتاب.

قوله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: لا نعرف تلاوة كتبهم وفهم ما يقولون؛ لأنها لم تكن بلغتنا.

قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: في الحق وأسرع منهم بالإيمان والإجابة، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾.

قوله: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض، وصرف الناس عنها.

قوله: ﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: أسوأ العذاب، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: بعض أشراط الساعة، وقد جاء في حديث صفوان بن عسَّال المرادي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا عَرْضُهُ، خَلَقَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ، لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ الْآيَةَ». رواه الترمذي بسند جيد.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أبوَابٍ، سَبعَةٌ مُغلَقَةٌ، وَبابٌ مَفتُوحٌ لِلتَّوبَةِ». رواه الحاكم والطبراني بسند جيد.

قوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: عند حضور

الملائكة لقبض الأرواح في حال الغرغرة، ولا عند طلوع الشمس من مغربها، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾». متفق عليه.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ». رواه مسلم.

وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ. فَتَرْجِعُ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ. فَتَرْجِعُ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي، أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾». رواه مسلم.

قال النحاس: في هذا شيء دقيق من النحو ذكره سيبويه، وذلك أن الإيمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فأنث الإيمان إذ هو من النفس وبها، والحكمة في هذا أنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إن وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق ونحوه.

قوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ وهم اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: بريء منهم ومن أفعالهم، كقوله ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». رواه مسلم. قال الشاعر:

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا ... فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي

قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ جاء في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة فرض

الصلاة في ليلة الإسراء، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: «فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا؛ فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ. فَرَجَعَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: كَيْفَ فَعَلْتَ؟ فَقَالَ: خَفَّفَ عَنَّا: أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا». رواه البخاري.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ». رواه مسلم. والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ أي: في المشركين وأهل البدع والملل في هذه الأمة ومن قبلها، وقد جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عز وجل قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾، وعن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: كَبَّرَ ثُمَّ- قَالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَوَّلُ- الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ. لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». رواه مسلم.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ذَبَحَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الذَّبْحِ كَبْشَيْنِ، أَقْرَنَيْنِ، أَمْلَحَيْنِ، مُوجَأَيْنِ، فَلَمَّا وَجَّهَهُمَا، قَالَ: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ، عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ، بِاسْمِ اللهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ. ثُمَّ ذَبَحَ». حديث حسن رواه أبو داود.

قوله: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا﴾ قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: إلا أصحاب اليمين، فإنه يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم، وقراباتهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ أي: ما نقصنا الآباء بإلحاق الأبناء.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ أي: قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا

تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: تعمرونها جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وخلفًا بعد سلف، بعد أن أهلك أمما قبلكم، كقوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾. قال الشاعر:

تُصِيبُهُمُ وَتُخْطِئُنِي المَنَايَا ... وَأَخْلُفُ فِي رُبُوعٍ عَنْ رُبُوعِ

قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: في الأرزاق والعقول، والفقر والغنى، والقوة والضعف ونحو ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد، كقوله: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا سُخۡرِيًّا﴾، وكقوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلًا﴾.

قوله: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أي: ليختبركم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٍ فِتۡنَةً﴾ وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». رواه مسلم.

تم تفسير سورة الأنعام والحمد لله.

  

سُورَةُ الأَعْرَافِ

وهي مكية إلا ثمان آيات، وهي قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

وقد جاء عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ قَالَ: «قَالَ لِي زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه: مَا لَكَ تَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارٍ وَقَدْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ بِطُولَى الطُّولَيَيْنِ؟». رواه البخاري، وفي رواية عند أبي داود: «قَالَ: قُلْتُ: مَا طُولَى الطُّولَيَيْنِ؟ قَالَ: الْأَعْرَافُ».

وعن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي صَلاةِ المَغْرِبِ بِسُورَةِ الأَعْرَافِ، فَرَّقَهَا فِي رَكْعَتَيْنِ». رواه النسائي بسند جيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾.

قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي: فلا يضيق صدرك بالإبلاغ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أي: وكثير من القرى أهلكناها ودمرناها و (كم) هنا للتكثير، كما أن (رُبّ) للتقليل، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾.

قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي: المبيت بالليل، ومنه البيت، لأنه يُبات فيه.

قوله: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ أي: من القائلة، وهي القيلولة، وهي نوم نصف النهار، والمعنى: جاءهم عذابنا وهم غافلون إما ليلًا، وإما نهارًا.

قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾ أي: ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب،

ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الأقوام الذين كذبوا برسلهم الذين أرسلوا إليهم، أو: لنسألن الأنبياء يوم القيامة عن أقوامهم ليشهدوا عليهم أنهم بلغوهم رسالة ربهم، قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، وفي الآية دليل على أن الكافرين يحاسبون، وفي القرآن: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالمقصود: إذا استقروا في العذاب؛ لأن الآخرة مواطن، موطن يسألون فيه للحساب، وموطن لا يسألون فيه، وسؤالهم أمام الأشهاد للتقريع والتوبيخ والفضح.

قوله: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الملائكة الذين أُرسلوا إلى الأنبياء، وكذا نسأل الأنبياء الذين أرسلوا إلى الأمم.

قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾، وقد جاء في حديث سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: يَا رَبِّ، لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي. فَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: سُبْحَانَكَ، مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى. فَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِي. فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ، مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ». صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وهناك أقوال في الوزن، فقيل كما سبق: توزن الأعمال لأنها تتحول إلى أجسام، وقد جاء في حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مجيء القرآن شفيعًا لأصحابه، ومجيء سورة البقرة، وآل عمران كأنهما غمامتان أو فرقان من طير صواف، قال رسول الله ﷺ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ سَلَّامٍ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ». رواه مسلم.

وعن بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارَكَ». رواه ابن ماجه بسند حسن.

وفي حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ الطَّوِيل فِي صِفَةِ المَسْأَلَةِ فِي القَبْرِ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»، وَقَال فِي حَقِّ الكَافِرِ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ». رواه أحمد بسند جيد.

وقيل: الوزن لكتاب الأعمال، كما جاء في حديث ابن عمرو ﭭ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ! قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ؛ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ». حديث صحيح رواه الترمذي.

وقيل: يوزن صاحب العمل، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾». متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال رسول الله ﷺ -للصحابة عندما ضحكوا من دقة ساقي ابن مسعود ﷺ-: «لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أُحُدٍ». حديث حسن، رواه أحمد من حديث علي ﷺ.

والصحيح أن الجميع يوزن وزنًا حقيقيًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي: لآدم، وهو سؤال توبيخ، وفي سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ

أَن تَسْجُدَ﴾. قال الشاعر:

أَبَـى جُـودُهُ لَا الْبُخْـلُ فَاسْـتَعْجَلَتْ بِـهِ نَعَـمْ مِـنْ فَتًـى لَا يَمْنَـعُ الْجُـودَ نَائِلُـهُ

قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أي: هذه علة الامتناع عن السجود، حيث نظر إبليس إلى أصل خلقه من النار، وأصل خلق آدم من طين، فقاس قياسًا فاسدًا، وظن أن النار خير وأشرف من الطين، وتعالى وتكبّر على أمر ربه ﷻ له بالسجود، فعصاه بعدم تنفيذ أمره، ونسي أن التراب محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار محل العذاب، وقد جاء عن الحسن بن أبي الحسن قال: قَاسَ إِبْلِيسُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ. وزاد ابن سيرين: وَمَا عُبِدَتْ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ إِلَّا بِالمَقَايِيسِ. وهذا في القياس المذموم، وهو أن يقيس الدين أو النص الشرعي برأيه، أما القياس الذي تحققت شروطه فلا شك أنه محمود.

وفي الآية دليل على أن إبليس اللعين من الجن لا من الملائكة، إذ أن الملائكة مخلوقة من نور، وهو مخلوق من نار كباقي الجن، وقد جاء في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». رواه مسلم.

قال ابن القيم في تفنيد دعوى إبليس أن النار أفضل وأشرف من الطين: وذلك من وجوه:

أولًا: التراب طبعه الكمون، والنار طبعها الطيشان والإحراق.

ثانيًا: التراب مادة الحيوان والنبات، والنار بخلاف ذلك، بل تحرق ذلك كله.

ثالثًا: التراب لا يعيش أحد بدونه، بخلاف النار فبالإمكان الاستغناء عنها.

رابعًا: التراب يؤدي إليك أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، والنار تفسده وتمخضه.

خامسًا: التراب هو مهبط الوحي والرسالات ومسكن الأنبياء والأولياء، والنار مسكن الأعداء في دار القرار.

سادسًا: التراب فيها مسكن بيت الله الحرام.

سابعًا: التراب لا يفتقر قوامها ونفعها إلى النار، بخلاف النار فهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها.

ثامنًا: التراب يفسد صورة النار ويبطلها ويقهرها وإن علت عليه.

تاسعًا: بين التراب والرحمة موالاة، وأما النار فبينها وبين الرحمة معاداة.

عاشرًا: النار تطفأ عند التكبير، والأرض تبتهج بذلك، وتشهد لصاحبه يوم القيامة.

قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار، وقيل: فبما أهلكتني بلعنك إياي ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: هلاكًا، وقيل: فبما خيبتني من رحمتك، وقيل: فبما أفسدت

عيشتي، والإغواء: إيقاع الغي في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: الموصل إلى الجنة، وقال عنه في سورة (ص): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وعن سبرة بن أبي الفاكه ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ، وَدِينَ آبَائِكَ، وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ؟ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ؟ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ». رواه النسائي بسند صحيح.

قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مذمومًا مُحَقَّرًا ممقوتًا.

قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: بصوت خفي، والوسواس: اسم للشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

قوله: ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾ أي: ليظهر لهما، واللام لام العاقبة، كما قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقيل: لام (كي).

قوله: ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: ما غُطي وكان مستورًا من عوراتهما، وسمي الفرج عورة؛ لأنه إظهاره يسوء صاحبه، ودل هذا على قبح كشفها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ». رواه مسلم، والإفضاء: اجتماع الأبدان وتلامسها.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: حتى لا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾.

قوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ أي: كراهية أن تكونا من المخلّدين في الجنة.

قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: أقسم وحلف بالله العظيم، وكان بعض العلماء يقول: من خدعنا بالله انخدعنا. وفي حديث أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خِبٌّ

لَئِيمٌ». حديث حسن، رواه أبو داود. قال الشاعر:

إِنَّ الْكَــــرِيمَ إِذَا تَشَـــاءُ خَدَعْتَــهُ وَتَـرَى اللَّئِــيمَ مُجَرِّبًـا لَا يُخْــدَعُ

قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: استدرجهما وخدعهما وجرأهما على المعصية بمكر ودهاء؛ لأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ظنَّ أنه لن يحلف أحد بالله كاذبًا.

قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أخذا يقطعان الورق، ورقة على ورقة، ويلزقانه ليسترا به، بعد أن كانت كسوتهما من حلل الجنة، وقد ثبت هذا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومنه خصفت النعل، إذا رقعته، وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند الطبري: أَخَذَا مِن وَرَقِ التِّينِ، وعن وهب بن منبه -عند الطبري- قال: كان لباس آدم وحواء عليهما السلام نورًا على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوءاتهما.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أي: خلقنا لكم، ووهبنا لكم، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

قوله: ﴿لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ أي: يستر عوراتكم، واللباس ضرورة، وقد جاء في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي. ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ، فَتَصَدَّقَ بِهِ؛ كَانَ فِي كَنَفِ اللهِ، وَفِي حِفْظِ اللهِ، وَفِي سِتْرِ اللهِ حَيًّا وَمَيِّتًا». رواه الترمذي بسند لا بأس به. وفي رواية: «لا يَكْسُوهُ إِلا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلا كَانَ فِي جِوَارِ اللهِ، وَفِي ضَمَانِ اللهِ، مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهَا سِلْكٌ وَاحِدٌ، حَيًّا وَمَيِّتًا». حديث حسن رواه الحاكم.

وفي الآية دليل على وجوب ستر العورة، والعورة من السُّرَّة إلى الركبة، قال الشافعي: ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح، وأما الفخذ فهو عورة، لقوله ﷺ لجرهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَخِذَ

عَوْرَةٌ؟». رواه أبو داود بسند حسن.

وأما حديث أنس ﵁: «فَأَجْرَى نَبِيُّ اللهِ ﷺ فِي زُقَاقِ خَيْبَرَ، وَإِنَّ رُكْبَتِي لَتَمَسُّ فَخِذَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ وَفِي رِوَايَةٍ: وَإِنَّ قَدَمِي لَتَمَسُّ قَدَمَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ حَسَرَ الْإِزَارَ عَنْ فَخِذِهِ حَتَّى إِنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ فَخِذِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ». متفق عليه. فهو مفسر برواية مسلم وهي قوله: «وَانْحَسَرَ الْإِزَارُ». يعني: بسبب سرعته وهو على الخيل.

وأما المرأة فكلها عورة، لقوله ﷺ كما في حديث ابن مسعود ﵁: «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ». رواه الترمذي بسند صحيح. ولكن عند أولادها أو أهلها المحارم فيغتفر بعض الأشياء التي لا تثير غريزة، أو تهيج شهوة، أو تشد العين، كالوجه مع الرأس، واليدين والرجلين.

قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ أي: لباسًا يزينكم ويجملكم، وقيل: المال وما يتجمل به من الثياب والزيادات، وهو في كلام العرب الأثاث وما ظهر من ثياب، فريش الطائر ما ستره الله ﷻ به، والذي عليه أكثر أهل اللغة: أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة.

قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: الإيمان والعمل الصالح، وهو خير لباس.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي: جنوده وذريته، وقد جاء في حديث علي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمُ الْخَلَاءَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللهِ». رواه الترمذي بسند لا بأس به.

وعن زيد بن أرقم ﵁، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضَرَةٌ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن عائشة ﵂: أنها حجّت مع عمر آخر حجة حجّها، فارتحل من الحصبة آخر اللّيل، فجاء راكب فسأل عن منزله فأناخ به ورفع عقيرته يتغنى:

عليك سلام من أمير وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزّق

الأبيات في رثاء عمر.

قالت عائشة: فنظرنا مكانه فلم نجد أحدًا، فحسبته من الجنّ. قال ابن حجر في الإصابة: رواه الفاكهيّ بإسناد صحيح.

وعن يحيى بن عبد الرحمن بْن حاطب، قَالَ: لما افتتح عقبة بن نَافِع إفريقية وقف على القيروان، فَقَالَ: يَا أهل الوادي، إنا حالّون إن شاء الله تعالى بِهِ فاظعنوا- ثلاث مرات-، قَالَ: فما رأينا حجرًا ولا شجرًا إلا تخرج من تحته حية أو دابة حَتَّى هبط بطن الوادي، ثُمَّ قَالَ: انزلوا بسم الله. رواه ابن عبد البر في

الاستيعاب.

قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي: للطافة أجسادهم، وانعدام ألوانهم، وفيه دلالة على أن الجنَّ لا يُرَون بأشكالهم الحقيقية، ومَن قال خلاف ذلك فقد كذَّب القرآن العظيم، ولكن قد يرون إذا نقلوا عن صورهم، فقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة، ففي حديث أبي هريرة ﵁ قال: «وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ... فَذَكَرَ الحَدِيثَ، وفيه: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا؛ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ-، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ. تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ». رواه البخاري معلقًا.

وعن أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- (وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي فَشَدَّ عَلَيَّ)؛ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَذَعَتُّهُ-، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ هَبْ ﴿لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾. فَرَدَّهُ خَاسِئًا». متفق عليه.

وفي حديث أبي الدرداء ﵁: «ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقيل: كما بدأكم ضعافًا أعادكم ضعافًا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾.

قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويختار، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وعن سهل بن سعد ﵄: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. (وَفِي رِوَايَةٍ: وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا)». متفق عليه.

وعن ابن مسعود ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ

النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ». رواه الترمذي بسند جيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أي: استروا عورتكم، والبسوا أفضل ثيابكم عند الصلاة، وعند الطواف بالكعبة، فقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ، فَتَقُولُ: مَنْ يُعِيرُنِي تِطْوَافًا؟ تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا، وَتَقُولُ:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾». رواه مسلم.

تطوافًا: أي: ثوبًا تلبسه عند الطواف.

وعَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، وَكَانَتِ الْحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ، يُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وَتُعْطِي الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الْحُمْسُ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا». متفق عليه، فلما جاء الإسلام قضى على هذه الجاهليات، وأذَّنَ مؤذن رسول الله ﷺ وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَنْ لا يَطُوفَ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ،

وَلا يَحُجُّ بَعْدَ هَذا العَامِ مُشْرِكٌ». متفق عليه.

وعن ابن عباس ﵄ قال: «كَانَتْ قُرَيْشٌ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَهُمْ عُرَاةٌ يُصَفِّرُونَ وَيُصَفِّقُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾، فَأُمِرُوا بِالثِّيَابِ». رواه الطبراني وصححه ابن حجر.

وعن ابن سيرين: أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ، اشْتَرَى رِدَاءً بِأَلْفٍ فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ. رواه الطبراني.

قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ وَلَا تُسۡرِفُوٓا۟﴾ أي: من غير ترفُّهٍ، والإسراف: مجاوزة الحدّ في كلّ فعل أو قول، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾، فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد، ويضر بالمعيشة، فيؤدي إلى الإتلاف، وقد قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية، هي قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ وَلَا تُسۡرِفُوٓا۟﴾.

وعن ابن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا، مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ». حديث حسن رواه النسائي.

وقال ابن عباس ﵄: كُلْ مَا شِئْت، وَاشْرَبْ مَا شِئْت، مَا أَخْطَأَتْك اِثْنَتَانِ: سَرَف، أَوْ مَخِيلَة. رواه البخاري معلقًا.

وكانت العرب تمتدح بقلة الأكل، وتذم بكثرته، وقد جاء عن عائشة ﵂ في حديث أم زرع وفيه: «ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ». متفق عليه.

قال حاتم الطائي:

فَإِنَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وَفَرْجَكَ نَالَا مُنْتَهَى الذَّمِّ أجمعا

وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ». متفق عليه.

قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ عن عمر ﵁ قال: إِذَا وَسَّعَ اللهُ فَأَوْسِعُوا، جَمَعَ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ، صَلَّى رَجُلٌ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ، فِي إِزَارٍ وَقَمِيصٍ، فِي إِزَارٍ وَقَبَاءٍ، فِي سَرَاوِيلَ وَرِدَاءٍ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَمِيصٍ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَبَاءٍ، فِي تُبَّانٍ وَقَبَاءٍ، فِي تُبَّانٍ وَقَمِيصٍ. قَالَ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: فِي تُبَّانٍ وَرِدَاءٍ. رواه البخاري.

ومن أفضل الزينة البياض، كما قال النبي ﷺ في حديث ابن عباس ﵄: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، وَإِنَّ خَيْرَ أَكْحَالِكُمُ الإِثْمِدُ: يَجْلُو الْبَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعَرَ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن ابن عمر ﵁ قال: «رَأَى عُمَرُ حُلَّةً -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ إِسْتَبْرَقٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: سِيَرَاءَ- عَلَى رَجُلٍ تُبَاعُ -وَفِي رِوَايَةٍ: عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ-، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْتَعْ هَذِهِ الْحُلَّةَ؛ تَلْبَسْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ:

لِلْعِيدِ-، وَإِذَا جَاءَكَ الْوَفْدُ. فَقَالَ: إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ». متفق عليه. فما أنكر عليه مبدأ التجمل، وإنما أنكر كونها حريرًا.

وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد، وكان ثوب أحمد بن حنبل، يشترى بنحو دينار، وقد قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَ الرَّجُلُ خُرَيْمٌ الأَسَدِيُّ لَوْلاَ طُولُ جُمَّتِهِ وَإِسْبَالُ إِزَارِهِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ خُرَيْمًا، فَعَجِلَ، فَأَخَذَ شَفْرَةً، فَقَطَعَ بِهَا جُمَّتَهُ إِلَى أُذُنَيْهِ، وَرَفَعَ إِزَارَهُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ. ثُمَّ مَرَّ بِنَا يَوْمًا آخَرَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كَلِمَةً تَنْفَعُنَا وَلاَ تَضُرُّكَ. فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ، حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفُحْشَ، وَلاَ التَّفَحُّشَ». حديث حسن رواه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ». حديث حسن رواه أبو داود.

قوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أي: المستلذات من الطعام الحلال، وأما قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو محمول -والله أعلم- على الإسراف، والتبذير، والتوسع، الزائد، والمباهاة بذلك كما يفعله أولوا النعمة والثراء، وقد كان رسول الله ﷺ: «يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَيُحِبُّ الْعَسَلَ». متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ الْبِطِّيخَ بِالرُّطَبِ، فَيَقُولُ: نَكْسِرُ حَرَّ هَذَا بِبَرْدِ هَذَا، وَبَرْدَ هَذَا بِحَرِّ هَذَا». رواه أبو داود بسند صحيح.

وفي حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ الرُّطَبَ بِالْقِثَّاءِ». متفق عليه. وفي حديث أنس رضي الله عنه: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرُّطَبِ وَالْخِرْبِزِ». رواه النسائي وصححه ابن حجر. والخربز نوع من البطيخ، كالشمام.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ». متفق عليه، أي: لحمه، كما كان يعجبه الخل، كما عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، ويحب الدُّباء، كما عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه، ويحب الزُّبد والتمر، كما عند أبي داود بسند جيد من حديث ابني بسر السُّلَميَّيْنِ.

قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: للمؤمنين لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فاجتمع للمؤمنين الزينة والطيبات في الدنيا والآخرة، وقد جاء في حديث مالك بن نضلة رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ

فَقَالَ: أَلَكَ مَالٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قال: مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ قَالَ: قَدْ آتَانِي اللهُ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ! قَالَ: فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن أنس ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرَّ فِي طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَجَدُوا مِنْهُ رَائِحَةَ الطِّيبِ وَقَالُوا: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي هَذَا الطَّرِيقِ». رواه البزار وصححه ابن حجر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى عَلَى عُمَرَ قَمِيصًا أَبْيَضَ، فَقَالَ: ثَوْبُكَ هَذَا غَسِيلٌ أَمْ جَدِيدٌ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ غَسِيلٌ. قَالَ: الْبَسْ جَدِيدًا، وَعِشْ حَمِيدًا، وَمُتْ شَهِيدًا». رواه ابن ماجه بسند جيد. ولكن يقال: بتجنب ثياب الشهرة، قال ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثَوْبَ مَذَلَّةٍ-، ثُمَّ تُلْهَبُ فِيهِ النَّارُ». حديث حسن رواه أبو داود.

كما يقال بالاعتدال، وترك المفاخرة عمومًا في كل شيء من أغراض الدنيا، وقد جاء في معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لِلَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا». رواه الترمذي بسند حسن.

ولكن لا يصل به الأمر إلى الإعراض عن الزينة المطلوبة، وقد جاء في حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَلِبَاسَ الرُّهْبَانِ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَهَّبَ أَوْ تَشَبَّهَ فَلَيْسَ مِنِّي». رواه الطبراني وقال ابن حجر: إسناده لا بأس به. وأما الكافرون فحصل لهم شيء من هذا في الدنيا، حتى إذا أفضوا إلى الآخرة لم يكن لهم فيها نصيب.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: ما كان منها مخفيًا في السر، أو ظاهرًا في العلن.

قوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي: المعصية، وعلى رأس ذلك الخمر. قال الشاعر:

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُول

وأما حقيقة الإثم فكما سبق هو جميع المعاصي. قال الشاعر:

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشَدُهُ ... تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الإِثْمُ

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يصيبهم حظهم مما كتب لهم من عمل في اللوح المحفوظ، من الرزق، والشقاوة، والسعادة، ويدل على ذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «ثُمَّ يُبْعَثُ

إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ». متفق عليه.

وفي حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً -وَفِي رِوَايَةٍ: أَرْبَعُونَ لَيْلَةً- بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا، وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَسَوِيٌّ أَوْ غَيْرُ سَوِيٍّ؟ فَيَجْعَلُهُ اللهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سَوِيٍّ-». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: ادخلوا النار مع أمم مثلكم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن، ومنه قولك: زيد في القوم، أي: مع القوم، وقيل: على بابها، أي: في جملتهم.

قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: يلعن الأتباع القادة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا وتلاحقوا، وقرئت: (تداركوا) وهو الأصل، ثم وقع الإدغام.

قوله: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ أي: الأتباع، وهم آخرهم دخولًا.

قوله: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: القادة، والرؤساء، والزعماء، وهم أولهم دخولًا.

قوله: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: مضاعفًا، والضعف هو المثل الزائد على مثله مرة أو مرات، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

قوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: للتابع والمتبوع: لكل منكم ومنهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وقال

تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إذا عرج بأرواحهم إليها بعد الموت، فيهبط بها إلى سجّين، بخلاف المؤمن، فتفتح له، ويصعد بروحه إلى السماء السابعة.

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أن رسول الله ﷺ قَالَ فِي الْمَيِّتِ يُثَبِّتُهُ اللهُ: «فَيَقُولُ الْمَلَكَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ. وَقَالَ فِي الْكَافِرِ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ». رواه أبو داود بسند جيد.

وفي رواية عند أحمد بسند صحيح: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ. قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.. قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ».

قوله: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي: حتى يدخل البعير من ثقب الإبرة، وهو غير ممكن فكذا دخولهم الجنة غير ممكن، وكل ثقب لطيف في البدن يسمى: سَمّا وسُمًّا وجمعه

سموم، وجمع السم القاتل: سِمام.

قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، يفترشونها.

قوله: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: لحف وأغطية من نيران تغشاهم، جمع غاشية.

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: كل حقد وضغينة وحسد كان بينهم في الدنيا، والنَّزع الاستخراج، وحينئذ فلا يكون بينهم إلا التعاطف، والمحبة، والتراحم، جاء حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «(إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، (حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا)». رواه البخاري.

قوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾». رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَهُ مَنْزِلاَنِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». رواه ابن ماجه بسند صحيح.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ». رواه مسلم.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ [بِمَغْفِرَةٍ] وَرَحْمَةٍ». متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ

يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ أي: على لسان رسله من الثواب الجزيل، وقد أخبر تعالى عن المؤمن وقرينه من الكفار فقال: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾، وكذلك تقرعهم الملائكة بقولهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

وقد وقف رسول الله ﷺ على قتلى القليب يوم بدر من المشركين: «فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، (أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ؟) فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ». متفق عليه.

قوله: ﴿قَالُواْ نَعَمۡ﴾ أي: نعم وجدناه حقًّا، لأن (نعم) إنما تكون لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب، ولم يقولوا: (بلى) لأنها تكون لجواب الاستفهام الداخل على النفي، كما قال تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: نادى منادٍ من الملائكة بين أهل الجنة وأهل النار.

قوله: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞ﴾ أي: سور بين أهل الجنة والنار، أو حاجز يمنع وصول أهل النار الجنة، وقيل: هو السور الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ أي: على عُرف هذا السور قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فليسوا من أهل الجنة، ولا من أهل النار، يُحبَسُون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.

قال ابن جرير: الأعراف جمع عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفًا، وإنما قيل لعرف الديك عرفًا: لارتفاعه وإشرافه، وسمي أصحابه بالأعراف: لأنهم يعرفون الناس، وهؤلاء الرجال قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم وتأخر دخولهم الجنة.

وقال أبو مجلز كما ثبت عنه بسند صحيح: هم ملائكة وكلوا بسور الجنة.

والصحيح الأول، وهو قول جماعة من السلف وجملة من المفسرين، وهو سور بين الجنة والنار، وقيل كما جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال: أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين،

فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك، قال: قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم. صححه الحاكم.

وفي هذه الآية إثبات الصراط المنصوب على متن جهنم، قال ابن جريج: قد كنت أتعجب من عدم ذكر الصراط في القرآن حتى استفدته من هذه الآية.

قوله: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أي: بعلاماتهم التي ميّزهم الله بها، وهي بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: إذا نظر أصحاب الأعراف إلى أهل الجنة سلّموا عليهم، وكان ذلك قبل دخول أصحاب الأعراف الجنة.

قوله: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ أي: لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة.

قوله: ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ أي: في دخولها، مع علمهم وتيقنهم أنهم سيدخلوها، وقد عُرف في اللغة أن لفظة (طمع) قد تكون بمعنى علم، والوقف سائغ على: سلام عليكم، وعلى قوله: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ ثم يبتدئ: ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾، قال الحسن: لم يطمعهم إلا لكرامة يريدها بهم.

قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي: لا ينالهم رضوان الله تعالى ولا نعيمه، وهو استفهام توبيخ من أصحاب الأعراف لرجال من أهل النار كأبي جهل، وأبي لهب، كانوا في الدنيا يقسمون على قوم من المؤمنين فقراء ومساكين أنه لا تنالهم رحمة الله، كما حصل لبلال، وسلمان، وخباب رضي الله عنهم وغيرهم.

قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي: يقول أصحاب الأعراف للمؤمنين: ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين، وقيل: النداء من الله تعالى لأهل الأعراف بأن يدخلوا الجنة، ولعل هذا الأولى.

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة، ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾. رواه ابن عبد البر في التمهيد.

وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنه: «أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ، فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْجَبُ إِلَيْكَ؟- قَالَ: الْمَاءُ. قَالَ: فَحَفَرَ بِئْرًا، وَقَالَ: هَذِهِ لأُمِّ سَعْدٍ». حديث حسن رواه أبو داود.

قال بعض التابعين: مَن كَثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء، وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب. فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ

بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ». متفق عليه.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾، وقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦﴾.

قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: من باب المقابلة، كقوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٥٣ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

قوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي: بيّنّا معانيه.

قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على معرفة منا به، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾.

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يوم القيامة تتجلى حقائقه، ويتحقق وعده ووعيده، وحينئذ يفرح أهل القرآن بقرآنهم.

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، ولو أراد سبحانه وتعالى لخلقها بقوله: «كن»، ولكن لحكمة أرادها، ومن ذلك أن يعلم عباده التروي والتثبت في الأمور وعدم العجلة فيها.

وقد اختلف أهل العلم في المقصود بهذه الأيام، هل كل يوم منها كأيامنا كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد، وأحمد بن حنبل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: استواءً يليق بجلاله من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تحريف، ليس كاستوائه شيء، كما أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا يقال: كيف؟، ولا: لِمَ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء، ونكِل الكيف إلى علم الله ﷻ، فالاستواء في لغة العرب: العلو والاستقرار، واستوى على ظهر الدابة إذا استقر، واستوى إلى السماء، إذا قصدها، واستوى الشيء، إذا اعتدل، قال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقد جاء عن عبد الله بن وهب قال: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فأطرق مالك فأخذته الرحضاء -أي: العرق الكثير- ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى، وصف به نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وما أراك إلا صاحب بدعة، أخرجوه.

وعن سفيان بن عيينة قال: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

وقال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله على عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته.

قوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يذهب الليل بضياء النهار، كأنه يغطيه كالغشاء، وقرئت بالتشديد (يغشِّي) فأغشى وغشّى لغتان، وقد أجمع القراء على: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ بالتشديد، وأجمعوا على: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ القراءتان متساويتان، وفي التشديد معنى التكثير والتكرير، والتغشية والإغشاء: إلباس الشيء الشيء.

قوله: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: دائمًا من غير فتور طلبًا سريعًا حتى يدركه، والحث: الإعجال والسرعة،

وولى حثيثًا أي: مسرعًا، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره يطلبه بلا واسطة بينهما.

قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: جميعًا، فهو الذي أوجد الأشياء كلها من العدم، قال ابن عيينة: فرق بين الخلق والأمر، فمن جمع بينهما فقد كفر، فالخلق: المخلوق، والأمر: كلامه الذي هو غير مخلوق بتدبير وتصرف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وكل مخلوق إنما وجد بأمره سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ وتبارك: تفاعل من البركة، وهي الكثرة، والاتساع، يقال: بورك الشيء، وبورك فيه، وقيل: تبارك تعالى وتعاظم وارتفع.

قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: متذللين خاشعين مستكينين في السر دون الجهر، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: بخشوع قلب، لا جهارًا ومراءاة، قال تعالى عن عبده زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾، وقال ﷺ حين سمع أصحابه يجهرون بالتكبير والتهليل في غزوة من الغزوات: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا (وَفِي رِوَايَةٍ: بَصِيرًا) قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ». متفق عليه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت، أو سؤال منازل الأنبياء، وقد جاء في حديث ابن المغفل رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ». حديث صحيح رواه أبو داود.

قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من عذابه، وطمعًا في رحمته، فالإنسان في حياته بين الخوف والرجاء، فهما كالجناحين للطائر، يحملانه في طريق استقامته، ويكون الحب بمثابة الرأس، وإن انفرد أحد من هذه الثلاثة هلك الإنسان، فمن عَبَدَ الله عز وجل بالمحبة فقط صار زنديقًا، ومن عَبَدَ الله بالخوف فقط صار حروريًا، أي: خارجيًا، ومن عَبَدَ الله بالطمع والرجاء، صار مرجئًا، ومن عَبَدَ الله بالجميع صار سلفيًا بارًا راشدًا تابعًا للحق، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾.

قال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء على الخوف، قال ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ». رواه مسلم.

قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: تبشر بالمطر، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالمطر: من آثار رحمة الله التي وسعت كل شيء.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: سحاب أثقلت بحمل الماء، يقال: أقل فلان الشيء أي: حمله، والسحاب: يذكر ويؤنث فتقول: سحاب ثقيل وثقيلة. قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمتُ وجْهِي لمنْ أسْلَمَتْ … لَهُ المُزْنُ تَحْمل عَذْبا زُلالا
وأسلَمْتُ وَجْهي لِمَنْ أسلَمَتْ … لَهُ الْأَرْضُ تحملُ صَخرًا ثِقَالًا

قوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ كقوله: ﴿ءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾.

قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: من قبورهم للحساب والجزاء، وقد جاء في حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال: «قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ، كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا رَزِينٍ: أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلًا؟ ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا، ثُمَّ أَتَيْتَ عَلَيْهِ مَحْلًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى، وَكَذَلِكَ آيَةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ». حديث حسن رواه أحمد.

وفي حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال ﷺ: «ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ -أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللهُ- مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ، أَوِ الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا

﴿لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧﴾

قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: الأرض الطيبة التربة تنبت نباتًا طيبًا غزيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، وهذا المثل يضربه الله للمؤمن، فعمله طيب، وهو يعتبر بالموعظة، ويفيد غيره بها، وقد جاء في حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ (الْكَثِيرِ) أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا (نَقِيَّةٌ) قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، (وَزَرَعُوا)، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: الأرض الخبيثة التربة، والكثيرة الملوحة والحجارة والشوك، فإن النبات فيها لا يخرج إلا بعسر ومشقة وطول عناء، ويكون بطيء النمو، قليل الثمر، وهذا المثل يضربه الله للكافر، فهو خبيث وعمله خبيث، لا يعتبر بالموعظة، ولا ينفع غيره بها، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه المتقدم: «وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»، والنكد: العسير الممتنع من إعطاء الخير.

قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: مع رجل منكم، فعلى بمعنى (مع)، وقيل: على بابها مع التقدير، أي: على لسان رجل منكم، وقيل: مُنْزل على رجل منكم من جنسكم تعرفون نسبه.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عميًا عن الحق والإيمان، وعن معرفة الله ﷻ، يقال: رجل عمٍ بكذا، أي: جاهل.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: أرسلنا هودًا إلى قبيلة عاد الأولى وهم عاد إرم، والمقصود أخاهم في النَّسب لا في العقيدة، وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف من أرض اليمن، بين عُمان وحضرموت، وكانوا أول قبيلة عبدت الأصنام بعد الطوفان، وكانوا كثيرًا ما يأوون إلى المساكن ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: في جهالة، وخفة عقل.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: قوة، وطولًا، كقوله في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: نعمه ومننه وفضله عليكم.

قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: استأصلناهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ». متفق عليه. والصبا: ريح تهب من جهة الشرق، والدبور: ريح تهب من جهة الغرب.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: كانوا بعد قوم عاد، وقبل إبراهيم عليه السلام، وهم حي من أحياء العرب العاربة، ومساكنهم بالحجر الذي بين الحجاز وتبوك إلى وادي القرى، في شمال الجزيرة العربية، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، في سنة تسع من الهجرة.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: التي طلبتموها كمعجزة دالة على نبوتي، وإضافة الناقة إلى الله إضافة تشريف وتعظيم، لا أنها له سبحانه وتعالى، كما يقال: بيت الله؛ لأنهم سألوا صالحًا أن يخرج لهم ناقة من صخرة صماء يعاينوها بأنفسهم، وتكون معجزة دالة على نبوته، فأجاب الله عز وجل صالحًا إلى ما طلبه منه قومه، وأقامت الناقة بينهم، تشرب من بئرهم يومًا، وتدعه لهم يومًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾

قوله: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، وبعد عقر الناقة وتهديد نبي الله صالح لهم، ونزول الوحي بقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ عقدوا العزم على قتل نبي الله صالح عليه السلام مع أهله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وعن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي عَقَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ». متفق عليه. قال تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.

قوله: ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: تمردوا، وتعتى فلان إذا لم يطلع، والليل العاتي: الشديد الظلمة.

قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة واضطراب الأرض من تحتهم، والصيحة من السماء، ومنه قوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾. قال الشاعر:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَجَّ قَدْ آنَ وَقْتُهُ ... وَظَلَّتْ مَطَايَا الْقَوْمِ بِالْقَوْمِ تَرْجُفُ

قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي: على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطير، خامدين ميتين من شدة العذاب، قال تعالى: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله عز وجل، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ فَمَرَرْنَا بِقَبْرٍ: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، وَكَانَ بِهَذَا الحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا المَكَانِ، فَدُفِنَ فِيهِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ مَعَهُ، فَابْتَدَرَهُ النَّاسُ فَاسْتَخْرَجُوا الغُصْنَ». رواه أبو داود. وقال المزي حديث حسن عزيز.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالْحِجْرِ قَالَ: لاَ تَسْأَلُوا الآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا، فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ، أَهْمَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلاَّ رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ». رواه أحمد بسند صحيح.

قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: من باب التحسر عليهم حين عصوا أمره، وقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحِجْرِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ) قَالَ: لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ-؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ-. ثُمَّ (قَنَّعَ رَأْسَهُ) وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ. وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْضَ ثَمُودَ الْحِجْرَ، فَاسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَاعْتَجَنُوا بِهِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا، وَأَنْ يَعْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: ابن أخ إبراهيم عليه السلام، وكان قد آمن معه وهاجر معه، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها.

قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: إتيان الذكور في الأدبار، وهو كالزنى، بل هو أشد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، ولذا قال الشافعي: يحد حد الزنا قياسًا عليه، وقال مالك: يرجم، أحصن أو لم يُحصن، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾، وقال ﷺ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ». حديث حسن رواه أبو داود.

وقال في حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما: «مَنْ أَتَى بَهِيمَةً فَاقْتُلُوهُ، وَاقْتُلُوهَا مَعَهُ. فَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَا شَأْنُ الْبَهِيمَةِ؟ قَالَ: مَا أُرَاهُ قَالَ ذَلِكَ إِلاَّ أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُؤْكَلَ لَحْمُهَا وَقَدْ عُمِلَ بِهَا ذَلِكَ الْعَمَلُ». حديث حسن رواه أبو داود.

قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما رؤي ذكر فوق ذكر قبل قوم لوط، والملحدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم، والصدق ما ورد به القرآن، قال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنْزير والحمار. قلت: والقرود، ولعل ابن سيرين لم ير ذلك من القرود، وقد جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ». حسنه الترمذي.

قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: تجاوزتم حدود الحلال إلى الحرام، ونظيره: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

عَادُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٨٤ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧﴾

قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتنزَّهون ويتقذرون، وقد سخروا منهم وعابوهم بعيب يمدح فيه الإنسان.

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الباقين في عذاب الله، يقال: غَبَر الشيء، إذا مضى، والغابر بمعنى: الباقي، وهو من الأضداد.

قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: واذكروا قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أهل مدين، ولفظة (مدين) تطلق على القبيلة، وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز، وهم أصحاب الأيكة، وكانوا عربًا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ﴾ يعني: موسى ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تنقصوا الناس في سلعهم.

قوله: ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: أموالهم ونحوها.

قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: لا تجلسوا في طريق الناس وتهددوهم بالقتل، وتخوفونهم إن لم يعطوكم أموالهم أو بعضًا منها، وهذا من قطع الطريق الحسي.

قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي: تتوعدون من أراد المجيء إلى شعيب وتصدونه وتقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، وهذا هو قطع الطريق المعنوي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن

قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا
ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ أي: احكم بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، استفتح ربه ﷻ على قومه، واستنصره عليهم في تعجيل ما يستحقونه من عقاب الله تعالى.

قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزالًا شديدًا، جزاءً بما أرجفوا نبي الله شعيب عليه السلام وأصحابه، عندما توعدوهم بالإخراج من قريتهم، وأصل الرجفة: الاضطراب، والمستعرض لآيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى جمع عليهم أنواعًا من العقوبات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، فقد سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت حركاتهم، وسلط عليهم صيحة عظيمة أخمدت أصواتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وسلط عليه ظلة تظلهم وأرسل عليهم من خلالها شررًا من النار، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، والظلة: سحابة فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ أي: هذه سنة الله ﷻ في الذين يحادُّون ويكذبون الله ورسله، أهلكهم الله، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعَّمين، تقول: غنيت بالمكان، إذا أقمت به، والمغنى: المنزل، والجمع: مغاني.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: خاسرين في الدنيا بإهلاكهم، وخاسرين في الآخرة عندما يذوقوا عذاب جهنم، وهو مبالغة في الذم والتوبيخ، وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه.

قوله: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزن وآسف على من لا يستحق ذلك.

قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: ثم أبدلناهم بدل الفقر الغنى، وبدل الشدة رخاء، وبدل السقم صحة، وبدل الجدب الخصب.

قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كثروا وازدادوا أموالًا وأولادًا، و (عفا) من الأضداد، عفا: كثر. وعفا: درس.

قوله: ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: ابتلاهم الله ﷻ بالفقر والمرض وشدة العيش لعلهم يتوبوا ويرجعوا عن غيهم وضلالهم، فما فعلوا، ثم ابتلاهم بالنعمة والحسنة والرخاء ليشكروا، فما فعلوا، وقالوا: إن الدهر تارات وتارات، وقد أصاب آباءنا مثل ما أصابنا من المصائب والمحن، ثم سراء ورخاء، فليست هذه عقوبة ولا ابتلاء من الله، ولنبق على ديننا كما صبر آباؤنا على دينهم، فلم يتفطنوا لحقيقة أمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، فواحدهم كالحمار لا يدري فيما ربطه أهله، ولا فيما أرسلوه، وهذا بخلاف المؤمنين الذين يتفطنون لذلك، وثبت في حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». رواه مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: أولم يتبين لهم من بعد إهلاك أقوام قبلهم، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: ما وجدنا لأكثر الأمم الماضية من وفاء بعهود، ولا أداء لأمانات، ولا طاعة للأنبياء، وإنما وجدنا أكثرهم خارجين عن الطاعة.

قوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي: بل وجدناهم خارجين عن الطاعة، مخلين بالأمانة، والامتثال بالحق.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد الرسل المتقدم ذكرهم، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

قوله: ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: أرسلنا موسى بن عمران عليه السلام بالمعجزات الباهرات، والبراهين

الواضحة، وسيأتي بيانها بعد قليل.

قوله: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أرسلناه إلى فرعون وقومه.

قوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: جحدوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ أي: واجب عليّ، أو حريّ بألا أخبر عن الله إلا ما هو حق وصدق.

قوله: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: شاهدة على صدق رسالتي، فخل سبيل بني إسرائيل حتى أخرج بهم إلى الأرض المقدسة.

قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: أخرجها من جيبه، فإذا بنورها يضيء ما بين السماء والأرض، ويغلب نور الشمس، قال تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾، أي: من غير برص ولا مرض، وكان نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ». متفق عليه. يعني: يميل إلى السمرة.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّر أمر موسى وأخيه هارون حتى ترى رأيك فيهما، يقال: أرجأته وأرجيته لغتان.

قوله: ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي: من يجمع لك السحرة من سائر البلاد، وكانت مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة غاية في السحر، وأوهم السحرة أن ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو من قبيل سحرهم، قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ أي: خدعوا أبصار الناس وأخافوهم، ولم يكن ذلك إلا مجرد شعوذة وصنعة بارعة وخداع وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾، وألقوها معتزين بفرعون، واثقين من النصر، قال تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ أي: فلما ألقاها فإذا هي تبتلع وتلتهم بسرعة متناهية ما يحتالون ويكذبون به على الناس، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي: خطة مدبرة محاكة من قبل في الخفاء، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾، وهذا يدل على أن هول الصدمة أفقدته صوابه، فأخذ يهذي ويتوعد، ويلقي التهم الزائفة.

قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ أي: الرجل اليمنى واليد اليسرى، أو اليد اليمنى والرجل اليسرى.

قوله: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: أعلقكم على الخشب حتى تموتوا، وتكونوا عبرة لغيركم؛ لئلا يقتدي بكم أحد من رعيتي، وقال في آية أخرى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ أي: على الجذوع، ويقال: أنه أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون وصائرون، ولن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من الإيمان، وقالوا لفرعون: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ فكانوا في

أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة.

قوله: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ أي: ما تنكر وتكره منا ولا تعيب علينا إلا إيماننا بالله وآياته.

قوله: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صب علينا الصبر صبًا عند القطع، وعند الصلب حتى يغمرنا، فنصبر عند تعذيب فرعون إيانا.

قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي: يذر دينك، ويترك أصنامك، وقيل: يذر أن يعبدك، فإن فرعون كان يزعم أنه إله يُعبد، لعنه الله، وقرئت: وإِلاهَتَكَ، أي: عبادتكم؛ لأنه كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وكان يعلم أنه مربوب، ولذا عند حضور الموت قال: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ أي: ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بأعوام من الجدب والقحط، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين قنت رسول الله ﷺ ودعا على المشركين قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ». متفق عليه. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ- حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنَ الْجُوعِ. فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جِئْتَ تَأْمُرُنَا -وَفِي رِوَايَةٍ: بِطَاعَةِ اللهِ وَ- بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا؛ فَادْعُ اللهَ». متفق عليه. ومنه أسنت القوم، ومن العرب من يعرب النون في السنين، وأنشد الفراء:

أَرَى مَرَّ السِّنِينِ أَخَذْنَ مِنِّي ... كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ

والسنين: جمع سنة، وهي هنا في البيت بمعنى الحول.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝١٣٥ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٣٦ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ أي: من الخصب والرزق ونحوه.

قوله: ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه الذي نستحقه، وهذا الذي يليق بنا.

قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي: من القحط والجدب.

قوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءموا به، ويعتقدون أن ما أصابهم إنما هو بشؤم موسى، فإذا جاءهم من الخير أسندوه إلى أنفسهم، وإذا جاءهم من الشر أسندوه إلى موسى، ونظيره: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾، والأصل يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء، وهذا من الطيرة وزجر الطير، ثم كثر استعمالهم حتى قيل لكل من تشاءم: تطير، وكانت العرب تتيمن بالسانح وهو الذي يأتي من ناحية اليمين، وتتشاءم بالبارح الذي يأتي من ناحية الشمال، ويتطيرون ببقية الطيور، وفي الظباء إذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا برحت: من لي بالسانح بعد البارح، إلا أنه أقوى وأكثر ما عندهم الطير، فسموا الجميع تطيرًا من هذا الوجه، فجاء الإسلام بالنهي عن التطير والتشاؤم كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لَا عَدْوَى -وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَا طِيَرَةَ-، وَلَا صَفَرَ، وَلَا هَامَةَ». متفق عليه.

وعن عمران بن الحصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيِّرَ لَهُ». رواه البزار بسند جيد.

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ». حديث صحيح رواه أبو داود.

وعن رويفع بن ثابت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ قَارَفَ الشِّرْكَ». حديث حسن رواه البزار. ورواه أحمد وزاد فيمن وقع في نفسه شيء من ذلك يقول: «اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ، ولاَ طَيْرَ إِلاَّ طَيْرُكَ، ولاَ إِلَهَ غَيْرُكَ». حديث حسن، رواه أحمد.

وأمر رسول الله ﷺ كما في حديث أم كرز ﷺ بقوله: «أَقِرُّوا الطَّيْرَ عَلَى وُكُنَاتِهَا». رواه أبو داود بسند جيد. أي: مواضعها التي تهبط عليها. وذلك لأن كثيرًا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير في وكرها فنفرها، فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم كما تقدم، وأهل العربية يقولون: وكناتها. قال الشاعر:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا

والوكنة: اسم لكل وكر وعش، والوكن موضع الطائر الذي يبيض فيه ويفرخ، وكان مِنَ العرب مَنْ لا يرى التطير، ويمدحون من كذب به.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قدر لهم من مصائب وغيرها فهي من قِبَلِ الله.

قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ أي: المطر الشديد الكثير المتتابع المغرق والمتلف للزروع

والثمار، وفاض الماء وساح على وجه الأرض ثم ركد، فلا يقدرون على أن يحرثوا، ولا أن يعملوا شيئًا، قال النحاس: الطوفان في اللغة: ما كان مهلكًا من موت، أو سيل، أو ما يطيف بهم فيهلكهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ أي: جمع جرادة، وهو الحشرة المعروفة، فأكل خضراءهم، ولم يترك لهم زرعًا، ولا ثمارًا.

وقد جاء في حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ، نَأْكُلُ الجَرَادَ». متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ». حديث حسن رواه ابن ماجه.

قوله: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ أي: السوس الذي يخرج من الحنطة، وهي دواب سود صغار، ويدخل في ذلك البراغيث والقراد، فلزمت جلودهم، وجلود مواشيهم، ودخلت معهم البيوت والفرش، ومنعتهم النوم والقرار.

قوله: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ أي: جمع ضفدعة، وهي المعروفة التي تكون في الماء، وقد لبستهم حتى كانت تسقط في فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلها كما جاء في حديث عبد الرحمن بن عثمان رضي الله عنه: «أَنَّ طَبِيبًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ضِفْدَعٍ يَجْعَلُهَا فِي دَوَاءٍ، فَنَهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِهَا». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «كَانَتِ الضَّفَادِعُ تُطْفِئُ النَّارَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ الْوَزَغُ يَنْفُخُ فِيهِ. فَنَهَى عَنْ قَتْلِ هَذَا، وَأَمَرَ بِقَتْلِ هَذَا». رواه عبد الرزاق بسند صحيح. وفي رواية عند ابن ماجه بسند جيد: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ، لَمْ تَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةٌ إِلَّا أَطْفَأَتِ النَّارَ غَيْرَ الْوَزَغِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَيْهِ».

قوله: ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: امتزج بمياههم كلها، فلا يستقون من النيل ولا من بئر إلا وجدوه دمًا طريًا.

قوله: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: بينات ظاهرات، تصيب فرعون وقومه، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل، وهذا من تمام المعجزة الباهرة.

قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذاب، وهو ما تقدم ذكره من المعجزات.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: طلب فرعون وقومه من موسى عليه السلام أن يدعو لهم الله ليكشف عنهم البلاء بحق ما أكرمه الله من النبوة.

قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ أي: إذا هم ينقضون عهودهم وما عقدوه على أنفسهم ويصرّون على الكفر، وكلما رفعت عنهم آية عادوا إلى شر ما كانوا عليه، فيرسل عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون ويكذبون، ويعَدِون ولا يفون، والله العظيم الحليم ينظرهم ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ أي: أورث الله تعالى بني إسرائيل جميع أموال فرعون وقومه، بعدما كانوا مستضعفين أذلاء عبيد يخدمون عندهم.

قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي: ما تشرق منه الشمس وتغرب، وهي أرض الشام، ومصر، والمشارق والمغارب جهات الشرق والغرب منها، فالأرض مخصوصة، وقيل: جميع الأرض؛ لأن من بني إسرائيل داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وقد ملكا الأرض.

قوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: تم وعد الله عَزَّ وَجَلَّ لبني إسرائيل، وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ أي: ما كانوا يبنون من القصور وغيرها، يقال: عَرَش يعرش إذا بنى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾

قوله: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ أي: مروا على قوم يعبدون الأصنام ويقدسونها.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ أي: اجعل لنا صنمًا نعبده كما لهم أصنام يعبدونها، جاء في حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: سُبْحَانَ اللهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ وَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن نافع قال: كَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ الشَّجَرَةَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الرِّضْوَانِ فَيُصَلُّونَ عِنْدَهَا قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَأَوْعَدَهُمْ فِيهَا وَأَمَرَ بِهَا فَقُطِعَتْ. رواه ابن سعد وصححه ابن حجر.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مُهْلك ما هم فيه من الشرك والضلال، والتّبار: الهلاك، وكل إناء مكسر متبر، وأمر مُتبَّر أي: مُهلك. والمقصود: أن العابد والمعبود مهلكان.

قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: ذاهب ومضمحل وفاسد.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: لما عزم موسى على الذهاب استخلف أخاه هارون عليه السلام على بني إسرائيل وكانوا في التيه، وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدعوة، وقد جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا رضي الله عنه، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي؟». متفق عليه.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: رأى موسى عليه السلام الجبل الصلب لم يثبت أمام تجلي الرحمن له، بل اندك وتفتت عن أوله وصار ترابًا، وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾. قَالَ حَمَّادٌ: هَكَذَا -وَأَمْسَكَ سُلَيْمَانُ بِطَرَفِ إِبْهَامِهِ عَلَى أُنْمُلَةِ إِصْبَعِهِ الْيُمْنَى-، قَالَ: فَسَاخَ الْجَبَلُ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا». رواه الترمذي بسند جيد، والمعنى والله أعلم: أنه ما تجلى منه سبحانه إلا قدر الخنصر.

وتجلى: بمعنى ظهر وانكشف، والدَّكُّ: تسوية الشيء ترابًا، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ويقال: ناقة دكاء: لا سنام لها.

قوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشيًا عليه من هول ما رأى، لا كما فسر بالموت، وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، فإن هنا قرينة تدل على الموت، كما أن هناك قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، وقد قال ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ». متفق عليه. وفي هذا دليل على أن هذا الصعق يحصل للخلائق يوم القيامة حين يتجلى الرب سبحانه للفصل بين عباده، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، فيجد موسى آخذ بقائمة العرش، وكانت صعقته خفيفة، ولم يصعق بالكلية، لأنه قد ناله ذلك عندما صعق في الطور.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ أي: صحا من غشيته، والإفاقة لا تكون إلا عن غشي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قوله: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: كتبنا له في التوراة كل شيء يحتاجه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم، وكانت الألواح من جوهر نفيس.

قوله: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ أي: أن يضعوها على أحسن وجوهها، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾.

قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خرج عن طاعتي، وخالف أمري، وكذب رسلي، سترون كيف صاروا إلى الهلاك والدمار، وسترون مساكنهم ومنازلهم خاوية على عروشها لم تسكن بعدهم إلا قليلًا، لتعتبروا بسوء مآلهم.

قوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ أي: سأبعد عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يتكبرون ويترفعون عن الإيمان بآيات الله تعالى، قال مجاهد: لا ينال العلم متكبر ولا مستحي. وقال بعض السلف: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبدًا.

قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ أي: لا ينقادون لاتباعها، ولو شاهدوا من الخوارق والمعجزات ما شاهدوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ أي: طريق النجاة، ويقال: الرَّشد، قال أبو عبيد: فرق أبو عمرو بين الرُّشد، والرَّشد، فقال: الرُّشد في الصلاح، والرَّشد في الدين، قال سيبويه: الرُّشد والرشد مثل السُّخط

والسخط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، وحقيقة الرُّشد والرَّشد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الخيبة.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد خروجه إلى الطور لميقات ربه، فمكث على الطور يناجي ربه، ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة، وهو سبحانه وتعالى يجيبه عنها.

قوله: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: صاغ السامري من حلي القبط بعد جمعه عجلًا جسدًا لا روح فيه، فاتخذه كثير منهم إلهًا يُعبد من دون الله ﷻ، فضلوا، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، وإن دلّ هذا فإنما يدل على خراب نفوسهم، وعمى قلوبهم.

قوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: له صوت كصوت البقر، حيث ألقى فيه السامري قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي، فكانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقر، فيرقصون حوله ويفرحون، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾
أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ
يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما صنعوا بعد عودة موسى عليه السلام من الميقات، ويقال: للنادم المتحير قد أسقط في يده.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ
أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا
تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى
ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا
لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله: ﴿غَضْبَٰنَ﴾ أي: شديد الغضب مما فعلوه من الشرك بعبادتهم العجل، وقد جاءهم برسالة عمادها توحيد الله تبارك وتعالى، وإفراده بالعبودية، وقد جاء في الإسلام علاج الغضب، قال ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ». رواه أبو داود بسند حسن.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ». رواه أحمد بسند حسن.

قوله: ﴿أَسِفًا﴾ أي: شديد الحزن، والأسف منْزلة وراء الغضب أشد منه، وقد جاء في حديث عبيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْتُ الفَجْأَةِ أَخْذَةُ أَسِفٍ». رواه أبو داود بسند صحيح.

والأسيف: الحزين، قيل: رجع حزينًا.

وقد جاء في الإسلام علاج الحزن، قال ﷺ كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «التَّلْبِينَةُ مَجَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ، تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ». متفق عليه، والتلبينة: حساء يطبخ من دقيق أو نخالة، سميت بذلك لشبهها باللبن في الرقة والبياض.

قوله: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: بئس ما فعلتموه في غيبتي، عندما عبدتم العجل.

قوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قيل: تعجلتم سخط ربكم، وقيل: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر من ربكم، وقيل: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى، والعجلة من الشيطان، كما جاء في حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «الأَنَاةُ مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنْ الشَّيْطَانِ». حديث حسن بشواهده، رواه الترمذي، وله شاهد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي يعلى.

والعجلة: هي التقدم بالشيء قبل وقته، وهي مذمومة، أما السرعة فهي عمل الشيء في أول وقته، وهي محمودة.

قوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: طرحها، جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي العِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الأَلْوَاحَ؛ فَانْكَسَرَتْ». رواه أحمد بسند حسن.

قوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي: أمسك شعر رأس أخيه هارون وجرَّه منه، ظننا منه أنه قصَّر في نهيهم عنه، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ شديد الغضب لحرمات الله عَزَّ وَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾، وكان هارون لينًا، وكان شقيقًا لموسى وأكبر منه.

قوله: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ أي: يا ابن أمي، وهي كلمة استعطاف ولين.

قوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي: لا تسيء إليَّ فيسعد الأعداء بذلك، والشماتة: السرور بما

يصيب العبد من مصائب الدنيا والدين، وقد كان رسول الله ﷺ: «يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ البَلاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ». متفق عليه. وفي الحكمة: لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: الذين اتخذوه إلهًا يعبد من دون الله، وقد حلَّ بأولئك غضب ربهم، فلم يقبل من بني إسرائيل توبة إلا بعدما قتل بعضه بعضًا، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فأصبحوا يومًا وقد أخذ مَن لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه، ولا الصاحب صاحبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم.

قوله: ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ينالهم في الدنيا الذل والهوان والصغار، وقد حلت بهم الذلة فإن الله ﷻ كتب على بني إسرائيل الذل والصغار في الحياة الدنيا إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ومن الذلة أخذ الجزية منهم عن يد وهم صاغرون.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ أي: كما عاقبنا هؤلاء المبتدعين من بني إسرائيل، فإننا نجزي ونعاقب كل صاحب بدعة إلى يوم القيامة، قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين. وقيل: كل صاحب بدعة ذليل.

قوله: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى﴾ أي: ما نسخ فيها وكتب، وكان ما كتب فيها هدى من الضلالة، وهداية إلى الحق.

قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ أي: انتقى واستخلص من قومه سبعين، هم خيار بني إسرائيل وعلماؤهم، وكان معهم موسى وهارون ويوشع، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: سأل موسى عليه السلام مسألة فأعطيها محمدًا ﷺ: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. رواه البزار.

قوله: ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ أي: ذهبوا إلى جبل الطور لميقات وقَّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فخرج بهم إلى طور سيناء ليعتذروا ويتوبوا عن بني إسرائيل في عبادة من عَبَدَ منهم العجل.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: أخذتهم الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعًا؛ لأنهم عندما فرغ موسى عليه السلام من أمر ربه، وسمعوه يكلم الله ﷻ، نطقوا بكلمة الضلال مستهترين، واشترطوا للإيمان به رؤية الله عيانًا، فأخذتهم الرجفة -وهي الصاعقة- فماتوا، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾، هكذا فعل خيارهم، بعد أن أيقنوا بأن الله ﷻ

يكلم نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فبدل أن يزدادوا إيمانًا، ويكون منهم تذوق لحلاوة الإيمان، تحولوا إلى النقيض من ذلك، والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة.

قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء الذين عبدوا العجل وأشركوا بك، فإنا براء مما عملوا، ومقصود الاستفهام في قوله: (﴿أَتُهْلِكُنَا﴾) الجحد، أي: لست تفعل ذلك، وهو كثير في كلام العرب، وإذا كان نفيًا كان بمعنى الإيجاب، وقيل: معناه الدعاء والطلب، أي: لا تهلكنا، وأضافه إلى نفسه.

قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا اختبار، وابتلاء، وامتحان من عندك، تمتحن بها عبادك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك، والهود: التوبة، وقد سبق بيان ذلك في سورة البقرة.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ أي: هذه إشارة على أن الذين وعد الله ﷻ نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكتب لهم الرحمة هم أمة محمد ﷺ، وفيه دعوة لبني إسرائيل أن يؤمنوا برسالة النبي الأمي خاتم الأنبياء والمرسلين، حتى تنالهم الرحمة باتباعه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، وصفة (الأمي﴾ لم يتصف بها نبي غير نبينا محمد ﷺ.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أي: الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين سئل عن صفة رسول الله ﷺ قال: «أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّل، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا». رواه البخاري.

وعن أبي صَخرٍ العُقَيْليِّ قال: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الأَعْرَابِ قَالَ: «جَلبْتُ جَلُوبَةً إلى المَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا فَرَغْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلتُ: لأَلقَيَنَّ هَذَا الرَّجُل فَلأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَال: فَتَلقَّانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْشُونَ، فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ حَتَّى أَتَوْا عَلى رَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَاةَ يَقْرَؤُهَا، يُعَزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَلى ابْنٍ لهُ فِي المَوْتِ كَأَحْسَنِ الفِتْيَانِ وَأَجْمَلِهِ، فَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنْشُدُكَ بِالذِي أَنْزَل التَّوْرَاةَ، هَل تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟ فَقَال بِرَأْسِهِ هَكَذَا أَيْ: لا، فَقَال ابْنُهُ: إِنِّي وَالذِي أَنْزَل التَّوْرَاةَ، إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لا إِلهَ إِلا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَال: أَقِيمُوا اليَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ» ثُمَّ وَلِيَ كَفَنَهُ وَحَنَّطَهُ وَصَلى عَليْهِ». رواه أحمد، وجوده ابن كثير.

وعن سعيد بن المسيب قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال العباس لكعب: ما منعك أن تسلم في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر؟ قال: إن أبي كان كتب لي كتابًا في التوراة، فقال: اعمل بهذا وختم على سائر كتبه، وأخذ علي بحق الوالد على الولد أن لا أفض الختم عنها، فلما رأيت ظهور الإسلام قلت: لعل أبي غيب عني علمًا ففتحتها فإذا صفة محمد ﷺ وأمته فجئت الآن مسلمًا. رواه ابن سعد، وحسنه ابن حجر في الإصابة.

قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: إيمانهم بمحمد ﷺ يخففه عنهم إصرهم، والإصر: الثقل الذي يحبس صاحبه عن الحراك لثقله، والإصر الثقيل كان عقوبة من الله ﷻ لليهود، وهذه العقوبة لا تخفف عنهم إلا إذا آمنوا بمحمد ﷺ ودخلوا في دينه، وطبقوا شريعته.

وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ». رواه أحمد بسند حسن، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ». رواه أحمد بسند حسن.

وقد سبق قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

قوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال، وهي عبارة مستعارة لتلك الأثقال، وقد كان من الأغلال على بني إسرائيل ما قص الله ﷻ ورسوله ﷺ علينا، نحو: قرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، واشتراط قتل الأنفس في صحة التوبة.

قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عظّموه، ووقّروه ونصروا دينه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟

هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي: عن أهلها الذين كانوا من بني إسرائيل، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾.

قوله: ﴿ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: بقرب البحر، على شاطئه، تقول: بحضرة الدار، أي: بقربها.

قوله: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ أي: يعتدون ويصيدون في يوم السبت، وهو اليوم المعروف وقد نهوا عنه، وحُرِّم عليهم الصيدُ فيه.

قوله: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾ أي: تظهر لهم الأسماك بكثرة على وجه الماء، جماعات وأسراب تأتي من كل مكان.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ﴾ أي: وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم حيتانهم، بل تغيب عنهم وتختفي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ أي: حين أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر؛ لأنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت وأنكرت ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنهَ، ولكنها قالت للمنكرة: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أن الله مهلكهم، فلا فائدة من نهيكم إياهم.

قوله: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أي: قال الناهون: إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير.

قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي: لعل إنكارنا عليهم يجعلهم يتقون الله فيما هم فيه، ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين.

قوله: ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي: وأخذنا الظالمين العصاة بعذابٍ شديد وزنًا ومعنىً، وهم الذين ارتكبوا المنكر، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين، أو من الناجين؟ والذي يظهر أنهم من الناجين، وقد ثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانوا أثلاثًا: ثلث نهوا، وثلث قالوا: لم تعظون قومًا الله مهلكم، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم، ولكن ثبت أنه رجع وقال: بنجاة الساكتين.

قال بعض أهل الأصول في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ فيه دلالة المفهوم وأن الذين بقوا نجوا.

قوله: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم، وأعلن، وهي صيغة تفعل من الآذان أي: آذن، من الإيذان، وهو الإعلام، وقيل: أمر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم، ولهذا أتبعت باللام في قوله تعالى: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على اليهود.

قوله: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: ليسلطنَّ على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله، واحتيالهم على حرمات الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد فعل الله بهم ذلك، فهم من ذلك اليوم وإلى أن تقوم الساعة مطاردون، منبوذون، ذليلون، لا يقر لهم قرار، ولا يهدأ لهم بال، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب عليهم ساريًا إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة، إن شاء الله، جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ، حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ: يَا مُسْلِمُ! هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ». متفق عليه. والآية تقرر حقيقة ربانية ثابتة وهي: إن الله أعلن أنه سيوقع العذاب على اليهود، وأن هذا العذاب سيبقى مستمرًا إلى يوم القيامة، لا يرفع عنهم إلا فترات يقدرها سبحانه، ثم يعاد عليهم العذاب إلى ما كان عليه.

قوله: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا﴾ أي: فرقًا متناثرة هنا وهناك، وهذا عقاب رباني لليهود في الدنيا، بأن يقطعهم ويقسمهم ويفرقهم إلى أممٍ وطوائف وجماعات متناحرة، منتشرة في بقاع الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾.

قوله: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: منهم من آمن وصدَّق برسالة محمد ﷺ، وأذعن للحق، وهم قلة قليلة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: من انحط عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق، كقول الجنّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: جاء من بعدهم جيل لا خير فيهم، يقال: الخَلَفُ بفتح اللام: من يخلف غيره بالخير والصلاح، وبسكون اللام: الطالح الذي يخلف غيره بالشر، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، قال لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ   وَبَقِيتُ فِي خُلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

ومنه المثل: سكت ألفا ونطق خلفًا.

وبالفتح كقول الرسول ﷺ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ». رواه البزار وحسنه العلائي.

ومنه قولهم: خير خَلَفٍ لخير سَلَفٍ.

وقد يستعمل الخلَف والخلْف كل واحد نها موضع الآخر.

قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: يتلهون عن بذل الحق ونشره، بحطام الدنيا الفاني.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: يرجون المغفرة، تبجحًا، وتسويفًا، وكذبًا، مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام.

قوله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا أخذوه، لا يُبالون من حلالٍ كان أو حرام.

قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: قرءوا الكتاب، وعرفوا ما فيه من المواثيق ومن الوعيد لمن افترى وكذب على الله ﷻ، وقيل: محوا ما في الكتاب من المواثيق بترك العمل به والفهم له، من قولك: دَرَسَت الريح الآثار، إذا محتها، وهذا المعنى موافق لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، ولقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يتمسَّكون بأمور دينهم بما أنزل الله في كتابه، ويورثون ما تمسَّكوا به إلى غيرهم، فيدعون غيرهم إلى الصلاح والتمسك بما تمسكوا به، ولفظة ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ فيها معنى التكرير ومداومة التمسك بكتاب الله وشرعه، وأخذ الكتاب بقوة وعزم وصرامة، في غير تعنت ولا تزمت، فبذلك يمدحون، والتمسك بالكتاب يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ
وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ
ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى
ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ
فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ
ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾

قوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ أي: اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رؤوس بني إسرائيل، كأنه سقف، أو غمامة، فلما جاءهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالألواح فيها التوراة، أمرهم بقبول ما فيها من أوامر ونواهي، وأن يأخذوها بعزم وقوة، فقالوا: انشرها علينا، فإن كانت سهلة قبلناها !! قال: بل اقبلوها بما فيها، فراجعوه مرارًا، فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ الملائكة فاقتلعوا الجبل ورفعوه فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم، فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود فسجدوا.

والظُّلَّة: كل ما أظلَّك من سقف أو سحابة، ونحوهما.

قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ أي: أيقنوا وعلموا بوقوع الجبل وسقوطهم عليهم إن لم يمتثلوا أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ، وليس هذا إكراه لهم في الدين، إنما هو تحذير لهم من أن استمرارهم على المعصية سيجلب لهم العذاب، فأعطاهم معجزة محسوسة ليعودوا.

قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي: أخذه عليهم العهد والميثاق، وكان ذلك لما خلق الله -جلَّت قدرته وتعاظم شأنه- آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخرج الله عَزَّ وَجَلَّ من صلبه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وهم مثل الذَّر، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، فأقروا وشهدوا بذلك.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا -وَفِي رِوَايَةٍ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ-: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ - قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيتَ إِلَّا الشِّرْكَ!». متفق عليه.

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾، فَقَالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ. ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ

عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ». رواه أبو داود وحسنه الترمذي.

وعن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً، وَأُخْرَى بِالْيَدِ الْأُخْرَى، وَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أُبَالِي. فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا». رواه أحمد بسند صحيح.

قال بعض السلف المقادير خمسة:

أولًا: التقدير الأزلي قبل خلق السماوات والأرض، قال ﷺ كما في حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». رواه مسلم. وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

ثانيًا: التقدير الكتابي، أي: كتابة الميثاق، كما قال تعالى في هذه الآية، وما جاء في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق.

ثالثًا: التقدير العمري، أي: عند تخليق النطفة في الرحم، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهور كما عند الشيخين، وحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين، وحديث حذيفة ابن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم.

قال ابن القيم: فحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكتابة إذا كمل تصويره، وتخليقه، وتقدير أعضائه، وكونه ذكرًا أو أنثى، وحديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عند ابتداء تعليق التخليق، وهو إذا مضى عليها أربعون ودخلت في طور العلقة، فالأول لما يكون للجنين بعد تصويره، والثاني لما يكون بعد الأربعين.

رابعًا: التقدير الحولي في ليلة القدر، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

خامسًا: التقدير اليومي، وهو سَوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت فيما سبق، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾.

قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: أقمت عليكم الحجة لئلا تقولوا يوم القيامة: إنا غفلنا عن هذا الإقرار بالربوبية والوحدانية.

قوله: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: ما أشركنا، إنما اقتدينا وقلدنا آباءنا، واتبعناهم على جهل منَّا.

قوله: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: نحن معذورون ولا نؤخذ بجريرة غيرنا، فكيف تعذبنا بإشراك من أشرك، والآية تبين أن لا عذر لمقلد في التوحيد.

قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: خرج من معرفة الله، ونُزِع منه العلم الذي كان يعلمه، والانسلاخ: الخروج، يقال لكل من خرج من شيء بالكلية: انسلخ منه، وانسلخت الحية من جلدها، إذا خرجت منه، جاء عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسند صحيح في هذه الآية: هو صاحبكم أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ. رواه الطبري.

وكان أمية ممن طلب الدين ونظر في الكتب السماوية، وعلم أن نبيًا يُبعث من العرب أظل زمانه، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ علامته ومعجزاته، ولم يسلم، بل صار أقرب إلى موالاة المشركين ومناصرتهم، وقيل: إنه طمع في أن يكون هو النبي المنتظر، وعاش أُمية حتى أدرك وقعة بدر، ورثى من قُتل بها من الكُفار، بمرثاة بليغة -قبحه الله- وقيل فيه: أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه، لأنه أكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

قال ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ». متفق عليه.

وعن الشريد بن سويد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنْ كَادَ لَيُسْلِمُ فِي شِعْرِهِ-. قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: هِيهْ. فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: هِيهْ. ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: هِيهْ. حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ». رواه مسلم.

وقيل: إنها نزلت في بلعام بن باعوراء الإسرائيلي، بعثه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ملك يدعوه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فأغراه الملك بالمُلكِ إن هو ترك دينه، ففعل، وأضلَّ الناس بذلك، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَجُلٌ (نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ)، وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، (فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ)، فَأَمَاتَهُ اللهُ، فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، (فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ؛ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا، فَأَلْقَوْهُ.) فَحَفَرُوا لَهُ (فَأَعْمَقُوا)، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، (فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، فَأَلْقَوْهُ.) فَحَفَرُوا لَهُ، (وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا)، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، (فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ)، فَأَلْقَوْهُ». متفق عليه. وفي رواية عند مسلم: «فَانْطَلَقَ هَارِبًا، حَتَّى لَحِقَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ. قَالَ: فَرَفَعُوهُ؛ قَالُوا: هَذَا قَدْ كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ! فَأُعْجِبُوا بِهِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَصَمَ اللهُ عُنُقَهُ فِيهِمْ».

قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ أي: لحق به الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله من الضالين بعد أن كان من المهتدين، يقال: اتبعت القوم، إذا لحقتهم.

قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ أي: بالآيات عن قاذورات الدنيا، فلا يتدنس ولا يتلطخ بها، وتوفيناه

على حال مرضية، وأسكناه رفيع الجنّة.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ركن إلى زينة الدنيا وزهرتها، ومال إلى لذاتها ونعيمها، وآثرها على الآخرة، واتبع ما تهواه نفسه، وأصل الإخلاد: لزوم الشيء والإقامة فيه على وجه الدوام، ومنه الخلود في الجنة.

قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ أي: مثل من آتاه الله علمًا، فانسلخ عن آيات الله، وترك الحق إلى الضلال، كمثل الكلب في الخسة والدناءة.

قوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: يلهث باستمرار، فالآية تقرر أن الكلب دائم اللهاث، يلهث إن طُرِدَ، ويلهث إن ركض، ويلهث إن سار، ويلهث إن وقف، ويلهث إن جلس مرتاحًا، فكل المخلوقات تلهث إذا أصابها إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث على كل حال.

قوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: فكذلك حال من كذب بآيات الله ﷻ، إن وعظته ضل ولم ينتفع بالموعظة، وإن تركته بقي على ضلاله، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهذا المثل السيء عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به، وكذا في كل منافق وكافر، وفيه تعريضٌ باليهود فقد أوتوا التوراة، وعرفوا صفة النبي ﷺ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة.

قوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بئس مثلًا مثلُ القوم المكذبين بآيات الله، أن شُبِّهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلةٍ، أو تحقيق شهوة، ولهذا جاء في في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ». متفق عليه.

قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ أي: من هداه الله فهو السعيد الموفق، وقد جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنهما في خطبة الحاجة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ

لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: خلقنا لجهنم خلقًا كثيرًا من الجن والإنس، وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِهَذَا! عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ. قَالَ: أَوَغَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ». رواه مسلم.

قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يفهمون بها الحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي: لا يرون إلى ما في الكون من آيات دالة على قدرته وعظمته نظر تدبر وتفكر، قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

قوله: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ أي: لا يسمعون القرآن والمواعظ سماع تدبر وتفكّر، فلا يتعظ بما مضى، ولا يتوب مما هو عليه، كما قال تعالى في حق المنافق: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، وقال في حق الكافر: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ولم يكونوا كذلك، فليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية، إنما المراد نفيها عن الهدى، وما ينفعها في الدين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: كالحيوانات والبهائم في عدم الفقه والبصر والاستماع، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾.

قوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: أسوأ حالًا من الحيوانات، فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين النافع والضار.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: أحسن الأسماء؛ لأنها تنبئ عن أحسن المعاني وأجلها، وهي تدل على توحيد الله ﷻ، وكرمه، وجوده، ورحمته، وفضله، ولطفه، وعلمه، وعدله، وقوته، وجبروته، وهي متضمنة لمعاني وصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وليست أعلامًا محضة لا تدل على معاني، ومن اعتقد خلاف ذلك فقد استحق الوعيد الذي دلت عليه الآية، كما أنها أسماء توقيفية لا يجوز أن يطلق عليه اسم لم يرد الشرع به، جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا

وَاحِدًا، لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ. وَفِي رِوَايَةٍ: مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». متفق عليه. وليس المراد عدها وسردها، إنما المراد مَن حفظها وتفكر في مدلولها، وأما سرد الأسماء فهي في الحديث مدرجة عند الترمذي فلا تثبت مرفوعة.

وأسماء الله الحسنى لا تنحصر في تسع وتسعين، بدليل ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ! قَالَ: أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ». رواه أحمد بسند جيد.

قال بعض السلف: التوسل المشروع:

أولًا: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما في هذه الآية.

ثانيًا: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به والأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

ثالثًا: التوسل إلى الله تعالى بتوحيده، قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رابعًا: التوسل إلى الله تعالى بإظهار الضعف، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

خامسًا: التوسل إلى الله بدعاء الصالحين، كما في توسل عمر بدعاء العباس رضي الله عنهما. رواه البخاري.

سادسًا: التوسل إلى الله تعالى بالاعتراف بالذنب، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾.

قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ أي: اطلبوا منه بأسمائه طلب العبادة وطلب المسألة، فيطلب بكل اسم ما يليق به، كقول: يا رحيم ارحمني، يا تواب تب علي، اللهم ارزقني يا رزّاق، اللهم عليك بالكفرة الملحدين، يا شديد العقاب، ولا تقول: اللهم عليك بالكفرة الظالمين يا أرحم الراحمين؛ لأن هذا اعتداء في الدعاء، ولا تقول: يا رزّاق اهدني واصلحني.

قوله: ﴿وَذَرُواْ﴾ أي: اتركوهم لا تحاجوهم، فالآية على هذا منسوخة بالقتال، وقيل وهو الأرجح: معناه الوعيد، كقوله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ

الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وهنا قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ أي: يميلون عن أسماء الله الحسنى، فيزيدون أو ينقصون في أسمائه، ويخترعون أسماء يسمون الله ﷻ فيها بغير اسمه، والإلحاد: هو الميل وترك الاستقامة، والملحد: هو المنحرف عن تعاليم الدين، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه في ناحيته، والإلحاد يكون بالتغيير فيها، كما فعل المشركون، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: لا تزال أمة قائمة على تطبيق شرع الله ﷻ في الأرض قولًا وعملًا، يدعون الناس إليه، وهم أمة محمد ﷺ، فلا تخلى الدنيا في وقت من الأوقات، من قائم لله بحجة، قال ﷺ: «وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ». متفق عليه. وفي حديث ثوبان رضي الله عنه: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». رواه مسلم. وفي حديث جابر رضي الله عنه: «يُقَاتِلُونَ عَلى الحَقِّ». رواه مسلم. وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: «يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ قَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ». رواه مسلم. وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لَا يَزَالُ أَهْلُ الغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». رواه مسلم. وقال سبحانه عن قوم موسى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان، بل هم في كل زمان ومكان.

قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: نأخذهم بالتدريج على مهل، وندنيهم من العذاب درجة بعد درجة، ومنْزلة بعد منْزلة، ثم نأخذهم على غفلة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وقال الحسن: كم مستدرج إليه بالإحسان، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه. والاستدراج: ترك العجلة، وأصله: النقل من حال إلى حال على مهل، كالتدرج، ومنه قيل: درجة، أي: منْزلة بعد منْزلة، واستدرج فلان فلانًا، أي: استخرج ما عنده قليلًا قليلًا، ويقال: درّجه إلى كذا، واستدرجه، بمعنى: أدناه منه على التدرج.

قال الشاعر:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ الليالي يحدث الكَدَرُ

قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ أي: ألا يعرض هؤلاء المكذبون آيات الله على عقولهم، فيفكروا بها

ويتدبروها.

قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أي: ما بمحمد جنون، ولا مَسّ، وهو الذي عاش بينكم وعرفتموه حق المعرفة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وهو رد لقولهم: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: نظرَ تفكرٍ وتدبرٍ واستدلال، لأن التفكر في السماوات والأرض يدل على الله خالقهما ومدبر أمورهما، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بأي حديث بعد هذا القرآن يؤمنون ويصدقون.

قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ أي: من كتب الله عليه الضلالة فلا يهديه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يسألونك يا محمد عن القيامة، وسميت بالساعة، لسرعة ما فيها من الحساب، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، فاليهود والمشركون يسألون عنها استبعادًا لوقوعها وتكذيبًا بوجودها.

قوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: سؤال عن الزمان، مثل (متى)، أي: متى خروجها، وحدوثها؟ ومتى منتهاها، وثبوتها؟ يقال: رست السفينة، إذا استقرت ووقفت.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: لا يعلم وقت حصولها وقيامها إلا الله سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الله سبحانه وتعالى، والتجلية: إظهار الشيء وكشفه.

قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، أو لا يطيقها أهل السماوات والأرض لعظمها، حيث يخافون شدائدها وأهوالها، فليس أحد من الخلق إلا يصيبه من

ضرر يوم القيامة، والقولان وجيهان.

قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ أي: كأنك عالم بها، كثير السؤال عنها، والحفي: المستقصي للشيء، المعتني به كثيرًا، ومنه: إحفاء الشوارب، إذا تعاهدها واعتنى بحلقها أو تقصيرها، ومنه قوله ﷺ كما جاء في حديث معاوية رضي الله عنه: «لَا تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ، فَوَاللهِ لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ». رواه مسلم.

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: هي من الأمور الغيبية التي لا يعلم وقتها إلا علاَّم الغيوب سبحانه، قال الله عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين، وعند مسلم من حديث عمر رضي الله عنه لما جاء جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ يسأله عن الساعة فقال ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا...» وذكر الحديث، وكرر إخفاء علمها للتأكيد على أنه لا يعلم أمرها ومنتهاها إلا هو سبحانه وتعالى، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾

قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لحصلت كثيرًا من منافع الدنيا وخيراتها، ويدخل في ذلك معنى: لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح، جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ، وَلَحَلَلْتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا». متفق عليه.

قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لو كنت أعلم الغيب لما مسني السوء، ولكنت حذرًا من كل طارق يطرقني بشر، ولو كنت أعلم الغيب لما مسني الجنون كما تقولون وتدعون، لأنه نسبوه إلى الجنون، وقد سبق ذلك.

قوله: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: ما أنا إلا رسول من عند الله عز وجل، أنذر المكذبين من

عذاب الله، وأبشر المصدقين بما جئتهم به من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: من نفس آدم عليه السلام.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء، خلقها الله من ضلع آدم.

قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليطمئن إليها ويستأنس بها.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامع الزوج زوجته، وهذا انتقال من النوع إلى الجنس فأول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام إلى الجنس البشري، فكل زوج يغشى زوجته كما أمره الله ليحصل التناسل والتوالد، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي الآية كناية لطيفة عن الجماع بالتغشي، وهو التغطي.

قوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي: حملت بالجنين حملًا خفيفًا دون ثقل أو ألم أو تعب، ويبدأ الحمل خفيفًا لكونه نطفةً في بادئ الأمر، ثم لا يزال يشتد حتى يصير ثقيلًا، قال مالك: أول الحمل يسر وسرور، وآخره مرض من الأمراض.

قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرت بحمله إلى حين ميلاده.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل.

قوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: دعا الزوج والزوجة ربهما ومالكهما.

قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: لئن رزقتنا ولدًا صالحًا سويّ الخِلْقة لنشكرنَّك على نعمائك، فالمسلم والمسلمة يدعوان الله تعالى أن يكون الولد صالحًا مُصلحًا في بدنه وروحه، والكافر والكافرة يدعوان أن يكون الولد صالحًا في بدنه، لا عيوب فيه.

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي: الزوج والزوجة المشركان.

قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: فعبدوا الأصنام والأوثان مع الله ﷻ، وجاء عند ابن جرير عن الحسن البصري قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم، وفي رواية: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده، وفي رواية: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا، وكل الروايات هذه عن الحسن صحيحة الإسناد، ولا يلتفت إلى تأويل غير هذا التأويل، كمن قال: إن الضمير في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ عائد إلى آدم وحواء، وما جاء من أحاديث مرفوعة خلاف هذا فهي أحاديث باطلة ومنكرة ومتروكة، والله أعلم بالصواب.

قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزَّه الله عما ينسبه إليه المشركون.

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أي: أيجعلون مع الله من لا يقدر على خلق شيء؟ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـٔٗا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: هذه الآلهة المزعومة مخلوقة، فكيف تعبد مع الله الخالق؟ كما قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٗا﴾ أي: لا تستطيع هذه الأصنام نصر عابديها، ولا نفعهم، ولا ضرهم.

قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي: فهم في غاية العجز والذلة، لا ينصرون أنفسهم مما أرادهم بسوء، فكيف يكونون آلهة تنصر أتباعها؟ كما فعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع آلهة قومه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبَۢا بِٱلْيَمِينِ﴾، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ولما أسلم معاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا يمران في الليل على أصنام المشركين بالمدينة يكسرانها، وكان لعمرو بن الجموح صنم يعبده ويطيِّبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالغائط، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله، ويطيِّبه، ويضع عنده سيفًا ويقول له: انتصر لنفسك، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه، حتى أخذاه مرة فربطاه مع كلب ميت وقذفاه في بئر، فلما جاء عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورأى ذلك علم أن ما عليه من الدين باطل، وقال:

تَـالله لَـوْ كُنـتَ إِلَهـًا مُسْتَدَن ... لَـمْ تَـكُ والكَلْـبُ جَمِيعًـا فِـي قَـرَنْ

ثم أسلم وحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيدًا.

قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: نادوا أصنامكم واستعينوا بها عليَّ.

قوله: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: اجتمعوا أنتم وهم في إلحاق الأذى والمضرة بي، ولا تمهلوني طرفة عين، ولا تعطوني فرصة للنجاة من كيدكم، كما قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه لما قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، وكقوله عن إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، وكقوله لأبيه ولقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ أي: إن الله ربي هو الذي يتولاني بالحفظ والمنعة والتأييد في الدنيا والآخرة، يحفظني ويمنعني من كيدكم، ويدفع عني الضرر بقوته وحوله وقدرته، وفي حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ». متفق عليه.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ أَحْلِفُ عَلَيْهِنَّ -وَذَكَرَ مِنْهَا-: لَا يَجْعَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ لَهُ سَهْمٌ فِي الإِسْلَامِ كَمَنْ لَا سَهْمَ لَهُ، فَأَسْهُمُ الإِسْلَامِ ثَلَاثَةٌ: الصَّلَاةُ، وَالصَّوْمُ، وَالزَّكَاةُ. وَلَا يَتَوَلَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا فَيُوَلِّيهِ غَيْرَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ». رواه أحمد بسند جيد.

قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي: تحلّى بمكارم الأخلاق، ومنها عامل الناس بالمسامحة واللين، وهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، جاء في حديث عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ. أَوْ كَمَا قَالَ». رواه البخاري معلقًا.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ؛ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ. قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِي يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». رواه البخاري.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ: اعْفُوا عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً». رواه أبو داود

بسند صحيح. وفي حديث عمرو بن حريث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ». صححه ابن حبان.

قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف من الأقوال والأفعال، وكل خصلة حميدة ترتضيها العقول، وتطمئن لها النفوس، قال ﷺ كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ». رواه مسلم.

مَـنْ يَفْعَـلِ الْخَيْـرَ لَا يَعْـدَمْ جَوَازِيَـهُ ... لَا يَـذْهَبُ الْعُـرْفُ بَـيْنَ اللهِ وَالنَّـاسِ

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ». رواه أحمد بسند جيد.

قال الشاعر:

كُـلُّ الْأُمُـورِ تَـزُولُ عَنْـكَ وَتَنْقَضِـي ... إِلَّا الثَّنَـــاءَ فَإِنَّـــهُ لَـــكَ بَـــاقِي

وَلَـــوْ أَنَّنِـــي خُيِّـــرْتُ كُـــلَّ فَضِـــيلَةٍ ... مَـا اخْتَـرْتُ غَيْـرَ مَكَـارِمِ الْأَخْـلَاقِ

والحديث عن الأخلاق مع الناس أمر طويل ليس هذا مكانه، ولكن زبدته تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: «قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». حديث حسن، رواه الترمذي. وفي رواية بسند حسن عند أحمد: «قُلْتُ: أَمِنَ الحَسَنَاتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟ قَالَ: هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ».

وعن جابر بن سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَأَيْتُ رَجُلاً يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ، لاَ يَقُولُ شَيْئًا إِلاَّ صَدَرُوا عَنْهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ! قُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلاَمُ يَا رَسُولَ اللهِ -مَرَّتَيْنِ-. قَالَ: لاَ تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلاَمُ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تَحِيَّةُ الْمَيِّتِ، قُلِ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ. قُلْتُ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: أَنَا رَسُولُ اللهِ الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرَاءَ أَوْ فَلاَةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ. قُلْتُ: اعْهَدْ إِلَيَّ! قَالَ: لاَ تَسُبَّنَّ أَحَدًا. قَالَ: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرًّا وَلاَ عَبْدًا، وَلاَ بَعِيرًا، وَلاَ شَاةً. قَالَ: وَارْفَعْ إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ؛ فَإِنَّمَا وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ». حديث صحيح رواه أبو داود.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ؟ فَسَكَتُوا، فَقَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ، وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لاَ يُرْجَى خَيْرُهُ، وَلاَ يُؤْمَنُ شَرُّهُ». رواه الترمذي بسند صحيح.

قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم.

قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ أي: يستخِفَّنَّك بشيء من الإغراء بالمعاصي، أو الوسوسة، أو الغضب، أو التحريش، وقد شبَّه الله تعالى وسوسة الشيطان وإغراءه بالنَّزغ، وهو إدخال الإبرة وما شابهها في الجلد بلطف، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ». متفق عليه. وفي الآية دلالة على التعوذ عند الغضب، أو الوسوسة، أو نحو ذلك، فعن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ-، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ (وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ). قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ». متفق عليه.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: طيف وهو ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم. أما قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ فهذا طيف حقيقة، وقيل إنه جبريل عليه السلام.

قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ أي: إخوان الشياطين من الإنس، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتدفعهم دفعًا عنيفًا، وقد سمى الله تعالى الكفار إخوانًا للشياطين؛ لأن منهجهم واحد، وطريقهم واحد، وهم سبب وأداة من أدواتهم.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ أي: لا يُمْسكون ولا يكفّون عن إغوائهم.

قوله: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ أي: هلا اختلقتها واخترعتها من نفسك، يقال: اجتبيت الكلام، أي: ارتجلته، واختلقته، واخترعته.

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ أي: إنصات القلب واستماع الأذن، والكفار أدركوا حقيقة أن الإنصات يفضي إلى الهداية، فقالوا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

ويقال: أنصتوه، وأنصتوا له. قال الشاعر:

إِذَا قَالَتْ حَذَامُ فَأَنْصِتُوهَا ... فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامُ

قال بعض المفسرين: لما كان المشركون يكثرون اللغط، والشغب تعنتًا وعنادًا، كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فأمر الله ﷻ عباده المؤمنين بهذه الآية لعلهم يرحمون، وقد أخبر الله ﷻ عن الجن امتثالهم لذلك فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، وقد سبق الاستدلال بهذه الآية في مسألة قراءة المأموم خلف الإمام مع حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا». رواه مسلم. وغيره من الأحاديث في هذا الباب، والصحيح: أن الإنصات على إطلاقه داخل الصلاة وخارجها، في خطبة العيد، وفي الجمعة، إلا أنه يتأكد داخل الصلاة لمجيء بعض الآثار التي تشير إلى نزولها في الصلاة.

قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: وسطًا بين الجهر والمخافتة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، قالت عائشة رضي الله عنها: «أُنْزِلَتْ فِي الدُّعَاءِ». متفق عليه.

والصحيح: أنها نزلت في الدعاء، وفي القراءة داخل الصلاة، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عند الشيخين.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ لَيْلَةً، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه يُصَلِّي يَخْفِضُ مِنْ صَوْتِهِ، وَمَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ. قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ! قَالَ: قَدْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: وَقَالَ لِعُمَرَ رضي الله عنه: مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ! فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُوقِظُ الْوَسْنَانَ، وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا بَكْرٍ، ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ قَلِيلاً. وَقَالَ لِعُمَرَ رضي الله عنه: اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: في الصباح، والعشي، قال الجوهري: الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه آصال وأصائل، والغدو مفرده غداة.

تم تفسير سورة الأعراف، ولله الحمد.

  

سُورَةُ الأَنْفَالِ

وهي مدنية إلا سبع آيات من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

قال سعيد بن جبير: «قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ الْأَنْفَالِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ». رواه البخاري ومسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨﴾

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ واحدها: نَفَل، وهو الزيادة، وسميت الغنائم به؛ لأنها زيادة يتحصل عليها بعد حماية الدين، وتسمى صلاة التطوع نفلًا لأنها زيادة على المفروضة.

ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلًا من غير أن يجب ذلك عليه، ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلًا، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الدفاع عن الإسلام والنكاية في العدو، وقد جاء عند عبد الرزاق والطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النفل ما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل.

وعن سعد رضي الله عنه: «أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ... وَأَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنِيمَةً عَظِيمَةً، فَإِذَا فِيهَا سَيْفٌ، فَأَخَذْتُهُ فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ، فَقُلْتُ: نَفِّلْنِي هَذَا السَّيْفَ، فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حَالَهُ. فَقَالَ: رُدَّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ. فَانْطَلَقْتُ، حَتَّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ فِي الْقَبَضِ لَامَتْنِي نَفْسِي، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: أَعْطِنِيهِ - وَفِي رِوَايَةٍ: أَأُجْعَلُ كَمَنْ لَا غَنَاءَ لَهُ؟ -. قَالَ: فَشَدَّ لِي صَوْتَهُ: رُدَّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾». رواه مسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ مِنَ النَّفَلِ كَذَا وَكَذَا -

وَفِي رِوَايَةٍ: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا- قَالَ: فَتَقَدَّمَ الْفِتْيَانُ، وَلَزِمَ الْمَشْيَخَةُ الرَّايَاتِ فَلَمْ يَبْرَحُوهَا، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَالَ الْمَشْيَخَةُ: كُنَّا رِدْءًا لَكُمْ؛ لَوِ انْهَزَمْتُمْ لَفِئْتُمْ إِلَيْنَا، فَلَا تَذْهَبُوا بِالْمَغْنَمِ وَنَبْقَى. فَأَبَى الْفِتْيَانُ، وَقَالُوا: جَعَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَنَا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾، -وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَسَّمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسَّوَاءِ-، يَقُولُ: فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ، فَكَذَلِكَ أَيْضًا، فَأَطِيعُونِي؛ فَإِنِّي أَعْلَمُ بِعَاقِبَةِ هَذَا مِنْكُمْ». رواه أبو داود بسند جيد.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً قِبَلَ نَجْدٍ فَكُنْتُ فِيهَا، فَبَلَغَتْ سِهَامُنَا اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا، وَنُفِّلْنَا بَعِيرًا بَعِيرًا، فَرَجَعْنَا بِثَلَاثَةَ عَشَرَ بَعِيرًا». متفق عليه.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يَوْمَ خَيْبَرَ) لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ، وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا. وَفِي رِوَايَةٍ: جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ، (وَلِصَاحِبِهِ) سَهْمًا». متفق عليه.

وقول سلمة رضي الله عنه حين غزوا فزارة وعليهم أبو بكر وفيه: «فَنَفَّلَنِي أَبُو بَكْرٍ ابْنَتَهَا». رواه مسلم.

وإنما ردَّ الله تعالى أمر الغنائم إلى رسوله ﷺ لتخلص نفوس المؤمنين من كل ملابسات الغنيمة، فلا يبقى في النفوس من أجلها شيء، وليذهب ما حاك في نفوس الذين حازوا الغنائم ثم سويت قسمتهم مع الآخرين.

وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع:

الأولى: النفل لا خُمس فيه، وذلك السلب.

الثانية: النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية فيما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس، وقد جاء في حديث حبيب بن سلمة رضي الله عنه قال: «شَهِدْتُ النَّبِيَّ ﷺ نَفَّلَ الرُّبُعَ فِي الْبَدْأَةِ، وَالثُّلُثَ فِي الرَّجْعَةِ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن معن بن يزيد رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لاَ نَفْلَ إِلاَّ بَعْدَ الْخُمُسِ». رواه أبو داود بسند جيد.

الثالثة: في النفل من الخمس، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمَّس، فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى، وقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ يُنَفِّلُ بَعْضَ مَنْ يَبْعَثُ مِنَ السَّرَايَا لِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً سِوَى قِسْمِ عَامَّةِ الْجَيْشِ». متفق عليه، والخمس في ذلك واجب كله.

الرابعة: في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن يعطى رعاة الماشية ونحوهم، وفي كل ذلك اختلاف.

قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلى الله وإلى الرسول الحكم فيها والعمل بها بما يقرب من الله تعالى.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: فزعت، وخافت، والوجل: الخوف والفزع، قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾ أي: لا تخاف، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

وفي حديث عمر ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ». رواه الترمذي بسند صحيح. فالإيمان ليس كلمة تقال باللسان، إنما هو قول وعمل، ولفظة (إنما) قصر وجزم، جاء في حديث أَبي هُرَيْرَة ﵁: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ». متفق عليه، وترجم عليه البخاري: (باب من قال إن الإيمان هو العمل).

قوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ جاء في حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». متفق عليه.

قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: إنَّ رد الأنفال لله والرسول، يشبه إخراج الله لك من بيتك بالحق لمقاتلة المشركين، فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا، كذلك ينجز لكم ما وعدكم به في الآخرة، وقيل: هو قَسَمٌ، أي: والذي أخرجك، فالكاف بمعنى الواو، و (ما) بمعنى (الذي).

عن أنس ﵁ قال: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ-. قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ. قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا. فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا. فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ. فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ. قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا». رواه مسلم.

قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ أي: في القتال.

قوله: ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: من بعد ما تبين لهم أن القافلة نجت وأفلتت منهم، وأن قريشًا تجهزت لقتالهم، وأن قتالهم أصبح أمرًا واقعًا، وقيل: من بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله، وقيل: بعدما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالعير، أو بأهل مكة.

قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: كراهة من يساق إلى حتفه وهو متيقن بهلاكه، وما ذلك إلا لقلة عددهم، وعدم تأهبهم واستعدادهم للقتال.

قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ إما القافلة وما فيها من أموال وتجارة، وإما النفير والملاقاة، جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَدْرٍ قِيلَ لَهُ: عَلَيْكَ الْعِيرُ، لَيْسَ دُونَهَا شَيْءٌ! فَنَادَاهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ فِي وَثَاقِهِ: لاَ يَصْلُحُ. وَقَالَ: لأَنَّ اللهَ وَعَدَكَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَقَدْ أَعْطَاكَ مَا وَعَدَكَ». رواه الترمذي بسند جيد.

قوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ أي: غنيمة.

قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أي: تحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح معها للحرب ولا منعة وهي العير المحملة بالخير، والقادمة من الشام، فالشوكة: السلاح، ومنه: رجل شائك السلاح أي: حديد السلاح، ثم يقلب فيقال: شاكي السلاح، أي: منيع قوي. قال مرحب قبحه الله:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

قال عامر:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرُ ... شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ

قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ليحق الحق ويثبته، ويبطل الباطل ويزهقه، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بوعده؛ لأنه وعد نبيه في سورة الدخان، بقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَنَّهَا يَوْم بَدْرٍ». رواه البخاري. وقيل: بأمره إياكم أن تجاهدوهم.

قوله: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠

إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ
وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا
إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ أي: متتابعين تأتي فرقة بعد فرقة، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أنه أمدهم بألف من الملائكة، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدهم بثلاثة آلاف، ولا تعارض بين اللفظين، فإنه تعالى ذكر هنا لفظ (مردفين) ومعناه متتابعين، فأمدهم الله ﷻ أولًا بألف، ثم تتابع عدد الملائكة حتى وصل إلى ثلاثة آلاف.

قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس بالعدد، ولا بالعدة، ولا بالمال، إنما هو هبة يهبها الله تعالى لعباده المؤمنين، كقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: وساوسه وتخذيله وتخويفه.

قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أي: اضربوهم على الأعناق، حتى تطير الرؤوس، كقوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

قوله: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ أي: كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة، والمقصود: الثبات في الحرب، ومواضع الضرب، فإذا ضربت البنان تعطل في المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنترة:

وَكَانَ فَتَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِي ذِمَارَهَا ... وَيَضْرِبُ عِنْدَ الْكَرْبِ كُلَّ بَنَانِ

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ أي: مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفًا، والزحف: الدنو قليلًا قليلًا، وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفًا، والتزاحف: التداني والتقارب، وازدحف القوم أي: مشى بعضهم إلى بعض.

قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ فيها بشاعة على الفار؛ لأنه سبحانه عبّر بالدبر مذمة لمن فر من الزحف. قال الشاعر:

لَيْسَ النُّكُوصُ عَلَى الْأَدْبَارِ مَكْرُمَةً ... إِنَّ الْمَكَارِمَ إِقْدَامٌ عَلَى الْأَسَلِ

وجاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ... وذكر منها: التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ». متفق عليه.

وعن زيد ﵁ مولى رسول الله ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ جاء في حديث أبي سعيد ﵁ قال: نزلت في يوم بدر. رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: التوجه لقتال طائفة أخرى من الأعداء، كالمنحرف من جانب إلى جانب، وهذا غير المنهزم والفار، والتحرف: الزوال عن جهة الاستواء.

قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: إذا فرّ وانضم إلى فئة أخرى من المسلمين يستنجد بهم فيعاونونه ويعاونهم، والمعنى: لا يشرع الفرار من الزحف إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب، بأن تختارون موقعًا أحسن، أو تدبرون خطة أحكم، أو أن يكون ذلك انضمامًا إلى فئة أخرى من المسلمين، لتعاودوا القتال.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وقد حصل للرسول ﷺ وأصحابه في عدة مواطن، منها ما كان يوم بدر وهي سبب النزول، والعبرة بعموم اللفظ.

ومنها ما كان يوم أحد، فقد جاء في حديث سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: «أَقْبَلَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ يَوْمَ أُحُدٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرِيدُهُ، فَاعْتَرَضَ رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ تُرْقُوَةَ أُبَيٍّ مِنْ فُرْجَةٍ بَيْنَ سَابِغَةِ الدِّرْعِ وَالْبَيْضَةِ، فَطَعَنَهُ بِحَرْبَتِهِ فَسَقَطَ أُبَيٌّ عَنْ فَرَسِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ طَعْنَتِهِ دَمٌ، فَكَسَرَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَأَتَاهُ أَصْحَابُهُ وَهُوَ يَخُورُ خُوَارَ الثَّوْرِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا أَعْجَزَكَ إِنَّمَا هُوَ خَدْشٌ فَذَكَرَ لَهُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: بَلْ أَنَا أَقْتُلُ أُبَيًّا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي بِي بِأَهْلِ ذِي الْمَجَازِ لَمَاتُوا أَجْمَعِينَ. فَمَاتَ أُبَيٌّ إِلَى النَّارِ، فَسُحْقًا

لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الْآيَةُ». صححه الحاكم.

ومنها ما كان يوم حنين حين غشى الصحابةُ رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوه الكفار من هوازن وغطفان ومن كان معهم يوم حنين فقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ. فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ». رواه مسلم من حديث سلمة رضي الله عنه.

وفي حديث العباس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ! انْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ! -. قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا». رواه مسلم.

قوله: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مضعفه ومشتته.

قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ جاء عن عبد الله بن ثعلبة بن أبي صُعَير العذري رضي الله عنه قال: «كَانَ الْمُسْتَفْتِحَ يَوْمَ بَدْرٍ أَبو جَهْلٍ، وَإِنَّهُ قَالَ حِينَ الْتَقَى الْقَوْمُ: اللهُمَّ أَيُّنَا كَانَ أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ، وَآتَى لِمَا لا نَعْرِفُ، فَافْتَحِ الغَدَاةَ، وَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاحَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾». رواه أحمد بسند جيد.

قوله: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

قوله: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: جموعكم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ جاء في حديث أبي سعيد المعلى رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ أُجِبْهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ -، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثُمَّ قَالَ لِي: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ». رواه البخاري.

قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». رواه مسلم.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله ﷻ: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال: يحول بين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين المؤمن وبين المعاصي. صححه الحاكم.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي: لا تخص أهل المعاصي فحسب، بل تعم الصالح والطالح، وهذا يكون عند ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال ﷺ في حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ». حديث حسن رواه الترمذي.

وعن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ؛ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا! فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا». رواه البخاري.

عن زينب الثقفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: وَعَقَدَ سُفْيَانُ (تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً)-، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ». متفق عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بمكة، وقيل: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاه عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم مات وردي في النار، لا يعلم في الأرض أحد أشر منْزلة منهم، حتى جاء الله بالإسلام،

فمكن لهم في البلاد، ووسع لهم في الرزق، وجعلهم ملوكًا على رقاب الناس.

قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار، لأنها تشغل البال عن القيام بالطاعات، وتنسي أمور الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وقد جاء في حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن كعب بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وعند البزار والطبراني بسند لا بأس به من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَعَنَهُ اللهُ، قَالَ: لَنْ يَنْفَلِتَ مِنِّي ابْنُ آدَمَ مِنْ إِحْدَى ثَلاثٍ: أَخْذُ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، وَوَضْعُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، أَوْ يَمْنَعُهُ مِنْ حَقِّهِ».

وعن يعلى العامري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «جَاءَ الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ». رواه ابن ماجه بسند حسن.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: مخرجًا، ونجاة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، قال الشاعر:

وَكَيْفَ أُرَجِّي الْخُلْدَ وَالْمَوْتُ طَالِبِي ... وَمَا لِي مِنْ كَأْسِ الْمَنِيَّةِ فُرْقَانُ

وقيل: فصلًا بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقد أشرنا إلى ذلك عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليقيدوك ويحبسوك، أو ليثخنوك بالجراح والضرب الشديد، وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ. يُرِيدُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ اقْتُلُوهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ. فَأَطْلَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...». رواه أحمد وصححه ابن حجر.

قوله: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي: ينفوك من مكة مطرودًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول

الله ﷺ: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاَثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلاَلٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلاَلٍ». رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ ضَرَبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّةً حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يُنَادِي: وَيْلَكُمْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ! فَتَرَكُوهُ وَأَقْبَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ». رواه البزار بسند صحيح.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي: الذي يقرؤه محمدٌ.

قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: منزّل من عندك.

قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كما أنزلتها على قوم لوط، وما ذكر المطر في القرآن إلا في العذاب.

قوله: ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ، أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الْآيَةَ». متفق عليه.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْحَقِّ فَاخْسِفْ بِي. فَخُسِفَ بِهِ». رواه البزار وحسنه ابن حجر، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي: بمكة بين أظهرهم حتى يخرجوك؛ لأن العذاب إذا نزل عم.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يقولون في طوافهم: غفرانك، غفرانك، وقيل: إشارة إلى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين، الذين لم يهاجروا، ولهذا لما خرجوا عذبهم الله ﷻ يوم بدر، ويوم فتح مكة، فبسبب وجود هؤلاء المستضعفين لم يعذبهم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقيل: علم الله تعالى في علمه الأزلي أنه سيكون منهم من يؤمن، أو سيخرج الله من أصلابهم من

يستغفر الله، وهذا من رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن جعل فيها أمانين لا يزالون معصومين مجارين من طوارق العذاب ما دام بين أظهرهم، فأما الأمان الأول فهو الرسول الرحيم بهم ﷺ وقد قبضه الله ﷻ إليه، وأما الأمان الثاني فهو استغفار الله تبارك وتعالى، فما دام فيهم من يستغفر الله تعالى فإنه لن يستأصلهم، وجاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللهُ عليَّ أَمَانَيْنِ لأُمَّتِي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهُمُ الاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». رواه الترمذي وأحمد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وقد عذبهم ببدرٍ وغيرها.

قوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: أهلًا لولاية المسجد الحرام كما زعموا وادَّعوا من أنهم ورثة إبراهيم عليه السلام وسدنة بيت الله الحرام، كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فهم ورثة إبراهيم عليه السلام، جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا: وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». رواه أبو داود بسند جيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ أي: صفيرًا بالأفواه، يُدخلون أصابعهم في أفواههم وينفخون فيخرج من بينها صوت الصفير، وهو مأخوذ من صوت طائر أبيض بالحجاز، يقال له المكاء.

قوله: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيق، وهو صفق الأكف بعضها ببعض حتى يخرج منها صوتًا، وهكذا يفعل

كثير ممن يعكفون على المقامات والأعتاب اليوم، من الصوفية ومن قلدهم، عندما يخلطون عبادة الله بالرقص، والتصفيق، والتصفير، فلا وقار فيه ولا استشعار ولا خشوع لهيبة الله ﷻ.

قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ أي: يؤمنوا بالله، ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين.

قوله: ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ قال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟». رواه مسلم. فالفرصة أمامهم سانحة والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا وينتهوا عما هم فيه من الكفر، ومن الكيد للإسلام وأهله، ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله. قال الشاعر:

يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إِذَا اعْتَرَفْ ... بِمَا جَنَى مِنَ الذُّنُوبِ وَاقْتَرَفْ

قوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ أي: إلى القتال، لا أن يعودوا إلى الكفر؛ لأنهم كافرون لم ينفصلوا عن الكفر بعد.

قوله: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: يعذب المكذبين بعد التبليغ، وينصر أولياءه ويُمَكِّن لهم.

المُحَصَّل في تَفْسِيرِ القُرْآنِ المُنَزَّل

العُشْر الرابع

يَحْيَى بن عَبْد العَزِيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الأَنْفَالِ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي: بعد أن رد الله تعالى الحكم في الغنيمة إليه والى رسوله ﷺ، شرع في بيان أحكامها، وهو تخميس كل قليل وكثير يغنمه المقاتلون، حتى الخيط والمخيط، وبعد تخميسها يرد أربعة أخماس كل شيء من الغنيمة إلى المقاتلين، واستبقاء الخمس يتصرف فيه رسول الله ﷺ والأئمة المسلمون القائمون على شريعة الله المجاهدون في سبيل الله من بعده، في هذه المصارف: في سبيل الله تعالى، ولرسوله ﷺ وقرابته، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم.

وقد جاء في حديث عبد الله بن شقيق عن رجل قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بِوَادِي الْقُرَى، وَهُوَ يَعْرِضُ فَرَسًا فَقُلْتُ: يَا رسُولَ الله مَا تَقُولُ فِي الغَنِيْمَةِ؟ قَالَ: لِلَّهِ خُمُسُهَا، وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلْجَيْشِ. قُلْتُ: فَمَا أَحَدٌ أَوْلَى مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: لا، وَلا السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَنْبِكَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ». رواه البيهقي وصححه ابن كثير.

ويخرج من هذه القاعدة ما خصصه الإجماع وهو أن سَلَبَ المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام، وكذلك الأسرى، بخلاف الأرض فالمتعين قسمتها كما جاء أن رسول الله ﷺ قسم أرض خيبر. رواه البخاري.

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا قَرْيَةٍ أَتَيْتُمُوهَا وَأَقَمْتُمْ فِيهَا فَسَهْمُكُمْ فِيهَا، وَأَيُّمَا قَرْيَةٍ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ خُمُسَهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، ثُمَّ هِيَ لَكُمْ». رواه مسلم. وهنا يتضح الفرق بين الغنيمة المأخوذة من الكفار بإرجاف الخيل والركاب، وبين الفيء المأخوذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصلحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج، وهذا مذهب الشافعي. ومن العلماء من يطلق الفيء على الغنيمة والعكس، وقد جاء في حديث عَمْرو بن عَبَسَة رضي الله عنه قال: «صَلَّى بِنَا

رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَعِيرٍ مِنَ الْمَغْنَمِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخَذَ وَبَرَةً مِنْ جَنْبِ الْبَعِيرِ، ثُمَّ قَالَ: وَلاَ يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذَا إِلاَّ الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ». رواه أبو داود بسند جيد.

قال ابن تيمية: الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال الفيء، والمقصود من هذه الآية والأحاديث أن أربعة أخماس الغنائم للمجاهدين وخمسًا منها لله ولرسوله يقسمه الإمام على مصالح المسلمين، ويعطى منه القرابة باجتهاده، وبهذا القول أخذ الخلفاء الراشدون، وذكر الأصناف الأربعة إنما هو على وجه التنبيه عليهم؛ لأنهم من أهم من يدفع إليه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وللرجل جائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.

قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: يوم بدر؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، وقد جاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «كَانَت لَيلَةُ الفُرْقَانِ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ لِسَبعِ عَشَرَ مِن رَمَضَان». رواه الطبري.

لقد كانت غزوة بدر التي بدأت وانتهت بتدبير من الله تعالى فرقانًا بين الحق والباطل، فرقانًا بين الوحدانية لله ﷻ وبين الشرك.

قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بضفة الوادي الأقرب من المدينة، وعدوة الوادي: جانبه وشفيره، والدنيا: تأنيث الأدنى، أي: الأقرب.

قوله: ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: بالضفة الأخرى البعيدة من المدينة، إلى ناحية مكة، والقصوى: تأنيث الأقصى، أي: الأبعد، وكان بين الجيشين ربوة تفصل بينهما، لا يرى أحدهم الآخر، ولا يعلم بمكانه، وإنما جمعهما الله هكذا على جانبي الربوة لأمر يريده.

قوله: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: والقافلة التي فيها تجارة مكة بقيادة أبي سفيان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل البحر.

قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي: لو حددتم المكان واتفقتم الالتقاء عنده ما التقيتم بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد، وجاء في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيْدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُم وَبَيْنَ عَدُوِّهِم عَلى غَيْرِ مِيْعَادٍ». متفق عليه.

قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: متحققًا واقعًا لا محالة ليقضي الله ما أراد بقدرته.

قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: لتكون آية واضحة للناس، فمن يكفر بعد ذلك فإنما يكفر

من غير شبهة، فإن مات على الكفر فقد هلك.

قوله: ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يؤمن من آمن بعد قيام الحجة، ورؤية الآيات والعبر، والإيمان حياة القلوب، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾، عبّر عن الإيمان بالحياة.

قوله: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗا﴾ أي: يرى رسول الله ﷺ في منامه المشركين قليلين، لا قوة لهم ولا وزن، فلما أصبح أخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا وتشجعوا على قتالهم، وقويت نفوسهم.

قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ أي: أرى الله تعالى المسلمون المشركين قلة، عيانًا حال اليقظة لا في المنام، فازدادت جرأتهم عليهم، وتشجعوا لقتالهم، قال عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَحَضّضَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. رواه ابن أبي حاتم بسند صحيح.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله عن أبيه قال في هذه الآية: لقد قللوا في أعيننا، حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة، حتى أخذنا رجلًا منهم فسألناه فقال: كنا ألفًا. رواه ابن منيع بسند لا بأس به كما في المطالب العالية.

قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ أي: ليغتروا ويستهينوا بهم، فلا يستعدوا ويفتروا عن قتالهم، ولما بدأ القتال والتقى الجمعان انعكس الأمر، فكثَّر الله المسلمون في أعين الكفار، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ أي: قوتكم ونصركم، كما تقول: الريح لفلان إذا كان غالبًا في الأمر، وقد جاء في ذم الفرقة قوله ﷺ: «وَالجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالفُرْقَةُ عَذَابٌ». حديث حسن، رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند.

وجاء في مدح لزوم الجماعة قوله ﷺ: «ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَاءِهِمْ». رواه الترمذي بسند صحيح من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بَحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ». رواه الترمذي بسند جيد.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ اللهَ لا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ». حديث حسن، رواه الترمذي، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال ﷺ: «يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ». رواه الترمذي بسند لا بأس به.

قوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كما فعل أبو جهل وأصحابه من كفار قريش عندما خرجوا إلى بدر تكبرًا وبغيًا وطلبًا للفخر والثناء، جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره، أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام، فنقيم عليه ثلاثًا، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا. رواه الطبري في التفسير.

فَوَرَدَ بدرًا، فسُقُوا مكان الخمر كؤوس المنايا، وناحت عليهم النوائح مكان المغنيات، وقتل كمدًا وقهرًا، ورُكِم هو وأصحابه في أطواء بدر مهانين أذلاء صاغرين أشقياء، ولعنهم الله والملائكة والناس أجمعون.

قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي: مجير ومعين لكم، قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر، وكانت قريش تخافهم أن يأتوهم من ورائهم؛ لأنهم قتلوا رجلًا منهم، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أشراف بني بكر من كنانة فقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعًا.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ أي: قرب كل من الفريقين المتقاتلين من الآخر وصار بحيث يراه ويعرف حاله.

قوله: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ أي: رجع القهقرى، وتولَّى هاربًا إلى الوراء، وهو جهة العقبين، وهما مؤخري الرجلين، لأنه رأى الملائكة ومعهم جبريل وميكائيل، ومعنى النكوص: الرجوع والإحجام عن الشيء. قال الشاعر:

وَمَا يَنْفَعُ الْمُسْتَأْخِرِينَ نُكُوصُهُمْ وَلَا ضَرَّ أَهْلَ السَّابِقَاتِ التقدم

وعن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلاَ أَدْحَرُ وَلاَ أَحْقَرُ وَلاَ أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ؛ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِلاَّ مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ. قِيلَ: وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ». رواه مالك، وقال ابن عبد البر: مرسل حسن.

قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: أن يعذبني، وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله ﷻ، ولكن علم أن لا قوة ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه وانقاد له، فإنه حين تتجلى الحقائق، وتزول الأوهام، يتخلى عن أوليائه، ويسلمهم شر مُسَلَّم، ويتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ وذلك لأنهم رأوا النبي ﷺ وأصحابه قلة، ورأوا جند الكافرين كثرة كاثرة حتى قال قائلهم قسوة وعتوًا: والله لا يعبد الله بعد اليوم، والفرق بين المنافقين وبين من في قلبه مرض أن المنافقين هم من أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأما من في قلبه مرض فهو الشاك، أو من دخل في الإسلام على ضعف نيته.

قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حذف جواب (لو) للتهويل والتعظيم من حالهم، وجواب (لو) تقديره: لرأيت أمرًا عظيمًا هائلًا فظيعًا منكرًا، لا يكاد يوصف.

قوله: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أي: حال قبض ملائكة العذاب لأرواح الكفار، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، والبسط: الضرب، وكذا في سورة محمد قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: كعمل وطريق آل فرعون، ومن تقدمهم من الأمم التي طغت وكفرت، كقوم نوح، وعاد، وثمود، والدأب: العادة، وهي الدوام والمواظبة على عمل ما.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ

عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي: على ألا يعينوا المشركين على المسلمين، وأخذت عليهم المواثيق والأيمان على ذلك.

قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي: تظفر بهم، وتقدر عليهم، والثقف: الأخذ والظفر.

قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: فنكِّل بهم واقتلهم قتلًا شديدًا ليكونوا عبرة لغيرهم إذا سمعوا بما حصل لهم فيشردوا ويجبنوا عن ملاقاتكم، والتشريد في اللغة: التبديد والتفريق، يقال: شردت بني فلان إذا قاتلتهم وطردتهم عن مواضعهم حتى فارقوها، وكذا الواحد تقول: تركته شريدًا عن وطنه وأهله، ومنه: شرد البعير والدابة إذا فارق صاحبه، فالأصل عند ملاقاة الأعداء في أرض المعركة أن لا هوادة معهم، ويجب قتالهم قتالًا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: إذا تيقنت نكثًا للعهد بينكم، وظهرت آثار الخيانة، وثبت دلائلها، فأعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وميثاق وهم يثقون بك فيكون ذلك غدرًا وخيانة، أما إذا لم يظهر منهم ذلك، فالعهد والميثاق يبقى على حاله. قال الشاعر:

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الْغُدَّرِ الْأَعْدَاءِ   حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ

وعن سليم بن عامر قال: «كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّوم عَهْدٌ، وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ، حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ! فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدَّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ. فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يعني ولو في حق الكفار.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾ أي: فاتوا وأفلتوا كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ عن عقبة بن عامر ﵁ قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ». رواه مسلم.

وعن عقبة ﵁ قال: سَمِعْتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صُنْعِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَمُنْبِلَهُ، وَارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا». حديث حسن، رواه أبو داود.

وعن أبي نجيح السلمي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَهُ دَرَجَةٌ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وقد جاء الحث على الرمي وتعلُّمه والحذر من تركه، قال رسول الله ﷺ: «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ، وَيَكْفِيكُمُ اللهُ، فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ». رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر ﵁.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ: قَدْ عَصَى». رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر ﵁.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا سَبَقَ إِلَّا فِي خُفٍّ، أَوْ فِي حَافِرٍ، أَوْ نَصْلٍ». رواه أبو داود بسند صحيح.

قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب مالك إلى العكس، وما ذهب إليه الجمهور هو الراجح لدلالة حديث عقبة ﵁، وقد بدأ الله به لفضله وأهميته.

وفي حديث أبي هريرة قال ﷺ: «الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ: فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ؛ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ؛ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ». متفق عليه.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال ﷺ: «الخَيْلُ ثَلاَثَةٌ: فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَفَرَسٌ للإِنْسَانِ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ. فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ: فَالَّذِي يُرْبَطُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَعَلَفُهُ، وَرَوْثُهُ، وَبَوْلُهُ -وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللهُ-، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ: فَالَّذِي يُقَامَرُ أَوْ يُرَاهَنُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا فَرَسُ الإِنْسَانِ: فَالفَرَسُ يَرْتَبِطُهَا الإِنْسَانُ، يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا؛ فَهِيَ تَسْتُرُ مِنْ فَقْرٍ». حديث صحيح، رواه أحمد.

وعن أبي ذر ﷺ قال: قال ﷺ: «مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ سَحَرٍ بِدَعْوَتَيْنِ: اللَّهُمَّ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، وَجَعَلْتَنِي لَهُ، فَاجْعَلْنِي أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ». حديث صحيح، رواه النسائي.

وعن عروة البارقي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ، وَالْمَغْنَمُ». متفق عليه.

وفي حديث أنس ﷺ: قال رسول الله ﷺ «الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ». متفق عليه.

وعن ابن الحنظلية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُنْفِقُ عَلَى الْخَيْلِ كَالْبَاسِطِ يَدَهُ بِالصَّدَقَةِ لاَ يَقْبِضُهَا». حديث حسن، رواه أبو داود.

وأفضل الخيل الإناث، وقد قيل: الأنثى بطنها كنْز، وظهرها عز.

وعن أبي قتادة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ الْخَيْلِ الأَدْهَمُ الأَقْرَحُ الأَرْثَمُ، ثُمَّ الأَقْرَحُ الْمُحَجَّلُ طَلْقُ الْيَمِينِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَدْهَمَ فَكُمَيْتٌ عَلَى هَذِهِ الشِّيَةِ». حديث حسن، رواه الترمذي.

ويكره الشكال من الخيل، فقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَكْرَهُ الشِّكَالَ مِنَ الْخَيْلِ. وَالشِّكَالُ أَنْ يَكُونَ الْفَرَسُ فِي رِجْلِهِ الْيُمْنَى بَيَاضٌ، وَفِي يَدِهِ الْيُسْرَى، أَوْ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى وَرِجْلِهِ الْيُسْرَى». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: طلبوا الصلح والمهادنة والمسالمة فأجيبوهم إليها، بشرط أن يكون فيه مصلحة للمسلمين، وأن يحفظ لهم عزتهم وكرامتهم، يقال: جنح الرجل إلى الآخر إذا مال إليه، ومنه قيل للأضلاع: جوانح لأنها مالت على الأمعاء، وجنحت الإبل إذا مالت أعناقها في السير، وجنح الليل، إذا أقبل وأمال أطنابه على الأرض.

والسلم والسلام: هو الصلح، ولا يُدعى إلى السلم في حال القوة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

قال الشاعر:

فَلَا صُلْحَ حَتَّى تُطْعَنَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا ... وَتُضْرَبَ بِالْبِيضِ الرِّقَاقِ الْجَمَاجِمُ

وإن كان للمسلمين مصلحة ظاهرة لنفع يجلب أو ضرر يدفع فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه، وقد جاء في حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رضي الله عنهما في صلح الحديبية: «أَنَّهُمْ اصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ، وَعَلَى أَنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً، وَأَنَّهُ لاَ إِسْلاَلَ وَلاَ إِغْلاَلَ». رواه أبو داود بسند حسن. والعيبة المكفوفة: ما يستر العورة، والإسلال: السرقة، والإغلال: الخيانة.

قال الشافعي: لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين؛ لأنه الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية، فإن هودن المشركون أكثر من العشر فهي منتقضة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٦٦ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٦٩﴾

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وشد أزرك بالمؤمنين.

قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: نزلت في المتحابين في الله. رواه البزار بسند جيد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾. صححه الحاكم.

قال الشاعر:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُمْ ... وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الْأَسْبَابِ

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لاَ تُقَرِّبُ قَاطِعًا ... وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَسْبَابِ

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: حثهم وحضهم ورغبهم،

والحارض الذي قد قارب الهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: تذوب غمًا فتقارب الهلاك، وقد فعل النبي ﷺ ذلك في غزواته كلها، فقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ. قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا. فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ». رواه مسلم.

قوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ-، ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الْآيَةَ، فَكَتَبَ أَنْ لَا يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ، نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خُفِّفَ عَنْهُمْ». رواه البخاري. وهو على هذا القول تخفيف لا نسخ، وذكر بعض الأصوليين: أن الحكم إذا نسخ بعضه، أو بعض أوصافه أو غير عدده فجائز أن يقال: إنه نسخ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول بل هو غيره.

وجاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَمْ يَفِرَّ، وَمَنْ فَرَّ مِنَ اثْنَيْنِ فَقَدْ فَرَّ. يَعْنِي مِنَ الزَّحْفِ». رواه ابن أبي شيبة في المصنف.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ! هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ -نَسِيبًا لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ. شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ». رواه مسلم.

وعن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ جِبْرَائِيلَ هَبَطَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: خَيِّرْهُمْ فِي أُسَارَى بَدْرٍ:

الْقَتْلُ، أَوِ الْفِدَاءُ عَلَى أَنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ قَابِلاً مِثْلُهُمْ. قَالُوا: الْفِدَاءَ وَيُقْتَلُ مِنَّا». رواه الترمذي بسند جيد.

والإثخان: الشدة والقوة في القتل، والمراد هنا المبالغة في قتل الأعداء وقهرهم، فأخبر سبحانه أن قتل الأسرى الذين فُودُوا ببدر كان أولى من فدائهم، وكان هذا خاص في وقعة بدر لعظمتها ولشراسة الكافرين فيها، وقلة المسلمين، وأما بعد ذلك فقد قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لولا حكم الله ﷻ في الأزل أنه لا يعذب قومًا حتى يبين لهم ما يتقون، وقيل: الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر، كما قال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». متفق عليه من حديث علي رضي الله عنه.

وقيل: الكتاب السابق هو ألا يعذب أحدًا بذنب أتاه جاهلًا حتى يتقدم إليه.

وقيل: الكتاب السابق هو مما قضى الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر، وجميع هذه الأقوال في غاية الوجاهة، والقول الأول أوجهها.

وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخيّر فيهم، إن شاء قتل كما فعل في بني قريظة، كما في حديث عائشة رضي الله عنها، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، كما رواه مسلم، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها، وكانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردهما، وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، كما رواه مسلم من حديث سلمة رضي الله عنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ أي: احتضنوا المهاجرين، واعتنوا بهم، ونصروا دين الله ورسوله، وهم الأنصار.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: كل منهم أحق بالآخر، بالنصرة والمؤاخاة، ولهذا آخى

رسول الله ﷺ بين هاتين الفئتين، وكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ؛ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ نَسَخَتْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إِلَّا النَّصْرَ وَالرِّفَادَةَ وَالنَّصِيحَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ، وَيُوصِي لَهُ».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي: فلا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر، جاء عند مسلم من حديث بريدة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، أَيَّتُهَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، وَادْعُهُمْ إِلى الإِسْلامِ، وَالتَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُوا كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ مَا يَجْرِي عَلى الأَعْرَابِ، لَيْسَ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ إِلا أَنْ يُجَاهِدُوا، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ حِصْنًا، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَل لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلا تَجْعَل لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَاجْعَل لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَمَ أَصْحَابِكَ، لأَنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلى حُكْمِ اللهِ فَلا تُنْزِلُوهُمْ، وَلكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لا».

قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: لأنهم إخوانكم في الدين، ولكن إذا كانوا أسرى مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة واجبة.

قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: فلا تعينوهم عليهم، ولا تنقضوا عهودكم مع الذي عاهدتم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: من تولي المؤمنين ومحبتهم، وقطع الكافرين وبغضهم.

قوله: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: اختلاط المؤمنين بالكافرين، فتزداد قوة الكفار وتضعف قوة المسلمين.

قوله: ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ظهور الشرك، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسند لا بأس به من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُل مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلِمَ؟ قَالَ: لا تُرَاءَى نَارَاهُمَا». وفي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عند أبي داود بسند حسن قال ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ».

قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: الأقارب أحق بالإرث من الأباعد في حكم الله، وهي تشمل جميع القرابات لا كما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا عصبة، بل يدلون بوارث كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، والأخوات، وهذه الآية ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما عندما آخى رسول الله ﷺ بينهم.

تم تفسير سورة الأنفال، والحمد لله.

  

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وهي مدنية باتفاق، وقد جاء في الصحيحين عن سعيد بن جبير قال: «قُلْتُ لابنِ عَبّاسٍ: سُوْرَة التَّوْبَة؟ قَالَ: التَّوْبَة؟ قَالَ: بَلَى، هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَت تَنْزِل (وَمِنْهُم) (وَمِنْهُم) حَتّى ظَنّوا أَنْ لا يَبْقَى مِنّا أَحَدٌ إلا ذُكِرَ فِيْهَا»، وسميت بالفاضحة لأنها كشفت أسرار المنافقين وبعثرت آمالهم، وأحرقت أوراقهم، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث البراء رضي الله عنه قال: «آخِر سُوْرَة أُنْزِلَت تَامَّة سُوْرَة التّوْبَة».

ولم تبدأ بالبسملة في أولها بخلاف باقي السور لأن الصحابة لم يكتبوها، فقد روى الترمذي بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قُلْتُ لِعُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانَ: مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدتُم إِلَى الأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ المَثَانِي، وَإِلَى بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ المِئِينَ فَقَرَنْتُم بَيْنَهُمَا وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ، مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ العَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَؤُلاءِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا. وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الآيَةَ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا. وَكَانَتْ الأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا أُنْزِلَتْ بِالمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةٌ مِنْ آخِرِ القُرْآنِ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ».

وقيل: لم تكتب البسملة لأن في معناها الأمان والرحمة، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان ولا رحمة على الكفار والمشركين، والحاصل أن البسملة لم تكتب في بداية التوبة لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ٦﴾

قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: هذا قطع للعهود والمواثيق فيما بين الله ورسوله، وبين المشركين كافة، وكان حال المشركين من ناحية العهود مع المسلمين على ثلاث حالات: مشركون بينهم وبين المسلمين عهود مطلقة إلى الأبد غير مؤقتة، ومنهم من كان له عهد مقيد بأجل معين، ومنهم من كان له عهد فنقضه ونكثه، وقد جاء عند الترمذي بسند قوي من حديث علي ﵁ عندما بعثه رسول الله ﷺ ينادي في الناس يوم الحج الأكبر، فقال: «بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ: أَنْ لا يَطُوفَ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَلا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَلا يَجْتَمِعُ المُشْرِكُونَ وَالمُسْلِمُونَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا»، وعند النسائي وأحمد بسند جيد من حديث أبي هريرة ﵁ قال: «جِئْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عَليه وسَلم إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِبَرَاءَةَ، قَالَ: مَا كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: كُنَّا نُنَادِي إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَلاَ يَطُوفُ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عَليه وسَلم عَهْدٌ، فَأَجَلُهُ، أَوْ أَمَدُهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا مَضَتِ الأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، فَإِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، وَلاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، فَكُنْتُ أُنَادِي حَتَّى صَحِلَ صَوْتِي». أي: أصبح غليظًا وخشنًا.

ويصح أن ترفع (براءة) بالابتداء والخبر إلى الذين عاهدتم، وقرئت براءة بالنصب على الإغراء، والتقدير: التزموا براءة.

قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من غير أن يعترضكم أحد من المسلمين بحرب، أو سلب، أو قتل، أو أسر، ومنه قوله ﷺ كما رواه أبو داود من حديث أبي أمامة ﵁ بسند حسن: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى». ومنه قول الشاعر:

لَـوْ خِفْـتُ هَـذَا مِنْـكَ مَـا نِلْتَنِـي ... حَتَّـى تَـرَى خَـيلًا أَمَـامِي تَسِـيحُ

قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ سواء كان عهده إلى أجل مسمى أو إلى أجل غير مسمى، فيسلموا وينبذوا الشرك أو يكونوا حربًا بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يقتلوا حيثما أدركوا ويؤسروا، إلا أن يتوبوا، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر، فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم، وذلك خمسون يومًا، وكان سبب ذلك أن رسول الله ﷺ صالح قريشًا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض -رواه ابن إسحاق والطبري بسند جيد- فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش فَعَدَت بنو بكر على خزاعة، ونقضوا عهدهم، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم، فانهزمت خزاعة إلى الحرم، فكان نقضًا للصلح الواقع يوم الحديبية، فخرج عمرو بن سالم، وبديل بن الورقاء وهم من خزاعة فقدموا على رسول الله ﷺ مستغيثين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش، فتجهز

رسول الله ﷺ لفتح مكة ففتحها، وذلك سنة ثمان من الهجرة، فلما بلغ هوازن فتح مكة استعدوا لحربه، فكانت وقعة يوم حنين، وذلك أول شوال من السنة الثامنة، ثم أتى الطائف فحاصرهم وفتحها، ثم انصرف إلى (الجعرانة) وقسم غنائم حنين، ثم توجه إلى بالمدينة وجلس فيها ذا الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول والآخر، وجمادى الأولى والثانية، وخرج في رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة الروم، وهي غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها.

ولما انصرف من تبوك أراد الحج، فقيل: إن المشركين يطوفون بالبيت عراة، فبعث عليًا مع أبي بكر، وهو أمير الحج يؤذن في الناس يوم الحج الأكبر بمنى: «أنْ لا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلا يَطُوفَ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو المقصود بقوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وكان ذلك سنة تسع.

ثم حج رسول الله ﷺ من قابل حجته التي هي حجة الوداع، لم يحج غيرها فوقعت حجته في ذي الحجة، فقال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ». رواه الشيخان من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، على ما يأتي في آية النسيء بيانه.

وثبت الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة، وكانت الحكمة في تكليف علي رضي الله عنه بمهمة البراءة لأنها تضمنت نقض العهد الذي كان عقده النبي ﷺ، وكانت سيرة العرب ألا يحل العقد إلا الذي عقده، أو رجل من أهل بيته، فأراد النبي ﷺ أن يقطع ألسنة العرب بالحجة.

قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إعلام من الله ورسوله، ومنه: أذنت للصلاة، بمعنى: أعلنت عن دخول وقتها.

قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أي: إلى جميع الخلق المجتمعين يوم النحر، كما جاء معلقًا بصيغة الجزم عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ بَيْنَ الجَمَرَاتِ فِي الحَجَّةِ الَّتِي حَجَّ، وَقَالَ: هَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ».

قوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ورسُولُه كذلك بريء من المشركين، وقاطع لعهودهم ومواثيقهم، وقرئت بالنصب عطفًا على اسم الله ﷻ، أي: أن الله ورسوله بريئان من المشركين، ولا تُقرأ بالجر؛ لأن معناها يكون أن الله يبرأ من رسوله، وهذا كفر إن قصدها وعلم معناها.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ أي: لم ينقصوا من شروط العهد شيئًا، وفيه دلالة أنه كان من أهل العهد من نقض بعهده وغدر، ومنهم من ثبت على الوفاء، فأمر سبحانه بالوفاء لمن بقي على عهده إلى مدته.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: خرجت وانتهت، يقال: انسلخ الشهر إذا صار في أواخر أيامه،

وسلخت المرأة درعها أي: نزعته، وفي التنْزيل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

قوله: ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ أي: اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم.

قوله: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ أي: ترصدوا لهم وراقبوهم في طرقهم ومسالكهم، يقال: رصدت فلانًا أرصده أي: راقبته. أي: اقعدوا لهم في مواضع العزة حيث يرصدون. قال الشاعر:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا إِخَالُكَ نَاسِيا   إِنَّ الْمَنِيَّةَ لِلْفَتَى بِالْمَرْصَدِ

وقال آخر:

أعاذل إن الجهل مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى   وَإِنَّ الْمَنَايَا لِلنُّفُوسِ بِمَرْصَدِ

وفي هذا دليل على جواز اغتيالهم قبل الدعوة.

قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ جاء عند الترمذي من حديث بريدة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ». رواه الترمذي بسند صحيح. وعند مسلم من حديث جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ أو الكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ». وعند الشيخين من حديث ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ في قتال أبي بكر ﵁ لأهل الردة الذين عطلوا الزكاة، فقال عمر ﵁: «كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ؟ فَقَالَ: وَاللهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا، قَالَ عُمَرُ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ﵁ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ».

قوله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: من الذين أمرت بقتالهم، وهو مرفوع بإضمار فعل كالذي بعده، وهذا حسن في (إن) وقبيح في أخواتها، وقد تكون (إن) مخففة من الثقيلة، ولكنها مبهمة.

قوله: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾ أي: دخل في جوارك، وطلب منك الأمان.

قوله: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعطه الأمان، ليسمع القرآن ويفهم أحكامه، وأوامره ونواهيه، ويعلم الإسلام، لتقوم عليه حُجَّة الله، فإن قبل فحسن، وإن أبى فرده إلى مأمنه وبلده، وكلام الله هو القرآن المسموع عند قراءة القاري، وهو كلام بحرف وصوت، وعلى هذا فالإجارة فقط لمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام، أما لغير ذلك فلا، إلا أن يكون فيه مصلحة للإسلام والمسلمين، وقد قال

رسول الله ﷺ لرَسُولَي مُسَيلِمَةَ الكَذَّابِ: «أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالا: نَشْهَدُ أَنَّ مُسَيلِمَةَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا. فَجَرَتْ سُنَّةً أَنْ لا يُقْتَلَ الرَّسُولُ». رواه أبو داود وغيره بسند جيد من حديث نعيم بن مسعود رضي الله عنه.

وقد أسلم ثمامة بن أثال رضي الله عنه بعدما سمع القرآن وشاهد حب المسلمين لدينهم ورسولهم ﷺ، فقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ. فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ».

قوله: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن لم يُسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة، قال ابن تيمية في الجواب الصحيح: ووجه الجمع بين الجدال المأمور به والقتال: أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا نجاهده بالقتال، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وليس داخلًا فيما أمر الله بقتاله، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فالظالم لم نؤمر بجداله بالتي هي أحسن، وأنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب، أمر الله بإجارته حتى تقوم عليه حجة الله، ثم يبلغ مأمنه وهذا في سورة براءة التي فيها نقض العهود وفيها آية السيف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ الاستفهام للتعجب، كقولك: كيف يسبقني فلان، أي: لا ينبغي أن يسبقني. وفي الآية إضمار أي: كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر.

قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ تعجب واستبعاد من أن يكون لهم عهد، لخبث نياتهم، وقوله: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ﴾ أي: يغلبوا ويعلوا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلو عليه.

قوله: ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا﴾ أي: لا يراعوا فيكم قرابة، من رقب الشيء، إذا تعاهده وحافظ عليه، والـ(إِلّ) القرابة، وهي مأخوذة من الآل.

كما قال الشاعر:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلوفٌ خَلَفُوا قَطَعُوا الإلَّ وأعراقَ الرَّحِمِ

قوله: ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: ولا عهدًا، أو حلفًا، أو أمانًا، قال ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث علي رضي الله عنه: «وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِيْن وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ».

قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم، وأصل النكث في كل ما فُتِلَ ثم حُلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

قال الشاعر:

وَإِنْ حَلَفَتْ لَا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَهَا فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ

قوله: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ أي: قدحوا فيه، وقد استدل بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين، إذ هو كافر، والطعن: أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يتعرض بالاستخفاف على ما هو من الدين معروف بالأدلة القطعية، قال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أن من سَبَّ النبي ﷺ عليه القتل، وقد جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَيَنْهَاهَا فَلا تَنْتَهِي، وَيَزْجُرُهَا فَلا تَنْزَجِرُ، فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْتُمُهُ، فَأَخَذَ المِعْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا، وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا، فَوَقَعَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ، فَلَطَّخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: أَنْشُدُ اللهَ رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إلا قَامَ. فَقَامَ الأَعْمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا صَاحِبُهَا، كَانَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، وَأَزْجُرُهَا فَلا تَنْزَجِرُ، وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً فَلَمَّا كَانَ الْبَارِحَةَ، جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذْتُ المِعْوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا، وَاتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلْتُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَلا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ». ولكن إذا سبَّه ثم أسلم، فالقول الراجح أن الإسلام يجب ما قبله، كما قال تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: صناديده ورؤساءه.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ قرئت: لا إيمان لهم، أي: لا إسلام، وقد جاء عند البخاري من حديث زيد بن وهب قال: «كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، وَلَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ

إِلَّا أَرْبَعَةٌ. فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: إِنَّكُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ تُخْبِرُونَا فَلَا نَدْرِي، فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْقُرُونَ بُيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعْلَاقَنَا؟ قَالَ: أُولَئِكَ الْفُسَّاقُ! أَجَلْ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَرْبَعَةٌ، أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ الْمَاءَ الْبَارِدَ لَمَا وَجَدَ بَرْدَهُ». قال القسطلاني: أي: لذهاب شهوته وفساد معدته بسبب عقوبة الله له في الدنيا، فلا يفرق بين الأشياء.

قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا﴾.

قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بالقتال يوم بدر، وقيل: عندما أعانوا قبيلة بنو بكر على قبيلة خزاعة حليفتكم، فكان هذا نقض للعهد والاتفاق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨ ۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ أي: لم يوالوا المشركين ويتخذوهم بطانة ودخيلة يفشون إليهم أسرار المسلمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾، وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، فالدَّاخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة، وأصله من الولوج، وهو الدخول، يقال: وليجة الرجل من يختص بدُخْلة أمره دون الناس.

قوله: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جاء عند مسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَنْ لا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الإِسْلام إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الحَاجَّ، وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ لا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الإِسْلامِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ المَسْجِدَ الحَرَامَ، وَقَالَ آخَرُ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ

ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾

قوله: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ أي: أحبوا، كما يقال: استجابوا بمعنى أجابوا، ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم تبَع للآباء، والإحسان والهبة مستثناة من الولاية، قالت أسماء رضي الله عنها كما جاء في الصحيحين: «إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ ﷺ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ».

قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ أي: إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء، والأبناء، والإخوان، والزوجات ومن سواهم.

قوله: ﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾ أي: جماعة الرجل التي ينتمي إليها ويحتمي بها، ومنه المعاشرة وهي الاجتماع على الشيء.

قوله: ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها، وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره.

قوله: ﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ أي: عدم نفاقها، بفوات وقت بيعها، أو لمقاطعة الكافرين لكم إن لم تتولوهم وتطيعوهم.

قوله: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ أي: تعجبكم الإقامة فيها، لحسنها وطيبها.

قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». وقوله ﴿أَحَبَّ﴾ خبر كان، ويجوز في غير القرآن رفع أحب على الابتداء، والخبر اسم كان مضمر فيها، قال سيبويه مستشهدًا:

إِذَا مِتُّ كَانَ النَّاسُ صِنْفَانِ: شَامِتٌ ... وَآخَرُ مُثْنٍ بِالَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ

قوله: ﴿وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ جاء عند أبي داود بسند لا بأس به من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَئِنْ تَرَكْتُمُ الجِهَادَ وَأَخَذْتُم بِأَذْنَابِ البَقَرِ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، لَيُلْزِمَنَّكُمْ اللهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ لا تَنْفَكُّ عَنْكُمْ، حَتَّى تَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَتَرْجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ».

قوله: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: عقوبته.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ أي: اذكروا يوم أن نصركم الله في غزوة حنين، وهو واد بين مكة والطائف حدثت فيه غزوة حنين في شوال من سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة، وانصرف اسم (حنين) لأنه مذكر، وهي لغة القرآن، ومن العرب من لا يصرفه ويجعله اسمًا للبقعة. قال الشاعر:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمْ وَشَدُّوا أَزْرَهُ ... بِحُنَيْنَ يَوْمَ تَوَاكُلِ الْأَبْطَالِ

قوله: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي: من الخوف.

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلِ

والرُّحب: السعة، تقول: فلان رحب الصدر، أي: واسع الصدر.

قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ جاء عند الشيخين عن أبي إسحاق قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى البَرَاءِ رضي الله عنه فَقَالَ: أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنْ النَّاسِ - أي: مسارعون- وَحُسَّرٌ -أي: لا درع لهم- إِلَى هَذَا الحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ، فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ، كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ، فَانْكَشَفُوا، فَأَقْبَلَ القَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ، فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ، اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ. قَالَ البَرَاءُ رضي الله عنه: كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي يحتمي بالنَّبِيَّ ﷺ».

وعند أحمد بسند صحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ هَوَازِنَ جَاءَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِالصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ وَالْإِبِلِ وَالنَّعَمِ، فَجَعَلُوهُمْ صُفُوفًا يُكَثِّرُونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا الْتَقَوْا وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا عِبَادَ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. فَهَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ جاء عند البخاري من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ، فَقَالَ

لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ مَعِيَ مَنْ تَرَوْنَ، وَ-أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا السَّبْيَ، وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: بِكُمْ-. وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ لَهُمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ. فَقَالَ النَّاسُ: قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ -يَا رَسُولَ اللهِ- لَهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ؛ فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ. فَرَجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا».

ونفل رسول الله ﷺ أناسًا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة الأقرع بن حابس، وأبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، وعباس بن مرداس، روى القسمة الإمام مسلم من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه. وفي ذلك يقول مالك بن عوف:

مَا إنْ رَأيتُ وَلَا سَمعتُ بمثْلِه ... فِي النَّاس كُلّهم بِمِثْل مُحَمَّد
أوْفَى وأعْطَى لِلْجَزِيل إِذَا اجتُدى ... ومَتَى تَشَأ يُخْبرْكَ عَمّا فِي غَد
وإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرّدَتْ أنيابُها ... بالسَّمْهَرِيّ وَضَرْب كُلّ مُهَنَّد
فَكَأنَّه لَيْثٌ عَلَى أشْبَاله ... وَسْطَ الهَبَاءة خَادر فِي مَرْصَد

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ بسبب شركهم، بعكس المسلم، فهو طاهر بالإسلام، قال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «المسْلِمُ لا يَنْجَسُ»، ونجاسة أهل الكتاب نجاسة معنوية وليست نجاسة حسية، فأبدانهم وذاتهم ليست بنجس؛ لأن الله تعالى أحل طعامهم، وأباح نكاح نسائهم، وذهبت الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وما أصابوا، وليس هذا الموضع مكان بسط المسألة، ويتأكد اغتسال الكافر إذا أسلم، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ ثُمَامَةَ بن أثَالٍ حِيْنَ أَسْلَمَ ذَهَبَ فَاغْتَسَلَ»، وعند أبي داود بسند جيد من حديث قيس بن عاصم رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أُرِيدُ الإِسْلامَ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَغْتَسِلَ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ».

قوله: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ عبر عن الدخول بالقرب للمبالغة في النهي، وأطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله، وفي الآية دليل على أن الحرم المكي كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، فإذا جاءنا رسول من أهل الكتاب خرج الإمام إلى الحل ليسمع منه ما يقول، وأما جزيرة العرب فليس لهم الاستيطان فيها، ومن كان منهم فيها يضرب لهم أجل ثلاثة أيام، كما

فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع اليهود.

قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: عام تسع من الهجرة، حين بعث النبي ﷺ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على موسم الحج.

قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقرًا بسبب منعهم من دخول الحرم، أو منعهم من الحج، أو إعلان الجهاد عليهم، يقال: عال الرجل يعيل، إذا افتقر.

قوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فلا رادّ لفضله، فيستبدل أسباب المنع بأسباب العطاء والفضل، والله يريد من بذلك أن تخلص قلوب المؤمنين لله وحده، وأن يتيقنوا أن الله هو المتكفل بأمر الرزق.

قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان، فيستحلون الخمر والخنْزير وما شابههما.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي: ما أخذ من أهل الذمة، جزاء ما أعطوا من الأمن والحماية، من جزى دَينَهُ، إذا قضاه لصاحبه، وجزيته، إذا كافأته، وجمعها: جزى، وسميت جزية لأنها مما يجب على أهلها أن يجزوه أي: يقضوه، وقيل: هي جزاء على بقائهم على الشرك والكفر، فكأنهم أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن، أو بدلًا عن القتل بسبب الكفر، وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب وأُلحق بهم جميع الكفار، كعبدة الأوثان، والمجوس، قال ابن المنذر: لا أعلم خلافًا أن الجزية تؤخذ من المجوس، وقد جاء عند مالك بسند جيد من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَكَرَ المَجُوسَ فَقَالَ: مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ؟ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الكِتَابِ»، وهذا في الجزية خاصة، وهو دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب، وعلى هذا جمهور الفقهاء، وقد روي عن الشافعي أنهم كانوا أهل كتاب فبدلوا، وقد أجمع العلماء أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين، الذين يقاتلون، واختلف في الرهبان، ومتى ما عجزوا عنها فلا تحل عقوبتهم ولا ظلمهم، وفي أخذ الجزية عدل مع أهل الذمة، لأنهم في مقابل إعطائها تصبح لهم حقوق وواجبات، فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، ويعفوا من الخدمة العسكرية، ويسقط عنهم القتال، ومن رضي أن يقاتل مع المسلمين أسقطت عنه الجزية.

قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهر وقوة، يسلموها بأيديهم لا بأيدي غيرهم، فلا توكيل فيها؛ لأن القصد فيها التحقير والتصغير، وقيل: عن غنى ومقدرة، فتؤخذ من أغنيائهم، وتسقط عن الفقير العاجز، والجمع بين القولين صحيح.

قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: أذلاء مقهورون بجريان أحكام الإسلام عليهم، وفي الآية إشارة إلى أنه لا

يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم على المسلمين.

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، فَيُدْعَى اليَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلا وَلَدٍ».

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ ويقال لهم مثل ما قيل لليهود في حديث أبي سعيد ﵁ السابق.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: مجرد دعوى وافتراء وكذب باللسان، من غير دليل ولا برهان.

قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: يشابهون ويماثلون قول المشركين عبدة الأصنام من قبلهم، سواء كانوا من الوثنيين الإغريق، أو الوثنيين الرومان، أو الوثنيين الهنود، وغيرهم من الذين كفروا، وأصلها من المضاهاة وهي المشابهة، كقول العرب: امرأة ضهياء، إذا كانت لا تحيض، أو التي لا ثدي لها، كأنها أشبهت الرجال.

قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس ﵄: كل شيء في القرآن قتل فهو لعن.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي بسند لا بأس به عن عدي بن حاتم ﵁ قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ. وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ». قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

قوله: ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ أي: اتخذت طائفة عيسى ربًا، وطائفة أخرى جعلوه ابنًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ

فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ٣٦﴾

قوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ إن قيل: كيف دخلت (إلا) وليس في الكلام حرف نفي، فلا يجوز قولك: ضربت إلا زيدًا، والجواب: العرب تحذف مع (أَبَى) والتقدير: أبَى الله كل شيء إلا أن يتم نوره، وجاز في (أبى) دون غيرها لأنها منع أو امتناع فضارعت النفي.

قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ جاء عند مسلم من حديث عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا. قَالَ: إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ».

وقد بشَّرنا رسول الله ﷺ بأن هذا الدين سينتشر ويظهر على الأديان كله ويعم الأرض، قال ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث ثوبان ﵁: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ».

وروى الإمام أحمد بسند صحيح من حديث تميم الداري ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ: عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الكُفْرَ. وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ ﵁ يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي: لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالجِزْيَةُ».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي: يجمعونها، والكنز الضم والجمع، وقد روى أبو داود والترمذي بسند لا بأس به من حديث ابن عباس ﵄، قال ﷺ: «ألا أُخبِرُكُم بِخَيْرِ مَا يَكنِزُ المرْءُ؟ المرْأَةُ الصَّالِحَةُ... الحديث». أي: يضمه لنفسه ويجمعه.

وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لا يطلع عليه، بخلاف سائر الأموال.

وهذه الآية عامة فيمن يجمع الأموال ولا يؤدي زكاتها، وقد روى البخاري من حديث أبي ذر ﵁ قال: «كُنْتُ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ. فَقُلْتُ: نَزَلَتْ فِينَا وَفِيهِمْ».

وعند الترمذي بسند جيد من حديث ثوبان ﵁ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: أُنْزِلَتْ فِي الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، لَوْ

عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ فَنَتَّخِذَهُ؟ فَقَالَ: أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ».

واختلف في زكاة الحلي فذهب مالك وأحمد والشافعي في العراق أنه لا زكاة فيه، ثم وقف الشافعي بمصر وقال: أستخير الله فيه. وقال الثوري وأبو حنيفة والأوزاعي: في الحلي زكاة. والذي يظهر رجحانه: قول الموجبين؛ لأن ألفاظ الوجوب في زكاة النقدين لم تفرق بين حلي وغيره، مع أنه جاء عند أبي داود والترمذي بسند جيد من حديث أم سلمة وعائشة وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم ما يدل على وجوب زكاة الحلي، فعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: «إِنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا، وَفِي يَدِ ابْنَتِهَا مَسَكَتَانِ غَلِيظَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: أَتُعْطِينَ زَكَاةَ هَذَا؟ قَالَتْ: لَا. قَالَ: أَيَسُرُّكِ أَنْ يُسَوِّرَكِ اللهُ بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِوَارَيْنِ مِنْ نَارٍ؟ قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا فَأَلْقَتْهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَتْ: هُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ». رواه أبو داود بسند جيد.

وعند أبي داود بسند جيد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَأَى فِي يَدَيَّ فَتَخَاتٍ مِنْ وَرِقٍ؛ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ فَقُلْتُ: صَنَعْتُهُنَّ أَتَزَيَّنُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: أَتُؤَدِّينَ زَكَاتَهُنَّ؟ قُلْتُ: لَا، -أَوْ: مَا شَاءَ اللهُ-. قَالَ: هُوَ حَسْبُكِ مِنَ النَّارِ».

وأما من لم يوجب الزكاة فحجته أن قصد النماء يوجب الزكاة، وهي ليست بمحل للنماء وإنما هي للغنية، والأحاديث الدالة على زكاة الحلي تكلموا فيها، وقابلوها بأحاديث مثلها متكلم فيها.

قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ أي: الذهب والفضة فاكتفى بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى، وهو كثير في كلام العرب. قال الشاعر:

نَحْــنُ بِمَــا عِنْــدَنَا وَأَنْــتَ بِمَــا ... عِنْــدَكَ رَاضٍ وَالــرَّأْيُ مُخْتَلِــفُ

قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ، وَجَبِينُهُ، وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

وعند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «بَشِّرْ الكَانِزِينَ بِكَيٍّ فِي ظُهُورِهِمْ يَخْرُجُ مِنْ جُنُوبِهِمْ، وَبِكَيٍّ مِنْ قِبَلِ أَقْفَائِهِمْ يَخْرُجُ مِنْ جِبَاهِهِمْ»، وفي رواية عند الشيخين: «بَشِّرْ الكَانِزِينَ بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُوضَعُ عَلَى حَلَمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نُغْضِ كَتِفِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى نُغْضِ كَتِفِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيِهِ يَتَزَلْزَلُ». ونغض الكتف عظمة رقيقة على طرفه، ولعل تخصيص هذه الأعضاء بالعذاب لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا في وجهه، وقبضوا وجوههم، وإذا ضمهم وإياه مجلس أداروا ظهورهم

له، فكان الجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: يقال لهم من باب التأنيب والتقريع والتهكم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ ولهذا يقال: من أحب شيئًا وقدّمه على طاعة الله عذب به يوم القيامة، ويؤيد ذلك ما كان من أبي لهب وزوجته أم جميل لعنهما الله التي كانت تجمع الشوك وتضعه في ممشى رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾. أي: ستجمع من حطب النار، وتلقيه على أبي لهب ليكون أبلغ في عذابه، وكانت تشفق عليه في الدنيا وتغضب له.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ».

قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي: قدَّرها، وهي شهور قمرية محسوبة بالأهلة التي تعرفها العرب، دون غيرها التي لا تنضبط، فربما زادت على ثلاثين شهرًا.

قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وقيل: فيما أثبته وأوجبه من حكمه.

قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الحساب الصحيح والعدد المستوفى، أو الشرع القائم المستقيم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ أي: إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر كفر فوق كفر؛ لأنه

تحريم لما أحلَّ الله ﷻ، وتحليل ما حرَّم، فهو كفر يضم إلى كفرهم، وذلك أن المشركين كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر وهم محاربون كرهوا ترك المحاربة، فيتركون تعظيم الأشهر الحرام، ويتلاعبون فيها، ليحلوا القتال فيها ويجعلون مكان الشهر الذي استحلوه شهرًا آخر، اتباعًا لرغباتهم وأهوائهم، وكان للنسيء عندهم صورتان، الأولى: يحرمون صفر بدل المحرم، وبعد ربيع إلى آخر الشهور، ثم في السنة الثانية، يعودون إلى تحريم المحرم، أي: يتركون الشهور على هيئتها، وهكذا سنة ينسئون وسنة لا ينسئون فالشهور المحرمة أربعة في العدد ولكنها ليست هي التي نص عليها اللّه تعالى،. وفي الصورة الثانية: أن يحرموا في عام ثلاثة أشهر، وفي عام آخر خمسة أشهر، فالمجموع ثمانية في عامين، وأربعة في العام، فتكون حرمة المحرم ضاعت في أحدهما، وحل صفر ضاع في ثانيهما، وقد جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانُوا يُرَوْنَ أَنَّ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ مِنْ أَفْجَرِ الفُجُورِ فِي الأَرْضِ، وَيَجْعَلُونَ المُحَرَّمَ صَفَرَ، وَيَقُولُونَ: إِذَا بَرَأَ الدَّبَرْ، وَعَفَا الوَبَرْ، ودَخَلَ صَفَرْ، فَقَدْ حَلَّتْ العُمْرَةُ لِمَنْ اعْتَمَرْ، فَقَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ، مُهِلِّينَ بِالحَجِّ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، فَتَعَاظَمَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الحِلِّ؟ قَالَ: الحِلُّ كُلُّهُ». قال الكميت:

أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا

والنسيء من قولك نسأت الشيء فهو منسوء، إذا أخرته، وقيل: النسيء بالهمزة معناه الزيادة، يقال: نسأ ينسأ إذا زاد، ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان، كما قال الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ويقال: نسأ الله في أجلك، أي: زاد الله في أجلك، ومنه قول الرسول ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه: «مَن سَرَّهُ أن يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِل رَحِمَهُ».

قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا عدد الأشهر الحرم، وقد كان إذا جاء موسم الحج يقول أحدهم: إنا حرمنا المحرم وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول: إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم، وتواطأ القوم إذا اتفقوا على أمر خفية.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ النفر: التنقل والخروج بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾، ويقال: نفرت الدابة، إذا هربت مسرعة، وسمي يوم النَّفر بذلك؛ لأن الحاج ينفر من منى نفرًا.

قوله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: تثاقلتم وتباطأتم، وأصلها تثاقلتم، فأدغمت التاء في الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ومثله: وادّاركوا، وادّارأتم، واطّيرنا، وازّينت.

قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حرف (من) يتضمن معنى البدل والعوض، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾. قال الشاعر:

فَلَيْـتَ لَنَـا مِـنْ مَـاءِ زَمْـزَمَ شَـرْبَةً مُبَـرَّدَةً بَاتَـتْ عَلَـى طَهَيَـانِ

والطهيان عون يعلق عليه قربة الماء حتى يبرد ويعرض للهواء، والتقدير: بدلًا منكم، وبدلًا من ماء زمزم.

قوله: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ جاء عند مسلم من حديث المُسْتَوْرِد ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ -وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَشَارَ إِسْمَاعِيلُ بِالْإِبْهَامِ- فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ».

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: بهزيمتكم واستيلاء العدو عليكم في الدنيا، وبالنار المحرقة في الآخرة، وقد جاء عند الحاكم بسند صالح من حديث نجدة بن نفيع قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: «اسْتَنْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَتَثَاقَلُوا، فَأُمْسِكَ عَنْهُمُ الْمَطَرُ، وَكَانَ عَذَابُهُمْ». قال ابن العربي: ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس وروده أكثر من اقتضاء الفعل، فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر، ولا يقتضيه، وأما هذه الآية فقد جاء الأمر وجاء ما يترتب على ترك الأمر، وذلك لعظم المأمور به، وفظاعة تركه.

قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي».

قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: محمدًا ﷺ. ونصرته من أعظم الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، وإذا كان نصر آحاد المسلمين واجب، كما جاء عند البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انصُر أَخَاكَ ظَالمًا أو مَظلُومًا»، وبقوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ»، وقوله ﷺ: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». حديث حسن رواه أبو داود من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه، فكيف بنصر رسول الله ﷺ وحمايته؟

قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

قوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: محمد ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».

قوله: ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ أي: غار ثور، وهو ثقب في أعلى جبل ثور، وهو جبل في يمين مكة جنوبًا باتجاه السائر إلى اليمن، وقد جاء عند البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ -وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ- هَادِيًا خِرِّيتًا -وَالْخِرِّيتُ: الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ-، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ».

قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: لا تخاف ولا تجزع، والجزع الذي أصاب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا على نفسه، ولكن على صاحبه وحبيبه محمد ﷺ، وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك تطمينًا وتطييبًا لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وثقة بالله تعالى، وهذا الحزن حزن طبيعي، يحدث لأي إنسان، وليس المقصود الحزن والخوف الذي ينافي التوكل على الله تعالى، وهو كما قال الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما جاءه الملائكة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾، وقال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: معية خاصة، بسمعه وبصره وحفظه، وقد جاء في الصحيحين من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا مَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ، فَقُلْتُ: أُتِينَا يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَارْتَطَمَتْ بِهِ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا -أُرَى فِي جَلَدٍ مِنَ الْأَرْضِ، شَكَّ زُهَيْرٌ-، فَقَالَ: إِنِّي أُرَاكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَاللهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ. فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَنَجَا، فَجَعَلَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا. فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ. قَالَ: وَوَفَى لَنَا».

قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: على رسول الله ﷺ، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تابع له.

قوله: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أي: بالملائكة، يحرسونه في الغار، ويصرفون أبصار الكفار عن أن يروه وصاحبه.

قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ رفعت في قراءة حفص لقوة المعنى؛ لأنها تقرر أن كلمة اللّه هي العليا طبيعة وأصلًا، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ

بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى
رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ
ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: في حال المنشط والمكره، والعسر واليسر، شيوخًا وشبانًا وكهولًا، أغنياء وفقراء، ركبانًا ومشاة، أقوياء وضعفاء، فلا يُعذر أحد في الجهاد إلا ما عذره الله تعالى بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

قوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاء عند أبي داود بإسناد صحيح من حديث أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «وَجَاهِدُوا المشركين بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَألسِنَتِكُم». ولقد فهم بعض الصحابة من هذا الأمر العموم، فلم يكونوا يتخلفون عن الغزو حتى ماتوا في الغزو، منهم المقداد ابن الأسود رضي الله عنه، وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي مات عند أسوار القسطنطينية، وعند ابن سعد والحاكم وغيرهما بسند جيد من حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ أَبَا طَلْحَة رضي الله عنه قَرَأَ هذه الآية فَقَالَ: اِسْتَنْفَرَنَا الله شُيوخًا وَشُبَّانًا، جَهِّزُونِي، فَقَالَ لَهُ بَنُوهُ: يرحمكَ اللهُ، قد غزوتَ معَ رسولِ اللّه ﷺ حتَّى مَاتَ، وَمعَ أَبِي بَكرٍ حَتَّى مَاتَ، ومعَ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ، نَحْنُ نَغْزُو عَنْك، فَأَبَى، فَجَهَّزُوهُ، فغَزَا فِي البَحْر فَمَاتَ، فَلَم يَجِدُوا لَهُ جَزيرَةً يَدفِنُوهُ بِهَا إلاَّ بعدَ سَبعَة أيَّامٍ، فَدَفَنُوهُ بَعْد سَبْعَة أَيَّام وَلَمْ يَتَغيَّر».

قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي: ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا، وسمي عرضًا لأنه لا يدوم. والمعنى: غنيمة قريبة. أخبر عنهم أنهم لو دعوا إلى غنيمة لاتبعوه. كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ-، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يَؤُمُّ النَّاسَ، ثُمَّ آخُذَ شُعَلًا مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لَا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ بَعْدُ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ».

قوله: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: إلى سفر قريب سهل مأمون العاقبة، لا مشقة فيه.

قوله: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة البعيدة، والمراد بذلك غزوة تبوك.

قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ قيل: هو افتتاح كلام، كما يقال: أصلحك الله، ورضي الله عنك، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على (عنك)، وقيل: عَفَا اللّهُ عَنكَ ما كان من ذنبك حين أذنت لهم، وعلى هذا فلا يحسن الوقف، وهو عتاب ولكنه لطيف، والذي يظهر أن التأويل الثاني أوجه، وهو نداء بالعفو قبل المعاتبة،

وهو أحسن ما يكون من المعاتبة.

قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ قال بعض أهل العلم: وهذا العتاب إنما هو قبل نزول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

قوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: في شكهم يتحيرون.

قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم.

قوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: كسَّلهم، وأوهن عزيمتهم، والتثبيط: التوقيف عن القيام بأمر ما بعد التزهيد فيه.

قوله: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: من النساء والصبيان والعجائز وأهل الأعذار.

قوله: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: خذلانًا، والخبال: الشر والفساد في كل شيء، ويقال للمعتوه: مخبولٌ، لأن عقله قد فسد.

قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: لأسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة والبغضاء وإفساد ذات البين، لأن الإيضاع سرعة السير، قال ﷺ كما جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الإفاضة من عرفة: «عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ»، والخلال: الفُرَجُ التي تكون بين الصفوف.

قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: بإيقاع الخلاف فيما بينكم، وتهويل أمر العدو عليكم، وإلقاء الرعب في قلوبكم، وقيل: يريدون أن تكونوا مشركين.

قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مطيعون لهم، ومستجيبون لحديثهم، وربما استنصحوهم في بعض الأمر وسمعوا نصيحتهم، وهم لا يعلمون أحوال قلوبهم وحقدهم على المؤمنين، وقيل: بعض المؤمنين عيون لهم، يسمعون الكلام فينقلونه إليهم، وكلا القولين صحيحان وإن كان الأول أقوى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي: عند مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة قبل أن يظهره الله على

أعدائه، حين حاربه اليهود والعرب والمنافقون عن قوس واحدة، فنصره الله ببدر، وظهر أمر الله وهم كارهون، وقد جاء عند مسلم من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا نُخْبَرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةَ عَشَرَ، وَأَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرْبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَعَذَرَ ثَلَاثَةً؛ قَالُوا: مَا سَمِعْنَا مُنَادِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ. وَقَدْ كَانَ فِي حَرَّةٍ فَمَشَى، فَقَالَ: إِنَّ الْمَاءَ قَلِيلٌ فَلَا يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ. فَوَجَدَ قَوْمًا قَدْ سَبَقُوهُ، فَلَعَنَهُمْ يَوْمَئِذٍ».

وروى مسلم من حديث عمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي أُمَّتِي اثْنَيْ عَشَرَ مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ: سِرَاجٌ مِنَ النَّارِ يَظْهَرُ فِي أَكْتَافِهِمْ، حَتَّى يَنْجُمَ مِنْ صُدُورِهِمْ».

قوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي: درسوا كل الاحتمالات، ودبَّروا الحيل والمكائد، لإفشال وإبطال ما جئت به من الحق.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ أي: اسمح لي بالتخلف عن الجهاد.

قوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي: لا توقعني في الإثم، فإني إن خرجت معك افتتنت بنساء الروم، فهو يظهر عذر شرعي لتخلفه، وقد جاء عند الحاكم حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟ قَالُوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ إِلَّا أَنَّ فِيهِ بُخْلًا. قَالَ: وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ، بَلْ سَيِّدُكُمْ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ».

قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي: في عين الإثم، عندما تخلفوا عن فريضة الجهاد.

قوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ قال ابن القيم في طريق الهجرتين، عن حال المؤمن فيما كتبه الله له شرعًا، وقدرًا، وكونًا:

الحكم الأول: حكم شرعي ديني، فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة، وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة، فلا يعارض بذوق ولا وجد، ولا سياسة، ولا قياس، ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلًا البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول.

والحكم الثاني: الحكم الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي حكم به يسخطه، ويبغضه، ويذم عليه، فهذا حقه أن ينازع ويدافع، ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكوني أيضًا فينازع حكم الحق بالحق للحق فيدافع به وله، فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهم فتأمل ما جاء عند الشيخين من قول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد عوتب على فراره من الطاعون، فقيل له: «أَتَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ؟ فقال: أَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ».

والحكم الثالث: الحكم القدري الكوني: الذي يجري العبد بغير اختيار ولا طاقة له يدفعه، ولا حيلة له

من منازعته، فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة، وترك المخاصمة، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخرى سوى التسليم والمسالمة، وهي: أن يشهد عزة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

قوله: ﴿إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾ أي: الغنيمة، أو الشهادة، وهما أمران أحدهما حسن، والآخر أحسن منه، فالمؤمن أمره كله خير، سواء نال النصر الذي تعلو به كلمة اللّه، أو نال الشهادة التي ينال بها أعلى الدرجات عند اللّه، والحسنى تأنيث الأحسن، وواحد الحسنيين حسنى، والجمع الحسنى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾

قوله: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ الإعجاب بالشيء: السرور به مع الرضى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أصل الزهوق: خروج الشيء بصعوبة بالغة، وفي الآية دليل على بطلان قول المعتزلة بوجوب الأصلح على الله تعالى، وأن المعاصي ليست بإرادة الله، فالآية أخبرت أن إغداق النعم عليهم للاستدراج والتعذيب والإماتة على الكفر، وإرادة العذاب إرادة لما يُعذب به صاحبه.

قوله: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ أي: جبناء أصحاب نفوس مريضة.

قوله: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ أي: حصنًا يلتجئون إليه، والتلجئة الإكراه وألجأته إلى الشيء: اضطررته إليه، وألجأت أمري إلى الله: أسندته.

قوله: ﴿أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي: حفر يستترون بها في الجبال، ومنه غار الماء، وغارت العين، إذا جف الماء واستتر.

قوله: ﴿أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ أي: سرداب أو نفقًا، أو جحرًا يندسون ويدخلون فيه فيختفون.

قوله: ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: لأقبلوا نحوه، لأنهم خائفون مذعورون، من انكشاف نفاقهم، فيتمنوا أن لو يختفوا عن أنظاركم.

قوله: ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ أي: يسرعون إسراعًا كالفرس الجموح، لا يرد وجوههم شيء، ولكنهم لا يجدون مهربًا منكم، فيتظاهرون بالإسلام، ويبطنون الكفر والعداوة، والجمح: النفر بإسراع وعجلة، وجمح الفرس إذا أسرع ولم يستجب لرد اللجام. قال الشاعر:

سَبُوحًا جَمُوحًا وَإِحْضَارُهَا كَمَعْمَعَةِ السَّعَفِ الْمُوقَدِ

قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يعيبك في توزيع الصدقات ويتهم عدالتك، واللمز: العيب في السر، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، يقال: لمزه يلمزه إذا دفعه وضربه، والهمز مثل اللمز، يقال: رجل همزة، وامرأة همزة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾، جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ -وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ. فَقَالَ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ».

وعند البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاسًا فِي القِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ العَرَبِ، فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي القِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ القِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ».

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ أي: حصر جنس الصدقات على الأصناف الثمانية المذكورة بعدها، وهي مختصة بهم لا تتجاوز إلى غيرهم، والزكاة تجمع بنسبة العشر، ونصف العشر، وربع العشر من أصل المال، حسب أنواع الأموال، إذا حال عليها الحول.

قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ اللام هنا للتمليك، أي: أن يملِّك المال للفقير لينتفع به، والفقير: هو الذي لا يسأل

الناس، لأن عنده بعض ما يكفيه ويقيمه ويصلح حاله، وقد جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين بعث معاذًا إلى اليمن، وفيه قال رسول الله ﷺ: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ». والمستحب أخذها من أغنياء البلد، وردها إلى فقراء البلد نفسه، إلا أن يوجد فقراء ومساكين أحوج منهم في البلاد الأخرى، لما جاء عند أبي داود وابن ماجه بسند جيد: أن بعض الأمراء بعث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الصدقة فلما رجع قال لعمران: أين المال؟ قَالَ: «وَلِلْمَالِ أَرْسَلْتَنِي؟ أَخَذْنَاهَا مِنْ حَيْثُ كُنَّا نَأْخُذُهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَوَضَعْنَاهَا حَيْثُ كُنَّا نَضَعُهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، فإن نقلت إلى بلد أخرى فلا بأس لأن فقراء المسلمين لا فرق بينهم، وإن تفرقت بلدانهم فربهم واحد، ودينهم واحد، ونبيهم واحد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ ولم يفصل بين فقير بلد، وفقير في بلد آخر.

ويجوز أخذ القيمة في الزكاة؛ لما رواه البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ مِنَ الإِبِلِ صَدَقَةُ الجَذَعَةِ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ جَذَعَةٌ وَعِنْدَهُ حِقَّةٌ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ الحِقَّةُ، وَيَجْعَلُ مَعَهَا شَاتَيْنِ إِنْ اسْتَيْسَرَتَا لَهُ، أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا...». الحديث، ولا عكس، فلا يجوز مَن عليه زكاة النقدين من ذهب وفضة أن يدفع ثمنها إبلًا، أو بقرًا، أو يسكن فقيرًا مقابل الزكاة.

وإن أعطى إنسانًا زكاة ماله على أنه فقير مسلم فتبين له بعد ذلك أنه كافر، أو أنه تاجر أجزأت عنه؛ لما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأُتِيَ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ».

وإن أخرج الزكاة عند محلها فسرقت أو احترقت من غير تفريط منه لم يضمن؛ لأنه وكيل الفقراء وأدى ما عليه، ولكن إن كان مفرطًا أو متأخرًا في إخراجها عن محلها ضمن، فذمته مشغولة حتى يؤدي ما وجب عليه.

واختلف العلماء هل يجب استيعاب الدفع إليها، أو إلى ما أمكن منها؟ فقالوا: يجب ذلك، وهو قول الشافعي، وقيل: لا يجب، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين، وهو قول مالك وعامة أهل العلم، وهو الصحيح المتعين.

قوله: ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: الفقير المعدوم الذي يسأل الناس؛ لأنه لا يجد شيئًا يصلح حاله، وقد جاء في الحديث الحسن عند الترمذي من حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ». والمعنى: ليس المسكنة التي هي قرينة الفقر، وإنما المسكنة لذي الجبروت، والتواضع لذي الملكوت، فلا كبر، ولا غرور، ولا نخوة، ولا بطر، ويجوز أن يسمى من هو غني أو متوسط الحال بالمسكين على جهة الرحمة والاستعطاف، كما يقال لمن امتحن بنكبة أو دفع إلى بلية: مسكين، وحد الفقر والمسكنة التي يجوز معها أخذ الصدقة بعد إجماع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم: أن من له دارًا وخادمًا لا يستغني عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ».

قال الثوري وأحمد وإسحاق وجمهرة من أهل العلم: لا يأخذ من له خمسون درهمًا أو قدرها من الذهب، ولا يعطى منها أكثر من خمسين درهمًا، إلا أن يكون غارمًا. وقال مالك: أربعون درهمًا. والمشهور عنه إعطاء من له أربعون درهمًا، قال ابن عبد البر: يحتمل القول الأول، لمن كان قويًا على الاكتساب حسن التصرف، والثاني لمن هو ضعيف عن الاكتساب وذو عيال، وحجتهم ما جاء عند مالك وأبي داود وغيرهما بسند صحيح عن رجل من بني أسد قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ سَأَلَ مِنْكُمْ وَلَهُ أُوقِيَّةٌ أَوْ عِدْلُهَا، فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا». والأوقية أربعون درهمًا.

وقال الشافعي وأبو ثور: من كان قويًا على الكسب والتحرف مع قوة وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام؛ لحديث ابن عمرو ﵄ بسند قوي عند أبي داود والترمذي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». وفي حديث عبيد الله بن عدي ﵁، قال ﷺ: «وَلا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ». رواه أبو داود بسند صحيح. وقال الترمذي: إذا كان الرجل قويًا محتاجًا، ولم يكن عنده شيء فتصدق عليه أجزأ عن المتصدق عند أهل العلم؛ لأنه يجوز أن يكون فقيرًا، مع قوته وصحة بدنه، لعدم وجود السبيل للاكتساب.

قوله: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ أي: السعاة والجباة الذين يبعثون لجمع وتحصيل الزكاة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي حميد الساعدي ﵁ قال: «اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللَّتَبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ، قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا». وجاء عند مسلم من حديث جرير ﵁ ما يدل على ذلك، قال رسول الله ﷺ: «أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ». أي: ابذلوا الواجب لمن يأتيكم لجمع الزكاة وأحسنوا

معاملتهم، قَالَ جَرِيرٌ: «مَا صَدَرَ عَنِّي مُصَدِّقٌ، مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلاَّ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ»، فيعطى العاملون على الزكاة كفايتهم أو قدر عملهم من الأجرة، ويجتهد في ذلك، سواء من الزكاة أو من بيت المال، والأول هو ظاهر النص.

وقد جاء في فضل العامل على الصدقة قوله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي بسند جيد من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه: «العَامِلُ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالحَقِّ كَالغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ».

وجاء في فضل الخازن المسلم الأمين ما رواه الشيخان من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخَازِنُ المُسْلِمُ الأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ مَا أُمِرَ بِهِ كَامِلًا، مُوَفَّرًا، طَيِّبًا بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ المُتَصَدِّقَيْنِ».

وقد جَوَّز بعض أهل العلم انطلاقًا من هذه الآية أخذ الأجرة على إمامة الصلاة، والأذان ونحو ذلك، ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه المروي عند الشيخين قال: قال ﷺ: «لا يَقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَارًا، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي وَمَئُونَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ». وهذا بلا شك فيمن لم يتقصد المال ويتهالك على طلبه، فإن قصده صار هو مطلبه الأول والآخر، فلولا المال، والمكافأة لما أَذَّنَ ولا صلى فلا ريب أنه آثم قلبه وضائع جهده، وليس له من عمله إلا دنانيره التي أخذ.

ولا يجوز دفع صدقة العاملين عليها إلى أقرباء النبي ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب، فقد جاء عند مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة ابن الحارث رضي الله عنه أنه انطلق هو والفضل بن عباس رضي الله عنهما يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فيصيبان مما يصيب الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لا تَنْبَغِي لآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ».

قوله: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: من دخلوا في الإسلام حديثًا ويراد تثبيتهم عليه، ولهم رغبة بالمال مع ضعف في الدين، فيعطى حتى ولو كان غنيًا أو زعيمًا في قومه ليحببهم ويقربهم إلى الإسلام، ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويرجى تأليف قلوب أمثالهم في قومهم ليتشجعوا إلى الدخول في الإسلام، وكثير من الناس أسلم بالعطاء والإحسان والمعاملة الحسنة، والمشركون خلال الاستقراء ثلاثة أصناف: صنف يسلم بإقامة البرهان، وصنف لا يسلم إلا بالقهر والحسام، وصنف يسلم بالعطاء والإحسان، وقد جاء في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَإِنِّي أُعطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهدٍ بِكُفرٍ أَتَأَلَّفُهُم».

وعند مسلم عن سعيد بن المسيب أن صفوان بن أمية رضي الله عنه قال: «وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ».

وجاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلامِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لا

يَخْشَى الفَاقَةَ».

والشواهد على هذه كثيرة ليس هذا محل سردها، والمؤلفة قلوبهم كما أنهم في زمن رسول الله ﷺ هم في كل زمن على القول المختار، وما روي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إنما هو اجتهاد له رآه لما رأى من إعزاز الدين، وهو قول الزهري وجماعة من العلماء.

وقد أسقط الصحابة سهم المؤلفة قلوبهم في صدر خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الله تعالى أعز الإسلام وأغنى عنهم، فإذا عاد الإسلام إلى غربته فيجوز إعطائهم، وقد أعطى النبي ﷺ بعد فتح مكة وهزيمة هوازن بعض المؤلفة قلوبهم، ومن الآية يؤخذ جواز إعطاء الذين يحاربون في أرزاقهم فيحرمون من وظائفهم بسبب التزامهم وتمسكهم بالعمل لدين الله تعالى.

قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: العبد المكاتب الذي تعاقد مع سيده على أن يشتري حريته مقابل ثمن من المال، فإن أدَّاه أصبح حُرًا، فيشترى من مال الزكاة رقاب الأسرى المسلمين، أو المملوكين المسلمين، وإن اشتراهم صاحب زكاة فأعتقهم جاز، وهو قول أحمد ومالك وإسحاق.

وقد جاء في إعتاق الرقاب فضائل، منها قوله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ». ولا بد من المطالبة بإثبات المكاتبة والتأكد منها قبل دفع مال الزكاة إلى العبد.

قوله: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ أي: مَن ركبهم الدَّينُ قهرًا، فأصبحوا بحاجة ماسة شديدة، وأحاط به الدين فلا يستطيع الوفاء به، سواء كان ذلك بسبب مباح أو مندوب، أو معصية وتابوا منها، فهؤلاء يعطون من الزكاة ليسددوا ديونهم، وسمي العشق غرامًا لكونه أمرًا شاقًا على المحب ملازمًا له، والغارمون أقسام، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث قبيصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تحمل حماله قال ﷺ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا. ثُمَّ قَالَ: يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

وعند مسلم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا، فَكَثُرَ دَيْنُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ. فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِغُرَمَائِهِ: خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ»، ولقوله ﷺ كما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ». وهو قول وجيه في غاية الوجاهة، ولا بد من المطالبة بإثبات الدَّين والتأكد منه قبل دفع مال الزكاة إلى المدين لسداد

دينه.

قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الغزاة، أو المرابطون في الثغور، سواء كانوا فقراء، أو أغنياء، ما لم يكن مالهم معهم، فإن كان مالهم معهم، فلا تحل لهم الزكاة، اتفاقًا، ويلحق بهم من يريد حِجَّة الإسلام وليس عنده ما يقويه على ذلك، فيعطى الحجيج الفقراء المنقطع بهم؛ لما جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث أم معقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ الحَجَّ فِي سَبِيلِ اللهِ». وقد روى أحمد عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّفَقَةُ فِي الحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ». قال المنذري: إسناده حسن. وهو المأثور عن ابن عمر، وأحمد، وإسحاق، وعند البخاري بصيغة التمريض قال: ويذكر عن أبي لاسٍ الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «حَمَلَنَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ لِلْحَجِّ»، وجاء عند أبي داود بسند صحيح من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ لِغَارِمٍ، أَوْ لِرَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ لِرَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتُصُدِّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ، فَأَهْدَاهَا الْمِسْكِينُ لِلْغَنِيِّ».

قوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر الذي انقطع عن ماله لسبب من الأسباب، فيعطى من الزكاة حتى لو كان غنيًا، ونسب للطريق لملازمته إياها ومروره عليه، وكل من ادعى وصفًا من الأوصاف السابقة يقبل قوله بقرينة الحال، كما فعل رسول الله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ، عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ، أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ...». الحديث، وكما في حديث الثلاثة: الأقرع، والأبرص، والأعمى، رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يجوز إعطاء الزكاة لمن تلزمه نفقة، وهم: الوالدان، والولد، والزوجة، وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز، وأما أن يتناول ذلك بنفسه فلا، وألحق أبو حنيفة ولده من ابنه أو ابنته ومكاتبه ومدبره، وأم ولده، وعبدًا أعتق نصفه، وخالفه صاحباه الحسن، وأبو يوسف في المعتق بعضه فقالا: لا ينزل منْزلة حر عليه دَين فيجوز أداؤها إليه، وهو الصحيح.

وأما إعطاء المرأة زكاتها لزوجها الفقير، أو المسكين فلا ريب في اعتباره؛ لحديث زينب امرأة ابن مسعود قال ﷺ حين سألته عن الصدقة على زوجها وأيتام في حجرها قال: «لَكَ أَجْرَانِ: أَجْرُ الصَّدَقَةِ، وَأَجْرُ الْقَرَابَةِ». رواه الشيخان، ومن حمل هذه الصدقة على التطوع فقد أبعد النجعة وخالف الصواب، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ويُعطى كل مستحق للزكاة قدر حاجته وكفايته، أما ما يزاد على ذلك فهو اعتداء وضرر على حقوق

الفقراء والأصناف الباقين، فد جاء عند ابن ماجه من حديث عبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ». حسنه ابن تيمية والنووي، قال المناوي: له طرق يقوي بعضها بعضًا، وقال العلائي: له شواهد ينتهي مجموعهما إلى درجة الصحيح أو الحسن، وقال ابن حجر: ورواه ابن أبي شيبة من وجه أقوى.

قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لتكون أحد أركان الإيمان، ونصبت الصدقات على المصدر، ويجوز الرفع على القطع، ليصبح المعنى: هن فريضة.

قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يصدّق كل ما يسمع، ويقبل مقال كل أحد، فمن قال له شيئًا صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا، وهم يقصدون من قولهم هذا إيذاء رسول الله ﷺ ومذمته، والسخرية منه، فوصفوه بأداة السمع، التي تتلقى كل خبر ولا ترده ولا تميِّز بين النافع وغير النافع.

قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: نعم هو أُذُن، ولكن نِعمَ الأُذن هو، إذ هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب، لا أذن شر، فهو يسمع الخير، ولا يسمع الشر، فهم قصدوا مذمته، والله تعالى مدحه وأثنى عليه، وقرئت: (خير) بالرفع والتنوين.

قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي: يصدِّق بالله فيما يقول، لما عرفه من عظمته وجلاله وآياته، وعدى الفعل يؤمن بالباء لأنه ضمَّنها معنى التصديق الذي هو ضد الكفر.

قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به ويحدثونه، لعلمه بإخلاصهم وصدقهم، وعدى الفعل يؤمن باللام هنا لأنه ضمَّنها معنى السماع من المؤمنين، وأنه يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه، لأنهم صادقون عنده.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ مبتدأ وخبر، ومذهب سيبويه أن التقدير: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، وقد يقال: رضا الرسول ﷺ من رضا الله، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

قوله: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أجاز الخليل وسيبويه: فإن له نار جهنم بالكسر، ولا ريب أن المعتبر قراءة

الفتح وهي قراءة العامة، قال الخليل وسيبويه في توجيه الفتح: أنها مبدلة من الأولى، وهي قوله: (أَنَّهُ) وخالفهما المبرد، والجرمي وقالا بأنها مكررة للتوكيد، لما طال الكلام، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾، وكقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ ولا شك أن توجيه المبرد والجرمي وجيه.

قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (أن) في موضع نصب، أي: من أن تنزَّل، ويجوز على قول سيبويه: أن تكون في موضع خفض على حذف (من)، ويجوز أن تكون في موضع نصب مفعول: ليحذر، قال سيبويه: حذرت زيدًا، جائز، وخالفه المبرد ولم يصب.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نتلاعب بالألفاظ للترويح عن النفس والتسلية ليس إلا، ونوايانا سليمة، ونسوا أن الله تعالى يحصي عليهم أنفاسهم، وأنهم مؤاخذون على كل حرف ينطقون به، قال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ لا يلقي لهَا بالًا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»، وإذا كان الهزل معتبرًا في الفرعيات الشرعية، قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلاقُ، وَالرَّجْعَةُ». حديث حسن رواه أبو داود. قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، فكيف إذا كان من صلب الشريعة وأصولها وأسسها؟

قوله: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ نزلت في غزوة تبوك اتفاقًا حين قال بعض المنافقين يعنون الصحابة: ما نرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء، فرفع ذلك إلى رسول اللّه ﷺ، فجاء إلى رسول اللّه ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول اللّه، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ...﴾، وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول اللّه ﷺ وهو متعلق بسيف رسول اللّه ﷺ، وقال بعضهم تخويفًا وترهيبًا للمؤمنين: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا، والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال، وقال بعضهم: يظن محمد أن سيفتح قصور الروم وحصونها؟ هيهات هيهات. وجماع ذلك كله أنهم يقولون ما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين وهم في كامل قواهم وكامل اختيارهم، فلا ضرورة ولا حاجة لما يقولون.

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ اعتذر بمعنى: أعذر، أي: صار ذا عذر، وأصله القطع، فيقال: اعتذرت إليه، أي: قطعت ما في قلبه من المَوْجِدة والغضب، ومنه عذرة الغلام، وهو ما يقطع منه عند الختان.

قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ قد يُعبر عن الواحد بالطائفة، وقد عفا الله عن واحد من المنافقين، قد أنكر عليهم مقولتهم، وأسرع بالتوبة والإنابة.

قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: كأنهم نفس واحدة في الخروج عن الدين.

قوله: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ أي: عن الإنفاق في وجوه الخير، وعن المشاركة في الجهاد، والقبض كناية عن البخل والشح، ولا ينفي ذلك أن يكون عندهم كرم من أجل السمعة والرياء والفخر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ أي: تلذَّذوا بمتاع الدنيا الفاني، حتى أباحوا المحرمات، ونهوا عن المعروف، ونشروا المنكرات، والخلاق: النصيب والحظُّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾.

قوله: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ كما قال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟». وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم». رواه ابن جرير عن عمرو بن عطاء عن عكرمة.

قوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ أي: في التكذيب والباطل والتوسع في أسباب الدنيا باللهو واللعب.

قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِ﴾ أي: قرى قوم لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ أي: الأمة المؤتفكة، وسموا بذلك لأن أرضهم انكفأت بهم، أي: انقلبت.

قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ كما قال ﷺ فيما رواه أبو داود بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ». وقوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ. وعند الشيخين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ: إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ

بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

وجاء في الصحيحين من حديث أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ: آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ: آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ». رواه الشيخان من حديث أبي موسى ﵁.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ».

وعند الترمذي بسند حسن من حديث علي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا. فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: كالاستهزاء بآيات الله، وبشعائر الإسلام.

قوله: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام.

قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ أي: من الكيد للإسلام وأهله.

قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: وما أنكروا وما عابوا على المسلمين إلا أن مَنَّ الله ورسوله عليهم من فضله، وما للمسلمين عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم الله ببركته، قال رسول

الله ﷺ للأنصار فيما رواه الشيخان من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ».

قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ أي: عن النفاق، فإن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن شاء أن يتوب ويراجع نفسه، وفيه دليل على قبول توبة الزنديق، وقد اختلف الفقهاء فيها، قال الشافعي: تُقبل. وقال مالك: لا تعرف؛ لأنه كان يظهر الإيمان ويسر الكفر، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله. ولا ريب أنه إذا جاء تائبًا مقبلًا من قِبَلِ نفسه قبل أن يُعثر عليه، قبلت توبته بصريح الآية، ولا كلام بعدها.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ قد أبعد الصواب وحرف صريح الخطاب، من ذهب إلى أن المقصود به ثعلبة بن حاطب، أو حاطب بن أبي بلتعة، وهما الصحابيان الجليلان، وقد شهدا بدرًا قطعًا، وقد قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قال في حاطب رضي الله عنه ما قال: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». رواه الشيخان من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد مات كل منهما على سنة المصطفى.

قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: إلى أن يموتوا ويلقوا الله تعالى يوم القيامة وهم منافقون.

قوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ قال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث ابن عمرو رضي الله عنه: «أَرْبَعُ خِلالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا -وذكر منها-: وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»، وفي رواية عند مسلم: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

وقد قيل: هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال، قال الحسن بن أبي الحسن البصري: النفاق نفاقان: نفاق الكذب، ونفاق العمل، فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله ﷺ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة، وأما من قال عن إخوة يوسف أنّهم عاهدوا أباهم فأخلفوه، وحدثوه فكذبوا، وائتمنهم على يوسف عليه السلام فخانوا، ومع ذلك لم يكونوا منافقين، فإنه يقال له: ألم تسمع قول الله تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وهذا ما كان بينهم وبين يوسف، وأما ما كان بينهم وبين أبيهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهل من توبة أو إنابة أعظم من هذه التوبة؟ وهل من ندم أعظم من هذا الندم؟ قال ﷺ كما في الحديث الحسن عند ابن ماجه من طريق ابن مسعود رضي الله عنه: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ». وقال ﷺ كما في الحديث الجيد عند أبي داود من طريقة

أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ». وقال ﷺ كما في الحديث الحسن عند ابن ماجه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ».

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي: فيما بينهم على انفراد، وهي مأخوذة من النجوة، وهو الكلام الخفي، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ جاء في الصحيحين من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ -في التجهيز لغزوة تبوك- كُنَّا نَتَحَامَلُ -أي: يذهبون إلى السوق فيعملون بالأجرة ويحملون على ظهورهم- فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ المُنَافِقُونَ: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلاَّ رِئَاءً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: إلا القليل، والجهد: الطاقة، والشيء القليل الذي يعيش به المُقِل.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري: «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا». ولا ريب أن فعل الرسول ﷺ هو تطييب لقلب عبد الله بن عبد الله بن سلول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقومه، وتأليف لقلوبهم، وقد حصل ذلك، وأسلم مئات من الناس بعد هلاك عبد الله ابن أبي، وأما إعطاء النبي ﷺ قميصه له ليكفن ففيه ردٌّ لجميله، فقد جاء عند البخاري من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُتِيَ بِأُسَارَى بَدرٍ، وَأُتِيَ بِالعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ، فَلِذَلِكَ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ

قَمِيصَهُ الَّذِي أَلْبَسَهُ»، قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يدٌ فأحب أن يكافئه، وفي رواية: «أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ حُفْرَتَهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ فَوَضَعَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقِهِ، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ»، وقد علم رسول الله ﷺ أن قميصه وريقه لن يغني عن هذا المنافق المحترق من الله شيئًا، ولكن أراد أن لا يدع له معروفًا في الدنيا ولا في الآخرة، وليطيب قلب ابنه وقومه، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند صحيح من حديث عمر رضي الله عنه قال: «فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَهُ عَلَى مُنَافِقٍ، وَلا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ عز وجل».

وعند مسدد والبزار من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَم أُصَلِّ عَلَيهِ، فَقَالَ عُمَر رضي الله عنه: مَا مَنَعَكَ أَن تُصَلِّي عَلَيهِ؟ قلت: إِنَّهُ مِنهُم، فقال عمر: أَبِالله مِنهُم أنَا؟ قلت: لا، فبكى عمر رضي الله عنه» قال ابن حجر: إسناده صحيح.

قوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً! قَالَ: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا». وعند أحمد بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «وَضُرِبَتْ بِالبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لأَحَدٍ».

وعند أبي يعلي والبزار بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَو كَانَ فِي هَذَا المسجِدِ مائةُ أَلفٍ أَو يَزِيدُونَ، وَفِيهِ رَجُلٌ مِن أَهلِ النَّارِ فَتَنَفَّسَ فَأَصَابَ نَفَسُهُ لاحتَرَقَ المسجد بِمَن فِيهِ».

وقد كان رسول الله ﷺ يتعوذ من النار وحرها، فقد روى النسائي بسند حسن من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَرَبَّ إِسْرَافِيلَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ حَرِّ النَّارِ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ». وأخرجه الدارقطني، وزاد: «وَرَبِّ مُحَمَّدٍ» قال ابن حجر: حديث حسن.

وعند الشيخين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقُمْقُمُ».

قوله: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ لنفروا مع الرسول ﷺ ولهربوا من نار جهنم، ولكنهم كما قال الشاعر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عُمـــــــرُكَ بالحميَـــــــة أفْنَيْتَـــــه مَخافَـــــةَ الْبَــــــارِدِ والحَــــــار
وَكــــانَ أولَــــى بِــــكَ أنْ تَتقــــي مِــــنَ المعَاصِــــي حَــــذرَ النَّــــار

قوله: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ أي: سيضحكون قليلًا في الدنيا وسيبكون بكاءً مستمرًا في الآخرة، وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما يعدون.

وعند مسلم عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا. قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ»، وفي حديث عائشة ﵂ عند الشيخين: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَاللهِ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا. وَفِي رِوَايَةٍ: لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُهُ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُ أُرِيدُ أَنْ آخُذَ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ، حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ».

وعند الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ. وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ».

قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر ﵄ قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﵁ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فقَامَ عُمَرُ ﵁ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ﴾، وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ. قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ! قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾».

ولقول عمر ﵁ توجيهان:

الأول: من فهمه لقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وقد نزلت بمكة قطعًا.

والثاني: أن يكون من قبيل الإلهام والتحدث الذي شهد له به النبي ﷺ، وقد نزل القرآن موافقًا له في أربع آيات، وبعد نزول هذه الآية كان رسول الله ﷺ لا يصلي على أحد مات من المنافقين، ولا يقوم على

قبره، كما جاء عند أحمد من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دُعِيَ لِجِنَازَةٍ سَأَلَ عَنْهَا، فَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ قَامَ فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا غَيْرُ ذَلِكَ قَالَ لِأَهْلِهَا: شَأْنُكُمْ بِهَا. وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهَا». صححه ابن حجر. وإن كان هذه الأحاديث خاصة بقوم محددين إلا أن معنى الآية عام وشامل.

قوله: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ أي: لا تقف على قبره للدفن، أو للدعاء، أو للزيارة، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث عثمان رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ».

وفي الآية إشارة إلى أهمية المبادرة إلى الجنازة والصلاة عليها، وتشيعها حتى تدفن، فقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ (وَفِي رِوَايَةٍ: جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمانًا واحْتِسَابًا) حَتَّى يُصَلِّيَ فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَ حَتَّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قِيرَاطَانِ. قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ: مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ»، وفي رواية عند مسلم: «مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ وَلَمْ يَتْبَعْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ تَبِعَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ. قِيلَ: وَمَا القِيرَاطَانِ؟ قَالَ: أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ».

قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر وهم منشغلون بالتمتع بالأموال والأولاد وأنواع الملذات المحرمة.

قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: من القرآن تأمر بالجهاد، والتنكير للتفخيم، ويجوز أن يكون المراد إنزال سورة بتمامها، أو بعضها.

قوله: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: أصحاب الأموال الكثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: ارتفعت ألسنتهم بالكلام الحاد، والصوت القوي في حال الأمن.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

قوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إذا آمنوا بالله وبرسوله وأطاعوهما، وحسنت سيرتهم وعلانيتهم، كما يفعل الناصح بصاحبه، حين يخلص له النصيحة ويصدق له فيها ويتحرى المصلحة له، وقد جاء عند مسلم من حديث تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ أي: عتاب.

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ جاء عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ»، وبنحوه من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم، وفيه: «حَبَسَهُمُ المَرَضُ».

وقد جاء عند جمهور المفسرين أنها نزلت في بني مقرن، وكانوا سبعة إخوة صحبوا رسول الله ﷺ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم، وقد شهدوا الخندق كلهم.

وقيل: إنّها نزلت في أبي موسى رضي الله عنه وأصحابه، فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَسْتَحْمِلُهُ فَحَلَفَ أَنْ لَا يَحْمِلَنَا، فَحَمَلَنَا. فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ، بَلِ اللهُ حَمَلَكُمْ، إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ».

قوله: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أي: على ما فاتهم، لا كالمنافقين الذين يتخلفون وقلوبهم تكاد تطير من الفرحة بتخلفهم. قال الشاعر:

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ أي: إنما الإثم والعقوبة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾

قوله: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ أي: البدو الذين يسكنون البادية، ويتنقلون طلبًا لمساقط الغيث

والكلأ، فهؤلاء أشد كفرًا وأعظم نفاقًا من أهل الحضر، نظرًا لطبيعة معيشتهم، وبعدهم عن الحاضرة، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وبعدهم عن مجالس العلم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح، والأعراب اسم جمع لأعرابي، سواء كان عربي الأصل، أو من مواليهم، فإذا استوطن القرى العربية فهو عربي.

ومن نزل البادية واستوطن فيها فهو أعرابي حتى لو كان أصله حضريًا، والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب، ولا تجمع (عرب)؛ لأن العرب يعم سكان الحاضرة في المدن، وسكان البادية، والعُرْب والعَرَب واحد مثل العُجْم والعَجَم، وسميت العرب عربًا لأن ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ نشأوا من عَرَبة، وهي تِهامة، فنسبوا إليها، وأقامت قريش بعربة، وهي مكة، وانتشر سائر العرب في جزيرتها، والعرب العاربة هم الخُلَّص منهم، وأما العرب المستعربة فليسوا بخُلَّص، وكذلك المتعربة، ويعرب بن قحطان أول من تكلم بالعربية، ولكن بعد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء عند الحاكم: «أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسانُهُ بِالعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قال ابن حجر: إسناده حسن.

وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَكَنَ البَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتَنَ».

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولًا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فردّ عليه أضعافها حتى رضي، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما رواه أبو داود والترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَايْمُ اللهِ لا أَقْبَلُ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا مِنْ أَحَدٍ هَدِيَّةً إِلا أَنْ يَكُونَ مُهَاجِرًا قُرَشِيًّا، أَوْ أَنْصَارِيًّا، أَوْ دَوْسِيًّا، أَوْ ثَقَفِيًّا». لأنَّهم يسكنون المدن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب الجفاة.

وقد أبصر الأقرع بن حابس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبّل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحدًا منهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَمُ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟**».

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ أي: يرى أن ما فرض عليه من زكاة، أو ما يصرفه في سبيل الله إنما هو نقص وخسارة أصابت ماله، وغرامة فرضت رغمًا عنه لا يستطيع التخلص منها، والغُرْم أصله لُزُوم الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازمًا دائمًا لا يفارقه، ومنه سمي الغريم لملازمته غريمه، فالغريم يلزم صاحبه أينما حل وأينما رحل، حتى يستخلص حقه، لذلك كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يستعيذ من المأثم والمغرم، قيل: «يا رسول الله مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ! فَقَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ».

قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: تبدُّل أحوالكم بدوران الأيام، وقد ظهر مصداق ذلك بعد وفاة

النبي ﷺ مباشرة، حين ارتدت الأعراب وكثير من قبائل العرب في كافة أنحاء الجزيرة العربية ما عدا مكة والمدينة، والدوائر: جمع دائرة، وهي الحالة المتقلبة عن النعمة إلى البلية.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: عليهم تدور المصائب والحروب في الدنيا، وعليهم يدور العذاب والهلاك في الآخرة، وهذا دعاء من الله عز وجل عليهم، والدعاء من الله يفيد الوقوع.

قوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوه الخير، حبًا لله تعالى وطاعة له، وابتغاء القرب والأجر والثواب من عنده سبحانه، لا خوفًا من الناس.

قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: ويبتغون دعاء رسول الله ﷺ واستغفاره لهم، ورضاه عليهم، لأنهم يعلمون أن دعوة النبي ﷺ مقبولة عند الله تعالى، وقد كان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة وحسن العاقبة، والصلاة من الله عز وجل: الرحمة والخير والبركة، والصلاة من الملائكة ومن الرسول ﷺ الدعاء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: تثبيت لقلوبهم.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: تقرّبهم من رحمة الله ﷻ، وهذا تقرير وشهادة وبشرى من الله تبارك وتعالى للمتصدق بصحة ما اعتقد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: جميع الصحابة الذي سبقوا إلى الإسلام والتصديق بمحمد ﷺ.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، أو إلى الحبشة أول الأمر.

قوله: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي: في المدينة، وهم الأوس، والخزرج، وقد قيل لأنس رضي الله عنه كما ثبت في صحيح البخاري: «أَرَأَيْتَ اسْمَ الْأَنْصَارِ: كُنْتُمْ تُسَمَّوْنَ بِهِ أَمْ سَمَّاكُمُ اللهُ؟ قَالَ: بَلْ سَمَّانَا اللهُ». وأفضل السابقين الأولين على الإطلاق الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ رضي الله عنهم، وهم على هذا الترتيب فضلًا وبذلًا وقدرًا ومكانة، ثم الستة الباقون تكملة العشرة المبشرين بالجنة، وهم:

الشهيد طلحة بن عبيد الله ﵁، وهو من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، والزبير بن العوام ﵁، وهو من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، وسعد بن أبي وقاص ﵁، وقد فداه النبي ﷺ بأبيه وأمه، وقد أخبر الله ﷻ أنه ممن يعبد الله بالغداة والعشي يريد وجهه، وأبو عبيدة بن الجراح ﵁، أمين هذه الأمة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد ﵄.

وقد روى أبو داود والترمذي بسند جيد عن سعيد بن زيد ﵁ قال: «أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ: النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ. وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ! فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَسَكَتَ. فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ».

ثم البدريُّون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية، وقد جاء عند أبي شيبة من حديث جابر ﵁ قال: «لَمَّا لَقِي النَّبِيُّ ﷺ النُّقَبَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ، قال: تُؤْوونِي وَتَمْنَعُونِي. قَالُوا: فَمَا لَنَا؟ قَالَ ﷺ: لَكُمُ الجَنَّةُ». قال ابن حجر: إسناده صحيح.

وأما أول الناس إسلامًا فهو أخو الإسلام، وحبيب سيد الأنام أبو بكر ﵁، ومناقبه أشهر من أن تذكر، ويكفيه قول الله عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وقوله ﷺ لأبي بكر ﵁ كما عند الشيخين: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟».

قال حسان:

إِذَا تَـذَكَّرْتَ شَـجْوًا مِـنْ أَخِـي ثِقَـةٍ ... فَـاذْكُرْ أَخَـاكَ أَبَـا بَكْـرٍ بِمَـا فَعَـلَا
خَيْـرَ الْبَرِيَّـةِ أَتْقَاهَـا وَأَعْـدَلَهَا ... بَعْـدَ النَّبِـيِّ وَأَوْفَاهَـا بِمَـا حَمَـلَا
الثَّـانِيَ التَّـالِيَ الْمَحْمُـودَ مَشْـهَدُهُ ... وَأَوَّلَ النَّـاسِ مِـنْهُمْ صَـدَّقَ الرُّسُـلَا

وأما بقية الصحابة فلكل واحد منهم مقام معلوم، لا يبلغ شأوه أحد من العالمين بعدهم، قال البخاري في صحيحه: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه، والمذهب الحق في صحابة رسول الله ﷺ أنهم محبوبون، يحبهم الله ورسوله، ويحبهم المؤمنون، ويحبون من يحبهم، ويبغضون من يبغضونَهم، لا سيما من يبغض أبا بكر وعمر ﵄، وهم الرافضة أصحاب الطائفة المخذولة، وكذا من يبغض عثمان، وعليًا ﵄ وهم الخوارج، كالأباضية أصحاب الآراء المنكوسة.

قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: برعوا وحذقوا وثبتوا على النفاق ولم يتوبوا، وأصل الكلمة من الملامسة والتجرد، فكأنّهم تجردوا للنفاق حتى برعوا فيه، ومنه رملة مرداء، لا نبات فيها،

وغصن أمرد، لا ورق فيه، وغلام أمرد لا لحية له، وتمريد البناء: تمليسه، ومنه قوله تعالى: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: أملس من زجاج، وتمريد الغصن: تجريده من الورق.

قوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لبراعتهم ومهارتهم في التمثيل والتخفي تحت ستار الإيمان، وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين.

قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي: مرة في الدنيا، في خوفهم على أموالهم وأولادهم، وخوفهم من انكشاف نفاقهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهي مصائب لهم، وللمؤمنين ثواب وأجر، والمرة الثانية في القبر.

قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة، مع إيمانهم واتباعهم لرسول الله ﷺ، وقد أخرج في الإصابة عن جابر رضي الله عنه قال: «كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك ستة: أبو لبابة، وأوس بن خدام، وثعلبة بن وديعة، وكعب بن مروان، وهلال، فجاء أبو لبابة وأوس فربطوا أنفسهم بالسواري وجاؤوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله، خذها، هذا الذي حبسنا عنك، فقال: «لا أحلهم حتى يكون» فنزل القرآن: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾» قال ابن حجر: إسناده قوي.

قوله: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: خلطوا خروجًا إلى الجهاد وتخلفًا عنه، أو عملوا كثيرًا من الصالحات، وارتكبوا بعض الآثام، فخلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت اللبن والماء، إذا خلطتهما مع بعضهما، لأن الواو تفيد الجمع، أما إذا قلت: خلطت الماء باللبن، فإن الباء تفيد الملاصقة؛ لأنك جعلت الماء مخلوطًا واللبن مخلوطًا به، وقد جاء عند البخاري، وأصله متفق عليه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي، فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ».

قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: خذ من كل ما يتمولون به ويتملكونه، وتحققت فيه شروط الزكاة، وقد جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾،

قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ». وبهذا يتبين خطأ من قصر المال على نوع من أنواعه، قال أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء عند الشيخين: «فَبِعْتُ الدِّرْعَ، فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلِمَةَ، فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ». أي: تملكته واقتنيته.

قوله: ﴿صَدَقَةً﴾ أي: نسبة من الأموال مأخوذة من المصدق، إذ هي دليل على صحة إيمانه، وصدق باطنه مع ظاهره.

قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ التزكية: المبالغة في التطهير والزيادة فيه، ويمكن أن يراد بالتزكية الإنماء والزيادة والبركة، وعلى هذا وبموجب هذه الآية تؤخذ الزكاة في المواشي، والحبوب، والذهب، والفضة، وسائر عروض التجارة، فالمواشي من الإبل تؤخذ منها الزكاة إذا تجاوزت الخمس بحسب ما قررته النصوص النبوية، وكذا البقر إذا بلغت الثلاثين، والغنم إذا بلغت الثلاث مائة شاة، وقال الجمهور في مائتي شاة، وصدقة المواشي مبينة في الكتاب الذي كتبه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما وجهه إلى البحرين، وقد أخرجه البخاري في صحيحه.

وأما تفاصيل زكاة البقر فجاءت في حديث رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وعبد الرزاق من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند متصل صحيح ثابت، وقد صححه ابن حبان، وابن عبد البر وغيرهما.

وأما الذهب فإذا بلغ عشرين دينارًا، لحديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثابت عند البخاري، ولحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثابت في الصحيحين.

ويشترط لما سبق أن يحول عليه الحول، رواه أبو داود، والترمذي بسند صحيح.

وبهذه الآية تمسك صغار العقول من المرتدين، حيث منعوا الزكاة، بحجة أن الصدقة إنما كان يأخذها رسول الله ﷺ، ورسول الله قد مات، وبموته سقطت الزكاة، ومثلهم جاهلون بالقرآن، غافلون عن مآخذ الشريعة، متلاعبون بالدين، لأن الخطاب القرآني لم يرد بابًا واحدًا، ولكن اختلفت موارده على وجوه، فمنها خطاب توجه لجميع الأمة، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ومنها خطاب خص به الرسول ﷺ، ولم يشركه فيه غيره لفظًا ولا معنى، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾، وكقوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ومنها خطاب خص به لفظًا وشركه جميع الأمة معنى وفعلًا، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾، وكقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ ونحو ذلك، ومن هذا القبيل هذه الآية، وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وفي الآية دليل على أهمية الزكاة والصدقة، إذ بها تمحى الخطايا ولو كانت تخلفًا عن الجهاد.

قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ادع لهم بالمغفرة وترحَّم عليهم، والصلاة: الرحمة والترحم، وحكى أهل

اللغة جميعًا أن الصلاة في كلام العرب: الدعاء، ومن السُّنة أن يدعو جابي الصدقة للمتصدق، فقد جاء عند الشيخين من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﵁ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ. فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»، وهذا الحكم أصل في فعل كل إمام يأخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق بالبركة، وهنا مسألة، وهي: هل يُصلَّى على أحد غير النبي ﷺ؟ فيقال مثلًا: أبو بكر ﷺ، والجواب: أما ما يتخذ شعارًا فهذا لا، وأما إذا استعمل على القلة مرة أو مرتين فلا شك أنه خلاف الأولَى، ولكنه سائغ شرعًا، وإنما شعار الصحابة الترضي عنهم، وشعار من تبعهم بإحسان الترحم عليه، وأما بالنسبة لحديث جابر ﵁ عند أبي داود وسنده جيد، وهو «أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَى زَوْجِكِ». وَزَادَ الدارمي فِي رِوَايَةٍ: «قَالَ جَابِرٌ: فَرَجَعْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: أَلَمْ أَكُنْ نَهَيْتُكِ أَنْ تُكَلِّمِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي؟ فَقَالَتْ: تَظُنُّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُورِدُ نَبِيَّهُ فِي بَيْتِي، ثُمَّ يَخْرُجُ وَلَا أَسْأَلُهُ الصَّلَاةَ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي». فهذا أولًا خاص به ﷺ، وثانيًا هو محمول على القلة، لا أن يتخذ شعارًا، وأما الآية وحديث ابن أبي أوفى ﵁ فهو سائغ لكل من جاء بصدقته.

قوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: سكينة لنفوس المؤمنين، وطمأنينة لقلوبهم.

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يتقبلها ممن أخلص الصدقة له سبحانه وتعالى، دون سمعة ولا رياء، ويثيبه عليها قبل أن تقع في يد المتصدق عليه، وجاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ –وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ– فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ».

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير قبول التوبة من عباده، جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي –ثَلَاثًا– فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جاء عند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ، كَائِنًا مَا كَانَ». حديث حسن بشواهده.

وعند أحمد بسند صحيح من حديث أنس ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ. فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ».

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مؤخرون عن التوبة، موقفون إلى أن يظهر حكم الله فيهم، وهم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية رضي الله عنهم قعدوا وتأخروا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلًا وميلًا إلى الراحة، لا شكًا ونفاقًا، والإرجاء: التأخير، كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخره وأخاه، ومنه قيل: مرجئة؛ لأنّهم أخروا العمل، وأما أرجيته فمن الرجاء الذي يقابل الخوف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: ليضروا به المسلمين، وليس فيه منفعة، وقد بناه بنو غُنم بن عوف لأهداف سيئة، والتي فيها المضارة والمشاقة لجيرانهم بني عمرو بن عوف حين بنوا مسجد قباء، فقد جاء عند عمر بن شبة في أخبار المدينة بسند جيد عن عروة قال: «كان موضع مسجد قباء لامرأة يقال لها لنية، كانت تربط حمارًا لها، فابتنى فيه سعد بن خيثمة ﵁ مسجدًا، فقال أهل مسجد الضرار: نحن نصلي في مربط حمار لنية؟! لا لعمر الله، لكنا نبني مسجدًا فنصلي فيه إلى أن يجيء أبو عامر فيؤمنا فيه، فأنزل الله ﷻ هذه الآية». قال ابن حجر في الإصابة: إسناده صحيح. والضرر عند العرب: ما قصد الإنسان به منفعة نفسه، وكان ضرره على غيره، أما الضِّرار: فهو ما قصد به الإضرار لغيره.

قوله: ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: وكفرًا بالنبي ﷺ وبدعوته، فهو في ظاهره مسجد خير، وفي حقيقته مسجد نفاق.

قوله: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليضعفوا به تجمع المؤمنين ويضربوا وحدتهم، فيبعدوهم عن إخوتهم في مسجد قباء، وما وضعت المساجد دائمًا وأبدًا لهذا المقصد السيئ والهدف الخبيث، وإنما بُنيت لمقصد أكبر، وهو تأليف القلوب، وجمع الكلمة، ليقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من ضر الأحقاد، ولذا ذهب مالك، وروي عن الشافعي: أنه لا تصلى جماعتان في مسجد واحد بإمامين في آن

واحد. إذا أقيمتا في نفس الوقت، أو تُعمد إقامتهما في وقتين متباينين، أما لو فاتت الصلاة قومًا وجاءوا وقد سلَّم الإمام، فلا تثريب عليهم أن يأمروا أحدهم بإقامة الصلاة والصلاة بِهم جماعة في المسجد.

قوله: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ترقبًا وانتظارًا وإعدادًا لقدوم أبي عامر الراهب الذي أمرهم ببنائه، وهو والد الصحابي الجليل حنظلة الغسيل ﵁، وكان أبو عامر قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير، فلما أن ظهر رسول الله ﷺ عاداه؛ لأن رئاسته ذهبت، فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام، وذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول اللّه ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول اللّه ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول اللّه ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وقالوا: إنا بنينا هذا المسجد لذي العِلة والحاجة، والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فعصمه اللّه من الصلاة فيه، فلما قفل النبي ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل جبريل ﵇ بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فأمر بعض الصحابة أن ينطلقوا إلى هذا المسجد فيحرقوه ويهدموه، فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله، وقد قُتل أبو عامر الراهب كافرًا بقنسرين من أرض الشام، طريدًا مبعدًا.

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بناء مسجد الضرار.

قوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المصلحة العامة، والصلاة والذكر والتوسعة على المصلين، ومراعاة لأصحاب العلل والحاجة الذين لا يستطيعون الوصول إلى مسجد قباء، وهذه شنشنة المنافقين بالأمس واليوم وغدًا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصلِّ لهم في مسجد الضرار، وإنما نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الصلاة فيه؛ لأنه ﷺ قد همّ بالصلاة فيه بعد طلبهم منه، وقد يُعبر بالصلاة عن القيام، يقال: فلان يقوم الليل، أي: يصلي، ومنه ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

قوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: مسجد قُباء، واللام في (لَمَسْجِدٌ) لام قسم، وقيل: لام

الابتداء، كما تقول: لَزَيدٌ أحسن الناس فعلًا، وهي مقتضية تأكيدًا.

قوله: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ أي: من أول يوم ابتدئ في بنائه.

قوله: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار؛ لكونه أسس على التقوى والهدى، لا على النفاق والهوى، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أسيد بن ظهير ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّلاةُ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ». وعند ابن ماجه بسند جيد من حديث سهل بن حُنَيفٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فِيهِ صَلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ». وروى عمر بن شبة في أخبار المدينة عن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: «لئنْ أُصَلِّي فِي مَسْجِدِ قُبَاء رَكْعَتَيْنِ أَحبّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ آتِيَ بَيْت اَلْمَقْدِسِ مَرَّتَيْنِ، لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي قُبَاء لَضَرَبُوا إِلَيْهِ أَكْبَاد اَلإِبلِ». قال ابن حجر: إسناده صحيح. وعند الشيخين من حديث ابن عمر ﵄: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْتِيهِ كَلَّ سَبْتٍ، رَاكِبًا أَوْ مَاشِيًا، فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتِينِ».

وقوله: ﴿فِيهِ﴾ إما أن يرجع الضمير إلى مسجد قباء، وهو ظاهر الآية، وإما أن يرجع إلى مسجد النبي ﷺ، وهو صريح قول النبي ﷺ الثابت عند مسلم من حديث أبي سعيد ﵁ قال: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا. لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ».

ولا منافاة بين ظاهر الآية والنص النبوي؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى، فإن معنى الآية أعم من ظاهر سياقها، إلا أن هناك فاضلًا ومفضولًا، ويحدد ذلك النصوص الشرعية الأخرى، وقد حددت أن المسجد النبوي هو أول مسجد أسس على التقوى، يليه مسجد قباء، ويكون تقدير الآية: لمسجد أسس على التقوى، وهو مسجد قباء من أول يوم أحق أن تقوم فيه بعد قيامك بالمسجد الأول، الذي هو المسجد النبوي، والله أعلم.

قوله: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ، كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالمَاءِ». ومن حيثية أخرى جاء في أهل قباء ما رواه أحمد من حديث جابر ﵁ قال: «اِسْتَأْذَنَتِ الحُمَّى عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَرَ بِهَا إِلَى أَهْلِ قُبَاء، فَشَكَوْا إِلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: مَا شِئْتُمْ، إِنْ شِئْتُمْ دَعَوْت الله لَكُمْ فَكَشَفَهَا عَنْكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَكُون لَكُمْ طَهُورًا»، قَالُوا: فَدَعْهَا». قال ابن حجر: إسناده جيد.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ جاء عند النسائي من حديث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبح، فَقَرَأَ الرُّومَ فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الطُّهُورَ، فَإِنَّمَا يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ أُولَئِكَ».

قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ سؤال تقريري، شبه فيه تقوى الله ورضوانه بأرض صلبة متينة قادرة على حمل البنيان.

قوله: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ شبه النفاق والباطل بالقاعدة الضعيفة التي لا تتماسك ولا تتحمل البنيان، والشفا: حرف الشيء وحافته، والجرف: ما تجرفه السيول من حافة الأودية، ويبقى على جوانب الوادي طين متصدع مشرف على السقوط، وأصله من الجَرْف والاجتراف، وهو اقتلاع الشيء من أصله، وهار: ساقط، يقال: تَهوَّر البناء، إذا سقط.

قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: فطاح به الجرف وسقط البنيان الذي أسس على النفاق والباطل ومن فيه في النار، فالكافر يبني بناءه على حافة جهنم فينهار بأهله فيها.

قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شكٌّ ونفاقٌ، وقيل: حسرة وندامة وغيظًا، بسبب هدمه، وكله صحيح، لأنهم أورثوا حبه في قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: سيبقى ذلك الشك والنفاق والحسرة في قلوبهم ما داموا أحياء، فإن تقطعت قلوبهم قطعًا، وتفرقت أجزاءً بموتهم فإنه ينتهي ذلك الشك والنفاق، وقيل: ينتهي ذلك النفاق والشك والريبة بتوبتهم توبة تنقطع بها القلوب ندمًا وأسفًا على تفريطهم، وأن مشوا ذلك الممشى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: عقد صفقة بيع وشراء، فالله المشتري، والمؤمن البائع، والسلعة الجنة، والثمن بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى، وشرط البيع أن يبيع المؤمن ماله ونفسه ووقته وكل ما يملك لله سبحانه وتعالى، وهذه البيعة عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلاَّ الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ».

قال الشاعر:

الْجُودُ بِالْمَالِ جُودٌ فِيهِ مَكْرُمَةٌ ... وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

وقال آخر:

أُثَامِنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رَبَّهَا ... وَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ثَمَنْ
بِهَا تُشْتَرَى الْجَنَّاتُ إِنْ أَنَا بِعْتُهَا ... بِشَيْءٍ سِوَاهَا إِنَّ ذَلِكُمُ غَبَنْ
لَئِنْ ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أَصَبْتُهَا ... لَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنْ

قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أوفى بعهده من الله، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا

يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾.

قوله: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ﴾ قال بعض السلف: ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وفى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. فمن قاتل في سبيل الله أو غزا فقد أوفى بعهده مع الله.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾

قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي: من المعاصي والشرك والنفاق.

قوله: ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ أي: المجتهدون في عبادة ربهم في حياتهم الدنيا.

قوله: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ أي: الذين تلهج ألسنتهم بحمد الله في جميع أحوالهم.

قوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي: الصائمون، الذين صاموا النوافل وداوموا على ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ﴾، وقد روى ابن جرير عن عبيد ابن عمير قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ السَّائِحِينَ فَقَالَ: هُمُ الصَّائِمُونَ» وهو مرسل جيد، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد، قال سفيان الثوري: إنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلها، وقيل: هم المجاهدون، للحديث الذي رواه أبو داود بسند لا بأس به عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى». والسياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض، كما يسيح الماء، ويدخل في معنى السياحة معان أخرى، كالجائلين بأفكارهم في التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وطلبة العلم الذين يهاجرون من بلد إلى أخرى يطلبونه من مظانه.

قال الشاعر:

وَبِالسَّائِحِينَ لَا يذوقون قطرة ... لربهم والذاكرات العوامل

وقال آخر:

بَرًّا يُصَلِّي لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ... يَظَلُّ كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ سَائِحَا

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ جاء في الصحيحين من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لَمَّا

تُوفِّيَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: «أَمَا وَاللهِ- لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ. فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾».

وأما قوله ﷺ كما عند الشيخين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، إنما هو على سبيل الحكاية عن بعض الأنبياء السابقين، ولذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، ولا بد هنا من الإشارة إلى توجيه وجيه وهو الاستغفار للأحياء دون الأموات، لتأليفهم بالقول الجميل، وترغيبهم بالدِّين، فلا بأس من أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ما داما حيين، فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء، وصار من أهل الجحيم، فلا استغفار حينئذ، وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين زار قبر أمه وبكى وأبكى حوله: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ».

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي: قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، رجاء أن يقلع عن الشرك، وطمعًا في هدايته، ولكن لما مات أبوه على الكفر علم أنه عدو لله، فترك الدعاء له، وقد جاء الترمذي بسند قوي من حديث علي رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِأَبَوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَسْتَغْفِرُ لِأَبَوَيْكَ وَهُمَا مُشْرِكَانِ؟ فَقَالَ: أَوَلَيْسَ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ؟! فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾».

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: كثير الخشوع والتضرع والذكر لله عز وجل، وقد كان لرسول الله ﷺ نصيب من ذلك، قال عَبْدُ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ». رواه أبو داود بسند صحيح. ويقال: (أوه) عند التوجع والألم.

قوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: كثير الحلم والصفح عمن ظلمه، صبور على البلاء، وعلى أذى من ظلمه؛ ولهذا استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مع شدة أذاه في قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: أطاعوا رسول الله ﷺ وقت العسرة في شدة الحر، والعسرة: الشدة وصعوبة الأمر، ولذا سميت غزوة تبوك بغزوة العسرة لما كان فيها من مشقة وتعب، فقد اجتمع عليهم عسرة حر الصيف، وعسرة المركب، وقلة الزاد، وشح الماء، حتى بلغ الجوع والعطش منتهاه، فالقيظ شديد، والمسافة بعيدة، حتى نحروا نواضحهم من شدة الجوع، فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قالا: «لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ

أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: افْعَلُوا. قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ، وَلَكِنِ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ!...». الحديث، وجاء بنحوه مختصرًا من حديث سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند البخاري.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من بعد أن كادت قلوب بعض منهم تميل عن الثبات على الهدى والإيمان، وتشك بالحق الذي تحمله، وذلك لما عاينوه من المشقة والشدة.

قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: تدارك قلوبهم فتاب عليهم إذ تابعوا، وتاب عليهم إذ رجعوا، وهي سنة الله مع أوليائه إذا أشرفوا على الهلاك، فإنه يجود عليهم بما يحيي قلوبهم وينجيهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ سبق ذكرهم عند قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ...﴾، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وقد جاء في الصحيحين من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ مِنْ تَبُوكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ، وَأَمَّا أَنَا فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ... وفيه: وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ...، وَفِيهِ: فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ: قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ

مَالِكٍ! أَبْشِرْ! قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ...»، وفيه: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. فَقُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا أَنْجَانِي اللهُ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ...، وَفِيهِ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ».

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ تمثيل دقيق لحيرتهم في أمرهم، فقد اختلفت عليهم الأرض وضاقت بهم فرأوها صغيرة لا تتسع لهم.

قوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بما اعتراهم من الغم والهم والقلق، وخافوا أن يصنَّفوا بمعصيتهم هذه مع زمرة المنافقين.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وقال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا».

قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصحُّ ولا يحقُّ لهؤلاء القريبين من رسول الله ﷺ أن يتخلفوا عن الجهاد في سبيل الله ﷻ ويتركوا رسول الله ﷺ وحده يتحمل أعباء هذه الدعوة، خاصة أنهم بايعوا على حماية الدين من أول يوم، وفي الآية عتاب رباني لأهل المدينة، ولقبائل العرب المجاورة، كمزينة، وجهينة، وأشجع، وغفار.

قوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: لا يبخلوا بتقديم أنفسهم على نفس رسول الله ﷺ، ولا يرضوا لأنفسهم بالراحة واليسر، ولرسول الله ﷺ بالمشقة والعسر، يقال: رغبت عن كذا، أي: ترفعت عنه.

قوله: ﴿ظَمَأٌ﴾ أي: عطش شديد.

قوله: ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب، وإعياء.

قوله: ﴿مَخْمَصَةٌ﴾ أي: مجاعة شديدة.

قوله: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: ولا يدوسون أرضًا من أرض الكفار، ولا يتحركون حركة يغتاظ منها أعداء الله.

قوله: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: لا يصيبون منهم إصابة بقتل أو أسر، أو هزيمة، وأصله من نلت الشيء، إذا أصبته وأدركته.

قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ جاء في حديث عبد الرحمن بن سمرة ﵁ قال: «جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ حِينَ جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ: مَا ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ. يُرَدِّدُهَا مِرَارًا». رواه الترمذي وأحمد بسند حسن واللفظ له.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ وهذا في حالة كان الجهاد فرض كفاية، أما إذا كان الجهاد فرض عن فلا، وهذه الآية دليل على أن الجهاد ليس على الأعيان، إذا لابد من إقامة من يحمون الدِّيار، ويقيمون الحدود، ويعلمون الناس عبادة ربّهم، وفي الآية دليل أيضًا على أنه في بعض حالات النفير إلى الجهاد يستثنى بعض الفقهاء والعلماء، الذين تحتاج الأمة إلى علمهم وفقههم، ولا يغني عنهم غيرهم.

قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: فهلا بقي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة لطلب العلم، وهذا يكون بالتناوب، فالذين تفقهوا في الدين وطلبوا العلم يخرجوا للجهاد ويحل محلهم غيرهم، وهكذا.

قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: ليتعلموا ويفهموا أمور دينهم، فإذا رجع المجاهدون أخبروهم بما سمعوا وما علموا، وهذه الآية أصل في وجوب طلب العلم، والتفقه في الكتاب والسنة، ولكنه على الكفاية دون الأعيان، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: النافرة، ويكون التفقه لهم تبصرهم وتيقنهم بما يريهم الله ﷻ من الظهور على المشركين، ونصرة الدين.

قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليجعلوا هدفهم من التفقه في الدين هو إرشاد قومهم وتعليمهم إذا عادوا إليهم، وكذلك الماكثون يتعلموا من المجاهدين الذين جابوا البلاد وتعلموا أمورًا كثيرة على أرض الواقع تفيد إخوانهم الماكثين لطلب العلم، فيكون التفقه في الدين متبادلًا بين الجميع.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي: لعلهم يخافون عقاب الله عز وجل، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وفي الآية دليل على أن التفقه في دين الله والجهاد أمران متلازمان، إذ لا يمكن أن يقوم جهاد حقيقي بلا فقه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: قاتلوا القريبين منكم، الأقرب فالأقرب، وفي هذا إشارة إلى أن قتال الكفار واجب، إن أصروا وثبتوا على كفرهم، ومنعوا المسلمين من تبليغ رسالة الله للناس، حتى لو لم يعتدوا على المسلمين، فالأمر بقتال الكفار ليس مرتبطًا باعتدائهم على المسلمين، إنما هو مرتبط بتبليغ دين الله تعالى، فإن حالوا دون ذلك قاتلهم المسلمون حتى يكسروا شوكتهم، ثم ينتشروا بين الناس يعلموهم ويفقهوهم بدين الله عز وجل، والأصلح أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، ولهذا فقد بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فبدأ بقتالهم في مكة، والمدينة، واليمن، واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، ثم شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم بنحو ثلاثين ألف مقاتل، فعاجلته المنية بعد رجوعه من تبوك، وحجته حجة الوداع، وجرى على ذلك أصحابه وخلفاؤه: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم.

قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تغامزوا بلغة العيون، إنكارًا للوحي وسخرية به.

قوله: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل كان بيننا أحد فسمع ما دار بيننا فنقله إلى محمد؟ وذلك جهل منهم بنبوته ﷺ، وأن الله عز وجل يطلعه على ما يشاء من غيبه.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ﴾ أي: انسحبوا من مجلس الذكر، لأنهم لا يصبرون على الاستماع لكشف فضائحهم، وبيان عيوبهم، وبقيامهم صرفوا عن طريق الهداية، كما قال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: يتلفتون عنك يمينًا وشمالًا، هروبًا من الحق وذهابًا إلى الباطل، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾.

قوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي: أبعد الله قلوبهم عن فهم القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ

قُلُوبَهُم﴾.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله آياته وخطابه، ولا يتدبرون القرآن.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي: يشق عليه مشقتكم، ويصعب عليه أن يراكم أشقياء بالشرك، والعنت: شدة المشقة.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: لا يلقي بكم في المهالك، حريص كل الحرص على هدايتكم، ودخولكم الجنة، والحرص على الشيء: الشح عليه أن يضيع ويتلف، وقد جاء عند أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ». حديث صحيح.

وعند أحمد من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا». حديث حسن، وزاد الطبراني بسند لا بأس به: وقال رسول الله ﷺ: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ».

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الناسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا».

قوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: كثير الرأفة والرحمة والشفقة بالمؤمنين، جاء عند الشيخين عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً». وفي رواية عند البخاري: «خَمْسَةِ» وذكرها، وعند مسلم قال: «وَسَمَّاهُ اللهُ رَءُوفًا رَحِيمًا». ودلالة رأفته ورحمته بأمته وبأصحابه أشهر من أن تذكر، ومنها ما جاء عند البزار بسند جيد من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى بَنِي وَاقِفٍ، نَزُورُ الْبَصِيرَ. رَجُلٌ كَانَ مَكْفُوفَ الْبَصَرِ».

قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ خُصّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، وقد سبق بيان عظمته، ونسبته إلى الكرسي والسماوات والأرض عند تفسير آية الكرسي في سورة البقرة، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ». رواه أبو داود موقوفًا بسند صحيح، ويروى مرفوعًا بسند ضعيف، لكن يشهد له مثل هذا لأنه لا يقال من قبل الرأي.

انتهى تفسير سورة التوبة، ولله الحمد.

  

سُورَةُ يُونُس

نزلت آيات منها في مكة، وآيات منها في المدينة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ② إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ④ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ⑤ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ⑥﴾

قوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: محكم، كما قيل: أليم، بمعنى: مؤلم صرف مُفعَل إلى فعيل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ㊶ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾. قال الشاعر:

وغَرِيبَـةٍ تـأتي المُلـوكَ حكيمـةٍ ... قـد قُلتُها لِيُقـالَ مَـنْ ذا قالَها

قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ، والتقدير: كان إيحاؤنا عجبًا للناس، فتكون ﴿عَجَبًا﴾ خبر كان، واسمها ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ أو استفهام إنكاري وتعجبي على تعجب الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ وقال هود وصالح عليهما السلام لقومهما: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾، وقال تعالى مُخبرًا عن كفار قريش أنّهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾.

قوله: ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ القدم عند العرب: كناية عن المنْزلة الرفيعة، وبالقدم يكون السبق والتسابق والثبات، فكل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قَدَم، يقال: لفلان قَدَم في الإسلام، ويقال: فلان له عندي قدم صدق، أي: هو متقدم في الشرف والمكانة، كقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾.

قال الشاعر:

صَـلِّ لِـذِي الْعَـرْشِ وَاتَّخِـذْ قَـدَمًا ... تُنْجِيـكَ يَـوْمَ الْعِثَـارِ وَالزَّلَـلِ

وقيل: إشارة إلى السعي في العمل الصالح، والسبق في الخير، كما قال حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَنَـا الْقَـدَمُ الْعُلْيَـا إِلَيْـكَ وَخَلْفَنَـا   لِأَوَّلِنَـا فِـي طَاعَـةِ اللهِ تَـابِعُ

وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً» وذكر منها: «وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ». يريد أنهم يحشرون على أثره ﷺ وزمان نبوته ورسالته، وليس بعده نبي، فهو آخر الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ الشفاعة في الآخرة قسمان: الأول: شفاعة مسموح بها، مسموع لها، كما هو الحال مع شفاعة نبينا محمد ﷺ، قال ابن تيمية في العقيدة الواسطية: وله في القيامة ثلاث شفاعات، أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه، وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له، وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيما استحق النار بذنوبهم، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتَزلة فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح، فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، قيل: هذه في حق الكفار كما دل على ذلك السياق، وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه أنَّ الشفاعة لا تتحقق إلا بشرطين، هما: الأذن من الله للشافع أن يشفع، والرضا عن المشفوع له، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾، أما المشرك فليس له إليها سبيل، ويؤيد ذلك ما جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما سأل النبي ﷺ: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ».

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ ينزل في كل ليلة منْزلًا، يتنقل فيها طوال الشهر، وعدد هذه المنازل ثمانية وعشرون منْزلًا، ويومان للنقص والاختفاء، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾.

قوله: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ فبالشمس تُعرف الأيام، وبالقمر تُعرف الشهور والأعوام.

قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ

دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ
فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يخافون، والعرب تقول: فلان لا يرجو فلانًا. وقيل: لا يطمعون.

فالرجاء يكون بمعنى الخوف، والطمع، أي: لا يخافون عقابًا، ولا يرجون ثوابًا، ولا يطمعون في رؤية ربهم. وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ». قال بعض أهل العلم: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، والجامع لهذا أن الرجاء يقع بمعناه في كل موضع دل عليه المعنى.

قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ الباء إما سببية، أي: يزيدهم بسبب تصديقهم هدايةً، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾، أو للاستعانة، أي: يجعل عملهم هاديًا لهم، ونورًا يمشون به في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، وعلى الصراط.

قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾ جاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا، وَيَشْرَبُونَ، وَلا يَتَغَوَّطُونَ، وَلا يَمْتَخِطُونَ، وَلا يَبُولُونَ، وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَاكَ جُشَاءٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ».

قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: تحية الله لهم، وتحية الملائكة لهم، وتحية بعضهم لبعض سلام، تفاؤلًا بسلامتهم ونجاتهم من النار، قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دلت الآية على أن التحميد يسمى دعاءً، ولهذه المسألة نصوص كثيرة، منها ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

قال الطبري: كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه: دعاء الكرب، وعند الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ قَطُّ؛ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ». حديث حسن.

قال بعض السلف: يُستحب التحميد عند الفراغ من الطعام أو الشراب ونحو ذلك، اقتداء بأهل الجنة، ولقوله ﷺ كما عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا».

قوله: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لو أن الله تعالى استجاب دعاء الناس بعضهم على بعض بالشر حال تسرعهم بالدعاء كما يحصل عند الغضب مثل استعجال الله لهم الخير الذي طلبوه من الله ﷻ، كقوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾، وكقوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». فالإنسان من طبيعته العجلة، ربما استعجل الشر دون قصد، فدعا على نفسه أو على أمواله، أو على أولاده في حال غضبه، ولو استجاب الله له لأهلكه وقضى عليه، وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ؛ لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ». وقيل: لو يعجل الله ﷻ العقوبة للناس كما يستعجلون المثوبة لماتوا. وقيل: هي لبعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة، ثم يحملهم أحيانًا سوء الخلق على الدعاء في الشر، فلو عجل لهم لهلكوا، وكل قول له نصيب من النظر، والقول الأول أقوى.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ أي: كثير.

قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ﴾ أي: لنمتحنكم ونختبركم، فإن سلكتم طريقهم كان مصيركم كمصيرهم، فالخليفة: هو الذي يخلف غيره في شؤونه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي

مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي: غيِّره، ولا تُبلِّغه بالحرف الواحد كما يأتيك، فامدح آلهتنا، واجعل مكان آيات العذاب والوعيد آيات رحمة، وبدل الحرام إلى الحلال، قالوا ذلك استهزاء وسخرية بالقرآن وبرسول الله ﷺ.

قوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أعلمكم به على لساني، وقيل: الواو عاطفة، واللام نافية، فيكون المعنى: لو شاء الله لأعلمكم وأخبركم به من غير أن أتلوه عليكم، فهي لام توكيد دخلت على ألف أفعل.

قوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: مكثت بينكم أربعين عامًا، تعرفونني بالصدق والأمانة، ولا أقرأ ولا أكتب، ولا أعلم من أمر هذا القرآن شيئًا، ولا تعلَّمت عند أحد، وما طالعت كتابًا، ولم أحدثكم بشيء من هذا القرآن من قبل، ولو كان باستطاعتي أن أعمل مثله أو أجزاء مثله لأبلغتكم به أولًا بأول، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان رضي الله عنه: «هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا». رواه الشيخان من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان رَضِيَ الله عَنْهُم، والفضل ما شهدت به الأعداء، وقد قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي: «حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ». رواه أحمد بسند جيد. وصدق حسان رضي الله عنه:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أتخبرون الله ﷻ أن له شريكًا في ملكه، أو شفيعًا بغير إذنه لا يعلمه الله ﷻ، فكيف لا يعلم لنفسه شريكًا في السماوات ولا في الأرض وهو سبحانه علاَّم الغيوب قال تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: فانتظروا قضاء الله بيننا، وأنا ممن ينتظر ذلك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ جاء في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني ﵁، قال: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

قوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ وهذا من باب المشاكلة والمقابلة لفعلهم ومكرهم.

قوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ أي: وسارت بهم السفن وانقادت بفعل ريح لينة خفيفة لا غبار فيها ولا منغصات، وقد انتقل الخطاب من المواجهة إلى الغائب، حيث أبدل هاء الغائب محل كاف المخاطب، كقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾.

قوله: ﴿عَاصِفٞ﴾ أي: ريح مدمرة شديدة الهبوب، تحمل خلالها الحصى والعيدان وأوراق الأشجار، وجاءت لفظة (عَاصِفٌ) مذكر، لأن لفظة الريح مذكرة، بينما لفظة (جاءتها) مؤنثة. قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا عَصَفَتْ رِيحٌ مُزَعْزِعَةٌ ... فِيهَا قِطَارٌ وَرَعْدٌ صَوْتُهُ زَجَلُ

قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: أيقنوا بالهلاك، ويقال لمن وقع في بلية: قد أحيط به.

قوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: يرجع عليكم، ولا يجني ثمرته إلا صاحبه ومرتكبه، ومن البغي الإشراك بالله تعالى والبغي: من بغى الجرح إذا فسد، وأصله الطلب، أي: يطلبون الاستعلاء بالفساد، ومنه: بغت المرأة، إذا طلبت غير زوجها، وقال ﷺ كما في الحديث الحسن من طريق أبي بكرة ﵁ عند أبي داود والترمذي: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ».

قوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: تتمتعون في حياتكم الفانية، بمعصية الله ﷻ، لا بما هو مباح.

قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾، وقد جاء في حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا؛ وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَحَهُ فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ». حديث حسن، رواه عبد الله بن أحمد في زوائده كما في المسند.

قوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ كالحنطة والشعير وسائر حبوب الأرض، والاختلاط تداخل الشيء بعضه في بعض.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ أي: كمال زينتها وحسنها، حتى صارت نضرة بهية، والزخرف: كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب: زخرف.

قوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي: بأنواع المآكل والمشارب والملابس والمساكن.

قوله: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أي: أيقنوا أنهم قادرون على الاستفادة منها ومن خيراتها الظاهرة والباطنة.

قوله: ﴿عَلَيۡهَآ﴾ أي: زينتها، وقيل: غَلَّتها.

قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ أي: مستأصلة.

قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: كأن لم تعمر، فأصبحت أثرًا بعد عين، كما قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾، قال ابن جرير: وأصله من: غني فلان بمكان كذا، يَغْنى به، إذا أقام به، فالملذات والشهوات والنعم بعد زوالها كأنّها لم تكن، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ! وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ! مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: الجنة، وسميت بذلك لأن من دخلها سلم من الآفات والمخاوف والأحزان، والسلام اسم من أسماء الله جل جلاله الحسنى، وإضافتها إليه إضافة تعظيم وتشريف، مثل: بيت الله، وحرم الله، وقد جاء عند الترمذي وأحمد بسند جيد من حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، عَلَى كَنَفَيِ الصِّرَاطِ زُورَانِ لَهُمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، عَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَهُ، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وَالأَبْوَابُ الَّتِي عَلَى كَنَفَيِ الصِّرَاطِ: حُدُودُ اللهِ، فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي

حُدُودِ اللهِ حَتَّى يَكْشِفَ السِّتْرَ، وَالَّذِي يَدْعُو مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ رَبِّهِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٢٧ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ۝٢٩ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٣٠ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لهم حسنى مثلها، وهي الجنة، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾.

قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي: رؤية الرحمن عيانًا بيانًا، فقد روى مسلم من حديث صهيب ﵁، قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ. وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾». وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: لا يعلو وجوههم غبار، ولا سواد، ولا كسوف، ولا كآبة، كما يعتري وجوه أهل النار، ومنه قيل: غلام مراهق، إذا لحق بالرجال ونبت في وجهه الشعر، والقتر: الغبار الأسود، وواحد القتر: قترة وهي الغَبَرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: تعلوها غبرة جهنم، وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ».

قوله: ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: ولا تكسو وجوههم الهوان ولا الصغار، الذي يلحق بوجوه أهل المعاصي والسيئات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾.

قوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا أحد يدافع عنهم، ولا يحميهم من عذاب الله ﷻ، كقوله

تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾.

قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ أي: كأنما أُلبست وجوههم رقعًا سوداء مظلمة كأنها رقعة من ظلام الليل البهيم، وكلما زادت سيئاتهم زاد اسوداد وجوههم، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡ﴾ أي: الزموا واثبتوا وقفوا مواضعكم أنتم ومن عبدتم، كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾، وذلك ليتميز المؤمنون من المجرمين.

قوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: فرقنا وحجزنا وميَّزنا بين الكفار وأصنامهم، وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾، يقال: زيلته فتزيل، أي: فرقته فتفرق، والمزايلة: المفارقة، والتزايل: التباين، يقال: لا أزايل فلانًا، أي: لا أفارقه.

قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي: ينطق الله تعالى الأوثان والأصنام التي كانت تعبد من دون الله فتبرئ نفسها، وتخاطب الذين عبدوها وتتبرأ منهم علانية وتقول: ما كنا نشعر بعبادتكم لنا، وما علمنا بذلك، وما أمرناكم بذلك، فنحن لم نشترك معكم في جريمة الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾.

قوله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: تقول الأصنام للمشركين يوم القيامة: يكفينا أن يكون الله ﷻ هو الشاهد بيننا وبينكم.

قوله: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: ما كنا نشعر بعبادتكم لنا، لأننا جمادات لا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل، ونطلب النجاة من إثم لم نشارك فيه.

قوله: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾ أي: في ذلك الموقف تُختبر وتُمتحن، وتعلم كل نفس عاقبة ما قدمت من خير أو شر، وينكشف أمرها، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وقيل: تذوق، وقيل: تعلم، وقيل: تتبع كل نفس ما قدمت في الدنيا، كما قال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ». قال الشاعر:

إِنَّ الْمُرِيـــــبَ يَتْبَـــعُ الْمُرِيبَــــا كَمَــا رَأَيْــتُ الــذِّيبَ يَتْلُــو الــذِّيبَا

قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، وقال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ». ولذلك قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: أفمن يرشد إلى الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحقُّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحدًا؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلًا عن هداية غيرها، ولا تمشي إلا أن تُحمل، ولا تنتقل من مكانها إلا أن تُنقل، وكذلك لو كان المعبود بشرًا، كما فعلت اليهود والنصارى بعزير وعيسى، عندما اتخذوهما إلاهين من دون الله، ونسوا أنهما مجرد مخلوقين محتاجين إلى هداية الله ﷻ، ولفظة (يَهِدِّي) معناها: يهتدي، من هدى يهدي، ولأن لفظة (يهتدي) مخارج حروفها متقاربة فيكون لفظها ثقيلًا، فتم إبدال وإدغام للتخلص من التقاء الساكنين، فأعطى هذا جمال في النطق، ولفت انتباه السامع.

قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: بهذا الباطل، وتقلبون الحق باطلًا والباطل حقًا، وتُساوون بين الأصنام التي لا تعقل ولا تفهم، وبين ربِّ الأرباب، ومالك السماوات والأرض وما بينهما؟

قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: فلا دليل ولا برهان، ولا حقائق واضحة يطمئن إليها العقل،

إنما يتعلقون بظنون وأوهام باطلة، وخرافات فاسدة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: الأوهام والظنون لا تغني من عذاب الله، فليس الظن كاليقين، وقيل: (الْحَقّ) هنا اليقين.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كان يصح ولا يعقل أن يزعم أن هذا القرآن المعجز في ألفاظه ومعانيه مكذوب على الله ﷻ، فكيف يزعمون أن محمدًا ﷺ وهو بشر مثلهم قادر على أن تأليف القرآن وهو أمي لا يحسب ولا يكتب، بينما هم الفصحاء عجزوا عن الإتيان بمثله ومجاراته وهم بشر مثل محمد ﷺ؟ فما كان هذا القرآن أصلًا أن يفترى، فليس الافتراء هو المنفي، ولكن جواز وجود الافتراء فيه هو المنفي، وهو أبلغ في النفي وأبعد.

قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كالتوراة والإنجيل والزبور.

قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصفه للقرآن الكريم: «فِيهِ خَبَرُ مَا قَبلَكُم، وَنَبأُ مَا بَعدَكُم، وَفَصلُ مَا بَينَكُم» ويروى مرفوعًا، لكنه ضعيف جدًا، والصحيح الوقف على علي رضي الله عنه، وعند أحمد قال علي رضي الله عنه: «قَوْلٌ فَصْلٌ، وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ، لا تَخْتَلِقُهُ الأَلْسُنُ وَلا تَفْنَى أَعَاجِيبُهُ».

قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، وقد قيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن مَنْ جَهَلَ شيئًا عاداه؟ قال: نعم، في موضعين، وتلا الآيتين السابقتين.

قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: لم يأتِهم حقيقة ما وُعدوا فيه الوعيد والحساب والبعث والنشور، والجنة والنار.

قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام عندما تبرأ من قومه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

قوله: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ لا سماع تدبر وتفكر، وإنما سماع من يتصيد الأخطاء والزلات.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ
مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ * وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: بعين الحقد والاحتقار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، والساعة تطلق على جزء من الزمان، ويعبر بها عن القيامة تشبيهًا لسرعة الحساب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾.

قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بقدر ما عرف الأبناء الآباء، والأصحاب الأصحاب، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا، وهو تعارف توبيخ وافتضاح، لا تعارف شفقة ورأفة ومحبة، فكل واحد مشغول بنفسه، مُتَّهِمٌ لصاحبه أنه أغواه، وكان يراه على المعصية ولا ينهاه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقيل: معنى: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يتساءلون فيما بينهم كم لبثتم؟ كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾. وهو قول جيد.

قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهذا المعنى يظهر واضحًا في سورة إبراهيم

حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وعدد الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن خمسة وعشرون، وهم: (آدم، نوح، إدريس، صالح، إبراهيم، هود، لوط، يونس، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، أيوب، شعيب، موسى، هارون، اليسع، ذو الكفل، داود، زكريا، سليمان، إلياس، يحيى، عيسى، محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين)، منهم ثمانية عشر ذكروا في سورة الأنعام وحدها.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وتأتي الأمة بعد الأمة، وأول الأمم قضاءً هذه الأمة، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، وقال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلائِقِ».

قوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وعند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ». وعند مسلم قالت أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: «اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّكِ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَآثَارٍ مَوْطُوءَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَا يُعَجِّلُ شَيْئًا مِنْهَا قَبْلَ حِلِّهِ، وَلَا يُؤَخِّرُ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ حِلِّهِ، وَلَوْ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ لَكَانَ خَيْرًا لَكِ». فعُلِمَ من ذلك أن الأعمار مقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة، فإن الدعاء مشروع له، نافع فيه.

قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: أتؤخرون الإيمان والتصديق أيها الكفار إلى أن يقع عذاب الله بكم، فإن ذلك لا ينفعكم، والاستفهام للتقرير والتوبيخ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: يقال للمجرمين يوم القيامة: الآن تؤمنون وتصدقون، وقد كنتم من قبل تستهزئون وتستعجلون نزول العذاب؟

قوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك عن العذاب وقيام الساعة.

قوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: قل نعم، وأقسم على ذلك بالله، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ

بالحلف به في ثلاثة مواضع من القرآن، في هذه الآية، وفي سورة سبأ عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وفي سورة التغابن عند قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ أي: اشترته فدية لها مقابل فكاكها من عذاب الله، ولكنْ هيهات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي: أخفى رؤساء الكفر الندم عن أتباعهم الضعفاء المضَلَّلين مخافة أن يعيروهم، وقيل: أظهروا الندم والحسرة؛ لأن الآخرة ليست دار تجلد وتصبر، فوجدوا ألم الندم والحسرة في قلوبهم، وبُهتوا وصُدموا عندما رأوا ما لم يخطر ببالهم، وأصل الندامة لزوم الشيء، ومنه سمي النديم؛ لأنه يلازم المجالس.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: دواء للقلوب وشفاء لها بكل معنى من معاني الشفاء، وقد أطلق المحل وهو الصدور، وأراد الذي بها وهي القلوب، فالقرآن يداويها ويخلصها من الشك والجهل والزيغ والضلال والعقائد الفاسدة.

قوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ ومن فضله: القرآن، والسنة.

قوله: ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ ومن رحمته: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ أي: ليفرحوا بالذي جاءهم من القرآن والإسلام، وبأن بعث لهم رسولًا كريمًا منهم، فهذا هو الذي يستحق الفرح، لا المال ولا متاع الدنيا الفاني، وقد قُرِئت: (فبذلك فلتفرحوا)، كما جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قرأ:

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. والفرح لذة في القلب بإدراك المحبوب، فالمؤمن فرح في الدنيا بما تفضل الله عليه من الهداية والإيمان، وسيفرح في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

قوله: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ماذا يظنون أن يُصنع بِهم يوم يرجعون إليه يوم القيامة، أيحسبون أن الله لن يؤاخذهم بما كسبوا؟!

قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي: ما تكون يا محمد في أمر من الأمور، من عمل صالح، أو عبادة وغيرها، والشأن: الخطب والأمر، تقول العرب: ما شأنت شأنه، أي: ما عملت عمله.

قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾.

قوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تندفعون وتنبسطون فيه من الكلام أو غيره، يقال: أفاض في الحديث والعمل إذا اندفع فيه وانبسط. قال الراعي:

فَأَفَضْنَ بَعْدَ كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ ... مِنْ ذِي الْأَبَاطِحِ إِذْ رَعَيْنَ حَقِيلَا

قال اللسان: من ذي الأبارق.

قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: لا يخفى، ولا يغيب، ولا يبعد، على الله ﷻ، قال ابن جرير: عُزُوبُ الرجل عن أهله يَعزُب، ويَعزِبُ لغتان فصيحتان، وعزب الرجل عن أهله إذا غاب وابتعد عنهم.

قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من وزن نملة صغيره، والذَّرَّة مفرد الذَّر: هو صغار النمل.

قوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال الجرجاني: (إلا) بمعنى واو النسق، أي: وهو في كتاب مبين، كقوله: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ومن ظلم، وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: والذين ظلموا منهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ
ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جاء عند البزار بسند لا بأس به من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ الذِينَ إِذَا رُؤوا ذُكِرَ اللهُ». وعند أبي داود بسند جيد من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرَوْحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ. وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾».

قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ». فكل مؤمن تقي هو ولي من أولياء الله، وليس بحاجة لدرجة أو شهادة من أحد، قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشعَثَ مَدفُوعٌ بِالأَبوابِ لو أَقسَمَ عَلى اللهِ لأَبَرَّهُ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ! قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»، وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ. قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»، وعند مسلم بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وزاد: «يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ».

ومن المبشرات الدنيوية بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لوعده سبحانه، وهذا الخبر وغيره من الأخبار لا ينسخها

شيء، ولا تكون إلا كما قال سبحانه، وقد جاء عند الحاكم عن نافع قال: «أَطَالَ الْحَجَّاجُ الْخُطْبَةَ، فَوَضَعَ ابْنُ عُمَرَ رَأْسَهُ فِي حَجْرِي، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: إِنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ بَدَّلَ كِتَابَ اللهِ، فَقَعَدَ ابْنُ عُمَرَ فَقَالَ: لَا يَسْتَطِيعُ ذَاكَ أَنْتَ وَلَا ابْنُ الزُّبَيْرِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. فَقَالَ الْحَجَّاجُ: لَقَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا إِنْ نَفَعَكَ». صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: لا يغلبه شيء، ولا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، ولا تعارض بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن كل عزة بالله هي لله، قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ويفرد الله سبحانه نفسه بالعزة هنا ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين كما في الموضع الآخر؛ لأن السياق سياق حماية ومَنَعَة من الله لأوليائه، فأفردها له سبحانه، والعزة أصلًا لله وحده، والرسول ﷺ والمؤمنون يستمدون قوتهم وعزتهم منه، فهم داخلون في الحماية الإلهية التي أضفاها على أوليائه، والعزة صفة من صفاته الذاتية سبحانه، يقول ابن تيمية: العزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة، فهو سبحانه قوي مثبت، وهو منيع لا ينال، وهو غالب لا يغلب، فالله تعالى هو العزيز، وله العزة جميعًا، يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ٧٣ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ٧٤ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمٗا مُّجْرِمِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾

قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طولُ مقامي ولبثي فيكم، وقد لبث فيهم مذكرًا بآيات الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامٗا﴾.

قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ أي: في التخطيط والتدبير في شأني، ومنه يقال: أجمعت على كذا، أي: عزمت عليه،

ومنه قول النبي ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح من حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يُجْمِعْ الصِّيَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ فَلا صِيَامَ لَهُ».

قوله: ﴿أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: فليجتمع أمركم مع شركائكم من الطواغيت والأصنام. قال الشاعر:

يَــا لَيْــتَ شَــعْرِي وَالْمُنَــى لَا تَنْفَــعُ ... هَــلْ أَغْــدُوَنْ يَوْمًــا وَأَمْــرِي مُجْمَــعُ

قال ابن جرير: ونصب قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ بفعل مضمر له، وذلك: وادعوا شركاءكم، وعطف بالشركاء على قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مستورًا مخفيًا، ستر حيرة وتردد، بل فليكن موقفكم مني وعداوتكم لي مكشوفًا معلنًا واضحًا، يقال: غم الهلال، إذا استتر، ويقال: الغمام، والغمامة لأنها تستر شعاع الشمس، وقيل: الغم، والغمة: ضيق الأمر الذي يوجب الغم، فلا يتبين صاحبه لأمره مصدرًا لينفرج عنه ما يغمه، وفي الصحاح: الغمة: الكربة.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أي: امضوا ونفذوا ما عزمتم، ومنه يقال: قضى الميت، إذا مات ومضى وانتهى، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أنهيناه إليه، وأبلغناه إياه.

قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلون، كما قال هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، يقال: انظرت فلانًا بما لي عليه من الدَّين، إذا أخرته وأمهلته، وإنما خاطبهم بأسلوب التحدي، لكمال ثقته وإيمانه بالله القوي العزيز، وإظهارًا لعدم المبالاة بتدبيرهم الضعيف مقابل تدبير الله المحكم، وهكذا ينبغي لأتباع الرسل أن يكونوا، فلا يخشوا في الله لومة لائم.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ ليعمروا الأرض بذكر الله تعالى وطاعته، وليقيموا دينه وشريعته.

قوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ قيل: أدخلت ألف الاستفهام على الحكاية لقولهم أتقولون: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وقيل: التقدير: قالوا: هذا سحر. بدون استفهام، قال ابن جرير: الصواب أن يكون المفعول محذوفًا، ويكون قوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ في قيل موسى منكرًا على فرعون وملئه.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: أجئتنا لتصرفنا ولتثنينا عن دين الآباء والأجداد؟ واللفت أصله من اللي والتحويل، وهو صرف الشيء عن أصله.

قوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: العظمة والملك والسلطان، ويقال للملك: الكبرياء؛ لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ

أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ
فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن
سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

قوله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ أي: ما جئتم به الآن هو السحرُ لا ما اتهمتموني به، و (مَا) في موضع رفع بالابتداء، والخبر (السحر)، والتقدير: أي شيء جئتم به، على التوبيخ والتصغير، وعلى هذا فتكون (مَا) بمعني الذي، و (جِئْتُمْ بِهِ) الصلة.

قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي: من طائفة القبط الذين هم من قوم فرعون، منهم امرأته، ومؤمن آل فرعون، وماشطة ابنته، وآمن معه السحرة كلهم، وجميع شعب بني إسرائيل، والذرية: الأولاد والشباب، وهي ضمير عائد على فرعون، لأن السياق يدل عليه، قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى (الذرية) في هذا الموضع فقيل: القيل، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، وقيل: ذرية من أرسل إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من بني إسرائيل لطول الزمان، لأن الآباء ماتوا، وبقي الأبناء فقيل لهم: ذرية؛ لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل إليهم موسى، وهذا القول هو الأظهر والمعروف من معنى الذرية في كلام العرب، أنهم أعقاب فيمن نسبت إليه من قبل الرجال والنساء، كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾، ثم قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾.

قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ أي: كان إيمانهم خفية ولم يعلنوا إيمانهم بموسى؛ لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته.

قوله: ﴿وَمَلَإِي۟هِمْ﴾ أي: ملأ الذرية الذين آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من سادات وكبراء قوم فرعون، ولم يقل: وملئه، وهذا ما يؤيد قول من قال: أن الذرية الذين آمنوا هم من قوم فرعون؛ لأن ملأ بني إسرائيل ليس فيهم من يخاف منه إلا قارون.

قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: اعصمنا منهم، ولا تنصرهم علينا، ولا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، ولا تمتحنا بأن تعذبنا على أيديهم، فيتجرؤوا علينا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما وقعوا تحت أيدينا ولما أصيبوا، فيظنوا أن هزيمتهم للمؤمنين بالله وتمكنهم منهم دليل على أن

عقيدة فرعون أصح. وقيل: استعاذ القوم بالله في كل معنى يكون صادًا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم، ورجح هذا القول: الطبري، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ أي: اتخذا، والمبوأ: المنْزل الملزوم، ومنه: بوأه الله منْزلًا، أي: ألزمه إياه وأسكنه، ومنه الحديث المتواتر: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». متفق عليه.

قوله: ﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: مصر المعروفة الآن، وهي كلمة ممنوعة من الصرف، وقد وردت في القرآن أربع مرات ممنوعة من الصرف وكلها تدل على القطر المعروف الذي يجري فيه النيل، أما كلمة (مصرًا) المصروفة، فقد وردت مرة واحدة في سورة البقرة، وهي نكرة تنطبق على أي مصر أو قطر، فالمصر في اللغة: الحد، وهو اسم لكل بلد محدود، وتنوينها تنوين تنكير لتدل على عمومها.

قوله: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: موجهة إلى جهة القبلة، وقيل: طهروا بيوتكم واجعلوها مساجد من أجل الصلاة والعبادة فيها عند الخوف، وقبلتهم كانت إلى بيت المقدس، وهي قبلة اليهود إلى اليوم، وكان من دينهم أنّهم لا يصلون إلا في البِيَع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أُذن لهم أن يصلوا في بيوتِهم، وقد فُضِّلت هذه الأمة على غيرها من الأمم بأن جعلت لهم الأرض كلها للصلاة، كما جاء عند الشيخين من حديث جابر ﵁، قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ» وذكر منها: «وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ».

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وعند أبي داود بسند حسن من حديث حذيفة ﵁ «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى».

قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: لتكون عاقبة أمرهم إلى الخسران عندما يستخدمونها في منع الناس عن عبادتك وتوحيدك، وإضلالهم عن دينك، واللام هنا لام العاقبة والصيرورة، صار كأنه أعطاهم وأنعم عليهم ليضلوا، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وقيل: هي لام كي، أي: لكي يضلوا ويبطروا ويتكبروا، كقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وهو استدراج منه سبحانه، وقيل: لام أجل، أي: أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك، فلم يخافوا أن تعرض لهم، وقيل: اللام للدعاء، أي: ابتلاهم بالضلال عن سبيله، والقول الأول، والثاني أرجحها.

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أذهب وأتلف، يقال: طمس الموضع، إذا دُرِس وذهب، وَطَمْسُ الشيء، إذاهبه عن صورته، ومنه قولهم: عين مطموسة، إذا ذهبت وطُمِسَت، وقد تستعمل العرب (الطمس) في العفو والمسامحة ونسيان ما فات.

قوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع على قلوبهم واغلظ عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان،

فلا يؤمنوا؛ ليضاعف عليها العذاب، وكان هذا غضبًا لله ولدينه بعدما يئس من صلاح قلوبهم وتوبتهم، ولما أخبر الله ﷻ نوحًا عليه السلام بقوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ دعا على قومه غضبًا لله، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دعاء، أي: اللهم فلا يؤمنوا، أو فلا آمنوا. وقيل هو في موضع نصب؛ لأنه جواب الأمر، أي: واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا، قال الشاعر:

يَا نَاقُ سِيرِي عَنَقًا فَسِيحَا ... إِلَى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحَا

فحذفت النون لأنه منصوب، وهذا الأقرب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي: قال الله تعالى لموسى وهارون: قد استجبتُ دعوتكما على فرعون وأشراف قومه، وإذا استجاب الله ﷻ الدعاء تم وانتهى، فلا راد لحكمه وقضائه سبحانه، وقيل: كلاهما دعا الله، وقيل: الداعي موسى، والعرب قد تخاطب الواحد بخطاب الاثنين، وهذا على أن (آمين) ليس بدعاء، والقول الأول أحرى، لظاهر قول موسى عليه السلام: (رَبَّنَا)، ولم يقل: رب.

قوله: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا واعتداءً.

قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ؛ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ!». وحال البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والإيمان في هذا

التوقيت غير مقبول؛ لأنه عاين الموت، وانكشف الغطاء، جاء عند الترمذي من حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ». حديث حسن.

قوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ أي: الآن تقر بالعبودية وتستسلم له، وتخلص له الألوهية، وقد عصيته قبل؟ والسؤال للتوبيخ والإيلام والإنكار، فهلاّ أقررت بالإيمان وأنت في مَهَل، وباب التوبة لك منفتح، وإنما لم يقبل الله منه ذلك لأنه علم سبحانه أنه لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه من ادعاء الربوبية والطغيان، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نخرجك من البحر سالمًا كامل الأعضاء، ونلقيك على نجوة من الأرض على شاطئ البحر صحيحًا بجسمك وهيئتك لا بروحك، والنجوة: الربوة والمكان البارز المرتفع عن البحر حتى يشاهد الناس ذلك العاصي المتكبر الذي ادَّعى أنه ربهم وأنه واعتقدوا أنه لا يموت، وقد كان بنو إسرائيل قد شَكُّوا في موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله تعالى البحر فلفظه على مرتفع ونجوة من الأرض فنظروا إليه وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك من هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه، وليس قوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من النجاة التي بمعنى السلامة العامة.

قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ أي: ليعتبر ويتعظ من وراءك من الجماهير كيف كان مصيرك، ويرون عاقبة من يتصدى لدين الله ﷻ ولأوليائه الصالحين، وقد كان هلاكه وجنوده يوم عاشوراء كما جاء عند البخاري ومسلم من حديث ابن عباس ﷺ قال: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا». وما قيل: إنه موجود بجسده محنطًا إلى الآن فليس بصحيح، والذي يظهر أنه نشر على نجوة من الأرض حتى رأته بنو إسرائيل، فخرج الشك من قلوبهم، وأيقنوا بهلاكه، ثم ابتلعه البحر، فلعنة الله عليه وعلى كل فرعون مشى على هذه الأرض بالأمس واليوم وغدًا، وإلى يوم الدين.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ أي: منزلًا صالحًا مرضيًا محمودًا، وإضافته إلى الصدق تزيده أمانًا وثباتًا واستقرارًا كثبات الصدق، كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وقد سبق هذا كله، وقد كررناه لأهميته.

قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: سؤال على سبيل الافتراض الموصل للإثبات، والخطاب موجه للنبي ﷺ والمراد به غيره، وإلا فإن رسول الله ﷺ على يقين من أمره، ولا يجوز أن يكون

ﷺ قد شك قط في شيء من أمر الوحي والرسالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا تكن من الشاكين المرتابين المكذبين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي: فهلا وجدت فيما سلف من القرون قرية واحدة من القرى التي أهلكها الله تابت عن الكفر وآمنت بكمالها عند رؤية العذاب فنفعها إيمانها، فدل ذلك على أنه لم يقع ذلك إلا مع قوم يونس عليه السلام، وأصل لولا في الكلام: التخصيص والتحضيض، أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره، ومفهوم الآية نفي إيمان أهل القرى، ثم استثنى قوم يونس، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وبحسب المعنى متصل، لأن تقديره: ما آمن من أهل قرية إلا قوم يونس، ويجوز (إلا قومُ) بالرفع، أي: غيرُ قوم، فلما جاء بـ(إلا) أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير.

قال ابن جرير: لو اختلف الجنان حتى ما يكون ما بعد الاستثناء من غير جنس ما قبله كان الفصيح من كلام العرب النصب، وذلك لو قلت: ما بقي في الدار أحدٌ إلا الوتد، وما عندنا أحدٌ إلا كلبًا أو حمارًا؛ لأن الكلب والوتد والحمار من غير جنس (أحد)، فيجوز النصب إذا كان مستثنى من غير جنسه، لذلك نصب (قومَ يونس) لأنهم أمة غير الاسم الذين استثنوا منهم، ومن غير جنسهم وشكلهم، وإن كانوا من بني آدم، وهذا الاستثناء الذي يسميه أهل العربية الاستثناء المنقطع، ولو كان (قوم يونس) بعض الأمة والذين استثنوا منهم كان الكلام رفعًا، والمقصود أن الله ﷻ خص قوم يونس عليه السلام من بين سائر الأمم بالتوبة عليهم بعد معاينة العذاب، يعني لم يقع بِهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، إذ لو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان، لأن المعاينة لا تنفع التوبة معها كما هي سنة الله في خلقه.

قوله: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله ﷻ وبنبوة يونس عليه السلام، وكان عددهم أكثر من

مائة ألف كما قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، قال ابن جرير: فإن قال قائل: فما وجه قوله: ﴿كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ والكل يدل على الجميع والعكس، فما وجه التكرار؟ قال بعض أهل اللغة: جاء بقوله: (جَمِيعًا) في هذا الموضع توكيدًا كما قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، وقال آخرون: (جَمِيعًا) لا تقع إلا توكيدًا، و (كُلُّهُمْ) يقع توكيدًا واسمًا، فلذلك جاء بـ (جَمِيعًا) بعد (كُلُّهُمْ) ولو قيل: إنه جمع بينهم ليعلم معناهما واحد لجاز ههنا.

قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك إليك، وهو سؤال للإنكار، إذ إن الإيمان متروك لاختيار صاحبه، فلا إكراه في الدين.

قوله: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ أي: العذاب والسخط.

قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: انظروا نظر تفكر واعتبار وتدبر، ما الذي في السماوات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه؟

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ أي: وما تنفع الآيات والمعجزات.

قوله: ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرسل، جمع نذير، وهو الرسول.

قوله: ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: سبق لهم من الله الشقاء.

قوله: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: هل ينتظر كفار مكة أن يحل بهم إلا كما حل بالأقوام الكافرة قبلهم من العذاب والدمار، كما حصل لقوم نوح، وعاد، وثمود وغيرهم؟ فالأيام هي الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعهم، والعرب تسمي العذاب أيامًا، والنعم أيامًا، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام.

قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ أي: كنتم في شك في ديني فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه؛ لأنه لا يستنكره ذو فطرة صحيحة، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه في عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئًا، ولا تضر ولا تنفع فينكرها كل ذي لب وعقل صحيح.

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ جاء عند الترمذي وأحمد بإسناد جيد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».

انتهى تفسير سورة يونس، ولله الحمد.

  

سُورَةُ هُودٍ

وهي سورة مكية إلا آيات منها.

جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ شِبْتَ! قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

قوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: لا يلحقها تناقضٌ ولا خلل، ولا باطل فيها ولا دَخَل، ولن يلحقها كتاب ينسخها، كما حدث للتوراة، والإنجيل وغيرهما، وذلك أن إحكام الشيء إصلاحه وإتقانه.

قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: فُسِّرت وبُيِّنَت: بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والحلال والحرام، والنبوة، والتوحيد، والبعث وغير ذلك. وقوله: ﴿مِن لَّدُنۡ﴾ أي: من عند.

قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد يكون ماديًا أو معنويًا، وقد يكون متاعًا من نوع واحد، وقد يكون كثيرًا متنوعًا، أما في الآخرة فيكون المتاع بالنوع والكم، وقد تجد بعض المؤمنين الصالحين يضيق عليهم المتاع والأرزاق، ويتهمون في علمهم وعملهم وجهدهم المبذول في خدمة دين الله تعالى، فيكون متاعهم ما يشعرون به من فسحة وسعة وقرت في قلوبهم من إيمان وطمأنينة وثقة بالعاقبة. وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾.

قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: الموت، الذي هو قيامة كل حي.

قوله: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ أي: جزاء فضله، إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما جميعًا، وقيل: المعنى أن الله يعطي كل من فضلت حسناته من فضل الله الذي يتفضل به على عباده.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ أي: يطوون صدورهم ويسترون ما فيها من عداوة النبي ﷺ والمؤمنين، ويطأطؤون رؤوسهم استخفاء من الله الذي كانوا يشعرون في أعماقهم أن هذا القرآن هو كلامه، روى البخاري عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ: أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ ب يَقْرَأُ: أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ. قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: أُنَاسٌ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ.

قال ابن جرير: استثنى ثوبه وتغشّاه، والثني يعبَّر به عن الشَّك في الحق والإعراض عنه.

ويدخل في معنى الآية معاداة المشركين السرية للنبي ﷺ والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم، قال الشاعر زهير بن أبي سلمى:

فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي قُلُوبِكُم ... لِيُخْفَى، فَمَهْمَا يُكتم اللهُ يَعْلم

يُؤخَر فيوضَع فِي كِتَابٍ فَيُدخر ... لِيَوْم حِسَابٍ، أَوْ يُعَجل فَيُنْقم

وفي هذا اعتراف منه بوجود الصانع، وبيوم الحساب، وبالجزاء عن كل صغيرة وكبيرة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي
كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ٨ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ
مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٢﴾

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (مَا) نافية، و (مِنْ) صلة، و (دَابَّة) في موضع رفع، والتقدير: وما دابة إلا على الله رزقها، والدابة من دَبَّ يَدِبُّ: اسم لكل إنسان أو حيوان يمشي ويتحرك على وجه الأرض أو يكمن في باطنها، وتخفى في دروبها، ذكرًا كان أو أنثى، ويغلب على غير العاقل، ولا يعلم عددها إلا الله سبحانه. قال الشاعر:

وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ وَاللهُ رَازِقِي ... وَرَازِقُ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ

تَكَفَّلَ بِالْأَرْزَاقِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ ... وَلِلضَّبِّ فِي الْبَيْدَاءِ وَالْحُوتِ فِي الْبَحْرِ

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ جاء عند الحاكم بسند صحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «الْمُسْتَقَرُّ مَا كَانَ فِي الرَّحِمِ، مِمَّا هُوَ حَيٌّ، وَمِمَّا هُوَ قَدْ مَاتَ، وَالْمُسْتَوْدَعُ مَا فِي الصُّلْبِ». وقد سبق ذلك في سورة الأنعام.

قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: كان عرش الرحمن قبل خلق السماوات والأرض على الماء، وقد روى البخاري من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ. قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا! -مَرَّتَيْنِ-، -وَفِي رِوَايَةٍ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ- ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ. قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا

رَسُولَ اللهِ. قَالُوا: جِئْنَاكَ -وَفِي رِوَايَةٍ: لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَ-نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ. قَالَ: كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: قَبْلَهُ-، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

وعند مسلم من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

وعند الحاكم بسند جيد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أنه سئل عن قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: عَلَى مَتنِ الرِّيحِ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ. وَقَالَ: (يَدُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: يَمِينُ- اللهِ مَلْأَى، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ والْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي (يَدِهِ) -وَفِي رِوَايَةٍ: يَمِينِهِ-، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، (وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ- يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ».

وعند أحمد، والترمذي، وابن ماجه من حديث أبي رَزِين العُقَيلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: «يا رسولَ اللهِ، أين كان رَبُّنا عزَّ وجلَّ قبلَ أنْ يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ قال :في عَماءٍ ما فَوقَهُ هَواءٌ، وما تَحتَهُ هَواءٌ، ثم خلَقَ عَرشَهُ على الماءِ». حسنه الترمذي. والعماء: السحاب، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وإنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المنقول عنهم، ولا ندري كيف كان ذلك العَمَاء، وقد نقل الترمذي في سننه عن أحمد، عن يزيد بن هارون قال: العَمَاءُ أي: ليس معه شيء. قال الترمذي: حديث حسن.

قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أي: ليختبركم فيما أمركم به ونهاكم عنه ليظهر المحسنُ من المسيء، فقد خلق الله ﷻ السماوات والأرض لنفع عباده وابتلائهم، ولم يخلقها عبثًا.

قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ أي: إلى مدة من الأيام قليلة وأجل معدود، وقيل: إلى حين جيل معلوم من الناس.

قوله: ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ أي: استعجالًا للعذاب على جهة الاستهزاء والتكذيب.

قوله: ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ أي: ثم سلبناه ومنعناه تلك النعم.

قوله: ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ أي: كثير اليأس من رحمة الله، شديد اليأس من الخير، من قول القائل: يئس فلان من كذا فهو يؤوسٌ، إذا كان ذلك حنق له، ومثله: فخور، وكفور أي كثير الفخر وكثير الكفر، وهي من صيغ المبالغة التي تفيد الكثرة.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ جاء عند مسلم من حديث صهيب الرومي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

«عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

قوله: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ أي: كفيل يحفظ عليهم أعمالهم ويحصيها لهم، متكفل بكل ما يحتاجون من مصالح.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ جاء التحدي بأن يأتوا بعشر سور بعد أن عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن الكريم كاملًا، ثم لما عجزوا تحدَّاهم بالإتيان ولو بأقصر سورة، قال تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾، فالتحدي كان بنوع هذا القرآن، لا بمقداره والعجز كان عن النوع لا عن المقدار.

قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾، وعند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا».

قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بَطَلَ وفسد ما عملوا، لفساد مقاصدهم ونياتهم، والحبوط أصله من قولهم: حبطت الناقة، إذا انتفخ وتورم بطنها من المرض، فالذي يراها من بعيد يظن أنها سمينة ومعلوفة جيدًا، وهي في الحقيقة مريضة لا تلبث أن تموت ولا تساوي شيئًا، وكذلك مثل الذي يعمل العمل ويرائي به ولا تكون نيته خالصة لربه سبحانه وتعالى، فالذي يراه يظن أنه حاز ثوابًا كثيرًا وهو في الحقيقة هباءًا منثورًا باطلًا.

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ نظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا

يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

قوله: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ أي: ويتبعه زيادة على ما هو عليه من البينة الواضحة، شاهد آخر على نبوته وهو هذا القرآن، الذي نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، فاجتمع له نوران: نور الإسلام، ونور الوحي يقرؤه جبريل عليه السلام أو الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: شاهد آخر، يتلونه قبل القرآن، وهو التوراة الذي أنزله الله ﷻ على موسى عليه السلام وقرأه جبريل عليه السلام قبل القرآن، وبَشَّرَ بمحمد ﷺ وشهد بصدق رسالته.

قوله: ﴿إِمَامٗا﴾ أي: قدوةً في الخير لبني إسرائيل.

قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان كلها كاليهود والنصارى وأهل مكة وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾، وقوله: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ وسموا بذلك؛ لأنّهم يتحزبون ضد ما هو حق.

قوله: ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ أي: من أهل النار. قال حسان رضي الله عنه:

أُورِدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَة ... فالنَّار موعدها والموت لاقيها

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: الملائكة، والمرسلون، والعلماء، والمؤمنون. جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، (وَيَسْتُرُهُ)، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ (وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ) قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ (فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ): ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾».

قوله: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: لا يريدون للناس الاستقامة على دين الله تعالى، فتراهم مبدعين في اختراع الملاهي المحرمة التي تشغل الناس عن الاستقامة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ

نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ أي: بما كانوا يستطيعون السمع والبصر، ولكنهم لم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره، والعرب تقول: جزيته ما فعل، وبما فعل، فيحذفون الباء مرة، ويثبتونها أخرى، وأنشد سيبويه:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

البيت لعمرو بن معديكرب الزبيدي. أراد (بالخير) فحذف ووصل الفعل ونصب. والنشب: المال الثابت كالضياع ونحوها. وقيل: النشب جميع المال، فيكون عطفه على الأول مبالغة وتأكيدا. (شواهد سيبويه).

وقيل: ﴿مَا﴾ نافية، والمعنى: ما كانوا يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سمعًا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصارًا يهتدون به، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: غابت عنهم أصنامهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: لا بد ولا محالة أن أمر خسرانهم حق لهم.

قوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الإخبات: الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم والخشوع والإخلاص لله ﷻ، وأصل الإخبات: الاستواء المطْمَئِنُ من الأرض، من الخبت، وهو الأرض المستوية، يقال: أخبت الرجل، إذا نزل الخبْت، فإنابتهم إلى الله ﷻ مستمرة على استواء ووضوح وتواضع، وقد جاء عند أبي داود والترمذي بسند صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو: رَبِّ أَعِنِّي، وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي، وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي، وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي، وَيَسِّرْ هُدَايَ إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا».

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: فريق المؤمنين وفريق الكافرين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «فيأتون نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يا نُوحُ، أنتَ أولُ رَسُولٍ إلى أهلِ الأرضِ».

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: لا حسب لهم ولا وزن، لاعتقادهم أن الشرف لا يكون إلا بالمال والجاه والسلطان، وقد سأل هرقل أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ فقال: «وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ: أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ». رواه الشيخان من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأراذل جمع أرذَل، والرذل: الفقير السافل الذي لا خلاق له، الذي لا يبالي بما يفعل.

قوله: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي: اتبعوك في أول الرأي وظاهره، دون تروٍ ولا تفكير ولا فهم ولا تحقق من كونك نبيًا، وقد اتبعوك من أول كلمة ودعوة، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك، فأنساهم تكبرهم أن اتباع الرسل لا يحتاج إلى رأي وفكر، وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببهم؛ لأن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا عمق نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر؛ لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، يقال: بدأ، ويبدو، إذا ظهر، ويقال للبرية: بادية، لظهورها، وبدا لي أن أفعل كذا، إذا ظهر لي رأي غير الأول.

قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: خفيت عليكم ولم تفهموها، ولم تهتدوا إليها، يقال: عُمِّيتُ عن كذا، وعُمِّيَ علي كذا، أي: لم أفهمه، وهذا في قراءة التخفيف: (فَعَمِيَت) وقُرِئت بالتشديد على ما لم يسم فاعله، أي: فعمَّاها الله عليكم، قال ابن جرير: وهذه الكلمة مما حولت العرب الفعل عن موضعه وذلك أن الإنسان هو الذي يعمى عن إبصار الحق، والحق لا يوصف بالعمى إلا على الاستعمال الذي جرى به الكلام وهو في جوازه لاستعمال العرب إياه، وهو نظير قولهم: دخل الخاتم في يدي والخف رجلي، ومعلوم أن الرِّجل هي تدخل في الخف والأصبع في الخاتم، ولكنهم استعملوا ذلك لما كان معلومًا المراد فيه.

قوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنكرهكم ونجبركم على قبول النبوة والإيمان والهداية رغمًا عنكم، وأنتم لها كارهون؟ وهذا تلطف في الخطاب من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق، كما قال أمر الله تعالى فقال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا

تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وقد تكرر مع نبينا محمد ﷺ عندما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين، كعمار بن ياسر، وصهيب الرومي، وخباب بن الأرت، وأشباههم، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ يقال: ازدريت عليه، إذا عبته، وزريت عليه، إذا حقرته. قال الشاعر:

يُبَاعِدُهُ الصَّدِيقُ وَتَزْدَرِيهِ ... حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

قوله: ﴿أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ الغواية هنا بمعنى: الهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: هلاكًا، يقال: أغويت فلانا، بمعني أهلكته، وغوي الفصيل: إذا فقد اللبن فمات، وحكي عن طيء أنهم يقولون: أصبح فلانًا غاويًا إذا كان مريضًا.

قوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ أي: عليَّ يقع عقاب إجرامي، وأنا أتحمل إثمي وجزاء كسبي، وأنتم لا تؤاخذون بذنبي، وإن كنت مُحِقًا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبي، والإجرام: مصدر أجرم، يقال: أجرمت إجرامًا وجرمت جرمًا، وهو اقتراف السيئة، وجرم، وأجرم بمعنى واحد، قال الشاعر:

طَرِيدُ عَشِيرَةٍ وَرَهِينُ جُرْمٍ ... بِمَا جَرَمَتْ يَدِي وَجَنَى لِسَانِي

ومن قرأ (أجرامي) بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع (جُرْم).

قوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ البؤس: الحزن، يقال: ابتأس الرجل بالأمر يبتئس ابتئاسًا، إذا بلغه شيء يكرهه، والابتئاس: حزن في استكانة. قال الشاعر:

وَكَمْ مِنْ خَلِيلٍ أَوْ حَمِيمٍ رُزِئْتُهُ ... فَلَمْ أَبْتَئِسْ وَالرُّزْءُ فِيهِ جَلِيلُ

قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: اعمل السفينة.

قوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا وبحفظنا ورعايتنا لك، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، فأنت في حفظنا، وفي حراستنا، والأعين كناية عن الرعاية والحفظ، يقال: صَحِبَتكَ عينُ الرحمن، أي: رعايته وحفظه، وصنعتُ الفرس إذا رعيته وأحسنت القيام عليه، وإنما جمع الأعين لبيان عظمة الرعاية والحفظ لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا للتكثير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، وقال: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي: على ما أوحينا إليك وعلَّمناك من كيفية صنع السفينة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾

قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: إذا رأيت الماء يفور ويتدفق من تنور أهلك الذي يخبز فيه، وقيل: التنور أشرف الأرض وأعلاها، وفورانه علامة بدء الطوفان لكي يستعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن به لركوب السفينة.

قوله: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: من كل صنف مما على وجه الأرض من الحيوانات زوجين اثنين، ذكرًا وأنثى؛ ليبقى أصل النسل بعد الطوفان، ويقال للاثنين: زوجان، في كل اثنين لا يستغني أحدهما عن صاحبه، فإن العرب تسمي كل واحد منهما زوجًا، يقال: له زوجا نعل، إذا كان له نعلان، وعنده زوجا حمام، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾، ويقال للمرأة: زوج للرجل، وللرجل: زوج المرأة، وقد يقال للاثنين: زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الصنفين، وكل ضرب يدعى زوجًا. قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: من كل لون وصنف.

قوله: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ أي: قرابتك وأولادك ونساءك الذين آمنوا بك.

قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: ابنهُ الكافر، وامرأته الكافرة.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أي: اصعدوا على ظهر السفينة، والقائل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ للقلة المؤمنة، ويحتمل أن يكون من الله عَزَّ وَجَلَّ، والركوب: العلو على ظهر الشيء، يقال: ركبه الدَّين.

قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾ أي: على اسم الله جريها وابتداء سيرها في الطوفان، و (مجريها) مصدر ميمي من (جَرى) وأُمِيلَ في رواية حفص.

قوله: ﴿وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ أي: وعلى اسم الله منتهاها، عندما ترسوا وتقف بعد الطوفان، وإنما قال هذا لهم لإشعارهم بلطف الله وحمايته ورحمته بهم، ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند ركوب أي دابة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ

لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه.

قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ الكاف للتشبيه، وهي في موضع خفض نعت للموج، فيشبه الله تعالى علو الأمواج وارتفاعها وعِظَمِها بالجبال، كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي: في ناحيةٍ منها لم يركب مع المؤمنين، وقيل: إن نوحًا عليه السلام لم يعلم أن ابنه كان كافرًا، وأنه ظن أنه مؤمن، ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والذي يظهر أنه ليس كذلك، وأنه قد علم أنه من الكافرين، ولكنه من باب إعادة دعوته للإيمان والإسلام لعله يتذكر أو يخشى، لاسيما والعذاب قاب قوسين أو أدنى، ولكن سبق قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، فالأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات، وما على الأب والأم إلا أن يدعوا الله بصلاح النية والذرية، ويبذلا الأسباب التي من شأنها إيقاظ وتذكير الأبناء، والباقي على الله وحده، فهو الهادي إلى سواء السبيل.

قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول، أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه، قال الزجاج. ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم.

قوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: يعني بين نوح وابنه.

قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع. ويقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع، وبلع يبلع مثل حمد ويحمد، لغتان، والبالوعة: الموضع الذي يشرب الماء.

قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نقص مستواه، وابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها، وشرع ينقص حتى قلَّ وجف، والغيض: النقص، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: ما تنقص من أشهر الحمل، عند الولادة بأقل من تسعة أشهر.

قوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي: استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، وهو جبل بقرب الموصل على نحو أربعين كم شمال شرقي جزيرة ابن عمر، وقيل: في أرض الجزيرة، وقيل: هو جبل الطور، وقيل: الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل، وقيل لورقة بن نوفل:

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَهُ ... وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجَمَدُ

والقول الأول أقرب؛ ولذا يقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجودي بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطور سيناء بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحراء بمحمد ﷺ، قلت: وجبل ثور، وأحد بمحمد ﷺ، وقال رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره: «إِنَّ أُحُدٍ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، ويقال: لقد تطامن الجودي، وتواضع لأمر الله فلم يغرق، ورست السفينة عليه، وهذه سنة الله في خلقه: أن من خضع لله عَزَّ وارتفع، ومن استعلى وتكبر ذَلَّ وخضع. قال ﷺ: «وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلا عِزًا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلا رَفَعَهُ اللهُ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الشاعر:

وَإِذَا تَذَلَّلَتِ الرِّقَابُ تَخَشُّعًا ... مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وقال ﷺ كما في الحديث الحسن: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ مَحْزَنَةٌ». أخرجه ابن ماجه من حديث يعلى العامري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فليس غريبًا أن يسأل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ نجاة ابنه وإن كان كافرًا، وقد سأل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه في أن يغفر لأبيه (آزر)، وسأل محمد ﷺ ربه أن يستغفر لأمه (آمنة) كما جاء ذلك عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال رسول الله ﷺ حين مات أبو طالب كما جاء عند الشيخين من حديث المسبب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾». والحاصل: أن المشاعر أحيانًا تتجاوز الحدود.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت بإنجائهم.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ مبالغة في ذم سؤاله، وقرئت (إنه عَمِل) أي: من الكفر والتكذيب، وقد جاء عند أحمد وأبي داود بسند جيد من حديث أسماء بنت زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنّها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إنه عَمِل غير صالح»، وقرأها الجمهور: (عَمَلٌ) أي: ابنك ذو عمل غير صالح، فحذف المضاف. أو تكون

الهاء للسؤال، أي: إن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح، ولعل هذا التوجيه أقرب إلى الصواب.

قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ مشتقة من بروك الجمل، وهو ثبوته وإقامته، ومنه يقال: البِرْكة؛ لثبوت الماء فيها، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾، ومن بركاته أن جعل من نسله أنبياء الله الذين جاؤوا من بعده.

قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ فدخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: من صار كافرًا من ذريتهم إلى يوم القيامة، فدخل فيه كل كافر إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي: غزيرًا متتابعًا كثيرًا يتبع بعضه بعضًا، وهي صيغة مبالغة، يقال: ناقة مدرار، إذا كانت كثيرة الحليب.

قوله: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ جاء عند أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ». حسنه ابن حجر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾

قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ أي: بجنون، من عروته إذا أصبته، يقال: عراه الأمر، واعتراه، إذا ألَمَّ به وأصابه، ويقال: عراني الشيء يعروني، إذا أصابني، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ أي: السائل الذي أصابته الحاجة.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: أشهدُ الله على براءتي لكم وأشهدكم أنتم أيها القوم المشركون بأنني بريءٌ مما تشركون، ولم يقل: (إني أشهد الله وأشهدكم) حتى لا يساوي بين الشهادتين، فشتان بين شهادة الله الواحد القهار، وبين شهادة العبد الضعيف.

قوله: ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الناصية أول الشعر في أعلى الجبهة، وخصَّ الناصية لأن العرب تستعملها إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع، فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي أنه مطيع له يصرفه كيف يشاء، وكانوا إذا أسروا أسيرًا وأرادوا إطلاقه والمن عليه حزوا ناصيته، ليعرفوا بذلك فخرًا عليه، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ».

قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إن ربي على الحق والعدل، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحدًا شيئًا.

قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي ذر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي».

قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: يحفظ دينه وأولياءه، ويحفظ الكون، وأعمال عباده، فلا يغيب عن حفظه شي.

قوله: ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ لأن حقيقة رسل الله ورسالتهم واحدة، فكان من كذّب برسول كأنه كذب بالجميع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يقال: عَنَدَ عن الحق فهو يَعنَدُ عُنُودًا، إذا طغى ولم يقبل الحق ولم يذعن له، والعنيد، والعَنود، والعاند، والمعاند: المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعِرق الذي ينفجر بالدم: عِرقٌ عاند، أي: ضار.

قوله: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ويوم القيامة أيضًا تلحقهم اللعنة، ويطردون من رحمة الله.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي: بربهم. يقال: كفر فلان ربه، وكفر بربه، وشكرت لك، وشكرتك.

قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ البعد: الهلاك والتباعد عن الخير. يقال: بعد يبعد بعدا إذا تأخر وتباعد. وبعد يبعد بعدا إذا هلك. قال الشاعر:

فَـلَا تَبْعَـدَنْ إِنَّ الْمَنِيَّـةَ مَنْهَـلٌ ... وَكُـلُّ امـرئ يومًـا بـهِ الحَـال زائـل

قوله: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمارها، وعلمكم بناء مساكنها، من قولهم: أعمر فلان فلانًا داره، وهي له عُمْرَى.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ أي: نرجو أن تكون سيدًا لوفورة عقلك، وحسن رأيك، أو كانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله انقطع رجاؤهم به.

قوله: ﴿إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ من أربته فأنا أريبه، إذا فعلت به فعلًا يوجب لديه الريبة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ أي: كأن لم يقيموا في ديارهم، فقد زالوا بسرعة.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ قيل: إنهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل عليهم السلام، وجاؤوا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذوو وضاءة وجمال بارع.

قوله: ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: ببشارة الولد، وهو إسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، والأول الصحيح، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: سلموا عليه سلامًا بالقول، ونصب بوقوع الفعل عليه، كما تقول: قالوا خيرًا.

قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي: هو سلام، أو سلام عليكم.

قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ أي: صغير فتي مشويٍّ على حجارة الرضف المحماة فقدمه لهم؛ لأن البقر كانت أكثر أمواله وأفضلها؛ لأنه حَسِبَهُم أضيافًا، فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلًا سمينًا من خيار بقره، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، والحنيذ: المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار، يقال: حنذت الشاة أحنِذها حنذًا، أي: شويتها، ويقال: حنذت فرسي، إذا سخنته وعرَّقته.

قوله: ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ يقال: أنكرهم ونكرهم، واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته، قال الشاعر.

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا

قوله: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أي: أحس في نفسه منهم خوفًا وفزعًا؛ لأنه ظن أنهم قد جاؤوه بسوء؛ لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم، ولم يأكل من طعامهم، يريد بهم شرًا، والوجوس: الدخول.

قوله: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ أي: أرسلنا لنهلك قوم لوط عليه السلام.

ويؤخذ من هذه القصة جملة من آداب الضيافة، منها: أن يُعَجل بالقِرى، أي: بالأكل، فيقدّم الموجود الميسر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جدة، ولا يتكلف ما يضر به. ومنها: أن لا ينظر صاحب الضيف إلى ضيفه وهو يأكل إلا مساركة، لا بتحديد النظر، ويروى أن أعرابيًا أكل عند ملك من الملوك فرآه يلحظ النظر إليه، فخرج وهو يقول:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ ... يُلَاحِظُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ

قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ أي: في خدمتهم من وراء ستار، وكانت عجوزًا عقيمًا قد يئست من الحيض.

قوله: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ أي: ضحكت مبتهجة بهلاك المفسدين وهو ضحك تعجب وسرور، ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه، تقول: رأيت فلانًا ضاحكًا، وأتيت على روضة تضحك، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يُنْشِئُ السَّحَابَ، فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ الْمَنْطِقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ». رواه أحمد عن شيخ من بني غفار، قال ابن حجر: إسناده صحيح. فجعل انجلاءه عن البرق ضحكًا، وأبعد التأويل من يقول: ضحكت هنا بمعنى حاضت، وإن كان يصح في اللغة، والعرب تقول: ضحكت الأرنب، إذا حاضت، وضحك يضحك ضَحْكًا وَضِحِكًا وَضِحْكًا وَضَحِكًا أربع لغات، والضّحْكة: المرة الواحدة.

قوله: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أي: بشارة مضاعفة، وهي أنها ستلد لإبراهيم ابنه إسحاق، ثم يكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب، أي: إنها ستستمتع في حياتها برؤية ولد ولدها وهو يعقوب، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَا﴾، وقد كان لإبراهيم عليه السلام ولد آخر من أمَتِه هاجر هو إسماعيل، فتمنت سارة أن يكون لها ابن، وأيست منه لكبر سنها، فبشرها الله به على لسان ملائكته، يكون نبيًا، ويلد نبيًا وهو يعقوب، وأما بالنسبة للذبيح فهو إسماعيل عليه السلام قطعًا؛ لأنه أكبر من إسحاق، فكيف يُؤمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد، وهذا لا يمكن أن يكون؛ لأنه يتناقض مع البشارة المذكورة في هذه الآية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ

جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا
يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ
لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ
وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ
إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ
ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾

قوله: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ الأصل: يا ويلتي، فأبدل من الياء ألف لأنّها أخف من الياء والكسرة، قال ابن جرير هي ألف الندبة والوقف عليها بالهاء وغير الهاء جائز في الكلام لاستعمال العرب ذلك في كلامهم، ولم تُرِد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة خفيفة تقع كثيرًا على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وقد عجبت من ولادتِها أشد العجب، قال ابن جرير: هي كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء والاستنكار للشيء فيقولون عند التعجب: ويل أمه، رجلًا ما أرجله!

قوله: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ سمي بذلك لأنه قيم أمرها كما سموا مالك الشيء بعله، وكما قالوا للأشجار التي تستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون: البعل، وقيل: إنّها عرضت بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ عن ترك غشيانه لها لكبر سنه، وهذا القول فيه نظر.

قوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي: رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم وأنت يا زوجة النبي منهم، وهو دعاء، وقيل: خبر، وكونه خبرًا أظهر؛ لأن ذلك يقتضي حصول البركة والرحمة لهم، وكونه دعاءً إنما يقتضي أنه أمر يُتَرَجَّى ولم يحصل بعد، و﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ منصوبة على الاختصاص، وقيل: على النداء، وقد استدل أهل العلم بِهذه الآية على أن زوجة الرجل من أهل البيت، ومعنى هذا أن أزواج الأنبياء من أهل البيت، وأن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وغيرها من جملة أهل بيت النبي ﷺ الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾، وكذا استُدِل بِهذه الآية على أن نهاية السلام: وبركاته، والبركات: هي النمو والزيادة.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ أي: محمود ذو مجد ومدح وثناء كريم، يقال في فعل منه: مَجُدَ الرجل يَمْجُد مجادة إذا صار كذلك، وإذا أردت أنك مدحته قلت: مَجَّدته تَمْجِيدًا.

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي: الخوف والرهبة التي أوجسها في نفسه، يقال: ارتاع من كذا، إذا خاف.

قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي: قال لهم: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿مُّنِيبٌ﴾ أي: سريع العودة إلى ربه في كل أموره وأحواله.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي: ساءه مجيئهم، لعلمه بما عليه قومه من وقاحة وقلة أدب.

قوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق صدره، وأصله من (يَذْرَع البعير بيديه في سيره ذرعًا) إذا مشى على قدر سعة خطوه الطبيعي، فإذا حُمِّل أكثر من طوقه ضاق عن ذلك وضعف ومدّ عنقه، فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع.

قوله: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد بلاؤه، كثير شرُّه، يقال: عصيب، على التكثير، ومنه قيل: عصبة، وعصابة، أي: مجتمعو الكلمة، وعصبة الرجل: المجتمعون معه في النسب، وأسند الشدة والصعوبة لليوم مع أنه ليس بجسم، فهو إسناد للزمان، باعتبار أن الشدة والصعوبة والعذاب تكون فيه.

قوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون إليه إسراعًا مع لهفة وطمع في طلب الفاحشة بالضيوف، كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعًا، ولا يكون الإهراع إلا سراعًا، يقال: أُهْرِعَ الرجل، إذا أسرع من برد أو غضب أو حُمَّى، وهو مُهْرَع، إذا كان مُسرعًا حريصًا.

قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: كانت ذنوبهم وسيئاتهم كثيرة، بالإضافة إلى عادتهم السيئة من إتيان الرجال، قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ أي: هؤلاء نساء البلدة تزوجوهن وعفُّوا أنفسكم، يندبُهم إلى النكاح الحلال، لا إلى اللواط والسفاح، وأراد ببناته نساء قومه جملة؛ لأن كل نبيٍّ بمثابة الأبُ لأُمَّته وقومه، وهو بمنْزلة الوالد في الشفقة والتربية والرحمة، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود: (وهو أبٌ لهم).

قوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ أي: لا تهينوني ولا تذلوني، ولفظة (ضيف) تقع للاثنين والجميع على لفظ واحد، لأنه في الأصل مصدر. قال الشاعر:

لَا تَعْدَمِي الدَّهْرَ شِفَارَ الْجَازِرِ ... لِلضَّيْفِ وَالضَّيْفُ أَحَقُّ زَائِرِ

ويجوز فيه التثنية والجمع، والأول أكثر.

قوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: مستفهمًا وموبخًا.

قوله: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء، وإنك لتعلم مُرَادَنا من أضيافك.

قوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ جواب (لو) محذوف، تقديره: لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد.

قوله: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ استعار الركن وأراد به القوم والعشيرة، لأن الإنسان يلتجئ ويستند إليهم كما يستند إلى ركن البناء. وقد قال ذلك على سبيل التفجع والاستكانة، لما رأى استمرارهم في غيهم وضعفه عنهم، يقال: أويت إليك فأنا آوى إليك أويًا، إذا انضممت إليك، قال الشاعر:

يَــأْوِي إِلَــى رُكْــنٍ مِــنَ الْأَرْكَــانِ فِــي عَــدَدٍ طَــيْسٍ وَمَجْــدٍ بَــانِ

وقدجاء عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ». وهو حماية الله تعالى له، وبعد لوط ﵇ لم يبعث الله تعالى نبيًا إلا كان في منعة وجاه في قومه، فقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَ لُوطٍ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذِرْوَةٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثَرْوَةٍ- مِنْ قَوْمِهِ». و (الثروة) الكثرة والمنعة.

قوله: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ أي: بمكروه.

قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ السرى: السير بالليل، والإسراء لا يكون إلا في الليل، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

وقد قيل: ﴿فَأَسْرِ﴾ إذا سار من أول الليل، وسرى إذا سار من آخره، ولا يقال في النهار إلا سار، قال الشاعر:

إِذَا الْمَــرْءُ أَسْــرَى لَيْلَــةً ظَــنَّ أَنَّــهُ قَضَــى عَمَــلًا وَالْمَــرْءُ مَــا عَــاشَ عَامِــلُ

وقال خالد بن الوليد ﵁:

عِنْــدَ الصَّــبَاحِ يَحْمَــدُ الْقَــوْمُ السُّــرَى وَتَنْجَلِــي عَــنْهُمْ غَيَابَــاتُ الْكَــرَى

قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: بطائفة، أو ببقية من الليل، وقيل: نصف الليل مأخوذ من قطعه نصفين، قال مالك بن كنانة:

ونائحــــة تنــــوحُ بقطــــع ليــــل علــــى رجــــل بِقَارِعَــــةِ الصَّــــعِيدِ

قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا تتفطر أكبادهم على قريتهم، ولئلا تتخطف أبصارهم من هول العذاب النازل.

قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب، استثناء من الأهل من قوله: (فأَسرِ بأهلِكَ) (إلا امرأتَكَ)، وعلى هذا فلم يخرج بها معه، قال تعالى: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الباقين، وقرئت: (إلا امرأتُك) بالرفع على البدل من (أَحَدٌ)، والتقدير: ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، فإنها ستخرج وتلتفت فيصيبها ما أصابهم،

ولكن قراءة النصب أقوى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ ۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ﴾ أي: رُفعوا من تخوم الأرض، ثم نكسوا على رؤوسهم، ثن أتبعوا بالحجارة.

قوله: ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾ السجيل والسجين فارسي معرب، واللام والنون أختان، والسجيل: الطين المتحجر بفعل النار أو غيره.

قوله: ﴿مَّنضُودٖ﴾ أي: حجارة متتابعة، بعضها فوق بعض، نضد بعضه فوق بعض صُفَّ ورص حتى صار متتابعًا كأنه جسد واحد، يقال: نضدت التمر، إذا رصصته وجعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونضيد ونَضَدٌ.

قوله: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلَّمة بعلامة ومختومة، قيل: مكتوب على كل حجر اسم من رُمي به من الشاذِّين المنحرفين، سواء كان حاضرًا في البلد، أو مسافرًا وغائبًا عنها، وأصلها من (السيما) وهي العلامة والدمغة.

قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ أي: ممن أشبههم في فعلهم، من كل ظالم من الظلمة، ومنهم كفار قريش، ولهذا ذهب طائفة من العلماء إلى أن اللائط يُرجم، واحتجوا بما جاء في الحديث الحسن عند أبي داوود من حديث ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ».

قوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: حقوقهم التي يستحقونها، وكلمة (شيء) تطلق أحيانًا ويراد بها غير المحسوسات، فيكون المعنى أعم وأشمل من الكيل والوزن، فهو يشمل تقويم أشياء الناس كيلًا أو وزنًا أو تقدير سعرها وتقويمها ماديًا.

قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ إذ كانوا يقطعون الطريق على القوافل التجارية المارَّة

بديارهم، ويفرضون ما يشاؤون عليها من الضرائب والمعاملات الجائرة، والعثوُّ هو أشد الفساد.

قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: ما يبقيه الله لكم من الرزق الحلال أحسن من الكسب الحرام، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾، وبقيت الله مصدر من قول القائل: بقيت بقية من كذا.

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: ولستُ برقيب أحصي لكم، وأحاسبكم، وإنما أنا ناصح مبلّغ.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي: إن هذا لا يصدر عن عاقل، فأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد، وإنما قالوا ذلك تسفيهًا له ولدينه ولدعوته، لا مدحًا له ولا ثناء، فهم يعنون عكس معناها، فالحلم والرشد عندهم عبادة ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام، وفصل الدين والعبادة عن المعاملات.

قوله: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد بالرزق: النبوة، وقيل: الحكمة.

قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾

قوله: ﴿يَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ أي: لا يحملنكم معاداتي وعداوتي على ترك الحق. قال الشاعر:

أَلَا مَــنْ مُبْلِــغ عَنِّــي رَسُــولًا فَكَيْــفَ وَجَــدْتُمْ طَعْــمَ الشِّــقَاقِ

قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ لأن مدين كانت بين الحجاز والشام، وهم قريبون منهم مكانًا وزمانًا وصفاتًا.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كما قال كفار قريش للرسول ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ

أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ رهْط الرجل: عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم، ويطلق على ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة، وإنما جعلوا رهطه مانعًا من إنزال الضرر به، مع كون رهطه قلة، والكفار ألوف كثيرة؛ لأنهم كانوا موافقين لهم على دينهم وتكذيبهم، فتركوه احترامًا لهم ولمشاعرهم، لا خوفًا منهم.

قوله: ﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ لقتلناك بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم. وقيل: معنى ﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ لشتمناك، ومنه قول الجعدي:

تَراجَمْنَا بِمُرِّ الْقَوْلِ حَتَّى نَصِيرَ كَأَنَّنَا فَرَسَا رِهَانِ

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أي: تركنا رجمك لمعزة قبيلتك وعشيرتك علينا.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ يقال للرجل إذا لم يقض حاجته: نبذ حاجته وراء ظهره، وإذا قضاها قيل: جعلها أمامه ونصب عينيه، ويقال: ظهرت بحاجتي وجعلتها ظهرية، إذا جعلها خلف ظهره.

قوله: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ يقال: رقبت فلانًا أرقبه رقبة، إذا انتظرته وراقبت تصرفاته وحركاته.

قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ أي: لم يعيشوا في ديارهم قبل ذلك منعمين.

قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي: بسديد ولا صحيح، بل هو جهل وضلال وهوى مطاع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾

قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ أي: المدخل المدخول، كما تقول: نعم المنْزل دارك؛ لأن الورود يكون على الماء ليطفئ حر العطش، وهنا إنما يكون ورودهم على النار التي تقطع أمعاءهم.

قوله: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾ أي: في الدنيا.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: ولعنة الله يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

قوله: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العونُ والإعانة المقدمة لهم، وبئس العطاء المعطى لهم، وهي اللعنة المعطاة لهم في الدارين، واسم العطية: الرفد، وهو القدح الضخم. قال الشاعر:

رُبَّ رَفْـــدٍ هَرَقْتَـــهُ ذَلِـــكَ الْيَـــوْ ... مَ وَأَسْـــرَى مِـــنْ مَعْشَـــرٍ أَقْتَـــالِ

قوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: خاوي على عروشه ومبانيه خراب إلى يومنا هذا، ومنها ما لا أثر له فهو حصيد منتهي، والحصيد: أي محصود الخراب، وجمعه: حصدى وحِصاد، مثل: مرضى ومراض.

قال الشاعر:

وَالنَّـــاسُ فِـــي قَسْـــمِ الْمَنِيَّـــةِ بَيْـــنَهُمْ ... كَـــالزَّرْعِ مِنْـــهُ قَـــائِمٌ وَحَصِـــيدُ

وَقَالَ آخَرُ الطرماح:

إِنَّمَـــا نَحْـــنُ مِثْـــلُ خَامَـــةِ زَرْعٍ ... فَمَتَـــى يَـــأْنِ يَـــأْتِ مُحْتَصِـــدُهْ

قوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ التباب: الهلاك والخسران، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. قال الشاعر:

فَلَقَـــدْ بَلِيـــتُ وَكُـــلُّ صَـــاحِبِ جِـــدَّةٍ ... لِبِلًـــى يَعُـــودُ وَذَاكُـــمُ التَّتْبِيـــبُ

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ جاء في الصحيحين من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ».

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يشهده البر والفاجر، كما يشهده أهل السماء والأرض، من الجن والإنس والملائكة، والدواب والطيور، وكل من خلق الله.

قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ وقرئت: (يأتي)، وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدر، فتحذف الياء، وتجتزئ بالكسرة إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: «وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فمن كتبت له الشقاوة فهو الشقي، ومن كتبت له السعادة فهو السعيد،

قال الشاعر:

فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ آخِذٌ بِنَصِيبِهِ وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعُ

قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير: إخراج النَّفَس بصوت قوي من الصدر من شدة ألم صدورهم وحزنهم، مأخوذ من الزفر، وهو الحمل على الظهر لشدته، والشهيق: أخذ النَّفَس الطويل وإدخاله إلى الصدر بقوة، مأخوذ من قولهم: جبل شاهق، أي: طويل ممتد.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: سماوات الجنة والنار وأرضهما، والسماء: كل ما علاك فأظلك، والأرض: ما استقر عليه قدمك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، وقيل: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، فخاطبهم الله بما يعرفون.

قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ كقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، قيل إلا ما شاء ربك من العصاة من أهل التوحيد، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة الشافعين، من الملائكة، والمؤمنين، والنبيين وعلى رأسهم سيد المرسلين نبينا محمد ﷺ، وقد جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند الشيخين، وكذا في حديث أنس رضي الله عنه عند الشيخين، قال رسول الله ﷺ: «مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ (وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ)»، وعند مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ».

وهذا القول هو قول جماهير الأئمة السابقين واللاحقين، ويكاد يكون اتفاقًا، وقيل: كما شاء ربك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: كما قد سلف، وقيل: إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ فهو استثناء في واجب، وقد علم أنّهم يدخلون حتمًا، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خيارًا، إذ المشيئة قد تقدمت بالعزيمة في الخلود في الدارين، والدخول في المسجد الحرام.

وقيل: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك، وإنما لم يقل: (من شاء) لأن المراد العدد لا الأشخاص، كقوله تعالى: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾.

وممكن أن يقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقد شاء في خلود أهل الإشراك في النار أبدًا، وقد بينت النصوص الأخرى ذلك، وشاء في خروج أهل الكبائر بعد أن يكونوا فحمًا، وهم المسمّون بالجهنميين،

كما في حديث أنس، وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند الشيخين، وشاء خروج كل من معه أصل التوحيد ولم يعملوا خيرًا قط، وهم المسمون بعتقاء الرحمن، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وشاء سبحانه في خلود أهل الجنة بعد أن يدخلوا فيها، كما صرحت النصوص الأخرى بذلك، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، والسنة تبين مجمل القرآن، وتوضح متشابهه.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾ وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام في الجنة بعد ذلك فقد جاء في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ».

قوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: غير مقطوع، جَذَّه يَجُذُّه جَذًّا إذا قطعه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١١﴾ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ أي: من العذاب كاملًا، كما وفينا آباءهم لا ينقص من ذلك شيء، وقيل: نعطيهم نصيبهم من الخير والشر.

قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: ولولا أن حكم الله وقضاءه سبق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقُضي بينهم في الدنيا، فجوزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قوله: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: إن كلًّا من المؤمنين والكفار من الأمم السابقة واللاحقة لم يستوفوا جزاء أعمالهم كاملًا في حياتهم الدنيا، وسوف يأخذونها كاملة يوم القيامة، وقرئت (لَمَّا) بالتشديد، وقرئت بالتخفيف على أنّها إن المخففة من الثقيلة، قال سيبويه: العرب تقول: إن زيد لمنطلق، وقال الفراء: ما في لَمَا بالتخفيف، بمعنى (من)، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ واللام للقسم، وأما ما في (لَمَّا) بالتشديد فأشكل على النحويين، فقيل: (لَمَّا) بمعنى إلا، كما يقال: سألتك بالله لَمّا فعلت، بمعنى إلا فعلت، وفي حرف أُبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وإنْ كلٌّ إلا ليوفينهم)، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ لَّمَّا

﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي: إلا عليها حافظ، وقيل: الأصل لَمَا بالتخفيف، ثم ثقلت، وهذه التوجيهات وجيهة، وإن خالفها بعض النحويين.

قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين أو الشمال، وقد جاء عند مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﵁ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ».

قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: لا تعتمدوا ولا ترضوا أعمالهم ولا تداهنوهم، والركون المنهي عنه هو الرضى بما هم عليه من الظلم أو الشرك، لا مداخلتهم لضرورة شرعية كرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ المشركين، والفاسقين من المسلمين، فإن صحبة الكافرين كفر، وصحبة الفاسقين فسق، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة، قال الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: بسبب ركونكم إليهم، وتسليم أمركم لهم.

قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ فالطرف الأول صلاة الصبح والمغرب بإجماع الجميع، كما قال الطبري، والظهر والعصر الطرف الثاني.

قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أي ساعة بعد ساعة في صلاة الليل، أو ساعات من أول الليل المغرب والعشاء لأنهما زلفتان من الليل، و (زلفًا) جمع زلفة وهي الساعة والمنْزلة والقربة، وقيل: سميت المزدلفة بذلك لأنها منْزلة بعد عرفة، وقيل: لازدلاف آدم ﵇ من عرفة إلى حواء وهي بها.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود ﵁: «أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، قَالَ الرَّجُلُ: أَلِي هَذِهِ؟ قَالَ: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي».

وعند الشيخين من حديث أنس ﵁ قال: «(كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ) فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. (قَالَ: وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ). قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللهِ. قَالَ: أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ. أَوْ قَالَ: حَدَّكَ».

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ

أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا».

وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

قوله: ﴿وْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جماعةٌ أخيارٌ أصحاب طاعة ودين وعقل وبصيرة، ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض.

قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لكن قليلًا منهم استثنوا؛ لأنهم نهوا عن الفساد فَنَجَوا.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: من شهوات، وتحصيل اللذات، قال ابن جرير: والمترف في كلام العرب هو المنعم الذي قد غذي باللذات.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: ما جرت سنة الله تعالى أن يهلك القرى ظلمًا؛ لأنه تعالى منزَّه عن الظلم، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: ثبتت ونفذت، كما أخبر وقدّر، لا مبدل لكلماته.

قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ثبت عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: قَدَمَهُ-، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: كل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل.

قوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك في سبيلها.

قوله: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: سورة هود وما فيها من أنباء وقصص، مع ما جاءك في سائر سور القرآن، وخصت هذه السورة بالذكر للتأكيد، وقد سبق في المقدمة قوله ﷺ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا».

قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: فوِّضْ إليه أمرك، ولا تعتمدْ على أحدٍ سواه، فإنه كافي من توكَّل عليه.

انتهى تفسير سورة هود، ولله الحمد.

  

سُورَةُ يُوسُفَ

وهي مكية إلا بعضًا من آياتها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ أصل القصص: تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ أي: تتبعي أثره، والقاصُّ هو الذي يتبع الآثار ويخبر بها.

قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ جاء عند إسحاق بن راهويه بسند لا بأس به من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾. فَتَلَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَانًا».

قوله: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ. قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ». وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»، وفي رواية عند مسلم: «سَبْعِينَ جُزْءًا».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ، (وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ. قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَنَا أَقُولُ هَذِهِ. قَالَ: وَكَانَ يُقَالُ:) الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: حَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفُ الشَّيْطَانِ، وَبُشْرَى مِنَ اللهِ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلَا يَقُصَّهُ عَلَى أَحَدٍ، وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ. قَالَ: وَكَانَ يُكْرَهُ الْغُلُّ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ يُعْجِبُهُمُ الْقَيْدُ، وَيُقَالُ: الْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ».

وفي الصحيحين عن أبي قتادة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ».

وتعرف الرؤيا التي من الله بخلوصها من الأضغاث والأشياء المتضادة والأوهام والأحزان وأحاديث النفس، وهذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها، وقد جاء عند الشيخين عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَلْيَتْفِلْ ثَلاثًا، وَلا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

وعند أبي داود بسند حسن من حديث أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرَ، فَإِذَا عُبِرَتْ وَقَعَتْ، وَلَا تَقُصَّهَا إِلَّا عَلَى وَادٍّ أَوْ ذِي رَأْيٍ». وقد قيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب؟! فلا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها.

و(يوسف) من الأسف الحزن، والأسيف العبد، وقد اجتمعا في يوسف، فلذلك سمي يوسف.

قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ أي: أحد عشر نجمًا من نجوم السماء، فصارت في الحقيقة إخوته، وقد كان ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اثنا عشر ولدًا ذكرًا، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾

قوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ لأنه عَلِم أنهم كانوا يغارون منه.

قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ قال تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ومنه: جبيت الماء في الحوض، إذا حصلته.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: معاني الكلام، وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك، سماه تأويلًا لأنه يؤول أمره إلى ما رآه في المنام.

قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ.

قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ»، وعند البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لكل من يسأل عن أخبارهم.

قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أي: والله ليوسفُ وأخوه أحبُّ منَّا عند أبينا، فهو مرفوع بالابتداء، واللام للتأكيد، وهي التي يُتلقى بها القسم.

قوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ العصبة ما زاد عن العشرة.

قوله: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: مخطئ في إيثاره وتقديمه علينا، والضلال في الشيء: فقدان الهدى والصواب فيه، وهم لم يريدوا ضلال الدِّين، ولو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، إنما أرادوا أنه وقع في الخطأ والغلط، ومثله ما أخبر الله تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما وقع في الخطأ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وكذلك إطلاقه على النسيان، كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وقوله تعالى في نبينا محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: لست عالمًا بالعلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، ولم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، والدلائل تدل على أنّهم ليسوا كذلك، فقد اجتمع عليهم الحسد الدنيوي، وعقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك والتآمر على قتله، والأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر، وقد تابوا ورضي الله عنهم بعد ذلك.

قوله: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: في أرض، فأسقط الخافض وانتصب الأرض.

قوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ واللام في قوله: (لكم) لام العلة، أي: يخل وجه أبيكم لأجلكم، فتخلص محبة أبيكم لكم دون مشارك.

قوله: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي: تائبين، الذنب لا يصح معه توبة؛ لأنه عن علم، لا عن جهل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ لأنهم أدركوا أن قتل نفس من غير حق فيه فساد وإثم كبير، جاء عند البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا».

قوله: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: قعر البئر، وسُمِّيت البئر غيابة: لغيبة ما فيها عن عين الناظر، وكل شيء غَيَّب عنك شيئًا فهو غيابة، ومنه قيل للقبر: غيابة؛ لأنه مظلم ويغيب ما فيه عن أعين الناس. قال

الشاعر:

فَــإِنْ أَنَـــا يَوْمًـــا غَيَّبَتْنِـــي غَيَـــابَتِي   فَسِـيرُوا بِسَـيْرِي فِـي الْعَشِـيرَةِ وَالْأَهْـلِ

والجُب: البئر البعيدة الغور التي لم تبن بالحجارة ونحوها، وجمعه: أجباب، وجباب، سميت (جُبًا)؛ لأنّها قطعت في الأرض قطعًا. قال الشاعر:

لَـئِنْ كُنْـتَ فِـي جُـبٍّ ثَمَـانِينَ قَامَـةً   وَرُقِّيــتَ أَسْــبَابَ السَّــمَاءِ بِسُــلَّمِ

قوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض المسافرين المارين الذين يسيرون في الطريق للسفر، والالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستعير لأخذ شيء مضاع، والسيارة: الجماعة الموصوفة بكثرة السير والتنقل. وكان يوسف غلامًا صغيرًا لقوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ لأنه لا يُلتقط إلا الصغير.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ النصح: الصفاء والإخلاص في العمل، منه قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

قوله: ﴿يَرْتَعْ﴾ وقرئت: (نرتع)، وهي من قول العرب: رتع الإنسان والبعير، إذا أكلا كيف شاءا، والمعنى: نتسع في الخصب، وكل مخصب راتع. وقيل: ﴿يَرْتَعْ﴾ يسعى.

قوله: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ أي: اللعب المباح من الانبساط، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق. ومنه قوله ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه: «فَهَلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ».

قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لكثرته في البراري، ولأنه أغلب ما يُخاف فيها، وهو مأخوذ من تذاءبت الريح، إذا جاءت من كل وجه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ لا يقال: (أجمع) إلا إذا قويت الدواعي إلى الفعل، ويقال: أجمعت السير والأمر وأجمعت عليه، إذا عزمت عليه، وجواب (لَمَّا) محذوف، وتقديره: فلما ذهبوا به فعلوا به ما فعلوا، وكان منهم الذي كان، والحذف أبلغ من الذكر.

قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ أي: أخبرناه عند إلقائه في البئر بما دبَّروا له من مكيدة، وهذا دليل على بداية نبوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو طفل، وأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءه بالوحي، كما أوحى الله تعالى إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في المهد، وهو الصحيح، وقيل: ألهمه، كقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾، وقيل: وحي منام، وهذا الوحي من الله تعالى تسلية ليوسف وتخفيف عنه لما أصابه من تعدي إخوته وظلمهم، ولتخفيف وحشة البئر عليه.

قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: أوحي إليه أنه سيخبرهم مستقبلًا على صنيعهم هذا.

قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أن الله معه، وبإخبارنا له بمكرهم، كما لا يشعرون أن العاقبة ستكون لأخيهم.

قوله: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾ أي: جاؤوا إلى أبيهم ليلًا في آخر النهار، في ظلمة الليل؛ ليكون أستر لحالهم، وأستر لملامح وجوههم، وأقدر لهم على الاعتذار والتظاهر بالبكاء في ظلمة الليل، ولذا قيل: لا تُطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار.

قوله: ﴿يَبۡكُونَ﴾ أي: يتباكون بكاءً مصطنعًا، ليس فيه حرقة ولا لوعة، وإنما اصطنعوا البكاء تمويهًا على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف، ومن إعجاز القرآن أن عبَّر عن حالهم في صورة الفعل المضارع، ليعرض صورتهم وحالهم وقت المجيء، كيف أنهم آخذون في البكاء والصياح، يجددونه شيئًا بعد شيء، ولا شك أن الدمع المصطنع لا يخفى، ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يقضي بمجرد النظر إلى حال الشاكي، ولا يغرنك بكاء المتظلم، فربَّ ظالم وهو باكٍ! وقد جاء في المثل: دموع الفاجر بيديه، وليست النائحة كالثكلى، ويروى في ذلك أن امرأة جاءت إلى شريح القاضي تخاصم وتحاكم في شيء، وكان على باطل، فجعلت تبكي عنده، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقال الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: لقد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظَلَمة كَذَبَة، فعلى العاقل الذكي أن ينظر إلى الأمور من جميع جهاتها ونواحيها، ويضع في حساباته كل احتمال ممكن.

قوله: ﴿نَسۡتَبِقُ﴾ أي: نتسابق في العَدْو، أو نتسابق في الرمي.

قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ أي: بدم مفتعل مكذوب في كونه دم يوسف، فالدم لا يوصف بالكذب، فهو دم حقًا، ولكنه ليس الدم المزعوم.

قوله: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ أي: زيَّنت، ومن أدب النبوة الرفيع أن يعقوب لم يكذبهم صراحة، بل استعمل حرف الإضراب (بل) ليرد عليهم بأن هذا من إملاء نفوسهم وتزيينها.

قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ أي: لا شكوى فيه ولا جزع ولا ضجر، بل الرضا التام، وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حادثة الإفك عندما وجدت نفسها متهمة في عرضها وهي بريئة قالت: «وَاللهِ مَا

أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلا إِلا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ».

قوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ أي: رفقة مارة، فنزلوا قريبًا من الجب، وكان الجب بعيدًا عن العمران، وذلك للرعاة وابن السبيل.

قوله: ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ حتى يستقي القوم، وهو السَّاقي.

قوله: ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥ﴾ أي: رمى الساقي دلوه وأرسلها ليملأها وينتشل الماء من البئر، فتعلق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحبل، فلما رفعها إذ به يرى فيها غلام كالقمر ليلة البدر، قال ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ».

قوله: ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ أي: قال الساقي لما رأى يوسف مكان الماء: يا بشارتي ويا فرحتي، كأنه ينادي البشرى، قالها على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته بهذا الرزق الذي لم يكن متوقعًا؛ لأن يوسف في نظره سلعة ستجلب له بعض النفع، وما يدري ما يوسف، وما شأنه! والغلام يطلق على من كان عمره دون الرابعة عشرة، فإن زاد عليها كان فتًا شابًا، فرجلًا.

قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾ أي: أخفوا وجدانه لهم في البئر، قيل عن التجار الذين اشتروه، وقيل عن الوارد وأصحابه، حيث أخفوا أمره عن بقية السيارة، مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء.

قوله: ﴿وَشَرَوۡهُ﴾ أي: باع إخوة يوسف يوسف.

قوله: ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ أي: بثمن تافه زهيد، والبخس: القليل الناقص، وهو يكون بالتعييب في السلعة، أو التزهيد فيها، لمخادعة صاحبها والاحتيال عليه، قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: غير وافية، لزهدهم فيه.

قوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لأنهم لا رغبة لهم فيه، ولو سئلوا به بلا شيء لأجابوا؛ لأن قصدهم ليس الثمن، وإنما هو خلو وجه أبيهم عنه. قيل: إن إخوة يوسف علموا أن السيارة قد أخذوه من الجب، فجاؤوا، فساوموهم عليه، فباعوه عليهم.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ أي: عزيز مصر ووزيرها، فقد اشتراه من السيارة الذين جاؤوا به.

قوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أي: أحسني منْزله وإقامته ومبيته.

قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: بالقيام ببعض التكاليف والمهمات.

قوله: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ أي: نتبناه بعد أن نعتقه، فالتبني لا يرد على الخاطر إلا حين لا يكون هناك ولد، أو يكون هناك يأس من إنجاب الولد، وقد كان التبنّي معلومًا في الأمم الغابرة، وكذا كان في أول الإسلام، وقد جاء عند الحاكم بسند صحيح من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّ أَفْرَسَ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: الْعَزِيزُ حِينَ تَفَرَّسَ فِي يُوسُفَ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي رَأَتْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتْ لِأَبِيهَا: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا».

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: متمكنًا في بيت العزيز، يعيش فيه بعز وأمان، لا يعامَل معاملة الخدم والرقيق، وهنا أطلق التمكين في الأرض وأراد خصوصية بيت العزيز، وفي الثانية أطلق الأرض وأراد التمكين في مصر كلها.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: مبلغ الرجال، وهو سن الحلم، فدل هذا على أن ما مضى حدث قبل بلوغ الأشد، واحِدُهُ: شِدَّة، وقيل: يقال منه: شَدٌّ، يقال منه: مضت أشد الرجل، أي شدته، ثم يكون النقص بعد ذلك.

قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ أي: النبوة، وقيل: يحكم في سلطان الملك، بأن كانت كلمته مسموعة، وقيل: الحكم والنبوة، وأصل الحكم: الإلزام والمنعة.

قوله: ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ أي: علم الرؤيا وإدارة الأمور.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾

قوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ المراودةُ: صيغة مفاعلة تفيد التكرار والمعاودة في الطلبُ، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول، من راد يرود، إذا جاء وذهب.

قوله: ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ أي: هلم وتعال وأقبل، فقد تَهيأت لك وتزينت وتحسنت، ولا مصدر لكلمة (هيت) ولا تصريف، وهي اسم فعل أمر، قال الجوهري: هوت به وهيّت به، إذا صاح به ودعاه، قال

ابن جرير: ذكر أبو عبيدة أن العرب لا تثني (هيت) ولا تجمع، ولا تؤنث، وأنها تقول للواحد: هيت لك، وتقول للمثنى: هيت لكما، وتقول للجمع: هيت لكم، وللنساء هيت لكن.

قوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله، وأحتمي بحماه، ومن تحصن بالله حماه ووقاه، ومنحه إرادة قوية تمكنه من التخلق بالفضائل والتخلي عن الرذائل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، وجاء عند الترمذي بسند جيد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما كان رَدِيفَ النبي ﷺ فقال له: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»، وفي رواية عند أحمد بسند جيد: «تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ».

قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ أي: سيدي أكرمني فلا أخونه، وقيل: إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أرتكب ما حرمه.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ أي: بعمل الفاحشة، ومعنى الهم في اللغة على وجوه، منها: العزم على الفعل، كقوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ أي: أرادوا وعزموا عليه، ومنها خطور الشيء بالبال، وإن لم يعزم عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: خطر الفشل ببالهم، ولو كان الهم عزمًا لما كان الله وليهما، ومنها: المقاربة، يقولون: همَّ بكذا، أي: كاد أن يفعله، ومنها: الشهوة وميل الطباع، كما يقول: هذا من هَمِّي، وهذا أهم الأشياء إليَّ، وإن كانت هذه المعاني وردت في اللغة لمعنى الهم، فإن ورودها في اللغة شيء، ونسبتها إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ شيء آخر، لوجود البرهان الإلهي معه.

قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: هَمَّ بدفع الفاحشة عن نفسه إما بضربها، أو دفعها، فالهم منه غير الهم منها، همَّت به طلبًا، وهمَّ بها دفعًا، وقيل: خاطرة عرضت في نفسه دون العزم عليها؛ لأن الأنبياء معصومون عن ارتكاب الفواحش، وعن الهمِّ بها، قبل النبوة وبعدها، والصحيح أنه لم يقع من يوسف همٌّ بالفاحشة، وإنما هو كلام من قبيل التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه لكان همَّ بها، و (الواو) استئنافية وليست عاطفة، ويجب الوقوف على الضمير في (به)، فتقرأ هكذا: (ولقد همت به)، ثم يستأنف القارئ: (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)، وجملة (همَّ بها) جواب الشرط، وحرف الشرط (لولا) مقدم عليها، فيكون ترتيب الجملة: (لولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ بها)، ومعلوم أن (لولا) حرف امتناع لوجود، فيمتنع تحقق جواب الشرط لوجود فعل الشرط، وهنا امتنع حصول جواب الشرط (هم بها) لوجود فعل الشرط (لولا أن رأى برهان ربه).

قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ قد تكون هذه الآية حسية مشاهدة بعيني رأسه، وقد تكون معنوية مشاهدة بعيني قلبه، وهو الأظهر.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الشهوة، والثناء القبيح.

قوله: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ أي: ما تناهى قبحه، والمراد به الزنا.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ».

قوله: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ أي: تسابقا إليه، يوسف يريد الفرار والخروج، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، فلحقته لترده إلى نفسها، فأدركته قبل أن يخرج.

قوله: ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ أي: شقّته طولًا، وهي لم تقصد قدَّ القميص، إنما تعلقت به لتحبسه على نفسها.

قوله: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾ أي: وجدا زوجها العزيز عند الباب، وعنى بالسيد: الزوج؛ لأن القبط يسمون الزوج سيدًا، فلما رأت زوجها طلبت وجهًا للحيلة.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: إلا السجن، فعطف العذاب عليه وذلك أن ﴿أَن﴾ وما عملت فيه بمنزلة المصدر.

قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ أي: من أقربائها وعائلتها، وقيل: كان مستشارًا قريبًا منها، وهو من جملة أهل المرأة، وقد سمع الجلبة من وراء الباب، وقيل: كان صغيرًا في المهد.

قوله: ﴿مِن قُبُلٖ﴾ أي: من أمام.

قوله: ﴿مِن دُبُرٖ﴾ أي: من الخلف.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ أي: قال زوجها معاتبًا لها بصيغة العموم وليس التخصيص: إنه من احتيالكنَّ ومكركنَّ معشر النسوة، وهل المرأة هي المختصة بالكيد؟ لا ليس كذلك، فإخوان يوسف الرجال كادوا له أيضًا، ولكن المقصود أن المرأة ضعيفة أمام الرجل، وهي تتسلح بحيلتها وذكائها وكيدها تقوية لها، وتعويضًا عن ضعف بنيتها بالنسبة إلى الرجل، والكيد: المكر والحيلة.

قوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ لمهارتكن في التمثيل والاحتيال في التخلص من الورطات.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ أي: قال زوجها: يا يوسف أعرض عن هذا الأمر الذي جرى، واكتمه ولا تتحدث به لأحد؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وهو يذكر يوسف بالاسم إكرامًا وتقديرًا له.

قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ أي: قال العزيز لزوجته: استغفري لذنبك، وأقلعي عنه، وتوبي منه، وأهل

مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إذ ذاك، إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له.

قوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ أي: المذنبين المتعمدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾.

قوله: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ أي: تخادع غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، فهنَّ أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالًا واستقبالًا، وأن هذا شأنها وعادتها، وأنها هي المراودة الطالبة.

قوله: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي: دخل حبه في سويداء قلبها، وأحاط حبه بقلبها كما يحيط به الشغاف، وشغاف القلب: غلافه من الداخل. قال الشاعر:

أَمُــرُّ عَلَــى الــدِّيَارِ دِيَــارِ لَيْلَــى ... أُقَبِّــلُ ذَا الْجِــدَارَ وَذَا الْجِــدَارَا

وَمَــا حُــبُّ الــدِّيَارِ شَــغَفْنَ قَلْبِــي ... وَلَكِــنْ حُــبُّ مَــنْ سَــكَنَ الــدِّيَارَا

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين يقول: هو من قول القائل قد شغف بها من شغف الجبال وهي رؤوسها كأنه ذهب بها كل مذهب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ أي: بعيبهنَّ إياها واحتيالهن في ذمِّها، وقيل: إنّها أطلعتهن واستأمنتهن، فأفشين سرَّها، فسمي ذلك مكرًا.

قوله: ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ أي: أرسلت إليهن تدعوهن لتوقعهنَّ فيما وقعت فيه.

قوله: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ أي: هيأت لهن مجالس، وجعلت في متناول أيديهن أصنافًا من أكل يقطع، (وأعتدت): من العتاد، وهو كل شيء جعلته عدة لشيء.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي: أعظمنه وأجللنه، ودُهِشن فيه وتحيّرن لحسن وجهه.

قوله: ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: اشتغلن عن أنفسهن واضطربت أيديهن حتى جرحن أيديهن بالسكاكين وهنَّ لا يشعرن بالجراح، والقطع هنا هو الجرح والخدش والحز، وهو معروف في اللغة، يقال إذا جرح الإنسان يد صاحبه: قطع يده، فقابلت مكرهن القولي، بهذا المكر الفعلي.

قوله: ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله، براءة له وتنْزيهًا، وأصل الكلمة من الحاشية والحشا، بمعنى الناحية، تقول: كنت في حشا فلان، أي: في ناحيته، فقولك: حاشا لزيد، أي: تنحى زيد عن هذا وتباعد عنه.

قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي: لم يعهد هذا الجمال على أحد من البشر، و (مَا) بمنْزلة (ليس)، تقول: ما زيد قائم، أي: ليس قائمًا، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس بن مالك ﵁ في حديث الإسراء قوله ﷺ: «فَمَرَرتُ بِيُوسُفَ وإذَا هو قَد أعطِيَ شَطرَ الحُسنِ» أي: كان على النصف من حسن آدم ﵇؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان غاية نهايات الحسن البشري، ولهذا يدخل أهل الجنة على طول آدم وحسنه رواه الشيخان من حديث أبي هريرة ﵁.

قال ابن جرير: وأما نصب البشر، فمن لغة أهل الحجاز إذا أسقطوا الباء من الخبر نصبوه، فقالوا: ما عمرو قائما. وأما أهل نجد، فإن من لغتهم رفعه، يقولون: ما عمرو قائم؛ ومنه قول بعضهم حيث يقول:

لَشَتَّانِ مَا أَنْوِي وَيَنْوِي بَنُو أَبِي ... جَمِيعًا، فَمَا هَذَانِ مُسْتَوَيَانِ
تَمَنَّوْا لِيَ الْمَوْتَ الَّذِي يَشْعَبُ الْفَتَى ... وَكُلُّ فَتًى وَالْمَوْتُ يَلْتَقِيَانِ

وأما القرآن، فجاء بالنصب في كل ذلك، لأنه نزل بلغة أهل الحجاز.

قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ لأنه تقرر في طباع الناس أن الملائكة فائقون في الحسن والجمال، وأهل العرف يقولون في القبيح: كأنه شيطان، وفي الحسن: كأنه ملك، أي: لم يُرَ مثله، لأن الناس لا يرون الملائكة.

قوله: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي: أظهرت عذرها أمامهنَّ.

قوله: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ أي: امتنع امتناعًا شديدًا، عما أريده منه.

قوله: ﴿وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: وليكوننَّ حقيرًا ذليلًا مهانًا، بعد هذا العز والجاه الذي يتمتع به، وغاب عن بالها أن الصَّغار والذل والهوان إنما يكون في معصية الله تعالى، وأن العزة والحرية في تمام العبودية له سبحانه، حتى لو كان صاحب العبودية لله ملقى به في السجن، وتقرأ بنون مخففة للتأكيد، ومثله قوله تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ونحوها.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ أي: عندما طلبن منه بقية النساء أن يسمع

ويطيع لسيدته، وإنما أسند الفعل إليهن لأنهن جميعًا مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح، وقد اختار السجن على ما فيه من عذاب، لأن السجن عذاب بدني ينتهي، والوقوع في الفاحشة عذاب نفسي لا ينتهي.

قوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أي: احتيالهن عليَّ من ترغيبي في المطاوعة، وتخويفي من المخالفة، وإن تركتني إلى نفسي، فليس لي منها إلا العجز والضعف، فأميل إليهنَّ وأشتاق، لأنَّهن ساعدن امرأة العزيز على يوسف، ودعونه إلى أنفسهن أيضًا واجتمعن عليه كل واحدة بأسلوبها ومكرها لإغوائه، بدليل قول الملك فيما بعد: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، والصبوة: الميل، ومنه يقال: ريح الصبا، لأن النفس تستطيبها وتميل إليها.

قوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: ممن يعمل عمل الجهال، بسبب ميلي إلى ما يدعونني إليه من القبيح، وهذا كله على سبيل التضرع والاستغاثة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين؛ لأنه لما عظم عليه البلاء، وخشي الفتنة، لجأ إلى الله ﷻ بالدعاء ليخلصه منها، كقول المستغيث: أدركني وإلا هلكت، والجهل كما يطلق على عدم العلم فإنه يطلق على ارتكاب الذنب، فليس المعنى في ذلك عدم العلم، إنما هو عدم العمل به، كما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾، وكل من عصى الله فهو جاهل، باعتبار عدم العمل بالعلم.

قوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عبر عن الإسراع بنجدته بالفاء الدالة على التعقيب، وهذه سنة الله التي لا تتبدل في أوليائه وأصفيائه، أن يسارع في إجابة مطلبهم، لأنهم كانوا يسارعون في عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأهل مشورته رأي وتدبير جديد في شأن يوسف عليه السلام.

قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العلامات الدَّالة على براءة يوسف ونزاهته، من قَدِّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحز الأيدي، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف، ولم تجد فيهم هذه الآيات والحقائق شيئًا، بل كانت امرأة العزيز هي الغالبة على رأيه، الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف، وإنفاذ ما تقدم منها من الوعيد له.

قوله: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي: سجن يوسف مدة غير محدودة الزمن، فكلمة (حين) تفيد عدم تحديد المدة، وواضح أنهم أرادوا بسجنه ستر الحادثة، وقطع ألسنة الناس، وكتم ما شاع بينهم إلى مدة ينسى الناس فيها القصة، وكذلك قصدوا الحيلولة بينه وبينها، وإيهامًا للناس أنه راودها عن نفسها، وأنّهم سجنوه على ذلك، وقيل: رجاء أن يمل حبسه فيبذل نفسه للنساء، وقيل: ألجأها الخجل من الناس،

والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفي إذا منعت من نظره، قال الشاعر:

وَمَــا صَــبَابَةُ مُشْــتَاقٍ عَلَــى أَمَــلٍ   مِــنَ اللِّقَــاءِ كَمُشْــتَاقٍ بِــلَا أَمَــلِ

فسجنوه ظلمًا وعدوانًا إلى مدة غير معلومة القدر، فكلمة (حَتَّى) بمعنى (إلى)، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، ومحنة السجن هي بداية المحنة الرابعة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف الصدّيق، وكان سجنه مما قدر الله له؛ ليبعده عن مخالطتهن ومكرهنَّ، وقد حكى القرطبي الإجماع على أن الرجل إذا أُكره بالسجن على الزنى ما جاز له الزنى، فإن أُكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحًا شديدًا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحَدُّه، و (اللام) في قوله: ليسجننه لام قسم محذوف، وجوابه معمول لقول مضمر في محل نصب على الحال، أي: ظهر لهم سجنه قائلين: والله ليسجننه.

قوله: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ أي: أعصر العنب لأصنع منه خمرًا وأسقي منه الملك.

قوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا﴾ أي: في اليقظة أو تريانه في المنام. ومعنى الكلام: العلم بتأويل الرؤيا، والعلم بما يأتي من الطعام، كما كان عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: مع تركهم الإيمان بالله لا يقرون بالمعاد، وقد كررت كلمة (هُمْ) مرتين لَمَّا دخل بينهما قوله: (بِالآخِرَةِ) فصارت الأولى كالملغاة، وصار الاعتماد على الثانية، كما قال تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾

قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ زيادة (من) في المفعول، في قوله: (من شيء) لتأكيد العموم، أي: لا نشرك به شيئًا من الأشياء، قليلًا أو حقيرًا.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إذ جعلنا أنبياء معصومين من الوقوع في حرم الله.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على المؤمنين إذ عصمهم من الشرك، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب.

قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ منهم الصغار، ومنهم الكبار، ومنهم الحجر، ومنهم الشجر، ومنهم الشمس، ومنهم القمر، ومنهم النجوم، ومنهم الطواغيت.

قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: لا حقائق لمسمياتها، كمن سمَّى قشور البصل لحمًا وأكلها، فيُقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه.

قوله: ﴿مَآ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ أي: قال للساقي: إنك ستنجو وتخرج من السجن، وترجع إلى عملك الذي كنت عليه من سقي الملك وخدمته، ففسر هذه الرؤيا على وجه الحقيقة، قال أهل اللغة: سقى، وأسقى لغتان بمعنى واحد، وقيل: سقاه: ناوله فشرب، أو صب الماء في حلقه، ومعنى أسقاه: جعل له سُقيًا، قال تعالى: ﴿أَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

وقال للآخر: إنك ستقتل وتُصلب ولا تدفن حتى تترك للطير فتنهش من رأسك، وكان هذا عقوبة الإعدام عند القوم ليكون عبرة لغيره، ولم يجامل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أو يمسك عن تأويل رؤيا الصلب، ولكنه أخبر بها وبتفسيرها، فلعل القتل يكون داعيًا إلى الفتى إلى أن يتوب إلى الله تعالى ويؤمن به.

قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: انتهى تفسير رؤياكما، وإن ما أولته سيقع لا محالة، ولا مجال للمراجعة، وهذا من كمال علم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وثقته بتفسير الرؤيا، وقد قال رسول الله ﷺ كما عند أبي داود بسند حسن من حديث أبي رزين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِرَتْ وَقَعَتْ».

قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: القائل والظَّان هو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، والظن هنا بمعنى اليقين، لأنه متأكد من تعبير الرؤيا، وتعبير الأنبياء حق.

قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند سيدك الملك، الذي تدين بشرعه، وتخضع لحكمه، فهو بهذا ربُّك، لأن الرَّب في اللغة: الحاكم والسيد والقاهر والمشرع، وهذا من باب الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فلا بأس بالاستعانة بالمخلوق في الأمور العادية التي يقدر عليها بفعله أو قوله، وينهى عن الاستعانة بالمخلوق في الأمور التي لا يقدر عليها وهي خاصة بالله. وقد جاء النهي في شريعة الإسلام أن يقول العبد لسيده: ربي، قال ﷺ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فأنسى الشيطان الناجي من الغلامين وهو ساقي الملك أن

يذكر ما وصَّاه به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، والضمير عائد على الموصى الناجي، وكان ذلك من جملة مكائد الشيطان لئلا يخرج نبي الله يوسف من السجن، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تذكر الناجي بعد فترة طويلة ما وصاه به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع يطلق على ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: يطلق على ما دون العشرة، قال جمهور اللغويين: البضع لا يذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، فيقال: بضعة عشر، وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة، فلا يقال: بضع ومائة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً»، والبضع والبضعة واحد، فيصح أن يقال: بضع نسوة، وبضعة رجال، ومعناها: القطعة من العدد، ويقال: بَضع وبِضع، بفتح الباء وكسرها.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: سبع بقراتٍ هزيلة، فرتعن مع السمان، ثم ملن عليهن فأكلنهن، والرؤيا الصادقة قد تأتي من الكافر للتنبيه والإنذار، أما المؤمن فتكون كرامة من الله له، و (عجاف): هزال ضعاف، جمع: أعجف، والأنثى عجفاء.

قوله: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: سبع سنبلات يابسات يأكلن السنابل الخضر.

قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اللام في (لِلرُّؤْيَا) للبيان والتقوية، أي: بيان المعنى الحقيقي من المعنى الخيالي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ واحِدُها: ضيغث، وهو ما جُمع من النبات والحشيش بعضه إلى بعض في حزمة واختلط فيها اليابس بالرطب، فشبَّه اختلاط الأحلام وما فيها من أحاديث النفس ووساوس الشيطان، وما فيها من محبوب ومكروه، وخير وشر، بأخلاط النبات المجموع من أصناف مختلفة، وهذا

من أبلغ أنواع الاستعارة وألطفها، والأحلام جمع حلْم، وهو ما يراه النائم كذبًا لا حقيقة له، تقول: حَلَم بالفتح، واحتلم، وتقول: حَلَمت بكذا وحَلَمته، وأصله: الأناة، ومنه الحِلْم ضد الطيش، فقيل لما يُرى في النوم: حُلْم؛ لأن النوم حالة أناة وسكون ودعة، والحلم مرادف للرؤيا، إلا أنها غلبت في رؤيا الخير والحسن، وغلب الحلم على خلافه، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي قتادة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرُّؤْيَا مِنْ اللهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تذكر بعد مدة من الزمان، وفي قراءة: (بعد أمَه) أي: بعد نسيان، ويقال: أَمِهَ يَأْمَهُ أمَهًا، إذا نسي، ورجل أَمِهٌ: ذاهب العقل.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ استهل بالثناء وقدَّم المدح قبل الطلب كما فعل في المرة الأولى طمعًا في إجابة مطلبه، واعتذارًا منه عن نسيانه، ولم يكذب في مدحه، فقد تبين له صدق يوسف وملازمته للصدق قولًا وفعلًا.

قوله: ﴿سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: مستمرة متوالية متتابعة لمضاعفة الإنتاج.

قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ أي: احفظوا ما حصدتم من كل سنة من السنين حفظًا يسلم به من الخراب والفساد والسوس.

قوله: ﴿سَبۡعٌ شِدَادٌ﴾ أي: مجدبات ذات شدة وقحط، يخلفن سني الخصب، لا زرع فيهن.

قوله: ﴿يَأۡكُلۡنَ﴾ أي: يأكل أهلهن. ﴿مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادخرتم لأجلهن، ونحوه قول القائل:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمُ

والنهار لا يسهو، والليل لا ينام، وإنما يسهى في النهار، وينام في الليل.

قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ أي: مما تحبسون وتدخرون لتزرعوا؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات.

قوله: ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ الغيث: المطر، وقد غاث الغيث الأرض، إذا أصابها المطر، وغوَّث الرجل، إذا قال: واغوثاه.

قوله: ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ أي: ما كانوا يعصرونه من الأعناب والسمسم والزيتون، وغيرها كعصر ضروع الأنعام عند حلبها، ولا يلجأ الناس إلى عصر الثمار إلا بعد أن تزيد عن حاجة الاستهلاك والأكل، وحاصل تفسير الرؤيا: أن السبع البقرات السمان والسنبلات الخضر سبع سنين مخصبات، وأما البقر العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أي: يأمره بالخروج، قال ﷺ فيما روى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»، وجاء عند الطبري من حديث عكرمة مرسلًا، قال ﷺ: «لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، حِينَ سُئِلَ عَنِ الْبَقَرَاتِ الْعِجَافِ وَالسِّمَانِ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَخْبَرْتُهُمْ بِشَيْءٍ حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَبَادَرْتُهُمُ الْبَابَ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْعُذْرُ». أي لبادرت الخروج، وهذا من الرسول ﷺ محمول على التواضع، وإلا فالرسول ﷺ إمام أولي العزم من الرسل، ثم إن الرسول ﷺ أراد أن يشرع لأمته الأحزم من الأمور، وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة وترك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن مما نتج منه بقاؤه في سجنه، وربما انصرفت نفس مُخرجه عنه.

قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ليعلم الناس جميعًا أنه حُبس بلا جرم، ولم يذكر يوسف امرأة العزيز بالاسم، إنما أدخلها معهنَّ مدخل العموم بالتلميح لا بالتصريح، والنسوة -بالضم والكسر- والنساء والنسوان جمع لـ (المرأة) من غير لفظه، ثم إن ذكره تقطيع الأيدي فيه من الإثارة والتشويق للملك يجعله يهتم بمعرفة الموضوع أكثر.

قوله: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: ما شأنكن؟

قوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ لا زنا ولا غيره.

قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر، وبان جليًا واضحًا بعد خفائه، وأصل الحص: استئصال الشيء، يقال: حص شعره، إذا استأصله جزًّا، وسَنَة حصَّاء، أي: جرداء مكشوفة لا خير فيها، وقيل: مشتق من الحصة، أي: بانت حصة الحق من حصة الباطل، والحِصحص بالكسر: التراب والحجارة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولم يقع المحذور الأكبر وهي فاحشة الزنا، وإنما راودته مراودة فامتنع، فاعترفت ليعلم زوجها أنها بريئة، وقيل: هو من كلام يوسف عليه السلام، فهو طلب التحقيق في ذلك ليبرهن ويثبت للعزيز أنه لم يخنه في أهله وعرضه، والأول أصوب.

  

الْمُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ

العُشْر الخامس

يَحْيى بن عَبْد العَزيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بسم الله الرحمن الرحيم

سُوْرَةُ يوسف

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾

قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: أقلعت عما مضى مني وتركت الماضي السيء، وإني مهما أبذل أبقى مقصرة في جنب الله، وتبقى النفس الإنسانية جموحة أمارة بالسوء، وكلمة (أمَّارة) صيغة مبالغة من (أمر)، أي: شديدة الأمر، وكثيرة الأمر.

قوله: ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أستخلصه للمبالغة، والمعنى: أجعله خالصًا لنفسي، خاصًا بي لا يشاركني فيه أحد.

قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي: قريب المنْزلة، رفيع المرتبة، نافذ القول، مؤتمنٌ على كل شيء.

قوله: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: خزائن أرضك، وهي جمع خزانة، ودخلت الألف واللام عوضًا عن الإضافة، كقول الشاعر:

لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللهُ غَيْرَهُمْ ... مِنَ الْجُودِ وَالْأَحْلَامُ غَيْرُ عَوَازِبِ

وفي هذه الآية عدة فوائد، منها: جواز طلب الولاية والإمارة لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة، ومنها: إباحة عمل الرجل الفاضل عند الرجل الفاجر أو السلطان الكافر، بشرط أن يكون هناك مصلحة للإسلام والمسلمين من وراء ذلك، ومنها: جواز أن يطلب الإنسان عملًا يكون له كفوًا، لاسيما إذا كان فيه خدمة للخير والفضيلة ولا أحد يقوم بذلك.

قوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ قال الشاعر:

وَرَاءَ مَضِيقِ الْخَوْفِ مُتَّسَعُ الْأَمْنِ ... وَأَوَّلُ مَفْرُوحٍ بِهِ آخِرُ الْحُزْنِ

فَـلَا تيئسـن فَـاللهُ مَلَّـكَ يُوسُـفَا خَزَائِنَـهُ بَعْـدَ الْخَـلَاصِ مِـنَ السِّـجْنِ

وقال آخر:

إِذَا الْحَادِثَـاتُ بَلَغْـنَ النُّهَـى وَكَـادَتْ تَـذُوبُ لَهُـنَّ الْمُهَـجُ

وَحَـلَ الْـبَلَاءُ وَقَـلَّ الْعَـزَاءُ فَعِنْـدَ التَّنَـاهِي يَكُـونُ الْفَـرَجُ

قوله: ﴿فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: فعرفهم يوسف عليه السلام، ولكنهم لم يعرفوه لهيبة المُلْك، وبُعْد العهد، وتغير الملامح، واستبعادهم أن يبلغ إلى تلك المرتبة من الملك والسلطان، مع طول المدة بينهم وبينه، ثم إنّهم اعتقدوا أنه ملك كافر من ملوك مصر.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ أي: أعطاهم من الطعام نصيبهم كما جرت العادة من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيد عليه، يقال: جهّزت القوم تجهيزًا، أي: تكلفت لهم بجهازهم للسفر، وجهاز العروس: ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج، والجهاز بفتح الجيم وكسرها: ما يحتاج إليه المسافر.

قوله: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أُتِمُّ العطاء ولا أبخسه، وأحسن نزلكم وضيافتكم، قال ذلك ترغيبًا لهم في العودة إليه.

قوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ أي: خَيْرُ الْمُضِيفِينَ؛ لِأَنَّهُ أحسن ضيافتهم.

قوله: ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾ أي: لا أبيعكم شيئًا فيما بعد.

قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ أي: ولا أنزلكم عندي منْزلة القريب.

قوله: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنتحايل على أبيه ونجتهد في إقناعه كي يرسله معنا.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: ضامنون وقادرون على إحضاره، ومتأكدون من ذلك.

قوله: ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ أي: الغلمان الذين يقومون على خدمته.

قوله: ﴿بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ أي: ثمن ما اشتروه من الطعام.

قوله: ﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾ أي: في أمتعتهم، ويقال للوعاء: رحل، وللبيت: رحل، ولمتاع السفر: رحل.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: يرجعون بها، ويستفيدوا منها في عامهم القادم، قيل: خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة يرجعون لأخذ الطعام والحبوب، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجًا وتورعًا؛ لأنه يعلم ذلك منهم، وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضًا عن الطعام.

قوله: ﴿نَكۡتَلۡ﴾ أصلها (نكتالُ)، فحُذفت الضمة من اللام للجزم، وحُذفت الألف لالتقاء الساكنين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ

أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ
لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ
وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي
نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ
ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي: ماذا الذي نريده؟ وأيَّ شيءٍ نطلب من إكرام الملك أكثر من هذا؟ أوفى لنا الكيل، ورد علينا الثمن، أرادوا أن يطيبوا نفس أبيهم عن طريق الاستفهام، وقيل: (ما) نافية، أي: لا نبغي منك دراهم ولا بضاعة، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي ردت إلينا.

قوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نأتي لهم بالميرة، وهي: الطعام والحبوب، ونأتيهم بما يصلحهم في محنتهم وقحطهم.

قوله: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: إذا كان أخوهم معهم حصل لهم زيادة كيل بعير.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ أي: وتحلفوا بالله لتردُنه عليَّ، اللام للقسم.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تغلبوا عن الإتيان به، أو تَهلكوا أو تموتوا، أو تؤسروا.

قوله: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنه خشي عليهم أن يصابوا بالعين؛ لأنهم كانوا على درجة من الجمال والبهاء والحسن، فهم من ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام الذين قال الله تعالى في شانهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: أقوياء علماء، ثم إن جدَّتهم سارة لم يكن لها مثيل في الجمال في زمانها كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قصة دخولها أرض الجبار مع زوجها إبراهيم عليه السلام، وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدوا خبراً ليوسف.

والعين حق، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا». ورواه الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «الْعَيْنُ حَقٌّ». وجاء بسند حسن من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند الشهاب القضاعي، قال ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ».

وقد كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بقوله: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ». رواه البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وعند مسلم من حديث عائشة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في رقية جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لرسول الله ﷺ: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ».

وعند ابن ماجه بسند صحيح من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ! فَمَا لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: أَدْرِكْ سَهْلًا صَرِيعًا! قَالَ: مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ؟ قَالُوا: عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ. قَالَ: عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟! إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ. ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ، فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيَغْسِلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِ». وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «جُلُّ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِتَابِهِ، وَقَدَرِهِ بِالْأَنْفُسِ. يَعْنِي بِالْعَيْنِ». رواه أبو يعلى وحسنه ابن حجر.

قال أهل العلم: قد يكون الرجل الصالح عائنًا كما سبق في قصة سهل بن حنيف، ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، كما جاء عند مسلم من حديث أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ دخل عليها فقال: «مَا مَا لِي أَرَى أَجْسَامَ بَنِي أَخِي ضَارِعَةً؟ تُصِيبُهُمُ الْحَاجَةُ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنِ الْعَيْنُ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ. قَالَ: ارْقِيهِمْ»، وعند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنِي أَنْ أَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ».

قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: إلا غاية في نفس يعقوب أنفذها، وهي شفقة الوالد على أولاده، والحاجة: خاطر خطر بقلبه، وهو تفرقهم خشية العين، والاستثناء هنا منقطع؛ لأن الحاجة التي في نفس يعقوب ليست بعضًا من الشيء المنفي عنهم من الله تعالى، فالتقدير: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها.

قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضمّه إليه وأنزله معه واختلى به.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي: أطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه على حاله.

قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تأسف ولا تحزنْ على ما فعلوا بنا فيما مضى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى

نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨﴾

قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ أي: أمر فتيانه بوضع الوعاء الذي كان يكيل به للناس الطعام على حين غفلة من إخوته في متاع أخيه، والسقاية والصواع شيء واحد، وصفته أنه إناء له رأسان، وفي وسطه مقبض، ويستفاد من الآية أنه يجوز استعمال الحيل والمكائد المشروعة التي يتوصل من خلالها إلى حق من الحقوق الواجبة أو المستحبة أو الجائزة، وإنما يحرم من الحيل والمكائد التي يتوصل بها إلى إحلال المحرمات، أو إسقاط الواجبات.

قوله: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى مناد وأعلم الناس.

قوله: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ أي: يا أيها الركب المسافرون، والعير: اسم لما حُمل عليه من الحيوانات، كالحمير والبغال والإبل والخيول، ولم يتعرض لذكر إخوته مباشرة إمعانًا في التمويه، وإبعادًا للشبهة، وحتى يبدو الأمر طبيعيًا.

قوله: ﴿صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ يقال له: صواع، والصاع يُذَكّر ويؤنث، وهو وعاء للكيل، وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه وتهويل سرقته.

قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ أي: ولمن جاءنا بالمكيال وردَّه إلينا، حِمْلُ بعيرٍ من الطعام كجائزة له، وأنا كفيلٌ وضامن على ذلك، واستدل بهذه الآية على ثلاثة أبواب من أبواب العلم: باب الجعالة، وباب الضمان، وباب الكفالة، فهو جعل جائزة معلومة (حمل بعير) لمن جاء بالمكيال، وضمن استحقاق هذه الجائزة، وتكفل بوصولها بقوله: (وأنا به زعيم).

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: وما نحن ممن عهد عليه السرقة حتى نسرق، خصصوا السرقة بالنفي بعد عموم الإفساد لأنها التهمة الموجهة إليهم.

قوله: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ أي: فما عقاب الفاعل إن كان فردًا منكم واتضح كذبكم؟

قوله: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي: يُسترقّ ويستعبد ويصبح مملوكًا لمن سَرَقَ منه، وهذا الحكم كان في شريعة ودين إبراهيم، ويعقوب عليهما السلام فحكموا على أنفسهم، وأما في شريعة محمد ﷺ فإن السارق تقطع يده، فشرائع الأنبياء متنوعة كما أخبر الله تعالى في كتابه فقال: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾، لكن أصل الدين يبقى واحد ثابت لا يتغير، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فـ (جَزَاؤُهُ) مبتدأ، و (مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ) خبر، والتقدير: جزاؤه استعباد من وجد في رحله، وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاء من

سرق القطع فهذا جزاؤه.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُسْتَرَقُّوا.

قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ حتى لا يثير انتباههم إلى أن الأمر سبق ترتيبه من قبل، ولنفي التهمة والريبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه، والوعاء بضم الواو وكسرها لغتان، وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: الصواع، ومن العرب من يؤنث الصواع ويعني بها (السقاية)، وهي مؤنثة وهما اسمان لشيء واحد، مثل الثوب والملحفة، مذكر ومؤنث لشيء واحد.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: استرقاق السارق؛ لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرَّم ضعفَ ما سَرَق.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: وقد شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: يعرضون بيوسف في كلامهم، فإن كان أخوهم قد سرق فقد سرق أخوه الشقيق (يوسف) من قبله، وإنما قالوا ذلك نفيًا للمعرة عن أنفسهم، وقيل: كان قد سرق صنم جده أبي أمه وكسره وألقاه على الطريق، وقيل غير ذلك، والمقصود أنّهم أرادوا أن يبرؤوا ساحتهم، ويتبرؤوا من فعله؛ لأنه ليس من أمهم، وأنه إذا سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق.

قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: أخفى الرد على مقولتهم تلك وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفًا معهم.

قال ابن جرير: وقال: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ فأنث؛ لأنه عنى بها الكلمة، وهي: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، ولو كانت جاءت بالتذكير كان جائزًا، كما قيل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ و ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾، وكنى عن الكلمة، ولم يجْرِ لها ذكر متقدم، والعرب تفعل ذلك كثيرًا، إذا كان مفهومًا المعنى المراد عند سامعي الكلام، وذلك نظير قول حاتم الطائي:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
إذا أنا دلاني الذين أحبهم ... لِمَلْحُودَة زُلْجٌ جَوانبُها غُبْرُ
وراحوا عجالا ينفضون أكفهم ... يَقولونَ قد دَمى أنامِلَنا الحَفْرُ

[(ملحودة): يعني القبر قد لحد له، و (زلج) ملساء يزل نازلها فيتردى فيها] يريد: وضاق بالنفس الصدر، فكنى عنها ولم يجر لها ذكر، إذ كان في قوله: إذا حشرجت يومًا، دلالة لسامع كلامه على مراده بقوله: «وضاق بها» ومنه قول الله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. فقوله ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ لم يجر قبل ذلك ذكر لاسم مؤنث.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ قالوا له: عزيزًا، إما لأن عزيز مصر مات وحل هو مكانه، أو هو لقب يطلق على كل وزير في ذلك الزمان.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾

قوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله، وكذلك تفعل العرب في كل مصدر وضعته موضع يفعل ويفعل، فإنها تنصب، كقولهم: حمدًا لله وشكرًا له، بمعنى: أحمد الله وأشكره، والعرب تقول في ذلك: معاذ الله، ومعاذة الله، فتدخل فيه هاء التأنيث كما يقولون: ما أحسن معناه هذا الكلام، وعوذ الله، وعوذة الله، وعياذ الله، ويقولون: اللهم عائذًا بك، كأنه قيل: أعوذ بك عائذًا، أو أدعوك عائذًا.

قوله: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾ أي: لما يئسوا، وفقدوا الأمل منه، والسين والتاء للتأكيد، ومثلها: (فاستجاب)، و (استعصم)، واليأس ضد الطمع.

قوله: ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ أي: انفردوا يتناجون فيما بينهم خالصين لا يخالطهم سواهم، كي يتفاوضوا في أمرهم وماذا يقولون لأبيهم، و (نجيًا) منصوب على الحال، وهو مفرد يستعمل مع الجمع والمفرد، كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ وجمعه: أنجية.

قوله: ﴿قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا﴾ أي: قوله تعالى: ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾.

قوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: لا أزال ألزم أرض مصر وأقيم فيها، يقال: بَرِحَ بَرَاحًا وبُروحًا، أي: زال، فإذا دخل النفي صار مثبتًا، ولا شك أن في بقائه مواساة منه لأبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لعله يخفف من مصيبته، ولإشعاره أنه مهتم بأمر أخيه، حتى يقنع الوالد بأن الأمر ليس مدبرًا منهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ أي: في الرجوع والقدوم عليه، فإني أستحيي منه.

قوله: ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ أي: بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي.

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق.

قوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: اسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث، فسؤال القرية مجاز عن سؤال أهلها، وقيل: واسأل القرية وإن كانت جمادًا، فأنت نبي الله وهو يُنطِق الجماد لك، وكذا القول في العير.

قوله: ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها.

قوله: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ أي: زينت لكم أنفسكم أن ابني سرق وليس الأمر كما ذكرتم، وإنما ذلك لأمر يريده الله.

قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ أي: لأنه كان عنده أن يوسف لم يمت، وإنما غاب عنه خبره.

قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: يا حزناه، يقال منه أسفت على كل آسف عليه أسفًا. قال الشاعر:

فَيَا أَسَفَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ انْصِرَافُهُ ... وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سُلِّيَتْ فَتَسَلَّتِ

والأسف: شدة الحزن والندم على ما فات، والأصل: يا أسفي، فأبدل من الياء ألف لِخِفَّة الفتحة.

قوله: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ أي: فقد بصره وعمي من كثرة البكاء حزنًا على ولديه، وقيل: ابيضاض عيني يعقوب لا يعني العمى، بل ضعف رؤية وإدراك الأشياء، وقد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية، وهو ما يسمى بالعشى، إذ العمى لا يجوز على أنبياء الله تعالى لأنه عيب منفر، والحزن ليس بمحظور شرعًا، وإنما المحظور الولولة وشق الجيوب وضرب الخدود، قال ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا» رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه.

قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي: مكظوم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه على ابنه يوسف، ممتلئ حزنًا وغمًّا، ولكنه يكتمه في نفسه ولا يظهره لأحد، ومنه: كظم الغيظ، وهو إخفاؤه، كقوله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ أي: مملوء كربًا.

قوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: والله لا تزال تتذكر يوسف وتتفجع عليه، و (تفتأ) من أخوات كان الناقصة.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك، فتكون تالفًا أو دَنِفًا من

المرض، وهو ما دون الموت، يقال: حَرِض حرضًا، وحُرِض حروضًا وحروضة، إذا بلي وسقم.

قوله: ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ أي: أو تموت كمدًا، وتهلك أسىً وحسرة وغمًّا على يوسف.

قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قد صارت هذه الكلمات شعارًا لكل محزون ومكروب، فقد جاء عند البخاري معلقًا من حديث التابعي عبد الله بن شداد قال: «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾»، وحقيقة البث: ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يستطيع أن يخفيها فيظهرها ويبثها بين الناس بهدف الحصول على مساعدة في حل مشكلته أو مصيبته، وهو من: بثثته، أي: فرّقته ونشرته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لأنه تيقن حياته بإلهام الله عز وجل له، والتحسس طلب الشيء بالحواس، فهو تفعل من الحس، أي: اذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم، واحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه.

قوله: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا من فرج الله ورحمته، ولا تقطعوا رجاءكم وأملكم من الله، فالمؤمن يرجو فرج الله.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ في الآية إشارة إلى أن القنوط من كبائر الذنوب.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ليس من باب التسخط، وإنما هو من باب إبداء الحال إلى من يرجون عنده النفع، كما يُبدي المريض ألمه إلى الطبيب.

قوله: ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي: رديئة قليلة لا يقبلها كل تاجرٍ، رغبة عنها واحتقارًا لها، والإزجاء: السَّوْق بدفعٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾.

قوله: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ أي: تفضّل علينا وتجوّز عنا.

قوله: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ والتعظيم لفعلتهم، وفي وصفهم بالجهل دليل على أنّهم كانوا غير أنبياء، لأنه لا يُوصف الأنبياء بالجهل، وكل من عصى الله أو عمل سوءًا فهو جاهل، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي: أأنت يوسف حقًا متعجبين مستغربين؟

قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ أي: قال لهم بأدب وإشفاق وتواضع.

قوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: بالتقوى والصبر والعلم والحلم، وأعطاك ما لم يعطنا.

قوله: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي: لا توبيخ ولا عتاب ولا عقوبة.

قوله: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي: أدعو الله أن يغفره لكم، قال عطاء الخراساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل من الشيوخ، ألم تر قول يوسف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾، وقال يعقوب: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾.

قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي: الذي يلي جسده، فيضعوه على عيني أبيه، لأن الله ﷻ أعلمه ذلك، ويشاء الله تعالى أن الذين يحملون القميص هذه المرة بالبشرى بحياة يوسف هم الذين حملوه أول مرة بهلاكه وموته.

قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي: خرجت منطلقة من مصر إلى الشام، يقال: فصل فصولا، وفصلته فصلا، فهو لازم ومتعد.

قوله: ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي: قال يعقوب عليه السلام لمن حضر من قرابته وحفدته ممن لم يخرج إلى مصر: إني لأشمّ رائحة يوسف، وإنما انفرد يعقوب عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفراده بالأسف عند فقدانه، ولا يعرف فراق الأحباب إلا الأحباب.

قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تُسفهوني، وقيل: لولا أن تكذبون، والفند: الكذب، وقد أفند إفنادًا، إذا كذب، وقيل: التفنيد: التقبيح. قال الشاعر:

يَا صَاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمَرْدُودِ

وقيل: لولا أن تلومونِ، وقيل: لولا أن تُخَطِّؤُون، وقيل: لولا أن تعجزوني وتصعفون رأيي، يقال: فنده تفنيدًا إذا أعجزه. قال الشاعر: أَهْلَكَنِي بِاللَّوْمِ وَالتَّفْنِيدِ.

ويقال: أفند فلانًا الدهر، إذا أفسده.

ولا ريب أن الدهر لا يفعل شيئًا، وإنما هو أداة، والفاعل الله، فهو الذي يقلّب ليله ونهاره كما جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

قوله: ﴿ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي: في خطئك الماضي، وهو اعتقادك حياة يوسف؛ لأن يوسف عندهم قد مات، والقائل ليس أبناء يعقوب، إنما هو من قول حفدته (بنو بنيه) ومن كان عنده ممن لم يذهب إلى مصر، أما أبناؤه فإنّهم كانوا مسافرين إلى مصر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ أي: الأخ الأكبر.

قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضم إليه أبويه واعتنقهما، وأسكنهما بيته في مصر، والإيواء إنما يكون في المنْزل، وفي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَنْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ». ولا ريب أن الأبوين هنا: أبوه وأمه، لا خالته، وأنّهما حيان، وهو ظاهر القرآن، ولا التفات إلى ما هو خلاف ذلك.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ إنما قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تبركًا وتيمنًا وجزمًا وتحقيقًا، لا تعليقًا؛ لأنّهم قد دخلوا مصر.

قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: أجلس أباه وأمه على سرير الملك معه، ولم يجلسهم أدنى منه.

قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الأحد عشر، تعظيمًا وتكريمًا، وكان من عادتهم وتحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير، وكان هذا مباحًا وجائزًا في شريعة من قبلنا، وكان منهم على الخُلُق والإكرام، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض، ونُسخ ذلك في شريعة نبينا محمد ﷺ، وقد سبق بيانه، وقيل: لم يكن سجودًا، لكنه سنة كانت فيهم يومئون برؤوسهم إيماءً، وهي تحيتهم، وقيل: كان انحناءً كالركوع.

قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: قال يوسف لأبيه: هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي في منامي وأنا صغير، والتأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: يوم القيامة.

قوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صحيحة صادقة، وقد جاء عند الطبري والحاكم والبيهقي من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه موقوفًا قال: «كان بين رؤيا يوسف وعبارتها أربعون عامًا». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: من البادية، وقيل: كان يعقوب عليه السلام تحول إلى بادية على طريق القوافل وسكنها.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ أي: حمل الشيطان مسؤولية الجريمة كلها، ولم يقل: من بعد أن نزغهم، بل أضاف الفعل إلى الشيطان الذي فرَّق بينه وبين إخوته، وهذا من كمال المروءة، وأصل النَّزغ من: نزغ الراكب الدابة، إذا نخسها ليحملها على الجري.

قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي: اقبضني إليك مسلمًا، وثبتني على الإيمان واحفظني على الإسلام حتى أموت عليه، وليس هذا تمنيًا للموت، بل هو دعاء أن يحسن خاتمته ويتوفاه على الإسلام، كما هو مستحب أن يسأل العبد ربه ذلك كل وقت، وقد جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلا خَيْرًا»، لكن إذا خشي الفتنة فيجوز له سؤال الموت، كما قال تعالى عن سحرة فرعون لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، وقالت مريم لما جاءها المخاض، وهو الطلق إلى جذع النخلة: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ لما علمت من أن الناس سيقذفونها بالفاحشة، وفي حديث معاذ رضي الله عنه عند أحمد، والترمذي بسند صحيح في قصة المنام والدعاء الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ». صححه البخاري والترمذي، وحسنه ابن حجر وابن عبد البر، وعند أحمد بسند لا بأس به من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: المَوْتُ، والمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ المَالِ، وَقِلَّةُ المَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ».

قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: آباءه إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَ لُوطٍ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذِرْوَةٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثَرْوَةٍ- مِنْ قَوْمِهِ» أي: في نسب عالي منهم.

قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، أي ليس تقدر على هداية من أردت هدايته، تقول: حرص يحرِص، مثل: ضرب يضرب. وفي لغة ضعيفة حرص يحرص

مثل حمد يحمد. والحرص طلب الشيء باختيار، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ إما شركًا أكبر كالمنافقين إذا عملوا رياء للناس، وإما شركًا أصغر، كالذي يحلف بغير الله أو يستعمل التمائل والتولة والطيرة، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». رواه أبو داود بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال رسول الله ﷺ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ -ثَلَاثًا-. وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رواه أبو داود بسند صحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». حديث صحيح، رواه أبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَّعَ اللهُ لَهُ». حديث حسن رواه أحمد. وقال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». وعند أحمد بسند جيد عن محمود بن لبيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ. قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى العِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟».

وعند أحمد من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ، فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ. فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ». حديث حسن رواه أحمد.

وكذا من ينسون ربَّهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء، كما تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ

ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، وكذا من يقول: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، ومن يقول: لولا فلان أو الكلب ما دخل علينا اللص، وكذا من يقول: ما شاء الله وشئت.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عذاب يغشاهم، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أي: طريقتي وسنتي، ومنهاجي، ودعوتي، وديني.

قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: يقين وبرهان عقلي وشرعي وحق، ومنه يقال: فلان مستبصر بهذا. وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا».

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لا من النساء؛ لضعفهن وعورتهن، فلم يوحَ إلى امرأة من بنات آدم وحي تشريع، وما كان من وحي لمريم وأم موسى وسارة فإنما هو وحي إلهام، أو وحي لا تشريع فيه.

قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: من أهل المدن والأمصار، لا من أهل البادية، لأنَّ أهل المدن أحلم وأعلم وأفضل وأعقل، وأهل البادية يغلب الجفاء والقسوة والغلظة عليهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم، وقرئت بالتشديد (كُذِّبوا) أي: ظن القوم أن الرسل كَذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وقد جاء عند البخاري من حديث عُرْوَةَ: أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَرَأَيْتِ قَوْلَهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ أَوْ كُذِّبُوا؟ قَالَتْ: بَلْ كَذَّبَهُمْ قَوْمُهُمْ. فَقُلْتُ: وَاللهِ لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، وَمَا هُوَ بِالظَّنِّ! فَقَالَتْ: يَا عُرَيَّةُ! لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ. قُلْتُ: فَلَعَلَّهَا: أَوْ كُذِبُوا. قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ! لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا. وَأَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَتْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ».

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: في قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته، أو

في قصص الأمم ا، والعبرة: الفكرة والتذكرة والموعظة لأولى العقول والنهى.

قوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: يختلق ويتكذب ويتخرص.

انتهى تفسير سورة يوسف ولله الحمد.

  

سُورَةُ الرَّعْدِ

وهي مكية على الراجح، وقيل: مدنية، وقيل: مكية مدنية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قيل: لا عمد للسماء البتة، لا مرئية ولا غير مرئية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، وقيل: للسماء عمد ولكن لا نراها، والقول الأول هو المشهور والأولى، والقول الثاني ظاهر النص، والعَمَد: جمع عمود، وهي السواري.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطها طولًا وعرضًا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وفي الحديث قال ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ». صححه ابن حبان من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال ابن حجر: وله شاهد عن مجاهد، أخرجه سعيد بن منصور بسند صحيح عنه في التفسير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ».

قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وسميت الجبال بذلك لأن الأرض ترسو وتثبت بها، يقال: أرسيت الوتد في الأرض إذا أثبتُّه.

قوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾، وقيل في (زَوْجَيْنِ): نوعان، كالحلو والحامض، والرطب واليابس، والأبيض والأسود، والصغير والكبير، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: متلاصقات قريبٌ بعضها من بعض، ترابها واحد، وماؤها واحد، ولكنها مع ذلك تنبت أنواعًا مختلفة من الثمار والزروع، فيكون البعض حلوًا والآخر حامضًا، وهناك أراضٍ متجاورة بعضها طيب ينبت ما ينفع الناس، وما جاورها سبخة مالحة لا تنبت شيئًا، وأيضًا فيها أجزاء وبقاع غير متجاورات، ففي الكلام حذف، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والمعنى: وسرابيل تقيكم البرد، ثم حُذف لعلم السامع، والمتجاورات: المدن العامرة، وغير المتجاورات: الصحاري وما كان غير عامر، ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه رملية، وهذه سميكة، وهذه رقيقة ناعمة، والكل متجاورات، فهذه نصفها، وهذه نصفها الآخر.

قوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ جمع صنو، وهي النخلات تجتمع وتتشعب من أصل واحد فتصير نخيلًا، ونظيرها: قنوان، واحدها: قنو، وقيل: الصنوان: المجتمع من كل نبات كالرمان والتين وبعض النخيل، وغير الصنوان: المتفرق، والصنو: المثل، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ». ولا فرق بين التثنية والجمع ولا بالإعراب، فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية. قال الشاعر:

الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ خُلَّتَا كَرَمِ ... لِلْمَرْءِ زَيْنٌ إِذَا هُمَا اجْتَمَعَا
صِنْوَانِ لَا يُسْتَتَمُّ حُسْنُهُمَا ... إِلَّا بِجَمْعِ ذَا وَذَاكَ مَعَا

قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد، وماؤهم واحد، لكنهم مشارب شتى، وهذا من صنع الحكيم الخبير سبحانه.

قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ كما قال رسول الله ﷺ عندما قرأ هذه الآية: «الدَّقَلُ، وَالفَارِسِيُّ، وَالحُلْوُ، وَالحَامِضُ». حديث حسن، رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الشاعر:

النَّاسُ كَالنَّبْتِ وَالنَّبْتُ أَلْوَانْ ... مِنْهَا شَجَرُ الصندل والكافور والبان
ومنها شجر ينضج طُولَ الدَّهْرِ قَطْرَانْ

قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ فيها إثبات العُجب لله ﷻ، كما قال ﷺ فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ». والنصوص النبوية في هذا الباب كثيرة.

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وهي جمع غل، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق، أي: يُغلون يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ

يُسۡجَرُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾

قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ أي: العقوبات، واحدها: مثلة، كما واحدة الصّدُقات: صَدُقة.

وذكر أن تميمًا تضم الميم والثاء جميعًا، والفعل منه مثلت به أمثل مثلًا، بفتح الميم وسكون الثاء، فإذا أرت أنك أقصصته من غيره، قلت: أمثلته من صاحبه أُمثلُه إمثالًا، وقرئت: (المُثْلات)، و(المَثْلات).

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ جاء في الصحيحين من حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ».

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾، وأصله من: هادي الفرس، وهو عنقه الذي يهدي سائر جسده.

قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ... الحديث». والمعنى: أن الله عز وجل محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ فيعلم ما تسقط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة، ويعلم ما تنقصه الأرحام من الدم، وما تزداد من الدم. وقيل: الغيض: انقطاع دم الحيض. وقوله: ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ أي: بدم النفاس بعد الوضع.

واستدل بهذه الآية على أن الحامل تحيض، وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه، وذهب أبو حنيفة إلى أنها لا تحيض، وهو قول عطاء والشعبي وغيرهما، والذي يظهر أن المرأة الحامل لا تحيض في الغالب، وهو الأصل، فإن حاضت فهو خروج عن الأصل، وهي مسألة نادرة، وكانت عائشة رضي الله عنها تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة.

واستدل أيضًا بأن الحامل قد تضع لأقل من تسعة أشهر، وأكثر الحمل سنتان، وقيل: ثلاث سنوات،

وقيل: لا حد له. ولا أصل لهذه المسألة إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء.

قال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملت في بطنها سنتين، فولدتني وقد خرجت سني، ولذلا سمي الضحاك.

قوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ ومن ذلك نوع الجنين، وحجمه، ومدة مكوثه في بطن أمه إلى خروجه، وقدر رزقه وأجله، ومدة النفاس والحيض، وغير ذلك.

قوله: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ أي: الذي ليس فوقه شيء وكل شيء دونه، والعلو: علو الذات والقدر والمنْزلة.

قوله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: يستوي في علمه تعالى ما أضمرتْهُ القلوبُ، وما نطقتْ به الألسنة.

قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ أي: مختف ومستتر.

قوله: ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: في وَضَح النهار، يقال: سرب يسرُب سَرَبًا وسُرُوبًا، إذا ذهب، قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾. قال الشاعر:

وَكُــلُّ أُنَــاسٍ قَــارَبُوا قَيْــدَ فَحْلِهِــمْ ... وَنَحْــنُ خَلَعْنَــا قَيْــدَهُ فَهْــوَ سَــارِبُ

قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أي: حفظة من الملائكة يتعاقبون على حفظه ورعايته من كل جانب، وهم يرافقونه في حياته كلها، وسميت بالمعقبات: لأن بعضهم يأتي بعقب بعض في الليل والنهار، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»، وعند مسلم من حديث كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﵁ قوله ﷺ في التسبيحات عقب الصلاة: «مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ -أَوْ: فَاعِلُهُنَّ- دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً». فذكر التسبيح، والتحميد، والتكبير؛ لأنّها تفعل وتعاد مرة بعد مرة، فكل من عمل عملًا ثم عاد إليه فقد عقب، كما قال تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أي: لم يرجع، واختلفوا في تأنيث (مُعَقِّبَاتٌ) وهي صفة لغير الإناث، فقيل: إنما أنثت لكثرة ذلك منها؛ نحو: نسابة، وعلامة؛ ثم ذُكِّر لأن المعنى مُذَكَّر، فقال: (يَحْفَظُونَهُ)، وقيل: إنما هي ملائكة معقبة؛ ثم جمعت (مُعَقِّبَاتٌ) فهو جمع جمع.

قوله: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يحفظونه مما يضره من جن وهوام وغيرهما، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه، وقيل: (مِنْ) بمعنى الباء، أي: بأمر الله وبإذنه، وقيل: بمعنى عن أمر الله لا من عند أنفسهم،

تقول: كسوته عن عُرْيٍ ومن عُرْيٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: عن جوع.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ جاء في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»، وقد جاء عند البخاري انقلاب النصر إلى هزيمة في غزوة أحد حين نزل الرماة من أعلى الجبل ليشاركوا في الغنائم، والأمثلة في ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: ملجأ وناصر يمنعهم من العذاب، قال الشاعر:

مَا فِي السَّمَاءِ سِوَى الرَّحْمَنُ مِنْ وَالٍ

قوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: بالمطر، والسحاب جمع، والواحدة: سحابة. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: تسبيحًا مقترنًا بحمده والثناء عليه، وتسبيحُ الرعد حقيقةٌ نؤمن به ولا نعلم كيفيته، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وقد جاء عند الإمام مالك في الموطأ، والبخاري في الأدب المفرد بسند صحيح عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الحَدِيثَ وَقَال: «سُبْحَانَ الذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لأَهْلِ الأَرْضِ شَدِيدٌ».

قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ جاء عند أحمد بسند لا بأس به من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، حَتَّى يَاتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ، فَيَقُولُ: مَنْ صَعِقَ قِبَلَكُمُ الْغَدَاةَ؟ فَيَقُولُونَ: صَعِقَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ». وعند الترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ قَالَ: مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ. فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ. قَالُوا: صَدَقْتَ». حديث حسن.

قوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يشكّون في عظمة الله وأنه لا إله إلا هو.

قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: شديد القوة، وشديد العقوبة، وشديد البطش، وشديد الانتقام، ممن طغى عليه وتمادى في كفره ولم يؤمن به، يقال: ماحلت فلانًا مِحالًا، أي: قاويته حتى يتبين أيُّنا أشد، ومنه ماجاء عند ابن حبان بإسناد جيد من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «القُرآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ،

ومَاحِلٌ مُصدق، مَن جَعَلهُ أمَامَهُ قَادَهُ إلى الجنَّةِ، ومَن جعلهُ خَلفَهُ ساقَهُ إلى النَّارِ»، ورواه البيهقي في الشعب، الطبراني، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال ابن الأعرابي: (المِحَالِ): المكر، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾.

وقال عبد المطلب:

لَاهُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْـ ... نَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلَالَكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَا ... لُهُمْ عَدْوًا مِحَالَكَ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا إله إلا الله، فلا يُدعى في السَّراء والضرَّاء، ولا يُعبد في الغيب والشهادة إلا إياه، كما قال تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام والأوثان؛ لأنها مقصّرة عنه، وأنها لا تكون إلهًا، ولا يجوز إلهًا إلا الله الواحد القهار.

قوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلًا ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلًا بالقابض على الماء بيده بيده، قال الشاعر:

فَأَصْبَحْتُ فِيمَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... مِنَ الْوُدِّ مثل القابض الماء باليد

والمراد: كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء.

قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

قوله: ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أي: المؤمن ينقاد ويخضع لأوامر الله تعالى طوعًا، والكافر ينقاد كارهًا مُجبرًا، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ! أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ».

قوله: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي: خاضعة لأمر الله في ميلها من جانب إلى جانب، والسجود بمعنى الميل، فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب، يقال: سجدت النخلة، إذا مالت، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾، (وَالآصَالِ) جمع أصيل، وهو ما بين العصر إلى الغروب، وخص الغدو والآصال بالذكر، لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما.

قوله: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا فلا يدرون أنّها مخلوقة من مخلوق، أي: ليس الأمر كذلك، فإنها الضعيفة الكسيرة الصماء البكماء، والله هو الملك الكبير المتعال الذي ليس كمثله شيء، فلا ند ولا عدل له.

قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: بقدر ملئها، فمنها الصغير، ومنها الكبير، فإن صغر الوادي قَلَّ الماء، وإن اتسع كثر، والأودية جمع وادٍ وهو كل منخفض بين جبلين، وسمي بذلك لخروجه وسيلانه، فالوادي على هذا اسم للماء السائل، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علمًا كثيرًا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها، فالأودية قلوب العباد، وقيل: شبه نزول القرآن بنُزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر.

قوله: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ أي: فجرى الماء في الوادي فطفى على وجهه زبدًا مرتفعًا على وجه السيل، والزبد: ما يطفو على وجه الماء من الغثاء والرغوة والحطام، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء.

قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ أي: يُشَكَّل من أجل الزينةِ والتَّجمُّل، كما هو الحال مع الذهب والفضة.

قوله: ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ كالأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص.

قوله: ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ أي: يعلو فوق سطح ما أذيب من تلك الأجسام والمعادن زبدٌ مثل زبد السيل، وهو خبث لا يُنْتفع به كما لا يُنْتفع بَزَبد السيل.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ أي: يلقيه الصانع فلا يصنع منه حلية ولا متاعًا، وكذلك الباطل يزول، و (الجفاء): ما أجفاه الوادي، أي: رمى به، يقال: أجْفلت القدر، إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح

السحاب، إذا قطعته.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فالحقّ يبقى كما يبقى الماء الصافي والجوهر والذهب النقي والفضة النقية، والباطل يضمحل كما يضمحل الزبد وخبث الذهب والفضة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، وكما قال ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ». رواه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ جاء عند أحمد بسند لا بأس به من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَّا قَالَ: لَا إِيمانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».

قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالعمل الصالح السيئَ من الأعمال، فيدفعون الفحش بالسلام، والظلم بالعفو، والذنب بالتوبة، والجهل بالحلم، والمنكر بالمعروف، والشرك بالتوحيد، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. ومنه قوله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». رواه الترمذي بسند حسن.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبة الآخرة، وهي الجنة.

قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ العدن: الإقامة، مأخوذة من: عَدَن بالمكان، إذا أقام فيه، وفي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه كما عند البخاري وأصله متفق عليه، وفيه: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالا لِي: انْطَلِقْ. . . فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلا أَحْسَنَ، قَالا لِي: ارْقَ فِيهَا،

فَارْتَقَيْنَا فِيهَا، فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ... قَالا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ...». الحديث.

قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ جاء عند أحمد بسند جيد من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَإِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، وَإِذَا كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ لَمْ تُقْضَ لَهُ حَتَّى يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ فَتَاتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا، فَيَقُولُ: أَيْ عِبَادِيَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ. فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ. فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَامُرُنَا أَنْ نَاتِيَ هَؤُلَاءِ فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ المَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً. فَتَاتِيهِمُ المَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾».

قوله: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: الرحم التي أمر الله بوصلها، وقد جاء عند أبي يعلى بسند جيد عن رجل من جعثم قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: نَعَمْ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ ﷺ: ثُمَّ صِلَةُ الرَّحِمِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَبْغَضُ إِلَى اللهِ تَعَالَى؟ فَقَالَ ﷺ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: قَطِيعَةُ الرَّحِمِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ ﷺ: أَمْرٌ بِالْمُنْكَرِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمَعْرُوفِ».

وقد روى الحاكم بسند حسن من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُعَمِّرُ بِالْقَوْمِ الزَّمَانَ، وَيُكْثِرُ لَهُمُ الأَمْوَالَ، وَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ بُغْضًا لَهُمْ. قَالُوا: كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: بِصِلَتِهِمْ لأَرْحَامِهِمْ».

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ. فَقَالَ: يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ». حديث حسن رواه أحمد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ

تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ
سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ هي الحالة المستطابة من فرح وقرة عين، وهي فُعلى من الطيب، كما في الحديث الحسن: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ! قَالَ: طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي! ثُمَّ طُوبَى؛ ثُمَّ طُوبَى؛ ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي. قَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا». رواه أحمد من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا». حديث حسن، رواه ابن ماجه من عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ».

قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: وحالهم أنهم يكفرون بالرحمن، فينكرون أن يكون لله تعالى اسم الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: رُجوعِي وأوبتي وتوبتي.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ التقدير: لكان هذا القرآن، لكن حُذف إيجازًا، لما في ظاهر الكلام من الدلالة، وقيل: لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم هذا من باب أولى؛ لأنّهم سألوا قرآنًا تسيَّر به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى، واسم القرآن يطلق على كل الكتب المتقدمة لاشتقاقه، وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلا يَأْكُلُ إِلا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: ليس من سنة الله تعالى أن يهدي الناس جميعًا، وعلى المؤمنين أن يَقنَطوا وييأسوا من تحقق ذلك، وعليهم أن يتبيَّنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الكفار لهداهم من غير أن يشاهدوا الآيات؛ لأن الأمر أمره، والحكم حكمه، ولكنْ قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على

الاختيار.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي: نكبة وداهية تفجعهم وتفجؤهم. يقال: قرعه أمر، إذا أصابه، والجمع: قوراع، والأصل في القرع: الضرب، وهذا وعيد للكفار.

قوله: ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ﴾ أي: أو تحل القارعة قريبًا من مساكنهم فيصيبهم شرها وأثرها فيفزعوا منها، وقيل: أو تحل أنت يا محمد بالمدينة قريبًا من دارهم، فتحاصرهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ قيل: وتستمر هذه القوارع بهم حتى يأذن الله بهلاكهم وموتهم، أو يأذن بهزيمتهم، وقيل: فتح مكة، وقيل: يوم القيامة.

قوله: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الإملاء: الإمهال. أي: أطلت لهم في المَهَل، ومنه الملاوة من الدهر، وقولهم تَمَلَّيت حبيبًا، ولذلك قيل لليل والنهار: الملوان؛ لطولهما. وقيل للخرق الواسع من الأرض: ملا.

قوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ أي: متولٍ لأمورهم، حفيظ عليم رقيب، يخلق ويرزق ويحفظ ويجازي. قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾. والآيات في هذا الباب كثيرة.

قوله: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾ أي: أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا، فإنّهم لا حقيقة لهم، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ولا يعقلون.

قوله: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استفهام توبيخي لهم، فآلهتهم لا وجود لها؛ لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها سبحانه، فهو لا تخفى عليه خافية، وإنما خص الأرض لأنهم ادعوا له شريكًا في الأرض لا في السماء.

قوله: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: بظن وباطل وكذب من القول، والمعنى كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: صدهم الله عن سبيله بما زين لهم من صحة ما هم عليه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾، وقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ جاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا

هَادِيَ لَهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ٣٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ٣٧ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ٣٨ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ٤٠ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٤١ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٤٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ٤٣﴾

قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ كابن سلام، وصهيب ﵄ لكونهم يجدونه موافقًا ومصدقًا لما في التوراة والإنجيل من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، فاللفظ عام والمراد به الخصوص. وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنور القرآن وهدايته، والكل مُحتَملٌ.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ﴾ أي: ومن اليهود والنصارى ومن مشركي العرب والمجوس ومِن غيرهم آخرون أنكروا القرآن الكريم وآياته وكذَّبوا به وكفروا برسول الله ﷺ لكونه مخالفًا لأهوائهم وشهواتهم، وناسخًا لشرائعهم، ولفظة (الأحزاب) تطلق على من اجتمع وتحزَّب على رأي واحد.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مصيري، وهو مفعل من قول القائل: آب يؤوب أوبًا ومآبًا.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: هم بشر يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما خصصوا بالوحي، وفي هذه الآية دليل على الترغيب في النكاح والحض عليه، والنهي عن التبتل، وهو ترك النكاح.

قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله، وقيل: فيه تقديم وتأخير، والمعنى لكل كتاب أجل، كما قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: يزيل الله من ذلك الكتاب ما يشاء إزالته، ويُثبتُ ما يريد من الأحكام والأحوال والأقدار، فيؤخرها إلى وقتها، كالتحليل والتحريم، والغنى والفقر، والصحة والفقر، والموت والحياة، فهو سبحانه وتعالى المتصرف في مُلكه كيف يشاء، والعرب في (المحو) لغتين، فمضر تقول: محوت الكتاب أمحوه مَحْوًا، إذا أذهبت أثره، وهو موافق لمعنى التنْزِيل، وذكر عن بعض قبائل ربيعة أنها تقول: مَحَيْتُ أمْحَى.

قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وعنده اللوح المحفوظ الذي فيه ما كان وما يكون، وفيه الناسخ والمنسوخ، وفيه المحو والإثبات، والتبديل والإقرار، فينسخ من الأقدار والأحوال والأحكام ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء، وقد جاء في الصحيحين من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لهُ فِي رِزْقِهِ وَأَنْ يُنْسَأَ لهُ فِي أَثرِهِ فَليَصِل رَحِمَهُ». وعند أحمد من حديث سلمان ﷺ بسند حسن، قال رسول الله ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ».

قوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: من الخزي والنكال والعذاب، قال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: نقصدها.

قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: يموت علماؤها وصلحاؤها، وهو قول وجيه، قال ابن الأعرابي: الطرَف والطرْف: الرجل الكريم، قال الشاعر:

الْأَرْضُ تحيَا إِذَا مَا عَاش عَالِمُهَا ... مَتَى يمُتْ عَالم مِنْهَا يمُت طَرفُ
كَالْأَرْضِ تحْيَا إِذَا مَا الْغَيْثُ حَل بِهَا ... وَإِنْ أَبَى عَاد فِي أكنافهَا التَّلَفُ

وقيل: أريناهم النقصان في أمورهم ليعلموا أن تأخير العذاب عنهم ليس عن عجز.

وقيل: ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهذا القول في غاية القوة، وفيه البشارة بانتصار الإسلام وامتداده في الأرض، كما جاء عند مسلم من حديث ثوبان ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا».

قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: لا رادَّ لحكمه، ولا مُبطل له، وليس يتعقب حكمه أحد بنقضٍ ولا تغيير، وإذا قضى قضاء فإنه لا يُرد، والمُعَقِّب في كلام العرب هو الذي يكرُّ على الشيء.

قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: علماء اليهود والنصارى ومن آمن منهم واتبع الحق؛ لأنهم كانوا يجدون صفته في كتبهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهو احتجاج على مشركي العرب؛ لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب من آمن منهم.

انتهى تفسير سورة الرعد، ولله الحمد.

  

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

وهي مكية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾

قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وقد أسند الإخراج للرسول ﷺ لأنه هو المبلغ لهذا القرآن الذي هو نور أنزله الله تبارك وتعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: بلغتهم، ووحّد اللسان لأن المراد اللغة، فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير، ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، وفي الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي... وفيه: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً». وجاء عند البخاري من حديث عبد اله بن عمرو رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

قوله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ جاء عند مسلم من حديث أُبَيِّ بن كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بَيْنَمَا مُوسَى عليه السلام فِي قَوْمِهِ يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ، وَأَيَّامُ اللهِ نَعْمَاؤُهُ وَبَلاؤُهُ...». ومن النعم التي مرت ببني إسرائيل: إنجائه لهم من عدوهم، وإخراجهم من أسر فرعون، وإنزاله عليهم المن والسلوى، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، إلى غير ذلك من النعم، ومن النقم: أنه مسخ بعضهم قردة وخنازير، وكلها من أيام الله تبارك وتعالى.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ أي: من اجتمع له صفتان: كثير الصبر على البلاء، وكثير الشكر على نعم الله وعطاياه، وقد جاء عند مسلم من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،

وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». ولفظة (صَبَّار) صيغة مبالغة من الصبر، وتعني: كثير الصبر على طاعة الله وعن معاصيه. وقد توارى الحسن البصري عن الحجاج سبع سنين، فلما بلغه موته قال: اللهم قد أمَتَّه فأمت سنته، وسجد شكرًا لله تعالى، وقرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وخصّ الصبار الشكور لأنه يعتبر، ولا يغفل عنها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ وإن كان منذرًا للجميع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: وإذ أعلمكم الله تعالى وآذنكم بحقيقة الشكر، إعلامًا واضحًا لا شكَّ فيه، ومنه: الأذان؛ لأنه إعلام، وقد جاء عند أبي داود بسند صحيح عن معاذ ﵁: أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وعند أبي داود والترمذي بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ».

وروى عبد الله بن أحمد في زوائده بإسناد جيد عن النعمان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعَمِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ».

ويرى جمهور من المفسرين أن الشكر هو صرف ما أُنعم على العبد في مرضاة المنعم ﷻ بحسب الاستطاعة في كل حال، كأن يصرف نعمة العقل إلى التفكر وتصحيح الاعتقاد في الله سبحانه، وإذا عرفنا حقيقة أن الله هو المنعم، فإن ذلك يتطلب أن لا نخضع ولا نستكين لغيره سبحانه، فلا نقبل الذل والاستعباد لأحد، وهو ما دلَّت عليه النصوص الشرعية، ومنها، قوله تعالى: ﴿ٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾، قال ابن القيم: والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

وقال السعدي: والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بِها، وصرفها في مرضاة الله تعالى، وكفر النعمة ضد ذلك.

قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ جاء عند مسلم من حديث أَبِي ذَرٍّ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، وقيل: كذبوهم، وردُّوا على رسلهم بالقول والمجادلة، والسب والشتم، والاستهتار والتنقيص من شأنهم، وقيل: أشاروا إلى الرسل يأمرونهم بالسكوت، وقيل: ردُّوا أيديهم في أفواه الرسل كي لا يتكلموا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد رد يده في فيه. والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: يقلقنا ويريبنا ما تدعون إليه، ويخالجنا الشك وعدم الطمأنينة في دعوتكم، يقال: أراب الرجل إذا أتى بريبة يريب إرابةً.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

مِن رُّسُلِنَا﴾، وقال تعالى عن قوم لوط عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وقال تعالى عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾. ومعنى (أَو) في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: حتى، كما يقال في الكلام: لأضربنك أو تُقرَّ لي فمن العرب من يجعل ما بعد (أو) في مثل هذا الموضع عطفًا على ما قبله، وإن كان ما قبله جزمًا جزموه، وإن كان نصبًا نصبوه، وإن كان فيه لام جعلوا فيه لامًا، إذ كانت أو حرف تعدي.

قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: واستنصر الرسل والذين آمنوا بهم على أعدائهم الكفار المكذبين، وتوجهوا إليه بالدعاء واجتهدوا بالابتهال والتضرع له: أن ينصرهم على هؤلاء الكفرة المكذبين، وأن يحكم الله بينهم بحكمه العادل، وقد أُذن لهم في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم، وقيل: استفتحت الأمم الكافرة بالدعاء على المؤمنين، ظنًا منهم بأنهم على الحق وغيرهم على الباطل، كما قالت قريش: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، والمعنى يحتمل القولان، فقد يستنصر الجميع بالله العزيز المقتدر ويتوجهون إليه سبحانه بالدعاء والتضرع، ويستجيب الله لعباده الموحدين المتقين.

قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: فاستجاب الله تبارك وتعالى للمؤمنين، وخَسِرَ وهلك كل معاند للحق، قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، يقال: عاند فلان، أي: أخذ في ناحية مُعرضًا. قال الشاعر:

إِذَا نَزَلْتُ فَاجْعَلَانِي وَسَطًا ... إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنَّدَا

قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: ومن بعد هلاك هؤلاء الكفار المعاندين في الدنيا، فإن لهم في الآخرة عذابًا ينتظرهم في جهنم، بعد أن خيبه الله تعالى في الدنيا فأهلكه وأبعده، و (وراء) بمعنى بعد، قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

وقيل: (مِنْ وَرَائِهِ) أي: من أمامه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي: أمامهم، وقيل: وراء تكون بمعنى خلف وأمام، فهي من الأضداد. قال لبيد:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مُنِيَّتِي ... لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ

وقال آخر:

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بَالِغُهُ لَا حَاضِرٌ مُعْجِزٌ عَنْهُ وَلَا بَادِي

قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أي: من القيح والدم النتن، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ. إِنَّ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ. أَوْ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ».

قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يشرب الكافر هذا الصديد ونفسه تكرهه وتأباه، فيغص به، ولا يقدر أن يبتلعه لحرارته ومرارته ونتانته وقذارته، فيجبر أن يبتلعه، فيتناوله جرعة جرعة لا مرة واحدة، فيشربه بعد عناء وتعب، يقال: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا، إذا كان سلسًا سهلًا.

قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: أسبابه، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ فلا يبقى عضو إلا وكِّل به نوع من العذاب.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ قال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ كما قال الله تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾.

قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ أي: حال أعمال الكفار، كحال ذهاب الرماد، ووجه الشَّبه بينهما: الضياع والتفرق وعدم الانتفاع، فكما أن الريح القوية العاصف فرقت الرماد ومحقته، فكذلك أعمال الكفار لا يجدوا ثوابها يوم القيامة، ولا ينتفعوا منها؛ لأنها لم تكن خالصة لوجه الله تعالى، والرماد: ما بقي بعد احتراق الشيء، والعصف: شدة الريح، يقال: يوم عاصف، كما يقال: يوم حار، ويوم بارد، لأن البرد والحرارة يكونان فيه، وقد يجوز أن يكون أريد به في يوم عاصف الريح فحذفت الريح لأنها قد ذكرت قبل ذلك، وقيل: هو من نعت الريح خاصة غير أنه لما جاء بُعد اليوم أتبع إعرابه وذلك أن العرب تتبع الخفض الخفضَ في النعوت.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝٢٠ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ۝٢١ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم

بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يوم القيامة، والبروز: الظهور بعد الخفاء، والبَراز: المكان الواسع لظهوره، ومنه: امرأة بَرْزة، أي: تظهر للناس، وجاء بلفظ الماضي، ومعناه الاستقبال.

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ يعني الأتباع.

قوله: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا ملجأ ولا مهرب، يقال: حاص فلان عن كذا، أي: فرَّ وزاغ، ويحيص حَيْصًا وحُوُصًا وحَيَصَانًا.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يعني إبليس، يقوم يوم القيامة خطيبًا في أهل النار.

قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم، والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصر والمعونة، والمُصرخ هو المغيث.

قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، وعند الشيخين من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّه قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٍ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ، وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ. فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كلمة التوحيد، وهي العروة الوثقى: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، قولًا واعتقادًا وتطبيقًا، ويدخل في معنى الشجرة الطيبة كل ما يتبع كلمة التوحيد من عبارات حسنة وأقوال نافعة، وقد مثل رسول الله ﷺ بالشجرة الطيبة بالنخلة فقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ، أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، وَلَا وَلَا وَلَا، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ. -وَفِي رِوَايَةٍ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي- قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هِيَ النَّخْلَةُ» فالمؤمن لا يخلو من

الخير في كل وقت، ولا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار، كما أن النخلة لا تخلو من الخير في كل وقت، وثمرها يؤكل في كل وقت من ليل أو نهار من شتاء أو صيف، وعند أحمد من حديث أبي خالد قال: «دَخَلْتُ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يَتَمَجَّعُ لَبَنًا بِتَمْرٍ، فَقَالَ: ادْنُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَمَّاهُمَا الأَطْيَبَيْنِ». قوّاه ابن حجر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الشرك والكفر، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لا تخرج شيئًا، وإنما تؤذي بأشواكها، وإن أخرجت آذت بمرارة طعمها ونتن رائحتها.

قوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: اقتلعت من أصلها يقال: اجتثت الشيء أجتثُّه اجتثاثًا إذا استأصلته. قال الشاعر:

هــو الجَــلاءُ الــذي يَجْتَــثُّ أصــلَكُمُ ... فَمَــنْ رَأَى مثــلَ ذا يومــًا ومَــنْ سَــمِعا

قوله: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: من أصل في الأرض، وقيل: من ثبات، فكذلك الكافر، لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح.

قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جاء عند البخاري ومسلم من حديث البراء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ)، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»، ولفظ مسلم: «فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ»، وعند أبي داود بإسناد جيد من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ».

وعند أحمد بسند صحيح من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الإِنْسَانُ قَبْرَهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا أَحَفَّ بِهِ عَمَلُهُ: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ، فَيَأْتِيهِ المَلَكُ مِنْ نَحْوِ الصَّلَاةِ فَتَرُدُّهُ،

وَمِنْ نَحْوِ الصِّيَامِ فَيَرُدُّهُ، فَيُنَادِيهِ: اجْلِسْ. فَيَجْلِسُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ -يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ-. قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فيَقُولُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ أَدْرَكْتَهُ؟ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ. فَيَقُولُ: عَلَى ذَلِكَ عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ. قَالَ: وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا أَوْ كَافِرًا، جَاءَ المَلَكُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ يَرُدُّهُ ...، وَتُسَلَّطُ عَلَيْهِ دَابَّةٌ فِي قَبْرِهِ مَعَهَا سَوْطٌ ثَمَرَتُهُ جَمْرَةٌ مِثْلُ غَرْبِ البَعِيرِ، تَضْرِبُهُ مَا شَاءَ اللهُ، صَمَّاءُ لَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَتَرْحَمَهُ».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ جاء عند البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «هُمْ واللهِ كُفَّارُ قُرَيشٍ». والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والبوار: الهلاك، بار يبور بورًا. والمعنى أنهم جعلوا بدل نعمة الله عليهم ببعثته محمدًا الكفر به وتكذيبه ومحاربته.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: في السير والجريان لا يفتران امتثالًا لأمر الله، الدُّؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: لا تطيقوا عدّها ولا تقوموا بحصرها لثرتها.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقيل: ظلوم يشكو ويسخط إذا أصابته الشِّدة والفاقة، كفار في النعمة يجمع ويمنع، ولفظ (الإنسان) جنس عام، وأراد به الخصوص، وهم الكفار.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ قال إبراهيم التيمي: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ كما عبدها أبي وقومي.

وإنما خص إبراهيم لنفسه نصيبًا من دعائه مع عصمته وهو نبي كريم، لينبه إلى أن العصمة والثبات إنما هي بفضل الله وتوفيقه، يقال: جَنَبْتُ ذلك الأمر وأجنبته وجنّبته إياه فتجانبه واجتنبه، أي: تركه.

قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأن الناس ضلوا بسببهن، فكأنها أضلتهم.

قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جاء عند مسلم من حديث ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي! وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ».

وعند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ -وهوَ مَا يُشدُّ به الوسط- مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا، جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟! قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾».

وروى الفاكهي بسند لا بأس به عن أبي جهيم وعلي موقوفًا قالا: «كَانَ إِبْرَاهِيم يَزُور هَاجَرَ كُلَّ شَهْر عَلَى الْبُرَاق يَغْدُو غَدْوَة فَيَأْتِي مَكَّة؛ ثُمَّ يَرْجِع فَيُقِيل فِي مَنْزِله بِالشَّامِ». وفي قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ دلالة على أن البيت كان قديمًا.

قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خصَّ الصلاة لفضلها فيه ومكانِها منه، وقد تضمنت أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ

إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ». رواه البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وعند مسلم من حديث ميمونة رضي الله عنها: «إِلا مَسْجِدَ الْكَعْبَةِ»، وجاء بسند صحيح عند ابن حبان من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «وَصَلاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِن صَلاةٍ فِي مَسجِدِي هذَا بِمائَةِ صلاةٍ».

قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة: القلوب، شبهها بالطير لها أجنحة تطير شوقًا إلى البيت العتيق وتأتيه من كل حدب وصوب. قال الشاعر:

وَإِنَّ فُؤَادًا قَادَنِي بِصَبَابَةٍ ... إِلَيْكِ عَلَى طُولِ الْمَدَى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وفد، والأصل: أوفدة، فقدمت الفاء وقلبت الواو ياءً كما هي، فكأنه قال: واجعل وفودًا من الناس تَهوي إليهم، أي: تنْزع، يقال: هوى نحوه، إذا مال، وهوت الناقة تَهوي هاويًا، إذا عدت عدوًا شديدًا كأنّها في هواء بئر، والقول الأول أولى، وحقيقة الهُوي: النُّزول من علوٍ إلى انخفاض، كالهبوط لما فيه من إسراع.

قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ! قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ».

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ قيل: استغفر إبراهيم عليه السلام لوالديه قبل أن يثبت أنّهما عدوّان لله، وقيل: لا يبعد أن تكون أمه مسلمة؛ لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه، وقيل: أراد آدم وحواء، وكان إبراهيم النخعي، ويحيى بن يعمر يقرآن: (وَلِوَلَدَيَّ) يعني ابنيه، والله أعلم.

قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم، يقال: شخص الرجل ببصره، أي: سما وطمح. وقد جاء عند مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها: «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله: ﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: يخرجون من قبورهم مسرعين خائفين، رافعي رؤوسهم للأعلى لا يخفضونها، ولا يتلفتون حولهم من شدة ما يرون من أهوال يوم القيامة، ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أي: مسرعين، والمقنع: الرافع رأسه، المقبل ببصره على ما بين يديه، ومنه: الإقناع في الصلاة، وأقنع صوته، إذا رفعه. وقيل: ناكسي رؤوسهم، والآية محتملة الوجهين، والأول أقرب.

قوله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ أي: لا تتحرك أجفان عيونهم، ولا ترجع إليهم أبصارهم، فهي شاخصة النظر للأعلى لا تطرف لحظة، فتبقى مفتوحة من دون حراك في ذل وخشوع وخوف؛ لكثرة ما هم فيه من الهول والشدة، يقال: طَرَف الرجل يَطْرِف طرْفًا، إذا أطبق جفنه على الآخر، فسمي النظر طرفًا لأنه به يكون، والطرف: العين.

قوله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ أي: خالية خاوية من كل شيء، لا تستقر في مكانها، ولا تعي شيئًا، والهواء في اللغة: المجوف الخالي، شَبَّه قلوبهم بالهواء، لفراغها من جميع الأشياء.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ أي: يقال لهم توبيخًا: ألم تكونوا تحلفون أنكم باقون لا تنتقلون إلى الدَّار الآخرة، وأنكم لن تبعثوا، وأنه لن يكون جزاء ولا عقاب؟!

قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحِجْرِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ) قَالَ: لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ-؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ».

قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ قيل ﴿إِن﴾ بمعنى ما، أي: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه. وقرئت ﴿لَتزول﴾ بفتح اللام، أي: لقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه.

قوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ فالذين آمنوا مع الأنبياء والرسل، على التلال وفي الظلال، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما اليهود والنصارى، وسائر الظلمة فقد جاء عند مسلم من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ... فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ».

وعند مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾: فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: عَلَى الصِّرَاطِ».

وجاء عند الشيخين من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»، وهنا سؤال، هل التبديل والتغيير هو تغيير ذات أو تغيير أوصاف؟ في ذلك قولان: أحدهما: أنها تبقى نفس الأرض، وإنما تُبدَّل أوصافها، فيزاد فيها وينقص منها، ويذهب عنها جبالها، وأوديتها، وشجرها، وتفجر بحارها، وتمد مد الأديم، فتصبح مستوية لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتبدل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وتكون أبوابًا وطرقًا، والثاني: أن التبديل يكون في ذاتها، فتبدل بغيرها، كما تبدل الدراهم بالدنانير، فيخلق بدلها أرض وسماوات أخر؛ فتبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يعمل عليها خطيئة، وقيل: تبدل نارًا، وقيل: تبدل بخبزة بيضاء، فيأكل المؤمن من تحت قدميه، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن الأرض والسماوات تبدلان يوم القيامة بغيرهما.

قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لم يرد في القرآن القهّار إلا مسبوقًا بالواحد، حيث ورد ذلك في ستة مواضع، وذكر صفة الوحدانية بجانب صفة القهارية ليعلم أن الأمر يوم القيامة في غاية الهول والشدة.

قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: مشدودين في الأغلال والقيود بعضهم إلى بعض، قد جُمع بين النظراء والأشباه والأزواج، قال تعالى: ﴿أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، و (الأصفاد) واحدها: صَفْد وصَفَد، ويقال: صَفَدته صفدًا، أي: قيدته، فإذا أردت التكثير قلت: صفَّدته تصفيدًا، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾، وأصفَدته إصفادًا، أعطيته، وقيل: صفدته وأصفدته جاريان في القيد والإعطاء جميعًا. قال أبو الطيب:

وَقَيَّـــدْتُ نَفْسِـــي فِـــي ذَرَاكَ مَحَبَّـــةً وَمَـــنْ وجـــد الإحســـان قيـــدا تقيـــدا

قوله: ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمصهم، واحدها: سربال، والفعل: تسربلت، وسربلتُ غيري.

قوله: ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: من نحاس وصفر مذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ مشددًا على خطورة النياحة: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». وقيل: القطران الذي تطلى به الإبل وهو ألصق شيء بالنار، وأبلغ لاشتعال النار فيهم، ويقال: قِطران.

قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، وقيل: تضرب وجوههم فتغشيها، وخص الوجه بالذكر لأنه أعز موضع في البدن.

قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

انتهى تفسير سورة إبراهيم، ولله الحمد.

  

سُورَةُ الحِجْرِ

وهي مكية في مجملها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ
مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡمَا
تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا
ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا
عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾

قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ (رُبَّ) بالتشديد والتخفيف لا تدخل على الفعل، فإذا لحقتها (ما) هيأتْها للدخول على الفعل، تقول: ربما قام زيد، ولا تقل: رب قام زيد، أو رب يقوم زيد، ويجوز أن تكون (ما) نكرة بمعنى شيء، و (يَوَدُّ) صفة له، أي: رب شيء يود الكافر، وقرأها هكذا نافع، وعاصم، وهي لغة أهل الحجاز، وأما أهل تميم، وقيس، وربيعة يثقلونَها، وأصلها أن تستعمل في القليل، وقد تستعمل في الكثير، أي: يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين. ومنه قول الشاعر:

أَلَا رُبَّمَـا أَهْـدَتْ لَـكَ الْعَـيْنُ نَظْـرَةً ... قُصَـارَاكَ مِنْهَـا أَنَّهَـا عَنْـكَ لَا تُجْـدِي

ويقول الكافرون ذلك إذا رأوا كرامة المؤمنين في دار النعيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي: تهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ أي: يشغلهم الأمل بطول العمر عن الطاعة والتوبة والإنابة والتفكير فيما ينجيهم من عذاب الله تعالى، يقال: ألهاه عن كذا، أي: شغله، وقد جاء عند الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاحُ أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالزَّهَادَةِ وَالْيَقِينِ، وهَلَاكُهَا بِالْبُخْلِ وَالأَمَلِ». حديث حسن، وعند البخاري معلقًا قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلا عَمَلٌ». قال بعض السلف: من كان قبلنا جمعوا كثيرًا، وبنوا مشيدًا، وأمّلوا بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وبنيانُهم قبورًا، وأملهم غرورًا. قال الشاعر:

يَــا ذَا الْمُؤَمِّــلُ آمَــالًا وَإِنْ بَعُــدَتْ مِنْــهُ وَيَــزْعُمُ أَنْ يَحْظَــى بِأَقْصَــاهَا

أَنَّــى تَفُــوزُ بِمَــا تَرْجُــوهُ وَيْــكَ وَمَــا أَصْـبَحْتَ فِـي ثِقَـةٍ مِـنْ نَيْـلِ أَدْنَاهَـا

قال بعض السلف: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل.

قوله: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي: هلاّ جئتنا بالملائكة يشهدون بصحة ما جئت به وما تدعيه من أنك رسول الله الذي أرسلك لتبلغنا رسالته! وهذا تبجح منهم وإمعانًا في طلب المعجزات، ولو أنهم كانوا جادِّين صادقين في طلبهم المعجزات من أجل الإيمان لآمنوا بمجرد أن يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض؛ لأن كل شيء فيهما شاهد على وحدانية الخالق وقدرته وعظمته عز وجل، فالشواهد الكونية أظهر وأوضح من رؤيتهم الملائكة أو عروجهم إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، و (لو ما) تحضيض على الفعل، كـ (لولا وهلا)، فالميم بدل من اللام في (لولا)، ومثله: استولى على الشيء واستوفى عليه، ومثله: خالمته وخاللته، أي: صادقته. قال الكسائي: (لولا)، و (لوما) سواء في الخبر والاستفهام، أي: لولا. وحكى النحاس (لوما)، و (لولا)، و (هلا) واحد. أي: (هلا).

قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما تنْزل الملائكة إلا لأحد أمرين: إما بالوحي والقرآن لتبليغ رسالة الله تعالى، أو تنْزل بهلاك وعذاب القوم المكذبين بالوحي والرسالة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي: القرآن، ويدخل في ذلك السنة تبعًا له، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وقال ﷺ كما جاء عند أبي داود والترمذي بسند صحيح من حديث المقدام رضي الله عنه: «أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ». وقد حفظ الله ﷻ كتابه وسنة رسوله ﷺ من عبث العابثين، وحفظ رسوله ﷺ من كيد الكائدين، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

قوله: ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: طوائف وفرق الأمم السابقة، والشيع جمع شيعة، وهي الأمة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ والشيعة: الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة والمتفقة الكلمة، وقيل: الشِّيَع: القرى.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كذلك نسلك ونُدخل الباطل والكفر والشرك والضلال والاستهزاء بأنبياء الله وعباده المؤمنين في قلوب المجرمين، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين، يقال: سلكه يسلكُه سلْكًا وسلوكًا، وسلك الطريق سلوكًا، أي: دخله، والسَّلْك: إدخال الشيء

في الشيء، كإدخال الخيط في الخيط. وقيل: كذلك نسلك القرآن في قلوب المجرمين، فيكذبون به، إلزامًا للحجة، والأول هو الأولى.

قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنة الله بِهلاكهم، فما أقرب هؤلاء منهم، وقيل: كما فعل أولئك يفعل هؤلاء، والكل مكذبون.

قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: يصعدون، من عَرج يعرُج، فالمعارج: المصاعد.

قوله: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي: سُدَّت أو عميت أو خُدِّرت أبصارنا وخُدعت بهذا السحر الذي جاءنا به محمد، وقرئت: (سَكِرَت). قال أبو عمرو بن العلاء: هو السُّكر في الشراب، فغشيهم ما غطى أبصارهم، كما غشي السكران ما غطى قلبه، وسكور الريح: سكونُها وفتورها. والمعنى: لو أُجيبوا وشاهدوا الملائكة والملكوت لأصروا على الكفر ولقالوا ما يبرر صنيعهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: منازل ومسالك تسير فيها الأفلاك والكواكب والمجرات الضخمة، وتنتقل فيها وفق نظام محكم دقيق لا يتبدل ولا يتغير، من لدن خبير، فالبروج: القصور والمنازل، وقيل: النجوم والكواكب الثابتة والسيارة، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾.

قوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: زيَّنَّا السماء بالنجوم والكواكب ليرتاح الناظر إليها ويُسرُّ بجمالها وتناسقها وروعتها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾.

قوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، فإذا استرق الشيطان السمع ينفصل شهاب

عن الكوكب فيقتل الجني أو يخبله، كالقبس يؤخذ من النار وتبقى النار على حالها، قال تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، فالكواكب لا تزول ولا يرجم بِها كلها، وإنما ينفصل منها شيء يرجم به، من غير أن تتأثر أو ينقص ضوؤها أو صورتُها، ولم يعد للدجالين الكذابين طريق للكذب على الناس، قال محمد بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلًا، ويتخذون النجوم علة.

وجاء عند البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ يبلغ به النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ، فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ، فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وعند مسلم من حديث ابن عباس ﵄: «أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ- إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا...».

والمقصود أن من تمرد وتقدم من الشياطين لاستراق السمع جاءه شهاب، فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها، وهي كلمة لا يتعلق بِها وحي، ولا يرتبط بِها حكم، إنما هي كلمة أذن الله أن تصل إلى الكاهن أو الساحر، لتحصل حقيقة الابتلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ووسعناها وجعلنا فيها جبالًا ثوابت، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بسطها.

قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: بميزان الحكمة، فهو مُقدر معلوم، فالوزن يعرف به مقدار الشيء، ويقال: هذا كلام موزون، أي: منظوم غير منثور.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ مفردها (معيشة)، وجاءت بصيغة الجمع والتنكير لتناسب الأرزاق الكثيرة التي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

قوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، وقال عن الأولاد: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾، ولفظة (مَنْ) يشمل الجميع؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل غلب من يعقل.

قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ جمع خزانة، وهي الموضع الذي يستر فيه الإنسان ماله.

قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي: على حسب حاجة الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ﴾، والإنزال يأتي بمعنى الإنشاء والإيجاد، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾، ويأتي بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالًا لأنه أحكام إنما تنزل من السماء.

قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير النافع، يقال: ناقة لاقح، ونوق لواقح، إذا حملت الأجنة في بطونها، وقيل: ذوات لواقح، أي: منها ما يلقح الشجر، ومنها ما تأتي بالسحاب، فالرياح كالفحل للسحاب؛ لأنّها تلقح السحاب فتدِرُّ ماءً، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها وثمارها، وقيل: لواقح بمعنى ملاقح.

قوله: ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: ليست خزائنه عندكم، ولا أنتم مانعون له، فنحن الخازنون، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ جاء عند الترمذي، وأحمد بسند لا بأس به من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَتْ امْرَأَةٌ تُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَسْنَاءَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَكَانَ بَعْضُ القَوْمِ يَتَقَدَّمُ حَتَّى يَكُونَ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ لِئَلَّا يَرَاهَا، وَيَسْتَأْخِرُ بَعْضُهُمْ حَتَّى يَكُونَ فِي الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ، فَإِذَا رَكَعَ نَظَرَ مِنْ تَحْتِ إِبْطَيْهِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾». حديث حسن. وقال الترمذي روي مرسلًا وهذا أشبه أن يكون أصح.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ أي: طين حر رطب مخلوط بالرمل إذا جف صار يتصلصل ويُسمع له صوت عند نقره، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار. قال الشاعر:

عَنْـــتريسٌ تَعــــدُو إذا حـــرك السَّـــوْ ... طُ كَعَـــدْوِ المُصلصِـــلِ الجَـــوَّالِ

وقيل: الطين المنتن، يقال: صل اللحم وأصل، إذا أنتن، مطبوخًا كان أو نيئًا. قال الحطيئة:

ذَاكَ فَتًـــــى يَبْـــــذُلُ ذَا قِـــــدْرِهِ   لَا يُفْسِـــدُ اللَّحْـــمَ لَدَيْـــهِ الصُّـــلُولُ

وفي الآية إشارة إلى أن أصل خلق الإنسان هو الطين الممزوج بالماء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾.

فكان أول تراب متفرق الأجزاء، ثم بُلّ فصار طينًا، ثم تُرك حتى أنتن، فصار حمًا مسنونًا، أي: متغيرًا، ثم يبس فصار صلصالًا، والحمأ: الطين الأسود، والمسنون: المتغير، يقال: أسن الماء، إذا تغير، ومنه قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾. قال الشاعر:

سَـقَتْ صَـدَايَ رُضَـابًا غَيْـرَ ذِي أَسَـنٍ   كَالْمِسْـكِ فُـتَّ عَلَـى مَـاءِ الْعَنَاقِيـدِ

وقيل: المسنون: المملس. قال الشاعر:

ثُـــمَّ خَاصَـــرْتُهَا إِلَـــى الْقُبَّـــةِ الحمـــ   راء تمشــــي في مرمــــر مســــنون

أي: مملوك مملس.

وقيل: المسنون: المصبوب الرطب، يقال: سننت الماء على الوجه، إذا صببته.

قوله: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: خلقنا الشيطان قبل خلق آدم عليه السلام، فهو سابق لخلق الإنسان، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ». والسموم: الريح الحارة القاتلة، تؤنث، يقال منه: سم يومنا، فهو يوم سموم، والجمع: سمائم، وسميت بالسموم لدخولها بلطفها في مسام البدن.

قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ أي: الاستثناء منقطع لأن إبليس خلقٌ آخر غير الملائكة قطعًا ويقينًا، فهو من نار وهم من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى، فليس هو من الملائكة، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب لاجتماعه معهم، وقد يكون قد صدر إليه الأمر بالسجود منفردًا، ولم يذكر تهوينًا لشأنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

قوله: ﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: إليّ، فأجازي كلًّا بعمله، وقرئت: (عليٌّ) أي: رفيع في الدين والحق فلا ينال، وقيل: وعيد وتهديد، كقولك لمن تهدده: طريقك عليَّ، ومصيرك إليَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: الضالين المشركين، وهو استثناء منقطع؛ لأن الغاوين ليسوا جزءًا من عباد الله المخلصين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: من أتباع إبليس، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في جهنم بقدر عمله.

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حقد وعداوة وبغضاء وشحناء، يقال منه: غل يغِل، ويقال: من الغلول، وهو السرقة من المغنم: غل يغُل، ويقال: من الخيانة، أغل يُغِل. كما قال الشاعر:

جَـزَى اللهُ عَنَّـا حَمْـزَةَ ابْنَـةَ نَوْفَـلٍ   جَـزَاءَ مُغِـلٍّ بِالْأَمَانَـةِ كَـاذِبِ

قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: حال كونهم إخوةً متحابين لا يكدّر صفوهم شيء، على سررٍ متقابلين وجهًا لوجه، وفي الآية إشارة إلى استمرار فائدة المحبة في الله للمتحابين يوم القيامة، و (سرر) جمع سرير، وقيل: من السرور، فكأنه مكان رفيع ممهد للسرور، والأول هو الصحيح.

قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: إعياء وتعب، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن خديجة رضي الله عنها: بُشِّرَت «بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فَزِعون خائفون.

قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب، وقيل: حقيقي.

قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ أي: الآيسين من الولد، وكان قد أيس من الولد لفرط الكبر.

قوله: ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: من الباقين في العذاب.

قوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا أعرفكم، وقيل: كانوا شبابًا ورأى جمالًا، فخاف عليهم من فتنة قومه، فهذا هو الإنكار، والأول أصح.

قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أي: في طائفةٍ من الليل، وكُنْ من ورائهم وسرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم.

قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أي: أوحينا.

قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أَيْ تُخْجِلُونِ.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: أن تضيف أحدًا؛ لأنا نريد منهم الفاحشة، وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء، أوْ: أوَلم ننهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ اللام لام القسم، فقد أقسم الله ﷻ بحياة محمد ﷺ تشريفًا له، وأصله ضمُّ العين من العُمر؛ ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقاؤك أو وحياتك، وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف، والله ﷻ يقسم كيف شاء بما شاء من مخلوقاته، كالشمس، والقمر، والتين، والزيتون، والليل، والنهار، والقيامة. أما الخلق فلا يقسمون إلا بالله ﷻ فقط، ومن حلف بغير الله فقد أشرك، فلا يحلف لا بحياة الرسول ﷺ، ولا بحياة أحد، ولا بالكعبة، ولا بالأمانة، وعلى هذا فكل ما جاء في أشعار العرب فيه القسم بالعمر فهو باطل في دين الإسلام، وقد تحمل في كلام العرب للتأكيد، لا لقصد الحلف، وعلى هذا

يحمل قول عائشة رضي الله عنها: «فَلَعَمْرِي مَا أَتَمَّ اللهُ حَجَّ امْرِئٍ وَلَا عُمْرَتَهُ لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: للمُتَفرِّسين، أو المعتبرين. قال الشاعر:

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ

والتوسم تفعل من الوسم، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب، يقال: توسمت فيه الخير، إذا رأيت مِيسم ذلك فيه. وقال ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ». رواه البزار من حديث أنس رضي الله عنه وحسنه الهيثمي. قال ابن رواحة رضي الله عنه للنبي ﷺ:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ والله يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ

واتسم الرجل، إذا جعل لنفسه علامة يعرف بِها، وأصل التوسم: التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم، وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره، ويكون التوسم بجودة القريحة، وحِدّة الخاطر، وصفاء الفكر، وتفريغ القلب من حشو الدنيا، وتطهيره من أدناس المعاصي، وكدورة الأخلاق.

قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ يعني قرى قوم لوط على طريق قومك يا محمد إلى الشام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أي: قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: غَيضة فيها مجموعة من الشجر الناعم، وهي قرية أو بلدة كانت بالقرب من مدين، في باديتها، وفي قول آخر: هي مدينة تبوك، بين جبلي حِسمَى وشَرَوْرَى، والجمع: أيك.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريق واضح في نفسه، يعني مدينة قوم لوط، وأصحاب الأيكة، يعتبر بِهما من يمر عليهما.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ أي: ديار ثمود قوم صالح عليه السلام، أي: المدينة، وهي بين مكة وتبوك، والحجر يطلق على حجر الكعبة وعلى الحرام، كقوله تعالى: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حرامًا محرمًا، وعلى العقل، كما قال تعالى: ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾، وعلى الفرس الأنثى.

قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: نبي الله صالح ومن تبعه ومن تقدمه من النبيين.

قوله: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ﴾ أي: ينجرون ويصنعون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ والنحت في كلام العرب: البري والنجر، والمِنحت: ما ينحَت به.

قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أن تسقط عليهم أو تخرب، كما أنهم آمنون من الموت والعذاب.

قوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي: تجاوز عنهم واعف

عفوًا حسنًا، ثم نسخ بآية السيف.

قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار، فإن الذي أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة؛ لأنه قد أغناك الله تعالى بالقرآن عما في أيدي الناس، وقد أُوِّل حديث «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» على هذا المعنى وقد رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﵁، كما أنه أُوِّل على معنى آخر، وهو مشروعية التغني بالقرآن وتحسين الصوت به، وهذا هو الراجح، وذلك لدلالة أصل الحديث وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ». وفي رواية: «يَتَغَنَّى». وفي هذه الآية زجر عن التشوف إلى متاع الدنيا والتهالك عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾، ولا يدخل في ذلك التشاغل بالنساء -الزوجات وما في ملك اليمين- لأنه جِبلة آدمية، كما أنه لا يدخل التوسط في طلبها، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، فدين الإسلام ليس فيه رهبانية كما كان في دين عيسى ﵇.

قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ألن جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم، وأصله أن الطائر إذا فرخ بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفًا لتقريب الإنسان أتباعه، يقال: فلان خافض الجناح، أي: وقور ساكن، والجناحان من ابن آدم: جانباه، قال تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وجناح الطائر: يده.

قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ أي: اليهود والنصارى، وسموا بذلك لأنهم انقسموا إلى قسمين، وتحالفوا وأقسموا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وإيذائهم، كما قال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾، وقال تعالى عن قوم صالح: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾، وقيل: هم أهل الكتاب قسموا كتبهم، ففرقوها وبددوها وحرفوها فأمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقيل: هم المشركون جعلوا كتاب الله قسمًا منه شعر، وبعضه سحرًا، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، والمعنى: كما أنزلنا على المقتسمين من العذاب، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨

وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ (عِضِينَ) صفة للمقتسمين، وقد روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ جَزَّءُوهُ أَجْزَاءً، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ». وواحِدُه: عِضة، من عضيت الشيء تعضية، أي: فرقته، وكل فرقة عِضة، والمعنى أنّهم كفروا ببعضه، وآمنوا ببعض، أو فرقوه فجعلوه كذبًا وسحرًا وكهانة وشعرًا. قال الشاعر:

وَلَيْسَ دِينُ اللهِ بِالْمُعَضَّى

أي: بالمفرق.

وقيل: السحر؛ لأن العِضَه والعِضِين في لغة قريش: السحر، وهم يقولون للساحر: عاضِه، وللساحرة: عاضهة.

وقيل: هو من العَضه، وهي النميمة، والعضيهة: البهتان، جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ».

قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: فاجهر بتبليغ رسالة ربك جهارًا ومواجهة، وأظهر دينك؛ لتقوم الحجة عليهم، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون، والصدع: الشق، وتصدع القوم، أي: تفرقوا، ومنه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، وقيل: فرِّقْ جمعهم وكلمتهم بالتوحيد، فإنّهم يتفرقون فيجيب البعض ويكفر البعض.

قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: أَيْ فَافْزَعْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَهِيَ غَايَةُ التسبيح ونهاية التقديس. وقد ذهب بعض الأحناف إلى سجود التلاوة هنا، وهو مخالف لجماهير الأمة وهدي السلف، ولم يرد في ذلك حديث، لا صحيح ولا ضعيف.

قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أي: لا تفارق ما أنت عليه حتى تموت، واليقين أبلغ من قوله: أبدًا، كما قال العبد الصالح: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، فاليقين: الموت، قال رسول الله ﷺ لعثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي». رواه البخاري من حديث أم العلاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾.

انتهى تفسير سورة الحجر، ولله الحمد.

  

سُورَةُ النَّحْلِ

وهي مكية، ماعدا آيات منها مدنية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾

قوله: ﴿أَتَىٰٓ﴾ إخبار بصيغة الماضي، الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾. وقيل: ﴿أَتَىٰٓ﴾ بمعنى يأتي، كقولك: إن أكرمتني أكرمتك، أي: إن تكرمني، وخبر الله ﷻ في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

قوله: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: عقابه، قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. وقيل: استعجلوا قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب أو الساعة، وكلاهما متلازم. وقال ﷺ في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه: «تطْلُعُ عَلَيْكُمْ قَبْلَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ قِبلِ الْمَغْرِبِ، مِثْلُ التُّرْسِ، فَمَا تَزَالُ تَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ وَتَنْتَشِرُ حَتَّى تَمْلَأَ السَّمَاءَ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيُقْبِلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: نَعَمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشُكُّ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّانِيَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقُولُ النَّاسُ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، ثُمَّ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَوْ يَتَبَايَعَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمْدُرُ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلِبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرَبُهُ أَبَدًا، وَيَشْتَغِلُ النَّاسُ». صححه الحاكم، وجوده المنذري.

قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي والنبوة والهداية، كقوله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾. وقيل: الروح هنا: جبريل عليه السلام، والباء في قوله: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بمعنى مع، كقولك: خرج بثيابه، أي: مع ثيابه، والقول الأول هو

الصواب.

قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: بأمره.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهذه الآيات رد على قول المشركين: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾.

قوله: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ في موضع نصب بنزع الخافض، أي: بأن أنذروا أهل الكفر ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: مَنِيّ، وهو الماء المهين الذي يخرج من بين الصلب والترائب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾، وعند أحمد، وابن ماجه بسند حسن من حديث بشر الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَزَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ وَضَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ وَقَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَّى تُعْجِزُنِي ابْنَ آدَمَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟ فَإِذَا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هَذِهِ -وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ- قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ! وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟».

قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ تذكَّر وتؤنَّث، قال تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، وفي موضع آخر: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، ونصبت عطفًا على الإنسان، أو بفعل مقدر، وهو أولى، وأكثر ما يقال: نَعم، وأنعام للإبل.

قوله: ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ أي: ما استدفئ به وسُخِّن به الأبدان من الأصواف، والأوبار، والأشعار. يقال: رجل دفِئ، إذا لبس ما يدفئه، وكذلك: رجل دفآن، وامرأة دفأى، ودَفُؤت ليلتنا، ويقال للإبل الكثيرة: المدفئة؛ لأن بعضها يدفئ بعضًا بأنفاسها.

قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: ما تتجملون وتتزينون به، والجمال: الْحُسْن، يقال: جُمل الرجل جمالًا، فهو جميل، والمرأة جميلة وجملاء. قال الشاعر:

جَمَالَكَ أَيُّها القلبُ القَرِيحُ ... سَتَلْقَى مَنْ تُحِبُّ فتَسْتَرِيحُ

أي: الزم تجملك وحياءك، ولا تجزع جزعًا قبيحًا.

قوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: وقت رجوعها عشيًا من المرعى.

قوله: ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ أي: وقت بعثها غدوة إلى المرعى، وقد قيل: قدم الرواح على السراح، لتكامل درها، وسرور النفس بها، وتعلق القلوب بها حين تقبل وقد امتدت خواصرها، وعظمت ضروعها،

وعلت أسنمتها، ويقال: سرحت الإبل سرحًا وسروحًا، إذا غدوت بها إلى المرعى، فخليتها وسرحت هي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾

قوله: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أي: ما يثقل الإنسان حمله من متاع وبدن وغير ذلك، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ من أبدان وذهب وفضة ونحو ذلك، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم: «تَقِيءُ الأَرْضُ أَفْلاذَ كَبِدِهَا، أَمْثَالَ الأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ».

قوله: ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ﴾ مثل مكة في حج أو عمرة، أو المدينة، والمسجد الأقصى في زيارة، أو أي بلد لكم فيه مصلحة من تجارة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ أي: بجهد جهيد، وتعب شديد، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾، ويقال: شِق وشَق، بالفتح والكسر لغتان، ويقال للناحية من الجبل وغيره: الشق بالكسر، وفي حديث أم زرع في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيمَةٍ بِشِقّ». قيل: هو اسم موضع.

قوله: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ بالنصب معطوف على ما قبله، أي: وخلق، وقُرئت بالرفع، وسميت الخيل خيلًا: لاختيالها في المشية، وواحد الخيل: خائل، كضأن، واحدها: ضائن، وقيل: لا واحد له، وقد تقدم ذكر الخيل في سورة آل عمران.

قوله: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ استدل بذلك على أنّها للركوب والزينة لا للأكل، وهو استدلال صحيح، فيما عدا الخيل؛ لورود الدليل الصحيح الصريح، كما جاء عند مسلم من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَسًا، فَأَكَلْنَاهُ»، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسند جيد عن سهل بن الْحَنْظَلِيَّةِ قال: «مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ: اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً». والبغال: هو نتاج الفرس عندما يلقحها الحمار، وقد جاء

بسند صحيح عند أبي داود من حديث علي رضي الله عنه قال: «أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بَغْلَةٌ، فَرَكِبَهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَوْ حَمَلْنَا الْحَمِيرَ عَلَى الْخَيْلِ فَكَانَتْ لَنَا مِثْلُ هَذِهِ! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ». وقد أُهديت لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء، كما جاء عند مسلم، فكان يركبها، مع أنه نَهى عن إنزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل.

قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: في بطن الأرض وظهرها في الدنيا، وفي الجنة مما لم يره البشر ولم يسمعوا به، وفيه إشارة إلى أن الكون يتجدد بصورة مستمرة، مما عرفه الناس واخترعوه ومما لم يخترعوه، وقد رأينا في عالمنا الحاضر أنواع المخترعات كالمراكب، والتي صارت بدلًا من هذه الدواب المذكورة، كالسيارات، والطائرات، والقطارات، والسفن البحرية والفضائية، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وصَنْعَتِهِ». حديث حسن ورواه البزار من حديث حذيفة رضي الله عنهما.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ واحدة بمعنى الجمع، وهي مؤنثة في لغة أهل الحجاز، أي: بيان استقامة الطريق، يقال: طريق قاصد، أي: يؤدي إلى المطلوب، و ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

قوله: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ أي: عادل وخائر وزائغ عن الحق، فلا يهتدي به. قال الشاعر:

وَمِــنَ الطَّرِيقَــةِ جَــائِرٌ وَهُــدًى ... قَصْــدُ السَّــبِيلِ وَمِنْــهُ ذُو دَخَــلِ

وقيل: المعنى: وعنها جائر، فـ(مِن) بمعنى: (عن).

قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون إبلكم، يقال: سامت السائمة تسوم سومًا، أي: رعت، فهي سائمة، والسوام والسائم بمعنى، وجمع السائم والسائمة: سوائم، وهي مأخوذة من السومة، وهي العلامة، أي: أنّها تؤثر في الأرض بعلامات رعيها، أو لأنّها تعلَّم للإرسال في المرعى.

قوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ﴾ قُرِئت: (ننبت)، يقال: نبتت الأرض وأنبتت بمعنى. أي: نبت، وأنبته الله، فهو منبوت على غير قياس، وأنبت الغلام: نبتت عانته.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: مذللات لمعرفة الأوقات وغير ذلك، وقرئت بالرفع كلها: (والشمسُ والقمرُ والنجومُ) على الابتداء والخبر، وقرئت بالنصب كلها عطفًا على ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وقراءة الجمهور: نصب ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، ورفع ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ على الابتداء، و ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي مسخرات.

قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وسخر لكم ما ذرأ في الأرض، وذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا: خلقهم، فهو ذارئ، ومنه الذرية، وهي نسل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع: الذراري، يقال:

أنمى الله ذرْأك وذروك، أي: ذريتك، وأصل الذرو والذرء: التفريق عن جمع، وقد جاء في الحديث الحسن، قال رسول ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ، الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ... الحديث». رواه أحمد من حديث عبد الرحمن بن خنبش رضي الله عنه.

قوله: ﴿مُخۡتَلِفًا﴾ منصوب على الحال.

قوله: ﴿أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ هيئاته ومناظره، سواء كان من الحيوانات أو المعادن أو النباتات أو الجمادات أو غير ذلك.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أي: مكّن البشر من التصرف فيه، وذلّله للركوب والإرفاء وغيره، ولو شاء لسلطه على الخلق فأغرقهم.

قوله: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان، قال تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، وإخراج الحلية إنما هي فيما عرف من الملح فقط، ويقال: إن في الزمرد بحريًا.

قوله: ﴿تَلۡبَسُونَهَا﴾ امتنان عام بما يخرج من البحر، فلا يحرم على الرجال والنساء شيء منه، وإنما حرّم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير، وقد جاء عند الشيخين عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اصْطَنَعَ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، وَكَانَ يَلْبَسُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي يَدِهِ الْيُمْنَى- فَيَجْعَلُ فَصَّهُ فِي بَاطِنِ كَفِّهِ، فَصَنَعَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ، ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ أَلْبَسُ هَذَا الْخَاتَمَ، وَأَجْعَلُ فَصَّهُ مِنْ دَاخِلٍ. فَرَمَى بِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا. فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ. فِي رِوَايَةٍ: (وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)، فَاتَّخَذَ النَّاسُ مِثْلَهُ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَدِ اتَّخَذُوهَا رَمَى بِهِ، وَقَالَ: لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا. ثُمَّ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: نَقْشُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ-؛ فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ الْفِضَّةِ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَلَبِسَ الْخَاتَمَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ رضي الله عنهم، حَتَّى وَقَعَ مِنْ عُثْمَانَ فِي بِئْرِ أَرِيسَ». قال أبو داود: لم يختلف الناس على عثمان رضي الله عنه حتى سقط الخاتم من يده. قال القرطبي: وقد أجمع العلماء على جواز التختم بالورق على الجملة للرجال.

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: جَوَارٍ، وقيل: مواقر، أي: تذهب وتجيء مقبلة ومدبرة بريح واحدة، وأصل المخر: شق الماء عن يمين وشمال، يقال: مخرت السفينة تَمْخَر وتَمخُر مَخْرًا ومُخُورًا، إذا جرت تشق الماء مع صوت، ومخر السابح، إذا شق الماء بصدره، ومخر الأرض: شقها للزراعة، ومَخرها بالماء، إذا حبس الماء فيها حتى تصير أَرِيضَة، أي: خليقة بجودة نبات الزرع. قال الطبري: المخر في اللغة: صوت هبوب الريح، ولم يقيد كونه في ماء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ

وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾

قوله: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثابتة، رسا يرسو، إذا ثبت وأقام.

قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي: لئلا تميد عند الكوفيين، وكراهية أن تميد عند البصريين، والميد: الاضطراب يمينًا وشمالًا، ماد الشيء يَميد مَيْدًا، إذا تحرك. ومادت الأغصان: تمايلت. وماد الرجل: تبختر.

قوله: ﴿وَسُبُلٗا﴾ أي: طرقًا ومسالك، حتى إنه سبحانه ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرًا ومسلكًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾.

قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى حيث تقصدون من البلاد فلا تضلون ولا تتحيرون.

قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖ﴾ أي: دلائل، من جبال كبار، وآكام صغار، وقيل: معالم الطرق بالنهار يقع الاهتداء بِها.

قوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ معالم الطرق بالليل، وقرئت: (بالنُّجُم)، والمراد به: النجوم. واختلف في النجوم، فقيل: الجدْي، والفرقدان، وقيل: الثريا.

قوله: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: في الأسفار، وفي القبلة، ولا يهتدي بالنجوم إلا من عرف مطالعها ومغاربَها وجنوبها وشمالها، وقليل ما هم، وأما الجدي والفرقدان فهي معروفة لأغلب الناس؛ لأنّها منحصرة المطلع ثابتة المكان؛ لأنّها تدور على القطب الثابت دورانًا محصلًا، فهي دائمًا هدى الخلق في البر والبحر إذا عميت الطرق، وفي القبلة إذا جهلت، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر، فما استقبلت فهو سمت الجهة.

قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ جاء عند أبي داود من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ غَنَّامٍ الْبَيَاضِيِّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ، وَلَكَ الشُّكْرُ؛ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ». حديث حسن. قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمه أو لي فيه عبرة. وقال بعض السلف: من لا يرى لله عليه فيه نعمة إلا في مطعمه ومشربه فقد حضر عذابه وطال همه. وقال آخر: نعم الله تعالى على عباده مجهولة فإذا فُقدت عُرفت. وقال ثالث: إذا أردت أن تعرف نعمة الله تعالى عليك فأغمض عينيك.

قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ قرئت: (إِيّان) وهما لغتان، وهي في معنى الاستفهام، والمعنى: لا يدرون متى يبعثون، قيل: إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة وتطرح مع عبدتِها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنّهم أموات، وهذا الموت موت كفر، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يدري الكفار متى يبعثون، أي: وقت البعث؛ لأنّهم لا يؤمنون به حتى يستعدوا للقاء الله، أَوْ وما يدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريبًا، والقول الأول هو الأَوْلَى بسياق الآية.

قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: لا تقبل الوعظ والإرشاد، ولا ينفع فيها الترغيب ولا الترهيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، وفي الحديث الذي رواه مسلم من طريق جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ». وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس الوزر الذي يحملونه.

قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، إما زلزلة أو بريح، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، والقواعد: أصول البناء، وإذا اختلت القواعد سقط البناء، والعرب تقول: خر علينا سقف، ووقع علينا حائط، وقيل: تمثيل، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنْزلة من سقط عليه بنيانه، وقد قال تعالى ليهود هذه الأمة: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ

بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله: ﴿تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون أوليائي، وتعادونني في سبيلهم، أين هم عن نصرتكم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ فيه منقبة عظيمة لأهل العلم، وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام، وأظهروا السمع والطاعة والانقياد، وهذا عند الاحتضار ومجيء الملائكة لقبض أرواحهم الخبيثة، كما يقولون يوم القيامة: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكذيبًا من الله لهم في قيلهم، وقيل: إن الملائكة تكذبُهم، أي: بلى قد كنتم تعملون السوء.

قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ قيل: كان الرجل يرد مكة في أيام الموسم، فيسأل المشركين عن محمد ﷺ، فيقولون: ساحر، أو شاعر، أو كاهن، أو مجنون، ويسأل المؤمنين فيقولون: جاء بالهدى والخير والنور. وقيل: إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي: طاهرين من الشرك، قد زكت أفعالهم وأقوالهم،

وطابت أنفسهم ثقة بما يلقونه من ثواب الله، وفرحًا برجوعهم إلى ربّهم، ولذا كانت وفاتُهم طيبة سهلة، لا صعوبة فيها ولا ألم.

قوله: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: إنذارًا لهم وإعلامًا لهم بالوفاة، وتبشيرًا لهم بدخول دار السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾.

قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٧ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ۝٣٩ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من أمر البعث، وقيل: المعنى: ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا ليبين لهم الذي يختلفون فيه، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور، منها: البعث، ومنها عبادة الأصنام، ومنها محمد ﷺ هل هو نبي وحق أو لا؟ والقول الأول هو الصحيح.

وكذا قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: في إيمانهم، وإقسام ألا يبعث الله من يموت، ولهذا يُدَعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دَعًا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ وقد حصل لصحابة رسول الله ﷺ حين تركوا مساكنهم وأموالهم أن عوّضهم الله خيرًا، منها في الدنيا؛ فإنه من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فقد مكّن لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكامًا، وكانوا للمتقين إمامًا، مع ما بقي لهم في الدنيا من الثناء الحسن، وما صار لأولادهم من الشرف.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال بعض السلف: خيار الخلق من إذا نابه أمرٌ صبر، وإذا

عجز عن أمرٍ توكل.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أهل العلم من الأمم الماضية، وقيل: أهل القرآن من هذه الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، والقول الأول أولى، وهو الظاهر من السياق؛ لأن العرب أنكروا أن يكون الرسول بشرًا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾.

قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما خسف بقارون، يقال: خسف المكان خسوفًا: ذهب في الأرض، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ أي: غاب فيها هو وداره، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾.

قوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: في أسفارهم في الليل أو النهار، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

قوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ أي: على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى يهلكهم جميعًا؛ لأن التخوف: التنقص، يقال: تخوفه: تنقصه، وتخونني فلان حقي، إذا تنقصك. وقيل: أي: في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع من الخوف شديد، وقيل: على عجل، والقول الأول أقرب، والثاني أظهر.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي: الذين يمكرون السيئات، وقرئت: (أولم تروا) أي: جميع الناس.

قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾ قرئت: (تتفيَّؤا) بالتاء لتأنيث الظلال، والمعنى: يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى، فدورانُها وميلانُها من موضع إلى موضع هو سجود ظلالها، ومنه قيل للظل بالعشي: فيء؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أي: رجع، والفيء: الرجوع، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ موحد؛ لأن معنى اليمين وإن كان موحدًا الجمع.

قوله: ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ جمع للكثرة، وشأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن تجمع إحداهما، وتُفرد الأخرى، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ويجوز قول: عن الأيمان والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال، أو على قلوبِهم وأسماعهم، أو من الظلمات إلى الأنوار.

قوله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: خاضعون وصاغرون، والدخور: الصغار والذل، يقال: دخر فلان فهو داخر، وأدخره الله.

قوله: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ مُيِّزوا؛ لمالهم من صفات خاصة، وقوة خارقة، وهو من باب ذكر الخصوص بعد العموم، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة والإخلاص.

قوله: ﴿وَاصِبًا﴾ أي: دائمًا، يقال: وصب الشيء يصِب وصُوبًا، أي: دام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، ووصب الرجل على الأمر، إذا واظب عليه. والمقصود: أن طاعة الله واجبة أبدًا، فيكون من باب الخبر، وقيل: الوصب: التعب والإعياء، أي: تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها. وقال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلا وَصَبٍ، وَلا هَمٍّ، وَلا حُزْنٍ، وَلا أَذًى، وَلا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». وقيل: الواصب: الواجب، وقيل: الخالص، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ فيكون من باب الطلب، والقول الأول هو المختار.

قوله: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي: تضجون بالدعاء والاستغاثة، يقال: جأر يجأر جؤارًا، والجؤار مثل الخوار، يقال: جأر الثور، أي: صاح، وجأر الرجل إلى الله، أي: تضرع بالدعاء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ

يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ
ٱلْحُسْنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام لام العاقبة، وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيضنا ذلك لهم ليكفروا ويستروا نعم الله، وقيل: ليجعلوا نعمة الله سببًا للكفر، وكل هذا فعل خبيث.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: الذكور، ويأنفون من البنات.

قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: اسود وجهه غمًا وحزنًا، وسكت من شدة ما هو فيه من الكآبة والحسرة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ أي: يختفي، ويتغيب كراهية أن يراه الآخرون.

قوله: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوان ومهانة، أو بلاء ومشقة. قال الخنساء:

نُهِـــينُ النُّفُـــوسَ وَهَـــوْنُ النُّفُـــو سِ عِنْـــدَ الْكَرِيهَـــةِ أَعْلَـــى لَهَـــا

قوله: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ وهو ما كانوا يفعلون من دفن البنت حية، زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن، وقيل: دسها: إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف، والقول الأول هو الصحيح، والآخر محتمل.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: صفة السوء من الجهل والكفر، فهم الناقصون القاصرون المحتاجون إلى البنين والبنات والصاحبات.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

كُفُوًا أَحَدُۢ﴾. فلا يضرب له الأمثال، ولا يعلم له سمي، فلا شبيه له ولا نظير، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ﴾ أي: البنات.

قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: في الدنيا، وإن كان معاد فلهم الحسنى أيضًا، كما قال تعالى في سورة الكهف عن أحد الرجلين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ فجمعوا بين عمل السوء وتمني الباطل، وقد ذكر ابن إسحاق أنه وجد حجرًا في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوبًا عليه حكم ومواعظ، ومن ذلك: تعملون السيئات وتُجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب.

قوله: ﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ متروكون منسيون في النار، قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾، وقيل: معجلون ومقدمون إلى النار، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث جندب رضي الله عنه: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». أي: المتقدم. وقرئت: (مُفرِطون) أي: مسرفون في الذنوب والمعصية، يقال: أفرط فلان على فلان، إذا زاد وقال أكثر مما قال من الشر.

قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: قرينهم إبليس يوم القيامة، والجميع تحت العقوبة والنكال والعذاب الأليم، لا يملك بعضهم لبعض خلاصًا، ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾، وقد كانوا من قبل يتناجون بالإثم والعدوان، ويمكرون بأولياء الرحمن بلا حسيب ولا رقيب، وقيل: ناصرهم في الدنيا على زعمهم، والقول الأول أولى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ۝٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ۝٧٢﴾

قوله: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ أي: دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته ولطفه، حيث سخرها لأربابِها مركبًا ومأكلًا ومشربًا. والعبرة أصلها: تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

قوله: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ قرئت بالضم، من سقى يسقي، وقرئت بفتح النون، من أسقى يسقي، وهما لغتان.

قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ الضمير راجع إلى الأنعام، قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد، وقيل: للفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث، فيقال: هو الأنعام، وهي الأنعام. وقيل: المعنى: مما في بطون ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، وقيل: الأنعام والنعم واحد، والنعم يذكر، ولهذا تقول العرب: هذا نعم وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النعم، الذي هو بمعنى الأنعام.

قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ أي: الزبل الذي ينزل إلى الكَرِش، فإذا خرج لم يسمَّ فرثًا، يقال: أفرثْتُ الكرش، إذا أخرجت ما فيها.

قوله: ﴿وَدَمٖ لَّبَنًا﴾ أي: أن الطعام يكون منه ما في الكرش، ويكون منه الدم، ثم يخلص اللبن من الدم، وقيل: إن الدابة تأكل العلف، فإذا استقر في كرشها طبخته، فكان أسفله فرْثًا، وأوسطه لبنًا، وأعلاه دمًا، والكبد مسلط على هذه الأصناف، فتقسم الدم وتميزه وتجريه في العروق، وتجري الدم في الضرع، ويبقى الفرث كما هو في الكرش، ويروى هذا القول عن ابن عباس: إنّها لحكمة بالغة، ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

قوله: ﴿خَالِصٗا﴾ أبيض ناصعًا، ليس فيه حمرة الدم، ولا قذارة الفرث، وقد كان الجميع في مكان واحد.

قوله: ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذًا هينًا سهلًا، لا يغص به من شربه، يقال: ساغ الشراب يسوغ سوغًا، أي: سهل مدخله في الحلق وأساغه شاربه، قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، وقد سبق بيان ذلك، والسِّواغ بكسر السين: ما أسغت به غصتك، يقال: الماء سِواغ الغُصَص، ويذكر أن اللبن لم يشرق به أحد قط، وقد روى أبو داود بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَبَنٍ فَشَرِبَ، فَقَالَ: إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا سُقِيَ لَبَنًا قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَجْزِي مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ».

وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل عليه السلام على هداية على الأمة التي هي خير الأمم، فقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ، فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ، وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ: أَخَذْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ».

قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ قيل: ما يسكر، وهو الخمر، وهو المشهور في اللغة، وقد كان مباحًا قبل تحريمه، وقيل: السكر هو الخل في لغة الحبشة، وقيل: هو العصير الحلو الحلال، وسمي سكرًا لأنه قد يصير مُسكرًا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم، وقيل: الطُّعم، يقال: هذا سكر لك، أي: طُعم. قال الشاعر:

جَعَلْتُ عَيْبَ الْأَكْرَمِينَ سَكَرَا

أي: جعلت ذمهم طعمًا، وقد اختاره ابن جرير، ولكن الصحيح هو القول الأول. وقال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ: النَّخْلَةِ، وَالْعِنَبَةِ». قال الشاعر:

بِئْسَ الصُّحَاةُ وَبِئْسَ الشُّرْبُ شُرْبُهُمْ ... إِذَا جَرَى فِيهِمُ الْمُزَّاءُ وَالسَّكَرُ

فالسكر: اسم للخمر وما يسكر، وهو قول الجمهور، وقيل: هو خبر ومعناه الاستفهام بمعنى الإنكار، أي: أتتخذون منه سكرًا وتدعون رزقًا حسنًا، الخل والزبيب والتمر؟ كقوله: ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أفهم الخالدون؟ وقد سبق التفصيل في سورة النساء.

قوله: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: جميع ما يؤكل ويشرب حلالًا من هاتين الشجرتين، كالزبيب والدبس، ويقال له: الطلاء، والخل، والنبيذ قبل أن يشتد وغير ذلك. قال أبو جعفر الطحاوي: اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغلى وقذف بالزبد، فهو خمر، ومستحله كافر.

قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ يعني وحي إلهام، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، وسمي نحلًا لأن الله ﷻ نحله العسل الذي يخرج منه، والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز، وكل جمع ليس بينه وبين واحِدِه إلا الهاء. وقد جاء عند أبي داود بسند لا بأس به، قال رسول الله ﷺ: «عُمْرُ الذُّبَابِ أَرْبَعونَ لَيْلَةً، وَالذُّبَابُ كُلُّهُ فِي النَّارِ إِلَّا النَّحْلَ». وعند أبي داود بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نُهِيَ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالْهُدْهُدِ، وَالصُّرَدِ».

قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثلاثة أنواع من بيوت النحل: في الجبال وكِوَاها، وفي متجوف الشجر، وفيما يعرش ابن آدم من الخلايا والحيطان وغيرها. وعرش معناها هنا: هيأ، وأكثر ما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها، ومنه: العريش، الذي صُنع لرسول الله ﷺ يوم بدر، وكذا لفظة العرش، يقال: عرش يعرِش ويعرُش. ومن عجيب بيوت النحل أنّها مُسدسة، وكل مسدس يجمع إلى مثله يصير كالقطعة الواحدة، بخلاف ما لو كانت مثلثة، أو مربعة، أو خماسية، أو سباعية، أو غير ذلك، فإنّها لو جمعت إلى أمثالها لم تصر كالقطعة الواحدة، ولجاء بينها فرج.

قوله: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: طرق ربك، وأضافها سبحانه إليه لأنه هو خالقها، ثم ترجع بعد تنقلها بين البراري والأودية والجبال والأشجار إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه

من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، وقيل: لا يُدرى أخروج العسل من فيها أو من دبرها، وقد ذُكِر أن رجلًا صنع بيتًا من زجاج لينظر كيف النحلة، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين!.

قوله: ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول، وهو الْمُنقاد، حال من النحل، أي: مطيعة ومسخرة، ومنه قوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، وللنحل سيد يقال له: اليعسوب، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت.

قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر، والجامد والسائل، على اختلاف مراعيها، والأم واحدة، والأولاد مختلفون، ومن هذا قول سودة، وعائشة، وزينب رضي الله عنهن للنبي ﷺ حين شرب من عسل عند حفصة رضي الله عنها: «جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرفُطَ». رواه الشيخان، حيث شبهت رائحته برائحة المغافير، وليس كذلك، ولكنه من كيد النساء بعضهن لبعض، والعرفط: شجر الطلح، وله صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه.

قوله: ﴿فِيهِ﴾ أي: في العسل، ولم يصب من ذهب إلى أنه القرآن، وقد جاء في شفاء القرآن آيات أخرى ليس هذا مكانُها.

قوله: ﴿شِفَآءٌ﴾ نكرة في سياق الإثبات، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم والأصول، وقد حمله طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم، وليس كذلك؛ لأن الشيء يُداوى بضده، فالحار يداوي بالبارد، والعكس، وهذا من مسلمات الأطباء، فالعسل يصلح لكل أحد من أدواء باردة لأنه حار، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ-! فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا. ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا. ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا. ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنِّي سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا-. فَقَالَ: صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلًا. فَسَقَاهُ فَبَرَأَ». قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلًا -وهو حار- تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاده إسهالًا، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام. وجاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ الحَلْوَاءُ وَالعَسَلُ»، ومن حديث جابر رضي الله عنه عند الشيخين قال ﷺ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ» وفي رواية: «أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»، وجاء عند ابن ماجه بسند لا بأس به عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَلِ، وَالْقُرْآنِ»، وجاء عند ابن ماجه بسند جيد عن عَبْدِ اللهِ بْنِ أُمِّ حَرَامٍ رضي الله عنه، قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّنَا وَالسَّنُّوتِ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ». والسنوت: قيل: هو الشِّبت، وقيل:

هو العسل الذي يكون في زقاق السمن.

قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ يعني أرداه وأوضعه وأسفله، فيصير كالصبي الذي لا عقل ولا قوة له، وعند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند مسلم من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ»، وفي حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري: «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ». قال الشاعر:

سَئِمتُ تكاليفَ الحيَاة ومَنْ يعِشْ ... ثمانينَ عاماً -لا أبالَكَ- يَسْأم

رَأيتُ المَنَايا خَبط عَشْواء مَنْ تصِبْ ... تمتْه ومَنْ تُخْطِئ يُعَمَّرْ فيَهْرَم

قوله: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ أي: بعدما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من الفند والخرف، فيرجع إلى حالة الطفولة.

قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، والمعنى: كيف ترضى يا من فُضِّلت بالرزق وعبدت الأصنام أن تشرك بالله ما لم ينزّل به سلطانًا، وتجعل عبادة الله وعبادة الأصنام سواء، فترد إليه ما حباك الله حتى يكون مثلك في الأموال والأولاد والزوجات؟ فإذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فالله أحق أن لا يجعل هو ومخلوقاته سواء.

قوله: ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ أي: أولاد الأولاد من بنين وبنات، وسمو بذلك لأنّهم يحفدونك ويرفدونك ويخدمونك، وقد جاء عند الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بنين وحفدة: الولد، وولد الولد». قال ابن حجر: إسناده صحيح، وكل من عمل عملًا أطاع فيه وسارع، فهو حافد، ومنه قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دعاء القنوت: «وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ» رواه ابن أبي شيبة بسنده جيد. والْحَفَدان: السرعة. وقيل: الحفد: الأخوات. ويقال: حفدت وأحفدت لغتان، إذا خدمت، ويقال: حافد وحفد مثل: خادم وخدم، وحافد وحفدة مثل: كافر وكفرة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا

﴿يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ أي: كما أنه لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء، ورجل حر قد رُزِق رزقًا حسنًا، فكذلك لا أستوي أنا وهذه المعبودات المخلوقة والمسيّرة بأمري، من شمس، أو قمر، أو ملك، أو طاغوت، أو صنم أو نحو ذلك. وقيل: هو مثل ضربه الله للكافر، فهو عبد لشهواته وملذاته، قد سَفِه نفسه، فلا يقدر على شيء من المكارم والفضائل، والآخر المؤمن، فهو عبد لمولاه وخالقه، قد سَمَى بنفسه، فهو في طاعة ربه سرًا وعلانية، والقول الأول هو الأظهر.

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: كما أنه لا يستوي عندكم من هو أبكم لا ينطق ولا يعقل ولا يسمع ولا يبصر، وهو مع ذلك ثقيل الدم عجاز كسول، وآخر ناطق بالعدل والحق، باذل للخير والمعروف، فلذلك لا أستوي أنا -وقد أمرتكم بالعدل والإحسان، وبيدي النفع والضر-، وهذه الأصنام الصماء البكماء الكلولة، التي تأمركم بالفحشاء والمنكر، ولا تملك لكم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. ومعنى: ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: ثِقل عليه، ووبال على صاحبه، وقد يسمى اليتيم كلًا؛ لثقله على من يكفله، يقال منه: كَلّ السكين يكل كلًا، أي: غلظت شفرته فلم يقطع. ومعنى: ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ أي: أينما يرسله صاحبه لا يأت بفائدة، فلا يعرف ولا يفهم.

قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ سميت ساعة لأنّها تفجأ الناس في ساعة، فيموت الخلق بصيحة، واللمح: النظر بسرعة، يقال: لَمَحه لَمْحًا ولَمَحَانًا. والمعنى: التمثيل لقربها، كما يقول القائل: ما السنة إلا لحظة، وقيل: وصف لسرعة القدرة على الإتيان بها، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: يقول للشيء: كن، فيكون، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾. وقيل: المعنى كذلك عند الله لا عند المخلوقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾. والقول الثاني أظهر.

قوله: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ ليس للشك، وإنما هو لتمثيل بأيهما أراد الممثل، وقيل: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى بل.

قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

قوله: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا

تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم
بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ
ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ
يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ
قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ
ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾

قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ فكل ما علا فأظل فهو سقف وسماء، وما أقل فهو أرض، وكل ما ستر من الجهات الأربع فهو جدار، وإذا اجتمعت واتصلت فهي بيت.

قوله: ﴿سَكَنٗا﴾ أي: تسكنون فيه وتهدأ جوارحكم من الحركة، فإنه لو شاء لجعلكم كالأفلاك، دائمًا مضطربة متحركة، ولو شاء لجعلكم كالجبال، دائمًا ساكنة مستقرة، ولكن لرحمته ولطفه جعلكم متحركين أحيانًا، وساكنين أحيانًا.

قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ أي: من الأنطاع والأدم خيامًا وقبابًا.

قوله: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخف عليكم حملها في الأسفار.

قوله: ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ أي: سيركم في البوادي من موضع إلى آخر. ويقال للهودج: الظعن.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ أي: في أوقات الحضر.

قوله: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ فالصوف من الغنم، والوبر من الإبل، والشعر من المعز.

قوله: ﴿أَثَٰثٗا﴾ أي: متاعًا منضمًا بعضه إلى بعض، أو الثياب كل ما يُلبس ويفترش، من: أثّ، إذا كثر والتف، يقال: أثّ شعر فلان يأثُّ. وواحد الأثاث: أثاثة، وجمعه: أُثُثٌ، وقيل: لا واحد له من لفظه. وجلود الأنعام اختلف في الانتفاع بها إذا كانت من ميتة، فذهب أحمد إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء، وإن دُبغت؛ لأنّها كلحم الميتة، لحديث عبد الله بن عُكَيم رضي الله عنه الذي رواه أبو داود بسند جيد قال: «قُرِئَ عَلَيْنَا كِتَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَرْضِ جُهَيْنَةَ -وَفِي رِوَايَةٍ: قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ-، وَأَنَا غُلَامٌ شَابٌّ: أَنْ لَا تَسْتَمْتِعُوا مِنَ الْمَيْتَةِ بِإِهَابٍ وَلَا عَصَبٍ». حسنه الترمذي، وصححه ابن حزم، وقال أحمد بن الحسن: ترك أحمد هذا الحديث لاضطراب إسناده، وكان يأخذ به قبل وفاته بشهر. وذهب غيره إلى جواز الانتفاع بجلود الميتة إذا دبغت، وهو الصحيح إن شاء الله؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: بِعَنْزٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: أُعْطِيَتْهَا مَوْلَاةٌ لِمَيْمُونَةَ مِنَ الصَّدَقَةِ-، فَقَالَ: هَلَّا اسْتَمْتَعْتُمْ بِإِهَابِهَا؟ قَالُوا: إِنَّهَا مَيِّتَةٌ! قَالَ: إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا»، ولحديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم قال ﷺ: «إِذَا دُبِغَ

الإِهَابُ فَقَدْ طَهُرَ»، وهذه أدلة صريحة وواضحة وثابتة، وحديث ابن عُكَيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس بصريح، وقد تُكلّم فيه وضعفه يحيى بن معين، ثم إن المقصود بالإهاب لغةً: الجلد قبل الدبغ، فإذا دبغ زال عنه هذه الاسم، وجاز الاستمتاع به، وعلى هذا تنضم الأحاديث مع حديث ابن عكيم، ويزول الإشكال ويتحرر الراجح بين الأقوال.

قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي: غيرانًا وحصونًا ومعاقل في الجبال، وقد روى الطبري علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ قَمَصَتْ قَالَ فَأَرْسَى اللهُ فِيهَا الْجِبَالَ». حسنه ابن حجر، وقد روي مرفوعًا عند أحمد والترمذي من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والموقوف هو الصحيح، وعند الترمذي وأحمد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ، فَخَلَقَ الجِبَالَ، فَقَالَ بِهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ، فَعَجِبَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الجِبَالِ، فَقَالُوا: يَا رَبِّ، هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الحَدِيدُ. فَقَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، النَّارُ. فَقَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، المَاءُ. قَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ المَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الرِّيحُ. قَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ابْنُ آدَمَ، تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ، يُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ». حسنه ابن حجر في الفتح.

والأكنان جمع: كِنّ، وهو الحافظ من المطر والريح، والحصن عند مطاردة الأعداء وقذائف الصواريخ والطائرات وسائر البلاء، وقد كان ﷺ في أول أمره في غار حراء يمكث الأيام والليالي ذوات العدد يتحنث، رواه الشيخان من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وعند البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الهجرة: «ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ».

قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ أي: القمص، واحدها: سربال.

قوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني الدروع في الحرب، ولم يذكر: وسرابيل تقيكم البرد؛ إما لأنّهم أصحاب جبال وأهل حر، فلم يكونوا أهل برد، وإما لأن ذكر أحدهما يدل على الآخر، وهو الصحيح. قال الشاعر:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ... أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أَأَلْخَيْـــــرُ الَّـــــذِي أَنَـــــا أَبْتَغِيـــــهِ أَمِ الشَّــــرُّ الَّـــــذِي هُـــــوَ يَبْتَغِينِـــــي

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في الاعتذار والكلام، كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ وذلك حين تطبق عليهم جهنم، وعندما يقولون: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يسترضون، فلا يكلفوا أن يرضوا ربّهم، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون، وأصل الكلمة من العَتْب، وهي الْمَوْجدة، يقال: عتب عليه يُعتِب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه فيه، قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب، والاسم: العتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب.

قوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: نطقت الآلهة المعبودة من دون الله بتكذيب عابديها، وأنّها لم تأمرهم بعبادتِها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾. والآيات في هذا كثيرة وقد سبق جُلها.

قوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني المشركين، استسلموا لعذابه، وخضعوا لعزه، وانقادوا لِحُكمه، فلا أحد إلا سامع ومطيع، قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أسمعهم، وما أبصرهم يومئذ؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾.

قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: بطل ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ٨٨ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٣﴾

قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار، وقيل: زدنا القادة والسادة عذابًا فوق الرعاع والسفلة، فعذاب على كفرهم، وعذاب على صدهم،

ولعل القول الثاني أقرب؛ لقوله في أول الآية: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي آخر الآية: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ يعني الفساد العريض الذي يقوم به الكبراء والمتسلطون.

قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ كقوله في آية سبقت: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ يعني فيه بيان كل شيء من حلال وحرام، ومعروف ومنكر وغير ذلك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ من فرائض، وطهارة قلوب وجوارح، وإنصاف للآخرين، وتأدية للأمانات، وبذل نصيحة، وترك أذى، وقبل ذلك كله بتوحيده وطاعة رسوله ﷺ.

قوله: ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ من تكميلات ومندوبات ونوافل، وإحسان إلى الناس، وقبل ذلك كله أن يعبد كما قال رسوله ﷺ حين سأله جبريل: ما الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والإحسان: مصدر أحسن يحسن إحسانًا، ويقال: على معنيين، أحدهما متعد بنفسه، كقولك: أحسنت كذا، أي: حسَّنته وكملته، وثانيهما متعد بحرف جر، كقولك: أحسنت إلى فلان، أي: أوصلت إليه ما ينتفع به، والآية شاملة للمعنيين، فإن الله تعالى يحب ويأمر بالإحسان إلى خلقه، وكذا يأمر بإتقان عبادته ومراعاتها بأدائها على الوجه الذي يرضيه ومراقبته فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع، وحالة الاستمرار والسلف على حالتين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق، فكأنه يراه، وهذه أحوال النبيين والصديقين، والأخرى الغالب عليه اطلاع الحق عليه ومشاهدته له، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعَ لِحَلَالٍ وَحَرَامٍ وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ، مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: مواساة الأقرباء، وخصَّه بالذكر اهتمامًا به.

قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ أي: بعد تشديدها وتغليظها، يقال: توكيد وتأكيد ووكّد وأكد لغتان، والمقصود به الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق والأحلاف التي يترتب على نقضها مفاسد كبرى، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع، وقد سبق بيانه عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾. وقيل: التوكيد هو الحلف في الشيء مرارًا يردد فيه الأيمان، والصحيح القول الأول.

قوله: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ أي: شهيدًا وحافظًا وضامنًا.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ نصب على الحال، والنقض والنكث واحد، والجمع: الأنكاث، فشبهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده، ثم ينقضه، بالمرأة تغزل

غزلها وتفتله محكمًا، ثم تحله.

قوله: ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ الدخل: الدغل والخديعة والغش، وكل أمر لم يكن صحيحًا فهو دخل.

قوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر، من: ربا الشيء يربو، إذا كثر، وكانت القبيلة من العرب إذا حالفت أخرى، ثم جاء إحداهما قبيلة كثيرة وقوية فداخلتها، غدرت الأولى، ونقضت عهودها، ورجعت إلى هذه الكبرى، والمقصود: النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم وانفتاح الدنيا لهم، وكذا يدخل في معنى الآية النهي عن الغدر بقوم لقلتهم وضعف حيلتهم وقد عززوا بالأيمان.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ يعود الضمير إما إلى الوفاء الذي أمر الله به، أو إلى الكثرة وقوة البأس، أي: أن الله ابتلى عباده بالتحاسد، وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد فيخالفها، ممن يتبعه ويعمل بمقتضى هواها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: عن الأيمان بعد المعرفة بالله، وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر. والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة: زلت قدمه.

قوله: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن الكافر أو الفاسق إذا رأى أن المؤمن أو الملتزم قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام والالتزام بتعاليمه.

قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ وهذا هو الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة. قال الشاعر:

الْمَالُ يَنْفَدُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ ... يَوْمًا وَتَبْقَى فِي غَدٍ آثَامُهُ

لَــــيْسَ التَّقِــــيُّ بِمُتَّـــقٍ لِإِلَهِـــهِ حَتَّـــى يَطِيـــبَ شَـــرَابُهُ وَطَعَامُـــهُ

وقال آخر:

هَـــبِ الـــدُّنْيَا تُسَـــاقُ إِلَيْـــكَ عَفْـــوًا أَلَـــيْسَ مَصِـــيرُ ذَاكَ إِلَـــى انْتِقَـــالِ

وَمَـــا دُنْيَـــاكَ إِلَّا مِثْـــلُ أَظَلَّـــكَ ثُـــمَّ آذَنَ بِـــالزَّوَالِ

قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي: فيها التوفيق، والطمأنينة، والراحة، والسعادة، والأنس، والقناعة، والرضى، والغنى، والاستغناء، وانشراح الصدر، هذا مع المعرفة بالله، وصدق المقام بين يديه، والشوق إلى لقائه، وما يطيب لأحد الحياة إلا في الجنة. وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ».

قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أنس ﵁: «إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا».

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالإغواء والكفر، فلا قدرة له على ذلك ولا حجة له يقنعهم بها؛ لأن الله ﷻ أمدهم بعلمه، وصرف عنهم كيد الشيطان، وقد قال عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، ولا ريب أنه عام يدخله التخصيص، لحكمة يريدها الحكيم العليم، ويدبرها اللطيف الخبير، وقد أغوى آدم، وحواء عليهما السلام بسلطانه، وقد تابا وأنابا، وهكذا كل مؤمن وقر الإيمان في قلبه، ما إن يقع في زلة أو يرتكب خطئًا حتى يسارع بالاستغفار والتوبة والإنابة.

قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: إنما تسلُّطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم وليًا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي: بالله، وقيل: بالشيطان، أي: من أجله مشركون، يقال: كفرت بِهذه الكلمة، أي: من أجلها، وصار فلان بك عالمًا، أي: من أجلك.

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي: شريعة متقدمة بشريعة مستأنفة، أو رفعنا آية قرآنية وجعلنا موضعها غيرها، أو نسخنا آية بآية أشد منها عليهم، والنسخ والتبديل كما سبق بيانه: رفع الشيء مع وضع غيره مكانه.

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كاذب مختلق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يقصدون غلامًا أعجميًا لبعض بطون قريش، وكان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه لبعض الشيء؛ لأنه كان أعجميًا، لا يعرف من العربية شيئًا، وربما علمه شيئًا من العربية والقرآن، ودعاه إلى الإسلام، وكان نصرانيًا، والمقصود: التعجب من افترائهم، فكيف يتعلم من جاء بِهذا القرآن في فصاحته وبلاغته وقوة بيانه، التي هي أكمل بيان، وأحسن نظام من كل كتاب سبقه، كيف يتعلم من رجل أعجمي غارق في العجمة؟! فلا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. وأبعد النجعة من قال: إنه سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ لأن سلمان رضي الله عنه إنما أتى النبيَّ ﷺ بالمدينة، وهذه الآية مكية قطعًا.

قوله: ﴿لِّسَانُ﴾ أي: قرآن؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت: لسانًا. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي: قراءة الذي يميلون إليه ويشيرون أعجمية، والعجمة: الإخفاء، وضد البيان، ورجل أعجم، وامرأة عجماء، أي: لا يفصح، ومنه: عُجْم الذنب؛ لاستتاره، والعجماء: البهيمة؛ لأنّها لا توضح عن نفسها، وأعجمت الكتاب، أي: أزلت عجمته، والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم: أعجميًا.

قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ قال رسول الله ﷺ كما عند ابن ماجه بسند لا بأس به من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ». وجاء عند إسحاق عن محمد بن عمار بن ياسر قال: «أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ رضي الله عنهما، فَعَذَّبُوهُ، فَقَارَبُوهُ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا بِهِ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِنْ عَادُوا، فَعُدْ». وقال ابن حجر في الفتح: هو مرسل ورجاله ثقات.

وقد أجمع العلماء على أن من أُكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يجري عليه شيء من أحكام الكافرين، وأجمع العلماء على أن من أكره على

قتل غيره أنه لا يجوز له الأقدام على قتله، ولا انتهاك حرمته بجلد أو عرض، واتفق العلماء على أن المرأة إذا استكرهت على الزنى فلا حدّ عليها، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قال بعض أهل العلم: يتعين لمن يحسن المعاريض أن يجريها على لسانه عند ظلم الطواغيت؛ لأن فيها مندوحة عن الكذب، فمثلًا يقول من أُمر بالكفر: أكفر باللاهي، فيزيد الياء، أو أكفر بالنبيّ، بالتشديد، وهو المكان المرتفع من الأرض، ويطلق على ما يُعمل من الخوص شبه المائدة، أو أكفر بالنبيء، بالهمز، يعني المخبر، أيُّ مخبر، كمسيلمة الكذاب، أو يريد بالنبيء: المكان المرتفع من الأرض.

وأجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرًا عند الله ممن اختار الرخصة، وقد جاء عند النسائي بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال في هذه الآية: «﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فَنُسِخَ وَاسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ الَّذِي كَانَ عَلَى مِصْرَ كَانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ فَلَحِقَ بِالْكُفَّارِ فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَاسْتَجَارَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَأَجَارَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

وقد روى البخاري من حديث خباب ابن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً-، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ -وفِي رِوَايَةٍ: فَقَعَدَ وهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ- قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ». فأخبرهم رسول الله ﷺ على جهة المدح؛ لصبرهم على المكروه في ذات الله، وستأتي قصة أصحاب الأخدود إن شاء الله، وكيف اختاروا القتل على الفتنة في دينهم، وقد ذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وأكثر العلماء على أن من أُكره على يمين بوعيد أو سجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه.

قوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: وسعه لقبول الكفر واطمأن به. وقوله: ﴿صَدۡرٗا﴾ نصب على المفعول.

قوله: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: اختاروا على الآخرة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ

ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا
تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله: ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي: تخاصم وتُحاج، وتقول: نفسي نفسي، وليس أحد يحاج عنها، لا أب، ولا أم، ولا أخ، ولا زوجة، ولا ولد، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

قوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البر والبحر، كقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

قوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهي جمع (نعمة)، كالأشد، جمع الشدة، وقيل: جمع نُعْمى، مثل: بؤس وأبؤس، ومن أعظم نعم الله بعثة النبي ﷺ، ومن أعظم الكفر الكفر بها، وهي أخص من (النِّعم)، إنها خاصة بالنعم الظاهرة، فالقرية (مكة) التي ضرب الله بها المثل للكافرين كانت تستتمع بنعم الله من الأمن والاطمئنان والرزق الوافر الغيد وهو نعيم ظاهر وبارز، يأتيها من كل مكان.

قوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي: سلبها الله هذه النعم، بكفرهم بها، فسماه لباسًا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ فـ﴿مَا﴾ هنا مصدرية، أي: لوصف، وقيل: اللام لام سبب وأجل، أي: لا تقولوا لأجل وصفكم الكذب، بنَزع الخافض، أي: لما تصف ألسنتكم من الكذب، وقيل: على البدل من ﴿مَا﴾، أي: ولا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم، وهو خطاب للكفار الذين حرَّموا البحائر والسوائب، وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة.

قوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فهو عام حتى للمسلمين، فلا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول: هذا حلال، أو هذا حرام، إلا بنص من كتاب، أو سنة، أو إجماع، أو قياس صحيح، ومن قال برأيه فقد أخطأ، وإن كان مصيبًا، ليعلم كل من تصدى لفتيا أنه يوقع عن الله وعن رسوله ﷺ، فلينظر وليتأمل، فالقضية من أخطر القضايا، والمسألة من أدهى المسائل، فالدنيا لا تستحق أن تشرى

بالآخرة قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: جامعًا للخير ومعلمًا له.

قوله: ﴿قَانِتًا﴾ أي: مطيعًا خاشعًا، جاء عند الحاكم عن مسروق قال: «قَرَأْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ قَالَ: فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا. قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ فَأَعَادَ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْأُمَّةُ؟ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ، وَالْقَانِتُ الَّذِي يُطِيعُ اللهَ وَرَسُولَهُ». وصححه ابن حجر.

قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائمًا بشكر نعم الله عليه، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

قوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مع الصالحين، فـ ﴿مِنْ﴾ بمعنى مع؛ لأنه كان في الدنيا صالحًا ومع الصالحين، والجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه دلالة على جواز اتباع الفاضل للمفضول، ولا درك وتبعة على الفاضل في ذلك؛ لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء، وقد أمر بالاقتداء بهم فقال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي: لم يكن في شرع إبراهيم عليه السلام ولا من دينه ما غلظ في يوم السبت، بل كان سمحًا لا تغليظ فيه، وإنما غُلّظ على اليهود حين رفضوا الأعمال وترك التبسط في المعاش بسبب اختلافهم فيه، واتخاذهم له عيدًا، وتركوا الجمعة، وعصوا موسى عليه السلام في ذلك، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة، فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، فاختاروا الأحد، وهدى الله هذه الأمة ليوم الجمعة، ولم يكِلْهم إلى اجتهادهم؛ فضلًا منه ونعمة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

الله ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعدَ غَدٍ»، وعند مسلم: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا».

قوله: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ أي: يوم الجمعة، اختلفوا على نبييهم موسى، وعيسى عليهما السلام.

قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وهي ما أنزله الله عليه من الكتاب والسنة، والمقالة المحكمة الصحيحة، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾.

قوله: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: الترغيب النافع، والترهيب الزاجر.

قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي: بلين ولطف وحسن خطاب، دون مخاشنة ولا تعنيف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، وكما أمر الله ﷻ نبياه موسى، وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾، ولكن لما لم ينفعه اللين في أول الأمر ولا ثانيه لم يكن بدٌّ من استعمال القوة والغلظة، قال الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾.

وقد جاء في حسن التعامل قوله ﷺ فيما رواه الطبراني بسند لا بأس به من حديث أنس رضي الله عنه: «مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسُرَّهُ بِذَلِكَ سَرَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وعند البزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ». حسنه ابن حجر.

قوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ أطبق جمهور أهل التفسير على أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد، وقد وقع إشارة إلى ذلك في صحيح البخاري، وعند الترمذي عن أُبيّ بْن كَعْبٍ رضي الله عنه قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ حَمْزَةُ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، فَقَالَ رَجُلٌ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً» حسنه الترمذي.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾. واختلف أهل العلم في الخيانة، فأخذ قوم بعموم هذه الآية وغيرها، وقال آخرون: لا يجوز مقابلة الخيانة بالخيانة؛ لقوله ﷺ في الحديث الحسن: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ». رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا القول الأخير وجيه، لا يسع المؤمن إلا الأخذ به، فمثلًا لو أن رجلًا زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني، هل

يزني بِها؟ فقطعًا الجواب: لا، بإجماع المسلمين، ولعل الآية الكريمة ونحوها تنْزل على التماثل في القصاص، فمن قتل بحديدة قُتل بِها، ومن قتل بحجر قُتل به، وكذا تنـزل على العقوبات اللازمة التي لا يتضرر منها الآخرون.

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ أي: اصبر بالعفو عن المعاقبة بالمماثلة.

قوله: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا يُنال إلا بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوته.

قوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ قيل: لا تحزن على قتلى أحد؛ فإنّهم صاروا إلى رحمة الله، وقيل: على من خالفك؛ فإن الله قدّر ذلك، وهذا هو الصواب.

قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ قرئت بكسر الضاد، وهي لغتان، ولكل منهما مصدر، ضاق يضيق، وهي جمع ضيقة، والمعنى: لا يضيق صدرك من كفرهم ومكرهم. ويقال: ضاق الرجل، إذا بخل، وأضاق، إذا افتقر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: معيَّة خاصة بالنصر والمعونة والتأييد، كقول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وكقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقوله تعالى لموسى، وهارون عليهما السلام: ﴿تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾. وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾.

انتهى تفسير سورة النحل، ولله الحمد.

  

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلٗا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدٗا شَكُورٗا ٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدٗا مَّفْعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ٧﴾

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سورة الإسراء، والكهف، ومريم، وطه، وَالأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلادِي». رواه البخاري. وَالتِّلاد: القَدِيم أَيْ مِمَّا حُفِظَ قَدِيمًا، وَمُرَاد ابْن مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُنَّ مِنْ أَوَّل مَا نزل مِنْ الْقُرْآن، وَأَنَّ لَهُنَّ فَضْلًا لِمَا فِيهِنَّ مِنْ الْقَصَص وَأَخْبَار الْأَنْبِيَاء وَالْأُمَم. وهذه أول السور القرآنية المفتتحة بالتسبيح وعددها ست، هي: الإسراء، الحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن، الأعلى، تقول: سبحت تسبيحًا وسبحانًا، مثل: كفّرت اليمين تكفيرًا وكُفرانًا، ومعناه: التنْزيه والتمجيد، والبراءة لله عَزَّ وَجَلَّ من كل نقص، فهو ذكر عظيم لا يصلح لغير الله تعالى. وقيل: تَنَزه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكذب على الله تبارك وتعالى في حادثة الإسراء.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ﴾ فيه لغتان: أسرى، وسرى، كأسقى، وسقى. والإسراء: سير الليل، يقال: سَرَيت مسْرى وسُرى، وأسريت إسراءً. قال الشاعر:

وَلَيْلَـــــةٍ ذَاتِ نَـــــدَى سَـــــرَيْتُ　　　وَلَـــمْ يَلِتْنِـــي عَـــنْ سُـــرَاهَا لَيْـــتُ

وقيل: أسرى: سار من أول الليل، وسرى: سار من آخره، والقول الأول أقوى، الإسراء: السير ليلًا. وكان الإسراء ليلًا بالروح والجسد، في اليقظة لا في المنام، وكان ذلك قبل الهجرة بعام واحد. والإسراء بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرٌ تواترت أحاديثه، حتى رُويت من عشرين صحابيًا، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ. قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ. قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ (قَاعِدٌ) عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ

أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى. حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ. فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُ، فَفَتَحَ. قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ: آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ-، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَفَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَاجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا. فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ. فَرَاجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ. فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا (حَبَايِلُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: جَنَابِذُ- اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ».

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي حَبَّةَ رضي الله عنهم: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ».

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ جَاءَهُ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، (فَقَالَ أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ: هُوَ خَيْرُهُمْ. فَقَالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ. فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ، وَتَنَامُ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ -وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ-، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ، فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ، فَتَوَلَّاهُ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ، فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ -يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ-، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَضَرَبَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِهَا، فَنَادَاهُ أَهْلُ السَّمَاءِ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مَعِيَ مُحَمَّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: فَمَرْحَبًا بِهِ

وَأَهْلًا. فَيَسْتَبْشِرُ بِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ، لَا يَعْلَمُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِمَا يُرِيدُ اللهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يُعْلِمَهُمْ، فَوَجَدَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا آدَمَ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ آدَمُ، وَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِابْنِي، نِعْمَ الِابْنُ أَنْتَ! فَإِذَا هُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِنَهَرَيْنِ يَطَّرِدَانِ، فَقَالَ: مَا هَذَانِ النَّهَرَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ، عُنْصُرُهُمَا. ثُمَّ مَضَى بِهِ فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا هُوَ بِنَهَرٍ آخَرَ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ يَدَهُ، فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ، قَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ. ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ... ، وَفِيهِ: كُلُّ سَمَاءٍ فِيهَا أَنْبِيَاءُ قَدْ سَمَّاهُمْ، فَأَوْعَيْتُ مِنْهُمْ إِدْرِيسَ فِي الثَّانِيَةِ، وَهَارُونَ فِي الرَّابِعَةِ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّادِسَةِ، وَمُوسَى فِي السَّابِعَةِ بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللهِ، فَقَالَ مُوسَى: رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أَنْ تَرْفَعَ عَلَيَّ أَحَدًا. ثُمَّ عَلَا بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى، حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى اللهُ فِيمَا أَوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً عَلَى أُمَّتِكَ، كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. ثُمَّ هَبَطَ حَتَّى بَلَغَ مُوسَى، فَاحْتَبَسَهُ مُوسَى، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؛ فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ. فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ: أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ. فَعَلَا بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ، فَقَالَ -وَهُوَ مَكَانَهُ-: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَنَّا؛ فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا. فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهُ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ حَتَّى صَارَتْ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسَى عِنْدَ الْخَمْسِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ -قَوْمِي- عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا، فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ، فَأُمَّتُكَ أَضْعَفُ أَجْسَادًا، وَقُلُوبًا، وَأَبْدَانًا، وَأَبْصَارًا، وَأَسْمَاعًا؛ فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ. كُلَّ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ لِيُشِيرَ عَلَيْهِ، وَلَا يَكْرَهُ ذَلِكَ جِبْرِيلُ، فَرَفَعَهُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ: أَجْسَادُهُمْ، وَقُلُوبُهُمْ، وَأَسْمَاعُهُمْ، وَأَبْصَارُهُمْ، وَأَبْدَانُهُمْ؛ فَخَفِّفْ عَنَّا. فَقَالَ الْجَبَّارُ: يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: إِنَّهُ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ كَمَا فَرَضْتُهُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ. قَالَ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا؛ فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ. فَرَجَعَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: كَيْفَ فَعَلْتَ؟ فَقَالَ: خَفَّفَ عَنَّا: أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا. قَالَ مُوسَى: قَدْ وَاللهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ؛ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ أَيْضًا. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا مُوسَى، قَدْ وَاللهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي مِمَّا اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ. قَالَ: فَاهْبِطْ بِاسْمِ اللهِ. قَالَ: وَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ»).

(وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: بَيْنَما أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ -وَفِي رِوَايَةٍ: اللُّؤْلُؤِ- الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ: ما هَذَا يا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ الَّذي أَعْطَاكَ رَبُّكَ. فَإِذَا طِيبُهُ -أَوْ طِينُهُ- مِسْكٌ أَذْفَرُ»).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فِي

الْحَطِيمِ مُضْطَجِعًا) بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ -وَذَكَرَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ- فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ، ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُعِيدَ-، وَأُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ: الْبُرَاقُ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ-، فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ)، (فَسَلَّمْتُ) (وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَدَّ السَّلَامَ)، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ. فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى -وَفِي رِوَايَةٍ: وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ، (قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا. فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّا) -، فَقَالَا: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ. فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ (وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ)، (فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ) (وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَدَّ)، قَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ. فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قِيلَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ (وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ)، (فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ) (وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَدَّ)، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ. فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَأَتَيْنَا عَلَى هَارُونَ (وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ)، (فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ) (وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَدَّ)، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ. فَأَتَيْنَا عَلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى (وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ)، (فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ) (وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَدَّ)، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ. فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى، فَقِيلَ: مَا أَبْكَاكَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ! هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي، يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي. فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ)، (فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ) (وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَدَّ)، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ. فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ. وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ (هَجَرَ)، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ، فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالْفُرَاتُ. -وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، (وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ)، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ-، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ

صَلَاةً، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً. قَالَ: (أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ)، عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ؛ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ. فَرَجَعْتُ فَسَأَلْتُهُ، فَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، ثُمَّ ثَلَاثِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عِشْرِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عَشْرًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ مِثْلَهُ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: جَعَلَهَا خَمْسًا. فَقَالَ مِثْلَهُ، قُلْتُ: (سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ) -وَفِي رِوَايَةٍ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، (وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ) -. فَنُودِيَ: إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا».

وفي حديث ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ». حديث حسن رواه الترمذي.

وقد جاء عند أحمد والبزار بسند صحيح من حديث ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ. فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ. قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَلَمْ يُرِه أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ. فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟».

ولا خلاف بين أهل العلم أن الصلاة فرضت بمكة حين الإسراء، حين عُرج به، ولا ريب أن الإسراء والمعراج بالرسول ﷺ كان يقظة، بروحه وجسده، ولا ينبغي أن يكون في هذا خلاف، وهو قول معظم السلف والمسلمين، ولو كان منامًا أو بروحه فقط لقال: بروح عبده، ولم يقل: ﴿بِعَبْدِهِ﴾، وقد قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾، والبصر من آلات الذات، وقد حُمل على البراق، وكل ذلك دلالة صريحة على أن الجسد والروح كانا معًا، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ لمقصود به رؤيا العين، لا رؤيا المنام، كما روى ذلك البخاري عن ابن عباس ﵁، ولا يبعد أن يكون قد أسري به مرارًا بالمنام، لكن الإسراء هذه إنما هو بالجسد والروح، وفي اليقظة، وقد جاء عند أحمد والبزار من حديث ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَأَصْبَحْت بِمَكَّة

مَرَّ بِي عَدُوّ الله أَبُو جَهْل فَقَالَ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْء؟ قَالَ رَسُول الله ﷺ: إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَة إِلَى بَيْت الْمَقْدِسِ، قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْت بَيْن أَظْهُرنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنْ دَعَوْت قَوْمك أَتُحَدِّثُهُمْ بِذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: يَا مَعْشَر بَنِي كَعْب بْن لُؤَيّ، قَالَ: فَانْفَضَّتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِس حَتَّى جَاءُوا إِلَيْهِمَا فَقَالَ: حَدِّثْ قَوْمك بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَحَدَّثْتهمْ، قَالَ فَمَنْ بَيْن مُصَفِّق وَمِنْ بَيْن وَاضِع يَده عَلَى رَأْسه مُتَعَجِّبًا، قَالُوا: وَتَسْتَطِيع أَنْ تَنْعَت لَنَا الْمَسْجِد» قال ابن حجر: إسناده حسن. وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ فَحَانَتْ الصَّلاةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ الصَّلاةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلام».

قوله: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ أي: محمد ﷺ، ولو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به، وقد وصف الله تبارك وتعالى نبيه محمد ﷺ هنا بالعبودية له، تشريفًا وتكريمًا ورفعة، وهل هناك أشرف من أن ينتسب العبد ويلتحق بربه؟ وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف المقامات، والتي منها: سماه عبدا عند إنزال القرآن عليه فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وعند قيامه بالدعوة فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾، وعند إسرائه به فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾، وقد حذر الرسول ﷺ المسلمين ونهاهم عن المبالغة في مدحه وإطرائه مخافة أن يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى بن مريم عليه السلام فقال ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري من حديث عمر رضي الله عنه وأصله متفق عليه.

قوله: ﴿لَيۡلٗا﴾ أي: في جنح الليل.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة.

قوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أي: بيت المقدس، وسُمي بالأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى». وقد جاء عند البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا: «وَالصَّلاة فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِخَمْسِمِائَة صَلاة» قَالَ الْبَزَّار والهيثمي: إِسْنَاده حَسَن.

قوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: حول المسجد الأقصى، وما حوله يشمل بلاد الشام بأقاليمه

الأربعة: فلسطين، وسوريا، والأردن، ولبنان، والبركة بالثمار والزروع والأنهار وكثرة الأنبياء الذين بعثوا فيه وانتشرت منه شرائعهم في العالمين، وجاء لفظ البركة مطلقة عامة (باركنا) وهو فعل ماضٍ، وفي هذا إشارة إلى أن البركة في الأرض المقدسة أصيلة ثابتة راسخة ممتدة في أعماق الزمن الماضي والتاريخ البعيد، وإسناد الفعل الماضي إلى الضمير (باركنا) يدل على أن الله هو الذي بارك في الأرض المقدسة، والبركة أساسًا لا تكون إلا من الله ﷻ، ولا يملك أحد من البشر أن ينْزِع هذه البركة منها، وقد جاء في سكناه قوله ﷺ فيما رواه أبو داود بسند جيد عن ابن حوالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَصِيرُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً: جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ. قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ! فَقَالَ: عَلَيْكَ بِالشَّامِ؛ فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ». وجاء عند الترمذي بسند جيد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طُوبَى لِلشَّامِ، لأَنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا».

قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، وأولها أن جمع الله لنبينا محمد ﷺ جميع الأنبياء والمرسلين في بيت المقدس فصلى بهم إمامًا، وفي ذلك إعلام بعموم رسالته ﷺ، ودليل على أن دين الإسلام قد نسخ جميع الديانات السابقة، وأن أتباع الرسل السابقين ينبغي أن يدخلوا في دين الإسلام مثل أنبيائهم.

قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: يا ذرية ويا سلالة من حملنا مع نوح عليه السلام، على النداء، وفي ذلك تنبيه، وتذكير بالمنة، ودعوة إلى التشبه والاقتداء بنوح عليه السلام في الشكر على نعمة السراء والإنجاء، وفي الحديث المتفق عليه من طريق أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ...» الحديث. وقيل: التقدير: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إما مفعول ثانٍ، أو بدل من ﴿وَكِيلًا﴾، وهو قول فيه نظر، وقيل: نصب ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ بإضمار: أعني وأمدح، والعرب تنصب على المدح والذم، وله وجه، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: أعلمنا وأخبرنا وأوحينا وحكمنا، وأصل القضاء: الإحكام للشيء والفراغ منه. وتكون ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى على، والمعنى: تقدم إليهم وأخبرهم ﴿فِي ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الذي أنزله عليهم أنَّهم سيفسدون في الأرض، لاسيما بيت المقدس وما حولها مرتين، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك.

قوله: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تتجبرون وتطغون وتفجرون على الناس.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أولى المرتين من فسادهم.

قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: جندًا من خلقنا أولي قوة وعدد وبطش شديد، وقيل: جالوت وجنوده، تسلطوا أولًا، ثم دارت الدائرة عليه، قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾، وقيل: بختنصر، وقد روى ابن جرير بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب قال: ظهر بختنصر بالشام، فخرَّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق، فوجد بِها دمًا يغلي على كبا، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، فقتل على هذا الكبا سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم، فسكن. ولا ريب أنه من أخبار بني إسرائيل التي لا تصدق ولا تكذب، وذكرته هنا لشهرته ولقربه من الصحة، والقول الأول هو الأقرب.

قوله: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: عاثوا وقتلوا، وكذا جاسوا، وهاسوا، وداسوا، وقيل: الحوس، والجوس، والعوس، والهوس: الطواف بالليل، وقيل: جاسوا أي: تخللوا الديار، فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار، أي: يطلبها، يقتلونهم ذاهبين وراجعين. قال حسان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ:

وَمِنَّا الَّذِي لَاقَى بِسَيْفِ مُحَمَّدٍ ... فَجَاسَ بِهِ الْأَعْدَاءُ عُرْضَ الْعَسَاكِرِ

وقال آخر:

فَجُسْنَا دِيَارَهُمْ عَنْوَةً ... وَأُبْنَا بِسَادَتِهِمْ مُوثَقِينَا

قوله: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي: قضاءً كائنًا لا خلف فيه.

قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدولة والرجعة، وذلك لما تبتم وأطعتم، وقد سبق عند قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: عددًا ورجالًا من عدوكم، والنفير: من نفر مع الرجل من عشيرته، يقال: نفير ونافر، مثل: قدير وقادر، ويجوز أن يكون النفير جمع نفر، والمعنى أنّهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضمامًا، وأصلح أحوالًا، جزاء من الله لهم على عودهم إلى الطاعة.

قوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كقولك: سلام لك، أي: عليك. وقيل: اللام بمعنى إلى، يعني وإن أسأتم فإليها ترجع الإساءة، كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: إليها، وقيل: التقدير: فلها الجزاء والعقاب، أو: لها رب يغفر الإساءة، والقول الأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: من إفسادكم، وذلك لقتلهم بعض الأنبياء، كيحيى بن زكريا عَلَيْهِالسَّلَامُ.

قوله: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يجيء أعداؤكم ويهينوكم ويقهرونكم، ويدخلوا بيت المقدس ﴿كَمَا

دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فقيل: يظهر أثر الحزن في وجوهكم بعد السبي والقتل، وقيل: الوجوه السادة، أي: ليذلوهم، والقول الأول أولى.

قوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي: ليُدمروا ويُهلكوا ويهدموا. قال الشاعر:

فَمَـــا النَّـــاسُ إِلَّا عَـــامِلَانِ فَعَامِــلٌ ... يُتَبِّــرُ مَـــا يَبْنِـــي وَآخَـــرُ رَافِـــعُ

قوله: ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ أي: ما ظهروا عليه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ إِنَّ
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١ وَجَعَلْنَا
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ
مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا
مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝١٧﴾

قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ وعد من الله أن يكشف عنهم، وهو وعد حق.

قوله: ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: بعد انتقامه منكم، وكذلك كان، فكثر عددهم، وجُعل منهم الأنبياء والملوك.

قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وقد عادوا إلى طغيانهم وعتوهم وعنادهم ونشرهم للفساد وظلمهم للعباد، فبعث الله إليهم محمدًا ﷺ، فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأذلة مطاردون إلى يوم يبعثون.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: محبسًا وسجنًا ومستقرًا، لا محيد لهم عنه، من الحصر وهو: الحبس، والحصير: الضيق البخيل، ويقال للذي يفترش حصيرًا؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج.

قوله: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، والحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله ومتابعة رسله.

قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

قوله: ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: كدعائه ربه بالخير، والمعنى: بعض الناس يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح، فربما دعا على نفسه أو ولده أو ماله بالشر والهلاك والدمار واللعنة، ولو استجيب له لهلك. وحذفت الواو من ﴿وَيَدۡعُ﴾ خطًا ولم تحذف معنى؛ لأنّها مرفوعة، فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة، كقوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ أي: طبعُهُ العجلة، فيعجل بالشر كعجلته بالخير، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ»، وقيل: يؤثر العاجل وإن قل، على الآجل وإن جل، وكلا المعنيين صحيح.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ أي: يسارع لكل ما يخطر بباله، دون النظر في عاقبته.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِ﴾ أي: علامتين على وجودنا وقدرتنا ووحدانيتنا.

قوله: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي طمسنا آية الليل، وهو القمر.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ وهي الشمس، من قول العرب: أبصر النهار، إذا أضاء وصار بحالة يُبصَر بها، وقيل: كقولهم: خبيث مُخبث، إذا كان أهله خبثاء، ورجل مضعف، إذا كانت دوابه ضعافًا، فكذلك النهار مبصر، إذا كان أهله بصراء، قال تعالى في موضع آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾.

قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾، وقال في آية سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾.

قوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ أي: من أحكام التكليف وغيره، كقوله: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾، وقوله: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾.

قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ أي: كل ما طار عنه من عمله من خير أو شر، فهو محفوظ عليه، قليله وكثيره، لا يفارقه حتى يحاسب عليه، وقد قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الحسن عند أحمد من طريق جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ عَبْدٍ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ». وذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في

الجسد، وهو عبارة عن اللزوم، كلزوم القلادة للعنق، ومن ألزم بشيء فلا محيد له عنه.

قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا﴾ يعني كتاب طائره الذي في عنقه، قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وقد جاء عند أحمد بسند جيد من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا عَبْدُكَ فُلَانٌ قَدْ حَبَسْتَهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: اخْتِمُوا لَهُ عَلَى مِثْلِ عَمَلِهِ حَتَّى يَبْرَأَ أَوْ يَمُوتَ».

قوله: ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله، من أول عمره إلى آخره، قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلا عذاب إلا بعد قيام الحجة بإرسال الرسول، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾. وأما قوله ﷺ عند البخاري: «وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ، فَيُلْقَوْنَ فِيهَا فَتَقُولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ ثَلَاثًا» فهو لفظ معجم، وقلب صريح من الراوي، والصحيح ما جاء في الروايات المتكاثرة عند الشيخين وعند غيرهما أن الإنشاء إنما هو للجنة؛ لأنّها دار فضل، وأما النار فإنّها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار والإنذار وقيام الحجة عليه.

وقد جاء في شأن الرجل الأصم والأحمق والهرم وصاحب الفترة حديث رواه أحمد من حديث الأسود بن سريع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسند جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعَرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ: أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِنَحْوِهِ، وَفِيهِ: «فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا

يُسْحَبُ إِلَيْهَا». رواه أحمد بسند حسن.

وأما وِلْدان المسلمين فلا خلاف بين العلماء أنّهم من أهل الجنة، قال أحمد بن حنبل: وهو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله، وأما أولاد المشركين فقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: اللهُ إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»، كما جاءت نصوص أنّهم في الجنة، كما عند أحمد، وأبي داود بسند لا بأس به من حديث الحسناء، عن عمها قال: قال النبي ﷺ: «النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْوَئِيدُ فِي الْجَنَّةِ». كما جاءت نصوص دلت على أنّهم في النار مع آبائهم، كما جاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْوَائِدَةُ وَالْمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ». وفي حديث سلمة بن يزيد رضي الله عنه: «إِلَّا أَنْ تُدْرِكَ الْوَائِدَةُ الإِسْلَامَ فَيَعْفُوَ اللهُ عَنْهَا». قال ابن حجر: هذا الحديث مما ألزم الدارقطني الشيخين إخراجه لصحة الطريق إليه صححه جماعة.

والقول الفاصل، والله أعلم: أنّهم من أهل الجنة؛ لصراحة حديث سمرة رضي الله عنه عند البخاري، وأصله متفق عليه، ولمقتضى رحمة الله وفضله، وأن رحمته فيمن لم يعمل شرًا قط تغلب عدله، وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الشيخين فلعله قبل أن يتبين حالهم ومصيرهم، ومثله مثل حديث عائشة رضي الله عنها في شأن أبناء المسلمين حين قال رسول الله ﷺ، وقد رد على عائشة رضي الله عنها قولها: عصفور من عصافير الجنة. فقال: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ». رواه مسلم؛ ثم تبين له بعد ذلك أن أطفال المسلمين في الجنة كما في حديث سمرة رضي الله عنه المذكور، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود وابن خزيمة وغيرهما بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الْمُبْتَلَى حَتَّى يَبْرَأَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَكْبُرَ».

قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ وفي قراءة: (أمَّرْنا) بالتشديد، والمشهور الأولى، والأمر هنا قدريٌّ، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ لأن الله لا يأمر بالفحشاء، وبالتشديد، أي: سلَّطنا شرارها، فعصوا فيها، كما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، وفي قراءة: (آمرنا) بالمد والتخفيف، أي: أكثرنا جبابرتَها وأمراءها، وفي الأثر الضعيف: خير المال مهرة مأمورة، أو سكة مأجورة، أي: كثيرة النتاج والنسل، وآمرنا وأمرنا بمعنى واحد، وقرئت: (أمِرنا) بالكسر، فيقال للشيء الكثير: أمر، والفعل منه: أمِر القوم يأمِرون. قال ابن مسعود رضي الله عنه كما عند البخاري: «كُنَّا نَقُولُ لِلْحَيِّ إِذَا كَثُرُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ: أَمِرَ بَنُو فُلَانٍ». وعند الشيخين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال أبو سفيان رضي الله عنه: لقد أمِر أمر ابن أبي كبشة -يعني النبي ﷺ-، إنه ليخافه ملك بني الأصفر. وقيل: المعنى: أمرناهم بالطاعة إعذارًا وإنذارًا وتخويفًا ووعيدًا.

قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليها الوعيد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: الدنيا، نعطه منها ما نشاء، ثم نؤاخذه بعمله.

قوله: ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مطرودًا مبعدًا من رحمة الله، وقد جاء عند أحمد والبيهقي بسند لا بأس به عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ». جوده المنذري.

قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريق متابعة الرسول ﷺ، وهو شرط من شروط قبول العمل.

قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدق ومخلص، وهو الشرط الثاني من شروط قبول العمل؛ فلا قبول لعمل إلا بحصول الشرطين، كما سبق في الآيات الماضية.

قوله: ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولًا غير مردود، ومضاعفًا غير منقوص.

قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أراد الدنيا.

قوله: ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أراد الآخرة.

قوله: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ لأنه المتصرف الحاكم، فلا جور ولا ظلم، لا رادَّ لحكمه، ولا مانع لقضائه وعطائه.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: لا يمنعه ولا ينقصه أحد، من حَظَرَ يَحْظُر حظرًا وحِظارًا.

قوله: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي: تبقى.

قوله: ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أي: لا ناصر لك ولا ولي، وقد جاء عند أبي داود، والترمذي بسند جيد عن

عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ».

قوله: ﴿وَقَضَىٰ﴾ أي: أمر وألزم وأوجب، والقضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر، كهذه الآية، والقضاء بمعنى الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، والقضاء بمعنى الحكم، كقوله تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾، والقضاء بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، والقضاء بمعنى العهد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ أي: ما يكون فيه أدنى تبرم، وهو التنفس المتردد من الضجر، وقيل: الأُفّ: الكلام القَذَع الرديء الخفي، وقيل: الأف والتف: وسخ الأظفار، ويقال لكل ما يضجر ويستثقل: أف له، وقيل: الأف: وسخ الأذن، والتف: وسخ الأظفار. والمقصود أنه كلمة تقال لشيء مرفوض، قال إبراهيم ﵇ لقومه: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ أي: لا تزجرهما ولا تغلظ عليهما.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ أي: لينًا لطيفًا طيبًا، بتأدب وتوقير واحترام.

قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك، وهي استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما، وقد سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والذل في الدواب: المنقاد السهل، دون الصعب. فينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله وسكانه ونظراته، ولا يُحِد إليهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب.

قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ خصت التربية ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية لا سيما حال الصغر.

وقد جاء عند أبي يعلى عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصْبِحُ وَوَالِدَاهُ رَاضِيَانِ إِلَّا كَانَ لَهُ بَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَوَاحِدٌ، وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصْبِحُ وَوَالِدَاهُ عَلَيْهِ سَاخِطَانِ إِلَّا كَانَ لَهُ بَابَانِ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَوَاحِدٌ. فَقَالَ: أُرَاهُ رَجُلًا يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ ظَلَمَاهُ؟ قَالَ ﷺ: وَإِنْ ظَلَمَاهُ، وَإِنْ ظَلَمَاهُ، وَإِنْ ظَلَمَاهُ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ». حسنه ابن حجر. وعند الترمذي بسند جيد من حديث أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ». وعند الترمذي بسند حسن من حديث ابن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ».

قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ أي: لا تسرف في غير حق. قال الشافعي: والتبذير: إنفاق المال في غير حقه،

ولا تبذير في عمل الخير.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: في حكمهم، أو شبههم؛ إذ المبذر في الإفساد كالشياطين في السفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: عن أقاربك؛ لفقد النفقة.

قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: ترجو من الله سبحانه فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل.

قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: فإن قعد بك الحال، فادع لهم؛ ليسهل عليهم فقرهم بدعائك لهم، وأحسن لهم القول، وابسط لهم العذر، وقل: إذا وجدت فعلتُ وأكرمتُ. وكان ﷺ إذا سئل وليس عنده ما يعطي سكت انتظارًا لرزق يأتي من الله ﷻ، كراهية الرد، وقد ثبت هذا في عدة أحاديث، روى بعضها مسلم رحمه الله. والمقصود: اللين واليسر واللطف والوعد الجميل عندما لا يجد الرجل ما يتصدق به. قال الشاعر:

لَا يَعْدَمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ مِنْ خُلُقِي ... إِمَّا نَوَالِي وَإِمَّا حُسْنُ مَرْدُودِي

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ مَثَلُ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، قَدِ اضْطَرَّتْ أَيْدِيهُمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَكُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَتِهِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تُعَفِّيَ أَثَرَهُ، وَكُلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ انْقَبَضَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ إِلَى صَاحِبَتِهَا، وَتَقَلَّصَتْ عَلَيْهِ، وَانْضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَى تَرَاقِيهِ. فَسَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: فَيَجْتَهِدُ أَنْ يُوَسِّعَهَا فَلَا تَتَّسِعُ».

قوله: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ أي: لا تخرج ما حوته يداك كله؛ لأن الإسراف ربما كان في الإنفاق، فمن أنفق فوق طاقته وأخرج أكثر من دخله ربما قعد ملومًا محسورًا مديونًا، وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت ملومًا يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك. ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، أي: كالدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا، فإنّها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، قال تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي: كليل عن أن يرى عيبًا.

قوله: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ أي: مخافة الفقر.

قوله: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ أي: ذنبًا عظيمًا، وفي قراءة: (خَطئًا) يقال: خطِئ يخطأ خِطئًا، إذا تعمد الخطأ، مثل: أثِم يأثَم إثمًا، وأخطأ إذا لم يتعمد خطأ.

قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ فهو أبلغ من أن يقول: لا تزنوا، فإن معناه: لا تدنوا من الزنى، والزنى يمد ويقصر لغتان. قال الشاعر:

كَانَــتْ فَرِيضَــةَ مَــا تَقُــولُ كَمَــا ... كَــانَ الزِّنَــاءُ فَرِيضَــةَ الــرَّجْمِ

قوله: ﴿سَبِيلٗا﴾ نصب على التمييز، والتقدير: وساء سبيله سبيلًا؛ لأنه يؤدي إلى النار، فهو من كبائر الذنوب، وقد جاء عند أحمد بسند صحيح عن أبي أمامة ﵁: «إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا! فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ، فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ مَهْ! فَقَالَ: ادْنُهْ. فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ. قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ».

وعند الطبراني بسند لا بأس به عن معقل بن يسار ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ». وعند أحمد بسند جيد من حديث المقداد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟ قَالُوا: حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ».

وعند الطبراني بسند لا بأس به عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى

فِرَاشِ مُغِيبَةٍ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْهَشُهُ الْأَسْوَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وعند أبي داود بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الإِيمَانُ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ؛ فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ». وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ». وعند البخاري قال عكرمة قلت لابن عباس رضي الله عنهما: «كَيْفَ يُنْزَعُ الإِيمَانُ مِنْهُ؟ قَالَ: هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ؛ ثُمَّ أَخْرَجَهَا فَإِنْ تَابَ عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ».

قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ أي: جعلنا لمستحق الدم تسليطًا، إن شاء قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية، وقد مضى في سورة البقرة بيان ذلك.

قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ أي: لا يقتل غير قاتله، وإذا قتل لا يمثل بمن قتل.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: مُعانًا في العاجل أو الآجل، شرعًا وقدرًا، يعني: الولي.

قوله: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالعدل والميزان في لغة الروم، قرئت بضم القاف وكسرها، كالقرطاس، وهما لغتان.

قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبة.

قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك، ولا تقل: رأيت، وأنت لم تر، وسمعت، وأنت لم تسمع، وعلمت، وأنت لم تعلم، ولا تذم أحدًا بما ليس لك به علم، وأصل القَفو: البُهت والقذفُ بالباطل، ومنه قوله ﷺ: «نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، لا نَقْفُو أُمَّنَا، وَلا نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا». رواه ابن ماجه بسند لا بأس به من حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه، أي: لا نسبُّ أمنا. قال الشاعر:

فَــلَا أَرْمِــي الْبَــرِيءَ بِغَيْــرِ ذَنْــبٍ وَلَا أَقْفُـــو الْحَوَاصِـــنَ إِنْ قُفِينَـــا

يقال: قفوته أقفوه، وقفته أقوفه، وقَفَيته، إذا اتبعت أثره، ومنه: القافة؛ لتتبعهم الأثر، وقافية كل شيء: آخره، ومنه اسم النبي ﷺ كما جاء في حديث أبي موسى رضي الله عنه عند مسلم: الْمُقفّى. يعني: آخر الأنبياء. ومنه قافية الشعر، لأنّها تأتي في آخر البيت.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ يعني: يوم القيامة، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن شكل بن حميد قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً! قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي».

قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: فرحًا بشدة، وقيل: المرح: التكبر والخيلاء، وتجاوز الإنسان قدره، ولكن قد يكون التكبر والمرح محمودًا، وذلك على أعداء الله والظلمة، فقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن جابر بن عتيك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخُيَلاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ اخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ

الْقِتَالِ، وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّتِي يُبْغِضُ اللهُ فَاخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ وَالْفَخْرِ». قال الشاعر:

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ إِلَّا تَوَاضُعًا ... فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ

وإن كنت في عزٍّ رفيع ومنعةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ

قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: تقطعها مسافة، مأخوذ من الخرق، وهي الصحراء الواسعة، يقال: فلان أخرق من فلان، أي: أكثر سفرًا وعزة ومنعة. أو: لن تتولج باطنها فتعلم ما فيها، ولن تخرقها بكبرك ومشيك عليها.

قوله: ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تساوي الجبال بطولك ولا تطاولك ولا عظمتك ولا قدرتك ولا قوتك ولا إعجابك بنفسك، بل أنت عبد ذليل مُحاط بك من فوقك ومن تحتك، وقد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وقال تعالى عن قارون: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، وعند الترمذي بسند لا بأس به عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي بِالْمُطَيْطَاءِ، وَخَدَمَهَا أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ -أَبْنَاءُ فَارِسَ وَالرُّومِ-؛ سُلِّطَ شِرَارُهَا عَلَى خِيَارِهَا».

قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ أي: كل ما تقدم ذكره مما أمر به ونُهي عنه. والسيء: المكروه الذي لا يرضاه الله، وقرئت: (سيئةً).

قوله: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾ خبر كان منصوب، وفي قراءة: (سيئةً) بدل منه، والتقدير: كان سيئة وكان مكروهًا، وقيل: نعت لـ (سيئة)، وهو قول ضعيف؛ لأن المؤنث إذا ذُكِّر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده مذكرًا. وقد استدل بِهذه الآية على تحريم الرقص وتعاطيه؛ لأنه أشد المرح والبطر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾﴾

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ﴾ أي الإشارة بذلك إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام. أي هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة.

قوله: ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ أي: لابتغت الآلهة منازعة ومقاتلة مع الله كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض، ولطلبوا طريقًا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه مع الزمن؛ لأنّهم شركاؤه، وقيل: اعبدوا الله أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه وتتخذونَهم وسطاء وشفعاء، فلا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نَهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه.

قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: تسبيح مقال، قال تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾، وقد جاء عند البخاري عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ»، وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ». وخبر الجذع وحنينه خرّجه البخاري في مواضع.

قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا﴾ قيل: حجب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرون به ولا يرونه، وهو الأظهر في الآية، وقيل: طَبَعَ الله على قلوبهم، وهو الأكنة في القلوب، والوقر في الآذان حتى لا يفقهوه، ولا يدركوا ما فيه من الحكمة وحقيقة ما أرصد لهم في الدار الآخرة، وقد سمع أبو لهب ما أنزل به، كذا زوجته، فلم يزدهم إلا ضلالًا. حتى قالت العوراء امرأة أبي لهب:

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا

وَدِينَهُ قَلَيْنَا

وكانت امرأة سليطة اللسان، بذيئة العبارة.

قوله: ﴿مَّسۡتُورٗا﴾ قيل: الحجاب مستور عنكم لا ترونه، والثاني: الحجاب ساتر عنكم ما وراءه، ويكون ﴿مَّسۡتُورٗا﴾ بمعنى ساتر.

قوله: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموه، أو كراهية أن يفهموا ما فيه من الحكم والمعاني والأوامر والنواهي.

قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ أي: ثقلًا يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به.

قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي: إذا وحدت الله في تلاوتك وقلت: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾.

قوله: ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ قيل: يعني المشركين، وقيل الشياطين، والأول أصوب. ومعنى: ﴿وَلَّوۡاْ﴾ أي: أدبروا ونفروا راجعين، ومعنى ﴿نُفُورٗا﴾ جمع نافر، مثل: شهود، جمع شاهد، منصوب على الحال.

قوله: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: يستمعونه، والباء صلة، وكانوا يستمعون القرآن ثم ينفرون، فيقولون: هو ساحر ومسحور.

قوله: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ أي: متناجون في أمرك، وكانت نجواهم قولهم: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه يأتي بأساطير الأولين وغير ذلك. وقيل: ﴿نَجۡوَىٰٓ﴾ أي: سرار.

قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كأبي جهل، والوليد بن المغيرة وأمثالهما.

قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ أي: مطبوبًا قد خبله السحر، فاختلط عليه أمره؛ لينفروا عنه، وقيل: ﴿مَّسۡحُورًا﴾ أي: مخدوعًا، مثل قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ أي: من أين تخدعون؟ وقيل: له سَحْر، أي: رئة يأكل الطعام ويشرب الشراب، فهو بشر مثلكم ليس بِمَلك، والعرب تقول للجبان: انتفخ سَحْره، ولكل من أكل من إنسان وغيره أو شرب: مسحور ومُسَحَّر، وعند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي»، والقول الأول هو المراد، والله أعلم. أي: ما تتبعون إلا رجلًا سُحر فجُنَّ فاختلط كلامه.

قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي: قالوا تارة: ساحر، وتارة: مجنون، وتارة: شاعر.

قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ أي: حيلة في صد الناس، وقيل: طريقًا إلى الهدى ومخرجًا مما هم فيه من التناقض.

قوله: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ أي: حُطامًا، والرفات: ما تكسر وبَلِيَ من كل شيء، تقول: رُفت الشيء رفتًا، أي: حُطم، فهو مرفوت، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ

يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ
مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ وهذا على جهة التعجيز، والمعنى: لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم، فلن تفوتوا الله إذا أرادكم، وقيل: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظامًا ولحمًا فكونوا أنتم حجارة أو حديدًا إن قدرتم.

قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قيل: السماوات والأرض؛ لعظمها في النفوس، وقيل: كونوا ما شئتم؛ فإن الله لن يعجزه شيء، وقيل: يعني الموت؛ لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه. قال أمية بن أبي الصلت:

وَلَلْمَوْتُ خَلْقٌ فِي النُّفُوسِ فَظِيعُ

والمعنى: لو كنتم الموت لأمتناكم ولبعثناكم.

قوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركون رؤوسهم من أعلى إلى أسفل وبالعكس استهزاءً، يقال: نغض رأسه ينْغُض وينغِض نغضًا ونُغُوضًا، أي: تحرك، وأنغض رأسه، أي: حركه، كالمتعجب من الشيء. ويقال: نغصت سنّه، أي: تحركت وانقلعت.

قوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب؛ لأن ﴿عَسَى﴾ واجب، نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾. وقوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وكل ما هو آت قريب.

قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ كقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: باستحقاقه الحمد على الإحياء، وقيل: المعنى: والحمد لله، كما قال الشاعر:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم؛ تقولون: سبحانك وبحمدك مقرين ومعترفين وطائعين، ويقول المؤمنون حينئذ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في دار الدنيا ودار البرزخ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من الكلام ألطفه وأحسنه وينطقوا دائمًا بالحسنى، كما قال الحسن: لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله يغفر الله لك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يُشعل نار الفتنة بالكلمة الخشنة يُفلت بها اللسان.

قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قيل: خطاب للمشركين، وقيل: للمؤمنين، والراجح: أنه لجميع الناس؛ فالله أعلم بمن يستحق أن يُهدى ويُرحم ويُوفق للطاعة، ومن لا يستحق أن يُهدى فيعذب، ويوفق للشر والضلالة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فاصطفينا إبراهيم بالخُلَّة، وموسى بالتكليم، وسليمان بالمُلْك العظيم، ومحمدًا ﷺ بالإسراء والمعراج وجعلناه سيّد الأولين والآخرين، وكلُّ ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيءٌ إلا عن حكمته.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: أولئك المدعوون، أو الذين يدعونهم؛ لأن ضمير الصلة محذوف في الآية، وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ، وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ». والمقصود أن المعبودين يبتغون إلى ربّهم ويتضرعون إليه في طلب الوسيلة والزلفة، وهي الجنة، وقيل: ﴿يَدْعُونَ﴾ أي: العابدون و﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: على المعبودين، والقول الأول أولى.

قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ مبتدأ وخبر، والمعنى: يبتغي أيهم أقرب وسيلة إلى الله.

قوله: ﴿مَحْذُورًا﴾ مَخُوفًا لا أمان لأحد منه، فينبغي أن يحذر منه ويخاف.

قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مخربوها، فالصالحة بالموت، والطالحة كما قال تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وقيل: وهو الأولى، وإن من قرية ظالمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مكتوبًا، والسطْر: الخط والكتابة، والسَّطَرُ بالتحريك مثله. والسطر جمع

أسطار، مثل: سبب وأسباب، ثم يجمع على أساطير، وجمع السطر: أسطر وسطور، مثل أفلس وفلوس، والكتاب هنا: اللوح المحفوظ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: التي اقترحوها.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: إلا أن يكذبوا بها، فيهلكوا، كما فُعل بمن كان قبلهم من المكذبين الأولين، كما قال تعالى لقوم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: دالة مضيئة نيرة على صدق صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى قدرة الله تعالى.

قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: بالعبر والمعجزات والآيات الشرعية والكونية، وفي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا مِنْ آيَاتِ اللهِ، يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ كُسُوفًا فَاذْكُرُوا اللهَ حَتَّى يَنْجَلِيَا». قال أحمد بن حنبل: ومن الآيات تقلب الأحوال من صغر إلى شباب، ثم إلى كهولة، ثم إلى مشيب للاعتبار بتقلب الأحوال، ومن ثم يخاف المؤمن عاقبة أمره.

قوله: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ فهم في قبضته وتحت قهره وسلطانه وغلبته وعلمه، فلا يكون لهم إلا ما شاء أن يكون، وفي الآية تطمين وتسلية لرسوله ﷺ حتى يبلِّغ رسالته ولا يخاف من الناس؛ لأنه قد عصمه منهم.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما رواه البخاري: «هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ». وقد سبق بيان ذلك في مطلع السورة.

قوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: امتحانًا واختبارًا، وقد ارتد قوم كانوا أسلموا إسلامًا ضعيفًا حين سمعوا

رسول الله ﷺ يقص عليهم نبأ الإسراء والمعراج.

قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ». رواه البخاري. والمعني فيه تقديم وتأخير، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، وفتنة الشجرة أنّهم لما خُوِّفوا بِها وعلى رأسهم أبو جهل قالوا: يتوعدنا بنار تحرق الحجارة وتنبت الشجر! والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد. ثم أحضروا تمرًا وزبدًا وقالوا: تزقموا.

قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ أي: أستولينّ وأحتوينّ وأضلنّ وأستأصلنّ ذريته بالإغواء وأجتاحهم، وعند العرب: إحْنَكَ الجراد الزرع، إذا ذهب به كله، وقيل: لأسوقنهم حيث شئتُ، وأقودنّهم حيث أردت، من قولهم: حنكت الفرس أحنِكه وأحنُكه حنكًا، إذا جعلت في فيه الرسن، وكذلك: احتنكه، والمعنى متقارب؛ لأنه إنما يأتي على الزرع بالْحَنَك.

قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، وإنما قال إبليس ذلك ظنًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ لأنه قد علم من طبع البشر حين رأى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أجوف تركب الشهوة فيهم، أو بنى على قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: وافرًا، يقال: وفَرْته أفِره وفْرًا، ووَفَر المالُ بنفسه يَفِر وفورًا فهو وافر، فهو لازم ومتعد.

قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: استَنْزِل واستخف، وأصله: القطع، ومنه: تفزز الثوب، إذا انقطع، والمعنى: استنْزِله بقطعك إياه عن الحق، واستفزه الخوف، أي: استخفه، وقعد مُسْتوفزًا، أي: غير مطمئن.

قوله: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ وهو كل داع يدعو إلى معصية الله، ومن صوته الغناء والمزامير، وقد جاء عند الترمذي من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَوَجَدَهُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَتَبْكِي؟ أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنِ الْبُكَاءِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ -خَمْشِ وُجُوهٍ، وَشَقِّ جُيُوبٍ-، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ». حديث حسن. وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: مِزْمَارٌ عِنْدَ نِعْمَةٍ، وَرَنَّةٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ». حديث حسن، رواه البزار.

قوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾ أي: اجمع عليهم، وأصل الإجلاب: السَّوق بجلبة من السائق، يقال: أجلب إجلابًا، والجلب والجلبة: الأصوات، تقول: جلّبوا بالتشديد، وأجلب فلان على فلان، إذا صاح عليه، ومنه: النهي في المسابقة عن الجلب والجنب، حديث حسن رواه أبو داود من حديث عمران وعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعند الشيخين من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَمِعَ جَلَبَةَ خَصْمٍ بِبَابِ حُجْرَتِهِ». وجلب

الشيء يجلِبه ويجلُبه جلبًا وجلْبًا، وجلبت الشيء إلى نفسي، واجتلبته بمعنى واحد.

قوله: ﴿بِخَيْلِكَ﴾ أي: بالخيل، وكل خيل سارت في معصية الله فهي للشيطان، ويدخل في ذلك كل راكب في معصية الله.

قوله: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ أي: بالأرجل، فكل رِجل مشت في معصية الله فهي للشيطان، ويدخل في ذلك كل ماش في معصية الله، والرَّجْل جمع راجل، مثل: صحْب وصاحب، وقرئت بتسكين الجيم وكسرها، وهما لغتان، يقال: رجْل رَجِل، بمعنى راجل، وقرئت: (ورجالك).

قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ أي: في كسبها من الحرام وإنفاقها فيه، وتحريم البحائر والسوائب ونحوها.

قوله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: في أولاد الزنا، وفي صرفهم عن ذكر الله عند الجماع، وقد رُوي عن مجاهد قال: إذا جامع الرجل ولم يُسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا». وقد سبق بيان ذلك. وقيل: تسمية الأولاد بعبد الحارث، أو عبد اللات، أو عبد العزى، أو عبد الشمس.

قوله: ﴿يُزْجِي﴾ أي: يسوق؛ لأن الإزجاء: السَّوق، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾. قال الشاعر:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ ... سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك: سَوْقه بالريح اللينة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

قوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: تلف وفُقد، وهي عبارة تحقير لمن يُدعى إلهًا من دون الله.

قوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى.

قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي: ينهار بكم، والخسف أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: بئر خسيف، إذا انْهدم أصلها، وعين خاسف، أي: غارت حدقتها في الرأس، وعين من الماء خاسفة، أي: غار ماؤها، وخسفت الشمس، أي: غابت عن الأرض.

قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا شديدة، وهي التي ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار، ويقال لها: حاصب وحَصِبة.

قوله: ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي: ريحًا شديدة تكسر بشدة، من قصف الشيء يَقْصِفه، أي: كسره بشدة، يقال: قصفت الريح السفينة، وريح قاصف، ورعد قاصف، أي: شديد الصوت، يقال: قصف الرعد وغيره قصيفًا، والقصيف: هشيم الشجر، والتقصف: التكسر، وأيضًا اللهو واللعب.

قوله: ﴿تَبِيعًا﴾ أي: مطالبًا أو ثائرًا، ويقال لكل من طلب بثأر: تبيع وتابع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: مطالبة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تضعيف كرّم، أي: جعلنا لهم كرمًا وشرفًا وفضلًا، سواءً في خلقهم، أو في عقولهم وتصرفاتِهم، أو في تسخير ما في الأرض لهم وتسلطهم عليهم، قال بعض السلف: قد جعل الله في بعض الحيوان خصالًا يفضل بها ابن آدم، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل، وشجاعة الأسد، وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل.

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بنبيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ قال بعض السلف: وهذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم رسول الله ﷺ. وقيل: بكتابِهم الذي أنزل على نبيهم، وقيل: بكتب أعمالهم، ولعله أرجح الأقوال، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾.

قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: في الدنيا.

قوله: ﴿أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمى البصيرة والاعتبار.

قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أي: أشد عمىً في البصر والبصيرة، كما قال تعالى:

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾.

قوله: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي: صفيًا ومواليًا وصديقًا، وقيل: فقيرًا، مأخوذ من الْخَلَّة بالفتح، وهي الفقر لحاجته إليهم.

قوله: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ أي: تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا.

قوله: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ أي: لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ لأن الذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا
قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ
وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا
مَّحۡمُودٗا ٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ وَقُلۡ
جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ
عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ
ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾

قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا﴾ أي: بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة.

قوله: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ قرئت: (خَلْفَك) أي: بعدك. وقيل: معنى ﴿خِلافَكَ﴾ أي: مخالفتك.

قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وهي المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر. وقيل: هم الكفار قاطبة، أرادوا أن يخرجوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه، فمنعه الله، ولو أخرجوه لم يُمهلوا ولنزل بِهم العذاب الواقع، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: يعذّبون كَسُنَّة من قد أرسلنا، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جاءت بعد ذكر مكايد المشركين لأن فيها طلب النصر على الأعداء، والصبر على البلاء، والنهي عن المنكر والفحشاء، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: وقت زوال الشمس عن كبد السماء للجهة الثانية من السماء وقت

الظهيرة، وقيل: لغروب الشمس، وسميت بالدلوك لأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبينها، أو لشدة الشعاع عند الزوال، ويقال: دلكت بَراح، يعني الشمس، أي: غابت، ومعنى الدلوك: الميل، فيدخل في ذلك الظهر، والعصر، والمغرب، ويصح أن تكون المغرب في غسق الليل.

قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: اجتماع الليل وظلمته وسواده. قال الشاعر:

إِنَّ هَـــذَا اللَّيْـــلَ قَـــدْ غَسَـــقَا ... وَاشْـــتَكَيْتُ الْهَـــمَّ وَالْأَرَقَـــا

وقيل: ﴿غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ مغيب الشفق وإقبال ظلمته. قال الشاعر:

ظَلَّـــتْ تَجُـــودُ يَـــدُهَا وَهِـــيَ لَاهِيَـــةٌ ... حَتَّـــى إِذَا جَـــنَحَ الْإِظْـــلَامُ وَالْغَسَـــقُ

يقال: غسق الليل غسوقًا، وأصل الكلمة من السيلان، يقال: غسقت العين تغسق، إذا سالت، وغسق الجرح غَسقانًا، أي: سال منه ماء أصفر، وأغسق المؤذن، أي: أخّر المغرب إلى غسق الليل، وقد اتفقت الأمة على تعجيل المغرب والمبادرة إليها في حين غروب الشمس.

قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: صلاة الصبح، وقد جاءت كلمة (قرآن) مضافة لما بعدها لتدل على أن المراد بها قراءة القرآن في صلاة الفجر، وليس المراد به القرآن نفسه، وقد انتصب إما على العطف على الصلاة، أو على الإغراء، أي: فعليك بقرآن الفجر، وعبّر عنها بالقرآن دون بقية الصلوات لأنه يطوّل فيها بقراءة القرآن غالبًا مع الجهر، وقد دلت النصوص على ذلك، ومنها حديث أبي برزة ﵁ عند الشيخين، أن النبي ﷺ كان يقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة آية، وفي ورود لفظة (قرآن) مضافة لما بعدها إشارة إلى مواقيت الصلوات الخمس، فما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل صلاتان، هما: الظهر والعصر، وما بين غسق الليل إلى قرآن الفجر صلاتان، هما: المغرب، والعشاء.

قوله: ﴿كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ أي: تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار، ثبت ذلك عند الشيخين عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَفْضُلُ صَلاةُ الْجَمِيعِ صَلاةَ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا، وَتَجْتَمِعُ مَلائِكَةُ اللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ. ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيرَةَ: فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾». وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ، مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ، وَصَلاةِ الْعَصْرِ..». الحديث.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: بعضه.

قوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ من الهجود، وهو من الأضداد، يقال: هجد، أي: نام، وهجد: سهر، وهجد وتَهجد بمعنى، وهجّدته أي: أنمته، وهجّدته أي: أيقظته، والتهجد: التيقظ بعد رقدة، فصار اسمًا للصلاة لأنه ينتبه لها، فالتهجد: القيام إلى الصلاة من النوم، وقيل: الهجود هو النوم قولًا واحدًا، ويكون المعنى: تَهجد

الرجل، أي: قام إلى الصلاة وألقى الهجود، الذي هو النوم عن نفسه، كما يقال: تحرّج وتأثّم وتحنّث وتقذَر وتنجّس، إذا ألقى ذلك عن نفسه، ومثله قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تندمون، وتطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها، يقال: رجل فكِه، إذا كان كثير السرور والضحك، والقول الأول وأنّها من الأضداد أولى بالصواب.

قوله: ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن.

قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: كرامة، وخص بذلك لوجوب ذلك عليه في بداية الأمر، كما سنبين ذلك إن شاء الله في سورة المزمل.

قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهي الشفاعة، كما جاء عند البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ! اشْفَعْ. حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ»، وروى الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سُئِلَ رَسُولِ اللهِ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ، فَقَالَ: هِيَ الشَّفَاعَةُ».

وللنبي ﷺ شفاعات، منها هذه الشفاعة، وهي شفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، ومنها شفاعته لأهل الكبائر، وهي التي أنكرها الخوارج الكلاب، ومنها إدخال قوم الجنة بدون حساب، ومنها الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها، ومنها شفاعته في تخفيف العذاب على أبي طالب، وقد أخبر النبي ﷺ فيما رواه البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وكون قيام الليل سببًا للمقام المحمود لأن فيه الخلوة مع الله عز وجل، والمناجاة دون الناس، وقيل: لحكمة أرادها الله عز وجل، لا يعلمها إلا هو.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ جاء عند الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، فَنَزَلَتْ عَلَيهِ». وهي آية عامة، ودعوة شاملة في كل ما يتناول من الأمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، كقولك: اللهم أصلح لي وِرْدي وصدري في كل الأمور.

قوله: ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي: حجة ثابتة، ونصرًا مبينًا.

قوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ جاء عند البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَوْمَ الْفَتْحِ- وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾».

وعند إسحاق بن راهوية بسند لا بأس به عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْكَعْبَةَ فَرَأَى فِيهَا تَصَاوِيرَ، فَقَالَ لِي: ابْتَغِ لِي مَاءً. فَأَتَيْتُهُ ﷺ بِمَاءٍ فِي دَلْوٍ، فَجَعَلَ يَبُلُّ بِهِ الثَّوْبَ ثُمَّ يَضْرِبُ بِهِ الصُّوَرَ، وَيَقُولُ: قَاتَلَ اللهُ أَقْوَامًا يُصَوِّرُونَ مَا لَا يَخْلُقُونَ». ومعنى قوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام والقرآن والتوحيد، ومعنى قوله: ﴿وَزَهَقَ﴾ أي: تلاشى وبطل واضمحل وهلك، ومن هذا: زهوق النفس، يقال: زَهقت نفسه تَزهق زهوقًا وأزهقتها، فلا بقاء له. ومعنى قوله: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾: الشرك والكفر والشيطان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وإن كانت له صولةٌ وجولة فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عاليًا ثم تخبو سريعًا.

قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ ونظيرها: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، وقد قيل: «مَا جَالَسَ الْقُرْآنَ أَحَدٌ فَقَامَ عَنْهُ إِلا بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ» وقيل: من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله، وكله شفاء للقلوب بزوال الجهل والريب عنها، وشفاء للنفوس بزوال الأمراض عنها، وذلك بالرقى والتعوذ، وذلك بالنفث، وهو النفخ بدون ريق، وأما التفل فهو النفخ مع الريق.

قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: أعرض وتكبّر وتباعد عن القيام بحقوق الله، يقال: نأى الشيء، إذا بعُد، ونأيته ونأيت عنه بمعنى، أي: بَعُدت، والمتنأى: الموضع البعيد. وقيل: هو من النوء، وهو من النهوض والقيام، وقد يقال للوقوع والجلوس: نوء، وهو من الأضداد، وما قدَّمناه أولًا هو ظاهر السياق.

قوله: ﴿يَـُٔوسًا﴾ أي: يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله ولا برحمته.

قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على طبيعته وجبلته وما أشكل عنده وأولى بالصواب في اعتقاده ودينه. وقيل: نيته، وقيل: مأخوذ من الشكل، يقال: لست على شكلي ولا شاكلتي. قال الشاعر:

كُلُّ امْرِئٍ يُشْبِهُهُ فِعْلُهُ مَا يَفْعَلُ الْمَرْءُ فَهُوَ أَهْلُهُ

فالشكل: المثل والنظير والضرب، وقد قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾، وقد قيل: الطيور على أشكالها تقع، يقال: جارية حسنة الشكل، أي: الهيئة، والمعنى: أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي ألفها، وهذا ذم للكافر، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، وهي مدح للمؤمن.

قوله: ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أحسن دينًا وأسرع قبولًا.

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ أي: التي يكون بها حياة الجسد، سألوا عن كيفيتها ومسلكها في بدن الإنسان وكيف امتزاجها بالجسم واتصال الحياة بها، وقيل: عن خلق عظيم يقال له: الروح، وهو قول

وجيه، وقيل: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَسِيبٍ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَنَا خَلْفَهُ) إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَقَالَ: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلُوهُ. فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي (وَفِي رِوَايَةٍ: فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ)، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾».

قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: أمره عظيم وشأنه كبير من أمر الله، مبهم له، وتارك تفصيله؛ فهذه روح الإنسان التي بين جنبيه لا يعرف كنهها وحقيقتها فكيف يعرف بأمر الله، فالأولى أن يعرف الإنسان عجزه عن حقيقة نفسه مع العلم بوجودها، وإذا الإنسان لا يعرف حقيقة نفسه، فمعرفته لحقيقة الله ﷻ أولى وأعجز، ولم يبحث أمرها رسول الله ﷺ ولا الصحابة، وقد جاء عند ابن أبي حاتم بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قَالَتِ الْيَهُودُ: كَيْفَ وَقَدْ أُوتِينَا التَّوْرَاةَ فَنَزَلَتْ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾».

قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن، فكما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق، وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند صحيح قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يُوشِكُ أَنْ يُنْزَعَ مِنْكُمْ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ يُنْزَعُ مِنَّا وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللهُ فِي قُلُوبِنَا، وَأَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟! قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيُنْتَزَعُ مَا فِي الْقُلُوبِ، وَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ مِنْهُ فُقَرَاءَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾».

وعند ابن ماجه بسند صحيح عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْرُسُ الإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ -الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ- يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا». فقال له صِلَة -راوي الحديث-: ما تغني عنهم لا إله إلا الله؟ فقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تنجيهم من النار.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ

عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: لكن لا نشاء ذلك رحمة منا، فلا نذهب له ليبقى رحمة وهدى للعالمين، حتى لا يغير الناس ما بِهم، وتتردى أحوالهم الدينية.

قوله: ﴿يَنۢبُوعًا﴾ يعني من العيون، وهي يفعول من نبع يَنْبَع، وقرئت: (تُفجّر)، وهي وإن كان واحدًا فالمراد به الجمع، والجمع: الينابيع.

قوله: ﴿خِلَٰلَهَا﴾ أي: وسطها.

قوله: ﴿كِسَفًا﴾ أي: قطعًا، والكِسَف: جمع كِسفَة، وقرئت بتسكين السين، جمع كِسْفة، من كسفت الشيء إذا غطيته، فكأنّهم قالوا: أسقطها طبقًا علينا، ويقال: أعطني كِسْفة من ثوبك، أي: قطعة، ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد.

قوله: ﴿قَبِيلًا﴾ أي: معاينة، وقيل: جمع القبيلة، أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، وقيل: ضمناء يضمنون لنا إتيانك به، والقول الأول هو الصواب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾.

قوله: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب، وأصله: الزينة، والمزخرف: المزين، وزخارف الماء: طرائقه.

قوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: تصعد، يقال: رقيت في السُّلَّم أرقى رَقْيًا ورُقيًا، إذا صعدت، وارتقيت مثله.

قوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: من أجل رقيك.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أي: لكل رجل منا، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: الله أجل وأعظم من أن يكون رسوله بشرًا من البشر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ

خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ
جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾

قوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟. قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا!».

قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ أي: سكنت وانطفأت، يقال: خبت النار تخبو خبوًا، وقيل: إذا أرادت أن تخبو، كقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، ولعله أقرب.

قوله: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ أي: نارًا تتلهب وهجًا وجمرًا، قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ أي: تملكون التصرف في خزائن الله من الأرزاق والنعم.

قوله: ﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾ أي: من البخل وفقر النفس، كما قال تعالى في آية سورة النساء: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ أي: بخيلًا، مضيقًا، يقال: قتر على عياله يَقْتِر ويقتُر قترًا وقُتُورًا، إذا ضيق عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار ثلاث لغات.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ جاء في حديث صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ الْمُرَادِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ. فَقَالَ صَاحِبُهُ: لاَ تَقُلْ نَبِيٌّ؛ إِنَّهُ لَو سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ! فَأَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلاَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَسَأَلاَهُ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ -، فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ

الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ، وَلاَ تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلاَ تَسْحَرُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلاَ تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً، وَلاَ تَوَلُّوا الفِرَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً اليَهُودَ أَنْ لاَ تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ. قَالَ: فَقَبَّلُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. وَقَالاَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ قَالُوا: إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لاَ يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ إِنْ تَبِعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا اليَهُودُ». حديث صحيح، رواه الترمذي.

قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ الظن بمعنى التحقيق، والثبور: الهلاك والخسران، وقيل: ملعونًا، وقيل: ممنوعًا من الخير، يقال: ما ثبرك عن كذا، أي: ما منعك منه، وثبره الله يَثْبُره ويُثبِّره لغتان، وقيل: مخبولًا لا عقل لك. وقيل: مسحورًا، أي: رد عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ، والقول الأول أولى.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ أي: مجتمعين مختلطين، يعني بعد الخروج من القبور، يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم، أي: وأخلاطهم، ويقال: طعام لفيف، إذا كان مخلوطًا من جنسين فصاعدًا، وفلان لفيف فلان، أي: صديقه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾

قوله: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: القرآن، يعني متضمنًا للحق.

قوله: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ إليك يا محمد محروسًا محفوظًا، لم يُشب بغيره، لا زيادة فيه ولا نقصان، وقيل: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ الأولى أي: مع الحق، كقولك: ركب الأمير بسيفه، أي: مع سيفه، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ الثانية أي: بمحمد ﷺ نزل عليه، كما تقول: نزلت بزيد، وقيل: التقدير: بالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل، والقول الأول أرجح.

قوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ نصب بفعل مضمر يفسره الظاهر.

قوله: ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ أي: بيّناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل، وفصلنا فيه الحلال والحرام.

قوله: ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: مهل وترسل وترتيل وتثبت وتطاول في المدة شيئًا بعد شيء، ويقال: مَكث ومُكث ومِكث ثلاث لغات.

قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ مبالغة، وتأكيد للمعنى المتقدم، أي: أنزلناه نجمًا بعد نجم.

قوله: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ أي: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالًا، وتكذيبهم له لا يورثه نقصًا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل نزول القرآن وظهور النبي ﷺ، وهم مؤمنو أهل الكتاب.

قوله: ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: كتابهم، وقيل: القرآن.

قوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ أي: للوجوه، وخص الأذقان بالذكر؛ لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان، والأذقان جمع ذقن، وهو مجتمع اللحيين، وهو عبارة عن الوجه هاهنا، وقد يُعبَّر بالشيء عما جاوره، وببعضه عن جميعه، يقال: خر لوجهه ساجدًا وإن كان لم يسجد على خده ولا عينه. قال بعض السلف: من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علمًا؛ لأن الله تعالى نعت العلماء ثم تلا هذه الآية: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾.

قوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ أي: باكين عند استماع القرآن، وعرف بعضهم الخشية: أنها ليونة في القلب ورطوبة في العين.

قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن؛ فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾، قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ أَيْ بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ، فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ، ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمْ، ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾. وَفِي رِوَايَةٍ: أَسْمِعْهُمْ وَلَا تَجْهَرْ حَتَّى يَأْخُذُوا عَنْكَ الْقُرْآنَ»، وجاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت: «أُنْزِلَتْ فِي الدُّعَاءِ».

والمخافتة: خفض الصوت والسكون، يقال للميت إذا برد: خفت، وعبَّر بالصلاة هنا عن القراءة، كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾؛ لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر، ومنه الحديث الذي رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ. . .» أي: قراءة الفاتحة.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ فلم يحالف أحدًا، ولم يطلب نصرًا من أحد، فلم يكن له ناصر يجيره من الذل، فيكون مدافعًا، فهو القوي المتعال، ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة.

قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظِّمه عظمة تامة، يقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر، أي: أكبر من كل شيء.

انتهى تفسير سورة الإسراء، ولله الحمد.

  

سُورَةُ الكَهْفِ

جاء عند الدارمي بسند جيد عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»، ويُروى مرفوعًا بسند لا بأس به عند الحاكم بلفظ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ»، وعند النسائي في عمل اليوم والليلة والحاكم مرفوعًا بسند جيد: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمْعَتَيْنِ».

وفي الصحيحين من حديث البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَخَرَجَ الرَّجُلُ، فَنَظَرَ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا)، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: -وَفِي رِوَايَةٍ: اقْرَأْ فُلَانُ؛- تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ».

وجاء عند مسلم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ -وَفِي رِوَايَةٍ: آخِرِ- سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»، وعند الترمذي بسند صحيح: «مَنْ قَرَأَ ثَلاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ»، وعند مسلم من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حديثه الطويل عن الدجال، وفيه: قال رسول الله ﷺ وهو يصف الدجال: «إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ① قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ② مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ③ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ④﴾

قوله: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي: لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا اعوجاج، بل هو معتدل مستقيم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾.

قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ أي: عقوبة شديدة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الآخرة.

قوله: ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ أي: من عنده، فـ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ㉕ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ وفي لدن ثلاث لغات: لدنُ، ولدى، ولدُ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ⑤ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ⑥ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ
كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠
فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا
يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾

قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ نصبت ﴿كَلِمَةً﴾ على البيان -يعني التمييز-، أي: كبرت تلك الكلمة كلمة، والمعنى: عظمت كلمة، يقال: كبر الشيء، إذا عظم، وكبر الرجل، إذا أسن.

قوله: ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقولون.

قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلك وقاتل نفسك حزنًا عليهم وأسفًا، وجمعها: باخعون وبَخَعَة، وتقول العرب: قد بَخَعْتُ له نصحي نفسي، أي: جهدت له.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ جمع أثر، ويقال: إثر، والمعنى: على أثر توليهم وإعراضهم عنه.

قوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي: بهذا القرآن، فما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهم.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: ترابًا لا نبات به، كأنه قطع نباته، والْجَزْر: القطع، ومنه: سنة جُرُز، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ وقد سبق بيان ذلك، يقال: جَرِزَت الأرض تجْرَز، وجرزها القوم يجرزُونَها، إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات، والمقصود أن الأرض تكون يوم القيامة مستوية لا مستتر فيها، فكل ما على الأرض فانٍ وبائد، وأن المرجع إلى الله، كما قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ». متفق عليه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

قوله: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل؛ لأنّها جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام.

قوله: ﴿حَسِبْتَ﴾ تقرير للنبي ﷺ، على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجبًا.

قوله: ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ النقب المتسع في الجبل، وما لم يتسع فهو غار.

قوله: ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ قيل: وادٍ، وقيل: الصخرة التي كانت على الكهف، وقيل: لوح كتب فيه أسماؤهم وأنسابُهم ودينهم والقوم الكفار الذين فروا منهم، وقيل: الرقيم: أصحاب الغار الذي انطبق عليهم، فسأل كل واحد منهم ربه بأصلح عمله، وحديثهم مخرج في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقد رجح ذلك البخاري، ولعل أولى هذه الأقوال هو قول من ذهب إلى أنه الكتاب، وقد رجحه ابن جرير، وابن

كثير؛ لأن الرقيم بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح.

قوله: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ وهم شبان من طلبة العلم، وحكم لهم بالفتوة لأنّهم آمنوا بلا واسطة، نبذوا عبادة الأصنام، وفروا بدينهم من الفتن لما رأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس.

قوله: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا﴾ هكذا يدعو كل مبتلى في دينه، ومُطارد عن وطنه، فيسأل ربه المغفرة والرزق والصواب والتوفيق للرشاد، والمخرج من المأزق والكروب، وكان رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسند جيد: «إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ».

وهذه الآية صريحة في الفرار بالدين، وهجر الأحبة خوفًا من الفتنة، وقد جاء عند البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ». وعند أبي داود والنسائي بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةِ الْجَبَلِ، يُؤَذِّنُ بِالصَّلاةِ، وَيُصَلِّي فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلاةَ يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ».

ولا ريب أن من عنده القدرة والعزيمة على مخالطة الناس وأمرهم بالمعروف ونَهيهم عن المنكر داخل في قوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي بسند جيد: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ؛ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ».

وقد أعطى رسول الله ﷺ دروسًا في النجاة من الفتن إذا أدلهمت الخطوب، ومن ذلك قوله ﷺ كما في الحديث الحسن عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أنه قال له حين سأله: «مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». وأخرج الطبراني نحوه من حديث ثوبان رضي الله عنه بسند حسن وفيه: «طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ».

قوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ أي: ألقينا عليهم النوم، ومنعناهم عن أن يسمعوا، وصرفنا عنهم شر قومهم، وذلك من قول العرب: ضرب ولي الأمر على يد الرعية، إذا منعهم الفساد، وتخصيص الآذان بالذكر لأنّها الجارحة التي منها معظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يُستحكم نوم إلا من تَعطُّل السمع، ولذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه حين ذكر له أن رجلًا نام حتى أصبح، قال: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ أَوْ قَالَ فِي: أُذُنِهِ».

قوله: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: معدودة، والقصد به العبارة عن التكثير؛ ثم بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعد، فقال سبحانه: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ أي: من بعد رقدتهم، ويقال لمن أُحْيي أو أقيم من نومه: مبعوث؛ لأنه كان ممنوعًا من التصرف والانبعاث.

قوله: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾ أي: المختلفين فيهم، وقيل: الحزب الأول: الفتية، إذ ظنوا لبثهم قليلًا، والحزب الثاني: أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم، وعلم الله هنا هو علم وجود ومشاهدة، وهو موجود في كلام العرب، وإلا فإن الله يعلم ما كان، وما لم يكن قبل خلقه للسماوات والأرض والخلق أجمعين.

قوله: ﴿أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ أي: عددًا، وقيل: غاية.

قوله: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: شددنا عزمهم، وأعطيناهم قوة وصبرًا على لقاء عدوهم، ومنه: يقال: فلان رابط الجأش، إذا كان لا تَفْرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾، ومنه الربط على قلب أم موسى عليها السلام.

قوله: ﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ أي: بين يد ملكهم وشعبه، وقد خالفوا دينهم ورفضوا في ذات الله هيبتهم قائلين: ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾.

قوله: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ أي: جورًا ومُحالًا وباطلًا وكذبًا وبُهتانًا.

قوله: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ أي: هلاّ يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾

قوله: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ ي: التجئوا إلى الكهف.

قوله: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: يبسط ربكم ويوسّعُ عليكم.

قوله: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ أي: ما ترتفقون به من غداء وعشاء في هذا الغار.

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ أي: تتنحى وتميل من الازورار، والزور: الميل، وقرئت: (تزَّاور) بإدغام التاء في الزاي، والأصل: تتزاور، وقرئت: (تزورُّ) مثل: تحمرّ، والكل معناه واحد.

قوله: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تتركهم، يقال: قرضه يقرضه، إذا تركه، والمعنى: أنّهم كانوا لا تصيبهم شمس البتة كرامة لهم، وقيل: يصيبهم يسير منها، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة، أي: تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها؛ لأن في مسها لهم في العشي إصلاحًا لأجسادهم.

قوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الكهف، والفجوة: المتسع، وجمعها فجوات وفِجاء، مثل: ركوة وركوات ورِكاء.

قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قيل: لكثرة تقلبهم كالمستيقظ في مضجعه، وقيل: لأن عيونهم لم تنطبق؛ حتى لا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، وقد ذكر أن الذئب ينام فيطبق عينًا ويفتح أخرى والعكس. قال الشاعر:

يَنَامُ بإحْدَى مُقْلتَيه وَيَتَّقِي بأُخْرَى الرَّزَايَا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ ولو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض.

قوله: ﴿وَكَلْبُهُم﴾ أي: كلب حقيقة، وكان لصيدهم وزرعهم وغنمهم، فلحق بهم وأصاب من بركتهم، فذكره الله ﷻ في محكم تنزيله، قال ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه.

قوله: ﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ وهذا شأن الكلب، وقد قال رسول الله ﷺ: «اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ، وَلا يَبْسُطْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الْكَلْبِ». رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه.

قوله: ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي: الفناء، والجمع: وصائد ووُصُد، وقيل: الباب، والباب الموصد هو المغلق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة مغلقة، يقال: وصيد وأصيد، ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، وهذا من سجيته وطبيعته كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب، كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره، ويقال: للنبات المتقارب الأول وصيد فهو مشترك.

قوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ لأنهم حُفوا بالرعب واكتُنِفوا بالهيبة، حتى لا تمسهم يد، ولا يدنو منهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله، وقيل: لوحشة مكانهم، وقرئت: (لَمُلِّئتَ) بتشديد اللام على تضعيف المبالغة، أي: مُلِئت ثم ملئت، وقرئت: ﴿رُعْبًا﴾: (رُعُبًا)، وهما لغتان، وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن معاوية رضي الله عنه: «أَنَّهُ غَزَا الرُّومَ فَمَرَّ بِكَهْفٍ فَقَالَ: لَوْ كُشِفَ لَنَا عَنْ هَؤُلاءِ فَنَظَرْنَا إِلَيْهِمْ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ، قَدْ مَنَعَ اللهُ ذَلِكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَالَ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾. قَالَ مُعَاوِيَةُ: لا أَنْتَهِي حَتَّى أَعْلَمَ عِلْمَهُمْ. قَالَ: فَبَعَثَ نَاسًا، فَقَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا. فَلَمَّا دَخَلُوا الْكَهْفَ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا فَأَخْرَجَتْهُمْ». صححه ابن حجر في تغليق التعليق.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ أي: أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيآتِهم في ثيابهم وأحوالهم وورقهم.

قوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡ﴾ اللام لام الصيرورة والعاقبة، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾، فالبعث ليس لأجل التساؤل.

قوله: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾ قرئت: (بورْقكم)، وهي الدراهم.

قوله: ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ أي: أحل ذبيحة وأكثر بركة وأطيب مطعمًا، وهو الأَوْلى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾، ومنه: زكا الزرع، إذا كثر. وقيل: أكثر طعامًا.

قوله: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أي: عند دخول المدينة وشراء الطعام.

قوله: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ أي: لا يخبرن بكم أحدًا إن ظهر عليه حتى لا يؤذي إخوانه.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ أي: يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج وأخذ الحيطة والحذر. فلما وصل إلى المدينة وإذا هي كما قال الشاعر:

أَمَّا الدّيارُ فإنَّها كَديارِهِم ... وَأَرَى رِجالَ الحَيِّ غَيْرَ رِجالِه

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أطلعنا وأظهرنا عليهم.

قوله: ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ يعني: الأمة المسلمة الذين بعث الله أهل الكهف على عهدهم، قد وقع منهم شك في البعث وفي أمر القيامة.

قوله: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ قيل: المسلمون، وقيل: المشركون، والظاهر أنّهم أصحاب

الكلمة والنفوذ.

قوله: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗا﴾ ليكون علمًا عليهم.

قوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ ولا شك أن قولهم باطل، ولو فعلوه لكان فعلهم جرمًا عظيمًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»، رواه الشيخان من حديث عائشة، وابن عباس، وأبي هريرة رضي الله عنهم.

قوله: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ قيل: هم أهل التوراة، ومعاصرو محمد ﷺ، وقيل: المراد بهم النصارى الذين حضروا إلى النبي ﷺ في نجران، وقولهم قول خطأ.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ وهذا قول ثانٍ، وهو أيضًا خطأ، ولذا قال تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي: قولًا بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيبه، والرجم: القول بالظن، ويقال: ما يُخرص: رَجَم فيه مرجوم ومُرْجَم.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ وهذا قول ثالث، وقد سُكت عن الحكم عليه، ولعله الأقرب إلى الصواب.

قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد الكلام إلى الله؛ إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا.

قوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ أي: من الناس، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح عند ابن جرير قال: أنا من القليل الذين استثناهم الله، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ﴾ أي: لا تجادل إلا بما أوحينا إليك، وهو رد علم عدتهم إلى الله، ويكون ذلك بسهولة ولين.

قوله: ﴿ظَٰهِرٗا﴾ أي: ذاهبًا، أي: لا مراءً حقيقيًا وهو المذموم. قال الشاعر:

وَعَيَّرَهَا الْوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا ... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: لا تسأل عنهم أحدًا، وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا بمشيئة الله، وهو أمر لكل من سيفعل فعلًا مستقبليًا، حتى لا يكون مُحقِّقًا لحكم الخبر؛ ثم لا يفعل ذلك فيكون كاذبًا، وهو أدب إسلامي.

قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك، وقيل: إذا غضبت،

والذي يظهر أنه إرشاد عام، لكن من نسي الشيء في كلامه؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ وذكر الله يطرد الشيطان.

قوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ قيل: هذا ذكر النسيان.

قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ أي: ما أبصره وأسمعه، فلا أجد أبصر ولا أسمع من الله، وقيل: أبصر بوحي الله وإرشاده، وأسْمِع به الناس، وقيل: أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم، والقول الأول أقرب، والقول الثاني والقول الثالث لهما وجه.

قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ أي: لن تجد من دون القرآن ملجئًا ولا موئلًا، وأصله: الميل، ومن لجأت إليه، فقد مِلْت إليه، وهذا آخر قصة أصحاب الكهف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾﴾

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، وقد سبق بيان ذلك في سورة الأنعام.

قوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا وزينتها، ولا تحتقرهم، كما يقال: فلان تنبو عنه العين، أي: هو مستحقر.

قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجالسك، والتقدير: لا تعد عيناك مريدًا.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يعني: من ختمنا على قلبه وتركناه غافلًا عن التوحيد.

قوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي: متجاوزًا الحد، من الإفراط، وقيل: قدمًا في الشر، من قولهم: فَرَط منه أمر، أي: سبق.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ وهذا أمر تَهديد ووعيد، وليس بترخيص أو تخيير،

والمعنى: إن كفرتم فلكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة.

قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها وحائطها، وقيل: التي تمد فوق صحن الدار، والمعنى: أن السرادق هو ما يعلو الكفار من نار ودخان.

قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ مثل رديء الزيت قد انتهى حره، وكل ما أُذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس فتموّج بالغليان فهو مهل، وقيل: ضرب من القطران، يقال: مَهلت البعير فهو ممهول.

قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: مجتمعًا ومنْزلًا ومهادًا وقصرًا، وأصله من المتكأ، يقال: ارتفقت، أي: اتكأت على المرفق، وفي الحديث المتفق عليه قي قصة النمرقة التي فيها تصاوير قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فَأَخَذْتُهُ فَجَعَلْتُهُ مِرْفَقَتَيْنِ فَكَانَ يَرْتَفِقُ بِهِمَا فِي الْبَيْتِ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ». ويقال: ارتفق الرجل، إذا نام على مرفقه لا يأتيه نوم.

قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، يقال: عدن بالمكان، إذا أقام به، وعدنت البلد: توطنته، وعَدَنت الإبل بمكان كذا: لزمته فلم تبرح منه، ومنه سمي الْمَعْدِن لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء، ومركز كل شيء معدنه، والعادن: الناقة المقيمة في المرعى، وعدن: بلد باليمن.

قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ من الحلية، قال ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واللفظ لمسلم: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ». يقال: حليت المرأة تَحْلى فهي حالية، إذا لبست الحلي، وحَلِي الشيء بعيني يَحْلَى.

قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ جمع سوار، وقيل: جمع أسورة، وهو الذي يلبس في الذراع من الذهب، فإن كانت من فضة فهي قُلْب، وجمعها قِلَبَة، فإن كان من قرن أو عاج فهي مَسَكة، وجمعها: مَسَك.

قوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لموافقته للبصر؛ لأن البياض يبدد النظر ويؤلم، والسواد يُذم، والخضرة بين السواد والبياض.

قوله: ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ واحِدُه: سندسة، وهو الرقيق من الديباج.

قوله: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ من الديباج، وقيل: الحرير، وتصغيره: أُبيرق.

قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، وهي السرر في الحجال، وقيل: الفرش في الحجال، ويقال: رجل وُكَأة، إذا كان كثير الاتكاء.

قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

قوله: ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾ أي: أطفنا من جوانبهما، والحفاف: الجانب، وجمعه أحفة، ويقال: حفَّ القوم بفلان يحفون حفًا، أي: طافوا به، ومنه قوله تعالى: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

قوله: ﴿بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع.

قوله: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ تامًا.

قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص.

قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر.

قوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه ويجاوبه، والمحاورة والتحاور: التجاوب.

قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أتباعًا وخدمًا وولدًا، وهي أمنية الفاجر، والنفر هم الرهط ما دون العشرة كما تقدم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها، ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار، وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر.

قوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ إنكار لفناء الدار.

قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: لا أحسب البعث كائنًا.

قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: معادًا كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي: في الدار الآخرة، تألى على الله، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ

لَلْحُسْنَىٰ﴾.

قوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك؛ بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، وقرئت: (لكنا) في حال الوقف والوصل معًا بإثبات الألف. قال الأعشى:

فَكَيْــفَ أَنَــا وَانْتِحَــالَ الْقَــوَافِي بَعْــدَ الْمَشِــيبِ كَفَــى ذَاكَ عَــارًا

ولا خلاف في إثباتها في الوقف.

والضمير في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ ضمير القصة والشأن والأمر، كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وروي عن الكسائي: (لكن هو الله) بمعنى: لكن الأمر هو الله ربي.

قوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ ﴿إِن﴾ شرط، و ﴿تَرَنِ﴾ مجزوم به، والجواب: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ بمعنى: فلعل ربي.

قوله: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مرامي من السماء، واحدها: حسبانة، ويقال للوِسادة والصاعقة والسحابة: حسبانة، ويقال: أصابَ الأرضَ حسبان، أي: جراد، والحسبان أيضًا: الحساب، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، وقد فُسر الحسبان هنا بهذا، أي: يرسل عليها عذاب السماء، وهو بما اكتسبت يداك، إما يرسل عذابًا من السماء، أو مطرًا عظيمًا مزعجًا، يقتلع الزرع والأشجار.

قوله: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا﴾ أي: أرضًا بيضاء لا ينبت فيها نبات، وهي أضر أرض، بعد أن كانت جنة أنفع أرض.

قوله: ﴿زَلَقًا﴾ تأكيد لوصف الصعيد، أي تزل عنها الأقدام، فلا يثبت عليها قدم لملاستها، يقال: مكان زَلَق أي: دَحْض، يقال: زلِقت رجله تَزْلَق زَلَقًا، وأزْلَقَها غيره، والزلق أيضًا: عجز الدابة. قال الشاعر:

كَأَنَّهَا حَقْبَاءُ بَلْقَاءُ الزَّلَقُ

ويقال للحلق: الزَّلْق، زَلَق رأسه يزْلِقُه زلْقًا، حلقه، والزَّلَق: المحلوق، كالنَّقْض والنَّقَض، والمقصود: أنّها لا يبقى فيها نبات، كالرأس إذا حلق لا يبقى عليه شعر، وكلا المعنيين معتبران في المعنى.

قوله: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ أي: غائرًا ذاهبًا، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ والغور: مصدر وضع موضع الاسم، كما يقال: رجلٌ صومٌ وفطرٌ وعدلٌ وفضلٌ، ونساء نوحٌ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، والتثنية والجمع، ويقال: غارت عينه تغور غوْرًا وغؤورًا: دخلت في الرأس، وغارت تَغار لغة: فيه، وغارت الشمس تغور غيارًا: أي غربت. قال الشاعر:

هَــلِ الــدَّهْرُ إِلَّا لَيْلَــةٌ وَنَهَارُهَــا وَإِلَّا طُلُــوعُ الشَّــمْسِ ثُــمَّ غِيَارُهَــا

قوله: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: لن تستطيع رد الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة.

قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أهلك ماله كله.

قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ يدل على أن هذا الإهلاك جرى بالليل، كقوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾.

قوله: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: يصفق كفيه متأسفًا متلهفًا، وهذا يصدر من النادم.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ يقول: أنفقت في هذا كذا، وأنفقت على هذا كذا، ولا يرى عوض ما أنفق.

قوله: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية سقط بعضها على بعض، مأخوذ من خَوَتِ النجوم تخوي خيًا: أمحلت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾.

قوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز، فلا نُصِرَ ولا انتصر.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعًا مستردًا لما ذهب منه.

قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ منهم من يقف على ﴿هُنَالِكَ﴾، ويجعل الولاية مبتدأ، وقد اختلف في قراءة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، فمنهم من فتح الواو، فيكون: هناك الموالاة لله إذا وقع العذاب، كقوله تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾، ومنهم من كسر الواو، أي: هنالك الحكم لله الحق، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، وقيل: معناهما واحد، كالرَّضاعة والرِّضاعة، وقيل: بفتح الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق، ثم إن منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، والتقدير: لله ذي الحق، أو على التقديم والتأخير، والتقدير: الولاية لله الحق هنالك، قال الزجاج: ويجوز النصب على المصدر والتوكيد، كما تقول: هذا لك حقًا.

قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: الله، فعنده ثواب الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرئت: (عُقُبًا) وهما بمعنى واحد، أي: هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به، يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعَقْبُه، أي: آخره.

قوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي: متكسرًا ومتفتتًا من اليُبس بانقطاع الماء عنه، والهَشْم: كسر اليابس، ومنه قولهم: ما فلان إلا هشِيمة كرْم، إذا كان سمحًا، ورجل هشيم: ضعيف البدن، وتَهشم عليه فلان، إذا تعطف، واهتشم ما في ضرع الناقة، إذا احتلبه، ويقال: هَشَمَ الثريد.

قوله: ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ أي: تفرقه وتديره وتذهب به وتجيء، يقال: ذَرَتْه الريح تذروه ذروًا، وتَذرِيه ذريًا، وأذرته تُذريه إذراءً، إذا طارت به، وأذريت الرجل عن فرسه، أي: قلبته.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ أي: قادرًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: أعمال الخير والأعمال الصالحة يبقى ثوابُها، ويدوم جزاؤها أبد الآباد، وهي خيرُ أملٍ يؤمله العبد، وأفضل ثواب يرجوه عند الله تعالى، ومن الأعمال الصالحة التي أوصانا بها نبينا محمد ﷺ قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كما صرحت بذلك الأحاديث الصحاح والحسان، والتي منها حديث عثمان رضي الله عنه عند أحمد، وحديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عند أحمد أيضًا، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن جرير، وقد روى أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ. قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمِلَّةُ. قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمِلَّةُ. قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ». حسنه ابن حجر.

وجاء عند الحاكم بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ. قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: لَا، جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهَا يَاتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدَّمَاتٍ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ».

قوله: ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ أي: أفضل أملًا من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ قرئت: (تَسيرُ)، و (تُسَيَّر) كما قال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ أي: تزول عن أماكنها من على وجه الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ

ٱلسَّحَابِ﴾، ثم تكسر وتعود إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، والتقدير: واذكر يوم نسير الجبال.

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة قد برزت كنوزها وأمواتُها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

قوله: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم نترك، يقال: غادرت كذا، أي: تركته، والمغادرة: الترك، ومنه الغدر؛ لأنه ترك الوفاء، وإنما سمي الغدير من الماء غديرًا لأن الماء ذهب وتركه، ومنه غدائر المرأة؛ لأنّها تجعلها خلفها، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ منصوب على الحال، يعني: صفًا بعد صف، كل أمة صف، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وقيل: جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي: جميعًا، وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، وقيل: قيامًا، والقول الأول وجيه، والثاني أوجه، والثالث مرجوح.

قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: زعمتم في الدنيا ألن تبعثوا، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: وضع كتاب الأعمال في أيدي العباد، أو وضعه للحساب، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: أعوانه من الشياطين الذين يوسوسون ويأتون بالشبهات ويزينون الشهوات المحرمة.

قوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس عبادة الشيطان بدلًا من عبادة الرحمن.

قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: لم أشاور أحدًا ولم أستعن

بأحد، لا إبليس ولا ذريته، فالكل خلقي، خلقتهم على ما أريد، فالمهتدي من هديته، والضال من أضللته، والسعيد من أسعدته، والشقي من أشقيته، فليس لأحد مشيئة إلا بعد مشيئتي، ولا لأحد إرادة إلا بعد إرادتي، والكل في قبضتي، والكل عبادي، والكل فقراء إلي.

قوله: ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعوانًا، يقال: اعتضدت بفلان، إذا استعنت به وتقويت، والأصل فيه عضد اليد، ثم يوضع موضع العون؛ لأن اليد قوامها العضد، يقال: عَضَده وعَاضَدَه على كذا، إذا أعانه وأعزه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنعينك بأخيك، ولفظ العضد على جهة المثل، وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ، وإلا فالله لا يحتاج إلى عون أحد، وفي عضد ثماني لغات: عَضُد وهي أفصحها، وعَضْد، وعِضَد، وعُضُد، وعُضْد، وعَضَد، وعَضِد، وعِضْد.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي: حاجزًا، كقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، وكل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق، وقيل: مَهْلِكًا، ومنه يقال: أوبقته ذنوبه إيباقًا، وبق يَبِق وُبُوقًا: هَلَك، والموبق مثل الموعد، من وعد يَعِد، وفيه لغة أخرى: وَبِق يَوْبَق وَبَقًا، وفيه لغة ثالثة: وَبِق يَبِق. قال الشاعر:

وَمَـــنْ يَشْـــتَرِي حُسْـــنَ الثَّنَـــاءِ بِمَالِـــهِ ... يَصُــنْ عِرْضَــهُ مِــنْ كُــلِّ شَــنْعَاءَ مُوبِــقِ

أي: مَهلك.

قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: أيقنوا وعلموا: ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ والمواقعة ملابسة الشيء بشدة، والمعنى: تحققوا وقوعهم في النار.

قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: مهربًا؛ لإحاطتها بهم من كل جانب، ولا يجدون معدلًا ينصرفون إليه عنها، ولا ملجئًا يختفون فيه عنها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ جاء في الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ

ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَا تُصَلُّونَ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا. فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَيَقُولُ: «﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾».

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنتنا في إهلاكهم، أي: ما منعهم من الإيمان إلا حكمي عليهم بذلك، ولو حكمت عليهم بالإيمان لآمنوا، وقيل: وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين، وسنة الأولين: معاينة العذاب.

قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: عيانًا وفجأة، وقرئت: (قِبَلًا)، وهي جمع قبيل، وقيل: متفرقًا يتلو بعضه بعضًا، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ليزيلوا ويبطلوا به الحق، وأصل الدحض: الزّلق، يقال: دَحَضَت رجله، أي: زلقت، ودَحَضت حجته دحوضًا، بطلت، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه في وصف الصراط: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ» أي: تزلق فيه القدم، وعند مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الظُّهْرَ إِذَا دَحَضَتِ الشَّمْسُ». يعني: إذا غربت.

قوله: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ترك كفره ومعاصيه، فلم يتب منها، فالنسيان هنا: الترك، وقيل: نسي ما قدم لنفسه، وحصّل من العذاب، والكل معتبر.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: أغطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام.

قوله: ﴿وَقْرًا﴾ أي: صممًا.

قوله: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي: مَحْرزًا وملجئًا، يقال: وَأَلَ وأْلًا ووُءُولًا، أي: فُعول: أي: لجأ ووَاءَلَ منه على فاعل، أي: طلب النجاة، والعرب تقول: لا وَأَلَت نفسُه، أي: لا نَجَت.

قوله: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير، وقيل: لا أفارقك.

قوله: ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: مُلتقاهما.

قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي: دهرًا غير محدود، والجمع: أحقاب، وقد تُسَكَّن قافه فيقال: حُقْب، وهو ثمانون سنة، ويقال أكثر من ذلك، والجمع: حِقاب، والحِقبة واحدها: الحقُب، وهي السنون.

قوله: ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: بين البحرين.

قوله: ﴿سَرَبًا﴾ أي: مسلكًا، يعني: جمد الماء فصار كالسرب، وبقي موضع سلوك الحوت فارغًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ

أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني: الحوت هناك منسيًا متروكًا.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ للناس، ويحتمل إخبارًا من الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجبًا، أي: تعجبًا منه.

قوله: ﴿إِمْرًا﴾ أي: عجبًا ومنكرًا، ويقال: للداهية العظيمة: إمر. قال الشاعر:

قَدْ لَقِيَ الْأَقْرَانُ مِنِّي نُكْرَا ... دَاهِيَةً دَهْيَاءَ إِدًّا إِمْرَا

يقال: أَمِرَ أَمْرُهُ يأْمَر أَمَرًا، إذا اشتد، والاسم: الإمْر.

قوله: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ قرئت: (زاكية)، يقال: الزاكية: التي لم تذنب قط، والزكية: التي أذنبت ثم تابت، وقيل: المعنى واحد، وأن المقصود: نفس صغيرة لم تذنب بعد، وهو الصحيح؛ لأن الغلام في الرجال يقال لمن لم يبلغ، وتقابله الجارية في النساء، وربما أطلقت العرب على الشاب اسم الغلام.

قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيعًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

قوله: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ أي: قد أعذرت إليَّ في ترك مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ وفي الحديث المتفق عليه من طريق أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

قوله: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾ أي: دينًا وصلاحًا.

قوله: ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ أي: وأوصل رحِمًا، قيل: بدل جارية، وقيل: غلام مسلم. قال الشاعر:

يَـا مُنْـزِلَ الـرُّحْمِ عَلَـى إِدْرِيسَـا ... وَمُنْـزِلَ اللَّعْـنِ علـى إبليسـا

وقرئت بضم الحاء، قال الشاعر:

وَكَيْـفَ بِظُلْـمِ جارِيَـةٍ ... وَمِنْهَـا اللِّيـنُ وَالـرُّحُمُ

قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ فيه دليل على أن عمل الخير يظهر أثره في الذرية، وأن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته، وتشملهم بركة دعائه لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم، وقد جاء عند الحميدي والحاكم بسند صحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حُفِظَا لِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَمَا ذَكَرَ عَنْهُمَا صَلَاحًا».

وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفتاه مع الحوت والخضر أثبتها الرسول ﷺ كما أثبتها القرآن، فقد جاء في الصحيحين

وقد جاء عند الشيخين عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: «قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّا لَعِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي بَيْتِهِ، إِذْ قَالَ: سَلُونِي. قُلْتُ: أَيْ أَبَا عَبَّاسٍ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ!) إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ! فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ! حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ -وَفِي رِوَايَةٍ: ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا، -ولمسلم: بِأَيَّامِ اللهِ، وَأَيَّامُ اللهِ نَعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ-. (حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى) -، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: بَلَى، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ - وَفِي رِوَايَةٍ: عَبْدُنَا خَضِرٌ-. قَالَ: أَيْ رَبِّ! وَمَنْ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حُوتًا – ولمسلم: مَالِحًا-، فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، حَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ (وَفِي رِوَايَةٍ: خُذْ نُونًا مَيِّتًا، حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ). وَأَخَذَ حُوتًا، فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ. قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا). حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَى، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ،

فَخَرَجَ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَمُوسَى نَائِمٌ، (فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أُوقِظُهُ). حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ-، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾. وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلَهُمَا عَجَبًا، قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ مُوسَى -وَفِي رِوَايَةٍ: فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ-، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾. قَالَ: (وَفِي رِوَايَةٍ: أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ؟) يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ. قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا﴾، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ (نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ)، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ) مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ. (إِذْ أَخَذَ الْفَأْسَ) فَنَزَعَ لَوْحًا. (قَالَ: فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالْقَدُّومِ) (وَفِي رِوَايَةٍ: وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا)؛ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَا صَنَعْتَ؟! قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا (وَفِي رِوَايَةٍ: وَالْوُسْطَى شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا)، فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: أَخَذَ غُلَامًا كَافِرًا ظَرِيفًا، فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ)، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ -وَفِي رِوَايَةٍ: زَاكِيَةً- ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ -ولمسلم: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ هَذَا الْمَكَانِ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى! لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ. قَالَ: وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي-. ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ مَائِلًا، أَوْمَأَ بِيَدِهِ هَكَذَا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَقَامَهُ-، قَالَ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ! ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا. وَقَرَأَ ابْنُ

عَبَّاسٍ: أَمَامَهُمْ ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صَالِحَةٍ ﴿غَصْبًا ۝٧٩ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ﴾ كَافِرًا وَكَانَ ﴿أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾».

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند البخاري قال ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ».

وهنا سؤال: هل الخضر الآن حي أم لا؟

والجواب الذي لا مرية فيه أنه ليس بحيّ؛ بل هو ميت من الأموات، كغيره من عباد الله، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويا للعجب ممن أخرجه من زمرة هؤلاء! وهل هو أفضل من نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، قال رسول الله ﷺ كما جاء عند مسلم: «اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ»، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ ذات ليلة صلاة الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ».

وأما من قال: إنه حي لأنه شرب من عين الحياة وأنه باق في الأرض، وأنه يحج البيت، فإنما هو قول لا برهان لقائله، لا من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ؛ بل ولا من أقوال الصحابة الثابتة الصحيحة. وكل ما نُقِل عن الصحابة في هذا الباب لا يصح سنده، وأما من قال: إن الحديث عام مخصص، فيخرج من عمومه الملائكة، والجن، والحيوانات غير العاقلة، والدجال، وأصحاب الكهف، وعيسى بن مريم عليه السلام، وإلياس عليه السلام، فيقال: الحديث إنما هو عام للمكلفين السامعين ومن كان من جنسهم؛ لأن النبي ﷺ لم يخاطب يومًا من الأيام الملائكة حتى نقول بتخصيصهم، وأما الجن فنعم، قد خاطبهم، ولكن لم يكونوا من جنس السامعين، فلهم طبيعتهم وخصوصياتُهم التي يفترقون بها عن الإنس، فيستحيل أن يعطوا حكمهم في جميع الأمور، ومن ذلك تحديد الأعمار، وقد قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الحسن عند الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: « أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ سِتِّينَ إِلَى سَبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ». فلا يمكن أن يقال: الجن داخلون في هذا الحكم، وأما بالنسبة للدجال، فقد جاء النص الصريح المخصص بأنه حي يرزق، ألا وهو حديث تميم الداري رضي الله عنه عند مسلم، وأما عيسى عليه السلام فنعم، هو حي، ولكنه في السماء، فلا يدخل في الخطاب؛ لقول الرسول ﷺ في الحديث: «مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ»، وأما فتى موسى عليه السلام، وأصحاب الكهف، وإلياس عليه السلام فإثبات حياتهم خرافة من الخرافات، وسخافة من السخافات، لا يقولها إلا الجاهل بسنة الرسول ﷺ، ولا أظن أن أحدًا أعطاه الله فهمًا وعلمًا قد استقرأ النصوص الشرعية يقول بحياة الخضر، ومن الغريب أن النووي، وابن الصلاح، والقرطبي ذهبوا إلى القول

بحياته، وكل ما استدلوا به حكايات وآثار لا يصح منها شيء باتفاق المحدثين، ومن قال بحياة الخضر فقد أبعد عن الصواب، وقال بقول ليس له دليل، لا في كتاب، ولا في سنة من أُنزل عليه فصل الخطاب ﷺ، رزقنا الله العلم النافع والفهم الثاقب، والله الهادي إلى سواء السبيل.

قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: عن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ التاء محذوفة للتخفيف وتدعى (تاء الخفة)، ونلاحظ أن (التاء) كانت موجودة في الفعل (تستطع) في الآية الأولى، ووجودها أمر لا يحتاج إلى تعليل لأنها على أصلها، فالماضي (استطاع) والمضارع (تستطيع)، وقد حذفت في المرة الثانية للتخفيف، لتتناسب مع سياق القصة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي: أسباب الملك، والسلطان، والفتح، والعمران.

قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قرئت: (فاتّبع سببًا) أي: سببًا من الأسباب التي أوتيها وسار لمهمه، يقال: تبعته واتبعته بمعنى: مثل: ردفته وأردفته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، ومنه: الإتباع في الكلام، مثل: حَسَنٌ بَسَنٌ، وقبيحٌ شقيحٌ، والمقصود أن تبع واتّبع لغات بمعنى واحد، وأن السبب هو سلوك الطرق المعلومة والمنازل المأثورة، التي بسببها يبلغ هدفه.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربًا حتى وصل إلى جرمها ومَسَّها؛ لأن هذا محال، لأنّها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض؛ بل هي أكبر من الأرض بأضعاف مضاعفة باتفاق الناس، وإنما المقصود أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة الغرب، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة، كما أننا نشاهدها في

الأرض الملساء كأنّها تدخل في الأرض.

قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء، وقرئت: (حامية) أي: حارة، والمقصود أنّها عين حارة وذات حمأة، يقال: حمأت البئر حمًا، إذا نزعت حَمأتُها، وحَمِئت البئر أنّها عين حارة وذات حمأة، يقال: حمأت البئر حمأ، إذا نزعت حَمأتُها، وحَمِئت البئر حمأ: كثرت حمأتُها، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَقْرَأَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا أَقْرَأَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ مُخَفَّفَةً». رواه الترمذي وقال: الصحيح ما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قراءته.

قوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: عند العين، أو نهاية العين.

قوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو وحي إلهام، فلم يكن نبيًا قطعًا، ولم يوح إليه وحي حقيقي أبدًا، وربما خاطبه سبحانه على لسان نبي في وقته.

قوله: ﴿إِمَّآ﴾ أي: خيَّره بين الحكمين، وقد قال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾، بمعنى فإما هو، كما قال الشاعر:

فَسِيرًا فَإِمَّا حَاجَةٌ تَقْضِيَانِهَا ... وَإِمَّا مُقِيلٌ صَالِحٌ وَصَدِيقُ

قوله: ﴿أَن تُعَذِّبَ﴾ في موضع نصب، ولو رفعت كان صوابًا.

قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: أقام على الشرك والكفر.

قوله: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: بالقتل.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: عند الله، وهي الجنة، وقرئت: (جزاءُ الحسنى) بالرفع على الابتداء، و ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ في موضع خفض بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ﴾، ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين، والتقدير: فله الحسنى جزاء، فتكون إما منصوبة على التمييز، وقيل: على المصدر، أي: مجزي بها جزاءً.

قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: سلك طريقًا بجنده نحو المشرق.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد، والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ والمطلَع والمطلِع بمعنى أي: موضع الطلوع.

قوله: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: حجابًا يستترون به منها عند طلوعها؛ لأنّهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، وقيل: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، وإنما فيها أسراب لهم يقطنونَها.

قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: سلك طريقًا ثالثًا بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث

الجبال الشاهقة.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قرئت: (السُّدَّيْنِ) وهما متناوحان، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج، يقال: إنّهم بين أرمينية وأذربيجان.

قوله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما.

قوله: ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرئت: (يُفْقِهون) من أفقه، إذا أبان، أي: لا يُفْقِهُونَ غيرَهُم كلامًا، وعلى القراءة المشهورة أي: لا يعلمون، والمقصود أنّهم لا يفقهون من غيرهم، ولا يُفقهون غيرهم.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: قالت أمة من الإنس صالحة.

قوله: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ وهما قبيلتان من الإنس، فقراءة الهمز: ﴿يَأْجُوجَ﴾ يفعول، ﴿وَمَأْجُوجَ﴾ مفعول، كأنه من أجيج النار، إذا ضويت، ومنه: ملح أجاج، ومن لا يهمز، ياجوج، من يَجَجْت، وماجوج، من مَجَجْت، وهما غير مصروفين، وقيل: إنما لم ينصرفا لأنّهما اسمان أعجميان، مثل: طالوت وجالوت، غير مشتقين، علتهما في منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث، وقيل: هو معرب من أجَّ وأجَّجَ، والعلة في منع الصرف التعريف والتأنيث.

قوله: ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالظلم، والقتل، وسائر وجوه الإفساد المعلومة عند البشر، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ -فِي السَّدِّ-: «يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَخْرِقُونَهُ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا. فَيُعِيدُهُ اللهُ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مُدَّتَهُمْ، وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ؛ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ. وَاسْتَثْنَى، قَالَ: فَيَرْجِعُونَ، فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَخْرِقُونَهُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَسْتَقُونَ الْمِيَاهَ، وَيَفِرُّ النَّاسُ مِنْهُمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بِالدِّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ -قَسْوَةً وَعُلُوًّا-. فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَهْلِكُونَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ تَسْمَنُ وَتَبْطَرُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ». يقال: شكرت الناقة تَشْكَر شَكَرًا، فهي شكرة، وأشكر الضرع: امتلأ لبنًا.

وعند مسلم من حديث النواس بن سمعان ﷺ الطويل قال: قال رسول الله ﷺ: «فَيُوحِي اللهُ لِعِيسَى ﷺ بعدَ نُزُوله وقتله للمَسِيح الدَّجال: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ؛ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى

الأَرْضِ، فَلا يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ... ». الحديث.

وعند مسلم من حديث تميم الداري ﵁ في سؤال المسيح الدجال للركب الذين رأوه: «أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ هَلْ يُثْمِرُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لا تُثْمِرَ، ثُم قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، ثُم قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَائِهَا» الحديث.

ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم ﵇، وهم من حطب جهنم، وأكثر بعث النار، فقد جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا».

قوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب.

قوله: ﴿خَرْجًا﴾ أي: جعلًا، وقرئت: (خراجًا)، والخرج أخص من الخراج، فالخراج لما يخرج من الفرائض والأموال، فيقع على الضريبة، وعلى مال الفيء والجزية والغلة، والخرج: المصدر.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قرئت: (سُدًا) أي: ردمًا، والردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل، وثوب مردم، أي: مرقع. قال عنترة:

هَـلْ غَـادَرَ الشُّـعَرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ ... أَمْ هَـلْ عَرَفْـتَ الـدَّارَ بَعْـدَ تَـوَهُّمِ

أي: من قول يركب بعضه على بعض. يقال: ردمت البئرَ أردمها ردمًا، أي: سددتُها، وقيل: الردم أبلغ من السد؛ كل ما يُسد به، والردم: وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، وقد جاء عند الطبراني في مسند الشاميين من حديث أبي بكرة الثقفي ﵁: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ. يَعْنِي السَّدَّ. فَقَالَ: كَيْفَ هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ كَالْبُرْدِ الْمُحَبَّرِ. قَالَ: قَدْ رَأَيْتَهُ». ورواه البخاري معلقًا.

قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ قرئت: (ما مكّنني) أي: ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك، خير من خرجكم وخراجكم وأموالكم، كما قال سليمان ﵇: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، ولكن أعينوني بقوة أبدانكم والآلة التي أبني بها السد، فالأموال عندي، والرجال عندكم.

قوله: ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ أي: سدًا منيعًا، وحاجزًا حصينًا.

قوله: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ أي: ناولوني قطع الحديد، وهي كاللبن، وأصل الكلمة: الاجتماع، ومنه زُبرة الأسد؛ لما اجتمع من الشعر على كاهله، وزبرت الكتاب، أي: كتبته وجمعت حروفه.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ يعني: البناء.

قوله: ﴿بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ قرئت: (الصُّدُفين)، وقرئت: (الصُّدْفين)، والكل بمعنى واحد، أي: جانبي الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما، أي: تلاقيهما، وكل جبلين متناوحين يقال لهما: الصدفان، والمقصود أنه وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رأسي الجبلين طولًا وعرضًا، ويقال: للبناء المرتفع العظيم: صدف، تشبيهًا له بجانب الجبل.

قوله: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: على زبر الحديد بالأكيار، أي: يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمي، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: كالنار.

قوله: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ أي: أعطوني قطرًا، وهو النحاس المذاب، أو الرصاص، أو الحديد بحسب الخلاف في القطر، وهو مشتق من قطر يقطر قطرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾، فلما استوى العمل صار جبلًا صلدًا.

قوله: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ يعني: يأجوج ومأجوج؛ لأنه أملس مستوٍ مع الجبل ليس به نتوءات تساعدهم على تسلقه، و ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ لغة بمعنى ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾.

قوله: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾ لبعد عرضه وقوته، وقد جاء عند الشيخين من حديث زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ (دَخَلَ عَلَيْهَا) فَزِعًا -وَفِي رِوَايَةٍ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ- يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: وَعَقَدَ سُفْيَانُ (تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً) ولمسلم: عَشَرَةً-، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ». ومن المعروف لغة أن عقد التسعين أضيق من العشرة، ولعل المراد: التقريب بالتمثيل لا التحديد، وقد سبق حديث خرق يأجوج لهذا السد في آخر الزمان وإفسادهم بعد ذلك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن

يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣
ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى
وَرُسُلِى هُزُوًا ١٠٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ
عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩
قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا
يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّى﴾ أي: للناس، والقائل: هو ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به في دفع ضرر يأجوج ومأجوج.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّى﴾ يعني يوم القيامة، ووقت خروج يأجوج ومأجوج.

قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ أي: مستويًا بالأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي: ملتصقًا بالأرض، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾، وقيل: قطعًا متكسرًا، وقرئت بالمد، على التشبيه بالناقة الدّكاء، وهي التي لا سنام لها.

قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِى بَعۡضٖ﴾ أي: يوم يدك هذا السد، وهو أول يوم القيامة، فيخرج يأجوج ومأجوج، فيموجون في الناس، ويفسدون أموالهم، ويتلفون أشياءهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾، وشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض، وقيل: تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض، وكلا القولين واردان، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ أي: الجن والإنس في عرصات القيامة.

قوله: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ أي: أبرزناها لهم، كما جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِى﴾ أي: هم بمنزلة من عيناه مغطاة، فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى.

قوله: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي: لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله، فهم بمنْزلة الصم البكم الذين لا يعقلون.

قوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: ظنوا، وقرئت: (أفحسب) أي: كفاهم.

قوله: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ يعني: عيسى، والملائكة، وعزير عليهم السلام.

قوله: ﴿مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: ولا أعاقبهم على فعلهم الشنيع وشركهم الفظيع؟ أو: أفحسبوا أن ينفعهم ذلك؟

قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: ضيافةً لهم كالنُزُل المُعَدِّ للضيف.

قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ استفهام للتوبيخ، وقد روى البخاري عن مصعب بن سعد قال: «سَأَلْتُ أَبِي: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ هُمُ الْحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا، هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحَرُورِيَّةُ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾. وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ».

والآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ وقد جاء عند ابن ماجه بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ».

قوله: ﴿أَعۡمَٰلًا﴾ منصوب على التمييز.

قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾ ما مصدرية، أي: بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله هزوًا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: قبل موتهم. قال الشاعر:

يَا شَيْخُ كُفَّ عَنِ الذُّنُوبِ ... قَبْلَ التَّفَرُّقِ وَالزَّلَلْ
وَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا ... مَا دَامَ يَنْفَعُكَ الْعَمَلْ
أَمَّا الشَّبَابُ فَقَدْ مَضَى ... وَمَشِيبُ رَأْسِكَ قَدْ نَزَلْ

قوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ

الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». ويقال للبستان: فردوس، والجمع: فراديس.

قوله: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ أي: لا يطلبون تحويلًا عنها إلى غيرها، والحِول بمعنى التحويل، ولا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها. كما قال الشاعر:

فَحَلَّتْ سُوَيدا القَلْبِ لَا أَنَا بَاغِيًا ... سِوَاهَا وَلَا عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّلُ

قوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ أي: لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي يكتب به كلمات الله.

قوله: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ قرئت: (قبل أن ينفد).

قوله: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرًا بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، ونصبت ﴿مَدَدٗا﴾ على التمييز أو الحال.

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». وفي الصحيحين من حديث جندب ﵁، قال ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ».

وقد سئل بعض السلف عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا تحب أن تكتم سيئاتك، فإن أظهر الله حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنعي، وتذكر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّ قُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ أي: يؤتون الإخلاص وهم يخافون ألا يقبل منهم، وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا، قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء. وقد جاء عند أحمد بسند جيد عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ، فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ. فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ».

انتهى تفسير سورة الكهف، ولله الحمد.



الْمُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل

العُشْر السادس

يَحْيى بن عَبْد العَزيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ مَرْيَم

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١﴾

قوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا عليه السلام، ونصبت ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ بـ ﴿رَحۡمَتِ﴾، و ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه، كما تقول: هذا ذكر ضربِ زيد عمرًا، فعمرًا منصوب بالضرب، وقيل: على التقديم والتأخير، ومعناه: ذكر ربك عبده زكريا رحمة، فـ ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ منصوب بالذكر لأنه مصدر.

قوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ كقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، وكان دعاؤه ذلك في محرابه، قال تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾، وأخفى دعاءه لأنه أبلغ في الإخلاص، وأحرى للإجابة، وقيل: أخفاه من قومه لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن، ولأنه أمر دنيوي، فإن أجيب فيه نال بغيته، وإن لم يُجَب لم يعرف بذلك أحد، والكل محتمل، والأول أظهر.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف، يقال: وَهَنَ يَهِن وَهْنًا، إذا ضعف، فهو واهن، ويقال: وَهَنَ يَهِن، ووَهِن يوْهَنُ، وذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه وأصل بنائه.

قوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ أي: انتشر الشيب في الرأس، والاشتعال: انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار الشيب. ونصبت ﴿شَيۡبٗا﴾ على المصدر؛ لأن معنى اشتعل: شاب، أو على التمييز، والثاني أقرب.

قوله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أي: لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، فقد أجبتني فيما مضى، يقال: شقي بكذا، إذا تعب فيه ولم يحصل مقصوده.

قوله: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ وهم الأقارب، بنو العم، والعصبة الذين يلونه في النسب، والعرب تسمي بني العم: الموالي. وقرئت: (المواليْ) بسكون الياء، والمقصود أنه خشي أن يتصرف عصبته من بعده في الناس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولدًا يكون نبيًا من بعده ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه.

قوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ قرئت بفتح الياء وسكونها، أي: بعد موتي، أو من بعدي في الزمن.

قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي: لا تلد لكبر سنها أو لم تلدْ قطُّ.

قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى﴾ أي: على ميراث النبوة والحكمة والعلم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في النبوة. ويبعد عن الصواب من قال: المقصود: يرثني مالي، فلم يكن زكريا ذا مال حتى يحرص عليه بعد وفاته، بل كان كما جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا»، ثم إن الأنبياء لا يورثون كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي بكر، وعمر، وعائشة رَضِيَ الله عَنْهُم: «لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»، وعند أبي داود بسند جيد عن أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا: وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». وقرئت: ﴿وَيَرِثُ﴾ بضم الثاء وجزمها، وكذا ﴿يَرِثُنِى﴾.

قوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: مرضيًا في أخلاقه وأفعاله، راضيًا بقضائك وقدرك، نبيًا كما جعلت أباه نبيًا.

قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ كما في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم نسم أحدًا قبله بهذا الاسم، وقيل: لم نجعل له مثلًا ولا نظيرًا، كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، وفي هذا دليل على أن الأسامي السُّنُع، أي: الجميلة جديرة بالأثرة، وقد كانت العرب تنتقي في التسمية؛ لكونها أنبه وأنزه عن النبز.

قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: يبسًا وجفافًا ونهاية في الكبر، وقرئت: (عُسِيًا)، وهي نفس المعنى، من العُسِيّ، وقد روى الطبري من حديث ابن عباس ﵄ قال: «ما أَدْرِي أَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿عُتِيًّا﴾ أَوْ عُسُيًّا». صححه ابن حجر. يقال: عسا الشيء يعسُو عُسُوًا وعَسَاء، ممدود، أي: يبس وصلُب، ويقال: عتوت يا فلان تعتو عُتوا وعتِيًا، ومن قال: ﴿عِتِيًّا﴾ كره الضمة مع الكسرة والياء. قال الشاعر:

إِنَّمَا يُعْذَرُ الْوَلِيدُ وَلَا يُعْـ ... ـذَرُ مَنْ كَانَ في الزمان عتيا

قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سوي الخلق ليس بك خرسٌ ولا علة.

قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار وأومأ، أو كتب على الأرض؛ لأن الوحي في كلام العرب ربما أطلق على الكتابة.

قوله: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾

قوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ يعني التوراة، والقوة هي الجد والاجتهاد والعلم والحفظ والعمل بالمعلوم والمحفوظ.

قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: الفهم والعلم ومعرفة الأحكام.

قوله: ﴿صَبِيّٗا﴾ أي: صغيرًا حدثًا، قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى عليه السلام: اذهب بنا نلعب. فقال: ما للعب خلقت. وهو أثر من آثار بني إسرائيل، وقد ذكرته لطرافته، لا لصحته، ونصبت ﴿صَبِيّٗا﴾ على الحال.

قوله: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: رحمة ومحبة من عندنا، وأصله من حنين الناقة على ولدها، وحِنة المرأة على زوجها، ومنه سميت المرأة: حنة، من الحنية. وقيل: حنانيك تثنية الحنان، والعرب تقول: حنانك يا رب، وحنانيك يا رب، تريد: رحمتك. قال طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا ... حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

ويقال للعطف: الحنان. قال الشاعر:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ الْمَلِيكُ ... فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا

قوله: ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ أي: جعلناه طاهرًا مباركًا مزكيًا في وجوه الخير والبر.

قوله: ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ أي: مطيعًا، فلم يعمل خطيئة قط، ولم يُلِمَّ بها.

قوله: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ البر بمعنى البار، وهو كثير البر.

قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ بل كان لين الجانب وخافض الجناح، متواضعًا للخلق، مستجيبًا

للحق.

قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ أي: أمان وتحية له في ثلاث مواطن، كلها شديدة وشاقة على النفس. قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد؛ فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت؛ فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث؛ فيرى نفسه في محشر عظيم.

قوله: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ أي: تنحت وتباعدت، والنبذ: الطرح والرمي، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾.

قوله: ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ أي: ممن كان معها لتعبد الله.

قوله: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي: من جانب الشرق، وهو الجانب الذي تشرق فيه الشمس، والشرَق بفتح الراء: الشمس، وقيل: شرقي المسجد الأقصى، ولذا اتخذ النصارى المشرق قبلة، واتخذوا ميلاد عيسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ عيدًا.

قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبريل عَلَيۡهِ السَّلَامُ، وأضيف إلى الله تخصيصًا وكرامة.

قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أي: إنسانًا كاملًا مستوي الخلقة؛ لأنّها لا تطيق أن ترى جبريل عَلَيۡهِ السَّلَامُ في صورته، وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيۡهِ السَّلَامُ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ».

قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ قرئت: (لِيَهَبَ لك)، والمعنى: أرسلني الله ليهب لك غلامًا زكيًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾، وقال: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

قوله: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ أي: زانية، وذكرت هذا تأكيدًا.

قوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أي: مقدرًا في اللوح المسطور، وعزمًا من الله، فليس منه بد.

قوله: ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ أي: بعيدًا خوفًا من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج، وقد حصل منهم ذلك.

قوله: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ أي: اضطرها، يقال: جاءه به، وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال: ذهب به، وأذهبه، وهناك فرق في المعنى بين اللفظتين، فعند زيادة الألف يكون المعنى ألجأها واضطرها.

قوله: ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾ قرئت بفتح الميم وبكسرها، وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها، يقال: مَخضت المرأة تَمخض مَخاضًا ومِخاضًا، وناقة ماخض، أي: دنا ولادها.

قوله: ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: ساقها اليابس، كأنّها طلبت شيئًا تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق.

قوله: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ لخوفها من أن يظن بها السوء في دينها، ولئلا يقع قوم بسببها في بُهتان فيهلكوا.

قوله: ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: شيئًا حقيرًا، والعرب تسمي الشيء الحقير الذي من شأنه أن يُنسى ولا يُتألم لفقده: النِّسي، وحُكي عن العرب أنّهم كانوا إذا أرادوا الرحيل عن منْزل قالوا: احفظوا أنساءكم، أي: الأشياء الحقيرة التي يُغفل عنها فتُنسى، كالوتد والحبل ونحو ذلك. وقيل: النسي: ما تلقيه المرأة من خِرَق اعتلالها، فتقول مريم: ﴿نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: حيضة ملقاة.

قوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قرئت بفتح الميم وكسرها، يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ يعني عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسري من الرجال: العظيم الخصال، السيد الكريم المفضال. وقيل: ﴿سَرِيّٗا﴾أي: جدولًا قريبًا من جذع النخلة، وقيل: نَهرًا، وهذا القول الأخير هو الصحيح، والمقصود أن الله عز وجل أجرى لمريم نَهرًا تحتها؛ تشرب منه وتغتسل.

قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: حركي جذع النخلة اليابس وهزيه.

قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ قرئت: (تَسَّاقط) أي: تتساقط، وقرئت: (تَساقَطْ)، وقرئت: (تَتَساقطْ).

قوله: ﴿عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي: تمرًا لم يذو ولم ييبس، قد طاب وصلح للاجتناء، وهي من جنيت الثمرة، والجنيّ والمجنيّ واحد، بمنْزلة القتيل والمقتول، والجريح والمجروح. وقيل: الجني: المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته. قال الشاعر:

وَطِيبُ ثِمَارٍ فِي رِيَاضٍ أَرِيضَةٍ ... وَأَغْصَانُ أَشْجَارٍ جَنَاهَا عَلَى قُرْبِ

أي: ما يُجنى منها ويقطع ويؤخذ. ويقال: ما للنفساء خير من الرطب، وإذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن

فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾

قوله: ﴿فَكُلِي﴾ أي: من الرطب.

قوله: ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ أي: من السريّ.

قوله: ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ برؤية الولد النبي عيسى عليه السلام. يقال: قر عينًا يَقُر ويقِر، وأقر الله عينه فقرّت، وهو مأخوذ من القر والقِرة، وهما البرد، ودمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، وقيل: الدمع كله حار، والمقصود أن الله أقر عينها وسكن فؤادها بالنظر إلى حبيبها. ونصبت ﴿عَيۡنٗا﴾ على التمييز، كقولك: طب نفسًا، ومثله: طبت نفسًا، وتفقأت شحمًا، وتصببت عرقًا.

قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أي: مهما رأيت من أحد، وقرئت: (تَرَيْنَ)، وهي قراءة شاذة.

قوله: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي: صمتًا؛ لأن الصمت إمساك عن الكلام، والصوم في اللغة: الإمساك، وقد أمرها الله عز وجل على لسان جبريل عليه السلام بذلك.

قوله: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ أي: أمرًا عظيمًا عجيبًا نادرًا، وأرادوا الزنا، يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشيء المفترى، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ أي: بولد يقصد إلحاقه بالزوج وليس منه، ويقال: فلان يفري الفريّ، أي: يعمل العمل البالغ العجيب النادر، وقيل: الفري: الجديد من الأسقية، أي: جئت بأمر جديد بديع لم تُسبَقِي إليه.

قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ جاء عند مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا! فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ». والمعنى: أنه كان لها أخ اسمه هارون، وكان أمثل رجل في بني إسرائيل، وكان هذا الاسم كثيرًا في بني إسرائيل تبركًا باسم هارون أخي موسى عليهما السلام.

قوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ يعني أنك من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعفاف والعبادة والزهد، فكيف صدر هذا منك؟!.

قوله: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ فـ ﴿مَن﴾ في معنى الجزاء، و ﴿كَانَ﴾بمعنى يكن، والتقدير: من يكن في المهد صبيًا فكيف نكلمه؟ كما تقول: كيف أعطي من كان لا يقبل عطية؟ أي: من يكن لا يقبل عطية. والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: إن يشأ يجعل، وتقول: من كان إلي منه

إحسان كان إليه مني مثله، أي: من لم يكن، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلا ثَلاثَةٌ: عِيسَى...» الحديث.

قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قال بعض السلف: لا تجد أحدًا عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًا، ثم قرأ هذه الآية، ولا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالًا فخورًا، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

قوله: ﴿يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون ويختلفون، لا كما تقول اليهود: إنه ابن زانية، ولا كما تقول النصارى: إنه الإله أو ابن الإله، قال تعالى عنهم: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وقد جاء في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ».

قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: يكون الكفار يوم القيامة أسمع شيء وأبصره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، وقال تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، والعرب تقول: أَسْمِع بزيد وأَبْصِر بزيد، أي: ما أسمعه وأبصره. والمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة.

قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني في الدنيا، صم عمي، وإلا فأي ضلال وغباء وجهل أبين من أن يعتقد المرء في شخص مثله، حملته الأرحام، وشرب الشراب، وأكل الطعام، ومشى في الأسواق، وأحدث واحتاج أنه إله نافع ضار، يحيي ويميت، له الخلق والأمر! تعالى الله عما يقول الكافرون علوًا كبيرًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٤٠ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ
تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ
صِرَٰطًا سَوِيًّا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ
مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى
مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ٤٧ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟
رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا

جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»، وسمي يوم الحسرة لأن فيه الحسرات على ما تقدم وفات، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكانها، فنرثها. وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم، الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على حفظه أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم ﵇.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ جاء عند أحمد بسند حسن من حديث أنس ﵁ قال: «لَوْ عَاشَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا».

قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته الجليلة ما لا تعلمه أنت، وقد كرَّر النصح باللطف واللين ولم يصف أباه بالجهل في عبادته للأصنام، وفي الآية فائدة ينبغي على طالب العلم أن يعمل بها، وهي: أن توبيخ الناس ليس سبيلًا إلى هدايتهم.

قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: إن مِتّ على ما أنت عليه، ويكون ﴿أَخَافُ﴾ بمعنى أعلم، ويجوز أن يكون أخاف، على بابها، فيكون المعنى: إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب.

قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي: مواليًا في الدنيا، وقرينًا في الآخرة، قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ﴾ استفهام فيه معنى التعجب والإنكار، أي: أترغب عنها إلى غيرها ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟.

قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ يعني بالشتم أو بالضرب بالحجارة وغيرها.

قوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي: دهرًا طويلًا، منصوب على الظرفية، يقال: هجرته مليًا ومَلْوة ومُلْوة ومَلاَوة ومُلاَوة. وقيل: أبدًا، وقيل: سالمًا لا يصيبنك مني معرة، واختار هذا القول الطبري، والراجح القول الأول، والثاني قريب منه.

قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ وهذا سلام المتاركة، لا سلام التحية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، والمعنى: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى؛ وذلك لحرمة الأبوة، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلا النَّصَارَى بِالسَّلامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ». قال بعض أهل العلم: يحمل هذا الحديث في ما لو كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام، فإن كان هناك ثم سبب فلا بأس بالسلام عليهم ابتداءً، وعلى هذا يحمل حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عند الشيخين عندما أتى النبي صلى الله عليه وسلم ومر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين، والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم. وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: بارًا لطيفًا قد هداني للإسلام. يقال: حَفِي به وتَحفَّى، إذا برّه، ويقال: حَفِي حِفاوة وحِفوة.

قوله: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فإسحاق عليه السلام من صلبه، ويعقوب عليه السلام ابن لإسحاق، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي: ثناءً حسنًا في الأولين والآخرين، وفي جميع الملل والأديان.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي: في عبادته غير مراء. وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام، أي أخلصناه فجعلناه مختارًا. قال تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: كلمناه من الجانب الأيمن منه حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى عليه السلام حين أقبل من مدين إلى مصر.

قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ منصوب على الحال، أي: كلمناه من غير وحي، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، فأدناه لتقريب المنْزلة حتى كلمه سبحانه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ فلم يَعِد شيئًا إلا وفى به، وقد وعد نفسه بالصبر على الذبح، فصبر حتى فُدي، قال له أبوه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ والعرب تمتدح بالوفاء، وتذم بالخلف والغدر، وكذلك سائر الأمم، وخص إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان كل الرسل كذلك تكريمًا له وتشريفًا.

قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وقد جاء عند أبي داود وغيره بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ».

وجاء أيضًا عند أبي داود بسند جيد عن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا؛ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ».

قوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ أي: رضيًا زاكيًا صالحًا.

قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: إدريس عليه السلام، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء، وقد سبقت، قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾». الحديث.

قوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ يقال: بكى يبكي بكاءً وبُكًى وبُكِيًا، إلا أن الخليل قال: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن، أي: ليس معه صوت. قال الشاعر:

بَكَــتْ عَيْنِــي وَحُــقَّ لَهَــا بُكَاهَــا ... وَمَــا يُغْنِــي الْبُكَــاءُ وَلَا الْعَوِيــلُ

قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي: أولاد سوء في القرون التي بعدهم، وقد تقدّم الحديث في ﴿خَلۡفٌ﴾ في سورة الأعراف.

قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: شرًا وخيبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾. قال الشاعر:

فَمَــنْ يَلْــقَ خَيْــرًا يَحْمَــدِ النَّــاسُ أَمْــرَهُ ... وَمَــنْ يَغْــوَ لَا يَعْــدَمْ عَلَــى الْغَــيِّ لَائِمَــا

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ أي: آتٍ، فهو مفعول بمعنى فاعل، وهو مهموز لأنه من أتى يأتي. قال الطبري: والوعد هنا: الموعود، وهو الجنة، أي: يأتيها أولياؤه.

قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ أي: لكن يسمعون سلامًا، فهو من الاستثناء المنقطع، يعني سلام الله عليهم، وسلام بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾.

قوله: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أي: في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلًا ونهارًا، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، وقد جاء عند أحمد بسند لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهَرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» قال: فنزلت هذه الآية.

قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ أي: أمر الدنيا وأمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ دار البرزخ، وما بين النفختين. وقيل: العكس ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلۡفَنَا﴾ ما مضى من الدنيا، وقيل: له ما كان قبل أن نخلق، وبعد أن خلقنا، ولعل القول الثاني أقرب.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ أي: ناسيًا، فلم يَنْسَك وإن تأخر عنك الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، وقد جاء عند البزار والحاكم بسند حسن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا. ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَمَا كَانَ

رَبُّكَ نَسِيًّا﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥
وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ
لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ
عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ
نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ
ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ۝٧٤ قُلۡ مَن كَانَ فِي
ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَأَضۡعَفُ جُندٗا ۝٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾

قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: لطاعته، ولا تحزن لتأخير الوحي، بل اشتغل بما أمرت به، وأصل ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾: اصتبر، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما، فأبدل من التاء طاء، كما تقدم من الصوم: اصطام.

قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي: وقرناءهم؛ فكل كافر وطاغوت مع شيطانه، كما قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقيل: الواو بمعنى مع، أي: مع الشياطين الذين أغووهم.

قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي: على ركبهم، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾، فلشدة ما هم فيه، أو لضيق مكانِهم لا يقدرون على القيام، ولا أن يجلسوا جلوسًا تامًا. ومفرد ﴿جِثِيًّا﴾: جاثٍ، يقال: جثا على ركبتيه يجْثو ويَجْثي جُثوًا وجُثيًا، وأجثاه غيره، وقوم جُثيٌّ، مثل: جلس جلوسًا، وقوم جلوس. وقيل: جماعات، وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثوة وجِثوة ثلاث لغات، وهي الحجارة المجموعة والتراب المجموع، فأهل الخمر على حِدة، وأهل الزنى على حدة، وهكذا.

قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: نستخرجن من كل أمة وأهل.

قوله: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيًّا﴾ جميع القراء يقرؤونَها بالرفع: ﴿أَيُّهُمۡ﴾، وهو مرفوع على الحكاية، وعلى هذا فتقدير الآية: ثم لننْزعن من كل شيعة الذي يقال من أجل عتوه: أيهم أشد على الرحمن عتيًا، والمعنى: لننزعن من كل فرقة الأعتى فالأعتى، كأنه يبتدأ في التعذيب بأشدهم عتيًا، ثم الذي يليه. ونصبت ﴿عِتِيًّا﴾ على البيان.

قوله: ﴿أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: احتراقًا، يقال: صَلَى يَصْلى صُليًا نحو: مضى الشيء يمضي مُضيًا، إذا ذهب، ويقال: صَلَيت الرجل نارًا، إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها، ويقال: صلِي بالأمر، إذا قاسى حره

وشدته. قال الشاعر:

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ ... صَلُوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينِ

واصطليت بالنار وتصلّيت بها، وفلان لا يُصطلى بناره، إذا كان شجاعًا لا يطاق.

قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قسم، والواو تتضمنه، ويفسره حديث النبي ﷺ كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَيَلِجَ النَّارَ إلا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»، قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، أي: داخلها دخولًا نسبيًا أو كليًا، فالنسبي: المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، وكما جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»، وجاء عند مسلم عن أم مبشر رضي الله عنها: «أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا. قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾».

وأما الدخول الكلي فهو قسمان: القسم الأول لأصحاب الكبائر، وهو وقتيٌّ، ثم يخرجون بشفاعة النبي ﷺ. والقسم الثاني لأهل النفاق وهو دائم أبدًا، وهذا الدخول هو المقصود، بقول تعالى: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، وبقول النبي ﷺ عند الشيخين: «وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ». وأما الكفار فقد أمر بهم إلى النار من قبل.

قوله: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ قرئت: (مُقامًا)، أي: منزلًا ومسكنًا، أو جاهًا وأنصارًا.

قوله: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجلسًا، ومنه: دار الندوة، وقد كان المشركون يتشاورون فيها في أمورهم، قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، والعرب تسمي المجلس: النادي.

قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: متاعًا كثيرًا ومنظرًا حسنًا، والأثاث: متاع البيت، وقيل: هو ما جدَّ من الفَرْش، والْخُرْثِيّ: ما لُبس منها.

قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: يدعه في طغيانه وجهله وكفره، فلفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر، نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، والمعنى: فليعش ما شاء، وليوسع لنفسه في العمر، فمصيره إلى الموت والعقاب، وهذا غاية في التهديد والوعيد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا، والمرد مصدر، كالرد، يقال: هذا أرد عليك، أي: أنفع لك، وقيل: مرجعًا؛ فكل أحد يرد إلى عمله الذي عمله.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ جاء عند الشيخين من حديث خَبَّابٍ رضي الله عنه، قَالَ: «كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: (بِمَكَّةَ)، فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ (سَيْفًا)-، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي: (وَفِي رِوَايَةٍ: لَا وَاللهِ) لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. قَالَ: قُلْتُ: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّى تَمُوتَ، ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ؟ فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ (وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا). قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾».

قوله: ﴿وَوَلَدًا﴾ قرئت بضم الواو وتسكين اللام، وهما لغتان، يقال: ولَد ووُلْد، كما يقول: عَدَم وعُدْم، وعرَب وعُرْب، وعَجَم وعُجْم. قال الشاعر:

وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ... وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ وُلْدَ حِمَارِ

وقيل: الوُلْد بالضم جمعًا، وبالفتح واحدًا، والأقرب الأول.

قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ استفهام توبيخ، أي: أنظر في اللوح المحفوظ؟

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي: توحيدًا وعملًا صالحًا.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، وتأتي بمعنى حقًا، وبمعنى لا، فإذا كانت بمعنى حقًا جاز الوقف على

ما قبلها، وإذا كانت بمعنى لا كان الوقف عليها جائزًا.

قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلبه ما أعطيناه في الدنيا من مال وبنين، ونحرمه ما تمنّاه في الآخرة من مال وولد، ونجعله لغيره من المسلمين.

قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: منفردًا، لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تَنْصُره.

قوله: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: أعوانًا ومنعة يعتزون بِها.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا.

قوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: أعداءَ وخصماءَ وبلاءً، كما قال تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تزعجهم إزعاجًا، وتغريهم بالشر إغراءً، وتستعجلهم استعجالًا، وتزيدهم طغيانًا وكفرًا، وأصل الأزيز: الحركة والغليان، وقد جاء عند أبي داود بسند لا بأس به أن النبي ﷺ صلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وقد سبق ذكره، يقال: ائتزّت القدر ائتزازًا: اشتد غليانُها، والأزُّ: التهيج والإغراء، ويقال للاختلاط: الأز، وقد أززت الشيء أؤزه أزًا، أي: ضممت بعضه إلى بعض.

قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تطلب العذاب لهم.

قوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: نعد أنفاسهم كما نعد سنيهم. وقد قيل: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها عدد، فما أسرع ما تنفد. قال الشاعر:

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدُّ فَكُلَّمَا ... مَضَى نَفَسٌ مِنْكَ انْتَقَصْتَ بِهِ جُزْءا
يُمِيتُكَ مَا يُحْيِيكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ... وَيَحْدُوكَ حَادٍ مَا يُرِيدُ بِهِ الْهُزْءَا

قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي: نحشرهم إلى الجنة ركبانًا على نجائب طاعتهم، والوفد: اسم للوافدين، وهو جمع وافد، مثل: ركْب وراكب، وصحْب وصاحب، وهو من وفد يَفِد وفدًا ووفودًا ووِفادة، إذا خرج إلى ملك في فتح أو أمر خطير، والوافد في الغالب يكون راكبًا، وقيل: إنما قال: ﴿وَفْدًا﴾ لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالبشارات وينتظرون الجوائز، وهكذا المتقون، ينتظرون العطاء والثواب ورفع الدرجات في الجنات.

قوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: نحثهم ونزجرهم على السير.

قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ مُشاة عِطاشًا تنقطع أعناقهم من العطش، كالإبل ترد الماء، وسمي العطاش وردًا

لطلبهم ورود الماء، كما تقدم: قوم صوْم، أي: صيام، وقوم زوْر، أي: زوّار، وواحدهم: وارد، ويقال للجماعة التي ترد الماء من طير وإبل: الورد، وكذا يقال للماء الذي يورد، والجزء من القرآن، تقول: قرأت وِردي.

قوله: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: هؤلاء المشركون والكفار لا تُقبل الشفاعة فيهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ أي: المسلمون، والاستثناء من غير جنسه، أي: لكن ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ يشفع. وقيل: هو في موضع رفع على البدل من الواو ﴿يَمۡلِكُونَ﴾، أي: لا يملك أحد عنده الشفاعة ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾، فإنه يملك، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلًا، ومعنى العهد في ﴿عَهۡدٗا﴾: توحيدًا وعملًا صالحًا، وهو لفظٌ جامعٌ للإيمان والأعمال الصالحة. ويدخل في العهد دوام المحافظة على الصلاة، فقد جاء عند الترمذي بسند صحيح من حديث بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ».

قوله: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ أي: منكرًا عظيمًا، وجمع الإد: إددٌ، وأدت فلانًا داهية تؤدُّه أدًا، والإد والإدة: الداهية والأمر الفظيع. ويقال للشدة وللغلبة وللقوة: الإدّ. ويقال: إدًا بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضًا ثلاث لغات، وأشهرها أولها.

قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ أي: يتشققن فرقًا من عظمته سبحانه وغضبًا له، وقرئت: (ينفطرن)، من الانفطار، كقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾.

قوله: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: تنصدع.

قوله: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: تنكسر وتسقط بصوت شديد، يقال: هدني الأمر وهد ركني، أي: كسرني وبلغ مني، وهدّته المصيبة، أي: أوهنت ركنه، ويقال: هدّ يَهِدُّ هديدًا، ويقال للرجل الجواد الكريم: الْهَدّ، ويقال للجبان الضعيف: الهِدّ، وقيل: ﴿هَدًّا﴾ منصوب على الحال، أي: مهودة، قال بعض السلف: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين.

وقال بعض العلماء: ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه؛ لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون.

قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لا يصلح له ولا يليق به؛ لجلاله وعظمته، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ؛ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ». وجاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ».

قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ أي: ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مُقِرًا لله بالعبودية، خاضعًا ذليلًا، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغرين أذلاء.

قوله: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي: علم عددهم وأحاط علمه بهم، وحفظهم، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، ومن هنا يتبين أن هناك فرقًا بين العد والإحصاء، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

قوله: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي: وحيدًا، بلا مالٍ ولا نصير.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي: حبًا ومودة في قلوب عباده، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ. فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ. فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»، وعند الترمذي بسند صحيح عن سعد، وأبي هريرة ﵄ بنحوه، وفيه: «فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾».

قوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ أي: شديدي الخصومة، فلا يقبلون الحق ولا يدعون الباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾، وقوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث عائشة ﵂: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ». قال الشاعر:

أَبِيتُ نَجِيًّا لِلْهُمُومِ كَأَنَّنِي ... أُخَاصِمُ أَقْوَامًا ذَوِي جَدَلٍ لُدَّا

قوله: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ أي: هل ترى منهم أحدًا أو تجد.

قوله: ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ أي: صوتًا أو حِسًّا، وكل ما لا يُفهم من صوت أو حركة فهو رِكز، كركز الكتيبة. وقيل: الصوت الخفي، ومنه: ركز الرمح، إذا غيب طرفه في الأرض.

انتهى تفسير سورة مريم، ولله الحمد.

  

سورة طه

هي مكية إجماعًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾

قوله: ﴿طه﴾ هي: عبارة عن حرفين: الطاء، والهاء، وهي من الحروف المقطعة التي يبتدئ الله تبارك وتعالى فيها سوره القرآنية، مثلها مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و ﴿طسٓ﴾، و ﴿يسٓ﴾ ونحو ذلك. ويبعد النجعة من يفهم أو يعتقد أنّها اسم من أسماء الله تعالى، أو من أسماء الرسول ﷺ، والعالِم والمفسر الرباني هو الذي لا يبني علمه على أحاديث منكرة وآثار واهية، وإنما يبني علمه على أحاديث وآثار ثابتة، إضافة إلى إحاطة شاملة باللغة العربية ومدلولاتها في القراءات السبع والعشر المشهورة المعتبرة، ومن الغريب والعجيب أنك تقرأ كتب بعض المفسرين الكبار، فتجدها طافحة بأرخص بضاعة، ويتساءل أين التحقيق؟ وأين التحري؟ وأين التمحيص؟ فيجاب: الموفق من وفقه الله، والعالِم من ألهمه الله، وقذف في قلبه نور الحكمة والعلم والفهم، ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾، ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

قوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ فاللام هنا قيل: للنفي، وقيل: للجحود، وقيل: للخفض، والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء. والشقاء يمد ويقصر، وأصله: العناء والتعب. قال الشاعر:

ذُو الْعَقْـلِ يَشْـقَى فِـي النَّعِـيمِ بِعَقْلِـهِ ... وَأَخُـو الْجَهَالَـةِ فِـي الشَّـقَاوَةِ يَـنْعَمُ

والمعنى: لا تأسف ولا تتحسر، فما أنزلناه إلا للتذكرة، وما عليك إلا أن تبلغ وتذكر، ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾، ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أي: العالية الرفيعة، وهي جمع العُلْيا، كقوله: كبرى، وصغرى، وكُبُر، وصُغُر.

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ استواءً يليق بجلاله، من غير تكييف، ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وقد كررتها لأكثر من مرة لأهميتها.

قوله: ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: ما تحت الأرض السابعة.

قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ استفهام إثبات وإيجاب، ومعناه: أليس قد أتاك؟ وقيل: معناه: وقد أتاك.

قوله: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ وذلك بعدما قضى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين متجهًا إلى مصر.

قوله: ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ﴾ أي: لزوجته، والتي قالت لأبيها قبل زواجها: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾.

قوله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا مكانكم.

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي: أبصرت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾، وآنست الصوت: سمعته.

قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شعلة وجذوة من نار ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، وذلك لوجود البرد والظلام، وكذلك المِقباس، يقال: قَبَستُ منه نارًا أقبِس قبْسًا، فأقبسني، أي: أعطاني منه قَبَسًا، وكذلك: اقتبست منه نارًا، واقتبست منه علمًا، أي: استفدته.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني النار ﴿نُودِيَ﴾ أي: من جهة الشجرة وناحيتها، كما قال تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أي: انزع ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض واطرحهما، وقيل: للخشوع والتواضع عند مناجاة الله، وقيل: حتى لا تمس تربة الوادي المقدس، والكل وارد، وقد ذهب السلف إلى خلع النعال عند دخول المسجد الحرام والطواف بالبيت احترامًا للبقعة، وتواضعًا لله، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد أن النبي ﷺ قال لبشير بن الخصَاصِيّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يمشي بين القبور بنعليه: «يَا صَاحِبَ السِّبْتِيَّتَيْنِ، وَيْحَكَ! أَلْقِ سِبْتِيَّتَيْكَ». قال عبد الرحمن بن مهدي: كنت أكون مع عبد الله بن عثمان في الجنائز فحدثته بهذا الحديث فقال: حديث جيد، ورجل ثقة؛ ثم خلع نعليه ومشى بين القبور، ولا يعني هذا ذم لبس النعال عند أداء العبادات مطلقًا، فقد جاء في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فِي نَعْلَيهِ». وعند أبي داود بسند جيد عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ، فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيهِ قَذَرًا، أَوْ أَذًى فَلْيَمْسَحْهُ، وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا».

ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعل إذا كانت طاهرة، حتى قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل؛ لفعل الرسول ﷺ، ولقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، ولا ريب أن الحق

عدم الصلاة فيهما إذا كانت الصلاة داخل المساجد المفروشة أو النظيفة، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ، وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ». ولكن إذا كانت الصلاة في البر أو في المساجد التي أرضيتها التراب فلا بأس بالصلاة في النعلين بعض الأحيان.

قوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ أي: المطهَّر قدرًا في كل زمان وحين.

قوله: ﴿طُوًى﴾ وهو اسم للوادي، هو وادٍ عميق مستدير، مثل الطَّوِيّ، وهو بسيناء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾

قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ أي: لتذكرني فيها، أو لأذكرك بالمدح في الملأ الأعلى، وقد سمى الله عز وجل الصلاة ذكرًا في قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وقيل: المراد: إذا نسيت فتذكرت فصلِّ، كما جاء عند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَسِيَ صَلاةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَهَا، لا كَفَّارَةَ لَهَا إِلا ذَلِكَ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾».

قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قيل: أُظهرها؛ لأنه يقال: خفيت الشيء وأخفيته، إذا أظهرته، فأخفيته من حروف الأضداد، يقع على الستر والإظهار، وخفيت وأخفيت بمعنى واحد، وقيل: أزيل خفاءها، فتكون من باب السلب، وليس من باب الأضداد، ومن هذا قولهم: أشكيته، أي: أزلت شكواه، وأعديته، أي: قبلت استعداءه، وقيل: (كاد) صلة، لا عمل لها، كقوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، فيكون التقدير: إن الساعة آتية أخفيها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾. قال الشاعر:

وَأَلَّا أَلُومَ النَّفْسَ فِيمَا أَصَابَنِي ... وَأَلَّا أَكَادُ بِالَّذِي نِلْتُ أَنْجَحُ

أي: وألا أنجح بالذي نلت، فـ (أكاد) توكيد للكلام.

وقيل: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: قاربت أخفيها، وأُخفي أشراطها وأماراتِها، وشاهده قوله تعالى:

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾، وقيل: أريد أن أخفيها. كما قال الشاعر:

كَـــادَتْ وَكِـــدْتُ وَتِلْـــكَ خَيْـــرُ إِرَادَةٍ لَـوْ عَـادَ مِـنْ لَهْـوِ الصَّـبَابَةِ مَـا مَضَـى

وقيل: أخفيها من نفسي، والمعنى: فكيف يعلمها مخلوق؟ وكيف أظهرها لكم؟ وما نقل عن العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء قال أحدهم: كدت أخفيه من نفسي. ومن هذا قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»، والأقرب من هذه الأقوال هو من قال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: قاربت أن أخفي ذكرها لثقلها، وذكر أماراتها وأشراطها لتأتيكم بغتة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، والقول الأخير له وجه، وهو قول أكثر المفسرين.

قوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلك، وتكون من الخاسرين، قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ استفهام تقريري، أي: ما التي بيمينك؟ أو ما ذاك الذي بيمينك؟ حتى يقول: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ لتثبت الحجة عليه بعدما اعترف، وإلا فقد علم الله ما هي.

قوله: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أي: أتحامل عليها في المشي والوقوف، ومنه: الاتكاء.

قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أخبط بِها الورق، أي: أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمي أكله. قال الشاعر:

أَهُـــشُّ بِالْعَصَـــا عَلَـــى أَغْنَـــامِي مِـــنْ نَـــاعِمِ الْأَرَاكِ وَالْبَشَـــام

يقال: هَشّ على غنمه يَهُشُّ، وهشَّ إلى الرجل يَهَش، وفي حديث عمر عند أبي داود وغيره بسند صحيح: «هَشَشْتُ فَقَبَّلْتُ وَأَنَا صَائِمٌ». ويجوز: هَاشَ، بمعنى هشَّ. قال الراعي:

فَكَبَّـــرَ لِلرُّؤْيَـــا وَهَـــاشَ فُـــؤَادُهُ وَبَشَّـــرَ نَفْسًـــا كَـــانَ قَبْـــلُ يَلُومُهَـــا

أي: طَرب، وقرأ عكرمة: وأهس، وهما لغتان، وقيل: معناهما مختلف، فالهش: خبط الشجر، والْهَسُّ: زجر الغنم.

قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: مصالح وحوائج، واحدها: مأْرُبة ومَأْرَبة ومأرِبة، ومن الحوائج والمنافع، مثل دفع الهوام والسباع ومنازلة الأعداء وقطاع الطرق، وللعصا فوائد، لاسيما في السفر، وعند الكبر. قال الشاعر:

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عَلَـــيَّ وَلَا أَنِّـــي تَحَنَّيْـــتُ مِـــنْ كِبَـــرْ

وَلَكِنَّنِـــي أَلْزَمْـــتُ نَفْسِـــيَ حَمْلَهَـــا لِأُعْلِمَهَـــا أَنَّ المقـــيم علـــى ســـفر

وقال آخر:

قَـدْ كُنْـتُ أَمْشِـي عَلَـى رِجْلَـيْنِ مُعْتَمِـدًا فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى أُخْرَى مِنَ الْخَشَبِ

قوله: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: إلى حالها الأولى التي تعرف بِها.

قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى العضد، و ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى: تحت. وقيل: ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى جيبك. قال الشاعر:

أَضُمُّهُ لِلصَّدْرِ وَالْجَنَاح

وقيل: ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى مع، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾، والقول الثاني أقرب.

قوله: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير برص، لها شعاع كشعاع الشمس أو القمر، أو كأنّها مصباح تتلألأ.

قوله: ﴿ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ أي: سوى العصا.

قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ أي: العظمى، أو لنريك من آياتنا الآية الكبرى.

قوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أي: وسِّعْه ونوِّرْه بالإيمان والنبوة، فأنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري.

قوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ أي: سهِّل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ أي: العجمة التي كانت فيه من جمرة النار التي أطفأها في فيه وهو طفل.

قوله: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ أي: يفهموا ويعلموا ما أقول لهم، والفقه في كلام العرب: الفهم، يقال: فقِه الرجل، وفلان لا يَفْقَه ولا يَنْقَه، أي: لا يعلم ولا يفهم، ونقهت الحديث أنقهه، إذا فهمته، ويقال: فَقُه فَقَاهة، وفقَّهه الله، وتَفَقَّه، إذا تعاطى ذلك، وفاقهته، إذا باحثته في العلم.

قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ أي: مؤازرًا، وسمي بذلك لأنه يحمل عن السلطان وزره، أي: ثقله، وقد جاء عند النسائي وأبي داود بسند صحيح من حديث عائشة قوله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ؛ إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ». وعند البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ- إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ».

قوله: ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ وهو أكبر منه، وقد رآه رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أنس، ومالك بن صعصعة رضي الله عنهما، حين أسري به، في السماء الخامسة، فرحب به، ودعا له بخير، وقال: «مَرْحَبًا

بَالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ».

قوله: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِى﴾ أي: ظهري، والأزر: القوة، وآزره: قوّاه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾، وقيل: الأزر: العون، أي: عونًا يستقيم به أمري. قال الشاعر:

شَـــدَدْتُ بِـــهِ أَزْرِي وَأَيْقَنْـــتُ أَنَّـــهُ أخـو الفَقْـرِ مَـن ضَـاقَت عَلَيـه مَذَاهبـه

والمقصود أنه أراد هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ لتَقْوَى به نفسه.

قوله: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِى﴾ أي: في النبوة وتبليغ الرسالة، وفي مشاورتي.

قوله: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: جميع ما طلبت، حتى الرتة أو اللثغة فقد زالت بالكلية، وأما قول فرعون: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فإنما هو باعتبار حالته الأولى قبل دعائه وسؤله؛ لأن فرعون قد عرف منه تلك العقدة حين كان في بيته، وما علم قبحه الله أن الآفة زالت، وأن الله قد أحسن خَلْقه وخُلُقه.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ أي: قبل هذه، وهي حفظه سبحانه له من شر الأعداء في الابتداء حين كان طفلًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾

قوله: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: ألهمناها.

قوله: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾ أي: بشاطئ اليم، فرأى فرعون التابوت بالساحل، فأمر بأخذه، قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾.

قوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ أي: أحببتك وحببت الخلق إليك، فما يراه أحد إلا أحبه، حتى أحبه فرعون بادئ الأمر، وأحبته آسية امرأة فرعون، فربته.

قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: تُربّى وتُغذّى على مرأى مني، يقال: صنعت الفرس وأصنعته، إذا أحسنت القيام عليه.

قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك أن أمه قالت لأخته: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٖ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي: يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل.

قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ قد قيل: مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها، قال تعالى في سورة القصص: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، وقال تعالى هنا: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، يقال: رجل قرير العين، وأقر الله عينه، أي: أعطاه حتى تقر فلا تطمح إلى من هو فوقه.

قوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ أي: قتل قِبطيًا كافرًا، وسيأتي بيان ذلك في سورة القصص.

قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك اختبارًا، وأخلصناك إخلاصًا حتى صلحت للرسالة.

قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: عشر سنين، وهو أتم الأجلين.

قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: على وعد قدرته لك أن تجيء فيه، أو جِئت في الوقت الذي أردنا إرسالك فيه.

قوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي: اصطفيتك لوحيي ورسالتي، وقوّيتك وعلمتك لتبلغ عبادي أمري ونَهيي.

قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تضعفا في أمر الرسالة، ولا تفترا ولا تبطئا ولا توهنا. والوَنَى: الضعف والفتور والكلال والإعياء، يقال: ونيت في الأمر، أي: ضعفت، فأنا وانٍ، وناقة وانية، وأونيتها أنا: أضعفتها وأبَقْتُها، وقيل: فلان لا يَنِي كذا، أي: لا يزال، والمعنى على هذا القول: أي: لا تزالا في ذكري.

قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلٗا لَّيِّنٗا﴾ وفي ذلك عبرة عظيمة، وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى عليه السلام القوي المؤيد بالوحي، ومع هذا أُمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين. قال يزيد الرقاشي: يا مَن يَتَحَبَّبُ إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويُناديه؟

ومن القول اللين الذي قالاه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ أي: على رجائكما وطمعكما في إسلامه وإيمانه، و (لعل) هنا بمعنى الاستفهام، أي: فانظر هل يتذكر، وقيل: هي بمعنى كي، وقد تذكر فرعون، ولكن متى؟ حين أدركه الغرق، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وهيهات هيهات، فأنى تنفعه هذه الذكرى.

قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ أي: يعجل علينا منه أمر، ويبادر بعقوبتنا، يقال: فرط منه أمر، أي: بَدَر، وأفرط: أسرف، وفرّط: ترك. وقيل: يشطط في أذيتنا، والمعنى متقارب.

قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بالنصر والمعونة والسمع والبصر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وهي معية خاصة.

قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ أي: أطلقْ سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة.

قوله: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: بمعجزة تدل على صدقنا.

قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى عظيم الروم كتابًا كان أوله: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ» رواه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أي: قال موسى عليه السلام: ربنا خلق العالم كله، وخص كل مخلوق بهيئة وصورة، وأنشأ لكل شيء زوجه، وأعطى كل شيء خلقه من المنفعة المنوطة به والمطابقة له، وأوجد لهم ما يحتاجون إليه ويرتفقون به، كل بحسبه.

قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ إلى الألفة والاجتماع والمناكحة. قال الشاعر:

وَلَـهُ فِـي كُـلِّ شَـيْءٍ خِلْقَـةٌ ... وَكَـذَلِكَ اللهُ مَـا شَـاءَ فَعَـلْ

قوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: ما حالها وما شأنها؟

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ

ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم
بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن
يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ
مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾

قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا، فهو بكل شيء محيط، وأما علم المخلوقين فإنه يعتريه أولًا عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنَزَّه نفسه عن ذلك، فمن أنظره فلحكمة أنظره، ومن عاجله فلحكمة عاجله، فلا يخطئ في التدبير، ولا يغيب عنه شيء، لا قليل ولا كثير.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أي: فراشًا وقرارًا تستقرون عليها.

قوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طرقًا، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: ضروبًا وأشباهًا من النبات المختلفة الأزواج والألوان، يقال: شَتّ، أي: متفرق، وشَتَّ الأمر شَتًا وشَتاتًا: تفرق، وكذلك التشتت، وشتته تشتيتًا: فرقه، وأشت بي قومي، أي: فرقوا أمري، والشتيت: المتفرق.

قوله: ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ أصحاب العقول السليمة.

قوله: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: وعدًا، وقيل: اسم لمكان الوعد. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقيل: اسم لزمان الوعد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾، والمعنى: اجعل لنا يومًا معلومًا ومكانًا معلومًا، والأظهر القول الأول؛ لقوله تعالى عنهم: ﴿لا نُخْلِفُهُ﴾. أي ذلك الوعد.

قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ قرئت (سِوى)، وهما لغتان، مثل: عُدًا وعِدًا، وطُوى وطِوى، والمعنى: مكانًا مستويًا عدلًا بين المكانين فيه النَّصَفة، وأصله من قولك: جلس في سواء الدار، أي: في وسطها، ووسط كل شيء: أعدله. وقيل: مكانا قصدًا.

قوله: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ أي: اليوم الذي يتزينون فيه ويجتمعون، وهو يوم عيدهم.

قوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: حين تشرق الشمس، وخُص لأنه أول النهار، والحكمة من توقيت اليوم وحضور الناس ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي الجمع الغاص؛ لتقوى رغبة من رغب في الحق، وَيكِلَّ حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر

المحدثُ بذلك الأمر العلَم في كل بدو وحضر، ويشيع في أهل الوبر والمدر.

قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: حيله وسحره، والمراد: جمع السحرة.

قوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء عليهم بالويل، ويجوز أن يكون نداءً: يا ويلكم، كقوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾.

قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يستأصلكم، يقال: سَحَت وأسْحت بمعنى، وأصله: استقصاء الشعر، وقد سبق بيانه.

قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاوروا، يعني السحرة.

قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ قرئت: (إنَّ هذين)، وقرئت: (إن هذانِّ)، أي: ما هذان إلا ساحران. وقرئت: (إنَّ هذان)، فالأولى موافقة للإعراب موافقة للمعنى، والثانية موافقة للإعراب مخالفة للمصحف، والثالثة كالأولى، والرابعة موافقة للمصحف مخالفة للإعراب. وقيل في توجيه قراءة المخالفين للإعراب عدة أقوال منها: أنّها لغة بني الحارث بن كعب، وزَبيد، وخَثعم، وكنانة، يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف، يقولون: جاء الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان. قال الشاعر:

تَــزَوَّدَ مِنَّــا بَــيْنَ أُذْنَــاهُ ضَــرْبَةً ... دَعَتْــهُ إِلَــى هَــابي الــتراب عقــيم

وقال آخر:

إِنَّ أَبَاهَــــا وَأَبَــــا أَبَاهَــــا ... قَــدْ بَلَغَــا فِــي الْمَجْــدِ غَايَتَاهَــا

وقيل: (إنّ) بمعنى نعم أو أجل. قال الشاعر:

قَــالُوا غَــدَرْتَ فَقُلْــتُ إِنَّ وَرُبَّمَــا ... نَــالَ الْعُــلَا وَشَــفَى الْغَلِيــلَ الْغَــادِرُ

ومعنى هذا أنها لا تنصب، كما قال الشاعر:

لَيْــتَ شِــعْرِي هَــلْ لِلْمُحِــبِّ شِــفَاءٌ ... مِــنْ جَــوَى حُــبِّهِنَّ إِنِ اللِّقَــاءُ

وقيل: (إن) بعدها ضمير الشأن، والتقدير: إنه هذان لساحران، أو لهما ساحران.

قوله: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ قيل: هذا من قول السحرة عند النجوى كما سبق، وقيل: هو قول فرعون، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾. والأقرب أنه من قول فرعون ابتداءً، وقاله السحرة تقليدًا لفرعون، والتأنيث في قوله: ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ تأنيث الأمثل، كما يقال: الأفضل والفضلى، وأنّث الطريقة على

اللفظ، وإن كان يُراد بها الرجال، أو يكون التأنيث على الجماعة. وقيل: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ أي: بسُنّتكم، و ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ نعت، كقولك: امرأة كبرى، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى، يعنون على الهدى المستقيم.

قوله: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ أي: اعزموا وأحكموا سحركم. قال الشاعر:

يَــا لَيْــتَ شَــعْرِي وَالْمُنَــى لَا تَنْفَــعُ ... هَــلْ أَغْــدُوَنْ يَوْمًــا وَأَمْــرِي مُجْمَــعُ

أي: محكم. وقيل: أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أي: ليكون أشد لهيبتكم.

قوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: من غلب. وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ
ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ
عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ
رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

قوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ قرئت: (تخيل)، وهي كقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، فظنوا أن الحيات تسعى، وأن الأرض صارت حيات تمشي، والأول أولى.

قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ﴾ أي: أضمر، أو وجد وأحس في نفسه.

قوله: ﴿خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: خوفًا من افتتان الناس قبل أن يلقي عصاه، وقيل: خوفًا طبيعيًا من الحيات، وذلك على ما يعرض من طباع البشر.

قوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الغالب لهم في الدنيا، والفائز بالدرجات العلى في الجنة.

قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض، أو احتال بشتى الحيل.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: رئيسكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم، وإنما أراد فرعون التلبيس والتمويه والخروج من المأزق والإحراج الذي وقع فيه.

قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل.

قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعني أنا أم رب موسى.

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: قال السحرة غير مبالين بعذابه، وغير خائفين من وعيده بعد أن ملأ الإيمان قلوبهم، وعمَّر اليقين نفوسهم: لن نختارك ولن نفضّلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: والله.

قوله: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: قاضيه، واصنع ما أنت صانع، واحكم ما أنت حاكم من القطع والصلب.

قوله: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: إنما ينفذ أمرك فيها لأنها محصورة محدودة، وهي متاع قليل زائل، فلا الطغاة باقون فيها، ولا حكمهم فيها أبدي، ولا عذابهم مستمر عليهم، إنما هو محدود بأيامهم فيها.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: خير لنا من كل ما في هذه الحياة الدنيا، وخير لنا منك إن أطعناه، وأبقى عذابًا لنا من عذابك لنا إن عصيناه، أو ثوابه لنا بعصياننا لك خير وأبقى.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قيل: هو من قول السحرة لما آمنوا، وقيل: ابتداء كلام الله، والأول أقرب.

قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا ينتفع بحياته، ولا يستريح بموته. قال الشاعر:

أَلَا مَــنْ لِــنَفْسٍ لَا تَمُــوتُ فَيَنْقَضِــي شَــقَاهَا وَلَا تَحْيَــا حَيَــاةً لَهَــا طَعْــمُ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ

مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾

قوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: لا طين فيه ولا ماء.

قوله: ﴿لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا﴾ أي: لَحَاقًا من فرعون وجنوده.

قوله: ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي: لا تخشى غرقًا من البحر أن يمسك إن غشيك.

قوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: أصابَهم من البحر ما غرّقهم، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر، فهو أمر مشهور، وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: هلك، وصار إلى الهاوية، وهي قعر النار.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: أقام على إيمانه حتى مات عليه.

قوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ أي: ما حملك على أن تسبقهم، يعني السبعين، وقيل: لأنه استخلف هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ على بني إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلًا لميقات ربه، وترك الآخرين، ولعل الأول أقرب، وكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قرب من الطور سبقهم من شدة الشوق إلى سماع كلام الله، فلما قال الله في ذلك قال: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، يقال: رجلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعجلان: بيِّن العجلة، والعجلة خلاف البطء.

قوله: ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي.

قوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: لتزداد رضىً عني، اعتذر موسى أولًا ثم بيَّن السبب في إسراعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضى الله.

قوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: أفنسيتم؟ كما قيل والشيء قد يُنسى لطول العهد.

قوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول، والعدول إلى الثاني.

قوله: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: بطاقتنا وقدرتنا واختيارنا، فلم نملك أنفسنا، وقد اضطررنا، وقرئت بكسر الميم، وهو مصدر ملكت الشيء أمْلكه ملْكًا، وقرئت بضم الميم، أي: بسلطاننا، أي: لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك.

قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ أي: حملنا أثقالًا وأحمالًا من حُليِّ آل فرعون

فألقيناها في النار بأمر السامري، وهو عذر بارد، وسميت أوزارًا بسبب أنّها كانت آثامًا؛ لأنهم لم يحل لهم أخذها؛ لأنه لم تحل لهم الغنائم، وقد أخذوها من آل فرعون، وقيل: كانوا قد استعاروها.

قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: ألقى على تلك الأوزار من الزينة من تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا
يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ
مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن
تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا
مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ
نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

قوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: بلا روح له خوار وهو صوت البقر.

قوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي: فضلَّ موسى عليه السلام، وذهب يطلبه فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربه، أو ترك موسى عليه السلام إلهه هنا، وقيل: فنسي السامري، وترك ما كان عليه من الإسلام.

قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أنه لا يرجع، ولذلك ارتفع الفعل، فخففت (أن)، وحذف الضمير.

قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: من قبل أن يأتي موسى عليه السلام ويرجع إليهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: فننظر هل يعبده كما عبدناه، فتوهموا أن موسى عليه السلام يعبد العجل.

قوله: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾ أي: قال موسى لِهارون بعدما رأى المنظر الفظيع، والعمل البشع، ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أن تتبع أمري ووصيتي، وتخبرني بما فُعل من بعدي، أو هلا فارقتهم، فتكون مفارقتك لهم تقريعًا وزجرًا؛ لأنه قال له كما في سورة الأعراف: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ أي: قال له هارون استعطافًا وترقيقًا: يا ابن أمي – أي

يا أخي- لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي.

قوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني لو اتبعتك ولحقتك لاتبعني قوم، ولتخلف قوم، وحينئذ يتفرقون.

قوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: لم تعمل بوصيتي، ولم تُراعِ ما أمرتك به.

قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما أمرك وما شأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟

قوله: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: رأيت ما لَم يروا، أي: رأيت جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرس الحياة، فأُلقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة، فما ألقيته على شيءٍ إلا صار له روح، وقرئت: (بما لم تبصروا به)، والقبضة: ما قبضت عليه من شيء، والقِبْضُ: العدد الكثير من الناس.

قوله: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتها في العجل.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: وكذلك حسَّنتْ وزيَّنَتْ لي نفسي.

قوله: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ أي: اذهب من بيننا.

قوله: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا أُمّسّ ولا أَمَسّ طول الحياة، فنفاه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قومه، وأمرهم ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له، فصار لا يماس الناس ولا يماسوه، وهذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي الكبار، ويقال: (لا مَساسِ) مبني على الكسر، كما قال: اضربِ الرجل، وقيل: لأنه معدول من المصدر، وهو المس.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يعني يوم القيامة.

قوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: دمت وأقمت عليه ملازمًا، وأصله: ظللت.

قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي: لنطيِّرنّه ليذهب به الريح في اليم وهو البحر، وهو التذرية، والمِنْسَف: ما يُنْسف به الطعام، والنُّسافة: ما يسقط منه، يقال: اعزل النُّسافة وكُلِ الخالص، والمِنْسفة: آلة يُقلع بها البناء، ونسفت البناء نسفًا: قلعته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ

بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ
ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾﴾

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: مقيمين فيه، لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، أي: في جزائه، وجزاؤه جهنم.

قوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ أي: وبئس ذلك الحمل الثقيل حملًا لهم، شُبِّه الوزرُ بالحمل لثقله.

قوله: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ أي: عيونُهم، والعرب تتشاءم بزَرَق العيون، وتذمه. أي: تشوه خلقتهم بزرقة عيونِهم وسواد وجوههم. وقيل: شاخصة أبصارهم من شدة الخوف، يقال: رجل أزرق العين، وامرأة زرقاء العين، والاسم: الزُّرقة، وقد زرِقت عينه وازرقت عينه ازرقاقًا، وازراقت عينه ازريقاقًا. وقيل: ﴿زُرۡقٗا﴾ أي: عُميًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾، والقول الأول أقرب، والجمع بين هذه الأقوال سهل؛ لأن يوم القيامة حالات: فحالة يكونون فيها زُرقًا، وحالة تشخص فيها أبصارهم، وحالة يكونون فيها عُميًا.

قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتسارون، يقول بعضهم لبعض سرًا: إن لَبِثتم إلا عشر ليالٍ في الدنيا.

قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أي: أعقلهم وأعلمهم وأعدلهم، وقد قال الله تعالى عنهم في آيات أخرى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ أي: ما حالها يوم القيامة؟

قوله: ﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ أي: بساطًا واحدًا أملسَ، فلا نبات ولا بناء، فالقاع: الموضع المنكشف المستوي من الأرض، والصفصف: المستوي الأملس.

قوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا﴾ أي: تعوجًا وميلًا.

قوله: ﴿وَلَآ أَمۡتٗا﴾ أي: تلالًا صغيرة ولا كبيرة، والمعنى أنّها صارت أرضًا مستوية، لا انخفاض فيها ولا ارتفاع، ولا أودية ولا روابي، تقول: امتلأ فما به أمْتٌ، وملأت القربة ملئًا لا أمت فيها، أي: لا استرخاء فيه، والأمْت في اللغة: المكان المرتفع.

قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ أي: إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا نفخ في الصور.

قوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا معدل لهم عنه وعن دعائه، فلا يزيغون لا يمنة ولا يسرة، بل يسرعون إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ذلت وسكنت.

قوله: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: صوتًا خفيًا، وحِسًا خافتًا، وهو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر. قال الشاعر:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا

ويقال للأسد: الهموس؛ لأنه يهمس في الظلمة، أي: يطأ وطئًا خفيًا.

وهمس الطعام، أي: مضغه وفمه منضمٌ. قال الشاعر:

لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَبًا مُذْ أَمْسَا ... عَجَائِزًا مِثْلَ السَّعَالِي خَمْسَا

يَأْكُلْنَ مَا أَصْنَعُ هَمْسًا هَمْسًا

وقيل: الهمس: تحريك الشفة واللسان، والمعنى أنّهم لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا حركة ولا صوت أقدام، ومنه: الحروف المهموسة، وهي عشرة يجمعها قولك: (حَثَّهُ شخص فَسكت)، وسميت بالمهموسة لأنّها ضعيفة الاعتماد على مخرجها حتى جرى معها النفس.

قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: ذلت وخضعت، ويقال للأسير: عانٍ، قال رسول الله ﷺ: «فُكُّوا الْعَانِيَ - يَعْنِي: الأَسِيرَ -، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ». رواه البخاري من حديث أبي موسى رضي الله عنه. قال أمية بن أبي الصلت:

مَلِيكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ ... لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

وقال أيضًا:

وَعَنَا لَهُ وَجْهِي وَخَلْقِي كُلُّهُ ... فِي السَّاجِدِينَ لِوَجْهِهِ مَشْكُورَا

يقال: قوم عُناة، ونسوة عوانٍ، وعنت به أمور، أي: نزلت، ويقال في اللغة: عَنَت: القهر والغلبة، ومنه: فُتحت البلاد عنوة، أي: غلبة. وقيل: عنت، من العناء، وهو التعب. وكنّى عن الناس بالوجوه لأن آثار الذل إنما تتبين في الوجه، والقول الأول هو الحق.

قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قرئت: (فلا يخف).

قوله: ﴿ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ أي: نقصًا من حقوقه، والهضم: النقص والكسر، يقال: هضمت ذلك من حقي، أي: حططته وتركته، وهذا يهضم الطعام، أي: ينقص ثقله، وامرأة هضيم الكشح: ضامرة البطن، فالظلم: المنع من الحق كله، والهضم: المنع من بعض الحق، والكل يجمعه اسم الظلم، ورجل هضيم ومهتضم، أي: مظلوم، وتَهضّمه، أي: ظلمه، واهتضمه، إذا ظلمه وكسر عليه حقه.

قوله: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: بينا فيه من التخويف، والتهديد، والثواب، والعقاب.

قوله: ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ أي: موعظة وورعًا وشرفًا، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥﴾

قوله: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾، وسيأتي سبب نزول هذه الآية إن شاء الله في مطلع سورة القيامة، وقيل: لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله، والقول الأول أحرى.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ أي: فهمًا وبصيرة ومعرفة بالوحي وبالشرع، وهو دعاء جليل يتأكد في حق كل طالب علم، حباه الله حب العلم الشرعي، ولا نهاية للعلم ولا لطلبه كما قال أحمد بن حنبل: من المحبرة إلى المقبرة. وقد جاء عند الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا».

قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ﴾ أي: ترك ما أمره الله به من عدم الأكل من الشجرة، وقيل: من النسيان، والأول أقرب؛ لأنه لو كان الثاني لعُفي عنه ولما نزل من الجنة.

قوله: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ أي: لم نجد له صبراً ومواظبة على التزام الأمر وعدم الأكل من الشجرة، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس، يقال: لفلان عزم، أي: صبر وثبات على التحفظ من المعاصي حتى

يسلم منها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة.

قوله: ﴿وَلَا تَعۡرَىٰ﴾ من العُري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعُري ذل الظاهر.

قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ فالظمأ حر الباطن، والعطش والضحى حر الظاهر، من ضَحِيت أضحِي إذا برزت للشمس، وضَحِيَتِ الشمس ضحاءً: برزت، والمستقبل: أضحى.

قوله: ﴿يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: يغطيان بها عوراتهما ليسترا بها.

قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ جاء عند الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُونَا -ولمسلم: الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ. وَفِي رِوَايَةٍ: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَغْوَيْتَ النَّاسَ-، خَيَّبْتَنَا، وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ! -وَفِي رِوَايَةٍ: بِذَنْبِكَ. (وَفِي رِوَايَةٍ: أَشْقَيْتَ النَّاسَ!) - قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى! اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ، (وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ)؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَوَجَدْتَهَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ: نَعَمْ-، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى. (ثَلَاثًا)».

ومعنى ﴿فَغَوَىٰ﴾: جهل موضع رشده، وكان هذا من الله عز وجل ابتلاءً وامتحانًا وحكمة، وقد قال الله سبحانه للملائكة قبل أن يخلق آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾، فإذن القضية مصيبة، والأمر مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ، فلا اعتراض على الأقدار، ولا احتجاج على وقوع المصائب، ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌ﴾، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ وكان ذلك بعد العصيان والتوبة والإنابة، وفي ذلك دلالة على أن نبوة آدم عليه السلام وعصمته إنما كانت بعد هبوطه إلى الأرض.

قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: عيشًا ضيقًا، يقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث.

والمقصود أن المعرض عن القرآن لا طمأنينة لقلبه، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج كأنما يصعّد في السماء، وذلك لضلاله وغفلته، وإن تنعم ظاهره، ولبس الثياب الجميلة، وأكل المأكولات اللذيذة، وشرب المشروبات الحلوة، وسكن القصور الشامخة، وركب المراكب الفارهة، فإن فؤاده ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، ولعذاب الآخرة أشق وأكبر وأخزى، بداية بسكرات

الموت وضمة القبر، وتوسطًا بعذاب البرزخ، ونهاية بدخول النار وبئس القرار.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ فيه تقديم وتأخير، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزامًا، واللزام: الملازمة، وهو العذاب الملازم لهم.

قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامة، وقيل: يوم بدر وما بعدها من هزائم المشركين، والمقصود أنه لولا الكلمة السابقة من الله، وهو أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: من ساعاته فتهجد، وقيل: صلاة المغرب، والعشاء.

قوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: في أول النهار وآخره.

قوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ قرئت: (تُرضى)، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منصوبة على الحال، وقيل: منصوبة بمعنى: ﴿مَتَّعْنَا﴾ أي: جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة، أو منصوبة بفعل مضمر، وهو جعلنا، أي: جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا، والقول الأول هو الأولى، ويكون المعنى: ولا تمدنَّ عينيك إلى الحياة الدنيا زهرة، أي: في حال زهرتها، ويقال لنَوْر النبات: الزَّهرة، بفتح الزاي، وللنجم: الزُّهَرة، بضم الزاي وفتح الهاء، يقال: سراج زاهر، أي: له بريق، وزهر الشجر: ما يروق من ألوانها، وعند الشيخين من حديث أنس ﵁ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ». أي: نيِّر اللون. ويقال لكل شيء مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان. وقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى شيئًا يعجبه قال: «لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَة». قال ابن حجر: حديث ثابت.

قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: لازم عليها، ويدخل في ذلك عموم الأمة، وكان عمر بن الخطاب ﵁ يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي وهو يقرأ هذه الآية. رواه مالك بسند جيد.

قوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ أي: لا نسألك أن ترزق نفسك وإياهم، وتشتغل عن تكاليف الرسالة وتبليغ الأمة وأداء العبادة بسبب الرزق، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾.

قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: العاقبة المحمودة، ومن ذلك الجنة لأهل التقوى، أما غيرهم فلهم عاقبة، ولكنها وخيمة مذمومة.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يعني التوراة، والإنجيل، والكتب المتقدمة، والمقصود أن القرآن وهو البينة جاء وأتى بأخبار الأولين، بما كان في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، وهو مهيمن عليها، يصدق الصحيح، ويبيّن خطأ المكذوب فيها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل بعثة النبي ﷺ، وقبل نزول القرآن.

قوله: ﴿لَقَالُواْ﴾ أي: قالوا يوم القيامة.

قوله: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ هلا أرسلت إلينا رسولًا ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾.

قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ﴾ أي: قل يا محمد: كلٌّ منتظر دوائر الزمان، ولمن يكون النصر.

قوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: الطريق المستقيم.

قوله: ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، كقوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾.

انتهى تفسير سورة طه، ولله الحمد.

سورة الأنبياء

هي مكية إجماعًا، وقد سبق قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أخرجه البخاري: «قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطه وَالْأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي». أي: من قديم كسبي، كالمال التّلاد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي: قرُب الوقت الذي يُحاسبون فيه على أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾. قال الشاعر:

النَّـــاس فِـــي غَفلاتِهِـــمْ ... وَرَحـــا المنِيَّـــة تَطْحَـــنُ

قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: نزول القرآن، وتلاوة جبريل على النبي ﷺ؛ فإنه كان ينزِل سورة بعد سورة، وآية بعد آية، وفي وقت بعد وقت، والمقصود أنه جديد بإنزاله، وقد روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُم الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ؟ وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللهُ، وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ».

قوله: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يلهون بلذاتهم، ويشتغلون بطلب الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، وربما اعترضوا عليه وقدحوا فيه.

قوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ساهية معرضة متشاغلة عن التأمل والتفهم، من قول العرب: لَهَيْتُ عن ذكر الشيء، إذا تركته وسلوت عنه، ألْهَى لِهِيًّا ولِهْيَانًا، و ﴿لَاهِيَةً﴾ نعت تقدّم، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت في جميع الإعراب، فإذا تقدم النعت الاسم وكان النعت نكرة انتصب على الحال، كقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾. قال الشاعر:

لِعَـــزَّةَ مُوحِشًـــا طَلَـــلُ ... يَلُـــوحُ كَأَنَّـــهُ خَلَـــلُ

أي: طلل موحش.

وأجاز الكسائي، والفرَّاء: (لاهيةٌ قلوبُهم)، أي: قلوبُهم لاهية، ويجوز أن يكون المعنى: إلا استمعوا لاهية قلوبُهم.

قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: تناجى المشركون فيما بينهم سرًا.

قوله: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ أي: أخلاط، كالأحلام المختلطة الكاذبة، والأهاويل التي تُرى في المنام، ولكن لما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك، فقالوا: ﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾.

قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أي: بمعجزةٍ خارقة كما أُرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة.

قوله: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ أي: ما آتينا قرية من القرى التي بُعث فيها الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك.

قوله: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبْهر وأقطع مما شوهد مع غيره من الأنبياء عليهم السلام.

قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ انعقد الإجماع على أن العامة عليها تقليد علمائها المتبعين للحق والسنة، كما أجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق به في تحديد القبلة إذا أشكلت عليه، كما أجمعوا على أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ لجهلها بالمعاني التي يجوز فيها التحليل والتحريم، وقد جاء عند أبي داود عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ؛ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللهُ، أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ». حديث حسن.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: مُتجسدين لا يأكلون ولا يشربون، وقيل: بل كانوا أجسادًا يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ لا كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه شرفكم وعزكم وسيادتكم، واللام للقسم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: كسرنا وأهلكنا، يقال: قصمت ظهر فلان، وانقصمت سنّه، إذا انكسرت، والمقصود: الإهلاك، وأما الفَصْمُ فهو الصدع في الشيء من غير بينونة، ومنه الحديث المتفق عليه قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا».

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ أي: رأوا وخافوا وتوقعوا، يقال: أحسست منه ضعفًا، إذا رأيت.

قوله: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويفرون، والركض: العَدْو بشدة الوطء، والركض: تحريك الرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، وركضت الفرس برجلي: استحثته ليعدو، ثم كثر حتى قيل: ركض الفرس، إذا عدا، والصواب: رُكِض الفرس، على ما لم يُسمَّ فاعله، فهو مركوض.

قوله: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: نِعمكم التي كانت سببًا لبطركم، والمترف: المتنعم، يقال: أُترف على فلان، أي: وُسِّع عليه في معاشه، قال تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، وقيل: عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به. والأول أقرب.

قوله: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي: تلك مقالتهم، وهي الاعتراف بالظلم هو هجِّيراهم حتى حصدناهم بالموت حصدًا، والخمود: الهمود، كخمود النار إذا طفئت، كما يقال لمن مات: قد طفيء، تشبيهًا بانطفاء النار.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: عابثين ولا مبطلين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، بل للتنبيه على أن لها خالقا صانعًا مدبرًا مصرفًا رافعًا خافضًا على كل شيء قدير، وحاشا أن يكون خلقهما

ليظلم بعض الناس بعضًا، ويبطش بعضهم ببعض، ويأكل بعضهم بعضًا، بل له موعد فيه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من عندنا من أهل السماء لا من أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فنزَّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد والصاحبة والبنات، لا سيما عما يقولون من الإفك والزور والباطل من اتخاذ عيسى، أو عزير، أو الملائكة عليهم السلام، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، واللهو قد يطلق ويراد به الجماع؛ لأنه مُلهٍ للقلب. قال الشاعر:

أَلَا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ الْيَوْمَ أَنَّنِي ... كَبِرْتُ وَأَلَّا يُحْسِنَ اللَّهْوَ أَمْثَالِي

وقال آخر:

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ ... أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ

قوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلا نذير، قال مجاهد: كل شيء في القرآن (إن) فهو إنكار، وقيل: على معنى الشرط، أي: إن كنا فاعلين ذلك، ولكن لسنا بفاعلين لاستحالته. والأول أقرب، والثاني له وجه.

قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: نرمي بالحق ونبينه، والقذف: الرمي.

قوله: ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يقهره ويهلكه، وأصل الدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، والحق هنا: القرآن، والباطل: الشيطان، قال مجاهد: كل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان، أو من الشيطان.

قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالك، ومضمحل، وذاهب، وتالف.

قوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ أي: العذاب.

قوله: ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: مما تكذبون وتصفون الله بأوصاف لا تليق بجلاله.

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا ينقطعون ولا يعيون ولا يملون، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وهو مأخوذ من الحسير، وهو البعير المنقطع من الإعياء والتعب، يقال: حسر البعير يحسِر حُسورًا: أعيا، وكلَّ واستحسر وتحسر مثله، وحسرته أنا حسرًا يتعدى ولا يتعدى، وأحسرته أيضًا فهو حسير.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ استفهام جحود، أي: لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء، وقيل: ﴿أَمِ﴾ بمعنى هل، أي: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ويمتنع أن تكون ﴿أَمِ﴾ بمعنى بل، إلا إذا كانت على تقدير: بل اتخذوا، أي: مع الاستفهام.

قوله: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ أي: يحيون ولا يموتون، من أنشر الله الميت فنشِر، أي: أحياه فحيِيَ، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، و ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: غير، عند الكسائي، وسيبويه، ولذلك أُعرب ما بعدها بإعرابها، وقيل: بمعنى: سوى، عند الفرّاء، والأول أرجح، والثاني معتبر. والفساد هنا: الخراب والهلاك بسبب التنازع والاختلاف الواقع بين الشركاء، ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

قوله: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ قاصمة لظهر القدرية وغيرهم، فالكل عبيده، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةَۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ أعاد التعجب مبالغة في التوبيخ، فتكون ﴿أَمِ﴾ بمعنى: هل، على ما سبق، وقيل: الأول احتجاج من حيث المعقول؛ لأنه قال: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾، وهيهات، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾، والثاني احتجاج بالمنقول ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ ومن أين لهم البرهان؟ ولكنه الهوى والشيطان.

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي: القرآن.

قوله: ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ في التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، فالكل يؤكد دعوة واحدة، ألا وهي الإخلاص لله وحده، لا إله إلا هو ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾.

قوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن

دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا
فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا
فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي: لمن أذن له، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهم أهل شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الملائكة.

قوله: ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كما جزينا من فعل هذا وإن كان من الملائكة بالنار، فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والربوبية في غير موضعهما.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قُرِئت: (ألم ير) بدون واو، والمعنى: أولم يعلم.

قوله: ﴿كَانَتَا﴾ لأنَّهما صنفان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

قوله: ﴿رَتْقًا﴾ أي: متلاصقتين متصلتين بعضهما فوق بعض، والرتق ضد الفتق، وقد رتقت الفتق أرتقه فارتتق، أي: التأم، ومنه: الرتقاء، للمُنضمة الفرج، وقيل: ﴿رَتْقًا﴾ يعني السماء لا تمطر، والأرض لا تنبت، والقول الأول أقوى.

قوله: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي: فصلناهما، وجعلنا السماوات سبعًا، والأرض سبعًا، وفصلنا بين السماء والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. وصدق الشاعر:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أصل كل الأحياء، وقد جاء عند أحمد

بإسناد جيد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي، وَقَرَّتْ عَيْنِي، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ»، وكما أنه أصل الحياة، فهو أيضًا حافظ للحياة، فلا يعلم مخلوق ذو روح أو نبات إلا وهو محتاج إلى الماء، إلا النادر اليسير؛ لأن الكل قد يذكر بمعنى الجل أو البعض، كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، ولماء زمزم خاصية على عموم الماء قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ». حديث صحيح رواه ابن ماجه من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ»، وعند ابن أبي شيبة والطيالسي زيادة بسند صحيح: «وَشِفَاء سُقْم».

قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بهم ولا تتحرك، أو كراهية أن تميد بِهم، يقال: مَادَ رأسه، أي: دار وتحرك.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ أي: مسالكَ.

قوله: ﴿سُبُلًا﴾ تفسير الفجاج؛ لأن الفج قد يكون طريقًا نافذًا مسلوكًا، وقد لا يكون.

قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فلا يتيهون في أسفارهم، أو ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالاعتبار بها إلى دينهم.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: عن الوقوع والسقوط، قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، وكذا: ﴿مَّحْفُوظًا﴾ بالنجوم من الشياطين، قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

قوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ من شمس وقمر ونجوم وأفلاك ورياح وسحب وليل ونَهار، وما فيها من قدرة الله تعالى وقوته.

قوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الشاهق الباهر، وما زُيِّنت به من الكواكب الثوابت والسّيارات في ليلها ونَهارها، ومن ذلك هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة، فتسير في غاية الروعة في خط مرسوم ووقت محدد، فسبحان من سيّرها وقدّرها وسخّرها، ألا فلعنة الله على الملحدين. قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ فهي على الأرض كالقبة، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

قوله: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يدورون، كما يدور المغزل في الفَلْكة، ومن المعلوم أن المغزل لا يدور إلا بالفلكة، والفلكة لا تدور إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا بالفلك، وهو الاستدارة في السماء، ولا يدور الفلك إلا بِهنّ، قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا

وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وفي قوله: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ تشبيه بالسابح في الماء، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾، ويقال للفرس الذي يمد يده في الجري: سابح، وقد أخبر عنهن بفعل من يعقل، وجعلهن في الطاعة بمنْزلة من يعقل، فقال: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾، ولم يقل: يسبحن، ولا تسبح.

قوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ أي: أفهم؟ استفهام إنكار، والمعنى: أنّهم قالوا: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا لن يكون هذا، بل كل إلى فناء.

قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي: كلٌّ إلى الفناء. قال الشافعي رحمه الله:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْقَى خِلَافَ الَّذِي مَضَى ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

وقد روى البزار وغيره عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا عَاشَ نِصْفَ الَّذِي عَاشَ النَّبِيُّ الَّذِي قَبْلَهُ». قال ابن حجر في الإمتاع: حال سنده حسن لاعتضاده.

قوله: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ أي: نختبركم بالشدة والرخاء، والحلال والحرام، والمصائب والنعم، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما يتخذونك إلا سخرية، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي: بالسوء والعيب.

قوله: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بالقرآن، أو كافرون بالله.

قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: رُكِّب على العجلة، فخلق عجولًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: في الأمور، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾، والمقصود أن طبع الإنسان العجلة، فيستعجل كثيرًا في الأشياء، وإن كانت مضرة، وقيل: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: من طين، بلغة حمير. كما قال الشاعر:

وَالنَّبْعُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ مُنْبَتَةٌ وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ المَاءِ وَالْعَجَلِ

والقول الأول الصحيح؛ لقوله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ»، ثم إن ما بعدها يؤكد ذلك، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

قوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ﴾ أي: لو علموا وعرفوا الوقت الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ لما استعجلوا الوعيد، ولما أقاموا على الكفر، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم.

قوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: فتدهشهم وتحيرهم.

قوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من يحرسكم ويحفظكم؟ والكلاءة: الحراسة والحفظ، يقال: كلأه الله كِلاءً، أي: حفظه وحرسه، ويقال: اذهب في كلاءة الله، واكتلأتُ منهم، أي: احترستُ. ومن قال لرجل: كلاكَ الله، فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع في كليته. والمقصود: النفي بلفظ الاستفهام، والتقدير: قل لا حافظ لكم بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا قمتم من عذاب الرحمن وبأسه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ أي: من عذابه، وقيل: قل لا حافظ لكم غير الرحمن أو بدله. كما قال الشاعر:

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمُرَقَّقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتُقَا

أي: لم تذق بدل البقول الفستق.

قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن القرآن، وقيل: عن مواعظ ربهم، وقيل: عن معرفته، والجميع متقارب.

قوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يُمنعون ويُجارون، تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان، أي: مُجير منه، وقيل: يحفظون، أي: لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل رحمته صاحبًا لهم، والقول الأول

هو الصواب.

قوله: ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ في النعمة والملذات والبطر، فظنوا أنّها لا تزول، فاغتروا واعتقدوا أنّهم على شيء، فأعرضوا عن تدبر الآيات والاستسلام لداعي الحق.

قوله: ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أي: بعد أن نقصنا من أطرافهم؟ كلا، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم، ويكونون من الأسفلين المهزومين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ
نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ
شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ
وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ
ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ
أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: من أصم الله قلبه، وختم على سمعه، وجعل على بصره غشاوة عن فهم الآيات وسماع الحق، وقرئت: (ولا تُسْمِعُ الصمَّ الدعاء)، فالخطاب هنا للنبي ﷺ، والقراءة الأولى أشهر، وهي قراءة الجمهور.

قوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ﴾ أي: عقوبة ولو يسيرة، كما يقال: نفح فلان لفلان من عطائه، إذا أعطاه نصيبًا من المال. قال الشاعر:

لَمَّـــا أَتَيْتُـــكَ أَرْجُـــو فَضْـــلَ نَـــائِلِكُمْ ... نَفَحْتَنِـي نَفْحَـةٌ طَابَـتْ لَهَـا الْعَـرَبُ

أي: طابت لها النفس.

قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾ أي: لوزن الأعمال، وهي جمع ميزان، فلكل مكلف ميزان توزن به أعماله، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، وقيل: يكون هناك للعامل الواحد عدة موازين، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله. قال الشاعر:

مَلِـــكٌ تَقُـــومُ الْحَادِثَـــاتُ لِعَدْلِـــهِ ... فَلِكُـــلِّ حَادِثَـــةٍ لَهَـــا مِيـــزَانُ

ويمكن أن يكون ميزانًا واحدًا عُبِّر عنه بلفظ الجمع، باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، والقول الأول الأقرب، والثاني والثالث واردان.

قوله: ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ أي: العدل، ليس فيها بخس ولا ظلم، وهو صفة للموازين، ووحِّد لأنه مصدر، يقال: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط، مثل: رجال عدل.

قوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لأهل يوم القيامة، أو في يوم القيامة.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ كقوله تعالى عن لقمان: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ أي: مُجازين، فلا أحد أسرع حسابًا وعدًّا منا، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند لا بأس به عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يَكْذِبُونَنِي، وَيَخُونُونَنِي، وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ: يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ: فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمُ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ. قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ، فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ؟ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الآيَةَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجِدُ لِي وَلَهُمْ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ؛ أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ».

وعند الترمذي بسند جيد عن عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ! قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ؛ وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ».

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هذا الفرقان ضياء وذكر؛ لأن الواو هنا عطف تفسير، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ فالفرقان هنا هو الكتاب، والله أعلم.

قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: غائبين، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وقوله: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ أي: وجلون وخائفون.

قوله: ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ يا معشر العرب، وهو في غاية الجلاء والظهور؟

قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ أي: هداه وتوفيقه وصلاحه من الصغر، فعرف الحق، وأُلهِم الحجة، وأُعطِي القدرة على النظر والاستدلال، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾.

قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: قبل النبوة، وقيل: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل موسى، وهارون عليهما السلام، فيكون الرشد: النبوة، ولكن القول الأول أقوى، وعليه أكثر أهل التفسير، كما قال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾.

قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: أنه أهل لإيتاء الرشد، وصالح للنبوة.

قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام، والتمثال: اسم موضوع للشيء المصنوع مشبهًا بخلق من خلق الله تعالى، يقال: مثلت الشيء بالشيء، أي: شبهته به، واسم ذلك الممثل تمثال.

قوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتِها.

قوله: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: المازحين الهازلين.

قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ أي: لأمكرن بِها ولأكسرنّها، وهو تَهديد واثقٍ بالله، موطنٍ نفسه على مقاساة المكروب في الذب عن الدين، والصبر على ما يناله في سبيل رب العالمين، والتاء في ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ تختص بالقسم باسم الله وحده، والواو تختص بكل مُظهر، والباء بكل مُضمر ومُظهر، والكيد هو المكر، كاده يكيده كيدًا ومكيدة، وكذلك المكايدة، وربما سميت الحرب كيدًا، يقال: غزا فلان فلم يلق كيدًا، وكل شيء تعالجه فأنت تكيده.

قوله: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: منطلقين ذاهبين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ

بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا﴾ أي: فُتاتًا، والجذّ: الكسر والقطع، جذذت الشيء: كسرته وقطعته، والجِذاذ والْجُذاذ: ما كُسر منه، والضم أفصح من الكسر، ويقال لحجارة الذهب: جُذاذ؛ لأنّها تكسر. قال الشاعر:

جَــذَّذَ الْأَصْــنَامَ فِــي مِحْرَابِهَــا ذَاكَ فِــي اللهِ العلــي المقتــدر

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ﴾ أي: عظيم الآلهة في الخلق، فإنه لم يكسره، وقيل: إنما تركه ليعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: إلى رشدهم وعقولهم إذا قامت الحجة العقلية الصريحة عليهم، وقيل: لعلهم إلى الصنم الأكبر يرجعون في تكسيرها، ويعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنِف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، والقول الثاني هو الظاهر، والأول وارد.

قوله: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جاء عند إسحاق بن راهويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أَنْطَلِقُ أَنَا وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ إِلَى أَصْنَامِ قُرَيْشٍ الَّتِي حَوْلَ الْكَعْبَةِ، فَنَأْتِي الْعَذِرَاتِ، فَنَأْخُذُ حُرَيْرَاقَ بِأَيْدِينَا، فَنَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى أَصْنَامِ قُرَيْشٍ فَنُلَطِّخُهَا، فَيُصْبِحُونَ فَيَقُولُونَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟ فَيَنْطَلِقُونَ إِلَيْهَا وَيَغْسِلُونَهَا بِاللَّبَنِ وَالْمَاءِ». قال ابن حجر: إسناده صحيح.

قوله: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى﴾ أي: الذين سمعوا إبراهيم عليه السلام وهو يعيب الأصنام.

قوله: ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ أي: يعيبهم ويسبهم.

قوله: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ مرفوع على أنه مفعول لم يسم فاعله أي هو نائب فاعل، وقيل: على تقدير يقال له هو إبراهيم، وقيل: على النداء، وضمه بناء، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ عليه بما قال، ليكون ذلك حجة عليه، أو ليعتبروا بعقابه، فلا يُقدِم أحد على مثل ما أقدم عليه، وهو الصواب، وقيل: لعل قومًا يشهدون بأنّهم رأوه يكسر الأصنام، وهذا ما أراد سيد الحنفاء وإمام الأتقياء وداعية التوحيد وأشهر من ندّد بالشرك البغيض، ألا وهو حضرة الناس كلهم وحضرة الأشهاد، بما في ذلك ملكهم؛ ليبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرًا، فكيف عن غيرها؟! ولا تملك لنفسها نفعًا، فكيف لغيرها؟!

قوله: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ وأراد بهذا أن يعترفوا بأنّهم لا ينطقون، وقد قال إبراهيم عليه السلام

لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عليه السلام قَطُّ إِلا ثَلاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ...»، ولا ريب أن الكذب هنا إنما هو من المعاريض، لكنها أثرت في الرتبة، وخفضته عن مرتبة محمد ﷺ، ولذلك قال كما عند مسلم كما في حديث الشفاعة: «إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ»، واستحيا منها إبراهيم عليه السلام حين أتاه الناس يريدون أن يشفع لهم، قال رسول الله ﷺ: «وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم.

قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: بتفريطكم أو بعبادتكم لها وهي لا تنطق ولا بلفظة، ولا تملك لنفسها لحظة، ولا تدفع بأسًا، ولا ترد فأسًا، والقول الثاني أقرب.

قوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: عادوا إلى جهلهم وعنادهم وإلى ما هم فيه من الفتنة، وقيل: رجعوا إلى رؤوسهم في الرأي، والقول الأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾. وفي هذه الآية دلالة على أنّهم فعلوا ذلك حيرة وعجزًا، وقد قيل: أدركت القوم حيرة سوء.

قوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قبحًا لكم ونتنًا لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله.

قوله: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ أي: كوني يا نار ذات بردٍ وسلامة، وجاءت العبارةُ هكذا للمبالغة، وقيل: ما من نار يومئذ إلا انطفأت، تظن أنها المقصودة بكلام الله تعالى.

قوله: ﴿وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: حرًا يدفع بردها، ولو لم يقل: ﴿بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ لكان بردها أشد عليه من حرِّها، وقد سبق ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾».

وقد أمر الشارع بقتل الوزغ، وقد ثبت عند البخاري وأصله متفق عليه عن أم شريك رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ بِقَتْلِ الوَزَغِ، وَقَالَ: كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام».

قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: أرض الشام لا سيما بيت المقدس، حيث الخصب ووفرة الأنهار والأشجار، وكثرة الأنبياء.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾ أي: زيادة؛ لأنه دعا في إسحاق عليه السلام

وزيد يعقوب عليه السلام من غير دعاء، فكان ذلك نافلة، أي: زيادة على ما سأل، إذ قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ويقال لولد الولد: نافلة؛ لأنه زيادة على الولد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ أي: رؤساء يُقتدى بهم في الخيرات والأعمال الصالحات.

قوله: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي.

قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر دلّ عليه ما قبله، أي: وآتينا لوطًا، وقيل: التقدير: واذكر لوطًا عليه السلام.

قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي: نبوة ومعرفة وفهمًا بأمر الله، وما يقع به الحكم بين الخصوم.

قوله: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: حين دعا ربه ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾، وقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: من الغرق والغم الشديد.

قوله: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: ونصرناه على القوم، فـ ﴿مِنَ﴾ بمعنى على، وقيل: فانتقمنا له من القوم.

قوله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: الصغير منهم والكبير.

قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: واذكرهما.

قوله: ﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ أي: في الزرع.

قوله: ﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: رعت فيه ليلًا، والنفش: الرعي بالليل، يقال: نفشت بالليل وهملت بالنهار، إذا رعت بلا راع، وأنفشها صاحبها، وإبل نُفَّاشٌ، وقد جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلًا لي، فقال شريح: نَهارًا أم ليلًا؟ فإن كان نَهارًا

فقد برئ صاحب الشياه، وإن كان ليلًا ضمن، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾، وهذا الذي قاله شريح موافق للحديث الذي رواه أبو داود من حديث البارء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ ضَارِيَةٌ، فَدَخَلَتْ حَائِطًا فَأَفْسَدَتْ فِيهِ، فَكُلِّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهَا، فَقَضَى أَنَّ حِفْظَ الْحَوَائِطِ بِالنَّهَارِ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَنَّ حِفْظَ الْمَاشِيَةِ بِاللَّيْلِ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَنَّ عَلَى أَهْلِ الْمَاشِيَةِ مَا أَصَابَتْ مَاشِيَتُهُمْ بِاللَّيْلِ». حديث حسن.

قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ أي: مطَّلعين على حكم كلٍ منهما عالمين به.

قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: القضية والحكومة، وأما داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أوتي في هذه النازلة الحكم والعلم، وقصر به فهم القضية، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ﴾، وفي هذه الآية فضيلة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ على والده، ولكنها فضيلة راجعة إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الوالد تسره زيادة ولده عليه، بل وله مثل أجر ابنه؛ لأنه سبب وجوده، ولا يمكن أن يقال بخطأ الأنبياء كلهم، بل كلهم معصومون مؤيدون من الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن وُجد في النادر لا يقرون عليه، بل يتبين لهم الحق من قريب، وهذا مما لا ينبغي أن يكون فيه خلاف بين العلماء المحققين من السلف والخلف.

وأما سواهم فقد ثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ». وعند أبي داود من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند جيد قال رسول الله ﷺ: «الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ، وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ: فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ». وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ. وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ. فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا. فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ! هُوَ ابْنُهَا. فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا الْمُدْيَةُ».

ولا يفهم من هذا الحديث خطأ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن كلًا منهما يحكم بوحي، إلا أن حكم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ناسخ لحكم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم لو قيل إن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أخطأ، قلنا: قد تبين له الحق من قريب حين حكم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فوافق الصواب، يعني لم يصر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ على خطئه. قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بصوابه، وعذر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ باجتهاده.

قوله: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَ﴾ أي: وكانت الجبال والطير تجاوب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتسبيح، قيل: بالذكر، وقيل: بالسير معه، ويكون التسبيح مأخوذًا من السباحة، قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي

مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ﴾، وقد أعطي داود عَلَيْهِ السَّلَامُ صوتًا جميلًا بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويبًا، ولهذا لما مرّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يتلو القرآن من الليل استمع قراءته، وقال: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». رواه الشيخان واللفظ لمسلم، وزاد ابن حبان بسند صحيح: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ عَلِمْتُ مَكَانَكَ، لَحَبَّرْتُ لَكَ تَحْبِيرًا».

قوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين على فعل ذلك.

قوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ أي: اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له، واللبوس عند العرب: السلاح كله، درعًا كان أو جوشنًا أو سيفًا أو رمحًا، واللبوس: كل ما يُلبس. قال الشاعر:

الْبَسْ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا إما نعيمها وإما بوسها

وقد قيل: أول من صنع الدروع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما كانت صفائح، فسردها وحلَّقها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ أي: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة.

قوله: ﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ أي: لتحرزكم في القتال والحرب، وقرئت: (ليحصنكم).

قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ بأن تطيعوا رسولي، وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، وقد جاء عند الحارث والبيهقي بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً، يُحِبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِعْمَة عَلَيْهِ، وَيَكْرَهُ الْبُؤْسَ، وَالتَبَاؤُسَ وَيُبْغِضُ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ وَيُحِبُّ الحَيِيَّ العَفِيفَ الْمُتَعَفِّفَ».

قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الريح.

قوله: ﴿عَاصِفَةٗ﴾ أي: شديدة الهبوب، كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾، يقال منه: عصفت الريح، أي: اشتدت، فهي ريح عاصفٌ وعَصُوف، وفي لغة بني أسد: أعصفت الريح فهي مُعْصِف ومُعْصِفة، والعَصْف: التبن، فسُمِّي به شدة الريح؛ لأنّها تعصفه لشدة تطيرها.

قوله: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ أي: بيت المقدس وما حوله من بلاد الشام، وكان بيت المقدس عاصمة دولة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنها حكم بقاعًا كثيرة في بلدان مجاورة، وكانت خيرات تلك البلدان تَرِدُ إلى فلسطين وبلاد الشام، وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ والرخاء: اللينة، ويروى أنّها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم ترده إلى بلاد الشام.

قوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بكل شيء عملنا عالمين بتدبيره.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا له من يغوصون تحت الماء ويستخرجون له اللؤلؤ والمرجان، والغوص: النّزول تحت الماء، وقد غاص في الماء، والهاجم على الشيء غائص، والغوّاص: الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ، وفعله: الغِياصة.

قوله: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك الغوص، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

قوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لأعمالهم فلا يفسدوها، وحافظين لنبي الله وقومه من أن تؤذيهم الشياطين، بل هو يحكم فيهم ما يشاء، قد حفظوا له من أن يهربوا أو يمتنعوا أو يخرجوا عن أمره.

قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: واذكر أيوب إذ نادى ربه، وهو دعاء؛ لأن الله قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، ولا ينافي الرضا، ولم يكن منه جزعًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ثم إن الجزع في الشكوى إنما يكون إلى الخلق، لا إلى الخالق، وقد سئل رسول الله ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ؛ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ: فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ ومَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ». حديث صحيح، رواه الترمذي من حديث سعد رضي الله عنه.

وقد كان أيوب عليه السلام آية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، وقد جاء عند البزار من حديث أنس رضي الله عنه وإسناده لا بأس به قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ عليه السلام لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ، وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟! قَالَ: قَدْ أَصَابَهُ مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ. فَلَمَّا رَأَى حَالَهُ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِنِّي أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ تَبَارَكَ

وَتَعَالَى، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللهَ إِلَّا فِي حَقٍّ، وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْحَاجَةِ، فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ وَأُوحِيَ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلُۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾».

قوله: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ جاء عن مجاهد، وعكرمة بسند جيد: قيل لأيوب: قد آتيناك أهلك في الجنة، فإن شئت تركناهم لك في الجنة، وإن شئت آتيناكهم في الدنيا، فتركهم الله ﷻ له في الجنة، وأعطاه مثلهم في الدنيا، لأنَّهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم.

قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: للعباد؛ ليوطنوا أنفسهم على شدائد الدنيا؛ لأن البلاء لا ينْزل على العبد لِهوانه على الله، وإنما ينْزل لحكمة بالغة يريدها الله ﷻ.

قوله: ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ وهو نبي؛ لاقترانه مع الأنبياء، وقيل: هو رجل صالح، كان ملكًا عادلًا، وحكمًا مقسطًا، والصواب القول الأول؛ لظاهر الآية، ولعدم ثبوت الأحاديث التي تشير إلى القول الثاني، وقيل في تسميته ذا الكفل: لأنه تكفَّل لقومه بتحقيق كل ما هو صلاح لهم في الدنيا والآخرة، والله أعلم.

قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ هو لقب ليونس بن متّى عليه السلام؛ لابتلاع النون، وهو الحوت إياه.

قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي: لربه ﷻ ومن أجله، كما تقول: غضبت لك، أي: من أجلك، والمؤمن يغضب لله ﷻ إذا انتهكت محارمه، وتُعدِّي على حدوده، وقد بعث الله ﷻ يونس عليه السلام إلى قومه، فأبوا عليه، وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، ووعدهم بعد ثلاث بالعذاب، فلما تحققوا ذلك لجأوا إلى الله، وتضرعوا إليه، فكشف عنهم العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وأما يونس عليه السلام فركب مع قوم في سفينة، فلَجَّجت بِهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾، فقام ثم ألقى نفسه في البحر، ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نُضيِّق عليه في بطن الحوت، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: ضيق، يقال: قَدَر وقُدِر، وقتَر وقُتِر بمعنى، أي: ضُيق، وقيل: من التقدير، ليس من القدرة، يقال منه: قدّر الله لك الخير يقدره تقديرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، قال رسول الله ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»، وفي لفظ: «قَدَرُ اللهِ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الشاعر:

وَلَا عَائِـدٌ ذَاكَ الزَّمَـانُ الَّـذِي مَضَـى تَبَارَكْـتَ مَـا تَقْـدِرُ يَقَـعُ لَـكَ الشُّـكْرُ

يعني: ما تقدِّره وتقضي، وقد قرأ عمر بن عبد العزيز، والزهري: (فظن أن لم نقدِّر عليه) من التقدير.

قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جاء عند الترمذي من حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ». حديث حسن.

والمراد بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمة الليل، والبحر، والحوت.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، وسُكِّنت ﴿نُـۨجِى﴾ على لغة من يقول: بقي، ورضي، فلا يحرك الياء استثقالًا لتحريك ياء قبلها كسرة. قال الشاعر:

خَمَّـرَ الشَّـيب لمتـي تحميـرا وَحَـدَا بِـي إِلَـى الْقُبُـورِ الْبَعِيـرَا
لَيْـتَ شِـعْرِي إِذَا الْقِيَامَـةُ قَامَـتْ وَدُعِـي بِالْحِسَـابِ أَيْـنَ الْمَصِـيرَا

فسكنت الياء استثقالًا لتحريكها.

قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: صارت ولودًا بعد أن كانت عاقرًا.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: في حال الرخاء يدعوننا رغبة، وفي الشدة يدعوننا رهبة، وهما منصوبان على المصدر، أي: يرغبون رغبًا ويرهبون رهبًا، أو على المفعول من أجله، أي: للرغب والرهب، أو على الحال، أي: راغبين راهبين، ويقال: رغْبًا رهْبًا، وهما لغتان.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾

قوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ

ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يعني: أمرنا جبريل عليه السلام أن ينفخ في درعها.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: دينكم.

قوله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دين واحد، أو هذه سنتكم سنة واحدة، فكل الأنبياء الذين سبق ذكرهم مجتمعون على التوحيد، فالأمة هنا بمعنى الدين أو الإسلام، وقيل: هذه أمتكم يا أيها المسلمون أمة واحدة إن اجتمعتم على التوحيد، فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق، كما يقال: فلان صديقي عفيفًا، أي: ما دام عفيفًا، فإذا خالف العفة لم يكن صديقي.

قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرقوا واختلفوا على رُسلِهم، فمن موحد، ومن يهودي، ومن نصراني، ومن عابد صنم، أو مَلك، أو شمس، أو قمر أو نحو ذلك.

قوله: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا جحود لعمله، ولا يضيع جزاؤه، والكفر ضد الإيمان، وكذا جحود النعمة، وجحود النعمة ضد الشكر، يقال: كفره كفورًا وكفرانًا.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: لعمله حافظون، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ أي: واجب على قرية. وقيل: ﴿حَرَٰمٌ﴾ على بابها، و ﴿لَا﴾ صلة، والمعنى: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا، وقيل: حرام على أهل قرية حكمنا عليهم بالعذاب أن يتوبوا، والقول الثاني أقرب، والأول له وجاهة.

قوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي: من كل شرف لكثرتهم، والحدب: ما ارتفع من الأرض، والجمع: الحِداب، مأخوذ من حدبة الظهر.

قوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي: يقبلون، أو يخرجون. ومن الثاني قول الشاعر:

وإنْ تَكُ قد ساءَتْكِ مني خَليقةٌ فَسُلِّي ثيابي مِنْ ثيابك تَنْسُلِ

وقيل: يسرعون. يقال: نسل فلان في العدو يَنْسُل بالكسر والضم نسْلًا ونُسولًا ونَسَلانًا، أي: أسرع، وهذا القول أقرب الأقوال، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾. أي: يسرعون إلى أرض الموقف، والأقوال الأولى لها اعتبارها.

قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القيامة، والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق.

قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: عند مجيء الوعد؛ لشدة ما يشاهدونه من الأمور العظام.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: حطب ووقود، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، ويقال لكل ما ألقيته في النار: حصبتها به، ويقال للحضب في لغة أهل اليمن: الحطب، وكل ما هيجت به النار وأوقدتّها به فهو حضب، والموقد: مِحْضب.

قوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: داخلون، وقد جاء عند الطحاوي والحاكم بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ فَقَدْ عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْمَلَائِكَةُ وَعُزَيْرٌ وَعِيسَى، أَوَكُلُّ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ مَعَ آلِهَتِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وَنَزَلَتْ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾».

قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الواردين، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أي: خروج النَّفس وولوجه، وقد تقدم بيان ذلك في سورة هود.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، وفي سماع الأشياء رَوح وأُنس، فمنع الله الكفار ذلك في النار، قال تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فيصيرون حينئذ صمًا بكمًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حس النار وحركة لهبها وحريقها في الأجساد، والحسيس: الحركة.

قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ أي: الموت، وأهوال يوم القيامة، بما في ذلك النفخ في الصور،

وحين يؤمر بالعباد إلى النار، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث المقدام ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: وذكر منها: وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ».

قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عندما يخرجون من القبور، وعندما يكونون على أبواب الجنة.

قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ تَهنئة الملائكة لأصحاب الكرامة.

قوله: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ أي: كطي الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى على، والسجل: الصك، وهو اسم مشتق من السّجالة، وهي الكتابة، وأصلها من السَّجْل، وهو الدلو، تقول: ساجلت الرجل، إذا نزعت دلوًا ونزع دلوًا، ثم استعيرت، فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة، وقد سجل الحاكم تسجيلًا، والطيّ إما الدَّرْج، الذي هو ضد النشر، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، أو الإخفاء والتعمية والمحو؛ لأن الله تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها ويطويها ويعيدها إلى الهلاك والفناء، فلا تكون شيئًا، ثم يعيدها بعد طيِّها وزوالها، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾، والقول الأول هو الأقرب.

قوله: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭ﴾. وثبت عند الشيخين من حديث ابن عباس ﵄ قال: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ ﵇».

قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ أي: وعدنا وعدًا علينا إنجازه والوفاء به.

قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين على ما وعدناكم، وهو كما قال تعالى: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ أي: في الكتاب، فيقال للتوراة والإنجيل والقرآن: زبور، فزبرت الشيء، أي: كتبته، وجمعه: زُبُر.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: أم الكتاب عند الله، وهو الكتاب الأول، الذي في اللوح المحفوظ، وقيل: الزبور: زبور داود ﵇، والذكر: التوراة التي أنزلت على موسى ﵇، والقول الأول في معنى الزبور والذكر هو الصواب والحق.

قوله: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، وقيل: إن الأرض هي أرض الجنة؛ لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم، قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا﴾ أي: فيما ذكر من المواعظ والتنبيهات والآيات، وقيل: أي: في القرآن، ولعل هذا القول الأرجح.

قوله: ﴿عَٰبِدِينَ﴾ أي: متذللين خاضعين لربّهم، ومطيعين لرسولهم ﷺ.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (إلا) تفيد الحصر والقصر، و(رحمة) نكرة تفيد عموم الرحمة للناس في جميع شؤونهم، فقد جاء عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ! قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»، وعند الحاكم بسند جيد: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ».

قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: منقادون لتوحيد الله، أي: فأسلموا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: انتهوا.

قوله: ﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖ﴾ أي: أعلمتكم على بيان أنّا وإياكم لا صلح بيننا، كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ أي: أعلمهم أنّك نقضت العهد نقضًا، أي: استويت أنت وهم، فليس لفريق عهد ملتزم في حق الفريق الآخر، وقد سبق بيان ذلك، وقيل: أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك، والقولان وجيهان.

قوله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: لا علم لي بقرب أجل القيامة ولا ببعده، وهي واقعة لا محالة، فـ﴿إِنۡ﴾ بمعنى ما.

قوله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ﴾ أي: الإمهال.

قوله: ﴿فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: اختبار واستدراج، ثم يأتيكم عذاب الله الأليم.

قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق، وهو أمر من الله ﷻ لنبيه بتفويض الأمر إليه، وتوقُّع الفرج من عنده.

قوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ الذي يطلب منه العون، والهداية، والسداد، والتوفيق.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: من الكفر والتكذيب.

انتهى تفسير سورة الأنبياء ولله الحمد.

  

سورة الحج

هي مكية، سوى آيات منها مدنية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ روى أحمد، والترمذي بسند صحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ قال: أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذَلِكَ يَوْمَ يَقُولُ اللهُ لآدَمَ: ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ. فَأَنْشَأَ الْمُسْلِمُونَ يَبْكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَارِبُوا وَسَدِّدُوا؛ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا جَاهِلِيَّةٌ، فَيُؤْخَذُ الْعَدَدُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنْ تَمَّتْ وَإِلا كَمُلَتْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ». وفي رواية: «إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ إِلا كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَمَنْ مَاتَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَبَنِي إِبْلِيسَ»، وبمعنى أصل الحديث جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قوله: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: شدة حركتها، وأصل الكلمة من زل عن الموضع أو زال عنه وتحرك، وزلزل الله قدمًا، أي: حركها، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء، وقيل: هي الزلزلة المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ لأن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا، وقيل: هي بعد قيام الناس من قبورهم إلى عرصات القيامة يوم نشرهم، وهذا القول له وجه؛ لحديث عمران رضي الله عنه المذكور، وحديث أبي سعيد رضي الله عنه، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها لأنّها كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال القيامة، والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع، كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾.

قوله: ﴿شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ أي: أمر خطير، وخطب جليل، وحادث هائل.

قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: الزلزلة.

قوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تشتغل وتنسى وتسلو. قال الشاعر:

ضَــرْبًا يُزِيــلُ الْهَــامَ عَــنْ مَقِيلِــهِ وَيُــذْهِلُ الْخَلِيــلَ عَــنْ خَلِيلِــهِ

قوله: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ ليست دليلًا على أن هذه الزلزلة في الدنيا، لأنه يقال: من ماتت حاملًا تبعث حاملًا، فتضع حملها للهول، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾.

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: من هولها، ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾. أي: من الخمر.

قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ أي: مارد.

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: كتابة قدرية.

قوله: ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبع وقلد الشيطان.

قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو أصلكم.

قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقنا ذريته من المنيّ، وسمي نطفة لقلته، وهو القليل من الماء، وقد يقع على الكثير، والنَّطْف: القطر، يقال: نَطَف يَنْطِفُ وينطُف، وليلة ذطوفة: دائمة القطر.

قوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهو الدم الجامد، والعلق: الدم العبيط، أي: الطري، وقيل: الشديد الحمرة.

قوله: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: لحمة قليلة، قدر ما يمضغ، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء عند الشيخين من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»، وقد ثبت عند الشيخين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وعند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكَّلَ اللهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ؟ أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ؟ أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ؟ فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ».

قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾.

وقد أجمع العلماء على أن النطفة ليست بشيء يتعلق بِها حكم إذا ألقتها المرأة ما لم تجتمع، فإن طرحته علقة فمن العلماء من اعتبره وضع حمل يبرأ به الرحم، وتنقضي به العِدّة، ويثبت به لها حكم الولد، ومنهم من لم يعتبر بإسقاط العلقة، وإنما اعتبر بظهور الصورة والتخطيط في إثبات حكم الولد للمرأة المسقطة، وكذا إثبات الغرة في القصاص والدية، وهذا هو الأظهر، وأما براءة الرحم، وانقضاء العدة فإنما يحصل بمجرد وجود الدم الجاري، فضلًا عن سقوط العلقة.

قوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي: تامّة الخلق.

قوله: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: لم تصور بعد. قال الشاعر:

أَفِــــي غَيْـــــرِ الْمُخَلَّقَـــــةِ الْبُكَـــــاءُ   فَــأَيْنَ الْحَــــزْمُ وَيْحَـــكَ وَالْحَيَـــاءُ

فالمضغة في بدايتها قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس، ويدان، وصدر، وبطن، وفخذان، ورجلان وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط.

وقد أجمع العلماء على أن الأَمَة تكون أم ولد إذا أسقطت ولدًا تام الخِلقة، كما أجمعوا على أن المولود إذا استهل صارخًا يصلى عليه، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَهَلَّ الصَّبِيُّ الْمَوْلُودُ وُرِّثَ». والاستهلال: رفع الصوت؛ فكل مولود كان ذلك منه، أو حركة، أو عطاس، أو تنفس فإنه يورث؛ لوجود ما فيه من دلالة الحياة.

قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: كمال قدرتنا بتصريف أطوار خلقكم.

قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أي: تبقى في الأرحام، فلا تسقطها ولا تلقيها المرأة.

قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالًا، فهو اسم جنس، والعرب قد تسمي الجمع باسم الواحد، قال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، قال الطبري: وهو منصوب على التمييز، كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾.

وقيل: المعنى: ثم نخرج كل واحد منكم طفلًا. وهو الأرجح.

والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ، ويقال: جارية طفل، وجاريتان طفل، وجوارٍ طفل، وغلام طفل، وغلمان طفل، ويقال: طفل، وطفلة، وطفلان، وطفلتان، وأطفال، ولا يقال: طفلات.

وأطفلت المرأة: صارت ذات طفل، والْمُطْفِلة: الظبية معها طفلها وهي قريبة عهد بالنتاج، وكذلك الناقة، والجمع: مطافِل، ومطافيل. والطَّفل بالفتح: الناعم، يقال: جارية طَفْلة، أي: ناعمة، وقد طفَّل الليل، إذا أقبل ظلامه، والطَّفَل: بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب، والطَّفَل أيضًا: المطر.

قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ أي: تتكامل قواكم.

قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ في حال شبابه وقوته.

قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي: أخسِّه وأردئه، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل، ولهذا قال تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾، وقال تعالى في سورة يس: ﴿وَمَنۡ نُعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾، وقد سبق بيان ذلك في سورة النحل، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾.

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ أي: يابسة لا تنبت شيئًا، أو دارسة، يقال: همد شجر الأرض، إذا بَلي وذهب، وهمدت أصواتُهم، إذا سكنت، وهمود الأرض: ألا يكون فيها حياة ولا نبات، ويقال: هَمَد الثوب يَهْمُد، إذا بَلِي، وهمدت النار تَهْمُد.

قوله: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: تحركت بالنبات، والاهتزاز: شدة الحركة، يقال: هززت الشيء فاهتز، أي: حركته فتحرك، وهز الحادي الإبل هزيزًا فاهتزت هي، إذا تحركت في سيرها بحدائه، واهتز الكوكب في انقضاضه، وكوكب هاز.

قوله: ﴿وَرَبَتۡ﴾ أي: ارتفعت وزادت وانتفخت، وأصله: الزيادة، ربا الشيء يربو رُبُوًا، أي: زاد، ومنه: الربا، والربوة، وربأت: ارتفعت حتى صارت بمنْزلة الربيئة، وهو الذي يحفظ القوم على شيء مشرف، فهو رابئ وربيئة على المبالغة، وقد جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث جابر رضي الله عنه في قصة ذات الرقاع، وفيه: «فَلَمَّا رَأَى شَخْصَهُ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةٌ لِلْقَوْمِ».

قوله: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ أي: لون.

قوله: ﴿بَهِيجٖ﴾ أي: حسن يبهج من يراه، يقال: رجل ذو بَهجة، وقد بَهُج بَهاجة وبَهجة، فهو بَهيج، وأبْهَجني: أعجبني بحسنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ

ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ
وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا
يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ
كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ منصوب على الحال، أي: لاويًا عنقه كفرًا؛ لأن العِطف: ما انثنى من العنق، ومنه قولهم: فلان ينظر في أعطافه، أي: في جوانبه، وعِطْفَا الرجل من لدُن رأسه إلى وَرِكَيْه، وكذلك عِطْفَا كل شيء: جانباه، ويقال: ثنى فلان عني عِطفه، إذا أعرض عنك، والمقصود أنه معرض عن الحق في جداله، ومُولٍّ عن النظر في كلامه، وهو كقوله تعالى: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾، وقوله تعالى حكاية عن كلام لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾.

قوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يجادل فيضل، فاللام لام العاقبة، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾، ويحتمل أن تكون اللام للتعليل.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: «كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتِ امْرَأَتُهُ غُلَامًا وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينٌ صَالِحٌ. وَإِنْ لَمْ تَلِدِ امْرَأَتُهُ وَلَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينُ سَوْءٍ». ومعنى ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾: على شك؛ لأن حرف كل شيء: طرفه وشَفِيره وحدُّه، ومنه: حرف الجبل، وهو أعلاه المحدد، وقيل: ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ أي: على وجه واحد، وهو أن يعبده في السراء دون الضراء، والمقصود أنه يعبد الله على ضعف.

قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ أي: ارتد، فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ أي: الطويل.

قوله: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن﴾ يجوز أن تكون اللام لليمين والتوكيد، قال الزجاج: فجملة ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ مرفوع بالابتداء، وخبره: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾، والتقدير: يدعو الذي هو الضلال البعيد، وقدّم المفعول، وهو الذي، كما تقول: زيدًا يضرب. قال الفراء: ويجوز (لِمن ضره) بكسر اللام، أي: يدعو إلى من ضره أقرب من نفعه، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ أي: إليها.

قوله: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أي: المعاشر والصاحب والخليل.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يعني محمدًا، وقيل: الدين. والمعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدًا ﷺ وكتابه ودينه.

قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إذا لم يعجب الكافر كون الله وحده لا شريك له، وأنه رب العالمين، وإذا كانت لا تعجبه الحياة التي يديرها رب العالمين، فليقتل نفسه بنفسه ولينتحر، وعليه أن يمد حبلًا إلى سقف بيته ويدليه منه ثم يضع رقبته في الحبل، (فالسبب) هو الحبل، و (السماء) هي سقف الغرفة.

قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: يقطع الحبل المربوط إلى عنقه، ليهوي مخنوقًا مشنوقًا، فالآية تسخر من الكفار وتستهزئ بهم وتدعوهم بسخرية إلى الانتحار؛ لأنهم يرفضوا الإيمان بالله ﷻ، ويخضعوا لغيره ويتخذوا غيره ربًا، والحكمة من هذه السخرية: أن يراجع الكافر نفسه ليتخلى عن الكفر ويعلن إيمانه بالله.

قوله: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي: هل بقيت فيه حياة، وهل ما زالت له عينان يبصر فيهما؟ فإن الله ناصره لا محالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾، وقيل: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ ودينه وكتابه فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ليقطع النصر ليذهب كيده الذي يغيظ، وهيهات؛ فالنصر نازل لا محالة، وقيل: المعنى: أن لن يرزقه الله، فالنصر: الرزق، تقول العرب: من ينصرني نصره الله، أي: من أعطاني أعطاه الله، وتقول: أرض منصورة، أي: ممطورة، والقول الأول الصواب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي ويحكم بينهم، فللمؤمنين الجنة، وللكافرين النار، وهذه الجملة خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كما تقول: إن زيدًا إن الخير عنده، وتقول: إن زيدًا إنه منطلق.

قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: وكثير أبى السجود، وقيل: الواو ابتدائية، و ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، و

﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ خبر، ويكون المعنى: وكثير من الناس في الجنة، وكثير حق عليه العذاب، أي: في النار، والقول الأول أقرب وأصوب.

قوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ أي: بالشقاء والكفر.

قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ أي: لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه، وما له من إكرام.

قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ جاء عند البخاري ومسلم من حديث قيس بن عباد قالت: «سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه يُقْسِمُ قَسَمًا إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ بَرَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةَ، وَعَلِيٍّ، وَعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ، وَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ». وجاء أيضًا عند البخاري قال علي رضي الله عنه: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾».

وعند أبي داود بسند قوي عن علي رضي الله عنه قال: «تَقَدَّمَ -يَعْنِي: عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ-، وَتَبِعَهُ ابْنُهُ وَأَخُوهُ، فَنَادَى: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَانْتَدَبَ لَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيكُمْ، إِنَّمَا أَرَدْنَا بَنِي عَمِّنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ، قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الْحَارِثِ. فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُتْبَةَ، وَأَقْبَلْتُ إِلَى شَيْبَةَ، وَاخْتُلِفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ، فَأَثْخَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، ثُمَّ مِلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ فَقَتَلْنَاهُ، وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ». والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب؛ فالآية تشمل المؤمنين الذين يريدون نصرة دين الله، والكافرين الذين يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل.

قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: فُصِّلت وخِيطت لهم مقطعات من النار، كما قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، وقيل: شبهت النار بالثياب لأنّها لباس لهم كالثياب، وقيل: قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، والقول الأول أظهر، والثاني له وجه.

قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي: الماء الحار المغلي بنار جهنم، أو النحاس المذاب، وقد جاء عند أحمد والترمذي بسند حسن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلِتُ مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ».

قوله: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ أي: يُذاب، والصهر: إذابة الشحم، والصّهارة: ما ذاب منه، يقال: صهرت الشيء فانصهر، أي: أذبته فذاب، فهو صهير.

قوله: ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ أي: وتحرق الجلود، أي: تشوي الجلود؛ لأن الجلود لا تُذاب، ولكن يضم في كل شيء ما يليق به، فهو كما تقول: أطعمني ثريدًا ولبنًا قارصًا، أي: حامضًا، والمعنى: وسقاني لبنًا. قال

الشاعر:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ أي: يُضربون بها ويدفعون، الواحدة: مِقْمَعة، ومِقمَع أيضًا، كالمحجن يضرب به على رأس الفيل، وقد قمعته، إذا ضربته، وقمعته وأقمعته بمعنى، أي: قهرته وأذللته فانقمع، وقيل: المقامع: المطارق والمرازب، وقيل: سياط من نار، والكل معتبر، وسميت بذلك لأنّها تقمع المضروب وتذلّله.

قوله: ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ أي: لا يتنفسون، قد قيّدت أرجلهم، ووثقت أيديهم، ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾.

قوله: ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالضرب بالمقامع.

قوله: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ وهو في الدنيا ما يستخرج من جوف الصَّدَف، والمراد: ترصيع السوار باللؤلؤ، ومن الأسورة ما هو لؤلؤ محض مصمت لا يخالطه.

قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ أي: وجميع ما يلبسونه من فرشهم، ولباسهم، وستورهم حرير، وهو أعلى مما في الدنيا ولا يقارن به، وقد جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ»، وجاء بسند صحيح عند أبي داود الطيالسي وابن حبان عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بنحوه، وزاد: «وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبِسَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ هُوَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: أرشدوا إلى ذلك في الدنيا، وأرشدوا في الآخرة إلى مكان يسمعون منه الكلام الطيب، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾.

قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: صراط الله ودينه في الدنيا، وهو طريق الجنة، وهدوا إلى المكان الذي يحمدون فيه ربّهم، كما جاء عند مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ».

قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ أي: سواءً في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه: الحاضر، والذي يأتيه من البلاد، فليس أحد أحق به من أحد، و﴿سَوَآءً﴾ قرئت بالنصب على أنّها مفعول ثانٍ لجعل، ويرتفع ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ لأنه مصدر، فأعمل عمل اسم الفاعل، أو حال من الضمير في ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾، وقرئت بالرفع على الابتداء، و ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ خبره، وقيل: الخبر: ﴿سَوَآءً﴾ وهو مقدم، والتقدير: العاكف فيه والبادي سواء، وأجمع العلماء على أن الاستواء في نفس المسجد الحرام، واختلفوا في مكة عمومًا، والصحيح عدم الاستواء، وأن دور مكة لأربابِها لا للناس، تبقى بأيديهم يتصرفون فيها كيف شاءوا من بيع وتأجير وتوريث، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ تَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ: وَهَلْ تَرَكَ عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ؟. ثُمَّ قَالَ: لا يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ، وَلا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ».

قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٍ﴾ أي: بشرك وقتل ونحوه من أذى الحجاج والمعتمرين والعاكفين والركع السجود، والإلحاد لغة: الميل، وقد تقدم بيانه فيما سبق، والباء في قوله: ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ صلة، كوجودها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، قال الفراء: سمعت أعرابيًا وسألته عن شيء فقال: أرجو بذاك، أي: أرجو ذاك، والمعنى على هذا: ومن يرد فيه إلحادًا بظلم، قال ابن كثير: والأجود أنه ضمّن الفعل هاهنا معنى يهم، ولهذا عدّاه بالباء، والمعنى: ومن يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، وقد جاء عند أحمد بسند صحيح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا هَمَّ فِيهِ بِإِلْحَادٍ وَهُوَ بِعَدَنِ أَبْيَنَ، لَأَذَاقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَذَابًا أَلِيمًا».

وعند أحمد بن منيع بسند جيد: «أَنَّ ابْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَضْرِبُ قُبَّتَيْنِ، قُبَّةً فِي الْحِلِّ، وَقُبَّةً فِي الحرم، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ كُنْتَ مَعَ ابْنِ عَمِّكَ وَأَهْلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ مَكَّةَ بَكَّةُ. وَإِنَّا أُنْبِئْنَا أَنَّ مِنَ الْإِلْحَادِ فِيهَا: كَلَّا وَاللهِ وَبَلَى وَاللهِ». صححه ابن حجر في المطالب العالية.

قوله: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: واذكر إذ بوأنا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقال: بوأته منْزلًا وبوأت له، كما يقال: مكّنتك ومكنت لك، فاللام في قوله: ﴿لِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ صلة للتأكيد، كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾، وقيل: أرينا أصله ليبنيه، وكان قد درس، فلما جاءت مدة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أمره الله ببنيانه، فجاء إلى موضعه، وجعل يطلب أثرًا حتى وجد أساسًا بناه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرتب قواعده وابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما سبق في سورة البقرة، وقيل: جعلنا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مكان البيت مُبَوًا. كما قال الشاعر:

كم مِن أخ لي صَالح ... بَوَّأْتُه بيدَيَّ لَحْدا

والصواب هو القول الأول، والقولان الباقيان واردان.

قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾ الخطاب لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: لمحمد ﷺ، والصواب الأول.

قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ كما سبق من الكفر والبدع وجميع الأنجاس، صغيرها وكبيرها.

قوله: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: المصلين.

قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ذكر خاص بعد عام، وذكر الركوع والسجود لأنّهما أعظم أركان الصلاة، وبدونهما لا تجزئ الصلاة، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: أعلم ونادِ.

قوله: ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ أي: عليهم الحج.

قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: على أرجلهم، يأتون الكعبة، ومن أتى الكعبة حاجًا فكأنما أتى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريف عظيم لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ»، ولمسلم كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يزيد: «لَبَّيْكَ وَالرَّغْبَاءُ إِلَيْكَ وَالْعَمَلُ»، وجاء عند النسائي بسند صحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مِنْ تَلْبِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَبَّيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ».

قوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ضوامر، وهو البعير المهزول الذي أتعبه السفر، يقال: ضمر يضمر ضُمُورًا، فوصفها الله بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة.

قوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ذَكَرَ سبب الضمور، فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، ورد الضمير إلى الإبل تكرمة لها؛ لقصدها الحج مع أربابها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ في خيل الجهاد وتكرمة لها حين سعت في سبيل الله، و ﴿فَجٍّ﴾ الطريق الواسع، والجمع: فجاج، و ﴿عَمِيقٍ﴾أي: بعيد، ومنه: بئر عميقة، أي: بعيدة القعر، وقد جاء عند النسائي بسند صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَفْدُ اللهِ ثَلاثَةٌ: الْغَازِي، وَالْحَاجُّ، وَالْمُعْتَمِرُ». وروى البزار عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ، وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ». حديث حسن.

قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: ما يرضي الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك النسك، والتجارة، والمغفرة والمنفعة الدينية والدنيوية.

قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ في أيام العشر، وأيام التشريق، وعند الذبح والنحر، كقوله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ».

قوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ جاء عند البخاري معلقًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هِيَ أَيَّامُ العَشْرِ الأُوَلِ مِنْ

ذِي الحِجَّةِ»، وعند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ. قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ». وعند أحمد بسند لا بأس به: «فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ».

وقال البخاري: وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ يُكَبِّرَانِ، وَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا.

وقد أقسم الله عز وجل بها، قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، وفيها يوم عرفة، قال رسول الله ﷺ وقد سئل عنه: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ». رواه مسلم من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل: هي أيام التشريق ويوم النحر؛ لقوله تعالى بعد ذكرها: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ولِما جاء عند ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام فالأيام المعلومات: يوم النحر، ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر. وقال رسول الله ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ». رواه مسلم من حديث نُبيشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والأرجح القول الأول.

وقد قيل: إن أيام العشر أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث؛ لأنه يشرع فيه ما يشرع في غيره من صيام، وصلاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وقيل: العشر الأواخر من رمضان أفضل منها؛ لوجود ليلة القدر، والتي هي خير من ألف شهر، وتوسط آخرون، وهو الصواب، فقالوا: أيام العشر الأول من ذي الحجة أفضل باعتبار النهار، وليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل ليالي السنة باعتبار الليل.

وقد اختلف العلماء كم أيام النحر؟ هل هي يومان بعد يوم النحر، أو ثلاثة أيام؟ فذهب مالك، وأحمد، وأبو حنيفة إلى القول الأول، وذهب الشافعي، والأوزاعي إلى القول الثاني، والأقرب القول الثاني؛ لأن النبي ﷺ قال: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ». رواه مسلم من حديث نُبيشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث المتفق عليه أن أيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وقد سبق ذكره، وكذا اختلفوا في الذبح ليلًا هل يجزئ أم لا؟ فالمانعون قالوا: قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ﴾ فذكر الأيام، ولم يذكر الليالي، والمجيزون قالوا: الليالي داخلة في الأيام، وهو الحق الذي لا ريب فيه، وإنما ذُكرت الأيام لأنّها وقت العمل غالبًا، وأما الليالي فالغالب فيها النوم والراحة.

قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ إباحة أواستحبابًا، لا وجوبًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، والقول بالوجوب قول شاذ، لا يلتفت إليه، قال رسول الله ﷺ: «فَكُلُوا، وَادَّخِرُوا، وَتَصَدَّقُوا». رواه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأصله متفق عليه.

أما دماء الكفارات، كجزاء الصيد، قال تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، وفدية الأذى، قال تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، وقال ﷺ لكعب بن عجرة رضي الله عنه: «أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ. . .»، ونذر المساكين، وكفارة اليمين، قال تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ فلا يجوز الأكل منها اتفاقًا، وأما غير ذلك من الهدايا فهو باق على أصل قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ. . .﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ الآية، والأفضل أن يأكل ويتصدق ويطعم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

واختلف العلماء هل يتأكد في حق من هو بمنى حاجًا الأضحية أم لا؟ والأرجح أن الحاج إنما هو مخاطب في الأصل بالهدي، فإذا أراد أن يضحي جعله هديًا، والناس غير الحاج إنما أمروا بالأضحية ليتشبهوا بأهل منى، فيحصل لهم حظ من أجرهم، وأما ادخار لحوم الأضاحي والهدي مطلقًا فلا ينبغي أن يكون فيه خلاف، وما جاء من أحاديث تمنع ذلك فقد جاء التصريح على نسخها في الصحيحين، وقد سبق حديث عائشة رضي الله عنها في ذلك.

قوله: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ يعني الذي ناله البؤس وشدة الفقر، يقال: بئس يبأس بأسًا، إذا افتقر، فهو بائس، وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة، وإن لم يكن فقيرًا، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ. رَثَى لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَنَّهُ تُوُفِّيَ بِمَكَّةَ». ويقال: رجل بئيس، أي: شديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: بعد النحر للضحايا والهدايا، يقضون ما بقي عليهم من أمر الحج، كالحلق، ورمي الجمار، وإزالة شعث وأدران ونحو ذلك، والتفث في اللغة: الوسخ وما في حكمه، يقال: تفث الرجل، إذا كثر وسخه، ويقال: ما أتفثك، أي: ما أوسخك واقذرك.

قوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ مطلقًا، إلا ما كان معصية؛ لقوله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث عمران رضي الله عنه: «لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلا فِيمَا لا يَمْلِكُ الْعَبْدُ».

قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ﴾ أي: طواف الإفاضة، ويقال له: طواف الحج، وطواف الزيارة، وهو من أركان الحج التي لا خلاف فيها، ويكون بعد المعرف قطعًا واتفاقًا، وللحج ثلاثة أطواف: طواف القدوم، وطواف الإفاضة، وطواف الوداع، فالأول سنة، والثاني ركن، وهو المفروض في كتاب الله، وهو الذي يحل به الحاج من إحرامه كله، والثالث واجب لا ركن؛ لأن النبي ﷺ رخص للحائض أن تنفر دون أن تطوفه، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنه، ولا يرخص إلا في الواجب، وللحاج أن يدخل نية طواف الوداع في نية طواف الزيارة، لا العكس؛ لأن طواف الزيارة هو الأصل، فالنية له، وغيره داخل فيه وتبع له، فإن عكس الحاج فنوى طواف الوداع مدخلًا فيه طواف الحج لم يصح، ولزم أن يطوف طواف الزيارة مرة أخرى. واختلف العلماء من وجوب الطهارة للطواف بالبيت، فالجماهير على وجوبها، ولكن

الأرجح عدم الوجوب، وإنما هي مستحبة استحبابًا مؤكدًا، يكره تركها، فإن طاف طائف بالبيت بغير طهارة، سواء كان الطواف ركنًا، أو واجبًا، أو مستحبًا أجزأه، ولا إعادة عليه، ولا دليل بينًا صريحًا في هذه المسألة، إلا فعله ﷺ المجرد، والأفعال المجردة الصحيحة الصريحة الأصل فيها الاستحباب.

وكذا اختلفوا في وجوب طواف الوداع للمعتمر، والصحيح عدم الوجوب، وأنه سنة مؤكدة يكره تركها، والتفصيل في هذا الباب إن شاء الله في شرح الجمع بين الصحيحين (البخاري، ومسلم).

والطواف المعتبر إنما هو الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت به النفقة، كما جاء مصرحًا به عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنّهما لم يُتَمَّما على قواعد إبراهيم عليه السلام العتيقة، وقد ثبت هذا في الصحيحين.

قوله: ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾ سمي بذلك لقوله ﷺ فيما رواه الترمذي بسند حسن عن ابن الزبير رضي الله عنهما: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ». وفي رواية عند البزار بسند حسن: «لأَنَّهُ أُعْتِقَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ».

قوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إما على الرفع، والتقدير: فرضكم ذلك، أو الواجب ذلك، أو على النصب بتقدير: امتثلوا ذلك، والحرمات هي أفعال الحج السابق ذكرها.

قوله: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ أي: القذر، وكانت العرب تنصبها وتعبدها، وسماها رجسًا لأنّها سبب الرجز، وهو العذاب، ولنجاستها حكمًا لا عينًا وذاتًا.

قوله: ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، أو لابتداء الغاية، فكأنه نَهاهم عن الرجس عامًا، ثم عيّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم، إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، ومن قال: إن ﴿مِنَ﴾ تبعيضية، فهو جاهل في الأمور الشرعية، بل هو من أغبى البرية!.

قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ جاء في الصحيحين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثَلَاثًا- قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ! فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لَا يَسْكُتُ». وقد قرن الشرك بالله بقول الزور في هذه الآية، وفي قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

قوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: مائلين إلى الحق.

قوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها.

قوله: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ أي: تقطعه الطيور في الهواء.

قوله: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هو فيه، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وقول النبي ﷺ كما عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره: «فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا». أي: بعدًا بعدًا، وذلك في حق من يذادون عن حوضه. ولهذا جاء في حديث البراء رضي الله عنه عند أحمد وغيره بسند صحيح: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ... وفيه: فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾».

وهو مثل ضربه الله ﷻ للمشرك في ضلاله وهلاكه وبُعده عن الهدى، وقيل: هذه حال المشرك يوم القيامة، فهو بمنْزلة من لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يدفع عن نفسه ضرًا، فهو بمنْزلة من خرّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه، والمعنيان معتبران، فالأول مثل باعتبار الحال، والثاني مثل باعتبار المآل.

قوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامره، ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، وقد جاء عند البخاري عن سهل رضي الله عنه قال: «كُنَّا نُسَمِّنُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمِّنُونَ». وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ».

وعند أحمد والحاكم بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَمُ عَفْرَاءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دَمِ سَوْدَاوَيْنِ». والعفراء: البيضاء بياضًا ليس بناصع، وعند أبي داود، والترمذي بسند جيد من حديث

علي رضي الله عنه قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالأُذُنَ، ولَا نُضَحِّيَ بِعَوْرَاءَ، وَلَا مُقَابَلَةٍ، وَلَا مُدَابَرَةٍ، وَلَا خَرْقَاءَ، وَلَا شَرْقَاءَ». المقابلة: ما قطع طرف أذنها، والمدابرة: ما قطع من جانب الأذن، والشرقاء: المشقوقة، والخرقاء: المثقوبة. وعند أحمد وأبي داود، والترمذي بسند صحيح عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ بَيِّنٌ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ بَيِّنٌ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ بَيِّنٌ ظَلَعُهَا، وَالْكَسِيرُ الَّتِي لَا تُنْقِي». قال أحمد: ما أحسنه من حديث.

قوله: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ لأن حقيقة التقوى في القلب، ولهذا قال رسول الله ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم: «التَّقْوَى هَاهُنَا. وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».

قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: الركوب، والدَّر، والنسل، والصوف إذا لم يبعثها ربّها هديًا، فإذا بعثها فنحرها فهو الأجل المسمى، ومنافعها: ركوبُها عند الحاجة، وشرب لبنها بعد رِيِّ فصيلها، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً، فَقَالَ: ارْكَبْهَا. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّهَا بَدَنَةٌ. قَالَ: ارْكَبْهَا؛ وَيْلَكَ! فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ»، وروى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه وسئل عن ركوب الهدي، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا حَتَّى تَجِدَ ظَهْرًا».

قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت نحرها.

قوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن جريج قال: حَدَّثَنِي عَطَاءٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِذَا طَافَ بِالْبَيْتِ فَقَدْ حَلَّ. فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ قَالَ هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، وَمِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحِلُّوا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ. قُلْتُ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْمُعَرَّفِ! قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَرَاهُ قَبْلُ وَبَعْدُ». وقيل: شعائر الحج من وقوف، ورمي، وحلق ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: ذبحًا في المناسك، وإراقة لدماء بَهيمة الأنعام على اسم الله، وقيل: مناسك الحج؛ لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والسعي، وقيل غير ذلك، والأرجح القول الأول.

قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: أي: المتواضعين الخاشعين المطمئنين بأمر الله وقضائه وقدره من المؤمنين، والْخَبْت: ما انخفض من الأرض، وقد وصفه سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، وحذرت مخالفته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وقد سبق ذكر هذا، وكررناه لأهميته.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة، السبعة وبقية العشرة.

قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ البُدُن والبُدْن لغتان، واحدتُهما: بدنة، كما يقال: ثمرة، ثُمُر وثمْر، وخشب، وخُشُب وخُشْب، قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ وقرئت: (ثُمُر)، وسميت بدنة لأنّها تبدن، أي: تسمن، يقال: بدُن الرجل، إذا سمن، وفي الحديث الصحيح عند أبي داود من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي قَدْ بَدَّنْتُ». أي: كبرت وأسننت، ويقال: بَدُن الرجل يبدُن بُدْنًا وبَدانة فهو بادن، أي: ضخم. وقيل: إن البدن خاص بالإبل، وهو الذي يظهر، ومن أصرح ما جاء في ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، ومَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ». فالتفريق هنا يدل على أن البقرة والكبش لا يقال عنهما بدنة.

ثم إن قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يدل على ذلك، فإن الوصف خاص بالإبل، والبقر يضجع ويذبح كالغنم، والبدن هي الإبل التي تُهدي إلى الكعبة، والهدي عام في الإبل، والبقر، والغنم.

قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ أي: انحروها على اسم الله، قد صُفّت قوائمها، من صف يَصُفّ، وواحد صواف: صافّة، وواحد صوافي: صافية، ولا صافنًا؛ لأن فاعلًا لا يجمع على فواعل إلا في حروف مختصة لا يقاس عليها، وهي فارس وفوارس، وهالك وهوالك، وخالف وخوالف، وأصل هذا الوصف في الخيل، يقال: صَفَن الفرس، فهو صافن، إذا قام على ثلاث قوائم وثنى سنبك الرابعة، والصافنة هي التي رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، والسنبك: طرف الحافر، ويقال: الصافن عِرق في مقدم الرجل، فإذا ضرب على الفرس رفع رجله.

والمستحب نحر الإبل قيامًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت بعد نحرها، وعند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَتَهُ يَنْحَرُهَا، قَالَ: ابْعَثْهَا قِيامًا مُقَيَّدَةً؛ سُنَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ». وجاء عند أبي داود بسند جيد عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْحَرُونَ الْبَدَنَةَ مَعْقُولَةَ الْيُسْرَى قَائِمَةً عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ قَوَائِمِهَا».

وقد أجمع العلماء على عدم جواز النحر قبل الفجر من يوم النحر، وكذا الأضحية، فإذا طلع الفجر

حل النحر بمنى، وليس عليهم انتظار نحر الإمام بخلاف الأضحية في سائر البلاد، فقد جاء عند الشيخين من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ نَحَرَ قَبْلَ الصَّلاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسْكِ فِي شَيْءٍ». والمنحر: منى، لكل حاج، ومكة، لكل معتمر، ولو نحر الحاج بمكة، والمعتمر بمنى لا بأس بذلك.

ثم إن قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يدل على ذلك، فإن الوصف.

قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ خاص بالإبل، والبقر يضجع ويذبح كالغنم، أي: سقطت، يقال: وجبت الشمس، إذا سقطت وغابت، ووجب الحائط، إذا سقط، ولا تسلخ الذبيحة حتى تبرد؛ لأن ذلك من باب التعذيب، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

قوله: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ﴾ أي: السائل، يقال: قنع الرجل يَقْنَع قنوعًا، إذا سأل، ويقنع قناعة فهو قَنِع، إذا تعفف واستغنى ببلغته ولم يسأل، مثل: حمد يحمد، ويقال: قناعة وَقَنَعًا وقَنَعانًا، ومن العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة، وهي الرضا والتعفف وترك المسألة.

قوله: ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أي: الذي يطيف بك يطلب ما عندك سائلًا أو ساكتًا، وقيل: المعترض من غير سؤال. قال الشاعر:

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

قال مالك رحمه الله: أحسن ما سمعت أن القانع: الفقير، والمعتر: الزائر، يقال: اعترَّه واعتراه وعرّه وعرّاه، إذا تعرض لما عنده أو طلبه.

قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ لأنه الغني عما سواه، وقد كانوا في الجاهلية إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، بل وينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها.

قوله: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». وفي الحديث المتفق عليه من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».

وهنا مسألة، وهي حكم الأضحية على من ملك نصابًا، فقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى وجوبها

محتجين بما رواه أحمد، وابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ لَهُ سَعَةٌ وَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا».

وخالفهم آخرون وقالوا باستحبابها مستدلين بما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ضحى بالكبش: «بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ».

وكذا استدلوا بعموم الأحاديث الصحيحة التي دلت على أن المال ليس فيه حق واجب سوى الزكاة، وهذا القول هو الحق، قال أبو أيوب رضي الله عنه: «كَانَ الرَّجُلُ يُضَحِّي بِالشَّاةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَيَأكُلُونَ وَيُطْعِمُونَ، حَتَّى تَبَاهَى النَّاسُ فَصَارَتْ كَمَا تَرَى!»، رواه الترمذي بسند صحيح.

وعند البخاري: «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه كَانَ يُضَحِّي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْ جَمِيعِ أَهْلِهِ».

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تَذْبَحُوا إلا مُسِنَّةً، إلا أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ».

وروى الشيخان من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «قَسَمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أَصْحَابِهِ ضَحَايَا، فَصَارَتْ لِعُقْبَةَ جَذَعَةٌ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! صَارَتْ لِي جَذَعَةٌ! قَالَ: ضَحِّ بِهَا».

وذهب الجمهور إلى إجزاء الثني من الإبل والبقر والمعز، دون الجذع، وأما الضأن فذهبوا إلى إجزائه، وهو الصحيح، فالثني من الإبل ما له خمس سنين ودخل في السادسة، ومن البقر ما له سنتان ودخل في الثالثة، وقيل: فما له ثلاث ودخل في الرابعة، ومن المعز ما له سنتان، وأما الجذع من الضأن ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل في سنه، وما دونه فهو حمل، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد انفرق صدعين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾

قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ جاء عند الترمذي بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ؟ لَيَهْلِكُنَّ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ الآيَةَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ». وعند النسائي بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أَوَّلُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ فِي الْقِتَالِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن لقولهم: ربنا الله، وقيل: إلا بأن يقولوا: ربنا الله، فالأول لسيبويه، والثاني للفرّاء، والقول الأول أفصح، قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، وقد كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق، ورسول الله ﷺ معهم، ويقولون:

لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... (وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا)
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

رواه الشيخان من حديث البراء رضي الله عنه.

قوله: ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ من هدمت البناء، إذا نقضته فانْهدم.

قوله: ﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمع صومعة، وزنُها: فوعلة، وهي بناء مرتفع حديد الأعلى، يقال: صمع الثريدة، أي: رفع رأسها وحدده، ورجل أصمع القلب، أي: حاد الفطنة، والأصمع من الرجال: الحديث القول، وقيل: هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى، ثم استعمل في مئذنة الإسلام.

قوله: ﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بيعة، وهي كنيسة النصارى.

قوله: ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ أي: كنائس اليهود.

قوله: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: مساجد المسلمين التي ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، ولم يذكر في هذه الآية المجوس، ولا أهل الشرك؛ لأن هؤلاء ليس لهم في الأصل ما يجب حمايته، ولا يوجد ذكر لله إلا عند أهل الشرائع، وقدِّمت مساجد أهل الكتاب على مساجد أهل الإسلام لأنّها أقدم، ولقربها من الهدم، وقرب المساجد من الذكر، كما أخّر السابق في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ هذا شرط شرطه الله ﷻ على من آتاه الملك، وهو كقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ كقوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام بمعنى التغيير، أي: فانظر كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش، والنكير والإنكار: تغيير المنكر، والمنكر واحد المناكير.

قوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي: كم من قرية.

قوله: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ أي: مشركة كافرة.

قوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خرت سقوفها على الأرض.

قوله: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ أي: متروكة قد غار ماؤها، وعطل دلاؤها، وهجرت أرْشِيتها.

قوله: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ أي: رفيع طويل مجصص حصين، تقول: شاده يشيده شيدًا، ومشيدة للجمع، قال تعالى: ﴿فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن، وقيل: إن العقل محله الدماغ.

قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ قال بعض السلف: لكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئًا، وإن أبصرت عينا رأسه، وعميت عينا قلبه لم ينفعه بصره شيئًا. قال الشاعر:

يَا مَن يُصِيخُ إِلَى دَاعِي الشَقَاء، وقَد ... نَادَى بِهِ الناعيَان: الشيبُ والكبَرُ
إنْ كُنتَ لَا تَسْمَعَ الذكرَى، فَفِيمَ تُرَى ... فِي رَأسِك الوَاعيان: السمعُ والبَصَرُ
ليسَ الأصَمّ وَلَا الأعمَى سوَى رَجُل ... لَمْ يَهْده الهَاديان: العَينُ والأثَرُ
لَا الدَّهْرُ يَبْقَى وَلا الدُّنْيَا، وَلا الفَلَك الْـ ... أَعْلَى وَلَا النَّيران: الشَّمْسُ وَالقَمَرُ
لَيَرحَلَنّ عَن الدّنْيَا، وَإن كَرِهَا ... فِرَاقها، الثَّاوِيَانِ: البَدْو والحَضَرُ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ أي: في إنزال العذاب، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد فقال: يا أبا عمرو، هل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا، فذكر آية وعيد، فقال: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤمًا، وعن الإيعاد كرمًا. قال الشاعر:

فَإِنِّي وَإِن أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

قوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ جاء عند الترمذي وغيره بسند جيد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُ مِائَةِ عَامٍ».

وجاء عند أحمد وأبي داود بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يُعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصفَ يَوْمٍ. قِيلَ لِسَعْدٍ: وَكَمْ نِصْفُ يَوْمٍ؟ قَالَ: خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ».

وروى ابن حبان بسند صحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يُهَوَّنُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، كَتَدَلِّي الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ».

وفي حديث أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا».

قيل: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقيل: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة، فاليوم فيها كألف سنة من الأيام التي يعدونها.

قوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مغالبين مشاقين معاندين مثبطين عن الإسلام، وقرئت: (مُعَجِّزين) أي: يعجزون المؤمنين في الإيمان بالنبي ﷺ وبالآيات، وينسبون من اتبع محمدًا ﷺ إلى العجز، كقولهم: جهَّلته، وفسَّقته.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ وتلا كتاب الله، وقد روى بسند جيد عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك مِنْ رَسُول وَلا نَبِيّ وَلا مُحَدَّث». قال ابن حجر في الفتح: صحيح.

قوله: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: قراءته وتلاوته. قال الشاعر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه:

تَمَنَّـــــى كِتَـــــابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَـــــة وآخِرَهـــــا لاقَـــى حِمَـــامَ المَقَـــادِرِ

قال البخاري: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان. وفي هذه الآية الفرق بين الرسالة والنبوة، واختلف العلماء في ضابط كل منهما، والصحيح أن كل رسول نبيّ، وليس كل نبي رسولًا، والرسول: الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانًا، والنبي: الذي تكون نبوته إلهامًا أو منامًا، أو لم ير جبريل عليه السلام عيانًا.

قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: يزيل ويبطل.

قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: شك، وشرك، ونفاق، وكفر.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ وصف الشقاق بلفظ ﴿بَعِيدٖ﴾؛ لأنه في غاية الضلال والبعدِ عن الخير.

قوله: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: تخشع وتسكن وتخلص.

قوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ أي: عذاب يوم القيامة، وسُمي عقيمًا لأنه ليس يعقب بعده يومًا مثله، وهو يوم لا ليلة له، وليس فيه رأفة ولا رحمة، فكان عقيمًا من كل وجه ومن كل خير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ أي: لا مطر فيها ولا رحمة، والعقيم في اللغة: عبارة عمن لا يكون له ولد، وقيل: عذاب يوم بدر، وسمي بالعقيم لأنه لا مثيل له في عظمته؛ لقتال الملائكة فيه، والقول الأول أقرب، والقول الثاني له وجه؛ للآية التي بعدها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾.

قوله: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾ أي: الجنان.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: فتأمل كيف تصبح، أو عطف.

قوله: ﴿مُخۡضَرَّةًۚ﴾ أي: ذات خضرة، كما تقول: مُبْقِلة، ومُسْبِعَة، أي: ذات بقل وسباع، وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات، واستمرارها كذلك عادة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا﴾ أي: شريعة ومتعبدًا ومنهاجًا.

قوله: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ أي: هم عاملون به أي بذلك الشرع.

قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ أي: لا ينازعنك أحد منهم فيما يشرع لأمتك، فقد كانت الشرائع في كل عصر، ولا تتأثَّرْ بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، يقال: لا يضاربنك فلان فلا تضاربه أنت، فيجري هذا في باب المفاعلة، ولهذا قال: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾.

قوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، وفي هذه الآية أدب حسن، علمه الله عباده في الرد على المجادلين، تعنتًا ومراءً، ألا يجادلوا ولا يناظروا، بل يدفعون بهذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ ثبت عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». وعند أبي داود بسند جيد من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ

السَّاعَةُ. مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

قوله: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي: الغضب والعبوس، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ وَالأَهْوَاءِ». رواه الترمذي بسند صحيح من حديث قطبة بن مالك رضي الله عنه.

قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ أي: يبطشون، والسطوة: شدة البطش، يقال: سطا به يسطو، إذا بطش به بضرب أو شتم، وسطا عليه، وأصل السطو: القهر، والله ذو سطوات: أخذات شديدة.

قوله: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ أي: أكره من هذا القرآن الذي تسمعونه هو النار، فكأنّهم قالوا: ما الذي هو شر؟ فقيل: ﴿ٱلنَّارُ﴾. وقيل: النار وعذابُها ونكالها أشد وأشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، والقول الثاني أقرب، والقول الأول معتبر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ أي: ضرب الله ﷻ ما يعبدونه من دونه مثلًا، فاستمعوا له.

قوله: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ الذباب معروف، واحده: ذُبابة، لا ذِبَّانة، وهو اسم واحد للذكر الأنثى، والجمع: أذبَّة، والكثير: ذِبَّان، على مثل: غُراب، وأغرِبة، وغِرْبان، وسمي به لكثرة حركته، وذباب أسنان الإبل: حدها، وذباب السيف: طرفه الذي يضرب به، وذباب العين: إنسانُها، والذُّبابة: البقية من الدين، وذَبّب النهار؛ إذا لم يبق منه إلا بقية، والتذبذب: التحرك، والذَّبْذَبة: نوس الشيء المعلق في الهواء، والذَّبْذَب: ذكر الإنسان؛ لتردده.

قوله: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ أي: لا يخلصونه ولا ينقذونه منه، قيل: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران، فتجف، فيأتي الذباب فيختلسه، والمراد أنّهم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك، عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، وهو أضعف حيوان وأحقره.

قوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي: عابد الصنم والصنم، فكل منهما حقير ضعيف.

قوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: حين عبدوا معه غيره من هذه الأصنام الباهتة الصماء التي لا تقاوم الذباب؛ لضعفها وعجزها.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يختار رسلًا من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه، ويختار رسلًا من البشر لتبليغ وحي الله للناس.

قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: جاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم، وامتثلوا جميع ما أمر الله به، وانتهوا عن كل ما نَهى الله عنه، وردوا أنفسكم عن الهوى، وعضّوا بالنواجذ على الهدى، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ». رواه أحمد بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وَفِي رِوَايَةٍ بسند صحيح عند البزار: «كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ».

قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: كـ(ملة إبراهيم عليه السلام)، وقيل: أي: اتبعوها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

قوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قيل: يعني الله سبحانه وتعالى سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة، وقيل: إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين قبل محمد ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

قوله: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: وفي حكمه أن من اتبع محمدًا ﷺ فهو مسلم، وقيل: وفي هذا القرآن، وهو الأرجح؛ وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند صحيح عن الحارث الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «وَمَنِ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ فَقَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّتِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللهِ».

انتهى تفسير سورة الحج، ولله الحمد.

  

سورة المؤمنون

هي مكية بالإجماع.

وقد روى مسلم عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه، قال: «صَلَّى لَنَا النَّبِيُّ ﷺ الصُّبْحَ بِمَكَّةَ، فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى جَاءَ ذِكْرُ مُوسَى وَهَارُونَ، أَخَذَتِ النَّبِيَّ ﷺ سَعْلَةٌ فَرَكَعَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ الخشوع محله القلب، فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه؛ إذ هو ملكها، وقد جاء عند أبي داود والترمذي بسند جيد عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ». وقد جاء عند الحاكم بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَنَزَلَتِ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ».

وعند أبي داود وغيره بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تُوَاجِهُهُ؛ فَلَا يَمْسَحِ الْحَصَى».

وقد جاء في فضل صلاة بخشوع قوله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا؛ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». رواه الشيخان من حديث عثمان رضي الله عنه: وقد كان وضوءه ثلاثًا ثلاثًا مع المسح على الرأس، وعند مسلم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ؛ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، وعند أحمد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ؛ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ يُتِمُّهُمَا أَعْطَاهُ اللهُ مَا سَأَلَ مُعَجِّلًا أَوْ مُؤَخِّرًا». حسنه ابن حجر. وعند أحمد بسند حسن قال رسول: «الصَّلاة خَيْر مَوْضُوع، فَمَنْ شَاءَ اِسْتَقَلَّ، وَمَنْ شَاءَ اِسْتَكْثَرَ». وعند أبي نعيم قال مجاهد: كان ابن الزبير رضي الله عنهما: «إذا

قام إلى للصلاة كأنه عمود». صححه ابن حجر. قال الشاعر:

أَلَا فِـي الصَّـلَاةِ الْخَيْـرُ وَالْفَضْـلُ أَجْمَـعُ ... لِأَنَّ بِهَـــا الْآرَابُ لِلَّـــهِ تَخْضَـــعُ

وَأَوَّلُ فَـــرْضٍ مِـــنْ شَـــرِيعَةِ دِينِنَـــا ... وَآخِــرُ مَــا يَبْقَــى إِذَا الــدِّينُ يرفــع

فمــن قــام للتكبيــر لاقتــه رَحْمَــةٌ ... وَكَــانَ كَعَبْــدٍ بَــابَ مَــوْلَاهُ يَقْــرَعُ

وَصَــارَ لِــرَبِّ الْعَــرْشِ حِــينَ صَــلَاتِهِ ... نَجِيًّــا فَيَــا طُوبَــاهُ لــو كــان يخشــع

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ أي: عن جميع المعاصي معرضون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ أي: مؤدون.

قوله: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: من الزنا، واللواط، والاستمناء.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: المعتدون، وقد استدل الإمام الشافعي وعامة العلماء على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية، حتى قال بعض العلماء: إنه كالفاعل بنفسه، واللائط عادٍ قرآنًا ولغة، قال تعالى عن قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ جاء عند ابن ماجه وغيره بسند جيد أن النبي ﷺ قال: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةَ، وَلا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلا مُؤْمِنٌ».

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ جاء عند ابن ماجه بسند جيد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾».

وعند مسلم من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ. وَفِي رِوَايَةٍ: يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ، وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ أي: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه استل من الطين، والسلالة: فعالة من السَّلّ، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد، فانسل، وقد سبق، فالنطفة سلالة، والولد سَليل وسُلالة، عني به الماء، يسل من الظهر سلًا، وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من طين خالص، أما ولده فهو من طين ومني.

قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: دمًا جامدًا يشبه العلقة.

قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: كقطعة لحم.

قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ لتكون عمودًا للبدن.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا﴾ أي: ينطق ويدرك ويحصل ويعقل ويحسن التصرف ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي: سبع سماوات، يقال: طارقت الشيء، إذا جعلته بعضه فوق بعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة.

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: على مقدار مصلح؛ لأنه لو كثر أهلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتنتفعوا به وقت الحاجة.

قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾، وغورًا يعني غائرًا وذاهبًا في الأرض.

قوله: ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات، والمقصود بها: الزيتون، وأفردت بالذكر لعظيم منافعها، وقلة تعاهدها بالسقي ونحو ذلك.

قوله: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ﴾ أي: أنبتها الله في الأرض ابتداءً من هذا الجبل الذي بارك الله فيه، والطور من أرض الشأم، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

قوله: ﴿سَيۡنَآءَ﴾ أي: حسن مبارك، وقيل: هو اسم الجبل، كما يقال: جبل أحد، وقيل: كل جبل يحمل الثمار فهو سيناء، أي: حسن، ويمنع من الصرف في المعرفة والنكرة؛ لأن في آخره ألف التأنيث، وألف التأنيث ملازمة لما هي فيه.

قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ أي: معها الدهن، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، وقرئت: (تُنْبِت) بضم التاء وكسر الباء، وقيل: الباء صلة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ وقد تقدم التفصيل في ذلك.

قوله: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ أي: إدام، وكل إدام يؤتدم به فهو صبغ، يقال: صِبغ وصباغ، مثل: دبغ ودباغ، ولِبس ولباس، وأصل الصبغ: ما يلون به الثوب، وشُبه الإدام به لأن الخبز يلون بالصبغ إذا غمس به، وقد جاء عند الترمذي وابن ماجه بسند حسن من حديث عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ائْتَدِمُوا بِالزَّيْتِ وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ». وفي رواية عند الترمذي بلفظ: «كُلُوا». ولا خلاف أن كل ما يصطبغ به في المائدات أنه إدام، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «نِعْمَ الأُدُمُ الْخَلُّ». وأما ما كان جامدًا فقد اختلف فيه هل هو إدام أم لا؟ والصواب أنه إدام، كاللحم، والتمر، والزيتون ونحو ذلك.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي فار الماء من التنور، وهو تنور الخبز الذي يخبزون فيه، وقيل: التنور وجه الأرض، وفورانه علامة بدء الطوفان.

قوله: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾ أي: أدخل فيها، واجعل فيها، يقال: سلكته في كذا، وأسلكته فيه، إذا أدخلته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠ ثُمَّ
أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ٣٢ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤
أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا
حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨
قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ
فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢﴾

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾ أي: أنزلني إنزالًا مباركًا، وهذا على قراءة: ﴿مُنزَلٗا﴾، وأما على قراءة (مَنْزِلًا) أي: موضعًا مباركًا، والنّزول هو الحلول، تقول: نزلت نزولًا ومنْزلًا.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

قوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ كلمة للبعد، كأنّهم قالوا: بعيد ما توعدون، أو بَعُد ما توعدون، بمنْزلة الفعل، وفيها عشر لغات: فيها هيهات لك. قال الشاعر:

تَــذَكَّرْتُ أَيَّامًــا مَضَــيْنَ مِــنَ الصِّــبَا ... وَهَيْهَــاتَ هَيْهَاتًــا إِلَيْــكَ رُجُوعُهَــا

ومن قرأه (هيهاتٍ) بالتنوين فهو جمع ذهب به إلى التنكير، كأنه قال: بُعْدًا بُعدًا.

قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما الحياة إلا ما نحن فيه، لا الحياة الآخرة التي تعدنا بعد البعث، وقيل: نكون مواتًا، أي: نطفًا، ثم نحيا في الدنيا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي﴾، وقيل: ﴿نَمُوتُ﴾ يعني الآباء، و ﴿وَنَحْيَا﴾ يعني الأولاد، وجميع الأقوال فيها وجاهة وقوة، والقول الأول والأخير أقرب الأقوال.

قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: هلكى هامدين، كغثاء السيل، وهو ما يحمله من بالي الشجر من الحشيش والقصب مما يبس وتفتت.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: ما تتقدم أمةٌ من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عُيّن لهلاكهم ولا تتأخر عنه.

قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: يتبع بعضهم بعضًا، ترغيبًا وترهيبًا، يقال: واترت كتبي عليه: أتبعت بعضها بعضًا إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة، وقيل: بغير مهلة، وقرئت: (تترىً)، كقولك: حمدًا وشكرًا، وهو اسم جمع، مثل: شتى، وأسرى، وأصله: وترى، من المواترة والتواتر، فقلبت الواو تاءً، مثل: التقوى، وقيل: هو من الوتر، وهو الفرد، والمعنى: أرسلناهم فردًا فردًا.

قوله: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا

كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يعني جمهورهم.

قوله: ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ أي: بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ أي: جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به، كأعاجيب، جمع أعجوبة، وهي ما يتعجب منه، ويقال في الغالب في الشر، كما يقال: فلان صار حديثًا، أي: عبرة ومثلًا، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾، وقد يقال في النادر في الخير. قال الشاعر:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ ... فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لمن وَعَى

قوله: ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: فهلاكًا ودمارًا.

قوله: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ أي: متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

قوله: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ أي: إلى مكان مرتفع من الأرض.

قوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٖ﴾ أي: مستوية يستقر عليها، وأشجار يتفيأ ظلالها، ويؤكل ثمارها، وكان ذلك بفلسطين، يعني بيت المقدس.

قوله: ﴿وَمَعِينٖ﴾ أي: ماءٍ جارٍ ظاهر للعيون، يقال: مَعِين ومُعُن، كما يقال: رغيف ورُغُف، ويقال: مَعن الماء، إذا جرى، فهو معين ومَعْيُون، فعيل بمعنى مفعول، ومُعونًا وأمعن، وأمعنته، ومياه مُعْنَان، والمراد كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ أي: نَهرًا معينًا جاريًا.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ، لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ!».

قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: دينكم وملتكم، والأمة هنا: الدين، وقد سبق بيان ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ أي: على دين. قال الشاعر:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ

قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: افترقوا، يعني الأمم، فجعلوا دينهم أديانًا، وقد سبق ذكر أحاديث

الافتراق.

قوله: ﴿زُبُرًا﴾ أي: كتبًا وضعوها، وضلالات نسجوها، وقرئت: (زُبَرًا) بفتح الباء، أي: قطعًا، كقطع الحديد، كقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾.

قوله: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ أي: معجبون.

قوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: قريش، دعهم بمنْزلة من قبلهم في حيرة وغفلة وضلالة، والغمرة في اللغة: ما يغمرك ويعلوك، وأصله: الستر، ومنه الغِمر: الحقد؛ لأنه يغطي القلب، والغَمْر: الماء الكثير؛ لأنه يغطي الأرض، وغمر الرداء الذي يشمل الناس بالعطاء، قال الشاعر:

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا ... غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

ودخل فلان في غمار الناس، أي: في زحمتهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: الموت، فهو تهديد لا توقيت، كما يقال: سيأتي لك يوم.

قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: أيحسبون يا محمد أن الذي نعطيهم في الدنيا من المال والبنين هو ثواب لهم؟ إنما هو استدراج وإملاء، ليس إسراعًا في الخيرات، وقد زعموا ذلك في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنّهم مستدرجون، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقد جاء عند أحمد بسند لا بأس به عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ... إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّءَ بِالسَّيِّءِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّءَ بِالْحَسَنِ؛ إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ».

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وَجِلون مما خوّفهم الله تعالى. قال الحسن البصري: المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، والكافر جمع إساءة وأمنًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ

ﭐتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية قالت: «أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾». حديث حسن.

قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: يسبقون إلى أوقاتِها وفعلها، وكل من تقدّم في شيء فهو سابق إليه، وكل من تأخّر عنه فقد سبقه وفاتَهُ، فاللام في ﴿لَهَا﴾ بمعنى إلى، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ أي: أوحى إليها.

قوله: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: كتاب إحصاء الإعمال الذي ترفعه الملائكة، وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة تكتب فيه بأمره، وفي هذا تَهديد وتأييس من الحيف والظلم، وقيل: اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن، والقول الأول أظهر، والقول الثاني والثالث لهما وجه.

قوله: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: في غطاءٍ وغفلةٍ وعماية عن هذا القرآن.

قوله: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من دون الحق، وهي أعمال رديئة سيئة كتبت عليهم لا بد أن يعملوها قبل موتِهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب، وقيل: ولهم أعمال من دون الشرك سيئة لا بد أن يعملوها، والأول أقرب وأحسن.

قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: يرفعون أصواتهم بالاستغاثة.

قوله: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾ أي: ترجعون وراءكم وتستأخرون، وأصله أن ترجع القهقرى. قال الشاعر:

زَعَمُوا بِأَنَّهُمُ عَلَى سُبُلِ النَّجَا ... ةِ وَإِنَّمَا نُكُصٌ عَلَى الْأَعْقَابِ

قوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾ حال: أي في الحرم أو المسجد الحرام يقولون: نحن أهل حرم الله، وقيل: يحدث لكم سماع آياتي كبرًا وطغيانًا فلا تؤمنوا به والقول الأول أقرب، والثاني قول جيد.

قوله: ﴿سَٰمِرٗا﴾ نصب على الحال، أي: سُمَّارًا تتحدثون بالليل حول الكعبة بالأباطيل، وهو مأخوذ من السمر، وهو ظل القمر، ومنه سُمرة اللون، يقال: سَمْر وسُمَّر وسامِر، ومعناه: سهر الليل، مأخوذ من السَّمَر، وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر، ويقال: السمير: الدهر، وابنا سمِير: الليل، والنهار؛ لأنه

يسمر فيهما، يقال: لا أفعله ما سَمَر ابنا سمير أبدًا، والسَّمار بالفتح: اللين الرقيق.

قوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي: تنطقون بالفحش، من هَجَر المريضُ، إذا هذى، وهجر السفيه، إذا نطق بالفحش، والمعنى: يتكلمون بِهوس وسيئ من القول في النبي ﷺ وفي القرآن.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروا وأعرضوا، وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل، والتقدير: فلذلك أنكروا وتركوا التدبر له، وقيل: أم جاءهم أمان من العذاب، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ أي: قد عرفوا رسولهم، وأنه من أهل الصدق والأمانة، قال سفيان: بلى قد عرفوه، ولكنهم حسدوه.

قوله: ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: متنكرون ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

قوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لو وافق الحق سبحانه أهواءهم، أو لو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله لتنافت الآلهة وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير، أو لو كان الحق بما لا يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالم؛ لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد، وسبيل الحق أن يكون متبوعًا، وسبيل الناس الانقياد للحق، وكل هذه الأقوال مرادة ومعتبرة، وقيل: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: القرآن، أي: لو نزل القرآن بما يحبون لفسدت السماوات والأرض، وله وجه.

قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بما فيه شرفهم وعزهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكذا فيه ثوابُهم إن أطاعوا وعقابُهم إن عصوا.

قوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أجرًا ورزقًا على ما جئتهم به، وقد سبق معناه، وقد قال الله له: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

قوله: ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي: لعادلون ومنحرفون، حتى يصيروا إلى النار، يقال: نَكَب عن الطريق يَنْكُب نُكُوبًا، إذا عدل عنه ومال وزاغ إلى غيره، ومنه: نكبت الريح، إذا لم تستقم على مَجْرى، وشر الرياح النَّكْباء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ

أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ
يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله: ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أي: لتمادوا.

قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ أي: ما خضعوا وما خشعوا.

قوله: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ أي: حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتْهم الساعة بغتة.

قوله: ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ أي: يائسون من كل خير ومن كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خلقكم وبثكم في الأرض بطريق التناسل.

قوله: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: ملك كل شيء، وقد سبق في سورة الأنعام.

قوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ أي: يَمْنَع ولا يُمْنَع منه، فمن أراد إهلاكه وخوفه لم يمنعه منه مانع، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه دافع ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟!.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا
لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ
لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾
وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ
كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا
يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أي: لو قُدّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من

العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال، كما قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدًا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإنه لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزًا، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالًا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكنًا؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورًا.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزّه الله وتقدَّس عما يصفه به الظالمون.

قوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن عاقبتهم وأنا شاهد ذلك فلا تجعلني فيهم، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد، والترمذي بسند صحيح من حديث معاذ رضي الله عنه: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ».

قوله: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ علمه هذا الدعاء ليكون ذكره عند حلول النقم.

قوله: ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: نخسه وهمزه ولمزه ووسوسته ونزغاته، والهمز في اللغة: النخس والدفع. قال الليث: الهمز: كلام من وراء القفا، واللمز: مواجهة. والمقصود: الاستعاذة من كل ما يشغل عن ذكر الله وطاعته؛ لأنه من همزات الشياطين، وقد جاء عند الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الْفَزَعِ كَلِمَاتٍ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ».

قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ يعني المشركين والكافرين واليهود والنصارى، وكل كافر وطاغوت، بل وكل مفرط من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وفي الآية دلالة على أن أحدًا لا يموت حتى يعرف اضطرارًا أهو من أولياء الله، أم من أعداء الله، أم من المفرطين في جنب الله؟ ولولا ذلك لما سأل الرجعة.

قوله: ﴿كَلَّآۚ﴾ كلمة ردع وزجر.

قوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، بل كلام يذهب أدراج الرياح، بل لو أجيب لما وفى بما يقول! قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، وقيل: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ كل محتضر ظالم.

قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: ومن أمامهم وبين أيديهم قبل موتهم، وقيل: من خلفهم بعد موتهم.

قوله: ﴿بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ حاجز بين الموت والبعث، أو ما بين الدنيا والآخرة، وقد أخبر الله ﷻ في كتابه أنّهم يسألونه الرجوع أولًا عند الاحتضار، كما في هذه الآية ويوم النشور، قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، ووقت العرض، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، وحين يعرضون على النار، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، وهم في غمرات عذاب الجحيم، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: النفخة الثانية، وهي نفخة النشور للقيام من القبور.

قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: فلا قرابة تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة.

قوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، كل ذلك لهول ما أذهلهم.

قوله: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تحرق، قال تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ويقال: تنفح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، إلا أن ﴿تَلۡفَحُ﴾ أبلغ بأسًا، يقال: لَفَحَتْه النار والسموم بحرها: أحرقته، ولفحته بالسيف لفحة، إذا ضربته به ضربة خفيفة.

قوله: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ أي: شَمَّرَتْ شفاههم وبَدَتْ أسنانُهم، وقد كلح الرجل كُلوحًا وكُلاحًا، وما أقبح كَلْحَته، يراد به الفم وما حواليه، ودهر كالح، أي: شديد، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند حسن، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «تَشْوِيهِ النَّارُ، فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ العُلْيا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

قوله: ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ قرئت: (شقاوتنا)، أي: لذاتنا وأهواؤنا، وسميت بذلك لأنّها تؤدي إليها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾؛ لأن ذلك يؤدي بهم إلى النار.

قوله: ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ وهذا إقرار منهم، لا اعتذار.

قوله: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ هذا جوابُهم، أي: أبعدوا وامكثوا فيها صاغرين، كما يقال للكلب: اخسأ، أي: أبعد، خسأت الكلب خسئًا: طردته.

قوله: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ أي: هزوًا واستهزاءً وسخرية، وقرئت بالضم، أي: مسخرين ومستعبدين.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ أي: حتى انشغلتم بالاستهزاء بِهم عن ذكري، وحملكم بغضكم على أن نسيتم معاملتي وما أنزلت من الحق.

قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتِهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

قوله: ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ قرئت: (إنّهم) بالكسر، فالأولى معناها: لأنّهم هم الفائزون، والثانية على ابتداء المدح من الله تعالى لهم.

قوله: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟

قوله: ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾ أي: الحاسبين.

قوله: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير.

قوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ منصوب على الحال، أي: هملًا، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينْزل الله فيه للحكم بينكم، والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته، وحُرم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافدًا بباق، وقليلًا بكثير، وخوفًا بأمان؟ ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من

بعدكم الباقون، حتى تُردوا إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله ﷻ قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيِّبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب، مرتَهَن بعمله، غنيٌّ عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم. ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تنَزَّه وتقدس.

قوله: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ وهي قراءة الجمهور، وقرئت: (الكريمُ) بالرفع نعتًا لله ﷻ.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: أمر ﷺ رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليمًا للأمة طريق الثناء والدعاء.

انتهى تفسير سورة المؤمنون، ولله الحمد.

  

سورة النور

وهي مدنية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

قوله: ﴿سُورَةٌ﴾ اسم للمنْزلة الشريفة، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة، وقد قرئت بالرفع على أنّها مبتدأ، وخبرها ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾، وقيل: إنّها خبر المبتدأ؛ لأنّها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة في كل موضع، أي: هذه السورة.

قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي: فرضنا عليكم وعلى من بعدكم ما فيها من الأحكام، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْنَا ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾». قال أبو داود يعني: مخففة، وقرئت بالتشديد، أي: أنزلنا فيها فرائض مختلفة، أو قطعناها في الإنزال نُجُمًا نُجُمًا، والفرض: القطع، ومنه: فُرْضة القوس، وفرائض الميراث، وفرض النفقة، أو فصلناها وبيّنّاها، وقيل: على التكثير؛ لكثرة ما فيها من الفرائض.

قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ كان الزنا في اللغة معروفًا قبل الشرع، مثل اسم السرقة والقتل، وهو اسم لوطء الرجل المرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطاوعتها، وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء بالاتفاق.

قوله: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر، والأمر مضارع للشرط، وفيه معنى الجزاء، أي: إن زنى زانٍ فافعلوا به كذا، ولهذا دخلت في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، والمخاطب هنا: الإمام، ومن ناب عنه، والأصل أنه خطاب للمسلمين، ثم إن الإمام ينوب عنهم؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود، ويكون الجلد بالسوط لا لينًا ولا شديدًا، وسطًا بين ذلك، ولا يجرد لا الرجل

ولا المرأة من باب أولى، ولكن ينزع الحشو والفرو، ويجلد واقفًا إما في ظهره، أو في مقعدته، ويُتقى الوجه والذكر والمقاتل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الْبَيِّنَةَ، وَإِلا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» كما سيأتي قريبًا، ويكون الجلد مؤلمًا لا يجرح ولا يَبْضَع، والضرب في الحدود سواء، ولا دليل صريح في التفريق بين جلد الزاني وجلد غيره ممن وجبت عليهم الحدود، كشارب الخمر وغيره، ويختار لإقامة الحد فضلاء الناس وخيارهم، وقد جاء عند مسلم عن حصين بن المنذر أبي ساسان، قال: «شَهِدْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَأُتِيَ بِالْوَلِيدِ قَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ؟ فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ -أَحَدُهُمَا حُمْرَانُ- أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ، وَشَهِدَ آخَرُ أَنَّهُ رَآهُ يَتَقَيَّأُ، فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّأْ حَتَّى شَرِبَهَا. فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، قُمْ فَاجْلِدْهُ .. فَقَالَ عَلِيٌّ: قُمْ يَا حَسَنُ فَاجْلِدْهُ. فَقَالَ الْحَسَنُ: وَلِّ حَارَّهَا مَنْ تَوَلَّى قَارَّهَا. فَكَأَنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ، قُمْ فَاجْلِدْهُ. فَجَلَدَهُ وَعَلِيٌّ يَعُدُّ، حَتَّى بَلَغَ أَرْبَعِينَ».

قوله: ﴿مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذا حد الزاني الحر البالغ البكر، وكذا الزانية البالغة البكر الحرّة، وإن كان المحدود مريضًا أقيم عليه الحد على النحو الذي جاء في الحديث المروي بسند لا بأس به عند أبي داود: «عَنْ رَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ قَالَ: أَنَّهُ اشْتَكَى رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى أُضْنِيَ، فَعَادَ جِلْدُهُ عَلَى عَظْمٍ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ جَارِيَةٌ لِبَعْضِهِمْ، فَهَشَّ لَهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رِجَالُ قَوْمِهِ يَعُودُونَهُ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَالَ: اسْتَفْتُوا لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَإِنِّي قَدْ وَقَعْتُ عَلَى جَارِيَةٍ دَخَلَتْ عَلَيَّ. فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الضُّرِّ مِثْلَ الَّذِي هُوَ بِهِ! لَوْ حَمَلْنَاهُ إِلَيْكَ لَتَفَسَّخَتْ عِظَامُهُ، مَا هُوَ إِلَّا جِلْدٌ عَلَى عَظْمٍ! فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَاخُذُوا لَهُ مِائَةَ شِمْرَاخٍ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً».

وأما السنة فثبت فيها تغريب عام، على الخلاف في ذلك، وأما المملوكات فالواجب خمسون جلدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾، والعبد في معناها، وأما المحصن من الأحرار فعليه الرجم دون الجلد، ومن العلماء من يقول: يُجلد ثم يرجم، وقد مضى هذا كله في سورة النساء، وقد ذكرت الزانية هنا مع الزاني كما ذكرت السارقة مع السارق في سورة المائدة، وذلك من باب التأكيد، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الرجل الواطئ هو المنفرد بالحكم، وإلا لو اكتفى بذكر الزاني لشمل الذكر والأنثى، وقُدِّمت الزانية لأنه كان منتشرًا، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات، وكنَّ مجاهرات بذلك، وكذا لأن زنى النساء أعرُّ، وهو لأجل الحبل أضرُّ، وكذا لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب، وكذا لأن زناها يُذهب حياءها، الذي هو مُركب فيها، ومتى ما ذهب حياء المرأة صارت بغيًا فاحشة، والحاصل أن المرأة موضوعها الستر والصيانة والحشمة والعفاف، والعار بها ألحق.

قوله: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ أي: لا تمتنعوا من ذلك شفقة على المحدود، وقد جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَافَوُا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ

حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ». رواه أبو داود بسند حسن. وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، إِلا الْحُدُودَ». رواه أبو داود بسند حسن. وجاء بسند حسن عند النسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حَدٌّ يُعْمَلُ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا ثَلَاثِينَ صَبَاحًا»، وعند الطبراني بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بسند حسن وزاد: «يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً». ويقال: رآفة، مثل كأبة وكآبة، وقد رأفت به ورؤفت به، وهي أرق الرحمة، ومن أسماء الله عز وجل: الرؤوف.

قوله: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: في حكمه، وقيل: في طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود، والأول أقرب.

قوله: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ثلاثة فأكثر، وذلك لتوبيخهم والإغلاظ عليهم بحضرة الناس، ليرتدعوا ويرتدع من حضر إقامة الحد ومن سمع به بعد إشاعته. وما ألعن الزنا! وما أغبى الزناة! أذهبوا بَهاءهم، وأوجبوا على نفوسهم سخط ربّهم، واستبدلوا سعادة العمر والحياة بلذة ساعة عابرة، فيا ويلهم من سوء الحساب! ويا حسرتَهم إذا وقفوا أمام خالقهم، وعرضت عليه أعمالهم المشينة، وتصرفاتُهم اللعينة! وإنه لموقف وأيما موقف، يعقله الكيّسون الفطنون، ويجهله الأغبياء الغافلون.

قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ جاء عند أبي داود والترمذي بسند لا بأس به عن ابن عمرو رضي الله عنه: «أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الأُسَارَى بِمَكَّةَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ، وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَنَاقَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي، فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾، فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ، وَقَالَ: لَا تَنْكِحْهَا».

وعند أبي داود بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودُ إِلا مِثْلَهُ». وهذا من باب التأديب والتغليظ، وليس من باب الوجوب، فمن زنى بامرأة فله أن يتزوجها، ولغيره أن يتزوجها، كما أن الزاني له أن يتزوج بغير زانية، أو العكس، ولا يفرق بينهما، ونكاحهما صحيح، والقول بخلاف ذلك في منتهى الضعف، وعلى هذا فالمراد من الآية الكريمة هو إخبار من الله عز وجل بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنى إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاصٍ بزناه، ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ لا يعتقد تحريمه، وقد جاء عند ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لَيْسَ هَذَا بِالنِّكَاحِ، إِنَّمَا هُوَ الْجِمَاعُ، لَا يَزْنِي بِهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ».

قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾، قال أحمد بن حنبل رحمه الله: لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى

تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها، وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد سبق حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة مرثد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد اختلف العلماء في حكم الزوجة أو الزوج إذا زنيا، فقيل: يفسد نكاحهما، وقيل: يؤمر الرجل بطلاق زوجته إذا زنت، ولو أمسكها أثِم، والصحيح أنه لا يفرق بينهما إن أحدثا توبة نصوحًا، فإن لم يفعلا وتماديا في فعلهما فلا شك أن الزوج آثِمٌ إثمًا عظيمًا في إمساكها، وكذا الزوجة آثمة إثمًا عظيمًا إذا رضيت أن تكون تحت رجل مسافح مستمر على الزنا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي: يسبون ويقذفون، إما بالزنا، أو باللواط، أو بأي شيء يلزم فيه الحد، واستعير له اسم الرمي لأنه أذية بالقول. كما قال الشاعر:

وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ

قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: النساء العفائف، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإجماعًا، ويشترط في القاذف العقل، والبلوغ، وهما أصل التكليف، ويشترط في المقذوف العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، والعفة عن الفاحشة التي رُمي بها، وقد اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنا كان قذفًا ورميًا للحد، فإن عرَّض ولم يصرِّح فقيل: هو قذف، وقيل: لا، حتى يقول: أردت به القذف، والأقرب هو القول الأول؛ لأن المعول هو الفهم، والمعرة حاصلة للمقذوف عند السامعين للقذف، سواء كان صريحًا أو غير صريح، ولذلك قال تعالى حكاية عن مريم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فمدحوا أباها، ونفوا عن أمِّها البغاء، وعرّضوا بِها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾.

وأما إذا قذف المسلم رجلًا من أهل الذمة أو غيرهم من أهل الكتاب فالصحيح أنه لا حد عليه؛ لأنه لا كرامة له، وما هو فيه من الشرك والكفر أعظم من القذف بالزنا وغير ذلك، وأما إذا قذف الكتابي المسلم فعليه مثل ما على المسلم، ثمانون جلدة إجماعًا، وأما بالنسبة للعبد إذا قذف حرًا فإنه يجلد أربعين جلدة؛ لأنه حد يتشطر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وإذا قذف الحر العبد لا يجلد الحر؛ لتباين مرتبتهما، ولقوله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ».

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ دون سائر الحقوق أولًا؛ لعظم الزنا، ولرحمة الله بعباده وسترهم، فيشهدون على أنّهم رأوا المرود في المكحلة، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَتْ الْيَهُودُ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَنَيَا، فَقَالَ: ائْتُونِي بِأَعْلَمِ رَجُلَيْنِ مِنْكُمْ، فَأَتَوْهُ بِابْنَيْ صُورِيَا فَنَشَدَهُمَا كَيْفَ

تَجِدَانِ أَمْرَ هَذَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ قَالا نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ إِذَا شَهِدَ أَرْبَعَةٌ أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ رُجِمَا، قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تَرْجُمُوهُمَا؟ قَالا ذَهَبَ سُلْطَانُنَا فَكَرِهْنَا الْقَتْلَ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالشُّهُودِ فَجَاءُوا بِأَرْبَعَةٍ فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرَجْمِهِمَا».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ عامٌّ في كل رمي، سواء قال: زنيتِ، أو يا زانية، أو رأيتها تزني، أو هذا الولد ليس مني.

قوله: ﴿أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: لا يدخل في ذلك الإماء وأمهات الأولاد.

قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ قرئت بالرفع على البدل، ويجوز النصب على الاستثناء، وعلى خبر يكن.

قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ أي: التي تزيل عنه حد القذف.

قوله: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ رفع بالابتداء، والخبر: ﴿أَنَّ﴾، وصلتها أي: والشهادة الخامسة: لعنة الله عليه، وقرئت: (والخامسةَ) بالنصب، أي: وتشهد الشهادة الخامسة، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن هلال بن أمية رضي الله عنه قذف امرأته بشريك بن سحماء رضي الله عنه، وكان أخا البراء بن مالك رضي الله عنه لأمه، وكان أول رجل لاعن في الإسلام، فلاعنها، فقال رسول الله ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَبْيَضَ، سَبِطًا، قَضِيءَ الْعَيْنَيْنِ؛ فَهُوَ لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ، جَعْدًا، حَمْشَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ. قَالَ: فَأُنْبِئْتُ أَنَّهَا جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ جَعْدًا حَمْشَ السَّاقَيْنِ».

وعند البخاري بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه قال النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ. فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ؛ فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ. فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَّفُوهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ)، فَمَضَتْ... وفيه: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ».

وعند مسلم من حديث سعيد بن جبير قال: «سُئِلْتُ عَنِ الْمُتَلَاعِنَيْنِ فِي إِمْرَةِ مُصْعَبٍ: أَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: فَمَا دَرَيْتُ مَا أَقُولُ، فَمَضَيْتُ إِلَى مَنْزِلِ ابْنِ عُمَرَ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لِلْغُلَامِ: اسْتَأْذِنْ لِي. قَالَ: إِنَّهُ قَائِلٌ. فَسَمِعَ صَوْتِي، قَالَ: ابْنُ جُبَيْرٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: ادْخُلْ، فَوَاللهِ مَا جَاءَ بِكَ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا حَاجَةٌ .. فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ مُفْتَرِشٌ بَرْذَعَةً، مُتَوَسِّدٌ وِسَادَةً حَشْوُهَا لِيفٌ، قُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! الْمُتَلَاعِنَانِ: أَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ:

سُبْحَانَ اللهِ! نَعَمْ، إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ أَنْ لَوْ وَجَدَ أَحَدُنَا امْرَأَتَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ إِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ! قَالَ: فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ قَدِ ابْتُلِيتُ بِهِ! فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ النُّورِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، فَتَلَاهُنَّ عَلَيْهِ، وَوَعَظَهُ وَذَكَّرَهُ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! مَا كَذَبْتُ عَلَيْهَا. ثُمَّ دَعَاهَا، فَوَعَظَهَا وَذَكَّرَهَا، وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ. قَالَتْ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! إِنَّهُ لَكَاذِبٌ. فَبَدَأَ بِالرَّجُلِ فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، ثُمَّ ثَنَّى بِالْمَرْأَةِ فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا».

وعند الشيخين من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ عُوَيْمِرًا الْعَجْلَانِيَّ جَاءَ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَاصِمُ! أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا: أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ سَلْ لِي -يَا عَاصِمُ- عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَسَأَلَ عَاصِمٌ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، حَتَّى كَبُرَ عَلَى عَاصِمٍ مَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَجَعَ عَاصِمٌ إِلَى أَهْلِهِ جَاءَ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: يَا عَاصِمُ، مَاذَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عَاصِمٌ: لَمْ تَأْتِنِي بِخَيْرٍ! قَدْ كَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي سَأَلْتُهُ عَنْهَا. قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللهِ لَا أَنْتَهِي حَتَّى أَسْأَلَهُ عَنْهَا. فَأَقْبَلَ عُوَيْمِرٌ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَسْطَ النَّاسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ؛ فَاذْهَبْ فَأْتِ بِهَا. قَالَ سَهْلٌ: فَتَلَاعَنَا -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي الْمَسْجِدِ-، وَأَنَا مَعَ النَّاسِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: كَذَبْتُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَمْسَكْتُهَا. فَطَلَّقَهَا ثَلَاثًا قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَفِي رِوَايَةٍ: فَفَارَقَهَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: ذَاكَ تَفْرِيقٌ بَيْنَ كُلِّ مُتَلَاعِنَيْنِ-. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَكَانَتْ تِلْكَ سُنَّةَ الْمُتَلَاعِنَيْنِ».

ويجب اللعان إن لم يأت بأربعة شهداء، فإن أبى فإنه يُحد كغيره، فإن لاعن سقط؛ لأنه براءة كالشهود للأجنبي، وإن نفى الحمل فإنه يلتعن؛ لأنه أقوى من الرؤية، وإن قذفها بعد الطلاق نظرت، فإن كان هنالك نسب يريد أن ينفيه، أو حمل يتبرأ منه لاعن، وإلا لم يلاعن، وقيل: لا يلاعن بحال، لأنّها ليست بزوجة، والقول الأول أقوى؛ للعلة المذكورة، وأما بعد انقضاء العدة فلا ملاعنة بين الرجل وزوجته، إلا أن يكون الرجل غائبًا فتأتي امرأته بولد في مغيبه وهو لا يعلم، فيطلقها، فتنقضي عدتُها، ثم يقدم فينفيه، فله أن يلاعنها هاهنا بعد العدة، وكذلك لو قدم بعد وفاتِها ونفى الولد لاعن لنفسه وهي ميتة بعد مدة من العدة، وإذا ظهر بامرأته حمل فترك نفيه لم يكن له نفيه بعد سكوته؛ لأن سكوته بعد العلم رضا به، فإن أخر ذلك إلى أن

وضعت وقال: رجوت أن يكون ريحًا ينفش، أو تسقطه فأستريح من القذف، فالذي يظهر أنه له نفيه، وإن كان الأصل أن الملاعنة قبل الوضع، والنص في هذا صريح عن النبي ﷺ، وقد مضى في الأحاديث السابقة، وأما كيفية اللعان فيقول الملاعن: أشهد بالله لرأيتها تزني، ورأيت فرج الزاني في فرجها كالمرود في المكحلة، أو بنحو ذلك، ويحلف بذلك أربع مرات، ويقول في كل يمين منها: وإني لمن الصادقين في قولي هذا عليها، ثم يقول في الخامسة: عليَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين، وتقول المرأة: أشهد بالله إنه لكاذب، أو من الكاذبين فيما ادعاه عليَّ وذكر عني، وإن كانت حاملًا قالت: وإن حملي هذا منه، وتحلف بذلك أربع مرات، وتقول في الخامسة: عليَّ غضب الله إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزنا، وخُصَّت بالغضب لأنَّها تعلم صدقه فيما رماها به، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

وإذا فرغ المتلاعنان من تلاعنهما جميعًا فُرِّق بينهما، كما سبق في الأحاديث الماضية، ولا اجتماع لهما أبدًا، ولا يتوارثان، ولا يحل له مراجعتها أبدًا، لا قبل زوج ولا بعده، فإن كذَّب الزوج نفسه جُلد الحد، ولحق به الولد، ولم ترجع إليه أبدًا، قال الزهري: مضت السنة أنَّهما إذا تلاعنا فُرِّق بينهما فلا يجتمعان أبدًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ⑪ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ⑫ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ⑬ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑭ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ⑮ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ⑯ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ⑰ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑱ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ⑲ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ⑳﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: بالكذب.

قوله: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ أي: ثلاثة رجال وامرأة معروفون، وآخرون غير مذكورين، وأصلها في اللغة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم﴾ لرجحان نفعه، وخيره على شره.

قوله: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: لما فيه من الشرف العظيم بنْزول الوحي ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل.

قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ وهم حسان، ومسطح، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم، وعبد الله بن أُبي، وجهل الغير.

قوله: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ وهو عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، وهذا قول الجماهير من الصحابة والتابعين والمفسرين، وقيل: هو حسان بن ثابت، وهذا ليس بصواب، وحجة هذا القول: ما أخرجه البخاري ومسلم عن مسروق قال: «دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعِنْدَهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُنْشِدُهَا شِعْرًا يُشَبِّبُ بِأَبْيَاتٍ لَهُ وَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ، قَالَ مَسْرُوقٌ: فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَأْذَنِينَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكِ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى؟ إِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ أَوْ يُهَاجِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ». وهذا الدليل يوجه بأربعة صوارف:

الأول: أن قول مسروق لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما دخل عليها فذكر الآية لا يريد هذه الآية بعينها، وإنما أراد تذكير عائشة بمسألة الإفك، فجاء بهذه الآية من غير قصد.

ثانيًا: أن قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا مخالف للجماهير، ومن المتقرر أن قول الصحابي إذا خالف غيره فليس بحجة، كيف وهو مخالف للجماهير.

ثالثًا: أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صرَّحت في حديثها الطويل في حادثة الإفك الذي له مزية اعتبار عن حديث مسروق، أن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أُبي بن سلول، وهو مُخَرَّج في الصحيحين فهذه اللفظة أصرح من حديث مسروق، ومن المتقرر أن المنطوق يقدم على المفهوم، كما قال علماء الأصول، بل أصرح من ذلك ما رواه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح: «قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَبَلَغَنِي وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ الذِي قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ بْنِ سَلُولٍ». وهذا منها في غاية الصراحة.

رابعًا: يقال: إن الآية لا تعني واحدًا بعينه؛ بل تعني عدة أشخاص، منهم: ابن أُبَي، وحسان، وغيره، جمعًا بين الدليلين الصحيحين، ومن المعلوم أن المشاركة في القضية لا تعني المساواة في الفعل، فزعيم المتولين كبره هو ابن أُبَي المنافق، وهذا هو الذي حدى بـ هشام بن عروة أن يقول: «الذي تولى كبره عبد الله بن أُبي، ومسطح، وحسان، وحمنة، وكان أكثر ذلك من قبل عبد الله بن أُبي». رواه الطبراني، وجوده الهيثمي. وجاء خارج الصحيحين قول حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْصِبًا نَبِيِّ الْهُدَى وَالْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ

عَقِيلَـةُ حَـيٍّ مِـنْ لُـؤَيِّ بْـنِ غَالِـبٍ   كِـرَام الْمَسَـاعِي مَجْـدُهَا غَيْـرُ زَائِـلِ
مُهَذَّبَـــةٌ قَـــدْ طَيَّـــبَ اللهُ خِيمَهَـــا   وَطَهَّرَهَـا مِـنْ كُـلِّ شَـيْنٍ وَبَاطِـلِ
فَــإِنْ كَــانَ مَــا بُلِّغْـتِ أَنِّـي قُلْتُــهُ   فَـلَا رَفَعَـتْ سَـوْطِي إِلَـيَّ أَنَـامِلِي
فَكَيْـفَ وَوُدِّي مَـا حَيِيـتُ وَنُصْـرَتِي   لِآلِ رَسُـــولِ اللهِ زَيْـــنِ المحافـــل
لـه رتـب عـال علـى النَّـاسِ فَضْـلُهَا   تَقَاصَـــرُ عَنْهَـــا سَـــوْرَةُ الْمُتَطَـــاوِلِ

وجاء عند الشيخين قالت عائشة ﵂: «لكنك لست كذلك، تريد أنك وقعت في الغوافل، وقد جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث عائشة ﵂ قالت: «لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي قَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَذَكَرَ ذَلِكَ، وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْمِنبَرِ، أَمَرَ بِالرَّجُلَيْنِ وَالْمَرْأَةِ فَضُرِبُوا حَدَّهُمْ». وأما عبد الله بن أبي فلم يجلد؛ لأن الله قد أعدّ له في الآخرة عذابًا عظيمًا، وقيل: استئلافًا لقومه، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك، وقد جاء عند البزار قالت عائشة ﵂: «لَمَّا رُمِيتُ بِمَا رُمِيتُ أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَ نَفْسِي فِي قَلِيبٍ». حسنه ابن حجر.

قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ وهو الأخذ في الحديث الذي وقع عليه العتاب، يقال: أفاض القوم في الحديث، أي: أخذوا فيه.

قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: من التلقي، ومن المعلوم بداهة أن التَّلَقِّي إنما يكون بالأُذن، ثم يعرض على العقل والقلب، وحينئذٍ يكون كلام باللسان أو عدمه، وإنما عبَّر القرآن الكريم بأن التلقي كان باللسان ليلفت إلى سرعة التلقي وعدم التثبت أو التروي في إصدار الحكم، لسان يتلقى عن لسان، باستهتار ولا مبالاة ولا اهتمام، وقرئت: (إذ تَلِقُونه)، وهي قراءة عائشة ﵂ كما جاء عند البخاري، يقال: وَلَق الرجل يَلِق ولْقًا، إذا كذب واستمر عليه، وقيل: أصل الولَق: الإسراع، يقال: جاءت الإبل تَلِق، أي: تسرع.

قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أي: شيئًا يسيرًا، لا يلحقكم فيه إثم، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

قوله: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ من الموبقات والجرائم؛ لأنه وقوع في أعراض المسلمين.

قوله: ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أي: تفشو، يقال: شاع الشيء شُيُوعًا وشَيْعًا وشَيَعانًا وشَيْعُوعَةً، أي: ظهر وتفرق.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه، ويعلم كل شيء ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد جاءت قصة الإفك مطولة عند الشيخين من حديث عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا

أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا، حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ-، فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ؟ (وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ يَنْصَرِفُ) ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا، لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا-، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي -وَفِي رِوَايَةٍ: وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا-، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ! أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ! أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: عَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ، وَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ: أَيْ أُمِّ! تَسُبِّينَ ابْنَكِ؟ وَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتِ الثَّانِيَةَ، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيْ أُمِّ! أَتَسُبِّينَ ابْنَكِ؟ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتِ الثَّالِثَةَ، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَانْتَهَرْتُهَا، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أَسُبُّهُ إِلَّا فِيكِ! فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: فَبَقَرَتْ لِيَ الْحَدِيثَ، فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَاللهِ. فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَوُعِكْتُ) -، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ، فَقَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ. -وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى

أَهْلِي؟ فَأَذِنَ لَهَا، (وَأَرْسَلَ مَعَهَا الْغُلَامَ، وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: سُبْحَانَكَ ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾) -. قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ - (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: فَدَخَلْتُ الدَّارَ، فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ) -، فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ! هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا. فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا؟ (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي، قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَرَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ. فَاسْتَعْبَرْتُ وَبَكَيْتُ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ، فَقَالَ لِأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهَا. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ أَيْ بُنَيَّةُ إِلَّا رَجَعْتِ إِلَى بَيْتِكِ! فَرَجَعْتُ). قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ؛ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ- فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللهِ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: يَا بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟ فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ. -وَفِي رِوَايَةٍ (مُعَلَّقَةٍ): وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ! حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ-. فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ -وَفِي رِوَايَةٍ (مُعَلَّقَةٍ): خَطِيبًا، فَتَشَهَّدَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي-، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -وَفِي رِوَايَةٍ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ-، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي -وَفِي رِوَايَةٍ (مُعَلَّقَةٍ): وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي-. فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا وَاللهِ أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ. فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ -وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ (قَبْلَ ذَلِكَ) رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ-، فَقَالَ: كَذَبْتَ! لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ). فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ-، فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ! وَاللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ. فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا -وَفِي رِوَايَةٍ: أَنْ يَقْتَتِلُوا-، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ. وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا،

(حَتَّى أَظُنُّ) -وَفِي رِوَايَةٍ: يَظُنَّانِ- أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي. قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَلَسَ (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ، وَقَدِ اكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي)، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ. قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ -وَفِي رِوَايَةٍ (مُعَلَّقَةٍ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ)، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ- ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ! قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ! قَالَتْ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُكُمْ)، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ -وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ- لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ -وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ- لَتُصَدِّقُنِّي! (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: لَتَقُولُنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا)، وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: وَالْتَمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ) إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي -وَفِي رِوَايَةٍ: أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى-، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ. (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: فَسَكَتْنَا، فَرُفِعَ عَنْهُ وَإِنِّي لَأَتَبَيَّنُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ) -، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ! (احْمَدِي اللهَ)؛ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ (مُعَلَّقَةٍ): أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ؛ فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكِ. (قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا) -. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: وَلَا أَحْمَدُهُ، وَلَا أَحْمَدُكُمَا، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللهَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي؛ لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ، فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ، وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ). فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ الْآيَاتِ -وَفِي رِوَايَةٍ: الْعَشْرَ الْآيَاتِ-، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ-: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَالَ: (وَاللهِ) لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا-. وَكَانَ رَسُولُ

اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ؟ مَا رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ! قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ الْمُنَافِقَ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ، (فَيُقِرُّهُ) وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ. وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ (فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى)، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ -وَفِي رِوَايَةٍ (مُعَلَّقَةٍ): هُوَ وَحَمْنَةُ-».

وقد روى البزار من حديث عائشة رضي الله عنها: «لَمَّا نَزَلَ عُذْرهَا قَبَّلَ أَبُو بَكْر رَأْسهَا فَقالت: أَلا عَذَرْتنِي؟ فَقَالَ: أَيّ سَمَاء تُظِلّنِي؟ وَأَيّ أَرْض تُقِلّنِي إِذَا قُلْت مَا لا أَعْلَمُ». صححه ابن حجر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أي: ما صلح ولا اهتدى ولا عرف رشدًا، يقال: زكا يزكو زكاءً.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ».

قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ أي: حسابَهم، وقيل: كل ما في القرآن دينهم، أي: حسابُهم.

قوله: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ على النصب، صفة لدينهم.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بعداء منَزَّهون مما يقوله أهل الأفك والعدوان.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾ أي: تستأذنوا وتسلموا، وقد أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في الشعب بسند جيد عن ابن عباس ﵄: أنه كان يقرأ: «(حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا) وَيَقُول: أَخْطَأَ الْكَاتِب، وَكَانَ يَقْرَأ عَلَى قِرَاءَة أُبَيِّ بْن كَعْب». وعند البخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر ﵄: «أَنه كَانَ إِذَا بَلَغَ وَلَده الْحُلُم لَمْ يَدْخُل عَلَيْهِ إِلا بِإِذْنٍ». صححه ابن حجر. وفي الأدب أيضًا: «جَاءَ رَجُل إِلَى اِبْن مَسْعُود ﵁ فَقَالَ: أَسْتَأْذِن عَلَى أُمِّي؟ فَقَالَ: مَا عَلَى كُلّ أَحْيَانهَا تُرِيد أَنْ تَرَاهَا» صححه ابن حجر.

وفي الأدب بسند صحيح أيضًا عن عطاء قال: «سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُخْتِي؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَأَعَدْتُ فَقُلْتُ: أُخْتَانِ فِي حِجْرِي، وَأَنَا أُمَوِّنُهُمَا وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمَا، أَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهُمَا عُرْيَانَتَيْنِ؟».

وجاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَخَذَفْتَهُ بِعَصَاةٍ، فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ».

وعند الشيخين من حديث سهل بن سعد ﵄: «أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ فِي جُحْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ (تَنْتَظِرُنِي) -وَفِي رِوَايَةٍ: تَنْظُرُ- لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنَيْكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ قِبَلِ الْبَصَرِ».

ويقال للاستئناس: العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ أي: علمتم، وعلى هذا فالمعنى: حتى تستعلموا من في البيت بالتنحنح، أو بأي وجه ممكن، والقول الأول أرجح، والثاني له وجه.

وقد جاءت السنة في الاستئذان، فقد روى الشيخان عن أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الاسْتِئْذَانُ ثَلاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ وَإِلا فَارْجِعْ». وصفته أن يقول: السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاثًا، ولا يجلس المستأذن أمام البيت؛ فلعله يفتح الباب فتقع عينه على محارم البيت، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن عبد الله بن بسر ﵁ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوِ الْأَيْسَرِ، فَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُورٌ». وعند أبي داود بسند جيد عن رجل من بني عامر ﵁: «اسْتَاذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ: أَلِجُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِخَادِمِهِ: اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلُ؟ فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ».

ومن الإذن: رسول الرجل، وقد روى أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَسُولُ الرَّجُلِ إِلَى الرَّجُلِ إِذْنُهُ». أي: إذا أرسل إليه فقد أذن له في الدخول.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾ أي: في البيوت التي لغيركم.

قوله: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالمساكن التي يأوي إليها ابن السبيل والضيف، والخرب المهجورة، والمدارس، والفنادق، والدكاكين.

قوله: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي: منفعة عامة أو خاصة، ومنه: أمتع الله بك، ومنه: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فبدأ بالغض قبل الفرج؛ لأن البصر للقلب رائد. قال الشاعر:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الْعَـيْنَ لِلْقَلْـبِ رَائِـدٌ ... فَمَـا تَـأْلَفُ الْعَيْنَـانِ فَالْقَلْـبُ آلِـفُ

فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعًا، كما جاء عند مسلم عن جرير رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي». يقال: غض بصره يَغُضّه غضًا، وقد جاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن بريدة رضي الله عنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ».

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا. فَقَالَ: إِذْ أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ. قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ». وعند أحمد وغيره بسند جيد عن عبادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ».

قوله: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ جاء عند البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ». وعند أبي داود بسند حسن عن معاوية القشيري

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ». وعند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر لقلوبهم، وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته، وحلاوة في عبادته، وراحة في قلبه، واستعدادًا لما بعد موته، وفهمًا لكتابه ومقاصد شرعه، وقد روى الطبراني بسند لا بأس به من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «بَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرُّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ، وَعِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ».

قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ جاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية قال: «فَنُسِخَ وَاسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآيَةَ». وعند أبي داود بسند حسن عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ -وَعِنْدَهُ مَيْمُونَةُ-، فَأَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ -وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: احْتَجِبَا مِنْهُ! فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَلَيْسَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ: أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟ أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟ لَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ!».

وأما حديث فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندما أمرها رسول الله ﷺ أن تعْتدَّ عند ابن أم مكتوم، وقال: «فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى، تَضَعِينَ ثِيَابَكِ عِنْدَهُ». رواه مسلم، فلا يعارض حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأن بيت ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنسبة لها أخف الضررين، ولا يراها أحد، لا هو ولا غيره، وليس فيه الإذن في رؤيته بقدر ما فيه عدم رؤيته لها عندما تضع ثيابَها، ثم إنّها قضية عين لا عموم لها، بدليل أنه لا يسمح لامرأة مهما كانت من التقى والصلاح أن تُساكن رجلًا أعمى أجنبيًا، سواء كان قريبًا لها أو بعيدًا استدلالًا بِهذه القصة، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلًا، وقصره آخرون على النظر بشهوة، وهو الأظهر، والله أعلم؛ لأنه ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابِهم يوم العيد في المسجد، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها عنهم، حتى ملت ورجعت.

قوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الزنا وعن كشف العورات.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كثيابِها وطولها وعرضها ورشاقتها ومشيتها وكلامها، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ظاهر الزينة هو الثياب والرداء». رواه الطبراني، وقال ابن حجر: إسناده قوي، ويبعد عن الصواب ويخالف العقل من قال: الوجه لا بأس بإبدائه للأجانب! وقد أجمع العقلاء على أن أصل الزينة وجمال الْخِلقة هو الوجه، ولو وُضعت زينة الوجه في كفة، وبقية الزينة في كفة لما كان هناك مقارنة، ومن الغريب أن من يجعل الوجه مما رُخِّص في كشفه ولا يجعلون ظهور الأقدام مرخصًا في كشفها، وربما

استدلوا بحديث ضعيف جدًا أجمع الحفاظ على ذلك، ألا وهو ما جاء عند أبي داود عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يَا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلا هَذَا وَهَذَا». وأشار إلى وجهه وكفيه.

ثم تزداد البلية في زينة الوجه إذا كُحِلت العينان بالسواد، وخُضِبت الشفتان بالبودر، ولمعت الخدود بالمكياج، وقد جاء عند البخاري عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ-؛ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أَخَذْنَ أُزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا». والجيب: الصدر والنحر، ومن باب أولى الوجه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، قالت أم سلمة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُا - كما جاء عند أبي داود بسند جيد: لما نزلت هذه الآية خرج نساء الأنصار كأنّ على رؤوسهن الغربان من الأكسية، والْخُمُر جمع خِمار، وهو ما يُخمر به، أي: يغطى به الرأس، ولذلك سمي الخمر خمرًا لأنه يستر ويغطي العقل، وهي التي تسميها الناس: المقانع، وعندنا في نجد نسميها: الغطوة، أو الغدفة. وقد جاء عند عبد الرزاق عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنه ضرب عقيلة أمة أبي موسى في الجلباب أن تتجلبب». وفي رواية: «أنه ضرب أمة لآل أنس رآها متقنعة، قال: اكشفي رأسك لا تتشبهي بالحرائر». قال ابن حجر: إسنادهما صحيح.

قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على صدورهن لئلا يبدو شيء من النحر والصدر.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن، ويقال للسيد، ومنه قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند مسلم، وبمعناه عند البخاري: «إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ بَعْلَهَا».

قوله: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فإن الأب يصون عرض ابنته، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوءه.

قوله: ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: ذكور أولاد الزوج وإن سفلوا، كبني البنين، وبني البنات.

قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المسلمات، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات، وتخرج نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم، فلا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف شيئًا من بدنِها بين يدي امرأة مشركة إلا أن تكون أمة لها، فذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾.

وجاء عند أبي داود بسند جيد عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بِعَبْدٍ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا. قَالَ: وَعَلَى فَاطِمَةَ ثَوْبٌ إِذَا قَنَّعَتْ بِهِ رَاسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَاسَهَا، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلْقَى قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَاسٌ؛ إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ».

فإن كان مكاتبًا وله ما يؤدي فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود من حديث أم سلمة رضي الله عنها: «إِنْ كَانَ لِإِحْدَاكُنَّ مُكَاتَبٌ فَكَانَ عِنْدَهُ مَا يُؤَدِّي فَلْتَحْتَجِبْ مِنْهُ». صححه الترمذي. والعلة في ذلك: حتى لا تصفها للرجال؛ لأنه لا يمنعهن مانع يزجرهن، أما المسلمة فتعلم أنه حرام، فتنْزجر عن ذلك، وقد جاء عند البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، فَتَنْعَتَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا».

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: من الإماء المشركات.

قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ أي: الأجراء والأتباع والخدم.

قوله: ﴿غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: غير أولى الحاجة، كالشيخ الكبير الذي سقطت شهوته، والعِنِّين الذي نزعت منه شهوة النساء، يقال: أرِبْت آرب أرَبًا، والإرب والإربة والمأرُبة، والجمع: مآرب، أي: حوائج، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾. قال الشاعر:

إِذَا الْمَرْءُ قَالَ الجهل والحوب والخنى ... تَقَدَّمَ يَوْمًا ثُمَّ ضَاعَتْ مَآرِبُهُ

وجاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مُخَنَّثٌ فَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ، قَالَ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً، قَالَ: إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِأَرْبَعٍ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَا أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مَا هَاهُنَا لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ» قَالَتْ: فَحَجَبُوهُ». وجاء عند البخاري بنحوه من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حدَّ الشهوة، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم، يقال: ظهرت على كذا، أي: علمته، وظهرت على كذا، أي: قهرته.

قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: إذا مشين. ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كالخلاخل، وربما خرجت الساقان، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَعْطَرَتِ الْمَرْأَةُ، فَمَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ فَوَجَدُوا رِيحَهَا، فَهِيَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ قَوْلًا شَدِيدًا». وفي رواية عند الترمذي بسند جيد: «كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ...».

وعند أبي داود بسند لا بأس به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ لامْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ لِهَذَا الْمَسْجِدِ حَتَّى تَرْجِعَ فَتَغْتَسِلَ غُسْلَهَا مِنَ الْجَنَابَةِ». وعند مسلم من حديث زينب الثقفية رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلا تَمَسَّ طِيبًا».

وأما في الأسواق ونحوها فقد جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث أبي أسيد رضي الله عنه: «أَنَّهُ سَمِعَ

رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ -وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ- لِلنِّسَاءِ: اسْتَاخِرْنَ؛ فَإِنَّهُ لَيْس لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ. فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْصَقُ بِالْجِدَارِ، حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ».

قال مكي رحمه الله: ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية، جمعت خمسة وعشرين ضميرًا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٣ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٣٤ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣٥ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ٣٦﴾

قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: من لا زوج له منكم من الرجال أو النساء الأحرار، فإنه طريق التعفف، والخطاب للأولياء، وهو دليل صريح على أن المرأة ليس لها أن تُنكِح نفسها بغير ولي، وقد مضى في سورة البقرة، والأيامى واحدهم: أَيِّمٌ، واتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل هي المرأة التي لا زوج لها، بكرًا كانت أو ثيبًا، يقال: تأيمت المرأة، إذا أقامت لا تتزوج.

ويقال: أَيِّم بين الأيْمة، وقد آمَتْ هي، وإِمْت أنا. فيقال: رجل أيم، وامرأة أيم، وأكثر ما يكون في النساء، وهو كالمستعار في الرجال. قال أمية بن أبي الصلت:

لله درُّ بَنِي عَلِي أَيِّمٍ مِنْهُمْ وَنَاكِحِ

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسند صحيح عن معقل بن يسار رضي الله عنه: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ».

قوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي: من العبيد الذكور، والإماء الإناث، والصلاح هو الإيمان، فتلك في الأحرار، وهذه في الموالي.

قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ جاء عند الترمذي بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي

يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ».

وفي هذه الآية وعد للمتزوجين طلب رضا الله، واعتصامًا عن معاصيه بأن يغنيهم من فضله، حتى قال بعض السلف: التمسوا الغنى بالنكاح، ثم قرأ هذه الآية، وقال آخر: اطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم به من الغنى، فإن قيل: قد نجد الناكح لا يستغني، قلنا: لأنه لم يتق الله، وقد تزوج رجل في عهد النبي ﷺ، ليس له في الدنيا إلا إزاره، وقد جاء هذا عند الشيخين من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال رسول الله ﷺ له: «اذْهَبْ، فَقَدْ أَنْكَحْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ».

قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ خطاب لمن يملك أمر نفسه، واستعفف وزنه: استفعل، أي: طلب أن يكون عفيفًا.

قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: طَوْل نكاح من المهر والنفقة، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا معْشَر الشباب، مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ».

قوله: ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجًا ومخرجًا.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر من الله تعالى، للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة، أن يكاتبوهم، أي: يطلبون العتق الذي يُكتب به الكتاب فيدفع إليهم، يقال: كاتب يكاتب كتابًا ومكاتبة، كما يقال: قاتل قتالًا ومقاتلة، فـ ﴿الْكِتَابَ﴾ مصدر، كالقتال، والجلاد، والدفاع، والمكاتبة في الشرع هو أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجمًا عليه، فإذا أداه فهو حر، ولها حالتان: أن يطلبها العبد ويجيبه السيد، وهذا ظاهر الآية، والثانية أن يطلبها العبد ويأباها السيد، والمستحب في حقه أن يجيبه إلى طلبه.

وقد اتفق الإجماع على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك، ولم يُجبر عليه، وإن ضوعف له في الثمن، وكذلك لو قال له: أعتقني أو دبِّرني، أو زوجني، لم يلزمه ذلك بالإجماع، فكذلك الكتابة؛ لأنّها معاوضة، فلا تصح إلا عن تراض، ثم إن الأمر هنا علق بقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ بأمر باطن وظاهر، فإذا قال العبد: كاتبني قال السيد: لم أعلم فيك خيرًا، وقيل بالوجوب، قال البخاري: قال روح، عن ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب عليَّ إذا علمت له مالًا أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجبًا. وقاله عمرو بن دينار: قلت لعطاء: تأثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: كاتبه، فأبى، فضربه بالدرة، ويتلو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، فكاتبه، والمراد بالخير: الدين والأمانة والأداء، وقيل: المال والقوة على الاكتساب، والقولان صحيحان، إلا أن الأول أقرب.

وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «جَاءَتْ بَرِيرَةُ، فَقَالَتْ: إِنِّي كَاتَبْتُ أَهْلِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ، فِي كُلِّ عَامٍ وَقِيَّةٌ؛ فَأَعِينِينِي. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ عَدَّةً وَاحِدَةً وَأُعْتِقَكِ فَعَلْتُ، وَيَكُونَ وَلَاؤُكِ لِي. فَذَهَبَتْ إِلَى أَهْلِهَا فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ ذَلِكِ عَلَيْهِمْ، فَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْوَلَاءُ لَهُمْ. فَسَمِعَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: خُذِيهَا فَأَعْتِقِيهَا، وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلَاءَ؛ فَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ: فَمَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ! فَأَيُّمَا شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ، فَقَضَاءُ اللهِ أَحَقُّ، وَشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ، مَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَعْتِقْ يَا فُلَانُ وَلِيَ الْوَلَاءُ! إِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ».

ويكون المكاتب عبدًا ما بقي عليه من مال الكتابة شيء؛ لقوله ﷺ كما عند أبي داود من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسند حسن: «الْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ مُكَاتَبَتِهِ دِرْهَمٌ». وهذا قول الجمهور، ولكن يُشكل عليه ما جاء عند النسائي بسند جيد عن علي، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله ﷺ قال: «الْمُكَاتَبُ يَعْتِقُ بِقَدْرِ مَا أَدَّى، وَيُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ بِقَدْرِ مَا عَتَقَ مِنْهُ، وَيَرِثُ بِقَدْرِ مَا عَتَقَ مِنْهُ»، والمعنى أنه يصير عتيقًا غريمًا، والأقرب القول الأول؛ لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قصة بريرة، قال رسول الله ﷺ: «اشْتَرِيهَا وَأَعْتِقِيهَا»، ولو كان فيها شيء من العتق ما أجاز بيع ذلك؛ إذ من سنته المجمع عليها أن لا يباع الحر، وكذلك كتابة سلمان، وجويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإن النبي ﷺ حكم لجميعهم بالرق حتى أدوا الكتابة، وأما توجيه حديث علي، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فلعله كان ذلك في أول الأمر، فإن عجز العبد عن المكاتبة فكل ما قبضه السيد منه من كتابته، وكذا ما فضل بيده بعد عجزه من صدقة وغيرها فهو لسيده، يطيب له أخذ ذلك كله، وهو الراجح من أقوال أهل العلم.

قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: إن عرفتم منهم الأمانة والرشد.

قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمر للسادة بإعانتهم في مال الكتابة، أو الحط عنهم شيئًا منه، وكذا هو خطاب للمؤمنين أجمعين في أن يتصدقوا على المكاتبين، وأن يعينوهم في فكاك رقابهم، فإن مات المكاتب فأولاده يسعون في باقي كتابته ويسقط منها قدر حصته، فإن أدوا عتقوا؛ لأنّهم كانوا فيها تبعًا لأبيهم، وإن لم يؤدوا ذلك رقُّوا.

قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ جاء عند الشيخين عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ يُقَالُ لَهَا: مُسَيْكَةُ، وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا: أُمَيْمَةُ، فَكَانَ يُكْرِهُهُمَا عَلَى الزِّنَى، فَشَكَتَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾».

قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس ﵄ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...». الحديث، وجاء عند مسلم من حديث أبي ذر ﵁ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: رَأَيْتُ نُورًا». وعند مسلم من حديث أبي موسى ﵁ قال: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ -وَفِي رِوَايَةٍ: يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ-، حِجَابُهُ النُّورُ -وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ-، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فالأول نوره سبحانه، بدأ به ثم ثنّى بذكر نوره وهداه في قلب من آمن به واتبع النور الذي أُرسل إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾، وسُمي نبيه نورًا، فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾.

قوله: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ أي: كوة في حائط غير نافذة، وأصلها: الوعاء يجعل فيه الشيء، والمشكاة أدَم كالدلو يُبرد فيها الماء، وهو على وزن مِفعله، كالمقراة، والمصفاة، وقيل: المشكاة: عمود القديد الذي فيه الفتيلة، وقيل: هي القنديل، والصواب الأول.

قوله: ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ أي: في المشكاة سراج وهاج.

قوله: ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي: هذا السراج الوهاج، والضوء المشرق في زجاجة صافية.

قوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ أي: كأنّها كوكب من در أو نجم مضيء، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب: دراري.

قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أي: يستمد الكوكب الدري وقوده من زيت الزيتون، وقد جاء عند الترمذي بسند حسن عن عمر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ، وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ».

قوله: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ أي: بصحراء، لا يظلها شجر ولا ظل ولا شيء، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، وإذا غربت غربت عليها، فهي شرقية غربية، وهو أجود لزيتها، وقيل: في وسط، لا في الشرق، ولا في الغرب، تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها صافيًا معتدلًا مشرقًا، والقول الأول أقرب، قيل: من بركتهما أن أغصانَهما تورق من أسفلها إلى أعلاها.

قوله: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ مبالغة في حسنه وصفائه وجودته.

قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة إلى ضوء الزيت،

وتركزت هذه الأنوار في المشكاة، فصارت كأنور ما يكون، فكذلك براهين الله تعالى واضحة، وهي برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه، كإرساله الرسل، وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل مُعتبر، فشبه الله تعالى نوره وبراهينه في قلب المؤمن بمصباح يوقد بزيت الزيتون المضيء، ويكون داخل زجاجة صافية لامعة، وهذا المصباح وما بداخله موضوع في مشكاة، أو شبّه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستمد به من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف.

قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جاء عند الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ». وعند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ، فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ، مَرْبُوطٌ عَلَى غِلافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ، يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ، يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ». قال ابن كثير: إسناده جيد.

قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿مِصْبَاحٌ﴾، وقيل: بـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، وقيل: التقدير: المصباح والزجاج والكوكب في بيوت الله، وقيل: الله في بيوت أذن الله أن ترفع، والأقرب القول الثاني، والمقصود بها: المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة، بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

قوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ أي: أمر وقضى، وحقيقة الإذن: العلم والتمكين دون حظر، فإن اقترن بذلك أمر وإنفاذ كان أقوى.

قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أي: تبنى وتُعْلى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾، وقد جاء في فضل بناء المساجد، قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند الشيخين من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ». وعند أبي داود بسند صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ، وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ».

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: يصلي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ أي: يسبحه رجال، أو يرتفع ﴿رِجَالٌ﴾ بالابتداء، والخبر: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾. وتخصيص الرجال بالذكر دلَّ على أن النساء لا حظ لهن في المساجد؛ إذ لا جمعة عليهن ولا جماعة، وأن صلاتَهن في بيوتهن أفضل، كما جاء عند أبي داود بسند جيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا». صححه ابن خزيمة وابن حجر.

قوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: تنتزع من أماكنها إلى الحناجر، فلا هي ترجع إلى أماكنها، ولا هي تخرج من هول يوم القيامة. والتقلب التحول، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم.

قوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم، وإلى أي ناحية يؤخذ بهم، كما كان يراه ويسمع به في الدنيا غيًا يراه رشدًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

قوله: ﴿كَسَرَابٍۭ﴾ أي: كالذي يُرى نصف النهار في اشتداد الحر كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض، وسمي السراب سرابًا لأنه يَسْرُب، أي: يجري كالماء، ويقال: سَرَب الفحل، أي: مضى وسار في الأرض. قال الشاعر:

فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُمْ كَلَمْحِ سَرَابٍ فِي الْفَلَا مُتَأَلِّقِ

قوله: ﴿بِقِيعَةٍ﴾أي: ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب، وأصل القاع: الموضع المنخفض، الذي يستقر فيه الماء، وجمعه: قيعان، وقيل: أقوع وأقواع.

قوله: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ الظمآن: العشطان، يقال: ظَمِئَ يَظْمَأُ ظمئًا، فهو ظَمْآن، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار يُعَوِّلون على ثواب أعمالهم، فإذا قدموا على الله تعالى

وجدوا ثواب أعمالهم مُحْبَطة بالكفر، كما لا يجد صاحب السراب إلا أرضًا لا ماء فيها، وهو عطشان، فيهلك أو يموت، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: وجده بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

قوله: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: جزاء عمله، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَض كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ! لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا. فَيُقَالُ: اشْرَبُوا. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ! لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا. فَيُقَالَ: اشْرَبُوا. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ...». الحديث.

قوله: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ أي: لا يدرك قعره، وهذا مثل آخر للكفار، واللجة: معظم الماء، والجمع: لُجَجٌ، والتج البحر، إذا تلاطمت أمواجه، قال تعالى: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ما له عمق، ولَجَّجَت السفينة، أي: خاضت في الماء، فأما اللجة فأصوات الناس، يقول: سمعت لجة، أي: أصواتًا وصخبًا.

قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ أي: يعلو ذلك البحر اللجي موج ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ وقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ أي: يجتمع خوف الموج، وخوف الريح، وخوف السحاب.

قوله: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي: ظلمة السحاب والموج والليل والبحر، فكلام الكافر ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة ظلمات. وقيل: المراد من هذا المثل تشبيه أعمال الكفار بالظلمات، وقلوبُهم بالبحر اللجي، وما يغشى قلوبَهم من الجهل والشك والحيرة بالأمواج التي فوق الأمواج، وما طبع وران على قلوبهم بالسحاب، وقيل: المثل الأول ضرب للدعاة إلى الكفر، وهذا المثل ضرب للجهال البسطاء من الكافرين، حيث لا يعرفون حال من يقودهم، ولا يدرون إلى أين يذهب بِهم، كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم. قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري!.

قوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: من شدة الظلمات.

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: حائر بائر، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾.

قوله: ﴿يُزْجِى سَحَابًا﴾ أي: يسوق إلى حيث شاء، والريح تزجي السحاب، والبقرة تزجي ولدها، أي: تسوقه، ومنه: زجا الخراجُ يزْجُو زجاءً، إذا تيسرت جبايته.

قوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يجمعه عند انتشائه ليقوى ويتصل ويَكْثُف، والأصل في التأليف: الهمز.

قوله: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: مجتمعًا يركب بعضه على بعض، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، والرَّكْم: جمع الشيء، يقال منه: رَكَم الشيء ركمًا، إذا جمعه، وألقى بعضه على بعض، وارْتَكَم الشيء وتراكم، إذا اجتمع، والركمة: الطين المجموع، والرُّكام: الرمل المتراكم، وكذلك السحاب وما أشبهه، ومُرْتَكَمُ الطريق: جادته.

قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ قيل: البرق، وقيل: المطر، وهو الصحيح، يقال: ودقت السحابة فهي وادقة، وودَقَ المطر يَدِق ودْقًا، أي: قَطَر، وَوَدَقْتُ إليه: دنوت منه، وفي المثل: ودق العَيْر إلى الماء، أي: دنا منه، يضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه، والموضع: مَوْدِق، وَوَدَقْتُ به وَدْقًا: استأنست به، ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل: وَدَقت تَدِق ودقًا وأوْدَقَتْ واسْتَودقت، وأتان ودُوق، وفرس وَدُوق ووَدِيق، وبها وداق، والوَدِيقة: شدة الحر، وخلال: جمع خَلَل، مثل الجبل والجبال، وهي فُرَجُه ومخارج القطر منه. وقد قيل: السحاب غِرْبال المطر، لولا السحاب حين ينْزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض.

قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قال بعض النحاة: ﴿مِن﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس، وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ معناه أن في السماء جبال من برد يُنْزل الله منها البرد، وأما من جعل الجبال هاهنا كناية عن السحاب فإن ﴿مِن﴾ الثانية عند هذا لابتداء الغاية، لكنها بدل من الأولى، وقيل: ينْزل الله من السماء مثل الجبال من برد، أو بردًا يكون كالجبال.

قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ أي: ضوء ذلك البرق الذي في السحاب.

قوله: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ من شدة بريقه وضوئه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن
مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ
ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى
ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ
ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ

﴿مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣﴾

قوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: يأتي بأحدهما بعد الآخر، وينقص هذا ويزيد هذا، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ (بِيَدِي الْأَمْرُ)، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: أهل البصائر والعقول، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ وقرئت: (خَالِقُ).

قوله: ﴿مِّن مَّآءٖۖ﴾ أي: من نطفة، ويستثنى من ذلك الملائكة والجن كما سبق، فالملائكة من نور، والجن من نار.

قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحيَّات، والحوت، ونحو ذلك من الدود وغيره.

قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالإنسان، والطير إذا مشى.

قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾ كسائر الحيوان.

قوله: ﴿مُذۡعِنِينَ﴾ أي: طائعين منقادين، يقال: أذعن فلان لحكم فلان يُذعِن إذعانًا، وقيل: مسرعين، والأول أقوى.

قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ أي: هل في قلوبهم نفاقٌ؟ أم شكوا في نبوته ﷺ.

قوله: ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ أي: يجور في الحكم ويظلم، وجاء بلفظ الاستفهام؛ لأنه أشد في التوبيخ وأبلغ في الذم.

قوله: ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بإسكان القاف على نية الجزم. قال الشاعر:

وَمَـــنْ يَتَّـــقْ فَـــإِنَّ اللهَ مَعَـــهُ ... وَرِزْقُ اللهِ مُؤْتَـــابٌ وَغَـــادِي

وقرئت بكسر القاف: (ويتّقِهِ) لأن جزمه بحذف آخره.

قوله: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ تم الكلام.

قوله: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ أي: الطاعة أولى بكم من إيمانكم، أو ليكن منكم طاعة معروفة وقول معروف بإخلاص القلب، ولا حاجة إلى اليمين، وقد علم طاعتكم، إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، فهم من سجيتهم الكذب فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ

لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: من تبليغ الرسالة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

قوله: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: من الطاعة له.

قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقد أنجز الله وعده، قال رسول الله ﷺ كما جاء عند أبي داود بسند لا بأس به من حديث سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ: «خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ. قَالَ سَعِيدٌ: قَالَ لِي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ: أَبُو بَكْرٍ سَنَتَيْنِ، وَعُمَرُ عَشْرًا، وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَعَلِيٌّ كَذَا». وَفِي حَدِيثِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنهما، قال ﷺ: «إِنَّمَا بَدْءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ كَائِنٌ خِلَافَةً وَرَحْمَةً، ثُمَّ كَائِنٌ مُلْكًا عَضُوضًا، ثُمَّ كَائِنٌ عُتُوًّا وَجَبْرِيَّةً وَفَسَادًا فِي الْأُمَّةِ، يَسْتَحِلُّونَ الْخُمُورَ وَالْفُرُوجَ، وَفَسَادًا فِي الْأُمَّةِ، يُنْصَرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيُرْزَقُونَ، حَتَّى يَلْقَوُا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ». رواه إسحاق بن راهويه وحسنه ابن حجر. وعند مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا...». الحديث.

وقد منّ الله على أهل الإسلام بأن ألهم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يستخلف عمر الفاروق رضي الله عنه، فقام بالأمر بعده قيامًا تامًا، وقد تم في أيامه فتح البلاد الشامية، والمصرية، وأكثر إقليم فارس، فكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر الله ﷻ بذلك، ووعد به رسوله عليه من ربه أتم صلاة وأزكى تسليم.

قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ جاء عند أحمد من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالنَّصْرِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ-، وَالتَّمْكِينِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي الْبِلَادِ-، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ». وجاء عند أحمد بسند صحيح عن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ: عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الكُفْرَ». وعند البخاري من حديث خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إِلا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

قوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وقد جاء عن أُبَيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ، وَآوَتْهُمُ الْأَنْصَارُ، رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، كَانُوا لَا يَبِيتُونَ إِلَّا بِالسِّلَاحِ وَلَا يُصْبِحُونَ إِلَّا فِيهِ، فَقَالُوا: تَرَوْنَ أَنَّا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمِنِيْنِ مُطْمَئِنِّينَ لَا نَخَافُ إِلَّا اللهَ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يَعْنِي بِالنِّعْمَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾».

قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ جاء عند الشيخين من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ! قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ. فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ».

قوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الأمر هنا للوجوب، وقيل: للاستحباب، والأول أقوى.

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: من قبل الغداة؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم.

قوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك

الحال مع أهله.

قوله: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ روى مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلاتِكُمُ الْعِشَاءِ، فَإِنَّهَا فِي كِتَابِ اللهِ الْعِشَاءُ، وَإِنَّهَا تُعْتِمُ بِحِلابِ الإِبِلِ».

وأمر بالاستئذان لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال؛ لما يخشى أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾، وقد روى أبو داود بسند حسن عن عكرمة: «أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، كَيْفَ تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أُمِرْنَا فِيهَا بِمَا أُمِرْنَا، وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ؟ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ إِلَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللهَ حَلِيمٌ، رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، يُحِبُّ السَّتْرَ، وَكَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِبُيُوتِهِمْ سُتُورٌ وَلَا حِجَالٌ، فَرُبَّمَا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوِ الْوَلَدُ أَوْ يَتِيمَةُ وَالرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ، فَجَاءَهُمُ اللهُ بِالسُّتُورِ وَالْخَيْرِ، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا يَعْمَلُ بِذَلِكَ بَعْدُ». فالآيات السابقة كانت في استئذان الأجانب بعضهم على بعض، وأما هذه الآيات فهي استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وهي آيات محكمة.

قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ أي: هي ثلاثة أوقات، التكشف فيها غالب، فعلِّموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألاّ يدخلوا عليكم في هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان.

قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾ أي: في الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذلين.

قوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي: يطوفون عليكم وتطوفون عليهم، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند أبي داود وغيره من حديث أبي قتادة رضي الله عنه بسند صحيح في الهرة: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾

قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ أي: أن الأطفال أُمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة، وأبيح لهم في غير ذلك كما ذكرنا، ثم أمر الله عز وجل في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت.

قوله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ واحدتُها: قاعد، بلا هاء؛ ليدل حذفها على أنه قعود الكبر، كما قالوا: امرأة حامل؛ ليدل بحذف الهاء أنه حمل حَبَل، وقالوا في غير ذلك: قاعدة في بيتها، وحاملة على ظهرها، بالهاء، والقواعد: العجز اللواتي قعدن عن التصرف من السن، وقعدن عن الولد، والمحيض، التي إذا رأيتها تستقذرها من كِبرها، وتنصرف نفسك عن النظر إليها، ولذا أبيح لهن ما لم يبح لغيرهن، وزالت عنهن الكلفة، قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾، وجاء عند أبي داود بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ. .﴾ الآية، فنسخ من ذلك، واستثني ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ وقد سبق ذكره. والثياب هي الخمر والجلابيب، والعرب تقول: امرأة واضع، للتي كبرت فوضعت خمارها.

قوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات ولا متعرضات بالزينة لِيُنْظَر إليهن؛ لأن لكل ساقطة لاقطة، والتبرج: التكشف والظهور للعيون، ومنه: ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، وبروج السماء، والأسوار، أي: التي لا حائل دونَها يسترها، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ، مَائِلاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». فقوله: «كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ» لأن الثياب التي اكتسين بها أبدى لمحاسنهن؛ لرقتها وضيقها، وقيل: «كَاسِيَاتٌ» من الثياب، «عَارِيَاتٌ» من لباس التقوى، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. قال الشاعر:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى ... تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَلَوْ كَانَ كَاسِيَا
وَخَيْرُ لِبَاسِ المَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ ... وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ كَانَ لِلهِ عَاصِيَا

وقوله ﷺ: «كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ» البخت: ضرب من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة، شبه رؤوسَهنّ بها، لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ. قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الدِّينَ»، فتأويله ﷺ القميص بالدين مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، والعرب تكني عن الفضل والعفاف بالثياب، وقد قال

رسول الله ﷺ كما جاء عند الترمذي بسند حسن من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا عُثْمَانُ، إِنَّهُ لَعَلَّ اللهَ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ لَهُمْ». فعبّر عن الخلافة بالقميص، وهي استعارة حسنة معروفة، ولكن القول الأول أقوى وأقرب.

قوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: وترك وضعهن لثيابهن وإن كان جائزًا خير وأفضل لهن.

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهي رخصة لهم من أجل ضعفهم وعجزهم.

قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ابتداء كلام، أي: ولا عليكم أيها الناس، ولكن لما اجتمع المخاطب وغير المخاطب غلّب المخاطب؛ لينتظم الكلام، وقد ذكر سبحانه بيوت القرابات ولم يذكر بيوت الأبناء لأنّها داخلة في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾، فبيت الولد هو بيت للوالد، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي مَالًا وَوَلَدًا، وَإِنَّ وَالِدِي يَجْتَاحُ مَالِي، قَالَ: أَنْتَ وَمَالُكَ لِوَالِدِكَ».

قوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ استدل به من يوجب النفقة على الأقارب، كما هو مذهب أبي حنيفة، والإمام أحمد في المشهور عنهما.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي: مما اختنزتم وصار في قبضتكم، وعظم ذلك: ما ملكه الرجل في بيته وتحت غَلَقه، ويدخل في ذلك الوكلاء، والعبيد، والأجَرَاء، وقد أجمع العلماء على أن الخازن له أن يأكل مما يُخزن إذا لم تكن له أجرة، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حرم عليه الأكل.

قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ بمعنى الجمع، وكذلك العدو، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾. والصديق من يصدقك في مودته، وتصدقه في مودتك، وقد ذكر الله ﷻ الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة؛ لأن قرب المودة لَصِيق، وقد قيل: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى استغاثة أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، وفي المثل: أيهما أحب إليك، أخوك أم صديقك؟ قال: أخي إذا كان صديقي، وقد جاء عند البزار من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرْغَبُونَ فِي النَّفِيرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَدْفَعُونَ مَفَاتِيحَهُمْ إِلَى ضُمَنَائِهِمْ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ: قَدْ أَحْلَلْنَا لَكُمْ أَنْ تَاكُلُوا مَا أَحْبَبْتُمْ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَنَا، إِنَّهُمْ أَذِنُوا عَنْ غَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي: منفردين، وقد كان الرجل لا يأكل وحده، وربما مكث جائعًا حتى يجد من يؤاكله. قال الشاعر:

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ ... أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

وكانوا لا يأكلون إلا مع ضيوفهم إذا كان عندهم ضيوف، و ﴿جَمِيعًا﴾ منصوب على الحال، و﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شت، والشت مصدر بمعنى التفرق، يقال: شت القوم، أي تفرقوا، وهذه رخصة، وإلا فالأفضل الاجتماع في الأكل؛ لبركة ذلك، وقد جاء عند أبي داود: «أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ! قَالَ: فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟ قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ؛ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ». حديث صحيح، رواه أبو داود من حديث وحشي بن حرب رضي الله عنه.

قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أيْ: أيّ بيت، مسجدًا كان أو بيتًا مسكونًا أو غير مسكون، سواء كان للغير أو للنفس.

قوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: قولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ لأن فيها الدعاء، واستجلاب مودة المسلَّم عليه، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها، وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد بسند حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ غَيْرَ الْمَسْكُونِ فَلْيَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ». وعند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ».

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ الكاف للتشبيه، و ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى هذه السنن، أي: كما بين لكم سنة دينكم في هذه الأشياء، يبين لكم سائر ما تحتاجون إليه في دنياكم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إِنَّمَا: أداة حصر، والمعنى: لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله، إلا بأن يكون للرسول سامعًا مطيعًا راضيًا مقتنعًا مستسلمًا.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ لإذاعة مصلحة، وإقامة سنة في الدين، أو لترهيب عدو باجتماعهم للحروب أو للمشورة، أو لأي شيء يحتاجه المسلمون، قال الزهري: الجمعة من الأمر: الجامع، وكذا العيد، وغير ذلك من الاجتماعات التي يلزم فيها الاستئذان.

قوله: ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ لأنه إذا ذهب بإذنه ارتفع عن الظن السيئ.

قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ كما قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، فالأدب السامي مع النبي الكريم أن يُدعى بـ: يا نبي الله، أو يا رسول الله، لا بـ: يا محمد، أو يا أبا القاسم، ويكون ذلك بصوت ملؤه الإجلال والتقدير والإكبار، في ليونة ورفق، لا رعونة ولا خشونة فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، وقيل: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره؛ فإن دعاءه مستجاب، ودعوته مجابة، فاحذروا أن يدعو عليكم، فتهلكوا، والقول الأول هو الحق.

قوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي: يخرجون متسترين مخافة أن يُروا.

قوله: ﴿مِنكُمۡ لِوَاذٗا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: متلاوذين، يلوذ بعضهم ببعض، وينتظم إليه استتارًا من رسول الله ﷺ، ويكون ذلك عند الجمعة، وعند الجهاد وغير ذلك من الأعمال الشاقة والثقيلة على المنافقين. يقال: لاوذ يلاوذ ملاوذة ولِواذًا، ولاذ يلوذ لِواذًا ولِياذًا، انقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها اتباعًا للاذ في الاعتلال، فإذا كان مصدر فاعل لم يُعل؛ لأن الفاعل لا يجوز أن يُعل.

قوله: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ وهذه حجة الفقهاء على أن الأمر الشرعي أصله الوجوب؛ والضمير في قوله: ﴿أَمۡرِهِۦٓ﴾ قد يكون عائدًا إلى الله ﷻ، وقد يكون عائدًا إلى الرسول ﷺ، وهو الأقرب والأظهر. و ﴿يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: يعرضون، و ﴿عَنۡ﴾ إما صلة، كما قال أبو عبيدة والأخفش، أي: يخالفون أمره، أو بمعنى بعد، وهو اختيار الخليل وسيبويه، والمعنى: يخالفون بعد أمره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: بعد أمر ربه.

قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ في موضع نصب بـ ﴿يَحۡذَرۡ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». والفتنة قد تكون قتلًا، أو وقوعًا في شبهات وبدع ونفاق.

انتهى تفسير سورة النور، ولله الحمد.

  

سورة الفرقان

وهي مكية كلها في قول الجمهور، وقيل: إلا آيات ثلاث.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ① ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ② وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ③ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ⑧ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ⑨ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ⑩ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ⑪﴾

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة والكثرة من كل خير وعطاء وإنعام، وقيل: دام وثبت إنعامه، يقال: برك الشيء، إذا ثبت، ومنه: برك الجمل، والطير على الماء، أي: دام وثبت، والمعنيان معتبران. قال الشاعر:

تَبَارَكْتَ لَا مُعْطٍ لِشَيْءٍ مَنَعْتَهُ ... وَلَيْسَ لِمَا أَعْطَيْتَ يَا رَبِّ مَانِعُ

وقال آخر:

تَبَارَكْتَ مَا تُقَدِّرُ يَقَعُ وَلَكَ الشُّكْرُ

قوله: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن؛ لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، والحلال والحرام، كقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، وكل كتاب منْزل له نصيب من هذا الاسم، قال تعالى عن التوراة: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يميتون أحدًا ولا يحيونه، والنشور: الإحياء بعد الموت، أنشر الله الموتى، فنشروا، وقد تقدم.

قوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ أي: بظلم، وقيل: أتوا ظلمًا.

قوله: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تلقى عليه وتقرأ حتى يحفظها، وأصل ﴿تُمْلَىٰ﴾: تُمْلَلَ، فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف.

قوله: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: صباحًا ومساءً.

قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ أي: إلى إثبات تصحيح ما قالوه فيك.

قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ أي: هيأنا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾

قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ أي: فيها ﴿تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ للمعذبين، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾، وقد أخرج أبو جعفر الطبري بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَتَنْزَوِي وَيَنْقَبِض بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَيَقُولُ لَهَا الرَّحْمَنُ: مَا لَكِ؟ فَتَقُولُ: إِنَّهُ لَيَسْتَجِيرُ مِنِّي فَيَقُولُ: أَرْسِلُوا عَبْدِي وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا كَانَ هَذَا الظَّنَّ بِكَ فَيَقُولُ: فَمَا كَانَ ظَنُّكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْ تَسَعَنِي رَحْمَتُكَ قَالَ: فَيَقُولُ أَرْسِلُوا عَبْدِي وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ النَّارُ شُهُوقَ الْبَغْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ، وَتَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ».

قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مصفدين، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، مع كل واحد شيطانه، وقد سبق في سورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ أي: هلاكًا وويلًا وخسارًا، وانتصب على المصدر، أي: ثبرنا ثبورًا، وقيل: مفعول به، قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ أي: هالكًا.

قوله: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ أي: مراتٍ ومراتٍ، وفيه إقناطٌ لهم من استجابة الدعاء وتخفيف العذاب.

قوله: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، فإن قيل: لا خير في النار فكيف يقال هذا؟ فالجواب: قال سيبويه: حُكي عن العرب قولهم: الشقاء أحب إليك أم السعادة؟ وقد علم أن السعادة أحب إليه. وقيل: ليس هو من باب أفعل منك، وإنما هو كقولك: عنده خير.

قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ أي: لا بد أن يقع، فهو وعد واجب، وسيسألونه هذا الوعد، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، قالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجن، والمسيح عليه السلام، وعزير، والأصنام، والشمس، والقمر، وكل معبود من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾ أي: المعبودون من دون الله.

قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك عمّا لا يليقُ.

قوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ أي: في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت رسلهم.

قوله: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أي: هلكى لا خير فيهم، وهو مأخوذ من البوار، وهو الهلاك، أو مأخوذ من بوار الأرض وتعطيلها من الزرع، فلا يكون فيها خير، وهو اسم مصدر، كالزور، يستوي فيه الواحد، والاثنان، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وقيل: الواحد بائر، والجمع بور، كما يقال: عائذ وعُوذ، وهائد وهود.

قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا﴾ أي: للعذاب.

قوله: ﴿وَلَا نَصۡرٗا﴾ أي: من الله.

قوله: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ﴾ إذا دخلت اللام على خبر، إن لم يكن في إن إلا الكسر، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضًا إلا الكسر؛ لأنّها مستأنفة، هذا قول جميع النحويين، والمعنى: وما أرسلنا قبلك رسلًا إلا إنّهم ليأكلون الطعام، ثم حذف رسلًا؛ لأن في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ما يدل عليه.

قوله: ﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ أي: يتجرون ويحترفُون، وقد قال رسول الله ﷺ كما ثبت عنه: «جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي». رواه أحمد من حديث ابن عمر رضي الله عنه. وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا»، وعند مسلم من حديث المقدام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ». وهذه الآية أصل في تناول الأسباب، وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ».

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس، مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني، والمقصود أن كل واحد مختبر لصاحبه، فالغني عليه أن يواسي الفقير ولا يسخر منه، وعلى الفقير ألا يحسد الغني، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على ما كتبه الله له، وقد قيل: ويل للعالم من الجاهل، وويل للجاهل من العالم، وويل للمالك من المملوك، وللمملوك من المالك، وويل للشديد من الضعيف، وللضعيف من الشديد، وويل للسلطان من الرعية، وللرعية من السلطان، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ كما في الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ».

قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: على الحق أم لا تصبرون؟ قال بعض السلف حين سمعه: بلى ربنا، نصبر ونحتسب. وقيل: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: اصبروا، مثل: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: انتهوا.

قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾، وكذا من يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك.

  

الْمُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل

العُشْر السابع

يَحْيى بن عَبْد العَزيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يخافون البعث ولقاء الله، ولا يؤمنون بذلك. وقيل: لا يأملون.

قوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ أي: هلّا ذلك، نظير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾.

قوله: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ حيث سألوا الشطط؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو نزول العذاب، والله تعالى مستحيلة رؤيته في الدنيا، فقد قال لنبيه موسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ أي: كفرًا شديدًا، وظلمًا فاحشًا.

قوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت، والعذاب، فتبشر المؤمنين بالجنة والنصر، وتبشر الكافرين بسخط الله والهلاك.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ أي: تقول الملائكة: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، لا بشرى إلا للمؤمنين، وأصل الحجر: المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان، إذا منعه التصرف، إما لإفلاس، أو

سفه، أو صغر، أو نحو ذلك، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطُّوَّاف أن يطوفوا فيه، وإنما يطاف من ورائه، ومنه يقال للعقل: حجر؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق، وقيل: هي من مقولة الكفار للملائكة، وهي كلمة استعاذة، وكانت معروفة في الجاهلية، فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال: حجرًا محجورًا، أي: حرام عليك التعرض لي، والقول الأول أقوى وأقرب، وانتصبت على معنى حجرت عليك، أو حجر الله عليكم، كما تقول: سقيا، ورعيا وهو المفعول المطلق.

قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي: قصدنا، يقال: قدم فلان إلى أمر كذا، أي: قصده، وقيل: عمدنا. كما قال الشاعر:

وَقَـــــدِمَ الْخَـــــوَارِجُ الضُّـــــلَّالُ إِلَـــــى عِبَـــــادِ رَبِّهِـــــمْ وَقَـــــالُوا

إِنَّ دِمَاءَكُمْ لَنَا حَلَالُ

قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي: لا ينتفع به لبطلانه بالكفر، وليست هباء من ذوات الهمز، وإنما همزت لالتقاء الساكنين، والتصغير: هُبَيٌّ، وواحده: هباءة، والجمع: أهباء.

وقيل: الهباء المنثور: الشعاع الشمسي الذي يدخل من الكوة، أما الهباء المنبعث المتفرق فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار، ويقال له إذا ارتفع: هَبَا يَهْبُو هُبُوًا، وأهبيته أنا، والهبوة: الغبرة، يقال: موضعٌ هابي التراب، أي: كأن ترابه مثل الهباءِ في الدقة، وقيل: ما ذرته الريح من يابس أوراق الشجر، وقيل: الرماد، وقيل: الماء المهراق، والقول الأول هو الصحيح، وقد سبق المقصود بهذه الآية عند قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ منصوب على الظرفية.

قوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: منزلًا ومأوى.

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: واذكر ذلك، وقرئت: (تتشقق).

قوله: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: عن الغمام؛ لأن الباء وعن يتعاقبان، تقول: رميت بالقوس، وعن القوس، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، ويأتي الله تبارك وتعالى إتيانًا يليق بجلاله وعظمته في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديدًا صعبًا؛ لأنه يوم عدل وقضاء وفصل، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا

يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾، وكما في الحديث الحسن: «يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ». يقال: عَسِر يَعْسَر، وعسُر يعسُر.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ﴾ الماضي: عضِضت، وحُكي: عضَضت.

قوله: ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ أجمع أهل التفسير على أنه عقبة بن أبي معيط، وخليله أمية بن خلف، وكانا صديقين، وكان عقبة قد همّ بالإسلام، فمنعه منه أُبي، وقد قُتلا جميعًا؛ فعقبة قتل يوم بدر، وأبي قتل يوم أحد، والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فهي لكل ظالم وخليله.

قوله: ﴿عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ كنايةٌ عن الندم والحسرة.

قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ أي: طريقًا إلى الجنة، قال الشاعر:

تَجَنَّبْ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... فَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ
وَفِي الشَّيْبِ مَا يَنْهَى الْحَلِيمَ عَنِ الصِّبَا ... إِذَا اشْتَعَلَتْ نِيرَانُهُ فِي عِذاره

وقال آخر:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ ... خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ عَفِيفَا
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِمَ ميزتها ... فَوَجدت منها فِضَّة وزُيوفا

وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً». وعند أبي داود بسند حسن من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ». قال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الحلوى والتمر والسمن مع الفجار.

قال الشاعر:

وَصَاحِبْ خِيَارَ النَّاسِ تَنْجُ مُسَلَّمَا ... وَصَاحِبْ شِرَارَ النَّاسِ يَوْمًا فَتَنْدَمَا

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ أي: تاركًا له في أحلك المواقف وأشد الأزمات، ومنه خذلان إبليس للمشركين لما ظهر لهم في صورة سراقة يوم بدر، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أي: متروكًا، فلا يصغون إليه ولا يستمعون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ نصب على الحال، أو التمييز، أي: يهديك وينصرك، فلا تبال بمن عاداك.

قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: كما نزلت الكتب الإلهية المتقدمة.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: أنزلناه منجمًا مفرقًا، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ ليطمئن قلبك وقلب كل مؤمن بك، فتعِيَه وتحمله.

قوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: رسَّلناه ترسيلًا، شيئًا بعد شيء، وبيناه تبيينًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: لا يأتي الكفار بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﷺ إلا أُتوا بما يفند أقوالهم، ولا يأتيك المسلمون بما يسألون عنه إلا أجبتهم إلى سؤالهم، ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وما هذا إلا الاعتناء الكبير بالرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحًا ومساءً، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، وكذا هو اعتناء عظيم بالقرآن الكريم، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك منجمًا بحسب الوقائع والأحداث، وقد سبق بيان ذلك.

قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: تفصيلًا، والمعنى: أحسن من مَثَلهم تفصيلًا، فحُذف لعلم السامع.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قيل: هم أصحاب الأخدود، كما رجحه ابن جرير، وقد حفروا الأخاديد، وحرقوا فيها المؤمنين؛ لأن الرس في كلام العرب: البئر التي تكون غير مطوية، والجمع: رِسَاس، والرس: اسم واد. قال الشاعر:

بَكَرْنَ بُكُورًا وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ ... فَهُنَّ لِوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ

يقال: رسست رسًا، أي: حفرت بئرًا، ورُسَّ الميت، أي: قبر، والرّس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضًا، وقد رَسَسْتُ بينهم، فهو من الأضداد، وقيل: هم أصحاب يس، الذي قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

فقتلوه ورسُّوه في بئر لهم يقال له: الرس، طرحوه فيها، وفي الصحاح: الرس: اسم بئر كانت لبقية من ثمود، والقولان الأولان واردان، والأول أقوى.

قوله: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا بالعذاب إهلاكًا، وتبرت الشيء: كسرته.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني المشركين.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: قرية قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ أي: في أسفارهم وتجاراتِهم التي تمر بمدائن قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾.

قوله: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يصدقون، أو لا يخافون، أو على بابه، لا يرجون ثواب الآخرة، والأول أولى.

قوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: قالوا: قد كاد أن يصرفنا.

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: حبسنا أنفسنا على عبادتِها.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: أريت يا محمد الذي يغلب هواه على طاعته، كمن يغلب شهوة النوم على صلاة الفجر، وقد كانت العرب إذا هوي الرجل منهم شيئًا عبده من دون الله، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبَدَ الأحسن، وقد قال بعض السلف: الهوى إله يعبد من دون الله، ثم تلا هذه الآية.

قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظًا وكفيلًا حتى تَهديه؟ فليس لك ذلك، وإنما عليك البلاغ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أي: بل.

قوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأن الأنعام لا عقول لها، ومن ثم لا حساب عليها ولا عقاب، ثم هي

تعرف ربّها، وتَهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابِها التي تعقلها، وهؤلاء لا ينقادون لربّهم، ولا يعرفون قدر خالقهم ورازقهم.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقيل: من غيوب الشمس إلى طلوعها، والأول الصحيح، وقد قيل: الظل بالغداة، والفيء بالعشي؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس، وسمي فيئًا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب، وقيل: الظل: ما نسخته الشمس، والفيء: ما نسخ الشمس، وقيل: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، ومالم تكن عليه الشمس فهو ظل.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائمًا مستقرًا، لا تنسخه الشمس، أو لمنع الشمس من الطلوع.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: جعلنا الشمس ينسخها الظل عن مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها، ولولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة، فالدليل فعيل، بمعنى الفعول، وقيل: بمعنى المفعول، كالقتيل، والرهين، أي: دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به، وأتبعناها إياه، فالشمس دليل وحجة وبرهان، والدليل هو الذي يكشف المشكل ويوضحه، ولم يؤنث الدليل، وهو صفة للشمس؛ لأنه في معنى الاسم، كما يقال: الشمس برهان، والشمس حق.

قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: الظل الممدود.

قوله: ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: يسيرًا قبضه علينا، وقيل: ﴿يَسِيرًا﴾ أي: سريعًا وخفيًا، كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزءًا من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: سترًا للخلق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، فهو يقوم مقام اللباس في ستر البدن، وسمي بذلك لأنه يستر الأشياء ويغشاها.

قوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال، وأصل السبات من التمدد، يقال: سبّت المرأة شعرها، أي: نقضته وأرسلته، ورجل مسبوب، أي: ممدود الخلقة. قال الخليل: السبات: نوم ثقيل، أي: جعلنا نومكم ثقيلًا ليكمل الإجمام والراحة.

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ من الانتشار للمعاش، وكان رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري من حديث حذيفة، ورواه مسلم من حديث البراء رضي الله عنه إذا استيقظ من النوم قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أي: يتطهر به، كما يقال: وَضوء بالفتح، للماء الذي يُتوضأ به، وكل طهور طاهر، وليس كل طاهر طهورًا، فالطّهور بفتح الطاء: الاسم، والطهور والوضوء بالضم: المصدر، وهو المعروف في اللغة. فالماء المنْزل من السماء طاهر بنفسه، مطهر لغيره، وقيل: ﴿طَهُورًا﴾ بمعنى طاهر، قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يعني طاهرًا.

وتوجيه الآية أن شراب الجنة طهور من أوضار الذنوب، وخسائس الصفات، كالغل ونحوه.

وقد أجمعت الأمة على أن وصف طهور إنما يختص بالماء، ولا يتعدى إلى سائر الموائع، وهي طاهرة، فكان اقتصارهم بذلك على الماء أول دليل على أن الطهور هو المطهِّر، وأما قول العرب: نؤوم، وليس ذلك بمعنى أنه مُنيم لغيره، يقال: هذا من باب المبالغة، وتكون في الفعل المتعدي، وقد تكون في الفعل اللازم، وهنا يقال: «المَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ»، كما جاء عند أبي داود، والترمذي، وغيرهما بسند صحيح من حديث أبي سعيد ﵁ مرفوعًا، كما أنه لا يجنب، كما جاء مرفوعًا عن ابن عباس ﵄ عند أبي داود والترمذي بسند جيد، وقال ﷺ: «إِذَا كَانَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلِ الْخَبَثَ». رواه أبو داود بسند جيد من حديث ابن عمر ﵄.

ولكن متى ما تغير لونه، أو ريحه، أو طعمه بنجاسة تحدث فيه نجس، سواء كان قليلًا أو كثيرًا فإنه يخرج عن طهوريته، وإذا لم يتغير بقي على طهوريته، قلّ أو كثر، فالحكم يدور مع العلة وجوبًا وعدمًا، وأما إذا أضيف فقد خرج عن الطهور إلى الطاهر، فيقال: ماء الورد، وماء العنب ونحو ذلك، فلا يجوز الطهارة فيه مطلقًا، لا في رفع الحدث، ولا إزالة الخبث.

قوله: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي: بشرًا كثيرًا، و ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ واحده: إنسي، وقيل: إنسانًا، ثم تبدل من النون ياءً، فتقول: أناسي، والأصل: أناسين، مثل: سِرحان وسراحين، وبستان وبساتين، فجعلوا الياء عوضًا من النون، فلا يجوز أن يقال: سراحي، وبساتي، لا فرق بينهما.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: القرآن.

قوله: ﴿كُفُورًا﴾ أي: جحودًا له وتكذيبًا به، وقيل: هو المطر، كما جاء عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم بسند صحيح: «مَا عَامٌ بِأَكْثَرَ مَطَرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللهَ يُصَرِّفُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ؛ قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾». رواه الطبري والبيهقي، ويُروى مرفوعًا. والقول الأول هو الأظهر؛ لقوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، والقول الثاني وجيه، ويكون قوله سبحانه: ﴿كُفُورًا﴾ كما جاء عند الشيخين من حديث زيد بن خالد الجهني ﵁ قال: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ:

وَبِرِزْقِ اللهِ)؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلى وخلط وأرسل وأفاض أحدهما في الآخر، فهما يلتقيان، يقال: مرجته، إذا خلطته، ومرج الدين والأمر: اختلط واضطرب، ومنه قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَمۡرٍ مَّرِيجٍ﴾، ومنه قوله ﷺ عند أبي داود والترمذي والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ أَوْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ -أَوْ: يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ- يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، يَبْقَى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا -وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ-! قَالُوا: كَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِكُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: خَاصَّتِكُمْ-، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ».

قوله: ﴿هَٰذَا عَذۡبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: حلو شديد العذوبة.

قوله: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: فيه ملوحة ومرارة.

قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخًا﴾ أي: حاجزًا، من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه، كما قال في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٌ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾.

قوله: ﴿وَحِجۡرًا مَّحۡجُورًا﴾ أي: سترًا مستورًا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، وقيل: حرامًا محرمًا أن يعذب هذا الملح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالملح.

قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًا﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج، فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، واشتقاق الصهر من صهرت الشيء، إذا خلطته، فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه، فسميت المناكح صهرًا لاختلاط الناس بها، وقيل: الصهر: قرابة النكاح، فقرابة الزوجة: الأختان، وقرابة الزوج: الأحماء، والأصهار يقع عامًا لذلك كله، ويقال لزوج ابنة الرجل: الصهر، وكذا أخوه، وأبوه، وعمه.

قوله: ﴿ظَهِيرًا﴾ أي: معينًا للشيطان على المعاصي والشرك، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾، وقيل: هينًا ذليلًا، لا قدر له، ولا وزن، من قول العرب: ظَهَرت به، أي: جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ أي: هينًا. والقول الأول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِى

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ
فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استثناء منقطع، أي: لكن من شاء أن ينفق من ماله في سبيل الله فلينفق، وقيل: الاستثناء متصل، والتقدير: قل ما أسألكم عليه من أجر إلا أَجْرَ من شاءَ أن يتخذ إلى ربه سبيلًا، والأول هو الصحيح.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: حسبك أن الله تعالى مطَّلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيء منها.

قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ أي: فاسأل عنه، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: عن عذاب واقع. قال الشاعر:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

قوله: ﴿خَبِيرًا﴾ قيل: الله، والمعنى: ما جاء في كتابه، وهو الصحيح، وقيل: غير الله ممن هو عالم بأسمائه وصفاته، ولا أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، وهو قول مرجوح.

قوله: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسم الرحمن.

قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادهم قول القائل ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ نفورًا عن الدين، قال سفيان الثوري عن هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعًا ما زاد عداك نفورًا.

قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ أي: الشمس، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، وقرئت: (سُرُجًا)، أي: النجوم العظام الوقادة.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف الليل النهار، والعكس، فالخلفة: كل شيء بعد شيء، ويقال للمبطون: أصابته خِلفة، أي: قيام وقعود، يخلف هذا ذلك، ومنه: خلفة النبات، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف.

قوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكر ويعتبر في مصنوعات الله، وقيل: جعلهما الله توقيتًا لعبادة عباده له، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار، استدركه في الليل، وقد جاء عند

مسلم من حديث أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». وعند مسلم من حديث عمر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ».

قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار وقصد وتؤدة، متواضعين، وقد قال رسول الله ﷺ حين دفعوا من عرفة: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ». رواه البخاري من حديث ابن عباس ﵄. فإن قيل: جاء عند مسلم من حديث أنس ﵁ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ». أي: كما تكفأ السفينة يمينًا وشمالًا، قيل: لكنه برفق وتثبت، دون عجلة، كما في الرواية الأخرى عند الترمذي بسند صحيح من حديث علي ﵁: «كَأَنَّمَا انْحَطَّ مِنْ صَبَبٍ». وأما ما كان من عمر بن الخطاب ﵁ فإنه كان يسرع جبلة، لا تكلفًا. والمقصود أن عباد الرحمن لا يمشون مرحًا واختيالًا وإعجابًا، وإنما بالطاعة والمعروف والتواضع؛ لأنه رب ماش هونًا رويدًا وهو ذئب أطلس، أخبث ما يكون من الذئب الذي تساقط شعره من شره. كما قال الشاعر:

كُلُّهُــــــمْ يَمْشِـــــــي رُوَيْـــــدَا ... كُلُّهُـــــــمْ يَطْلُـــــــبُ صَـــــــيْدَا

وأما عبد الرحمن ففيه قال الشاعر:

تَوَاضَـعْتُ فِـي الْعَلْيَـاءِ وَالْأَصْـلُ كَـابِرٌ ... وَحُزْتُ قِصَابَ السَّبْقِ بِالْهَوْنِ فِي الْأَمْرِ

سُـكُونٌ فَـلَا خُبْـثَ السَّـرِيرَةِ أَصْـلُهُ ... وَجُـلُّ سُـكُونِ النَّـاسِ مِـنْ عِظَـمِ الْكِبْـرِ

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: لم يقابلوا السيئة بالسيئة، وإنما بالحسنة، وقد جاء في الحديث الحسن عند أحمد عن النعمان بن مقرن ﵁: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ.- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ؛ كُلَّمَا يَشْتُمُكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ. وَإِذَا قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا، بَلْ لَكَ أَنْتَ، أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ». والعرب تقول: سلامًا، أي: تسلُّمًا منك وبراءة، منصوب إما بـ﴿قَالُواْ﴾، أو بالمصدرية، وهذا قول سيبويه، والمقصود أنه في تعاملهم مع الجهال إنما هو رد بمعروف، وقولٌ في سداد، وحلم مع علم، كما كان رسول الله ﷺ، لا تزيده شدة الجاهل إلا حلمًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وقال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. يقال: بات الرجل يبيت، إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم. قال الشاعر:

فَبِتْنَا قِيَامًا عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا ... يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنُزَاوِلُهُ

وهذه الصفة من أعظم صفات المؤمنين السبّاقين، وأشدها على نفوس العجزة البطالين:

منع جُفُونَكَ أَنْ تَذُوقَ مَنَامًا ... وَاذْرِ الدُّمُوعَ عَلَى الْخُدُودِ سِجَامًا

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَيِّتٌ وَمُحَاسَبٌ ... يَا مَنْ عَلَى سُخْطِ الْجَلِيلِ أَقَامَا

لِلَّهِ قَوْمٌ أَخْلَصُوا فِي حُبِّهِ ... فَرَضِيَ بِهِمْ وَاخْتَصَّهُمْ خُدَّامًا

قَوْمٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِمْ ... بَاتُوا هُنَالِكَ سُجَّدًا وَقِيَامًا

خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ التَّعَفُّفِ ضُمَّرًا ... لا يعرفون سوى الحَلَال طعاما

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازمًا دائمًا لا يفارق صاحبه، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مُغرم بكذا، أي: لازم له ومولع به، ولكن كل غريم يفارق غريمه، إلا غريم جهنم، وما أدراك ما الغريم؟ أشد العذاب!.

قوله: ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ الإسراف: الإنفاق في غير طاعة الله ﷻ، والإقتار: الإمساك عن طاعة الله ﷻ، ومن أنفق في طاعة الله، فهو القوام حتى لو أنفق مائة ألف درهم، ومن أنفق درهمًا في غير حقه فهو سَرَف. وقيل: لم يزيدوا على المعروف، ولم يبخلوا، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾. قال الشاعر:

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ ... كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمُ

وقال آخر:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْطَى نَفْسَهُ كُلَّ مَا اشْتَهَتْ ... وَلَمْ يَنْهَهَا تَاقَتْ إِلَى كُلِّ بَاطِلِ

وَسَاقَتْ إِلَيْهِ الْإِثْمَ وَالْعَارَ بِالَّذِي ... دَعَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ حَلَاوَةِ عَاجِلِ

قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي: عدلًا، والمقصود أنّهم كانوا وسطًا، يقتصدون في الغنى والفقر، فليسوا بمبذرين ولا بخلاء، ومن تمام الاعتدال والتوازن أن توضع الأمور في نصابها، وأن يوضع كل درهم في مكانه الصحيح، وفيما ينفع الإنسان في دينه ودنياه، وقد جاء عند أحمد بسند لا بأس به من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ
وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية، جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ، أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. -وَفِي رِوَايَةٍ: قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ! - قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ. قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾».

وعند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً! فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾، وَنَزَلَ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾».

قوله: ﴿أَثَامًا﴾ أي: عقابًا، أي: جزاء وعقوبة ونكالًا، وفي هذه الآية دلالة على أن أعظم الكبائر بعد الشرك: قتل النفس بغير حق، ثم الزنا.

قوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قرئت: (يُضعَّف) بالتشديد، بدل من ﴿يَلْقَ﴾ الذي هو جزاء الشرط. قال سيبويه: مضاعفة العذاب: لُقِيُّ الآثام. أي: يُضاعف عقابُه ويُغلَّظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي.

قوله: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي: يُخلد في ذلك العذاب حقيرًا ذليلًا خاسئًا مُبعدًا مطرودًا أبد الآبدين، وقد نص علماء القراءات والتجويد على إشباع كسرة (الهاء) ومدها أكثر من حركتين فتقرأ هكذا (فِيهِي مُهانًا)، والسبب في هذا هو مناسبتها للسياق الذي وردت فيه، فقد سبقها ذكر مجموعة من المعاصي والفواحش التي لا يفعلها عباد الرحمن، فهم: لا يشركون بالله تعالى، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ثم ذكرت الآيات ما يترتب على هذه الكبائر من عقوبة، وهي العذاب الشديد المضاعف لصاحبه وخلوده فيه مهانًا ذليلًا، وعندما نمد (الهاء) في (فيه) أكثر من حركتين فكأننا بهذا المد الخاص نساعد في إنزال المجرمين وخفضهم في جهنم ونسارع فيه، ونطيل زمن مكوثهم فيها، ولهذا تسمى

هذه الهاء (هاء الخفض).

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال رسول الله ﷺ فيما رواه الحاكم بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ لَوْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ. قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِينَ بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ». وعند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: نَعَمْ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا. فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه، والزور: كل باطل زُوِّر وزُخرف، كحضور أعياد المشركين، وحفلات الغناء ونحو ذلك من مجالس السوء، وقيل: ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ من الشهادة، لا من المشاهدة، وقد جاء عند الشيخين عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثَلَاثًا- قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ! فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لَا يَسْكُتُ. وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ». وكلا المعنيين مقصود في الآية، إلا أن المعنى الأول أقرب، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا كرامًا، لم يتدنسوا به، ولم يتدلسوا منه بشيء، بل ينكروه ويعارضوه، ولا يمالئون عليه، ولا يجالسون أهله، يقال: تكرم فلان عما يشينه، أي: تنزّه وأكرم نفسه عنه.

قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بخلاف الكافر الذي يسمعها وكأنه لم يسمعها، أصم أعمى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: يعبدونك ويحسنون عبادتك، جاء عند أحمد بسند صحيح عن جبير بن نفير قال: «جَلَسْنَا إِلَى الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللهِ ﷺ! وَاللهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ. فَاسْتُغْضِبَ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ؛ مَا قَالَ إِلاَّ خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيَّبَهُ اللهُ عَنْهُ لَا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فِيهِ؟ وَاللهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْوَامٌ كَبَّهُمُ اللهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ؛ لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوَلَا تَحْمَدُونَ اللهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلاَّ رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ قَدْ

كُفِيتُمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ؟ وَاللهِ لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا فِيهِ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ لِلإِيمَانِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ؛ فَلاَ تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا لَلَّتِي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾».

ونصبت ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لأنها مفعول به، ووحّد ﴿قُرَّةَ﴾ لأنه مصدر، تقول: قرت عينك قُرة، وقرة العين يحتمل أن تكون من القرار، ويحتمل أن تكون من القُرّ، وهو الأشهر، والقُرّ: البرد؛ لأن العرب تتأذى بالحر، وتستريح إلى البرد، ويقال: دمع السرور بارد، ودمع الحزن ساخن، ويقال: أقر الله عينك، وأسخن الله عين عدوك. قال الشاعر:

فَكَـمْ سَـخِنَتْ بِـالْأَمْسِ عَـيْنٌ قَرِيـرَةٌ وَقَـرَّتْ عُيُـونٌ دَمْعُهَـا الْيَـوْمَ سَـاكِبُ

قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: يقتدى بنا في الخير والهدى، كما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾، وقد جاء عند ابن أبي حاتم قال مجاهد: «اِجْعَلْنَا أَئِمَّةً فِي التَّقْوَى حَتَّى نَأْتَمَّ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا وَيَأْتَمّ بِنَا مَنْ بَعْدَنَا» صححه ابن حجر. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: «قَادَةً فِي الْخَيْرِ، وَدُعَاةَ هُدَى يُؤْتَمّ بِنَا فِي الْخَيْرِ». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي: عباد الرحمن، الذين ذكرت أوصافهم، يُجزون الجنة، والدرجة الرفيعة منها.

قوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ كقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، وقرئت: (ويلْقون).

قوله: ﴿فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾.

قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: ما يبالي، إما استفهام، أو نفي، يقال: ما عبأت بفلان، أي: ما باليت به، وما كان له عندي وزن ولا قدر، وأصل يعبأ: من العبء، وهو الثقل، أي: يجعل بعضه على بعض، فالعبء: الحمل الثقيل، والجمع: أعباء، والعبء المصدر.

قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: مفضيًا لعذابكم، وملازمًا لهلاككم، ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر كما سيأتي في الدنيا، وأما يوم القيامة فهو اللزام الأكبر. و﴿لِزَامًا﴾ وملازمة واحد. قال الطبري: ﴿لِزَامًا﴾ يعني عذابًا دائمًا لازمًا، وهلاكًا مفنيًا يُلحق بعضكم ببعض. قال الشاعر:

فَفَاجَـــأَهُ بِعَادِيَـــةٍ لِـــزَام كَمَـا يَتَفَجَّـرُ الْحَـوْضُ اللَّقِيـفُ

يعني باللزام: الكبير الذي يتبع بعضه بعضا. وباللقيف: المتساقط الحجارة المتهدم.

ويقال: اللزام مصدر لازم لِزامًا، مثل: خاصم خِصامًا.

انتهى تفسير سورة الفرقان، ولله الحمد.

  

سورة الشعراء

وهي مكية، وفيها آيات مدنية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾

قوله: ﴿طسٓمٓ﴾ كما سبق من فواتح السور، يقال: الطواسيم، والطواسين، سور في القرآن، جُمعت على غير قياس. قال الشاعر:

وَبِالطَّوَاسِيمِ الَّتِي قَدْ ثُلِّثَتْ ... وَبِالْحَوَامِيمِ الَّتِي قَدْ سُبِّعَتْ

قال الجوهري: والصواب أن تجمع بذوات، وتضاف إلى واحد، فيقال: ذوات طسم، وذوات حم.

قوله: ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ أي: قاتل نفسك ومهلكها. قال الشاعر:

أَلَّا أيّهذا البَاخِعُ الحُزْنُ نفسَه ... لِشَيْءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيه المَقَادِرُ

وقد مضى هذا المعنى في سورة الكهف.

قوله: ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لتركهم الإيمان، فـ﴿أَلا﴾ في موضع نصب مفعول من أجله.

قوله: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾ أي: فتضل أعناقهم، وهم الكبراء والرؤساء، أو الجماعات، يقال في اللغة: جاء في عُنُق من الناس، أي: رؤساء منهم، ويقال: جاء في عنق من الناس، أي: جماعة، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، ولذلك قال تعالى: ﴿خَٰضِعِينَ﴾، فإذا ذلت الرقاب ذلوا.

قوله: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ أي: جديد في النزول، ينزل وقتًا بعد وقت.

قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي: ألا يخافون عقاب الله؟ وقيل: هذا من الإيحاء إلى الشيء؛ لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ دلت على أنّهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى.

قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ لتكذيبهم إياي.

قوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ أي: في المحاجة على ما أحب، وكان في لسانه عُقدة، على ما تقدم في سورة طه.

قوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي: أرسل إليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي، واجعله رسولًا معي، كما في الآية الأخرى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ أي: قتل القبطي، الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر، كما سيأتي في سورة القصص.

قوله: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: أنا أسمع ما تقولان وما يجيبكما به، وصيغةُ الجمع (معكم) أريد به التثنية فكأنهما لشرفهما عند الله عامهما في الخطاب معاملة الجمع تشريفًا لهما وتعظيمًا.

قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنا ذوو رسالة رب العالمين، فالرسول بمعنى رسالة. قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ ... بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع، فتقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾، وقيل: معناه: إن كل واحد منا رسول رب العالمين، وهو الأقرب.

قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم وخل سبيلهم، حتى يسيروا معنا إلى الأرض المقدسة، ولا تعذبْهم وتستعبدهم.

قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ لأنه نشأ في بيت فرعون، وقال ذلك على جهة المنّ عليه والاحتقار والغمض والازدراء، أي: ربيناك صغيرًا، ولم نقتلك في جملة من قتلنا.

قوله: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي: فمتى كان هذا الذي تدعيه.

قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ أي: التي تعرف، فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك؟.

قوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الجاحدين لنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى

حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩﴾

قوله: ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الجاهلين، فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على جهل بأن الوكزة تبلغ القتل، ويقال لمن جهل شيئًا: ضل عنه، وقيل: من الناسين، وقيل: عن النبوة، ولم يأتني عن الله فيه شيء، فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ، والقول الأول هو المسدد.

قوله: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾.

قوله: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: لست أنت المنعم في الحقيقة، إنما المنعم هو الله وأنت سبب فقط، وما أحسنت إلي بقدر ما أسأت إلى قومي، وليس هنالك ثمة مفارقة، أو: نعمتك عليّ ليست بنعمة؛ لأنك لست بصاحب نعمة، ولو كنت صاحب نعمة لما قتلت واستعبدت قومي، فلا ذكر ولا وزن لإحسانك علي، فهو مغمور بعذابك ونكالك لمن هم مني وبي، ولو لم تقتل قومي لرباني أبواي، فأي نعمة لك؟ فهي نعمة مقابلة بما لا يوصف ولا يحصى ولا يحصر من النقم. وقيل: هو استفهام إنكار، والمعنى: أوتلك نعمة؟ على طريق الاستفهام الإنكاري، كقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾. ويقال: عبَّدته وأعبدته.

قوله: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذا كانت عقيدة القوم أن فرعون ربُهم ومعبودهم، والفراعنة قبله.

قوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهذا دليل يفهمونه عنه، بل يفهمه كل غبي لا زبر له.

قوله: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فانقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة، فعمد إلى ما هو من طبيعته وسجيته وسجية كل طاغوت أعيته الحجة، وأعجزه البرهان إلى الاستعلاء واستخدام العنف والإرهاب، فتوعد موسى عليه السلام بالسجن، وفي توعده بالسجن قمة الضعف والعجز؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلهًا غيره، ولم يقل: ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأنه يقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ليست مزيفة ولا خيال ولا حيلة. وسماها (ثعبان) لأن موسى اعتاد عليها وعرف بحقيقتها، وكان واثقًا منها أمام فرعون، أما في سورة طه فسماها (حية) مسالمة.

قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ تتلألأ كالشمس الساطعة، لها شعاع يكادُ يعشي الأبصار ويسدُّ الأفق.

قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فقد خاف على قومه أن يتبعوه، فتنزَّل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبدًا بالرأي والتدبير.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أَخِّرْ أمرهما.

قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾ أي: من يجمع لك السحرة من كل مكان.

قوله: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: قيل للناس: بادروا إلى الاجتماع لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: فإذا هي تبتلع الحبال والعصي التي كذبوا بها باسم السحر، حيث قدموا للناس بالحيل والتخيلات حياتٍ تسعى، ليصرفوا الناس عن الحق إلى الباطل، وسمّى تلك الأشياء إفكًا مبالغة، والإفك: صرف الشيء وقلبه عن حقيقته التي يحق أن يكون عليها.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق.

قوله: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر، إنما هو عذاب ساعة ثم نلقى الله مؤمنين، وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانِهم، يقال: لا ضير، ولا ضَوْر، ولا ضَرَّ، ولا ضَرَر، ولا ضارُورة بمعنى واحد، قال

الجوهري: ضَارَه يَضُوره، ويَضِير ضَيْرًا وضَوْرًا، أي: ضرّه، والتضوّر: الصياح والتلوي عند الضرب أو الجوع، والضُّورةُ بالضم: الرجل الحقير الصغير الشأن.

قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي: من يحشر الجند ويمنعه.

قوله: ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: جمع قليل محتقر، واللام هنا لام توكيد، وكثيرًا ما تدخل في خبر إن، قال الجوهري: الشرذمة: الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء، وثوب شراذم، أي: قطع.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: أعداء لنا لمخالفتهم ديننا، وذهابَهم بأموالنا، يقال: غاظني كذا، وأغاظني، والغيظ: الغضب، ومنه: التغيظ، والاغتياظ، أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: مجتمع أخذنا حِذرَنا وأسلحتَنا، وعلى أُهبة الاستعداد واليقظة، وقرئت: (حذِرون)، وهي بمعنى واحد، ويقال: هو حذِرٌ زيدًا، كما يقال: حاذر زيدًا. قال الشاعر:

حَذِرٌ أُمُورًا لَا تَضِيرُ وَآمِنٌ ... مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ

ويقال: حادرون، من قولهم: حَدْرة، أي: ممتلئة، أي: ممتلئون غيظًا عليهم، يقال: رجل حادر، إذا كان ممتلئًا لحمًا، فيقول المعنى: الامتلاء من السلاح، ويقال للقوي الشديد: الحادر.

قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني من أرض النيل، وقد قال ﷺ: «سَيْحَانُ، وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ، وَالنِّيلُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي حديث الإسراء كما سبق أن رسول الله ﷺ رأى في الجنة أربعة أنْهار، نَهران ظاهران، ونَهران باطنان، فسأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: «أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالْفُرَاتُ. وَفِي رِوَايَةٍ: عُنْصُرُهُمَا». والجمهور على أن المراد بالعيون: عيون الماء.

قوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: مساكن حسان، كانت تكرم عليهم، والمقام في اللغة يكون الموضع، ويكون مصدرًا، من قولك: قام يقوم، وكذلك المقامات، واحدها: مقامة. قال الشاعر:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ

والْمُقام بالضم: الموضع، من أقام، والمصدر أيضًا من أقام يقيم.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: حين أشرقت الشمس بالشعاع والضياء، يقال: شَرَقت الشمس، إذا

طلعت وأشرقت إذا أضاءت، وقيل: فأتبعوهم من ناحية المشرق، مأخوذ من قولهم: شرق وغرب، إذا سار نحو المشرق والمغرب، والقول الأول أولى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: تقابلا، بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية.

قوله: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ من أدرك، أي: قرب منا العدو، ولا طاقة لنا به.

قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ إلى طريق النجاة والخلاص.

قوله: ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: الجبل العظيم. ومنه قول الشاعر:

فَبَيْنَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ طَوْدٌ رَمَاهُ النَّاسُ عَنْ كَثَبٍ فَمَالَا

قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي: قربناهم إلى البحر، يعني فرعون وقومه. قال الشاعر:

وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى أَوْ لَيْلَةٍ سَلَفَتْ فِيهَا النُّفُوسُ إِلَى الْآجَالِ تَزْدَلِفُ

وقيل: جمعنا، ومنه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جمع، ويقال: أزلقنا، وتروى قراءة على معنى أهلكناهم، من قوله: أزلقت الناقة، وأزلقت الفرس، فهي مُزْلِق، إذا أزلقت ولدها.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: لم يؤمن إلا القليل، كمؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، والعجوز التي دلت على قبر يوسف عليه السلام، وقد جاء عند أبي يعلى بسند صحيح من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَابِيٌّ، فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: ائْتِنَا. فَأَتَاهُ، فَقَالَ: سَلْ حَاجَتَكَ؟ فَقَالَ: نَاقَةٌ يَرْكَبُهَا، وَأَعْنُزٌ يَحْلُبُهَا أَهْلِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ لَا نَخْرُجَ

مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا. قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ؟ قَالَ: عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ، فقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ. قَالَتْ: حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي؟ قَالَ: مَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ. فكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا. فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ -مَوْضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ- فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَنَضَبُوهُ. فَقَالَتِ: احْتَفِرُوا، فَحَفَرُوا، وَاسْتَخْرَجُوا عِظَامَ يُوسُفَ عليه السلام، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا إِلَى الْأَرْضِ إِذَا بِطَرِيقٍ مِثْلِ النَّهَارِ».

قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ واحد يؤدي عن جماعة، وكذلك يقال للمرأة: هي عدو الله، وعدوة الله، ومن عدوة الله، أي: معادية.

قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلا عابد رب العالمين، أو بمعنى سوى، أو دون، كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: دون الموتة الأولى.

قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ هو للتنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يسقي، كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا، أي: لم يفعله غيره، وقد جاء عند الطبراني بسند لا بأس به عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: «سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِرارًا يَقُولُ: مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي، وَأَنْتَ تَهْدِينِي، وَأَنْتَ تُطْعِمُنِي، وَأَنْتَ تَسْقِينِي، وَأَنْتَ تُمِيتُنِي، وَأَنْتَ تُحْيِينِي، لَمْ يَسْأَلْ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. قَالَ: فَلَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ، فَقُلْتُ: أَلَا أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِرَارًا، وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ مِرَارًا، وَمِنْ عُمَرَ مِرَارًا؟ قَالَ: بَلَى. فَحَدَّثْتُهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ: -بِأَبِي وَأُمِّي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم- هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتُ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعْطَاهُنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ يَدْعُو بِهِنَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعَ مِرَارٍ، فَلَا يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ».

قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلى نفسه ﴿مَرِضْتُ﴾ وأسند الشفاء إلى الله عز وجل مراعاة للأدب في حق الله عز وجل، فالتشريف ينسب إليه سبحانه، والسلبية أو الشر ينسبان إلى المخلوق، وإن كان سبحانه خالقهما.

قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ أي: أرجو، وقيل: هو بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواه.

قوله: ﴿خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: خطاياي، وهي كذباته الثلاث؛ لأن خطيئة بمعنى خطايا في لغة العرب، كقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: بذنوبهم، وكذا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الصلوات، وقد جاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ؛ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي: نبوة ورسالة.

قوله: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: بالأنبياء والمرسلين، وبأهل الجنة أجمعين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ أي: ثناءً حسنًا، ومكانة مرتفعة، وقد حصل له ذلك؛ فهو إمام الحنفاء، وأبو الأنبياء، وما من أمة إلا تتمسك به وتعظمه وتجله، ودينه هو الحنيفية التي جاء بِها محمد ﷺ. والمراد باللسان: القول، وأصله: جارحة الكلام، وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تكني العرب بِها عن الكلمة.

قال مالك رحمه الله: في قوله تعالى: «﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لا بَأْسَ أن يُحِبَّ الرَّجُلُ أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ صَالِحًا، ويُرَى فِي عَمَلِ الصَّالِحِينَ إِذَا قَصَدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى»، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ﴾ أي: حبًا في قلوب عباده وثناءً حسنًا. قال الليث بن سليمان: والذكر الجميل هي الحياة الثانية. قال الشاعر:

قَدْ مَاتَ قَومٌ وَمَا مَاتَتْ مآثرهم ... وَعَاشَ قَومٌ وَهُم فِي النَّاسِ أَمواتُ

قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ».

قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: سالم من الشرك والشك، سليم من البدع والكبائر. قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة. وهو قلب المؤمن، ويقابله قلب الكافر والمنافق، وهو القلب المريض ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ». أي: خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب، متوكلة على الله، خائفة وجلة من أي تخويف، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لا يَدْخُلُنِي إلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟ قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

وقوله: (وَغِرَّتُهُمْ) الغِرَّة: البله عن معاصي الله، الذين طبعوا على الخير وغفلوا عن الشر، غلبت عليهم سلامة صدورهم، وحسن الظن بالناس.

قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبت وأُدنيت ليدخلوها، وقرب دخولهم إياها.

قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: وأُظهرت.

قوله: ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي: الكافرين، الذين ضلوا عن الهدى، والمعنى أن النار تظهر لأهلها قبل أن يدخلوها؛ حتى يستشعروا الروع والحزن، كما قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، وعند الشيخين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا». والزمام: ما يلزم به الشيء ويشد ويربط.

قوله: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ أي: قلبوا على رؤوسهم مجموعين، وأُلقي بعضهم على بعض، وهو مأخوذ من الكبكبة، وهي الجماعة، وقيل: هو مشتق من: كَوْكب الشيء، أي: معظمه، والجماعة من الخيل كَوْكَب وكَوكَبة، ويقال في الدعاء: كبّ الله عدو المسلمين، ولا يقال: أكبّه وكبكبه، أي: كبه وقلبه. وأصل ﴿كُبْكِبُواْ﴾: كُبِّبُو، فأبدل من الباء الوسطى كاف؛ استثقالًا لاجتماع الباءات.

قوله: ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: الأصنام، والمشركون، والعابدون، والمعبدون.

قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: صديق مشفق، وقد قال بعض السلف: عليكم بالإخوان؛ فإنّهم عدّة الدنيا، وعدّة الآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، والحميم: القريب الخاص، ومنه: حامة الرجل، أي: أقرباؤه، وأصل هذا من الحميم، وهو الماء الحار، ومنه: الحمّام،

والحُمّى، فحامّة الرجل: الذي يحرقهم ما أحرقه، يقال: هم حُزائنه، أي: يحزنُهم ما أحزنه، ويقال: حم الشيء وأحمّ، إذا قرب، ومنه: الحُمى؛ لأنّها تقرب من الأجل، وقيل: سمي القريب حميمًا لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذًا من الحمية، وجمع صديق: أصدقاء وصُدقاء وصِداق، وحكى الكوفيون أنه يقال في جمعه: صُدْقان. قال النحاس: وهذا بعيد، وحكوا: صديق وأصادِق، وأفاعل إنما هو جمع أفعل، نحو: أشجع وأشاجع، ويقال: صديق، للواحد، والجماعة، وللمرأة، يقال: فلان صُدَيّقي، أي: أخص أصدقائي، وإنما يصغر على جهة المدح، كقول حُباب بن المنذر: أنا جُذَيْلُها المحكك، وعُذَيْقُها المرجّب. وجمع حميم: أحِمّاء، وأحِمّة.

قوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا لآمنا، حتى يكون لنا شفعاء، تمنوا حين لا ينفعهم التمني، وإنما قالوا ذلك حين شفع النبيون والملائكة والمؤمنون، وقد جاءت شفاعة المذكورين، رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﵁، وقد سبق ذكره، كقوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذبت جماعة قوم نوح ﵇؛ لأن القوم مذكر، والتاء للتأنيث.

قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولًا فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل، وقيل: كذبوا نوحًا ﵇ في النبوة، وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده، وقيل: ذكر الجنس، والمراد: نوح ﵇، والكل وارد.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: أخوهم في المجانسة، كما قال تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾، أو هو من باب قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون: يا واحدًا منهم. قال الشاعر:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي: الضعفاء، جمع الأرْذَل، وجمع التكسير: الأراذل، والأنثى: الرُّذلى، والجمع: الرُّذل، وأتباع جمع تبع وتبيع، ويكون للواحد والجمع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا

تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾

قوله: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: وما علمي بما يعملون، وكان صلة، أي: لم أكلف العلم بأعمالهم، إنما كلِّفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالتقوى والإيمان، لا بالحرف والصنائع والهيلمان، وكأنّهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعًا في العزة والمال، فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم، وإنما إليّ ظاهرهم.

قوله: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ أي: لو شعرتم أن حسابَهم على الله، لما عبتوهم لصنائعهم وأعمالهم الدنيوية.

قوله: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ أي: بالحجارة، أو بالسب والشتم، وقيل: كل رجم في القرآن فهو القتل، إلا في مريم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ أي: لأسبنك.

قوله: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي: المملوء بالناس والدواب وغيرهم، ولم يؤنث الفلك لأنه واحد لا جمع، والمراد به السفينة.

قوله: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ أي: بعد إنجائنا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن معه.

قوله: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: ما ارتفع من الأرض، جمع رِيعة، وكم ريع أرضك؟ أي: ارتفاعها، والريع: الطريق، وفيه لغتان: كسر الراء، وفتحها. ويقال للجبل الريع: رِيعة، والجمع: رياع، وكذا للفج بين الجبلين.

قوله: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ أي: تلعبون، لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو، وإظهار القوة، وتضييع الزمان، وإتعاب الأبدان، في غير فائدة مرجوة.

قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: منازلَ وحصونًا مشيدة، واحدتُها: مَصْنَعة ومَصْنع. قال لبيد:

بَلِينَا وَمَا تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ ... وَتَبْقَى الجبالُ بَعدنا والمصانع

قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ أي: كي تخلدوا، وقيل: لعل استفهام، بمعنى التوبيخ، أي: فهل تخلدون، كقولك: لعلك تشتمني، أي: هل تشتمني، والصواب القول الأول، أو بمعنى: كأنكم تُخَلَّدون أو خالدون.

قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ﴾ أي: إذا سطوتم أخذتم بعنف وجبروت وغلظة، وقد بطش به يبطُش ويبطِش بطشًا، وباطشه مباطشة، ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلمًا، وقد أخبر النبي ﷺ أنه يكون في هذه الأمة أمثال هؤلاء، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ، مَائِلاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا

وَكَذَا». وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ أَنْ تَرَى قَوْمًا فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَغْدُونَ فِي غَضَبِ اللهِ، وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ اللهِ». وعند أبي داود بسند حسن عن ابن عمر ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

قوله: ﴿جَبَّارِينَ﴾ أي: عاتين متسلطين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ أي: بمسلط.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾

قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الأولين، وقرئت: (خَلْقُ)، والعرب تقول: حدثنا فلان بأحاديث الْخَلْق، أي: بالخرافات والأحاديث المفتعلة، وقيل: دين، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾، أي: دين الله، وقيل: أخلاق، ومنه الحديث الصحيح الذري رواه أبو داود، قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». أي: أحسنهم مذهبًا وعادة، وما يجري عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، والقول الثاني أقوى وأظهر.

قوله: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ أي: في الدنيا.

قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من الموت والعذاب.

قوله: ﴿وَنَخۡلٖ﴾ لأن الجنات تتناول النخل أول شيء، كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتى إنّهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل، ويذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل.

قوله: ﴿طَلۡعُهَا﴾ الطلع: هو ما يطلع من النخلة كنصل السيف، في جوفه شماريخ القِنْو، والقِنو: اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه.

قوله: ﴿هَضِيمٞ﴾ أي: رطب وناضج ولطيف ودقيق، والهضيم من النساء: اللطيفة الكشحين، ورجل هضيم الجنبين، أي: منضمهما، و﴿هَضِيمٞ﴾ فعيل، بمعنى فاعل، أي: هنيء مريء، من انْهضام الطعام،

والطلع اسم مشتق من الطلوع، وهو الظهور، ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات.

قوله: ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ أي: تنجرون، من نحته ينحِته نحتًا، إذا براه، والنُّحاتة: البُراية، والمِنحت: ما ينحت به، وفي الصافات قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾.

قوله: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ قرئت: (فرهين)، أي: نشطين وحاذقين، يقال: فَرُه يَفْرُهُ، فهو فاره وفَرِه، وقيل: متجبرين وأشرين وبطرين وفرحين، والعرب تعاقب بين الهاء والحاء، تقول: مدهته، ومدحته، فالفرِه: الأشر الفرِح، ثم الفرح بمعنى المَرَح مذموم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، والمعاني كلها قد اجتمعت في القوم، ويتحملها اللفظ.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي: أصبت بالسحر فبطل عقلك، وقيل: أنت بشر لك مَسْحر، أي: رئة، تأكل وتشرب مثلنا، كما قال لبيد:

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّنَا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ

والقول الأول هو الراجح.

قوله: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي: ترد ماءكم يومًا فتشرب، ويومًا تردونه أنتم فتشربون، يقال: شرِب شَرْبًا وشُربًا وشِرْبًا، وأكثرها المضمومة، والشَّرب جمع شارب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٧٢ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾

قوله: ﴿عَادُونَ﴾ مجاوزون الحدَّ في الإجرام والفساد.

قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ أي: من بلدنا وقريتنا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ أي: المبغضين، والقلى: البغض، قليته أقليه قليًا وقلاءً.

قوله: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين الهالكين، يقال: غبرت في عذاب الله، أي: بقيت أو بقيت حتى

هرمت، ويقال للذهاب: غابر، وللباقي: غابر. وقد أخبر النبي ﷺ فقال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لوطٍ». حديث حسن، رواه الترمذي من حديث جابر رضي الله عنه.

قوله: ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الشجر الملتف الكثير، واحدتُها: أيكة.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ لم يقل: أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أخًا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ لأنه كان منهم.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي: الناقصين للكيل.

قوله: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالميزان العدل السويّ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الخليقة، يقال: جُبل فلان على كذا، أي: خلق، فالخُلق جِبلَّة وجُبُلَة وجِبْلة وجَبْلَة، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، وهم الجمع ذوو العدد من الناس. قال الشاعر:

وَالْمَوْتُ أَعْظَمُ حَادِثٍ ... مِمَّا يَمُرُّ عَلَى الْجِبِلَّهْ

قوله: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: ما نظنك إلا من الكاذبين.

قوله: ﴿كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جانبًا من السماء وقطعة منها فننظر إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، والكِسْف جمع كِسْفَة، مثل: سدر وسدرة، وقرئت: (كِسْفًا).

قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ وهو من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابَهم حر عظيم لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بِهم الأرض، وجاءتْهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، وقد ذكر الله

صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ وذلك لأنّهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ فأرجفوا نبي الله ومن معه، فأخذتْهم الرجفة، وفي سورة هود قال سبحانه: ﴿أَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ ذلك لأنّهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، وهنا في هذه السورة كما سبق.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ذكر نزوله في كتب الأنبياء، أو ذكر النبي ﷺ في كتب الأولين، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي رضي الله عنهما وغيرهما ممن أسلموا، فصارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنّهم كانوا يرجعون في أشياء من أمر الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنّهم مظنون بِهم علم. وقرئت: (أولم تكن لهم)، والتقدير: أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة.

قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي: على رجل ليس بعربي اللسان.

قوله: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بغير لغة العرب لما آمنوا، ولقالوا: لا نفقه، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۠عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ...﴾، وقيل: لو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبرًا، والأول أقرب. يقال: رجل أعجم وأعجمي، إذا كان غير فصيح، وإن كان عربيًا، ورجل عجمي، وإن كان فصيحًا، ينسب إلى أصله، وقد يقال: رجل عجمي، بمعنى أعجمي.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أدخلنا الكفر بالقرآن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقيل: سلكنا التكذيب في قلوبِهم، فذلك الذي منعهم من الإيمان.

قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: كيلا، وأجاز الفرّاء الجزم في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة، وزعم أن العرب إذا وضعت كيلا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها، وربما رفعت، فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت، بالرفع والجزم؛ لأن معناه: إن لم أربطه ينفلت، والرفع بمعنى: كيلا ينفلت.

قوله: ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: مؤخرون وممهلون.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ قال الزهري: كان عمر بن العزيز إذا أصبح أمسك بلحيته، ثم قرأ هذا الآية، ثم يبكي ويقول:

نَهَــارُكَ يَــا مَغْــرُورُ سَــهْوٌ وَغَفْلَــةٌ   وَلَيْلُــكَ نَــوْمٌ وَالــرَّدَى لَــكَ لَازِمُ
فَـلَا أَنْـتَ فِـي الْأَيْقَـاظِ يَقْظَـانُ حَـازِمُ   وَلَا أَنْـتَ فِـي النُّـوَّامِ نَـاجٍ فَسَـالِمُ
تُسَــرُّ بِمَــا يَفْنَــى وَتَفْــرَحُ بِــالْمُنَى   كَمَـا سُـرَّ بِاللَّـذَّاتِ فِـي النَّـوْمِ حَـالِمُ
وَتَسْــعَى إِلَــى مَــا سَــوْفَ تَكْــرَهُ غِبَّــهُ   كَـذلك فِـي الـدُّنيا تَعِـيشُ البَهَـائِمِ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ
وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢
فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ
مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ
تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ
يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ
بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾

قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ أي: ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟.

قوله: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ أي: يذكرون ذكرى، منصوبة على المصدر، أو إنذارنا ذكرى، أو ذلك ذكرى، أو تلك ذكرى، والقول الأول أظهر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: القرآن، بل نزل به الروح الأمين.

قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي: ليس من بغيتهم، لما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي لا يتناسب مع سجيتهم الفاسدة.

قوله: ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي: لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال تعالى عن عدم استطاعة الجبال: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ كما قال تعالى مُخبرًا عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾.

قوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ هذا إنذار خاص، ولا ينافي الإنذار العام الذي قال تعالى فيه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: « لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ! فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ (وَفِي رِوَايَةٍ: جَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ! -لِبُطُونِ قُرَيْشٍ-، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا)، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ! مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟... الحديث». وقوله: ورهطك منهم المخلصين، كانت آية تقرأ، ثم نسخت.

وجاء في عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ دَعَا قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. وَفِيهَا: غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا».

قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ أي: تواضع وأَلِنْ جانبك.

قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: إلى الصلاة خصوصًا، وحيث ما كنت عمومًا.

قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: في المصلين، وقيل: في أصلاب الآباء، آدم، ونوح، وإبراهيم عليهم السلام، حتى أخرجك نبيًا، والقول الأول أقرب، وقد جاء عند البزار عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قَالَ: مَنْ صُلْبِ نَبِيٍّ إِلَى صُلْبِ نَبِيٍّ حَتَّى صِرْتَ نَبِيًّا». حسنه ابن حجر.

قوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ أي: كذوب فاجر في أقواله وأفعاله، كالكهان، والمنجمين، ومن جرى مجراهم من الكذبة الفسقة.

قوله: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ جاء عند الشيخين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيْسُوا بِشَيْءٍ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ». وجاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ﴾ لِلَّذِي قَالَ: ﴿ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ (فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ، فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ) حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ (فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ)، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ جمع شاعر، مثل: جاهل وجهلاء.

قوله: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: ضلال الجن والإنس، وكل زائل عن الحق، دل بهذا على أن الشعراء أيضًا غاوون؛ لأنّهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك، قال بعض السلف: رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها، مرة في شتيمة فلان، ومرة في مديحة فلان، فيمدح هؤلاء بباطل، ويذم هؤلاء بباطل، وتراهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم، وكل واحد ترى معه غواة قوم، وهم السفهاء، يهيجونه ليهجو ويظلم.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي: يسلكون في المديح والهجاء كل طريق، يمدحون الشيء بعد أن ذمّوه، ويعظّمون الشخص بعد أن احتقروه.

قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فيدلون على الكرم والخير، أو على الشجاعة، وليسوا كذلك.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وقد جاء عند الطبراني بسند حسن من حديث ابن عمرو رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، قال ﷺ: «الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ، فَحَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ». وقالت عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا: «الشِّعْرُ مِنْهُ حَسَنٌ وَمِنْهُ قَبِيحٌ، خُذْ بِالْحَسَنِ وَدَعِ الْقَبِيحَ، وَلَقَدْ رَوَيْتُ مِنْ شِعْرِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَشْعَارًا، مِنْهَا الْقَصِيدَةُ فِيهَا أَرْبَعُونَ بَيْتًا، وَدُونَ ذَلِكَ». رواه البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح. وكذا جاء من حديث ابن عمرو رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، فلا يكره الشعر بذاته، وإنما يكره لمضمّناته، وقد قال رسول الله ﷺ لحسان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». ولهما من حديث البراء رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «اهْجُهُمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ». ومن حديث عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا عند مسلم، قال ﷺ: «اهْجُوا قُرَيْشًا؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ».

وروى الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَمْشِي وَهُوَ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ﵁: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِي حَرَمِ اللهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ».

وقد كان رسول الله ﷺ يتلذذ بشعر أمية بن أبي الصلت، فقد روى مسلم عن الشريد ﵁ قال: «رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنْ كَادَ لَيُسْلِمُ فِي شِعْرِهِ-. قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: هِيهْ. فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: هِيهْ. ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: هِيهْ. حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ».

وجاء عند الترمذي بسند جيد عن عائشة ﵂ قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ، وَيَقُولُ: وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ». قال ابن عبد البر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم، ولا من أولي النهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به، أو سمعه، فرضيه ما كان حكمة أو مباحًا، ولم يكن فيه فُحش ولا خنا، ولا لمسلم أذى. وقد قال رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ: كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ

وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ».

ومما ذُم من الشعر كثرته، التي تصد عن القرآن، أوعن الأمور الفاضلة، كطلب العلم الشرعي، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة ﵁: «لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا». وعند مسلم من حديث أبي سعيد ﵁، وفيه: «بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْعَرْجِ إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُنْشِدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خُذُوا الشَّيْطَانَ، أَوْ: أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ!...». ثم ذكر نحوه، وقد جاء عند الطبراني بسند حسن من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَاكِبٍ يَخْلُو فِي مَسِيرِهِ بِاللهِ وَذِكْرِهِ إِلَّا رَدِفَهُ مَلَكٌ، وَلَا يَخْلُو بِشِعْرٍ وَنَحْوِهِ إِلَّا رَدِفَهُ شَيْطَانٌ».

قوله: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي: بالرد على المشركين، كما قال حسان بن ثابت ﵁ كما جاء عند مسلم من حديث عائشة ﵂:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا تَقِيًّا ... رَسُولَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ فِي كَنَفَيْ كَدَاءِ
يُبَارِينَ الْأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ

تَظَـــــلُّ جِيَادُنَـــــا مُتَمَطِّـــــرَاتٍ تُلَطِّمُهُـــــنَّ بِـــــالْخُمُرِ النِّسَـــــاءُ
فَـــإِنْ أَعْرَضْـــتُمُو عَنَّـــا اعْتَمَرْنَـــا وَكَـــانَ الْفَـــتْحُ وَانْكَشَـــفَ الْغِطَـــاءُ
وَإِلَّا فَاصْـــبِرُوا لِضِـــرَابِ يَـــوْمٍ يُعِـــزُّ اللهُ فِيـــهِ مَـــنْ يَشَـــاءُ
وَقَـــالَ اللهُ قَـــدْ أَرْسَـــلْتُ عَبْـــدًا يَقُـــولُ الْحَـــقَّ لَـــيْسَ بِـــهِ خَفَـــاءُ
وَقَـــالَ اللهُ قَـــدْ يَسَّـــرْتُ جُنْـــدًا هُـــمُ الْأَنْصَـــارُ عُرْضَـــتُهَا اللِّقَـــاءُ
لَنَـــا فِـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مِـــنْ مَعَـــدٍّ سِـــبَابٌ أَوْ قِتَـــالٌ أَوْ هِجَـــاءُ
فَمَـــنْ يَهْجُـــو رَسُـــولَ اللهِ مِـــنْكُمْ وَيَمْدَحُـــهُ وَيَنْصُـــرُهُ سَـــوَاءُ
وَجِبْرِيـــلٌ رَسُـــولُ اللهِ فِينَـــا وَرُوحُ الْقُـــدْسِ لَـــيْسَ لَـــهُ كِفَـــاءُ

قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ أيْ: أيّ منفلت ينفلتون، ومصير يصيرون، ومرجع يرجعون، فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة والثواب، قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، وهي عامة في كل ظالم بلسانه، أو بقلمه، أو بيده، أو بحسامه.

انتهى تفسير سورة الشعراء، ولله الحمد.

  

سورة النمل

هي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣﴾

قوله: ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ هما نكرة، ولكنهما في معنى المعرفة، كما تقول: فلان رجل عاقل، وفلان الرجل العاقل، والكتاب هو القرآن، فجمع له ما بين الصفتين، بأنه قرآن، وبأنه كتاب، وقال سبحانه في سورة الحجر: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾، فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة، والقرآن بلفظ النكرة، وذلك لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل صفة.

قوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: رأوا سيئاتِهم حسنات، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

قوله: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون في أعمالهم وضلالاتِهم الخبيثة، أو يتحيرون.

قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: يُلقى عليك، فتلقّاه وتعلمه وتأخذه.

قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ﴾ أي: عند، إلا أنّها مبنية غير معربة، وقد سبق بيان ذلك.

قوله: ﴿ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي: أبصرتُها من بُعد.

قوله: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ قرئت بدون تنوين على الإضافة: (بشهابِ)، أي: بشعلة نار، والقبس: اسم لما يقتبس من جمره وما أشبهه، يقال: أقبست قبسًا، والاسم: قبس، كما تقول: قبضت قبضًا، والاسم: القبض.

قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون من البرد، وأصل الطاء تاء، فأبدل منها هنا طاء؛ لأن الطاء مطبقة، والصاد مطبقة، فكان الجمع بينهما حسنًا، يقال: اصطلى يصطلي، إذا استدفأ. قال الشاعر:

النَّـــارُ فَاكِهَــةُ الشِّــتَاءِ فَمَــنْ يُــرِدْ أَكْــلَ الْفَوَاكِــهِ شَــاتِيًا فَلْيَصْــطَلِ

والشهاب: كل أبيض ذي نور، ومنه الكوكب، الذي يستمد ضوءه من الشمس.

قوله: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ أي: بأنه، في موضع نصب، وفي موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله، يقال: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات. قال الشاعر:

فَبُورِكْــتَ مَوْلُــودًا وَبُورِكْــتَ نَاشِــئًا وَبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَبُ

قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: على من في قرب النار، لا أنه كان في وسطها، وقيل: النار نور من الله ﷻ، وقد ظنه موسى نارًا، والمعنى: بورك من في من نور الله، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، وفي رواية: النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، وزاد ابن ماجه بسند صحيح: «ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عُبَيْدَةَ –أحد رواة الحديث-: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾». وقيل: بورك فيك يا موسى، وفي الملائكة الذين هم حولها. والقول الثاني هو الأقرب والأظهر.

قوله: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: ويقول من حولها: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقيل: هو من قول الله تعالى، ومعناه: وبورك فيمن سبح الله رب العالمين.

قوله: ﴿تَهْتَزُّ﴾ أي: تسعى وتتحرك.

قوله: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: ثعبان، وهو ضرب من الحيات، أسرعها حركة وأكثرها اضطرابًا، وجمع الجان: جنان.

قوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: خائفًا، على عادة البشر.

قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع ولم يلتفت إلى الوراء.

قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: موسى عليه السلام بقتله القبطي، وقد جاء في حديث الشفاعة المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال موسى عليه السلام: «إِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا».

قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: فإنه لا يخاف.

قوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: دون مرضٍ أو برص.

قوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ﴾ أي: من تسع آيات، كما يقال: خذ لي عشرًا من الإبل فيها فحلان، أي: منها، وهي الآيات التسع المبسوطة في سورة الأعراف، وهي: (العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدَّم، وانفلاق البحر، والسنين التي يدخل فيها نقص الثمرات).

قوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحة بينة جلية، ويجوز: (مَبْصَرة)، وهو مصدر، كما في الحديث الحسن قال

رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ». رواه ابن ماجه من حديث يعلى العامري رضي الله عنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ١٩ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢﴾

قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تيقنوا أنّها من عند الله، وأنّها ليست سحرًا، ولكنهم لعنادهم وجحودهم كفروا بِها، وتكبروا أن يؤمنوا بموسى عليه السلام، والتقدير: وجحدوها واستيقنتها أنفسهم؛ لأن الباء صلة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ أي: علم النبوة، ومعرفة الزبور وفهمه، والخلافة في الأرض، والحكم بين الناس.

قوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذا دليل على شرف العلم وشرف أهله وحملته، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القِسَم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلًا كثيرًا، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾. وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به عن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَأَى صَاحِبَ بَلاءٍ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، إِلا عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْبَلاءِ كَائِنًا مَا كَانَ مَا عَاشَ». وعند البزار بنحوه وزاد: «فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ كَانَ شُكْرَ تِلْكَ النِّعْمَةِ». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: ورث ملكه ومنْزلته من النبوة، وقام بعده بشريعته، بمعنى: صار إليه ذلك بعد موت أبيه، فسمي ميراثًا تجوزًا، كما في الحديث الذي رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عند أبي داود بسند جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ».

قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: فهمنا من أصوات الطيور المعاني التي في نفوسها، قيل: خص بالذكر لأنه كان جندًا من جنده يحتاجه في التظليل عن الشمس، وفي البعث في الأمور، فخص بالذكر لكثرة مداخلته، ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير، والمنطق قد يقع لما يُفهم بغير كلام، وقد يزعم بعض الجهلة الرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان عليه السلام، وهو زعم بلا علم،

ولو كان الأمر كذلك لما كان لسليمان عليه السلام خصيصة بذلك، والحق أن البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا لا جديد في شكلها ومنوالها، ولكن الله ﷻ أفهم سليمان عليه السلام ما يخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها.

قوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خيرات الدنيا التي يبعطاها العظماء والملوك.

قوله: ﴿وَحُشِرَ﴾ أي: جُمع، والحشر: الجمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُرد أولهم إلى آخرهم، ويُكفّون، لئلا يتقدم أحد عن منْزلته التي هي مرتبة له، كما يفعل الملوك، يقال: وزِعته أوزعه وزعًا: كففته، والوازع في الحرب: الموكل بالصفوف، يزِع من تقدم منهم. قال الشاعر:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ

وقال الشاعر:

وَلَا يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَى ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَافِرُ الْعَقْلِ كَامِلُهُ

وقيل: من التوزيع، أي: التفريق، والقوم أوزاع، أي: طوائف، والأول أقرب، والثاني وارد.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ سُمِّيَ بذلك لأن أغلب الموجود فيه هو النمل، كما يقول العرب: وادي فلان، أي أغلب من بالوادي من بني فلان، وعُدِّيَ بـ (عَلَى) إما لأن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء، وإما يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم: أتى على الشيء، إذا بلغ آخره.

قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ خاطبتهم مخاطبة العقلاء؛ لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء، وسميت النملة نملة من التَّنَمُّل لتنملها، وهو كثرة حركتها وقلة قرارها في مكان واحد، وكانت أنثى، ولو كان ذكرًا لقال: قال نملة، وذلك لأن النملة مثل (الحمامة) في وقوعها على الذكر والأنثى، فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، وهو وهي. ولم يقل المولى ﷻ: (ادخلن)؛ لأنه لما جعلها قائلة والنمل مقولًا لهم أجراهم مجرى العقلاء بعد الخطاب، لأن القول إنما للعاقل، فعبّر بضمائرهم فقال: (ادْخُلُوا)، فنسب لها العقل والفهم. وجاءت لفظة (مساكن) بصيغة الجمع لتوحي بأنها لم تقتصر على نوع واحد من بيوتها، بل هناك أنواع أخرى من بيوت النمل، فهي تبني مساكن فوق الأرض وتحتها، وتتخذ من الأشجار العتيقة بيوتًا، ومساكن النمل عبارة عن غرف وأروقة ودهاليز وطبقات غاية في الحسن والتنظيم.

قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ فالتبسم ضحك الأنبياء في غالب أمرهم، وقد جاء عند مسلم من

حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: «كَانَ الصَّحَابَةُ يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ ﷺ». وقد كان رسول الله ﷺ في أكثر أحواله يتبسم، وربما ضحك فبدت نواجذه، كما جاء عند الشيخين من حديث سعد بن أبي وقاص حين قتل الرجل، فسقط، فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى نظر سعد رضي الله عنه إلى نواجذه. وضحكه هنا إنما هو سرور بقتله، لا بانكشاف عورته، وكما جاء في غزوة ذي قرد عند مسلم من حديث سلمة رضي الله عنه حين قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! خَلِّنِي فَأَنْتَخِبُ مِنَ الْقَوْمِ مِائَةَ رَجُلٍ فَأَتَّبِعُ الْقَوْمَ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلَّا قَتَلْتُهُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ»، وقد كره العلماء كثرة الضحك، وقد قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الحسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ». رواه الترمذي.

قوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: ألهمني ذلك، وأصله من وزع، فكأنه قال: كفّني عما يسخط.

قوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مع عبادك، أو في جملة عبادك.

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: تطلّب ما غاب عنه من شيء، والطير: اسم جامع، والواحد: طائر، والمراد هنا: جنس الطير وجماعتها، وكانت تصحبه في سفره، وتظله بأجنحتها.

قوله: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ وهو طير معروف، وقرئت: (مالِيْ)، وكذا في سورة يس: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، وقد قيل: إن الهدهد يرى ما في باطن الأرض، ولا يرى الفخ الذي يضعه له الصبي. قال الشاعر:

إِذَا أَرَادَ اللهُ أَمْــــرًا بِــــامْرِئٍ ... وَكَــانَ ذَا عَقْــلٍ وَرَأْيٍ وَنَظَـرْ
وَحِيلَــةٍ يَعْمَلُهَــا فِــي دَفْــعِ مَــا ... يَــأْتِي بِـهِ مَكْـرُوهُ أَسْـبَابِ الْقَـدَرْ
غَطَّــى عَلَيْــهِ سَــمْعَهُ وَعَقْلَــهُ ... وَسَــلَّهُ مِــنْ ذِهْنِـهِ سَـلَّ الشَّـعَرْ
حَتَّــى إِذَا أَنْفَــذَ فِيــهِ حُكْمَــهُ ... رَدَّ عَلَيْــهِ عَقْلَــهُ لِيَعْتَبِــرْ

قوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: بل، وقيل: المعنى: أخطأه بصري من الطير أم غاب فلم يحضر؟ وهو الأظهر.

قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ وهذا إغلاظ على العاصين وعقاب على من أخل بحقوق النبوة من المفرطين، والعذاب قد يكون بسجنه مع أضداده، وقد قيل: أضيق السجون معاشرة الأضداد، وقد يكون بنتفه وجعله في الشمس، وقد يكون بنحو ذلك.

قوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة على تخلفه، وقرئت: (ليأتينّني) بنونين.

قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يعني الهدهد، وقيل: سليمان عليه السلام، والأول أولى، وقرئت: (فمكُث)

بضم الكاف، والفتح أفصح؛ لقوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾، والمعنى: أقام غير بعيد، يقال: مكث يمكُث مكوثًا، فهو ماكث، كما قالوا: قعد يقعُد قعودًا، ويقال: مكُث يمكُث، مثل: عَظُم يعْظُم، فهو مكِيثٌ، مثل: عظيمٌ، مثل: حَمُض يَحْمُض، فهو حامض.

قوله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي: علمت ما لم تعلمه.

قوله: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾ قرئت بالصرف، وهو اسم رجل نُسب إليه قوم. قال الشاعر:

الْـــوَارِدُونَ وَتَـــيْمٌ فِـــي ذَرَا سَــــبَإٍ ... قَـدْ عَـضَّ أَعْنَـاقَهُمْ جِلْـدُ الْجَـوَامِيسِ

وقرئت: (من سبأَ) بفتح الهمز وترك الصرف، أي: مدينة بمأرب اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، والقراءة الأولى أفصح، وسيأتي الحديث عن سبأ في سورة سبأ، وفي الآية دليل على أن الصغير قد يكون عنده من العلم ما ليس عند الكبير.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ٢٦ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾

قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً». وهو نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف في ذلك كما لا تكون قاضية، إلا إذا كانت بين النساء خاصة؛ لأن المرأة لا يتأتى لها أن تبرز إلى المجلس ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير.

قوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: مما تحتاجه المملكة في زمانها، وهي مبالغة.

قوله: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ أي: سرير من ذهب وأنواع الجواهر واللآلئ، متناهي الطول والعرض.

قوله: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ والمعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا، وقيل: لئلا يسجدوا، وعلى الوجهين مفعول له، وقرئت: (أَلاَ يسجدوا لله) بمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، فألا استفتاحية؛ لأن يا ينادى بِها الأسماء دون الأفعال، وحكى بعضهم سماعًا عن العرب: ألا يا آرحموا، ألا يا آصدقوا، يريدون: ألا يا

قوم، وعلى هذا فقوله: اسجدوا في موضع جزم بالأمر، والوقف على ألاّ يا، ثم تبتدئ فتقول: اسجدوا، قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونَها إلا بالتخفيف على نية الأمر، قال الزجاج: قراءة التخفيف تقتضي وجوب السجدة دون التشديد، وقيل: يا إنما هي للتنبيه، كأنه قال: ألا آسجدوا لله، فلما أدخل عليه يا سقطت الألف التي في آسجدوا؛ لأنّها ألف وصل، وذهبت الألف التي في يا لاجتماع الساكنين؛ لأنّها والسين ساكنتان، وقيل: التقدير: ألا ليسجدوا، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾، قيل: إنه أمر، أي: ليغفروا، والمقصود: أن التشديد هو الأَوْلَى؛ لأن الكلام للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، وأما السجود فهو في القراءتين، فقراءة التشديد خبر متضمنٌ مدح من سجد لله ﷻ، وذمًا لمن تركه، وقراءة التشديد أمر صريح بالسجود.

قوله: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: قطرها، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾أي: كنوزها ونباتَها وجميع أسرارها، و ﴿فِي﴾بمعنى من، ومن وفي يتعاقبان، تقول العرب: لأستخرجن العلم فيكم، يريد منكم.

قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر، وهو التأمل والتصفح.

قوله: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ قرئت بإسكان الهاء، وبإثبات الياء في اللفظ.

قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: وكن قريبًا حتى ترى مراجعتهم.

قوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: انتظر، أو فاعلم وأبصر، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، أي: يبصر ويعلم، وهو الأولى، والمقصود: اعلم ماذا يرجعون، أي: يجيبون، وماذا يريدون من القول، وقيل: ماذا يدور بينهم من الكلام.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: وإن الكلام، أو: إن مبتدأ الكلام ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأجاز الفراء: (أنه من سليمان وأنه)، بفتحهما جميعًا، على أنه يكون في موضع رفع بدل من الكتاب، بمعنى: ألقي إلي أنه من سليمان عليه السلام، ولأنه كأنّها عللت ختمه بكونه من سليمان عليه السلام، وتصديره ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال العلماء: لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام.

قوله: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي: لا تتكبروا عليَّ كما يفعل الملوك، وتعالوا إليَّ خاضعين مؤمنين مستسلمين لله رب العالمين.

قوله: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ أي: أشيروا عليَّ.

قوله: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أي: تحضرون وتشيرون، للمشاورة والاستعانة بالآراء، أو مداراة للأولياء، وقد أمر الإسلام بالمشاورة وأكدها، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، وقال تعالى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: يفعل الملوك إذا دخلوا القرى ما ذَكَرَتْه في كلامها، والكلام لله ﷻ مخاطبًا عبده محمدًا ﷺ، وقيل: هو من قول بلقيس تأكيدًا للمعنى الذي أرادته، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ وهذا من حسن نظرها وتدبيرها، ورجاحة عقلها وتفكيرها.

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: منتظرة.

قوله: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ سقطت الألف في ﴿بِمَ﴾؛ للفرق بين ما الموصولة، وما الاستفهامية التي تسقط ألفها عند دخول حروف الجرّ عليها مثل: فيم، علامَ، حتام...، وقد يجوز إثباتُها، والمقصود: إن كان نبيًا لم يرضه المال ولازَمَنا في أمر الدِّين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه، وإن كان ملكًا دنيويًا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، أو قاتلناه. قال قتادة: ما كان أعقلها في شركها وإسلامها، علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس. قال الشاعر:

هَدَايَا النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ... تُوَلِّدُ فِي قُلُوبِهِمُ الْوِصَالَا
وَتَزْرَعُ فِي الضَّمِيرِ هَوًى وَوُدًّا ... وَتُكْسِبُهُمْ إِذَا حَضَرُوا جَمَالَا

وقال آخر:

إِنَّ الْهَدَايَا لَهَا حَظٌّ إِذَا وَرَدَتْ ... أَحْظَى مِنَ الِابْنِ عِنْدَ الْوَالِدِ الْحَدِبِ

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ وهذا ليس من باب رد الهدية، وإنما هو من باب رد الرشوة وبيع الحق بالباطل،، فصاحب الرسالة وحامل الدعوة لا يبيع دعوته بثمن، وقد قال في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، وهذا لا تُقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس معنى هذا أن الهدية دائمًا مذمومة منهي عنها، ولكنها مذمومة إذا كانت رشوة، ومحمودة ومسنونة إن كانت هدية لوجه الله تعالى، ليست على

حساب الدين، وإنما هي للتحبب والتواصل فهي مما تقرره الشريعة، قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري في الأدب المفرد بسند حسن: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا».

وقد «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا». رواه البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ سَأَلَ عَنْهُ: أَهَدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَإِنْ قِيلَ: صَدَقَةٌ؛ (قَالَ لِأَصْحَابِهِ: كُلُوا)، وَلَمْ يَأْكُلْ، وَإِنْ قِيلَ هَدِيَّةٌ ضَرَبَ بِيَدِهِ ﷺ فَأَكَلَ مَعَهُمْ». وهذا ما لم يكن مشركًا، فإن كان مشركًا فقد قال ﷺ كما جاء عند أبي داود من حديث عياض بن حمار بسند جيد: «إِنِّي نُهِيتُ عَنْ زَبْدِ الْمُشْرِكِينَ». يعني: رفدهم وعطاياهم. وكذا من كان يتمنن في هديته ويذكرها، قال رسول الله ﷺ كما جاء عند أبي داود، والترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَايْمُ اللهِ لا أَقْبَلُ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا مِنْ أَحَدٍ هَدِيَّةً، إِلا أَنْ يَكُونَ مُهَاجِرًا قُرَشِيًا، أَوْ أَنْصَارِيًا، أَوْ دَوْسِيًا، أَوْ ثَقَفِيًا». وقرئت: (أَتُمِدُّونِّي) بنون واحدة مشددة وياء ثابتة بعدها، وقد قالت العرب: الرجال يضربونِ، أو يقصدونِ، وأصله: يضربونِّي، ويقصدونِّي؛ لأنه إدغام.

قوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: ما أعطاني من الإسلام والنبوة والملك خير مما أعطاكم، فلا أفرح بالمال، وقرئت ﴿آتَانِيَ﴾: (آتانِ) بدون ياء.

قوله: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا، تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف.

قوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ﴾ اللام للقسم، والنون لها لازمة. قال النحاس: وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لام توكيد، وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير: لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض، وهذا قول الحذَّاق من النحويين؛ لأنّهم يردون الشيء إلى أصله.

قوله: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم عليها.

قوله: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ أي: من أرضهم، أو من قرية سبأ.

قوله: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾ وذلك بعد مجيء هديتها ورده إياها، وبعثه الهدهد بالكتاب، وذلك ليريها القدرة التي من عند الله، ويجعله دليلًا على نبوته لأخذه من بيوتها دون جيش أو حرب. وقيل: استدعى عرشها قبل أن تسلم؛ لأنّها لو أسلمت لحظر عليه مالها، فلا يؤتى به إلا بإذنها، ويعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: رئيس قوي مارد، ويقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء: عِفر، وعِفرية، وعِفريت، وعُفارية، وجمع عفرية: عفارٍ، وجمع عفريت: عفاريت، أو عَفارٍ، كما يقال: طواغٍ جمع طاغوت، أو عَفاري، يقال: تعفرت الرجل، إذا تخلق بخلق الأذية، وعند الشيخين من

حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾، فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا».

وعن يحيى بن سعيد قال: «أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَأَى عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ يَطْلُبُهُ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا الْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَآهُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ إِذَا قُلْتَهُنَّ طَفِئَتْ شُعْلَتُهُ، وَخَرَّ لِفِيهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلَى. فَقَالَ جِبْرِيلُ: فَقُلْ أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ وَبِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَشَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَشَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَشَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ إِلَّا طَارِقٍ يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ». حديث حسن رواه مالك مرسلًا وله شواهد.

قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الذي تحكم فيه.

قوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ على حمله.

قوله: ﴿أَمِينٌ﴾ أي: على ما فيه.

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو كاتب سليمان عليه السلام، آتاه الله علمًا وفقهًا، وحفّظه سبحانه اسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وعلى هذا أكثر المفسرين، ولم يصح في ذلك خبر عن الصادق المصدوق ﷺ، وقيل: هو سليمان عليه السلام نفسه، وقيل: هو مَلَك من الملائكة أرسله الله ﷻ ليقوم بهذه الخارقة العظيمة، والكل محتمل.

قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، كما تقول: افعل كذا في لحظة عين.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ثابتًا عنده.

قوله: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيِّروه بزيادة أو نقصان أو هيئة، وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند جيد عن مجاهد قال: «فَغُيِّرَ مَا كَانَ أَحْمَر جُعِلَ أَخْضَر، وَمَا كَانَ أَخْضَر جُعِلَ أَصْفَر، غُيِّرَ كُلّ شَيْء عَنْ حَاله».

قوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها.

قوله: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وهذا جواب من هو غاية في الذكاء والحزم، ودلالة على أنّها ذات لب وعقل، فلم تقطع بأنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غُيِّر وبُدِّل ونُكِّر

لها.

قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هو من قول سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي: أوتينا وأعطينا من قدرة الله قبل هذه المرة، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة قبل مجيئها، وقيل: هو من قول بلقيس، يعني: أوتينا العلم بنبوة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل هذه الآية، والكل محتمل، والأول أقرب، والثالث أبعد.

قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيل: قد كانت تعبد الشمس والقمر، فصدّها ذلك عن الالتحاق بموكب الإيمان في وقت متقدم، حتى صار لها ما صار، وعادت إلى حظيرة الإيمان، وقيل: صدها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عن عبادة غير الله، وحال بينها وبين ذلك، وقيل: وصدها الله عما كانت تعبد من دون الله، فحذفت عن، وتعدى الفعل، نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من قومه.

قوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ أي: لأنّها.

قوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ أي: ادخلي إلى الصرح، فحذف إلى، وعُدِّي الفعل، وهذا توجيه سيبويه، وقال أبو العباس: ليس كذلك؛ لأن دخل يدل على مدخول. والصرح: القصر، وقيل: الصحن، كما يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها، وكل بناء مرتفع من الأرض يقال له: الصرح، وأصل هذا أن يقال لكل بناء عمل عملًا واحدًا: صرح، من قولهم: لبن صريح؛ إذا لم يَشُبْه ماء، ومن قولهم: صَرَّح بالأمر، ومنه: عربي صريح.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ظنته ماءً غمرًا كثيرًا.

قوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وقد فعل ذلك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ليريها مُلكًا هو أعز من ملكها، وسلطانًا هو أعظم من سلطانها، فلما رأته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه.

قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: محكوك أملس، ومنه: الأمرد، وتمرد الرجل، إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه، ومنه: الشجرة المرداء: التي لا ورق عليها، والممرد: المطول، ومنه قيل للحصن: مارد.

قوله: ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: من زجاج.

قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بالشرك وعبادة الشمس.

قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: وتابعتُ سليمان على دينه مؤمنةً برب العالمين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ
قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ
تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي: مؤمن وكافر، وقد سبقت هذه المخاصمة في سورة الأعراف عند قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلاّ تتوبون إلى الله.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا﴾ أي: تشاءمنا، والشؤم: النحس، ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطِّيرة، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدورًا فقد جهل، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، وكانوا إذا أرادوا سفرًا نفروا طائرًا، فإذا طار يمنة ساروا وتيمنوا، وإذا طارت شمالًا رجعوا وتشاءموا، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، كما جاء بسند جيد عند أبي داود من حديث أم كُرْزٍ رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «أَقِرُّوا الطَّيْرَ عَلَى وُكُنَاتِهَا».

قوله: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: مصائبكم يجازيكم الله ﷻ عليها.

قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ أي: تبتلون وتستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

قوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ أي: من رجال أشرافهم، والرهط: اسم للجماعة، فكأنّهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط، والجمع: أرهط، وأراهط.

قوله: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: حلفوا، وقيل: هو ماضٍ في معنى الحال، كأنه قال: قالوا متقاسمين بالله، والمقصود أنّهم حلفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام ليلًا.

قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ أي: لنقتلنّ صالحًا وأهله ليلًا.

قوله: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لرهط صالح عليه السلام، الذي له ولاية الدم.

قوله: ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا، ولا ندري من قتله وقتل أهله، والْمَهْلِك بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون: الموضع، وقرئت بفتح الميم واللام، أي: الهلاك، يقال: ضرب يضرب مَضْرِبًا، أي: ضربًا.

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: كُنَّا لهم بالمرصاد، فجازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، سمَّاه مكرًا بطريق المشاكلة، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلا

على وجه الجزاء والمشاكلة، ونظيره قوله تعالى عن المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣﴾

قوله: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ قرئت: (قدَرْنا)، والمعنى واحد، يقال: قد قَدَرتُ الشيءَ قدرًا وقَدَرًا، وقدَّرته.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب.

قوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس هذا العذاب الذي أُمطروا به.

قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على هلاك الكفار من الأمم الخالية، قيل: لمحمد ﷺ، وقيل: للوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، والأول أظهر؛ لأن القرآن منزل على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطب به، إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره. وقيل: أمر رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات -الآيات التالية- الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده، والسلام على أنبيائه، والمصطفين من عباده، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفيه تعليم حسن، وتأديب جميل، ولقد توارث العلماء والخطباء كابرًا عن كابر هذا الأدب الرائع، فحمدوا الله، وصلوا على رسول الله ﷺ قبل كل عظة، وفي مفتتح كل خطبة.

قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: اصطفاهم لرسالته، واختارهم لتبليغ دعوته.

قوله: ﴿ءَآللَّهُ﴾ جيء بالمد للتفريق بين الاستفهام والخبر، وهو استفهام إنكار.

قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ ليس بمعنى أفضل منك، كما يقال: السعادة أحب إليك أم الشقاء؟ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه، والجواب البديهي: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السماوات والأرض؟! وهو توبيخ وتنبيه على قدرة الله وعجز آلهتهم.

قوله: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذات منظر حسن، يبهج من رآه.

قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ ﴿مَّا﴾ للنفي والحظر والمنع، أي: ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ولا يقع تحت قدرتِهم أن ينبتوا شجرها، وهم أعجز من أن يفعلوا ذلك؛ لأنه إخراج الشيء من العدم إلى الوجود.

قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: فيجعلون له عديلًا ومثيلًا، ويسوّون بين الخالق الرازق والوثن.

قوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها.

قوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ في شعابها وأوديتها تسير شرقًا وغرقًا، وشمالًا وجنوبًا.

قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ يمنعها من الاختلاط، لئلا يُفسد البحار، المياهَ العذبة.

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: صاحب الضرورة، الذي لا حول له ولا قوة، وقد روى أبو داود بسند جيد عن جابر بن سليم ﷺ قال: «قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: أَنَا رَسُولُ اللهِ الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ أَوْ فَلَاةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ». قال الشاعر:

وَإِنِّـــي لَأَدْعُـــوُ اللهَ وَالْأَمْـــرُ ضَـــيِّقٌ ... عَلَـــيَّ فَمَـــا يَنْفَـــكُّ أَنْ يَتَفَرَّجَـــا

وَرُبَّ أَخٍ سُـــدَّتْ عَلَيْـــهِ وُجُوهُـــهُ ... أَصَـــابَ لَهَـــا لَمَّـــا دَعَـــا اللهَ مخرجـــا

وعند أبي داود بسند حسن عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَانِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

وروى النسائي في الكبرى من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا فَاطِمَةَ: مَا مَنَعَك أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيك بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت: يَا حَيّ يَا قَيُّوم بِرَحْمَتِك أَسْتَغِيث، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلّه، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَة عَيْن». صححه المنذري.

وعند أبي داود بسند جيد من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ». وعند أحمد بسند حسن: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ».

وعند الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا فَوْقَ الغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ». حديث حسن.

وعند الشيخين من حديث ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ». وكل من المظلوم والمسافر مضطر، والأخير لأنه منقطع عن الأهل والوطن، منفرد عن الصديق والحميم، وكذلك دعوة الوالد على ولده، لا تصدر منه إلا

عند تكامل عجزه عنه، وإياسه من بره، وفي الأدعية في هذا الباب ما جاء عند ابن حبان وابن السني عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا، وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزْنَ سَهْلًا إِذَا شِئْتَ». صححه ابن حجر في الفتح.

قوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الضر والجور.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ تعمرونها جيلًا بعد جيل، وأُمةً بعد أُمة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ قرئت: (بل أَدْرَكَ)، من الإدراك، وقرأ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (بلى أَدَّارَك) بإثبات الألف، وبِهمزة قطع ودال مشددة وألف بعدها. قال النحاس: وإسناده إسناد صحيح، هو من حديث شعبة. وفي معناه قولان: أحدهما أن المعنى: تكامل علمهم في الآخرة؛ لأنّهم رأوا كل ما وعدوا به معاينة، فتكامل علمهم به، والقول الآخر: بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة، فقالوا: تكون، وقالوا: لا تكون، وأما القراءة الثانية فمعناها على قولين: القول الأول كما سبق: كمل علمهم في الآخرة وكانوا أيضًا في الدنيا مكذبين، والقول الثاني: الإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾أي: لم يدرك علمهم علم الآخرة، أو ضل وغاب علمهم في الآخرة، فليس لهم فيها علم، وأما قراءة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فالمعنى: لم يدرك. قال الفراء: وهو قول حسن، كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث، كقولك لرجل تكذبه: بلى والله قد أدركت السلف، فأنت تروي ما لا أروي، وأنت تكذبه.

قوله: ﴿عَمُونَ﴾ أي: بقلوبِهم، واحدهم: عَمٍ، وأصله: عميون، حذفت الياء لالتقاء الساكنين، ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها.

قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أي: اقترب لكم، ودنا منكم العذاب، وهو من ردفه، إذا تبعه وجاء في أثره، وتكون اللام أدخلت؛ لأن المعنى: اقترب لكم، ودنا لكم، وقيل: معناه: معكم، أو تبعكم، ومنه رِدْف

المرأة؛ لأنه تبع لها من خلفها. ومنه قول الشاعر:

عَـادَ السَّـوَادُ بَيَاضًـا فِـي مَفَارِقِـهِ لَا مَرْحَبًـا بِبَيَـاضِ الشَّـيْبِ إِذْ رَدِفَـا

وهذه تحية الجاهل عند بداية الشيب، أما المسلم العاقل فتحيته: مرحبًا بالشيب؛ لأنه وقار، وكل شيبة له فيها حسنة، كما جاء في الحديث الصحيح، وليس هذا مكان ذكره.

قال الجوهري: وأَرْدَفه أمرٌ لغة في رَدِفه، مثل: تبعه، وأتبعه.

ورَدِفَه، ورَدِف له بمعنى، فتزاد اللام للتوكيد، كما تقول: نقدته، ونقدت له، وكِلته ووزنته، وكلت له ووزنت له.

قوله: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تُخفي، يقال: أكننت الشيء، إذا أخفيته في نفسك.

قوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: في الآخرة، فيجازي المحق والمبطل، وقيل: في الدنيا؛ فيظهر ما حرّفوه، ويقضي بينهم، والكل وارد.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: الكفار الذين علم الله أنّهم لا يؤمنون لتركهم التدبر، فهم كالموتى، لا حس لهم ولا عقل.

قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي: الكفار، فهم بمنزلة الصم، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾، وقد احتجت عائشة بكما جاء عند الشيخين في إنكارها أن النبي ﷺ كلم، موتى بدر بهذه الآية، وقد عُورضت بأن الله ﷻ خرق لنبيه ﷺ العادة، فردّ إلى قتلى بدر أرواحهم، وسمعوا بما يقول، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ

يُجِيبُوا» رواه الشيخان من حديث أنس ﵁ واللفظ لمسلم. فأحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا وحسرة وندامة، وكذلك عورضت بأحاديث السلام على الموتى، وهي صحيحة، بل روت عائشة ﵂ شيئًا منها، كما جاء عند مسلم، ولو لم يسمع الميت السلام لم يسلّم عليه، وكذا عورضت بأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا، كما جاء عند الشيخين من حديث أنس بن مالك ﵁.

قوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم.

قوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: ما تُسمع -سماع تدبر وإفهام- إلا المؤمنين.

قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وجب الغضب عليهم، وذلك في آخر الزمان، عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، وموت العلماء، وذهاب العلم، ورفع القرآن، ونسيان قول لا إله إلا الله.

قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ جاء عند مسلم من حديث حذيفة بن أسيد ﵁ قال: «اطَّلَعَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ. فَذَكَرَ: الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - صلى الله عليه وسلم -، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ-، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ».

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ﵁، قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا».

وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ، وَخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ».

وعند أحمد بسند صحيح من حديث أبي أمامة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ، ثُمَّ يُعَمَّرُونَ فِيكُمْ حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ، فَيَقُولُ: مِمَّنِ اشْتَرَيْتَهُ؟ فَيَقُولُ: اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ». ويقال: إنّها الجساسة التي جاء ذكرها عند مسلم من حديث فاطمة بنت قيس ﵂، عن تميم الداري ﵁، وهو قول مرجوح، بل ضعيف.

قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: الدابة، بلسان ذلق، وصوت مرتفع.

قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بآيات الله، ومن ذلك القرآن، ومحمد ﷺ، وغير ذلك

من الآيات، والتي منها أشراط الساعة الكبرى، وقرئت: (إن الناس).

قوله: ﴿فَوْجًا﴾ أي: زمرة وجماعة.

قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُدفعون ويساقون إلى موضع الحساب.

قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم تعلموا بطلانَها حتى تعرضوا عنها، وإنما كذبتهم بِها وأنتم جاهلون مفرطون في طلب حقيقتها، غير مستدلين ولا متدبرين.

قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريع وتوبيخ، أي: ماذا كنتم تعملون؟ وما عقيدتكم وأعمالكم حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا ما فيها؟ كل هذا وهم وقوف بين يدي الله، في مقام المساءلة.

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: ليس لهم عذر ولا حجة، ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، وحينئذ يختم على أفواههم، قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، وعند مسلم من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا! فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، كهيئة البوق، وقد مضى في سورة الأنعام.

قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من استقرأ النصوص وجد أن عدد النفخات خمس، وكل نفخة من هذه النفخات لها ما بعدها من الأحوال والأهوال:

فأولًا: النفخة الأولى: وهي نفخة الفزع الدنيوية الأرضية، قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وهاتان الآيتان دالَّتان على الفزع لا على الموت، فقد قال ﷺ في معنى ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾: «وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ». رواه الشيخان. إضافةً إلى أن الآية الأولى نفت الاستطاعة في حالتي التوصية، والرجوع إلى الأهل، فمفهومه أنهم يستطيعون غير ذلك، وهذا يدل على عدم موتهم بعد. وأما الآية الثانية ففيها أنهم نطقوا بالإيمان، وهذا لا يكون مع موتهم.

وقال ﷺ في حديث أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: فِيهِ خُلِقَ آدَمُ،

وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ». رواه أبو داود بسند جيد.

وقال ﷺ في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: «يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ. قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ». رواه مسلم.

وقال ﷺ في حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه وقد ذهب ثلثا الليل: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ؛ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ». حديث حسن، رواه الترمذي.

فإن قيل: إن المقصود بهذه النفخة هي نفخة الصعق، فالجواب: لو كان ذلك لما قال ﷺ: «إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا» أي: أرخى جانبه مرة ورفعه مرة يتأكد من الصوت ويتثبت منه، ثم تصيبه الصعقة بعده، فحمل الصعق على أنه مختلف عن الفزع الذي حصل أولى من جعله مرادفًا للجملة السابقة. وكذلك القول في حديث أوس بن أوس، فالنفخة هي نفخة الفزع، ثم تعقبها الصعقة، وقد تعقبها في الجمعة نفسها، وقد تعقبها في جمعة أخرى.

ثم إن المعنى يقوِّي حدوث مثل هذه النفخة بادئ الأمر، فإنها تكون بمثابة الإرهاصات ليوم القيامة، والإيذان بانتهاء الحياة على هذه الأرض، والدعوة إلى القدوم لأرض المحشر، فابتداء ذلك بنفخة فزع أنسب للمقام من فجأتهم بصعقة تقبض أرواحهم.

ومما يؤكد ذلك ما يعقب بعدها، والذي هو: الحشر الأرضي الأولي إلى أرض الشام. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾. وقال ﷺ في حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «الشَّامُ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ». رواه البزار بسند جيد.

ثانيًا: النفخة الثانية: وهي نفخة الصعق الدنيوية الأرضية، وذلك بعدما يجتمع الناس في أرض المحشر، حيث ينفخ في الصور فيصعق أهل الأرض جميعًا. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾، وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ فأعقبها بقوله: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾. وهي نفخة الصعق. قال ﷺ في حديث أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ... وَفِيهِ الصَّعْقَةُ». رواه أبو داود بسند جيد.

ليصبح أهل الأرض بعدها أمواتًا كلهم، قد التحقوا بمن سبقهم، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ويبقون أربعين. قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ». متفق عليه.

ثالثًا: النفخة الثالثة: وهي نفخة البعث الأخروية. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ

ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، حيث تَسمع أرواحُ الثقلين العلوية والسفلية صيحةً من قريب تَصُخُّ الآذان الروحية، لتأتي سراعًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

حينها يكون الإحياء، وهو البعث الذي تكاثرت عليه آيات الكتاب، وأخبار الحكمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال ﷺ وقد سأله أبو رزين العقيلي رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا رَزِينٍ: أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلًا؟ ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا، ثُمَّ أَتَيْتَ عَلَيْهِ مَحْلًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى، وَكَذَلِكَ آيَةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ». حديث حسن رواه أحمد. ويصطحب هذه النفخة ما قاله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ». متفق عليه. وحينئذٍ تعود الحياة إلى الكائنات ليقضي الثقلان حياةً أشبه ما تكون بالحياة الدنيا من بعض الوجوه، وهي حياة مقدارها خمسين ألف سنة. وقد سئل عكرمة كما جاء عنه بسند صحيح، عن يوم القيامة، أمن الدنيا هو أم من الآخرة؟ فقال: صدر ذلك اليوم من الدنيا، وآخره من الآخرة. رواه ابن أبي حاتم.

رابعًا: النفحة الرابعة. وهي نفخة الصعق للكون كله، سماواته وأرضه، وهي تقدمة للنزول الإلهي الذي لم يحصل بعد، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والذين هم الملائكة؛ لأنهم الذين يشهدون الأحداث والمتغيرات. وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ». رواه البخاري. وهذه النفخة هي نفخة صعق وغشيان، وليست نفخة موت، وهي التي قال تعالى عنها وعن حال الناس فيها: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾، وإنما كانت صعقة لا موتًا؛ لأنهم قد ماتوا قبل في النفخة الثانية، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وهذه هي (الواقعة) التي قال الله تعالى عنها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، فتندكُّ الأرض والجبال، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾.

النفخة الخامسة الخاتمة: نفخة الفزع الكبرى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾. وحينئذٍ تفيق الجموع من الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ قرئت: (آتوه) بالمستقبل.

قوله: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغرين مطيعين، لا يتخلف أحد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

قوله: ﴿جَامِدَةً﴾ أي: قائمة ثابتة في مرأى العين.

قوله: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تسير سيرًا حثيثًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾، وذلك أن الجبال تُجمع وتُسير، ولكثرتِها كأنّها جامدة، والسحاب المتراكم يظن أنّها واقفة، وهي تسير، أي: تمر مر السحاب، حتى لا يبقى منها شيء، قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، ويقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة، ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنفوش، قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾، والحالة الثالثة تنسف، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾، والحالة الرابعة يصير موضعها سرابًا لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر عند الخليل، وسيبويه؛ لأنه كما قال سبحانه: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ دل على أنه قد صنع ذلك صُنعًا، ويجوز النصب على الإغراء، أي: انظروا صنع الله.

قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحسن كل شيء، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتقِنَهُ». رواه أبو يعلى والطبراني من حديث عائشة رضي الله عنها وحسنه السيوطي. والإتقان: الإحكام، يقال: رَجُل تِقْن، أي: حاذق بالأشياء، وقال الزهري: أصله من ابن تِقْنٍ، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم، فضرب به المثل، يقال: أرمى من ابن تِقْنٍ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقرئت: (فزعِ يومئذ) بالإضافة، والقراءة الأولى أقوى مدلولًا؛ لدلالتها على الكثرة؛ لأنه مصدر، والمصدر صالح للكثرة. وانتصبت ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بالمصدر، الذي هو فزع، ويجوز أن يكون صفة لفزع، ويكون متعلقًا

بمحذوف، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل ﴿ءَامِنُونَ﴾، ومن حذف التنوين وفتح الميم (يومَئِذٍ) بناه؛ لأنه ظرف زمان، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكنًا، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بُنِي.

قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك.

قوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: أُلقيت وطرحت، يقال: كببت الإناء، أي: قلبته على وجهه، واللازم منه: أكبّ، وقلما يأتي هذا في كلام العرب.

قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك.

قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني مكة، التي عظم الله حرمتها، وفي حديث أبي بكرة ﷺ عند الشيخين في خطبة النبي ﷺ بمنى قال: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟».

قوله: ﴿ٱلَّذِي﴾ يعني الله تبارك وتعالى، نعت لـ ﴿رَبَّ﴾، وهي قراءة الجماعة، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، وأضاف الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، وهناك قراءة شاذة تُروى عن ابن عباس ﷺ (التي حرمها) نعتًا للبلدة.

قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: وأمرت أن أتلو القرآن.

قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته، في أنفسكم، وفي غيركم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء، وقد كان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره:

إِذَا مَا خَلَوتَ الدهرَ يومًا فَلا تَقُل ... خَلَوتُ وَلكن قُل عَليّ رَقيب

وَلا تَحْسَبَنّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلا أَنَّ مَا يَخفَى عَلَيْهِ يَغيب

انتهى تفسير سورة النمل، ولله الحمد.

  

سورة القصص

هي مكية، إلا بضع آيات.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾

قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استكبر وتجبر عن عبادة ربه، وادعى الربوبية، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقًا وأصنافًا في استخدامه وطاعته.

قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة في الخير، ودعاة إلى الحق، وملوكًا على الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾

قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي: قذفنا في قلبها بواسطة الإلهام.

قوله: ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ أي: لا تخافي عليه أولًا من الغرق، وثانيًا لا تخافي عليه من الضيعة.

قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ أولًا على فراقه، وثانيًا على أن يقتل.

قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ الالتقاط عند العرب: وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة، وتقول: التقطه التقاطًا، ولقيت فلانًا التقاطًا، ومنه: اللقطة.

قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ﴾ اللام لام العاقبة، ولام الصيرورة؛ لأنّهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوًا وحزنًا، فذكر الحال بالمآل. كما قال الشاعر:

وَلِلْمَنَايَا تُرَبِّي كُلُّ مُرْضِعَةٍ ... وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

فعاقبة البناء: الخراب، وإن كان في الحال مفروحًا به.

قوله: ﴿وَحَزَنًا﴾ قرئت: (وحُزْنًا)، كالعدَمَ والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد.

قوله: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: عاصين مشركين آثمين.

قوله: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيب منه خيرًا، وقد حصل لها ذلك، ودخلت بسببه الجنة، ورفع الله ذكرها إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، وقد روي عن فرعون أنه قال: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا. فكان كذلك، فهو إلى الجحيم، وهي إلى النعيم.

قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قيل: هو ابتداء من كلام الله تعالى، أي: لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، وقيل: هو من كلام المرأة، أي: وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا، والقول الثاني أقوى وأقرب.

قوله: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ قيل: ألقته ليلًا، فأصبحت نهارًا فارغًا قلبها، وقيل: ألقته نهارًا، ومعنى أصبح: صار، وهذا هو الصحيح.

ومعنى ﴿فَٰرِغًا﴾ أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي في ذهول.

قوله: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ أي: تكشف أمره وتظهر أنه ابنها.

قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ أي: بالإيمان والصبر، والربط على القلب: إلهام الصبر.

قوله: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: قالت أم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأخته: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره.

قوله: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: عن بعد.

قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: أنّها أخته؛ لأنّها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه.

قوله: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: منعناه من الارتضاع قبل مجيء أمه وأخته، و ﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ جمع مُرْضِع، ومن قال: مراضيع، فهو جمع مِرضاع، ومِفعال يكون للتكثير، ومن قال: مِرضاعة، جاء بالهاء للمبالغة، وهذا تحريم منع، لا تحريم شرع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ

ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزينا أم موسى لإحسانها واستسلامها، وتصديقها بوعد الله، كذلك نجزي كل محسن، والجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وقد كان فرعون قد نابذ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخرجه من المدينة الخاصة به حين عاب عليهم عبادتهم، فدخل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ المدينة ساعة وهم غافلون، قيل: في أول الليل.

قوله: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: إسرائيلي وقبطي، من قوم فرعون، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوجد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فرصة، وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي، ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ أي: دفعه بكفه، والوكز واللكز واللّهز واللهد بمعنى واحد، وهو الضرب بِجُمْع الكف مجموعًا، كعقد ثلاثة وسبعين، ويقال: نَكَزَه ونَهَزه ولَهده لهدًا، أي: دفعه، فهو ملهود، وكذلك: لَهَّده. وإنما شدد للكثرة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما جاء عند مسلم: «فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي». وكان ذلك حين خرجت وراءه إلى مقابر البقيع دون علمه.

قوله: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: قتله، وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه قضيت عليه.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من إغوائه؛ لأنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، ولم يقتله عمدًا مريدًا للقتل، وإنما وكزه يريد دفع ظلمه، وكان هذا قبل النبوة، وقد جاء عند مسلم من حديث سالم بن عبد الله أنه قال: «يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَسْأَلَكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ، وَأَرْكَبَكُمْ لِلْكَبِيرَةِ سَمِعْتُ أَبِي عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا، -وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ- مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ» وَأَنْتُمْ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الَّذِي قَتَلَ، مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، خَطَأً فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾». وروى البخاري بعضه.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: بالمعرفة والحكمة والتوحيد.

قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: عونًا للكافرين، وقد كان الإسرائيلي كافرًا، وإنما قيل له: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ لأنه كان إسرائيليًا، ولم يرد موافقة الدين، فعلى هذا ندم؛ لأنه أعان كافرًا على كافر.

قوله: ﴿خَآئِفًا﴾ أي: من معرة ما فعل أن يؤخذ بذلك، وقيل: من الله، والكل وارد.

قوله: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت وينتظر الطلب، وينتظر ما يتحدث الناس به، ولم يكن أحد علم بقتل القبطي غير الإسرائيلي.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ وهو الإسرائيلي

قوله: ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾أي: اليوم الذي قبل يومك، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن، فأُعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين، ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام، وحكى سيبويه أن من العرب من يُجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما اضطر الشاعر، ففعل هذا في الخفض والنصب. قال الشاعر:

لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَبًا مُذْ أَمْسَا

فخفض بـ (مذ) ما مضى، واللغة الجيدة الرفع، فأجرى في الخفض مجراه في الرفع في اللغة الثانية.

قوله: ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيثه لأن يقاتل قبطيًا آخر أراد أن يسخره، والاستصراخ: الاستغاثة، وهو من الصراخ؛ لأن المستغيث يصرخ ويصوت في طلب الغَوْث.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: خائب؛ لأنك تشاد من لا تطيقه، والغوي فعيل، من أغوى يُغوي، وهو بمعنى مُغوٍ، وهو كالوجيع والأليم، بمعنى الموجِع والمؤلم، وقيل: الغوي بمعنى الغاوي، وقيل: إنما قال موسى عليه السلام ذلك للقبطي في استصراخ الإسرائيلي، وهم أن يبطش به، وهو قول مرجوح، يقال: بَطَش يَبطُش ويبطِش، والضم أقيس؛ لأنه فعل لا يتعدى.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: بذلك القبطي الذي هو عدوٌ له وللإسرائيلي.

قوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ والمعنى: لما أراد موسى عليه السلام أن يبطش بالقبطي توهم الإسرائيلي أنه يريده؛ لأنه أغلظ له في القول، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، فسمعه القبطي، فأفشاه، وقيل: أراد الإسرائيلي أن يبطش بالقبطي، فنهاه موسى عليه السلام، فخاف منه، فقال له ذلك، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قتالًا، وقد قيل: لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل

نفسين بغير حق.

قوله: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس، وقيل: يأمر بعضهم بعضًا، قال الأزهري: ائتمر القوم وتآمروا، أي: أمر بعضهم بعضًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾.

قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه؛ ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: نحو مدين، لا يملك حولًا ولا طولًا، منفردًا، فارًا بنفسه.

قوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر.

قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ أي: بلغ الماء، لا أنه دخل فيه، ولفظ الورود قد يكون بمعنى الدخول في المورود، وقد يكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه، وإن لم يدخل.

قوله: ﴿مَدْيَنَ﴾ بلدة معروفة، وهي لا تنصرف.

قوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: جماعة.

قوله: ﴿يَسْقُونَ﴾ أي: ماشيتهم.

قوله: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: من الناحية التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمة.

قوله: ﴿تَذُودَانِ﴾ أي: تمتنعان وتحبسان غنمهما، ومنه قوله رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ لمسلم: «أَلا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي»، يقال: ذاد يذود، إذا حبس، وذُدت الشيء: حبسته.

قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما.

قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: إلى ظل شجرة.

قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ تعرض بسؤال ما يطعمه؛ لأن الخير يكون بمعنى الطعام، كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال، كما قال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، ويكون بمعنى القوة، كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، ويكون بمعنى العبادة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

قوله: ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: لم تكن بجيحة جريئة جسورة، وإنما جاءت في ذروة الحشمة والستر. قال عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «جاءَتْ تمشي على استحياء، قائِلةً بِثَوبِها، على وَجْهِها، ليست بِسَلْفَعٍ من النساء خرَّاجَةً ولّاجَةً». رواه ابن أبي حاتم، وصححه ابن كثير. قال الجوهري: السلفع من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة.

قوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن مدين خارجة عن الحكم الفرعوني الظالم، وقد اختلف العلماء، هل هو شعيب النبي الصالح الذي أرسل إلى أهل مدين عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وقيل: هو رجل مؤمن من قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن شعيب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قبل زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمدة طويلة، وقد قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ في زمن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بنص القرآن، وقد علم أنه بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة، قيل: إنّها تزيد على أربعمائة سنة، والقول الثاني هو الصواب، والدليل: ما ذُكر، ثم إنه لو كان شعيبًا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ اسمه.

قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ فيه دليل على أن الإجارة كانت فيمن سبق من الملل مشروعة معلومة، وهي ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ فيه عرض الولي العاقل ابنته على الرجل الصالح، وهذه سنة قائمة، وقد عرض عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حفصة على أبي بكر، وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما جاء عند البخاري، فمن الجميل الحسن الذي ليس فيه حياء ولا خجل عرض الرجل وليته أو المرأة نفسها على الرجل الصالح التقي النقي، اقتداء بالسلف الصالح، وفي الآية أيضًا دليل على أن النكاح حتى في الملل المتقدمة إنما هو إلى الولي، لا حظ فيه للمرأة، وبه قال فقهاء الأمصار، خلافًا لأبي حنيفة، وفي الآية أيضًا دلالة على أن الأب يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار إذا ظهرت المصلحة، وانتفت المفسدة، خلافًا لأبي حنيفة، حيث قال: لا يزوجها إلا برضاها إذا كانت بالغًا، وأما إذا كانت صغيرة فإنه لا بأس أن يزوجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذن لها ولا رضا بغير خلاف، وفي قول أبي حنيفة في هذه المسألة قوة، ولكن ليس على الإطلاق، وإنما هو خاص في البكر البالغة العاقلة الصالحة، التي تعرف مصلحة نفسها جيدًا، دينًا ودنيا، وفي الآية أيضًا دلالة على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح؛ لأن النكاح مفتقر إلى التصريح؛ لتقع

الشهادة عليه، وقد قال رسول الله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في خطبة حجة الوداع: «وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ». ولم يرد شيء في القرآن، سواء التزويج أو النكاح، وورد في السنة كما جاء عند الشيخين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما: «مَلَّكْتُكَهَا»، وهو الملاك، أي: النكاح والزواج؛ لأنه جاء في الرواية الأخرى: «زَوَّجْتُكَهَا»، وفي لفظ: «أَنْكَحْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مَنَ الْقُرْآنِ»، ونعم المهر هذا. قال الشاعر:

يَقُـــولُ الْعَبْـــدُ فَائِـــدَتِي وَمَـــالِي وَتَقْـــوَى اللهِ أَفْضَـــلُ مَـــا اسْـــتَفَادَا

وفي الآية الجواز على كون المهر إجارة، ويدخل الزوج ولم ينقد شيئًا، قال تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، والأولى أن يكون مالًا، كما قال تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ﴾.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ الحجج: السنون، وقد ترجم البخاري: باب من استأجر أجيرًا فبين له الأجر ولم يبين له العمل، لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾، وقد أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شهورًا معلومة بأجرة معلومة لرعاية غنم معدودة.

قوله: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك.

قوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ جاء عند البخاري عن سعيد بن جبير قال: «سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ: أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى حَبْرِ الْعَرَبِ فَأَسْأَلَهُ. فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَقَالَ: قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا؛ إِنَّ رَسُولَ اللهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ». وقد استدل بهذه الآية على صحة من قال: بعتك هذا بعشرة نقدًا، أو بعشرين نسيئة، وحمل الحديث الذي رواه أبو داود بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا، أَوِ الرِّبَا». وأخرج الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ». على بيع العينة، قوله: ﴿أَيَّمَا﴾ استفهام لـ ﴿قَضَيْتُ﴾، و ﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ مخفوض بإضافة أي إليهما، وما صلة للتأكيد، وفيه معنى الشرط، وجوابه: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾. وقال ابن كيسان: ما في موضع خفض بإضافة أي إليها وهي نكرة، و ﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ بدل منها.

قوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ أي: لا تبعة علي ولا طلب في الزيادة عليه، والعدوان: التجاوز في غير الواجب.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول موسى عليه السلام، وقيل: هو من قول والد المرأة، والأول أقرب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ

ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ
مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ
رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما له عليها من فضل القوّامية، وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم أمرًا، فالمؤمنون على شروطهم، كما جاء عند الشيخين من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحَقُّ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ».

قوله: ﴿ءَانَسَ﴾ أي: أبصر.

قوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ قرئت: (جِذوة) بالكسر، وقرئت: (جُذوة) بالضم، وهي الجمرة المتلهبة، والجمع: جِذًا وجُذًا وجَذًا، وهي مثل الجِذْمة، وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أو لم يكن.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بها.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ﴾ أي: من جانب، ويقال: شطه، والجمع: شُطَّان، وشواطئ. قال الجوهري: ويقال: شاطئ الأودية، ولا يجمع، وشاطأت الرجل، إذا مشيت على شاطئ ومشى هو على شاطئ آخر.

قوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: عن يمين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو الجبل.

قوله: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ﴾ ويقال: بَقْعة، وقولهم: بِقاع يدل على بَقْعة، كما يقال: جَفْنَة وجِفَان، ومن قال: بُقعة، قال: بُقع، مثل: غُرْفة وغُرَف.

قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: من ناحية الشجرة، وهي بدل اشتمال من قوله: ﴿شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ﴾، والتقدير: أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة، فـ﴿مِنَ﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هاربًا منها ولم يلتفت إليها.

قوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾ أي: أدخل يدك.

قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قرئت: (الرُّهْب)، وقرئت: (الرَّهَب)، واختار هذه القراءة

أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾، والمعنى: إذا هالك أمر يدك وشعاعها فأدخلها في جيبك واردها إليه تعد كما كانت، وقيل: أمره الله أن يضم يده إلى صدره، فيذهب عنه خوف الحية، وضم الجناح هو السكون، كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ارفق بهم. والمقصود أعم مما ذكر، وهو أنه أُمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهو يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. قال ابن كثير: وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده، أو يخف إن شاء الله. وفي هذا القول نظر؛ لأن هذا ليس مما أمر الناس بالاقتداء به، وإنما هو خاص بنبي الله موسى عليه السلام، وهي معجزة من معجزاته.

قوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: اليد، والعصا، وقرئت: (فذانِّك).

قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ أي: معينًا، مشتق من أردأته، أي: أعنته، والردء: العون، ويقال: أردأته بنفسي، أي: كنت له ردءًا، يقال: وقد أردأه ورداه، أي: أعانه، وقرئت بترك الهمز، وهو بمعنى المهموز، قال المهدوي: ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أردى على المائة، أي: زاد عليها، وكأن المعنى: أرسله معي زيادة في تصديقي.

قوله: ﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ وقرئت بالجزم.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: إذا لم يكن لي وزير ولا معين؛ لأنّهم لا يكادون يفقهون عني.

قوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نقويك به، وهذا تمثيل؛ لأن قوة اليد بالعضد. ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وهي ضد: فتّ الله عضدك، وقد قال تعالى في سورة طه: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: حجة وبرهانًا.

قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ بالأذى.

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: تمتنعان منهم، فيجوز أن يُوقف على ﴿إِلَيۡكُمَا﴾، ويكون التقدير: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، فالكلام فيه تقديم وتأخير. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ومن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي: العاقبة لكما ولأتباعكما.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٣٧ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٣﴾

قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: النصر والظفر، والتأييد في الدنيا، والجزاء الأوفر في الدار الآخرة.

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ لأنه استخف قومه، ومن قبل قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، ولقد علم عدو الله أن له ربًا خلقه وأوجده، ولذلك ما إن أخذه الله نكال الآخرة والأولى قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أي: اطبخ لي الآجر والجص، وكان هامان وزيره ومدبّر رعيته ومشير دولته، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾. أي: فاطبخ لي يا هامان الآجر فاجعل لي منه قصرًا شامخًا رفيعًا.

قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قال ذلك على سبيل التهكم.

قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذا كفر الشك، أي في قوله أن ثمّ ربًا غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قال إضافة إلى ما سبق: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: وجعلناهم في الدنيا قادة وزعماء ورؤساء في الكفر يدعون إلى عمل أهل النار بسيرتهم الظالمة وطغيانهم فيقتدي بهم ويتّبعهم أهلُ الضلال والكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم، وهؤلاء الطواغيت موجودون في كل أمة وفي كل زمن على سبيل فرعون في العمل، وعلى سبيله في الجزاء في الدنيا والآخرة من الخيبة والخذلان والخسران.

قوله: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ أي: أمرنا العباد بلعنهم في الدنيا، فمن ذكرهم لعنهم، كما ألزمناهم اللعن والبعد عن الخير، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ أي: المهلكين الممقوتين، المشوهين الخلقة بسواد الوجوه، وزرقة الأعين، المبعدين عن رحمة أرحم الراحمين، يقال: قبحه الله، أي: نحاه من كل خير، وقَبَحه وقَبَّحه، إذا جعله قبيحًا.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: من بعد قوم نوح عليه السلام، وعاد، وثمود، ومن بعد إغراق فرعون وقومه، والخسف بقارون، روى والبزار من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَهْلَكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلا مِنَ الأَرْضِ، إلا بَعْدَ مُوسَى. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ». صححه ابن حجر. وفي رواية عند الحاكم بسند صحيح: « مَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْمًا وَلَا قَرْنًا وَلَا أُمَّةً وَلَا أَهْلَ قَرْيَةٍ مُنْذُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مُسِخَتْ قِرَدَةً».

قوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ليتبصروا من العمى والغي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ أي: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلمنا موسى عليه السلام من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي.

قوله: ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا، وألزمناه عهدنا.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: الحاضرين، وهذه الآية وما بعدها كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، أي: وما كنت حاضرًا لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، كأنك سامعه وشاهده، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا

كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾، وقال تعالى عن قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾، وهذه الآيات وما شابهها تسلية للرسول الكريم ﷺ، وبرهان قاطع على نبوته لكل صاحب قلب سليم، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرًا صحيحًا، لا يخالطه شك، وهو الرجل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو مع ذلك ناشئ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ أي: من بعد موسى عليه السلام.

قوله: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذكر الله وعهده، وما أوحاه إلى الأنبياء والمتقدمين، ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: ضيفًا مقيمًا، كمُقام موسى عليه السلام في أهل مدين، حتى تتلو على قومك الآيات البينات.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك في أهل مكة، وآتيناك كتابًا فيه هذه الأخبار القاطعة.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ أي: لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى عليه السلام لما أتى إلى ميقاتنا مع السبعين.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ قيل: هم اليهود، وقيل: هم كفار مكة، وهذا الصحيح، والمعنى: أولم يكفروا البشر الذين هم مثلهم وعلى شاكلتهم بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة، وقيل: إن اليهود علموا المشركين، وقالوا: قولوا لمحمد ﷺ: لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى عليه السلام، فإنه أوتي التوراة وقفة واحدة، وأعطي الآيات، فهذا الاحتجاج وارد على اليهود، أي: أولم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى عليه السلام حين قالوا في موسى، وهارون عليهما السلام:﴿سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، أي: تعاونا وتناصرا على السحر، وصدق كل منهما الآخر، وقرئت: (ساحران).

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بكل واحد منهما لشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون عليهما السلام، دل ذكر أحدهما على الآخر، وقيل: أرادوا التوراة والإنجيل، واختاره ابن جرير، وقيل: الإنجيل والقرآن، وقيل: التوراة والقرآن، ويكون معنى: ﴿تَظَٰهَرَا﴾: صدق أحدهما الآخر، والقول الأول هو الصواب، والقول الأخير وارد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ أي: من كتابي موسى، ومحمد عليهما السلام، وكذا قراءة (ساحران).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفق للحق من كان معاندًا ظالمًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتبعنا بعضه بعضًا، وبعثنا رسولًا بعد رسول، ووصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة، حتى كأنّهم في الآخرة وهم في الدنيا، وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض، والآية دليل على من قال: هلا أوتي محمد ﷺ القرآن جملة واحدة. وقد روى الطبراني بسند جيد من حديث رفاعة القرظي رضي الله عنه، قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَشَرَةِ رَهْطٍ أَنَا أَحَدُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن، وبمن أُنزل عليه القرآن، وهو محمد ﷺ.

قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: من قبل القرآن، ومحمد ﷺ.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ جاء في الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ».

قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: ويدفعون الكلام القبيح بالكلمة الطيبة.

قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي: ساقط الكلام.

قوله: ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلام متاركة ومباعدة.

قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ ثبت عند الشيخين من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه: «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: أَيْ عَمِّ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً (أُحَاجُّ) -وَفِي رِوَايَةٍ: أَشْهَدُ- لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي

أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. -وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ-، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ. فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾». وقد أجمع المسلمون على أنّها نزلت في أبي طالب.

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ أي: يقول المشركون: إنا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، يعني مكة؛ لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بِهم، والاختطاف: الانتزاع بسرعة، وكان هذا من تعللاتِهم التي ينسجها الشيطان لهم.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ لأن العرب كانت في الجاهلية يُغِير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضًا، وأهل مكة آمنون بحرمة الحرم.

قوله: ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ أي: يُجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد، يقال: جُبي الماء في الحوض، أي: جمع، والجابية: الحوض العظيم، وقرئت: (تُجبى) أي: الثمرات.

قوله: ﴿إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ نصبت رزقًا على المفعول من أجله، ويجوز نصبه على المصدر؛ لأن معنى تجبى: ترزق.

قوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: في معيشتها، فلما حذف (في) تعدى الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلًا﴾، وقيل: منصوب على التفسير، كما تقول: أبطرت مالك، وبطرته، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾، وقوله: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسًا﴾، وقيل: معنى ﴿بَطِرَتۡ﴾ جهلت، والمعنى: جهلت شكر معيشتها، والقول الأول أقوى.

قوله: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: من المساكن، وأكثرها خراب، والاستثناء يرجع إلى المساكن، أي: بعضها يسكن من قبل المسافرين أو المارين.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾ أي: في أصلها وعاصمتها رسولًا.

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ببعثة المرسلين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ

ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: الجنة، ورؤية الله ﷻ.

قوله: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائل، المشوب بالأكدار، المملوء بالمتاعب.

قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: في النار، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم الرؤساء والسادة المتبعون، يتقدمهم الشياطين.

قوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم كما ضللنا، لا بالقسر والإكراه، ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح فضلّوا كما ضللنا نحن.

قوله: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبرأ بعضنا من بعض، فالشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن تبعهم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

قوله: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لو أنّهم كانوا يهتدون لأنجاهم ولما صاروا إلى العذاب، أو لو أنّهم كانوا يهتدون ما دعوهم. وقيل: ودّوا حين رأوا العذاب لو أنّهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة، والأخير هو الأقرب.

قوله: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي؟ فماذا يقول المقلد بعد قيام الحجة عليه من الدين؟!.

قوله: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: خفيت عليهم الحجج والأخبار، فلا عذر ولا حجة لأحد يوم القيامة، وقد أعذروا وقامت عليهم الحجة في الدنيا.

قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا عن الحجج؛ لأن الله أدحض حججهم فلا يستطيعون النطق بحجة، ثم هم لا يدرون بماذا يجيبون من هول تلك الساعة، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر الله عن قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ۝٢٣ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، فلا أنساب ولا أحباب، فلا يسأل بعضهم بعضًا أن يحمل من ذنوبه شيئًا.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ سواء من النبيين، أو المرسلين، أو الصديقين، أو الشهداء، أو الصالحين، وقد جاء عند البزار بسند قال عنه القرطبي: صحيح، عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى الْعَالَمِينَ، سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَاخْتَارَ لِي مِنْ أَصْحَابِي أَرْبَعَةً يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا، رَحِمَهُمُ اللهُ، فَجَعَلَهُمْ أَصْحَابِي، وَقَالَ فِي أَصْحَابِي: كُلُّهُمْ خَيْرٌ، وَاخْتَارَ أُمَّتِي عَلَى الأُمَمِ، وَاخْتَارَ أُمَّتِي أَرْبَعَ قُرُونٍ، الْقَرْنُ الأَوَّلُ، وَالثَّانِي، وَالثَّالِثُ، وَالرَّابِعُ».

قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء، سوى اكتسابه بقدرة الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾، واختار ابن جرير أن ﴿مَا﴾ ليست نافية، وإنما هي بمعنى الذي، والتقدير: ويختار الذي لهم فيه خيرة، والقول الأول هو الحق.

قال الشاعر:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ ... أَرَدْتَ فَإِنَّ اللهَ يَقْضِي وَيَقْدِرُ
إِذَا مَا يُرِدْ ذُو الْعَرْشِ أَمْرًا بِعَبْدِهِ ... يُصِبْهُ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ
وَقَدْ يَهْلِكُ الإنسان ومن وَجْهِ حِذْرِهِ ... وَيَنْجُو بِحَمْدِ اللهِ مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ

وقال آخر:

الْعَبْدُ ذُو ضَجَرٍ وَالرَّبُّ ذُو قَدَرٍ ... وَالدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ وَالرِّزْقُ مَقْسُومُ
والخير أجمع فيها اخْتَارَ خَالِقُنَا ... وَفِي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ وَالشُّومُ

ويستحب لمن أقدم على أمر مهم من أمور الدنيا أن يسأل الله الخيرة في ذلك، بأن يصلي ركعتين نافلة غير فريضة، ثم يدعو بدعاء الاستخارة الثابت عن رسول الله ﷺ، وقد رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ،

وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي- وَآجِلِهِ؛ فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي- وَآجِلِهِ؛ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي. قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله: ﴿سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: دائمًا.

قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهذا من باب اللف والنشر.

قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

قوله: ﴿فَقُلْنَا﴾ أي: للمشركين. ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء.

قوله: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: صدق ما جاءت به الأنبياء، وأنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يتخرصونه في الدنيا من الشركاء والأنداد.

قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالكفر والاستخفاف بهم بكثرة ماله وولده.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ ﴿مَآ﴾ مفعول به للفعل آتينا، بمعنى الذي، و ﴿إِنَّ﴾ حرف توكيد ونصب، و ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾، وجمله: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ صلة الموصول، و ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمع مِفتح، وهو ما يفتح به، ومن قال: مفتاح، قال: مفاتيح، ومن قال: هي الخزائن، فواحدها:

مَفْتح بالفتح.

قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ أي: تميلهم بثقلها، فالعصبة تنهض متثاقلة، كقولك: قم بنا، أي: اجعلنا نقوم، يقال: ناء ينوء نوءًا، إذا نَهض بثقل، وأناءني، إذا أثقلني، وقيل: مقلوب، والمعنى: لتنوء بِها العصبة، أي: تنهض بِها، يقال: نؤت بالحمل، إذا نَهضت، وقيل: هو مأخوذ من النأي، وهو البعد، والقول الأول هو الصواب. والعصبة: الجماعة التي يتعصب بعضهم لبعض، قيل: ثلاثة، وقيل: سبعون، وقيل: بين ذلك.

قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل، وقيل: موسى ﵇، وهو جمع أُريد به واحد، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، وإنما هو نعيم بن مسعود ﵁ كما تقدم، والقول الأول أولى.

قوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾ أي: لا تأشر ولا تبطر، وقيل: لا تفسِد، وقيل: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾ أي: لا تبغ، وجميع المعاني معتبرة وواردة، وقد جمعها قارون، فهو بطر مفسد باغ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾: أي البطرين. قال الشاعر:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي ... وَلَا ضَارِعٌ فِي صَرْفِهِ الْمُتَقَلِّبِ

و ﴿ٱلۡفَرِحِينَ﴾ والفارحين سواء، كطمع وطامع، وميت ومائت.

قوله: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ وهي الجنة.

قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: في طلب الحلال أكلًا وشربًا ولبسًا، بلا سرف ولا مخيلة، ولكن بالقناعة والتواضع. قال الشاعر:

هِيَ الْقَنَاعَةُ لَا تَبْغِي بِهَا بَدَلًا ... فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ الْبَدَنِ

انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

وقال آخر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداء ان تُلْوَى فِيهِمَا وَحَنُوطُ

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث ابن عمرو ﵄: «إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًا».

قوله: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ أي: أطع الله واعبده كما أنعم عليك، وأحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ

مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ
يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ
ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ
يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾
تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ
خَيْرٌ مِّنْهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: لعلم الله فِي أني أهل له، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي: على علم من الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: هذا أستحقه، وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب، كما جاء في حديث الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى، حين قال الأول، والثاني: «إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والقولان محتملان.

قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يُسألون سؤال استعتاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، وإنما يسألون تقريعًا وتوبيخًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقيل: لا يسألون عنها لظهورها وكثرتِها، بل يدخلون النار بلا حساب، كما جاء عند الشيخين من حديث أسامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ». وبنحوه من حديث عمران رضي الله عنه عند البخاري، والقولان وجيهان.

قوله: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: مع زينته من الثياب والدواب والتجمل.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم الأحبار.

قوله: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: في الدار الآخرة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾».

قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قيل: هو من كلام الأحبار، وقيل: هو من كلام الله، والقول الثاني أظهر، والمعنى: ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة، وعلى

المعنى الأول: لا يلقى الجنة إلا الصابرون.

قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلاءِ، خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وعند أحمد بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ، يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ اللهُ الأَرْضَ، فَأَخَذَتْهُ، وَإِنَّهُ لَيَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه ولا حشمه.

قوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ فلم يدفعوا عنه نقمة ولا عذابًا ولا نكالًا، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه.

قوله: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ وي حرف تندم، قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا قول الخليل، وسيبويه، والكسائي: إن القوم تنبهوا أو نُبِّهوا، فقالوا: وي، والمتندم من العرب يقول في خلال تندمه: ويْ. قال الجوهري: ويْ كلمة تعجب، ويقال: وَيْكَ، ووَيْ، وقد تدخل ويْ على كأن المخففة والمشددة، تقول: ويكأن الله. قال الخليل: هي مفصولة، تقول: ويْ، ثم تبتدئ فتقول: كأنّ. وقال الفرّاء: هي كلمة تقرير، كقولك: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه. وذكر أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك ويلك؟ فقال: وي! كأنه وراء البيت، أي: أما ترينه؟ وقيل: هو تنبيه بمنْزلة ألا، في قولك: ألا تفعل؟، وأما، في قولك: أما بعد.

وقال قطرب: إنما هو: ويلك، وأسقطت لامه، وضُمت الكاف التي هي للخطاب إلى ويْ. قال عنترة:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا ... قَوْلُ الْفَوَارِسِ وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

وقيل: معناه: ألم تر أن الله، والقول الأول أحسنها، والقول الأخير له وجاهة. قال الشاعر:

وَيْكَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

أي: ألم تر أن من لم يكن.

والمعنى: يقولون ندمًا وأسفًا على ما صدر منهم من التمني: اعجبوا أيها القوم من صنع الله، كيف أن الله يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده -بحسب مشيئته وحكمته- لا لكرامته عليه، ويضيق الرزق على من يشاء -لحكمته وقضائه ابتلاءً- لا لهوانه عليه!.

قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة، وقال ذلك على جهة التعظيم لها، والتفخيم لشأنِها، يعني: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها.

قوله: ﴿عُلُوًّا﴾ أي: رفعة وتكبرًا على الإيمان والمؤمنين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ

هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أنزل عليك القرآن، وفرض عليكم العمل به.

قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إِلَى مَكَّةَ». وفي هذه الآية بشارة للنبي ﷺ برده إلى مكة قاهرًا لأعدائه، يقال: مَعاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود. وقيل: إلى الموت، وقيل: إلى يوم القيامة، يقال: بيني وبينك المعاد، أي: يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء، والقول الأول هو الحق.

قوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ﴾ أي: قل لكفار مكة إذا قالوا: إنك لفي ضلال مبين. ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنا أم أنتم.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: ما علمت أننا نرسلك إلى الخلق وننَزل عليك القرآن.

قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: لكن، وهذا استثناء منقطع.

قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: أقوالهم وكذبُهم وأذاهم، ولا تلتفت نحوهم، وامض لأمرك وشأنك، ويقال: (يُصِدُّنَّك)، من أصده، بمعنى صده، وهي لغة في كلب.

قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا هو، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فعبّر بالوجه عن النفس، وأما ما أريد به وجهه فهو باق كذلك. قال الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

وهذا القول لا ينافي القول الأول؛ لأن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنّها باطلة، إلا ما أريد به وجه الله تعالى، الصالحة المطابقة للشرع، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة، إلا نفسه سبحانه، فإنه الأول والآخر والظاهر والباطن قبل كل شيء وبعد كل شيء، ولا ريب أن القول الأول هو المعول والمعتبر في معنى الآية، والمقصود منها.

انتهى تفسير سورة القصص، ولله الحمد.

  

سورة العنكبوت

قيل: مكية كلها، وهو الصواب، إلا آيات منها، وقيل: مدنية، وقيل: نزلت بين مكة والمدينة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ استفهام تقريري، في ضمنه التوبيخ.

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي: يمتحنون في إسلامهم وصدق انتمائهم، وحبهم لله ولرسوله ﷺ.

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كالخليل عليه السلام حين ألقي في النار، وكأصحاب الأخدود، وقد روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ -وفِي رِوَايَةٍ: فَقَعَدَ وهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ- قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

وعند ابن ماجه بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ! قَالَ: إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ».

وجاء عند الترمذي بسند جيد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ؛ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ: فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وما عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ». وقد سبق نظير هذه الآية.

قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: لنعلمنهم في دنيا الابتلاء والامتحان، وإلا فالله سبحانه يعلم ما كان، وما سيكون.

قوله: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون.

قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الحكم ما حكموا في قدرة ربّهم، والله القادر على كل شيء. والتقدير: ساء حكمهم، أو ساء الحكم حكمهم.

قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ أي: في الدين، وصبر على قتال الكفار، وأعمال الطاعات ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي: يسعى لنفسه.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ روى مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝١٣ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤﴾

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ نصبت ﴿حُسْنًاۖ﴾ عند البصريين على التكرير أي على أنه نائب عن المفعول المطلق: ووصيناه حسنًا، وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا، فيقدر له فعل. أي: يوصينا أن نفعل بها خيرًا، كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي: يمسح مسحًا.

قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ روى مسلم عن مصعب بن سعد عن أبيه: «أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ

عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مبالغة، على معنى: فالذين هم في نِهاية الصلاح وأبعد غاياته، وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل له ثمرته وجزاؤه، وهو نيل الدرجات العلا من الجنة.

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة، فارتد على عقبيه، وتنازل عن إيمانه، وما أكثر اليوم من يجزع من عذاب الناس كما يجزع من عذاب الله، وليس عنده أدنى استعداد على الصبر على الأذية في سبيل الله، ولا شك أن هذا منشأه الجهل بالله. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، من الحمالة، لا الحمل على الظهر، وهو أمر في تأويل الشرط والجزاء.

قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لأنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وقد جاء من حديث جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ». ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». رواهما مسلم.

قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: المطر الذي أغرقهم، يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر، أو قتل، أو موت: طوفان.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ

ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾

قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ قيل: السفينة، وقيل: العقوبة، وقيل: النجاة، والقول الأوسط أقرب، والكل وارد. وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وجعلنا نوعها رجومًا، فإن التي يُرمى بها ليست هي زينة السماء، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾.

قوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ إما منصوب بأنجينا، أو معطوف على نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمعنى: وأرسلنا، أو يكون منصوبًا بمعنى: واذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والقول الأخير أقربُها.

قوله: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ أي: تنحتون وتصنعون كذبًا، والمعنى: إنما تعبدون أوثانًا وأنتم تصنعونَها.

قوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي: اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله، فإياه فاسألوه وحده دون غيره، وهذا أبلغ في الحصر، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ قرئت: (أولم تروا). قيل: هذه الخطابات من قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: الخطاب موجه لقريش، والقول الأول هو الأظهر.

قوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي: على كثرتهم، وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم، كيف أهلكهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله.

قوله: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قرئت بتسكين الشين وبفتحها (النشَأة)، وهما لغتان، مثل: الرأْفة والرأَفة.

قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله، كما جاء عند أبي داود من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند حسن عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ».

قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ أي: ترجعون وتُردون يوم القيامة.

قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه إن

عصوه.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: كفروا بالقرآن، وبما نصب من الأدلة الكونية، وبالبعث.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: من الجنة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾

قوله: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ قرئت: (مودةُ)، وقرئت: (مودةٌ)، وقرئت: (مودةً). فالأولى على أنّها مفعول من أجله، كما تقول: قصدت فلانًا مودة له، أو مفعول به بوقوع الاتخاذ عليها، والثانية إما خبر إن، أو على تقدير: هي مودة، أو: تلك مودة، أو مرفوعة بالابتداء.

قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ أي: استسلم لإبراهيم وأطاعه وانقاد له، وكان أول من آمن به حين رأى النار بردًا وسلامًا، فالإيمان بالشخص غير الإيمان له، لأن الإيمان به تصديقه والاستجابة لدعوته والدخول في دينه، والإيمان له يعني الاستسلام والانقياد له واتباعه وطاعته، وهذا لا يتحقق إلا بعد الإيمان به وتصديقه.

قوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: وقال الخليل إبراهيم: إني تاركٌ وطني، إلى رضا ربي، أو إلى حيث أمرني. وقيل: القائل: لوط عليه السلام؛ لأنه هو أقرب المذكورين، والقول الأول أقرب، والقول الثاني وارد.

قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم -لما فارق قومه في الله- ولدًا صالحًا هو إسحاق وولد ولدٍ وهو يعقوب بن إسحاق.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم عليه السلام إلا من صلبه، ووحّد الكتاب لأنه مصدر، كالنبوة، والمراد: التوراة، والإنجيل، والقرآن، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام كانوا من ولد إبراهيم عليه السلام.

قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ فاجتمع أهل الملل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ أي: عاقبة وعملًا صالحًا وثناءً حسنًا.

قوله: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وكانوا قطاع طريق، يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة وسلب

أموالهم.

قوله: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: مجالسكم.

قوله: ﴿ٱلۡمُنكَرَ﴾ كالصفير، والتشبه بالنساء، ولعب النرد والشطرنج وغير ذلك من الأمور المنكرة والمستقبحة، التي لا تليق بأصحاب المروءة والحشمة والوقار.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: (الملائكة) والبشرى: هي تبشير إبراهيم بغلام حليم.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي: قرية قوم لوط.

قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ قرئت بالتشديد والتخفيف.

قوله: ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الهالكين.

قوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: حزن بسببهم، وضاق صدره من مجيئهم.

قوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ قرئت بالتشديد والتخفيف، وهما لغتان: أنجى، ونجى، والمعنى واحد.

قوله: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ قرئت ﴿مُنزِلُونَ﴾ بالتشديد والتخفيف.

قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: ميتين.

قوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ قيل: واذكر، وقيل: وأهلكنا.

قوله: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ أي: في الضلالة، وقيل: قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين، وهذا القول هو الظاهر؛ لأنه إنما يقال: فلان مستبصر، إذا عرف الشيء على الحقيقة، وكان القوم عقلاء ذوي بصائر، فلم تنفعهم عقولهم ولا بصائرهم، بل صارت عليهم نقمة، وكم من عاقلٍ اليوم عقلًا دنيويًا، طبيبًا

كان أو مهندسًا أو صانعًا أو مفكرًا، وهو من أهل الجحيم، والمهدي من هداه الله.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله: ﴿سَٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين، وقيل: سابقين في الكفر، بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة، فأهلكناهم. والقول الأول الصواب.

قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: أخذنا كلًا بذنبه، فنصبت كلًا بـ ﴿أَخَذۡنَا﴾.

قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ أي: قوم لوط عليه السلام، والحاصب: الريح المحملة بالحصباء، وهي الحصى الصغار، وتستعمل في كل عذاب.

قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مع الرجفة كثمود.

قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارون وأصحابه.

قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وجنده.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ قيل: الأولى الوقف على ﴿ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾، وقيل: ﴿بَيۡتٗا﴾، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ لتفاهته وحقارته، والعنكبوت تؤنث وتذكر، ويذكر العلماء المعاصرون أن العنكبوت أُنثت في القرآن لأن الأنثى هي المرادة حقًا، إذ أنها هي التي تبني البيت، وهذا من الإعجاز العلمي للقرآن. قال الشاعر:

عَلَى هَطَّالِهِمْ مِنْهُمْ بُيُوتٌ ... كأن العنكبوت قد ابتناها

والعنكبوت: دويبة معروفة تنسج نسجًا رقيقًا مهلهلًا بين الهواء، ويجمع على عناكيب، وعَنَاكِب، وعِكَاب، وعُكُب، وأَعْكُب، ويُحكى: عَنْكَب، وعَكَنْبَاه، وتصغر على عُنَيْكِب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: يعلم ضعف ما يعبدون من دونه، وقرئت: (ما تدعون).

قوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: ما يفهمها إلا الْعَالِمُونَ بالله ﷻ، فكل من عقل عن الله مراده فهو العالم، وما عدا ذلك فهو المتعالم أو المقلد، قال بعض السلف: ما مررت بآية من كتاب الله ﷻ لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي: الصلاة الحقيقية، التي اجتمع فيها الإخلاص، والخشية، والخشوع، وذكر الله، فمن دخل في محرابه، وخشع قلبه، وأخبت لربه، وسكنت جوارحه، وادكر أنه واقف بين يدي علام الغيوب، وأنه مطلع عليه يسمعه ويراه، صلحت حاله، وتذللت نفسه، وخامرها ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. وهكذا ينبغي أن تكون صلاة المؤمن، لاسيما إن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله؛ لأن الموت ليس له سن محدود، ولا زمن مخصوص، ولا مرض معلوم، وقد كان رسول الله ﷺ يقول كما في الحديث الحسن عند ابن ماجه من حديث أبي أيوب رضي الله عنه: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلاتِكَ فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ». وقد كان بعض السلف إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه، فكُلِّم في ذلك، فقال: إني واقف بين يدي الله تعالى، وحُق لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك السماوات والأرض؟ فهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، أما من كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها، ولا تذكر، ولا فضائل، كصلاتنا، وليتها تجزي، فتلك تترك صاحبها في منْزلته حيث كان، فإن كان على معصية لم يزل فيها إلا أن يشاء الله، وقد قيل لبعض السلف: إن فلانًا كثير الصلاة، فقال: إنّها لا تنفع إلا من أطاعها.

قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذكر الله للعباد بالثواب والثناء عليهم في الملأ الأعلى، أكبر من ذكر العباد لله ﷻ في عبادتهم وصلواتهم، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». وقيل: ذكر الله أكبر من كل شيء، وهو أفضل من العبادات كلها التي ليس فيها ذكر. وقيل: ذكر الله أكبر في نَهيه عن الفحشاء والمنكر. والمعنى: أن الحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نَهي، وإنما المؤثر الذكر النافع مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله، والقول الأول الجدير بالصواب، والثاني له وجه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن

قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ
وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ
بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وهذا لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، فلا يسلك مع أحدٍ يُدعى إلى الله، سبيلَ المخاشنة والإغلاظ، وهذه الآية محكمة.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: ظلموكم، فمن ناصب المؤمنين الحرب فإنما جدالهم بالسيف، حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ جاء عند البخاري عن أبي هريرة ﵁ قال: «كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ».

قوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي: من عرب قريش وغيرهم.

قوله: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلق؛ لأنّهم يجدون في كتبهم أنه لا يقرأ كتابًا ولا يخط حرفًا، وإنما هو أُمِّيٌّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

وقيل: لو كنت تحسن القراءة والكتابة لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنّهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أُمّي لا يحسن الكتاب، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾. والقولان وجيهان، ويحتملهما السياق.

قوله: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: يحفظه العلماء في صدورهم، وقد جاء عند مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ». وجاء في حديث حسن عند الدارمي عن عقبة بن عامر ﵁، قال رسول الله ﷺ: «لَوْ جُعِلَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ مَا احْتَرَقَ». قال البغوي: حكي عن أحمد بن حنبل قال: يرجى لمن القرآن في قلبه أن لا تمسه النار. وقد أعطيت هذه الأمة الحفظ، وكان من قبلنا لا يقرؤون كتابهم إلا نظرًا، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه، إلا النبيون.

وقيل: ﴿بَلۡ هُوَ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوبًا عندهم في كتبهم بهذه الصفة، أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا، والقول الأول هو الحق والواقع، وآيات الله في هذه الآية: القرآن الكريم، وأما قراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن السميقع: (بل هذا آيات بينات)، على فرض ثبوتها، فتوجيهها: بل هذا القرآن والكتاب آيات بينات، وهذا التقدير أولى من تقدير: بل هذا الرسول آيات بينات، وإن كان المعنى صحيحًا.

قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ﴾ قرئت: (آية).

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها، وإذا شاء أمسكها، وليست عندي.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾، وعند الشيخين، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال البخاري عند قوله ﷺ فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصله متفق عليه: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»: أي: يستغني به عن غيره.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٥ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾

قوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ﴾ قرئت: ﴿ونقول﴾، والقراءتان ترجعان إلى معنى واحد، أي: يقول الملَك بأمرنا: ﴿ذُوقُواْ﴾.

قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ جاء عند أحمد عن أبي يحيى مولى الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبِلادُ بِلادُ اللهِ، وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللهِ، فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ». حسنه السيوطي من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ قرئت: ﴿يرجعون﴾. قال الشاعر:

الْمَـوْتُ فِـي كُـلِّ حِـينٍ يَنْشُـدُ الْكَفَنَـا وَنَحْـنُ فِـي غَفْلَـةٍ عَمَّـا يُـرَادُ بِنَـا
لَا تَـرْكَنَنَّ إِلَـى الـدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَـا وَإِنْ تَوَشَّـحْتَ مِـنْ أثوابهـا الحسـنا
أَيْـنَ الْأَحِبَّـةُ وَالْجِيـرَانُ مَـا فَعَلُـوا أَيْـنَ الَّـذِينَ هُمُـو كَـانُوا لَهَـا سَـكَنَا
سَـقَاهُمُ الْمَـوْتُ كَأْسًـا غَيْـرَ صَـافِيَةٍ صَـيَّرَهُمْ تَحْـتَ أَطْبَـاقِ الثَّـرَى رُهُنَـا

قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لنُنْزلنهم، وقرئت: (لنثوِّينهم)، من الثوى، وهو الإقامة.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ جمع غرفة، وهي العُلِّيَّة المشرفة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». وفي الحديث الحسن عند الترمذي من حديث عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا. فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

قوله: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: ليس معها رزقها مدخرًا، أو لا تقدر على رزقها، وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض، خرجوا وهم بيضٌ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفروا عنهم أيامًا، حتى يَسْوَدَّ الريشُ، فيظل الفرخ فاتحًا فاه يتفقد أبويه، فيقيض الله تعالى طيرًا صغارًا كالبَرغَش، فيغشاه، فيتقوت به تلك الأيام، حتى يَسْوَدَّ ريشُهُ، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ لا فرق بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الْحَيُول والعاجز؛ حتى لا يغتر الجلْد أنه مرزوق بجلَده، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث عمر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيء يُلهى به ويلعب، ومآله الاضمحلال والزوال، وقد قيل: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها. قال الشاعر:

تَـرُوحُ لَنَـا الـدُّنْيَا بِغَيْـرِ الَّـذِي غَـدَتْ ... وَتَحْـدُثُ مِـنْ بَعْـدِ الْأُمُـورِ أُمُـورُ
وَتَجْـرِي اللَّيَـالِي بِاجْتِمَـاعٍ وَفُرْقَـةٍ ... وَتَطْلُـعُ فِيهَـا أَنْجُـمٌ وَتَغُـورُ
فَمَـنْ ظَـنَّ أَنَّ الـدَّهْرَ بَـاقٍ سُـرُورُهُ ... فَـذَاكَ مُحَـالٌ لَا يَـدُومُ سُـرُورُ
عَفَـا اللهُ عَمَّـنْ صَـيَّرَ الْهَـمَّ وَاحِـدًا ... وَأَيْقَـنَ أَنَّ الـدَّائِرَاتِ تَـدُورُ

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول، ولا موت فيها، والحيوان يقع على أي شيء حي.

قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفن، وخافوا الغرق ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: صادقين في نياتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها.

قوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ قيل: هي لام كي، أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا، وقيل: لام العاقبة؛ لأنّهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنّها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك فهي لام التعليل، وهذا كالأول، وقيل: هما لام أمر، معناه التهديد والوعيد، أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة وتمتعوا، ويؤيد ذلك قراءة نافع، وحمزة: (ولْيَتَمتّعوا) بجزم اللام، والقولان في غاية القوة، ولو قيل: إن اللام الأولى لام كي، واللام الثانية لام الأمر، لما كان بعيدًا، والدليل: قوله تعالى في سورة الروم: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ رؤية تفكر واعتبار.

قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام.

قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مستقر، وهو استفهام تقرير.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ وهو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته. قال بعض السلف: هي في الذين يعملون بما يعلمون، وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وأعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور؛ فإن الله قال: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾.

قوله: ﴿سُبُلَنَا﴾ أي: سبيل الجنة ولزوم السنة، قال بعض السلف: مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم. والمقصود أن من جاهد في الله

أصلح الله له نيته وعبادته، وهداه إلى سبيل الرشاد، وجمع له سعادة الدنيا بلزوم السنة، وسعادة الآخرة بدخول الجنة.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ اللام لام تأكيد، ودخلت في (مع) على أحد وجهين: أن يكون اسمًا، ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفًا فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار، كما تقول: إن زيدًا لفي الدار، ومعْ إذا سكنت فهي حرف لا غيره، إذا فُتحت جاز أن تكون اسمًا، وأن تكون حرفًا، والأكثر أن تكون حرفًا جاء لمعنى، والمعية هنا كما سبق تقريرها معية خاصة بالنصرة والمعونة والحفظ والهداية والتوفيق، وأما المعية العامة فهي بالإحاطة والقدرة، وبين المعنيين بون شاسع فضلًا وأهلًا، فالأولى للمؤمنين الصادقين، والأخرى للخلق كافة.

انتهى تفسير سورة العنكبوت، ولله الحمد.

  

سورة الروم

هي مكية بالإجماع.

جاء عند الشيخين من كلام ابن مسعود رضي الله عنه قال: خمس قد مضين: الدخان، واللزام، والروم، والبطشة، والقمر. وعند النسائي بسند حسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَقَرَأَ الرُّومَ فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الطُّهُورَ، فَإِنَّمَا يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ أُولَئِكَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ روى الترمذي بسند جيد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ؛ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ الأَوْثَانِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرُوهُ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ. فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا. فَجَعَلَ أَجَلَ خَمْسِ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَلَا جَعَلْتَهُ إِلَى دُونَ. -وَفِي رِوَايَةٍ: أَلَا احْتَطْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَإِنَّ الْبِضْعَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى تِسْعٍ-، قَالَ: أُرَاهُ الْعَشْرَ». قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَالْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ. قَالَ: ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾. قَالَ سُفْيَانُ: سَمِعْتُ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ». وَفِي حَدِيثِ نِيَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، بِنَحْوِهِ، وَفِيهِ: «وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ». رواه الترمذي بسند حسن.

قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بفتح الياء، يعني الروم.

قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ جمع سنة، ومن العرب من يقول في ﴿سِنِينَ﴾، كما يقول في ﴿غِسۡلِينٖ﴾، ويجوز أن يجمع سنة جمع من يعقل بالواو والنون؛ لأنه قد حذف منها شيء، فجعل هذا الجمع، عوضًا عن الذي في واحدة؛ لأن أصل سنة: سنهة، أو سنوة. قال الشاعر:

ثُـمَّ انْقَضَـتْ تِلْـكَ السُّـنُوْنَ وَأَهلُهَـا ... فَكَأَنَّهَـــا وَكَـــأَنَّهُمْ أَحْـــلامُ

قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: قبل كل شيء، وبعد كل شيء. قال الفراء: ويجوز أن يقال: من قبلٍ ومن بعدٍ. وحكى الكسائي عن بعض بني أسد: من قبلٍ ومن بعدُ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥﴾

قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معايشهم ودنياهم، متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرسون، وكيف يبنون، قال أبو العباس المبرِّد: قسم كسرى أيامه، فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوايج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال بعض السلف: والله ليبلغ من علم أحدهم بدنياه أن يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي!.

قوله: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: عن العلم بها، والعمل لها ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ قال الشاعر:

وَمِـنَ الْبَلِيَّـةِ أَنْ تَـرَى لَـكَ صَـاحِبًا ... فِـي صُـورَةِ الرَّجُـلِ السَّـمِيعِ الْمُبْصِـرِ

فَطِـنٍ بِكُـلِّ مُصِـيبَةٍ فِـي مالـه ... وإذا يصـاب بدينـه لـم يشـعر

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للحق، وهو الثواب والعقاب، وقيل: إلا لإقامة الحق، وقيل: بالعدل وبالحكمة، والكل معتبر ومقصود.

قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: للسماوات والأرض أجل ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة.

قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير: لكافرون بلقاء ربّهم والبعث بعد الموت، يقال: إن زيدًا في الدار لجالس، وكذا: إن زيدًا لفي الدار جالس.

قوله: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: وحرثوا الأرض للزراعة، وحفروها لاستخراج المعادن، وعمروها بالأبنية المشيدة، والصناعات الفريدة، أكثر مما عمرها هؤلاء.

قوله: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ فُعلى من السوء، تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن، وقيل: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: النار، ويفسرها قوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأن كذبوا، أو بأن كذبوا، وقرئت: (عاقبةُ) بالرفع اسم كان، وذكرت لأن تأنيثها غير حقيقي، و ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبر كان، وعلى القراءة الأولى ﴿عَٰقِبَةَ﴾ بالنصب على خبر كان، و ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ بالرفع اسم كان، ويجوز أن يكون

اسمها التكذيب، ويكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا، ويكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مصدرًا لـ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾، أو صفة لمحذوف، أي: الخلة السوءى، وقيل: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ منصوبة على أنّها مفعول به لـ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾.

قوله: ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يسكتون وتنقطع حجتهم، ولم يؤمل أن يكون لهم حجة، أو يتحير، كما قال الشاعر:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا ... قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسَا

والمكرس: الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت فركب بعضه بعضا.

وزعم بعض النحويين: أن إبليس مشتق من هذا، وأنه أبلس، لأنه انقطعت حجته.

قوله: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ فريقٌ في النعيم، وفريقٌ في العذاب.

قوله: ﴿فِى رَوْضَةٍ﴾ أي: في الجنة، وأحسن ما تكون الروضة، إذا كانت في موضع مرتفع غليظ.

قال القشيري: والروضة عند العرب: ما ينبت حول الغدير من البقول، ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه، والجمع: روْض، ورياض، والرَّوض: نحو من نصف القربة ماءً، ويقال في الحوض: روضة من ماء، إذا غطى أسفله.

قوله: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي: يكرمون وينعمون ويفرحون ويسرون، والْحَبْرة عند العرب: السرور والفرح، يقال: حبر يحبُرُ حَبْرًا وحَبَرَة، ورجل يحبور، أي: ناعم، يفعول من الحبور، ويقال: حبرته، أي: أكرمته ونعّمته، وقيل: هو مشتق من قولهم: على أسنانه حَبْرة، أي: أثر، والمعنى: يتبين عليهم أثر النعيم، أي: أقلل ماءها، وقيل: أصله من التحبير، وهو التحسين، يقال: فلان حَسَن الحبر والسِّبْر، إذا كان جميلًا حسن الهيئة، ويقال: السَّبْ، وهذا كأنه مصدر قولك: حَبَرتُه حَبْرًا، إذا حسَّنته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ٢٢ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٢٣ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٢٤﴾

قوله: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مقيمون نازلون، قال تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي:

نزل به.

قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ جاء عند الطبراني بسند جوَّده ابن كثير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ إِلَى ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُمْسِي أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي لَيْلَتِهِ». ويقال للصلاة: السُّبحة، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيما رواه الشيخان: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَبَّحَ سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ، وَإِنِّي لَأُسَبِّحُهَا». وعلى هذا فمعنى الآية: أمر المؤمنين بالصلاة في هذه الأوقات، فالمساء فيه صلاة المغرب والعشاء، والصباح فيه صلاة الفجر، والعشي فيه صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، فالتقدير: فسبحان الله حين تمسون، وحين تصبحون، وعشيًا، وحين تظهرون، وفي تسمية الصلاة بالتسبيح، لأنّها متضمنة للتسبيح في الركوع والسجود.

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتراض بحمده مناسبة للتسبيح، وقيل: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ أي: الصلاة له؛ لاختصاصها بقراءة ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، والأول أظهر.

قوله: ﴿وَعَشِيّٗا﴾ أي: من صلاة المغرب إلى العشاء، وقيل: من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، ويقال: العشاءان: المغرب، والعشاء، وهو مأخوذ من عشا العين، وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس.

قوله: ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ أي: صلاة الظهر.

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: علامات ربوبيته ووحدانيته.

قوله: ﴿بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: عقلاء ناطقون قادرون، تتصرفون فيما هو قِوام معايشكم.

قوله: ﴿أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: من نطف الرجال ومن جنسكم، وقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ حواء أم البشرية، من ضلع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما نطقت بذلك النصوص الشرعية الثابتة، وقد سبق.

قوله: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ وتألفوهن.

قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ أي: عطفًا وشفقة، فإليها يسكن، وبها يتخلص من الهياج، وللرجال خُلِقَ الفرْجُ، وهو البضع منهن، قال تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾، فعلى الزوجة، بذله في كل وقت يدعوها الزوج، فإن منعته فهي ظالمة، وفي حرج عظيم، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ؛ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا، حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا»، وفي رواية عند الشيخين: «إِذَا

دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ».

قوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾ من عربيةٍ، وعجمية، وتركية، ورومية، ومن أبيض، وأسود، وأحمر، حتى لا يشتبه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعًا من ذرية آدم عليه السلام.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ جمع عالم، أي: ذوي العلم، وقرئت: (للعالَمين)، أي: للناس أجمعين.

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، فجعل النوم، دليلًا على الموت، والقيام بعد النوم، دليلًا على البعث.

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ يعني: أن يريكم، فحذفت لدلالة الكلام عليها، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: ويريكم البرق من آياته، وقيل: ومن آياته آيةٌ، يريكم بها البرق. كما قال الشاعر:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا ... أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ

والقول الأول: أقرب الأقوال.

قوله: ﴿خَوۡفٗا﴾ أي: من الصواعق، والبرد، أن يهلك الزرع، أو يكون البرق لا مطر معه.

قوله: ﴿وَطَمَعٗا﴾ أي: في الغيث؛ لتَحْيَا به الزروع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ﴿أَن﴾، وما دخلت عليه في تأويل مصدر، أي: قيامها واستمساكها.

قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: بقدرته وإذنه وتدبيره وحكمته، بغير عمَد، كما قال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، والمقصود: سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث، كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: هيّن؛ لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء، والعرب تحمل أفعل على فاعل. قال الشاعر:

إِنِّـــي لَأَمْنَحُـــكَ الصُّـــدُودَ وَإِنَّنِـــي ... قَسَـــمًا إِلَيْـــكَ مَـــعَ الصُّـــدُودِ لَأَمْيَـــلُ

والمقصود أن إعادة الشيء على الخلائق، أهون من ابتدائه، فلا تحتاج إلى أن تكونوا نطفًا ثم علقًا ثم مضغًا ثم أجِنّة ثم أطفالًا ثم غلمانًا ثم شبانًا ثم رجالًا أو نساءً، لا، فالأمر كن، فتكونون، صيحة واحدة فتقومون.

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصف الأعلى، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وعن مالك في تفسيره عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله.

قوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ قطعًا سيكون جوابُهم: ليس عبيدنا شركاء ولا سواء فيما رزقتنا، فيقال لهم: إذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم وتخافون أن يكون، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شركاء؟! وهذا حكم فاسد، ينبئ عن قلة وعي وعمى قلب، فإذا بطلت الشركة، بين العبيد وساداتِهم فيما يملكه السادة، فمن باب أولى تبطل الشركة، بين الخلاق العليم وبين الخلائق كلها، ومن المسلَّم به، أن الشراكة تقتضي المعاونة والمساعدة، والخلق مفتقرون إليها، أما رب الخلق، فهو الغني القوي، الذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: اتبع فطرة الله، وسميت الفطرة دينًا؛ لأن الناس يُخلقون له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ بمعنى لها، كقوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، والخطاب بـ ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ للنبي ﷺ، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾، وهو دين الإسلام، وإقامة الوجه: تقديم المقصد والقوة على الجد في أعمال الدين، وخص الوجه بالذكر؛ لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفها، ودخل في هذا الخطاب أمته بالإجماع، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ

الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ »، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ الآية، وفي رواية: «حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا».

والفطرة معناها الإسلام؛ لأدلة كثيرة، ليس هذا مكان ذكرها، وهو المعنى المعروف عند عامة السلف، ومعنى الحديث أن الطفل خلق سليمًا من الكفر، على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم عليه السلام، حين أخرجهم من صلبه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾، وأنّهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا كانوا من أصحاب الجنة، سواء كانوا أولاد مسلمين أو كفار، ويشهد لذلك حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عند البخاري وأصله عند الشيخين، حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم عليه السلام في الجنة، ورأى حوله كل مولود يولد على الفطرة، وفيه: فقيل: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ».

وقال آخرون: الفطرة في كلام العرب: البداءة، والفاطر: المبتدئ، يقال: أنا فطرتُها، أي: ابتدأتُها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وعلى هذا، من ابتدأ الله خلقه على الهدى صيّره إلى الهدى، وإن عمل بأعمال الضلالة، ومن ابتدأ خلقه للضلالة صيّره إلى الضلالة، وإن عمل بأعمال الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فهذا إبليس، لما ابتدأ الله خلقه على الضلالة، وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه، وكان من الكافرين، وقد سبق حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ».

وأخرج الترمذي بسند لا بأس به، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟ فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا. ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا».

وقيل: الفطرة: الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، وهي مخالفة لخلقة البهائم، التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته، دليل ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾، أي: خلقهن، وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهن، وأصحاب هذا القول، أنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان، أو معرفة أو إنكار، وإنما المولود على السلامة في الأغلب، خِلْقة وطبعًا وبنية، ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميّزوا، ويشهد لذلك الحديث السابق: «كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» أي: مقطوعة الأذن، فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم، ليس

لهم كفر ولا إيمان، كالبهائم السائمة، فإذا بلغوا استهوتْهم الشياطين، فكفر أكثرهم، وعصم الله أقلهم، ولو كانوا قد فطروا على شيء من الكفر أو الإيمان في أول أمرهم ما انتقلوا عنه أبدًا، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون، وقالوا: يستحيل في المعقول، أن يكون الطفل حال صغره يعرف كفرًا أو إيمانًا؛ لأن الله أخرجهم لا يعلمون شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾، وكما أسلفنا، الحق الذي لا مرية فيه، القول الأول، ويؤكد ذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنّ الله قَالَ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا». وأما البقية، فهي أقوال لها قدرها ومكانتها، لكنها تبقى أقوالًا مرجوحة.

قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة خالقها، فلا يُشقي من خلقه سعيدًا، ولا يسعد من خلقه شقيًا، وقيل: لا تبديل لدين الله، وقيل: لا تبديل لخلق الله، من البهائم وغيرها، فيكون معناه: النهي عن تبديل ما خلق الله، كخصاء الفحول ونحو ذلك، عند الإنسان، أو الحيوان، والكل معتبر يحتمله السياق.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ منصوب على الحال، أي: راجعين إليه بالتوبة والإنابة والإخلاص، مقبلين إليه بالطاعة.

فيقال: ناب، وتاب، وثاب، وآب، ومعناها: الرجوع، وفي أصل الإنابة: قولان: أولًا: القطع، ومنه الناب؛ لأنه قاطع، فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله ﷻ بالطاعة، وثانيًا: الرجوع، من ناب ينوب، إذا رجع مرة بعد أخرى، ومنه النَّوبة؛ لأنّها الرجوع إلى عادة، والجمع: النُّوَب، تقول: جاءت نوبتك ونيابتك، وهم يتناوبون النوبة فيما بينهم في الماء وغيره.

قوله: ﴿فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورون معجبون، وقد زين الشيطان للعاصين ما كانوا يعملون، فقاطع الطريق فرح بمهنته، وفاعل الفواحش مسرور بفعلته، واليهود والنصارى مستبشرون بما هم عليه من الضلال، والله يضل من يشاء، وقد سبق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم

بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ
بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ
وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ
ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ
ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

قوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ استفهام فيه معنى التوقيف.

قوله: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: كتابًا، وأضاف الكلام إلى الكتاب توسعًا، وقد يكون السلطان بمعنى الحجة، ولذلك فإن العرب قد تؤنث السلطان، وتقول: قضَتْ به عليك السلطان، وهذا عند الكوفيين، أما عند البصريين، فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز؛ لأنه بمعنى الحجة، والمعنى: أم أنزلنا عليهم حجة، تنطق بشركهم وتقرهم عليه.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: خصبًا، أو مطرًا، أو نعمة أو نحو ذلك.

قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من الرحمة والفرج، يقال: قَنِط يَقْنَط، وهي قراءة العامة، وقَنَط يَقْنِط، وهي قراءة أبي عمرو، والكسائي، والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدة، ويبطر عند النعمة ويقول: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، كما قال الشاعر:

كَحِمَارِ السَّوْءِ إِنْ أَعْلَفْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ نَهَقَ

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بِهذه المثابة، فأما المؤمن فيشكر ربه عند النعمة، ويرجوه عن الشدة.

قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ بالمد، أي: أعطيتم، وقرئت بغير مد، أي: ما فعلتم.

قوله: ﴿مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية، يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فلا ثواب له عند الله، وإن كانت مباحة، قال بعض السلف: الربا ربوان: فربًا لا يصح، أي: ربا البيع، وربًا لا بأس به، وهو هدية الرجل، يريد فضلها وإضعافها، ثم تلا هذه الآية، قال الشعبي: معنى الآية: أن ما خدم الإنسان به أحدًا، لينتفع به في دنياه، فإن ذلك النفع الذي يَجْزي به الخدمة، لا يربو عند الله، ومن أحكام هبة الثواب كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما رواه مالك: «مَنْ وَهَبَ هِبَةً لِصِلَةِ رَحِمٍ، أَوْ عَلَى وَجْهِ صَدَقَةٍ، فَإِنَّهُ لا يَرْجِعُ فِيهَا، وَمَنْ وَهَبَ هِبَةً، يَرَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِهَا الثَّوَابَ فَهُوَ عَلَى

هِبَتِهِ، يَرْجِعُ فِيهَا إِذَا لَمْ يُرْضَ مِنْهَا».

وقال عليٌّ رضي الله عنه: المواهب ثلاثة: مَوْهبة يراد بها وجه الله، وموهبة يراد بها وجوه الناس، وموهبة يراد بها الثواب، فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها، إذا لم يُثب منها، وترجم البخاري: باب المكافأة في الهبة، وساق حديث عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية، ويثيب عليها، وأثاب على لِقحة، ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب، وكان زائدًا على القيمة، أخرجه أبو داود، والترمذي بسند لا بأس به.

قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الموهبة، التي يراد بها وجه الله.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ يضاعفها إلى عشرة أمثالها، إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، وكما عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلا يَقْبَلُ اللهُ إِلا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ».

قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ أي: القحط، وقلة النبات، وذهاب البركة.

قوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ لأن البحر تبع للبر، فإذا انقطع المطر عن البر، فسدت دواب البحر.

قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بسبب معاصي الناس وذنوبهم.

قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال ﴿بَعْضَ﴾ لأن معظم الجزاء أو العقاب، إنما هو في الآخرة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يرده الله عنهم، ويجوز عند غير سيبويه: (لا مردٌ له)، ويستبعده سيبويه، إلا أن يكون في الكلام عطف، والمراد به: يوم القيامة.

قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾، والأصل: يتصدعون، يقال: تصدع القوم، إذا تفرقوا، ومنه اشتق الصداع؛ لأنه يفرق شعب الرأس.

قوله: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ أي: جزاء كفره.

قوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ أي: يوطئون فراشًا ومسكنًا وقرارًا بالعمل الصالح، ومنه: مهد الصبي، والمهاد: الفراش، وقد مهدت الفراش مَهْدًا: بسطته ووطّأته، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها، وتمهيد العذر: بسطه وقبوله، والتمهد: التمكن.

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ بنزول المطر والإنبات والرزق.

قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ الذي يحيي به البلاد والعباد.

قوله: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: في البحر عند هبوب الرياح، وإنما زاد ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأن الرياح قد تَهُب، ولا تكون مواتية، فلابد من إرساء السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتها بأمره.

قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ نصب ﴿حَقًّا﴾ على خبر كان، و ﴿نَصۡرُ﴾ اسمها، أي: هو حق أوجبه على نفسه، تكرمًا وتفضلًا، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾.

قوله: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرئت: (الريح).

قوله: ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ قطعًا متفرقة.

قوله: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: المطر، يخرج من بين السحاب.

قوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ تكرير معناه التأكيد، وعلى هذا أكثر النحويين، وقال قطرب: ﴿قَبۡلِ﴾ الأولى للإنزال، والثانية للمطر، والمعنى: وإن كانوا من قبل التنْزيل من قبل المطر، والقول الأول المعتبر، وقيل: المعنى: من قبل رؤية السحاب، واختار هذا القول النحاس.

قوله: ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾ أي: يائسين مكتئبين، قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم، قال ابن كثير: ويحتمل أن يكون ذلك، من دلالة التأييس، ويكون معنى الكلام، أنّهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضًا، قد فات عندهم نزوله، وقتًا بعد وقت، فترقبوه في إبانه، فتأخر، ثم مضت مدة، فترقبوه، فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.

قوله: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ قرئت: (أَثَر)، والمقصود به نظر استبصار واستدلال.

قوله: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ في موضع نصب على الحال، حملًا على المعنى؛ لأن اللفظ لفظ الاستفهام، والحال خبر، والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله، محيية للأرض بعد موتِها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ۝٥١ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ۝٥٣ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ۝٥٤ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٥٦ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٥٧ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ والريح يجوز تذكيره، ولا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقي، نحو: أعجبني الدار.

قوله: ﴿فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي: السحاب، وقيل: الزرع، والقول الأول أظهر، والتقدير: ولئن أرسلنا ريحًا يابسة، على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعد هذا الحال يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۝٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾، وقد روى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: الرياح ثمانية، أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب، فأما الرحمة فالناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وأما العذاب فالعقيم، والصرصر، وهما في البر، والعاصف، والقاصف، وهما في البحر، فإذا شاء سبحانه وتعالى، حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب، تلقحه بحمله الماء، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وإن حركه بحركة العذاب، فجعله عقيمًا، وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه، والرياح مختلفة في مهابّها، صبًا ودبورًا، وجنوبًا وشمالًا، وفي منفعتها وتأثيرها، أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة، تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تُهلكه وتعطبه، وأخرى تسيره وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه.

قوله: ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ أي: لمكثوا بعد اصفراره، يجحدون النعمة، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم، جحدوا سابق نعمة الله عليهم.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ فكما أن الأموات لا تسمع،

فكذلك الكافر لا ينتفع بما يسمع.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ وهو النطفة، وجعلكم تتقلبون في أطوار (الجنين، الوليد، الرضيع، المفطوم)، وهي أحوال في غاية الضعف، فصار كأن الضعف، مادة خلقتكم، وقرئت: (ضُعف) بالضم.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني: الشبيبة.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ يعني الهرم، قال الفراء: الضم لغة قريش، وهي لغة النبي ﷺ، والفتح لغة تميم، جاء عند أبي داود، والترمذي، بسند حسن عن عطية بن سعد قال: «قَرَأْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾، فَقَالَ: مِنْ ضُعْفٍ، قَرَأْتُهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا قَرَأْتَهَا عَلَيَّ، فَأَخَذَ عَلَيَّ كَمَا أَخَذْتُ عَلَيْكَ». قال الجوهري: والضَّعف والضُّعف خلاف القوة، وقيل: بالفتح الضعف في الرأي، وبالضم في الجسد، والقول الأول الصواب.

قوله: ﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر، كالشيب.

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، ومقصودهم بذلك: عدم قيام الحجة عليهم، وأنّهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يكذبون في الدنيا، يقال: أُفِك الرجل، إذا صُرف عن الصدق والخير، وأرض مأفوكة: ممنوعة من المطر.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ قيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: علماء الأمم، وقيل: مؤمنو هذه الأمة، وقيل: جميع المؤمنين، والقول الثالث أقربُها، وهو الأظهر.

قوله: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، أو في كتاب الأعمال من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، والمعنيان واحد، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان: لقد لبثتم إلى يوم البعث، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ جواب الشرط محذوف، دل عليه الكلام، تقديره: إن كنتم منكرين البعث، فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه وتستبعدونه.

قوله: ﴿يَنفَعُ﴾ قرئت: (تنفع).

قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع، يقال: استعتبته، فأعتبني، أي: استرضيته، فأرضاني، وذلك إذا كان جانيًا عليه، وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ما يحتاج الناس إليه، من المواعظ، والأمثال، والأخبار، والعبر، مما يوضّح الحقَّ، ويزيل اللبس.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله، فكذلك ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلة التوحيد.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفزنّك عن دينك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وأمته، يقال: استخف فلان فلانًا، أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي، وهو في موضع جزم بالنهي، أُكِّد بالنون الثقيلة، فبُنِي على الفتح، كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون.

انتهى تفسير سورة الروم، ولله الحمد.

  

سورة لقمان

وهي مكية إلا بضع آيات.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾

قوله: ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: ذا لهو، أو: ذات لهو، وهو الغناء باتفاق المفسرين، وقد حلف ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثلاث مرات أنه الغناء. رواه ابن أبي شيبة والحاكم وصححه، وكذا صححه البيهقي وابن حجر. وقد روى الترمذي عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ، وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ، ولَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ. فِي مِثْلِ هَذَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ». حديث حسن.

وعند الترمذي عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ: خَمْشِ وُجُوهٍ، وَشَقِّ جُيُوبٍ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ». حديث حسن. وَفِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: مِزْمَارٌ عِنْدَ نِعْمَةٍ، وَرَنَّةٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ». رواه البزار وصححه ابن القيم، وقد سبق الحديث عن تحريم الغناء عند قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾، أي: الغناء والمزامير، وسيأتي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ أي: وأنتم لاهون بالغناء في لغة حمير، يقال: اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الغناء ينبت النفاق في القلب. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل، والباطل في النار. وقال ابن القاسم: سألت مالكًا عن الغناء، فقال: قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أفحق هو؟ وترجم البخاري: بابٌ كل لهو باطل إذا شغل عن طاعة، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقد أجمعت الأمة على تحريم الغناء، الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل والمجون، والذي يحرك الساكن، ويبعث الكامن، ويذكر النساء ويصف محاسنهن، أو المردان، أو الخمور أو سائر

المحرمات، وما يُحل هذا إلا مخنث هانت عليه حياته، وفاسق قد سفه نفسه، وقد سئل مالك رحمه الله عن الغناء في زمانه، وكان مجردًا من المزامير المهيجة، والمعازف الصاخبة، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق. وقد أفتى الشافعي، وأبو حنيفة، وأحمد بتحريم الغناء. قال الطبري: وقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه، وحكى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على الغناء. قال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه، تُرد شهادته، وفعله هذا دياثة.

ألا ليت شعري لو سمع النبي الكريم ﷺ، أو صحابته الكرام، أو التابعون لهم بإحسان غناء زماننا هذا، ماذا سيقولون؟ وبماذا سيفتون؟ فالمغني، أو المغنية، في ذروة الميوعة والتخنث، وكلماته في منتهى التفسخ والانحلال، وأما من خلفه من الرجال والنساء، فشيء لا يكاد يصدق، قد اصطحبوا آلات الموسيقى على اختلاف أنواعها، وأصواتِها، ومؤثراتِها، في منظر مخزٍ، ووضع مُزرٍ، يُجلِّي ويؤكد للناظر والسامع قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.

قوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قرئت: (لَيَضِل)، أي: نفسه.

قوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ قرئت: (ويتخذُوها)، أي: عطف على ﴿مَن يَشۡتَرِي﴾، ويجوز أن يكون مستأنفًا، أما قراءة النصب فهي عطف على ﴿لِيُضِلَّ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ كشأن المتكبر، الذي لا يلتفت إلى الكلام، ويجعل نفسه كأنها غافلة.

قوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ ثقلًا، وصممًا.

قوله: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ لأنهم وضعوا العبادة، في غير موضعها، فعبدوا ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني من الحق شيئًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾

قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ﴾ العبد، الصالح، الولي، وعلى هذا جمهور السلف، ولم يكن نبيًا.

قوله: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الفقه، والعلم، والعقل، والإصابة.

قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ﴿أَنِ﴾ مفسرة، أي: قلنا له: اشكر، فشكر، فكان حكيما بشكره، وقيل: المعنى: لأن يشكر الله، وقيل: بأن اشكر الله، والقول الأول أقرب، وقد مضى معنى الشكر، وأنه طاعة الله فيما أمر.

قوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لأن الله تعالى لا ينفعه شكر من شكر، ولا يضره كفر من كفر، فبالشكر تستبقى النعمة، وبسببه يستجلب المزيد منها من الله سبحانه، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ تزداد كل يوم ضعفًا على ضعف، من حين الحمل إلى حين الولادة؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت به ثقلًا وضعفًا، وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يُضعفها الحمل، ويقال: (وَهَن)، كما قال الشاعر:

هَلْ لِلْعَوَاذِلِ مِنْ نَاهٍ فَيَزْجُرَهَا ... إِنَّ الْعَوَاذِلَ فِيهَا الْأَيْنُ وَالْوَهَنُ

يقال: وَهَن يَهِن، ووَهُن يَوْهَنُ، ووَهِن يَهِن، مثل: وَرِم يَرِم، ونصبت ﴿وَهْنًا﴾ على المصدر، وقيل: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر، أي: حملته بضعف على ضعف.

قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: في انقضاء عامين، والمقصود من الفصال: الفطام، فعبر بغايته ونهايته، ويقال: انفصل عن كذا، أي: تميّز، وبه سُمِّي الفصيل، وقد أجمع العلماء على العامين في مدة الرضاع، وأما في تحريم اللبن فقيل: في عام، لا زيادة ولا نقص، وقيل: في عامين وما اتصل بِهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع، وقيل: إن فطم قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم، وقد سبق بيان ذلك في سورة البقرة.

قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ أي: على نعمة الإيمان والوالدين، قال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»، وراغبة: قيل: عن الإسلام، وقيل: في الصلة، وما كانت لتقدم على أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لولا حاجتها، ووالدة أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي قُتيلة بنت عبد العزى بن عبد أسد، وأما أم عائشة وعبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فهي أم رُومان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قديمة الإسلام.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: سبيل الأنبياء والصالحين.

قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ

﴿بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع جاء الله بِها حتى يسوقها إلى من هي رزقه، والمعنى: لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل المؤمنين. أو: إن الحسنة أو السيئة لو كانت قدر حبة خردل أتى بِها الله وأحضرها يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، فلا تفوت قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض فإن الله لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، وقد جاء عند أحمد بسند حسن عن أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ، كَائِنًا مَا كَانَ».

قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهذا إنما يريد بعد أن يتمثل ذلك هو في نفسه، ويزدجر عن المنكر. قال الشاعر:

وَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِنِ انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مما عزمه الله، وأمر به، كما أنه من مكارم الأخلاق، وعزام أهل الجزم السالكين طريق النجاة.

قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تعرض عنهم تكبرًا، ولا تُمِل خدك للناس إعجابًا، واحتقارًا لهم. والصَّعر: الميل، يقال: أصاب البعير صَعَرٌ وَصَيد، إذا أصابه داء يَلْوي منه عنقه، ثم يقال للمتكبر: فيه صَعَر وَصَيد، والمقصود: الإقبال على الناس بتواضع وأُنْس ودماثة خلق، وقيل: المعنى: النهي عن أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، والقول الأول هو المتعين.

قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ متبخترًا متكبرًا. نظر طاووس، إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يختال في مشيته، وذلك قبل أن يستخلف، فطعن طاووس في جنبه، وقال: ليس هذا شأن من في بطنه خرء. وقد مضى في الإسراء.

قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ القصد: ما بين الإسراع والبطء، أي: لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثب الشطار، وقد قيل: سرعة المشي تذهب بَهاء المؤمن.

قوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقص منه، ولا تتكلف رفع الصوت، وخذا منه ما تحتاج إليه؛ لأن الجهر بأكثر من الحاجة، تكلف يؤذي.

قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبحها وأوحشها، ولو أن شيئًا يُهاب لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثل سواء، ومنه أتانا بوجه منكر، والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نَهيقه، ومن استفحاشهم لذكره مجردًا أنّهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة، وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافًا، وإن بلغت منه الرُّجْلة، أي: المشي راجلًا، وكان رسول الله ﷺ يركبه تواضعًا وتذللًا لله ﷻ، وقد جاء عند الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا».

وفي هذه الآية أدب جم، وخلق رفيع، ألا وهو ترك الصياح في وجوه الناس تَهاونًا بِهم، ولاسيما من كان مسؤولًا أو نحو ذلك، والعرب في جاهليتهم الممقوتة التي أُمرنا بمخالفتها تفخر بجهارة الصوت، بل حتى بجهير العطاس، فمن كان منهم أشد صوتًا كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل. حتى قال شاعرهم:

جَهِيــــرُ الْكَـــلَامِ جَهِيـــرُ الْعُطَـــاسِ ... جَهِيــــرُ الـــرُّوَاءِ جَهِيـــرُ الـــنَّعَمْ

وَيَعْـــدُو عَلَـــى الْأَيْـــنَ عَـــدْوَى الظَّلِـــيمِ ... وَيَعْلُـــو الرِّجَـــالَ بِخَلْـــقٍ عَمَـــمْ

الرواء (بالضم والمد): المنظر الحسن. والنعم: الإبل. و الأين: الإعياء. والخلق العمم: التام.

واللام في ﴿لَصَوْتُ﴾ للتأكيد، ووحد الصوت وإن كان مضافًا إلى الجماعة لأنه مصدر، والمصدر يدل على الكثرة، وهو مصدر صات يَصُوت صَوْتًا، فهو صائت، ويقال: صوّت تصويتًا، فهو مصوِّت، ورجل صاتٌ، أي: شديد الصوت، بمعنى صائت، كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ، أي: كثير المال والنوال، ومما يُروى من حكم لقمان ومواعظه ما جاء عند أحمد بسند جيد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لُقْمَانَ الحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عز وجل إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ».

وأمّا ما جاء في الخمول والتواضع فقد روى الشيخان من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ»، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ». أي: لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله تعالى بإبراره لأبره، وعند مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ، مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ».

وعند الترمذي بسند لا بأس به عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لِلَّهِ يَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ».

قال الفضيل بن عياض: إن استطعت أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس، محبوبًا عند الله.

وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، وعند الناس من أوسط خلقك.

وأما ما جاء في ذم الشهرة فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، وجاء في حديث حسن عند الترمذي قال رسول الله ﷺ: «..... وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فَلا تَعُدُّوهُ». وعند أبي داود بسند لا بأس به من حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ».

قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة لذاتِها.

وقال أيوب: ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يُشعر بمكانه.

وقال محمد بن العلاء: من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس.

وما جاء في حسن الخلق فقد روى الشيخان من حديث أنس ﷺ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا». وعند مسلم قالت عائشة ﷺ: «كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ»، وعند الترمذي بسند جيد لا بأس به عن أبي هريرة ﷺ قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، قَالَ: تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ. وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

وعند أبي داود والترمذي بسند جيد عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

وروى أحمد بسند حسن عن ابن عمرو ﷺ، قال ﷺ: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ».

وعند أبي داود بسند حسن عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ».

وعند البزار بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، ولَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الوَجْهِ، وحُسْنُ الْخُلُقِ».

وعند أبي داود بسند جيد عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ

دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ».

وعند الشيخين من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا».

وعند الترمذي عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ؛ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارِينَ وَالْمُتَشَدِّقِينَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ». حديث حسن.

وما ذكر إنما هو إشارة عابرة، ولمحة خاطفة، وإلا فالتفصيل في مثل هذه الفضائل إنما هو في كتابنا الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، والآخر الجمع بين زيادات السنن والمسانيد والصحاح والمعاجم، وبقية الكتب الحديثية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملها وأتمها.

قوله: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ كنعمة الإسلام، ونعمة الأمن والعافية وحسن الخلق وغير ذلك، مما هو ظاهر للعيان.

قوله: ﴿وَبَاطِنَةً﴾ كنعمة المعرفة والعقل وحسن اليقين وغير ذلك، مما لا يرى بالأبصار.

واللفظ عام يشمل كل النعم سواء كانت حصول منافع، أو دفع مضار، سواء كانت نعم دينية، كإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه، وستر العيوب، والذنوب، أو كانت نعم دنيوية، كالصحة، والمال والولد، والمسكن، والمنصب، فإنها كلها من الله.

قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى الله، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع، نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وقد سبق بيان شروط قبول العمل.

قوله: ﴿نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: نلجئهم ونسوقهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب، شاق على النفوس.

قوله: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ﴾ قرئت: (والبحرَ)، فالأولى بالرفع على الابتداء، أو عطف على محل أن، والثانية على العطف على ما، وهي اسم أن.

قوله: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾أي: يزيد فيه، من أمَدَّ، كما تقول: مد النيل الخليج، أي: زاد فيه، والمعنى: لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلامًا، وجعل البحر مدادًا، وأمده سبعة أبحر معه، ومثلها، ومثلها، ثم هلم جرًا فكتبت بِها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، فلا حصر لآيات الله ولا لكلماته، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾. أي: غالب لا يعجزه شيء، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر.

قوله: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلا كخلق نفس واحدة، أو كبعث نفس واحدة، مثل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ٣٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾

قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: يوم القيامة، وقيل: إلى وقته في طلوعه وأفوله، لا يَعْدُوه ولا يَقْصُر عنه، والمعنيان صحيحان، وسيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾. وقد جاء عند ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه قال: «الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر».

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ مبالغة في الصبر والشكر، قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ثم تلا هذه الآية.

قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال، أو كالسحاب، وكلاهما وارد، وشبه الموج بالظلة

لكبرها وارتفاعها، وكذلك لأن الموج يأتي شيئًا بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا، كالظلل، وأصله: من الحركة والازدحام، ومنه: ماج البحر، والناس يموجون.

قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: متوسط في العمل، أو مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة التي عاهد الله عليها في البحر، والمعنى: فمنهم مقتصد، ومنهم كافر، وقيل: مقتصد في القول، مضمر للكفر، والقول الأولى أَوْلَى وأحرى، وسيأتي تفسير ذلك عند قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿خَتَّارٍ﴾ أي: غدار، وهو أسوأ الغدر، يقال: ختره، فهو ختار، وقيل: جحود، يقال: ختر يَخْتِر ويختُر، بالضم والكسر، خَتْرًا، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث.

قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان؛ لأنه يغر الخلق ويمنيهم ويلهيهم عن الآخرة، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ»، ثم قرأ هذه الآية، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا... فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا اللهُ». ثم تلا هذه الآية، وبنحوه من حديث عمر رضي الله عنه عند مسلم، وعند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أوتي نبيكم محمد ﷺ مفاتيح كل شيء، غير خمس، ثم تلا هذه الأية».

وعند أحمد بسند صحيح من حديث رجل من بني عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «قَدْ عَلِمَ اللهُ عز وجل خَيْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لا يَعْلَمُهُ إِلا اللهُ. ثم تلا هذه الآية»، وعند الترمذي بسند جيد عن أبي عزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ لِعَبْدٍ أَنْ يَمُوتَ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً». وكذا أخرجه من حديث مطر بن عطامس وقال: حسن. وعند ابن أبي حاتم: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية. قال الشاعر:

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ ... سِوَى حَنُوطٍ غَدَاةَ البَيْنِ مَع خِرَق
وَغَيْرِ نَفْحَةِ أَعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ ... وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمُنْطَلِق
لَا تَأْسَيَنَّ عَلَى شَيْءٍ فَكُلُّ فَتَى ... إِلَى مَنِيَّتِهِ سَيَّارٌ فِي عَنَق
وَكُلُّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ المَوتَ يُخْطِئُهُ ... مُعَلَّلٌ بِأَعَالِيلٍ مِنَ الحَمَق

بأيّمَـــا بَلْـــدَة تُقْـــدَر مَنِيَّتُـــهُ إنْ لَا يُسَـــيَّرْ إلَيهـــا طَائعًـــا يُسَـــق

وجاء عند الطبراني بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرٍ، فَقَالَ: مَنْ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ؟ فَقَالُوا: فُلَانٌ. فَقَالَ: رَكْعَتَانِ أَحَبُّ إِلَى هَذَا مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ».

وقرئت ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: (وينْزِل) بالتخفيف، وأراد بالأرض في قوله: ﴿بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾: المكان. قال الشاعر:

فَـــلَا مُزْنَـــةٌ وَدَقَـــتْ وَدْقَهَـــا وَلَا أَرْضٌ أَبْقَـــــلَ إِبْقَالُهَـــــا

وصف أرضًا مخصبة؛ لكثرة ما نزل بِها من الغيث، والمزنة: السحابة، والودق: المطر، وقيل: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أي.

انتهى تفسير سورة لقمان، ولله الحمد.

  

سورة السجدة

وهي مكية إلا بضع آيات.

جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: ﴿الم تَنْزِيلُ﴾ السَّجْدَةَ، وَ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾»، وبنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم، وعند أحمد والترمذي والدارمي بسند جيد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ: ﴿الم تَنْزِيلُ﴾، وَ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١﴾

قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ مرفوع بالابتداء، والخبر: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أو خبر على إضمار مبتدأ، أي: هذا تنْزيل، أو: المتلو تنْزيل، والأول الصواب.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة التي تقدر ببل، وألف الاستفهام، أي: بل أيقولون؟ وهي تدل على خروج من حديث إلى حديث، وهو ما يسمى بالإضراب.

قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: يهبط الملَك إلى الأرض بالأمر، ثم يعرج إلى الله بعد مهمته في الأرض في يوم، ولو ساره غير الملَك، لاحتاج إلى ألف سنة مما يعد البشر، أي: خمسمائة سنة للهبوط، وخمسمائة سنة للصعود، ويكون مبدأ الهبوط سدرة المنتهى، وكذا منتهى الصعود، وأما منتهى الهبوط فهو تخوم الأرض السابعة، وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا. قَالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ... الحديث».

ويشمل معنى هذه الآية ما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ، مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ، وَصَلاةِ الْعَصْرِ...» الحديث، وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه عند مسلم: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ».

كما أنه يشمل نزول جبريل عليه السلام بالوحي على رسل الله، وكذا قبض الأرواح ونحو ذلك من أعمال الملائكة الموكلين بتدبير أمر الله بين السماء والأرض، وقيل: يدبر الله أمره ويقضيه لألف سنة في يوم واحد، ثم يلقيه إلى ملائكته، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى، ثم كذلك أبدًا، والقولان وجيهان.

وأما قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ كما سيأتي في سورة المعارج، فالمقصود به يوم القيامة، كما جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله متفق عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ: إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ...» الحديث.

قوله: ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب عن الخلق وما حضر.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وقرئت: (خلْقه) بالتسكين، أي: أحكم كل شيء خلقه، فجاء به على ما أراد، فلم يتغير عن إرادته، وقيل: كل شيء خلقه فهو حسن متقن محكم، أي من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها، فلا يقدر أحد أن يأتي بمثله، وهو دال على خالقه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾، فلم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ولا خلق القردة على صورة إنسان ونحو ذلك، والقولان متجهان، واختلف في المراد بـ ﴿خَلْقَهُۥ﴾، فأما بالفتح فهو فعل ماض في موضع خفض نعت لـ ﴿شَىْءٍ﴾، وأما بإسكان اللام فقيل: منصوب على المصدرية، مثل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾، و ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أو على البدل من ﴿كُلَّ﴾، أي: الذي أحسن خلق كل شيء، أو مفعول ثانٍ على أن يكون معنى ﴿أَحْسَنَ﴾: أفْهَم وأعلم، فيتعدى إلى مفعولين، وقيل: منصوب على التفسير، والمعنى: أحسن كل شيء خلقًا، وقيل: منصوب بإسقاط حرف الجر، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه، والقول الأول هو الأقرب، وهو اختيار سيبويه.

قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ إضافة الروح إلى الله، للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هلكنا وصرنا ترابًا، وأصله من قول العرب: ضل الماء في اللبن، إذا ذهب، وتقول للشيء غلب عليه غيره حتى خفي فيه أثره: قد ضل، وقيل: غبنا في الأرض، يقال: أُضِل الميت، إذا دفن، وأضله أي: أضاعه، وأهلكه، أضللت بعيري، إذا ذهب منك، ويقال: صللنا، أي: أنْتَنَّا،

يقال: صل اللحم، وأصل صلولًا، وخمّ وأخمّ، إذا أنتن.

قوله: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ليس لهم جحود قدرة الله عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا ألا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله.

قوله: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ من توفي العدد والشيء، إذا استوفاه وقبضه جميعًا، يقال: توفاه الله، أي: استوفى روحه ثم قبضه، وتوفيتُ مالي من فلان، أي: استوفيته، كما قال تعالى: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، فالله ﷻ خالق الكل، والفاعل حقيقة لكل فعل، كما قال سبحانه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾، فملك الموت يقبض، والأعوان يعالجون، والله تعالى يزهق الروح، ولكنه لما كان ملك الموت متولي ذلك بالوساطة والمباشرة، أضيف التوفي إليه، كما أضيف الخلق للملك، وكما جاء في الحديث الذي رواه البزار من طريق حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَالِقُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ» وصححه ابن حجر. والله يقبض أرواح جميع الخلائق، حتى النحلة والبرغوث والبعوضة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾

قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ من الندم والخزي والحزن والذل والغم والرعب والخوف مما أمامهم.

قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ المعنى: لو ترى يا محمد، منكري البعث يوم القيامة، لرأيت العجب.

قوله: ﴿أَبۡصَرۡنَا﴾ أي: ما كنا نكذب، فصدق وعيدك.

قوله: ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ أي: ما كنا ننكر، فصَدَقتْ رسلك، ولكن هيهات، أبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع.

قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: مصدقون بالبعث، قد زالت شكوكنا الآن، وقد كذبوا في مقولتهم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿هُدَىٰهَا﴾ أي: ما تَهتدي به إلى طريق الجنة، وقد هدى الله ﷻ المؤمنين إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار منهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، فلا مشيئة إلا بعد مشيئة الله، فالمؤمنون شاءوا الإيمان، ولكن بعدما شاء الله لهم ذلك، والكفار شاءوا الكفر، ولكن بعدما شاء الله لهم ذلك، ولو اختار الكفار الإيمان لشاء الله لهم ذلك وأذن لهم به.

وقد فرطت الجبرية فقالوا: الخلق مجبورون في طاعاتِهم كلها، وفرطت القدرية فقالوا: الإيمان مربوط بمشيئة العباد، فقالوا: الخلق خالقون لأفعالهم، وقد جاء عند البزار بسند لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا ثُمَّ قَبَضَهُ إِلا جَعَلَ مِنْ بَعْدِهِ فَتْرَةً، فَتُمْلأُ مِنْ تِلْكَ الْفَتْرَةِ جَهَنَّمُ. إِنَّهُمُ الْقَدَرِيُّونَ».

وأخرج أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُخِّرَ الْكَلامُ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ». حسنه ابن حجر.

وعند الترمذي وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي أُمَّتِي خَسْفٌ، أَوْ مَسْخٌ، أَوْ قَذْفٌ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ».

والحق وسط بين ذلك، وخير الأمور أوسطها، وصدق الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فالعباد قد هدوا إلى النجدين، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلا يَظْلِمُ اللهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ والذوق يعبر به عما يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعومًا؛ لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم، يقال: ذقت ما عند فلان، أي: خبرته، وذقت القوس، إذا جذبت وترها لتنظر ما شدتُها، وأذاقه الله وبال أمره، وتذوَّقته أي: ذقته شيئًا بعد شيء، وأمر مستذاق، أي: مجرب معلوم، والذواق: الملول.

قوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي: خروا سجدًا لله تعالى على وجوههم، تعظيمًا لآياته، وخوفًا من سطوته وعذابه.

قوله: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خلطوا التسبيح بالحمد، فنَزَّهوه وحمدوه، وقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربي الأعلى، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لنا ذنوبنا.

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ كما استكبر أهل مكة عن السجود خصوصًا، وأهل الكفر من اليهود والنصارى عمومًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع وتنبو عن مواضع الاضطجاع، وهو في موضع نصب على الحال، أي: متجافية جنوبُهم، والمضاجع جمع مضجع، وهي مواضع النوم. ومنه قول ابن رواحة عند البخاري:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

وقد جاء عند الترمذي بسند صحيح عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال له: «أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ. ثُمَّ تَلَا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾». وعند أبي داود بسند صحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الآية قال: «كَانُوا يَتَيَقَّظُونَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ يُصَلُّونَ».

قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: خَوْفًا من العذاب، وطَمَعًا في الثواب،

وكل منهما منصوب على أنه مفعول لأجله، ويجوز أن يكون مصدرًا.

قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قرئت: (ما أُخْفِي) بإسكان الياء، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ. ثم قرأ هذه الآية».

وعند مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! كَيْفَ، وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: رَبِّ! فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».

قال ابن سيرين: المقصود بالآية: النظر إلى الله تعالى. وقال الحسن: أخفى القوم أعمالًا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قوله: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: يأوون إلى الجنات، ففيها المساكن والدور والغرف العالية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾

قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ جاء عند مسلم من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه في هذه الآية قال: «مَصَائِبُ الدُّنْيَا، وَالرُّومُ، وَالْبَطْشَةُ أَوِ الدُّخَانُ. شُعْبَةُ الشَّاكُّ». وأما ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فلا خلاف أنه عذاب جهنم.

قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يعني: موسى عليه السلام، وقد لقيه ليلة الإسراء، وسيلقاه يوم القيامة، فقد جاء عند الشيخين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى: رَجُلًا آدَمَ، طُوَالًا، جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى: رَجُلًا مَرْبُوعًا، مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبِطَ الرَّأْسِ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ، وَالدَّجَّالَ، فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾». وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى عليه السلام الكتابَ بالقبول، والقول الأول هو الجدير بالقبول، وأولى منهما، أن يقال: اللقاء لقاء الله، ويكون السياق فيه التفات.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة، وقدوة يقتدى بهم في دينهم، وهم الأنبياء وأتباعهم من الفقهاء والعلماء والمجاهدين.

قوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الخلق إلى طاعتنا كما أمرناهم بذلك.

قوله: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ وقرئت: (لِمَا صبروا) بالكسر، أي: لصبرهم جعلناهم أئمة، قال سفيان: لا ينبغي للرجل أن يكون إمامًا يقتدى به، حتى يتحامى عن الدنيا، وقال: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز، وقال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسًا، قال بعض السلف: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، أخذًا من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ فلم يبق منهم باقية، ولا عين ولا أثر ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

قوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحدًا، ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾.

قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: الأرض التي جُرز نباتُها، أي: قطع، إما لعدم الماء، وإما لأنه رعي وأزيل، ولا يقال للتي لا تنبت، كالسِّباخ: جُرُز، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ يقال: رجل جَروز، إذا كان لا يبقي شيئًا إلا أكله، وكذلك: ناقة جروز، إذا كانت تأكل كل شيء تجده، وسيف جُراز،

أي: قاطع ماضٍ، وجَرزتِ الجراد الزرع، إذا استأصلته بالأكل، ويقال: أرض جُرْز، وجُرُز، وجَرْز، وجَزَر.

قوله: ﴿مَتَىٰ﴾ في موضع رفع، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الظرف.

قوله: ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ أي: يوم القيامة، وقيل: القضاء، وقيل: فتح مكة، والقول الأول هو الحق.

قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ على الظرف، وأجاز الفراء الرفع.

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن سفههم ولا تجبهم إلا ما أُمِرت به.

قوله: ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصر والتمكين في الدنيا، والفوز والسعادة في الدار الآخرة.

قوله: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: وهم منتظرون ومتربصون بكم الدوائر وحوادث الزمان، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم.

انتهى تفسير سورة السجدة، ولله الحمد.

  

سورة الأحزاب

وهي مدنية بالإجماع.

جاء عند أحمد وغيره بإسناد حسن عن زر بن حبيش قال: «قَالَ لِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ؟ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً. فَقَالَ: قَطُّ، لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا: الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٣ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ٤ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٥ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ٦﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ضُمت أيّ لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها، و﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ نعت لأي.

قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ قال الزهري، وابن حبان: نزل ذلك تمثيلًا في زيد بن حارثة رضي الله عنه لما تبناه النبي ﷺ. والمعنى: كما لا يكون لرجل قلبان، كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين. وقيل: هو مثل ضُرب للمُظاهر، أي: كما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أُمَّانِ. وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرني بكذا، وقلب يأمرني بكذا. وقيل: كما لا يجتمع قلبان في جوف، كذلك لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب، وكل هذه الأقوال لها وجه من الصواب، والمقصود أن الآية تنفي أشياء كانت العرب تعتقدها في تعدد القلوب ونحو ذلك، وإعلام بحقيقة الأمر.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ﴾ أي: قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ روى الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾». وكان زيدٌ رضي الله عنه في بداية حياته مسْبيًا، وكان أبوه يدور بالشام ويقول:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَلَ ... أَحَيٌّ فَيُرْجَى أَمْ أَتَى دُونَهُ الْأَجَلْ
فَوَاللهِ لَا أَدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلٌ ... أَغَالَكَ بَعْدِي السَّهْلُ أَمْ غَالَكَ الْجَبَلْ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! هَلْ لَكَ الدَّهْرَ أَوْبَةٌ ... فَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا رُجُوعُكَ لِي بَجَلْ
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا ... وَتَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا غَرْبُهَا أَفَلْ
وَإِنْ هَبَّتِ الْأَرْيَاحُ هَيَّجْنَ ذِكْرَهُ ... فَيَا طُولَ مَا حُزْنِي عَلَيْهِ وَمَا وَجَلْ
سَأُعْمِلُ نَصَّ الْعِيسِ فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا ... وَلَا أَسْأَمُ التَّطْوَافَ أَوْ تَسْأَمُ الْإِبِلْ
حَيَاتِيَ أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِيَّتِي ... فَكُلُّ امْرِئٍ فَانٍ وإن غره الأمل

فأخبر أنه بمكة، فجاء إليه فهلك عنده.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي: تأكيد لبطلان القول، وأنه لا حقيقة له في الوجود، وإنما هو قول لسان.

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ وهذه الآية وما قبلها، من نسخ السنة بالقرآن، وقد كان التبني معمولًا به في الجاهلية وبداية الإسلام، يُتوارث به، ويتناصر، فمن لم يكن له أب معروف، نسبوه إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف قيل له: يا أخي، أي: في الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، أي: لو نسب إنسان إلى أبيه من التبني على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه من غير قصد، وقد ثبت عند الشيخين من حديث سعد بن أبي وقاص، وأبي بكرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ». وعندهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إلا كَفَرَ». وعند البخاري عن عمر رضي الله عنه قال: «إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ كِتَابِ اللهِ: أَنْ لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ». وأما دعوة الغير ابنًا، على سبيل التكريم والتحبب، فليس داخلًا في ذلك، وقد جاء عند مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا بُنَيَّ».

قوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ جاء عند الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ».
واللفظ للبخاري، وهذا تفسير نبوي لهذه الآية.

وروى عبد الرزاق وإسحاق بن راهويه عن بجالة التميمي قال: «وَجَدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مُصْحَفًا فِي حِجْرِ غُلَامٍ فِي الْمَسْجِدِ فِيهِ: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبُوهُمْ. فَقَالَ: احْكُكْهَا يَا غُلَامُ. فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَحُكُّهَا وَهِيَ فِي مُصْحَفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فَانْطَلَقَ إِلَى أُبَيٍّ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي شَغَلَنِي الْقُرْآنُ، وَشَغَلَكَ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ إِذْ تَعْرِضُ رِدَاءَكَ عَلَى عُنُقِكَ بِبَابِ ابْنِ الْعَجْمَاءِ». صححه ابن حجر.

وروى أبو داود وغيره بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ». وقد احتج بعض أهل العلم بهذا الحديث على أنه قد يقال للنبي ﷺ: أبو المؤمنين، وقال آخرون: لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، والقول الأول أقرب.

وهل يقال لمعاوية ﵁ وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان، ونصَّ الشافعي على أنه يقال ذلك.

وعند الشيخين من حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وعند البخاري عن عمر ﵁ قال: قلت: «يَا رَسُولَ اللهِ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ».

قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام والتوقير والإعظام والإكرام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتِهن وأخواتِهن بالإجماع، وما قيل عن بناتِهن أنّهن أخوات المؤمنين فهو من باب إطلاق العبارة، لا إثبات الحكم.

قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وهذه ناسخة، لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، وقد كان المهاجري يرث الأنصاري، دون قراباته وذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى بينهم رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية للأولياء المؤمنين.

قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يُبدل ولا يغير، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو سبحانه يعلم أنه سينسخ إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ⁽٧⁾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⁽٨⁾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا ⁽٩⁾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ ⁽١٠⁾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ⁽١١⁾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ⁽١٢⁾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ
ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ⁽١٣⁾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟
ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ⁽١٤⁾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ
مَسْـُٔولًا ⁽١٥⁾﴾

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خص هؤلاء من بين الأنبياء لأنهم أولو العزم من الرسل وأئمة الأمم، وهم أصحاب الشرائع والكتب الكبرى، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ...﴾ الآية.

قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا وثيقًا أن يصدق بعضهم بعضًا، والميثاق هو اليمين، فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين، وقيل: الأول هو الإقرار بالله، والثاني في أمر النبوة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا...﴾ الآية. أي: أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدًا رسول الله ﷺ، ويعلن محمد ﷺ أنه لا نبي بعده.

قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: الأنبياء، وقيل: المبلغين عن الرسل، وهم ورثة الأنبياء، والسياق يحتمل المعنيين.

قوله: ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي: عن تبليغهم الدعوة إلى أهلها، وعن الوفاء بالميثاق الذي أُخذ عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني في غزوة الأحزاب أو الخندق، وكانت في السنة الخامسة، وقيل: الرابعة، وسميت بالأحزاب لتحزب المشركين من قريش، وغطفان، واليهود من بني قريظة، وسميت بالخندق لأن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على الرسول ﷺ حين شاورهم بحفر الخندق، وقال: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا، فرضي رأيه، فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون يتسللون لواذًا، وكان من فرغ من المسلمين من حصته عاد إلى غيره، حتى كمل الخندق، وكانت فيه آيات بينات، وعلامات للنبوة، فقد جاء عند الشيخين من حديث البراء رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ

الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

لَــــوْلَا أَنْـــتَ مَـــا اهْتَـــدَيْنَا وَلَا تَصَـــــدَّقْنَا وَلَا صَـــــلَّيْنَا

فَـــأَنْزِلَنْ سَـــكِينَةً عَلَيْنَـــا وَثَبِّـــتِ الْأَقْـــدَامَ إِنْ لَاقَيْنَـــا

إِنَّ الْأُلَـــى قَـــدْ بَغَـــوْا عَلَيْنَـــا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـــــةً أَبَيْنَـــــا»

وعند الشيخين عن أنس ﵁ قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قَالَ:

اللَّهُـــمَّ إِنَّ الْعَـــيْشَ عَـــيْشُ الْآخِـــرَهْ فَـــاغْفِرْ لِلْأَنْصَـــارِ وَالْمُهَـــاجِرَهْ

فقالوا مجيبين له:

نَحْـــنُ الَّـــذِينَ بَـــايَعُوا مُحَمَّـــدَا عَلَـــى الْإِسْـــلَامِ مَـــا بَقِينَـــا أَبَـــدَا

وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى الْجِهَادِ».

وقد روى النسائي بسند صحيح عن أبي سكينة -رجل من المحررين-، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ عَرَضَتْ لَهُمْ صَخْرَةٌ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَفْرِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ نَاحِيَةَ الْخَنْدَقِ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فَنَدَرَ ثُلُثُ الْحَجَرِ، وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ، فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ اللهِ بَرْقَةٌ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فَنَدَرَ الثُّلُثُ الْآخَرُ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ، فَرَآهَا سَلْمَانُ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وَنَدَرَ الثُّلُثُ الْبَاقِي، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَجَلَسَ، قَالَ سَلْمَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُكَ حِينَ ضَرَبْتَ مَا تَضْرِبُ ضَرْبَةً إِلَّا كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ! قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا سَلْمَانُ، رَأَيْتَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِيْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الْأُولَى رُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَا حَوْلَهَا، وَمَدَائِنُ كَثِيرَةٌ، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ -قَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا، وَيُغَنِّمَنَا ذَرَارِيَّهُمْ، وَيُخَرِّبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَهُمْ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ-، ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ وَمَا حَوْلَهَا، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ -قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا، وَيُغَنِّمَنَا ذَرَارِيَّهُمْ، وَيُخَرِّبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَهُمْ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ-، ثُمَّ ضَرَبْتُ الثَّالِثَةَ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الْحَبَشَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ».

فلما فرغ رسول الله ﷺ وأصحابه من الخندق، أقبلت قريش في نحو عشرة آلاف، بمن معهم من

كنانة، وأهل تِهامة، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف، وضربوا عسكرهم، والخندق بينهم وبين المشركين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وخرج عدو الله حيي بن أخطب زعيم بني النضير حتى أتى كعب بن أسد زعيم بني قريظة، وكان الأخير قد وادع رسول الله ﷺ وعاقده وعاهده، فلم يزل حُيي يغريه ويوسوس له ويمنيه، حتى عزم على خيانة العهد ونقض الموادعة، والدخول مع الأحزاب في القضاء على الإسلام، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو سيد الخزرج، وسعد بن معاذ رضي الله عنه وهو سيد الأوس مع رجال من الصحابة، ليتأكدوا من حقيقة أمر اليهود، فلما أتوا اليهود وجدوهم على أخبث ما قيل عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: لا عهد له عندنا! فشاتمهم سعد بن معاذ رضي الله عنه وشاتموه، فقال له سعد بن عبادة رضي الله عنه: دع عنك مشاتمتهم؛ فالذي بيننا وبينهم أكثر من ذلك. ثم أقبل السعدان رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ، وأخبراه بحقيقة الأمر، وعظُم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف.

قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ أي: من فوق الوادي وهو أعلاه، ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ يعني من قبل الوادي من قبل المغرب.

قوله: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: شخصت ومالت، فلم تلتفت إلا إلى عدوها دهشًا من فرط الهول.

قوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ أي: زالت عن أماكنها في الصدور حتى بلغت الحناجر، وهي الحلاقيم، واحدها: حنجرة، فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت. والحنجرة والحنجور هو حرف الحلق.

قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنّهم ينصرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾. واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، و ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾، و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾، فأثبت ألفاتها في الوقف بعض القراء. قال أبو عبيد: لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن، لكن يقف عليهن؛ لأن العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومصاريعها.

وقرئت بحذف الألف في الوصل والوقف معًا. قال ابن الأنباري: ولم يخالف المصحف من قرأ: (الظنون)، و (السبيل)، و (الرسول) بغير ألف، وفي الشعر تزاد الألف للضرورة، بخلاف القرآن، فإنه أفصح اللغات، ولا ضرورة فيه، ووجدت الألف في خط المصحف؛ لأنّها متطرفة متأخرة، فأنزلت منْزلة الفتحة، وهي كالألف في ﴿سَٰحِرَٰنِ﴾، وفي ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وفي ﴿وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ﴾، وما يشبهه مما يحذف من الخط وهو موجود في اللفظ، وربما كتبت على لغة من يقول: قام الرجلو، لقيت الرجلا، مررت بالرجلي. وقرئت على لغة من يقول: لقيت الرجل. وقرئت بإثباتِها في الوقف وحذفها في الوصل. قال ابن

الأنباري: ومن وصل بغير ألف ووقف بألف فجائز أن يحتج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصًا على بقاء الفتحة، وأن الألف تدعمها وتقويها.

قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هنا للقريب، و﴿هُنَالِكَ﴾ للبعيد، وهناك للوسط، ويشار به إلى الوقت. أي: عند ذلك اختُبِر المؤمنون؛ ليتبين المخلص من المنافق.

قوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ قرئت: (زَلزالًا) بالفتح، أي: حُرِّكوا تحريكًا، وكل مصدر من المضاعف على فِعلال يجوز فيه الكسر والفتح، نحو: قلقلته قِلقالًا وقَلقالًا، وزلزلوا زِلزالا وزَلزالًا، والكسر أفصح.

قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ قالوا: كيف يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يستطيع إن يذهب إلى الغائط. وقد سبق حديث النسائي.

قوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ وهي المدينة، وسماها رسول الله ﷺ طيبة وطابة، وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل، وبنو عميل هم الذين سكنوا الجحفة فأجحفت بهم السيول فيها، وبها سميت الجحفة.

قوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرئت بفتح الميم، أي: لا إقامة ولا موضع تقيمون فيه.

قوله: ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ أي إلى منازلكم. أمروهم بالهروب من عسكر النبي ﷺ.

قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهي مما يلي العدو، يقال: دار مُعْوِرة، وذات عَوْرة، إذا كان يسهل دخولها، يقال: عَوِر المكان عَوَرًا، فهو عَوِر، ويقال: أعور الفارس، إذا بدا فيه خلل للضرب والطعن. قال الشاعر:

مَتَى تَلْقَهُمْ لَمْ تَلْقَ فِي الْبَيْتِ مُعْوِرًا ... وَلَا الضَّيْفَ مَفْجُوعًا وَلَا الْجَارَ مرملا

قوله: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: ما يريدون إلا الهرب من القتل والدين.

قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ وهي البيوت أو المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: من نواحيها وجوانِبها، والواحد: قُطْر، وكذلك القُتر، لغة في القطر.

قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ بالمد، أي: أعطوها من أنفسهم، وقرئت: (لأَتوها)، أي: لجاءوها، ويدل على قراءة القصر، والفتنة هنا: الشرك والكفر.

قوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: لفعلوا ذلك مسرعين، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم، وذهاب الحق من نفوسهم.

قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ يسألون عنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾
قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً
عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ
سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾
يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟
فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ
ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ
إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المعترضين منكم؛ لأن يصدروا الناس عن النبي ﷺ، وهو مشتق من عاقني عن كذا، أي: صرفني عنه، وعوّق على التكثير. يقال: عاقه يعوقه عوقًا، وعوّقه واعتاقه بمعنى واحد.

قوله: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ على لغة الحجاز، وعلى لغة الغير هلموا، للجماعة، وهلمي، للمرأة، والمعنى: أقبلوا، وهؤلاء هم أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول المنافق الخبيث.

قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وسمعة، خوفًا من الموت.

قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء عليكم بالحفر في الخندق، وفي النفقة في سبيل الله، وبالقتال معكم، وبالوقوف مع فقرائكم والمساكين منكم. ونصبت ﴿أَشِحَّةً﴾ على تقدير: يعوّقون أشحة، أو القائلين أشحة، أو نصب على الذم، أو على تقدير: يأتونه أشحة.

قوله: ﴿ٱلْخَوْفُ﴾ إما من قتال العدو إذا أقبل، أو من النبي ﷺ إذا غلب، والأول أظهر.

قوله: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهذا سبيل الجبان، ينظر يمينًا وشمالًا محددًا بصره، وربما غشي عليه.

قوله: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: آذوكم بالكلام الشديد، وبالغوا في مخاصمتكم، ويقال: صلقوكم، وخطيب مِسْلاق ومِصْلاق، إذا كان بليغًا، وأصل الصلق: الصوت، ومنه ما جاء عند الشيخين لكنه عند البخاري جاء معلقًا من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ، وَالْحَالِقَةِ، وَالشَّاقَّةِ». قال الشاعر:

فِيهِمُ الْمَجْدُ وَالسَّمَاحَةُ وَالنَّجْـ ـدَةُ فِيهِمْ وَالْخَاطِبُ السَّلَّاقُ

قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: على الغنيمة، أو على المال أن ينفقوها في سبيل الله، كما قال الشاعر:

أَفِـي السِّـلْمِ أَعْيَـارًا جفَـاءً وَغلْظَـةً وَفِي الحَـرْبِ أشْـباهُ النِّسَـاءِ العَـوارِكِ

قوله: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي: لجبنهم وفرط خوفهم، وكان الأحزاب قد انصرفوا، ولكنهم لم يتباعدوا في السير.

قوله: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: يرجعون إليهم للقتال.

قوله: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: تمنوا أن يكونوا مع الأعراب، حذرًا من القتل، وتربصًا للدوائر، يقال: بادٍ وبُدّى، مثل: غازٍ وغُزَّى، ويمد مثل: صائم وصوّام، ويقال: بدا فلان يبدو، إذا خرج إلى البادية، وهي البِداوة والبَداوة، بالكسر والفتح، وأصل الكلمة من البُدُوّ، وهو الظهور.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: عن أخبار النبي ﷺ، ويتحدثون عن هلاك الرسول ﷺ وأصحابه، وغلبة أبي سفيان وأحزابه، وكانوا في أطراف المدينة، والعاقبة كما أخبر الله عز وجل في مطلع هذه القصة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي الصبا، حتى ألقت قدورهم، ونزعت فساطيطهم، روى الشيخان من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ».

وكانت معجزة للنبي ﷺ، فلم يكن بينه وبين المشركين إلا الخندق، ومع هذا كان في عافية من هذه الريح العاتية. وكذلك قوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، فأطفأت نيرانَهم، وأكفأت قدورهم، وجالت الخيل بعضها في بعض، وألقت الرعب في قلوبهم، فصارت الأحزاب بين الرياح العاتية والملائكة المقاتلة كالأوزاغ في الأرض المطيرة، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾.

فقال أبو سفيان: ويلكم يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام؛ لقد هلك الكراع والخف، ولقينا من هذه الريح ما ترون، ما يستمسك لنا بناء، ولا تثبت لنا قِدر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جمله، فما حل عقاله إلا وهو قائم، ولما أصبح رسول الله ﷺ وقد ذهب الأحزاب رجع إلى المدينة، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

جاء عند البخاري من حديث سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ حين أجلى الأحزاب عنه يقول: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ».

ووضع المسلمون سلاحهم، ووضع رسول الله ﷺ السلاح، فاغتسل، وقد جاء عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ طَلَبِ الأَحْزَابِ ونزل المدينة وَاغْتَسَلَ وَاسْتَجْمَرَ وَوضَعَ عنه لأُمَته». رواه الطبراني، وحسنه ابن حجر.

فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما روى ذلك الشيخان من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ورسول الله ﷺ «يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ، فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلاحَ؟ وَاللهِ مَا وَضَعْتُهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَيْنَ؟ فَأَشَارَ إِلَى بَنِي

قُرَيْظَةَ». فقال رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فتخوّف ناس فوت الوقت، فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، فما عنّف واحدًا من الفريقين.

وعند البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ، مَوْكِبَ جِبْرِيلَ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ- حِينَ سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ». وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه كما جاء عند الشيخين من حديث عائشة وأبي سعيد رضي الله عنهما قد أصيب يوم الخندق: «رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: (حِبَّانُ) بْنُ الْعَرِقَةِ، رَمَاهُ فِي الْأَكْحَلِ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ». وكان سعد رضي الله عنه يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَافْجُرْهَا، وَاجْعَلْ مَوْتَتِي فِيهَا».

فلما وصلوا بني قريظة قاتلوهم، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فرد رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه، فلما دنا سعد رضي الله عنه قال النبي ﷺ للأنصار: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»، فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ، أَوْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ»، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم أمر رسول الله ﷺ فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، ابتداءً بحُيي بن أخطب، وكعب بن أسد، وكانا رأس القوم، فلما أتي بحيي ليضرب عنقه ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال: أما والله ما لُمت نفسي في عداوتك، ولكن من يَخذُلِ الله يُخذَلْ، وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت، وترك من لم ينبت، وكان عطية القرظي ممن لم ينبت، فاستحياه رسول الله ﷺ، وهو مذكور في الصحابة، وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهمًا واحدًا، وقيل: للفارس سهمان، وللراجل سهم.

فلما تم أمر بني قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فانفجر جرحه، وانفتح عرقه، فجرى دمه، فلم يرعهم -وفي المسجد خيمة من بني غفار- إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟! فإذا سعد رضي الله عنه يغذو جرحه دمًا، فمات منها رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وجنازة سعد بن معاذ رضي الله عنه بين أيديهم: «اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»، وجاء من حديث البراء رضي الله عنه قال: أهديت لرسول الله ﷺ حُلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ لِينِ هَذِهِ؟ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرٌ مِنْهَا أَوْ أَلْيَنُ». رواه الشيخان، وعند النسائي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بسند جيد: «شَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَفُتِحَتْ لَهُ

أَبْوَابُ السَّمَاءِ» ورواه ابن سعد وزاد: «لَمْ يَنْزِلُوا إِلَى الأَرْضِ قَبْلَ ذَلِكَ». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قرئت: (إسوة)، يقال كِسْوة وكُسًا، ولِحية ولِحَى، والجمع: أُسًى وإسًى، والأسوة: القدوة، وهي ما يتأسى به، أي: يُتعزّى به فيقتدى به في جميع أفعاله، ويتعزى به في جمع أفعاله، فلقد شُج في وجهه، وكُسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وقتل عَمُّه، وجاع بطنه، ولم يُلْفَ إلاّ صابرًا محتسبًا، شاكرًا راضيًا.

قوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ أي: نذره وعهده، تقول: نَحَبْت أنحُب، بالضم. وقيل: النحب: الموت، أي: مات على ما عاهد عليه، ويقال للمدة والوقت: النحب، فيقال: قضى فلان نحبه، إذا مات، والنحب يقال للحاجة والهمة، يقول قائلهم: ما لي عندهم نحب، والقول الأول هو الأظهر، ويليه القول الثاني.

وقد روى الشيخان من حديث أنس ﵁ قال: «غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ﵁ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ (وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي أَصْحَابَهُ-، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ. يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ)، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﵁، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ! الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ! إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ. (قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ.) قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، (وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ)، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ».

وعند الترمذي بسند لا بأس به عن معاوية ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى

نَحْبَهُ».

وعند الترمذي عن الزبير ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ». صححه ابن حجر.

وقد فُقدت هذه الآية عند نسخ المصحف، فقد أخرج البخاري من حديث زيد بن ثابت ﵁ قال: «فَقَدْتُ آيَةً مِنَ الْأَحْزَابِ حِينَ نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا، فَالْتَمَسْنَاهَا، فَوَجَدْنَاهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ -وَفِي رِوَايَةٍ: الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ-: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، فَأَلْحَقْنَاهَا فِي سُورَتِهَا فِي الْمُصْحَفِ».

قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: عهودهم، كما فعل أصحاب ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

قوله: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ بل قد اكتسبوا الآثام.

قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ جاء عند النسائي بسند صحيح عن أبي سعيد ﵁ قال: «شَغَلَنَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلاةِ الظُّهْرِ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْقِتَالِ مَا نَزَلَ فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بلالًا فَأَقَامَ لِصَلاةِ الظُّهْرِ فَصَلاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا لِوَقْتِهَا؛ ثُمَّ أَقَامَ لِلْعَصْرِ فَصَلاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا؛ ثُمَّ أَذَّنَ لِلْمَغْرِبِ فَصَلاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا».

قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: الذين أعانوا الأحزاب على المسلمين.

قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديمًا طمعًا في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة.

قوله: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم، واحدها: صِيصة، والصياصي في البيت: قرون البقر، ومنه قيل قيل لشوكة الحائك التي بها يُسوي السداة واللُّحْمَة: صيصة، ومنه: صيصة الديك، التي في رجله، وربما كان صياصي البقر تركب في الرماح مكان الأسنة، ويقال: جَذَ الله صِئْصَئه، أي: أصله.

قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ من الرجال والنساء.

قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ قيل: خيبر، وقيل: مكة، رواه مالك عن زيد بن أسلم، وقيل: فارس والروم، قاله ابن جرير. ويجوز أن يكون الجميع مرادًا، وكل أرض تفتح إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهنّ خديجة بنت خويلد وقد ماتت ﵂ بمكة فلم يشملها هذا الأمر، وسودة بنت زمعة العامرية، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية، وأم حبيبة

رملة بنت أبي سفيان، وزينب بنت جحش الأسدية، وزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية وقد توفيت في حياته، وجويرية بنت الحارث الخزاعية الْمُصْطَلِقية، وصفية بن حيي بن أخطب الهارونية، وريحانة بنت زيد بن عمرو من بني النضير، وقيل: إنّها كانت ملك اليمين ولم يعتقها، وميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنهن، فهؤلاء المشهورات من أزواج النبي ﷺ، وهن اللاتي دخل بهن.

جاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه مطولًا وعند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها مختصرًا: «دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ، وَاجِمًا، سَاكِتًا. قَالَ: فَقَالَ: لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ .. فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، كِلَاهُمَا يَقُولُ: تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ؟! فَقُلْنَ: وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ. ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ. قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ. قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ. قَالَ: لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا؛ إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا».

وأراد النبي ﷺ من عائشة رضي الله عنها أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها، وكان يخاف أن يحملها صغر سنها وفرط شبابها على أن تختار فِراقه، ويعلم من أبويها أنّهما لا يشيران عليها بفراقه، وقد اختلف العلماء، هل خيرهن في البقاء على الزوجية أو الطلاق، أو خيرهن بين الدنيا فيفارقهن وبين الآخرة فيمسكهن؛ لتكون لهن المنْزلة العليا كما كانت لزوجهن ﷺ، والقول الأول هو الصواب؛ لقول عائشة رضي الله عنها كما جاء عند الشيخين لما سئلت عن الرجل يخير أهله، فقالت: «خَيَّرَنَا النَّبِيُّ ﷺ، أَفَكَانَ طَلَاقًا؟» قَالَ مَسْرُوقٌ: «لَا أُبَالِي أَخَيَّرْتُهَا وَاحِدَةً أَوْ مِائَةً، بَعْدَ أَنْ تَخْتَارَنِي».

وقد جاء عند عبد الرزاق عن جابر رضي الله عنه قال: «إِذَا خَيَّرَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فَلَمْ تختر في مجلسها ذَلِكَ فَلَا خِيَارَ لَهَا». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿يُضَـٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة.

قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه منه كونهنَّ أزواج ونساء النبي ﷺ.



الْمُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل

العُشْر الثامن

يَحْيى بن عَبْد العَزيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٣٢ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾

قوله: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهنَّ رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة.

قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة.

قوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: في الفضل والشرف؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول ﷺ وعظيم المحل منه، ونزول القرآن في حقهن.

قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا تَلِنَّ بالقول، يعني ليكن كلامكن جزلًا وفصلًا، ولا يكن على وجه يُظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين، كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه مثل كلام المومسات والمربيات.

قوله: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ أي: يتشوف ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: فسق وفجور.

قوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ المرأة تُنْدَبُ إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول، من غير رفع صوت؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام. والمعروف: أي الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس التقية المؤمنة.

قوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرئت: (وقِرن)، أي: أقمن في بيوتكن، والأصل: اقْرَرْنَ، فحذفت الراء الأولى لثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف، فتقول: قرن. قال الفراء: هو كما تقول: أَحَسْتَ صاحبك، أي: هل أحْسَست. وفي الآية أمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن بعموم اللفظ، وإنما خاطب الشارع نساء النبي ﷺ تشريفًا لهن، وغيرهن من باب أولى، ونَهاهن عن

التبرج، وأعلم أنه من فعل الجاهلية الأولى.

قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: ما كان قبل الشرع الذي جاء به محمد ﷺ؛ لأنّهم كانوا لا غيرة عندهم، فربما خرجت امرأة أحدهم تمشي في تغنّج وتكسّر وإظهار للمحاسن، فلا يحرك عنده ساكنًا، وقد جاء عند عبد الرزاق بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَتْ الْجَاهِلِيَّة الْأُولَى أَلْف سَنَة فِيمَا بَيْنَ نُوح وَإِدْرِيس».

فإن قال قائل: هذه عائشة رضي الله عنها خرجت من بيتها، وقادت الجيوش، وباشرت الحروب، واقتحمت مأزق الطعن والضرب -يعني غزوة صفين- ولم يكن لها ذلك، فيقال: لم تخرج لحرب، ولكن تعلق الناس بِها، وشَكَوا لها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتَهارج الناس، ورجوا بركتها، وطمعوا في استحياء الناس منها إذا وقفت إليهم، وظنت هي ذلك، فخرجت مؤتمرة بأمر الله حين قال: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى، حر وعبد، فلما رأت أن الأمر استفحل ولا نتيجة، رجعت إلى المدينة، برة تقية، مجتهدة، مصيبة، مُثابة فيما تأولت، مأجورة فيما فعلت.

قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ هذا خطاب موجه لنسائه ﷺ، وداخل فيه ما جاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾».

وعلى هذا فأهل البيت، نساؤه وكل من حرم الصدقة بعده، وهم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، وقد قال رسول الله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: «أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ! فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ- فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ. فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي». وأخص أهل بيته: نساؤه؛ لصريح الخطاب القرآني، ثم بناته؛ لصريح الخطاب النبوي.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: اقرأن واحفظن واعملن بما ينْزل الله تبارك وتعالى على رسوله في بيوتكن من الآيات القرآنية والسنة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ....﴾ روى الترمذي بسند حسن عن أم عمارة الأنصارية ﵂: أنّها أتت النبي ﷺ فقالت: «مَا أَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا لِلرِّجَالِ، وَمَا أَرَى النِّسَاءَ يُذْكَرْنَ بِشَيْءٍ! فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ».

قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ جاء عند أبي داود، وابن حبان بسند صحيح عن أبي سعيد، وأبي هريرة ﵄ قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيَا -أَوْ: صَلَّى- رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا؛ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ».

وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ: جُمْدَانُ، فَقَالَ: سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ. قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

وروى الطبراني بسند جيد من حديث أم أنس ﵂: «أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي قَالَ: اهْجُرِي الْمَعَاصِيَ فَإِنَّهَا أَفْضَلُ الْهِجْرَةِ وَحَافِظِي عَلَى الْفَرَائِضِ، فَإِنَّهَا أَفْضَلُ الْجِهَادِ، وَأَكْثِرِي مِنْ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّكِ لَا تَأْتِي اللهَ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ».

وجاء عند ابن ماجه من حديث أم هانئ ﵂ قالت: «أَتَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ، فَإِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدَّنْتُ، فَقَالَ: كَبِّرِي اللهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَاحْمَدِي اللهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَسَبِّحِي اللهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ مُلْجَمٍ مُسْرَجٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ رَقَبَةٍ». حسنه ابن حجر ورواه أحمد وزاد: « سَبِّحِي اللهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ؛ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاحْمَدِي اللهَ مِائَةَ تَحْمِيدَةٍ، تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ، تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَبِّرِي اللهَ مِائَةَ تَكْبِيرَةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ، وَهَلِّلِي اللهَ مِائَةَ تَهْلِيلَةٍ، تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لِأَحَدٍ عَمَلٌ، إِلَّا أَنْ يَاتِيَ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتِ بِهِ». حسنه ابن حجر.

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي بمن حديث أبي الدرداء ﵁: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذِكْرُ اللهِ. قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

وروى الطبراني بسند جيد من حديث معاذ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا».

وروى الطبراني من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا فِي حَجْرِهِ دَرَاهِمُ يَقْسِمُهَا وَآخَرُ يَذْكُرُ اللهَ كَانَ الذَّاكِرُ لِلَّهِ أَفْضَلَ». حسنه ابن حجر.

وجاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلاةِ الْغَدَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً».

ومناقب الذكر أكثر من أن تحصر، وقد جاء عند ابن سعد بسند جيد عن عكرمة أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة يقول: أسبح بقدر ذنوبي».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: محظور وممنوع، لأن لفظة ما كان، وما ينبغي، معناها الحظر والمنع، فتجيء لحظر الشيء، والحكم بأنه لا يكون، وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلًا، كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، وربما كان العلم بامتناعه شرعًا، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، وربما كان في المندوبات، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل.

قوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: التخيير، فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار، وقد استدل بعض الأصوليين على أن صيغة أفعل للوجوب في أصل وضعها؛ لأن الله تبارك وتعالى، نفى خيرة المكلف، عند سماع أمره وأمر رسوله ﷺ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية، ثم رتب على المعصية بذلك الضلال، فلزم حمل الأمر على الوجوب، فلا اختيار لأحد إلا فيما اختاره الله ورسوله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ...﴾ جاء عند مسلم من حديث عائشة ﵂، وأصله متفق عليه قالت: «وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ - صلى الله عليه وسلم - كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾». وعند البخاري عن أنس ﵁، أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة ﵄.

قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: زيد بن حارثة ﵁، وأنعم الله عليه بالإسلام.

قوله: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالحرية والعتق من الرق، فقد كان (زيدٌ) عبدًا عند رسول الله ﷺ قبل البعثة، ثم أعتقه وتبناه، ولما أبطل الله ﷻ التبني، عاد زيد لِيُنسب إلى أبيه، وكان سيدًا كبير الشأن، جليل القدر، حبيبًا إلى رسول الله ﷺ، يقال له كما جاء عند الشيخين: حب رسول الله ﷺ، ويقال لابنه أسامة ﵁: الحب ابن الحب.

قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وذلك حين أراد أن يطلقها زيد ﵁، واستأذن رسول الله ﷺ في ذلك، لشدة حدتِها، فلم يأذن له وكان الرسول ﷺ يحاول دائمًا الإصلاح بينهما.

قوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: حبك لزينب بنت جحش ﵂ ورغبتك في نكاحها بعد طلاق زيد لها.

قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تستحيي منهم وتخاف وتكره لأئمتهم لو قلت: طلقها، ويقولون: أمر رجلًا بطلاق امرأته، ثم نكحها حين طلقها، أو يقولون: تزوج امرأة مولاه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ لأنه سبحانه وهو اللطيف الخبير هو الذي أحلها له، وخشيته في كل حال، وقد أوحى إليه أن زيدًا ﵁ سيطلق زينب ﵂، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد ﵁ للنبي ﷺ خلق زينب ﵂، وشدة حدتها، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: أمسك عليك زوجك واتق الله. وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، وقد سبق.

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: جِماعًا، والوطر: كل حاجة للمرء له فيها همة، والجمع: أوطار، وقيل: الوطر: الطلاق، والأول هو الصواب.

قوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول: «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى

مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ». رواه البخاري. وجاء عند مسلم من حديث أنس ﷺ قال: «لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِزَيْدٍ: فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ. قَالَ: فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّى أَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي، حَتَّى مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَهَا، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَنَكَصْتُ عَلَى عَقِبِي، فَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ! أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُكِ. قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي. فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ». وكان من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين أنه لما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد، ولا تقرير صداق.

قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، وأن زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ، فلا مجال للقيل والقال وسفاسف أشباه الرجال.

قوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دَعِيُّه زيد بن حارثة رضي الله عنه.

قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لَم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصًا في زواجه امرأة زيد رضي الله عنه مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه.

قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: كائنًا حتمًا، وواقعًا قطعًا، لا محيد عنه ولا معدل.

قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لا زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولا غيره، وإنما أبناؤه الحقيقيون: إبراهيم، والقاسم، والطيب، والطاهر، ولكن لم يعش له ابن منهم حتى يصير رجلًا، كلهم ماتوا في الصغر، وفي هذه الآية نُهي أن يقال بعد هذا: زيد بن محمد.

قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: ولكن كان رسول الله.

قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قرئت: (وخاتِم) بكسر التاء، أي: ختمهم وآخرهم، وقيل: الخاتَم والخاتِم لغتان، مثل طابَع وطابِع، وطابَق من اللحم وطابِق، جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ. فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ». ومن حديث جابر رضي الله عنه: «يَدْخُلُونَهَا».

وعند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه، وبنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ:... وذكر منها: وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ».

وعند الشيخين من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ،

وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ». قال الزهري: أي: ليس بعده نبي.

وجاء بسند جيد عند أحمد قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»، وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه سيأتي زمان تُدَّعى فيه النبوة، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ، فَاحْذَرُوهُمْ». رواه مسلم، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في مقدمته قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبًا مِنْ ثَلاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ».

قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ في الصباح والمساء.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ الصلاة من الله على عبده: الرحمة والبركة والثناء عليه في الملأ الأعلى، حكى ذلك البخاري عن أبي العالية، وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ جاء عند الشيخين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ (قَدْ تَحَلَّبَ ثَدْيُهَا بِسقْيِ)، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».

وعند أحمد بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَصَبِيٌّ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّهُ الْقَوْمَ خَشِيَتْ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوطَأَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُولُ: ابْنِي! ابْنِي! وَسَعَتْ، فَأَخَذَتْهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُلْقِيَ ابْنَهَا فِي النَّارِ. قَالَ: فَخَفَّضَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: وَلَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ۝٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٤٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٤٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ

وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي: يوم يسلم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، وقيل: تحية المؤمنين بعضهم لبعض يوم يلقون الله في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والقول الأول أظهر، والقول الثاني وارد.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ المؤمنين برحمة الله ورضوانه، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من سخط الله والنار، وقد جاء عند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وسئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

وعند مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»، وفي حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه عند مسلم: «وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ رَؤُوفًا رَحِيمًا».

قوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ على بصيرة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بأمره وتقديره ومشيئته، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه؛ لأنه الهادي في دياجير الظلام، ووصفه بالإنارة لأن من السرج ما لا يضيء إذا قل زيته ودقت فتيلته، وقد قيل: ثلاثة تفنى: رسول بطيء، وسراج لا يضيء، ومائدة ينتظر لها من يجيء. والمقصود: أن ما جاء به الرسول ﷺ من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها، وكالقمر في بياضه وبدره، لا يجحده إلا بليد معاند، أو شيطان مارد.

قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: إذا عقدتم عليهن، وسُمي نكاحًا لملابسته للوطء، الذي هو حقيقة النكاح، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء، وهو من أدب القرآن، الكناية بلفظ الملامسة، والمماسة، والقُربان، والتغشّي، والإتيان، وإنما خصَّ المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخيَّر لنطفته، وألاّ ينكح إلا مؤمنة عفيفة.

قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أي: بعد النكاح؛ إذ لا طلاق قبل نكاح، ولقوله ﷺ كما في حديث عبد الله بن

عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أحمد، وأبي داود بسند حسن: «لا طَلاقَ لابْنِ آدَمَ فِيمَا لا يَمْلِكُ».

قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وهذا بالإجماع، فالمرأة إذا طلقت قبل الدخول بِها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنّها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن دخل بِها بالإجماع، وهذه الآية مُخَصِّصة لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، ولقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، وقد اختلف أهل العلم في المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتُها ثم فارقها قبل أن يمسها هل تتم عدتُها؟ أي: تمضي في عدتِها من طلاقها الأول، أو ليس عليها أن تتم عدتَها، ولا عدة مستقبلة لها، أو تنشئ من يوم طلقها عدة مستقبلة، وهذا الأخير هو الحق الذي لا ريب فيه؛ لأنّها في حكم الزوجات المدخول بِهن في النفقة والسكنى وغير ذلك، ولذلك تستأنف العدة من يوم طلقت، وهذا قول جماهير أهل الفقه في مكة، والمدينة، والبصرة، والكوفة، والشام، قال الثوري: أجمع الفقهاء عندنا على ذلك.

قوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ المتعة هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها، قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، وعند البخاري عن سهل بن سعد، وأبي أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: تزوج النبي ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنّها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين.

قوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: في سنة، لا في بدعة، وفي يسر وإحسان، لا في عسر وإساءة.

قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ ومن ذلك أننا أبحنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصداقٍ مُسمَّى، وهُنَّ في عصمتك، وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به عن أم هاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «خَطَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ فَعَذَرَنِي؛ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ الآيَةَ، قَالَتْ: فَلَمْ أَكُنْ أَحِلُّ لَهُ لِأَنِّي لَمْ أُهَاجِرْ كُنْتُ مِنَ الطُّلَقَاءِ».

قوله: ﴿ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطيتهن مهورهن، وقد كان مهره لأزواجه كما جاء عند مسلم من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَمْ كَانَ صَدَاقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: كَانَ صَدَاقُهُ لِأَزْوَاجِهِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًّا. قَالَتْ: أَتَدْرِي مَا النَّشُّ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَتْ: نِصْفُ أُوقِيَّةٍ، فَتِلْكَ

خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَهَذَا صَدَاقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَزْوَاجِهِ»، وهذا في الغالب؛ لأن أم حبيبة بنت أبي سفيان أمهرها عنه النجاشي رحمه الله بأربعمائة دينار، رواه أبو داود بسند جيد من حديث أم حبيبة رضي الله عنها، وصفية بنت حيي رضي الله عنها فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها. رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه.

وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس رضي الله عنه وتزوجها. رواه أبو داود وصححه ابن حبان وابن حجر.

قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ كصفية، وجويرية رضي الله عنهما، فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم رضي الله عنهما، وكانتا من السراري.

قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ وهذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبين المرأة سبعة أجداد فصاعدًا، وأما اليهود فيتزوج أحدهم ابنة أخيه، وابنة أخته، وهذا منتهى الشناعة والفظاعة، وقيل: في هذه الآية أحل الله تعالى له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، فهي مبيحة له جميع النساء، حاشا ذوات المحارم، واستدلوا بما أخرجه الترمذي بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله تعالى له النساء. والقول الأول هو الظاهر، وأما القول الثاني فله وجه، وذكر الأعمام والأخوال بلفظ الإفراد؛ لأنه اسم جنس، كالشاعر، والراجز، وليس كذلك العمة والخالة، ولذا ذكرها بلفظ الجمع، وهذا عرف لغوي.

قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: أسلمن معك؛ لقوله ﷺ: «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ». رواه البخاري من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما وأصله متفق عليه، وقيل: هاجرن معك إلى المدينة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾، والقول الأول أقرب لعمومه.

قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي: أحللنا لك امرأة تهب نفسها من غير صداق، وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟! فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾؛ قُلْتُ: مَا أُرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ».

وعند البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ مِنَ اللَّائِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ».

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها حلّت له، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك، يقال: نكح واستنكح، مثل: عَجِب واستعجب، وعجل واستعجل، ويجوز أن يرد الاستنكاح، بمعنى طلب النكاح، أو طلب الوطء.

قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ منصوب على الحال، أي: هبة النساء أنفسهن خاصة ومزية لك، لا تجوز لغيرك، وهذا بالإجماع، إذ لابد من المهر، وقد جاء عند الشيخين من حديث سهل بن سعد ﵄: «جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! جِئْتُ أَهَبُ لَكَ نَفْسِي. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ: مَا لِي الْيَوْمَ فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ)، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا!...». الحديث.

قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: ما أوجبنا على المؤمنين، وهو ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، بمهر وبينة وولي، وما شاءوا من الإماء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تؤخر من تشاء من الواهبات، يقال: أرجيت الأمر وأرجأته، إذا أخرته.

قوله: ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ أي: تضم وتَقبَل، يقال: آوى إليه، بالمد: ضم إليه، وأوى، بالقصر: انضم إليه، وقد تقدم قبل قليل سبب نزولها، وفيها توسعة على النبي ﷺ في ترك القسم، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته، فهو مخيّر، إن شاء قسم، وإن شاء ترك، كما سيتبين في الحديث الآتي، لكنه كان يقسم من قبل نفسه؛ تطييبًا لنفوسهن، وصونًا لهن عن أقوال الغَيْرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي، قال الزهري: ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ أحدًا من أزواجه، بل آواهن كلهن، وقد جاء عند البخاري من حديث عائشة ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، قَالَتْ مُعَاذَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا كُنْتِ تَقُولِينَ؟ قَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ لَهُ: إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ أُوثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا»، وعلى هذا فالآية عامة في الواهبات، كما في الحديث الأول، وفي النساء اللاتي عنده أنه مُخير، إن شاء قسم، وإن شاء لم يقسم.

قوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: طلبت ممن عزلت، فالابتغاء: الطلب، والعزلة: الإزالة، أي: إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن من القسمة وتضمها إليك فلا بأس عليك في ذلك، وكذلك حكم الإرجاء.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ لأنه قضاء من عندنا، لا من هواك واختيارك؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له في شيء كان راضيًا بما أوتي منه وإن قَلَّ، وإن علم أن له حقًا لم يقنعه ما أوتي منه، واشتدت غيرته عليه، وعظم حرصه فيه، فكأن ما اختار الله لرسوله ﷺ من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن، دون أن تتعلق قلوبُهن بأكثر منه، وكان رسول الله ﷺ مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن، ويقول كما في الحديث الحسن عند أحمد، وأبي داود، والنسائي من حديث عائشة رضي الله عنها: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ».

وكان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به محمولًا على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنَهنّ أن يقيم في بيت عائشة رضي الله عنها، كما جاء عند الشيخين عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه، يقول: «أَيْنَ أَنَا الْيَوْمَ؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ اسْتِبْطَاءً لِيَوْمِ عَائِشَةَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي قَبَضَهُ اللهُ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي».

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خبر عام، والإشارة إلى ما في قلب الرسول ﷺ من محبة شخص دون شخص، أو زوجة دون زوجة، وقد جاء عند الشيخين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ. فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: أَبُوهَا. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. فَعَدَّ رِجَالًا».

قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ الذي سمى الله من النساء اللاتي في عصمتك، وكنّ تسعًا، أو من أصناف النساء، وقد اختلف العلماء في هذه الآية، وأقرب الأقوال من قال: إنّها منسوخة بالآية التي قبلها ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، ويجوز النسخ مع تأخر الآية، كما أنه جاز النسخ في آية البقرة في مسألة عدة الوفاة، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ منسوخة بلا خلاف بالآية التي قبلها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، فالقرآن بمنْزلة واحدة، فقد يتقدم الناسخ ويتأخر المنسوخ، ثم إنّها منسوخة بالسنة؛ لحديث عائشة رضي الله عنها السابق عند أحمد، والترمذي بسند صحيح: «مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أُحِلَّ لَهُ النِّسَاءُ».

قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ قيل: هذا شيء كانت العرب تفعله، يقول أحدهم: خذ زوجتي وأعطني زوجتك وأزيدك، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن، فقد جاء عند أبي داود، والنسائي

بسند قوي من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثُمَّ رَاجَعَهَا».

وجاء عند أبي يعلى بسند على شرط الشيخين عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «دَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟ لَعَلَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَّقَكِ، إِنَّهُ قَدْ كَانَ طَلَّقَكِ، ثُمَّ رَاجَعَكِ مِنْ أَجْلِي، فَايْمُ اللهِ لَئِنْ كَانَ طَلَّقَكِ لا كَلَّمْتُكِ كَلِمَةً أَبَدًا».

وقيل: نُهي ﷺ عن الزيادة عليهنّ إن طلق واحدة منهم، واستبدال غيرها بها، إلا ما ملكت يمينه، والله أعلم بالصواب، والقول الثاني أقرب، ولكن الآية منسوخة كما تقدم، وفي الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها، وقد سبق ذلك في سورة النساء، قال الشافعي، وأحمد: ينظر إلى وجهها وكفّيْها، ولا يلزم أذنها، وقال الأوزاعي: ينظر إليها ويجتهد، ينظر مواضع اللحم منها، وقال داود: ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسكًا بظاهر اللفظ، وأصول الشريعة ترد عليه في تحريم الاطلاع على العورة.

قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء.

قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: إلا ما كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك؛ لأنهن لسن زوجات.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي: مطلعًا على أعمالكم شاهدًا عليها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، وقد روى البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَا أَوْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنْ نِسَائِهِ مَا أَوْلَمَ عَلَى زَيْنَبَ: أَوْلَمَ بِشَاةٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَوْسَعَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا. وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَشْبَعَ النَّاسَ خُبْزًا وَلَحْمًا. وَفِي رِوَايَةٍ: دَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ. قَالَ: ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ».

و«لَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ زَيْنَبَ دَخَلَ الْقَوْمُ فَطَعِمُوا، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ، فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ مِنَ الْقَوْمِ، وَقَعَدَ بَقِيَّةُ الْقَوْمِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ. فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ بَارَكَ اللهُ لَكَ! فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ (وَفِي رِوَايَةٍ: خَرَجَ كَمَا يَصْنَعُ إِذَا تَزَوَّجَ، فَأَتَى حُجَرَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُو وَيَدْعُونَ لَهُ) -، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ، وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ-، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ رَأَى رَجُلَيْنِ جَرَى بِهِمَا الْحَدِيثُ، فَلَمَّا رَآهُمَا رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَانِ نَبِيَّ اللهِ ﷺ رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ وَثَبَا مُسْرِعَيْنِ-، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي رِوَايَةٍ: فَمَا أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أَوْ

أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا-، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ، فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ-، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الْآيَةَ».

وعند الشيخين من حديث أنس ﵁ قال: «قَالَ أَنَسٌ ﵁: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِجَنَبَاتِ أُمِّ سُلَيْمٍ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا). ثُمَّ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَرُوسًا بِزَيْنَبَ، فَقَالَتْ لِي أُمُّ سُلَيْمٍ: لَوْ أَهْدَيْنَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ هَدِيَّةً؟ فَقُلْتُ لَهَا: افْعَلِي. (فَعَمَدَتْ إِلَى تَمْرٍ وَسَمْنٍ وَأَقِطٍ)، فَاتَّخَذَتْ حَيْسَةً فِي بُرْمَةٍ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا مَعِي إِلَيْهِ، فَانْطَلَقْتُ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي: ضَعْهَا. ثُمَّ أَمَرَنِي، فَقَالَ: ادْعُ لِي رِجَالًا -سَمَّاهُمْ-، وَادْعُ لِي مَنْ لَقِيتَ. قَالَ: فَفَعَلْتُ الَّذِي أَمَرَنِي، فَرَجَعْتُ فَإِذَا الْبَيْتُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى تِلْكَ الْحَيْسَةِ، وَتَكَلَّمَ بِهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً، يَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُ لَهُمْ: (اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ)، وَلْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ. قَالَ: حَتَّى تَصَدَّعُوا كُلُّهُمْ عَنْهَا، فَخَرَجَ مِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ، وَبَقِيَ نَفَرٌ يَتَحَدَّثُونَ».

وعند الشيخين أيضًا من حديث عائشة ﵂: «أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا تَبَرَّزْنَ إِلَى الْمَنَاصِعِ، وَهُوَ صَعِيدٌ أَفْيَحُ، فَكَانَ عُمَرُ ﵁ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: احْجُبْ نِسَاءَكَ. فَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْعَلُ، فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ ل زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي عِشَاءً، وَكَانَتِ امْرَأَةً طَوِيلَةً، فَنَادَاهَا عُمَرُ: أَلَا قَدْ عَرَفْنَاكِ يَا سَوْدَةُ! حِرْصًا عَلَى أَنْ يَنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الْحِجَابِ».

قوله: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: غير منتظرين نُضجه.

قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ، عُرْسًا كَانَ أَوْ نَحْوَهُ». وعند البخاري: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ».

قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فإنما جاز الدخول من أجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح، وعاد تحريم الدخول إلى أصله.

قوله: ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: لا تمكثوا مستأنسين بالحديث، كما سبق في وليمة زينب ﵂.

قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ جاء عند البخاري من حديث أنس ﵁ قال: قال عمر ﵁: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ -وَفِي رِوَايَةٍ: أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ- أَنْ يَحْتَجِبْنَ؛ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْخُلُ عَلَيْكَ- الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ. فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ». والمتاع إما أن يكون دينيًا، كالإجابة على بعض الأسئلة، أو دنيويًا، كبعض مرافق الدنيا، من مواعين ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: في المكث بعد الطعام، وإيقاع الحرج عليه، وهذا

تكرار للعلة، وتأكيد لحكمها، وتأكيد العلل أقوى في الأحكام.

قوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: اللاتي مات عنهن، ومن استحل ذلك كان كافرًا؛ لأنّهن أمهات المؤمنين، وأزواج رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، وهذا من خصائصه ﷺ، تمييزًا لشرفه، وتنبيهًا على علو مرتبته، وهذه المسألة من المسائل التي أجمع عليها العلماء قاطبة، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته، هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فليست داخلة في الحظر بالاتفاق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لم يذكر العم والخال؛ لأنّهما يجريان مجرى الوالدين، ولذا فالعم يسمى أبًا، وقد سبق بيان ذلك، كما يسمى: الصنو، قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم، وأصله في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا عُمَرُ أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟». وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ...﴾ الآية، وأما قول من قال: لم يذكر العم والخال لأنّهما قد يصفان ذلك لبنيهما، فهو قول في غاية الضعف، فلا يلتفت إليه.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يصلون: يبركون، هكذا علقه البخاري، وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وبالكيفية والصفة، فقد جاء عند النسائي من حديث زيد بن خارجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا عَلَيَّ وَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، وَقُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ». صححه ابن حجر.

وعن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين قال: «سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى (إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى) آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى (إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى) آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وجاء عند البخاري من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا التَّسْلِيمُ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى إِبْرَاهِيمَ- وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَآلِ إِبْرَاهِيمَ».

وعند الشيخين من حديث أبي حميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وعند أحمد، وأبي داود، والترمذي بسند صحيح عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ، لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: عَجِلَ هَذَا! ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَا بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ».

وعند الترمذي بسند لا بأس به عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ. قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: مَا شِئْتَ. قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ: فَالنِّصْفَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ».

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا».

وعند أحمد، والنسائي بسند لا بأس به عن أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالْبُشْرَى فِي وَجْهِهِ، فَقُلْنَا: إِنَّا لَنَرَى الْبُشْرَى فِي وَجْهِكَ! فَقَالَ: إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا».

وعند أحمد بلفظ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا». جوده ابن كثير.

وعند النسائي بسند جيد عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيَّاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ».

وروى الطبراني من حديث أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حِينَ يُصْبِحُ عَشْرًا وَحِينَ يُمْسِي عَشْرًا أَدْرَكَتْهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». جوده ابن حجر.

وعند الترمذي بسند جيد عن علي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ».

وجاء من حديث ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ». حديث حسن، رواه ابن ماجه.

وعند الترمذي بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ؛ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ».

وتستحب الصلاة على محمد ﷺ بعد الأذان، وفي المجلس كما سبق، كما يستحب عند دخول المسجد؛ لحديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ ﵂ قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ...». الحديث.

كما يستحب ختم الدعاء بالصلاة على النبي ﷺ، وقد جاء بسند صحيح عند الترمذي عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: «إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ». قال ابن حجر: وله شاهد مرفوع في جزء الحسن بن عرفة، قال ابن العربي: ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي، فيكون له حكم الرفع.

كما يستحب الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ في يوم الجمعة؛ لحديث أوس بن أوس الثقفي ﵁ الذي أخرجه أبو داود، والنسائي بسند صحيح قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ؛ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟ - وَفِي رِوَايَةٍ: يَقُولُونَ: بَلِيتَ- فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ».

وروى البيهقي عن أبي أمامة ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ كَانَ أَكْثَرهم عَلَيَّ صَلاة كَانَ أَقْرَبهمْ مِنِّي مَنْزِلَة». حديث حسن.

وعند أبي داود بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي، حَتَّى أَرُدَّ».

وعند أبي داود أيضًا بسند لا بأس به عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

وعند أحمد والنسائي بسند جيد عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلامَ».

كما يستحب لمن طاف بالبيت، وبين الصفا والمروة أن يصلي على النبي ﷺ؛ لقول عمر ﵁ كما رواه الشافعي، والدارقطني بسند جيد قوي: «إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعًا، وصلّوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصفا، فقوموا عليه من حيث ترون البيت، فكبروا سبع مرات، تكبيرًا بين حمد الله، وثناء عليه، وصلاة على النبي ﷺ، ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك».

وفي ختام هذا البحث الذي لم يأت على سبيل الاستقصاء وإنما جاء على سبيل الاختصار هناك أثر حسن جاء بسند جيد ذكره ابن أبي شيبة، قال: كتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن ناسًا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناسًا من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتُهم على النبيين، ودعاؤهم للمسلمين عامة، ويدعوا ما سوى ذلك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وأذية الله تكون بالكفر، أو نسبة الصاحب والولد والشريك، ووصفه بما لا يليق به، كمقولات اليهود أو النصارى أو المشركين، وقد سبق حديث: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا». رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﵁، وأما أذية الرسول ﷺ فكقولهم: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون، وما حصل له من أذى جسدي، وكذا لأصحابه ﵃. والمقصود أن الأذية لله ولرسوله عامة، قليلة كانت أو كثيرة، حسية كانت أو معنوية، مباشرة أو غير مباشرة، بالمفهوم أو بالمنطوق، بالقول أو بالفعل.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ كصنيع الرافضة، والعقلانيين وغيرهم من الجهلة الأغبياء، والذين قل نصيبهم من ميراث الأنبياء، الذين سلطوا ألسنتهم على أمنة هذه الأمة، وحملة السنة، أصحاب النبي الكريم ﷺ، وقد جاء عند ابن أبي حاتم بسند جيد عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللهِ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللهِ اسْتِحْلالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾». وفي الأذية ما قاله ﷺ فيما رواه أحمد من حديث سعد ﵁: «إِذَا تَنَخَّمَ أَحَدُكُمْ فِي الْمَسْجِدِ فَلْيُغَيِّبْ نُخَامَتَهُ أَنْ تُصِيبَ جِلْدَ مُؤْمِنٍ أَوْ ثَوْبَهُ فَتُؤْذِيَهُ». حديث حسن.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ وقد سبق ذكرا الأزواج، وأما البنات: فهنّ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد تزوجها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي أصغر بناته، وزينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد تزوجها أبو العاص بن الربيع، وكانت أكبر بناته، توفيت في حياة الرسول ﷺ، ورقية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد تزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة، فلما أسلمت أمها أسلمت، وفارقها زوجها، وتزوجها عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكان نساء قريش يقلن:

أَحْسَـــنُ شَخْصَـــيْنِ رَأَى إِنْسَـــانُ   رُقَيَّـــةُ وَبَعْلُهَـــا عُثْمَـــانُ

وهاجرت مع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الحبشة الهجرتين، وأنجبت ولدًا اسمه عبد الله، وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكْنى به في الإسلام، توفيت في حياة رسول الله ﷺ، وأم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد تزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة، ولم يدخل بِها، وتزوجت عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة رقية، وأمهن جميعًا خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعَبيدة السلماني: تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها. وقال قتادة: تلويه فوق الجبين وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه. وقال الحسن: تغطي نصف وجهها. كل هذا حتى يتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء.

قوله: ﴿مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار، قال الجوهري: الجلباب: الملحفة. قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلًا لها:

تَمْشِـــي النُّسُـــورُ إِلَيْـــهِ وَهْـــيَ لاهِيَـــةٌ   مَشْـــيَ العَـــذَارى عَلَـــيْهِنَّ الجَلابِيـــبُ

وقيل: الرداء، وقيل: القناع، والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن، بما في ذلك الوجه، وقد جاء عند الشيخين عن أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أُمِرْنَا أَنْ نُخْرِجَ الْحُيَّضَ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَالعَوَاتِقَ- يَوْمَ الْعِيدَيْنِ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَدَعْوَتَهُمْ، وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ عَنْ مُصَلَّاهُنَّ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَيَكُنَّ خَلْفَ النَّاسِ، فَيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ؛ يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَطُهْرَتَهُ-، قَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِحْدَانَا لَيْسَ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»، وقد مر حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند أبي داود، وابن أبي حاتم بسند جيد: «لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية، وفي رواية: من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي: إذا فعلن ذلك عُرِفْن أنّهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر.

قوله: ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: لا يتعرض لهن فاسق، كبيرًا أو صغيرًا بأذى ولا ريبة، ومن العجيب القول: بأن الوجه ليس مما أُمِر بستره! ولو تأمل القائل هذه الآية، لعرف بمجرد العقل، فضلًا عن النقل، أن الوجه هو المأمور بستره بالدرجة الأولى، لأنه هو الذي يجرئ ذا المكانة، على الاعتداء عليها، حين يرى أنّها

ذات جمال، وكم من صاحبة وجه جميل ذهبت ضحية، من جراء كشف وجهها، ولو سترته لما عُلم ما تحته، ولما كان عليها من أذى، قال عمر بن الخطاب ﵁: ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها، أي: في ثوب خلق، أو أطمار جارتها مستخفية، لا يعلم بها أحد، حتى ترجع إلى بيتها، وعند البخاري من حديث أم سلمة ﵂ قوله ﷺ حين استيقظ ليلة من نومه: «سُبْحَانَ اللهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ؟ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ». ودخل نسوة من بني تميم على عائشة ﵂ وعليهن ثياب رقاق، فقالت: إن كنتنّ مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، قالت عائشة ﵂ فيما رواه الشيخان: «لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قُلْتُ لِعَمْرَةَ: أَوَمُنِعْنَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ»، والمقصود أن المرأة عورة، مأمورة بالستر والحشمة والعفاف والحياء وعدم إظهار الزينة في ممشاها وفي مظهرها وفي كلامها وفي رائحتها، إلا إذا كانت بين محارمها وبنات جنسها، فإنه يغتفر شيء من ذلك.

قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هذه الأوصاف الثلاثة هي لشيء واحد، قاله أبو رزين، والواو مقحمة، فالمنافقون جمعوا ذلك كله؛ فهم يرجفون، ويتبعون النساء للريبة، ويشككون المسلمين، والإرجاف: إشاعة الكذب والباطل، والتماس الفتنة، يقال: رجفت الأرض، أي: تحركت وتزلزلت، ترجُف رَجْفًا، والرَّجَفان: الاضطراب الشديد، والرّجَاف: البحر، سُمي به لاضطرابه، والإرجاف واحد أراجيف الأخبار، وقد أرجفوا في الشيء، أي: خاضوا فيه.

قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ونسلطنك عليهم، فتستأصلهم بالقتل، واللام لام القسم، واليمين واقعة عليها، وأدخلت اللام في إن توطئة لها.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى، أي: لا يجاورونك إلا في حال قلتهم، أو لا يجاورونك إلا وقتًا قليلًا ومدة يسيرة، ثم ينزل بهم مقت الله وعذابه، وهذا الأخير أقرب، وقد أُخرِجوا من المدينة في مدة قريبة مطرودين ملعونين أينما ثقفوا.

قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ منصوب على الحال، أي: أخذوا ملعونين، أو قليلًا ملعونين.

قوله: ﴿أُخِذُوا۟﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ وكان هذا بعد نزول السورة الفاضحة، وهي سورة التوبة.

قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ نصبت على المصدر، أي: فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل.

قوله: ﴿تَبْدِيلًا﴾ أي: تحويلًا وتغييرًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ

تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ
تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا
ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟
مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ
ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ. وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى».

قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: تتغير ألوانُهم بلفح النار، فتسود مرة، وتخضر مرة، وتكفأ في النار مرة.

قوله: ﴿يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ كقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

قوله: ﴿سَادَتَنَا﴾ جمع سيد، وهو فعلة، مثل: كتبة، وفجرة، وجمع الجمع: ساداتنا، وهم الكبراء والقادة والرؤساء في الشرك والضلالة والبدعة.

قوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: سبيل الحق والتوحيد.

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال، أي: عذّبهم مثلَيْ ما تعذبنا؛ فإنّهم ضلوا وأضلوا.

قوله: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرئت: (كثيرًا)، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًا سِتِّيرًا، لا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ! ثَوْبِي حَجَرُ! حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا، أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ،

وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾».

قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ أي: عظيمًا، والوجيه عند العرب: العظيم القدر، الرفيع المنْزلة، وقد سأل ربه، فأعطاه وقرّبه وناجاه وهداه واجتباه، ووهب له من رحمته هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًا.

قوله: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ مستقيمًا صوابًا، وقصدًا، وحقًّا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض، والقول السداد يعم الخيرات كلها، ولذلك قال رسول الله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ».

قوله: ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ أي: الطاعة والدين والفرائض، وما هو أعم من ذلك، ألا وهو التكليف وقبول الأوامر والنَّواهي بشروطها، إن قام بها أُثيب، وإن تركها عُوقب.

قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله ألا يقوموا به.

قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: التزم القيام بحقها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه، جهول بقدر وعظم ما ألزم نفسه به. و﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ هو عموم بني آدم، يعني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته. وقد روى أحمد بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ للأُمَرَاءِ؛ وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ؛ وَيْلٌ للأُمَنَاءِ لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ ذَوَائِبَهُمْ كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِالثُّرَيَّا يَتَذَبْذَبُونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا عَلَى شَيْءٍ».

وعند مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي؛ ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ؛ إِلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا».

وعند أحمد بسند لا بأس به عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا لا يَفُكُّهُ إِلا الْعَدْلُ»، وجاء عند الطبراني: «أَوَّلُهَا مَلامَةٌ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ، وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حسنه المنذري.

قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أي: حملها ليعذب العاصي، ويثيب المطيع، فهي لام التعليل؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة، وقيل: عرضنا الأمانة على الجميع، ثم قلدناها الإنسان ليظهر شرك المشرك، ونفاق المنافق ليعذبَهم الله، وإيمان المؤمن ليثيبه الله، والمعنيان متقاربان.

انتهى تفسير سورة الأحزاب، ولله الحمد.

  

سورة سبأ

وهي مكية في قول الجميع، إلا آية واحدة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ② وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ③ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⑤ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦﴾

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من قطر وغيره، كما قال تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الكنوز والدفائن والأموات، وما هي له كِفات.

قوله: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: من نبات وطاقات.

قوله: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات.

قوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الملائكة وأعمال العباد.

قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ قرئت بالرفع، وخبره: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾، وقرئت بالخفض، أي: الحمد لله عالِمِ، وقرئت: (علام الغيب) على المبالغة والنعت.

قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيب عنه، ويقال: (يعزِب)، قال الفراء: والكسر أحب إلي، يقال: عزَب يعزُب ويعزِب، إذا بعُد وغاب.

قوله: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: قدر نملة صغيرة.

قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو في اللوح المحفوظ.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: في إبطال أدلتنا، والتكذيب بآياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين، يحسبون أنّهم يفوتوننا ولا نقدر على بعثهم في الآخرة، وظنوا أنا نُهملهم، يقال: عاجزه، وأعجزه، إذا غالبه وسبقه، وقرئت: (مُعَجِّزين)، أي: مثبطين الناس عن الإيمان بالقرآن والمعجزات.

قوله: ﴿مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: عذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾،

وقرئت: (من رجزٍ أليمٌ) برفع الميم نعت لعذاب.

قوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الفعل مرفوع على الاستئناف، أي: جميع المسلمين، من أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم بإحسان، والرؤية بمعنى العلم.

قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ فالمفعول الأول لـ ﴿وَيَرَى﴾: ﴿ٱلَّذِيٓ﴾، والمفعول الثاني: ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾، ويجوز أن يكون ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ مبتدأ وخبرًا، والجملة في موضع نصب على المفعول الثاني.

قوله: ﴿إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فُرِّقْتم كل تفريق، والمزق: خرق الأشياء، يقال: ثوب مَزِيق وممزوق ومتمزِّق ومُمَزَّق، يقولون على وجه الاستهزاء والطَّنْز والسخرية والضحك والتلهي، متجاهلين به وبأمره.

قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ بعد ذلك التمزيق والتفريق؟.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٩ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾

قوله: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ أي: لا يخلو أمره من حالتين، إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى، أنه قد أوحى إليه ذلك، أو لُبِّس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون.

قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون؛ بل الذين يجحدون البعث ولا يصدّقون بالآخرة، في ضلالٍ وحيرةٍ عن الحق، توجب لهم عذاب النار.

قوله: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ﴾ قرئت: (إن يشأ يخسف بِهم الأرض أو يسقط)، بالياء في الثلاث.

قوله: ﴿كِسَفٗا﴾ قرئت: (كِسْفًا).

قوله: ﴿عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ تائب رجّاع إلى الله، متأمل فيما يرى.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ يعني النبوة والعلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾، إلى غير ذلك من الصفات الْخَلْقية والْخُلُقية، كحسن الصوت، وجمال الوجه.

قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سبحي، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، قال أبو ميسرة: هو التسبيح، بلسان الحبشة، وقيل: سيري معه حيث شاء، من التأويب، الذي هو سير النهار أجمع، وقيل: رجِّعي معه، من آب يؤوب، إذا رجع أوبًا وأوْبة وإيابًا، فكان إذا قرأ الزبور صوتت معه الجبال، وأصغت إليه الطير، فكأنّها فعلت ما فعل، والقول الأخير أقرب.

قوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ قرئت بالرفع، عطفًا على لفظ الجبال، أو على المضمر في ﴿أَوِّبِى﴾، وحسنه الفصل بـ (مع)، وقرئت بالنصب، على تقدير: نادينا الجبال والطير، أو: وسخرنا له الطير، أو: وآتيناه الطير، أو مفعول معه، كما تقول: استوى الماء والخشبة، والتقدير: أوبي معه ومع الطير.

قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: صار ليِّنًا من غير إدخال نار، ولا ضرب بمطرقة، فصار كالعجين، أو كالطين، وفي هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأنه لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم.

قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: دروعًا تامّات واسعات، يقال: سبغ الدرعُ والثوب، إذا غطى كل ما هو عليه وفضل منه.

قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: لا تدق المسمار فيقلقل في الحلقة، ولا تغلظه فيقضمها، واجعله بقدر، وقيل: نسج حَلَق الدروع، ومنه قيل لصانع حلق الدروع: السراد، والزراد، تبدل من السين الزاي، كما قيل: سرّاط، وزرّاط، والسّرْد: الخرز، يقال: سرد يسرد، إذا خرز، والحاصل أن المقصود: اسرد الدروع، أي: أحكمها، واجعل نظام حلَقها وِلاء غير مختلف، ولذا يقال: سرد الحديث، والصوم، أي: جاء بهما وِلاءً في نسق واحد. وعند الشيخين قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ، وَكَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ». قال سيبويه: ومنه: رجل سَرَنْدي، أي: جريء؛ لأنه يمضي قدمًا.

قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا، وقرئت: (الريحُ) بالرفع على الابتداء، والمعنى: له تسخير الريح.

قوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: مسيرة شهر، أي: كانت الريح تسير به في اليوم مسيرة شهرين.

قوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: أُسيلت له عين النحاس، كما يسيل الماء، أي: جعل الله النحاس لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في معدنه عينًا.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بأمره.

قوله: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل ويخرج عن الذي أمرنا به من طاعة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الإِلَهُ لَهُ ... قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الْفَنَدِ
وَخَيِّسِ الْجِنَّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ ... يَبْنُونَ تَدْمُرَ بِالصُّفَّاحِ والعمد
فَمَنْ أَطَاعَكَ فَانْفَعْهُ بِطَاعَتِهِ ... كَمَا أَطَاعَكَ وَادْلُلْهُ عَلَى الرَّشَدِ

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: مواضع مرتفعة، يصلي فيها ويسجد، وقيل: الغرف الحسنة التي يُرقى إليها بالدرج، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾.

قوله: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال، وكانت من زجاج ونحاس ورخام، ليست بحيوان، ويقال لكل ما صُوِّر على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان: تمثال، ويقال: التمثال على قسمين: حيوان، وموات. والموات على قسمين: جماد، ونام.

فإن قيل: عمل الصور جائز بهذه الآية، فيقال: أولًا: هذه ليست بصور ذوات أرواح، ولو سُلم أنّها صور ذوات أرواح فإن هذا شرع مَنْ كان قبلنا، وقد نُسخ في شرع محمد ﷺ؛ لأنه بعث ﷺ والصور تعبد، فكان الأصلح إزالتها، فقد جاء عند مسلم من حديث أبي الهياج الأسدي قال: «قَالَ لِي عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا-، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»، وما حفظ عن أحد من أئمة العلم أنه جوّزه، والنصوص ناطقة بصريح تحريمه، فعند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَامَ بَيْنَ الْبَابَيْنِ)، فَعَرَفَتْ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، مَاذَا أَذْنَبْتُ؟ قَالَ: مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟ فَقَالَتِ: اشْتَرَيْتُهَا لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ!. وَقَالَ: إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ».

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا، فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ». قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمن سأله عن ذلك: إن كنت لابد فاعلًا فاصنع الشجر، وما لا نفس له.

وعند الشيخين أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد رأى في دار مروان تصاوير، فقال: قال رسول الله

ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً».

وعند الشيخين من حديث أبي طلحة رضي الله عنه وغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْخُلُ الْمَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ».

وعند الشيخين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَعَلَّقْتُ دُرْنُوكًا فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَنْزِعَهُ، فَنَزَعْتُهُ». وفي رواية عند البخاري: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا فِيهِ تَصَالِيبُ إِلَّا نَقَضَهُ». ولمسلم: «سِتْرٌ فِيهِ تِمْثَالُ طَائِرٍ، وَكَانَ الدَّاخِلُ إِذَا دَخَلَ اسْتَقْبَلَهُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: حَوِّلِي هَذَا؛ فَإِنِّي كُلَّمَا دَخَلْتُ فَرَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا».

وفي رواية عند البخاري: «أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا؛ فَإِنَّهُ لا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ فِي صَلاتِي».

وعند الترمذي بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ».

ولم يختلف العلماء أن التصاوير في الستور المعلقة محظورة، وكذا ما كان نقشًا في البناء، أو ملصقة على الجدار، إلا ما كان رقمًا في ثوب؛ لحديث زيد بن أرقم رضي الله عنه عند الشيخين.

وقد استُثْنِي من هذا الباب لُعب البنات؛ لما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَبَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، وَلُعَبُهَا مَعَهَا، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةٍ».

وعند الشيخين قالت: «كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ، فَيَلْعَبْنَ مَعِي».

قال العلماء: وذلك للضرورة، أو لشدة الحاجة إلى ذلك، حتى يتدربن على تربية أولادهن، ثم إنه لا بقاء لذلك، لكن إذا كانت لعب البنات فيها مضاهاة لخلق الله، كأن يكون فيها الصورة، يعني الوجه، وربما كان فيها ما يصدر الأصوات أو يتكلم، فليس مجرد خرق مجموعة على هيئة لعبة البنات، فهذا لا شك في دخوله في عموم التحريم؛ بل هو أشد من غيره، ولا يمكن أن يقال: الضرورة أو شدة الحاجة تحتم ذلك؛ لأنه لا ضرورة إلى هذه الصورة بهذا الشكل، وهناك البديل، الذي هو لعب البنات، دون تصوير الوجه على الهيئة المحرمة.

قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: قدور عظيمة، كهيئة الحوض، وواحد الجوابي: جابية، ومنه: جبيت الخراج، وجبيت الجراد، أي: جعلت الكساء فجمعته فيه، ويقال: جبوت الماء في الحوض وجبيته، أي: جمعته، والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل.

قوله: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ قيل: هي قدور تعمل وتنحت من الجبال الصُّم، وهي ثابتة لا تحمل ولا تحرك لعظمها، وقيل: قدور من نحاس تكون بفارس، والقول الأول أظهر، وقد قيل: كانت قدور عبد الله بن جدعان في الجاهلية يُصعد إليها بسلم، وقد قال فيه رسول الله ﷺ حين سألته عائشة رضي الله عنها فقالت: «يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ؛ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، أي: قولوا: الحمد لله والشكر، أو: اعملوا عملًا هو الشكر، وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها في نفسها الشكر؛ إذ سدّت مسدّه، ويبين هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، قال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله ﷻ شكر، وأفضل الشكر: الحمد لله.

وقال محمد بن كعب القرظي: الشكر: تقوى الله، والعمل الصالح.

وفي الصحيحين من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: أَوْ سَاقَاهُ)، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»، وأما داود عليه السلام فقد قال رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ: صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ: صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا». فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان واللسان والقلب، فالشكر بالأفعال: عمل الأركان، والشكر بالأقوال: عمل اللسان، وقد عرف بأنه الاعتراف بالنعمة للمنعم، واستعمالها في طاعته، والكفران: استعمالها في المعصية. قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ الْمُحَجَّبَا

قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إخبار عن الواقع؛ لأن الخير أقل من الشر، والطاعة أقل من المعصية، بحسب سابق القدر، وقد كان بعض السلف يقول: اللهم اجعلني من القليل.

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: حكمنا على سليمان عليه السلام بالموت، حتى صار كالأمر المفروغ منه، ووقع به الموت.

قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: دابة تسمى بالأرضة، وهي دويبة صغيرة تأكل الخشب، يقال: أَرِضت الخشبةُ تُؤرَض أَرْضًا، فهي مأروضة، إذا أكلتها، فكأن الأرضة دالة على موته، أي: سببًا لظهور موته.

قوله: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وهي العصا، بلسان الحبشة، وقيل: بلغة اليمن، وكان متكئًا عليها، وقرئت: (مِنساته)، بغير همزة. قال الشاعر:

إِذَا دَبَبْتَ عَلَى الْمِنْسَاةِ مِنْ كِبَرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللَّهْوُ وَالْغَزَلُ

وقال آخر فسكن همزها:

وَقَائِمٌ قَدْ قَامَ مِنْ تُكَأْتِهْ كَقَوْمَةِ الشَّيْخِ إِلَى منسأته

وأصلها من نسأت الغنم، أي: زجرتُها وسقتها، فسميت العصا بذلك لأنه يُزجر بِها الشيء ويساق.

قوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: لما سقط تبينت الجن موته، وقد كانوا يدّعون علم الغيب، فلما مات سليمان عليه السلام وخفي موته عليهم ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

قال القرطبي: وفي التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقام سليمان بن داود عليهما السلام حولًا، لا يُعلم بموته، وهو متكئ على عصاه، والجن منصرفة فيما كان أمرها به، ثم سقط بعد الحول.

وكذا تبين للإنس أيضًا أمر الجن وأنهم لا يعلمون الغيب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ قرئت بالصرف والتنوين على أنه اسم حي، وهو في الأصل اسم رجل، وقد جاء بسند لا بأس به عند أبي داود والترمذي من حديث فَروة بن مُسَيْك المرادي قال: «قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ سَبَأٍ مَا هُوَ؟ أَرْضٌ أَمِ امْرَأَةٌ؟ فَقَالَ: لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا امْرَأَةٍ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةً مِنَ الْعَرَبِ، فَتَيَامَنَ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ. وَفِي رِوَايَةٍ عند الترمذي: فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا فَلَخْمٌ، وَجُذَامُ، وَغَسَّانُ، وَعَامِلَةُ، وَأَمَّا الَّذِينَ تَيَامَنُوا: فَالأُزْدُ، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَحِمْيَرٌ، وَكِنْدَةُ، وَمَذْحِجُ، وَأَنْمَارُ».

وقرئت: (لسبأَ) بغير صرف، أي: قبيلة؛ لقوله تعالى: ﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾، وقرئت: (لسبأْ) بإسكان الهمز، والمقصود أن سبأ كانت ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم. قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم، وقال

في ذلك شعرًا:

سَـــيَمْلِكُ بَعْـــدَنَا مُلْكًـــا عَظيمًـــا نَبِـــيّ لَا يُـــرَخِّصُ فِي الحَـــرَام

وَيَملـــك بَعْـــدَه مـــنْهُم مُلُـــوك يـــدينوه العبـــادَ بغَيـــر ذَام

ويَملـــك بَعـــدهم مِنَّـــا مُلُـــوك يَصـــير المُلـــك فينَـــا باقْتَسَـــام

وَيَمْلـــك بَعْـــد قَحْطَـــان نَبِـــي تَقـــي خَبْتَـــة خُيْـــرُ الْأَنَـــام

وسُـــمي أَحْمَـــدًا يَـــا لَيْـــتَ أَنِّـــي أُعَمَّـــرُ بَعْـــد مَبْعَثـــه بِعَـــام

فأعضُـــده وأَحْبـــوه بنَصْـــري بكُـــل مُـــدَجّج وبكُـــل رَام

مَتَـــى يَظْهَـــرْ فكُونُـــوا نَاصـــريه وَمَـــنْ يَلْقَـــاهُ يُبْلغـــه سَـــلامي

قوله: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ قرئت: (ومساكنهم).

قوله: ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقًا خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانِها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر.

قوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ إما بدل من ﴿ءَايَةٌ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: الآية جنتان.

قوله: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: كانت بلادهم كلها بساتين وأشجار وثمار، تستر الناس بظلالها، لا تكاد ترى مكانًا عن يمين أو شمال إلا وفيه الخضرة وألوان الثمر المأكولة، فلا بعوض ولا قمل ولا براغيث، ولا عقارب ولا حيات، ولا غيرها من الحشرات المؤذية أو الهوام اللاسعة، كما قال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، ففيها كل ما لذ وطاب، فالأرض خصبة، والماء زلال، والهواء عليل، فهم في نعمة وغبطة، دارٌّ رزقهم، حسن عيشهم، حتى قيل: كانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو التي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار ما يملأه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف؛ لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب، ببلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب.

قوله: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ أي: عدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: المياه الغزيرة الشديدة، إضافة إلى انفجار السد، الذي كانت تجتمع فيه مسايل من الأودية والبحر، وكان بين جبلين، يقال: ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ لا واحد لها من لفظها، ويقال:

واحدها: عَرِمة، وكل شيء حاجز أو مطر بين شيئين يقال له: العرم، وهو مشتق من العرامة، وهي الشدة، ومنه رجل عارم، أي: شديد، وعَرَمت العظم أعرِمه وأعرُمه عرْمًا، إذا عَرَقته، وكذلك: عَرَمت الإبل الشجر، أي: نالت منه، والعُرام بالضم: العراق من العظم والشجر، وصبي عارم بيِّن العُرام: أي: شرس.

قوله: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قرئت: (أُكِلِ خمطٍ) بغير تنوين مضافًا، والخمط: الأراك، وقيل: كل شجر ذي شوك فيه مرارة، وقيل: كل ما تغير إلى ما لا يشتهى، واللبن خَمْط، إذا حَمُض، قال الأخفش: والإضافة أحسن في كلام العرب، نحو قولهم: ثوبُ خَزٍّ، وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحَلب ولم يتغير طعمه فهو سامط، وإن أخذ شيئًا من الريح فهو خامط وخميط، فإن أخذ شيئًا من طعم فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فُوّهة، ويروى: قوهة، وتخمط الفحل: هدر، وتخمط فلان، أي: غضب وتكبر، وتخمط البحر، أي: التطم، وخَمَطت الشاة أخمِطها خَمْطًا، إذا نزعت جلدها وشويتها، فهي خميط، فإن نزعت شعرها وشويتها فهي سميط، والخمطة: الخمر التي أخذت ريح الإدراك كريح التفاح ولم تُدرك بعد، ويقال للحامضة: خمطة.

قوله: ﴿وَأَثْلٍ﴾وهو الشبيه بالطرفاء، إلا أنه أعظم منه طولًا، ومنه اتُّخِذ منبر النبي ﷺ، أي: من طرفاء الغابة، كما جاء عند الشيخين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما، والواحدة: أثلة، والجمع: أَثْلات.

وقوله: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: شجر لا ينتفع به، لا بورقه، ولا بثمره، وهو الذي يسمى: الضّال، شوكه كثير، وثمره عَفِص لا يؤكل، وقيل: شجر السَّمُر، والأول أقرب.

قوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قرئت: (يُجازى)، وقرئت معها: (الكفورُ) بالرفع على ما لم يسم فاعله، ومعنى يُجازى: أي: يُكافأ ويعاقب ويناقش بكل عملٍ عمله، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ». قال بعض السلف: جزاء المعصية الوهن في المعصية، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل له: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصها عليه.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي: جعلنا بين دولة (سبأ) في اليمن، وبين قرى الشام المباركة، ومركزها بيت المقدس في فلسطين، قرى قائمة على الطريق بين اليمن والشام، كانت ظاهرة منفصلة معروفة، يغدون فيقيلون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية، لا يكادون يخرجون من قرية حتى يظهر لهم قرية أخرى، وهو سبب أمن الطريق، وراحة النفس، وأنس السفر.

قوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلناه مُقدرًا محددا، حتى يكون المقيل في قرية، والمبيت في قرية أخرى، أي: بين كل قريتين نصف يوم.

قوله: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: ظرفان، ونصب على الحال، وذكرهما بلفظ النكرة تنبيهًا

على قِصر أسفارهم، فلا يحتاجون إلى طول السفر؛ لوجود ما يحتاجون إليه، فيسيرون غير خائفين ولا جِياع ولا ظِماء، فالبلاد مرخية، والعيش هنيء رغيد، والقرى آمنة ومتواصلة، فبطروا النعمة، فحلت بِهم النقمة.

قوله: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾؛ لأنّهم بطِروا وطغوا وسئموا الراحة، ولم يصبروا عليها.

قوله: ﴿بَٰعِدۡ﴾ وبعّد بمعنى واحد.

قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ أي: ذوي أحاديث يُتحدث بأخبارهم، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ. وتفرقوا شذر مذر، كما في الحديث السابق: «فَتَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ».

قوله: ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ قال الشعبي: فلحقت الأنصار بالمدينة، وغسان بالشام، والأزْد بعُمان، وخزاعة بتهامة، وقيل: الأوس والخزرج من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غسان لماءٍ نزلوا عليه قبل باليمن.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ صابرٍ على البلاء، شاكر في النعماء.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ﴾ قرئت: (صَدَق).

قوله: ﴿ظَنَّهُۥ﴾ أي: في ظنه، نصب على المصدر، أو على الظرف، والتقدير: ظنّ ظنًا، وقيل: لأنه مفعول به، والتقدير: صدق الظن الذي ظنه؛ إذ قال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وقال: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾. والمقصود أن إبليس علم صدق ظنه، وهو لا يعلم الغيب؛ لأنه لما نفذ له في آدم عليه السلام ما نفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته، وقد وقع له تحقيق ما ظن، ثم إن الله عز وجل قال له: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، فأعطي القوة والاستطاعة، حتى صار يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما جاء في الصحيحين من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها وقد سبق، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك.

قوله: ﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بعض المؤمنين؛ لأن كثيرًا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، وقد قال الله عز وجل فيمن سلم منه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، وقيل: هم المؤمنون كلهم، فـ ﴿مِّنَ﴾ للتبيين، لا للتبعيض، وهذا الأخير هو الأقرب، وذلك لأن خير الخطائين التوابون، وما داموا يخطئون ويستغفرون ويذنبون ويتوبون فهم من العباد المؤمنين.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: لم يقهرهم على الكفر بقوته وحجته، وإنما كان منه الدعاء والتزيين، فاتبعوه شهوة وتقليدًا وهوى نفس، لا عن قناعة أو بموجب دليل أو حجة، قال الحسن

البصري: والله ما ضربَهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورًا وأماني دعاهم إليها، فأجابوه.

قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ليظهر أمر من هو مؤمن بالقيامة وبالجزاء وبالحساب، قيل: الاستثناء منقطع، أي: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته؛ لنعلم العلم الذي تقوم عليهم به الحجة، وقيل: الاستثناء متصل، أي: وما كان له عليهم من سلطان، غير أنا سلطناه عليهم ليتم الابتلاء، وقيل: ليميز، كقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: ما لله من هؤلاء من شريك على خلق شيء، وإنما هم كما قال سبحانه: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ فقراء كسراء، عبيد ضعفاء.

قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه ويتظهر به، بل هو المنفرد بالخلق والأمر، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ قرئت: (أُذِن له).

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خُلِّي عن قلوبهم الفزع، وأخرج ما فيها من الخوف ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكة.

قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ روى الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ)، فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟﴾ لِلَّذِي قَالَ: ﴿ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ (فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ، فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ) حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ (فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ)، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وهذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب. والمعنى: نحن وإياكم على أمرين متضادين، وأحدنا مهتدٍ، والآخر ضال، وهو أنتم؛ لأنا أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك، وقال أبو عبيدة، والفراء: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى الواو، والتقدير: وإنا على هدى، وإياكم في ضلال مبين، وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ». وعلى هذا فهو من باب اللف والنشر.

قوله: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وهذه ملاطفة وتنزُّل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾.

قوله: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: يقضي بالعدل، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء وأندادًا لله عز وجل، وهل شاركت في خلق شيء فبينوا ما هو، وإلا فلم تعبدونا؟

قوله: ﴿كَلَّا﴾ ليس له نظير ولا ند ولا شريك ولا عديل، ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الواحد الأحد، ذو العزة والقهر والحكمة البالغة، تبارك وتقدس وتعالى عما يقول الظالمون، وقيل: إن ﴿كَلَّا﴾ رد لجوابهم المحذوف، كأنه قال: أروني الذين ألحقتم به شركاء، قالوا: هي الأصنام، فقال: كلا، أي: ليس له شركاء.

قوله: ﴿وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: من الكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل، ولا بالأنبياء السابقين، بل نكفر بالجميع، وقيل: ولن نؤمن بالآخرة، والقول الثاني أقرب، والأول وارد.

قوله: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ﴾ ومن العرب من يقول: لولاكم، ولكنها ليست فصيحة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ

بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

قوله: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب.

قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أظهروها، وهو من الأضداد، ويكون بمعنى الإخفاء والإبداء، وقيل: تبينت الندامة في أسرار وجوههم، وقيل: إظهارهم الندامة قولهم: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم، ولم يجهروا القول بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ أي: جمع غل، يقال: في رقبته غل من حديد، ومنه قيل للمرأة السيئة الخُلُق: غلٌّ قَمِل، وغللتُ يده إلى عنقه، وقد غُلَّ، فهو مغلول، يقال: ماله أُلَّ وغُلَّ، والغُلَّة: حرارة العطش، وكذلك: الغليل، يقال منه: غُلّ الرجلُ يُغَلّ غَلَلًا، فهو مغلول، على ما لم يسم فاعله.

قوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أي: أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر.

قوله: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.

قوله: ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ أي: قربى ودرجة ورفعة، والزلفة: القربة، وزعم الفرّاء أن ﴿ٱلَّتِي﴾ تكون للأموال والأولاد جميعًا، وله قول آخر، وهو رأي الزجّاج أن المعنى: وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأول؛ لدلالة الثاني عليه، ويجوز في غير القرآن: باللتين، وباللاتي، وباللواتي، وباللّذين، وبالذين للأولاد خاصة.

قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى: الإيمان والعمل الصالح،

فالاستثناء منقطع، فـ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، فالضعف: الزيادة، أي: لهم جزاء التضعيف، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه، نحو: حق اليقين، وصلاة الأولى، أي: لهم الجزاء المضعَّف.

قوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قرئت: (الغرفة)، على التوحيد، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾، وقد سبق بيان معناهما.

قوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: معاندين لنا يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم.

قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ». وقد قال رسول الله ﷺ: «أَنْفِقْ بِلالُ! وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا». رواه البزار بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ هذا متصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ استفهام توبيخ للعابدين؛ لأن الملائكة ستكذبُهم، كقوله ﷻ لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونخلص له في العبادة له ونتبرأ من الذين عبدونا من دونك.

قوله: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: يطيعون إبليس والشياطين، فهم الذين زينوا لهم سوء أعمالهم

وصدوهم عن السبيل.

قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَا﴾ أي: لم يقرؤوا في كتاب أوتوه، بطلان ما جئت به، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ أي: ما سمعوا من رسول بعث إليهم بطلان ما جئت به، فليس لتكذيبهم وجه يتشبث به، ولا شبهة يتعلقون بها، كما هو حال أهل الكتاب، وإن كانوا مبطلين، نحن أهل كتاب وشرائع، ومستندون إلى رسل من رسل الله، ولكم دينكم وشريعتكم، ولنا ديننا وشريعتنا، وكان المشركون يقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكُنّا أهدى من غيرنا، وقد سبق ذلك في سورة الأنعام.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾أي: ما بلغ أهل مكة معشار من قبلهم من القوة في الدنيا، والتمكين في الأرض، وكثرة الأموال والأولاد، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾، ومع ذلك ما دفع ذلك عنهم عذاب الله، بل دمرهم وأهلكهم حين كذبوا الرسل، وقيل: ما بلغت الأمم السابقة معشار ما نزل على المشركين وما جاء به الرسول الكريم من العلم والبيان والحجة والبرهان، والقول الأول أحرى، والمعشار والعشر سواء، لغتان، وقيل: المعشار: عشر العشر، قال الجوهري: ولا يقولون هذا في شيء سوى العشر، وقيل: المعشار: عشر العشير، والعشير هو عشر العشر، فيكون جزءًا من مائة جزء، قال الماوردي: وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل.

قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان عقابي، وانتصاري لرسلي؟.

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أي: أذكركم وأحذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه.

قوله: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: بكلمة، وهي ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: متجردين من الأهواء والعصبيات، طالبين للحق، محكمين للعقل، سواء كنتم وحدانًا أو مجتمعين متشاورين، المهم أن يكون القصد هو الحق والصواب، هل بمحمد ﷺ من جنون؟ هل جرّبتم عليه كذبًا؟ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه، فما بال هذه المعاندة؟ وهو كما يقال: قام فلان بأمر كذا، أي: لوجه الله والتقرب إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ! فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ (وَفِي رِوَايَةٍ: جَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ! - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ-، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا)، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ

أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

وعند الشيخين من حديث أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ! إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ، (فَنَجَوْا)، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي، وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ».

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يبين الحجة ويظهرها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، ويقذف بها الباطل، وقيل: كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ في رفع وجهان: إما أن يكون خبراً بعد خبر، والتقدير: قل: إن ربي علامُ الغيوب، أو يكون على إضمار مبتدأ، والتقدير: وهو علام الغيوب، وزعم الفرّاء أن الرفع في مثل هذا أكثر في كلام العرب إذا أتى بعد خبر إن، ومثله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾

قوله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود ﵁ قال: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَوْمَ الْفَتْحِ- وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾» والمعنى: جاء الإسلام الذي فيه البراهين والحجج، فأزهق ما يصنع الشيطان وأعوانه، ويجوز أن يكون استفهامًا، بمعنى: جاء الحق، فأي شيء بقي للباطل حتى يعيده ويبدئه؟ أي: فلم يبق منه شيء، قد استؤصل، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، أي: لا ترى.

قوله: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ من إثم ضلالي على نفسي لا يضر غيري، ودين الله قائم بحججه وبراهينه، لا يبطل بضلالي ولا بضلال غيري.

قوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ من الحكمة والبيان، فذلك فضله إذ ثبتني على الحجة والفطرة، وقد جاء عند ابن مسعود ﵁ بسند جيد حينما سئل عن مسألة، فقال: سأقول فيها بجهد رأيي،

فإن كان صوابًا فمن الله وحده لا شريك له، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بُرَآء.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه حين رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، قال رسول الله ﷺ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ».

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: عند خروجهم من قبورهم بعد نفخة البعث، ومعاينتهم عقاب الله، وقيل: عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم، والقول الأول أقرب.

وقد جاء عند مسلم من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، قال ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا- فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ، فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ. قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا، وَرَفَعَ لِيتًا. قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ. قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ -أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللهُ- مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ، أَوِ الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ. فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. قَالَ: فَذَاكَ يَوْمَ ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾، وَذَلِكَ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾».

والليت: هو صفحة العنق، وقوله: (أَصْغَى لِيتًا) أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا، فهذه نفخة الفزع ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت، ثم بعد ذلك مفخة النشور والقيام.

قوله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: لا نجاة ولا مهرب.

قوله: ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من القبور، أو من حيث كانوا، فهم من الله قريب، لا يعزبون عنه، ولا يفوتونه، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ: فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ لَهُ».

قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث الآخر.

قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي: الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا ويتوبوا، وهيهات من تناول الإيمان في الآخرة، ويقال للرجل إذا تناول رجلًا ليأخذ برأسه ولحيته: ناشه ينوشُهُ نَوْشًا، ومنه: المناوشة في القتال، وذلك إذا تدانى الجمعان، ورجل نؤوش، أي: ذو بطش. والتناوش: التناول، والانتياش مثله.

وقرئت: (التناؤش) بالهمز. قال الجوهري: والتناؤش: التأخر والتباعد، وقد نأشت الأمر أنأشه نأشًا: أخرته، فانتأش، ويقال: فعله نئيشًا، أي: أخيرًا. قال الشاعر:

تَمَنَّى نَئِيشًا أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي ... وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورُ

وقال آخر:

قَعَدْتُ زَمَانًا عَنْ طِلَابِكَ لِلْعُلَا ... وَجِئْتَ نئيشا بعد ما فَاتَكَ الْخَبَرُ

قال الفراء: الهمز وترك الهمز في التناؤش متقارب، مثل: ذِمت الرجل، وذأمته أي: عبته. قال الحسن البصري: أما إنّهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد.

قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يرمون بالظن، كما قال تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، فيقولون في القرآن: سحر، وشعر، وأساطير الأولين، ويقولون في محمد ﷺ: شاعر، ساحر، كاهن، مجنون، ويقولون: لا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار، ويقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ والعرب تقول لكل من تكلم لا يَحُقّه: هو يقذف ويرجم بالغيب.

قوله: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن قلوبهم، وقيل: بعْد لهم أن يعلموا صدق محمد ﷺ، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: بينهم وبين النجاة من العذاب، أو بينهم وبين ما يشتهون من ملذات الدنيا وشهواتِها، أو بينهم وبين التوبة، والكل معتبر، فرجح الثاني البخاري، ورجح الأخير ابن جرير، والمقصود أنّهم باينوا شهوات الدنيا بوفاتِهم، وكانوا متعلقين بِها، وحرموا التوبة قبل موتِهم التي فيها نجاتُهم من العذاب.

قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ من الأمم الماضية المكذبة بالرسل، لما جاءهم بأسنا تمنوا أن لو آمنوا، فلم يقبل منهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والأشياع جمع شِيَع، وشِيَع جمع شيعة.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ﴾ أي: من أمر الرسل، والبعث، والجنة، والنار، والدين عمومًا.

قوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: يُستَراب به، يقال: أراب الرجل، أي: صار ذا ريبة، فهو مريب، ومن قال: هو من

الريب، الذي هو الشك والتهمة، قال: يقال: شك مريب، كما يقال: عجب عجيب، وشعر شاعر، قال بعض السلف: إياكم والشك والريبة، فإنه من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

انتهى تفسير سورة سبأ، ولله الحمد.

  

سورة فاطر

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الفَطْر: الشق، يقال: فطرته، فانفطر، ومنه: فَطَر نابُ البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء: تشقق، وسيف فطار، أي: فيه تشقق، والفطر: الابتداء والاختراع. قال ابن عباس: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي: ابتدأتُها. والفَطْر: حلب الناقة بالسبابة والإبْهام، والجائز من وجوه الإعراب في القرآن ما وافق القراءة فحسب، لا ما تجيزه قواعد النحو في ﴿فَاطِرِ﴾ الخفض على النعت، والرفع على إضمار مبتدأ، والنصب على المدح، وكذا ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ مفعول ثان، منهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك خازن النار، وملك الموت، ومنكر ونكير، وحملة العرش صلى الله عليهم أجمعين.

قوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ نعت، أي: أصحاب أجنحة، وأولو اسم جمع لذو، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا.

قوله: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ». وعند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: «سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي: في خلق الملائكة، وقيل: الآية مطلقة، تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأنٍّ في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف. والقول الأول أشهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿رَّحۡمَةٖ﴾ نكرة؛ للإشاعة والإبهام، فهي متناولة لكل رحمة، فإرسال الرسل رحمة، وإنزال الكتب السماوية رحمة، والإسلام رحمة، والمطر رحمة، وانشراح الصدر رحمة، وغنى النفس رحمة إلى غير ذلك من رحمات رب العالمين، التي يمنحها عباده المؤمنين، لا سيما عند نزول الخطوب واشتداد

المحن.

قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ كما جاء عن الشيخين من حديث المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ».

وعند مسلم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ. اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ».

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: لا خالق إلا الله. قيل للحسن: من خلق الشر؟ فقال: سبحان الله، هل من خالق غير الله؟! خلق الخير والشر.

وقد قرئت: (غيرِ الله) بالخفض، ألا فلعنة الله على القدرية القائلين بخالقَيْن، أحدهما للخير، والآخر للشر. وقد جاء عند البزار بسند حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًا ثُمَّ قُبِض إِلا جَعَلَ مِنْ بَعْدِهِ فَتْرَةً، يَمْلأُ من تِلْكَ الفَتْرَة جَهَنَّمَ، وإِنَّهُمُ الْقَدَرِيُّون»، وعند البزار أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «آخِرُ الْكَلامِ فِي القَدَرِ لِشِرَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ». قال ابن حجر: إسناده حسن، وعند أبي داود بسند لا بأس به من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلا تَشْهَدُوهُمْ»، وفي رواية: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: لا تطيعوا أمره سرًا ولا علانية. وقد جاء عند ابن ماجه بسند جيد عن

عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: «لَمَّا اسْتَعْمَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الطَّائِفِ جَعَلَ يَعْرِضُ لِي شَيْءٌ فِي صَلَاتِي، حَتَّى مَا أَدْرِي مَا أُصَلِّي، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ رَحَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: ابْنُ أَبِي الْعَاصِ؟! قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَرَضَ لِي شَيْءٌ فِي صَلَاتِي حَتَّى مَا أَدْرِي مَا أُصَلِّي! قَالَ: ذَاكَ الشَّيْطَانُ، ادْنُهْ. فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَجَلَسْتُ عَلَى صُدُورِ قَدَمَيَّ، قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرِي بِيَدِهِ، وَتَفَلَ فِي فَمِي، وَقَالَ: اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ! فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: الْحَقْ بِعَمَلِكَ». قال ابن السماك: يا عجبًا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته! وقال الفضيل بن عياض: يا كذاب، يا مفتر، اتق الله، ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ كفّت ما (إن) على العمل، فوقع بعدها الفعل.

قوله: ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح، ليشير إلى أنهما لا يفترقان، فالإيمان تصديقٌ، وقول، وعمل.

قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ من في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف، قال الكسائي: والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، فالمعنى: أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسنًا، تذهب نفسك عليهم حسرات، قال: وهذا كلام عربي طريف، لا يعرفه إلا قليل، قال النحاس: وهذا المعنى أحسن ما قيل في هذه الآية.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ جاء عند ابن أبي حاتم والترمذي بسند جيد عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ».

قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقد سبق بيان هذا المعنى، والمعنى: لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم، فإن الله أضلهم، و ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ مفعول من أجله منصوب، أي: فلا تذهب نفسك للحسرات، كما تقول: هلك عليه حبًا، ومات عليه حزنًا، ويجوز أن يكون حالًا، كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر.

قال الشاعر:

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسِي ... حَسَرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لِي سَقَامُ

أو مصدرًا.

قوله: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرئت: (الريح).

قوله: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ يقال: ميِّت ومَيْت واحد، وكذا مَيِّتة ومَيْتة. قال الشاعر:

لـيس مَـنْ مَـاتَ فاسْـتَرَاحَ بمَيـتٍ ... إنَّمـا الميـتُ ميـتُ الأحْيَـاءِ
إنَّمـا الميـتُ مَـنْ يَعـيشُ كَئِيبًـا ... كاسِـفًا بَالُـهُ قَليـلَ الرَّخَـاءِ

قال محمد بن يزيد: فهل ترى بينهما فرقًا، وأنشد:

هيْنُـون لَيْنُـون أيسَـارٌ بنـو يَسَـرٍ ... سُـوَّاسُ مَكرُمَـةِ أبنـاءُ أيسَـارِ

قال: فقد أجمعوا على أن هَيْنون ولَيْنون واحد، وكذا مَيّت ومَيْت، وسيّد وسَيْد.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ قد تقدم حديث أبي رزين رضي الله عنه وسنده حسن قال: قلت: «يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا رَزِينٍ: أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلًا؟ ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خضِرًا، ثُمَّ أَتَيْتَ عَلَيْهِ مَحْلًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خضِرًا؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى، وَكَذَلِكَ آيَةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ. قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا، وفيه: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلا أَصْغَى لِيتًا، وَرَفَعَ لِيتًا، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ. أو قال: يُنْزِلُ اللهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ، أَوِ الظِّلُّ. نعمان الشاك: فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾. ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَذَاكَ يَوْمَ ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، وَذَلِكَ ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾».

قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ﴾ الصعود الحركة إلى فوق، وهو العروج إلى الله، وهو في السماء، على العرش استوى، وهو دليل على علوّه سبحانه ذاتًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾.

قوله: ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: الذكر، والتلاوة، والدعاء، والتوحيد الصادر عن عقيدة طيبة. قال الشاعر:

لَا تـرضَ مـن رجـلٍ حـلاوة قولـه ... وحتـى يُـزَيِّنَ مَـا يَقُـولُ فَعَـالُ
فَـإِذَا وَزَنْـتَ فَعَالَـهُ بِمَقَالِـهِ ... فَتَوَازَنَـا فَإِخَـاءُ ذَاكَ جَمَـالُ

جاء عند أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ: التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ -أَوْ: لَا يَزَالُ لَهُ- مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟».

قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: لا يرفع الكلم الطيب، إلا العمل الصالح، فلا يقبل الله قولًا إلا بعمل، ولا يقبل قولًا وعملًا إلا بنية، ولا يقبل قولًا وعملًا ونية إلا بإصابة السنة، وقيل: العكس، العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، والقول الأول أظهر، والقول الثاني محتمل. وقد قيل: قول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر. قال الشاعر:

لا يكون المقال إلا بفعل ... وكل قَوْلٍ بِلَا فَعَالٍ هَبَاءُ
إِنَّ قَوْلًا بِلَا فعال جميل ... ونكاحا بِلَا وَلِيٍّ سَوَاءُ

قوله: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفه، فما أسرّ أحد سرًّا إلا أبداه الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

يقال: بار يبور، إذا هلك وبطل، وبارت السوق، إذا كسدت، ومنه: نعوذ من بوار الأيِّم، أي: لا زوج لها، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هلكى.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: زوّج بعضكم بعضًا؛ ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضاء مدتها.

قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: وما يُعمّر من مُعمّر، أي: هرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب، أي: بقضاء من الله عز وجل، وقيل: ليس أحد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت، لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، وهذا القول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ حلوٌ شديد الحلاوة يكسر وهج العطش، ويسهل انحداره في

الحلق لعذوبته.

قوله: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٌ﴾ يُحرق حلق الشارب، لمرارته وشدة ملوحته، فكما لا يتساويان، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البرُّ مع الفاجر.

قوله: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ أي: لا يقدرون عليه، ولا على خلقه. والقطمير: القشرة الرقيقة البيضاء، التي بين التمرة والنواة، وقيل: هو شِق النواة، وقيل: القمع الذي على رأس النواة، وقيل: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة، والقول الأول أقربُها.

قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ فلا أحد أخبر بخلقه منه، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

قوله: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أطوع منكم وأزكى.

قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ جاء عند أبي داود بسند صحيح عن أبي رمثة رضي الله عنه قال: «انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ؛ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لأَبِي: ابْنُكَ هَذَا؟ قَالَ: إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، قَالَ: حَقًّا، قَالَ: أَشْهَدُ بِهِ، قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَاحِكًا مِنْ ثَبْتِ شَبَهِي فِي أَبِي، وَمِنْ حَلِفِ أَبِي عَلَيَّ؛ ثُمَّ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ لا يَجْنِي عَلَيْكَ، وَلا تَجْنِي عَلَيْهِ، وَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ هذه الآية».

قوله: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾ أي: من إنسان أو دابة، وهذا يقع للمذكر والمؤنث، والمقصود بها هنا: النفوس التي قد كلفت في دار الدنيا، والتي جاءت يوم القيامة مثقلة بأوزارها، تدعو لتساعَد على حمل ما عليها من الأوزار.

قوله: ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ أي: ذنوبها، والحِمْل بالكسر: ما كان الظهر، والحَمْل بالفتح: حمل المرأة، وحمل النخلة، وحكى ابن السكِّيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر.

قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ أي: ولو كان المدعو ذا قربى، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾. قال الفضيل بن عياض: هي المرأة تلقى ولدها، فتقول: يا ولدي ألم يكن بطني لك وعاء؟ ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن حجري لك وطاء؟ فيقول: بلى يا أماه. فتقول: يا بني قد أثقلتني ذنوبي، فاحمل عني منها ذنبًا واحدًا. فيقول: إليكِ عني يا أماه، فإني بذنوبي عنكِ مشغول.

قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا

نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمۡ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن
تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾

قوله: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن، والكافر الذي يتخبط في الظلام، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فالمؤمن بصير سميع في نور، يمشي على صراط مستقيم، حتى يأوي إلى جنات النعيم، والكافر أعمى وأصم، يمشي مُكِبًا على وجهه، حتى يفضي إلى نار الحميم.

قوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾.

قوله: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس المتوهجة.

قوله: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ أي: كما لا تستوي هذه الأشياء ببداهة العقول، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، وهو من باب أولى؛ فالمؤمن في جنات النعيم، ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾، والكافر ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ من أوليائه الذين خلقهم، للإيمان والتقوى وجنة المأوى.

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: كما أنك لا تُسمع من مات وصار إلى القبور، كذلك لا تُسمع من مات قلبه، وخُتم على سمعه، وجُعل على بصره غشاوة.

قوله: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ قال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ أي: سلف فيها نبي، وها أنت نذير للعرب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾، وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

قوله: ﴿نَكِيرِ﴾ قرئت: (نكيري).

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي: رؤية قلب وعلم.

قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء.

قوله: ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾ صفة لثمرات. وقوله: ﴿أَلۡوَٰنُهَا﴾ رفع بمختلف، لأنه اسم فاعل يعمل عمل فعله، كما

يقال: رأيت رجلًا خارجًا أبوه.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي: جمع جُدّة، وهي الطرائق المختلفة الألوان، وإن كان الجميع حجرًا أو ترابًا، ومنه قولهم: ركب فُلان جُدَّةً من الأمر، إذا رأى فيه رأيًا، وكساء مُجدّد: فيه خطوط مختلفة، ولو كان جمع جديد لقال: جُدُد، نحو: سرير، سُرُر.

قوله: ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: جبال بيض، وجبال حمر.

قوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ وهي الجبال الطوال السود، والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب. قال الشاعر:

الْعَيْنُ طَامِحَةٌ وَالْيَدُ سَابِحَةٌ ... وَالرِّجْلُ لَافِحَةٌ وَالْوَجْهُ غِرْبِيبُ

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كذلك هذه المذكورات ذات ألوان شتى، كحال الجبال، فمنها الأسود، ومنها الأحمر، ومنها الأبيض، ومنها ما بين ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾، وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: تختلف أحوال الناس في الخشية، والقول الأول أقرب وأظهر.

والدواب جمع دابة، ويغلب على غير العاقل، من دَبَّ يَدِبُّ، إذا مشى على هيئته، وقصد بها هنا كل ما دبَّ على وجه الأرض من حيوان وطير ما عدا الإنسان والأنعام.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علمًا، وبالاغترار جهلًا، وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم، وقال مجاهد: إنما العالم والفقية من خشي الله، وقيل لسعد بن إبراهيم: من أفقه الناس؟ قال: أتقاهم لربه، قال بعض السلف: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية، وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب، قال الحسن البصري: من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، والمقصود أنه كلما كانت المعرفة بالعظيم العليم القدير أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ رابحة، لن تكسد، ولن تهلك بالخسران أبدًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ

مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ
وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ
ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: أورثنا أمة محمد ﷺ كل كتاب أنزلناه، وهو القرآن المهيمن على ما قبله، المتضمن لجميع ما في الكتب السابقة، وهي الأمة المصطفاة من عبادنا، جاء بسند لا بأس به عند الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: «هَؤُلاءِ كُلُّهُمْ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ». والمعنى أنّهم من هذه الأمة، وأنّهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي مفرط في بعض الواجبات، مرتكب لبعض المحرمات.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات وبعض المستحبات، الفاعل لبعض المكروهات، والمقتصد: الملازم للقصد، وهو ترك الميل.

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ مؤدٍ للواجبات والمستحبات، تارك للمحرمات والمكروهات.

وقد أخر الله عز وجل ذكر السابقين لكونهم أقرب إلى الجنات والثواب، كما قدّم الصوامع والبِيَع في سورة الحج على المساجد لتكون الصوامع أقرب إلى الهدم والخراب، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله، وكما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. وقيل: قَدَّم الظالمين لكثرتهم، وأخر السابقين لقلتهم، والقول الأول أولى.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الإرث، والاصطفاء لأمة محمد ﷺ، لا يدانيه فضل ولا شرف.

قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وليست جنة واحدة، فهناك جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين، وفي كل جنة مراتبُ ونُزلُ بحسب مراتب العاملين.

قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ قرئت: (يُدخَلونَها) بضم الياء وفتح الخاء.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أي: أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام.

قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ليس من أعمالنا، وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ». وفي رواية: «وَفَضْلٍ».

قوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: إعياء على أرواحنا، والنصَب، واللغوب كل منها يستعمل في التعب.

قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون في النار بالصوت العالي، والصارخ: المستغيث، والْمُصرِخ: المغيث.

قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جواب دعائهم، وقد ترجم البخاري في صحيحه: باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر؛ لقوله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، يعني الشيب، ثم أورد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً». والمعنى: بلغ به أقصى العذر. قال الشاعر:

إِذَا بَلَغَ الفَتَى سِتِّينَ عَامًا ... فَقَدْ ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ

وذلك لأن الستين معترك المنايا، وهو سن الإنابة والخشوع وترقب لقاء الله، ومنه قولهم: من أعذر فقد أنذر، وأما العذر الأول فهو سن الأربعين، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، ففي الأربعين تناهي العقل، وما قبل ذلك، وما بعده منتقص، قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا والعلم، ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم، اعتزلوا الناس، واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت، وقد جاء عند الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ سِتِّينَ إِلَى سَبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ». حديث حسن.

قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي: الإنذار، فقيل: الشيب؛ لأنه يأتي في سن الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سن الصبا واللهو واللعب. قال الشاعر:

رَأَيْتُ الشَّيْبَ مِنْ نُذُرِ الْمَنَايَا ... لِصَاحِبِهِ وَحَسْبُكَ مِنْ نَذِيرِ

وقال آخر:

فَقُلْتُ لَهَا الْمَشِيبُ نَذِيرُ عُمْرِي ... وَلَسْتُ مُسَوِّدًا وَجْهَ النَّذِيرِ

وقيل: موت الأهل والأحباب.

قال الشاعر:

الْمَـوْتُ فِـي كُـلِ حِـينٍ يَنْشُـرُ الْكَفَنَـا وَنَحْـنُ فِـي غَفْلَـةٍ عَمَّـا يُـرَادُ بِنَـا

وقيل: القرآن، والرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، والقول الأخير هو الأظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾، وأما بقية الأقوال فمحتملة، لاسيما القول الأول.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ٣٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤١ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ٤٤﴾

قوله: ﴿مَقْتًا﴾ أي: بغضًا وغضبًا.

قوله: ﴿خَسَارًا﴾ أي: هلاكًا، وضلالًا.

قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرئت: (بينات)، والمعنى: أم أنزلنا عليهم كتابًا، بما يقوله من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك.

قوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وزخرفها لهم أسيادهم وشياطينهم، وهي غرور وباطل وزور.

قوله: ﴿أَن تَزُولَا﴾ أي: لئلا تزولا وتضطربا عن أماكنهما، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. وقد جاء عند ابن أبي خيثمة عن قتادة قال: «بلغ حذيفة أن كعبًا يقول: إن السماء تدور على قطب كالرحى فقال: كذب كعب إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾». حسنه ابن حجر.

قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: لو زالتا ما أمسكهما من أحد، و﴿إِنْ﴾ بمعنى ما، وقيل: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور أن يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم، فيؤخر وينظر، ويؤجل ولا يعجل، ويستر

آخرين ويغفر، وروى أبو جعفر بن جرير، بسند صحيح، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: من أين أتيت؟ قال: من الشأم، قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعبًا، قال: ما حدثك؟ قال: حدثني أن السماوات تدور على منكب مَلَك، قال: أفصدّقْته أم كذَبته؟ قال: ما صدقته ولا كذبته، قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورحلها، كذب كعب، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾. قال ابن كثير: إسناده صحيح إلى كعب، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾. قرئت: (السيْئ).

قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ أي: ما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، وأضيف المكر إلى السوء، لبيان أن المكر من حيث هو، لا يذم ولا يمدح، إلا بالنظر في عاقبته، فإن كان المكرُ لغاية صحيحة، فهو ممدوح، وإلا فلا، والْحَوْق: الإحاطة، والعرب تقول: حاق به المكروه يحيق به حيقًا، إذا نزل به وأحاط به، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة، فلا تقول: حاق به الخير، للتعبير عن إحاطته به، قال محمد بن كعب القرظي: ثلاثٌ من فعلهن لم ينج حتى ينْزل به، (من بغي أو مكر أو نكث)، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾. وفيها إشارة إلى قتلهم ببدر، وفي الحكمة: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. وقال بعض الحكماء:

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ ... وَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى مَنْ ظَلَمْ
إِلَى مَتَى أَنْتَ وَحَتَّى مَتَى ... تُحْصِي الْمَصَائِبَ وَتَنْسَى النِّعَمْ

قال رسول الله ﷺ: «الْمَكْرُ والْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ». أخرجه الطبراني في الصغير وابن عدي في الكامل، من حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال سعد: «لولا ذلك لَكُنْت أَمْكَرِ النَّاسِ» قال ابن حجر: إسناده لا بأس به وجاء من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند إسحاق بن راهويه في مسنده، وكذا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كل إسناد منهما مقال لكن مجموعهما يدل على أن للمتن أصلًا.

ومعناه: تدخل أصحابَها في النار؛ لأنّها من أخلاق الكفار، لا من أخلاق المؤمنين الأخيار.

قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾

قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣
أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ
مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ
بَصِيرَۢا﴾ أي: ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين

انتهى تفسير سورة فاطر، ولله الحمد.

  

سورة يس

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾

قوله: ﴿يسٓ﴾ هي من الحروف المقطعة، نحو: ﴿طه﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، وقرئت: (يسن) بإظهار النون.

قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ قسم رباني بكتابه.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جواب القسم، والخطاب لنبينا لمحمد ﷺ.

قوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بالنصب على المصدر، أي: نزل الله ذلك تنْزيلًا، وأضاف المصدر فصار معرفة، كقوله: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فضربًا للرقاب، وقرئت: (تنْزيلُ) بالرفع على خبر ابتداء محذوف، أي: القرآن تنْزيلُ، أو الذي أنزل إليك تنْزيلُ، وقيل: ﴿تَنزِيلَ﴾ يرجع إلى النبي ﷺ، بمعنى الإرسال، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ﴾، ويقال: أرسل الله المطر، وأنزله، بمعنى: محمد ﷺ رحمة أنزلها الله من السماء، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ يعني: العرب، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم، والمراد بالإنذار: تخويفهم من عذاب الله تعالى.

قوله: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فيمن سبق في علم الله، وفي أم الكتاب، أنه يموت على كفره، كأبي جهل، وأبي لهب، وأبي طالب.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ ذكر الغل في العنق، واكتفى به عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر، لما دل الكلام والسياق عليه، والعرب تحذف مثل هذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾، والتقدير: وسرابيل تقيكم البرد، وهكذا لما كان الغل إنما يعرف بجمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق على اليدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، يعني أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير.

قوله: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ أي: رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غلت يده إلى ذقنه ارتفع رأسه، يقال: أقمحت الدابة، إذا جذبت لجامها لترفع رأسها، والقاف مبدلة من الكاف؛ لقربها منها، كما يقال: قَهَرته وكَهَرته، ويقال: أكمحتُ الدابة، إذا جذبت عنانَها حتى ينتصب رأسها.

يقال: أكمحتها، وأكفحتها، وكبحتها، وقَمَح البعير قُمُوحًا، إذا رفع رأسه عن الحوض، وامتنع من الشرب، فهو بعير قَامِحٌ وقَمِحٌ، يقال: شرب فتقمح وانقمح بمعنى رأسه، وترك الشرب رِيًا، وقد قامحت إبلك، إذا وردت ولم تشرب، ورفعت رأسها من داء يكون بِها أو برد، ويقال: إبل مُقامحة، وبعير مقامح، وناقة مقامح، والجمع: قِماح، على غير قياس.

ويقال: أقمحه الغُلُّ، إذا ترك رأسه مرفوعًا من ضيقه، وشهرا قماح: أشد ما يكون من البرد، وهما الكانونان، سميا بذلك.

والمقصود أنه مثل ضربه الله للكافرين في امتناعهم من الهدى كبرًا، والمتكبر يوصف بانتصاب العنق، كامتناع المغلول الذي رفع رأسه لا يخفضه، وغض بصره لا يفتحه، كما يقال: فلان حمار، أي: لا يبصر الهدى. أو كما قال الشاعر:

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقيل: الآية إشارة إلى ما سيفعل بأقوام غدًا في النار، من وضع الأغلال في أعناقهم، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾، وأخبر عنه بلفظ الماضي.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: زينوا لهم الدنيا، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة.

قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: غطينا أبصارهم، فعموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا، وأصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات.

قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لأن الإنذار، إنما يوقظ القلب الحيَّ، المستعد لتلقي الإيمان.

قوله: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ أي: من الخير، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو وقف وقفوه، أو مسجد أو رباط

شيدوه، ومن ذلك ما جاء عند مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «أَرَادَ بَنُوا سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ. قَالَ: وَالْبِقَاعُ خَالِيَةٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا بَنِي سَلِمَةَ! دِيَارَكُمْ؛ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ. فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا». وقوله: «دِيَارَكُمْ» منصوب على الإغراء، أي: الزموا. وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». وجاء عند ابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا نَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ».

وعند أحمد، والنسائي بسند جيد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «مَاتَ رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ مِمَّنْ وُلِدَ بِهَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: يَا لَيْتَهُ مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ! قَالُوا: وَلِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ». وبالمقابل، تكتب آثار الشر، كتوظيف الظلمة على المسلمين، أو غناء، أو تمثيل يصد عن ذكر الرحمن، ونحو ذلك من السنن السيئة.

قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في الكتاب المسطور، واللوح المحفوظ، الذي هو أم الكتاب، وغدًا ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: اضرب يا محمد لهؤلاء

المشركين مثلًا أصحاب القرية التي أرسل إليها ثلاثة رسل.

قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ قرئت بالتخفيف: (فعزَزْنا)، أي: قوينا وشددنا. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ وتشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان.

قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: حظكم من الخير والشر، لازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا، وقد كتبه الله عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى عن قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بالتوحيد والإخلاص لرب العبيد، قلتم ما قلتم، وتوعدتم بما توعدتم به، وقرئت: (أين ذكرتم).

قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: في تطيركم وكفركم، والسرف هنا: الفساد بالشرك، والإسراف عمومًا: مجاوزة الحد، وقد سبق.

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: يا أيها الرسل كونوا شهودي بالإيمان، إذا لقيت ربي غدًا، فلما قال ذلك قتله قومه، وقد تقدم أحوال الشهداء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى﴾ هو من باب النصح لقومه ميتًا، كما كان ينصحهم حيًا، فلله درّه ودرّ كل داعية للإسلام، اليوم، وأمس، وغدًا، لقد شمروا في تخليص الأمة من وهدتها، وإنقاذ الأمة من ضلالتها، لا تلقاهم إلا ناصحين، حاديهم الحق والحكمة، ودثارهم الحلم وكظم الغيظ والصبر على الأذى، وشعارهم التلطف وكل ما هو أحسن، ليس في دعوتهم شماتة، ولا زهو، ولا غش، ولا استنكاف، وإنما هو التواضع، ولين الجانب، والدعاء لكل من ابتلي بالحيدة عن الصواب، فما أقلهم في الدنيا، وما أكثر غيرهم! فطوبى لمن كان في عسكرهم، وعد فيهم ومنهم، فهم سبّاقو الأمم، وأصحاب المعالي والهمم، كم أحيوا من سنة، وأماتوا من بدعة، جعلنا الله ممن اتبع أثرهم، واقتدى بِهديهم، وسار سيرتَهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ

ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ
ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى
لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى
لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: نزلت النقمة بِهم، بعد قتلهم الداعية الصالح، غضبًا منه تبارك تعالى، وما احتاج إلى إنزال جند من ملائكة السماء، بل الأمر كان أيسر من ذلك، وهم أقل وأصغر من مكاثرة الجموع، وقيل: ما أنزلنا على قومه بعد ذلك كتابًا، ولا أرسلنا رسولًا، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿خَٰمِدُونَ﴾ أي: ميتون هامدون، تشبيهًا بالرماد الخامد.

قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة، ولا يجوز منه غير النصب عند البصريين. قال الفراء: الاختيار: النصب، ولو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابًا، وقد حكي عن العرب: يا مُهتمُّ بأمرنا لا تَهتم، وخالفه النحاس، وقال: هذا إبطال باب النداء أو أكثره، وما حكي عن العرب تقديره: يا أيها المهتمُ لا تَهتم بأمرنا، وتقدير البيت: يا أيتها الدار، ثم حول المخاطبة، أي: يا هؤلاء غيّر هذه الدار البلى، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾. والمعنى: يا حسرة من العباد على أنفسهم، تندمًا وتلهفًا في استهزائهم برسل الله، لاسيما إذا عاينوا العذاب، وقيل: يا ويلًا على العباد، لقد حلّوا محل من يتحسر عليهم، والمعنيان واردان.

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لم يكن لهم إلى هذه الدنيا، كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم جهلتهم وفجرتُهم، من قولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلًا منهم أنّهم يعودون إلى الدنيا، كما كانوا فيها.

قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ قرئت بالتخفيف (لَمَا). قال الفرّاء: ومن شدد جعل ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى إلا، و ﴿إِن﴾ بمعنى ما نافية، والمعنى: وما كل إلا لجميع، كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾. وحكى سيبويه أنه يقال: سألتك بالله لَمّا فعلت، وأنكر هذا الكسائي، وقد مضى هذا المعنى في سورة هود، عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. ومن خفّف جعل ما صلة، والتقدير: وإن كل لجميع لدينا محضرون.

قوله: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ ذكرت كلمة (الميْتَة) بالتسكين في القرآن الكريم ست مرات، وهنا سؤال: ما الفرق

بينها وبين كلمة (الميِّت) بالتشديد؟ والإجابة: منها ما لاحظه العلماء من أن كلمة (ميِّت) المشددة، تأتي دومًا لتشير إلى المخلوق الحي الذي فيه الروح، وما زال يعيش حياته، وينتظر مجيء ملَك الموت ليقبض روحه، ولا يدري متى يحدث ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، أما كلمة (الميْت) بالتخفيف، فجاءت لتشير إلى الإنسان الذي مات فعلًا وخرجت روحه منه، وأصبح جثة هامدة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، أو إلى البلد والأرض الذي لا حياة فيهما، فيحيها الله بالمطر، كما في هذه الآية، أو إلى البهيمة التي خرجت روحها بدون ذبح شرعي، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، وحركات الكلمتين لها دلالة أخرى، إذ إن (الياء) المشددة في كلمة (الميِّت) توحي إلى الحياة والحركة، أما (الياء) الساكنة فتوحي إلى السكون وتوقف الحركة.

قوله: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي: ثمر ماء العيون؛ لأن الثمر منه اندرج. وقيل: ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، والقول الثاني أظهر. وقرئت: (من ثُمُره).

قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ومما عملته أيديهم، وقرأ الكوفيون: (وما عملت) بغير هاء، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، أي: ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم، والقول الأول أظهر، وأن ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، والآية تشير إلى أن ذاك كله إنما هو رحمة من الله تعالى، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا حولهم ولا قوتهم.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ممَّا تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء الغريبة.

قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: نُذهب الضوء ونجيء بالظلمة، والسلخ: الكشط والنّزع، يقال: سلخه الله من دينه، ثم تستعمل بمعنى الإخراج.

قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي: داخلون في الظلام، يقال: أظلمنا، أي: دخلنا في الظلام، وأظهرنا: دخلنا في وقت الظهر، وكذلك: أصبحنا، وأضحينا، وأمسينا. وقيل: ﴿مِنْهُ﴾ بمعنى عن، والأول أولى.

قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ تحت العرش، فقد جاء عند مسلم وأصله عند البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ. فَتَرْجِعُ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا:

ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ. فَتَرْجِعُ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي، أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا. فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»، وعند الشيخين قال أبو ذر رضي الله عنه: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قَالَ: مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ».

وأما ما رُوي من قراءة ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما: (والشمس تجري لا مستقر لها) أي: تجري لا وقوف لها ولا قرار، فإسناد هذه القراءة ضعيف جدًا، لا يقاوم سند مذهب الجماعة، وما اتفقت عليه الأمة، والنص النبوي فاصل قاطع في هذه المسألة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ فليس المقصود بالآية عدم الوقوف للسجود، وإنما المقصود بها عدم انقطاعهما أو فنائهما، حتى يكونا في النار، ولو افترض صحة القراءة لَحُمل ذلك على مستقرها الزماني، أي: لا مستقر لها زمانًا، حتى يكون يوم القيامة، قال ابن كثير: أما مستقرها المكاني فهو تحت العرش مما يلي الأرض في ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها، وليس بِكُرَة، كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم، تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون من العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع من العرش فحينئذ تسجد، وتستأذن في الطلوع، كما سبق في حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ قرئت: (والقمرُ)، على تقدير: وآية لهم القمر، أو مرفوع بالابتداء، قال الفراء: والرفع أعجب إليّ؛ لأنه معطوف على ما قبله، وأما قراءة النصب فهي على إضمار فعل؛ لأن قبله فعلًا وبعده فعلًا.

قوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: ذا منازل، أو قدرنا له منازل، ثم حذفت اللام لتعدي الفعل إلى مفعولين، وقيل القمر لأنه يبيّض الجو ببياضه إلى أن يَسْتَسِرّ.

قوله: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: العذق الذي عليه الشماريخ، وهو فُعْلون، من الانعراج، وهو الانعطاف، فالقمر يدق ويتقوس ويضيق حتى يصير كالعذق اليابس المنحني من النخلة، يقال: عَرْجَنه: ضربه بالعرجون، فالعرجون إذا عتق ويَبِس وتقوس أشبه القمر في دقته وصفرته.

قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي: لا تدرك الشمس القمر فتبطل معناه، فلكل واحد منهما سلطان على حياله، فلا يذهب أحدهما سلطان الآخر، حتى يأذن الله عز وجل. وقيل: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء، والمعنيان معتبران ملموسان. وقيل: سير القمر سيرٌ سريع، والشمس لا تدركه في السير، وهذا قول حسن، وهو ظاهر النص.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: كل واحد منهما يجيء في وقته، ولا يسبق صاحبه، فلا يجيء ليل آخر بعد الليل حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. وقيل: ﴿سَابِقُ﴾ أي: غالب النهار، يقال: سبق فلان فلانًا، أي: غلبه، وقيل: النهار مخلوق قبل الليل، فهو سابق له، والقول الأول هو الحق.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ الشمس والقمر والنجوم كلها تدور في فلك السماء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ٥٠ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾

قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ﴾ أي: عبرة وعظة، وقيل: نعمة، وقيل: إنذار، والقول الأول الظاهر.

قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ وهم ذرية آدم في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وقيل: أي ذرية أهل مكة من أولاد وضعفاء، وقبل ذلك آباء وأجداد؛ لأن الآباء ذرية، والأبناء ذرية، وسمي الآباء ذرية، لأن منهم ذرأ الأبناء، ويكون معنى ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ اسمًا للجنس.

قوله: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ كالإبل، وقيل: السفن، وهو الصحيح، أي: خلق لهم سفنًا أمثالها يركبونها، أي: من بعد سفينة نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾.

قوله: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ أي: مغيث ولا مانع، وصريخ بمعنى مُصْرِخ، فعيل بمعنى فاعل.

قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾ أي: يخلصون من الغرق والعذاب، والنحويون يختارون: لا رجل في الدار ولا زيد.

قوله: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ قيل: منصوب على الاستثناء منقطع، والتقدير: ولكن برحمتنا نسيركم في البر

والبحر، وقيل: مفعول لأجله، أي: للرحمة، والأول أولى.

قوله: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهو انقضاء آجالهم.

قوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾ من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم، وقيل: ما أسلفتم من الذنوب، وهو الأولى.

قوله: ﴿وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ أي: فيما تستقبلون به غدًا في الدار الآخرة.

قوله: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ أي: يقولون هذا هزوًا؛ لأنّهم يسمعون المؤمنين يعلقون أمورهم بمشيئة الله، وقيل: أرادوا: لو شاء الله لأغناهم، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، أي: أيفقره الله ونحن نطعمه، كقولهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، والمقصود أنّهم يلتمسون أي مبرر أو عذر، ولو كان باطلًا يتمسكون به ليبرر لهم عدم إنفاقهم على الفقراء والمحاويج من المسلمين.

قوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ قيل: هو من قول الكفار للمؤمنين، وقيل: العكس، وقيل: هو من قول الله عز وجل للكفار، والقول الأول أقربُها.

قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: ما ينتظرون إلا نفخة إسرافيل للفزع.

قوله: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يختصمون في أمور دنياهم، فيخصم بعضهم بعضًا، فلا يسمعها أحد، إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا، وقد سبق حديث ابن عمرو رضي الله عنه عند مسلم في بيان ذلك، وقرئت: (يَخْصِمون)، وقرئت: (يَخَصِّمون)، والأصل: يختصمون، فأدغمت التاء في الصاد، وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ، فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ، فَلَا يَسْقِي فِيهِ».

قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ أي: يوصي بعضهم بعضًا، سواء ما كان في يده من حق، أو في توبة ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إلى مساكن أولادهم وأهليهم التي خرجوا منها للبيع والشراء، فقد أعجلوا في ذلك، ثم يلي هذه النفخة نفخة الصعق، وذلك بعدما يساقون إلى أرض الشام، أرض المحشر والمنشر، كما جاء في حديث حسن مرفوع، عند البزار، من طريق أبي ذر رضي الله عنه، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ

أَمْسَوْا».

وروى مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: «اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ. فَذَكَرَ: الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ-، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ».

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وهذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث، وكان بينها وبين نفخة الصعق، أربعون سنة، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا عند الشيخين، وقد سبق ذكره.

قوله: ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، يقال: جَدَث، ويقال: جدف، والأول أفصح، والجمع: أَجْدُث، وأجداث، واجتدث أي: اتخذ جدثًا.

قوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي: يخرجون. قال الشاعر:

فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

ومنه قيل للولد: نسْل؛ لأنه يخرج من بطن أمه، وقيل: يسرعون، والنَّسَلان والعَسَلان: الإسراع في المشي، ومنه مشية الذئب، يقال: عسل الذئب ونَسَل، يَعسِل ويَنْسل، من باب ضرب يضرب، ويقال: ينسُل، والمعنيان واردان. قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: يسرعون، وقد جاء في حديث حسن عند إسحاق بن راهويه من حديث جابر رضي الله عنه: «إِنَّ قَوْمًا شَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَشْيَ، فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِالنَّسَلَانِ. فَنَسَلْنَا فَوَجَدْنَاهُ أَخَفَّ عَلَيْنَا». أي: الإسراع في المشي حتى ينشطوا.

قوله: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: من قبورنا، وكان حفص يسكت على ﴿مَّرْقَدِنَا﴾ سكتة لطيفة، قال نحام: التمام: الوقف على ﴿مَّرْقَدِنَا﴾، و ﴿هَـٰذَا﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، وقالوا ذلك حين عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب، فصار ما عذبوا به في قبورهم إلى جانب ما عاينوا كالنوم.

قوله: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قيل: هذا من كلام الملائكة، وقيل: من كلام المؤمنين، وقيل: من الجميع، وهو الصواب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا

تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ۝٦٧ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٦٨ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾

قوله: ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ أي: متلذذون ومعجبون ومسرورون، فهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم، ومن ذلك: افتضاض الأبكار، وسماع الأوتار، تحت ظلال الأشجار. وشُغُل وشُغْل لغتان مثل: الرُّعُب والرعْب، والسُّحُت والسحْت. والفكاهة: المزاح والكلام الطيب، يقال: رجل فِكه، إذا كان طيب النفس ضحوكًا.

قوله: ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ قرئت: (ظُلَل)، فالأولى جمع ظِل، والثانية جمع ظُلة.

قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ أي: السرر في الحجال، واحدها: أريكة، مثل: سفينة وسفائن.

قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: ما يتمنون وما يشتهون.

قوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ أي: ولهم أن يسلم الله عليهم، بعد رؤيتهم له، وهذا مُنى أهل الجنة، وقد سبق بيان ذلك، و ﴿قَوۡلٗا﴾ مصدر، على معنى: قال الله ذلك قولًا.

قوله: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي: يتمايز المسلمون عن المجرمين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾، يقال: تميّزوا، وامّازوا، وامتازوا بمعنى، ومِزته، فانماز، وامتاز، وميّزته، فتميز. كما أنه يتميز المجرمون بعضهم من بعض، فاليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، وعبدة الأوثان فرقة. قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي: ألم أوصكم وأبلغكم على ألسنة رسلي.

قوله: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أي: لا تطيعوه في معصيتي. قال الكسائي: ﴿لَّا﴾ للنهي.

قوله: ﴿جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ أي: خلقًا وأُممًا كثيرة. وقرئت: (جُبْلًا) و(جُبُلا) قال النحاس: أبينها القراءة

الأولى، والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرؤوا: ﴿ٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيكون (جبلًا) جمع جبلة، والاشتقاق فيه كله واحد، وإنما هو من جبل الله عز وجل الخلق، أي: خلقهم.

قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ جاء عند مسلم من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا! فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: «يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي .. فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ».

وعند ابن ماجه من حديث جابرٍ ﵁ قال: «لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَاسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا!. قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: صَدَقَتْ! صَدَقَتْ! كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟». حديث حسن.

قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ أي: أعميناهم في الدنيا، فلا يبصرون طريقًا إلى تصرفهم في

منازلهم ولا غيرها، يقال: طَمَسَ يَطْمِس ويطمُس، والمطموس والطَّمِيس: الذي ليس في عينيه شق، وهو مأخوذ من طمس الريح الأثر.

قوله: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: الطريق؛ ليحوزوا، ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ أي: فمن أين يبصرون وقد أخذت أبصارهم؟ ولكن لم نفعل ذلك بهم. وروي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه تأولها في يوم القيامة، قال: يقوم الفجار يوم القيامة، ليجوزا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعينهم، فاستبقوا الصراط، فمن أين يبصرونه حتى يجاوزه؟ والقول الأول هو الحق، والقول الثاني له وجه.

قوله: ﴿لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بدلنا خلقهم على أي صفة، وهم في المكان الذي عصوني فيه.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ لا يستطيعون مضيًا ولا رجوعًا، فقد يكونون مسخوا بَهيمة لا تعقل ولا تنطق، أو حجرًا لا يتقدم ولا يتأخر، وقرئت: (على مكاناتِهم).

قوله: ﴿مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ بضم الميم، مصدر مضى يمضي مُضيًا، إذا ذهب إلى الأمام، وَلا يَرْجِعُونَ إلى الوراء، وإنما يلزمون حالًا واحدة، لا يقبلون ولا يدبرون، وكما سبق، حمل ابن سلام رضي الله عنه هذه الآية على أنه يوم القيامة.

قوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ﴾ قرئت: (نَنْكُسْهُ)، أي: من التنكيس في القراءة الأولى، ومن القلب في القراءة الثانية، يقال: نكستُ الشيء أَنْكُسُه نكسًا: قلبته على رأسه، فانتكس. والمعنى: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فيتغير جسمه، وتضعف قوته. قال الشاعر:

مَــنْ عَــاشَ أَخَلَقَــتِ الْأَيَّــامَ جِدَّتَــهُ ... وَخَانَــهُ ثِقَتَــاهُ السَّــمْعُ وَالْبَصَــرُ

قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾. والمقصود أن الدنيا دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار.

قوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ أي: ما جعلناه شاعرًا، لرسول الله ﷺ؛ لأنه ليس من طبعه، ولا يحسنه، ولا تقتضيه جبلته.

قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي: وما يصلح له، وإنما علّمناه القرآن العظيم، الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾، وإصابة النبي ﷺ وزن الشعر أحيانًا، لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحيانًا من نضم كلام، يدخل في وزن، كقوله ﷺ في بعض غزواته:

«هَلْ أَنتِ إِلا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ». رواه الشيخان من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وقوله يوم حنين كما عند الشيخين: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»

قال الأخفش: هذا ليس بشعر، وقال الخليل: ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعرًا، وروي عنه، أنه من منهوك الرجز، وقد أجمع أهل اللغة، على أن من قال قولًا موزونًا، لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر، وإنما وافق الشعر، والذي نفاه الله عز وجل، عن نبيه ﷺ هو العلم بالشعر وأصنافه وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال أخوه أُنيس رضي الله عنه، وكان من أشعر العرب: «وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ».

وكان من الحكم الربانية، عدم معرفة النبي ﷺ للشعر، بالرغم من أنه من فصحاء العرب وبلغائهم؛ حتى لا تدخل الشبهة، على من أُرسل إليه، فيظن أنه قوي على القرآن، بما في طبعه من القوة على الشعر.

قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: حي القلب.

قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: تقوم الحجة بالقرآن وبالرسول الكريم على الكافرين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: من الذي عملت أيدينا؛ لأن ما بمعنى الذي، أو مصدرية.

قوله: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ أي: سخرناها لهم، حتى يقود الصبي الصغير، الجمل العظيم الكبير، ويضربه ويصرفه حيث يشاء، وكذا لو كان ألف بعير، لسار الجميع، لسير الصبي الصغير.

قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: مركوبُهم، كما يقال: ناقة حلوب، أي: محلوب، والركوب والركوبة واحد، مثل: الحلوب والحلوبة، والحَمول والحمولة، وحكى النحويون الكوفيون أن العرب تقول: امرأة صبور، وشكور، بغير هاء، ويقولون: شاة حلوبة، وناقة ركوبة. قال الشاعر:

فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً سُودًا كَخَافِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ

قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: يعبدون الآلهة ويقومون بِها ويغضبون لها في الدنيا، فهم لها بمنْزلة الجند، وهي لا تسوق إليهم خيرًا، ولا تدفع عنهم شرًا، وإنما هي أصنام جمادات، وقيل: إن الآلهة جند للعابدين، محضرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض، وقيل: هذه الأصنام لهؤلاء الكفار

جند الله عليهم في جهنم، يلعنونَهم، ويتبرءون من عبادتِهم، والقول الأول أقرب، والثاني وارد، والثالث بعيد.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: جنس الإنسان عمومًا، ممن أنكر البعث بعد الموت.

قوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ جاء عند أحمد، وابن ماجه بسند حسن عن بسر القرشي رضي الله عنه قال: «بَزَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ وَضَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ وَقَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَّى تُعْجِزُنِي ابْنَ آدَمَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟ فَإِذَا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هَذِهِ -وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ- قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ! وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟».

قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جَاءَ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ؟ بِعَظْمٍ حَائِلٍ، فَفَتَّهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَيُبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا، ثُمَّ يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ. قَالَ: فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ». صححه الحاكم والذهبي.

قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي: ما في الْمَرْخ والعَفَار، وهي زنادة العرب، ومنه قولهم: في كل شجر نار، واستمجد المرْخُ والعَفَار، فالعفار: الزند، وهو الأعلى، والمرخ: الزَّنْدة، وهي الأسفل، يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء، فيحك بعضهما إلى بعض، فتخرج منهما النار، قال الحكماء: في كل شجر نار إلا العناب. وقال: ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾، ولم يقل: الخضراء، وهو جمع؛ لأنه رده إلى اللفظ، ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء.

قوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم، فالذي خلق السموات وَالْأَرْض قادر عَلَى بعثهم.

انتهى تفسير سورة يس، ولله الحمد.

  

سورة الصافات

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾

وهي مكية بالإجماع، جاء عند النسائي بسند جيد عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالتَّخْفِيفِ، وَيَؤُمُّنَا بِالصَّافَّاتِ».

قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ أي: أقسم بالملائكة الصافة لعبادتي، وقد جاء عند مسلم من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ. وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى»، وروى مسلم من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ».

قوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ أي: بالملائكة التي تزجر السحاب، وتسوقه إلى حيث شاء الله. وقيل: زواجر القرآن. والأول أولى.

قوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أي: الملائكة القارئة لكتاب الله، أو الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، لقوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾. وقيل: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر بلفظ الجمع لأنه أفضل الملائكة، وقيل: آيات القرآن، ووصفها الله ﷻ بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، ولأن حروفه يتلو ويتبع بعضها بعضًا، وقيل: الأنبياء، والصواب: القول الأول. والفاء إذا جاءت عاطفة على الصفات إما أن تدل على ترتيب معانيها في الوجود، وإما على ترتيب في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل، وإما على ترتيب موصوفاتها في ذلك، كقوله: رحم الله المحلقين فالمقصرين.

قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ هذا جواب القسم.

قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ أي: مطالع الشمس والكواكب الثوابت والسيارات، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب، لدلالتها عليها، وقد قال سبحانه في آية أخرى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر. وقيل: أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار، وذكر الشروق قبل الغروب لأنه قبله.

قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ ذكر البخاري قول قتادة: خلق هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، وقرئت: (بزينةِ الكواكب) على الإضافة، فـ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾على القراءة الأولى بدل من ﴿زِينَةٍ﴾؛ لأنّها هي، وعلى المعنى الثاني: زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب وحسنها، ويجوز أن تكون كالقراءة الأولى، إلا أنه حذف التنوين استخفافًا.

قوله: ﴿وَحِفۡظٗا﴾ مصدر، أي: حفظناها حفظًا.

قوله: ﴿مَّارِدٖ﴾ أي: عاتٍ.

قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ من التسميع، فينتفي سماعهم وتسمعهم، وإن كانوا يحاولون أن يستمعوا على وجه السرعة والخطف، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾، وقرئت: (لا يَسْمَعون)، وأصل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ يتسمعون، فأدغمت التاء في السين لقربِها منها، والعرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، وتقول: تسمعت إليه.

قوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، وقد سبق ذكر حديث استراق السمع عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾.

قوله: ﴿دُحُورٗا﴾ أي: رجمًا يُدحرون به، يقال: دحرته دحْرًا ودُحُورًا، أي: طردته، وقيل: يقذفون بدحور، ثم حذف الباء، والكوفيون يستعملون هذا كثيرًا، واختلف العلماء، هل كان هذا القذف قبل النبي ﷺ أو بعده؟ والجمع بين النصوص القرآنية والنبوية أن يقال: إن الذين قالوا: لم تكن الشياطين تُرمى بالنجوم قبل البعثة، ثم رميت، أي: لم تكن تُرمى رميًا يقطعها عن السمع، ولكنها كانت تُرمى وقتًا ولا ترمى وقتًا، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب، أما بعد البعثة فأصبح الرجم مستمرًا وشاملًا، وهذا هو الفارق والفيصل، فصاروا لا يقدرون على سماع شيء إلا أن يختطف أحد منهم الخطفة، فيتبعه شهاب ثاقب، قبل أن ينزل إلى الأرض، فبطلت بعد البعثة الكهانة تمامًا، وحصلت النبوة والرسالة، وليس هذا من أجل النبوة

وفي وقت نزول الرسالة، وإنما هو إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ موصول لا ينقطع.

قوله: ﴿إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ الخطف: أخذ الشيء بسرعة، يقال: خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّفَ، والأصل في المشددات: اختطف، فأدغم التاء في الطاء؛ لأنّها أختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها، ومن كسرها فلالتقاء الساكنين، ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر.

قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مضيء مستنير، وحكي في الجمع: شُهُب ثُقُبٌ وثواقب وثقاب، وحكي: ثَقَبت النارُ تَثْقُب ثَقَابةً ثُقوبًا، إذا اتقدت، وأثقبتها أنا. وقيل: الثاقب: المستوقد، من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك، أي: استوقد نارك. قال الشاعر:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ شِهَابٌ ثاقب ... ضَرَب الدهرُ سَنَاهُ فَخَمَد

والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سَلْهم، مأخوذ من استفتاء المفتي.

قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من السماوات، والأرض، والجبال، والبحار، والملائكة، ومن سلف من الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾.

قوله: ﴿لَّازِبٍ﴾ أي: لاصق لزج جيد. قال الشاعر:

تَعْلَّمْ فَإِنَّ اللهَ زَادَكَ بَسْطَةً ... وَأَخْلَاقَ خَيْرٍ كُلُّهَا لَكَ لَازِبُ

وقيل: لازق، والفرق بين القولين، أن اللاصق هو الذي لصق بعضه ببعض، واللازق هو الذي يلتزق بما أصابه، والعرب تقول: طين لازب ولازم، واللازب: الثابت، تقول: صار الشيء ضربة لازبٍ، وهو أفصح من لازم. قال الشاعر:

وَلَا تحسبون الْخَيْر لَا شَرّ بعده ... وَلَا تحسبون الشَّرّ ضَرْبَة لازب

وحكى الفراء عن العرب: طين لاتب، بمعنى لازم، واللاتب: الثابت، تقول: لَتَبَ يَلْتَبُ لَتْبًا ولُتُوبًا، مثل: لَزَب يَلْزُب لزوبًا. قال الشاعر:

فَإِنَّ يَكُ هَذَا مِنْ نَبِيذٍ شَرِبْتُهُ ... فَإِنِّي مِنْ شُرْبِ النَّبِيذِ لَتَائِبُ

صُدَاعٌ وَتَوْصِيمُ الْعِظَامِ وَفَتْرَةٌ ... وَغَمٌّ مَعَ الْإِشْرَاقِ فِي الْجَوْفِ لَاتِبُ

قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: عجبتَ مما نزل عليك يا محمد من القرآن، وهم يسخرون به،

وقرئت: (عجبتُ)، والضمير راجع إلى الله، قال الفراء: ورفعها أحب إليّ، والمعنى: عجب الله من صنيعهم وسخريتهم بكتابه ورسوله، وفيه إثبات العجب لله ﷻ، وهو عجب يليق بجلاله، وقد سبق تقرير ذلك عند قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾.

قوله: ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾ أي: ينتفعون بما وعظوا به.

قوله: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ أي: يسخرون ويستهزئون، يقال: استسخر وسخر بمعنى، مثل: استقر وقر، واستعجب وعجب، وقيل: يستدعون السخرية من غيرهم، لتضاف إلى سخريتهم، وهذا أقرب.

قوله: ﴿قُلۡ نَعَمۡ﴾ أي: تبعثون.

قوله: ﴿دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون أذلاء، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

قوله: ﴿زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي: صيحة واحدة، سميت بذلك؛ لأن مقصودها الزجر، أي: يزجر بِها، كزجر الإبل والخيل عند السَّوْق.

قوله: ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم بعضًا، وينظر الجميع إلى البعث وأهوال يوم القيامة، الذي طالما أنكروه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي: الحكم بين الناس، فيبين المحق من المبطل، ويقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ.

قوله: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من قول الله تعالى لملائكته.

قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾أي: أشباههم وأشياعهم، وقد روى أحمد بن منيع، قال عمر: أشباههم صححه ابن حجر. فيحشر الكافر مع الكافر، والفاسق مع الفاسق، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا.

وقيل: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ نساؤهم، وهو قول ضعيف. وقيل: قرناؤهم من الأصنام والأنداد والشياطين. والصواب القول الأول.

قوله: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ أي: أرشدوهم وسوقوهم إلى طريق جهنم، يقال: هديته إلى الطريق، وهديته الطريق، أي: دللته عليه، وأهديتُ الهدية، وهديتُ العروس، ويقال: أهديتها، أي: جعلتها بمنْزلة الهدية.

قوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ أي: احبسوهم، وهذا قبل السوق إلى الجحيم، وفيه تقديم وتأخير، يقال: وقفتُ الدابة أوقفها وَقْفًا، فوقفت هي وقوفًا، يتعدى ولا يتعدى. وقيل: يساقون إلى النار أولًا، ثم

يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار، وقد روى البزار بسند حسن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَقَبَةً كَئُودًا لَا يَنْجُو فِيهَا إِلا كُلُّ مُخِفٍّ». وفي رواية عند الحاكم: «لَا يَجُوزُهَا الْمُثْقِلُونَ».

وجاء عند أحمد بسند حسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الْتَقَى مُؤْمِنَانِ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، مُؤْمِنٌ غَنِيٌّ، وَمُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، كَانَا فِي الدُّنْيَا، فَأُدْخِلَ الْفَقِيرُ الْجَنَّةَ، وَحُبِسَ الْغَنِيُّ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُحْبَسَ؛ ثُمَّ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَلَقِيَهُ الْفَقِيرُ، فَقال: أَيْ أَخِي، مَاذَا حَبَسَكَ؟، وَاللهِ لَقَدْ احْتُبِسْتَ حَتَّى خِفْتُ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: أَيْ أَخِي، إِنِّي حُبِسْتُ بَعْدَكَ مَحْبِسًا فَظِيعًا كَرِيهًا، وَمَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى سَالَ مِنِّي الْعَرَقُ مَا لَوْ وَرَدَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ كُلُّهَا آكِلَةُ حَمْضٍ لَصَدَرَتْ عَنْهُ رِوَاءً».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن
سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾
وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾
وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم
مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾

قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي: ينصر بعضكم بعضًا، فيمنعه من العذاب، وهذا على جهة التقريع والتوبيخ، وقد كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، وأصله: تتناصرون، فطرحت إحدى التاءين تخفيفًا.

قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتخاصمون، ويوبخ بعضهم بعضًا، في أنه أضله وفتح له بابًا من المعصية، وأما قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إنما هو: لا يتساءلون بالأرحام التي كانت بينهم في الدنيا ولا ينتفعون بها.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ قول الأتباع للمتبوعين، وقول الكفار للشياطين، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قيل: يقولون: تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها، أو تأتوننا عن اليمين التي نُحبّها ونتفاءل بها لتغرّونا بذلك، والعرب تتفاءل بما عن اليمين، وتسميه: السانح، وقد سبق ذلك. وقيل: تأتوننا من قبل الدين، فتهونون علينا أمر الشريعة، وتنفروننا عنها، وقيل: تمنعوننا بقوة وقهر، لأن اليمين

بمعنى القوة، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة، وقوة الرجل في يمينه. قال الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

وقيل: تأتون من حيث نأمنكم، والقول الأول أظهر، وهو أنّهم كانوا يأتونَهم من قِبل الحق، ويزينون لهم الباطل، ويصدونَهم عن الحق، وكل المعاني واردة ومحتملة.

قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ كما كتب، وأخبر على ألسنة الرسل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، وهي لا إله إلا الله، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قرئت: (المخلِصين)، وهو استثناء ممن يذوقون العذاب، وقيل: استثناء منقطع، والتقدير: لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: عطية معلومة لا تنقطع، وهي الجنة.

قوله: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ خصَّ الفواكه بالذكر؛ لأن ما يُؤكل في الجنة، إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ.

قوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: لا ينظر بعضهم في قفا بعض، تواصلًا وتحابًا.

قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ أي: من خمر لذة للشاربين، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح. وقال أهل اللغة: الكأس اسم شامل لكل إناء مع شرابه.

قوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: تجري كما تجري العيون، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار، أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم منه.

قوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ أي: الكأس، وقيل: الخمر، وهو الأظهر؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، فالخمر في الجنة أشد بياضًا من اللبن، وأكثر حلاوة من العسل، يقال: شراب لذ ولذيذ، مثل: نبات غَضٌّ وغضيض.

قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع.

قوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: لا يفقدون عقولهم بشربِها، يقال: الخمر غوْل للحلم، والحرب

غول للنفوس، أي: تذهب بها.

وَمَــا زَالَــتِ الْكَــأْسُ تَغْتَالُنَــا وَتَــذْهَبُ بِــالْأَوَّلِ الْأَوَّلِ

ومنه الغول، والغيلة، وهي القتل خفية، يقال: اغتاله اغتيالًا، إذا أفسد عليه أمره في خفية. ويقال: نُزِف الرجل يُنْزَفُ، فهو منْزُوف ونَزِيفٌ، إذا سكر.

وقرئت بكسر الزاي: (يُنْزِفون)، من أنزف القوم، إذا حان منهم النَّزْف، وهو السُّكر، يقال: أحصدَ الزرع، إذا حان حصاده، وأقطف الكرم، إذا حان قِطافُه، وأركبَ المهرُ، إذا حان ركوبه. وقيل: لا ينفدون شرابَهم؛ لأنه دأبُهم، يقال: أنْزف الرجل، فهو منْزُوف، إذا فنيت خمره، قال النحاس: والقراءة الأولى أبين وأوضح. وقيل: لا داء فيها ولا مغص. وقد قيل: في الخمر أربع خصال: السُّكر، والصداع، والقيء، والبول، ومرض القولنج، وقد نزّه الله ﷻ خمر الجنة منها، قال تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساء قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم و﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ مأخوذ من قولهم: قد اقتصر على كذا، إذا اقتنع به وعدل عن غيره. وقيل: مَعْنَاهُ لَا يغرن.

قوله: ﴿عِينٌ﴾ أي: عظام العيون وحسانها، الواحدة: عيناء، يقال: رجل أعين: واسع العين، بَيِّن العين، ومنه قيل لبقر الوحش عِين، والثور أعين، والبقرة عيناء.

قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: مصون، والعرب تشبه المرأة بالبيضة؛ لصفائها وبياضها، وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطى بالريش، وقيل: المراد بالبيض: اللؤلؤ، كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي: في أصدافه.

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه رد النعت إلى اللفظ، والقول الأول أولى بالصواب، أي: فهن كبياض البيض حين ينْزع قَشرتُه؛ لقوله: ﴿مَّكْنُون﴾، والمعنى الآخر معتبر، وهو وصف آخر، أي: وهن أيضًا كاللؤلؤ المكنون.

قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتفاوضون ويتحادثون على الشراب، كعادة الشُّراب فيما بينهم في الدنيا، وما جرى لهم وعليهم فيها، وهو من تمام الأنس. قال الشاعر:

وَمَــا بَقِيَــتْ مِــنَ اللَّــذَّاتِ إِلَّا وأحاديــث الْكِــرَام عَلَــى الْمُــدَام

قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل النعيم.

قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي: صديق ملازم، أو قرين من الشياطين يوسوس له.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ

ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ
هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ
أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا
لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ
ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

قوله: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث والجزاء، وقرئت: (المصَّدِّقين).

قوله: ﴿لَمَدِينُونَ﴾ مجزيون ومحاسبون.

قوله: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ قيل: هو من قول الله لأهل الجنة، وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة، وقيل: هو من قول الملائكة، وليس هو استفهام، وإنما هو بمعنى الأمر، أي: اطلعوا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ عن شرب الخمر، أي: انتهوا، والقول الثاني أظهرها. يقال: طَلَع وأَطْلَع واطّلع بمعنى واحد.

قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ أي: المؤمن، ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: رأى قرينه الذي طالما يوسوس له ويمنيه ويعرض عليه الباطل بصوره وأشكاله.

قوله: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط النار، يقال: حتى انقطع سوائي، أي: وسطي، ولولا أن الله ﷻ عرّفه إياه لما عرفه، لقد تغير حَبْرُه وسِبْرُه، أي: لونه وهيئته.

قوله: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: تهلكني وتوقعني معك في النار، و ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، دخلت على كاد كما تدخل على كان، نحو: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية.

قوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار.

قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ قيل: هو من قول المؤمن لقرينه الكافر توبيخًا وتقريعًا لما كان ينكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا، وقيل: هو من قول المؤمنين للملائكة حين يذبح الموت، والصواب، القول الأول.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ هو من قول المؤمن أيضًا، مشيرًا إلى ما هو فيه.

قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة، ويحتمل أن يكون من قول الله لأهل الدنيا، والقول الأخير هو الأقرب، والقول الأول محتمل.

قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي: أنعيم الجنة خير نزلًا ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي: التي في

جهنم، وهي من أعظم شجر أهل النار، كما أن طوبى من أعظم شجر أهل الجنة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ وهي مشتقة من التزقم، وهو البلع على جهد؛ لكراهتها ونتنها، وقد سبق الحديث عنها في سورة الإسراء.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: اختبار لهم، إذ قالوا: كيف تكون في النار شجرة وهي تحرق الشجر؟ كما قالوا في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ما الذي يخصص هذا العدد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أما الذين آمنوا فلا يرد عليهم، فيما جاء عن الله أو عن رسوله خاطر؛ لأن مذهبهم التسليم المباشر، فعندهم النقل قبل العقل، وإذا ورد النقل بشيء موهوم في العقل اتّهموا عقولهم، وصدقوا ما جاء عن الله وعن رسوله، فالشريعة جاءت بما يحير العقول ويبهرها؛ لأنّها من لدن رب السماوات والأرض وفاطرها، أرأيت رحلة الرسول ﷺ إلى بيت المقدس، ثم إلى عالم الرفيق الأعلى، واختراقه للسماوات العلا، ووصوله إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، ثم تردده ما بين ربه وما بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في السماء السادسة تسع مرات، حتى تحولت الصلاة من خمسين إلى خمس صلوات، ثم هبوطه، ثم وصوله إلى بيته بمكة، كل ذلك في ليلة أو بعض ليلة، هل يعقل هذا ويصدق؟ نعم يعقل ويصدق؛ لأنه خبر الصادق المصدوق، ولكنه يبهر العقل ويحيره، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقد سبق بيان هذه الرحلة بشيء من التفصيل في مطلع سورة الإسراء، وقيل: ﴿فِتْنَةً﴾ أي: عقوبة للظالمين، كما قال تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: قعر النار، ومنها منشؤها، ثم هي متفرعة في جهنم.

قوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ أي: ثمرها، ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ لقبحها، ورؤوس الشياطين متصورة في النفوس وإن كانت غير مرئية، ومن ذلك قولهم لكل قبيح: هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة: هو كصورة ملك، ومنه قوله تعالى عن صواحب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وهذا تشبيه تخيلي، ومنه قول الشاعر:

أَيَقْتُلَنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوَالِ

والمسنونة الزرق: السهام المحددة، والغول معلوم أنها لا تعرف، ولكن لما تصور في النفوس من قبحها، وفي الحديث المتفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» أي: البئر التي وضع فيها ما سحر به النبي ﷺ. وقيل: أراد بالشياطين: الحيّات التي لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسمًا، والقول الأول الحق، والقول الثاني حقه الرد.

قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لأنّهم لا يجدون إلا إياها، ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا

مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: بعد أكلها ﴿لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: مخلوط بالماء الحار؛ ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾، والشَّوب والشُّوب لغتان، كالفَقْر والفُقر، والفتح أشهر، يقال: شاب طعامه وشرابه، إذا خلطهما بشيء، يشوبُهما شوبًا وشيابة.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ فهم يوردون للشرب من الحميم عند العطش، ثم يردون إلى الجحيم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم ضالين، فاتبعوهم من غير دليل ولا برهان.

قوله: ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ يسرعون ويهرولون، يقال: هُرِع وأُهْرِع، إذا استُحِث وأُزعِج.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ أي: حين قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وصيغة الجمع وقوله: ﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ للعظمة والكبرياء.

قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: من الغرق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٨٢ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ۝٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾

قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: ثناء حسنًا في كل أمة، فإنه محبب إلى الجميع.

قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: سلامة له من أن يذكر بسوء في الآخِرين، ولم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾، فهو لسان صدق بالأنبياء كلهم.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من أهل دينه، وعلى منهجه وسنته في الدعوة إلى الحنيفية والصبر على

ذلك، وما كان بين نوح، وإبراهيم عليهما السلام إلا نبيان: هود، وصالح عليهما السلام، والشيعة: الأعوان، وهو مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذي يوقَد مع الكبار حتى يستوقد.

قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: سالم ومخلص، من الشرك والشك والنفاق، ناصح لله عز وجل، ولخلقه عالم بأن الساعة حق، ولقاء الله حق، والجنة حق، والنار حق.

قوله: ﴿أَئِفْكًا﴾ منصوب على المفعول به، أي: أتريدون إفكًا، وهو أسوأ الكذب، لا يثبت، وإنما يضطرب، ومنه: ائتفكت بِهم الأرض.

قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾ بدل من إفك.

قوله: ﴿تُرِيدُونَ﴾ أي: تعبدون.

قوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، ماذا سيفعل بكم؟ كما قال تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، وهو تحذير وتَهديد، وقيل: أي شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره؟ والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ لأن علم النجوم كان مستعملًا في زمانه ومعتبرًا، لاسيما عند أهل الرعاية والفلاحة، وكانت هذه من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حيلة وتورية وتعريضًا؛ لأنّهم كلفوه الخروج معهم، وهو لا يريد الخروج، وإنما يريد البقاء لتحطيم آلهتهم، وقد سبق حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا ثَلاثَ كَذَبَاتٍ: وذكر منها قَوْلُهُ: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾...». وسميت كذبة مجازًا، وإلا فهي حقيقة؛ لأنه أراد: سأسقم سقم الموت، أو إني ضعيف، والإنسان عمومًا خلق ضعيفًا، والسقم قد يراد به الضعف، ومنه قوله تعالى عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، أو سقيم فيما أستقبل، فتوهموا أنه سقيم الساعة، ومنه: المثل السائر: كفى بالسلامة داءً. وقول لبيد:

فَـدَعَوْتُ رَبِّـي بِالسَّـلامَةِ جَاهِـدا   لِيُصِـحَّنِي فَـإِذَا السَّـلامَةُ دَاءُ

وقد مات رجل فجأة، فالتف عليه الناس، فقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَنِ الموتُ في عنقه. فإذًا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ صادق فيما قال، ولكنه ورّى وعرّض ولم يصرح، ومع هذا عُدَّ ذنبًا في حقه؛ لقرب محله، وجلالة قدره، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، ولما طلب منه أهل الموقف أن يشفع لهم ذكر كذباته، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وقد سبق.

قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب ومال، يقال: راغ يَرُوغ رَوْغًا ورَوَغانًا، إذا مال، وطريق رائغ، أي: مائل. قال الشاعر:

وَيُرِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حلاوة ... ويروغ عَنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ خطاب من يعقل؛ لأنّهم أنزلوها بتلك المنْزلة، وكان بين يدي الأصنام طعام تركوه لتصيبه البركة، فإذا رجعوا أخذوه، وقيل: قرّب هو إليها طعامًا على جهة الضحك والاستهزاء، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، والقول الثاني قول جميل، والكل وارد.

قوله: ﴿ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بقوة، وقيل: باليد اليمنى؛ لأنّها أقوى، والضرب بِها أشد، وقيل: باليمين التي حلفها حين قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: يسرعون، وقيل: يتسللون تسللًا، بين المشي والعدو، ومنه زفيف النعامة. وقيل: يختالون، ومن أخذ زفاف العروس إلى زوجها.

وقرئت: (يُزِفُّون)، أي: يزفون غيرهم، ويحملونَهم على التزفيف، يقال: أزففت الإبل، أي: حملتها على أن تَزِفَّ، ويقال: هما لغتان، زفَّ القوم وأزفُّوا، وزففت العروس وأزففتها وازدففتها بمعنى، والمِزَفّة: المِحفّة التي تُزَفّ فيها العروس. وقد شبهت هذه القراءة بقولهم: اطردت الرجل، أي: صيرته إلى ذلك، وطردته: نحيته. قال الشاعر:

تَمَنَّى حُصَيْنٌ أَنْ يَسُودَ جِذَاعَهُ ... فَأَمْسَى حُصَيْنٌ قَدْ أَذَلَّ وَأَقْهَرَا

أي: صُيِّر إلى ذلك، فكذلك ﴿يَزِفُّونَ﴾: يصيرون إلى الزفيف.

قوله: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وخلق ما تعملون، كقوله تعالى: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾، وقد روى البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي عن حذيفة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وصَنْعَتَهُ». صححه ابن حجر. فـ﴿مَا﴾ مع الفعل مصدر، والتقدير: والله خلقكم وعملكم.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ أي: مكانًا حائطًا، وأضرموه نارًا؛ ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة.

قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي: مهاجر من بلدي إلى حيث أتمكن فيه من عبادة ربي، وهذه أصل في الهجرة والعزلة بعد استنفاد الطاقة، واستفحال الباطل، وأول من فعل ذلك إبراهيم ﵇ حين خلصه الله من النار، وقد هاجر إلى الأرض المقدسة، وهي أرض الشام وبيت المقدس.

قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: شب وترعرع وعقل وأدرك وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم ﵇ يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده وهما بمكة، وكان هو ببيت المقدس، وقد قيل: إنه كان يركب البراق ويأتي سريعًا.

وقد اختلف العلماء في مَن هو الغلام الذي أمِر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذبحه، فقيل: إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو قول العباس، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم بسند صحيح عنه، ويروى عن جابر، وابن عمر، وعمر رضي الله عنهم، وعلقمة، والشعبي وجمع من السلف، وهو الذي اختاره ابن جرير، والنحاس، والقرطبي، وعلى هذا القول أهل الكتابين: اليهود، والنصارى، وقيل: إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويروى عن ابن عمر، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد وجمع من السلف، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. ذكره في كتاب الزهد. وهو الذي اختاره ابن كثير، وهذا القول هو الصحيح الذي لا لبس فيه؛ لعدة أمور:

الأمر الأول: أن القول الأول ليس عليه دليل صحيح صريح، لا من كتاب ولا سنة، وإنما هو خبرٌ تُلُقِّف من أحبار أهل الكتاب.

الأمر الثاني: لأن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أول أولاد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بإجماع أهل الملل، المسلمين، وأهل الكتاب، بل نص في كتبهم أن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعمره ست وثمانون سنة، وولد إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ وعمر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تسع وتسعون سنة، أي: بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ثلاث عشرة سنة، وعند أهل الكتاب أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى: بكره، وليس لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بادئ الأمر بكرٌ وحيدٌ سوى إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الأمر الثالث: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لما قص قصة الذبيح، قال في آخر القصة: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الذبيح، وهو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدل على أنّها ذرية إسماعيل، وهم العرب، والذين منهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذرية إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم بنو إسرائيل.

الأمر الرابع: أن الابتلاء والاختبار إنما يكون صعبًا ومريرًا، إذا كان بالولد الأول، ويهون إذا كان بمن بعده، وقد اختار الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه أصعب الابتلاء وأمرَّه.

الأمر الخامس: القرآن يقول بعد أن ذكر الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، أي: أُخبر ووعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأن إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ سيكون نبيًا، فكيف يكون كذلك وقد أمر بذبحه؟ وكذا أخبر أنه سيكون من ذريته عقب ونسل.

الأمر السادس: أن الله عَزَّ وَجَلَّ وصف إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالصبر دون إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهو صبره على الذبح، ووصفه القرآن بصِدق الوعد في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على

الذبح، فوفى به.

الأمر السابع: قد ورد في الآثار الحسنة تعليق قرن الكبش الذي فُدي به إبراهيم عليه السلام في الكعبة، والمعلوم المقطوع به، أن إسماعيل عليه السلام كان بمكة، وأن إسحاق عليه السلام كان ببيت المقدس، ولو كان إسحاقَ عليه السلام لعلّق القرن ببيت المقدس، جاء عند أبي دواد بسند جيد عن عثمان بن طلحة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنِّي نَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تُخَمِّرَ الْقَرْنَيْنِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ الْمُصَلِّيَ». وإسماعيل عليه السلام أبو العرب، كما أن إسحاق عليه السلام أبو بني إسرائيل. قال الشاعر:

إِنَّ الذبيح هديت إسماعيل ... ونطق الكتاب بِذَاكَ وَالتَّنْزِيلُ
شَرَفٌ بِهِ خَصَّ الْإِلَهُ نَبِيَّنَا ... وأتى بِهِ التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ
إِنْ كُنْتَ أُمَّتَهُ فَلَا تنكر له ... وشرفًا بِهِ قَدْ خَصَّهُ التَّفْضِيلُ

قوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ جاء عند البخاري قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية، وقد روي مرفوعًا، ولكن ليس في الكتب الستة، وإنما هو عند ابن أبي حاتم.

قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قرئت: (تُرِي)، من أَرِي يُرِي، أي: فانظر ماذا ترى من صبرك وجزعك، أو ما تريك نفسك من الرأي، وهو الصواب، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله، ولتقر عينه إذا رأى من ابنه طاعة في أمر الله.

قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال بعض السلف: لما استثنى، وفقه الله للصبر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: انقادا واستسلما لأمر الله، وفوّضا أمرهما إليه.

قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: كبّه وحول وجهه إلى القبلة، وقيل: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه؛ ليكون أهون عليه؛ لأنه ربما نظر إلى وجهه فرحمه، وهذا القول هو الأولى.

ولك أن تسأل: هل توصف رحمة الوالد لولده، لا سيما إذا كان يحبه ويغليه وباكورة نسله؟

ويقال: تلّ يتُلّ، إذا صب، وتلّ يتِلّ بالكسر، إذا سقط، وعند الشيخين من حديث سهل بن سعد ﵄: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ الْغُلَامُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! لَا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا. قَالَ: فَتَلَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي يَدِهِ».

قوله: ﴿وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ﴾ أي: ناديناه، والواو صلة، كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ أي: أوحينا، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ﴾ أي: قال لهم. قال الشاعر:

حتى إذا حملت بطونكم ... رأيتم أبناءكم شبُّوا
وقلبتم ظهر المجنِّ لنا ... إن اللَّئِيمَ الْفَاجِرُ الْخِبُّ

قوله: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أي: حققت ما نبهناك عليه، وفعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك، وقد استدل بِهذه الآية والقصة، جماعة من علماء الأصول، على صحة النسخ، قبل التمكن من الفعل، خلافًا لطائفة من المعتزلة.

قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: نصرف عمن أطاعنا الشدائد، ونجعل له فرجًا ومخرجًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: النعمة الظاهرة، يقال: أبلاه الله إبْلاءً وبَلاءً، إذا أنعم عليه، وقد يقال: بلاه. قال كعب بن مالك ﵁ كما جاء عند الشيخين: «فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ». قال الشاعر:

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ ... وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

وقيل: من بلاه يبلوه، إذا اختبره، ويكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾، وقال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾.

قوله: ﴿وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ﴾ أي: بكبش؛ لأن الذِّبح اسم المذبوح، وجمعه: ذبوح، كالطِّحْن اسم المطحون، والذَّبْح بالفتح: المصدر.

قوله: ﴿عَظِيمٖ﴾ أي: في الشرف والقدر، لا في الجثة، وإن كان سمينًا؛ لأنه فدي به الذبيح، أو لأنه متقبل، وقد استدل بِهذه الآية، على أن الأضحية بالغنم، أفضل من الإبل والبقر؛ لأنه لو علم الله ﷻ حيوانًا

أفضل من الكبش، لفدى به إسماعيل عليه السلام، وضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين، كما جاء عند الشيخين، وأفضل الغنم: الفحول من الضأن، وإناث الضأن أفضل من فحول المعز، وفحول المعز أفضل من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر، وبهذه المناسبة الإبراهيمية المشرفة، شرعت الأضحية، وصارت سنة باقية في عقبه إلى يوم يبعثون، قال أحمد بن حنبل رحمه الله: الضحية أفضل الصدقة؛ لأنّها سنة مؤكدة، كصلاة العيد، ومعلوم أن صلاة العيد، أفضل من سائر النوافل.

والذي يضحى به بإجماع المسلمين: الأزواج الثمانية، وهي الضأن، والمعز، والإبل، والبقر، ويُتّقى في الأضحية ما ذكره رسول الله ﷺ كما في حديث البراء رضي الله عنه عند مالك، وأحمد، وأبي داود بسند صحيح، أن رسول الله ﷺ سئل: ماذا يتقى من الإبل؟ فأشار بيده، وقال: «أَرْبَعًا: الْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، وَالْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَجْفَاءُ الَّتِي لا تُنْقِي».

وعند أبي داود والترمذي بسند جيد عن علي رضي الله عنه قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالأُذُنَ، ولَا نُضَحِّيَ بِعَوْرَاءَ، وَلَا مُقَابَلَةٍ، وَلَا مُدَابَرَةٍ، وَلَا خَرْقَاءَ، وَلَا شَرْقَاءَ». فقوله: نستشرف، أي: نتطلع وننظر العين والأذن، ونبحث عنهما؛ لئلا يكون فيهما عيب، والمقابلة: ما قطع طرف أذنها، والمدابرة: ما قطع من جانب الأذن، والشَّرقاء: المشقوقة، والخرقاء: المثقوبة، وقد سبق ذلك مبينًا في سورة الحج، وقد قال بعض السلف: استشرفوا ضحاياكم؛ فإنّها على الصراط مطاياكم.

قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: وأبقينا عليه ثناءً حسنًا إلى يوم الدين.

قوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: بالنبوة والإنجاء من الغرق ورِق بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وهو استعباد فرعون إياهم، مع التعذيب بقتل الأبناء، واستحياء النساء.

قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ﴾، يقال: استبان، أي: صار بيّنًا، واستبانه فلان، مثل: تبين الشيء بنفسه، وتبينه فلان.

قوله: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قيل: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقيل: هو إدريس عليه السلام، والقولان محتملان، والثاني أقرب.

قوله: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ أي: صنمًا، يقال: هذا بعل الدار، أي: ربُّها، والمعنى: أتعبدون صنمًا

اتخذتموه ربًا وسميتموه بذلك؟ والبعل: الرب، بلغة اليمن، ومنه سمي الزوج: بعلًا، وقد قيل: سميت بعلبك، وهي مدينة من بلاد الشام بسبب ذلك.

قوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قرئت بالنصب وبالرفع، فبالنصب إما على النعت، أو على البدل، والرفع على أنه مبتدأ وخبر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٣٤ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٣٦ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ
عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ
فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ
يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ
يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ
شَٰهِدُونَ ١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾

قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ في العذاب.

قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ قرئت: (آل ياسين)، والمراد: إلياس عليه السلام، وعليه وقع التسليم، ويدخل في ذلك أهل دينه ومن كان على مذهبه، ولكنه اسم أعجمي، والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها، قال ابن جنِّي: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبًا، فياسين، وإلياس، وإلياسين شيء واحد، ويقول: إدريسين، وإدْرِسين، وإدْرَاسِينَ، كما يقال: في إسماعيل: إسماعين، وهي لغة بني أسد، ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإسرائين، وإبراهيم، وإبراهام، وطور سيناء، وطور سينين، وهو موضع واحد.

قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وهو ذو النون بن متى، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، ولم يتصرف ﴿يُونُسَ﴾؛ لأنه اسم أعجمي، ولو كان عربيًا لانصرف، وإن كان في أوله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفْعُل، كما أنك إذا سميت بيُعْفُرَ صرفته؛ لأنه زال عنه شبه الفعل، وإن سميت بيَعْفُرَ لم تصرفه، لأنه صار على وزن يقل.

قوله: ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ أي: خرج بغير أمر الله عز وجل مستترًا، ومنه: غلام آبق. وأصل آبق: تباعد.

قوله: ﴿إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي: السفينة المملوءة بالرجال.

قوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع، وأصله من السهام التي تُجَال.

قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين، يقال: دحضت حجته، وأدحضها الله، وأصله من

الزلق.

قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: أتى بما يلام عليه، أما الملوم فهو الذي يلام، استحق ذلك أولم يستحق، وقيل: المعيب، يقال: لام الرجل، إذا عمل شيئًا فصار معيبًا بذلك العمل.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: العابدين المصلين قبل ذلك.

قوله: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: عقوبة له، أي: يكون بطن الحوت قبرًا له إلى يوم القيامة، وقد قيل: من عمل صالحًا في حال الرخاء ذكره الله في حال الشدة والبلاء، وقد جاء عند القضاعي بسند جيد: قال ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ». وجاء موقوفًا عن الزبير بسند صحيح عند النسائي.

فيجتهد العبد ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه يصل إليه نفعها، أحوج ما يكون إليه، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خبر الثلاثة الذين انحطت على فم غارهم صخرة، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: «انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ بِهَا، لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ...» الحديث.

وفي الحديث الحسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ». رواه ابن أبي حاتم.

وعند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ».

وقد قيل: المراد بقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: فألقيناه من بطن الحوت على الساحل، بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل.

قوله: ﴿سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف، وجمعه: سقمى، وسقامى، وسقام، قال تعالى في سورة القلم: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، وأما هنا، فإنما فيه نبذ بالعراء وهو محمود غير مذموم.

قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: عنده، كقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾، وقيل: بمعنى له.

قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ وهو شجرة الدباء، المسماة بالقرع، ويقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض: يقطينة، نحو الدباء، والبطيخ، والحنظل، فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط، وإن كانت قائمة، أي: بعروق تفترش فهي نجمة، وجمعها: نجم، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ

﴿وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ وهي مشتقة من قطن بالمكان، إذا أقام به، فهو يفعيل، وقيل: هو اسم أعجمي، ولليقطين عدة مزايا، منها: أنه لا ينْزل عليه الذباب، وقد جاء عند الشيخين من حديث أنس ﵁ قال: «إِنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ. قَالَ أَنَسٌ: فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ خُبْزًا مِنْ شَعِيرٍ، وَمَرَقًا فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَقْبَلَ عَلَى عَمَلِهِ). قَالَ أَنَسٌ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوْلِ الصَّحْفَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ جَعَلْتُ أَجْمَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ-؛ فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ».

قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ قيل: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى بل، كقوله تعالى:﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾، وقيل: بمعنى الواو، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾، والمعنيان واردان، وإن كانا لا يصحان عند البصريين، وإنما يصح عندهم: وأرسلناه إلى جماعة، لو رأيتموهم لقلتم: هم مائة ألف أو أكثر، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون، وقيل: كما تقول: جاءني زيد أو عمرو، وأنت تعرف من جاءك منهما، إلا أنك أبْهمت ذلك على المخاطب، وتوجيه البصريين أيضًا هو في غاية الوجاهة.

قوله: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: انقضاء آجالهم.

قوله: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ سؤال توبيخ وتقريع، أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم، كقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ أي: حاضرون لخلقنا الملائكة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم﴾ كُسرت إن بعد ﴿أَلَآ﴾ لأنّها مبتدأ، ويجوز فتحها، ولكن ليس في القرآن، وحكى سيبويه أنّها تكون بعد أَمَا مفتوحة أو مكسورة، فبالفتح تكون بمعنى حقًا، وبالكسر تكون بمعنى ألا.

قوله: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ أي: اختار البنات، وقرئت: (آصطفى) بوصل الألف على الخبر بغير استفهام، وإذا ابتدأ كسر الهمزة، والتقدير على هذه القراءة: ويقولون: آصطفى البنات، أو يكون بدلًا من قوله: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن ولادة البنات واتخاذهن، اصطفاء لهن، والحاصل أنه توبيخ من الله لهم، قال الفرّاء: التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام، كما قال تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۝١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦٣ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ وَإِن كَانُواْ

لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾
وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ
حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾
وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي: قرابة، فقالوا: بنات الله، وقيل: أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: في العبادة، والقولان قويان، والأول أقوى.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: الملائكة، أن من جعل بينهم وبين الله نسبًا، لَمُحْضَرُونَ، للحساب، ثم النار، وقيل: لقد علمت الشياطين، أنهم محضرون في العذاب.

قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: والذي تعبدون، أو وعبادتكم لهذه الأصنام، وقيل: الواو بمعنى مع، كما يقال: جاء فلان وفلان، أي: جاء فلان مع فلان، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ أي: بمضلين أحدًا، إلا من قدر الله ﷻ إضلاله. قال الشاعر:

فَـــــــرَدَّ بِنِعْمَتِـــــــهِ كَيْـــــــدَهُ   عليـــه وَكَــــانَ لَنَــــا فَاتِنَــــا

أي: مُضلًا.

قال عمر بن عبد العزيز: لو أراد الله ألا يُعصى ما خلق إبليس، وهو رأس الخطيئة، وإن في ذلك لعلمًا في كتاب الله ﷻ، عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾، إلا من كتب الله ﷻ أن يصلى الجحيم، وقال: فصلت هذه الآية بين الناس. وفي هذه الآية رد على القدرية، وفيها أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله ﷻ عليه أنه لا يهتدي، ولو علم الله ﷻ أنه يهتدي لحال بينهم وبينه، وعلى هذا قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: لست تصل منهم إلى شيء إلا ما في علمي. قال لبيد:

إِنَّ تقـــوى ربنـــا خيـــر نفـــل   وبـــإذن اللهِ رَيْثِـــي وَعَجَـــلْ
أَحْمَـــدُ اللهَ فَـــلَا نِـــدَّ لـــه   بيديـــه الْخَيْـــرُ مَـــا شَـــاءَ فَعَـــلْ
مَـــنْ هَـــدَاهُ سُـــبُلَ الخيـــر اهتـــدى   ونـــاعم الْبَـــالِ وَمَـــنْ شَـــاءَ أَضَـــلْ

قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: فتنت الرجل، وأهل نجد يقولون: أفتنته.

قوله: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الأصل: صالِيُ، بالياء، فحذفها الكاتب لسقوطها في اللفظ.

قوله: ﴿مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: مكان معلوم مخصوص في العبادة، وقد جاء عند الترمذي بسند حسن عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ. وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ». وعند الطبراني من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ، وَلا شِبْرٍ، وَلا كَفٍّ، إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قَالُوا: جَمِيعًا سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا». وقال ابن حجر في تحفة النبلاء: رجاله لا بأس بهم.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ سبق في أول السورة.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾، والمقصود أنّهم يخبرون أنّهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين، ولا بنات لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ أي: يقول المشركون قبل بعثة النبي ﷺ إذا عُيِّروا بالجهل.

و﴿إِن﴾ مخففة، دخلت على الفعل، ولزمتها اللام فرقًا بين النفي والإيجاب، والكوفيون يقولون: ﴿إِن﴾ بمعنى ما، واللام بمعنى إلا، والتقدير على هذه الحال: وما كانوا إلا يقولون، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، وقد سبق بيان ذلك.

قوله: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ، وبما جاء به من الوحي والذكر الحكيم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي: بالحجة والغلبة، كما قال تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى الوقت الذي أُمهلوا فيه، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

قوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ العذاب.

قوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَزَا خَيْبَرَ، فَصَلَّيْنَا عِنْدَهَا صلاَةَ الْغَدَاةِ بِغَلَسٍ، فَرَكِبَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، وَرَكِبَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه، وَأَنَا رَدِيفُ أَبِي طَلْحَةَ، فَأَجْرَى نَبِيُّ اللهِ ﷺ فِي زُقَاقِ خَيْبَرَ، وَإِنَّ رُكْبَتِي لَتَمَسُّ فَخِذَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، ثُمَّ حَسَرَ الْإِزَارَ عَنْ فَخِذِهِ حَتَّى إِنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ فَخِذِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَ الْقَرْيَةَ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ! خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ. قَالَهَا ثَلاثًا. قَالَ: وَخَرَجَ الْقَوْمُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، فَقَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ! يَعْنِي الْجَيْشَ. قَالَ: فَأَصَبْنَاهَا عَنْوَةً...». الحديث.

قوله: ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بدارهم، والساحة فناء الدار الواسع.

قوله: ﴿رَبِّ﴾ مجرور على البدل، ويجوز النصب على المدح، والرفع، بمعنى: هو رب العزة، ولكن لا يقرأ إلا بالأولى، حتى تثبت القراءة بالسند الصحيح، وهكذا في جميع القرآن، فالقراءة شيء، والجواز اللغوي أو الإعرابي شيء آخر، والعكس قد يأتي في القرآن من الإعراب وأوجه اللغة ما لا تحيط به اللغة العربية عمومًا علمًا، فالقرآن حكم قاطع على اللغة العربية ولا عكس.

قوله: ﴿ٱلْعِزَّةِ﴾ قد تكون صفة ذات، وقد تكون صفة فعل، فصفة الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وصفة الفعل، نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾، والمعنى: رب العزة، التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم، فهي من خلق الله عز وجل، فمن حلف مثلًا بعزة الله، فلابد أن يكون أراد عزته التي هي صفته، لا التي جعلها الله بينه وبين عباده، وأما بقية صفات الله عز وجل فلا يتقدمها رب، فلا يقال مثلًا: رب القدرة ونحوها.

انتهى تفسير سورة الصافات، ولله الحمد.

  

سورة ص

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾

قوله: ﴿صٓ﴾ بجزم الدال على الوقف، وهو حرف من حروف الهجاء، مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و ﴿الٓمٓر﴾، و ﴿طه﴾، و ﴿يسٓ﴾ ونحو ذلك، وقد تقدم أنه فاتحة السورة، ومما استأثر الله تعالى بعلمه.

قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ الواو واو القسم، أي: أقسم بالقرآن.

قوله: ﴿ذِي﴾ مخفوض على النعت، وهو اسم معتل، والأصل فيه: ذَوَى، على فَعَل.

قوله: ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: الشرف والمكانة في نفسه، المشرف لصاحبه في الدارين، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ أي: شرفكم وتذكيركم، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».

قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جواب القسم مع قوله: ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أي: في تكبر وامتناع من قبول الحق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾. والعزة عند العرب: الغلبة والقهر، يقال: من عَزَّ بَزَّ، يعني من غلب سلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غلبني.

قوله: ﴿وَشِقَاقٖ﴾ أي: في إظهار خلاف ومباينة.

قوله: ﴿فَنَادَواْ﴾ أي: بالاستغاثة والتوبة، والنداء: رفع الصوت، ومنه الخبر الثابت بسند جيد عند أبي داود وغيره من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه حين رأى الأذان في المنام، قال له رسول الله ﷺ: «قُمْ مَعَ بِلالٍ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ». أي: أرفع. وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا

هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾.

قوله: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ جمع مناوص، أي: ليس الحينُ حين التوبة، ولا حين ينفع العمل، فلا منجى ولا فوت، فما عاد يجدي النداء، لقد نادوا لطلب الخلاص، في وقت لا يكون لهم فيه خلاص، وليس الحين حين مناص، يقال: ناص عن قِرْنه ينُوصُ نوْصًا ومناصًا، أي: فرَّ وزاغ، ويقال: ناص ينوص، إذا تقدم، وهي من الأضداد، والنّوص: الحمار الوحشي، واستناص، أي: تأخر، والنوص: التقدم. قال أهل اللغة: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ مفتوحتان، كأنّهما كلمة واحدة، وإنما هي لا، زيدت فيها التاء، نحو: رُب ورُبّت، وثُم وثُمّت. قال الشاعر أبو زبيد:

طَلَبُــــوا صُـــــلْحَنَا وَلَاتَ أَوَانِ ... فأجبنــا أَنْ لَــيْسَ حِــينَ بَقَــاءِ

ومن العرب من يخفض بها، قال الشاعر:

فَلَتَعْــرِفَنَّ خَلَائِقًــا مَشْــمُولَةً ... وَلَتَنْــدَمَنَّ وَلَاتَ سَــاعةِ مَنْــدَمِ

وكان الكسائي، والفراء، والخليل، وسيبويه، والأخفش يذهبون إلى أن ﴿وَّلَاتَ حِينَ﴾ التاء منقطعة من ﴿حِينَ﴾، ويقولون: معناها: وليست، وكذلك هو في المصاحف.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: الوقف عندي على هذا الحرف: ولا، والابتداء: تحين مناص، فتكون التاء مع حين. وأنشد قول الشاعر أبي وجْزة:

الْعَــاطِفُونَ تَحِــينُ مَــا مِــنْ عَــاطِفٍ ... وَالْمُطْعِمُــونَ زَمَــانَ أيــن المطعــم

وأنشد لأبي زبيد:

طَلَبُــوا صُــلْحَنَا وَلَا تَــأَوَانِ ... فأجبنــا أَنْ لَــيْسَ حِــينَ بَقَــاءِ

وقال أبو عبيد: لم نجد العرب تزيد التاء إلا في حين، وأوان، والآن، كما يقال: اذهب بِها تَلان معك، أي: الآن. قال الشاعر:

نُــوَلِّي قَبْــلَ نَــأْيِ دَارِي جُمَانَــا ... وَصِــلِينَا كَمَــا زعمــت تلانــا

إن خيــر الموصــلين صــفا ... مــن يــوافي خليلــه حيــث كانــا

ولا شك أن الحق خلاف ما ذهب إليه أبو عبيد، وأن الصواب مع الأولين، وأما استشهاده بقول أبي وجزة، فليس له وجه؛ لأن العلماء أنشدوه كالتالي:

الْعَــاطِفُونَ ولات مَــا مِــنْ عَــاطِفٍ ... وَالْمُطْعِمُــونَ زَمَــانَ أيــن المطعــم

وقيل:

الْعَــاطِفُونَ ولات حــين عَــاطِفٍ ... وَالْمُطْعِمُــونَ زَمَــانَ أيــن المطعــم

وأما استشهاده بالبيت الثاني فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه: ولا أوان، ثم إنه روي على الوجه الذي يوافق الرسم، وأما استشهاده بالبيت فلا تصح الحجة فيه؛ لأنه لا يعرف قائله، على أن محمد بن يزيد رواه:

نُـــوَلِّي قَبْـــلَ نَـــأْيِ دَارِي جُمَانَـــا وَصِـــلِينَا كَمَـــا زعمـــت الآنـــا

وقال غيره: المعنى: كما زعمت أنت الآن، فأسقط الهمزة من أنت والنون، وأما ما قيل: اذهب بِها تَلان معك، فقد روي بلفظ: اذهب بِها الآن معك، قال ما سبق: النحاس، وبالجملة، لو لم يكن في بطلان قول أبي عبيد إلا ذكر ﴿وَّلَاتَ﴾ في المصاحف كلها، لكان كافيًا ومقنعًا.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب، والعُجاب والعجّاب والعَجَب سواء، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، قال الخليل: عجيب أي: عجب، وعُجاب: تجاوز حد العَجَب، والطويل: الذي فيه طول، والطُّوَال: الذي قد تجاوز حد الطُّول، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: «مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ، وَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ، قَالَ: وَشَكَوهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الْجِزْيَةَ. قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً! قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً. فَقَالَ: يَا عَمِّ! قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالُوا: إِلَهًا وَاحِدًا! مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ، قَالَ: فَنَزَلَ فِيهِمْ الْقُرْآنُ ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأٓخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾».

قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: الأشراف، والانطلاق: الذهاب بسرعة، وكان من عند رسول الله ﷺ إلى قومهم.

قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾ أي: امضوا على ما كنتم فيه، ولا تدخلوا في دينه، ﴿وَٱصْبِرُواْ﴾ أي: على عبادة آلهتكم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، وهي كلمة تحذير، وقيل: يراد بأهل الأرض، من زوال نِعم قوم، وغِيَر تنْزل بِهم، والأول أظهر.

قوله: ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: ملة عيسى عليه السلام؛ لأنّها آخر الملل، وقيل: يعنون: ملة قريش، وقيل: ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمدًا رسول حق، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: كذب وتخرص، يقال: خلق واختلق، أي: ابتدع.

قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أنكروا اختصاصه بالوحي من بينهم، كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾، وقال المشركون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: إنما اغتروا بطول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك، ولما قالوا ذلك، ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ. و ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى لم، و ﴿مَا﴾ صلة، كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾.

قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ ﴿أَمْ﴾ ترد بمعنى التقريع، إذا كان الكلام متصلًا بكلام قبله، كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾. والمعنى: أم لهم هذا فيمنعوا ويحسدوا محمدًا ﷺ، على ما أنعم الله به عليه من النبوة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: إن كانوا يملكون السماوات والأرض، فليصعدوا إلى السماء إن وجدوا حبلًا أو سببًا، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي، وهذا أمر توبيخ وتعجيز، يقال: رقِي يَرْقَى، وارْتقى، إذا صعد، ورَقَى يَرْقِي رَقْيًا، من الرُّقية، مثل: رَمَى يَرْمِي رَمْيًا.

قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ أي: هم جند.

قوله: ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي: مقموع ذليل، يقال: هُزمت القرية، إذا انكسرت، وهزمت الجيش: كسرته، وقد هُزموا وكُسروا وحُطِّم كبرياؤهم في بدر، وفي الخندق يوم الأحزاب، ويوم فتح مكة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وكان ذلك يوم بدر، ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

قوله: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: البناء المحكم، والقصور الكثيرة، وقيل: ذو الجنود الكثيرة، وسموا أوتادًا لأنّهم يقوّون أمره، كما يقوّي الوتد البيت، والعرب تقول: هم في عز ثابت الأوتاد، أي: دائم شديد، وواحد الأوتاد: وَتِد، بالكسر، وبالفتح لغة، ويقال: وتد واتد، كما يقال: شغل شاغل.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ قرئت: (لَيْكَة)، بفتح اللام والتاء من غير همز.

قوله: ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي: ما كل. ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

قوله: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فنَزَل بهم العذاب، ونظير هذه الآية: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ أي: ما ينتظر، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: كفار مكة.

قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ ليس لها ثانية، وهي نفخة القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾.

قوله: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: من تَرداد ولا رجوع، ولا نظرة ولا راحة ولا إفاقة، وقرئت: (فُواق)، والفَواق والفُواق: ما بين الْحَلْبَتين من الوقت؛ لأنّها تُحلب، ثم تُترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرّ، ثم تُحلب، يقال: ما أقام عنده إلا فُواقًا، وقيل: العيادة قدر فواق الناقة، والفِيقة بالكسر: اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها، والجمع: فِيق، ثم أفواق، ثم شِبر وأشبار، ثم أفاويق. قال الشاعر:

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وهم يرضعونها ... أفاويق حَتَّى مَا يُدِرُّ لَهَا ثُعْلُ

والأفاويق: ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعة بعد ساعة، وأفاقت الناقة إفاقة، أي: اجتمعت الفيقة في ضرعها، فهي مفيق ومفيقة، والجمع: مفاويق. وثُعل: زيدة في أطباء الناقة والبقرة والشاة وهو لا يدر. والمقصود أنها نفخة ممتدة، لا تقطيع فيها، حتى يفزع ويصعق كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله.

قوله: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: عذابنا أو نعيمنا، وفي اللغة يقال للنصيب والخط: قِطٌّ، وللكتاب المكتوب بالجائزة: قِطٌّ، ومنه قيل للصك: قِطّ، والجمع: القطوط. ويقال في جمع قط: قِطَطة، وفي القليل: أُقط وأقْطاط. وقيل: عجّل لنا ما يكفينا، من قولهم: قَطْني، أي: يكفيني، وأصل القِطّ: القَطّ، وهو القطع، ومنه: قَطّ القلم. فالقِط اسم للقطعة من الشيء، كالقَسْم والقِسْم، فأطلق على النصيب، والكتاب، والرزق؛ لقطعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثر استعمالًا وأقوى حقيقة.

قوله: ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: قبل يوم القيامة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ
مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ
ٱلۡخِطَابِ ٢٠ ۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ
خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ
تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ
نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ
دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥
يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾

قوله: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ أي: القوة في العبادة، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويصلي نصف الليل، ولا يفرُّ إذا لاقى العدو. ويقال: الأَيْدُ، والآدُ، كما تقول: العيب والعاب. ورجل إيِّد، أي: قوي، وتأيد الشيء: تقوى.

قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: توّاب، كلما ذكر ذنبه، أو خطر على باله استغفر، كما جاء عن النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ». يقال: آب يؤوب، إذا رجع.

قوله: ﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ أي: ابيضاض الشمس بعد طلوعها، يقال: شَرَقت الشمس، إذا طلعت، وأشرقت، إذا أضاءت. قال بعض السلف: إني أجد في كتاب الله صلاة بعد طلوع الشمس، وهي صلاة الضحى، صلاة الأوابين، وقد جاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعًا، وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ».

وعند مسلم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلاةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ». والفصال والفصلان: جمع فَصيل، وهو الذي يعظم من الرضاعة من الإبل، والرمضاء: شدة الحر في الأرض، وخصّ الفصال بالذكر لأنّها هي التي تَرْمَض قبل انتهاء شدة الحر التي ترمض بها أمهاتُها؛ لقلة جَلَدها.

وعند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى».

وكون الصلاة تجزئ من ذلك، لأن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد، فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته أو بواجبه الذي عليه في الأصل.

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ»، وبنحوه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عند مسلم. والسُّلامى: عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم استعملت في سائر عظام الجسد ومفاصله، كما جاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِ مِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِ مِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ. وَرُبَّمَا قَالَ: يُمْسِي».

قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗ﴾ أي: مجموعة إليه.

قوله: ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: مطيع لداود عليه السلام وتسبِّح معه. وقيل: مطيع لله، والأول أظهر.

قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوّيناه، وكثرنا جنده، حتى ثبت وصار مهيبًا ومرعبًا للأعداء وأشد أهل الدنيا سلطانًا.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة، والسنة، والفقه.

قوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: الفصل في القضاء، والكلام والحكم بين الناس، وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل، ومعرفة الحق من الباطل، وعلم القضاء علم منفرد، يحتاج إلى بصيرة فذة، وفراسة بارعة، فقد يكون الرجل بصيرًا بأحكام الحلال والحرام، ولا يكون بصيرًا بالقضاء، والفصل بين الناس، وقد قال رسول الله ﷺ كما عند الترمذي وابن ماجه: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ». حديث حسن.

قوله: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ يطلق على الواحد والاثنين والجماعة؛ لأن أصله المصدر، ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هنا ملكان.

قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ أي: أتوه من أعلى سوره، يقال: تسور الحائط: تسلّقه، والسور بغير همز: حائط المدينة، وكذلك السُّوَرُ، جمع سورة، مثل: بُسْرة وبُسَرٍ، وهي كل منْزلة من البناء، ومنه سور القرآن؛ لأنّها منْزلة بعد منْزلة، مقطوعة عن الأخرى.

قوله: ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: الغرفة، أو البيت الذي كان فيه.

قوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنّهما دخلا عليه بغير إذنه، ولم يأتوا المحراب من بابه، إضافة إلى أن المحراب ليس من السهل ارتقاؤه؛ لأنه كان ممتنعًا بالارتفاع. فإن قيل: لم فزع وهو نبي، وقد قويت نفسه بالنبوة والوحي، وشدة السلطان، ورفعة المنْزلة، وكان من الشجاعة في غاية المكان؟ قيل: ذلك سبيل الأنبياء قبله، لم يأمنوا القتل والأذية، ومنهما كان يخاف، وقد قال موسى، وهارون عليهما السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، فقال الله ﷻ: ﴿لَا تَخَافَآ﴾، وقالت الرسل للوط عليه السلام: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾، وكذا قال الملكان هنا: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

وإن قيل: كيف لم يأمر بإخراجهما وقد دخلا بغير إذن وبدون أدب؟ فالجواب أن يقال: ربما كان من شرعه عدم الإذن والحجاب، أو أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا من أجله، حتى يعلم آخر الأمر منه، فلربما كان لهما عذر في ذلك، أو أنه عرف من قرائن الأحوال، أن الأمر ربما كان ابتلاءً وامتحانًا، ولكن لم يتبين له حق اليقين.

قوله: ﴿خَصْمَانِ﴾ لأنّهما دخلا وقبل هذا قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ﴾ لأن الاثنين جمع. قال الخليل: كما تقول: نحن فعلنا، إذا كنتما اثنين، ثم قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ﴾ راجع إلى قوله سبحانه: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾.

قوله: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تعدى بعضنا على بعض، يقال: بغى الْجُرح، إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش، ومنه: بغت المرأة، إذا أتت الفاحشة. فإن قيل: كيف كذب الملائكة وهم عن الكذب منزّهون؟ فالجواب أن يقال: ليس هذا كذبًا، وإنما هو من قبيل الامتحان والاختبار والتمثيل، كما في حديث الأبرص والأقرع والأعمى عند الشيخين، وقد سبق ذكره، كما لو جاء رجلان إلى عالم فسألاه سؤالًا افتراضيًا أو جدليًا؛ ليمتحنا قدرته وأهليته للإفتاء والقضاء، وقيل: على تقدير: قدّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض، والأول أولى.

قوله: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تَجُر ولا تَمِل، يقال: إنك لشاطِّي، أي: جائر عليّ في الحكم، والأصل فيه: البعد، من شطتِ الدار، إذا بعُدت، شطّت الدارُ تَشِطّ وتَشُطّ شطًا وشُطُوطًا: بعدت، وأشطَّ في القضية، أي: جار، وأشطَّ في السَّوْم واشتط، أي: أبعد، وأشطوا في طلبي، أي: أمعنوا، والشطط: مجاوزة القدر في كل شيء، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: جورًا في القول وبُعدًا عن الحق، ويقال: لا وكْسَ ولا شطط، أي: لا نقصان ولا زيادة.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي قال أحدهما: إن صاحبي هذا يملك تسعة وتسعين نعجة -وهي أنثى الضأن- وأملك أنا نعجة واحدة.

قوله: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: أعطنيها وضمها إليّ، واجعلها كِفلي ونصيبي.

قوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلبني؛ لأنه كان أفصح مني وأبطش مني، وقد سبق معنى العزة، وأنّها القوة والغلبة، ويقال: عازّني، أي: غالبني، من المعازة، وهي المغالبة.

قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ وقد أخطأ داود عليه السلام في الحكم، فحكم على الظاهر، ولم يتثبت ويطلب إقرار الخصم الآخر، فالأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمن حقوق المحكوم عليه، ومن المتقرر في جميع الملل، أن لا يُحكم في المنازلة، إلا بعد سماع قول الخصمين، وقد قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه كما جاء عند أبي داود بسند صحيح: «إِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلا تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ».

ولما تكلم داود عليه السلام بما حملته العجلة عليه، وهو القضاء بأن هذا محق وذاك ظالم، مع إمكان أنه لو سأل الآخر فلربما قال: كانت لي مائة نعجة ولا شيء لهذا، فسرق مني هذه النعجة، أو وجدها ضالةً، فتأول أخذها، فلما وجدتُها عنده قلت له: ارددها، وعلم أني مرافعه إليك، فجرني وشكاني قبل أن أشكوه، وجاءك متظلمًا من قبل أن أحضره.

قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الشركاء، أو الأصحاب، وقد جاء عند البخاري من حديث

أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «وَمَا كَانَ مِنْ خَلِيطَيْنِ فَإِنَّهُمَا يَتَرَاجَعَانِ بَيْنَهُمَا بِالسَّوِيَّةِ» يعني في الزكاة، يقال: خليط وخلطاء، ولا يقال: طويل وطولاء؛ لثقل الحركة في الواو.

قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين. و ﴿مَّا﴾ صلة، والتقدير: وقليل هم.

قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي: أيقن أنّا ابتليناه في الحكم والقضاء، ولم يفلح في الامتحان في هذه المسألة.

قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أي: طلب من ربه غفران ذنبه؛ لأنه حكم لأحد الخصمين، قبل أن يسمع من الآخر، ووصف المدعى عليه بالظلم والبغي، وكان الأجدر أن يتيقظ لذلك؛ لأن البينة على المدعي، واليمين على من أنكر. فإن قال قائل: هذا الأمر لا يستحق هذا العتاب، فالجواب أن يقال: ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله، وقد سبق حديث الشفاعة، وامتناع نوح، وإبراهيم عليهما السلام عن الشفاعة لأهل الموقف، وبيان وجه الامتناع.

قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: ساجدًا منيبًا. قال الشاعر:

فَخَرَّ عَلَى وجهه راكعًا ... وتاب إِلَى اللهِ مِنْ كُلِّ ذَنْبِ

وكانت هذه سجدة شكر منه أن أيقظه وعصمه، وجعله يقتصر في هذا الحكم، على تظليم المشكو، ولم يزد على ذلك شيئًا، من انتهار أو ضرب أو سجن أو قتل، مما يليق بمن تصور في القلب أنه ظالم، فغفر الله له.

وقد اختلف الأئمة في سجدة ص، والمعوَّل والمتعين ما جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «﴿ص﴾ لَيْسَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْجُدُ فِيهَا»، وقد سبق بحث ذلك عند قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ؛ فَسَجَدَهَا دَاوُدُ عليه السلام، فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم». رواه البخاري.

وجاء عند النسائي بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ص، وقال: «سَجَدَهَا دَاوُدُ تَوْبَةً، وَنَسْجُدُهَا شُكْرًا».

وعند أبي داود بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿ص﴾، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ، وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ قَرَأَهَا، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ تَشَزَّنَ النَّاسُ لِلسُّجُودِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُمْ لِلسُّجُودِ. فَنَزَلَ فَسَجَدَ، وَسَجَدُوا».

وعند الترمذي بسند لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَسَجَدْتُ، فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ

تَقُولُ: اللهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ سَجْدَةً، ثُمَّ سَجَدَ، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ».

ولذا كان سجود الشكر مشروعًا في شريعة الإسلام، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ أَمْرُ سُرُورٍ أَوْ يُسَرُّ بِهِ خَرَّ سَاجِدًا شَاكِرًا لِلَّهِ تَعَالَى».

وروى البيهقي بسند صحيح عن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ حِينَ جَاءَ كِتَابُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْيَمَنِ بِإِسْلَامِ هَمْدَانَ». وعند ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى يَوْمَ بُشِّرَ بِرَاسِ أَبِي جَهْلٍ رَكْعَتَيْنِ». حسنه ابن حجر.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي: قربة بعد المغفرة.

قوله: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة؛ لنبوته، وعدله التام في ملكه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

قوله: ﴿بَـٰطِلًا﴾ أي: هزلًا ولعبًا، وإنما خلقناهما لأمر عظيم، وهو الدلالة على قدرتنا ووحدانيتنا.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أنا خلقناهما باطلًا.

قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: ليتدبروا، فأدغمت التاء في الدال، وفي هذه الآية وجوب معرفة معاني القرآن، لمن حباه الله وأنعم عليه بنعمة العقل والفهم، وفيها أفضلية الترتيل على الهذ -أي القراءة السريعة-؛ إذ لا يكون تدبر مع الهذ.

قوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول، واحدها: لُب، وقد جُمع على: أَلُبٍّ، كما جمع بؤس على: أبؤُسٍ، ونُعْمٍ على أنعم.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾.

قوله: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ﴾ أي: على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾أي: القائمات، وقيل: اللواتي رفعن إحدى اليدين على طرف الحافر، حتى تقوم على ثلاث، والكل وارد، والأول أظهر. قال الفراء: الصافن في كلام العرب: الواقف من الخيل أو غيرها.

قوله: ﴿ٱلۡجِيَادُ﴾ أي: السِّراع، يقال للفرس: جواد، إذا كان شديد الْحُضْر، كما يقال للإنسان: جواد، إذا كان كثير العطية غزيرها، وقوم أجواد، وخيل جياد، ويقال: جاد الرجل بماله يجود جُودًا، فهو جَواد، وقوم جُود، مثل: قَذَالٍ وقُذُل، وإنما سكنت الواو لأنّها حرف علة، وأجواد وأجاود وجُوداء، وكذلك: امرأة جَوَاد، ونسوة جُود، مثل: نوارٍ ونُور. وتقول: سِرنا عُقْبة جَوَادًا، وعقبتين جَوَادَين، وعُقَبًا جياداً، من خيل جياد وأجياد وأجاويد، وقيل: إنّها الطوال الأعناق، مأخوذ من الجيد، وهو العنق؛ لأن طول الأعناق في الخيل من صفات فراهتها، والمعنيان معتبران.

قوله: ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: الخيل، والعرب تسميها كذلك، وتعاقب بين الراء واللام، فتقول: انْهملت العين، وانْهمرت، وختلت، وخترت، إذا خدعت. قال الفراء: الخير، والخيل في كلام العرب واحد، وعند مسلم من حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الأَجْرُ، وَالْغَنِيمَةُ». وعند الشيخين من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَزَيْدِ الْخَيْلِ». أي: زيد الخير. وسميت خيرًا لما فيها من المنافع، وسميت خيلًا لأنّها موسومة بالفر، وسمي فرسًا لأنه يفترس مسافات الجوِّ افتراس الأسد وثبانًا، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطًا وتناولًا.

و﴿حُبَّ﴾ مفعول به، والتقدير: إني آثرت حب الخير، وقيل: مصدر أضيف إلى المفعول، أي: أحببت الخير حبًا فألهاني عن ذكر ربي، وقيل: ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ أي: قعدت وتأخرت، من قولهم: أحبَّ البعير إذا برك وتأخر. وأحب فلان، أي: طأطأ رأسه، يقال: بعير مُحِبٌّ، وقد أحب إحبابًا، وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت، ويقال للبعير الحسير: مَحبٌّ، ويكون قوله: ﴿حُبَّ﴾ مفعول له، والقول الأول أظهر، وهو من المحبة.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أي: الشمس، والعرب كثيرًا ما يضمرون الشمس، وهي كناية عن غير مذكور، مثل قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ أي: الأرض، ويقول العرب: هاجت باردة، أي: الريح، وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أي: النفس أو الروح، وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ أي: النار.

قوله: ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي: الليل، وسمي بذلك لأنه يستر ما فيه.

قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾ أي: عقرًا وضربًا بالسيف.

قوله: ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: بالعراقيب حتى يحبسها عن النفار، كل هذا، غضبًا لله تعالى، وقربة له

بسبب اشتغاله بها عن ذكر الله، وقد عوضه الله ﷻ منها ما هو خير له، وهو الريح، ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾، ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾، وقد سبق بيان ذلك. وقيل: طفق يمسح سوقها وأعناقها بيده إكرامًا منه لها، وقد رجح هذا القول ابن جرير، وليس براجح، والقول الأول هو الراجح.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: ابتليناه واختبرناه وسلبنا منه الملك.

قوله: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾ أي: ألقيناه على كرسي عرشه، مريضًا مرضًا شديدًا، حتى صار جسدًا، وقد يوصف به المريض المضني، فيقال: كالجسد الملقى. وقيل: الجسد: شيطان، وقيل: إنسان حلّ محل سليمان مدة ابتلائه وفتنته، والقول الأول أظهر، والقول الثاني جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند قوي قال: هو الشيطان الذي كان سلط على سليمان عليه السلام، ولا ريب أن ابن عباس رضي الله عنهما، إنما تلقاه إن صح عنه من أهل الكتاب، وإن قيل بهذا القول، فلا شك أن حكم الشيطان، كان محددًا ومقيدًا، فليس حاكمًا على سليمان عليه السلام، ولا على أهل بيته.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه سليمًا مكرمًا.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ وكان هذا الطلب من سليمان عليه السلام من أجل أداء حقوق الله، وسياسة عباده، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، وتعظيم شعائره، وظهور الجهاد في سبيله، ولزوم طاعته، والتحاكم إليه، إلى غير ذلك من المصالح الشرعية البحتة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا».

وعند مسلم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ! ثُمَّ قَالَ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ. -ثَلَاثًا-، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ. قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ».

وعند أحمد، والنسائي، وابن ماجه بسند جيد عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ﷺ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ ﷻ خِلالًا ثَلاثَةً: سَأَلَ اللهَ ﷻ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ، فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ ﷻ مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ ﷻ حِينَ فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ أَنْ لا

يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لا يَنْهَزُهُ إِلا الصَّلاةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

قال بعض السلف: وهذا مصداقه قول النبي ﷺ كما جاء عند الشيخين: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي: ليِّنة، لا تضر بأحد، مع قوتِها، وشدتِها بعسكره وجنوده وموكبه.

قوله: ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد وقصد، ولكن بلغة حمير، وقيل: بلسان هَجَر، والعرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب، أي: أراد الصواب، وأخطأ الجواب. قال الشاعر:

أَصَابَ الْكَلامَ فَلَمْ يستطع ... فأخطأ الْجَوَابَ لَدَى الْمَفْصِل

قوله: ﴿وَغَوَّاصٖ﴾ أي: في البحر يستخرجون الدرّ.

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ وهم المردة الكفار، قد قرنوا بالسلاسل والقيود الحديدية.

قوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي: الملك والقوة على الجماع، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلٌّ تَلِدُ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ -قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي الْمَلَكَ-: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ. فَنَسِيَ، فَطَافَ بِهِنَّ، فَلَمْ تَأْتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ بِوَلَدٍ إِلَّا وَاحِدَةٌ بِشِقِّ غلامٍ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -وَفِي رِوَايَةٍ: وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! - لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ».

قوله: ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾ من المنّة، أي: أعطِ من شئت، ومن ذلك: مُنّ على من شئت من الشياطين بالعتق والتخلية.

قوله: ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ من الإمساك، أي: واحرم من شئت، فلا حساب عليك، مهما فعلت فهو جائز لك، وهو صواب.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ في الآخرة.

قوله: ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ أي: تعب، في بدني، ومالي، وولدي، وقد جاء عند ابن أبي حاتم، وابن جرير بسند جيد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ عليه السلام لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ...». وقد سبق ذكره، وفيه قوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ تَنْظُرُ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلاءِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ ؟ هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذَا كَانَ صَحِيحًا. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ. قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ،

وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَ». والأندر: الموضع الذي يدرس فيه القمح وغيره، وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

قوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي: ادفع وحرِّك، يقال: رَكَض الدابة، ورَكَض ثوبه برجله. قال الأصمعي: يقال: رُكِضت الدابة، ولا يقال: رَكَضتْ هي؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه، ولا فعل لها في ذلك. وحكى سيبويه: رَكَضتُ الدابةَ، فَرَكَضَتْ، مثل: جَبرت العظم، فجَبَر، وحزنته، فحزن، والتقدير: قلنا له: ﴿ٱرْكُضْ﴾.

قوله: ﴿مُغْتَسَلٌۢ﴾ أي: الذي يُغتسل فيه، والْمَغْسِل والْمَغْسَل: مغسِل الموتى، والجمع: المغاسل.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: أحيا الله من مات من أولاده، ورزقه مثلهم.

قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ أي: شِمراخًا فيه مائة قضيب، وهو إثكال النخل الجامع بشماريخه، ويقال له: العرجون، أو العرجد.

قوله: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ أي: ضربة واحدة، وقد حلف في مرضه ليضربن أحد أهله، مائة جلدة، فلما عافاه الله، أمره الله عز وجل بذلك، حتى لا يحنث، وقد جاء عند أبي داود بسند حسن، عن رجل من الأنصار: «أَنَّهُ اشْتَكَى رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى أُضْنِيَ، فَعَادَ جِلْدُهُ عَلَى عَظْمٍ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ جَارِيَةٌ لِبَعْضِهِمْ، فَهَشَّ لَهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رِجَالُ قَوْمِهِ يَعُودُونَهُ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَالَ: اسْتَفْتُوا لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَإِنِّي قَدْ وَقَعْتُ عَلَى جَارِيَةٍ دَخَلَتْ عَلَيَّ. فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الضُّرِّ مِثْلَ

الَّذِي هُوَ بِهِ! لَوْ حَمَلْنَاهُ إِلَيْكَ لَتَفَسَّخَتْ عِظَامُهُ، مَا هُوَ إِلَّا جِلْدٌ عَلَى عَظْمٍ! فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَاخُذُوا لَهُ مِائَةَ شِمْرَاخٍ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً». وقد اختلف العلماء، هل هو عام أم خاص؟ والصحيح: أنه خاص لمن لا يحتمل الضرب إن كان محدودًا، وعليه يحمل الحديث، وعامٌّ إذا كان الحكم تأديبيًا، وعليه تحمل الآية.

قوله: ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ أي: لا تبر باليمين، يقال: حنِث في يمينه، إذا لم يبر بها، وعند الكوفيين: الواو صلة، والتقدير: فاضرب لا تحنث، والأول أولى. وقد فعل أيوب ما أمره الله به، فبرّت يمينه، وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج لمن اتقى الله وأناب إليه، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ قرئت: (عبدنا).

قوله: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أي: القوة في طاعة الله وعبادته.

قوله: ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: الفقه في الدين، والبصيرة في العلم.

قوله: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها، فليس لهم همٌّ غيرها، وقرئت: (بخالصةِ) بالإضافة، فعلى القراءة الأولى تكون ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ بدل من ﴿بِخَالِصَةٖ﴾، ويجوز أن يكون ﴿خَالِصَةٖ﴾، مصدر، و ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ فاعل المصدر، وعلى القراءة الثانية تكون (خالصةِ) مصدرًا بمعنى الإخلاص، و ﴿ذِكۡرَى﴾ مفعول به، أضيف إليه المصدر، أي: بإخلاصهم ذكرى الدار، ويجوز أن يكون المصدر مضافًا إلى الفاعل، و ﴿خَالِصَةٖ﴾مصدر بمعنى الخلوص، وقيل: ﴿ٱلدَّارِ﴾ أي: دار الدنيا، والمعنى: ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾، والحق: القول الأول.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقد اصطفاهم من الأدناس.

قوله: ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ أي: ممن اختير للنبوة والرسالة، والأخيار جمع خَيِّر، أي: هم أخيار مختارون.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ فاقتد بهم، في الصبر، وتحمل الأذى في سبيل الله.

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞ﴾ أي: لهم مع هذا الذكر الجميل في الدنيا، وهو فضل فيه ذكر لكل من تذكر، وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، والقول الأول أظهر، والثاني وارد.

قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أي: إقامة، يقال: عَدَنَ بالمكان، إذا أقام.

قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ مرفوعة؛ لأنه نائب فاعل لاسم المفعول "مفتحة" العامل عمل فعله المبني للمجهول، ويجوز في اللغة النصب.

قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ أي: لا ينظرن إلى غير أزواجهن و ﴿أَتۡرَابٌ﴾ جمع ترب، أي: على سن واحد، وميلاد امرأة واحدة، قد تساوَيْنَ في الحسن والثياب، بنات ثلاث وثلاثين سنة، وهو نعت لـ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، و ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ نكرة، وإن كان مضافًا إلى المعرفة، والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه.

قوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: جزاء الذي وعدتم به، وقرئت: (ما يوعدون).

قوله: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: في يوم الحساب.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، وقال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾، وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾، وقال تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الأمر هذا، فيوقف عليها، وهو وقف حسن، كما قال ابن الأنباري: فلما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين. وقيل: أي هذا الذي وضعت لهؤلاء المتقين، وهو في موضع رفع بالابتداء، وخبر المبتدأ: ﴿حَمِيمٞ﴾، والتقدير: هذا حميم وغساق فليذوقوه، ويجوز أن يكون ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ خبر المبتدأ، ودخلت الفاء للتنبيه.

قوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ قرئت: (وغسَاق)، والمعنى واحد، وقيل: إذا شدد فهو اسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة، نحو: ضرّاب، وقتّال، وهو فعّال من غسق يغسِق، فهو غسّاق وغاسق، ومن خفف فهو اسم، مثل: عذاب، وجواب، وصواب. وقد قيل: الغسَّاق: الذي لا يستطاع، لشدة برده وهو الزمهرير، هو ثلج بارد قد انتهى برده، وهو الزمهرير، يحرق ببرده كما يحرق الحميم بِحرِّه، وقيل: هو عصارة أهل النار، ولونه أسود ومظلم كغسق الليل، وهو طينة الخبال، يقال: غسق الجرح يغسِق غسقًا، إذا خرج منه أصفر. قال الشاعر:

إِذَا مَــا تَــذَكَّرْتُ الْحَيَــاةَ وَطِيبَهَــا ... إِلَـيَّ جَـرَى دَمْـعٌ مِـنَ اللَّيْـلِ غَاسِـقُ

أي بارد. ويقال: ليل غاسق، لأنه أبرد من النهار، والمعنيان محتملان.

قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ قرئت: (وأُخرى)، جمع: أُخْرى، مثل: الكبرى والكُبَر، أي: وعذاب آخر سوى الحميم والغساق، ولكن من شكله، فالحميم أجناس في حرارته، والغساق والزمهرير

أجناس في برودته، فلكلٍ ألوان وأصناف من العذاب، كالسموم، والزقوم، والصعود، والهوى وغير ذلك، والشَّكل بالفتح: المثل، وبالكسر: الدل، يقال: امرأة ذات شِكل، أي: ذات دلال، وهو حسن الحديث والمزح والهيئة.

قوله: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ أي: جماعة من الأتباع، داخلة قبلكم، وهو قول الخزنة للقادة.

قوله: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ جواب القادة، أي: لا اتسعت منازلهم في النار، والرحب: السعة، ومنه: رحبة المسجد، وهو هنا دعاء، فلذلك نُصِب. قال الشاعر:

لَا مَرْحَبًا بِغَدٍ وَلَا أَهْلًا بِهِ ... وإن كان تفريقُ الأحبة في غد

يقال: لا مرحبًا بك، أي: لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ كما صليناها، وهو تتمة كلام القادة، وقيل: هو من قول الملائكة، متصل بقولهم: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: الأتباع، قالوا للقادة، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٧٠ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: عِلْية السادة وأكابر الكافرين.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ أي: من السفهاء والضعفاء والأغرار، قال بعض السلف: يقول أبو جهل: أين بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ أولئك في الفردوس. عجبًا لأبي جهل! كم كان سفيهًا بليدًا جاهلًا عربيدًا، أسلم ابنه عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابنته جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكذا أمه وأخوه وأبى إلا أن يعيش كافرًا ويموت كافرًا. قال:

وَنُورًا أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا ... وَمَوْضِعُ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

قوله: ﴿أَتَّخَذۡنَـٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ أي: في الدنيا، فأخطأنا.

قوله: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَـٰرُ﴾ أي: فلم نعلم مكانَهم، وهم معنا ولكن لا نراهم، وقرئت: (من الأشرار، اتخذناهم) بحذف الألف في الوصل، وقرئت بقطع الألف على الاستفهام، فإذا قرئت بالاستفهام كانت ﴿أَمۡ زَاغَتۡ﴾ للتسوية، وإذا قرئت بغير الاستفهام، فهي بمعنى بل، وقرئت: (سُخْرِيًا).

قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ خبر إن.

قوله: ﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو تخاصم، ويجوز أن يكون بدلًا من حق، أو خبراً بعد خبر، أو بدلًا من ذلك على الموضع، والتقدير: إن تخاصم أهل النار في النار لحق.

قوله: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ أي: ما أخبركم به في كتاب الله من أمور الآخرة، والبعث بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحي من أين كنت أدري ماذا يكون في السماء؟، وقد روى الإمام أحمد، والترمذي بسند صحيح عن معاذ رضي الله عنه قال: «احْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا، فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ، فَقَالَ لَنَا: عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ. ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ: أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ: إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ، وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ! قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ -قَالَهَا ثَلَاثًا-. قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ! قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ. قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِندَ الْكَرِيهَاتِ. قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ: سَلْ. قُلْتُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّهَا حَقٌّ؛ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا». ويجوز أن يكون ﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾ أي: الملائكة حين اختصموا في آدم عليه السلام حين خلق، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا..﴾ الآية، والقولان واردان، والأول أقرب.

قوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا وتشريفًا له، وقد خصه سبحانه بمباشرة يديه لخلقه، دون واسطة، وإن كان خالق كل شيء، وفيه إثبات يدين، تليقان بجلاله سبحانه، وهما صفتان من صفاته الذاتية، وقد سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾،

والنصوص من القرآن والسنة كثيرة في هذا الباب.

قوله: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ قرئت موصولة الألف: (آستكبرت)، وتكون ﴿أَمۡ﴾ منقطعة، بمعنى بل، مثل قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، ومن استفهم فـ﴿أَمۡ﴾معادلة لهمزة الاستفهام. وهو تقرير وتوبيخ.

قوله: ﴿فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ﴾ قرئت: (فالحقَّ)، ولا اختلاف في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ أنه منصوب بـ﴿أَقُولُ﴾، أو بمعنى: أُحِق الحق، أي: أفعله، ونصب الأول على الإغراء، أي: فاتبعوا الحق واستمعوه، أو بفعل مضمر، أي: يحق الله الحق، ورفعت الأولى، إما على تقدير: فأنا الحق، أو: الحق مني، أو: هذا الحق، أو: فالحق لأملأن جهنم، أي: أن أملأ جهنم، وقيل: أقسم بالحقِّ، ولا أقول إلا الحقَّ، لأملأن جنهم منك ومن أتباعك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾

قوله: ﴿ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتخرصين، الذين يقولون ما لا يعلمون، وقد جاء عند الشيخين، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ: اللهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: لَا أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾». قال بعض السلف: للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم.

قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أي: نبأ القرآن، وأنه حق.

قوله: ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ أي: بعد الموت، تظهر لكم حقيقة ما يقول الله في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، قال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين، وقال عكرمة: إن من الحين ما لا تدركه، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾، ومنه ما تدركه، كقوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا﴾ من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر.

انتهى تفسير سورة ص، ولله الحمد.

  

سورة الزمر

وهي مكية، إلا بضع آيات، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالزُّمَرَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ٥﴾

قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مرفوع بالابتداء.

قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ خبره، أو متعلق بمحذوف، والتقدير: كائن من الله، ويجوز أن يكون مرفوعًا بمعنى: هذا تنْزيل.

قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، سمي بذلك لأنه مكتوب.

قوله: ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة والطاعة، وهو مفعول به.

قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل، إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له. وفي هذه الآية دليل على وجوب النيّة في كل عمل، بما في ذلك الوضوء للصلاة، والذي هو شطر الإيمان، كما جاء مرفوعًا عند مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: قالوا تبريرًا وتسويغًا لشركهم وعبادتهم لآلهتهم من الأصنام.

قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر، أي: قربة تقربنا إليه، ولهذا كانوا يقولون كما جاء عند مسلم في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وهذه هي الشبهة التي اعتمدها المشركون، في قديم الدهر وحديثه، وجاءتْهم الرسل عليهم السلام بردِّها والنهي عنها.

قوله: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: لكان الأمر على خلاف ما

يزعمون، وعلى غير ما يريدون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهًا له من كل شريك أو ولد، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يلقي هذا على هذا، وهذا على هذا، والتكوير في اللغة: طرح الشيء بعضه على بعض، يقال: كوّر المتاع، أي: ألقى بعضه على بعض، ومنه: كوّر العمامة. وقيل: هو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: تغشية الليل للنهار حتى يذهب ضوءه، وتغشية النهار لليل فيذهب ظلمته، والمعنيان متقاربان، والمقصود: تسخيرهما يجريان متعاقبين، لا يفتران، كل منهما يطلب الآخر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: وهذه الثمانية أزواج من الأنعام مذكورة مفصلة في سورة الأنعام، وهي: الإبل والبقر والضأن والمعز، قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾، والمراد بالزوج: الذكر والأنثى من كل صنف.

قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ قرئت: (إِمَّهَاتِكُمْ).

قوله: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظمًا، ثم لحمًا، ثم طفلًا، كما سبق.

قوله: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ أي: ظلمة المشيمة، وهي الكيس الذي يُغلِّف الجنين، وظلمة الرَّحم الذي يستقر فيه الجنين، وظلمة البطن الذي يستقر فيه الرَّحم، وقيل: ظلمة صُلب الرجل، وظلمة بطن المرأة،

وظلمة الرحم، والقول الأول أصح.

قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، وإن أراده، وقد أراد خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرضا.

قوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشكر لكم، ويحبه ويزدكم من فضله، وقرئت بإشباع الضمة، وقرئت باختلاسها.

قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بل كلٌّ يؤاخذ بذنبه.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الكافر.

قوله: ﴿ضُرٌّ﴾ من فقر ومرضٍ وبلاء.

قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ أي: أعطاه وملكه، يقال: خوّلك الله الشيء، أي: ملّكك إياه. وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ قرئت: (أَمَن)، بالتخفيف على معنى النداء، أي: يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة، كما يقال في الكلام: فلان لا يصلي ولا يصوم، فيا من يصلي ويصوم أبشر، قال الفراء: الألف بمنْزلة يا، تقول: يا زيد أقبل. وقيل: الألف ألف استفهام، أي: أمن هو قانت أفضل أم من جعل لله أندادًا؟ والتقدير: الذي هو قانت خير، أما على قراءة التشديد فالمعنى: العاصون المتقدم ذكرهم خير أمّن هو قانت؟ قال النحاس: أم بمعنى بل، ومن بمعنى الذي، والتقدير: الذي هو قانت أفضل ممن ذكر. وقد سبق ذكر معنى القنوت.

قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ جاء عند الترمذي بسند جيد عن أنس ﵁: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ».

قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما لا يستوي هؤلاء عند العقلاء كذلك لا يستوي المطيع والعاصي.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم.

قوله: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ أي: فهاجروا، واعتزلوا الأوثان، ولا تقيموا مع من يعمل المعاصي، وقيل: أراد بسعة الأرض: سعة الرزق، والمعنى: ورزق الله واسع، فتكون الآية دليلًا على الانتقال من الأرض الغالية إلى الأرض الرخيصة الراخية، كما قال سفيان الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزًا بدرهم. والأول أرجح.

قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ بما في ذلك الصائمون، والمأسورون في سبيل الله.

قوله: ﴿أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: بغير تقدير. قال بعض السلف: كل أجر يكال كيلًا ويوزن وزنًا، إلا الصبر، لاسيما الصوم، فإنه يُحثا حَثْوًا، ويُغْرف غَرفًا، وقد جاء عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ». حديث حسن، رواه الترمذي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾

قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ أطباقٌ من نار جهنم، وتسميتها ظُللًا: تهكم بهم؛ لأنها محرقة، والظلةُ تقي من الحر.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ أي: يستمعون القرآن والسنة، فينكفون عن ما هو خلافهما، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم كذلك، فطالما سمعوا قبل الإسلام الخطب العربية البليغة، والأشعار الفصيحة الرنانة، فما هو إلا أن جاء القرآن، بحكمه وأحكامه، وحججه وبيانه، ففهموه، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وجعلوه الحكم الحاكم، وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام حين آتاه التوراة: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: أفأنت تنقذه؟ ما كان له ذلك، ولا لأحد من بعد الله، وقد سبق بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ ليست للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي، كقوله: ما رأيت زيدًا لكن عمرًا، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى، كقولك: جاءني زيد، لكن عمرًا لم يأت.

قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ».

قوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأدخله في الأرض وأسكنه فيها، كما قال تعالى: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

قوله: ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ جمع ينبوع، وهو يفْعُول، من نَبع ينبَع وينبُع وينبِع، بالرفع والنصب والخفض. والينبوع: عين الماء، والجمع: الينابيع، وقد مضى في سورة الإسراء.

قوله: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس بعد نضارته وشبابه، يقال: هاجت الأرض تَهيج، إذا أدبر نبتها وولّى، وكذلك: هاج النبت هِياجًا، أي: يَبِس، وأرض هائجة: يَبِس بَقْلها أو اصفر، وأهاجت الريح النبت: أيبسته، وأهيجنا الأرض، أي: وجدناها هائجة النبات، وهاج هائجه، أي: ثار غضبه، وهدأ هائجه، أي: سكنت فورته.

قوله: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي: بعد خضرته.

قوله: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فتاتًا مكسرًا، من تحطَّم العود، إذا تفتت من اليبس.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا تبدأ خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزًا قبيحة شوهاء، ولا يغتر الشاب بشبابه وعنفوانه فإنه كذلك يبدأ شابًا يافعًا ثمَّ يعود شيخًا هرمًا كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾

قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾، ومن علامات انشراح الصدر: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله.

قوله: ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن قبول ذكر الله، فـ ﴿مِّن﴾ بمعنى عن، قال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: القرآن، وسمي بذلك لأن الرسول ﷺ كان يحدث به أصحابه وأمته، كقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾.

قوله: ﴿كِتَٰبٗا﴾ بدل، أو حال من ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾.

قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾ أي: يشبه بعضه بعضها، ليس فيه تناقض ولا اختلاف.

قوله: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، ويكون تارة بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ إلى أن قال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ إلى أن قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، وليس هذا من المتشابه المذكور في آية سورة آل عمران، في قوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾؛ لأن المتشابه هنا إنما يقابله المحكم، وقد سبق بيان ذلك في محله.

قوله: ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ أي: تضطرب وتتحرك بالخوف، مما فيه من الوعيد وذكر النار، يقال: اقشعر جلد الرجل اقشعرارًا، فهو مقشعر، والجمع: قشاعر، فتحذف الميم؛ لأنّها زائدة، يقال: أخذته قشعريرة. قال الشاعر:

فَبِــــتُّ أكابـــــد ليـــــل التمــــــا م والقلـــب مِـــنْ خَشْـــيَةٍ مُقْشَـــعِرُّ

قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، فالتصدع قريب من الاقشعرار، والخشوع قريب من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: عند آيات الوعد والرحمة وذكر الجنة، تسكّن القلب وتطمئنه.

قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: غير مختلف ولا متضارب، لا لبس فيه ولا شك. قال الشاعر:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... مِنَ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ نصبت رجلًا؛ لأنه ترجمة للمثل وتفسير له، أو لأنه نصب بنزع الخافض، والتقدير: ضرب الله مثلًا برجل.

قوله: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مختلفون ومتعاسرون، من شكُس يَشكُس شُكْسًا، يقال: رجل شَكِسٌ، وشَرِسٌ، وضَرِسٌ، وضَبِسٌ، ويقال: ضَبِس وضَبيسٌ، أي: شَرِسٌ عَسِرشَكِيٌّ. والتشاكس: الاختلاف، يقال: تشاكست أحواله، ويقال: شاكسني فلان، أي: ماكسني وشاحّني في حقي، ويقال: رجل شَكْسٌ، بالتسكين، أي: صعب الخلُق.

قوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ قرئت: (سالمًا)، أي: خالصًا لسيد واحد، وهو مثل من يعبد الله وحده.

قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي من يخدم الجماعة، على اختلاف أخلاقهم، وتباين نياتِهم، فلا يلقاه أحدهم إلا استخدمه بما يحلو له، فهو بينهم متعب مرهق معذب مضطرب، ومن يخدم واحدًا لا ينازعه فيه أحد، وهو مع ذلك رحمن رحيم، غفور رحيم، شكور رؤوف، ودود لطيف، وهذه الآية ضربت مثلًا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهرًا بيِّنًا جليًا قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم.

قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قرأها ابن محيصن: (إنك مائت وإنّهم مائتون)، والسر في ذلك: حتى لا تختلف الأمة في موته، كما اختلفت الأمم في غيره، حتى إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أنكر موته، احتج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه الآية، كما جاء عند البخاري، وقد سبق ذكر ذلك في سورة آل عمران، وكذا ليعلم الرسول ﷺ، أن الله تعالى قد سوّى فيه بين خلقه، مع تفاضلهم وعلو مراتبهم؛ لتكثر السَّلْوة وتقل فيه الحسرة.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي: المؤمن والكافر، والظالم والمظلوم، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند صحيح عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُكَرَّرُ عَلَيْنَا الْخُصُومَةُ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: إِنَّ الأَمْرَ إِذًا لَشَدِيدٌ!».

وجاء عند أحمد بسند لا بأس به عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ».

وعند النسائي بسند جيد عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْتَصِمُ الشُّهَدَاءُ

وَالْمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرُشِهِمْ إِلَى رَبِّنَا فِي الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنَ الطَّاعُونِ: فَيَقُولُ الشُّهَدَاءُ: إِخْوَانُنَا قُتِلُوا كَمَا قُتِلْنَا! وَيَقُولُ الْمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرُشِهِمْ: إِخْوَانُنَا مَاتُوا عَلَى فُرُشِهِمْ كَمَا مُتْنَا! فَيَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى جِرَاحِهِمْ؛ فَإِنْ أَشْبَهَ جِرَاحُهُمْ جِرَاحَ الْمَقْتُولِينَ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ. فَإِذَا جِرَاحُهُمْ قَدْ أَشْبَهَتْ جِرَاحَهُمْ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالقرآن.

قوله: ﴿أَلَيْسَ﴾ استفهام تقرير.

قوله: ﴿مَثْوًى﴾ أي: مقام، وهو مشتق من ثَوَى يَثْوِي ثَواءً وثُويًا، مثل: مَضَى مَضَاءً ومُضِيًا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: محمد ﷺ، وهو مرفوع بالابتداء، وخبره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وعلى هذا فقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فله في ذلك النصيب الأوفر، والقدح المعلى، وقيل: ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾أي: كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل، وصدّق، وصَدَق في ما يقول ويدعو إليه، والقولان وجيهان، والقول الثاني أوجه، وقيل: ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾أي: جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: محمد ﷺ، وهو قول مرجوح، وهناك أقوال أخرى، لكنها ضعيفة.

قوله: ﴿بِكَافٍ﴾ حذفت الياء لسكونها وسكون التنوين بعدها، وكان الأصل ألا تحذف في الوقف؛ لزوال التنوين، إلا أنها حذفت ليعلم أنّها كذلك في الوصل، ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل، فيقول: كافي.

قوله: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ أي: محمدًا ﷺ، وقرئت: (عباده)، أي: الأنبياء عليهم السلام، ومن تبعهم من المؤمنين.

قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: يخوفونك شر الأصنام ومضرتها التي يدعونَها من دون الله جهلًا منهم وضلالًا، وهذه سنة الجهلة من الأولين والآخرين، وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ

أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ قرئت: (كاشفاتٌ ضرَّه)، أي: هذه الأصنام، فلا هي تكشف الضر.

قوله: ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ قرئت: (ممسكاتٌ رحمتَه)، أي: ولا هي تمسك الرحمة، وحذف التنوين كثير في كلام العرب، كما قال تعالى: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، وقال تعالى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾.

وقد جاء عند الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يومًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». وزاد أحمد بسند حسن: «تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ ... وَفِيْهَا: وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ أي: يقبضها عند فناء آجالها.

قوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: يقبضها عن التصرف والإدراك والحس، مع بقاء أرواحها في أجسادها.

قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ قرئت: (قُضِي عليه الموتُ)، أي: التي انقضى أجلها.

قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ أي: النائمة التي لم ينته أجلها، ويعيد لها الإحساس، وقيل: الآية فيها ذكر الوفاتين: الكبرى، وهي التي انتهى أجلها، والصغرى، التي هي النوم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾.

وعند البخاري من حديث حذيفة ﵁: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ (مِنَ اللَّيْلِ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ- وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ، ثُمَّ) يَقُولُ: اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا. وَإِذَا اسْتَيْقَظَ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَإِذَا أَصْبَحَ) قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

والقولان قويان، والأول أقوى؛ لما ثبت عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَاغْفِرْ لَهَا-، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ».

وقال بعض السلف: يقبض الله أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف، ويكون اجتماع أرواح المؤمنين في الملأ الأعلى.

واختلف الناس في هذه الآية، في النفس والروح، هل هما شيء واحد أو شيئان؟ قال ابن الأنباري، والزجاج، ويروى عن بعض السلف: في ابن آدم نفس وروح، بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه، وإذا مات الموتة الكبرى، قبض روحه ونفسه جميعًا.

وقد جاء عند البخاري وأصله متفق عليه، من حديث أبي قتادة ﵁ قال: «سِرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، (فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَوْ عَرَّسْتَ بِنَا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عَنِ الصَّلَاةِ. قَالَ بِلَالٌ: أَنَا أُوقِظُكُمْ. فَاضْطَجَعُوا، وَأَسْنَدَ بِلَالٌ ظَهْرَهُ إِلَى رَاحِلَتِهِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَالَ: يَا بِلَالُ، أَيْنَ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: مَا أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُهَا قَطُّ! قَالَ: إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ، يَا بِلَالُ، قُمْ فَأَذِّنْ بِالنَّاسِ بِالصَّلَاةِ. فَتَوَضَّأَ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ وَابْيَاضَّتْ قَامَ فَصَلَّى)».

ولمسلم من حديث أبي هريرة ﵁: «فَقَالَ بِلَالٌ: أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ -بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ- بِنَفْسِكَ».

ولا بد أن تعلم أن النفس شيء، وأن الروح شيء آخر، وإن كانا من مادة واحدة، فالنفس أخص، والروح أعم، وللتقريب: النفس هي فؤاد الروح، ويقال لها: الفؤاد الروحي، وكما أن الجسد له فؤاد، للروح فؤاد، قال ابن كثير رحمه الله: "قال السهيلي: الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبةٌ منها، ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه، لا من كل وجه. انتهى، قال ابن كثير وهذا معنى حسن". وجاء عن ابن عباس ﵄ عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، قال: في جوف الإنسان نفسٌ، وروحٌ، بينهما مثل شعاع الشمس، فيتوفى الله النفس في منامها، ويدع الروح في جوفه، تتقلب وتعيش، فإن أراد الله أن

يقبضه قبض الروح فمات، وإن أَخَّرَ أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه.

وإذا علم ما سبق، سهل أن يقال عُرِجَ توطئةً بفؤادِ رسول الله ﷺ الروحي يعني نفسه، ممثلة بجسده الطيني، وتعامل معه جبريل عليه السلام، كما يتعامل معه حين ينزل عليه الوحي في صلصلة الجرس، ويأخذه الغطيط، كما في حديث «حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ». متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها. فهو يَعِي ما يقوله جبريل، ويبصر ما يراه، ولكن في أجواءٍ خاصةٍ، غائبةٍ عن المحسوس، حتى بلغ به مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، بل حتى بلغ إلى مستوىً دنا للجبار فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فرأى من آيات ربه سبحانه بفؤاده، قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما كما عند مسلم: رآه بفؤاده مرتين. يعني مرة في السماء؛ حين عرج بفؤاده الروحي، ومرة في الأرض كما سنبينها لاحقًا.

وعند النسائي في الكبرى بإسناد صحيح، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟

وقد جزم كعب الأحبار، والزهري، وصاحبه معمر. قال إبراهيم بن طهمان: والله الذي لا إله إلا هو لقد رأى محمدٌ ﷺ ربه.

وقد روى الخلال في كتاب السنة عن المروزي، قلت لأحمد: إنهم يقولون: إن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية، فبأي شيء يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: رأيت ربي، وقول النبي ﷺ أكبر من قولها. قال صاحب الهدي: قال أحمد: رأى ربه بفؤاده، وما نقل عنه أنه رآه بعيني رأسه فالمقصود: الروحيتان، لا الطينيتان. وعلى هذا التأويل يعني العروج بفؤادِ رسول الله ﷺ الروحي يعني نفسه، ممثلة بجسده الطيني يحمل حديث أبي ذر رضي الله عنه: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ»، وفيه رؤية النبي ﷺ لآدم وعن يمنيه نسم بنيه، وكذلك رؤية الأنبياء، في غير منازلهم الحقيقية، كإبراهيم عليه السلام حين رآه في السماء السادسة، وكذا رؤية سدرة المنتهى في السماء السادسة.

ولاريب أن معراج الفؤاد لا يكون مجليًا للحقيقة من جميع الوجوه، وإنما هو مقاربٌ، ومجليًا للغالب، والغالب يعطى حكم الكل، وكذا حديث أنس رضي الله عنه الآخر: «جَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ...»، فإن كنت في شك من هذا! ما عليك إلا أن تتأمل حديث أنسٍ هذا حقَّ التأمل، قال أنس رضي الله عنه: «جَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ...وَفِيهِ: قَالَ: فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ».

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فلا شافع إلا من شفّعته.

قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حال، فإن قيل: ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ واحدة، و ﴿جَمِيعًا﴾ يكون للاثنين فصاعدًا، فالجواب أن

الشفاعة مصدر، والمصدر يؤدي عن الاثنين، والجميع.

قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: انقبضت ونفرت وأنكرت، استكبارًا وكفرًا وعصيانًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وأصل الاشمئزاز: النفور والازورار.

قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: آلهتهم وأصنامهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لعلها تذكر بخير أو بحمد، وهيهات، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قوله: ﴿فَاطِرَ﴾ منصوب؛ لأنه نداء مضاف، وكذا ﴿عَٰلِمَ﴾، ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتًا، وقد جاء عند مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وعند أبي داود، والترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ. قَالَ: قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ». وَفِي حَدِيثِ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنَحْوِهِ، وَفِيهِ: «وَأَنْ نَقْتَرِفَ سُوءًا عَلَى أَنْفُسِنَا أَوْ نَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ». حديث حسن رواه أبو داود.

قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: بدا لهم أعمال كانوا يتوهمون أنّها حسنات، فإذا هي سيئات، قال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، هذه آيتهم وقصتهم. وقد جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعًا شديدًا، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾، فأخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب. وقيل: ظهر لهم من العذاب والنكال، ما لم يكن في بالهم ولا في حسبانهم. والمعنيان صحيحان.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾

قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

قوله: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: الكلمة.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: الكفار قبلهم، كقارون حين قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

قوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ قيل: ﴿مَا﴾ للنفي، أي: لم تغن عنهم، وقيل: للاستفهام، أي: فما الذي أغنت أموالهم، والأول أرجح.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من هذه الأمة، لاسيما المشركون في عهد الرسول ﷺ، وهم المخاطبون بادئ الأمر.

قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ يجوز حذف الياء؛ لأن النداء موضع حذف.

قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: مهما بلغت ذنوبكم، وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»، وجاء بسند لا بأس به عند البزار من حديث أنس رضي الله عنه: «لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ: الْعَجبَ الْعَجبَ». وقد سبق بيان سبب نزول هذه الآية في سورة الفرقان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعض السلف: أعظم آية في كتاب الله: آية الكرسي، وقد جاء فيها حديث أبي بن كعب رضي الله عنه عند مسلم، وأجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، وإن أكثر آية في القرآن فرجًا، في سورة الزمر: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ يعني: قد أنزلت التوراة، والإنجيل، والزبور وغيرها من قبل، وهذا القرآن، أنزل بعدها، وهو أحسنها، فاعملوا بمحكمه، وكِلوا علم متشابه إلى عالمه،

وأنتم مأمورون باتباعه، إلى قيام الساعة.

قوله: ﴿أَن تَقُولَ﴾ أي: كراهة أن تقول، أو لئلا تقول، أو حذر أن تقول، وقيل: من قبل أن تقول، والقول الثاني أظهرها، والأخير وجيه؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ نُكِّرت للتكثير، ونظيره: رُب بلدٍ قطعت، ورب بطل قارعت، ولا يقصد إلا التكثير، والنفس تقع على الذكر والأنثى، يقال: ثلاثة أنفس، وتقول العرب: نفس واحد، أي: إنسان واحد.

قوله: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ الأصل فيها: يا حسرتي، فأبدل من الياء ألف؛ لأنّها أخف وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بِها الهاء، وربما ألحقوا بِها الياء، بعد الألف لتدل على الإضافة: يا حسرتاي، والحسرة: الندامة.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: تركت وضيعت.

قوله: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اتباع شرعه، والتزام صراطه المستقيم، والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء: جنبًا، تقول: تجرعت في جنبك غصصًا، أي: لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك، أو في أمره، والمعنى: فيما تركت وضيعت من أمر الله. قال الشاعر:

أَلَا تَتَّقِــينَ اللهَ فِــي جَنْــبِ عَاشِــقٍ ... لَــهُ كَبِــدٌ حَــرَّى عَلَيْــكِ تَقَطَّــعُ

أي: في أمر عاشق، أو في ذكره، كما جاء عند أبي داود بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً». وفي رواية بسند حسن عند أبي داود: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ، وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لا يَذْكُرُ اللهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ». وصححه الترمذي، وزاد: «وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ»، وفيه: «فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ».

قوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ قال بعض السلف: لم يكفه أن ضيع أمر الله، حتى سخر من الشريعة وأهلها، ومحل ﴿وَإِن كُنتُ﴾: منصوب على الحال، كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أو في حال سخريتي، وقيل: ما كنت إلا في سخرية ولعب وباطل؛ لأنه لغير الله، والكل حاصل.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: لاهتديت، وهو قريب من مقولة المشركين: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، فهي كلمة حق أريد بِها باطل، وقد قدّمنا بيان ذلك، والرد على هذه الشبهة في آيات سابقة، ومواضع متعددة.

قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رجعة.

قوله: ﴿فَأَكُونَ﴾ منصوب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفًا على ﴿كَرَّةً﴾، لأن معناه: أن أكر، كما قالت امرأة معاوية بن أبي سفيان وكانت بدوية لم تعجبها دمشق:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

أي: لأن ألبس عباءة وتقر، والشفوف: الملابس الناعمة الرقيقة.

قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ أي: بلى قد بُيِّنَ لك طريق الهدى، فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن.

قوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: جهنم كافية سجنا لهم، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». أي: رد الحق، واستحقار الناس.

وعند الترمذي بسند حسن من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ».

قوله: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ مفرد على المصدر، أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله.

قوله: ﴿مَقَالِيدُ﴾ واحدها: مِقليد، وقيل: مِقلاد، وأكثر ما يستعمل فيه: إِقليد، والمقاليد: المفاتيح، وقيل: الخزائن، والأول أظهر، يقال: أقلد البحر على خلق كثير، أي: غرّقهم، كأنه أغلق عليهم. وفيه لغة أخرى: أقاليد، واحدها: إقليد، وقيل: ﴿مَقَالِيدُ﴾ أي: طاعة من في السماوات والأرض، يقال: ألقى إلي فلان بالمقاليد، أي: أطاعه فيما أمر.

قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ نصبت غير إما بـ ﴿أَعْبُدُ﴾، أو ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ على حذف الجر، والتقدير: أتأمروني بغير الله أن أعبده، أي: أتأمرونّي بعبادة غير الله.

قوله: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ قرئت: (تأمُرُوني)، وقرئت: (تأمرونني).

قوله: ﴿أَعۡبُدُ﴾ أي: أن أعبد، فلما حذف أن، رفع.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ﴾. والإحباط: الإبطال والفساد، فمثلًا: من حجّ ثم ارتد أو أشرك، ثم عاد إلى الإسلام، فإنه يجب عليه إعادة الحج، وهذا مذهب مالك، وهو الصحيح، وذهب الشافعي إلى خلافه، فلم يوجب عليه إعادة الحج.

قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لفظ الجلالة منصوب بـ ﴿ٱعۡبُدۡ﴾، قال النحاس: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين، وقال الفراء: منصوب بإضمار فعل، والفاء صلة للمجازاة، وقيل: بل الله فوحِّد.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ أي: ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظّموه حقَّ تعظيمه.

قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود ﵁ قال:«جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ-، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَعَلَ اللهُ- السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَالْأَنْهَارَ) عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ-، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَا الْمَلِكُ-. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: تَعَجُّبًا وَ-تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾».

وعند مسلم من حديث عائشة ﵂ قالت: «فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: عَلَى الصِّرَاطِ». وفي رواية عند الترمذي: «عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ». وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟».

وعند مسلم عن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْخُذُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- أَنَا الْمَلِكُ! حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟» وفي رواية: «يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ

يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

وفي هذه الآية، إثبات القبض لله عز وجل، والطيّ، والإمساك، والبسط، وإثبات اليدين، والأصابع، وإثبات مخاطبته لأهل الموقف، بكلام يسمعونه ويعرفونه بلفظ وصوت، والطريق في إثبات ما سبق وأمثالها سهل، والخطب فيها يسير: تُمَرّ كما جاءت، مع إثبات المعنى، ولكن من غير تكييف، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل. فلا داعي للتكلف عند مرور أمثال هذه الآيات، وربما نزلت منزلة الألغاز، التي تحتاج إلى تقصٍّ لمعاني اللغة وغرائبها وشواذها، فيا ليت شعري ما مصير العامة في نظر هؤلاء المتكلفين؟ وقد عاشوا، وماتوا، ولم يعرفوا غرائب اللغة وشواذها، كما عرفها الزمخشري، والقرطبي، وأمثالهم، غفر الله لهم، فالحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان، والحمد لله على القرآن، والاهتداء بسنة سيد الأنام، والحمد لله على الالتزام بسيرة السلف الصالح والدعوة إليها، نسأل الله سبحانه، الثبات على ذلك حتى نلقاه، غير فاتنين، ولا مفتونين، ولا ضالين ولا مضلين، ولا مبتدعين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ٧٤﴾

قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة، إذا تجلى الحق جل وعلا لفصل القضاء بين الخلائق، يقال: أشرقت الشمس، إذا أضاءت، وشَرَقت، إذا طلعت. وقد جاء عند مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ. وفي رواية: النَّارُ». وعند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه حين سأله: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ. وفي رواية: رَأَيْتُ نُورًا». فهو سبحانه كما قال عن نفسه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهو نور، وحجابه نور، وكتابه نور، وأمره ونهيه نور، ورسوله ﷺ نور، ومنه كل نور.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما: «أَنَّ أُنَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ. وَفِي رِوَايَةٍ:

فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا». أي: لا يلحقكم ضير ولا يخالف بعضكم بعضًا، يقال: ضارّه مضارّة وضرارًا، أي: خالفه، وفي لفظ: «لا تُضَامُونَ» أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه.

قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قيل: اللوح المحفوظ، وقيل: الكتاب الذي فيه أعمال بني آدم، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله، والقول الثاني هو الظاهر.

قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليسألوا عما أجابتهم به أممهم، قال تعالى: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قيل: الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وقيل: الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله، وقيل: هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالسائق: الذي يسوقها، والشهيد يشهد عليها، وهو الملك الموكل بالإنسان، وكل الأقوال محتملة، لكن القول الثاني أقربهن، وهو الذي تشهد له ظواهر النصوص من القرآن والسنة، وقد جاءت لفظة شهيد، وشهداء عشرات المرات في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وقد أجمع العلماء، على أنّها فيمن قتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا.

قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل.

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا، ولا حاجة إلى كتاب، ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب، ويشهد الشهداء؛ إلزامًا للحجة، وتحقيقًا للعدل.

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ سوقًا عنيفًا، بزجر وتَهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، أي: دفعًا، هذا وهم عطاش ظماء، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾، وصم وبكم وعمي، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي: جماعات متفرقة، بعضها إثر بعض، واحدتُها: زمرة، كظلمة، وغُرفة.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ السبعة، كما مضى في سورة الحجر، بمجرد وصولهم تفتح سريعًا؛ لتعجل لهم العقوبة.

قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهم: خازن، وهم الزبانية، غلاظ الأخلاق، شداد القوى.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ استفهام على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. وهنا قالوا: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ لم يسند هذا القول إلى قائل معين، وإنما هو مطلق؛ ليدل على أن الكون كله شاهد عليهم، فكل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنّهم مستحقون للعذاب.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين، لا خروج لكم منها، ولا مفر لكم عنها.

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فالأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع الصديقين، والشهداء مع الشهداء، والعلماء مع العلماء، وكل صنف مع صنف يناسبهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتصت منهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ثبت هذا عند البخاري، وقد سبق ذكره.

قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ حذف الجواب، وهو قوله: سعدوا، وما بعده من بليغ الكلام عند العرب، وقيل: وجود الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا؛ لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاءوها وأبوابُها مفتحة، بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾، وحذف الواو في قصة أهل النار، لأنّهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم؛ إذلالًا وترويعًا لهم، والصواب: القول الأول.

أما أبواب الجنة:

فأولًا: البوابة الكبرى.

قال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ». رواه مسلم.

وعليها يتنزل حديث عتبة بن غزوان: «وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ». رواه مسلم.

ثانيًا: الباب الأيمن والأبواب اليسرى للداخل.

فالباب الأيمن قال فيه ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ». وقال في عرضه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ

الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». متفق عليه.

وأهله هم الذين قال النبي ﷺ فيهم في حديث سهل رضي الله عنه: «مُتَمَاسِكُونَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». متفق عليه.

والأبواب اليسرى قال فيها ﷺ: «وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ». وعرضها: قال عُتبة بنُ غزوان: «وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً». رواه مسلم.

وأهلها: هم سائر الناس غير هؤلاء، وكذلك المؤمنين من سائر الأمم.

وقال ﷺ فيهم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ». متفق عليه.

ويتقدم هؤلاء مِن الأمة المحمدية مَن ذكرهم النبي ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ». رواه الحاكم وصححه المنذري.

ثالثًا: الأبواب الثمانية، وهي: (باب الصلاة، باب الجهاد، باب الريان، باب الصيام، باب التوبة، باب الوالد، باب الصدقة، باب الأم).

قال ﷺ في حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما: «فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ، لاَ يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ». متفق عليه.

قال ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «لِلجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، سَبْعَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَبَابٌ مَفْتُوحٌ لِلتَّوْبَةِ». رواه الحاكم بسند جيد.

قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

وقال ﷺ في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «عَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يُذْهِبُ اللهُ بِهِ الْهَمَّ وَالْغَمَّ». حديث صحيح رواه أحمد.

وفي رواية عند البخاري: «وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرَّيَّانِ».

قال ﷺ في حديث عبادة رضي الله عنه: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ

اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ، -وفي رواية- مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ». متفق عليه.

قال ﷺ في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ-، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». رواه مسلم.

قال ﷺ في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شِئْتِ». حديث حسن، رواه أحمد.

قال ﷺ في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ». حديث صحيح رواه الترمذي.

قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ أَبَوَانِ، فَيُصْبِحُ مُحْسِنٌ إِلَيْهِمَا إِلَّا فُتِحَ لَهُ بَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَا يُمْسِي مُحْسِنٌ إِلَيْهِمَا إِلَّا فُتِحَ لَهُ بَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَا سَخِطَ عَلَيْهِ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فَرَضِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ حَتَّى يَرْضَى». حديث حسن، رواه ابن أبي شيبة.

وبهذا يتبين أن الأبواب الثمانية قد سُمِّيت بأسماء الطاعات، فيدخلونها بأجسادهم وأرواحهم، وقد كانوا دخلوها قبل في القيامة الأولى (البرزخ) بأرواحهم.

قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ كما قالوا في آية أخرى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، وقالوا في آية ثالثة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

قوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: أرض الجنة، وقيل: أورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين، وقيل: أرض الدنيا، على التقديم والتأخير، والصحيح: القول الأول، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ولهذا قال سبحانه عنهم هنا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقد أخبر رسول الله ﷺ حين سئل عن تربتها فيما رواه مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: «دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ، مِسْكٌ خَالِصٌ». وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ».

قوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: قال أهل الجنة ذلك، وقيل: هو من قول الله تعالى، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله: ﴿وَتَرَى﴾ أي: يا محمد.

قوله: ﴿حَآفِّينَ﴾ أي: محدقين، والحافون أخذ من حافات الشيء ونواحيه، واحدهم: حافّ، وقيل: لا واحد له.

قوله: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ من صلة للتوكيد، كما تقول: ما جاءني من أحد، والتقدير: حافين حول العرش، أي: في ذلك اليوم الرهيب والموقف العصيب، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ متلذذين بذلك، شكرًا وحمدًا وتقديسًا وتنْزيهًا، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل، والعرب تدخل الباء أحيانًا في التسبيح، وتحذفها أحيانًا، فيقولون: سبح بحمد ربك، وسبح حمدًا لله، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بين الخلائق، جنهم وإنسهم، مسلمهم وكافرهم، ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله: ﴿وَقِيلَ﴾ لم يسند القول إلى قائل؛ دلالة على نطق الكون بأجمعه، ناطقه وبَهيمه، علويِّه وسفليِّه، ملائكته وإنسه وجنه، قائلًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال بعض السلف: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، واختتم الخلق بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

انتهى تفسير سورة الزمر، ولله الحمد.

  

سورة غافر

وتسمى سورة المؤمن، وهي مكية، إلا آية أو آيتين، جاء عند أبي داود بسند حسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ، حم لا يُنْصَرُونَ». أي: إن قلتم ذلك يهزمون ولا ينصرون، ويقال لها مع أخواتها: آل حاميم، قال الفرّاء: كقولك: آل فلان، وآل فلان، يعني قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

وقد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: الحواميم، وإنما يقال: آل حاميم، قال أبو عبيد: فأما قول العامة: الحواميم فليس من كلام العرب. وقال أبو عبيدة: الحواميم سور في القرآن على غير قياس. وأنشد:

وَبِالطَّوَاسِينِ الَّتِي قَدْ ثُلِّثَتْ ... وبِالْحَوَامِيمِ اللَّوَاتِي سُبِّعَتْ

والجمع: ذوات حم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾

قوله: ﴿حمٓ﴾ هي كما سبق من فواتح السور، وهو الراجح والصواب، وتُقرأ ساكنة الحروف، وتخرج مخرج التهجي، وإذا سميت سورة بشيء من هذه الحروف أعربت، فتقول: قرأت حمَ، فتنصب. وقيل معناها: قضي ووقع. وقيل: قرب أمر الله. قال الشاعر:

قَدْ حُمَّ يومي فَسُرَّ قَومٌ ... قَومٌ بهم غفلةٌ ونوم

وقرئت بالإمالة في الحاء.

قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يجوز أن يكونا نعتين، أو بدل، و ﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبًا، ويحتمل أن يكون جمع توبة، نحو: دَوْمة ودَوْم، وعَزْمة وعزْم. ومنه قول الشاعر:

وكنا كالحريق أصاب غابا ... فيخبو ساعة ويهُبُّ ساعا

ويجوز أن يكون ﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ بمعنى التوبة.

قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ مخفوض على البدل.

قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ مخفوض على البدل وعلى النعت؛ لأنه معرفة، أي: ذي الإنعام والتفضل والسعة والغنى والمن والخير الكثير، يقال: اللهم طُل علينا، أي: أنعم وتفضل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾ أي: غنى وسعة، ويقال: طال عليه، وتطوّل عليه، إذا امتن عليه، وقد قيل: المن: العفو عن الذنب، والتفضل: إحسان غير مستحق، والطول مأخوذ من الطُّول، كأنه طال بإنعامه على غيره، وقيل: لطول مدة إنعامه.

قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يطعن فيها باطلًا، ويقصد إدحاض الحق، وإطفاء نور الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾.

قوله: ﴿لِيَأۡخُذُوهُ﴾ أي: ليحبسوه ويعذبوه، أو ليقتلوه، والأخذ يرد بمعنى الإهلاك، كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، والعرب تسمي الأسير: الأخيذ؛ لأنه مأسور للقتل.

قوله: ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ أي: ليزيلوا، ومنه: مكان دحض، أي: مزلقة، والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزل، فلا يستقر، وقد جاء عند الطبراني بإسناد لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعَانَ بَاطِلًا لِيَدْحَض بباطله حَقًّا فَقَد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّة اللهِ، وذِمَّةُ رَسُولِه ﷺ».

قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: أليس وجوده حقًا.

قوله: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ﴾ أي: وجبت ولزمت، مأخوذ من الحق؛ لأنه اللازم، وقرئت: (كلمات).

قوله: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ هنا وقف لازم، أي: لأنّهم، أو بأنّهم. قال الزجاج: ويجوز إنّهم، بكسر الهمزة.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ جاء عند أبي داود بسند جيد عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ». وعند أبي يعلى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ السَّابِعَةَ، وَالْعَرْشُ عَلَى مَنْكِبِهِ، يَقُولُ: سُبْحَانَكَ أَيْنَ كُنْتَ، وَأَيْنَ تَكُونُ!».

قوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يسألون لهم المغفرة، قال مطرف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله: الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله: الشيطان، ثم تلا هذه الآية، وقال سليم بن عيسى: ما أكرم المؤمن على الله، نائمًا على فراشه، والملائكة يستغفرون له.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ إِنَّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ
أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ
كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ
يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ
لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: ما يسوؤهم من عذاب السيئات التي وقعت منهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ أي: يوم القيامة، وهم في نار جهنم، يقال لهم: لَمَقْتُ اللهِ إياكم في الدنيا حين كان يعرض عليكم الإيمان فتكفرون ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: مقت بعضكم بعضًا الآن، لأن بعضهم عادى بعضًا ومقته ولعنه، بل عادى كل واحد منهم نفسه، التي بين جنبيه ومقتها ولعنها؛ لأنّهم علموا أنّها هي التي أوبقتهم في المعاصي، وأوردتْهم العطب والهلاك.

قوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقد سبق بيان ذلك في سورة البقرة.

قوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم.

قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هلى نرد للدنيا لنعمل بطاعتك، كقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: العذاب الذي أنتم فيه، إنما هو بكفركم في حياتكم الدنيا، وقد كان حالكم ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ وقيل: هكذا تكونون وإن رددتم إلى دار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه: «كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ».

قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: لا شيء أرفع منه سبحانه، فهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وهو على العرش استوى.

قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي والنبوة، وسمي بذلك؛ لأن الناس يحيون بها من موت الكفر، كما

تحيا الأبدان بالأرواح، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياء، وقد شاء أن يكونوا رسله وأنبياءه إلى خلقه، وليس لأحد فيهم مشيئة، كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾.

قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: يوم يلتقي أهل السموات وأهل الأرض، والجن والإنس والملائكة، والكل على صعيد واحد؛ ليلقى كل إنسان جزاء عمله.

قوله: ﴿بَٰرِزُونَ﴾ أي: خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء، ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ فالجميع في علمه سواء.

قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: عند فناء الخلق، فهو سبحانه السائل وهو المجيب؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم، وقد سبق: «يَطْوِي اللهُ عز وجل السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠ ۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٢ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: لا يحتاج إلى تفكر وتعداد كما يفعله الْحُسَّاب؛ لأنه العالم بالصغير والكبير، والظاهر والباطن، والقليل والكثير، ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة، سميت بذلك لأنها قريبة، يقال: أَزِفَ فلان، أي: قرب، يأزَف أَزَفًا. قال الشاعر:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ

أي: قرب، ونظيرها: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، أي: قربت الساعة. قال الشاعر:

أَزِفَ الرَّحِيــلُ وَلَــيْسَ لِــي مِــنْ زَادِ غَيْــرِ الــذُّنُوبِ لِشِــقْوَتِي وَنَكَــادِي

وأضيف ﴿يَوۡمَ﴾ إلى ﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نفسه، مثل: مسجد الجامع، وصلاة الأولى.

قوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ من المخافة، فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها، وهو نِهاية الخوف والجزع، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾.

قوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه.

قوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي: الومض واللحظ والغمز أو الرمز بالعين، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ آمَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ -وَسَمَّاهُمْ-، وَابْنَ أَبِي سَرْحٍ ... ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، قَالَ: وَأَمَّا ابْنُ أَبِي سَرْحٍ فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، بَايِعْ عَبْدَ اللهِ! فَرَفَعَ رَاسَهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ -ثَلَاثًا-، كُلُّ ذَلِكَ يَابَى عَلَيْهِ، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ، يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ؛ فَيَقْتُلَهُ؟ فَقَالُوا: مَا نَدْرِي يَا رَسُولَ اللهِ مَا فِي نَفْسِكَ! أَلَا أَوْمَاتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ».

قوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ أي: من الوسوسة والخواطر.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وهذا أمر بعد أمر، وكان أول الأمر احترازًا من ولادة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأما هنا فأراد من قتل الأبناء تقليل عدوهم، وللاحتراز من وجود موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولإذلال الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

قوله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، وكأن يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه، فإنه لا حقيقة له، وأنا ربكم الأعلى.

قوله: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ أي: عبادتكم لي، إلى عبادة ربه، فصار ناصحًا واعظًا مشفقًا على الناس، وفي الْمَثَل: صار فرعون مذكرًا! وما أشبه الليلة بالبارحة، لقد تنوعت الفراعنة، ولكن المنبت والهدف والأسلوب والمراوغة واحدة، وما عليك إلا أن تفتح عينك، لتبصر فراعنة اليوم، وقد جثمت على صدور الشعوب، فبدلت شريعة الله، وحكّمت غير ما أنزل الله، وآذت وعذبت أولياء الله، فلله الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ قرئت: (أو أن يَظْهَرَ في الأرض الفسادُ)، والمعنى: إن لم يبدل دينكم، فإنه يظهر في الأرض الفساد، أو كلاهما.

قوله: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: قبطيّ، إذ لو كان إسرائيليًا، لأوشك أن يعاجله بالعقوبة.

قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: من أجل أن يقول، أو لأن يقول، فـ ﴿أَن﴾ في موضع نصب بنزع الخافض، فأخذت الرجل، غضبة لله عز وجل، وقد ثبت قوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» وفي رواية: «أَمِيرٍ جَائِرٍ». رواه أبو داود. وعند البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الآيَة».

قوله: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولم يكن ذلك بشك في رسالته وصدقه، ولكن تلطفًا في الاستكفاف، واستنزالًا عن الأذى، وحذفت النون في ﴿وَإِن يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، ولو أثبتت لجاز ذلك، وقيل: حذفت لأنّها نون الإعراب.

قوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ أي: إن أصابكم بعض الذي يعدكم هلكتم، فكيف إن أصابكم كل الذي وعدكم؟ وقيل: معنى ﴿بَعۡضُ﴾: كل فبعض بمعنى كل، وهذا يرد تلطفًا في الخطاب، وتوسعًا في الكلام. قال الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مع المتعجل الزَّلَلُ

قوله: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ أي: على نفسه في عناده.

قوله: ﴿كَذَّابٞ﴾ على ربه في ادعائه وزعمه، وموسى عليه السلام كما ترون، ليس كذلك، فأمره سديد، ومنهجه مستقيم، ولو كان من المسرفين الكذابين، لما هداه الله إلى ما ترون من التوفيق والصلاح.

والمراد: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه؛ لأنه إن يك كاذبًا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم ما توعدكم به إن خالفتموه في الدنيا والآخرة، والأحرى والأجدر بكم أن تتركوه وقومه.

وقد أخبر الله عز وجل عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾.

قوله: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غالبين، منصوب على الحال، أي: في حال ظهوركم.

قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر.

قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، وقد كذب، فإنه كان متحققًا من صدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: في تكذيب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإيمان بي، ولقد كذب قبحه الله، قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

قوله: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: أيام العذاب، التي عُذب فيها المتحزبون على الأنبياء.

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قرئت بإثبات الياء في الوصل والوقف: (التنادي). أي: يوم القيامة. قال أمية بن أبي الصلت:

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا ... فَهُمْ سُكَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِ

وسمي بذلك، لمناداة الناس بعضهم بعضًا، فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، وينادي أصحاب الأعراف رجالًا يعرفونَهم بسيماهم، وينادي الملائكة أصحاب الجنة: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وينادى كل قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾، فلا أحد يستجيب لنداء أحد، وآخر التناد نداء الكفار في النار، بالويل والثبور والحسرة.

قوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: هاربين ينادي بعضكم بعضًا، وذلك عندما تتزلزل الأرض، وتنشق السماء، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾. وقال تعالى هنا: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ

عَاصِمٍ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ أي: يا أهل مصر، وهو قول مؤمن آل فرعون.

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ يئستم. وقوله: ﴿قُلْتُمْ﴾ يعني أسلافكم ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم.

قوله: ﴿مُسْرِفٌ﴾ أي: مشرك.

قوله: ﴿مُّرْتَابٌ﴾ أي: شاك في وحدانية الله تعالى.

قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ قيل: هو من كلام مؤمن آل فرعون، وقيل: ابتداء خطاب من الله، أي: كبر جدالهم مقتًا، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين، فكذلك ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ حتى لا يعقل الرشاد، ولا يقبل الحق، والمعنى: يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلبًا قلبًا. وقرئت: (قلبٍ) بالتنوين، ويكون ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ نعتًا.

قوله: ﴿صَرْحًا﴾ أي: قصرًا عاليًا، وبناءً شامخًا.

قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي أبوابها وطرقها. قال الشاعر:

وَمَــنْ هَــابَ أَسْــبَابَ الْمَنِيَّــةِ يَلْقَهَــا وَلَــوْ رَامَ أَسْــبَابَ السَّــمَاءِ بِسُــلَّمِ

قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قرئت: (فأطلعُ) بالرفع نسقًا على قوله: ﴿أَبْلُغُ﴾، أما النصب فعلى جواب لعل بالفاء، قال النحاس: ومعنى النصب، خلاف معنى الرفع؛ لأن معنى النصب: متى بلغت الأسباب اطلعت، ومعنى الرفع: لعلي أبلغ الأسباب، ثم لَعَلِّي أطلع بعد ذلك، إلا أن ثم أشد تراخيًا من

الفاء.

قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي: في ادعائه إلهًا دوني.

قوله: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قرئت: (وصَدَّ عن السبيل) أي: صد الناس عن الإيمان الحق والاستسلام لرب العالمين.

قوله: ﴿تَبَابٍ﴾ أي: خسران وضلال، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾، وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ أي: اقتدوا بي في متابعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والإيمان به، وقرئت: (اتبعوني) بإثبات الياء وصلًا ووقفًا، وقرئت بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل، وقرئت بحذفها في الوصل والوقف، وقد وقعت في المصحف بغير ياء، ومن أثبتها فعلى الأصل.

قوله: ﴿هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: الاستقرار والخلود.

قوله: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ قرئت: (يُدخلون الجنة).

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ۝٤٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩﴾

قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: ليس له استجابة دعوة تنفع، وليس له ما يوجب له الألوهية.

قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله، وأسلم أمري إليه، وأستعينه في مقاطعتكم والابتعاد عنكم.

قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: طلبوه ليقتلوه، فما وجدوه، وقد لحق بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ ففي الدنيا: أغرقوا، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

أَنصَارًا﴾، وفي البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾، و﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، فعذابُهم في الدنيا كان موصولًا بعذاب القبر، ثم بعذاب الآخرة. يقال: حاق يَحيق حَيْقًا وحُيُوقًا، إذا نزل ولزم.

قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ إما مرفوعة على البدل من ﴿سُوٓءُ﴾، أو مرفوعة بالابتداء، والأول أظهر. وفي هذه الآية إثبات عذاب القبر، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قال الفراء في الغداة والعشي: بمقادير ذلك في الدنيا. والأحاديث النبوية في إثبات عذاب القبر أكثر من أن تحصر، وعذاب القبر على الأرواح، والأجساد تبعٌ لذلك، كما أن عذاب الدنيا على الأجساد، والأرواح تبع لذلك.

قوله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ﴾ قرئت: (ادخُلُوا) بوصل الألف وضم الخاء، أي: يقال لهم: ادخلوا يا ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.

قوله: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم.

قوله: ﴿تَبَعًا﴾ يكون واحدًا، ويكون جمعًا، واحده: تابِع، عند البصريين، وعند الكوفيين: جمع لا واحد له، كالمصدر، فلذلك لم يجمع، ولو جمع لقيل: أتباع.

قوله: ﴿مُّغۡنُونَ﴾ أي: متحملون.

قوله: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ أي: في جهنم، و ﴿كُلّٞ﴾ مرفوعة بالابتداء.

قوله: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: جمع خازن، ويقال: خُزّان، وخُزَّن.

قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ﴿يُخَفِّفۡ﴾ جواب مجزوم، وإن كان بالفاء كان منصوبًا، إلا أن الأكثر في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء، وعلى هذا جاء القرآن، بأفصح اللغات. ونداء أهل النار لخزنة جهنم، حين علموا أن الله عز وجل لا يستجيب لهم، ولا يسمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فسألوا الخرنة، وهم السجّانون.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٤ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا

يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ذهاب، لا يقبل ولا يستجاب.

قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ أي: ننتصر لهم ممن آذاهم، سواء كان بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ».

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يوم القيامة، حيث يقف الشهود وهم الملائكة، والنبيون، والمؤمنون ليؤدوا شهاداتهم، فيشهدون للرسل بالتبليغ، ويشهدون للمؤمنين بالإيمان، ويشهدون على الكفار بالكفر والتكذيب، و (الأَشْهَادُ) جمع شهيد، أو شاهد، وقد جاء عند الترمذي وحسنه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وجاء من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه كما جاء عند أبي داود بسند لا بأس به قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ».

قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لن ينفع المجرمين اعتذارهم عن جرائمهم التي ارتكبوها ضد المؤمنين في الدنيا، ولن يُقبل منهم ذلك الاعتذار، ولن تدفع عنهم العذاب.

قوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: واستحقوا الطردُ من رحمة الله.

قوله: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: ولهم الخلود في جهنم، وهو أسوأ مرجع ومصير.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: التوراة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنا التوراة لبني إسرائيل ميراثًا، يتوارثونها من بعد موسى ويهتدون بها، وجعلنا لهم العاقبة، كما أورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا.

قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: في صدورهم عظمة، فإن اتبعوا النبي ﷺ قل ارتفاعهم وزالت عظمتهم، وإنهم إنما يبلغون العظمة إذا لم يكونوا تبعًا، فأخبرهم الله عز وجل بأنهم ما هم ببالغيها. وقيل: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل، ببالغ وحاصل لهم، بل الحق مرفوع، والباطل موضوع، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾
* قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ في لفظة (لآتِيَةٌ) دخلت لام التأكيد في خبر إن، وسبيلها أن تكون في أول الكلام؛ لأنّها توكيد الجملة، إلا أنّها تُزحلق عن موضعها، تقول: إن عمرًا لخارج، وإنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها وبين ﴿إِنَّ﴾؛ لأنّهما يؤديان عن معنى واحد، وكذا لا يجمع بين إنّ وأنّ عند البصريين، وأجاز هشام: إنّ أنّ زيدًا منطلق حق، فإن حذفت حقًا لم يجز عند أحد من النحويين، قاله النحاس.

قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ جاء عند أبي داود بسند صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثم قرأ هذه الآية.

وعند الترمذي، والبزار بسند حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ».

وعند أبي داود والحاكم بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ». قال الشاعر:

اللهُ يَغْضَبُ إنْ تركْتَ سُؤَالهُ ... وَبُنَيُّ آدمَ حِينَ يُسألُ يَغْضَبُ

وعند الترمذي بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ». وعند أبي يعلى بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ يَبْخَلُ بِالسَّلامِ، وأَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجِزَ عَنِ الدُّعَاءِ».

ويستحب الإكثار من الدعاء، فعند أبي داود، والترمذي بسند صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ! قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ».

وعند أبي داود بسند لا بأس به من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللهِ بِالدُّعَاءِ».

وعند أحمد بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصِبُ

وَجْهَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَسْأَلَةٍ إِلا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَهَا لَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ».

وعند أبي داود والترمذي بسند حسن عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلا أُبَالِي».

وعند الترمذي بسند جيد عن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ».

ويتأكد الدعاء في الرخاء، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ».

وعن محمد بن مسلمة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا». حديث حسن، رواه الطبراني.

قوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أذلاء صاغرين مهانين.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تُصرفون عن الإيمان، بعد أن تبينت لكم دلائله.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أي: كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه، كذلك يصرف عن الحق ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قوله: ﴿قَرَارًا﴾ أي: مستقرًا لكم في حياتكم، كما أنّها مستقر لكم بعد موتكم، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا محفوظًا، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم.

قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: في أحسن صورة، قال الجوهري: والصِّور بكسر الصاد لغة في الصُّور، جمع صورة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ

﴿ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾

قوله: ﴿شُيُوخًا﴾ نحو: قلب وقُلُوب، ورأس ورؤوس، وقرئت: (شِيوخًا) لمراعاة الياء، وكلاهما جمع كثرة، وفي العدد القليل: أشياخ، والأصل: أَشْيُخ، مثل: فلس وأفلُس، إلا أن الحركة في الياء ثقيلة. وفي الصحاح: جمع الشيخ: شُيوخ، وأشياخ، وشِيخة، وشِيخان، ومَشْيخة، ومشايخ، ومَشْيوخاء، والمرأة: شَيْخة. وقد شاخ الرجلُ يَشِيخ شَيَخًا، بالتحريك، وشُيْخُوخة، وأصل الياء متحركة، فسكنت، وشَيَّخ تَشْييخًا، أي: شاخ تشييخًا، وشَيَّخْته: دعوته شيخًا للتبجيل، وتصغير الشيخ: شُيَيخ، وشِيَيخ، بكسر الشين، ولا تقل: شويخ، قال النحاس: وإن اضطر شاعر جاز أن يقول: أشيخ، مثل: عين أعين، إلا أنه حسن في عين؛ لأنّها مؤنثة. والشيخ: من جاوز أربعين سنة.

قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يكون شيخًا، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطًا، والكل وارد.

قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ اللام لام العاقبة.

قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ أي: الأغلال في أعناقهم، والسلاسل متصلة بِها، وهي في أيدي الزبانية، يسحبونَهم على وجوههم، تارة إلى الحميم للشرب، وتارة إلى الجحيم.

قوله: ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يطرحون فيها ليكونوا وقودًا لها، يقال: سجرت التنور، أي: أوقدته، وسجرته: ملأته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء، وعند الشيخين في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه الطويل، حين تخلف عن غزوة تبوك، قال حين قرأ الكتاب الذي جاءه من ملك غسان يدعوه ويقول: «الْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ! فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا».

قوله: ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب، من ضل الماء في اللبن، أي: خفي، وقد سبق هذا المعنى.

قوله: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ هذا اعتراف منهم بأن عبادتَهم للأصنام في الدنيا كانت باطلة، وقيل: إنكار لعبادة الأصنام، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، والقول الثاني أظهر.

قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، إضافة إلى ما عندهم من المال والأتباع والصحة وانفتاح الدنيا لهم.

قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تبطرون وتأشرون.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين يتبعون الباطل والشرك.

قوله: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: الأنعام، الخيل والبغال والحمير، تحملون عليها في البر.

قوله: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ أي: في البحر.

قوله: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ نصبت ﴿أَيَّ﴾ بـ ﴿تُنكِرُونَ﴾؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا يعمل فيه ما قبله، ولو كان مع الفعل هاء، لكان الاختيار في ﴿أَيَّ﴾: الرفع، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء، لكان الاختيار: النصب. والمقصود: إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله، فلم تنكرون قدرته على البعث والنشور؟.

قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ﴾ لم ينصرف؛ لأنه على وزن أفعل، وزعم الكوفيون: أن كل ما لا ينصرف، فإنه يجوز أن ينصرف، إلا أفعل مِن كذا، فإنه لا يجوز صرفه بوجه، في شعر ولا غيره إذا كانت معه مِن.

قوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: فرحوا بما عندهم من علم الدنيا، وقيل: قولهم: نحن أعلم منهم، لن نعذب ولن نبعث، والكل محتمل.

قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا العذاب، كما حصل لفرعون حين أدركه الغرق، وكما حصل للأقوام التي عصت الأنبياء والرسل.

قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ جاء عند أبي داود بسند حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ».

قوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ مصدر؛ لأن العرب تقول: سنَّ يسنّ سنًا وسُنة، وهي منصوبة على التحذير والإغراء.

قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك، إلا أنه بان خسرانُهم واتضح وانكشف لما رأوا العذاب.

انتهى تفسير سورة غافر، ولله الحمد.

  

سورة فصلت

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ
يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ
ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ
وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ
أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا
طَآئِعِينَ ۝١١﴾

قوله: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: بينت معانيه، وأحكمت أحكامه، فاتضح به الحلال والحرام، وثبت الثواب والعقاب.

قوله: ﴿قُرۡءَانًا﴾ نصب على المدح، وقيل: على إضمار فعل، أي: اذكر، وقيل: على إعادة الفعل، أي: فصلنا، وقيل: على الحال، أي: حال كونه ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقيل: لوقوع البيان عليه.

قوله: ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يعلمون العربية، فيعجزون عن الإتيان بمثله أو بشيء منه، ولو كان غير عربي لما علموه. وقد نزلت هذه السورة تقريعًا وتوبيخًا لقريش.

قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتأمل.

قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي: قلوبنا في أغطية متكاثفة.

قوله: ﴿وَقۡرٌ﴾ أي: صمم، فكلامك لا يدخل أسماعنا.

قوله: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: خلاف في الدين؛ لأنّهم يعبدون الأصنام، وهو يعبد الله، والحجاب: الستر المانع عن الإجابة، والمقصود أنه لا يصل إلينا شيء مما تقول.

قوله: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: أعمل في هلاكنا، وما أمرك به إلهك الذي أرسلك، فإنا عاملون في هلاكك، وما أمرتنا به آلهتنا التي نعبدها.

قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، ووجهوا وجوهكم بالدعاء له، والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منْزلك، أي: لا تعرّج على شيء غير القصد إلى منْزلك.

قوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قيل: زكاة نفوسهم، كقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، وقيل: زكاة أموالهم، والكل محتمل. وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه، وقرنت الزكاة بالكفر؛ لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله، فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته، وقد قويت عصبية المؤلفة قلوبُهم ولانت شكيمتهم بلمظة من الدنيا، وارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ أقوام رغبةً في الدنيا، فنصبت لهم الحروب، وجوهدوا في الله حق جهاده، حتى أذعنوا للحق وانصاعوا للهدى.

قوله: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي: غير المقطوع، مأخوذ من منَنْت الحبل، إذا قطعته. قال الجوهري: والمن: القطع، ويقال: النقص. وقيل: غير محسوب، والمعاني كلها محتملة.

قوله: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ استفهام توبيخ وتعجب من فعلهم.

قوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس.

قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ أي: أرزاق أهلها ومصالحهم، وما يحتاجون إليه، وجعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، مما يناسب أهلها.

قوله: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: تتمة أربعة أيام مستوية تامة، لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتَها سواء للمحتاجين. وقال أهل المعاني: للسائلين ولغير السائلين خلق الأرض، فيعطي من سأل ومن لا يسأل، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد وعمد إلى خلقها وتسويتها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾.

قوله: ﴿وَهِيَ دُخَانٞ﴾ لعله بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض.

قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ أي: جيئا بما خلقت فيكما، من المنافع والمصالح، وأخرجاها لخلقي، فطلعت الشمس والكواكب، وظهر القمر، وجرت الرياح والسحب، وانشقت الأنْهار، وخرجت الأشجار والثمار، وقيل: معنى هذا الأمر: التسخير، أي: كونا، فكانتا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أعطيا، قالتا: أعطينا». قال ابن حجر: سنده على شرط البخاري، والقول الأول هو الحق والصواب.

قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: استجابتا لأمره، وانقادتا لطاعته، فقام ذلك مقام الجواب القولي، كما قال الشاعر:

امْـــتَلَأَ الْحَـــوْضُ وَقَـــالَ قَطْنِـــي مَهْـــلًا رُوَيْـــدًا قَـــدْ مَـــلَأْتُ بَطْنِـــي

يعني: ظهر ذلك فيه. وقيل: بل خلق الله فيهما الكلام، فتكلمتا كما أراد، والجمع بين القولين هو الصواب، والمعنى أنهما استابتا بلسان المقال ولسان الحال.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي: أكملهن وأحكمهن وفرغ منهن.

قوله: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: سوى الأربعة التي خلق فيها الأرض، فوقع خلق السماوات والأرض في ستة أيام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: ما أراده وما أمر به فيها، والإيحاء قد يكون أمرًا، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ورتب في كل سماء ما تحتاجه من الملائكة وما فيها من الأشياء والأمور التي لا يعلمها إلا هو، ومن ذلك ما نراه من الكواكب والنجوم والشمس والقمر والأفلاك وغير ذلك. وحاصل ما سبق يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: مدها وبسطها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، فالدحو غير الخلق، فالله خلق الأرض، ثم السماوات، ثم دحا الأرض.

قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ أي: حرسًا من الشياطين، أن تستمع إلى الملأ الأعلى.

قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ أي: كفار قريش.

قوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: خوفتكم هلاكًا مثل هلاك عاد وثمود.

قوله: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: اغتروا بأجسامهم وما أعطوه من قوة حين تُهددهم بالعذاب.

قوله: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: باردة شديدة البرد، والصوت، والهبوب، يقال: أصلها: صَرّر، من الصِّر، وهو البرد، كقولهم: كبْكبوا، أصله: كبّبوا، وتجفجف الثوب، أصله: تجفّف. ويقال: درهم صَرِّيٌّ، وصِرِّيٌّ، للذي له صوت إذا نُقد، والحاصل: الصرصر قد يكون من البرد، أو من صرير الباب، أو من الصيحة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ﴾، وصرصر: اسم نهر بالعراق.

قوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ قرئت: (نَحْسَات)، أي: مشئومات باردات متتابعات، وذات غبار، فعلى القراءة الأولى: ذوات نحس، وعلى القراءة الثانية: جمع نحس، الذي هو مصدر وصف به، يقال: نَحِس الشيءُ، بالكسر، فهو نَحْس، وسمي بذلك لقوة صوت جريه، والكل قد اجتمع للقوم: الشؤم، والبرودة، والتتابع، والغبار، قال تعالى: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾، وقال تعالى:﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾، أي: ابتدءوا بِهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بِهم البرد والغبار، حتى تم لهم سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بِهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة، قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾.

قوله: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بينا لهم الهدى والضلال.

قوله: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، والعمى على البيان، والمعصية على الطاعة.

قوله: ﴿صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ كقولك: عندي علم اليقين، أو عندي العلم اليقين، و ﴿ٱلۡهُونِ﴾ أي: الهوان، وأهانه: استخف به، والاسم: الهوان، والمهانة، ويقال: عذاب هون، أي: مهين، كما قال تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ﴾ قرئت: (نحشر).

قوله: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبس أولهم على آخرهم، ليتلاحقوا ويجتمعوا. وقيل: يساقون ويدفعون إلى جهنم، وقد مضى هذا المعنى.

قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بأعيانِها، وقيل: الجلود: الفروج. قال الشاعر:

المــــرء يســـعى للســـلا ... مــة والســـلامة حســـبه
أو ســـالم مَــنْ قَــدْ تَنَنَّـى ... جِلْـــدُهُ وَابْـــيَضَّ رَأْسُـــهْ

فجلده هنا، كناية عن فرجه، والمعنى الأول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ

كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قد سبق ذكر النصوص الشرعية الدالة على نطق الجوارح، فأغنى عن إعادته هنا.

قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ (وَفِي رِوَايَةٍ: خَتَنٌ لَهُمَا)، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا. وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا؛ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا. (وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ بَعْضُهُمْ: يَسْمَعُ بَعْضَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَئِنْ كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ). فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآية». قال الشاعر:

الْعُمْرُ ينقص والذنوب تزيد ... تقال عَثَرَاتُ الْفَتَى فَيَعُودُ
هَلْ يَسْتَطِيعُ جُحُودَ ذَنْبٍ وَاحِدٍ ... رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَلَيْهِ شُهُودُ
وَالْمَرْءُ يَسْأَلُ عَنْ سِنِيهِ فَيَشْتَهِي ... تَقْلِيلَهَا وَعَنِ الْمَمَاتِ يَحِيدُ

وقال آخر:

مَضَى أَمْسُكَ الْأَدْنَى شَهِيدًا مُعَدَّلًا ... وَيَوْمُكَ هَذَا بِالْفِعَالِ شَهِيدُ
فَإِنْ تَكُ بِالْأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً ... فَثَنِّ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
وَلَا تُرْجِ فِعْلَ الْخَيْرِ مِنْكَ إِلَى غَدٍ ... لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ

قوله: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾أي: أهلككم، فأوردكم النار، قال الحسن البصري: إن قومًا ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ومالهم حسنة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وكذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل، وتلا هذه الآية. وقال بعض السلف: لقد أدمن أقوام المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم تلا هذه الآية. وقد جاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ». وقد سبق الحديث عن إحسان الظن بالله. والظن اثنان: ظن ينجي، وهو الظن المصحوب بالعمل الصالح، وظن يردي، وهو الظن المصحوب بالعمل السيئ.

قوله: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ أي: في الدنيا على أعمال أهل النار، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وقيل: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا، هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وهذا هو ظاهر السياق، والقول الأول محتمل.

قوله: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ أي: يعتذروا ويسألوا الرجعة إلى الدنيا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ لا تقال لهم عثرات، ولا تقبل لهم أعذار، وقيل: لو أقالهم وردّهم إلى الدنيا، لم يعملوا بطاعته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، والقول الأول هو الصواب. يقال للجزع: المستعتب، والمقبول عتابه: المعتب. قال الشاعر:

فَإِنْ أَكُ مظلوما فعبد ظلمته وإن تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكُ يُعْتِبُ

أي: مثلك من قبل الصلح والمراجعة إذا سئل.قال الخليل: العتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجِدة، تقول: عاتبته معاتبة، وبينهم أُعتوبة يتعاتبون بِها، يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب، وأعتبني، إذا عاد إلى مسرّتي راجعًا عن الإساءة، والاسم منه: العُتْبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب، واستعتب وأعتب بمعنى، واستعتب: طلب أن يُعْتب، تقول: استعتبته، فأعتبني، أي: استرضيته، فأرضاني، ويقال: أعتب، إذا غضب، وأعتب، إذا رضي.

قوله: ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ أي: هيأنا وسلطنا وسبّبْنا، يقال: قيض الله فلانًا لفلان، أي: جاءه وأتاحه له، والتقييض: الإبدال، ومنه المقايضة، قايضت الرجل مقايضة، أي: عاوضته بمتاع، وهما قيِّضان، كما تقول: بيِّعان.

قوله: ﴿لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ أي: شياطين من الإنس والجن.

قوله: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: من أمر الدنيا، فحسنوه لهم حتى آثروه على الآخرة.

قوله: ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: حسنوا لهم ما بعد مماتِهم، ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: وجب عليهم العذاب، وقوله: ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ حال من الضمير في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، أي: مع الأمم الكافرة قبلهم، أو ما وجب على الأمم الكافرة قبلهم، وقيل: أي: في جملة أمم، كما قال الشاعر:

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ فوكًا فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

يريد فأنت في جملة آخرين لست في ذلك بأوحد.

قوله: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: بالمكاء، والتصفيق، والتخليط في النطق، والإكثار من الكلام حتى يختلط عليه ويصير لغوًا، وقيل: عارضوه بكلام لا يفهم، يقال: لغوت ألغو وألْغَى، ولغى يَلْغَى ثلاث لغات.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: على قراءته، فلا يظهر، ولا يستميل القلوب.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ، والخبر قوله: ﴿ٱلنَّارُ﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قرئت: (أَرْنا)، وهما: إبليس الداعي إلى الشرك، وابن آدم، الذي قتل أخاه الداعي إلى الكبائر. وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إلا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ، كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». ولذا قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

قوله: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: أسفل منا في العذاب، أو في الدرك الأسفل من النار.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: عملوا بطاعة الله، واجتنبوا معصيته، وقد جاء عند مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَال: قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ».

قوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث.

قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أي: بألا تخافوا، أو لا تخافوا مما تقدمون عليه، من أعمال الآخرة.

قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ أي: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل ونحو ذلك، فإن الله خليفتكم عليهم.

قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ أي: نحن قرناؤكم، الذين كنا معكم في الدنيا، نسددكم ونحفظكم بأمر الله، وهانحن معكم، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخ في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم.

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: تسألون وتتمنون، وقد جاء عند الشيخين من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ (-أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ-): إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ! قَالَ: لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا (حَضَرَهُ الْمَوْتُ) بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ؛ (فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ)، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ؛ (فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ)، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ». وفي حديث عائشة وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بنحوه.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: أي: كلام أحسن من كلام من دعا إلى الله على بصيرة وعلم، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: ترجم قوله، بفعاله، فحقق الإسلام، قولًا، وفعلًا واعتقادًا.

قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يستوي التوحيد الذي أنت عليه وما المشركون عليه من الشرك. قال الفراء: ﴿لَا﴾ صلة، أي: ولا تستوي الحسنة والسيئة. قال الشاعر:

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ فِعْلَهُمُ ... وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ

أي: أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع بحلمك، جهل من يجهل عليك، فما عاقبت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه، قال بعض السلف: هو الرجل يسب الرجل، فيقول الآخر: إن كنتَ صادقًا فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفر الله لك.

قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريب صديق، إن كان صادقًا لبيبًا، أما إذا كان أحمقًا فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه. قال الشاعر:

وَلَلْكَفُّ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّمًا ... أَضَرُّ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يُشْتَمُ

وَقَالَ آخر:

وما شيءٌ أَحَبُّ إِلَى سَفِيهٍ ... إِذَا سَبَّ الْكَرِيمَ مِنَ الجواب
مُتَارَكَةُ السفيه بلا جواب ... أشد عَلَى السَّفِيهِ مِنَ السِّبَابِ

وقال آخر:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... إن كَثُرَتْ مِنْهُ لَدَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاوم
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمُ

وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ ... إِجَابَتِهِ عِرْضِي وَإِنْ لَامَ لائِمُ
وأما مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا ... تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْفَضْلَ بِالْحِلْمِ حَاكِمُ

قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه الفعلة الكريمة، والخصلة الشريفة، وقيل: الجنة، والأول أظهر.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: بكظم الغيظ واحتمال الأذى.

قوله: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيب وافر من الخير.

قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملون عبادته. قال الشاعر:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

وهذه الآية سجدة بلا خلاف، وقد اختلفوا في موضع السجود منها، فقال مالك: موضعه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصل بالأمر. وقال أبو حنيفة، والشافعي: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾؛ لأنه تمام الكلام، وغاية العبادة والامتثال. وهذا القول الأخير هو الحق والصواب، وهو الذي يُروى عن الصحابة وكبار التابعين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله: ﴿خَٰشِعَةً﴾ أي: يابسة جرداء، لا نبات فيها، والأرض الخاشعة، الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي مغبرة لا منزل بها.

قوله: ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: بالنبات، يقال: اهتز الإنسان، أي: تحرك.

قوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخت وعَلَتْ قبل أن تنبت، والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض، وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض، فربوها: ارتفاعها، فالنبات يتحرك للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكبر طولًا وعرضًا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ أي: يميلون عن الحق في أدلتنا، يقال: ألحد في دين الله، أي: حاد عنه وعدل، وهذا يرجع إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ ومن الإلحاد في آيات الله، تبديلها ووضعها في غير موضعها.

قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ أي: أمر تهديد ووعيد، أي: بعدما علمتم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ أي: بالقرآن، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف تقديره: هالكون أو معذبون، وقيل: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ أي: عند الله، أو على الله، وقد أعزه سبحانه، فهو منيع الجناب، فلا يتطرق إليه باطل، وممتنع عن الناس أن يقولوا مثله، فلا يليق به الإعراض والصد عنه واللغو فيه.

قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ فلا يستطيع أحد أن يغيره بزيادة أو نقصان، كما أنه لا يكذبه شيء مما أنزل من قبل، ولا ينْزل من بعده كتاب يبطله أو ينسخه.

قوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: فاصبر واحتسب، وهي تعزية وتسلية لرسوله ﷺ.

قوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ فاصبر واحتسب، وهي تعزية وتسلية لرسوله ﷺ.

قوله: ﴿أَعۡجَمِيّٗا﴾ أي: بلغة غير العربية.

قوله: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنت بلغتنا العربية.

قوله: ﴿ءَاْعۡجَمِيّٞ﴾ قرئت بِهمزتين خفيفتين، وقرئت على الاستفهام مع تليين الهمزة، وهي القراءة الفصحى، وهي قراءة أبي عمرو، وابن ذكوان، وحفص. والعجمي: الذي ليس من العرب، فصيحًا كان أو غير فصيح. والأعجمي: الذي لا يفصح، عربيًا كان أو أعجميًا، فالأعجم ضد الفصيح، وهو الذي لا يبين كلامه، ويقال للحيوان غير الناطق: أعجم، والمعنى: أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ وقيل: هلا أنزل بعضه بالأعجمي وبعضه بالعربي؟ والقول الأول أظهر. وإذا ثبت هذا، علم أن القرآن عربي مبين، نزل بلغة العرب، فليس منه شيء من العجمة، وإذا نقل عن اللغة العربية لم يكن قرآنًا، وفي القرآن من كل لغة، لكنه مما يوافق العربية، فمثلًا: ﴿سِجِّيلٖ﴾ فارسية، وكذا: ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾، و ﴿ٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ روميتان.

قوله: ﴿هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ أي: من الشك والريب والأوجاع، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾.

قوله: ﴿وَقۡرٞ﴾ أي: صمم عن سماع القرآن.

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ أي: شقاء وتعاسة على الكافرين.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ لأنّهم لا يفهمون التمثيل، وقد حكى أهل اللغة، أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب، ويقال للذي لا يفهم: أنت تُنادى من بعيد، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: ما بين مصدّق لها ومكذِّب، هكذا حال قومك بالنسبة للقرآن.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ﴾ قرئت: (ثمرة).

قوله: ﴿مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، فالأكمام: أوعية الثمرة، واحدها: كُمَّةٌ، وهي كل ظرف لمال أو غيره، ولذلك سمي قشر الطَّلْع، أي: كُفُرَّاه الذي ينشق عن الثمرة: كُمّة، فالكمة: الكُفُرّي قبل أن تنشق، فإذا انشقت فليست بكمة.

قوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

قوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أسمعناك وأعلمناك، يقال: آذن يؤذن، إذا أعلم.

قوله: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي: ما منا أحد يشهد بأن لك شريكًا، لما عاينوا القيامة تبرؤوا من الأصنام، وتبرأت الأصنام منهم.

قوله: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي: فرار ومهرب عن النار، يقال: حاص يحيص حيصًا ومحيصًا، إذا هرب، والظن هنا: اليقين، قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾.

قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: من مال، وصحة، وسلطان، وعز.

قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ﴾ أي: يئس من زوال ما به من المكروه وإجابة الدعاء.

قوله: ﴿قَنُوطٌ﴾ أي: من رحمة الله، فيظن أن ما به لن يزول.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: من عندي؛ لأنِّي أستحقه على الله، لرضاه بعملي، فيرى النعمة حتمًا واجبًا على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاء بالنعمة والمحنة، ليتبين شكره وصبره.

قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، واللام للتأكيد، قال بعض السلف: للكافر أُمْنيتان: أما في الدنيا فيقول: ﴿لَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

قوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: ترفَّع عن الانقياد إلى الحق، وتكبر على أنبياء الله، وتباعد عن متابعتهم، يقال: نأيته، ونأيت عنه، بمعنى: تباعدت عنه، وأنأيته، فانتأى: أبعدته، فبعد، وتناءوا: تباعدوا، والمنتأى: الموضع البعيد. قال الشاعر:

فَإِنَّـكَ كَاللَّيْـلِ الَّـذِي هُـوَ مُـدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْـتُ أَنَّ الْمُنْتَـأَى عَنْـكَ وَاسِـعُ

قوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة، يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء، إذا أعرض، والكافر لا يعرف التضرع والاستغاثة إلا في البلاء، أما في النعمة والرخاء فلا.

قوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: لا أحد أضل منكم؛ لفرط شقاقكم وعداوتكم.

قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا.

قوله: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: في آفاق السماء من، شمس، وقمر، ونجوم، وليل، ونَهار، ورياح، وأمطار، ورعد، وبرق، وصواعق، وفي آفاق الدنيا، من، مدر، ووبر، ونباتات، وأشجار، وبحار، وغيرها، وفي الصحاح: الآفاق: النواحي، واحدها: أُفْقٌ وأُفُقٌ، مثل: عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقي، بفتح الهمزة والفاء، إذا كان من آفاق الأرض، ويقال: أُفقي، بضمهما، وهو القياس. قال الشاعر:

وَإِذَا نَظَـرْتَ تُرِيـدُ مُعْتَبَـرا ... فَـانظُرْ إِلَيْـكَ فَفِيـكَ مُعْتَبَـرُ

أَنـتَ الَّـذِي يُمْسِـي وَيُصْـبِحُ فِـي ... الـدُّنْيَا وكُـلّ أمُـوره عبَـرُ

أَنـتَ المصـرّفُ كـانَ فِـي صِـغرٍ ... ثُـمّ اسـتَقَلَّ بِشَخْصِـكَ الكِبَـرُ

أَنـتَ الَّـذِي تَنْعَـاه خلْقتُـه ... يَنْعـاه مِنْـهُ الشَّـعْرُ والبَشَـرُ

أَنـتَ الَّـذِي تُعْطَـى وَتُسْـلَبَ لَا ... يُنْجيـه مِـنْ أَنْ يُسْـلَبَ الحَـذَرُ

أَنْـــتَ الَّـــذِي لَا شَـــيءَ مِنْـــه لَـــهُ وَأَحَـــقُّ مِنْـــه بِمَالـــه القَـــدَرُ

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام، وما جاء به الرسول ﷺ من الوحي.

انتهى تفسير سورة فصلت، ولله الحمد.

  

الْمُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل

العُشْر التاسع

يَحْيَى بن عَبْد العَزِيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظِ السنة في الحرمين الشريفين

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

وهي مكية، إلا بضع آيات منها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾

قوله: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ﴾ كما سبق في فواتح السور، ولكن السؤال هنا: لم قطع ﴿حمٓ﴾ من ﴿عٓسٓقٓ﴾، ولم تقطع ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، و ﴿الٓمٓرۚ﴾، و ﴿الٓمٓصٓ﴾؟ الجواب: إن ﴿حمٓ﴾ آية منفردة ومنفصلة، مثل بقية الحواميم، فجرت مجراها، وقوله: ﴿عٓسٓقٓ﴾ آية أخرى بخلاف ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وأخواتها.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ﴾ قرئت: (يُوحَى)، وعلى هذه القراءة يكون التقدير: يوحيه الله إليك، كقراءة ابن عامر، وأبي بكر: (يُسبَّح له فيها بالغدو والآصال، رجال) أي: يسبحه رجال.

قوله: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي: يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن.

قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: حملة العرش، وقيل: عموم الملائكة، وهو الأظهر، وعلى هذا فالملائكة كلهم، بما فيهم حملة العرش.

قوله: ﴿لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: من المؤمنين، جنِّهم وإنسهم.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعض السلف: هيّب وعظم في الابتداء، وألطف وبشر في الانتهاء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ تناسب ذكرها مع ما قبلها، إشارة إلى أن الملائكة مع جلالة قدرهم، وعظمة خلقهم، وكثرة عددهم يسبحون ويقدسون ويمجدون ويوحدون، وهؤلاء الكفار مع ضعف خلقهم وقلة عددهم يشركون مع الله، وهذا من أعجب العجب.

قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: مكة، وَمَنْ حَوْلَهَا من سائر البلاد، قيل: سميت بذلك لأن الأرض دحيت من تحتها، وقيل: لأنّها أشرف من سائر البلاد، وهذا القول هو الأظهر، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه بسند صحيح من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه: «وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ

أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ».

قوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: بيوم الجمع، وهو يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

قوله: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ جاء عند أحمد والترمذي بسند جيد من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟ فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا. ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا. فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

وجاء عند أحمد بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً، وَأُخْرَى بِالْيَدِ الْأُخْرَى، وَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أُبَالِي».

قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ أيها الناس.

قوله: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه بكتابه وبسنة رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم وينشئكم في الرحم، وقيل: يخلقكم وينشئكم في الجعل، والأول أظهر، وقيل: أي: يكثركم ويجعلكم أزواجًا، أي: حلائل؛ لأنّهن سبب النسل.

قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ الكاف صلة للتوكيد، أي: ليس مثله شيء، فالله جل وعلا له الأسماء الحسنى المتضمنة للمعاني العليا، وله الصفات العظمى، المتضمنة للدلائل الكبرى، فليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كصفته صفة، ولا كفعله فعل، إلا من جهة موافقة اللفظ، كما قال السلف: التوحيد: إثبات ذات، غير مشبهة للذوات، ولا معطلة، عن الأسماء والصفات، وكل ما أثبته الله لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله ﷺ في سنته، يثبت كما جاء، من غير تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، فله سبحانه، السمع، والبصر، وبقية الصفات، كل ذلك يثبت بما يليق بجلاله.

قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مفاتيح خزائنها.

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: نهج وأوضح وبين المسالك، قال مجاهد: ووصاك به دينًا واحدًا. رواه الفريابي وصححه ابن حجر، وقد شرع لهم يشْرَع شَرعًا، أي: سنَّ، والشارع: الطريق الأعظم، وقد شَرَع المنْزِل، إذا كان على طريق نافذ، وشرعت الإبل، إذا أمكنتها من الشريعة، وشرعت الأديم، إذا سلمته، وشرعت في هذا الأمر شروعًا، أي: خضت.

قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، كما اشتملت عليه آية الأحزاب: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾. والذي جاءت به الرسل هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وهذا هو القدر المشترك بينهم، وأما الشرائع والمناهج فقد قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾؛ لأن كل أمة، لها أحوالها وظروفها، و ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

قوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أي: اجعلوه قائمًا مستمرًا محفوظًا، من غير، خلاف فيه، ولا اضطراب، ولا شك ولا ارتياب، فمن الخلق من وفّى بذلك، ومنهم من نكث، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾.

هو توحيدُ الله وطاعتُه، والإيمان بكتبه ورسله، وبالبعث والجزاء.

قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ أي: عظُم عليهم، قبول التوحيد، ورفض الأوثان.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يختار، والاجتباء، الاختيار، فيختار الله للتوحيد والاستسلام له، من يشاء، ويستخلص لدينه، كل أواب.

قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ قيل: المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي: نبيٌّ. وقيل: أمم الأنبياء المتقدمين، قبل موسى، وعيسى -عليهما السلام- فإنّهم فيما بينهم اختلفوا لما طال عليهم الأمد، وقيل: هم اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ

ﭐلْبَيِّنَةُ﴾، والقول الثاني أظهر لدلالة السياق، ولذلك قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، والأول محتمل؛ لأنه ربما كان ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من قبلهم، وهم اليهود والنصارى، وإلى هذا ذهب مجاهد.

قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ أي: في تأخير العقاب عن هؤلاء.

قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة. وقيل: إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم.

قوله: ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين من آمن، وبين من كفر، بنُزول العذاب.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: اليهود والنصارى، وقيل: مشركو العرب، والأول أقوى، والثاني كما أسلفنا محتمل.

قوله: ﴿فَٱدْعُ﴾ أي: إلى توحيد الله وعبادته وشرعه.

قوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ أي: على تبليغ ما أرسلت به.

قوله: ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أن أعدل، كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقيل: لكي أعدل، سواء في الأحكام، أو في التبليغ، قيل: إن الخطاب موجه لأهل الكتاب، وقيل: للمشركين، والصواب أنه لجميع من خالفه.

قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة بيننا وبينكم، وهذا متجه؛ لأن السورة مكية، وآية السيف مدنية، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما أسلم الناس واستجابوا للرسول ﷺ؛ لأن المشركين توهموا أن الجاهلية قد تعود، وقيل: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله؛ ليصدوهم عن سبيل الله، والأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ أي: لا ثبات لها، كالشيء الذي يزل عن موضعه، قال: دَحَضَتْ حُجته دُحوضًا: بطلت، وأدحضها الله، والإدحاض: الإزلاق، ومكان دحْض ودَحَض، أي: زلِق، ودَحَضت رجله تدحَض دحضًا، إذا زلقت، ودحضت الشمس عن كبد السماء: زالت.

قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: القرآن، وسائر الكتب المنْزلة.

قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالصدق.

قوله: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: بالعدل والإنصاف؛ لأن العدل يسمى ميزانًا، والميزان آلة الإنصاف والعدل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لم يقل: قريبة؛ لأن تأنيثها غير حقيقي، فهي كالوقت، وقيل: المعنى: لعل البعث، أو مجيء الساعة. وقال الكسائي: ﴿قَرِيبٌ﴾ نعت يؤكد به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. قال الشاعر:

وَكُنَّا قَرِيبًا وَالدِّيَارُ بَعِيدَةٌ ... فَلَمَّا وَصَلْنَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ غِبْنَا

قوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ أي: بالساعة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ أي: على طريق الاستهزاء ظنًا منهم أنها غير آتية.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ أي: خائفون وجلون؛ لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد في الطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾.

قوله: ﴿يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يشكون ويخاصمون في قيام الساعة.

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ حفِي وبار بهم. قال الشاعر:

غَدًا عِنْدَ مَوْلَى الْخَلْقِ لِلْخَلْقِ مَوْقِفٌ ... يُسَائِلُهُمْ فِيهِ الْجَلِيلُ وَيَلْطُفُ

وقال آخر:

أَمُرُّ بِأَفْنَاءِ الْقُبُورِ كَأَنَّنِي ... أَخُو فِطْنَةٍ وَالثَّوَابُ فِيهِ نَحِيفُ

وَمَنْ شَقَّ فَاهُ اللهُ قَدَّرَ رِزْقَهُ ... وَرَبِّي بِمَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ لَطِيفُ

وقد قيل: لطيف بأوليائه حتى عرفوه، فنشر عليهم المناقب، وستر عليهم المثالب، وأظهر جميلهم، وستر قبيحهم، وقبل منهم القليل، وبذل إليهم الجزيل، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾.

قوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ويحرم من يشاء؛ لحكمة يريدها، ومن ذلك: احتياج البعض إلى البعض، كما قال سبحانه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾، وليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ﴾.

قوله: ﴿حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: عملها وكسبها، ومنه قول بعض السلف: احرث لدنياك، كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك، كأنك تموت غدًا. ومنه سمي الرجل: حارثًا.

قوله: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ أي: نوفقه ونسهل له العبادة، ونجعل الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

قوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾، وقال رسول الله ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالنَّصْرِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ-، وَالتَّمْكِينِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي الْبِلَادِ-، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ». رواه أحمد بسند جيد من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ﴾ أي: ألهم؟ والميم صلة، والهمزة للتقريع، وهذا متصل بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ والمعنى: هل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك؟ وإذا استحال هذا، فالله لم يشرع الشرك، وحينئذ فمن أين يدينون به؟.

قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾.

قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين، وقوله: ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي: خائفين في عرصات القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: من جزائه، ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ لا محالة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ
وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ
قَدِيرٞ ٢٩ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا
لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليتعجلوا السرور، ويزدادوا شوقًا إلى لقائه.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ جاء عند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه: «أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ! إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ». وجاء عند الحاكم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ أَوْسَطَ بَيْتٍ فِي قُرَيْشٍ لَيْسَ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِهِمْ إِلا قَدْ وَلَدَهُ. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلّ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ إِلَى مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ إِلا أَنْ تَوَدُّونِي بِقَرَابَتِي مِنْكُمْ وَتَحْفَظُونِي بِهَا». صححه ابن حجر.

وعند البخاري من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: «ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ». وفي الصحيحين قال أبو بكر رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعباس رضي الله عنه: «مَهْلًا يَاعَبَّاسُ، لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ، وَمَا لِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اذْهَبْ بِهِ إِلَى رَحْلِكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتِنَا بِهِ». رواه الطحاوي واختاره الضياء.

قوله: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ أي: يكتسب، وأصل القرف: الكسب، يقال: فلان يَقْرِف لعياله، أي: يكسب، والاقتراف: الاكتساب، وهو مأخوذ من قولهم: رجل قرفة، إذا كان محتالًا.

قوله: ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾ أي: أجرًا وثوابًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾. قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة: الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة: السيئة بعدها.

قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ الميم صلة، والتقدير: أيقولون.

قوله: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أي: يطبع على قلبك، فينسيك القرآن لو افتريت أو حدثت نفسك بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾.

قوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: يزهقه ويزيله، وقد حذفت الواو وهو في موضع رفع كما حذفت من

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: يحق الإسلام، فيثبته بما أنزله من القرآن.

قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ويستجيب الله ويقبل مِن عباده مَن أخلص له بقلبه وأطاعه ببدنه، ويعطيه مسألته إذا دعاه، يقال: أجاب، واستجاب بمعنى، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾. وقيل: كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ﴾، والمعنى الأول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم، ويزيدهم فوق ذلك.

قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لو وسعه ونشره.

قوله: ﴿لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: طغوا وعصوا وطلبوا المنْزلة بعد المنْزلة، ولو أعطوا الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه، كما قال رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ (وَفِي رِوَايَةٍ: عَيْنَ) ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ». وعند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وَاللهِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِلا مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا». وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

قوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي: على قدر كفايتهم وما فيه صلاحهم، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر؛ لأن من العباد من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أُفْقِر لفسد عليه دينه، وإن من العباد من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أُغْنِي لفسد عليه دينه. قال بعض السلف: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى، فلا تفقرني برحمتك. وقد قيل: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ قرئت بالتشديد والتخفيف: (يُنْزِل)، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾.

قوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: يعم بها الوجود، وعلى أهل ذلك القطر وتلك الناحية.

قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرئت: (بما كسبت) يعني بدون فاء، قال الضحاك: ما نعلم أحدًا حفظ القرآن، ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، ثم يقول: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

قوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: كثير من المعاصي، قال مُرَّة الهمداني: رأيت على ظهر كف شريح

قُرحة، فقلت: يا أبا أمية ما هذا؟ قال: هذا ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، ولما ركب محمد بن سيرين الدَّين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة، وقيل لأبي سليمان الدّاراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمّن أساء إليهم؟ فقال: لأنّهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبِهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾. وقال ثابت البناني: كان يقال: ساعات الأذى، يذهبن ساعات الخطايا.

قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ وليٌّ يتولى الأمور، ولا نصير يدفع عنكم العذاب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: السفن الجارية في البحر، وواحد، الجواري: جارية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، وسميت بذلك: لأنّها تجري في الماء، والجارية: المرأة الشابة، سميت بذلك لأنّها يجري فيها ماء الشباب.

قوله: ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي: كالجبال، قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قوله: ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ أي: تبقى سواكن على ظهر البحر لا تجري، ركد الماء ركودًا: سكن، وكل ثابت في مكان فهو راكد، وركد الميزان: استوى، وركد القوم: هدءوا، والمراكد: المواضع التي يركُد فيها الإنسان وغيره.

قوله: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: يجعل الريح عواصف فيغرق السفن وأهلها.

قوله: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قرئت: (يَعلمُ)، على الاستئناف بعد الشرط والجزاء، كقوله

في سورة التوبة: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ رفعًا، ونظيره في الكلام: إن تأتني آتك، وينطلقُ عبد الله. والمعنى: إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان، أو بقيت السفن رواكد، علموا أن لا ملجأ لهم سوى الله، وإما على النصب، فهي على الصرف من حال الجزم إلى النصب استخفافًا، كراهية لتوالي الجزم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ لا ملجأ لهم ولا مهرب.

قوله: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ قرئت: (كبير الاثم)، والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم، قال الشاعر:

إِنِّــي عَفَــوْتُ لِظَــالِمِي ظُلْمِــي ... وَوَهَبْــتُ ذاك لــه علــى علمــي
مــا زال يَظْلِمُنِــي وَأَرْحَمُــهُ ... حَتَّــى بَكَيْــتُ لَــهُ مِــنَ الظُّلْــمِ

قوله: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي: يتشاورون في الأمور، والشورى مصدر شاورته، مثل البشرى، والذكرى، ونحوه، وقد قيل: ما تشاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمورهم، فالشورى إلفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب. قال الشاعر:

إِذَا بَلَــغَ الــرَّأْيُ الْمَشُــورَةَ فَاسْــتَعِنْ ... بِــرَأْيِ لبيــب أو مشــورة حَــازِمِ
وَلَا تَجْعَــلِ الشُّــورَى عَلَيْــكَ غَضَاضَــةً ... فَــإِنَّ الْخَــوَافِيَ قُــوَّةٌ لِلْقَــوَادِمِ

والخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت. والقوادم: عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبائر الريش. وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قط! إذا حزبني أمر شاورت قومي، ففعلت الذي يرون، فإن أصبت فهم المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون. وقيل: المشورة بركة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ مع قدرته على مؤاخذتِهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه.

وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منّ عليهم، مع قدرته على الانتقام. وقد جاء عند مسلم من حديث سلمة، وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وكذلك عفوه ﷺ عن الذي اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ ﷺ والسيف في يده صلتًا، والحديث

عند الشيخين. إلى آخر ذلك من سلسلة عفوه ﷺ.

وقيل: إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فتجترئ عليهم الفساق، وأما إذا كان من ظلمهم، لم يتعمد ويتقصد ذلك، إنما هي زلة، والظالم نادم مقلع، فالعفو أفضل، وفي مثله قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وقال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلا رَفَعَهُ اللهُ».

وقيل: إذا أصابهم البغي تناصروا عليه، حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه، وكل ما سبق داخل في معنى الآية، لاسيما إذا انضم إلى ذلك هديه ﷺ.

قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وهذا حد الانتصار، فلا يتعدى المظلوم والمجني عليه، كما كانت العرب تفعله، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾. وسمي الجزاء سيئة لأنه في مقابلتها.

قوله: ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: من جناح أو حرج.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الحرج والعنت والإثم، على من بنشر الشرك والبدع والمعاصي، ويعتدي على النفوس والأموال، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالا، فَعَلَى الْبَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ».

قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى، وغفر، وترك الانتصار لوجه الله، وهذا لا شك فيما لو ظلمه مسلم، وقد حكي أن رجلًا سب رجلًا في مجلس الحسن، فكان المسبوب يكظم ويعرق ويمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله، وفهمها إذْ ضيّعها الجاهلون.

وبالجملة، العفو مندوب إليه، جاء عند أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، غَضِبْتَ وَقُمْتَ؟!، قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظُلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا لِلَّهِ عز وجل إِلَّا أَعَزَّ اللهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بِهَا صِلَةً إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً إِلَّا زَادَهُ اللهُ عز وجل بِهَا قِلَّةً». حديث حسن، وقد روى أبو داود بعضه.

ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال، فيرجع ترك العفو مندوبًا إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة

البغي، لقطع مادة الأذى، ويشهد لذلك، ما جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين وقعت عليها زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلم تبرح زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، وقعت بِها لم أنشبها حتى أنحيت عليها، فقال رسول الله ﷺ وتبسم: «إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم رفعًا تامًا، ويسارقون النظر خوفًا وذعرًا؛ لأنّهم ناكسو الرؤوس، والعرب تصف الذليل بغض الطرف، كما يستعملون في ضده: حديد النظر، إذا لم يتهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقول ذلك المؤمنون، لما عاينوا ما حل ونزل بالكفار من عذاب النار.

قوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يرد أحد أحكام يوم القيامة بعدما حكم الله بِها، وقد تحققت كلمح البصر.

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: حصن أو مكان، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ناصر ينصركم، أو منكر ينكر ما حلّ بكم، وقيل: لا تجدون يومئذ منكرًا، لما ينْزل بكم من العذاب، والمعنى الأول هو الصواب.

قوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظًا لأعمالهم، حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلًا بِهم لا تفارقهم أبدًا.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة كثير من النساء، إلا من هداها الله قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ».

قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أي: لا ذكور معهن، قال بعض السلف: إن من يُمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى بدأ في هذه الآية بالإناث.

قوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: لا إناث معهن.

قوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي: ذكورًا وإناثًا، وقيل: أي: توأمًا، غلامًا وجارية، والمعنى الأول أظهر.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يولد له، يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم، وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عُقمًا، مثل: حمد يَحْمدُ، وعَقُمت تَعْقُم، مثل: عُظم يعظِم، وأصله: القطع، ومنه: الْمُلك العقيم، أي: الذي تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفًا على الملك، وريح عقيم، أي: لا تلقح سحابًا ولا شجرًا، ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده، ويقال: نساء عُقُم، وعُقْم. قال الشاعر:

عُقِمَ النِّسَاءُ فَمَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ ... إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقْمُ

وقد جاءت النصوص النبوية موضحة متى يكون ذكرًا، ومتى يكون أنثى، فقد ثبت عند الشيخين عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ. (فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ -تَعْنِي وَجْهَهَا-، -وَفِي رِوَايَةٍ: فَضَحِكَتْ-)، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ! فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟»، ولمسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه، وفيه: «إِنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَبْيَضُ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أَصْفَرُ، فَمِنْ أَيِّهِمَا عَلا أَوْ سَبَقَ، يَكُونُ مِنْهُ الشَّبَهُ».

ولمسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنحوه، وفيه: «دَعِيهَا، وَهَلْ يَكُونُ الشَّبَهُ، إلا مِنْ قِبَلِ ذَلِكِ؟ إِذَا عَلا مَاؤُهَا مَاءَ الرَّجُلِ، أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَخْوَالَهُ، وَإِذَا عَلا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَهَا، أَشْبَهَ أَعْمَامَهُ». وعند مسلم من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ».

وظاهر هذه الأحاديث، يدل على أنه متى علا مني الرجل مني المرأة أذكرا، وصار الولد شبيهًا بأعمامه، والعكس، صار الولد أنثى شبيهًا بأخواله، فكل ولد شبيه بأعمامه، وكل أنثى شبيهة بأخوالها، والواقع بخلاف ذلك، وعلى هذا يتعين توجيه هذه الأحاديث والجمع بينها وبين الواقع، فيقال: السبق في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الغلبة والعلو، يقال: سابقني فلان، فسبقته، أي: غلبته، قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: بمغلوبين، ويكون السبق والعلو في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الكثرة، ويكون حال الماء على النحو التالي:

أولًا: إذا غلب ماء الرجل ماء المرأة، وعلا عليه، وكان أكثر من ماء المرأة.

ثانيًا: إذا غلب ماء الرجل ماء المرأة، وعلا عليه، وكان أقل من ماء المرأة.

ثالثًا: إذا غلب ماء المرأة ماء الرجل، وعلا عليه، وكان أكثر من ماء الرجل.

رابعًا: إذا غلب ماء المرأة ماء الرجل، وعلا عليه، وكان أقل من ماء الرجل.

فالأول: يكون ذكرًا؛ لغلبة ماء الرجل وعلوّه، ويشبه أعمامه؛ لكثرة مائه، والثاني: يكون ذكرًا؛ لغلبة ماء الرجل وعلوه، ويشبه أخواله؛ لقلة مائه، والثالث: يكون أنثى؛ لغلبة ماء المرأة وعلوه، ويشبه أخواله؛ لكثرة مائها. والرابع: يكون أنثى؛ لغلبة ماء المرأة وعلوه، ويشبه أعمامه؛ لقلة مائها، والله أعلم بالصواب.

فإن قال قائل: أين موقع الخنثى؟ فالجواب: لندرته لم يذكر، وإنما ذكر الذكر والأنثى، لغالبه في الموجودات، ثم هو بحسب حاله، يلحق إما بالذكورة أو بالأنوثة، والخنثى: أن يكون للمولود ذكر وفرج، قال بعض أهل العلم: ينظر من أين يبول؟ فإن كان يبول من الذكر ألحق بالذكور، وإن كان يبول من الفرج ألحق بالإناث، وإن كان يبول منهما نُظر إلى الأكثر، وقيل: يُنظر إلى عدد الأضلاع، فإن كانت زائدة فهو أنثى؛ لأن المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجه، وابن حبان، والحاكم بسند جيد من حديث جابر رضي الله عنه، وكذا رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند حسن: «إِنَّ رُوحِ الْقُدُس نَفَثَ فِي رُوعِي، أن نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ، حتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ». وهذا ما يسمى بالإلهام.

قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه السلام، وفرض على محمد ﷺ الصلوات الخمس.

قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ قرئت: (أو يرسلُ) بالرفع، وكذا: (فيوحي)، على الاستئناف، أي: وهو يرسل، كإرساله جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ وبقية الرسل، وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَام رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ». فهذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أو حينا إليك.

قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: نبوة، وقرآنًا من عندنا؛ لأن بِهما حياة البشر من موت الجهل، قال مالك بن دينار: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض.

قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: قراءة القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: لا تعرف كيف تدعو الخلق إلى الإيمان وتفاصيل الشريعة، من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

انتهى تفسير سورة الشورى، ولله الحمد.

  

سورة الزخرف

وهي مكية بالاتفاق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۞ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۞ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۞ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۞ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۞ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۞﴾

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قرئت: (إِمِّ)، يعني: القرآن في اللوح المحفوظ.

قوله: ﴿لَدَيۡنَا﴾ أي: عندنا.

قوله: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: رفيع محكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۞ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۞ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۞ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۞ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۞ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۞ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾.

قوله: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ استفهام توبيخ، أي: أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب، ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم، وصفحًا: إعراضًا، منصوب على المصدر، لأن معنى ﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾: أفنصفح، يقال: صفحت عن فلان، إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحًا، إذا أعرضت عنه وتركته، والأصل فيه: صفحة العنق، يقال: أعرضت عنه، أي: ولّيته صفحة عنقي، وقيل: من لطف الله ورحمته بخلقه، لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم، وهو القرآن، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به، ليهتدي من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿أَن كُنتُمۡ﴾ قرئت: (إن كنتم) بالكسر.

قوله: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء، فـ ﴿كَمۡ﴾ خبرية، والمراد بِها: التكثير، كما قال تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ أي: ما أكثر ما تركوا.

قوله: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ أي: قومًا أشد بطشًا وقوة من المشركين المخاطبين، ونصب ﴿أَشَدَّ﴾ على المفعول.

قوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتهم، فخبرهم بأنّهم أهلكوا على كفرهم، والمثل: الوصف والخبر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ
إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُواْ
لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم
بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِى ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾
وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ
ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ
مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ﴾ أي: فأحيينا به.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ قرئت: (يُخرجون).

قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، بل وكل ما يتقلب فيه الإنسان من خير أو شر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم.

قوله: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: على ظهور ما تركبون، وقيل: أضاف الظهور إلى واحد، لأن المراد به الجنس، فصار الواحد في معنى الجمع، بمنْزلة الجيش والجند، فلذلك ذكّر وجمع الظهور، والمعنى: على ظهور هذا الجنس.

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ أي: مطيقين. قال الشاعر:

رَكِبْتُمْ صَعْبَتِي أَشَرًا وَحَيْفًا ... وَلَسْتُمْ لِلصِّعَابِ بِمُقْرِنِينَا

وهو مأخوذ من الإقران، يقال: أقرن يقرن إقرانًا، إذا أطاق، وأقرنت كذا، إذا أطقته، وحَكَمْته، كأنه جعله في قرن، وهو الحبل، فأوثقه به وشده، ويقال: قرنت كذا بكذا، إذا ربطته به وجعلته قرينه.

وقد جاء عند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ. وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ».

وجاء عند أبي داود والترمذي بسند صحيح عن علي بن ربيعة قال: «شَهِدْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه أُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: بِسْمِ اللهِ. فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. ثُمَّ قَالَ:

سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-. ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-. ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. ثُمَّ ضَحِكَ، فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ تَعَالَى يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي. يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي».

وعند أحمد بسند لا بأس به من حديث أبي لاس الخزاعي رضي الله عنه قال: «حَمَلَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى إِبِلٍ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لِلْحَجِّ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَرَى أَنْ تَحْمِلَنَا هَذِهِ. قَالَ: مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا فِي ذُرْوَتِهِ شَيْطَانٌ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا إِذَا رَكِبْتُمُوهَا كَمَا أَمَرَكُمْ، ثُمَّ امْتَهِنُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللهُ عز وجل».

وعند الدارمي وأحمد بسند حسن من حديث محمد بن حمزة، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عَلَى ظَهْرِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ، فَإِذَا رَكِبْتُمُوهَا فَسَمُّوا اللهَ عز وجل، ثُمَّ لا تُقَصِّرُوا عَنْ حَاجَاتِكُمْ».

قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ راجعون، وصائرون إليه بعد الموت.

قوله: ﴿جُزْءًا﴾ أي: عِدلًا، فقالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءًا له وبعضًا، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءًا منه. قال الماوردي: والجزء عند أهل العربية: البنات، يقال: قد أجزأت المرأة، إذا ولدت البنات، والمعنى كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: اختصكم وأخلصكم بالبنين، يقال: أصفيته بكذا، إذا آثرته به، وأصفيته الود: أخلصته له، وصافيته، وتصافينا: تخالصنا، قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: بأنه ولدت له بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صار وجهه ﴿مُسْوَدًّا﴾ بما بُشِّر به.

ومن حالهم أن امرأة أحدهم وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت:

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَا ... يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَلَّا نَلِدَ الْبَنِينَا ... وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أعطينا

قوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: حزين ومكروب.

قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾ أي: يُرَبّى ويَشِبّ، والنشوء: التربية، يقال: نشأت في بني فلان نَشْئًا ونشوءًا، إذا

شببت فيهم، قرئت: (يَنشأ) أي: يرسخ وينبت، وأصله من نشأ، أي: ارتفع.

قوله: ﴿فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: في الزينة، قال مجاهد: رُخص للنساء في الذهب والحرير، وقرأ هذه الآية. وقد انعقد الإجماع على ذلك.

قوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: في المجادلة والإدلاء بالحجة، فهي عاجزة عن الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بُشِّر ببنت: ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة. وبالجملة، المرأة ناقصة، يكمل نقصها بلبس الحلي، منذ تكون طفلة، إذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، قال الشاعر:

وَمَا الحَلْيِ إلَّا زينَةٌ مِنْ نقيصةٍ ... يتمّمُ مِنْ حُسْنِ إذَا الحُسْنَ قَصَّرا

وأمَّا إذَا كَانَ الجمالُ موفَّرا ... كحُسْنك، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَنْ يزَوَّرا

قوله: ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: يسألون عنها في الآخرة.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي: يقولون ذلك على طريق الاستهزاء والسخرية، أو لجهل منهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

قوله: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ أي: يحْدِسون ويكذبون ويتقولون.

قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: من قبل القرآن، يعملون بما فيه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾، والجواب: قطعًا لا، وإنما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على طريق ومذهب ودين. قال الشاعر:

كنا على أمة آبائنا ... وَيَقْتَدِي الْآخِرُ بِالْأَوَّلِ

يقال: فلان لا أمة له، أي: لا دين له ولا نحلة. قال الشاعر:

وَهَلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكَفُورُ

والأُمة، والإمة: النعمة. قال الشاعر:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّـ ... ـةِ وَارَتْهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ

وقيل: على استقامة، كما قال الشاعر:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَهَلْ يَأْثَمَنَ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ

قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: نهتدي بهم، وقال في الآية التي بعدها: ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾، وليس المعنى واحدًا؛ لأنهم لما ظنوا فيهم الاهتداء جعلهم محلًا للاقتداء.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ أي: أليس قد جئتكم من عند الله بأهدى وأرشد مما أنتم عليه؟.

قوله: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، ولفظه لفظ الجمع؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه.

قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ﴾ أي: متبرئ، والبراء يستعمل للواحد فما فوقه، فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت، لا يقال: البراءان والبراءون، ففي الجمع: نحن منه براء، مثل: فقيه وفقهاء، ويقال: امرأة بريئة، وهما بريئتان، وهن بريئات وبرايا، ورجل بريء، وبُراء، مثل: عجيب وعُجاب، والبَراء بالفتح: أول ليلة من الشهر، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل؛ لأنّهم عبدوا الله مع آلهتهم، ويجوز أن يكون منقطعًا، أي: لكن الذي فطرني فهو يهدين.

قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ عائد إلى الله عز وجل.

قوله: ﴿فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: ولده، وولد ولده، الباقون بعده، والعقب في اللغة: عبارة عن شيء بعد شيء، كان من جنسه أو من غير جنسه، يقال: أعقب الله بخير، أي: جاء بعد الشدة بالرخاء، وأعقب الشيب السواد، وعَقَب يَعْقِبُ عقوبًا وعقْبًا، إذا جاء شيئًا بعد شيء، ولهذا قيل لولد الرجل: عَقِبه، والْمِعْقَاب من النساء: التي تلد ذكرًا بعد أنثى هكذا أبدًا، وعقب الرجل: ولده وولد ولده الباقون بعده، والعاقبة: الولد، وقيل: الورثة كلهم عَقْب، وقيل: الذرية، والعِقب بكسر القاف: مؤخر القدم، وهي مؤنثة، وهي ولده وولد ولده، وفيه لغتان: عَقِب، وعقْب، وعَقَب فلان مكان أبيه عاقبة، أي: خلفه، وهو اسم جاء

بمعنى المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

ولا فرق عند أحد من العلماء، بين لفظ، العقب، والولد، في المعنى، واختُلف في الذرية والنسل، فقيل: إنّهما بمنْزلة الولد، والعقب لا يدخل ولد البنات فيهما، وقيل: إنّهما يدخلون فيهما، وهذا الأخير هو الصواب، فإذا قال قائل: نسلي، أي: ولدي وولد ولدي، بما في ذلك ولد البنات؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات، قد خرجوا منه بوجه.

قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بالإمهال.

قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ﴾ أي: هلا نُزل.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: من إحدى القريتين، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: من أحدهما، أو على أحد رجلين من القريتين، يريدون مكة، والطائف.

قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوة، فيضعونَها حيث شاؤوا.

قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أفقرنا قومًا، وأغنينا قومًا، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم، فكيف يُفوَّض أمر النبوة إليهم.

قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: فاضلنا بينهم، فمن فاضل ومفضول، ورئيس ومرؤوس، وعبد وحر، وغني وفقير.

قوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: أعوانًا وخُدَّامًا، يُسَخِّر الأغنياء الفقراء، فيكون بعضهم معينًا لمعاش بعض، فالكل محتاج، بعضهم إلى بعض.

قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا ومتاعها ومما تفاضلوا به، والكرم والفضل إنما هو بتقوى الله، والتعرض لرحمته، وطلب مرضاته.

قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لولا أن يكفر الناس جميعًا، بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة، لأعطيناهم في الدنيا ما وصفنا؛ لهوان الدنيا على الله، وقيل: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة، أن إعطاءنا المال، دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال، والثاني أظهر، والأول أشهر.

قوله: ﴿سُقُفًا﴾ قرئت: (سَقْفًا) على الواحد، ومعناه الجمع، اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾، والقراءتان مثل رَهْن ورُهُن، وقيل: جمع سقيف، مثل: كَثيب وكُثب، ورغيف ورُغُف، وقيل: جمع سُقوف، فيصير جمع الجمع: سَقْف وسُقُوف، نحو: فَلْس وفُلوس، وقيل: اللام في ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بمعنى على، أي: على بيوتِهم.

قوله: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ أي: الدَّرَج، واحدها: مِعراج، والمعراج: السُّلَّم، ومنه ليلة المعراج، والجمع: معارج، ومعاريج، مثل: مفاتح، ومفاتيح لغتان. ويقال: معاريج، وهي المراقي والسلاليم، واحدها: مِعْرَج، ومَعْرَج، مثل: مِرقاة، ومَرقاة.

قوله: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يرتقون ويصعدون، يقال: ظهرت على البيت، أي: علوت سطحه، وهذا لأن من علا شيئًا وارتفع عليه ظهر للناظرين، يقال: ظهرت على الشيء، أي: علمته، وظهرت على العدو، أي: غلبته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أي: من فضة.

قوله: ﴿وَسُرُرًا﴾ وهو جمع السرير، وقيل: جمع الأسرة.

قوله: ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ الاتكاء والتوكُّؤ: التحامل على الشيء، ومنه: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾، ورجلُ تُكَأة، مثل: هُمَزَة، أي: كثير الاتكاء، والتُّكأة: ما يُتكأ عليه، واتكأ على الشيء، فهو مُتكِئ، والموضع: متَّكأ، وطعنه حتى أتكأه، أي: ألقاه على هيئة المتكئ، وتوكأت على العصا.

قوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: ذهبًا، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾، وقيل: ما يتخذ في المنازل من الأمتعة والأثاث والنقوش، يقال: زخرفت الدار: زيّنتها، وتزخرف فلان، أي: تزيّن، وانتصب ﴿وَزُخْرُفًا﴾ على معنى: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفًا، وقيل: بنَزع الخافض، والمعنى: فجعلنا لهم سقفًا وأبوابًا وسررًا من فضة وذهب، فلما حذف ﴿مِّن﴾ قال: ﴿وَزُخْرُفًا﴾، فنُصب.

قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ قرئت: (وإنّ كل ذلك).

قوله: ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من متاع الدنيا الحقيرة الفانية، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». وجاء عند الترمذي بسند لا بأس به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ

الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ». وعند الترمذي من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا». حديث صحيح. قال الشاعر:

فَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا جَزَاءً لِمُحْسِنٍ ... إِذًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَعَاشٌ لِظَالِمِ
لَقَدْ جَاعَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ كَرَامَةً ... وَقَدْ شَبِعَتْ فِيهَا بُطُونُ الْبَهَائِمِ

وقال آخر:

تَمَتَّعْ مِنَ الْأَيَّامِ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا ... فَإِنَّكَ فِيهَا بَيْنَ نَاهٍ وَآمِرِ
إِذَا أَبْقَتِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ دِينَهُ ... فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرِ
فَلَا تَزِنُ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... وَلَا وَزْنَ رَقٍّ مِنْ جَنَاحٍ لِطَائِرِ
فَلَمْ يَرْضَ بِالدُّنْيَا ثَوَابًا لِمُحْسِنٍ ... وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا عقابا لكافر

قوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: لهم خاصة، لا يشاركهم فيها أحد، ولهذا جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ! فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ. وَكَانَ مُتَّكِئًا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَلَسَ- فَقَالَ: أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

وفي الصحيحين من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلا الدِّيبَاجَ، وَلا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا؛ فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الآخِرَةِ».

قوله: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: يعمى، من عَشِي يَعْشى، إذا عمي، ورجل أعشى، وامرأة عشواء، وامرأتان عشواوان، إذا كان لا يبصر، والعَشَا: مصدر الأعشى، وهو الذي لا يبصر بالليل، ويبصر بالنهار، وأعشاه الله، فعشِي يَعْشَى عَشًى، وهما يَعْشَيان، وتعاشى، إذا أرى من نفسه أنه أعشى، والنسبة إلى أعْشَى: أَعْشَوِيّ، وإلى العَشِية: عَشَوِيّ، والعشواء: الناقة التي لا تبصر أمامها، فهي تَخْبِط بيديها كل شيء، وركب فلان العشواء، إذا خَبَط أمره على غير بصيرة، وفلان خابطٌ خبط عشواء. والمعنى: من يعرض ويتعامى ويتغافل عن الذكر، ويستبدل به أقوال المضلين ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾.

قوله: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ أي: نسبب له شيطانًا؛ جزاء له على كفره، كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي: ملازم ومصاحب في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الشياطين، أو إبليس وحزبه.

قوله: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: يحسب الكفار أنهم مهتدون، وأن الشياطين ناصحون.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ قرئت: (جاءانا)، أي: الكافر وقرينه.

قوله: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ أي: مشرق الشتاء، ومشرق الصيف، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾، وقيل: أي: ما بين المشرق والمغرب، فغلب اسم أحدهما، كما يقال: القمران، للشمس والقمر، والعُمران، لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والعصران، للغداة والعصر، والبصرتان، للكوفة والبصرة.

قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار، واشتراككم في العذاب، كما لا تجدي عنكم الندامة شيئًا، وقرئت: (إنكم في العذاب). وفي الآية منع الكافرين من التأسي والمواساة، فلا يواسي أحدهم الآخر كما كان يصنع أهل المصائب في الدنيا إذا نزل بهم مصيبة، فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة، فيسكن ذلك من حزنه، كما قالت الخنساء:

فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

قوله: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: نخرجك من مكة، أو نميتك، ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾.

قوله: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا، حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ». ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ أي: القرآن شرف لك ولقومك من قريش؛ إذ نزل بلغتهم، وعلى رجل منهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾، أي: شرفكم، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، كل من آمن بذلك، فصاروا عيالًا عليهم، وقيل: الخلافة، كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمُ اثْنَانِ»، وجاء أيضًا عندهما: «النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ، مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ»، وعند البخاري من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلا كَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ». وكلا المعنيين صحيح، والأول أقوى، وقيل: المقصود بالقوم: من اتبع

الرسول ﷺ من أمته، وعمل بما تضمنه القرآن الكريم، وهذا القول صحيح، تشمله الآيتان.

قوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ وكان رسول الله ﷺ، قد لقيهم ليلة الإسراء، كما سبق بيانه في سورة الإسراء، وقيل: واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا، والمعنيان صحيحان، والأول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾
وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾
وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ
مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا
ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ
نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: العالم، وكان السحرة علماء زمانهم، وكان السحر ممدوحًا عندهم، وقرئت: (يا أيُّهُ الساحر). قال الشاعر:

يــا أيهـــا الْقَلْـــبُ اللَّجُـــوجُ الـــنَّفَسِ أَفِــقْ عَــنِ الْبِـيضِ الْحِسَـانِ اللعــس

ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة، على معنى الاستفهام، فلم يؤنبهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا، والأول أظهر، وقيل: قصدوا: يا أيها الذي غلبنا بسحره، يقال: ساحرته، فسحرته، أي: غلبته بالسحر، كقول العرب: خاصمته، فخصمته، أي: غلبته بالخصومة، وفاضلته، ففضلته.

قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: أنهار النيل، وقرئت بالفتح: (تحتيَ)، أي: تحت ملكي، وقيل: كانت تجري من تحت قصره، والكل محتمل، وقيل: أفرقها على من يتبعني.

قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وقوتي وقدرتي، وضعف موسى عليه السلام.

قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ أي: بل، وليست بحرف عطف. قال الفراء: ﴿أَمْ﴾ على وجهين، إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم، لاتصاله بكلام قبله، وإن شئت جعلتها نسقًا - أي عطفًا - على قوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾.

قوله: ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: لا عز له ولا تمكين ولا مال ولا سلطان.

قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لما كان في لسانه من العقدة، على ما تقدم في سورة طه، ولقد كذب عدو الله، فقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة تبهر أبصار ذوي الألباب، وقد أحسن الله خَلقه وخُلقه ولسانه وبيانه، ولكن لَمّا كان ينظر بعين كافرة شقية قال ما قال، وهذا هو دأب فراعنة الدنيا في كل زمان ومكان، مع من ينازعهم كبرياءهم، ويدعوهم إلى الدَّيْنُونة لرب العباد، وملك السماوات والأرض.

قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي: هلا.

قوله: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ قرئت: أساورة، جمع الأسورة، فهو جمع الجمع، ويجوز أن يكون جمع إسوار، قال أبو عمرو بن العلاء: واحد الأساورة والأساور والأساوير: إسوار، وهي لغة في سُوار، وقال فرعون: ذلك لأنه عادة أهل وقتهم، وزِيّ أهل الشرف.

قوله: ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: متتابعين، يمشون معه، ويعاونونه على من خالفه.

قوله: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استجهل قومه؛ لخفة أحلامهم، وقلة عقولهم، يقال: استخفه الفرح، أي: أزعجه، واستخفه، أي: حمله على الجهل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا، وقد جاء عند أبي داود بسند صحيح عن عبيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْتُ الْفَجْأَةِ أَخْذَةُ أَسِفٍ».

قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ جمع سالف، كخادم وخَدَم، أي: لمن عمل عملهم، والسلف: المتقدم، يقال: سَلَف يسْلُف سَلَفًا، مثل: طلب طلبًا، أي: تقدم ومضى وسلف له عمل صالح، أي: تقدم، والقوم السُّلاف: المتقدمون، وسَلَفُ الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع: أسلاف، وسُلاّف، وقرئت: (سُلُفًا)، وهو جمع سليف، نحو سرير وسُرُر، وقال أبو حاتم: هو جمع سَلَف، نحو خَشَب وخُشُب، وثمر وثُمُر، ومعنى القراءتين واحد.

قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قرئت: (يَصُدون)، أي: يعرضون ويضجون، قال الجوهري: صَدّ يصُدُّ صديدًا، أي: ضج، والقراءتان لغتان، مثل: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ويعْرُشون.

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: يعنون محمدًا ﷺ، والأخير أظهر، فهو استفهام تقرير في خيرية آلهتهم.

قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ أي: إلا إرادة الجدل، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند صحيح عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلا أُوتُوا الْجَدَلَ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقيل: خاصموه، وقالوا: إن كان، كل من عبد دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا، مع الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام، ولو قرأ هؤلاء المغفلون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، ما أوردوا هذا الاعتراض، وهذا القول محتمل.

قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: شديد اللجاج بالباطل.

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: عيسى عليه السلام، وقيل: رسول الله ﷺ، والأول أظهر.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: آية وعبرة، يُستدل بها على قدرة الله، فقد كان أولًا، من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وسائر الأسقام، ما لم يُجعل لغيره في زمانه.

قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: بدلًا منكم، وخلفًا عنكم، وقيل: لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة، وإن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد، والاختلاف بالأوصاف، والقول الأول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة الأخيرة، وفي قراءة: (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) أي: علامة وأمارة ودليل على وقوع الساعة، ولهذا فقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا، وحَكَمًا مقسطًا، ولا ينكر نزوله إلا ضال مضل معاند للشرع، مخالف لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واتفاق أهل السنة، وفي صحيح مسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ... ».

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا

عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلا يُسْعَى عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ»، وقيل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: وإن إحياء عيسى عليه السلام للموتى، دليل على الساعة وبعث الموتى، وقيل: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، بدليل قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه وسهل رضي الله عنه: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ». وضم السبابة والوسطى.

قوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكوا في الساعة، ولا تكذّبوا.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أي: في التوحيد، وفيما أبلغكم عن الله، وقرئت بإثبات الياء في الوصل دون الوقف.

قوله: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة وتوابعها من المعجزات والآيات البينات، وهو الإنجيل، وقيل: ما يرغب في الجميل ويكف عن القبيح.

قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من تبديل التوراة، وما اختلفوا فيه من أحكامها.

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة.

قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي: يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء يلعن بعضهم بعضًا، ويكفر بعضهم بعضًا ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنّهم أخلاء، في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ قيل: زوجاتكم المسلمات، وقيل: قرناؤكم من المؤمنين، وقيل: زوجاتكم من الحور العين، والكل وارد.

قوله: ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تكرمون، وقد مضى هذا المعنى.

قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ واحدها: صحفة، كالقصعة، وهي آنية الطعام، قال الكسائي: أعظم القصاع: الجفنة، ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المِئْكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيفة تشبع الرجل، والصحيفة: الكتاب، والجمع: صحف، وصحائف.

قوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ واحدها: كوب، وهي آنية الشراب، أي: كوز لا عروة له. قال الشاعر:

مُتَّكِئًا تَصْفِقُ أَبْوَابُهُ ... يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ

قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ قرئت: (ما تشتهي الأنفس).

قوله: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: ما تستلذه العين، فكان حسن المنظر، يقال: لذّ الشيء يَلَذّ لذاذًا ولذاذة، ولَذِذت بالشي ألَذّ لذاذا ولذاذة، أي: وجدته لذيذًا، والتذذت به، وتلذذت به بمعنى، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي وغيره بسند جيد عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بِالْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَفِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا

بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يخفف عنهم العذاب.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من الرحمة والخير.

قوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: يقبض أرواحنا مما نحن فيه، فإنّهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

وقد قرأها رسول ﷺ على المنبر رواه الشيخان من حديث يعلى ابن أمية رضي الله عنه، وعند البخاري قال سفيان بن عيينة: في قراءة عبد الله (يا مال) وفي اللغة يرد الترخيم، وهو الحذف، يقال: يا مالِ، وفي حارث: يا حار، وفي مروان: يا مرو، وفي فاطمة: يا فاطم، وفي عائشة: يا عائش، وفي فلان: فل، فعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَلْقَى اللَّهُ الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ... »، وعند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يَا عَائِشَ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ. قُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَبَرَكَاتُهُ). قَالَتْ: وَهُوَ يَرَى مَا لَا نَرَى».

قوله: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ أي: أحكموا، يقال: أبرمت الشيء: أحكمته، وأبرم القتال، إذا أحكمه. والمعنى: أم أحكموا كيدًا فإنا محكمون لهم كيدًا.

قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: لو كان له ولد، كنت أول من عبده، بأن له ولد، ولكن لا ولد له، كما يقال: لمن يناظر: إن ثبت ما قلت، فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، أي: لا سبيل إلى اعتقاده، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، وقيل: معنى ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: الآنفين والجاحدين.

والمعنى: فأنا أول من يعبد الله ﷻ، على أنه واحد لا ولد له، يقال: عَبِدَ يَعْبَد عبدًا، إذا أَنِف وغضب، فهو عَبِد، والاسم: العَبَدة، مثل: الأنفة، وقيل: ﴿إِن﴾ بمعنى ما النافية، ويكون المعنى: قل ما كان للرحمن ولد، ويكون الكلام تامًا، ثم تبتدئ: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾، أي: الموحدين من أهل مكة، على أنه لا ولد له، والمعنى الأول الصحيح، وقرئت: (وُلْد) بضم الواو وإسكان اللام.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ أي: مستحق للعبادة في السماء، ومستحق العبادة في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾. أي: هو المألوه المعبود المدعو الله في السماوات والأرض، وهذا تكذيب لهم في أن لله شريكًا وولدًا.

قوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي: تمجَّد وتعظَّم.

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن ينال الشفاعة، من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه، وقيل: لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله، أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق، فإن من شهد بالحق، يشفع له ولا يشفع لمشرك، والقول الأول الحق والصواب، وفي الآية معنيان: أحدهما: أن الشفاعة بالحق غير نافعة، إلا مع العلم، والثاني: أن شرط الشهادات، أن يكون الشاهد عالمًا، وقد قيل: إذا رأيت مثل الشمس، فاشهد، وإلا فدَعْ.

قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ قرئت: (وقيلَه)، أي: بالجر، وبالنصب، فقراءة الجر على تقدير: وعنده علم الساعة ويعلم قيلَه، وأجاز الفراء، والأخفش، أن ينصب على المصدر، كأنه قال: وقال قيلَه، وشكا شكواه إلى الله ﷻ، قال البخاري: وقرأ عبد الله بن مسعود قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وأما في هذه الآية: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ أي: لا تجاوبْهم بكلام سيئ، ولكن تألفهم فعلًا وقولًا، وافعل بِهم معروفًا، فمن استقام منهم وآمن فذاك، ومن أعرض ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، وهذا تَهديد ووعيد، لا يعلم مداه إلا الله، وقرئت: (تعلمون)، على أنه من خطاب النبي ﷺ للمشركين بالتهديد، ولهذا أحلّ الله بِهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربِها.

انتهى تفسير سورة الزخرف، ولله الحمد.

  

سورة الدخان

وهي مكية بالإجماع، إلا آية.

جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لابن صياد: «إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا. قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ. قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ». والمعنى أنه ﷺ أضمر لابن صياد آية الدخان ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يهتد ابن صياد من الآية، إلا لهذا اللفظ الناقص، على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان عليهم بقدر ما يخطف، قبل أن يدركه الشهاب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨﴾

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن.

قوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: كل شأن ذي حكمة، أحكمه الله في الدنيا في السنة المقبلة، من حياة، أو موت، أو رزق، أو شقاوة، أو سعادة، يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة.

قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي: جميع ما يكون، ويقدره الله، فبأمره وإذنه وعلمه، و ﴿أَمْرًا﴾ و ﴿رَحْمَةً﴾ مصدر في موضع الحال، تقديره: أنزلناه آمرين به وراحمين.

قوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرئت: (رَبُّ) بالرفع.

قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقهم، وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم، فهم في شك، وإن توهموا أنّهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة، ويقال لمن أعرض عن المواعظ: لاعب، وهو كالصبي الذي يلعب، فيفعل ما لا يدري عاقبته.

قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: انتظر يا محمد بِهؤلاء الكفرة وبغيرهم من الفجرة، كالدجال، كما مر في مقدمة تفسير هذه السورة يوم تأتي السماء بدخان مبين، وقد اختلف في الدخان

في هذه الآية، فقيل: هو من أشراط الساعة الأخيرة؛ لما جاء عند مسلم، من حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّاعَةَ لا تَكُونُ، حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ»، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ، وَخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ».

والقول الثاني: أن الدخان هو ما أصاب قريشًا من الجوع بدعاء النبي ﷺ؛ لما ثبت عند الشيخين من حديث مسروق قال: «كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ جُلُوسًا وَهُوَ مُضْطَجِعٌ بَيْنَنَا، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُصُّ، وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تَجِيءُ، فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ -وَجَلَسَ وَهُوَ غَضْبَانُ-: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ! مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: لَا أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، وَإِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَئُوا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ. فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ. (وَفِي رِوَايَةٍ: وَجَعَلَ يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ) -، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جِئْتَ تَأْمُرُنَا -وَفِي رِوَايَةٍ: بِطَاعَةِ اللهِ وَ- بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا؛ فَادْعُ اللهَ -وَفِي رِوَايَةٍ: اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ! قَالَ: لِمُضَرَ؟ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ! فَاسْتَسْقَى؛ فَسُقُوا. فَقَرَأَ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَآئِدُونَ﴾ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ-، أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الْآخِرَةِ إِذَا جَاءَ ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ؟ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ، وَ {لِزَامًا} (يَوْمَ بَدْرٍ). وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: اللِّزَامُ، وَالرُّومُ، وَالْبَطْشَةُ، وَالْقَمَرُ، وَالدُّخَانُ».

والصواب أنه دخانان: دخانٌ تقدم، وهو ما أصاب قريشًا، ودخان سيأتي في آخر الزمان، كما هو صريح النصوص، وقد جاء عند ابن جرير بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما نمت الليلة حتى أصبحت، قيل له: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرقه، فما نمت حتى أصبحت.

قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ذلك، وقيل: يقول الناس عند رؤيته: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقيل: هو إخبار عن دنو الأمر، كما تقول: هذا الشتاء، فأَعِدّ له، وقيل: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، كقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، والقول الأول أظهرها.

قوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يقولون ذلك إذا نزل بِهم.

قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي: من أين يكون لهم التذكر والاتعاظ عند حلول العذاب؟

قوله: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ أي: علّمه بشر، أو علمه الكهنة والشياطين، ثم هو مجنون، وليس برسول.

قوله: ﴿ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ قيل: هي معركة بدر، وقد سبق مذهب ابن مسعود رضي الله عنه، وقيل: هي الساعة، وقد روى ابن جرير بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. والمعنى: وارتقب الدخان، وارتقب البطشة الكبرى، كما تقول: اتق النار، اتق العذاب، فحذفت الواو، وسميت بالكبرى، لأنّها خاتمة بطشاته في الدنيا.

قوله: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي: معاقِبون، يقال: انتقم الله منه، أي: عاقبه، والاسم منه: النقمة، والجمع: النِقَّمات.

قوله: ﴿رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ أي: في قومه، وأخلاقه وعند ربه.

قوله: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي: أدوا إلى سمعكم فاتبعوني، وأرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب، كقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتكبروا ولا ترتفعوا عن طاعته، ولا تبغوا ولا تفتروا على آياته.

قوله: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ أي: تشتمونِ، وقيل: بالحجارة، والأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ أي: دعوني كفافًا، لا لي ولا عليّ، فأنتم بمعزل عني، وأنا بمعزل عنكم، حتى

يحكم الله بيننا.

قوله: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾ أي: طريقًا يابسًا، كما قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقًا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسًا﴾، وقيل: ساكنا منفرجًا، يقال: جاءت الخيل رهوًا، أي: ساكنة. يقال: افعل ذلك رهوًا، أي: ساكنًا على هيئتك، وعيشٌ راهٍ، أي: ساكن رافه، ورها البحر، أي: سكن، وقال أبو عبيد: رَهَابين رجليه ترْهُو رهْوًا، أي: فتح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾، والرهو: السير السهل، رها يرهو في السير، أي: رفق. قال الشاعر في نعت الركاب:

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَّكِلُ

والرهو والرّهْوة: المكان المرتفع، والمنخفض يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد، ويقال للجوبة تكون في مَحَلة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره: الرهو، والجمع: رِهاء، ويقال لضرب من الطير: الرَّهْو، والمعنى في هذه الآية: اترك البحر يا موسى ساكنًا كما هو قد انفرق، فلا تأمره بالانضمام، حتى يدخل فرعون وقومه؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يضرب البحر الضربة الثانية حتى يلتئم، حتى يقطعه على فرعون فلا يلحقه.

قوله: ﴿وَنَعۡمَةٖ﴾ بالفتح، أي التنعيم يقال: نعمه الله وناعَمهُ، فتنعّم، وامرأة مُنعّمة ومُناعَمَة، والنِّعمة بالكسر: اليد والصنيعة والمنة، وما أنعم به عليك، وكذلك: النُّعمى، فإن فتحت النون مددت، وقلت: النعماء، والنعيم مثله، وفلان واسع النِّعمة، أي: واسع المال، وقد يقال: نَعمة، ونِعمة، وفي الفرق بينهما: أنّها بالكسر من المنة، وهو الإفضال والعطية، وبالفتح من التنعيم وهو سعة العيش والراحة.

قوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: أشرين بطرين، لاهين ناعمين مازحين، يقال: فَكِهَ الرجل، فهو فَكِهٌ، إذا كان طيب النفس مَزّاحًا، ويقال: إنه لفاكه، أي: مزّاح، وفيه فُكاهة، أي: مزح، ويقال: فكهين، وهما لغتان، كالحاذر والحذر، والفارِهِ والفرِه، وقيل: إن الفاكه، هو المستمتع بأنواع اللذة، كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة.

قوله: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: لكفرهم وفسادهم في الأرض، ~~لأنهم لا يستحقون ذلك، ولماذا تبكي عليهم، وقد كانوا يسجدون على الأرض ويعبدون غير الله سبحانه؟~~ وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عمّت مصيبته الأشياء، حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق وبكته الليالي الشاتيات.

والمعنى أنهم هلكوا، فلم تعظم مصيبتهم، ولم يوجد لهم فَقْد، بل فرح الصالحون في السموات والأرض بهلاكهم.

وفي الآية دلالة على بكاء السماوات والأرض على موت الصالحين، الذين يعمرون الأرض بالعلم

والتعليم، والذكر الحكيم، والركوع والسجود، والجهاد، والصيام، والقيام، والحج، إلى غير ذلك من شعائر الله عز وجل. وقد جاء عند الترمذي وابن ماجه وأحمد بسند جيد من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الأَيْدِي -وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ- حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا».

وبكاء السماء والأرض بكاء حقيقي لا مجازي كما ادعاه البعض؛ لأنها إذا كانت تسبح وتسمع وتتكلم كما هو في صريح النصوص، فكذلك هي تبكي وتتكلم.

قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخرين ولا ممهلين إلى وقت آخر.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: من المعجزات لموسى ﵇.

قوله: ﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ أي: نعمة ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾، وقيل: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به، وقيل: عذاب شديد، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفار قريش.

قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ابتداء وخبر، مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين.

قوله: ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو رجل مؤمن من ملوك اليمن، واحدهم: تُبّع، والتُّبّع أيضًا: الظل، والقول الأول أظهر، وقد جاء بإسناد جيد عند أبي داود من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ لَعِينٌ هُوَ أَمْ لاَ؟». وعند أحمد بسند حسن من حديث سهل ﵁: «لاَ تَسُبُّوا تُبَّعًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ».

ويذكر أنه كسا البيت بعدما أراد غزوه، وبعدما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد، وقال شعرًا أودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابرًا عن كابر، إلى أن هاجر النبي ﷺ فأدّوه إليه، وفيه:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ	رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ	لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمْ
وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ	وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ غَمْ

وقد ذم الله قومه ولم يذمه، وضرب بهم لقريش مثلًا؛ لقربهم من دارهم وعظمهم في نفوسهم.

قوله: ﴿لَـٰعِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَ ٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَـٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٢ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٥٠ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٧ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَـٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: يوم القيامة، وسمي بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾، فيوم الفصل ميقات الكل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَـٰتٗا﴾ أي: الوقت الذي يميز فيه المسيء من المحسن، ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـًٔا﴾ أي: لا يدفع ابن عم عن ابن عمه، ولا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، والمولى هو الولي، وهو ابن العم والناصر.

قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ أي: من رحم فمغفور له، وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن من رحم الله، لا ينالهم ما يحتاجون فيه، إلى من يغنيهم من المخلوقين.

قوله: ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ أي: الآثم الفاجر الكافر، كأبي جهل، وأبي لهب وأضرابِهما، من أثم يأثم إثمًا، وفي الصحاح: وقد أثم الرجل إثمًا ومأثمًا، إذا وقع في الإثم، فهو آثم، وأثيم، وأثوم.

قوله: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي: كالنحاس المذاب.

قوله: ﴿يَغۡلِي﴾ قرئت: (تغلي).

قوله: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوا الأثيم الفاجر.

قوله: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ أي: جُرّوه وسوقوه، والعتل: أن تأخذ بتلابيب الرجل، فتعتله، أي: تجره إليك لتذهب به إلى حبس أو بلية، عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا، إذا جذبته جذبًا عنيفًا، ورجل مِعْتَل، وفيه لغتان: عَتَلَه، وعَتَنَه، باللام والنون، وقرئت: (فاعتُلوه).

قوله: ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: وسطها.

قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ نظيره: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾.

قوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أي: يقال له ذلك، على وجه التهكم والتوبيخ، وفي ضمنها:

لست بعزيز ولا كريم.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكُّون به في الدنيا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ قرئت: (مُقام) والْمَقام: المكان، والْمُقام: الإقامة، قال الجوهري: وأما الْمَقام والْمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى القيام؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، وقيل: الْمَقام بالفتح: المشهد والمجلس، وبالضم يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدرًا، ويقدر فيه المضاف، أي: في موضع إقامة.

قوله: ﴿أَمِينٍ﴾ أي: يؤمن فيه من الآفات، كالموت، والهم، والحزن، والتعب، ومن كيد الشيطان، ومن جميع المصائب.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أدخلناهم الجنة وأعطيناهم ما ذكرنا، كذلك أكرمناهم بأن زوجناهم حورًا عينًا.

قوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الحَوَر: شدّة بياض العين في شدة سوادها، امرأة حوراء: بيّنة الحور، يقال: احورّت عينه احورارًا، واحور الشيء: أبيض، قال أبو عمر: الحور أن تسود العين كلها، مثل أعين الظباء والبقر، وليس في بني آدم حَوَر، وإنما قيل للنساء: حُور العين، لأنّهن يشبهن بالظباء والبقر.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن الموتة الأولى، وقد ذاقوها في الدنيا، وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى بعد، كقولك: ما كلمت رجلًا اليوم إلا رجلًا عندك، أي: بعد رجل عندك، وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وكما تقول: ما ذقت اليوم طعامًا سوى ما أكلت أمس، والمعاني كلها محتملة، والأول أقواها، وقد سبق حديث ذبح الموت، وهو عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وكذا حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما عند مسلم: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا، فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا».

قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر الفتح من ربك، والحكم فيما بينك وبينهم، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: منتظرون بزعمهم قهرك وحوادث الأزمان.

انتهى تفسير سورة الدخان، ولله الحمد.

  

سورة الجاثية

وهي مكية، وقيل: إلا آية واحدة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾

قوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ﴾ وقرئت (آياتٍ)، وكا قوله تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ﴾ وقرئت (آياتٍ)، والتقدير على النصب في الأولى: وإن في خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ، والتقدير على الجر في الآية الثانية: وفي اختلاف الليل والنهار آياتٍ، فحذفت في لتقدم ذكرها. وقوله: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: قرآنه.

قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ قرئت: (تؤمنون).

قوله: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: يتمادى على كفره، مأخوذ من صرّ الصرّة، إذا شدها، وقيل: من إصرار الحمار على العانة، وهي الحمارة الأتان، وهو أن ينحني عليها صارًا أذنيه.

قوله: ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، أي: كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن.

قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزز في الدنيا، والتكبر عن الحق جهنم، وقيل: أي: أمامهم، كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أي: من أمامه. قال الشاعر:

أَلَـيْسَ وَرَائِـي إِنْ تَرَاخَـتْ مَنِيَّتِـي ... أَدُبُّ مَـعَ الْوِلْـدَانِ أَزْحَـفُ كَالنَّسْـرِ

قوله: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ أي: من المال والولد، كما قال تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾.

قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: عذاب من عذاب أليم، وقرئت: (أليمٍ) نعتًا للرجز.

قوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من فعله وخلقه وإحسانه وإنعامه ومنّته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ
يَكْسِبُونَ ١٤ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١٥ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا
ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧ ثُمَّ
جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠ أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١
وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢﴾

قوله: ﴿يَغْفِرُواْ﴾ أي: ليصفحوا ويصبروا ويتحملوا أذى المشركين وأهل الكتاب، وكان هذا في ابتداء الإسلام ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد.

قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يخافون بأس الله ونقمه، وقيل: لا يرجون نعمه وثوابه، وقيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف، كما قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي: لا تخافون له عظمة، وهو داخل في المعنى الأول، والقول الأول الصواب، وكان هذا في ابتداء الإسلام؛ ليكون ذلك كالتأليف لهم.

قوله: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا﴾ قرئت: (لنجزي) بالنون على التعظيم.

قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: الفهم، والحكم على الناس والقضاء، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: الأنبياء، من يوسف، إلى عيسى عليهما السلام.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمر الشريعة، وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه.

قوله: ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: على منهاج واضح من الدين، يشرع بك إلى الحق، فالشريعة: ما شرع الله لعباده، أمرًا، ونهيًا، وحدودًا، وفرائض، والجمع: الشرائع، والأمر يرد في اللغة، بمعنيين، أحدهما: الشأن، كقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، والثاني: ما يقابل النهي، وكلاهما، يصح أن يكون مرادًا هاهنا، والتقدير: ثم جعلناك على طريقة من الدين، وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قوله: ﴿ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: اكتسبوها، والاجتراح: الاكتساب، ومنه: الجوارح، وقد تقدم في المائدة.

قوله: ﴿سَوَآءً﴾ قرئت بالرفع: (سواءٌ)، فبالرفع خبر المبتدأ مقدم، أي: محياهم ومماتُهم سواء، يعني

الكفار، وبالنصب على تقدير: نجعلهم سواءً، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ للكفار والمؤمنين جميعًا، وهذا الظاهر، وقد جاء عند أبي يعلى بسند حسن من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَا لَا يُجْتَنَى مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبُ، لَا يَنْزِلُ الْفُجَّارُ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ».

قوله: ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، قال إبراهيم بن الأشعث: كثيرًا ما رأيت الفُضيل بن عياض، يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، ثم يقول: ليتك تعلم، من أي الفريقين أنت؟.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: اتخذ هواه إلهه، فيه تقديم وتأخير، وسمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، فما ذكر الهوى في القرآن إلا في مقام الذم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ، فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَتَقْوَى اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، وَالْقَوْلُ بِالْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالسُّخْطِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتِ: فَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَهِيَ أَشَدُّهُنَّ». حديث حسن، رواه البيهقي في الشعب.

قال بعض السلف: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه، وعمله، وعلمه، فإن كان عمله تبعًا لهواه، فيومه يوم سوء، وإن كان عمله، تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح. قال الشاعر:

إِنَّ الْهَــوَانَ هُــوَ الْهَــوَى قُلِــبَ اسْــمُهُ فَــإِذَا هَوِيــتَ فَقَــدْ لَقَيْــتَ هَوَانَــا

وسئل ابن المقفع عن الهوى، فقال: هوانٌ سُرقت نونه.

قال الشاعر:

نُــونُ الْهَــوَانِ مِــنَ الْهَــوَى مَسْــرُوقَةٌ فَــإِذَا هَوِيــتَ فَقَــدْ لَقِيــتَ هَوَانَــا

وقال آخر:

إِنَّ الْهَــــوَى لَهْــــوَ الْهَــــوَانُ بِعَيْنِــــهِ فَــإِذَا هَوِيــتَ فَقَــدْ كَسَــبْتَ هَوَانَــا

وَإِذَا هَوِيــــتَ فَقَــــدْ تَعَبَّــــدَكَ الْهَــــوَى فَاخْضَــعْ لِحُبِّــكَ كَائِنًــا مَــنْ كَانَــا

وقال الشاعر:

إِذَا طَالَبَتْــكَ الــنَّفْسُ يَوْمًــا بِشَــهْوَةٍ وَكَــانَ إِلَيْهَــا لِلْخِــلَافِ طَرِيــقُ

فَــدَعْهَا وَخَــالِفْ مَــا هَوِيــتْ فَإِنَّمَــا هَــوَاكَ عَــدُوٌّ وَالْخِــلَافُ صَــدِيقُ

وقال سهل التُّسْتَري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك. وقال وهب: إذا شككت في أمرين، ولم تدر خيرهما، فانظر أبعدهما من هواك فأته، وحسبنا في ذم الهوى، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدهما: أضله الله، لعلمه أنه يستحق ذلك، والآخر: أضله الله، بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول، ولا عكس.

قوله: ﴿غِشَٰوَةً﴾ قرئت: (غشوة).

قوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي: السنون والأيام، ولذلك يسبونها، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ عز وجل: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ! فَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا» وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»، والمعنى أن الله فاعلها، فكأنهم إنما سبوا الله؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنون ويسندون إليه تلك الأفعال، وقد غلط ابن حزم وغيره من الظاهرية، غلطًا بينًا فاحشاً، في عدِّهم الدهر من أسماء الله الحسنى، أخذًا من هذا الحديث. قال الشاعر:

يَــــا عَاتِــــبَ الــــدَّهْرِ إِذَا نَابَــــهُ لَا تَلُــــمِ الــــدَّهْرَ عَلَــــى غَــــدْرِهِ

الــــدَّهْرُ مَــــأْمُورٌ، لَــــهُ آمِــــرٌ وَيَنْتَهِــــي الــــدَّهْرُ إِلَــــى أَمْــــرِهِ

كَـــمْ كَـــافِرٍ أَمْوَالُـــهُ جَمَّـــةٌ ... تَـــزْدَادُ أَضْـــعَافًا عَلَـــى كُفْـــرِهِ

وَمُـــؤْمِنٌ لَـــيْسَ لَـــه درهـــم ... يـــزداد إِيمَانًـــا عَلَـــى فَقْـــرِهِ

وقال قطرب: المعنى: وما يهلكنا إلا الموت. وأنشد قول الشاعر:

أَمِـــنَ الْمَنُـــونِ وَرَيْبِـــهِ تَتَوَجَّـــعُ ... وَالـــدَّهْرُ لَـــيْسَ بِمُعْتِـــبٍ مَـــنْ يَجْـــزَعُ

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتكلمون بالظن، وكان المشركون أصنافًا، فمنهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره.

قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ سمي قولهم حجة، وليس بحجة؛ لأنّهم أدلوا به كما يُدلي المحتج بحجته، وساقوه مساقه، فسميت حجة، على سبيل التهكم، أو لأنه في حسبانِهم وتقديرهم حجة.

قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على رُكَبها من الشدة والعظمة والهول في ذلك اليوم، والأمة: أهل كل ملة، وأصل الجثوة: الجماعة من كل شيء. وقيل (جاثية): مجتمعة.

قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: كتاب أعمالها، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، كقوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ من قول الله عز وجل، وقيل: من قول الملائكة، والأول الصواب.

قوله: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يشهد، يقال: نطق بكذا، أي: بيَّن، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي: نأمر الملائكة الحفظة، بنسخ ما كنتم تعملون في صحائف أعمالكم.

قوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين، تكسبون المعاصي، يقال: فلان جريمة أهله، إذا كان كاسبهم، فالمجرم: من أكسب نفسه المعاصي، وقد قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قرئت: (والساعة).

قوله: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هل هي حق أم باطل؟

قوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: لا نصدِّق بها، ولكن نسمع الناس يقولون: إنَّ هناك آخرة، فنتوهم بها توهمًا.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: بمتحققين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٣ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٣٥ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣٧﴾

قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾، وقرئت: (لا يَخْرُجون)، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا يُطلب منهم أن يرضوا ربَّهُم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذٍ.

قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قرئت: (ربُّ) بالرفع فيها كلها، على معنى: هو ربٌّ.

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمة والجلال والسلطان والقدرة والكمال، وعند مسلم من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ».

انتهى تفسير سورة الجاثية، ولله الحمد.

  

سورة الأحقاف

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

قوله: ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: إلى يوم القيامة، وهو الأجل الذي تنتهي إليه السماوات والأرض، وهي مدة معينة مضروبة، لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: نصيب في خلقها.

قوله: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أي: دليل بيِّن، من بقية علم صحيح، قال ابن عباس رضي الله عنهما: خط كانت تخطه العرب في الأرض. رواه أحمد وصححه ابن حجر. وفي الصحاح: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾: بقية منه، وكذلك الأثرة، ويقال: سمنت الإبل على إثارة، أي: بقية شحم كان قبل ذلك، والأثارة، والأثر: البقية، يقال: ما ثم عين ولا أثر، والأثارة مصدر، كالسماحة، والشجاعة، يقال: أثرت الحديث آثُره أثرًا وأثارَةً وأُثْرة، فأنا آثر، إذا ذكرته عن غيرك، ومنه: حديث مأثور، أي: نقله خلف عن سلف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ۝١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾

قوله: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ أي: لا تقدرون على أن تردوا عني عذاب الله، فكيف أفتري

على الله لأجلكم؟ !، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾.

قوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ أي: تقولونه وتخوضونه فيه من التكذيب، والإفاضة في الشيء: الخوض فيه، والاندفاع، يقال: أفاض البعير، أي: دفع جِرّته من كَرِشه، فأخرجها.

ويقال: أفاض الناس من عرفات، أي: دفعوا، وكل دفعة إفاضة.

قوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لست أول من أُرسل وطرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فماذا هذا الإنكار والاستبعاد؟ والبِدع: الأول، وبِدْع، وبديع بمعنى، مثل: نصف، ونصيف، وأبدع الشاعر: جاء بالبديع، وشيء بدْع، أي: مبتَدع، وفلان بِدْع في هذا الأمر، أي: بديع، وقوم أبداع.

قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي﴾ منسوخة بقوله عز وجل: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وسيأتي بيان ذلك، قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: أما في الآخرة فمعاذ الله، وقد علم أنه في الفردوس الأعلى، وأنه الذي يفتح باب الجنة، ولكن قال: ﴿مَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ في الدنيا، هل أُخرج كما أُخرجت الأنبياء من قبلي؟ أم أُقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري، أيخسف بكم، أو ترمون بالحجارة، أو ينْزل عليكم عذاب من السماء، كما قال تعالى عنه: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

وأما قوله كما عند البخاري من حديث أم العلاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَاللهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي» فمحمول على أنه قال ذلك، قبل أن يتبين له الأمر، ثم اللفظ المحفوظ: «مَا يُفْعَل بِهِ»، أي: بعثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي هذا وأمثاله، دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن، بالجنة أو بالنار، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغميصاء، وبلال، وسراقة، ووالد جابر بن عبد الله، والقراء السبعين، وعكاشة، وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وما أشبههم.

قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ روى البخاري، ومسلم، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ. قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ».

قوله: ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ أي: على مثل ما جئتكم به، وقد شهد ابن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على اليهود أن رسول الله ﷺ مذكور في التوراة، وأنه من عند الله، كذكره في القرآن.

قوله: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا﴾ يعنون الإسلام، والقرآن.

قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ كما قالوا: أساطير الأولين، قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ

بِعِلۡمِهِۦ﴾، وقد قيل لبعض السلف: هل في القرآن: من جهل شيئًا عاداه؟ فقال: نعم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن.

قوله: ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ﴾ أي: يقتدى بما فيه، ورحمة من الله.

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ﴾ أي: للتوراة، ولما قبله من الكتب، كما أنه مصدق لمن أُنزل عليه، وهو الرسول ﷺ.

قوله: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾ منصوب على الحال، و ﴿لِّسَانًا﴾ توطئة للحال وتأكيد، كقولهم: جاءني زيد رجلًا صالحًا، وقيل: نصب بإضمار فعل، تقديره: وهذا كتاب مصدق، أعني لسانًا عربيًا، وقيل: نصب بإسقاط حرف الخفض، تقديره: بلسان عربي، وقيل: ﴿لِّسَانًا﴾ مفعول، والمراد: النبي ﷺ، والتقدير: مصدق ذا لسان عربي، فـ ﴿لِّسَانًا﴾ منصوب بـ ﴿مُّصَدِّقٞ﴾ والأظهر القول الأول.

قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرئت: (لتنذر).

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

قوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ قرئت: (حُسنًا)، وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين، والبصرة، والشام، وحجتهم: قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾، وحجة القراءة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾، وكذا هو في مصاحف الكوفة.

قوله: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ أي: بكره ومشقة، من وحم، وغثيان، وثقل، وكرب، وقرئت: (بِكُرۡهٍ)، وكذلك لفظ الكره في كل القرآن بالفتح، إلا التي في سورة البقرة، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ لأن ذلك اسم، وهذه كلها مصادر، وهما لغتان، مثل: الضُّعف والضَّعف، والشُّهد والشَّهد.

قوله: ﴿وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا﴾ من الطلق، والشدة، عند خروج الولد، وقد جاء عند عبد بن حميد، قال الربيع بن خيثم: ليس للنفساء، مثل الرطب، ولا للمريض، مثل العسل. صححه ابن حجر.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: قوي وشبّ وارتجل.

قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ أي: تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين، وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين، أن يجدد التوبة والإنابة، ويعزم عليها، وقد جاء عند أحمد، وأبي يعلى عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، آمَنَهُ اللهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَايَا، مِنَ الْجُنُونِ وَالْبَرَصِ وَالْجُذَامِ، وَإِذَا بَلَغَ الْخَمْسِينَ، لَيَّنَ اللهُ عزَّ وَجل عَلَيْهِ حِسَابَهُ، وَإِذَا بَلَغَ السِّتِّينَ، رَزَقَهُ اللهُ إِنَابَةً يُحِبُّهُ عَلَيْهَا، وَإِذَا بَلَغَ السَّبْعِينَ، أَحَبَّهُ اللهُ وَأَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَإِذَا بَلَغَ الثَّمَانِينَ، تَقَبَّلَ اللهُ مِنْهُ حَسَنَاتِهِ وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ، وَإِذَا بَلَغَ التِّسْعِينَ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَسُمِّيَ أَسِيرَ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَشُفِّعَ فِي أَهْلِهِ». قال ابن حجر في الخصال المكفرة: له طرق.

قال ابن عباس ﵄: إذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملًا صالحًا، كتب الله له من الأجر، مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه، ولم يضره ما عمل في كبره، ولم يكتب عليه الخطايا التي يعمل، بعد ما يبلغ أرذل العمر. صححه ابن حجر. قال بعض السلف: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله عزَّ وَجَل. قال الشاعر:

صَبَا مَا صَبَا حَتى عَلا الشَّيبُ رأسَهُ ... فلمَّا عَلاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ: أبعدِ

قوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي: ألهمني.

قوله: ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ في موضع نصب على المصدر، أي: شكر نعمتك.

قوله: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ﴾ قرئت: (يُتقبل) بضم الياء.

قوله: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ قرئت: (ويُتجاوز)، والتجاوز أصله من جزت الشيء، إذا لم تقف عليه.

قوله: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد، أي: مع جميعهم، أو في جملة أصحاب الجنة.

قوله: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ نصب؛ لأنه مصدر مؤكد لما قبله، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذي وعده الله، وهو كقوله: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، وهذا عند الكوفيين، فأما عند البصريين فتقديره: وعد الكلام الصدق، أو الكتاب الصدق، فحذف الموصوف.

وقد جاء عند ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﵄، عن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ الْعَبْدِ وسَيِّئَاتِهِ، فَيَقْتَصُّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَإِنْ بَقِيَتْ حَسَنَةٌ وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فِي الْجَنَّةِ». قال الراوي عن ابن عباس ﵁: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾. قال ابن كثير: حديث غريب، وإسناده جيد لا بأس به.

قوله: ﴿أُفّٖ﴾ قرئت: (أفَّ) بالفتح من غير تنوين، وقرئت: (أفِّ) بالكسر من غير تنوين، وهو اسم فعل مضارع، بمعنى أتضجّر.

قوله: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ قرئت: (أتعدانيَ) بفتح الياء.

قوله: ﴿أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي: أُبعث.

قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ أي: قد مضى الناس، فلم يرجع منهم مخبر، جاء عند البخاري عن يوسف بن ماهك قال: «كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الْحِجَازِ اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ، فَخَطَبَ، فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ؛ لِكَيْ يُبَايِعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا؛ فَقَالَ: خُذُوهُ. فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ، فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ﴾. فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي».

قوله: ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ أي: يدعوان الله بالهداية، ويستغيثان بالله من كفره.

قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قرئت: (ولنوفيهم أعمالهم).

قوله: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ قرئت: (أأذهبتم طيباتكم)، ومعناها: التوبيخ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام، واختار أبو عبيد ترك الاستفهام؛ لأنه قراءة أكثر الأئمة السبعة، والتوبيخ واقع على الكفر وترك الشكر، لا على تناول الطيبات المحللة، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ

﴿كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٨﴾

قوله: ﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ وهي ديار عاد، وهي الرمال العظام، وهي جمع حِقْف، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجّ ولم يبلغ أن يكون جبلًا، والجمع: حِقاف، وأحقاف، وحقوف، واحقوقف الرمل والهلال، أي: اعوج، وقيل: الحِقف جمع حِقاف، والأحقاف جمع الجمع، ويقال: حِقْفٌ أحقف، واختلف العلماء، أين كانت هذه الأحقاف؟ فقيل: بين عُمان، وعدن، وقيل: هي أرض من حِسْمَى بالبادية، فيها جبال شواهق مُلس الجوانب، لا يكاد القتام يفارقها، وقيل: هي جبل بالشام، وأظهر الأقوال أنّها في حضرموت.

قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي: الرسل من قبل هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن بعده.

قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو من كلام هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: تزيلنا عن عبادتِها بالكذب، ولتصرفنا عنها بالمنع.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي: السحاب الذي يعترض في الأفق، وكان قد جاءهم من وادٍ، جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثًا.

قوله: ﴿بَلۡ هُوَ﴾ أي: قال لهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد جاء عند مسلم من حديث عائشة - رَضِيَ الله عَنْها - قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ». وعند الشيخين، قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَى مَخِيلَةً فِي السَّمَاءِ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَدَخَلَ وَخَرَجَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَدْرِي، لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ الْآيَةَ». وفي رواية: «مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾»، وعند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ».

قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ أي: كل شيء مرّت عليه، من رجال عاد وأموالها، من دَمَر دمارًا، يقال: دمّره تدميرًا ودمارًا، ودمّر عليه بمعنى، ودَمَر يَدْمُر دُمورًا: دخل بغير إذن، وتدمُر: بلد بالشام، ويربوعٌ تُدْمُرِيّ، إذا كان صغيرًا قصيرًا.

قوله: ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذنه سبحانه.

قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ قرئت: (لا تَرى إلا مساكنَهم) أي: يا محمد.

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ فـ ﴿إِن﴾ صلة، والتقدير: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه، وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، و ﴿إِن﴾ بمعنى ما، والتقدير: ولقد مكناكم في الذي ما مكناهم فيه. والأول أظهر.

قوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ أي: هلا نصرهم، أو فهل نصروهم، عند احتياجهم إليهم؟.

قوله: ﴿قُرْبَانًا﴾ حال.

قوله: ﴿ءَالِهَةًۖ﴾ مفعول ثانٍ، حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، والقربان: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى، من طاعة ونسيكة، والجمع: قرابين، كالرهبان والرهابين.

قوله: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾ أي: هلكوا وذهبوا عنهم، أحوج ما كانوا إليهم.

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبُهم في قولهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ! فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلَ حِرَاءٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَدْنَاكَ، فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ! فَقَالَ: أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ... فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فَقَالَ: لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا؛ فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».

وعند الترمذي بسند لا بأس به من حديث جابر رضي الله عنه قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ

مَرْدُودًا مِنْكُمْ: كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ».

وعند الشيخين من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: «سَأَلْتُ مَسْرُوقًا: مَنْ آذَنَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْجِنِّ لَيْلَةَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ؟ فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُوكَ -يَعْنِي عَبْدَ اللهِ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ آذَنَتْ بِهِمْ شَجَرَةٌ».

وعند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ! قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ؛ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟ فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾. فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾».

وعند البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذَا؛ إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ. بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ، فَقَالَ: لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ: إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ، عَلَيَّ الرَّجُلَ. فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ! قَالَ: فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي. قَالَ: كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ؟ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا، وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا؟ قَالَ عُمَرُ: صَدَقَ؛ بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ، يَقُولُ: يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَوَثَبَ الْقَوْمُ، قُلْتُ: لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا. ثُمَّ نَادَى: يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقُمْتُ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ».

وخلاصة القول: أن حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيه إثبات، وحديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيه النفي، والقاعدة المشهورة تقول: المثبت مقدم على النافي، وشواهد هذه القاعدة، مبثوثة بكثرة في كتب الفقه، ويحتمل أن يكون حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أول الأمر، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حال استماعهم، حتى أعلمته الشجرة باجتماعهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد جاء عند ابن جرير من وجه جيد كما قال ابن كثير، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال: «كَانُوا سَبْعَةَ نَفَرٍ مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ فَجَعَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ».

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﵁: «أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِدَاوَةً لِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَكَانَ لَا يَلْتَفِتُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ-، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ. فَقَالَ: ابْغِنِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا، وَلَا تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلَا بِرَوْثَةٍ. فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي حَتَّى وَضَعْتُهَا إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا قَضَى أَتْبَعَهُ بِهِنَّ-، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشَيْتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ؟) قَالَ: هُمَا مِنْ طَعَامِ الْجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ (نَصِيبِينَ -وَنِعْمَ الْجِنُّ-)، فَسَأَلُونِي الزَّادَ، فَدَعَوْتُ اللهَ لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلَا بِرَوْثَةٍ إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهَا طُعْمًا».

ويذكر أن رجلًا يقال له: سواد بن قارب أتاه آت ثلاث مرات وهو نائم، فقال له: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤي بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنِّ وأنْجَاسِها ... وشَدّها العيسَ بأحْلاسِهَا
تَهْوي إِلَى مَكةَ تَبْغي الهُدَى ... مَا مُؤمنو الجِنِّ كَأرْجَاسِهَا
فَانْهَض إِلَى الصَّفْوةِ مِنْ هَاشمٍ ... واسْمُ بعينَيْك إِلَى رَاسِهَا

فلما كانت الثالثة وقع الإسلام في قلبه، فشد راحلته، وأتى الرسول ﷺ بمكة وأخبره، فقال:

أتَانِي رئيَّ بَعْدَ لَيْلٍ وهَجْعةٍ ... وَلَم يَكُ فِيمَا قَدْ بَلوتُ بكَاذبِ
ثَلاثِ لَيَالٍ قَولُه كُلَّ لَيْلَةٍ ... أتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤيّ بْنِ غَالبِ
فَشَمَّرتُ عَنْ سَاقي الإِزَارَ وَوَسَّطَتْ ... بِيَ الدَّعلب الوَجْنَاءُ عِنْدَ السَّبَاسبِ
فَأشْهَدُ أَنَّ اللهَ لَا شَيءَ غَيْرُهُ ... وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائبِ
وأنَّك أدْنَى المُرْسَلِينَ شَفَاعَةً ... إِلَى اللهِ يَا ابنَ الأكرَمينَ الأطايبِ
فَمُرنَا بمَا يَأتِيكَ يَا خَيرَ مُرْسلٍ ... وإنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيبُ الذّوَائبِ
وَكُنْ لِي شَفِيعا يَومَ لَا ذُو شَفَاعةٍ ... سِوَاك بمغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَاربِ

قوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾.

قوله: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رجعوا، كقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، وقد استدل بهذه الآية، على أنه في الجن نذر، وليس فيهم رسل، ولا شك أن الجن، لم يبعث الله تعالى منهم رسولًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وقال عن إبراهيم ﵇: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، وأما قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، فالمراد: من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما، وهو الإنس،

كقوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، ثم إن رسل الجن إلى الجن: المنذرون، وهم رسل رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ فيه دلالة على أن هؤلاء الجن كانوا يهودًا، فأسلموا، ولم يذكروا عيسى عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل، فيه مواعظ وترقيقات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة التوراة، ولذلك قال ورقة بن نوفل، حين أخبر بالرسول ﷺ ونزول الوحي عليه، قال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، بالرغم أنه كان نصرانيًا. والحديث متفق عليه.

قوله: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ فيه دلالة على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وهو مذهب جمهور السلف، وقد قال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، يعني الجن والإنس، وقد سبق مردود الجن حين سمعوا قراءتَها، ومما يدل على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾. وكم يبعد عن الصواب ويجانب الحق من يقول: إنما جزاء الذين يعملون الصالحات من الجن: الإجارة من النار وهول القيامة، وغفران الذنوب وكفى، وبعد ذلك يقال لهم: كونوا ترابًا، مثل البهائم، مستدلًا بقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

قوله: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ أي: يعجز ويضعف عن إبداعهن، يقال: عَيَّ بأمره، وعَيِيَ، إذا لم يهتد لوجهه، والإدغام أكثر، وتقول في الجمع: عَيُوا، مخففًا، وعَيّوا أيضًا، بالتشديد.

قوله: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ الباء صلة، كالباء في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾. قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، وقيل: هي خَلَف الاستفهام في أول الكلام، والتقدير: أليس الله بقادر، كقوله: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ﴾، والعرب تدخل الباء مع الجحد، تقول: ما ظننت أن زيدًا بقائم، ولا تقول: ظننت أن زيدًا بقائم، ولذلك قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: أولو الحزم والصبر، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، ومحمد ﷺ، وهم أصحاب الشرائع، كما تقدم، وقيل: كل الرسل كانوا أولي عزم، و ﴿مِنَ﴾ إنما هي لبيان الجنس، ولا شك في ذلك، ولكن يقال: هناك عزم دون عزم، وقد أراد الله عزَّ وَجَل، في هذه الآية، أولي العزم الأكبر، وهم الخمسة المذكورون في سورتي الأحزاب، والشورى.

قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ أي: بالدعاء عليهم في إحلال العذاب بِهم، فإن أبعد غاياتِهم يوم القيامة، ومفعول الاستعجال محذوف، وهو العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾.

قوله: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ أي: في الدنيا، يعني في جنب يوم القيامة وما فيه، وقيل: في قبورهم، والأول أظهر.

قوله: ﴿بَلَٰغٞ﴾ أي: هذا القرآن بلاغ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾، والبلاغ، بمعنى التبليغ، وقيل: أي أن ذلك اللبث بلاغ، فيوُقف على هذا على ﴿بَلَٰغٞۚ﴾، وعلى: ﴿نَّهَارِۭۚ﴾، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: لا يهلك إلا هالك مشرك، وقد جاء عند مسلم، من حديث ابن عباس قوله ﷺ: «وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ»، وهذا من عدله سبحانه، أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

انتهى تفسير سورة الأحقاف، ولله الحمد.

  

سورة محمد

وهي مدنية بالإجماع إلا آية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ
ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ
۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩
۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

قوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم، كما أبطل ما عملوه في كفرهم لما كانوا يسمّونه: مكارم، من صلة الرحم، والعتاقة، وإكرام الضيف، وفك الأسرى، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

قوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطف الخاص على العام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته ﷺ.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة، أي: إيمانُهم وما أنزل على محمد ﷺ هو الحق من ربّهم.

قوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم وأحوالهم وجميع أمورهم، كما أصلح نيّاتِهم. قال الشاعر:

فَــإِنْ تُقْبِلِــي بِــالْوُدِّ أُقْبِــلْ بِمِثْلِــهِ   وَإِنْ تُــدْبِرِي أَذْهَــبْ إِلَــى حَــالٍ بَالِيـا

والبال كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العرب، إلا في ضرورة الشعر، فيقولون فيه: بالات، وقد يكون في موضع آخر بمعنى القلب، يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي: على قلبي، قال الجوهري: والبال: رخاء النفس، يقال: فلان رخِيّ البال، والبال: الحال، يقال: ما بالك؟ ويقال: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه، والبال: الحوت العظيم من حيتان البحر، وليس بعربي، والبالة: وعاء الطيب، فارسيٌّ معرّب، وأصله بالفارسية: بيلة.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أمثال المؤمنين والكافرين، فأعمال المؤمنين إلى أحسن حال، وأعمال الكافرين إلى أسوأ مآل.

قوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: اضربوا الرقاب ضربًا، وخصت بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بِها، وقيل: نصبت على الإغراء، قال أبو عبيدة: كقولك: يا نفس صبرًا، وقيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب، والأول أقربُها. وفي العبارة ﴿فَضَرْبَ﴾ من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ: فاقتلوهم؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة، وهي حز العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعُلْوه وأوجه أعضائه.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وأكثرتم فيهم القتل والجراحات، ولم تبق لهم قوة للمقاومة، فأْسروهم وكفُّوا عن قتلهم.

قوله: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ إذا أسرتموهم، فشدوا وثاقهم لئلا يفلتوا، والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرًا، يقال: أوثقته إيثاقًا ووثاقًا، وأما الوِثاق فهو اسم الشيء الذي يوثق به، كالرباط.

قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: بالإطلاق من غير فدية، أو أخذ الفدية، ولم يذكر القتل لأنه تقدم، ونصب ﴿مَنًّۢا﴾ و ﴿فِدَآءً﴾ بإضمار فعل.

ويذكر أن الحجاج أسر أربعة آلاف من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث، فقتل منهم ثلاثة آلاف، حتى قدم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرًا! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فوالله! ما مننت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ ... إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حِمْلُ الْمَغَارِمِ

فقال الحجاج: أف لهذه الجيف! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام!؟ خلوا سبيل من بقي. فخلي يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين.

والآية محكمة لا ناسخ لها؛ لأن النسخ لا يكون إلا بشيء قاطع، والإمام مُخيّر بين الأمرين، وقد منّ الرسول ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه على ثمامة بن أُثال رضي الله عنه وهو أسير في يده، وأخذ من سلمة بن الأكوع رضي الله عنه جارية، ففدى بِها أناسًا من المسلمين، كما جاء عند مسلم من حديث سلمة رضي الله عنه.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: سلاحها، يعني: حتى تأمنوا وتضعوا السلاح، ويضع الأعداء المحاربون سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة، ويقال للكراع: أوزار.

وقد جاء عند أحمد، والنسائي بسند جيد عن سلمة بن نُفيل رضي الله عنه قال: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ

ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ، وَوَضَعُوا السِّلَاحَ، وَقَالُوا: لَا جِهَادَ؛ وَقَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا! فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِوَجْهِهِ وَقَالَ: كَذَبُوا، الآنَ الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيغُ اللهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَهُوَ يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ، وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِي أَفْنَادًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرت، وقيل: هو منصوب، على معنى: افعلوا ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ، والمعنى: ذلك حكم الكفار، وهي كلمة يستعملها الفصيح، عند الخروج من كلام إلى كلام، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾، أي: هذا حق، وأنا أُعرفكم أن للطاغين كذا.

قوله: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: أهلكهم بغير قتال.

قوله: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: أمركم بالحرب، ليبلو ويختبر بعضكم ببعض، فيعلم المجاهدين والصابرين.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ قرئت: (قاتلوا).

قوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة لمن استشهد منهم، ويحقق الهداية لمن بقي منهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وقال عن الكفار: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: اسلكوا بهم إليها.

قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ جاء عند البخاري من حديث أبي سعيد رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ، بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا». وقيل: طيّبها لهم بأنواع الملاذّ، مأخوذ من العَرْف، وهو الرائحة الطيبة، وطعام مُعَرّف، أي: مُطيّب، تقول العرب: عرّفت القدر، إذا طيّبتها بالملح والأبزار: وهي التوابل. وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال: حرير معرّف، أي: بعضه على بعض، وهو من العُرف المتتابع، كعرف الفرس، والمعنى الأول هو الصواب، والثاني محتمل.

قوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي: بُعدًا وقُبحًا وشرًا وشقاوة لهم، ونُصب على المصدر بسبيل الدعاء، مثل: سقيًا له ورعيًا، وهو نقيض لعًّا له، وهي كلمة يدعى بها للعاثر، معناها: الارتفاع.

وقيل: إن التعس الانحطاط والعثار. قال ابن السكيت: التعس أن يخر على وجهه. والنكس: أن يخر على رأسه. قال: والتعس الهلاك. قال الجوهري: وأصله الكب، وهو ضد الانتعاش. وقد تعَس يتعس تعسًا، وأتعسه الله.

يقال: تعسًا لفلان، أي ألزمه الله هلاكًا. وجوّز قوم تَعِس. وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ...».

قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأحبطها؛ لأنّها كانت في طاعة الشيطان.

قوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم واستأصلهم، يقال: دمره تدميرًا، ودمّر عليه بمعنى.

قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: أمثال هذه الفعلة، يعني التدمير، وقيل: للكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا.

قوله: ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وليهم وناصرهم. جاء عند البخاري، قال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين سأل عن النبي ﷺ يوم أحد، وعن أبي بكر، وعمر، فلم يُجَب: أما هؤلاء فقد قتلوا، فما ملك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك، وفيه قال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: لا هم لهم إلا بطونُهم وفروجهم، ساهون عما في غدهم، وقد قيل: المؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَأْكُلُ الْمُسْلِمُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»، وبنحوه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولمسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ».

قوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كم.

قوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أي: أخرجك أهلها، وقد روى الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عدي بن حمراء ﵁ قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ واقِفًا على الْحَزْوَرَة، فقال: وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ».

قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على بصيرة وثبات ويقين.

قوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: عبادة الأصنام، ونظيرها: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ أي: غير متغير الرائحة، والآسن من الماء مثل الآجن، وقد أسن الماء يأسُن ويأسِن أَسْنًا وأُسُونًا، إذا تغيرت رائحته، وكذلك: أجَن الماء يأجُن ويأجِن أجْنًا وأُجُونًا، ويقال بالكسر: أجِن، وأسِن يأسَن ويأجَن، أسْنًا وأجنًا، وأسِن الرجل يأسَن، إذا دخل البئر، فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك، فغشي، أو دار رأسه، وتأسن الماء: تغير، ويقال: تأسّن عليّ تأسُّنًا: اعتل وأبطأ، وتأسن الرجل أبًا: أخذ أخلاقه، أو إذا نزع إليه في الشبه، وقرئت: (أسن) بالقصر، وهما لغتان، بالمد والقصر، مثل حاذر وحذر، قال الأخفش: أسن للحال، وآسن يراد به: الاستقبال.

قوله: ﴿لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام، كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة.

قوله: ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لأن الخمر، كريهة الطعم في الدنيا، لا يتلذذ بها إلاّ فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة، فهي طيبة الطعم والرائحة، يشربها أهل الجنة، لمجرد الالتذاذ.

قوله: ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ أي: من الشمع والقذى، فلم يخرج من بطون النحل، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند صحيح عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ، وَبَحْرَ الْعَسَلِ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ، وَبَحْرَ الْخَمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ». وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ، وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ، وَالنِّيلُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ». وفي الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة ﵁، وقد سبق في حديث الإسراء قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ، نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ: فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ، وَالْفُرَاتُ». وعند البخاري قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

قوله: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فـ ﴿مِن﴾ صلة، والتقدير: ولهم فيها كل الثمرات، قال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾.

قوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: وفوق ذلك، النعيم الحسن، نعيم الروح وهو المغفرة مع الرحمة والرضوان كما في الحديث: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». متفق عليه من حديث

أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار.

قوله: ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾ واحدها: مِعًى، والتثنية: مِعيان، وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من هؤلاء الكفار والمنافقين، الذين يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: فارقوا مجلسك.

قوله: ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم الصحابة.

قوله: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الآن، أو الساعة، على جهة الاستهزاء، أي: كنا لم نعبأ بقوله، ولم نلتفت إلى ما يدعو إليه، وهذا من بلادتِهم وقساوة قلوبِهم وضلالة بصيرتِهم، يقال: استأنفت الشيء، إذا ابتدأت به، ومنه: أمرٌ أُنُف، وروضة أُنُف، أي: لم يرعها أحد، وكأس أُنُف، إذا لم يشرب منها شيء، كأنه استؤنف شربُها، مثل: روضة أنف. وأنف كل شيء أوله. وقد قيل: الناس رجلان: رجل عقل عن الله فانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع. وقيل أيضًا: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع غافل تارك.

قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون.

قوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل اشتمال من الساعة، كقوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾.

قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة.

قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أماراتُها وعلاماتُها، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِإِصْبَعَيْهِ هَكَذَا -بِالْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ-: بُعِثْتُ وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ». قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، وواحد الأشراط: شَرَط، وأصله الأعلام، ومنه قيل: الشُّرَط؛ لأنّهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بِها، ومنه: الشَّرط في البيع وغيره، ويقال: أشرط فلان نفسه في عمل كذا، أي: أعلمها وجعلها له.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مبتدأ، و ﴿أَنَّىٰ لَهُمْ﴾ خبر، والضمير في ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ للساعة، والتقدير: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتْهم الساعة؟ وقيل: فكيف لهم النجاة، إذا جاءتْهم الذكرى عند مجيء الساعة؟ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ

بَعِيدٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ أي: العلم اليقيني الضروري، قال سفيان بن عيينة، وسئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ...﴾ ثم أمر بالعمل بعد، وقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، فأمر بالعمل بعد العلم، وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ...﴾ إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: استغفر الله أن يقع منكم ذنب، والخطاب له وللأمة، وقد جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَكَلْتُ مَعَهُ خُبْزًا وَلَحْمًا، أَوْ قَالَ: ثَرِيدًا. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَسْتَغْفَرَ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾...».

وكان رسول الله ﷺ يقول، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي، وَجَهْلِي، وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وفي الحديث الحسن: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ! فَقَالَ اللهُ: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي». رواه أحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. والأحاديث في الاستغفار وفضله كثيرة جدًا.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ أي: في أعمالكم بالنهار.

قوله: ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: في ليلكم نيامًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، وقيل: يعلم متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الدنيا والآخرة، والأول أظهر. والمقصود أنه الله عز وجل عالم بجميع حركات خلقه وسكناتهم، جملة وتفصيلًا، أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، سبحانه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ إِنَّ

ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ
كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ
وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾﴾

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ أي: هلا، حرصًا على الجهاد وثوابه.

قوله: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أي: صريحةٌ لا نسخ فيها. ظاهرة الدلالة، على الأمر بالقتال، قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين.

قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق.

قوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي: نظر المغموصين المغتاظين، بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره عند الموت، وذلك لجبنهم وجزعهم وهلعهم وخوفهم من القتال، ولميلهم في السر إلى الكفار، والركون إلى الدنيا، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

قوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي: قاربهم ما يهلكهم ونزل بهم، تَهدّدٌ ووعيد. قال الشاعر:

فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى ... وَهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم أي شيء فاتك، قال الْجُرْجاني: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب، وقيل: الأولى بِهم أن يسمعوا ويطيعوا، ولذا قال تعالى: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾، وهذا الأخير هو الأظهر.

قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جدّ الحال وحضر القتال.

قوله: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أخصلوا له النية في الإيمان والجهاد ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ من المعصية والمخالفة.

قوله: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: عن الجهاد، ونكلتم عنه وعن القرآن، ورغبتم فيما سواه ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ بسفك الدماء، وقطع الأرحام، والعودة إلى الجاهلية الجهلاء.

روى الشيخان من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلا تَرْضَيْنَ

أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ». قال أبو هريرة ﵁: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾، وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» وذكر الآية.

وعند الشيخين من حديث جبير بن مطعم ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ».

وقد جاء في فضل صلة الأرحام نصوص كثيرة، ومن أبرزها: حديث أنس ﵁ عند الشيخين قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ! فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ».

وعند مسلم من حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ».

وعند البخاري من حديث ابن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا».

وعند أحمد، وأبي داود، والترمذي بسند صحيح عن ابن عمرو ﵄، يَبْلُغ به النبي ﷺ قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتْهُ».

فالرحم على وجهين: عامة، وخاصة، فالعامة: رحم الدين، فيجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله، ونصرتِهم، والنصيحة، وترك مضارتِهم، والعدل بينهم، والإنصاف في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المريض، وتغسيل الموتى، والصلاة عليهم، ودفنهم، وأما الرحم الخاصة، وهي رحم القرابة من طرفي الرجل: أبيه، وأمه، فتجب لهم الحقوق العامة وزيادة، كالنفقة، وتفقد الحقوق، وإذا تزاحمت الحقوق، بدئ بالأقرب فالأقرب.

قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفال، أقفلها الله عزَّ وَجَل، فهم لا يعقلون، وأصل القَفْل: اليُبْس والصلابة، ويقال لما يبس من الشجر: القَفْل، والقفيل مثله، والقفيل: نبت، والقفيل: الصوت، فالأقفال هنا إشارة إلى ارتجاج القلب، وخلوّه من الإيمان، فلا يدخل الإيمان في قلوبهم، ولا يخرج الكفر والخبث منها؛ لأنه قد طبع عليها.

قوله: ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ أي: زين لهم خطاياهم.

قوله: ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي: مدّ لهم في الأمل، ووعدهم طول العمر، وقرئت: (وأُمْلِي لهم)، أي: على وجه الخبر من الله عزَّ وَجَل، أنه يفعل ذلك بِهم، كأنه قال: وأنا أملي لهم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الإملاء لهم، حتى تمادوا في الكفر والنفاق.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ﴾ يعني المنافقين، واليهود.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وهم المشركون.

قوله: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: في مخالفة محمد ﷺ وعداوته، والقعود عن الجهاد معه، وتوهين أمره في السر.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ قرئت: (أسرارهم) جمع سر، وجمعت لاختلاف ضروب السر، قال تعالى: ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا﴾، ونظيره، قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

قوله: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي: الإيمان والتقوى، وكل ما يؤدي إلى رضا الله عزَّ وَجَل.

قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نفاق وشك من المنافقين.

قوله: ﴿أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ أي: ما يضمروه من المكروه، والغش، والحسد والعداوة للإسلام وأهله، والأضغان مفردها: ضغن. قال الشاعر:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وقال آخر:

وَإِنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَفْشُو ... عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا

قال الجوهري: الضغن والضغينة: الحقد، وقد ضغِن عليه ضِغْنًا، وتضاغن القوم، واضطغنوا: أبطنوا على الأحقاد، واضطغَنْت الصبي، إذا أخذته تحت حضنك. ويقال: فرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن

﴿يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ٣٧ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾

قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم، والعرب تقول: سأريك ما أصنع، أي: سأعلمك، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: بما أعلمك.

قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم.

قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: فحواه ومعناه. قال الشاعر:

وَخَيْرُ الْكَلَامِ مَا كَانَ لَحْنا

أي: ما عرف بالمعنى ولم يصرّح به، وهو الذهاب عن الصواب، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أم سلمة ﵂، قال ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ...». أي: أذهب بِها في الجواب؛ لقدرته على تصريف الكلام، يقال: لَحَنْتُ أَلْحَنُ لَحْنًا، إذا قلت له قولًا يفهمه عنك، ويخفى على غيره، ولَحِنَه يلحنه لَحْنًا، أي: فهمه، وألحنته أنا إياه، ولاحنت الناس: فاطنتهم.

قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: نتعبدكم ونختبركم بالشرائع، وإن علمنا عواقب الأمور، حتى نعلم العلم المشاهد، الذي يقع به الجزاء؛ لأنه سبحانه، إنما يجازيهم بأعمالهم، لا بعلمه السابق عليهم.

قوله: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: ونختبر أعمالكم، حسنها، وقبيحها.

قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالرياء، والسمعة، والمنّ، والأذى، والكبائر، وقد احتج بعض أهل العلم على أن التحلل من التطوع، صلاةً كان، أو صومًا، بعد التلبس به لا يجوز، والصواب خلاف ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الحسن: «الصَّائِمُ الْمُتَطَوِّعُ أَمِيرُ نَفْسِهِ، إِنْ شَاءَ صَامَ، وَإِنْ شَاءَ أَفْطَرَ».

وعند أبي داود بسند جيد، من حديث أم هانيء ﵂ قالت: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ - فَتْحِ مَكَّةَ - جَاءَتْ فَاطِمَةُ، فَجَلَسَتْ عَنْ يَسَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأُمُّ هَانِئٍ عَنْ يَمِينِهِ، قَالَتْ: فَجَاءَتْ الْوَلِيدَةُ بِإِنَاءٍ فِيهِ شَرَابٌ، فَنَاوَلَتْهُ فَشَرِبَ مِنْهُ؛ ثُمَّ نَاوَلَهُ أُمَّ هَانِئٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ أَفْطَرْتُ وَكُنْتُ صَائِمَةً، فَقَالَ لَهَا: «أَكُنْتِ تَقْضِينَ شَيْئًا؟ قَالَتْ: لا، قَالَ: فَلا يَضُرُّكِ إِنْ كَانَ تَطَوُّعًا».

وعند البيهقي بسند حسن من حديث أبي سعيد ﵁ قال: «صَنَعْت لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا، فَلَمَّا وُضِعَ قَالَ رَجُل: أَنَا صَائِم، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «دَعَاك أَخُوك وَتَكَلَّفَ لَك، أَفْطِرْ وَصُمْ مَكَانه إِنْ شِئْت».

ولذا فالمقصود هنا: إبطال ثواب العمل المفروض، فأما ما كان نفلًا فلا؛ لأنه ليس واجبًا عليه، فإن

قيل: اللفظ عام، فالجواب: العام يجوز تخصيصه، ووجه التخصيص: أولًا: النقل عن رسول الله ﷺ، كما سبق في الحديث. ثانيًا: العقل، وهو أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي تخييرًا.

قوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم في ثواب أعمالكم، كما تقول: دخلت البيت، وأنت تريد: في البيت، ومنه: الموتور، الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وتَرَه يَتِره وَتْرًا وتِرَةً وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاةُ الْعَصْرِ، كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ». أي: ذهب بِهما، وكذلك: وَتَرَه حقه، أي: نقصه.

قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة، بل أمر بإخراج البعض، ثم إن هذه الأموال ليست أموالكم، وإنما هي أمواله سبحانه، فهو المنعم بإعطائها، والمتفضل بإسباغها.

قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يُلح عليكم، ويحوجكم فتبخلوا، يقال: أحفى بالمسألة، وألحف، وألحّ بمعنى واحد، والحفِيّ: المستقصي في السؤال، وكذلك: الإحفاء: الاستقصاء في الكلام والمنازعة، ومنه: أحفى شاربه، أي: استقصى في أخذه.

قوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: في إخراج الأموال، إخراجًا للضغائن.

قوله: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: أطوع لله منكم.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ أي: في البخل، بالإنفاق في سبيل الله.

انتهى تفسير سورة محمد، ولله الحمد.

  

سورة الفتح

وهي مدنية بالإجماع.

جاء عند البخاري عن زيد بن أسلم، عن أبيه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ! نَزَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ! قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي. قَالَ: فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ! وَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾».

وعند مسلم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا...﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾، مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ، هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا».

وعند الشيخين من حديث أبي وائل قال: «كُنَّا بِصِفِّينَ، فَقَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ-؛ فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ فَقَالَ: بَلَى. فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا. فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ؛ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا. فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ».

وعند الشيخين من حديث عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ (وَفِي رِوَايَةٍ: قِرَاءَةً لَيِّنَةً)، فَرَجَّعَ فِيهَا. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ مُعَاوِيَةُ يَحْكِي قِرَاءَةَ ابْنِ مُغَفَّلٍ، وَقَالَ: لَوْلَا أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْكُمْ لَرَجَّعْتُ كَمَا رَجَّعَ ابْنُ مُغَفَّلٍ يَحْكِي النَّبِيَّ ﷺ. (فَقُلْتُ لِمُعَاوِيَةَ: كَيْفَ كَانَ تَرْجِيعُهُ؟ قَالَ: آآآ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمٗا
٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرٗا ٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧
إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ يعني صلح الحديبية، وجعل فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه. وقد ثبت عند البخاري من حديث البراء رضي الله عنه قال: «تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ، فَتْحَ مَكَّةَ؟! وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ، بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ فَنَزَحْنَاهَا، فَلَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَاهَا فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّهُ فِيهَا، فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرِكَابَنَا».

قوله: ﴿مُّبِينٗا﴾ أي: بينًا ظاهرًا؛ لحصول الخير الجزيل فيه، وإيمان بعض الناس بعد الصلح، وأعطي فيه المؤمن فرصته ليتكلم مع الكافر ويدعوه إلى الله، حتى انتشر العلم النافع والإيمان. قال الزهري: لقد كانت الحديبية أعظم الفتوح، وذلك أن النبي ﷺ جاء إليها في ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض، وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن، فما مضت تلك السنتان، إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف، وكان من بنود الصلح، وضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل ، وبسبب ذلك أمن الناس بعضهم بعضًا، واتسعت دائرة الدعوة لدين الله عزَّ وَجَل، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجًا، فلذلك سماه الله فتحًا.

وقيل: المراد بالفتح هو فتح مكة، وكان في شهر رمضان سنة ثمان من هجرة النبي إلى المدينة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين، قال ابن كثير: (والمراد بالفتح هنا فتح مكة قولًا واحدًا) وتدل عليه أحاديث كثيرة، وقد ورد هذا في القرآن العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وهذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد، وليس هناك حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره مثله. وقد جاء عند البخاري عن أنس رضي الله عنه قال:

«قَالَ أَصْحَابُهُ: هَنِيئًا مَرِيئًا، فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾».

قوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين وانتشاره.

قوله: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قويًا منيعًا، فيه عزةٌ وغلبة، لا يتبعه ذل، بسبب خضوعك لأمر الله، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلا عِزًا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلا رَفَعَهُ اللهُ». قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: السكون والطأنينة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في سورة البقرة.

قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ استدل بِها البخاري وغيره من الأئمة، على تفاضل الإيمان في القلوب.

قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ظنهم أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابه، حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين سيستأصلونَهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في الدنيا، بالقتل والسبي والأسر، وفي الآخرة بجهنم، وقرئت: (دائرة السُّوء) بالضم، قال الجوهري: ساءه يسوءه سَوْءًا ومَساءة ومَساية، نقيض سرّه.

قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وعند البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ: حَسْبُكَ الآنَ. فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ».

قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ وقرئت: (ليؤمنوا)، وكذلك: (ويعزوه ويوقروه ويسبحوه).

قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تفخموه وتنصروه وتمنعوا منه، ومنه: التعزير في الحد؛ لأنه مانع، وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه.

قوله: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تسودوه، والتوقير: التعظيم والتزيين، والهاء فيهما للنبي ﷺ، وهنا وقف تامٌّ، ثم تبتدئ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: الله، والضمير هنا، راجع إلى الله بغير خلاف، وقيل: الضمائر كلها لله تعالى، والقول الأول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٤ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾

قوله: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: بالحديبية.

قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: إنما هي بيعة الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وهذه المبايعة هي بيعة الرضوان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يبايعونك

قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فيه إثبات اليد لله عزَّ وَجَل، كما تليق بجلاله، وهو حاضر معهم بعلمه، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايَع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وقد جاء عند الترمذي بسند حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «وَاللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ». وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند الحاكم، وعند ابن أبي حاتم: «فَمَنِ اسْتَلَمَهُ فَقَدْ بَايَعَ اللهَ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾».

وجاء عند الطبراني بسند لا بأس به من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، قال ﷺ: «يَأْتِي الْحَجَرُ الأَسْوَدُ أَعْظَمَ مِنْ جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ، وَهُوَ يَمِينُ اللهِ الَّتِي يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ». قال ابن حجر: إسناده حسن وفي مصنف عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا: الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه.

قوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ وقرئت: (عليهِ).

قوله: ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ﴾ وقرئت: (فسنؤتيه).

جاء عند البخاري من حديث جابر ﵁ قال: «عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ. قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَفَرَّجَ أَصَابِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى أَهْلِ الْوَضُوءِ، الْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ-. فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ. قَالَ: فَشَرِبْنَا، وَتَوَضَّأْنَا. -وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَعَلْتُ لَا آلُو مَا جَعَلْتُ فِي بَطْنِي مِنْهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ بَرَكَةٌ-). قَالَ سَالِمُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ: فَقُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةٍ».

وفي حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى ﵄، قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِائَةٍ، وَكَانَتْ أَسْلَمُ ثُمْنَ الْمُهَاجِرِينَ». رواه البخاري معلقًا، ومسلم موصولًا.

ولمسلم من حديث جابر ﵁: «بَايَعْنَاهُ، وَعُمَرُ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَهِيَ سَمُرَةٌ. وَقَالَ: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ، وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ. وَفِي رِوَايَةٍ: غَيْرَ جَدِّ بْنِ قَيْسٍ الْأَنْصَارِيِّ، اخْتَبَأَ تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرِهِ».

وعند الشيخين من حديث سلمة ﵁: «بَايَعْنَاهُ عَلَى المَوتِ».

وعند البخاري من حديث ابن عمر ﵄ قال: «بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ»، وفي رواية عند الشيخين: «كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا: فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ».

وعند الصحيحين من حديث سلمة ﵁، قال: «بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى ظِلِّ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا خَفَّ النَّاسُ قَالَ: يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ! أَلَا تُبَايِعُ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: وَأَيْضًا. فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ». وفي رواية لمسلم: «قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَةَ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تُرْوِيهَا. قَالَ: فَقَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَبَا الرَّكِيَّةِ، فَإِمَّا دَعَا وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا، فَجَاشَتْ؛ فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَانَا لِلْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ. قَالَ: فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسَطٍ مِنَ النَّاسِ قَالَ: بَايِعْ يَا سَلَمَةُ. قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ. قَالَ: وَأَيْضًا. قَالَ: وَرَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَزِلًا -يَعْنِي لَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ-، فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَجَفَةً أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُنِي يَا سَلَمَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَفِي أَوْسَطِ النَّاسِ! قَالَ: وَأَيْضًا.. قَالَ: فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا سَلَمَةُ! أَيْنَ حَجَفَتُكَ -أَوْ دَرَقَتُكَ- الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ عَزِلًا فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهَا. قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –، وَقَالَ: إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الْأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ وَاصْطَلَحْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، أَسْقِي فَرَسَهُ وَأَحُسُّهُ وَأَخْدِمُهُ، وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ. قَالَ: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ؛ أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا، فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا. قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ

مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَّقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ. قَالَ: فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِي. قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ! لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ. قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ يُقَالُ لَهُ: مِكْرَزٌ، يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعُوهُمْ، يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ. فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا. قَالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٌ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ رَقِيَ هَذَا الْجَبَلَ اللَّيْلَةَ، كَأَنَّهُ طَلِيعَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ سَلَمَةُ: فَرَقِيتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا...».

وقد روى مسلم عن أم مبشر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا. قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾». وقد سبق في سورة مريم.

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرئت: (ضُرًا) بضم الضاد، أي: أمرًا يضركم، وهو مصدر ضررته ضرًا، وبالضم: اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال، وقيل: هما لغتان بمعنى، كالفَقر والفُقر، والضَّعْف والضُّعف.

قوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هلكى فاسدين، لا يصلحون لشيء من الخير، وامرأة بور، وهو جمع بائر، مثل: حائل وحُول، وقد بار فلان، أي: هلك، وأباره الله، أي: أهلكه، وقيل: أشرارًا.

قوله: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي: مغانم خيبر؛ لأن الله عزَّ وَجَل، وعد أهل الحديبية فتح خيبر، وأنّها لهم خاصة، من غاب منهم، ومن حضر.

قوله: ﴿ذَرُونَا﴾ أي: دعونا، تقول: ذَرْه، أي: دعه، وهو يَذَره، أي: يدعه.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يغيروا وعد الله الذي وعد لأهل الحديبية، وقرئت: (كَلِمَ)، جمع كلمة، نحو: سَلِمة وسَلِم، والكلام: ما استقل بنفسه من الجمل، قال الجوهري: الكلام اسم جنس، يقع على القليل والكثير، والكَلِم لا يكون أقل من ثلاث كلمات؛ لأنه جمع كلمة، مثل: نَبِق ونَبِقة، ولهذا قال سيبويه: هذا بابُ عِلْم ما الكَلِم من العربية، ولم يقل: ما الكلام؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء: الاسم، والفعل، والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعًا، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة، وتميم

تقول: كِلْمة.

قوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية: إن غنيمة خيبر، لمن شهد الحديبية خاصة.

قوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يعلمون إلا أمر الدنيا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو حنيفة -قوم مسيلمة الكذاب- أصحاب الردة، وقيل: هم فارس والروم، وقيل غيرهم، والصحيح: عدم التعيين، فربما كانت واحدة من هذه الفرقة، وربما كانت كلها، وقد دعاهم أبو بكر رضي الله عنه، إلى قتال بني حنيفة، ودعاهم عمر رضي الله عنه إلى قتال فارس والروم.

قوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية.

قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: عام الحديبية.

قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ قرئت: (ندخله).

قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: في غزوة الحديبية، عندما بايع المؤمنون، رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن لا يفروا، فسميت الشجرة التي تمت البيعة تحتها (شجرة الرضوان)، وسميت تلك البيعة (بيعة الرضوان)، لأن الله تبارك وتعالى قال فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾، وقد جاء وعند أبي شيبة بسند صحيح من حديث جابر رضي الله عنه قال: «لما لَقِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم النُّقَباءُ مِنَ الأنصارِ وقال لهم: تُؤْوُنِي وَتَمنَعُونِي. قَالُوا: فَمَا لَنَا؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: الجَنَّة».

وعند البخاري عن سعيد بن المسيب قال: «حَدَّثَنِي أَبِي: أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِينَاهَا فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا! فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم لَمْ

يَعْلَمُوهَا، وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ؟ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ!». وقد سبق حديث ابن عمر رضي الله عنهما بسند صحيح أنه قطعها، حين رأى قومًا يُصلون عندها.

قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق، والوفاء، والسمع، والطاعة.

قوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي: غنائم خيبر، وكانت ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة، وقيل: فارس والروم، وقيل: المغانم إلى يوم القيامة، والأول أظهر، والجميع وارد.

قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: غنائم خيبر، وقيل: صلح الحديبية، وقيل: مكة، والأول أظهر، والثالث محتمل؛ لأن صلح الحديبية، لم يكن فيه مغانم حسية، وإنما كان فيه المغانم المعنوية، وقد جاء عند أحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَانَ يَوْمُ الحُدَيْبِيَةِ قَالَ: لَا تُوقِدُوا نَارًا بِلَيْلٍ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَاكَ قَالَ: أَوْقِدُوا، وَاصْطَنِعُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْرِكُ قَوْمٌ بَعْدَكُمْ صَاعَكُمْ وَلَا مُدَّكُمْ». حسنه ابن حجر.

قوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي أهل مكة، كفهم بالصلح، وأيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحديبية وخيبر.

قوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لتكون سلامتكم، وسلامة أهليكم، وهزيمة المشركين وخذلانُهم، وما ألقي من الرعب في قلوب اليهود، آية على صدقك.

قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ هي الفتوح التي فتحت على المسلمين، كأرض فارس، والروم، وجميع ما فتحه المسلمون.

قوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: علم أنّها ستكون لكم، فأعدّها لكم، فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه، فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها في الحال، فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم.

قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: كفار قريش يوم الحديبية، وقيل: غطفان، وأسد، الذين أرادوا نصرة أهل خيبر، والكل محتمل.

قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه سنته في خلقه، ما تقابل الكفر الصريح والإيمان الصحيح في موطن إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق، ووضع الباطل، كما فعل الله تعالى يوم بدر بأوليائه، مع قلة عددهم وعدتهم، وكثرة المشركين وعتادهم. ونصب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدر، وقيل: أي: كسنة الله، والسنة: الطريقة والسيرة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ

فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ
حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٢٦ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ
رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ سبق قبل قليل حديث سلمة رضي الله عنه في سبب نزول هذه الآية، وعند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه، «أَنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِّحِينَ، يُرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَأَخَذَهُمْ سِلْمًا فَاسْتَحْيَاهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ». وبطن مكة: الحديبية؛ لأن بعضها مضاف إلى الحرم، وقيل: مكة. والصواب: الأول؛ لحديث سلمة السابق في سبب نزولها، وكانت قبل فتح مكة.

قوله: ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: منعوكم عام الحديبية حين أحرم النبي ﷺ مع أصحابه بعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ مكانه، الذي يذبح فيه وهو الحرم، وهم كانوا لا يعتقدونه، ولكن حملتهم الأَنَفة، ودعتهم حمية الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينًا، وقد جاء عند البخاري من حديث المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه قال: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي بِضْعِ عَشْرَةَ مِائَةً مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ النَّبِيُّ ﷺ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَ وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ».

قوله: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا﴾ أي: محبوسًا موقوفًا ومجموعًا، يقال: عكفه، أي: حبسه ووقفه، يعكفه عكْفًا. ويقال: ما عكفك عن كذا، ومنه: الاعتكاف في المسجد وهو الاحتباس.

قوله: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: منحره، وهو الحرم، والمحل: غاية الشيء، والمحل: الموضع الذي يحله الناس.

قوله: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ أي: ولولا أن في مكة رجالًا ونساءً من المؤمنين المستضعفين، الذين يخفون إيمانهم خوفًا من المشركين من المستضعفين المؤمنين، وكانوا وسط الكفار، كسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل رضي الله عنهم، وأشباههم.

قوله: ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ أي: لا تعرفونهم بأعيانهم، لاختلاطهم بالمشركين، وكانوا يكتمون إيمانَهم، خيفة على أنفسهم من قومهم.

قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ بالقتل والإيقاع بهم، يقال: وطِئت القوم، أي: أوقعت بِهم، والتقدير: لولا وَطْؤكم رجالًا مؤمنين ونساءً مؤمنات، لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة وإبادة خضرائهم، ولكنَّا

صُنًّا من كان فيها يكتم إيمانه.

قوله: ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: عيب، وهي مفعلة من العُرّ، وهو الجرب، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم، وقيل: إثم وغرامة وكفارة وغم من أجل قتل الخطأ؛ لأن الله تعالى أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارة دون الدية، في قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، والقول الثاني أظهر.

قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير قصد ولا شعور، كما وصفت النملة جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: إنما فعل ذلك، ليخلّص المؤمنين من بين أظهر المشركين، وليرجع كثيرٌ منهم إلى الإسلام، و (اللام) متعلقة بمحذوف، أي: لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته، وقيل: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، وهذا القول أظهر.

قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو تفرقوا وتميَّز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار، لعذبنا الكافرين منهم أشدَّ العذاب، ولسلطناكم عليهم بالقتل والسبي والتشريد من الأوطان.

وقد استدل بِهذه الآية على مراعاة الكافرين إذا تترسوا بمسلمين، فإن قُتل المسلمون، فعلى من قتلهم الدية والكفارة، فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة، وهذا ما ذهب إليه مالك، والشافعي، وخالفهم أبو حنيفة، والثوري، فأجازوا الرمي في حصون المشركين، وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم، والصواب: القول الأول، ولكن، شريطة أن لا يكون هناك مصلحة ضرورية كلية قطعية، فإن كان فلا ريب في جواز ذلك، ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يقتل التُّرْس، حتى لو أدى ذلك إلى استيلاء العدو على المسلمين، ومعنى ضرورية: أي: لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس، ومعنى كلية: أنّها قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة لكل المسلمين، فإن لم يُقتل استولى الكفار على جميع الأمة، ومعنى قطعية: أن المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعًا.

قوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: أنفة الجاهلية، يقال: حَمِيت عن كذا حَمِيَّة ومَحْمِيّة، إذا أنِفْت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله، قال الزهري: حميتهم: أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم من دخول مكة.

قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الكلمة التي يتقي بها من الشرك، وهي كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «﴿وَأَلْزَمَهُمْ

كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»، وعند الشيخين من حديث المسيب: قال: «أَيْ عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». وقال الزهري: «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ لأن المشركين أبوا كتابتها، ولم يقروا بها، فخص المؤمنين بها، والكل محتمل.

قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ من كفار مكة.

قوله: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ لأن الله اختارهم للجهاد في سبيلها.

وفي ختام هذا المبحث عن صلح الحديبية نذكر تفاصيل الصلح، فقد جاء عند البخاري من حديث المسور ومروان قالا: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ؛ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ. فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ! فَأَلَحَّتْ؛ فَقَالُوا: خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا. ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ. فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا. فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ. وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ! أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي آتِيهِ. قَالُوا: ائْتِهِ. فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ! أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ: هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ

الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ! أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ. قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ! فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ! أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ. ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ؛ تَعْظِيمًا لَهُ. فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ! وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا! وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ؛ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ. فَقَالُوا: ائْتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ؛ فَابْعَثُوهَا لَهُ. فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ؛ فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ. فَقَالُوا: ائْتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ. فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ. قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ! وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ. فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى

أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟! فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ -وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ- حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ! قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَجِزْهُ لِي! قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قَالَ: بَلَى فَافْعَلْ! قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟! أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟! وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا أَبَى سُهَيْلٌ أَنْ يُقَاضِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ كَاتَبَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا جَنْدَلِ بْنَ سُهَيْلٍ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَبِيهِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَلَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ، وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا-. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى!... قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا. قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا. ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ وَهِيَ عَاتِقٌ، فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ؛ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ-، فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ -رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ- وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا! فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا! فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ وَاللهِ، إِنَّهُ لَجَيِّدٌ؛ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ. فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ. فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا! فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ! فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ؛ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَيْلُ أُمِّهِ! مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ. قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ؛ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا

فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ: فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ. فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ».

وجاء عند الشيخين من حديث البراء رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ (يَسْتَأْذِنُهُمْ لِيَدْخُلَ مَكَّةَ)، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ: أَنْ لَا يُقِيمَ بِهَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ - وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَّا السَّيْفَ فِي الْقِرَابِ-، وَلَا يَدْعُوَ مِنْهُمْ أَحَدًا -وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتْبَعَهُ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا-. قَالَ: فَأَخَذَ يَكْتُبُ الشَّرْطَ بَيْنَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ...».

قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: جعل الله تعالى رؤيا رسوله صادقة محققة، لم يدخلها الشيطان؛ لأنها رؤيا حق، ورؤيا الأنبياء وحي، كما ذكر الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾، ولقد صدّق الله عزَّ وَجَل رؤيا نبيه ﷺ، حين رأى في المنام، أنه دخل مكة وطاف بالبيت، وهي قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بِها، فساروا عام الحديبية، ولم يشك جماعة منهم، أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع من قضية الصلح، ورجعوا عامهم هذا، على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيء، وقد تقدّمت قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: تحقيقًا، لا تعليقًا، فليس من الاستثناء في شيء، وهي متضمنة، لما يجب أن يقوله العباد، فيما يستقبل من أمورهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا. إِلا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من العدو.

قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ وهي حال مقدرة؛ لأنّهم في حال دخولهم، لم يكونوا كذلك، وإنما كان هذا ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه، ومنهم من قصره، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ. قَالُوا: وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ. قَالُوا: وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: وَلِلْمُقَصِّرِينَ».

قوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، وكان في عمرة القضاء، في ذي القعدة، سنة سبعٍ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية إلى المدينة، أقام بِها ذا الحجة، والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه، بعضها عنوة، وبعضها

صُلحًا، فاستخدم من فيها من اليهود على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم، إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى وأصحابه ﷺ، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع، خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، فلما وصل رسول الله ﷺ مكة، رعب المشركون رعبًا شديدًا، وخرجت رؤوس الكفار من مكة؛ لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وهم يطوفون ويؤدون مناسك العمرة، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه الكرام وهم يلبون، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ، وقد جاء عند الترمذي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه بَيْنَ يَدَيْهِ يَمْشِي وَهُوَ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِي حَرَمِ اللهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ». وبقية القصيدة:

بِاسْمِ الَّذِي لَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ ... بِاسْمِ الَّذِي محمدٌ رَسُولُهُ
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ ... فِي صُحف تُتْلَى عَلَى رسُوله
بِأَنَّ خَيْرَ القَتْلِ فِي سَبِيلِهِ ... يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

وعند البخاري معلقًا من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِهِ الَّذِي اسْتَأْمَنَ) قَالَ: ارْمُلُوا. لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوَّتَهُمْ، (وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ قِبَلِ قُعَيْقِعَانَ)»، وعند الشيخين: «إِنَّمَا سَعَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَيْتِ (وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ) لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُ»، وعند مسلم: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ مَكَّةَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ مِنَ الْهُزَالِ. وَكَانُوا يَحْسُدُونَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ قَوْمَ حَسَدٍ-. قَالَ: فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثًا وَيَمْشُوا أَرْبَعًا». وفي هذه العمرة قصر رسول الله ﷺ من شعره، كما جاء عند الشيخين من حديث معاوية رضي الله عنه قال: «قَصَّرْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِشْقَصٍ».

قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي: فعلم الله تعالى، ما في تأخير دخول مكة، وما في الصلح، من الحكمة والخير والمصلحة، ما لم تعلموه أنتم، فقدَّر الله تعالى أن لا تدخلوا مكة محاربين؛ ليرفع الإيذاء والقتل عن الأهل والأقرباء والمؤمنين، الذين كانوا يخفون إيمانهم في مكة، فالمقاتل وقت القتال والالتحام لا يميز بين الصديق والعدو، وقد يقتل المسلم أخاه المسلم، وهو يظنه من المشركين، وعلم الله تعالى أزلي، وهو يعلم

ذلك قبل وقوعه، ولكن أبرزه؛ ليبين الحكمة من ورائه.

قوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو (صلح الحديبية)، وسُمي فتحًا، لما ترتَّب عليه من الآثار الجليلة، والعواقب الحميدة، وقد مضى قول الزهري: ما فتح الله في الإسلام فتحًا كان أعظم من صلح الحديبية. وكان المسلمون قبل الحديبية ألفًا وأربعمائة، وكانوا بعد الحديبية سنة ثمانٍ في عشرة آلاف.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾

قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، وقيل: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ نعت.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطف على المبتدأ والخبر فيما بعده، فلا يوقف على هذا التقدير على ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾، والقول الأول أولى، فقد كان أهل الحديبية غلاظًا على الكفار، كالأسد على فريسته، قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

قوله: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: علامات التهجد والسهر لاحت على محياهم، وقد قيل: من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه في النهار. وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: «... حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ، مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَمَرَ الْمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلامَةِ آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنِ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ...».

قال بعض السلف: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

وعند أحمد بسند لا بأس به من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلا كُوَّةٌ، لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ، كَائِنًا مَا كَانَ». وقد كان النصارى إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام قالوا: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ قال الفراء: فيه وجهان: إن شئت قلت: المعنى: ذلك مثلهم في التوراة وفي الإنجيل، كمثلهم في القرآن، وإن شئت قلت: هما مثلان،

أحدهما في التوراة، والآخر في الإنجيل، فيوقف على هذا على ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾، وقيل: مثلهم في التوراة، والإنجيل ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه وأولاده، قال الجوهري: شطأ الزرع والنبات: فراخه، والجمع: أشطاء، وقد أشطأ الزرع: خرج شطؤه، وقال الفراء: أشطأ الزرع، فهو مشطئ، إذا خرج.

وقرئت: (شَطَأَه) بفتح الطاء، وهذا مثل ضربه الله عزَّ وَجَل لأصحاب النبي ﷺ، يعني أنّهم يكونون قليلين، ثم يزدادون ويكثرون، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا، فيقوى حالًا بعد حالٍ، حتى يغلظ نباته وأفراخه.

وقيل وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود.

قوله: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوّاه وأعانه وشدّه، أي: قوّى الشطأ الزرعَ، وقيل: العكس، أي: قوّى الزرعُ الشطأَ.

قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي: شب وطال.

قوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: على عوده الذي يقوم عليه، فيكون ساقًا له، والسُّوق جمع الساق.

قوله: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرع زُرَّاعه، فالزرع: محمد ﷺ، والشطأ: أصحابه، كانوا قليلين فكثروا، وضعفاء فقووا.

قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ انتزع منها الإمام مالك رحمه الله، فقال: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية، وقد ذهب إلى تكفير الروافض، الذين يبغضون الصحابة؛ لأنّهم يغيظونَهم، ومن غاظ الصحابة، فهو كافر لهذه الآية، ووافقه جمهور العلماء على ذلك، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ». ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا ﴾، فمن انتقص واحدًا منهم، أو طعن في روايته، فقد ردّ على رب العالمين، وأبطل شرائعه، وليست من مبعضة لقوم دون قوم، ولكنها عامة، وهي مثل قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ لا يقصد التبعيض، لكنه يذهب إلى الجنس، أي: اجتنبوا الرجس من جنس الأوثان، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى، منها: الزنا، والربا، وشرب الخمر، والكذب، فأدخل ﴿مِنۡهُم ﴾، أي: من هذا الجنس، يعني جنس الصحابة، وقد تكون ﴿مِنۡهُم﴾ مؤكدة للكلام، والمعنى: وعدهم الله كلهم مغفرة وأجرًا عظيمًا، كما تقول العرب: قطعت من الثوب قميصًا، يريدون: قطعت الثوب كله قميصًا، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾، معناه: وننَزل القرآن شفاءً، كما قال في آية أخرى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ﴾، فالصحابة كلهم عدول، أولياء لله تعالى، وأصفياؤه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه، فمن نسب إلى واحد من الصحابة كذبًا، فهو خارج

عن الشريعة، مبطل للقرآن، طاعن على رسول الله ﷺ، ومتى أُلحق واحد منهم تكذيبًا فقد سُبّ، والمكذب لأصغرهم، ولا صغير فيهم، كالمكذب لأكبرهم، وهو داخل في ذم الله ورسوله ﷺ، وقد ذهبت شرذمة فاسدة، وطغمة حقيرة، إلى أن الصحابة كغيرهم، خاضعون لميزان البحث عن عدالتهم، قد اطّرحوا اختيار العليم الخبير، بأنهم صحابة أفضل رسول أرسله إلى الثقلين، وما يعقل هذا الاختيار الربّاني، وما فيه من الاصطفاء والاجتباء، الذي تتصاغر عنده جميع الزلات، الناجمة عن طريق الاجتهاد والإخلاص والتحري، إلا ذو عقل فطن، وفكر نظيف، ونظرة صائبة، وإيمان راسخ، والله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، جعلنا الله من أوليائه، وأتباع رسوله ﷺ، وأحباب أصحاب رسوله ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين، وألحقنا بِهم، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

انتهى تفسير سورة الفتح، ولله الحمد.

  

سورة الحجرات

وهي مدنية بالإجماع، وسميت بالحجرات؛ لأنها ذكرت الذين ينادون النبي ﷺ من وراء حجرات أزواجه أو غرف بيته، دون مراعاة للأدب والاستئذان، أو أدب احترام وتوقير النبي ﷺ.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ روى البخاري عن عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمِّرِ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدٍ. وَقَالَ عُمَرُ: بَلْ أَمِّرِ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي. قَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ. فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا؛ فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةُ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ».

والمعنى: لا تقدموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله ورسوله ﷺ فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا، وهي عامة وإن كان نزوله خاصًا.

وهي أصل في ترك التعرض لكتاب الله عزَّ وَجَل، وأقوال الرسول ﷺ، وإيجاب اتباعه، والاقتداء به، ولذا فيتعين على طالب العلم أن يبدأ بكتاب الله عزَّ وَجَل، حفظًا، وتدبرًا، وتفسيرًا، ثم يثنّي بسنة رسوله ﷺ، حفظًا، وتأملًا، وشرحًا، ثم بعد ذلك يثلث بكتب أهل العلم، التي هي مفصلة لما جاء في الوحيين، ومن يُؤتَى الكتاب والسنة وفهمهما على منهج السلف الصالح، فقد أتى الشريعة من بابها، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ. وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ اشْتَكَى؟ قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ، فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». متفق عليه واللفظ لمسلم.

قوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ أي: لا تخاطبوه كما يخاطب بعضكم بعضًا: يا محمد، أو يا أحمد، ولكن: يا نبي الله، أو يا رسول الله، توقيرًا وإجلالًا واحترامًا، كما قال تعالى في سورة النور: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا﴾. قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ، كما يكره في حياته؛ لأنه محترم حيًا وفي قبره ﷺ دائمًا.

قوله: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: إنما نَهيناكم لئلا تحبط أعمالكم، فاللام المحذوفة للصيرورة، وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء الربانيين؛ تشريفًا لهم، إذ هم ورثة نبيه ﷺ.

قوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ وأنتم لا تدرون ما حل بكم من الغضب الإلهي، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ».

قوله: ﴿يَغُضُّونَ﴾ أي: يخفضون.

قوله: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: أخلصها واختصها وشرحها للتقوى، بعد أن طهرها من كما قبيح. قال بعض السلف: أذهب عن قلوبهم الشهوات والشبهات.

والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأديم مَحْنًا حتى أوسعته، يقال: امتحنت الفضة، أي: اختبرتُها حتى خلصت، وكل شيء جهدته فقد محنته. وفي الآية دلالة على أن القلوب تفتن، فمنها ما يثبت ومنها ما يسقط، ويشهد على ذلك ما جاء عند البخاري ومسلم واللفظ له من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلى قَلبَيْنِ: عَلى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنكِرُ مُنكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِن هَوَاهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن

يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب، ومراعاة العظماء عند خطابهم. وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث البراء رضي الله عنه في هذه الآية، قال: «قَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ذَاكَ اللهُ». والحجرات جمع حُجْرة، وفيه لغتان: ضم الجيم، وفتحها. والحجرة: الرقعة من الأرض، المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهي فُعْلة، بمعنى مفعولة، وأصل الكلمة: المنع، وكل ما منعت أن يوصل فقد حَجَرت عليه.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ المراد بالفاسق هنا: المسلم الخارج عن شيء من أحكام الشرع، لذا لا يُقبل خبره ولا شهادته.

قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قرئت: (فتثبتوا).

قوله: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: لئلا تصيبوا.

قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: بخطأ.

قوله: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي على العجلة وترك التأني. وقد قال رسول الله ﷺ كما جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما: «الأَنَاةُ مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ». وجاء عند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله للأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلمُ، وَالأَنَاةُ». وأصله متفق عليه.

ومن هذه الآية امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال؛ لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون؛ لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق؛ لأنه مجهول الحال، ولا شك في رجحان القول الأول، وضعف القول الثاني.

كما أن في هذه الآية دلالة على قبول خبر الواحد إذا كان عدلًا، لأنه إنما أمر الشارع بالتثبت عند النقل، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار الشرعية إجماعًا؛ لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة يبطلها.

وفي الآية دليل على فساد قول من قال: إن المسلمين كلهم عدول، حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر في الآية بالتثبت قبل القبول، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم، فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة، فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملًا بجهالة، كالقضاء بالشاهدين العدلين، وقبول قول العالم المجتهد، وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن

بقبوله

قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بين أظهركم، فوقروه، ولا تقولوا إلا صدقًا، فإن الله يعلم أخباركم، وانقادوا لأمره، فهو أعلم بمصالحكم، فهو كما قال سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَيُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ لأن رأيكم بالنسبة إلى رأيه سخيف، فلو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقو وإثم. والعنت: الإثم، يقال: عَنِت الرجل، والعنت: الفجور والزنا، وقد مضى بيانه في سورة النساء.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ انتقال من الخطاب إلى الخبر، كقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تَصَلُّب فيه، من الرشادة، وهي الصخرة.

قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أنس ﷺ قال: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ! فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ، وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ وَاللهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ. فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، (فَشَتَمَهُ)، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾».

وبهذه الآية استدل البخاري على أنه لا يُخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، وقد ثبت عند البخاري من حديث أبي بكرة ﷺ قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». فكان كما قال رسول الله ﷺ، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ترجع إلى حكمه في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: العادلين المحقين. وقد جاء عند مسلم من حديث ابن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِندَ اللهِ عَلى مَنَابِرَ مِن نُورٍ، عَن يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَل، وَكِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»، وفي رواية عند أحمد، وابن أبي حاتم بسند جيد قوي، ورجاله رجال الصحيح: «عَلى مَنَابِرَ مِن لُؤْلُؤٍ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي الرَّحْمَنِ».

ومقاتلة الفئة الباغية فرض على الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات، كسعد، وابن عمرو وغيرهما رضي الله عنهم، وصوّب ذلك عليّ بن أبي طالب ﵁ لهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على إمام المسلمين، أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من منع ذلك، محتجًا بقوله ﷺ كما عند الشيخين من حديث ابن مسعود ﵁: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ». ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرًا لما أمر الله عز وجل بقتاله في هذه الآية.

ولو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أُقيم حَدّ، ولا أُبطل باطل، ولوَجد أهل النفاق والفجور والبغي سبيلًا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، وعلى هذا عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عَنَى النبي ﷺ بقوله كما جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد ﵁، ولفظ البخاري: «وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلى الجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلى النَّارِ. يَقُولُ عَمَّارٌ: أَعُوذُ بِاللهِ مِن الفِتَنِ». وبقوله ﷺ كما جاء عند الشيخين في الخوارج: «يَخْرُجُونَ عَلى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ». وكان الذي قتلهم كما جاء عند الشيخين: علي بن أبي طالب ﵁، وقد تقرر أن عليًا ﵁ كان إمامًا وأن كل من خرج عليه باغ، وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق، وينقاد إلى الصلح؛ لأن عثمان ﵁ قتل والصحابة براء من دمه، فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم، فقال علي ﵁: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه.

ولو أن عليًا ﵁ تعاطى القود منهم أول الأمر لتعصبت لهم قبائل وصارت حربًا ثالثة فسفكت فيها الدماء بالتهاريج وربما تغير الدين وانقض عمود الإسلام فأحب علي أن ينتظر بالقتلة حتى يستوثق الأمر، وتنعقد البيعة، ويقع طلب الأولياء في مجلس الحكم فيجري القضاء بالحق وقد قال رسول الله ﷺ لعلي حين بعثه قاضيا إلى اليمن: «إِنَّ اللهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ، وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ... قَالَ عَلِيٌّ: فَمَا زِلْتُ قَاضِيًا، أَوْ: مَا شَكَكْتُ فِي قَضَاءٍ بَعْدُ». حسنه الترمذي.

ولا خلاف بين الأمة في جواز تأخير الإمام للقصاص للمصلحة، من أجل تَهدئة الفتنة، وتجميع الكلمة، ولقد علم قتلة عثمان ﵁ أنّهم سيحاكمون ويُقتلون متى ما استتب الأمر وهدأ الوضع، فاجتمعوا وتشاوروا، فاتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، فريق مع علي ﵁، وفريق مع طلحة والزبير ﵄، ثم يقومون بعملية الإثارة والغدر والتحريش ورمي السهام لكي تنشب الحرب بينهم، فلا زالوا كذلك حتى نشبت الحرب، فكان بينهم ما كان. والله حكيم عليم، له الحجة البالغة، والحكمة العظيمة، ولو شاء ما

اقتتلوا، ولكن الله سبحانه أراد أن تعرف الأمة أحكام قتال أهل التأويل إذ كانت أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان رسول الله ﷺ وفعله.

ومن أحكام قتال أهل التأويل: أنهم يفترقون عن قتال أهل الشرك في مسائل: فإن أهل الشرك يسوغ الإجهاز على جريحهم، وقتل أسيرهم، وطلب هاربِهم، وقسمة غنائمهم وفيئهم، بخلاف قتال أهل البغي والتأويل من المسلمين، فلا يجهز على جريح، ولا يقتل أسير، ولا يطلب هارب، ولا يقسم فيئهم، وإذا انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالصلح والهدنة لا يتعرض لأحدٍ منهم في حكم.

وختام هذا المبحث يقال: لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله عز وجل، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ».

والصحابة كلهم أئمة لنا بدون استثناء، وقد تُعُبِّدنا بالكف عما شجر بينهم، ولا نذكرهم إلا بأحسن حال وأجمل مقال، ولقد أخبر الله عز وجل في كتابه العظيم أنه قد غفر لهم، ورضي عنهم، ووعدهم بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، وفي الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «وَمَا يُدْرِيكَ لعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لكُمْ». وقد سبق حديث فضل أصحاب الشجرة، وهو عند مسلم. والأحاديث مستفيضة في البشارة بالجنة لكل من طلحة، والزبير، وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم.

وما جرى بين الصحابة أشد ما يقال فيه أنه مثل ما وقع بين إخوة يوسف مع يوسف عليه السلام، ومع ذلك لم يخرج إخوة يوسف عليه السلام عن حد الولاية والتقوى.

وقد سئل الحسن البصري عن قتال الصحابة، فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا، ونعلم يقينًا أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا.

فرضي الله عنهم، وحشرنا في زمرتِهم، وجمعنا بِهم في جنات عدنٍ، مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: في الدين والحرمة، لا في النسب. وقد قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب؛ لأن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ولا عكس، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، ولفظة (إِنَّمَا) تفيد الحصر، فلا أخوّة بدون إيمان ولا أخوَّة حقيقية بين غيرهم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ».

وعند أحمد بسند لا بأس به من حديث سهل بن سعد الساعدي ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ مِن أَهْلِ الإِيمَانِ بِمَنزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ، يَأْلَمُ المُؤْمِنُ لأَهْلِ الإِيمَانِ، كَمَا يَأْلَمُ الجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ».

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى».

وعند الشيخين من حديث أبي موسى ﵁، قال ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». وشبَّك أصابعه.

وعند أبي داود بسند جيد من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤْمِنُ مِرْآةُ المُؤْمِنِ، وَالمُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ، يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ مِن وَرَائِهِ».

قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ معتقدًا، وأسلم باطنًا، وأرفع قدرًا عند الله، والسخرية: الاستهزاء، سَخِرت منه أسْخَر سَخَرًا وسَخْرًا وسُخْرًا، ويقال: سَخِرْت منه، وسَخِرْت به، وضحكت منه، وضحكت به، وهَزِئْت منه، وهَزِئْت به، والاسم: السُّخرية، والسُّخْري، قال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

والمقصود ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا، وأنقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﵁: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ». وعنده أيضًا من حديث ابن مسعود ﵁: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَ-لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلكِن يَنظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وعند البخاري من حديث سَهْل بن سعد ﵄ قال: «مَرَّ رَجُلٌ عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَال: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِن خَطَبَ أَن يُنكَحَ، وَإِن شَفَعَ أَن يُشَفَّعَ، وَإِن قَال أَن يُسْتَمَعَ، ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِن فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ فَقَال: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِن خَطَبَ أَن لا يُنكَحَ، وَإِن شَفَعَ أَن لا يُشَفَّعَ، وَإِن قَال أَن لا يُسْتَمَعَ، فَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِن مِلءِ الأَرْضِ مِثْل هَذَا».

وقد كان السلف يحترزون من ذلك أشد الاحتراز، قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا، فضحكت منه، لخشيت أصنع مثل الذي صنع. وقال بعض السلف: البلاء مُوَكّل بالمنطق، لو سخرت من كلب لخشيت أن أُحَوَّل كلبًا.

فالأعمال أمارات ظنية، لا أدلة قطعية، فلا نغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالًا صالحة، ولا نحتقر من رأينا عليه أفعالًا سيئة.

ولفظة (قَومٌ) في اللغة تستعمل للذكور خاصة. وسموا قومًا لأنّهم يقومون مع داعيهم في الشدائد، وقيل: إنه جمع قائم، ثم استعمل في كل جماعة، وإن لم يكونوا قائمين، وقد يدخل في القوم النساء مجازًا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ خصوص بعد عموم، وقد خُصت النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر، وقد جاء عند أبي داود، والترمذي بسند صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا! -تَعْنِي قَصِيرَةً- فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ! قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا».

قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا عيبوا إخوانكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، وقد جاء عند ابن حبان بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ!». وقد قيل: من سعادة المرء انشغاله بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

الْمَرْءُ إِنْ كَانَ عَاقِلًا وَرِعًا ... أَشْغَلَهُ عَنْ عُيُوبِهِ وَرَعُهُ
كَمَا السَّقِيمُ الْمَرِيضُ يَشْغَلُهُ ... عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كلهم وَجَعه

وقال آخر:

لَا تَكْشِفَنَّ مَسَاوِي النَّاسَ مَا سَتَرُوا ... فَيَهْتِكُ اللهُ سِتْرًا عَنْ مَسَاوِيكَا
وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا ... وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا

قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي: لا تداعوا بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها، والنَّبَز بالتحريك: اللقب، والجمع: الأنباز، والنَّبْز بالتسكين: المصدر، تقول: نَبَزَهُ يَنبِزُه نَبْزًا، أي: لقّبه، وفلان يُنَبِّز بالصبيان، أي: يلقبهم، شدد للكثرة، ويقال: النَّبَز والنَّزَب: لقب السوء. جاء عند أبي داود، وأحمد بسند صحيح من حديث أبي جُبيرة بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «فِينَا نَزَلتْ فِي بَنِي سَلِمَةَ ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلاَّ وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلاثَةٌ، فَكَانَ إِذَا دُعِيَ أَحَدٌ مِنهُمْ بِاسْمٍ مِن

تِلكَ الأَسْمَاءِ قَالُوا: يَا رَسُول اللهِ إِنَّهُ يَغْضَبُ مِن هَذَا، فَنَزَلَتْ».

قوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته، وقيل: المعنى: أن من لقّب أخاه أو سخر منه فهو منافق، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَال لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا». وعند الشيخين من حديث أبي ذر ﵁، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالفُسُوقِ وَلا يَرْمِيهِ بِالكُفْرِ إِلا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِن لَمْ يَكُن صَاحِبُهُ كَذَلِكَ»، وقال بعض السلف: من عيّر مؤمنًا بذنب تاب منه كان حريًا أن يبتليه الله به ويفضحه به في الدنيا والآخرة.

قال بعض أهل العلم: ما كان في ظاهره الكراهة إذا أريد به الصفة، لا العيب والسخرية فلا بأس بذكره، وقد جاء عند مسلم عن عبد الله بن سِرجس قال: «رَأَيْتُ الْأَصْلَعَ يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يُقَبِّلُ الْحَجَرَ». وقال البخاري: باب ما يجوز من ذكر الناس، نحو قولهم: الطويل، والقصير، لا يُراد به شَيْن الرجل. قال: وقال النبي ﷺ: «مَا يَقُولُ ذُو اليَدَيْنِ؟». والحديث متفق عليه.

ومما يستحسن في هذا الباب: التكنية، وتسمية المؤمن بأحب أسمائه إليه. قال بعض السلف: أشيعوا الكُنَى، فإنّها مُنبِّهة. ولقد لُقِّب أبو بكر ﵁ بالعتيق، والصديق، وعمر ﵁ بالفاروق، وعثمان ﵁ بذي النورين، وحمزة ﵁ بأسد الله، وخالد بن الوليد ﵁ بسيف الله، وخزيمة بن ثابت ﵁ بذي الشهادتين. وقلّ من المشاهير في الإسلام من ليس له لقب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا

تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا». فالظن هنا وفي الآية: التهمة التي لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة، أو بشرب الخمر، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، أو يظن بأهل الخير سوءًا، ولم يظهر منهم ذلك عين اليقين، وقد جاء عن عمر ﵁ قال: ولا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

ومَن ظنَّ الفساد أو الخيانة بالناس الغافلين عن مقارفة السوء فقد اقترف سيئة وإثمًا عظيمًا، بخلاف من اشتهر في الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث.

وللظن حالتان: حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة، فيجوز الحكم بِها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن، وحالة يقع في النفس شيء من غير دلالة، فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، وهو الظن المراد في الآية المنهي عنه، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهي عنه، وقد قيل: إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ وإذا تطيرت فامض.

قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: لا تبحثوا عما يكتم عنكم، وأما التحسس فهو طلب الأخبار والبحث عنها، يقال: رجل جاسوس، إذا كان يبحث عن الشيء، ويقال: جسست الأخبار، وتجسّستها، أي: تفحصت عنها. والمراد: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين وتبحثوا عن عيوبهم.

وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن معاوية ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَن تُفْسِدَهُمْ». فقال أبو الدرداء ﵁: كلمة سمعها معاوية ﵁ من رسول الله ﷺ، نفعه الله بها.

وجاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن زيد بن وهب قال: «أُتِيَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁ فَقِيلَ: هَذَا فُلَانٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا! فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأخُذْ بِهِ».

وعند أبي داود بسند جيد عن أبي برزة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ».

وعند البخاري من حديث ابن عباس ﵁ عن النبي ﷺ قال: «وَمَن اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». والآنك: الرصاص الأبيض المذاب، وهذا فيمن يستمع على وجه الفضول والتطفل، فكيف بمن يستمع على وجه التجسس لصالح أعداء المسلمين من الكافرين والمشركين؟،

وقد حذَّر النبي ﷺ من يحوز على عطاء نتيجة تتبع عورات المسلمين وذكر أسرارهم فقال كما جاء عند أبي داود وأحمد من حديث الْمُسْتَوْرِدِ ﵁: «مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْلَةً فَإِنَّ اللهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا مِنْ

جَهَنَّمَ، وَمَنْ كُسِيَ ثَوْبًا بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللهَ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ فَإِنَّ اللهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

والتجسس غالبًا يطلق في الشر، وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير وطلب الأخبار والبحث عنها، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾، وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا».

قوله: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ». يقال: اغتابه اغتيابًا، إذا وقع فيه، والاسم: الغِيبة، وهي مشتقة من الغيب الذي هو خلاف الشهادة. ومع حُرمة الغيبة إلا أنها مباحة في بعض الأحوال، فيجوز للمظلوم أن يتظلم للحاكم أو السلطان أو القاضي لينصفه من ظالمه، فيذكر أن فلانًا ظلمني، وفعل بي كذا وكذا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾. وقال ﷺ: «لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ». رواه أبو داود بسند حسن من حديث الشريد رضي الله عنه.

ومن ذلك الاستفتاء؛ لما جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها، قال هند رضي الله عنها: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهْوَ لَا يَعْلَمُ-، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنَ الَّذِي لَهُ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ. وَفِي رِوَايَةٍ: خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ».

وليس من الغيبة الكلام في الفاسق المجاهر بفسقه وفحشه، قولًا، أو فعلًا، أو كتابة؛ لأنه لا غيبة له.

قال بعض السلف: اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس. قال الحسن: ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر.

وقال الحسن: ليس لأهل البدع غيبة. وقال لما مات الحجاج: اللهم أنت أمَتَّه، فاقطع عنا سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش، يمد بيد قصيرة البنان، والله ما عرق فيها غبار في سبيل الله، يرجل جمته، ويخطر في مشيته، ويصعد المنبر فَيَهْذِر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله، وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، هيهات، حال دون ذلك السيف والسوط.

وتجوز الغيبة عند تحذير المسلمين من الشر، كأن يستشير إنسان في مصاهرته، أو إذا كان في ذكره بالسوء فائدة ومصلحة راجحة، فقد جاء عند مسلم أن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها جاءت تستشير النبي ﷺ في

رجلين خطباها فقال: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لا مَالَ لَهُ».

قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، فكما أن لحم الميت حرام مستقذر طبعًا فكذلك الغيبة حرام في الدين، وقبيح في النفوس شرعًا، وقد جاء عند أبي داود من حديث أبي هريرة ﵁ في قصة رجم ماعز ﵁: أنه «جَاءَ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ أَصَابَ امْرَأَةً حَرَامًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ... وفيه: قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا الزِّنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مَأْتَى الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ حَلاَلًا. قَالَ: فَمَا تُرِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَدَعْهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ، فَسَكَتَ عَنْهُمَا ثُمَّ سَارَ سَاعَةً حَتَّى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ شَائِلٍ بِرِجْلِهِ. فَقَالَ: أَيْنَ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ؟ فَقَالاَ: نَحْنُ ذَانِ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: انْزِلاَ، فَكُلاَ مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ. فَقَالاَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: فَمَا نِلْتُمَا مِنْ عِرْضِ أَخِيكُمَا آنِفًا أَشَدُّ مِنْ أَكْلٍ مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا». صححه ابن كثير.

واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية، قال الشاعر:

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ   وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيتُ لَهُمْ مَجْدا

وعند الشيخين من حديث أبي بكرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا».

وعند أبي داود بسند جيد من حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِن نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَن هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَال: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ».

وأخرج الطبراني من حديث أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا، قُرِّبَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: كُلْهُ حَيًّا كَمَا أَكَلْتَهُ مَيِّتًا، فَيَأكُلُهُ، وَيَكْلَحُ وَيَصِيحُ». حسنه ابن حجر.

قال بعض السلف: إياكم وذكر الناس، فإنه داء، وعليكم بذكر الله، فإنه شفاء. وقال آخر: إياكم والغيبة، فإنّها إدام كلاب الناس. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك. قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني! فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

ولا خلاف بين العلماء أن الغيبة من كبائر الذنوب، وأن من اغتاب أحدًا عليه أن يتوب إلى الله عزَّ وَجل. وهل يستحل المغتاب؟ اختلف فيه، فقال قوم: ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه. وقال آخرون: هي مظلمة، وكفارتُها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه. وقال آخرون: هي مظلمة، وعليه الاستحلال منها؛ لحديث أبي هريرة ﵁ عند البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كَانَتْ لهُ مَظْلَمَةٌ

لِأَخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنهُ اليَوْمَ، قَبْل أَن لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِن كَانَ لهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِن لَمْ تَكُن لهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِل عَلَيْهِ».

والراجح من ذلك التفصيل أن يقال: إذا علم من صاحبه قبول الاستحلال بصدر رحب، دون شحناء، تعيّن عليه طلب الاستحلال، وأما إذا علم أنه لا يقبل منه اعتذاره، وربما قام في صدر من اغتابه شيء من البغضاء، وربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فلا يلزم الاستحلال منه، وعلى المغتاب أن يتوب ويستغفر لمن اغتابه، ويذكره بخير في المجالس التي اغتابه فيها، فتكون تلك بتلك، وأيضًا يرد عنه غيبة الناس بقدر وسعه وطاقته، وقد جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حَمَى مُؤْمِنًا مِن مُنَافِقٍ بَعَثَ اللهُ مَلكًا يَحْمِي لحْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِن نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَن رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللهُ عَلى جِسْرِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَال». وأخرج الترمذي من حديث أبي الدرداء ﷺ: «مَن رَدَّ عَن عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَن وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيَامَةِ». حسنه ابن حجر.

وعند أبي داود بسند لا بأس به من حديث جابر، وأبي طلحة ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَءًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنتَقَصُ فِيهِ مِن عِرْضِهِ، إلا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِن امْرِئٍ يَنصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنتَقَصُ فِيهِ مِن عِرْضِهِ، وَيُنتَهَكُ فِيهِ مِن حُرْمَتِهِ، إلا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ».

قوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كرهتم أكل الميتة، فكذلك فاكرهوا الغيبة، وقيل: فكرهتم أن يغتابكم الناس، فاكرهوا غيبة الناس. وقيل: لفظه خبر، ومعناه أمر، أي: اكرهوه، والكل محتمل، والأول أظهر.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم ﷺ وحواء، وقد استدل بها على أن الجنين إنما يكون من الرجل والمرأة، فليس من ماء الرجل وحده. وقد جاء عند أبي داود بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ».

قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا﴾ أي: رؤوس قبائل، مثل: ربيعة ومضر والأوس والخزرج، واحدها: شَعْب، سموا بذلك لتشعبهم واجتماعهم، كشُعب أغصان الشجرة. والشعب من الأضداد، يقال: شعبته إذا جمعته، وشعبته إذا فرقته، ومنه سميت المنِيَّة شعوبًا؛ لأنها مفرقة، فأما الشِّعب فهو الطريق في الجبل، والجمع: شعاب. قال الجوهري: الشَّعب: ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع: الشعوب. والشعوبية: فرقة لا تفضل العجم على العرب. ويقال للنسب الأقرب: الشعوب. قال الشاعر:

قَبَائِلُ مِنْ شُعُوبٍ لَيْسَ فِيهِمْ ... كَرِيمٌ قَدْ يُعَدُّ وَلَا نَجِيبُ

وقيل: إن الشعوب بطون العجم، والقبائل: بطون العرب، وقيل: الشعوب: الموالي، من لا يعرف لهم أصل نسب، كالهند، والترك، والقبائل: العرب، والمعاني متقاربة، فالشعوب تتعلق بالعجم، والقبائل تتعلق بالعرب. ويقال: الشعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ. وقيل: الشعب، ثم القبيلة، ثم العِمارة، ثم الفَخِذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة. قال الشاعر:

اقْصِدِ الشَّعْبَ فَهُوَ أَكْثَرُ حَيٍّ ... عَدَدًا فِي الْحَوَاءِ ثُمَّ الْقَبِيلَهْ

ثُمَّ تَتْلُوهَا الْعِمَارَةُ ثُمَّ الْـ ... ـبَطْنُ وَالْفَخِذُ بَعْدَهَا وَالْفَصِيلَهْ

ثُمَّ مِنْ بَعْدِهَا الْعَشِيرَةُ لَكِنْ ... هِيَ فِي جَنْبِ مَا ذَكَرْنَاهُ قَلِيلَهْ

قوله: ﴿وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ كما يقال: فلان بن فلان، من قبيلة كذا وكذا. قال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى محاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها. وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا مِن أَنسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ».

قوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ»، وعند الترمذي بسند جيد عن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «الحَسَبُ: المَالُ، وَالكَرَمُ: التَّقْوَى». قال الشاعر:

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الْغِنَى ... وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ للمتّقي

من عرفَ اللهَ فلم تغنه ... مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِي

وقال آخر:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثِيلِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ

نَفْسٌ كَنَفْسٍ وَأَرْوَاحٌ مُشَاكَلَةٌ ... وَأَعْظُمٌ خُلِقَتْ فِيهِمْ وَأَعْضَاءُ

فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ حَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ

مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ

وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَلِلرِّجَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ سِيمَاءُ

وَضِدُّ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

قوله: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ اسم جمع لأعرابي، وهو يطلق على كل من نزل البادية، واستوطن فيها حتى لو كان أصله حضريًا، ولا تُجمع (عرب)؛ لأن العرب يعم سكان الحاضرة في المدن، وسكان البادية. وفي هذه الآية دلالة على أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، وأن كل إيمانٍ إسلام، وليس كلُّ إسلام إيمانًا، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام، كما عند الشيخين من حديث أبي هريرة

رضي الله عنه، وعند مسلم من حديث عمر رضي الله عنه، وقد بين فيه أركان الإيمان والإسلام، وركن الإحسان. ومثله حديث سعد رضي الله عنه عند الشيخين قال: «قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَسْمًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطِ فُلَانًا فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ. أَقُولُهَا ثَلَاثًا، وَيُرَدِّدُهَا عَلَيَّ ثَلَاثًا: أَوْ مُسْلِمٌ. ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ».

قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ذهب البخاري رحمه الله، إلى أن هؤلاء الأعراب، كانوا منافقين يظهرون الإيمان، والصحيح خلاف ما ذهب إليه البخاري، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدَّبهم الله بذلك.

قوله: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: لا ينقصكم، يقال: لاته يليته، ويلُوته: نقصه، وقد اختارها أبو حاتم، اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: وما نقصناهم.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي: صدقوا ولم يشكوا، وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة.

قوله: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بما في ضمائركم وما أنتم عليه.

قوله: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: بإسلامكم.

قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بأن، أو لأن، أو إذ هداكم للإيمان، وقد جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين خطب في الأنصار يوم حنين: «يَا مَعْشَرَ الأَنصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ كُلَّمَا قَالَ شَيئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ».

انتهى تفسير سورة الحجرات، ولله الحمد.

  

سورة ق

وهي مكية، وقيل: إلا آية واحدة.

جاء عند مسلم من حديث أم هشام بن حارثة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحِدًا سَنَتَيْنِ، أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ. وَمَا أَخَذْتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ».

وعند مسلم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه: «سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، وَ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾».

وعند مسلم من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الفَجْرِ بِـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ وَنَحْوِهَا».

وهذه السورة هي أول الْمُفَصَّل على الصحيح، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم؛ لما جاء عند أحمد وأبي داود، عن أوس بن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَفْدِ ثَقِيفٍ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةٌ أَبْطَأَ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَأْتِينَا فِيهِ، فَقُلْنَا: لَقَدْ أَبْطَأتَ عَنَّا اللَّيْلَةَ. قَالَ: إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ جُزْئِي مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّى أُتِمَّهُ. قَالَ أَوْسٌ: سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ وَحْدَهُ». حسنه العراقي. وإذا علم هذا فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة، فالتي بعدهن سورة ق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾

قوله: ﴿قٓ﴾ حرف من حروف الهجاء، كقوله تعالى: ﴿صٓ﴾، ونحو ذلك، ويقال للواقفة: قاف. قال

الشاعر:

قُلْنا لَهَا قِفِي فَقَالَت قَاف

أي: أنا واقفة.

قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قسم، أي: الرفيع القدر، الكثير المنزلة، مأخوذ من كثرة القدر والمنْزلة، لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان في النفوس، ومنه قول العرب: في كل شجر نار واستمجد الْمَرْخ والعَفَار، أي: استكثر هذان النوعان من النار، فزادوا على سائر الشجر.

قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم﴾ أي: لأن جاءهم، وهم الكفار، وقيل: وقع العجب من المؤمنين والكفار، فآمن المؤمنون، وأما الكفار فقالوا: ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: يُتعجب منه. كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، وكذلك العُجَاب، والعُجَّاب بالتشديد، وكذلك الأعجوبة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي: رد محال، يقال: رَجَعتْه أرْجِعه رَجْعًا، ورَجَع هو يرجع رُجوعًا.

قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، وهي جواب القسم، وقيل: جواب القسم في آخر السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾، وقيل: قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾، وقيل: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لأسمائهم وأعمالهم، وكل شيء من شؤونهم، فعيل بمعنى فاعل، وقيل: هو اللوح المحفوظ، وسمي بذلك لأنه محفوظ من كل شيء، وفيه كل شيء.

قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالقرآن وبالإسلام.

قوله: ﴿أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط وملتبس، يقولون مرة: سحر، ومرة: شعر، ومرة: كِهانة. وقيل: فاسد. ومنه: مرجت أمانات الناس، أي: فسدت، ومرج الدين والأمر: اختلط. وأصل المرج: الاضطراب والقلق، يقال: مرِج الخاتم في إصبعي، إذا قَلِق من الهزال، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ، أَوْ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، تَبْقَى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ، قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ وَاخْتَلَفُوا...». الحديث. والمقصود أنّهم في أمر مضطرب، وفكر ملتبس، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ أي: نظر اعتبار وتفكر.

قوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: بالنجوم والكواكب.

قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ جمع فرج، وهو الشق. فليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل عن أن يرى عيبًا أو نقصًا.

قوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: يبهج ويسرّ الناظر إليه.

قوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي: دلالة على كمال قدرتنا، ونُصِبَت لأنها مفعول لأجله، يعني: جعلنا ذلك تبصيرًا وتنبيهًا على قدرتنا.

قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: الزرع، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما قال الكوفيون، يقال: مسجد الجامع، وربيع الأول، وحق اليقين، وحبل الوريد، ونحو ذلك. وقال البصريون: التقدير: حب النبت الحصيد، وهو كل ما يحصد، والأصل: الحب الحصيد، فحذفت الألف واللام، وأضيف المنعوت إلى النعت.

قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ طوال شاهقات. يقال: بسق فلان على أصحابه، أي: علاهم، وأبسقت الناقة، إذا وقع في ضرعها اللبن قبل النتاج، فهي مُبْسِق، ونُوقٌ مَبَاسِيقٌ، وقيل: مواقير حامل، يقال للشاة: بسقت، إذا ولدت. والقول الأول أكثر وأشهر وأظهر. وقد جاء عند مسلم من حديث قطبة بن مالك رضي الله عنه قال: «صَلَّيْتُ وَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ-: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، حَتَّى قَرَأَ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾. قَالَ: فَجَعَلْتُ أُرَدِّدُهَا، وَلَا أَدْرِي مَا قَالَ».

قوله: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: منضود متراكب، قد نُضِّد بعضه على بعض، والطلع: أول ما يخرج من ثمر النخل، يقال: طلع الطلع طلوعًا، وأطلعت النخلة، يقال: النضيد الكفري، ما دام في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه، فليس بنضيد.

قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ لأنه صاهرهم وتزوج منهم.

قوله: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ﴾ ملكٌ كان باليمن، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه.

قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحق عليهم وعيدي وعقابي االذي جاء على ألسنة رسلي جزاء تكذيبهم.

قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا ابتداء الخلق حتى يعجزنا الإعادة؟ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. يقال: عييت بالأمر، إذا لم تعرف وجهه.

قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في حيرة من البعث، يقال: لبس عليه الأمر يلبسه لَبْسًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله: ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما تحدثه نفسه به، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ». وهو بمنزلة الكلام الخفي.

قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: ملائكته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فجبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني المحتضر.

قوله: ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي: حبل العاتق، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان، عن يمين وشمال. قال الحسن: الوريد: عرق معلق بالقلب، والأول أظهر.

قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: الملكان الموكلان به، الملازمان له، الكاتبان لكل صغيرة وكبيرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: قاعد مترصد، وملازم ثابت، ولم يقل: قعيدان، وهما اثنان؛ لأن المراد: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. قال سيبويه: وقال الأخفش، والفرّاء: مؤداه واحد، عن الاثنين والجمع، ولا حذف في الكلام. قال الجوهري: فعيل، وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي: متابع مراقب.

قوله: ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر حافظ، مُعَدٌّ للشهادة. قال الجوهري: العتيد: الشيء الحاضر المهيَّأ، وقد عتَّدَه تعتيدًا، وأعْتَدَه إعتادًا، أي: أعدّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾، وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ، بفتح التاء وكسرها: المعدُّ للجري. والمقصود: الحضور. قال الشاعر:

لَـئِنْ كُنْـتَ مِنِّـي في العيـان مغيّبـا   فـذكرك عِنْـدِي فِـي الْفُـؤَادِ عَتِيـدُ

وقد جاء عند أحمد، والنسائي، وابن ماجة بسند جيد عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال علقمة: كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه.

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند الطبراني، والبيهقي بإسناد لا بأس قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ يَرْفَعُ الْقَلَمَ سَبْعَ سَاعَاتٍ عَنِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ إِذَا أَذْنَبَ، لَعَلَّه يَسْتَغْفِرُ».

قال الحسن البصري: يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة، ووُكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك ليحفظ حسناتك، والآخر عن شمالك ليحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مُتّ طويت صحيفتك، وجُعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، ثم يقول: عدلٌ والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

والحاصل: أن الملكين يكتبان كل شيء، لا سيما الخير والشر، وما فيه ثواب أو عقاب. وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء، حتى الأنين. فلم يئن حتى مات رحمه الله.

قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: غمرته وشدّته.

قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما وعد الله وأوعد، وقيل: الحق: الموت؛ لأن ما بعده دار الحق، والتقدير: وجاءت سكرة الموت بالموت، وقيل: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: وجاءت سكرة الحق بالموت. وقد جاء عند ابن حبان عن عائشة رَضِيَ الله عَنْها، أنّها قالت عند أبي بكر رضي الله عنه وهو يحتضر:

لَعَمْـرُكَ مَـا يُغْنِـي الثَّـرَاءُ عَـنِ الْفَتَـى   إِذَا حَشْـرَجَتْ يَوْمًا وَضَـاقَ بِهَـا الصَّـدْرُ

فكشف عن وجهه، فقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ

مِنْهُ تَحِيدُ﴾. حسنه ابن حجر. وفي رواية:

مَـــنْ لَا يَـــزَالُ دَمْعُـــهُ مُقَنَّعًـــا فَإِنَّـــهُ فِـــي مَـــرَّةٍ مَـــدْفُوقُ

قال ابن كثير: وقد أوردت لهذا الأثر طرقًا كثيرة في سيرة الصديق ﵁.

وعند البخاري عن عائشة ﵂ قالت: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ. ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ. فَجَعَلَ يَقُولُ: فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى. (وَفِي رِوَايَةٍ: ثَلَاثًا)، (حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ)».

قوله: ﴿تَحِيدُ﴾ أي: تفرّ وتبتعد وتميل، يقال: حاد عن الشيء يَحيد حُيودًا وحَيْدة وحَيْدُودة: مال عنه وعدل، ويقال في الإخبار عن النفس: حِدْتُ عن الشيء أحيد حَيْدًا ومَحِيدًا، إذا ملت عنه. وعلى هذا المعنى تكون ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، وقيل: ﴿مَا﴾ نافية، والمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه، ولا الحيد عنه، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿سَآئِقٌ﴾ أي: ملك يسوقها إلى المحشر والحساب.

قوله: ﴿وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يشهد عليها بعملها.

قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ المقصود به: الإنسان عمومًا، البر والفاجر، وقيل: الكافر والفاسق والمنافق، وقيل غير ذلك، والأظهر: الأول؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام.

قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: عماك، وهذا يكون بعد النشر من القبور، والعرض على الملك الديان.

قوله: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: بصر العين والفؤاد قوي ونافذ، يرى ما كان محجوبًا بالأمس، ولكن لا ينفع حينئذ البصر ولا البصيرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الموكل به.

قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: ديوان عمله معتد ومحفوظ وحاضر، فلا زيادة ولا نقصان.

قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ قال الخليل، والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح، أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين، فتقول: ويلك ارحَلاها وازجراها، وخذاه أطلقاه، للواحد. قال الفرّاء: تقول للواحد: قُوما عنا، ومنه: قولهم للواحد في الشِّعر: خليليّ، ثم يقول: يا صاح. وقيل: القرين يقع للجماعة والاثنين، وقيل: هي تثنية على التوكيد، والمعنى: ألقِ ألق، فناب ﴿أَلْقِيَا﴾ مناب التكرار، وقيل: هو خطاب للسائق والحافظ، وقيل غير

ذلك، والقول الأخير أظهرها، فالسائق أحضره إلى عرض الحساب، والحافظ شهيد عليه بأعماله، فلما أدى كلٌّ مهمته قال لهما: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: كل كثير الكفر، معاند معرض عن الحق، يقال: عَنَدَ يَعنِد عُنُودًا، أي: خالف الحق وردّه وهو يعرفه، فهو عنيد وعَاند، وجمع العنيد: عُنُد، مثل: رغيف ورُغُف.

قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: من زكاة وصدقة، وكل حق واجب من صلة ورحم.

قوله: ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: في منطقه وسيرته وأمره ونفقته وتعامله.

قوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاك في ربوبية الله وألوهيته.

قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: من الشياطين.

قوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: ما أضللته.

قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي: تبرأ منه وكذّبه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ يعني الكافرين والقرناء من الشياطين.

قوله: ﴿لَدَيَّ﴾ أي: عندي.

قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي: أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين.

قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: قضيت بما أنا قاض، وقد جاء عند الشيخين من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد أن فرضت الصلاة في السماء قال تعالى: «إِنَّهُ لَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، كَمَا فَرَضْتُهُ عَلَيكَ فِي أُمِّ الكِتَابِ». وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ»، ومن ذلك: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وكذا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا أعذب إلا من استحق العذاب، وقامت عليه الحجة.

قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قرئت: (يوم يقول)، والقراءة بالنون أفصح، وهي نون العظمة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ:

قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ». وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه: «حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ».

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ لأن الله تبارك وعدها أنه سيملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين، وفي هذا روى البخاري ومسلم، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ. قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا...».

قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: قُرِّبت منهم يوم القيامة.

قوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: ليس ببعيد، وإن كان يوم القيامة؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت قريب. وقيل: تأكيد لدنو الجنة وقربها، وهذا الأظهر، والأول محتمل.

قوله: ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: سليم مقبل على الطاعة بإخلاص، قال بعض السلف: علامة المنيب أن يكون عارفًا لحرمته، ومواليًا له، ومتواضعًا لجلاله، تاركًا لهوى نفسه.

قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: رؤية وجه الله تعالى، كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقد تقدم ذلك في سورة يونس.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: ساروا وطلبوا وطافوا في أقاصي البلاد؛ طلبًا للتجارة، وهربًا من الموت. والنَّقب: هو الخرق والدخول في الشي، وكذا: الْمَنْقَب، والْمَنْقَبَة. ونَقَب الجدار نَقْبًا، وجمع النقب: النُّقُوب، أي: خرقوا البلاد وساروا في نقوبها.

قوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: مهرب، مصدر حاص عنه يَحِيص حَيْصًا وحُيوصًا ومَحيصًا ومَحاصًا وحَيَصانًا، أي: عدل وحاد، يقال: ما عنه محيص، أي: محيد ومهرب، والانحياص مثله.

قوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: عقل يتدبر به، فكنّى بالقلب عن العقل؛ لأنه موضعه، وقيل: لمن كان

له حياة ونفس مميزة، فعبّر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتِها، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، قال يحيى بن معاذ: القلب قلبان: قلب مُحتشٍ بأشغال بالدنيا، حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة، لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة، حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا، لم يدر ما يصنع؛ لذهاب قلبه في الآخرة.

قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: استمع القرآن، تقول العرب: ألقِ إليَّ سمعك، أي: استمع.

قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب، فلا يكون حاضرًا وقلبه غائب، وهذه الخصلة إنما هي لأهل القرآن خاصة، ومن حذا حذوهم ممن أسلم من أهل الكتاب.

قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: تعب، أوإعياء، تقول: لَغَب يلْغُب لُغُوبًا، ولَغِب يَلْغَب لغوبًا، وهي لغة ضعيفة، وألغبته أنا، أي: أنصبته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ جاء عند البخاري، ومسلم من حديث جرير ﵁ قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً -يَعْنِي الْبَدْرَ-، فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ- كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾».

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فصَلِّ له، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، وقيل: هو التسبيح في الليل، ويعضده ما في صحيح البخاري من حديث عبادة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاتُهُ». والأول أظهر؛ لأن الصلاة تسمى تسبيحًا، لما فيها من تسبيح الله، ومنه: سبحة الضحى.

قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وقرئت: (وإدبار)، أي: أدبار الصلوات المكتوبة، وقد جاء عند الشيخين من حديث المغيرة بن شعبة ﵁، أنه كتب إلى معاوية ﵁: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ (مَكْتُوبَةٍ) -وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا سَلَّمَ-: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ».

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁: «جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، -وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: كَيْفَ ذَاكَ؟ قَالُوا:- يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، (وَفِي رِوَايَةٍ: وَجَاهَدُوا كَمَا جَاهَدْنَا)، (وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا،

وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ)، وَيَتَصَدَّقُونَ! قَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؟ تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ». وَلِمُسْلِمٍ: «فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

فقراءة الكسر من أدبر الشيء إدبارًا، إذا ولّى، وقراءة الفتح جمع دُبُر، كما يقال: طُنُب وأطناب، أو دُبْر، كقُفْل وأقفال، وقد استعملوه ظرفًا، نحو: جئتك في دبر الصلاة، وفي أدبار الصلاة. ولا خلاف في قراءة الكسر في سورة الطور.

قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ يا محمد.

قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ بالصيحة، وهي نفخة البعث، والمنادي: إسرافيل عليه السلام صاحب الصور، وقيل: جبريل عليه السلام، والأول أظهر.

قوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: في أرض المحشر والمنشر، وهي أرض الشام، وقد جاء في حديث رواه أحمد، وابن ماجة بسند لا بأس به من حديث ميمونة رضي الله عنها: أنّها قالت: يا نبي الله أَفْتِنَا في بيت المقدس، فقال: «أَرْضُ الْمَنْشَرِ وَالْمَحْشَرِ».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: من القبور والاجتماع إلى الحساب.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: سهل وهيّن، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، من تكذيب وشتم واستهزاء.

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: بمتسلط تجبرهم على الإسلام، وقد جاء عند أبي داود بسند لا بأس به من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا».

والجبار من الجبرية والتسلط، إذ لا يقال: جبار، بمعنى مُجبر، كما لا يقال: خرّاج، بمعنى مخرج. قال ثعلب: قد جاءت أحرف فعّال بمعنى مُفْعل، وهي شاذة، جبار بمعنى مُجبر، ودرّاك بمعنى مُدرِك، وسرّاع بمعنى مُسرع، وبكّاء بمعنى: مُبك، وعدّاء، بمعنى: مُعدٍ. وقيل: بمعنى مسيطر، كما في سورة الغاشية: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

قال الفراء: سمعت من العرب من يقول: جَبَره على الأمر، أي: قهره، فالجبار من هذه اللغة بمعنى

القهر صحيح. قال الجوهري: أجبرته على الأمر: أكرهته عليه، وأجبرته: نسبته إلى الجبر، كما تقول: أكفرته، إذا نسبته إلى الكفر. وقيل: لا تتجبر عليهم، والأول هو الصحيح.

قوله: ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وقرئت: (وعيدي).

انتهى تفسير سورة ق، ولله الحمد.

  

سورة الذاريات

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾

قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ أي: الرياح، يقال: ذَرَت الريح التراب تذروه ذروًا، وتَذْريه ذَرْيًا، والواو واو القسم، وما بعده أقسام، وإذا أقسم الله عزَّ وَجَل بشيء أثبت له شرفًا.

قوله: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ أي: السحاب تحمل الماء، كما تحمل ذوات الأربع الوقر. قال زيد بن عمرو:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا

وهو بكسر الواو: ثقل الحمل على ظهر أو في بطن، يقال: جاء يحمل وِقره، وقد أوقر بعيره، وأكثر ما يستعمل الوقر في حمل البغل والحمار، ويقال: امرأة مُوقَرة، إذا حملت حملًا ثقيلًا، وأوقرت النخلة أي: كثُر حملها، يقال: نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة، وحكي موقَر على غير قياس؛ لأن الفعل للنخلة، وإنما قيل: موقِر على قياس قولك: امرأة حامل؛ لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء. وأما موقَر بالفتح فشاذ. والجمع: مواقر. وأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن، وقد وقرت أذُنُه تَوْقَر وَقْرًا، أي: صُمت.

قوله: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ أي: السفن تجري بالرياح يسرًا إلى حيث سيرت.

قوله: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أي: الملائكة تأتي بأوامر الله الشرعية والكونية، فجبريل عليه السلام للرسالة والعذاب، وميكائيل عليه السلام للقطر والنبات، وملك الموت للموت ونحو ذلك.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا

وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠﴾

قوله: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أي: الخلق الحسن المستوي المحكم المحبوك الشديد، يقال: حبك الثوب يحْبِكه حبْكًا، أي: أجاد نسجه. قال تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾، والمحبوك: الشديد الخلق من الفرس وغيره. والحُبُك: جمع (حِبَاك)، مثل كُتُب وكِتاب. والحبَاك والْحَبِيكة: الطريق في الرمل ونحوه، وجمع الحباك: حُبُك، وجمع الحبيكة: حبائك، والحبكة مثل العبكة، وهي الحبة من السويق، وفي الحبك لغات: الحِبك، والْحُبْك، والحِبْكِ، وواحد الْحُبَك: حُبْكة، كبُرقة وبُرَق، أو حُبُكة، كظُلُمة وظُلَم، والحِبِك كإبل.

قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ جواب القسم، أي: مضطرب، فمنكم المصدق، ومنكم المكذب، ومنكم الشاك، والخطاب لأهل مكة.

قوله: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ أي: أي يصرف ويؤفن عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن من صُرِفَ وأُفِنَ، وهو المأفوك الضال الغمر، الذي لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾. يقال: أَفَكَه يَأْفِكُه أفْكًا إذا قلبه وصرفه عن الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾.

والأفن فساد العقل، من أفن الضرع إذا أنهكه حلبًا، فيؤفن عنه من أفن، أي: يَحرمه من تخرّص في دين الله وقال ما لا علم له به. ومن لعنه الله كان بمنزلة المقتول الهالك، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾.

قوله: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ جمع خارص، والخَرْص: الكذب، والخرَّاص الكذاب، وقد خرص يخرُص بالضم خرصًا، أي: كذب، يقال: خرص واخترص، وخلق واختلق، وبَشَك وابتشك، وسرج واسترَج، بمعنى كذب. والخرص أيضًا: حزر ما على النخل من الرطب تمرًا. وقد خرصت النخل، والاسم الخرص بالكسر، يقال: كم خرص نخلك والخراص الذي يخرصها فهو مشترك. وأصل الخُرْص: القطع، ومنه: الخَرِيص، للخليج، لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرُص: حبة القُرط إذا كانت منفردة. والخرص الذي به جوع وبرد؛ لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجل بالكسر فهو خَرِصٌ، أي: جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد خرص. ويقال للبرد بلا جوع خرص. والخرص بالضم والكسر: الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرْصان.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ﴾ أي: ستر وغطاء، ومنه: نَهر غَمْر، أي: يَغْمُر من دخله، ومنه: غمرات الموت.

قوله: ﴿سَاهُونَ﴾ أي: لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى يوم الحساب؛ استهزاءً وشكًّا وتكذيبًا وعنادًا واستبعادًا.

قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يحرقون ويعذبون، وهو من قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره، وأصل الفتنة: الاختبار. قال الشاعر:

كُـلُّ امْـرِئٍ مِـنْ عِبَـادِ اللهِ مُضْـطَهَدٌ   بِـبَطْنِ مَكَّـةَ مَقْهُـورٌ ومفتـون

أي: معذَّب.

قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: عذابكم وحريقكم؛ جزاء تكذيبكم.

قوله: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ﴾ نصب على الحال، أي: عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، وقيل: آخذين ما أعطاهم ربّهم من الثواب والنعيم، وأنواع الكرامات، والأول محتمل، والثاني أظهر. قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: ينامون، والهجوع: النوم ليلًا، والتَّهْجَاع: النومة الخفيفة. قال الشاعر:

قَـدْ حَصَّـتِ الْبَيْضَـةُ رَأْسِـي فَمَـا   أَطْعَـمُ نَوْمًـا غَيْـرَ تَهْجَـاع

يقال: هَجَع يَهْجَع هُجوعًا، و(مَا) إما أن تأتي صلة، والتقدير: كانوا قليلًا من الليل يهجعون، وإما أن تأتي: نافية، والوقف عند قوله: (قَلِيلًا)، ويجوز أن تكون (مَا) مع الفعل مصدرًا، والتقدير: كانوا قليلًا من الليل هجوعهم ونومهم، وهذا القول أظهر الأقوال.

ويجوز أن تكون رفعًا على البدل من اسم كان، والتقدير: كان هجوعهم قليلًا من الليل، وقد جاء عند أبي داود، والترمذي بسند جيد عن أنس ﷺ في هذه الآية قال: «كَانُوا يَتَيَقَّظُونَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ يُصَلُّونَ».

وعند الترمذي من حديث عبد الله بن سلام ﷺ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -يَعْنِي الْمَدِينَةَ- انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ! فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ».

وعند أحمد والترمذي بسند حسن من حديث علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا. فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ». قال الشاعر:

وَكَيْفَ تَنَامُ اللَّيْلَ عَيْنٌ قَرِيرَةٌ ... وَلَمْ تَدْرِ فِي أَيِّ الْمَجَالِسِ تَنْزِلُ

قوله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾، وهو وقت النّزول الإلهي، والعطاء الرباني، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». وعند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ». وفي الصحيحن من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كُلَّ اللَّيْلِ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَانْتَهَى وِتْرُهُ إِلَى السَّحَرِ».

قوله: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ أي: الزكاة، قال تعالى في سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾، وقد بيّنه الشرع جنسًا وقدرًا ووقتًا، وأما غير الزكاة فليس بمعلوم، لأنه غير مقدر ولا مجنّس ولا مؤقت. وقيل: حق سوى الزكاة، يصل به رحمًا، ويَقري به ضيفًا، ويحمل به كَلًا، ويغني محرومًا، والقول الأول حق.

قوله: ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أي: الذي حُرِم المال، فلم يتيسر له مكسبه، وقيل: هو الذي أصابته الجائحة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾، وقوله في قصة أحاب الجنة حيث قالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾. والمقصود أنه حرم ومنع الرزق، بأي سبب، بآفة ونحوها.

قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أي: علامات ودلالات للعارفين المحققين لوحدانية ربهم، وصدق نبوة محمد ﷺ، وخصهم بالذكر لأنّهم المتفعون بتلك الآيات وتدبرها.

قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: بصر القلب، لتعرفوا كمال قدرة الله، فقد خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم تنقلتم أطوارًا، حتى صرتم رجالًا ونساءً كبارًا، تأكلون وتشربون وتتناسلون، مع اختلاف ألسنتكم وألوانكم وأشكالكم، فَتبارك الله أَحْسَن الْخَالقين.

قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: ما ينزل من السماء من مطر وثلج وندى، ينبت به الزرع، ويحيا به الخلق. وفي المطر رزقكم، وكان بعض السلف إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم. وسمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل. وقال بعض السلف: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض. قال الشاعر:

لَوْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ فِي الْبَحْرِ رَاسِيَةٍ ... صَمًّا مُلَمْلَمَةٍ ملسا نَوَاحِيهَا

رِزْقٌ لِنَفْسٍ بَرَاهَا اللهُ لَانْفَلَقَتْ ... حَتَّى تُؤَدِّيَ إِلَيْهَا كُلَّ مَا فِيهَا

أَوْ كَانَ بَيْنَ طِبَاقِ السَّبْعِ مَسْلَكُهَا لَسَهَّلَ اللهُ فِي الْمَرْقَى مَرَاقِيهَا
حَتَّى تَنَالَ الَّذِي فِي اللَّوْحِ خُطَّ لَهَا إِنْ لَمْ تَنَلْهُ وَإِلَّا سَوْفَ يَأْتِيهَا

والقول الأول أبلغ، والثاني محتمل.

قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من خير وشر، وثواب وعقاب، وجنة ونار، ونحو ذلك من أمر الساعة.

قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قسم بنفسه الكريمة ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: أمر القيامة والبعث والجزاء ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ وقرئت: (مِثْلُ) على أنه صفة لـ (حَقٌّ) لأنه نكرة، وإن أضيف إلى معرفة، وعلى قراءة النصب -وهو منصوب على الحال- تكون مضافًا إلى (أَنَّكُمْ)، و (مَا) صلة، أو بدلًا من (لَحَقٌّ) والمعنى: لا تَشُكوا فيه كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون. زكان بعض السلف إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلام، وقرئت: (سِلْمٌ).

قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: غرباء لا نعرفكم، وقيل: خافهم، يقال: أنكرته، إذا خفته. قال الشاعر:

فَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا

قوله: ﴿فَرَاغَ﴾ أي: عدل، يقال: أراغ، وارتاغ بمعنى: طلب، وماذا تُريغ؟ أي: تريد وتطلب، وأراغ إلى كذا، أي: مال إليه سِرًا وحاد، فأراغ وراغ لغتان بمعنى.

قوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة وضجة، ومنه: صرير الباب، وهو صوته، والصرة: الجماعة، والصرة الشدة من كرب وغيره.

قوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت بيدها على وجهها، على عادة النسوان عند التعجب، وأصل الصك الضرب.

قوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أتلد عجوز عقيم؟! أو أنا عجوز عقيم، فكيف ألد؟! كما قال تعالى عنها في آية أخرى: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ

لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ
مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ
فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

قوله: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أهل بيت، وهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنتاه، وقد احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليه ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين، والقاعدة الصحيحة أن كل مؤمن مسلم، ولا عكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ أي: وتركنا في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، والأول أقرب.

قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بجموعه وجنده وعشيرته وقوته، وقيل: بنفسه، وقيل: بجانبه، كقوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، قال الجوهري: وركن الشيء: جانبه الأقوى، وقد كان يأوي إلى عزة ومنعة، وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء.

قوله: ﴿مُلِيمٌ﴾ أي: فرعون؛ أتى ما يُلامَ عليه.

قوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا تلقح سحابًا ولا شجرًا، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة، ومنه: امرأة عقيم، أي: لا تحمل ولا تلد. وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نُصِرتُ بِالصَّبَا، وَأُهلِكَت عَادٌ بِالدَّبُورِ».

قوله: ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهشيم الهالك البالي، يقال للنبت إذا يبس وتفتت: رميم وهشيم. وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ، إذا بلي، تقول منه: رمّ العظم يرِمّ رِمَّة فهو رميم، والرِّمة: العظام البالية، والجمع: رِمم، ورمام.

قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هرب ولا نهوض، أو من طاقة وتَحَمّل، تقول: لا أقوم لهذا الأمر، أي: لا أتحمله، ولا أطيقه. والكل محتمل.

قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب، فلم يكن لهم ناصر حين أهلكوا.

قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وقرئت: (وقومِ) بالكسر، أي: وفي قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتقدير النصب: وأهلكنا قوم نوح، أو معطوف على الهاء والميم في ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أو الهاء في ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾، أي: وأخذت قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو بمعنى: اذكر.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ أي: بقوة وقدرة.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ موسعون لأرجائها، وقادرون على خلقها وخلق غيرها، لا يضيق علينا شيء نريده. قال الجوهري: وأوسع الرجل، أي: صار ذا سعة وغنى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أي: أغنياء قادرون.

قوله: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن، والمعنى في الجمع: التعظيم. وقد جعل الله عز وجل الأرض فراشًا ومهدًا، يقال: مهدت الفراش مهدًا: بسطته ووطّأته، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها.

قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي: صنفين ونوعين مختلفين، ذكرًا وأنثى، وحلوًا وحامضًا، وسماء وأرضًا، وشمسًا وقمرًا، وليلًا ونهارًا، ونورًا وظلامًا، وسهلًا وجبلًا، وجنًّا وإنسًا، وخيرًا وشرًا، وبكرة وعشيًا، وبرًا وبحرًا، وإيمانًا وكفرًا، وموتًا وحياة، وشقاء وسعادة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجأوا إليه، واعتمدوا عليه، وفرّوا من معاصيه إلى طاعته، وهاجروا من بلاد المعصية والكفر إلى بلاد الطاعة والإيمان. قال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال ذو النون: ففروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن عثمان: فروا من أنفسكم إلى ربكم.

قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ أي: أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب، وتواطئوا عليه، والألف للتوبيخ والتعجب.

قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي: لم يوصِ بعضهم بعضًا، بل جمعهم الكفران ومجاوزة الحد في الطغيان، وقد تشابهت قلوبهم، فقال مُتأخرهم كما قال متقدمهم.

قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ أي: عند الله؛ لأنك أدّيت ما عليك من تبليغ الرسالة، فما عليك إلا البلاغ.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: يقرّوا لي بالعبادة طوعًا أو كرهًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ

وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، وأصل العبودية: الخضوع والذل، والتعبيد: التذليل، يقال: طريق معبَّد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ جاء عند أبي داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾». صححه ابن حجر. وقال الذهبي: وهذه القراءة من قبيل الشاذ لخروجها عن رسم الإمام.

قوله: ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الشديد، نعت مرفوع لقوله: ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ أو ﴿ذُو﴾.

قوله: ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نصيبًا من العذاب، مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة، يقال: يوم ذَنُوب، أي: طويل الشر لا ينقضي، وأصل الذَّنوب في اللغة: الدلو العظيمة.

وقال الجوهري: والذنوب للفرس الطويل الذنب، والذنوب: النصيب، والذنوب: لم أسفل المتن، والذَّنوب: الدلو الملأى ماءً، ولا يقال للفارغة: ذنوب، والجمع في أدنى العدد: أذْنِبة، والكثير: ذَنائب، مثل: قَلُوص وقلائص.

انتهى تفسير سورة الذاريات، ولله الحمد.

  

سورة الطور

وهي مكية بالإجماع.

وقد جاء عند الشيخين من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ النَبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ». وعند الشيخين من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: «شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي، فَقَالَ: طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ. فَطُفْتُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَئِذٍ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ، وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾

قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ وهو اسم الجبل الذي كلّم الله عز وجل عليه موسى عليه السلام، أقسم الله به تشريفًا وتكريمًا وتذكيرًا؛ لما فيه من الآيات.

قوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ أي: مكتوب، وهو القرآن الكريم، يقرؤه المؤمنون من المصاحف، وتقرؤه الملائكة في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾. وقيل: سائر الكتب المنْزلة على الأنبياء، وقيل: هو صحائف الأعمال، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، والكل محتمل، والأول أقرب.

قوله: ﴿فِى رَقٍّ﴾ أي: في جلد رقيق، أو صحيفة، وسميت بذلك لرقة حواشيها. وجمعه: رُقوق. وأما الرِّق بالكسر فهو المِلك، يقال: عبد مرقوق.

قوله: ﴿مَّنشُورٍ﴾ أي: مبسوط.

قوله: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ وهو البيت الذي في السماء السابعة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وقد تقدم في مطلع سورة الإسراء، وهو كعبة أهل السماء السابعة، وقد وجد رسول الله ﷺ إبراهيم عليه السلام مسندًا ظهره إليه حين أسري به؛ لأنه والله أعلم باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، ويقال: إنه بِحِيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة، كما جاء عند الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح موقوفًا.

قوله: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ أي: السماء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا

مُعۡرِضُونَ﴾؛ لأنّها للأرض كالسقف للبيت، وقيل: هو العرش؛ لأنه سقف الجنة وجميع المخلوقات، والأول أقرب، والثاني له وجه، ولعل الكل وارد.

قوله: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: بحار الدنيا.

قوله: ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: الموقد يوم القيامة نارًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾، أي: أضرمت، فتصير نارًا تأجج، تحيط بأهل الموقف، يقال: سجرت التنور أسجره سجرًا، أي: أحميته. وقيل: (المَسْجُورِ) أي: الملوء. ويجوز أن يكون المملوء نارًا، فيكون كالقول الأول، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

وقيل: مسجور: فارغ، وقيل: مفجور يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ أي: تُنَشِّفها الأرض، فلا يبقى فيها ماء، وقيل: فجر عذبها في مالحها، فيختلطان ويصيران نارًا، وهذا القول يضم للقول الأول، والله أعلم.

قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ جواب القسم، أي: واقع بالمشركين.

قوله: ﴿تَمُورُ﴾ أي: تتحرك ذهابًا وإيابًا، كما تتكفَّأ النخلة العَيْدانة، أي: الطويلة. وقيل: تجري جريًا. والمقصود أنّها تتحرك بسرعة، في استدارة بعضها في بعض، يقال: ناقة موَّارة اليد، أي: سريعة، والبعير يمور عضداه، إذا تردد في عرْض جنبه.

قوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

قوله: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف، يقال: دععته أدعه دعًّا، أي: دفعته دفعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ
إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ
ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١
وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ
غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦
فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ
٣١﴾

قوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ استفهام للتوبيخ والتقريع.

قوله: ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ قيل: ﴿أَمۡ﴾ بمعنى بل، أي: بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون، والأول أظهر.

قوله: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: الجزع والصبر لا يقدم شيئًا، كما أخبر عنهم بقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾.

قوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: ذوي فاكهة كثيرة، يقال: رجل فاكه، أي: ذو فاكهة، كما يقال: لابنٌ، وتامرٌ، أي: ذو لبن، وتمر.

قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا تنغيص فيه ولا نكد، ولا كد ولا أذى ولا غائلة، قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾، أي: هذا بذاك، تفضلًا منه وإحسانًا.

قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖ﴾ أي: موصولة بعضها إلى بعض، حتى تصير صفًا، وتكون وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ قرئت: (ذرياتُهم)، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ فِي دَرَجَتِهِ، وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ، لِيُقِرَّ بِهِمْ عَيْنَهُ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ». رواه البزار بسند لا بأس به من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ قرئت: (ما أَلِتْناهم) بكسر اللام، يقال: أَلَتَه يألِته أَلْتًا، وآلَته يُؤلِته إيلاتًا، ولاتَه يَليته لَيْتًا، كلها إذا نقصه، ولاته عن وجهه يلوتُه، ويَليته: أي حبسه عن وجهه وحرفه. والمعنى: ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئًا بإلحاق الذريات بِهم، وقد جاء عند عبد الرزاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما نقصناهم. صححه ابن حجر.

وعند أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ».

وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي: مرتهن بعمله، فلا ينقص أحد من ثواب عمله، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾.

قوله: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ أي: أكثرنا لهم من ذلك، زيادة من الله، غير الذي كان لهم.

قوله: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: يتناولها بعضهم من بعض، وهو المؤمن وزوجاته من الحور

العين، وخدمه الولدان المخلدون.

قوله: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ وقرئت: (لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ).

قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: بالفواكه والطعام والشراب والتحف، كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾، وهؤلاء الغلمان قد خُلقوا في الجنة.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: مصون في الصدف، من حسنهم وبياضهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾، قال الكسائي: كننت الشيء: سترته وصنته من الشمس، وأكننته في نفسي: أسررته، تقول: كننت العلم وأكننته، فهو مكنون ومُكَنّ، وكننت الجارية وأكننتها، فهي مكنونة ومُكنّة.

قوله: ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين من عذاب الجحيم.

قوله: ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: النار، وقد تستعمل في لفح البرد على القِلّة.

قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ وقرئت: (أنه).

قوله: ﴿ٱلْبَرُّ﴾ أي: صاحب البر واللطف والفضل.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: بل يقولون: محمد، وما جاء في كتاب الله تعالى من هذا، فمعناه التقرير والتوبيخ، والخروج من حديث إلى حديث، والنحويون يمثلونَها ببل.

قوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: ننتظر به حوادث الأمور، من موت ومصيبة. قال الأصمعي: المنون واحد لا جماعة له. وقال الأخفش: هو جماعة لا واحد له. والمنون يذكر ويؤنث، فمن ذكره جعله الدهر أو الموت، ومن أنّثه أراد المعنى، وهي المنية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ

أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

قوله: ﴿أَحۡلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم وأذهانُهم، وهي عقول، لكنها لا تعقل، وأذهان، لكنها لا تفهم.

قوله: ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي: أم طغوا بغير عقول، وقيل: بل كفروا طغيانًا، وإن ظهر لهم الحق.

قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: افتعله وافتراه، يعني القرآن، والتقوّل: تكلّف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر، ويقال: قوّلْتني ما لم أقل، وأقولْتني ما لم أقل، أي: ادّعَيْتَه عليَّ، وتقوّل عليه، أي: كذب عليه، واقتال عليه: تحكم. فـ﴿أَمۡ﴾ الأولى للإنكار، والثانية للإيجاب، أي: ليس كما يقولون.

قوله: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ أَمْ: صلة، والتقدير: أخلقوا من غير رب أم من غير أب ولا أم؟ جاء عند الشيخين من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، (فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾. قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي)». وكان جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركًا، فكان سماعه لهذه الآية من جمله ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

قوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: من الرزق والمطر والرحمة، فيستغنوا عن الله ويعرضوا عن أمره؟!

قوله: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ أي: المسلّطون الجبارون القاهرون المبطلون، يقال: تسيطرت عليّ، أي: اتخذتني خولًا لك، والمسيطر، والمصيطر: المسلّط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله يكتب عمله، وأصله من السطر؛ لأن الكتاب يُسَطَّر، والذي يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر، يقال: سيطرت علينا. وفيها ثلاث لغات: الصاد، والسين، والزاي.

قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: مرتقى إلى السماء ومصعدًا يصعدون به ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ الأخبار وما في علم الغيب، كما يصل إلى محمد ﷺ عن طريق الوحي والرسالة.

قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ أي: بحُجَّة بينة أن هذا الذي هم عليه حق.

قوله: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ أي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم.

قوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أي: للناس ما أرادوه من علم الغيوب، وليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم من أهل السماوات والأرض الغيبَ إلا الله.

قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أي: مكرًا بمحمد ﷺ وبدينه، كما صنعوا بدار الندوة.

قوله: ﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ أي: المكور بهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾، وقد قتلوا يوم بدر شر قِتلة.

قوله: ﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ أي: بعضه فوق بعض، سقط علينا وليس بسماء، وهذا فعل المعاند، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾.

قوله: ﴿يُصۡعَقُونَ﴾ قرئت: (يَصعقون) بالفتح، وهما لُغتان، صَعِق، وصُعِق، مثل: سَعِد، وسُعِد.

قوله: ﴿عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل موتهم، من مصائب الدنيا وأوجاعها، وذهاب أموالهم وأولادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وقد سبق بيان ذلك في سورة السجدة.

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ أي: بمرأى منا وتحت كلاءتنا، نرى ونسمع، ما تقول وتفعل، كما قال تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾.

قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم من الليل، كما جاء عند البخاري من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلا إِلَهَ إلا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاتُهُ».

وعند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إلا أَنْتَ».

وعند مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَخَرَجَ فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ فِي آلِ عِمْرَانَ ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى ثُمَّ اضْطَجَعَ ثُمَّ قَامَ، فَخَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ رَجَعَ فَتَسَوَّكَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى». وعند الشيخين: أنه قرأ إلى آخر سورة آل عمران.

وعند أبي داود بسند جيد من حديث عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ، قَالَ: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَفْتَتِحُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِيَامَ اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ، كَانَ إِذَا قَامَ كَبَّرَ عَشْرًا،

وَحَمِدَ اللهَ عَشْرًا، وَسَبَّحَ عَشْرًا، وَهَلَّلَ عَشْرًا، وَاسْتَغْفَرَ عَشْرًا، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي. وَيَتَعَوَّذُ مِنْ ضِيقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقيل: حين تقوم في الصلاة، كما جاء عند مسلم من حديث عمر ﵁: «أنه كَانَ يَجْهَرُ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وعند أبي داود بسند لا بأس به من حديث أبي سعيد ﵁ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ ثُمَّ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ. ثُمَّ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -ثَلَاثًا-، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا -ثَلَاثًا-، أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ. ثُمَّ يَقْرَأُ».

وكذا التسبيح في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى، كما جاء عند مسلم، من حديث حذيفة ﵁.

وكذا: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، كما عند الشيخين من حديث عائشة ﵂ قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ».

وقيل: حين تقوم من مجلسك، وهي ما يسمى بكفارة المجلس، كما جاء عند الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ».

وعند أبي داود بسند جيد من حديث أبي برزة الأسلمي ﵁ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ بِأَخَرَةٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى! قَالَ: كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ».

والكل وارد ومحتمل، والقول الأول أظهرها.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: صلاة الصبح، وقيل: هما ركعتا الفجر، وقد جاء عند الشيخين عن عائشة ﵂ قالت: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ مِنْهُ تَعَاهُدًا عَلَى رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ». وعند مسلم من حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، والقولان معتبران. ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: جنوحها للغيبوبة.

انتهى تفسير سورة الطور، ولله الحمد.

  

سورة النجم

وهي مكية. وقيل: إلا آية واحدة.

جاء عند البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ النَّجْمَ (بِمَكَّةَ) (وَفِي رِوَايَةٍ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَالنَّجْمِ﴾)، فَسَجَدَ فِيهَا، وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ غَيْرَ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا. فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا. (وَفِي رِوَايَةٍ: وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ)». وعند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْجِنُّ، وَالإِنْسُ». وعند الشيخين من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ۝٢٥ ۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦﴾

قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قسم بالنجوم التي تُرجم بها الشياطين، وقيل: بالنجوم إذا غابت، وقيل: بالنجم الثريّا، إذا سقطت مع الفجر، والأول أظهر، والثاني والثالث محتمل، وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد، ومعناه جمع.

وقيل: القرآن إذا نزل، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وهوى: أي: نزل، يقال: هوى يَهْوِي هُويًا، مثل: مضى يَمْضي مُضيًا.

قال الأصمعي: هوى بالفتح يَهْوِي هُوِيًا، أي: سقط إلى أسفل، وكذلك: انْهوى في السير، إذا مضى فيه، وهوى، وانْهوى لغتان بمعنى.

قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ جواب القسم، أي: ما ضلّ محمد ﷺ عن الحق، وما حاد عنه.

قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: ما صار غاويًا، وما تكلم باطلًا، وإنما هو بار راشد، وقيل: ما خاب مما طلب. قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ   وَمَنْ يَغْوَ لَا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لَائِمَا

أي: من خاف في طلبه لامه الناس.

قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي: ما يخرج نُطْقُه عن رأيه. روى أحمد وأبو داود بسند صحيح، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ، وَالرِّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ».

وعند أحمد والترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا! قَالَ: إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا».

قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: قوة، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسند جيد عن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». قال الشاعر:

تَـرَى الرَّجُـلَ النَّحِيـفَ فَتَزْدَرِيـهِ   وَحَشْـوُ ثِيَابِـهِ أَسَـدٌ مَرِيـرُ

وقيل: ذو منظر حسن، وخلق عظيم، والكل وارد. قال قطرب: تقول العرب، لكل جزل الرأي حصيف العقل: ذو مرة. قال الشاعر:

قَـدْ كُنْـتُ قَبْـلَ لِقَـاكُمْ ذَا مِـرَّةٍ   عِنْـدِي لِكُـلِّ مُخَاصِـمٍ مِيزَانُـهُ

قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ استوى وارتفع وعلا.

قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الذي يأتي منه الصبح، أو مطلع الشمس، ويقال: أفْق، وأفُق، مثل: عُسْر، وعُسُر، وفرس أفُق، أي: رائع، وكذلك الأنثى.

قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: دنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض.

قوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: نزل على النبي ﷺ بالوحي، وأصل التدلي: النّزول إلى الشيء حتى يقرب منه،

فوضع موضع القرب.

قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أي: أعلى تقديركم، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾. وفي الصحاح: وتقول: بينهما قاب قوس، وقِيبُ قوس، وقَاد قَوْس، وقِيدُ قَوس، أي: قَدْر قوس، والقابُ: ما بين الْمَقْبِض والسِّيَة، ولكل قوس قابان، وقد جاء عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ. -يعني سوطه- خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

وقيل: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أي: وأدنى، وقيل: بمعنى بل أدنى.

والقوس: الذراع يقاس به كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين، وأزد شنوءة. قال الكسائي: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ أراد قوسًا واحدًا.

والقوس تذكر وتؤنّث، فمن أنّث قال في تصغيرها: قويسة، ومن ذكّر قال: قويس، وفي المثل: هو خير من قُوَيسٍ سهمًا، والجمع: قِسِيّ، وقُسِيّ، وأقواس، وقياس.

والقوس: بقية التمر في الْجُلَّة، أي: الوعاء. والقوس: برج في السماء، وأما القُوسُ بالضم فصومعة الراهب.

والمقصود أن جبريل اقترب إلى محمد ﷺ، حتى كان بينهما بقدر القوسين إذا مُدَّا، وقد جاء عند الشيخين من حديث مسروق قال: «يَا أُمَّتَاهْ! هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ! أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ؟ مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ. ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾...». ولمسلم: «قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! أَنْظِرِينِي وَلَا تُعْجِلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ، سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

وعند الشيخين عَنِ الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: «سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾. قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ رضي الله عنه: أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ».

وأما حديث الإسراء: «... وَدَنَا لِلْجَبَّارِ رَبِّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى...» فقد تكلم فيه، وإن كان عند البخاري، وإن صح، فهو محمول على وقت آخر، وقصة أخرى، لا أنّها تفسير لهذه الآية، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض، لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، فهذه ليلة الإسراء، والأولى كانت في الأرض.

قوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ ما شرع لعباده، والوحي: إلقاء الشيء بسرعة، وقد تقدم، ومنه: الوَحَاءَ الوَحَاء، أي: البدار البدار.

قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قرئت: (ما كذّب)، أي: لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج، وذلك أن الله عزَّ وَجَل، جعل بصره في فؤاده، حتى رأى ربه تعالى، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ قال: «رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَينِ». وهذا القول من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اجتهاد منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد سبق حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بيان المقصود من هذه الآية، وأن عود الضمير، إنما هو إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد جاء عند أحمد بسند صحيح، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَلَيْهِ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، يُنْثَرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ، الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ». وفي رواية عند أحمد بسند حسن: «يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ»، وفي رواية عندأحمد بسند جيد: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فِي خُضْرٍ مُعَلَّقٌ بِهِ الدُّرُّ». وعند مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ قال: رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعند مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: رَأَيْتُ نُورًا». أي: غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته، وقد سبق الحديث عن هذه القضية في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أي: أتجادلونه وتدافعونه، وقرئت: (أفتَمْرونه) أي: أفتجحدونه، يقال: مراه حقه، أي: جحده ومنعه، ومريْته أنه. قال الشاعر:

لَئِنْ هَجَرْتَ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ ... لَقَدْ مَرَيْتَ أَخًا مَا كَانَ يَمْرِيكَا

أي: جحدته.

وروي: لئن هجوت...

قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ مصدر في موضع الحال، والتقدير: رآه نازلًا نزلة أخرى.

قوله: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ وهي في السماء السابعة، وقد سبق حديثها في مطلع سورة الإسراء.

قوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ أي: عند سدرة المنتهى.

قوله: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ روى مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ». والفراش: دويبة ذات جناحين، تتهافت في ضوء السراج، واحدتُها: فراشة. وعند الشخين من

حديث أنس بن مالك، ومالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ: «فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا». وسميت بالمنتهى لأنه كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: «إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا».

قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما عدل يمينًا وشمالًا.

قوله: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: لم يتجاوز الحد الذي رأى، أو ما أُمر برؤيته، ولم يسأل فوق ما أعطي، وهذا وصف أدب للنبي ﷺ في ذلك المقام وثباته. قال الشاعر:

رأى جَنَّةَ المَأوَى وَمَا فَوْقَها وَلَو   رَأى غَيرُهُ مَا قَد رَآه لتَاهَا

قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ كقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ» رواه الشيخين، وبهاتين الآيتين، استدل من ذهب من أهل السنة إلى أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ وقرئت: (اللاه). جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ﴾ قال: «كَانَ اللّاتُ رُجُلًا يَلتُّ سَوِيقَ الحَاجِ». وقيل: هي صنم لأهل ثقيف، اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون: مؤنثة منه، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، قال الشاعر:

لَا تَنْصُرُوا اللَّاتَ إِنَّ اللهَ مُهْلِكُهَا   وَكَيْفَ يَنْصُرُكُمْ مَنْ لَيْسَ ينتصر

وكذلك ﴿ٱلْعُزَّىٰ﴾، من العزيز، وهي شجرة بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم أحد: لنا العزى ولا عُزى لكم، وقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلانَا، وَلا مَوْلَى لَكُمْ». رواه البخاري. وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ».

قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ قرئت: (ومناءة) بالمد والهمز، وسميت بذلك لأنّهم كانوا يريقون عندها الدماء بكثرة، يتقربون بذلك إليها، وهي صنم لهذيل، وخزاعة، بين مكة والمدينة، وكانت الأوس، والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة.

قوله: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ العرب تقول للثالثة: أخرى، وإنما الأخرى نعت للثانية، واختلفوا في وجهها، فقال الخليل: إنما قال ذلك لِوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، ولم يقل: أُخر. وقيل: لأنّها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم في المرتبة الثانية بعد اللات والعزى، والكل وارد ومحتمل.

قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ردًا عليهم قولهم: الملائكة، والأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك.

قوله: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ فعلى، مثل: طوبى، وحُبلى، أي: جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق، يقال: ضاز في الحكم، أي: جار، وضَازَ حقه يَضيزه ضيزًا، أي: نقصه وبخسه، وقد يُهمز، فيقال: ضَأَزه يَضْأَزُه ضأْزًا. ويقال: ضاز يضيز ضَيْزًا، وضاز يضُوز ضَوْزًا، إذا ظلم وتعدى وبخس وانتقص. وحُكي فيها: ضِيزى، وضَأزى، وضُوزى، وضُؤزى، ومن قال: ضاز يضُوز فالاسم منه: ضُوزى، مثل: شُورى.

قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، ليس لها رصيد من الحقيقة والحجة والبرهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: ما تميل إليه من حظوظ النفوس من الرياسة وتعظيم الآباء الأقدين.

قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: ليس كل من تمنى خيرًا حصل له، كما كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ودّ شيئًا حصل له.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: قدر عقولهم، ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة، وأبصروا دنياهم، وعموا عن أمر دينهم، واعتقدوا في ربهم ما لا يليق بجلاله وعظيم كبريائه، وهو ازدراء بِهم، وتصغير لعقولهم، وقد جاء عند أحمد بسند لا بأس به من حديث عائشة ﵂ قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ».

قوله: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ قرئت: (كبير).

قوله: ﴿ٱللَّمَمَ﴾ وهي الصغائر التي لا يسلم أحد من الوقوع فيها، إلا من عصمه الله وحفظه، وقد مضى بيان حد الكبيرة والصغيرة في سورة النساء، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا».

وقد جاء عند الشيخين واللفظ للبخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ: فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»، وكل مقاربة للمعصية من غير مواقعة، هو من قبيل اللمم.

ويقال لطرف من الجنون: اللمم، يقال: رجل ملموم، أي: به لَممٌ، ويقال: أصابت فلان لَمَّةٌ من الجن، وهي المس والشيء القليل.

قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: لا تمدحوها ولا تثنوا عليها، فإنه أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، وعند مسلم من حديث زينب بنت أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ».

قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ أي: أطاع ربه قليلًا، ثم قطعه. وأصل ﴿أَكۡدَىٰٓ﴾ من الكُدْية، يقال لمن حفر بئرًا ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حَفْرٌ: قد أكدى، ثم استعمله العرب لمن أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شيئًا ولم يبلغ آخره. قال الشاعر:

فَأَعْطَى قَلِيلًا ثُمَّ أَكْدَى عَطَاءَهُ وَمَنْ يَبْذُلِ الْمَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَدُ

يقال: كَدِيتْ أصابعه، إذا كلّت من الحفر، وكَدِيت يده، إذا كلّت فلم تعمل شيئًا، وأكدى النبت، إذا قلّ ريْعه، وكَدَت الأرض تكدو كدوًا، وكُدُوًا، فهي كادية، إذا أبطأ نباتُها، وأكديتُ الرجل عن الشيء: رددته عنه، وأكدى الرجل، إذا قل خيره.

قوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب، ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره؟ وكفى بهذا جهلًا وحمقًا. وقيل: أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه علم الغيب أنه سينفذ ما في يده، فهو يرى ذلك عيانًا؟ فليس الأمر كذلك، وإنما أمسك بخلًا وشُحًا وهلعًا، وفي الحديث الحسن عند

البزار من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «أَنْفِقْ بِلالُ! وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا». وهذا القول وجيه.

قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أي: وصحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: صدق في قوله وعمله، وقام بجميع ما فُرض عليه، فلم يخرم منه شيئًا، وقد مضى عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ والتَّوْفِية: الإتمام. قال بعض السلف: قام بشرط ما ادعى حين قال الله له: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فطالبه الله بصحة دعواه، فابتلاه بنفسه وماله وولده.

قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ استدل بها الشافعي ومن اتبعه، على أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته، ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل عن الصحابة في ذلك شيء، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وباب القربات يُقتصر فيه على النصوص، ولا يُتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء، والصدقة، والحج، والصيام فذلك متفق على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما، وأما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ... » فهي من سعيه وكدّه وعمله، كما جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال ﷺ: «إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكُمْ، فَكُلُوا مِنْ كَسْبِ أَوْلَادِكُمْ».

والصدقة الجارية، كالوقف ونحوه هي من آثار عمله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، وكذا العِلم من سعيه، وقد ثبت عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا...».

وقد أجمع العلماء على أنه لا يصلي أحد عن أحد. وقد ذهب مالك، إلى عدم جواز الصيام، والصدقة عن الميت، إلا أنه قال: إن أوصى بالحج ومات جاز عنه، وقال الربيع بن أنس: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى، وما سعى له غيره. وهذا القول له حظ من النظر، لمن تأمل رحمة الله وفضله وجوده، بعباده المؤمنين: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، يعامل المؤمن بفضله، ويعامل الكافر بعدله.

قوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُريه الله جزاءه يوم القيامة.

قوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ يقال: جزيته الجزاء، أو بالجزاء سواء، لا فرق بينهما.

قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المرجع والمَرَدّ والمصير، فيعاقب من عصى، ويثاب من أطاع،

وقيل: النهي عن التفكر في ذات الله، كما عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ». قال الشاعر:

وَلَا تُفَكِّرَنْ فِي ذِي الْعُلَا عَزَّ وَجْهُهُ ... فَإِنَّكَ تُرْدَى إِنْ فَعَلْتَ وَتُخْذَلُ

وَدُونَكَ مَصْنُوعَاتُهُ فَاعْتَبِرْ بِهَا ... وَقُلْ مِثْلَ مَا قَالَ الخَلِيلُ المُبَجلُ

والقول الأول أظهر وأشهر.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ جاء عند الشيخين عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ. وَقَالَتْ: حَسْبُكُمُ الْقُرْآنُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ عِنْدَ ذَلِكَ: وَاللهُ ﴿هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾».

قال بعض السلف: أضحك قلوب العارفين بمعرفته ورحمته، وأبكى قلوب العاصين بمعصيته وسخطه.

وقال آخر: أضحك المؤمن في الآخرة، وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله: أضحك الله أسنانَهم وأبكى قلوبَهم. وقال:

السِّنُّ تَضْحَكُ وَالْأَحْشَاءُ تَحْتَرِقُ ... وَإِنَّمَا ضِحْكُهَا زُورٌ وَمُخْتَلَقُ

يَا رُبَّ بَاكٍ بِعَيْنٍ لَا دُمُوعَ لَهَا ... وَرُبَّ ضَاحِكِ سِنٍّ مَا بِهِ رَمَقُ

ومن الطريف أن القرد يضحك ولا يبكي، والإبل تبكي ولا تضحك، هكذا قيل، والإنسان هو الذي اجتمع له الضحك والبكاء من بين سائر الحيوان.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ وهذا الحسي، وأما المعنوي فقد أحيا المؤمنين بالإيمان، وأمات الكافرين بالشرك والعصيان، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩ ٦٢﴾

قوله: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ أي: تُصب وتراق في الرحم، يقال: مَنى الرجل، وأمْنى، من المنِي،

وسميت منى بِهذا الاسم لما يُمنى فيها من الدماء ويراق. وقيل: ﴿تُمْنَىٰ﴾: تُقدر، يقال: منيت الشيء، إذا قدّرته، ومُني له، أي: قُدّر له. قال الشاعر:

لَا تَـأْمَنِ الْمَـوْتَ فِـي حِـلٍّ وَفِـي حَـرَمٍ ... إِنَّ الْمَنَايَـا تُـوَافِي كُـلَّ إِنْسَـانِ

وَاسْـلُكْ سَـبِيلَكَ فِيهَـا غَيْـرَ مُحْتَشِـمٍ ... حَتَّـى تُلَاقِـيَ مَـا يُمَنِّـي لَـكَ الْمَـانِي

أي: ما يُقدر لك القادر. والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ قرئت: (النَّشَاءَة) أي: إعادة الأرواح للبعث.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي: أغنى من شاء، وأفقر من شاء قال تعالى: ﴿يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ ويقال: قَنِي الرجل يَقْنَى قِنًى، مثل: غَنِي يَغْنَى غِنًى، وأقناه الله، أي: أعطاه الله ما يُقتنى من القِينة والنَّشَب، وأقناه الله، أي: رضَّاه، وعلى هذا قيل: معنى ﴿أَقۡنَىٰ﴾ أي: جعل لكم قنية تقتنونَها، والقول الأول أبلغ، والثاني محتمل.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ وهو الكوكب المضيء الوقاد، الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر، وخص بالذكر؛ لأن العرب كانت تعبده، فأعلمهم الله عز وجل، وهو رب الكواكب كلها، وأن الشعرى أيضًا مربوب، وكان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم، وهذا ونحوه أبطله الإسلام، وجعله كفرًا بالقرآن.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ سموا بذلك لأنّهم كانوا من قبل ثمود، وقيل: لأنها أول أمة أهلكت بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: هم عادان: فالأولى أهلكت بالريح الصرصر، والأخرى أهلكت بالصيحة، والقول الأول الصواب، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، حيث يقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ أي: أشد تمردًا من الذين بعدهم، وذلك لطول مدة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيهم. وقيل: ما ذكر عن عاد وثمود وقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى، فأبادهم الله، فيكون تسلية للنبي ﷺ.

قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ أي: مدائن قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، ائتفكت بهم وانقلبت عليهم، وصار عاليها سافلها، يقال: أفكته، أي: قلبته وصرفته.

قال تعالى: ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي: خسف بهم بعد أن رفعهم إلى السماء وأسقطهم.

قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: ألبسها ما ألبسها من الحجارة والعذاب.

قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: بأي نعم ربك تشك يا أيها الإنسان؟ وقيل: يا محمد، والقول

الأول الحق، وواحد الآلاء: ألى، وإلًى، وإلْيٌ.

قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ أي: محمد ﷺ وما جاء به من القرآن.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: من جنس الرسل السابقين، أُرسل كما أُرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فإن أطعتموه سلمتم، وإن عصيتموه حل بكم ما حل بالأولين، وقيل: النذر في قول العرب: الإنذار، كالنكر، بمعنى الإنكار، أي: هذا إنذار لكم، فحذار أن ينْزل بكم ما نزل بأولئك من النذر، أي: مثل النذر، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ أي: قربت الساعة ودنت القيامة، وسميت آزفة، لقرب قيامها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾، ولدنوها من الناس وقربها منهم؛ ليستعدوا لها، وكل ما هو آت قريب، وقد سبق الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: من يؤخرها أو يقدمها، أو يكشف عنها ويبديها.

قوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيبًا به، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزجارًا وخوفًا من وعيده وتهديده.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: لاهون معرضون متكبرون، يقال: سمد سُمُودًا: رفع رأسه تكبرًا، وكل رافع رأسه فهو سامد. ويقال: سَمدتُّ سُمُودًا: علوت، وسَمَدَت الإبل في سيرها: جدَّت، والسامد: اللاهي، يقال للقينة: أسمدينا، أي: ألهينا بالغناء، وتسميد الأرض: أن يجعل فيها السماد، وهو سِرْجين وَرَماد، وتسميد الرأس: استئصال شعرها، لغة في التسبيد، واسمأد الرجل بالهمز اسمئدادًا، أي: ورم غضبًا، ويقال للخامد: السامد.

قوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: سجود التلاوة، وقد سبق ذلك في مطلع السورة، وقيل: سجود الفرض في الصلاة، والقول الأول الحق والصواب.

انتهى تفسير سورة النجم، ولله الحمد.

  

سورة القمر

وهي مكية، وقيل: إلا ثلاث آيات، والقول الأول أصح.

وقد تقدم قراءة النبي ﷺ لها في الأضحى والفطر في مطلع سورة ق، كما عند مسلم، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦﴾

قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قربت، فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة، وقد سبق بيان ذلك.

قوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ وقد انشق، فقد جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ، (حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا)». وعند الشيخين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمِنًى- فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اشْهَدُوا». وعند الترمذي بسند صحيح: «فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾». وقد سبق حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: اللِّزَامُ، وَالرُّومُ، وَالْبَطْشَةُ، وَالْقَمَرُ، وَالدُّخَانُ». رواه الشيخان.

قوله: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أي: ذاهب، من قولهم: مرّ الشيء، واستمرّ، إذا ذهب، وقيل: دائم، كما قال الشاعر:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا لَيَالٍ وَأَعْصُرُ ... وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ قَوِيمٍ بمستمر

والأول أبلغ، والثاني محتمل.

قوله: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي: يستقر بكل عامل عمله، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار.

قوله: ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: ما يزجرهم عن الكفر والشرك، وأصله: مُزْتَجر، فقلبت التاء دالًا؛ لتوافقهما في المخرج، ولوجود الهمس في التاء، والجهر في الزاي، يقال: زجره، وازدجره، فانزجر، وازدجر، وزجرته أنا، فانزجر، أي: كففته، فكف.

قوله: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ أي: القرآن، بدل من قوله: ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو حكمة، وقيل: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ في هدايته لمن هداه، وإضلاله لمن أضله، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ

ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهذا القول أبلغ وأوجه، والأول محتمل.

قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليست تغني عنهم النذر، ويجوز أن يكون توبيخًا، أي: فأي شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها؟ و ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ كما سبق يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير.

قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ أي: إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

قوله: ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وقرئت: (نُكْر)، وهما لغتان، كعُسْر وعُسُر، وشُغْل وشُغُل، أي: أمر فظيع، وهو يوم القيامة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ
يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ
أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ
﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾

قوله: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ جمع خاشع، منصوب على الحال، وقرئت: (خاشعًا)، كقوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾، يقال: خَشَع، واختشع، إذا ذل وخشع ببصره، أي: غضه.

قوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، واحدها: جَدَث.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ وقال تعالى في آية أخرى: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، والجمع أنّهم يخرجون من القبور فزعين، لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض، فيكونون كالفراش المبثوث بعضه في بعض، لا جهة له يقصدها، فإذا سمعوا المنادي قصدوه، فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها، والله أعلم.

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

قوله: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي: زجر عن دعوى النبوة بالسب والوعيد بالقتل، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾.

قوله: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ قرئت: (ففتَّحْنا) بالتشديد.

قوله: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ أي: كثير. يقال: همر الماء والدمع يَهْمِر همرًا، وهمر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع. وهمر له من ماله أي: أعطاه.

قوله: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أي: ماء السماء، وماء عيون الأرض، ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أي: قُضي عليهم وقُدِّر، وقيل: على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، فماء السماء والأرض سواء، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ أي: سفينة.

قوله: ﴿وَدُسُرٖ﴾ أي: المسامير دُسرت بِها السفينة، أي: شُدّت، وواحدها: دسار، ويقال: دسبر، وقيل: صدر السفينة، وسميت بذلك لأنّها تَدْسُر الماء، أي: تدفعه، والدّسر: الدفع والمخر، والقول الأول هو الراجح، وفي الصحاح: الدِّسار واحد الدُّسر، وهي خيوط تشد بِها ألواح السفينة.

قوله: ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: ثوابًا لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، على صبره على أذى قومه، وهو المكفور به، وقيل: عقابًا لمن كان كفر، والقولان محتملان، والثاني أظهر.

قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ أي: جنس السفن، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾.

قوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي: متذكر ومتعظ وخائف ومعتبر، جاء عند الشيخين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «(قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ)، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾». وأصله: مُذتكِر، مفتعل من الذكر، فثقلت على الألسنة، فقلبت التاء دالًا؛ لتوافق الذال في الجهر، وأدغمت الذال فيها.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: للقراءة، والحفظ، والفهم، وقد ذكر البخاري معلقًا عن مطر الورّاق: فهل من طالب علم فيعان عليه؟ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. وهو مأخوذ من يسّر ناقته للسفر، إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو، إذا أسرجه وألجمه، ولم يكن شيء من الكتب المتقدمة يقرأ حفظًا عن ظهر قلب، إلا القرآن، ومن يسره كما جاء عند الشيخين من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

قوله: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ أي: مشؤوم عليهم، كما قال تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾.

قوله: ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ أي: دائم الشؤم، حتى هلكوا عن بكرة أبيهم.

قوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تقلعهم من مواضعهم ومن تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ﴾ جمع عَجُز، وهو مؤخر الشيء، وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشبهوا بالنخل انكبت لوجوهها.

قوله: ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أي: منقلع من أصله، يقال: قعرت الشجرة قعرًا: قلعتها من أصلها، فانقعرت، قعرت البئر، أي: نزلت حتى انتهيت إلى قعرها، وكذلك الإناء، إذا شربت ما فيه حتى انتهيت إلى قعره، وأقعرت البئر: جعلت لها قعرًا، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾.

قوله: ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: جنون، من قوله: ناقة مسعورة، أي: كأنّها من شدة نشاطها مجنونة. وقيل: السعر: الاحتراق. قال الشاعر:

ومن الحُب جُنونٌ مُسْتَعَر

وقيل: جمع سعير، وهو لهيب النار، والمقصود أنّهم أرادوا الشقاء والعناء والعذاب.

قوله: ﴿أَشِرٞ﴾ أي: بطر متعاظم، والأشر: المرَح والتجبر والنشاط، يقال: فرس أشر، إذا كان مرحًا نشيطًا. وقد أشر يأشَر أشَرًا، فهو أشِرٌ، وأشْران، وقوم أشَارى، مثل: سكران، وسُكارى.

قوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ وقرئت: (ستعلمون).

قوله: ﴿غَدٗا﴾ على التقريب، على عادة الناس في قولهم للعواقب: إن مع اليوم غدًا. قال الشاعر:

لِلْمَـوْتِ فِيهَـا سِـهَامٌ غَيْـرُ مُخْطِئَـةٍ مَنْ لَـمْ يَكُـنْ مَيِّتًـا فِي الْيَـوْمِ مَـاتَ غَـدَا

قوله: ﴿مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾.

قوله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ أي: انتظر ما يصنعون.

قوله: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أي: اصبر على أذاهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ
٢٩ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ
لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤
نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ
فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ وَلَقَدۡ
يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ

مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ
وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي
ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي: تحضر الناقة الماء يوم وردها، وتغيب عنهم يوم وردهم. وقيل: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن، والكل محتمل.

قوله: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ عاقر الناقة، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾.

قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي: تناول الفعل، من قولهم: عطوت، أي: تناولت.

قوله: ﴿كَهَشِيمِ﴾ أي: كفتات السنبل والزرع الذي داسته الغنم.

قوله: ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي: صاحب الحظيرة، والمقصود: أن الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالسنبل والشجر والشوك، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو هشيم المحتظر.

قوله: ﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: شكوا فيما أنذرهم به، ولم يصدقوا، وهو تفاعل من المِرْية.

قوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: صاروا بدون عيون، لا يرى لعيونهم شق، كسائر الوجه، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب، وقيل: أعماهم مع صحة أبصارهم، فلم يروا الرسل، والكل محتمل.

قوله: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: غالب قادر.

قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أي: يا أيها العرب ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ أي: من الأمم السابقة؟ وهو استفهام إنكار، ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيرًا من كفار من تقدم من الأمم الذي أهلكوا بكفرهم.

قوله: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: أم معكم من الله في الكتب السابقة براءة وسلامة أن لا ينالكم عذاب، ولا نكال؟.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: جماعة لا تطاق، وقوة لا تقهر، ولم يقل: منتصرين؛ اتباعًا لرؤوس الآي.

قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وقد ألحقت بهم الهزائم المتتابعة، بدءًا بيوم بدر، وقد جاء عند الشيخين واللفظ للبخاري، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ: أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا. فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ. (وَهُوَ - وَفِي رِوَايَةٍ: يَثِبُ- فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ ﴿٤٥﴾».

قوله: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر، و﴿أَدۡهَىٰ﴾ من الداهية، وهي الأمر العظيم، يقال: دهاه أمر كذا، أي: أصابه دهوًا ودهيًا، ويقال: دهَتْه داهية دهواء، ودهياء. وقد جاء عند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾».

قوله: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْقَدَرِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ»، وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ». وهذا إبطال صريح لمذهب القدرية في قولهم: الأعمال إلينا، والآجال بيد غيرنا.

وقوله: ﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم، لا ينصرف؛ لأنه اسم مؤنثة معرفة، وكذا: ﴿لَظَىٰ﴾، و﴿جَهَنَّمَ﴾. وهي من سَقَرته الشمس، وصقرته: لوّحَتْه، ويوم مُسْمَقِرٌّ، ومُصْمَقِرٌّ: شديد الحر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾

قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ أي: إلا مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيده بثانية.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ أي: أشباهكم في الكفر، من الأمم الخالية، وقيل: أتباعكم وأعوانكم، والأول أظهر، كما قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُ﴾.

قوله: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وقد جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

قوله: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ أي: مكتوب كل ذنب صغير وكبير، يقال: سطَر يَسْطُرُ سَطْرًا: كتب، واستطر مثله. وقد جاء عند أحمد، وابن ماجه، بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا».

وعند أحمد بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ؛ وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمَا تَحْقِرُونَ».

وعند أحمد بسند حسن من حديث سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ». قال الشاعر:

لَا تَحْقِرنَّ مِنَ الذنوبِ صَغِيرا ... إِنَّ الصَّغير غَدًا يَعُودُ كَبِيرَا

إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرَا

فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ لَا تَكُنْ ... صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا

إِنَّ المُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلهَهُ ... طَارَ الْفُؤَادُ وأُلْهِم التَّفْكِيرَا

فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الْإِلَهَ بِنِيَّةٍ ... فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرَا

قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: مجلس حق، لا لغو فيه ولا تأثيم، لا يجلسه إلا الصادقون. وقد جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عزَّ وَجَل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

انتهى تفسير سورة القمر، ولله الحمد.

  

سورة الرحمن

وهي مكية، وهو الأصح، وقيل: إلا آية واحدة.

جاء عند الترمذي بسند لا بأس به عن جابر ﵁ قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ: كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾

قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: علَّمه اللسان، فلكل قوم لسانُهم، الذي يتعلمون وينطقون ويكتبون به، ويفهمونه فيما بينهم، كما قال تعالى لنبيه ﷺ في أول ما نزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وقيل: هو بيان الحلال والحرام، والخير والشر، والقول الأول أبلغ وأظهر.

قوله: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ أي: بِهما تُحسب الأوقات والآجال والأعمار، فلولا الليل والنهار، والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئًا. وقيل: يجريان متعاقبين، بحساب متقن، لا يختلف ولا يضطرب، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وهذا القول هو الأرجح.

قوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ أي: الذي في السماء، وقيل: ما انبسط على وجه الأرض من النبات، أي: بدون ساق، والقول الأول هو الحق.

قوله: ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ أي: ما نبت على وجه الأرض، سواء ما له ساق، أو ما لا ساق له.

قوله ﴿يَسْجُدَانِ﴾ أصل السجود كما سبق: الاستسلام والانقياد لله عزَّ وَجل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ

ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

قوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: العدل، والميزان: الذي يوصف به ليتصف به الناس. وفي ضمنها الأمر بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالعدل.

قوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ فإن كان العدل، فطغيانه: الجور، وإن كان الذي يوزن به، فطغيانه: البخس، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

قوله: ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ أي: للناس من الإنس والجن، وقيل: لكل ما دبَّ على الأرض، وهو الأظهر.

قوله: ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أي: أوعية الطلع. قال الجوهري: الكِمّة، والكِمَام: وعاء الطلع، والجمع: كِمَام، وأَكِمّة، وأكمام، والأكاميم. وكُمّ الفصيلُ، إذا أشفق عليه فستر حتى يقوى. وأكمّت النخلة، وكمّمت: أخرج أكمامها، والكِمام، والكِمامة أيضًا: ما يُكم به فم البعير لئلا يعَضَّ، ومنه: بعير مكموم، أي: محجوم، ومنه: كُمُّ القميص، والجمع: أكمام، وكممة، مثل: حُبّ، وحِبَبَة، والكُمّة: القلنسوة المدوّرة؛ لأنّها تغطي الرأس. وقيل: ذات الليف؛ لأنّها تُكم به، والقول الأول أصح. وأفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا.

قوله: ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ أي: الحنطة والشعير ونحوهما.

قوله: ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ أي: ذو التبن والورق الذي يعصفه الرياح، وقيل: أول ما ينبت الزرع، والعرب تقول: خرجنا بعصف الزرع، إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، وقيل: ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه، ونظيره: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾. قال الجوهري: أعصف الزرع، ومكان مُعْصِف، أي: كثير الزرع. وقيل: ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾: الكسب. وكذلك: الاعتصاف، والعَصِيفة: الورق المجتمع، الذي يكون فيه السنبل. والقول الأول أظهرها.

قوله: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ قرئت: (والريحانِ) بالكسر، أي: كل بقلة طيبة الريح؛ لأن الإنسان يَراحُ لها رائحة طيبة، وفي الصحاح: الريحان نبت معروف. وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلا يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ». وقيل: هو ورق الزرع، والقول الأول أبلغ، ويقال للرزق: الريحان، تقول: خرجت أبتغي ريحان الله.

قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: النعم، واحدها: إلىً، وألىً، مثل: مِعىً، وعصًا، وإِلْيٌ، وأَلْيٌ، أربع لغات، وقد كررت تأكيدًا للحجة، وطردًا للغفلة، وهو محمود عند العرب. قال الشاعر:

كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

وقال آخر:

لَا تَقْطَعَنَّ الصَّدِيقَ مَا طَرَفَتْ عَيْنَاكَ مِنْ قَوْلِ كَاشِحٍ أَشِرِ
وَلَا تَمَلَّنَّ مِنْ زِيَارَتِهِ زُرْهُ وَزُرْهُ وَزُرْ وَزُرْ وَزُرِ

وقال آخر:

لَا تَقْتُلِي مُسْلِمًا إِنْ كُنْتِ مُسْلِمَةً إِيَّاكِ مِنْ دَمِهِ إِيَّاكِ إِيَّاكِ

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: من طين يابس له صلصلة، كالفخار الذي طُبخ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾، وقد مضى هذا كله.

قوله: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من لهب، أو من لسان النار إذا التهبت، وهو الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض، أحمر، وأصفر، وأخضر. وقيل: خلط النار، وأصله من مرج، إذا اضطرب واختلط. قال الجوهري في الصحاح: ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ نار لا دخان لها، خُلق منها الجان.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾

قوله: ﴿مَرَجَ﴾ أي: خلّى وأرسل وأهمل، يقال: مرج السلطان الناس، إذا أهملهم، وأصل المرج: الإهمال، كما تمرج الدابة في المرعى، ويقال: مرج: خلط، وأمرج مثل مرج، فعل، وأفعل بمعنى.

قوله: ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ البحر المالح، والنهر العذب، وقيل: بحر السماء، وبحر الأرض، والأول أظهر. وقد سبق الحديث عن ذلك عند قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

قوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه، وقيل: لا يبغيان على الناس فيغرقانهم،

والأول هو الصحيح.

قوله: ﴿يَخْرُجُ﴾ وقرئت: (يُخرج).

قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من الملح، لا من العذب، والعرب تجمع الجنسين، ثم تخبر عن أحدهما، كقوله: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، وإنما الرسل من الإنس دون الجن، ومن المعلوم أنه إذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، والقمر في سماء الدنيا، ولكن أجمل ذكر السبع، فكأن ما في إحداهن فيهم.

وقيل: من باب حذف المضاف، أي: من أحدهما، كقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، أي: من إحدى القريتين. وقد قيل: إن اللؤلؤ قد يخرج من العذب، وقيل: إذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤًا، فصار خارجًا منهما، والقول الأول المختار، والثالث له وجاهة؛ لما جاء عند أبي حاتم بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها، فما وقع فيها، يعني من قطر، فهو اللؤلؤ.

قوله: ﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: الخرز الأبيض والأحمر، وقيل: المرجان: عظام اللؤلؤ وكباره، وقيل: اللؤلؤ: الكبار، والمرجان: صغار اللؤلؤ، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي: السفن، وقرئت: (الْمُنْشِئَاتُ)، أي: السير، وقيل: السفن التي رُفع قِلْعها منشآت، وإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشئات، وقيل: بالفتح: المرفوعات الشُّرع، وبكسر الشين: الرافعات الشُّرُع، والقول الأول أظهر، وقوله: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي: كالجبال الطويلة.

قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: على الأرض، وكذلك أهل السماوات، إلا من شاء الله، ولا يبقى سوى وجهه الكريم.

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وقد وصف سبحانه وجهه بأنه ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾ أي: العظمة والكبرياء، اسم من جلّ، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: أهل لأن يكرم عما لا يليق به، وقد أخبر الله عزَّ وَجَل عن بقاء وجهه، والمقصود: ذاته سبحانه، كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾. وفي هذه الآيات إثبات الوجه لله عزَّ وَجَل، كما يليق بجلاله، ولم يختلف القراء في إجراء النعت على الوجه بالرفع، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذي يلقى المؤمنين عندما ينظرون إليه، فيستبشرون برؤيته، وحسن جزائه، وجميل لقائه، وعظيم لقائه.

قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي: يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويجيب داعيًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين،

يحيي ويميت، ويعزّ ويذل، ويبتلي ويعافي، ويرزق ويمنع، وقد جاء عند ابن ماجه بسند صحيح عن أبي الدرداء ﵁ في قوله عزَّ وَجَل: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ قال ﷺ: «مِنْ شَأْنِهِ: أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ». والشأن: الخطب العظيم، والجمع: الشئون. فإن قال قائل: قد جف القلم، بما هو كائن إلى يوم القيامة؟ يجاب بأنّها شئون يبديها، لا شئون يبتديها.

قوله: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ قرئت: (سيَفْرُغُ)، وعيد وتهديد. أي: سنقضي لكم. قال البخاري: سنحاسبكم، فلا يشغله شيء عن شيء. وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأ تفرغن لك، وما به شغل، يقول: لآخذنك على غرتك. وقيل: سنقصدكم، كما يقول القائل لمن يريد تَهديده: إذًا أتفرغ لك، أي: أقصدك. والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ قرئت: (أيُّهُ) أي: الجن والإنس، وفي الحديث: «فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ، إلا الثَّقَلَيْنِ» يعني الكافر في القبر. رواه الشيخان من حديث أنس ﵁، وسميا بذلك لعظم شأنِهما، بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما، بسبب التكليف، وقيل: لأنّهما ثُقل على الأرض، أحياءً وأمواتًا، قال تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾، ومنه: أعطه ثقله، أي: وزنه. وقيل: لأنّهما مثقلان بالذنوب، والقول الأول محتمل، والثاني وارد.

قوله: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ولم يقل: إن استطعتما؛ لأنّهما فريقان في حال الجمع، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾.

قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ أي: بأمر من الله، وهذا في الآخرة، أي: لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص والنفوذ عن حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، والملائكة عليهم السلام محدقون بالخلائق من كل جانب، قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾، وقيل: في الدنيا، إن استطعتم، أن تعلموا ما في السماوات، وما في الأرض، فاعلموه، ولن تعلموه إلا ببينة من الله تعالى، والقول الأول المشهور، والقول الثاني له وجه.

قوله: ﴿شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ قرئت: (شِواظ) بالكسر، أي: لهب وسيل من نار.

قوله: ﴿وَنُحَاسٞ﴾ قرئت: (ونحاسٍ) أي: الصفر المذاب، يصب على رؤوسهم، وقيل: الدخان الذي لا لهب فيه. والأول الصواب، ويقال للطبيعة والأصل: النِّحاس، ومنه قولهم: فلان كريم النِّحاس، وكذا: النُّحاس، أي: كريم النِّجار، أي: الأصل والحسب.

قوله: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضًا.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ

وَاهِيَةٌ﴾ أي: تذوب كما تذوب الفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ، التي يدهن بِها، فتارة حمراء، وصفراء، وزرقاء، وخضراء، كالوردة، وذلك من شدة هول يوم القيامة، وقبل: الورد تكون في الربيع صفراء، وفي الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد اغبر لونُها. وقيل: كلون دهن الورد في الصفرة، والكل وارد ومحتمل.

وقيل: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: كصب الدهن، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانًا، قال الماوردي: زعم المتقدمون أن أصل لون السماء: الحمرة، وأنّها لكثرة الحوائل، وبُعد المسافة، تُرى بِهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء كحمرة الدم، وترى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحًا، فإن السماء لقربِها من النواظر، يوم القيامة وارتفاع الحواجز، ترى حمراء؛ على أصل لونِها، والله أعلم.

قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم سبحانه: لم عملتموها؟ سؤال توبيخ وتقريع، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، وقيل: هذا بعدما يؤمر بِهم إلى النار، لا يسألون عن ذنوبِهم، بل يقادون إليها، ويلقون فيها، ولذلك قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾، أي: بعلامات تظهر عليهم، والكل محتمل، والقول الأول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، فالوجوه سوداء، والعيون زرقاء.

قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي﴾ أي: بشعور مقدم رؤوسهم، والنواصي جمع ناصية.

قوله: ﴿وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ أي: يُجمع بين ناصيته وقدميه بالسلاسل، حتى يندق ظهره؛ ليكون أشد لعذابه، وأشوه لمنظره. وقيل: يؤخذ بناصيته ويجر على وجهه تارة، وتارة يؤخذ بقدميه ويسحب على رأسه، والكل وارد، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾.

قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا﴾ أي: بين النار.

قوله: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ أي: شراب في منتهى الحرارة، والمقصود أنّهم تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو النحاس المذاب، الذي يقطع الأمعاء والأحشاء، قال تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾، أي: حاضرة شديدة الحر، كقوله: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: استواءه ونضجه.

قوله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أي: القيام بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، وعند الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ». وعند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

قوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ أي: ذواتا ألوان من الفاكهة الواحدة، وقيل: ذواتا أغصان، وواحدها: فنن. والفنن جمعه أفنان، ثم الأفانين. وشجرة فنّاء، أي: ذات أفنان، وفنواء على غير قياس. ويقال للخصلة من الشعر: فنن؛ لشبهه بالغصن، والمقصود أنّها ذات أغصان نضرة حسنة جميلة، ذات ألوان، تحمل من كل ثمرة لذيذة ناضجة فائقة، فيها فنون الملاذ.

قوله: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ قيل: هما السلسبيل، والتسنيم، قال تعالى: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ أي: صنفان مما يعلمون، ومما لا يعلمون.

قوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ أي: التي تحت الظِّهارة تلي الأرض، وهي جمع بطانة، يقال: الظاهر، والباطن، فالباطن ﴿مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ أي: ما غلظ من الديباج، وزُيّن بالذهب، وأما الظهر فذاك فوق الوصف، لا يعلمه إلا الله، وقد أخبر الله عزَّ وَجَل عن شرف الظهارة بشرف البطانة، وهو من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

قوله: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ أي: ما يجتنى من الشجرة، يقال: أتانا بِجَنَاةٍ طيبة، لكل ما يجتنى، وثمر جنيّ، على فعِيل: حسنٌ جُنِي.

قوله: ﴿دَانٍ﴾ قريب، وقيل: تدنو الشجرة حتى يجتنيها المؤمن، إن شاء قائمًا، وإن شاء قاعدًا، وإن شاء مضجعًا، متى اشتهى ذلك، لا يرد يده بعد ولا شوك، وهذا القول أبلغ، قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾.

قوله: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أي: لم يصبهن بالجماع ولا بالمساس قبل أزواجهن هؤلاء أحد، والطمث غالبًا: الافتضاض، وهو النكاح بالتدمية، يقال: طمَثها يَطْمَثها طمْثًا، إذا افتضّها، ومنه قيل: امرأة طامث، أي: حائض، وطمِثت لغة، فهي طامث. ويقال للمرتع: ما طمث ذلك المرتع قبلنا أحد، وما طمثَ هذه الناقة حَبْل، أي: ما مسّها عِقال. وفي هذا دليل على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة، ويكون لهم فيها جنّيّات من الحور العين، وجائز في الدنيا، أن يطأ الجني بنات آدم، والعكس، قد يطأ الإنسيُّ بنتًا من الجن، والله أعلم.

قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ﴾ وهو حجر معروف، لو أدخلت فيها سلكًا، ثم استصفيته، لرأيته من ورائه، وقد جاء في الصحيحين قال محمد بن سيرين: إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ». وعند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

قوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ أي: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة، فالجزاء من جنس العمل، وكما تدين تُدان، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾.

قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: الجنتين الأوليين اللتين من ذهب ﴿جَنَّتَانِ﴾ أخريان من فضة، وقد سبق حديث أبي موسى رضي الله عنه عند الشيخين. فتانك للمقربين، وهاتان لأصحاب اليمين.

قوله: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ خضراوان من الريّ، كأنّهما من شدة خضرتِهما سوداوان، والعرب تقول لكل أخضر: أسود. وسميت قرى العراق: سوادًا؛ لكثرة خضرتها، ويقال لليل المظلم: أخضر، ويقال: أباد الله خضراءهم، أي: سوادهم. يقال: ادْهمَّ الفرس ادْهِمامًا، أي: صار أدهم، وادهامّ الشيء ادهيمامًا، أي: اسوادّ.

قوله: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء وأنواع النعم، والنضخ أبلغ من النضح، والجري أبلغ من النضخ، ولذلك قال في تانك: ﴿تَجۡرِيَانِ﴾ للمقربين، وهاتان: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ لأصحاب اليمين.

قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ الأولى أعم وأكثر، في الإفراد والتنويع على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فُسّر قوله: ﴿وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره. وذكر النخل والرمان لشرفهما على غيرهما، وإلا ففيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾

قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: حوريات صالحات جميلات، خيّرات الأخلاق، وقد جاء عند الترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَمُجْتَمَعًا لِلْحُورِ الْعِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ يَسْمَعِ الخَلَائِقُ مِثْلَهَا، يَقُلْنَ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ، وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ، طُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ». وقد ورواه الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفيه: «نَحْنُ الْخَيِّرَاتُ الْحِسَانُ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامٍ». قال المنذري: رواته رواة الصحيح.

قوله: ﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ﴾ أي: محبوسات مستورات، قد قُصرن على أزواجهن، فلا يُردن بدلًا منهم، وقصرت الشيء أقصره قصرًا: حبسته، ومنه: مقصورة الجامع، وامرأة قصير، وقَصُورة، أي: مقصورة في البيت لا تترك أن تخرج. قال الشاعر:

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ ... إِلَيَّ وَمَا تَدْرِي بِذَاكَ الْقَصَائِرُ

قوله: ﴿فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ أي: جمع خيمة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ».

قوله: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ﴾ قال الحسن البصري: والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا، وإنما هن مخلوقات في الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ﴾، وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَقَلَّ سَاكِنِي الْجَنَّةِ النِّسَاءُ». رواه مسلم من حديث عُمران رضي الله عنه، ولذا فلا يصيب كل واحد منهم امرأة.

قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ﴾ أي: بسط وفرش مرتفعة، ويقال: كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف، واشتقاق الرفرف من رفّ يرف، إذا ارتفع، ومنه: رَفْرَفة الطائر، لتحريكه جناحيه في الهواء، أو عند الوقوع حول الشيء، وسموا الظليم رفرفًا لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو. وقيل: أصل الرفرف من رفّ

النبت يرفُّ، إذا صار غضًا نضيرًا، ويقال للشيء إذا كثر ماؤه من النعمة والغضاضة حتى كاد يهتز: رف يرف رفيفًا، وقيل: إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به، كالمِرجاح يمينًا وشمالًا، ورفعًا وخفضًا، يتلذذ به مع أنيسته من الحور العين، والكل محتمل.

قوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ أي: ثياب منقوشة، وكل ثوب وشي عند العرب عبقري، وهو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي. ويقال: عبقر: قرية بناحية اليمن، تُنسج فيها بسط مفروشة. وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقري، ومنه قوله ﷺ في عمر رضي الله عنه: «فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًا فِي النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ». رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: وصفًا للاسم، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى، والأفصح والأشهر قراءة ﴿ذِى﴾، وهي نعتٌ وصفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وهو الاسم الذي افتتح به السورة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وهو سبحانه الجليل في ذاته، الكريم في أفعاله، وقد كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ، وَمِنْكَ السَّلامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ». رواه مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وعند الترمذي بسند لا بأس به عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ». أي: الزموا ذلك؛ لأن الإلظاظ: لزوم الشيء والمثابرة عليه، ويقال: الإلظاظ: الإلحاح.

وعند أحمد، وأبي داود، بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَالِسًا، وَرَجُلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى».

وعند أبي داود بسند حسن من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ».

انتهى تفسير سورة الرحمن، ولله الحمد.



سورة الواقعة

وهي مكية، إلا بضع آيات.

وقد روى الترمذي من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للنبي ﷺ: يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». حسنه الترمذي.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾

قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة، وسميت بذلك، لما يقع فيها من الشدائد والأهوال.

قوله: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا يسمع لها كذب؛ لأن الكاذبة مصدر، بمعنى الكذب، والعرب تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أي: لغو، ومنه قوله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «عَائِذًا بِاللهِ مِنَ النَّارِ» أي: معاذ الله، ويقال: قم قائمًا، أي: قيامًا. ولبعض نساء العرب تُرَقِّص ابنها:

قُــــمْ قَائِمًــــا قُــــمْ قَائِمَــــا ... أَصَــــبْتَ عَبْــــدًا نَائِمَــــا

وقيل: المعنى: ليس لوقعتها أحد يكذب بها، أو يدفعها، وليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة، أو ينبغي ألا يكذّب بها أحد، والقول الثاني أظهر، والأول محتمل، كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾.

قوله: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ أي: تخفض المشركين والمتكبرين إلى الجحيم، وترفع المؤمنين والمستضعفين من الصالحين إلى أعلى عليين، وقيل: خفضت الصوت، فأسمعت من دنا، ورفعت الصوت، فأسمعت من ابتعد ونأى، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: زلزلت وحركت حركة شديدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾، يقال: رجه يرجه رجًا، أي: حركه وزلزله.

قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ أي: فُتّت، كما قال تعالى: ﴿كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾. وقيل: ﴿بُسَّتِ﴾: قلعت من أصلها، فذهبت، قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾. وقيل: سيقت، يقال: بسست الإبل، وأبسست، لغتان، إذا زجرتُها وسقتها وقلت لها: بَسْ بَسْ، وفي الحديث المتفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «تُفْتَحُ الْيَمَنُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الشَّأْمُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الْعِرَاقُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». والقول الأول أشهرها، والكل محتمل.

قوله: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ متفرقًا، من قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾، أي: فرّق ونشر.

قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: أصنافًا.

قوله: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين.

قوله: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ تكريرٌ للتفخيم والتعجيب، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾، وفي حديث عائشة ﵂ المتفق عليه في قصة أم زرع: «زَوْجِي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ». وكذا قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال.

قوله: ﴿ثُلَّةٞ﴾ جماعة وفرقة، من ثلّلت الشيء، أي: قطعته.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية، وقيل: من أصحاب محمد ﷺ، والقول الأول رجحه ابن جرير، والثاني ابن كثير، وسكت القرطبي عن الترجيح. وما ذهب إليه ابن كثير الأظهر، وقد جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود ﵁: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إلا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ». وكذا من حديث أبي سعيد ﵁: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَض، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

وفي الصحيحين عن ابن عباس ﵄: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ».

قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأمة، وفي الصحيحين من حديث عمران ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». وأما حديث عمار بن ياسر ﵁ عند أحمد بسند حسن، قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». فالمقصود

به أن الدين محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة في روايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع، هو محتاج إلى المطر الأول، وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، فلولا الله، ثم هو ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها.

قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة بالدر، والياقوت، والذهب والزبرجد، والوضْن: النسج المضاعف والنضد، يقال: وَضَن فلان الحجر والآجُر بعضه فوق بعض، فهو موضون، ودرع موضونة، أي: محكمة في النسج، مثل مصفوفة. والسرير الموضون: الذي سطحه بمنْزلة المنسوج، ومنه: الوضين، بِطانٌ من سُيور، ينسج فيدخل بعضه في بعض.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا
يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ
ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا
أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾
فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى
ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ
وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله: ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يتغيرون. قال الشاعر:

وَهَــلْ يَــنْعَمَنْ إِلَّا سَــعِيدٌ مُخَلَّــدٌ ... قَلِيــلُ الْهُمُــومِ مَــا يَبِيــتُ بِأَوْجَــالِ

وقيل: مسوّرون. والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ أي: الآنية التي لها عُرى وخراطيم، واحدها: إبريق، سمي بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه.

قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ وقرئت: (يَنْزِفون)، أي: لا ينفد شرابُهم، ولا تنفد خمرهم.

قوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أنس ﵁ قال: قال رسول ﷺ: «فِي الْجَنَّةِ طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجُزُرِ. قَالَ عُمَرُ ﵁: إِنَّ هَذِهِ لَنَاعِمَةٌ! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا». وعند أحمد بنحوه وزاد: «وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَأكُلُ مِنْهَا يَا أَبَا بَكْرٍ».

قوله: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي: الذي لم تمسه الأيدي. قال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: إلا أن يقول بعضهم لبعض: سلامًا.

قوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي: خُضد شوكه، أي قطع، قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة:

إنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجِنَانِ ظَلِيلَةٌ ... فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودٌ

وقد روى الحاكم، عن أبي أمامة ﵁ قال: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ يَنْفَعُنَا بِالْأَعْرَابِ وَمَسَائِلِهِمْ، أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ شَجَرَةً مُؤْذِيَةً، وَمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً تُؤْذِي صَاحِبَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: السِّدْرُ، فَإِنَّ لَهَا شَوْكًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، يَخْضِدُ اللهُ شَوْكَهُ، فَيُجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةٌ، فَإِنَّهَا تُنْبِتُ ثَمَرًا تُفْتَقُ الثَّمَرَةُ مَعَهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا، مَا مِنْهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الْآخَرَ». صححه الحاكم والذهبي.

قوله: ﴿وَطَلْحٍ﴾ أي: شجر الموز، واحده: طلحة، وقيل: كل شجر عظيم، والأول عليه أكثر المفسرين.

قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: رُص ونُضد، كلما أكل منها، عاد مكانَها أحسن منها.

قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد ﵁، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا». وعند الترمذي من حديث أبي هريرة ﵁: «وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾».

وعند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِلا وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ».

وأخرج أحمد من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا».

وعند ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس ﵄ قال: الظل الممدود: شجرة في الجنة على ساق، ظلها قدر ما يسير الراكب في كل نواحيها مائة عام، فيخرج إليها أهلُ الغرف وغيرهم، فيتحدثون في ظلها، فيشتهي بعضهم، ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ريحًا من الجنة، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا.

قوله: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: جار لا ينقطع، يجري في غير أخدود، وأصل السكب: الصب، يقال: سكبه سكْبًا، والسُّكُوب: الصبابة، يقال: سكب سُكُوبًا، وانسكب انسكابًا.

قوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي: كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء، ولا تحتاج إلى قطع، إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها، كما قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

قوله: ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا يخطر عليها، زلا يُمنع من أرادها بشوك، أو حائط، أو نحو ذلك. وقد قيل: ليست مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان.

قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: محل النساء، وقيل: كناية عن النساء، والمعنى: نساء مرتفعات الأقدار، في حسنهن وكمالهن، والعرب تسمي المرأة: فراشًا، ولباسًا، وإزارًا، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: خلقناهن خلقًا، وأبدعناهن إبداعًا.

قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ كلما جامعوا نساءهم، عُدْن أبكارًا، وقد جاء عند الترمذي بسند حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْجِمَاعِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: يُعْطَى قُوَّةَ مِائَةٍ». وروى أحمد والنسائي والدارمي بإسناد صحيح من حديث زيد بن الأرقم رضي الله عنه، قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ: إِنَّ الَّذِي يَاكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ مِنْهُ الْحَاجَةُ؟ قَالَ: يَفِيضُ مِنْ جِلْدِهِ عَرَقٌ؛ فَإِذَا بَطْنُهُ قَدْ ضَمَرَ». وَفِي رِوَايَةٍ عند الطبراني: «إِنَّ الْبَوْلَ وَالْجَنَابَةَ عَرَقٌ يَسِيلُ مِنْ ذَوَائِبِهِمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ كَالْمِسْكِ». صححها المنذري. وعند الطبراني بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُفْضِي إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْضِي فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ».

قوله: ﴿عُرُبًا﴾ وقرئت: (عُرْبًا)، أي: عواشق لأزواجهن، وهي جمع عروب، وقيل: ملقة، وغَنِجة، وشكِلة. قال الشاعر:

وفِـي الجِنَـانِ عَـرُوبٌ غَيْـرُ فَاحِشَـةٍ ... ريَّـا الـرَّوادفِ يَغْشَـى ضَـوؤهَا البَصَـرَا

قوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: على ميلاد واحد في الاستواء والسن، يقال في النساء: أتراب، وفي الرجال: أقران، وكانت العرب تميل إلى من جاوز حدّ الصبا من النساء وانحطت عن الكبر. وقيل: أمثالًا وأشكالًا، والكل وارد.

قوله: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بما قبلها، وهو قوله: ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: في أعمارهم، كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لا يَبُولُونَ، وَلا يَتَغَوَّطُونَ، وَلا يَتْفِلُونَ، وَلا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ الأَلَنْجُوجِ عُودُ الطِّيبِ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ

ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»، وعند أحمد، والترمذي وحسنه عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلاثٍ وَثَلاثِينَ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعِ أَذْرُعٍ»، وعند البيهقي بسند لا بأس به عن المقدام ﵁: «عَلَى مَسْحَةِ آدَمَ، وَصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ».

قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من أول هذه الأمة.

قوله: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: من آخر هذه الأمة. وقد جاء عند الترمذي، وابن حبان بسند حسن عن بريدة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ».

قوله: ﴿فِي سَمُومٍ﴾ أي: ريح حارة.

قوله: ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار.

قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: من دخان جهنم أسود شديد السواد، وهو حارّ كحرّها، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾. واليحموم في اللغة: الشديد السواد، وهو يفعول من الْحَمّ، وهو الشحم المسود باحتراق النار، وقيل: هو مأخوذ من الْحُمَم، وهو الفحم. قال بعض السلف: النار سوداء، وأهلها سود، وكل ما فيها أسود.

قوله: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ بل حار، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا عذب حسن المنظر، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم.

قوله: ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي: منعمين.

قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾ أي: يقيمون فلا يتوبون، من الإصرار والثبات على المعصية.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الذنب العظيم، وعبادة الأصنام، وإنكار البعث، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾. يقال: حنث في يمينه، أي: لم يَبَرَّها ورجع فيها، وكانوا يقسمون أن لا بعث، وأن الأصنام أندادٌ لله، فذلك حنثهم، وعند الشيخين من حديث عائشة ﵂ قالت: «وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا
لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ
نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ٧٢
نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ
لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾

قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ﴾، قرئت: (شَرب)، وهي لغتان جيدتان، تقول العرب: شَرِبت شُرْبًا، وشَرْبًا، وشُرُبًا. قال أبو زيد: والفتح، هو المصدر الصحيح.

قوله: ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ أي: الإبل العطاش عطشًا شديدًا، ولا تروى؛ لداء يصيبها، واحدها: أهيم، والأنثى هَيْماء، ويقال لذلك الداء: الهُيام.

وقيل: ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ الأرض السهلة ذات الرمل، والمعنى: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء، والكل معتبر. وفي الصحاح: الْهُيام: أشد العطش. والْهُيام كالجنون من العشق، ويقال أيضًا: ناقة هيماء، ويقال للمفازة التي لا ماء بها: هَيْماء، وهيمان، مثل عطشان وعطشى، والْهَيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد لِلينه، والجمع: هِيم، مثل: قَذَالٍ وقُذُلٍ.

قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ﴾ أي: رزقهم الذي يُعدُّ لهم، كالنُّزل الذي يعد للأضياف تكرمة لهم، وفيه تَهكم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وأما المؤمنون فقال تعالى في حقهم: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة.

قوله: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلا تصدقون بالبعث؟ لأن الإعادة كالابتداء، بل أهون وأسهل.

قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ أي: ما تصُبُّونه في أرحام نسائكم.

قوله: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ قرئت: (قَدَرْنا) ﴿بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: كتبناه وقضيناه على أهل السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾.

قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي: بمغلوبين، وقيل: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في آجالكم، فلا يتقدم متأخر، ولا يتأخر متقدم، والكل محتمل، والقول الأخير وجيه.

قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: من الأحوال والصور، والهيئات، والألوان، وفي عالم ومكان لا تعلمون، ومن ذلك يكون المؤمن أبيض الوجه، ويكون الكافر أسود الوجه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قرئت: (النشاءة)، أي: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، كما سبق ذلك في سورة المؤمنون. قال بعض السلف: عجبًا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى، وهو يرى النشأة الأولى، وعجبًا للمصدق بالنشأة الأخرى، وهو لا يسعى لدار القرار.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي: من أرضكم فتطرحون فيه البذر.

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: أتنبتونه وتحصلونه زرعًا فيه السنبل والحب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾.

قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي: متكسرًا، يعني الزرع، والحطام: الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء.

قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تعجبون بأسباب ذهابها، وتندمون مما حل بكم. وفي الصحاح: وتفكّه، أي: تعجب، وقيل: تندم، ويقال: تفكهت بالشيء: تمتعت به، وفيه لغتان: تفكّهون، وتفكنون، والأخيرة لغة عُكْل، وفي الصحاح: التنكن: التندم على ما فات، وقيل: التفكه: التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح: فُكاهة، وأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فكِه الرجلُ، فهو فَكِهٌ، إذا كان طيب النفس مزّاحًا.

قوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: معذبون ومهلكون. قال الشاعر:

وَثِقْتُ بِأَنَّ الْحِفْظَ مِنِّي سَجِيَّةٌ ... وَأَنَّ فُؤَادِي مُتْبَلٌ بِكَ مُغْرَمُ

وقيل: لمولع بنا. يقال: أغرم فلان بفلانة، أي: أولع بِها، ومنه: الغرام، وهو الشر اللازم، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: ما حُرمنا ما طلبنا من الريع والرزق، والمحروم ضد المرزوق.

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: السحاب، الواحدة: مُزْنة. قال الشاعر:

فَنَحْنُ كَمَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نصابنا ... كَهَامٌ ولا فينا يعدُّ بَخيل

نصاب كل شي: أصله. ورجل كهام وكهيم: ثقيل، لا غناء عنده. والمُزْنة: المطرة.

قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: ماءً مالحًا، لا يصلح لشرب، ولا لزرع.

قوله: ﴿تُورُونَ﴾ أي: تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرطب.

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ أي: التي تكون منها الزناد، وهي الْمَرْخ، والعَفَار، ومنه قولهم: في كل شجر نار، واسْتمْجد الْمَرْخُ والعَفَار، أي: استكثر منها، وقد سبق هذا.

قوله: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي: الخالقون المخترعون.

قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: موعظة للنار الكبرى، وتبصرة للناس من الظلام، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ.

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً! قَالَ: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا».

قوله: ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ أي: منفعة للمسافرين، سموا بذلك لنُزولهم القَوَى، وهو القفر الذي لا شيء فيه، يقال: أقوت الدارُ، وقويت، أي: خلت من سكانِها.

ويقال: أقوى، أي: قوي، وقوي أصحابه، وأقوى، إذا سافر، أي: نزل القواء والقِيّ. وقيل: للمستمتعين بِها من الناس أجمعين في الطبخ، والخبز، والاصطلاء، والاستضاءة. قال قطرب: الْمُقوي من الأضداد، يكون بمعنى الفقير، ويكون بمعنى الغني. يقال: أقوى الرجل، إذا لم يكن معه زاد، وأقوى، إذا قويت دوابه وكثر ماله. والصواب أن الآية تصلح للجميع؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم، والغني والفقير، والقول الأول أشهر.

وخص المسافر لأن انتفاعه بِها أكثر، وقد جاء عند أحمد، وأبي داود بسند جيد عن رجل من المهاجرين، أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلاثٍ: فِي الْكَلإِ، وَالْمَاءِ، وَالنَّارِ». وعند ابن ماجه بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ لا يُمْنَعْنَ: الْمَاءُ، وَالْكَلأُ، وَالنَّارُ».

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ اللام صلة، والمعنى: أقسم، وقيل: للتنبيه، والقول الثاني أظهر، والأول محتمل.

قوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قرئت: (بموقع)، وهو اسم جنس، يؤدي الواحد فيه عن الجمع، أي: مساقطها، ومغاربُها، ومنازلها، وانكدارها، وانتشارها، وانتثارها يوم القيامة، وقيل: بنُزول القرآن نجومًا على حسب الوقائع والأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، والقول الأول الحق. وفيه تنبيه على فضيلة القرآن ليتدبر، وأنه ليس بشعر ولا بسحر ولا كهانة كما زعموا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ قيل: حقيقة، وقيل: معنى، والصحيح الأول، وقيل: الكتاب المكنون، في اللوح المحفوظ لا يمسه إلا الملائكة المطهرون، كما قال تعالى في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾.

وقيل: القرآن الذي بين أيدينا، فلا يمسه إلا طاهر، أي: متوضئ من الأحداث والأنجاس، ومن باب أولى من الشرك، وهذا الصحيح؛ لقول الرسول ﷺ كما جاء عند مالك بسند جيد، وهو في كتاب عمرو بن حزم رضي الله عنه الذي كتبه له رسول الله ﷺ: «لا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلا طَاهِرٌ»، وهذا قول الجمهور، منهم: مالك، والشافعي، وأما أبو حنيفة فروي عنه أنَّ المُحدِث يمس القرآن، وروى أنه يمس ظاهره وحواشيه، وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر. قال ابن العربي: وهذا إن سلمه مما يقوي الحجة عليه؛ لأن تحريم الممنوع ممنوع. وقال مالك: لا يحمل غير طاهر بعِلاقة، ولا على وسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك، وأما المشرك فلا يجوز حمله إلا لضرورة، وقد جاء عند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ: «لَا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ؛ فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ».

ولعل ما ذهب إليه أبو حنيفة هو الأقرب، وهو قول وسط، وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما المنع؛ اعتبارًا بالبالغ، والثاني الجواز، ولعل هذا القول أظهر؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن، لأن تعلمه إنما يكون حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنّها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه.

قوله: ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ أي: مكذبون وكافرون، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾. قال بعض أهل اللغة: المدهِن: المنافق، والكافر الذي يلين جانبه ليُخفي كفره، والإدهان، والمداهنة: التكذيب والكفر والنفاق، وأصله: اللين، وأن يُسِر خلاف ما يظهر. وقال قوم: داهنت: واريت، وأدهنت: غششت. وقال بعض اللغويين: ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾: تاركون للجزم في قبول القرآن، والقول الأول هو الأظهر.

قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون شكركم التكذيب، وفي لغة شنوءة: ما رزق فلان؟ أي: ما شكره؟ أو تضعون الكذب مكان الشكر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾، أي: يجعلون مكان الصلاة التصفير والتصفيق.

وقد جاء عند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا " قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾». وأصله متفق عليه من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَبِرِزْقِ اللهِ)؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وعند ابن جرير بسند جيد أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قرأ: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون.

فمن اعتقد أن النّوْء هو الموجب لنُزول الماء، والمنشئ للسحاب، دون الله عزَّ وَجَل، فذلك كافر كفرًا صريحًا، يجب استتابته عليه وقتله إن أبى؛ لنبذه الإسلام، وردّه القرآن، وإن اعتقد أن النوء يُنْزل الله به الماء، وأنه سبب الماء، على ما قدره الله وسبق في علمه، فهذا كفر ليس بصريح، وجهل بلطيف حكمته، في أنه ينْزل الماء متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة بنوء كذا، وكثيرًا ما ينوء النوء، فلا ينْزل معه شيء من الماء، وذلك من الله، لا من النوء، ولم يخبر الله عزَّ وَجَل، ولا رسوله ﷺ أن الأنواء سبب في نزول المطر، وإثبات مسبب، لم يثبته الشارع اعتداء وكفر أصغر، وقد قال رسول الله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لا يَتْرُكُونَهُنَّ: وذكر منها: وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ».

قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: بلغت الروح الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾. قال الشاعر:

أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

قوله: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: إلى الميت وهو في سكرات الموت، لا تقدرون له على شيء، مع حرصكم على امتداد عمره، وحبكم لبقائه.

قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: رسلنا الذين يتولون قبضه.

قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ترونهم. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

قوله: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وقد تقدم، وقيل: غير مملوكين ولا مقهورين، ودانه أي: أذله واستعبده، والقول الأول هو الحق والصواب.

قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: ترجعون الروح إلى الجسد.

قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أي: هذا الميت.

قوله: ﴿فَرَوْحٌ﴾ جاء عند أبي بسند لا بأس به عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَؤُهَا: ﴿فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ﴾». أي: راحة واستراحة وطيب مقام في البرزخ، ورحمة يوم يقوم الأشهاد.

قوله: ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: رزق حسن. والكل حاصل بعد قبض الروح ودخول الجنة.

قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: سلم من عذاب الله، وسلمت عليه ملائكة الله، وأخبرته أنه من أصحاب اليمين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، قال البخاري: فسلام لك أنك من أصحاب اليمين، فألغيت أنّ، وبقي معناها، كما تقول: أنت مصدق مسافر عن قليل، إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل، وقد يكون كالدعاء له، كقوله: سقيًا لك من الرجال إن رفعت السلام، فهو من الدعاء. وقيل: لست ترى منهم إلا ما تحب من السلامة، فلا تَهتم لهم فإنّهم يسلمون من عذاب الله، والقول الأول أظهر الأقوال.

قوله: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إقامة في الجحيم، ومقاساة لأنواع عذابها، يقال: أصلاه النار، وصلاه، أي: جعله يصلاها، والمصدر أضيف هنا إلى المفعول، كما يقال: لفلان إعطاء مال، أي: يُعطى المال.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: هذا الذي قصصناه محض اليقين وخالصه، وجاز إضافة الحق إلى اليقين، وهما واحد؛ لاختلاف لفظهما، وهو عند الكوفيين من باب إضافة الشيء إلى نفسه، وعند البصريين على تقدير: حقّ الأمر اليقين، أو الخبر اليقين.

قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ». رواه أبو داود بسند حسن من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

انتهى تفسير سورة الواقعة، ولله الحمد.

  

سورة الحديد

وهي مدنية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مجَّد الله ونزهه عن السوء كل من في السماوات والأرض، وهو تسبيح مقال، وتسبيح دلالة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث النوم: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ».

وعند أبي داود بسند لا بأس به عن أبي زُميل قال: «سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللهِ مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ! قَالَ: فَقَالَ لِي: أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟ قَالَ: وَضَحِكَ، قَالَ: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ. قَالَ: حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾». وقد سبق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا أَشُكُّ وَلا أَسْأَلُ» عند الطبراني وغيره، وصححه ابن حجر. قال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علمًا، والباطن على كل شيء علمًا، وقد سبق في سورة البقرة، كلام ابن القيم حول هذه الآية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم، عليم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا يعزب عنه مثقال ذرة من شؤونكم، يعلم ما تسرون وما تعلنون: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، يسمع أصواتكم وهمساتكم، ويبصر أعمالكم وتصرفاتكم، وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث جبريل عليه السلام من طريق أبي هريرة عند الشيخين، ومن طريق عمر رضي الله عنه عند مسلم: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وعند البيهقي بسند جيد من حديث عبد الله الغاضري رضي الله عنه قال ﷺ: «... وَزَكَّى عَبْدٌ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَجُلٌ: مَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُ مَا كَانَ». وكان الإمام أحمد رحمه الله ينشد هذين البيتين:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرئت: (تَرْجِع).

قوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: ما استخلفتم فيه من الأموال، وهي معكم على سبيل العارية، فإنّها قد كانت في أيدي من قبلكم، ثم صارت إليكم، وليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنْزلة النوّاب والوكلاء، وقد جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ». وعندمسلم أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه وفيه: «وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ».

وفي الآية إشارة إلى أنه سيكون مخلفًا عنك، فلعلّ وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله، فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان.

قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام توبيخ، أي: أيُّ عذر لكم، وقد أقيمت الحجج، وأزيحت العلل؟.

قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ قرئت: (أُخِذ ميثاقُكم)، أي: أخذ الله ميثاقكم، وهو الميثاق الأول وهم في ظهر آدم عليه السلام بأن الله ربكم، لا إله إلا هو، وركّب العقول والأفهام الدالة على ذلك.

قوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي: فتح مكة، وقيل: الحديبية، والأول أولى؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر؛ لضعف الإسلام، وفِعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشد، والأجر على قدر المشقة والنصب، قال رسول الله ﷺ: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ». رواه النسائي بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قرئت: (وكلٌّ)، أي: المتقدمون، واللاحقون وَعَدَ اللهُ الجنة، مع تفاوتٍ في الدرجات.

قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: فعلًا حسنًا، ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله، والعرب تقول لكل من فعل فعلًا حسنًا: قد أقرض.

وسمي قرضًا؛ لأنه أُخرج لاسترداد البدل، أي: من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة؟ والقرض الحسن: يكون المتصدق فيه صادق النية، طيب النفس، يبتغي به وجه الله، دون الرياء والسمعة، وأن يكون من الحلال الجيد. قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، وأن يتصدق في حال يأمل الحياة، كما جاء عند الشيخين في أفضل الصدقة، قال ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا! وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»، ولا تتبع بمن ولا أذى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾. وتكون من أحب أمواله، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، كثيرة غالية، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ ﷺ: أَعْلَاهَا ثَمَنًا، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا».

قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ قرئت: (فَيُضَعِّفَه)، وقرئت: (فيضاعفُهُ)، وقد جاء بسند جيد عند البزار من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ اللهَ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي، حَائِطًا فِيهِ سِتُّ مِائَةِ نَخْلَةٍ، ثُمَّ جَاءَ يَمْشِي حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ وَفِيهِ أُمُّ الدَّحْدَاحِ فِي عِيَالِهَا فَنَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، قَالَتْ: لَبَّيْكَ، قَالَ: اخْرُجِي، فَإِنِّي أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطًا فِيهِ سِتُّ مِائَةِ نَخْلَةٍ». وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ: «أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: رَبِحَ بَيْعُكَ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ، وَنَقَلَتْ مِنْهُ مَتَاعَهَا وَصِبْيَانَهَا». وعند مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: «صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ابْنِ الدَّحْدَاحِ، ثُمَّ أُتِيَ بِفَرَسٍ عُرْيٍ، فَعَقَلَهُ رَجُلٌ، فَرَكِبَهُ، فَجَعَلَ يَتَوَقَّصُ بِهِ، وَنَحْنُ نَتَّبِعُهُ نَسْعَى خَلْفَهُ. قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُعَلَّقٍ فِي الْجَنَّةِ لِابْنِ الدَّحْدَاحِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

قوله: ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾ أي: يقال لهم: لكم البشارة، وهي دخول الجنات.

قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرئت: (أَنْظِرُونا)، أي: أمهلونا وأخرونا، أنظرته: أخّرته، واستنظرته أي: استمهلته، والعرب تقول: أنظِرني: انتظرني.

قوله: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء من نوركم، جاء عند مسلم من حديث أبي الزبير قال: سمعت جابرًا رضي الله عنه يُسأل عن الورود، فقال: «نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا، انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ؟ قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا، وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقًا، أَوْ مُؤْمِنًا نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ...». الحديث.

قوله: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورًا، فإنكم لا تقتسبون من نورنا، فلما رجعوا وانغزلوا في طلب النور.

قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ أي: بحاجز.

قوله: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: الجنة، وهي ما يلي منه المؤمنون.

قوله: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: النار، وهو ما يلي المنافقين.

قوله: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: المنافقين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: في الدنيا، نصلي، ونصوم.

قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: معنا، ولكن في الظاهر، وأما الباطن فقد كان في فتنة وشر وخبث ونفاق.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الفتنة، وأهلكتموها بالمعاصي والنفاق والشهوات واللذات.

قوله: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالنبي ﷺ وبأصحابه، وبمن جاء بعده من الصالحين والمصلحين، وأخرتم التوبة من وقت إلى وقت.

قوله: ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في التوحيد والنبوة.

قوله: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل وطول الأمل وخدع الشيطان ومغريات الدنيا، وسولت لكم نفسكم الأمارة بالسوء أنه سيغفر لكم، وذكرتم حسناتكم، وأنستكم سيئاتكم، حتى أخذتم على غرة.

قوله: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: خدعكم الشيطان الرجيم. قال بعض السلف: إن للباقي بالماضي معتبرًا، وللآخر بالأول مزدجرًا، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الْخُدَع، ومن ذكر المنيّة نسي الأمنيّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل.

قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ قرئت: (لا توخذ)، واختارها أبو حاتم، لتأنيث الفدية، والأول اختيار أبي عبيد؛ لأن التأنيث غير حقيقي، والفدية كما سبق: البدل والعوض.

قوله: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: أولى بكم، وتملك أمركم، والمولى: من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازمًا للشيء.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: ألم يقرب ويحن؟ قال الشاعر:

أَلَـمْ يَـأْنِ لِـي يَـا قَلْـبُ أَنْ أَتْـرُكَ الْجَهْـلَا ... وَأَنْ يُحْـدِثَ الشَّـيْبُ الْمُبِـينُ لَنَـا عَقْـلَا

وماضيه: أَنَى، بالقصر يأني، ويقال: آن لك أن تفعل كذا يئين أينًا، أي: حان، مثل: أَنَى لك، وهو مقلوب منه.

وقد جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ». وعند الدارمي عن نافع قال: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قرأ هذه الآية يبكي حتى يغلبه البكاء. جوده ابن حجر. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الْمَوْجِدة، تقول: عاتبته معاتبة، قال الحسن: استبطأهم، وهم أحب خلقه إليه.

قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه: «أَنَّهُ بَعَثَ إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُ مِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ، فَاتْلُوهُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ... الحديث». وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ

النَّاسِ، الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا». رواه الترمذي بسند جيد. ويقال: إن هذه الآية كانت سبب توبة الفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك رحمهما الله، وقد أورد قصتهما القرطبي رحمه الله، عند تفسير هذه الآية، فارجع إليها.

قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان، ويهدي الفاسق إلى الطاعة والالتزام.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ وقرئت بتخفيف الصاد (المصدقين والمصدقات) قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع، وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبًا صادقًا. وقد سبق ذلك.

قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ قرئت: (يُضَعَّفُ).

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ اختلف في ﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾، هل هو مقطوع مما قبل، أو متصل به؟ والأظهر: القطع، وعلى هذا، فالوقف على قوله: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ متأكد، وقد سبق الحديث في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والشهداء يدخل فيهم من شهد لله بالوحدانية، ولرساله بالرسالة، ومن قتل في سبيل الله.

قوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: ما يتزين به.

قوله: ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تفاخر بالخلقة والقوة والجاه والأحساب والأنساب. وقد جاء عند مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». وعند مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ،

وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ...».

قوله: ﴿تَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ لأن من عادة الجاهلية أن تتكاثر بذلك. قال بعض العلماء: لعبٌ كلعب الصبيان، ولهوٌ كلهو الفتيان، وزينةٌ كزينة النسوان، وتفاخرٌ كتفاخر الأقران، وتكاثرٌ كتكاثر التجار.

وقال آخر: لا تحزن على الدنيا، فإن الدنيا ستة أشياء: مأكول، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكوح، فأحسن طعامها: العسل، وهو بَزْقة ذبابة، وأكثر شرابها: الماء، ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها: الديباج، وهو نسيج الدودة، وأفضل المشموم: المسك، وهو دم فأرة الغزال، وأفضل المركوب: الفرس، وعليها يُقتل الرجال، وأما المنكوح فهو مبال في مبال، والله إن المرأة لتزين أحسنها، يُراد به أقبحها.

وعند الطبراني بسند لا بأس به من حديث ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَلَا يَزْدَادُ النَّاسُ عَلَى الدُّنْيَا إِلَّا حِرْصًا وَلَا يَزْدَادُونَ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا».

قوله: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ يستحسن الوقوف هنا.

قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: للكافرين، والوقف عليه حسن.

قوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٌ﴾ أي: للمؤمنين.

قوله: ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لو وصل مجتمعة، فعرضها كما لو وصلت مساحة السماوات السبع بالأرضين السبع بعضها ببعض، والعرض أقل من الطول، والعرب من عادتها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ جاء عند الشيخين واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة ﵁: «أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ. قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولُ اللهِ قَالَ: تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً. فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ أي: من قبل خلق المصيبة والأرض والنفس، والأظهر: عود الضمير إلى الخليقة والبرية، والكل معتبر، وقد سبق حديث عبد الله بن عمرو ﵄، قال ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». رواه مسلم.

قوله: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أي: حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق.

قوله: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ وقرئت: (أتاكم)، واختارها أبو عبيد، فالأولى بمعنى أعطاكم، والثانية بمعنى جاءكم، قال بعض السلف: يا ابن آدم مالك تأسى على مفقود، ولا يرده عليك الفوت؟ أو تفرح بموجود، لا يتركه في يديك الموت؟، وقيل لبعض الحكماء: ما لك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آت؟ قال: لأن الفائت لا يُتلافى بالعَبْرة، والآتي لا يُستدام بالحبْرة. وقال الفضيل: الدنيا مُبيد ومُفيد، فما أباد فلا رجعة له، وما أفاد آذن بالرحيل.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس. وقيل: المختال: الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور: الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار. وكلاهما شرك خفي.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ أي: لا يحب المختالين الذين يبخلون، أي: بمالهم، أو بعلمهم، أو بجاههم، وقد قيل: البخيل: الذي يلتذ بالإمساك، ولا يعطي إلا عند السؤال، والسخي: الذي يلتذ بالإعطاء، ويعطي بغير سؤال.

قوله: ﴿بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ قرئت: (بالبَخَلِ) بفتحتين، وهي لغة الأنصار.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ وقرئت: (فإن الله الغني) بدون (هُوَ).

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: ما يوزن به ويتعامل.

قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: في معاملتهم ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ والمعنى: أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان، فهو من باب: علفتها تبنًا وماءً باردًا، وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: جعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين وبيانٌ وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف أمره شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، وقد جاء عند أحمد بسند جيد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

واختلف العلماء، هل أُنزل الحديد من السماء، أو من الجبال؟ وقد رجح ابن تيمية القول الثاني، ويكون المعنى: أنشأناه وخلقناه في الجبال، وعلّمناكم صنعته، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، وهذا القول في غاية الوجاهة.

قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم، كالسكة، والفأس، والقدوم، والمنشار، والحراثة، والحياكة، والسيارات، والطائرات، والسفن، والبواخر وغير ذلك.

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: ينصر دينه، ﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فقيل: عطف على: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، والمعنى: أنزل الحديد ليعلم من ينصره، والأظهر: القول الأول، والتقدير: أرسلنا رسلنا، وأنزلنا معهم الكتاب وهذه الأشياء، ليتعامل الناس بالحق، ولنرى من ينصر ديننَا ورسلَنا.

قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، ومن ائتم بهما ﴿مُّهْتَدٍ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار نوح وإبراهيم عليهما السلام، وذريتهما ﴿بِرُسُلِنَا﴾ كموسى، وإلياس، وداود، وسليمان، ويونس عليهم السلام وغيرهم.

قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام من جهة أمه.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: رقة وخشية ومودة، فكاد يواد بعضهم بعضًا، وفي ذلك إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بترك إيذاء الناس، وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود، فلا لين، ولا شفقة، ولا رأفة، ولا رحمة، وإنما القساوة، والغلظة، والحقد، والحسد.

قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: من قِبل أنفسهم، وهي منصوبة بإضمار فعل، والتقدير: ابتدعوها رهبانية ابتدعوها، كما تقول: رأيت زيدًا، وعمرًا كلمت. قيل: هي اعتزال الناس واتخاذ الصوامع ورفض النساء، وقيل: اختيار المشاق وتعذيب النفوس، والأول أولى.

قوله: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما فرضنا الرهبانية هذه عليهم، ولا أمرناهم

بها، وإنما أمرنا بما يرضي الله، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ وقيل: الاستثناء منقطع، والتقدير: ما كتبناها عليهم، لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله.

قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما قاموا بما التزموه، مما زعموا أنه قربة يقربُهم إلى الله عزَّ وَجل، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقد أدّاهم الترهب إلى طلب الرياسة، وأكل أموال الناس في آخر الأمر، وقد جاء عند أحمد بسند جيد عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَيهِ، فَقَالَ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ، فَقَالَ: أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلاوَةِ القُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرٌ لَكَ فِي الأَرْضِ».

وفي الحديث الحسن عند أحمد من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَاهُ، قَالَ: فَمَرَّ رَجُلٌ بِغَارٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، قَالَ: فَحَدَّثَ نَفْسَهُ بِأَنْ يُقِيمَ فِي ذَلِكَ الْغَارِ، فَيَقُوتُهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَاءٍ، وَيُصِيبُ مَا حَوْلَهُ مِنِ الْبَقْلِ، وَيَتَخَلَّى مِنِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: لَوْ أَنِّي أَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَإِنْ أَذِنَ لِي، فَعَلْتُ، وَإِلَّا لَمْ أَفْعَلْ. فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِغَارٍ فِيهِ مَا يَقُوتُنِي مِنَ الْمَاءِ وَالْبَقْلِ، فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي بِأَنْ أُقِيمَ فِيهِ، وَأَتَخَلَّى مِنِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَمُقَامُ أَحَدِكُمْ فِي الصَّفِّ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ سِتِّينَ سَنَةً».

قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى، ومحمد عليهما السلام، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾، وقد تقدم حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه في ذلك.

قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أي: بيانًا وهدى وقرآنًا، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي: في الناس، تدعونهم إليه، وتبصرونهم في الأخذ به، وهذا الطريق الذي تمشون به موصول لكم بطريق الجنة، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: ليعلم، و﴿لَّا﴾ صلة مؤكدة، وقيل: لأن يعلم، ولا، صلة في كل كلام، دخل عليه جَحْد، والمعنى: ليعلم وليتحقق أنّهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا إعطاء ما منع الله.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ

الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا، حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا. ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا إِلَى صَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا. ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ، فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هَؤُلاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا! قَالَ اللهُ عزَّ وَجل: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي، أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ».

انتهى تفسير سورة الحديد، ولله الحمد.

  

الْمُحَصَّل فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل

العُشْر الأخير

يَحْيَى بن عَبْد العَزِيز اليَحْيَى

المشرف على تحفيظ السنة في الحرمين الشريفين

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة

وهي مدنية على الأصح، وقيل: بعضها مكي وبعضها مدني.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦﴾

قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ جاء عند أبي داود بسند صحيح عن خويلة بنت مالك رضي الله عنها: «أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ظَاهَرَ مِنِّي زَوْجِي أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ فَجِئْتُ أَشْكُوهُ إِلَيْكَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُجَادِلُنِي فِيهِ وَيَقُولُ: اتَّقِي اللهَ فَإِنَّهُ ابْنُ عَمِّكِ. فَمَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إِلَى مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْكَفَّارَةِ، فَقَالَ: يُعْتِقُ رَقَبَةً. قَالَتْ: لا يَجِدُ، قَالَ: فَيَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ، قَالَ: فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا. قَالَتْ: مَا عِنْدَهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ، قَالَتْ: فَأُتِيَ سَاعَتَئِذٍ بِعَرَقٍ - أي: مكتل أو زنبيل- مِنْ تَمْرٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنِّي أُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ، قَالَ: قَدْ أَحْسَنْتِ، اذْهَبِي فَأَطْعِمِي بِهَا عَنْهُ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَارْجِعِي إِلَى ابْنِ عَمِّكِ».

وعند أحمد، والنسائي، وابن ماجه، بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ! لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ».

وفي الآية إثبات السمع لله عزَّ وجَل، وهو سمعٌ يليق بجلاله، ليس كسمعه وبصره شيء من الأسماع والأبصار، وهو السميع البصير. والمجادلة: المراجعة ومساءلة الكلام، وشكى واشتكى بمعنى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ وقرئت: (يَظَّهرون)، وذكر الظهر كناية عن معنى الركوب، والآدمية إنما يركب بطنها، ولكن كنَّى عن الركوب بالظهر؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يُركب ظهره، فكنى بالظهر عن الركوب، ويقال: نزل عن امرأته، أي: طلقها، كأنه نزل عن مركوب. ومعنى أنت عليّ كظهر

أمّي: أنتِ عليّ محرمة، لا يحل لي ركوبك.

وحقيقة الظهار: تشبيه ظهر محلل بظهر محرم، وقد أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي أو ابنتي، أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم، أنه مظاهر، فإن قال: أنتِ عليّ كأمي، أو مثل أمي، ولم يذكر الظهر، فإن أراد الظهار فله نيته، وإن أراد الطلاق كان مطلقًا البتة عند مالك، وإن لم تكن له نية في طلاق ولا ظهار كان مظاهرًا، ولا ينصرف صريح الظهار إلى الطلاق، كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعهودة له إلى الظهار، وكناية الظهار خاصة تتصرف بالنية إلى الطلاق البتة.

والظهار صريح في الأم أو أحد المحارم المؤبدة، لا يفتقر إلى نية، فإن كان الظهار في الأجنبيات، فإن ذكر الظهر كان ظهارًا عند مالك، وإن لم يذكر الظهر ففيه خلاف بين المالكية، فمنهم من قال: يكون ظهارًا، ومنهم من قال: يكون طلاقًا، وذهب أبو حنيفة، والشافعي إلى أنه لا يكون شيئًا، سواء ذُكر الظهر أو لم يُذكر.

وقال الأوزاعي: لو قال لها: أنتِ عليّ كظهر فلانٍ رجل، فهو يمين يكفرها. والصحيح أنه يكون على حسب نيته، فإن نوى الطلاق كان طلاقًا، وإن نوى الظهار كان ظهارًا، وإن نوى اليمين كان يمينًا يكفرها، وهكذا في أي ظهار جاء كناية لا صريحًا.

وقد كان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقًا، إلا إذا نوى ذلك، وهو لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بِها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه. وقيل: لا يصح ظهار من غير المدخول بها، ولا المطلقة طلاقًا رجعيًا، وهذا ليس بشيء؛ لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة، وكما يلحقها الطلاق، كذلك يلحقها الظهار قياسًا ونظرًا.

قوله: ﴿مِنكُم﴾ يعني المسلمين، وقد استدل مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية؛ لأن الخطاب للمؤمنين، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له.

قوله: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ أي: دون ما ملكت أيمانكم، وعلى هذا الجمهور، وهو الصحيح.

قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ أي: ما نساؤهم بأمهاتهم، فلا تصير المرأة بقول الرجل: أنت عليّ كظهر أمي ونحو ذلك، لا تصير أمه.

قوله: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ أي: ما أمهاتُهم إلا الوالدات، وفي المثل: من دمّى عقبيك.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا﴾ أي: فظيعًا من القول وكذبًا لا يعرف في الشرع، وإنما هو من صنيع الجاهلية.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلّصة لهم من هذا القول المنكر.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي: يعود إلى لفظ الظهار، وهذا قول الظاهرية، وقيل: يمسكها بعد المظاهرة زمانًا يمكنه أن يطلق، فلا يطلق، وهو قول الشافعي، وقيل: يعود إلى الجماع، أو يعزم عليه، فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وهو قول أحمد، والصواب الذي لا مرية فيه هو القول الأخير، وحكي عن مالك أنه العزم على الجماع، أو الإمساك، وعنه أنه الجماع. وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة، وإليه ذهب أصحابه، والليث بن سعد، فمن عاد لزمته كفارة الظهار، فلا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العَوْد.

قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: كاملة، ولم تُقيد الرقبة هنا بالإيمان، كما هو الحال في القتل في سورة النساء، وقد حمل الشافعي ما أطلق هنا على ما قيد هناك، لاتحاد الموجِب، واستدل بحديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه في قصة الجارية قال رسول الله ﷺ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» رواه مسلم، ولا شك أنه الحق؛ لأن الرقبة غير المؤمنة لا كرامة لها، بل حقها العبودية، وقد اختارت بنفسها دينًا، عبودية غير الله، فمن باب أولى تختار عبودية الخلق دينًا.

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: يجامعها، فلا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أَثِمَ وعصى، ولا يسقط عنه التكفير، وقيل: إذا أخّرها حتى مسَّها فقد فات وقتها، والقول الأول هو الحق.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تؤمرون به وتزجرون.

قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر استأنفهما، وإن كان بعذر من سفر، أو مرض، أو أيام عيد، أو شهر رمضان يبني على ما سبق، وقيل: يستأنف، والصواب: الأول، وإذا ابتدأ الصيام، ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه؛ لأنه بذلك أُمِر حين دخل فيه، وقيل: يهدم الصوم ويعتق، والصواب الأول. وإذا وطئ المظاهر خلال الشهرين نَهارًا بطل التتابع، فإن كان ليلًا فلا يبطل، وقيل: يبطل بكل حال، ويجب عليه ابتداء الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين وإلى أبعاضهما، وهذا هو الصواب.

ومن تطاول مرضه طولًا لا يرجى بُرؤه كان بمنْزلة العاجز من كِبر جاز له الإطعام، وإن كان يُرجى برؤه واشتدت حاجته إلى الجماع، فله الإطعام أيضًا على القول الصحيح، ومن تظاهر وهو معسر، ثم أيسر لم يجزه الصوم، ومن تظاهر وهو موسر، ثم أعسر قبل أن يُكَفِّر صام؛ لأنه ينظر إلى حاله يوم يُكَفِّر.

قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي: لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة

على الصيام، كما أنه لا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرَّقَبَة، إذ لا بد من ترتيب الكفارة. والإطعام يكون كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، لكل مسكين نصف صاع.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: بتصدقوا أن الله أمر به، ولتكونوا مطيعين لله، واقفين عند حدوده ولا تتعدوها، فسمي التكفير إيمانًا لأنه طاعة، ومراعاة للحد.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يعاندون ويخالفون حدود الله ورسوله ﷺ، ويحاربون أولياءه، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

قوله: ﴿كُبِتُوا﴾ أي: أهلكوا، وأخزوا، ولعنوا، وقيل: سيكبتون، فأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريبًا للمخبر عنه، وهو بشارة من الله تعالى للمؤمنين، والكل محتمل.

قوله: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي: في صحائفهم.

قوله: ﴿وَنَسُوهُ﴾ أي: الكافرون، حين ذكّرهم به في صحائف أعمالهم؛ ليكون أبلغ في الحجة عليهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، وقد حكي الإجماع على أن المراد بهذه الآية معيّة علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه وبصره مع علمه، فالكل نافذ في خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء.

قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي: اليهود ومن شابههم من المنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم.

قوله: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾ وقرئت: (وينتجون)، والمعنى واحد في وزن يفتعلون، وقد حكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو خاصموا، واختصموا، وتقاتلوا، واقتتلوا.

قوله: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ أي: بالكذب وغير من الإثم والظلم.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لا خلاف بين المفسرين أن المراد بها: اليهود، وقد جاء عند الشيخين: «أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. قَالَ: وَعَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ، (وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ). فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَهْلًا) يَا عَائِشَةُ! (عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ)، وَإِيَّاكِ (وَالْعُنْفَ) وَالْفُحْشَ. قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ». ولمسلم في رواية: «فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ. فأنزل الله عزَّ وَجَل: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾». ولهما من حديث أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ».

وقد اختلف العلماء في ردِّ السلام على أهل الذمة، هل هو واجب كالرد على المسلمين؟ فقيل بالوجوب، وقيل: ليس بواجب، والصحيح: عدم الوجوب؛ لأن السلام كما ثبت في الحديث اسمٌ من أسماء الله، وضعه الله في الأرض، فلا يليق أن يُحيًّا به أعداؤه، ممن يقول: عيسى ابن الله، أو عزير ابن الله، وإنما يكتفى بقول: وعليك، وهذا الرد مباح، لا سنة ولا واجب.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: لو كان هذا نبيًا فهلّا عذبنا الله بما نقول له في الباطن، أو عجَّل لنا العقوبة في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما نُخفي وما نعلن، وجهلوا أن الباري حليم حكيم، لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبَّ نبيه ﷺ؟ وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذىً يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وَجَل، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانُوا ثَلاثَةٌ فَلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ»، وعندهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ»، أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله، وذلك بأن يقدر في نفسه، أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلًا، ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من أُلْقيات الشيطان وأحاديث النفس، وخص الثلاثة بالذكر لأنه أول عدد يتأتّى ذلك المعنى فيه، والحديث عام في جميع الأزمان والأحوال.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: من تزيينه.

قوله: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يوهمهم أن المسلمين أصيبوا في السرايا، أو ينشر الأخبار السيئة، أو نحو ذلك.

قوله: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي: تناجي اليهود أو المنافقين وكيهم في الخفاء.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ﴾ أي: توسعوا، يقال: فَسَحَ فلان لأخيه في مجلسه يَفْسَحُ فَسْحًا، إذا وسَّع له، ومنه قولهم: بلد فسيح، ولك في كذا فُسحة، وفَسُح يَفْسُح فَسَاحةً، مثل: كَرُم يَكْرُم كَرامةً، أي: صار واسعًا.

قوله: ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ وقرئت: (المجلس) على الجنس، والآية عامة في كل مجلس خير، سواء كان مجلس، سواء كان حربًا، أو ذكرًا، أو جمعة، ولا شك أن من سبق إلى الجلوس في المجلس فهو أحق به، ولكن يوسع لأخيه. وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي ﷺ قال: «لا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا». وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه.

وهنا مسألتان: الأولى: لو أمر إنسانٌ إنسانًا أن يُبكِّر إلى الجامع فيأخذ له مكانًا يقعد فيه، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع، هل يكره أم لا؟ الصحيح أنه لا يكره، وقد كان ابن سيرين يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة، فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه. والثانية: لو أرسل بساطًا أو سجادة تبسط له في موضع من المسجد، هل يجوز ذلك أم لا؟ والصحيح: التفصيل في ذلك، فإن كان المرسِل متخذًا ذلك عادةً، أو حاجزًا مكانًا بعينه دائمًا، لا يصلي إلا فيه فهذا لا يجوز، وقد جاء النهي عن ذلك عند أبي داود بسند حسن، عن عبد الرحمن بن شبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُوطِنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوطِنُ الْبَعِيرُ».

أما إذا كان فعله في بعض الأحيان، التي يكون فيها معذورًا من التقدم فلا بأس بذلك إن شاء الله، وأما إذا كان في المسجد، ولاسيما في الحرمين أو في أي مجلس، ثم قام لظروف خاصة، ثم رجع، فهو أحق بمجلسه ما لم يطل الغياب. وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ».

قوله: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة، فالجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ وقرئت: (فانشِزوا) بالكسر، وهما لغتان، مثل: يعكُفون ويعكِفون، والمعنى: انْهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير، وأجيبوا داعي الحق، والنشز: الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض، وهو ارتفاعها، يقال: نشز يَنْشُز، وينشِز، إذا انتحى من موضعه وارتفع، وامرأة ناشز، أي:

مترفعة متنحية عن زوجها.

قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ جاء عند الدارمي بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِدَرَجَاتٍ». أي: في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به، وعملوا بما علموا.

وقيل: يرفع المؤمن بإيمانه أولًا، ثم بعلمه ثانيًا. وقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء عند البخاري يقدِّم عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على بعض الصحابة الذين يكبرونه سنًا. وعند مسلم: «أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ: ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ». وقد سبق الحديث عن فضل العلم في غير موضع من هذا التفسير، ومن ذلك ما رواه الطبراني والبزار بسند لا بأس به من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضلُ العِلم خَيرٌ من فَضلِ العِبادَةِ، وَخَيْر دِينِكُم الوَرَع».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: من أراد أن يسار الرسول ﷺ فيما بينه وبينه فعليه أن يتصدق صدقة تزكِّيه وتطهره وتؤهله لهذا المقام، وظهر بذلك من يناجي رسول الله ﷺ من المنافقين، وهو ليس بأهل لذلك؛ لأن المسألة صارت دفع صدقات، وتقدم المؤمنون لما هم أهل له، وهو امتحان إلهي رباني للمؤمنين في المدينة في أول الأمر، ولما اتضح المؤمن من المنافق، وظهرت علامات المنافقين في سورة التوبة وغيرها نُسخ هذا الحكم، مع أنه خير وأطهر، ولرحمة الله على المؤمنين، ولمشقته على الضعفاء والمساكين رُفع حكمه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: من إمساكها.

قوله: ﴿وَأَطۡهَرُ﴾ أي: لقلوبكم.

قوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ استفهام تقريري، أي: أبخلتم بالصدقة وخفتم من الفقر.

قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ نسخ لحكم دفع صدقة للفقراء، قبل مناجاة النبي ﷺ، كما قاله بعض السلف، وحُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ أي: المنافقون، تولّوا اليهود.

قوله: ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ﴾ أي: ليس المنافقون من المسلمين، ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ أي: ولا من اليهود، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بئس الأعمال أعمالهم.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أي: يستجنون بها من القتل، فآمنت ألسنتهم، وكفرت قلوبهم.

قوله: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ جاء عند أحمد بسند لا بأس به من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ظِلِّ حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِهِ، وَعِنْدَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ كَادَ يَقْلِصُ عَنْهُمُ الظِّلُّ، فَقَالَ: إِنَّهُ سَيَاتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ؛ فَإِذَا أَتَاكُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ. قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ أَزْرَقُ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ، قَالَ: عَلامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ -نَفَرٌ دَعَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ-؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتِيَكَ بِهِمْ.- قَالَ: فَذَهَبَ الرَّجُلُ، فَدَعَاهُمْ، فَحَلَفُوا بِاللهِ، وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ». وهذا أمر عجيب، وهو مغلطتهم باليمين غدًا في الدار الآخرة، وقد صارت المعارف ضرورية.

قوله: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ أي: بإنكارهم وحلفهم، فظنوا أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم في الدنيا.

قوله: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: غلب وأحاط واستعلى عليهم الشيطان بوسوسته، يقال: أحوذ الشيء، أي: جمعه وضم بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ ثَلاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلا بَدْوٍ لا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاةُ إلا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ».

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: طائفته ورهطه.

قوله: ﴿ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أي: الأشقاء المبعدين المطرودين.

قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ نظيره: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١

إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾

قوله: ﴿يُوَآدُّونَ﴾ أي: يوالون ويحبون.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: كتب الله وخلق في قلوبهم التصديق، وثبتهم على ذلك، وقد روى ابن شاهين عن عروة قال: «اسْتَأْذَنَ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ بْنِ سَلُولٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي قَتْلِ أَبَوَيهِمَا، فَنَهَاهُمَا عَنْ ذَلِكَ». حسنه ابن حجر. وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان.

قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوّاهم ونصرهم.

قوله: ﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ أي: بنصر ونور وبرهان ورحمة وجنود، كجبريل عليه السلام، فهو تأييد حسي، وتأييد معنوي.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ أي: أولياؤه وعباده وأهل كرامته.

انتهى تفسير سورة المجادلة، ولله الحمد.

  

سورة الحشر

وهي مدنية بالإجماع.

جاء عند الشيخين من حديث سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ﵄: «سُورَةُ الْحَشْرِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ (وَفِي رِوَايَةٍ: قُلْ: سُورَةُ النَّضِيرِ)».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود بني النضير، وكانوا قد نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارًا لمحمد ﷺ، وأما بنو قريظة فقد قتلوا.

قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: الجمع، وهي أرض المحشر، وقد روى ابن مردويه عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «كَتَبَ كُفَّار قُرَيْش إِلَى عَبْدالله بْن أُبَيّ وَغَيْره مِمَّنْ يَعْبُد الأَوْثَان قَبْل بَدْر يُهَدِّدُونَهُمْ بِإِيوَائِهِمْ النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ أَنْ يَغْزُوهُمْ بِجَمِيعِ الْعَرَب، فَهَمَّ اِبْن أُبَيّ وَمَنْ مَعَهُ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَتَاهُمْ النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ: مَا كَادَكُمْ أَحَد بِمِثْلِ مَا كَادَتْكُمْ قُرَيْش، يُرِيدُونَ أَنْ تُلْقُوا بَأسكُمْ بَيْنكُمْ. فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ عَرَفُوا الْحَقّ فَتَفَرَّقُوا. فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَة بَدْر كَتَبَتْ كُفَّار قُرَيْش بَعْدهَا إِلَى الْيَهُود: أَنَّكُمْ أَهْل الْحَلْقَة وَالْحُصُون -يَتَهَدَّدونَهُمْ- فَأَجْمَع بَنُو النَّضِير عَلَى الْغَدْر، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيّ ﷺ: أُخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلاثَة مِنْ أَصْحَابك وَيَلْقَاك ثَلاثَة مِنْ عُلَمَائِنَا، فَإِنْ آمَنُوا بِك اِتَّبَعْنَاك، فَفَعَلَ. فَاشْتَمَلَ الْيَهُود الثَّلاثَة عَلَى الْخَنَاجِر، فَأَرْسَلَتْ اِمْرَأَة مِنْ بَنِي النَّضِير إِلَى أَخ لَهَا مِنَ الأَنْصَار مُسْلِم تُخْبِرهُ بِأَمْرِ بَنِي النَّضِير، فَأَخْبَرَ أَخُوهَا النَّبِيّ ﷺ قَبْل أَنْ يَصِل إِلَيْهِمْ، فَرَجَعَ، وَصَبَّحَهُمْ بِالكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ يَوْمه، ثُمَّ غَدَا عَلَى بَنِي قُرَيْظَة فَحَاصَرَهُمْ فَعَاهَدُوهُ فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ إِلَى بَنِي النَّضِير، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلاء وَعَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتْ الإِبِل إِلا السِّلاح، فَاحْتَمَلُوا حَتَّى أَبْوَاب بُيُوتهمْ، فَكَانُوا يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فَيَهْدِمُونَهَا، وَيَحْمِلُونَ مَا يُوَافِقهُمْ مِنْ خَشَبهَا، وَكَانَ جَلاؤُهُمْ ذَلِكَ أَوَّل حَشْر النَّاس إِلَى الشَّام. صححه ابن حجر.

وأما الحشر الثاني فهو حشرهم قرب القيامة، حين تأتي نار من المشرق، فتسوق الناس إلى محشرهم، وقد سبق ذكر هذا الحديث، وهو عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁. وقد كان مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء في أول الإسلام، أما الآن فلا يجوز مصالحتهم، إذ لا بد من الإسلام،

أو القتال والسبي، أو ضرب الجزية عليهم.

قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ أي: لعظم أمرهم، ومنعتهم، وقوة عدتهم، وعتادهم، واجتماع كلمتهم.

قوله: ﴿حُصُونُهُم﴾ أي: قلاعهم الحصينة المنيعة، وسلاحهم الكثير الوفير.

قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ أي: لم يظنوا ولم يعلموا، فقُتل بادئ الأمر سيدهم كعب بن الأشرف، وكان الذي قتله محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وقصة قتله ثابتة عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ القذف: الإلقاء والإنزال بقوة وشدة. وفي الحديث عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ».

قوله: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وقرئت: (يُخَرِّبُون) أي: يهدمون مساكنهم. والتخريب والإخراب بمعنى، والتشديد بمعنى التكثير، وقد صالحهم النبي ﷺ على أن لهم ما أقلَّت الإبل، وكانوا يستحسنون الخشبة والعمود، فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها، وقيل: كانوا يخربونها من الداخل؛ لئلا يسكنها المسلمون، فخربها المسلمون من الخارج، والقول الأول أظهر، قال تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

قوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: اتعظوا يا أصحاب العقول والألباب، فقد اعتصم هؤلاء بحصونهم، فأنزلهم الله منها، وسلط عليهم من كان ينصرهم، وهدموا أموالهم بأيديهم، ومن لم يعتبر بغيره، اعتبر في نفسه، وقد جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: السعيد من وُعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه. وقد استدل أهل الأصول، على مشروعية القياس، بِهذه الآية الكريمة، وهو استدلال في غاية الوجاهة.

قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ أي: لولا أنه قضى أنه سيجليهم عن دارهم، وأنهم يبقون مدة، فيؤمن بعضهم، ويولد لهم من يؤمن ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: بالقتل والسبي، كما فعل ببني قريظة. والجلاء: مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاءً، وأجلاه غيره إجلاءً، والفرق بين الجلاء والإخراج، وإن كان معناهما في الإبعاد واحدًا من وجهين: أحدهما: أن الجلاء، ما كان مع الأهل والولد. والإخراج، قد يكون مع بقاء الأهل والولد. والثاني: أن الجلاء، لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ

فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ
بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧
لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ
حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩

قوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: من نخل، واللين نوع من التمر جيد، وهو ما خالف العجوة والبرحي من التمر، وقيل: اللينة: أنواع التمر سوى العجوة، وقيل: هو جميع النخلة، وهذا الأخير أقربها، وقيل: النخلة القريبة من الأرض. وقيل: اللينة: الفسيلة. وقيل: هي الأشجار كلها، تلينها بالحياة. وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ الْبُوَيْرَة. وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

وَفِي رِوَايَةٍ عند البخاري: «فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ ابْنُ الْحَارِثِ:

أَدَامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ ... وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ
سَتَعْلَمُ أَيُّنَا مِنْهَا بِنُزْهٍ ... وَتَعْلَمُ أَيَّ أَرْضَيْنَا تَضِيرُ»

وجاء في سيرة ابن هشام، قال حسان رضي الله عنه:

تعاقد مَعْشَرٌ نَصَرُوا قُرَيْشًا ... وَلَيْسَ لَهُمْ بِبَلْدَتِهِمْ نَصِيرُ
هُمُ أُوتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ ... وَهُمْ عُمْيٌ مِنَ التَّوْرَاةِ بُورُ
كَفَرْتُمْ بِالْقُرَانِ وَقَدْ أُتِيتُمْ ... بِتَصْدِيقِ الَّذِي قَالَ النَّذِيرُ

قوله: ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي: قوماء، أو قائمة على سوقها، وهي جمع أصل، كَرَهْن ورُهُن. وقد حكى البخاري عن الزهري عن عروة، قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر، فمنهم من سار إلى الشام مباشرة، منهم من سار إلى خيبر، حتى جلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كحيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق.

قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: ما ردّه الله تعالى على رسوله.

قوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: ما أوضعتم عليه، والإيجاف: الإسراع في السير، يقال: وجف الفرس، إذا أسرع، وأوجفته

أنا، أي: حركته وأتعبته، وأوجف دابته، أي: حثها على السير. والركاب: الإبل، واحدها: راحلة. والمعنى: لم تقطعوا إليها شقة ولا لقيتم حربًا ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فمشوا إليها مشيًا ولم يركبوا خيلًا ولا إبلًا.

وعند الشيخين من حديث عمر ﵁ قال: «إِنَّ اللهَ قَدْ خَصَّ رَسُولَهُ ﷺ فِي هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ -ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿قَدِيرٌ﴾ -، فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاللهِ مَا احْتَازَهَا دُونَكُمْ، وَلَا اسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ، قَدْ أَعْطَاكُمُوهَا وَبَثَّهَا فِيكُمْ، حَتَّى بَقِيَ مِنْهَا هَذَا الْمَالُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ اللهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ-، (فَعَمِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ حَيَاتَهُ)».

قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: قريظة، والنضير، وهما بالمدينة، وفَدَك وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخيبر. فالأموال على هذه الحال قد تكون صدقات وزكوات، وهي ما أُخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم والتزكية لنفوسهم، وقد تكون غنائم، وهو ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة، وقد تكون فيئًا، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفوًا صفوًا من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح، والجزية، والخراج، والعشور المأخوذة من تجار الكفار، ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فأما الصدقة فمصرفها: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليه، وقد مضى ذلك في سورة براءة، وأما الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبي ﷺ، يصنع فيها ما شاء، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وأما الفيء فقسمته وقسمة الخمس سواء لنوازل المسلمين، وللفقراء، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والغرماء، ولكن بعد إعطاء ذوي القربى من رسول الله ﷺ سهمهم، حتى ولو كانوا أغنياء، وليس لهم حد معلوم، وقد سبق حكم عمر ﵁ في ذلك.

قوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي: الفيء ﴿دُولَةًۢ﴾ أي: متداولًا ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يتقاسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، كما كان يصنع أهل الجاهلية إذا غنموا، فالرئيس يأخذ المِرْباع وهو الرُّبع، ثم يصطفي بعد المِرْباع ما شاء.

قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وعند الشيخين من حديث ابن مسعود ﵁ قال: «لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ،

وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ! فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ! قَالَ: فَاذْهَبِي فَانْظُرِي. فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكِ مَا جَامَعْتُهَا».

قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: الفيءُ والغنائم، وهو بيان لقوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين، وآمنوا قبل كثير منهم، والإيمان ليس بمكان يُتبوأ، وإنما المقصود هنا: المتقدمو الإيمان، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: وادعوا شركاءكم، وهو من باب قوله: علفتها تبنًا وماء باردًا. أو يقال: تبوءوا الدار ومواضع الإيمان، أو لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما، والتبوء: التمكن والاستقرار.

وقد جاء عند البخاري قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ: أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ ﷺ: أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ». وروى البخاري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَلَا أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مَا فُتِحَتْ عَلَيَّ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ».

قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: حسدًا للمهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفيء وغيره.

قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وفاقة شديدة، جاء عند الشيخين من حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَابَنِي الْجَهْدُ-، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ يَضُمُّ، أَوْ: يُضِيفُ هَذَا؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَرْحَمُهُ اللهُ-. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: (أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ) (وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا). فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي. فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، (فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ)، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: (ضَحِكَ) اللهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ: عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾».

وعند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه قال: «لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ مِنْ مَكَّةَ، وَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ - يَعْنِي شَيْئًا-، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالْعَقَارِ، فَقَاسَمَهُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى أَنْ يُعْطُوهُمْ ثِمَارَ أَمْوَالِهِمْ كُلَّ عَامٍ، وَيَكْفُوهُمُ الْعَمَلَ وَالْمَئُونَةَ، وَكَانَتْ أُمُّ أَنَسٍ أَعْطَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِذَاقًا، فَأَعْطَاهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاتَهُ أُمَّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا فَرَغَ مِنْ قَتْلِ أَهْلِ خَيْبَرَ فَانْصَرَفَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ رَدَّ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْأَنْصَارِ مَنَائِحَهُمُ الَّتِي كَانُوا مَنَحُوهُمْ مِنْ ثِمَارِهِمْ، فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُمِّهِ عِذَاقَهَا، وَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمَّ أَيْمَنَ مَكَانَهُنَّ مِنْ حَائِطِهِ».

والإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية؛ رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضّلته، والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال. قال الشاعر:

تجودُ بالنفس إذ أنت الضَّنينُ بِهَا ... وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

وأفضل الجود بالنفس: حماية الرسول ﷺ ودين الله عزَّ وَجَل، وقد قال أبو طلحة رضي الله عنه يوم أحُد: «لَا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ». رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه.

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمٍّ لي، ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه آه، فأشار إليّ ابن عمي أن أنطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص رضي الله عنه، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول: آه آه، فأشار هشام رضي الله عنه أن انطلِق إليه، فجئته، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام رضي الله عنه، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات

قال أبو يزيد البسطامي: ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجًا، فقال لي: يا أبا يزيد، ما حد الزهد عندكم؟ فقلت: إن وجدنا أكلنا. وإن فقدنا صبرنا. فقال: هكذا كلاب بلخ عندنا. فقلت: وما حد الزهد عندكم؟ قال: إن فقدنا شكرنا، وإن وجدنا آثرنا.

وسئل ذو النون المصري: ما حد الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت.

وحكي عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلًا بقرية من قرى الري، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئًا، إيثارًا لصاحبه على نفسه.

قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشح والبخل سواء، يقال: رجل شحيح بيّن الشُّح والشَّح والشحاحة.

واللمز: الضيق البخيل، وقيل: السيئ الخلق اللئيم. وجعل أهل اللغة الشح أشد من البخل، وفي الصحاح: الشح: البخل مع الحرص، تقول: شححت تشحّ، وشححت تشح، ورجل شحيح، وقوم شِحاح وأشحة.

وقد روى ابن جرير عن أبي الهياج الأسدي قال: كان رجل يطوف بالبيت يدعو يقول: اللهم قِني شح نفسي، لا يزيد على ذلك شيئًا، فقلت له في ذلك، فقال: إذا وُقِيت شح نفسي لم أسرق ولم أزنِ ولم أفعل ما حرم الله، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ».

وعند مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

وعند النسائي بسند جيد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا».

وروى أبو يعلى عن خالد بن زيد بن حارثة قال: قال رسول الله ﷺ: «بَرِيء مِن الشُّحِّ مَن آتَى الزَّكَاةَ، وَقَرى الضَّيفَ، وَأعطَى فِي النَّائِبَةِ». حسنه ابن حجر.

قال بعض الحكماء لأصحابه: أي شيء أضر بابن آدم؟ قالوا: الفقر، فقال: الشح أضر من الفقر؛ لأن الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذ وجد لم يشبع أبدًا. اللهم إنا نعوذ بك من شح أنفسنا وإسرافها ووساوسها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

يَعۡقِلُونَ ١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من التابعين ومن بعدهم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاث منازل: المهاجرون، والذين تبوؤوا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم، فاجهد ألا تخرج من هذه المنازل.

قال بعض السلف: كن شمسًا، فإن لم تستطع فكن قمرًا، فإن لم تستطع فكن كوكبًا مضيئًا، فإن لم تستطع فكن كوكبًا صغيرًا، ومن جهة النور لا تنقطع. والمعنى: كن مهاجريًا، فإن قلت: لا أجد، فكن أنصاريًا، فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبّهم واستغفر لهم، كما أمرك الله.

روي أن نفرًا من أهل العراق جاؤوا إلى عليّ بن حسين، فسبوا أبا بكر، وعمر، ثم عثمان ﷺ، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفمن الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا: لا، فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين، أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عزَّ وَجَل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا...﴾ الآية. وفي رواية: والله لئن لم تكونوا من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام. قال مالك: من كان يبغض أحدًا من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه غِلٌّ عليهم فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ هذه الآية.

وعند مسلم من حديث عروة: «قَالَتْ لِي عَائِشَةُ ل: يَا ابْنَ أُخْتِي، أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَبُّوهُمْ!».

قال العوّام بن حوشب: أدركت صدر هذه الأمة يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله ﷺ حتى تألف القلوب عليهم، ولا تذكروا ما شجر بينهم فتجسّروا الناس عليهم.

وقال الشعبي: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: مَن خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى عليه السلام، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى عليه السلام، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد عليه السلام، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم، وإدحاض حجتهم. أعاذنا الله من الأهواء المضلة.

قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ أي: حقدًا وحسدًا.

قوله: ﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: من اليهود.

قوله: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا﴾ يعنون محمدًا ﷺ، لا نطيعه في

قتالكم، وقد اغتر اليهود بذلك، مع علمهم بأنهم لا يعتقدون دينًا ولا كتابًا.

قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفًا وخشية، ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ يعني المنافقين واليهود، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، فإنهم يخافون المؤمنين أكثر مما يخافون ربّهم.

قوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: اليهود.

قوله: ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: بالحيطان والدور، يظنون أنها تمنعهم منكم. وقرئت (جدار) أي: من خلف حيطان يستترون بها؛ لجبنهم ورهبتهم، ويجوز أن يكون من وراء نخيلهم وشجرهم، يقال: أجدر النخل، إذا طلعت رؤوسه في أول الربيع، والجِدْر: نبت، واحدته: جِدْرة.

قوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوة بعضهم لبعض شديدة، فلا تكاد قلوبُهم تتفق على أمر واحد، وتراهم ينسبون أنفسهم إلى الشدة والبأس، ما لم يلقوا عدوًا، فإذا لقوا العدو انْهزموا خائفين.

قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: المنافقين واليهود، وقيل: يعني المنافقين، والأظه: القول الأول، وأهل الباطل دائما مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، ولكن متى ما كان الإسلام ندًا وطرفًا في الحرب صاروا مجتمعين في عداوته وحربه. وفي هذه الآية تقوية لنفوس المؤمنين عليهم. قال الشاعر:

إِلَى اللهِ أَشْكُو نِيَّةً شَقَّتِ الْعَصَا ... هِيَ الْيَوْمَ شَتَّى وَهِيَ أَمْسُ جُمَّعُ

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي: بنو قينقاع، أمكن الله منهم قبل بني النضير، وقيل: يعني بني النضير، أمكن الله منهم قبل قريظة، والأظهر هو القول الأول؛ لأن النبي ﷺ كان قد أجلى بني قينقاع قبل هذا.

قوله: ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: جزاء كفرهم، ومن قال: هم بنو قريظة جعل ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: نزولهم على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية.

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: مثل المنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الوفاء في نصرتهم.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على وجه التبرؤ من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾، وقرئت: (إنِّيَ) وليس خوفًا حقيقيًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ

ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: عاقبة الشيطان والإنسان.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: ليوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد. وقيل: ذكر الغد تنبيهًا على أن الساعة قريبة. كما قال الشاعر:

فإن يَكُ صدر هذا اليوم ولى ... فإنَّ غدًا لناظره قريب

وقد جاء عند مسلم من حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ، عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ، أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ صَعِدَ مِنْبَرًا صَغِيرًا، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ. حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَبْطَؤُوا عَنْهُ حَتَّى رُؤِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِه- قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أعادها للتوكيد، كقولك: اعجل اعجل، ارْمِ ارْمِ.

قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: بترك شكره وذكره وتعظيمه وعبادته.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لم يذكروا توبة، ولم يتأملوا عذابًا، وقيل: نسوا الله في الرخاء، فنسيهم في الشدة. جاء عند الطبراني بسند جيد عن نعيم بن نمحة قال: كان في خطبة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم؟ فمن استطاع أن يقضي الله الأجل وهو في عمل الله عزَّ وَجَل فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عزَّ وَجَل، إن قومًا جعلوا آجالهم بغيرهم،

فنهاكم الله عزَّ وَجَل أن تكونوا أمثالهم، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقاوة والسعادة، أين الجبارون الأولون؟ أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن، وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الآبار، هذا كتاب الله، لا تفنى عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسناه وبيانه، إن الله تعالى أثنى على زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم. جوده ابن كثير.

قوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا عذر لكم في ترك التدبر لهذا القرآن؛ لأن الجبال على صلابتها ومتانتها لو خوطبت بهذا القرآن لانقادت وخشعت وتصدعت من خشية الله أن يعاقبها، والمتصدع: المتشقق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. وقد جاء عند البخاري من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ، فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ». وعند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أبصر رسول الله ﷺ أُحُدًا فقال: «هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ».

قوله: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: الطاهر عن كل عيب، المنزَّه عن كل نقص، المقدس من قبل الملائكة الكرام.

قوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: السالم من جميع العيوب والنقائص؛ لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، المسلّم لعباده وأوليائه، وقد روى البخاري في الأدب المفرد بسند جيد من حديث أنس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّلامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وَضَعَهُ اللهُ فِي الأرض، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ».

قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: الذي أمّن خلقه من أن يظلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، وصدق عباده المؤمنين في إيمانهم به.

قوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو الرقيب عليهم.

قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الذي عزَّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء، فلا يُنال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال: ﴿ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد سبق: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ». فالجبار: الذي جبر خلقه على ما يشاء، وأصلح أمورهم، وتصرّف فيهم بما فيه صلاحهم.

قوله: ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ أي: المنفذ ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل.

وقد جعل بعض الناس، الخلق بمعنى التصوير، وليس كذلك، وإنما التصوير: التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بِها، والتقدير أولًا، والبراية بينهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾.

قوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، واللهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ». وقد جاء كثير منها في كتاب الله، مذكورًا منها: الله، وهو أعظمها، والرحمن، الرحيم، الملك، المالك، المليك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الخلاق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، القاهر، القادر، الوهاب، الرازق، الرزاق، الفتاح، العليم، العالم، القابض، الباسط، السميع، البصير، الحكم، الحاكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الأعلى، الكبير، الحفيظ، الجليل، الكريم، الأكرم، الرقيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الحق، القوي، المتين، الولي، الحميد، الحي، القيوم، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، المتعال، البر، التواب، الرؤوف، العفو، الغني، الهادي، ذو الجلال والإكرام، المقيت، الوكيل، الكفيل، الشهيد، الحفي، الرب، المستعان، المنان، المحيط، القدير.

انتهى تفسير سورة الحشر، ولله الحمد.

  

سورة الممتحنة

بفتح الحاء، أي: المختبَرة، وهي مدنية بالإجماع، سميت بذلك لقوله تعالى: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، كما سميت سورة التوبة بالفاضحة؛ لأنّها كشفت عيوب المنافقين.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ
كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى
سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾
لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ
وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ
لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ
لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ-، فَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَاتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ؛ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنَ الْمُشْرِكِينَ- مَعَهَا كِتَابٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ-، فَخُذُوهُ مِنْهَا. فَذَهَبْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ! فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ! (وَفِي رِوَايَةٍ: فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا، فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا، قَالَ صَاحِبَايَ: مَا نَرَى كِتَابًا! قَالَ: قُلْتُ: لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ! لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ)، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ، أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ. فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا (وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا رَأَتِ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا -وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ- فَأَخْرَجَتْهُ)، فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ بِمَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟ قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: يَقُولُ: كُنْتُ حَلِيفًا، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا-، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ (وَأَمْوَالَهُمْ) بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَصْطَنِعَ إِلَيْهِمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي (وَفِي رِوَايَةٍ: وَمَالِي)، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي -وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. (وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَا ازْدَدْتُ لِلْإِسْلَامِ إِلَّا حُبًّا) -. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ (وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا

خَيْرًا). فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ: إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. فَدَمَعَتْ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَاغْرَوْرَقَتْ- عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ). قَالَ (عَمْرٌو): وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. (وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾)».

وهذه السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار، مثلها مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾.

والإلقاء بالمودة إنما هو في الظاهر، فإن قلب حاطب رضي الله عنه كان سليمًا؛ لأن النبي ﷺ قال حين اعتذر حاطب رضي الله عنه: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»، وهذا نص في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده.

والباء في قوله: ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ صلة، أي: تلقون إليهم المودة. ويؤخذ من قصة حاطب رضي الله عنه أن من تطلع على عورات المسلمين، ونبّه عليهم، وعرّف عدوهم بأخبارهم لا يكون كافرًا إذا كان غرضه دنيويًا، ولكن هل يقتل أم لا؟ والصواب: قتله إذا كان معتادًا لذلك، وإلا فلا، وأمره على كل حال يجتهد فيه إمام المسلمين، فإن كان الجاسوس كافرًا معاهدًا يكون فعله نقضًا لعهده، فيقتل.

قوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل لـ ﴿يُخْرِجُونَ﴾، والمعنى: يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأجل إيمانكم بالله، فلم يكن لكم عندهم ذنب إلا هذا، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي ومبتغين لمرضاتي، والكل وارد، والثاني أظهر. ونصب ﴿جِهَـٰدًا﴾، و﴿وَٱبْتِغَآءَ﴾ لأنه مفعول له، و﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بدل من قوله: ﴿تُلْقُونَ﴾ ومبيِّن له، والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾.

وقيل: هو على تقدير: أنتم تسرون إليهم بالمودة، فيكون استئنافًا.

وهذا كله معاتبة لحاطب رضي الله عنه، وهو يدل على فضله وكرامته ونصحته لرسول الله ﷺ وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه، كما قال الشاعر:

أُعَاتِبُ ذَا الْمَوَدَّةِ مِنْ صَدِيقٍ إِذَا مَا رَابَنِي مِنْهُ اجْتِنَابُ
إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ وَيَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ

ومعنى: ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ بالنصيحة في الكتاب إليهم.

قوله: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ أي: يلقوكم ويصادفوكم، ومنه: المثاقفة، أي: طلب مصادفة الغِرة في المسايغة وشبهها، وقيل: يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، وهذا الأخير أقرب.

قوله: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بالفعال ضربًا وقتلًا، وبالمقال سبًا وشتمًا.

قوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ وقد كان حاطب رضي الله عنه قد اعتذر بأن له أولادًا وأرحامًا. وقد جاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: فِي النَّارِ. فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ».

قوله: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾ وقرئت: (يُفَصِّل)، وقرئت: (يُفْصَل)، واختاره أبو عبيد، أي: يدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين النار، فمن خفف فلقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾، ومن شدد فلأن ذلك أبين في الفصل الكثير المكرر المتردد.

قوله: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ أي: قدوة حسنة، يقال: هو أُسوتك، أي: مثلك، وأنت مثله، والإسوة، والأسوة بمعنى، مثل: القِدوة، والقُدوة.

قوله: ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وقد كانت سيرته: التبرؤ من الكفار.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين، لاسيما الأنبياء من بعده، وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾.

قوله: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: بما آمنتم به من الأوثان، وبأفعالكم التي هي طاعة للشيطان، ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾ فهذا هو دأبنا معكم ما دمتم على الكفر، ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ أي: وحينئذ تنقلب المعاداة موالاة.

قوله: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: فلا تتأسوا به في الاستغفار فتستغفروا للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾. وقد قيل: استثناء منقطع، أي: لكن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ إنما جرى لأنه ظن أنه أسلم، فلما بان له أنه لم يسلم تبرأ منه، وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن، وهذا القول وجيه، ولكن القول الأول أقرب، وعلى هذا القول الأخير

يجوز الاستغفار لمن يُظن أنه أسلم.

قوله: ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: رجعنا.

قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا تظهر عدوّنا علينا، فيظنوا أنّهم على حق، فيفتتنوا بذلك، ولا تسلطهم علينا، فيفتنونا عن ديننا ويعذبونا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١﴾

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من الأنبياء والأولياء.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإسلام، وهذه التوجيهات والمواعظ.

قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي: يسلموا ويستسلموا للحق.

قال الشاعر:

وَقَــد يجمــعُ اللهُ الشَّــتِيتَيْنِ بَعْــدَمَــا ... يَظُنَّــان كُــلَّ الظَّـــنِّ أَلَّا تَلاقِيَــا

وقد أسلم منهم بعد فتح مكة جم غفير، كأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو رأس حربة المشركين، والحارث بن سعيد، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام رضي الله عنهم.

قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن الإحسان إلى الكفرة الذين لزموا صوامعهم وأديرتَهم وبلدانهم، ولم يقاتلوكم في الدين، ولم يعاونوا على إخراجكم، ولاسيما النساء والضعفة والمساكين. وقد جاء عند الشيخين من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي رِوَايَةٍ: فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ. وفي رواية: قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَأَنْزَلَ

اللهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾».

وقيل: كانت رخصة من الله في أول الإسلام في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، ثم نسخت بآية السيف، والأظهر: القول الأول، أنّها محكمة.

قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ من البر والوفاء.

قوله: ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: من القسط والعدل، وقيل: تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصلة، لعلّ الله أن يهديهم للإسلام، وهذا القول وجيه، وأما العدل فهو واجب على كل حال فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل. ومن استدل بِهذه الآية على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر فقد جانب الصواب، ولم يفهم كلام رب الأرباب، وخالف إجماع المسلمين.

قوله: ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ أي: من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: تستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها، ولا رغبة بأرض عن أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقًا لرجل منّا، وإنما حبًا لله ولرسوله ﷺ. فإذا حلفت بالله، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، بايعها، وقد جاء عند البخاري في حديث المسور رضي الله عنه في قصة صلح الحديبية: «... ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾...». الحديث.

وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. -وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ -). قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ: انْطَلِقْنَ، فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ. لَا وَاللهِ! مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ (وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَّا امْرَأَةً يَمْلِكُهَا)، غَيْرَ أَنَّهُ بَايَعَهُنَّ بِالْكَلَامِ، وَاللهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا بِمَا أَمَرَهُ اللهُ، يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ: قَدْ بَايَعْتُكُنَّ. كَلَامًا»

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن هذا ناسخ لما عاهد رسول الله ﷺ عليه قريشًا من أن يرد إليهم من جاء منهم مسلمًا، فنسخ من ذلك النساء، وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن، وذلك لأن النساء ذوات فروج يحرمن عليهم، ولأنّهن أرق قلوبًا وأسرع تقلبًا من الرجال، فربما فُتنت إذا بقيت بين أظهر المشركين، وهذا القول في غاية القوة.

وقيل: كله منسوخ، في الرجال والنساء، وقد احتج أصحاب هذا القول بما رواه أبو داود بسند جيد عن جرير رضي الله عنه قال: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ، فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ،

قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ، وَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ؟ قَالَ: لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا».

قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي: هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهن؛ لأنه متولي السرائر.

قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ أي: يرد إلى زوجها الكافر ما أنفق، وذلك من الوفاء بالعهد؛ لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام أُمر برد المال إليه، حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة، والمال، وهذا من عدل الإسلام مع أعداء الإسلام، وهذا الحكم إنما هو في نساء أهل العهد، وأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليهم الصداق.

قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: إذا أسلمن وانقضت عدتُهن، لما ثبت من تحريم المشركة والمعتدة، فإن أسلمت قبل الدخول ثبت النكاح في الحال، ولها التزوج.

قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: لا بد من شرط المهر؛ لأن الإسلام فرق بينها وبين زوجها الكافر.

قوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ وقرئت: (ولا تمسِّكوا) من التمسك، فالأولى لقوله تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾، يقال: مسّك يمسّك تمسُّكًا، بمعنى: أمسك يُمسك.

قوله: ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ أي: عابدات الأوثان، فهي خاصة بالمشركين، ومنهم من قال غير أهل الكتاب، أي: عامة. نُسخ منها نساء أهل الكتاب. والعِصَم: جمع العِصْمة، وهو ما اعتُصِم به، والمراد بالعصمة هنا: النكاح، والمعنى: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها، فليس له امرأة، فقد انقضت عصمتها، وكذا المسلمة تلحق بدار الحرب تكفر. وكان الكفار يتزوجون المسلمات، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك في هذه الآية.

وقد روى البخاري من حديث المسور رضي الله عنه قال: «... فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ».

فإذا أسلم وثني أو مجوسي ولم تسلم امرأته، أو ارتدت امرأة وزوجها مسلم فُرِّق بينهما مباشرة، وهو قول الحسن، ومالك، وطاووس.

وقيل: ينتظر بها تمام العِدة، وهو الصواب، وهو قول الزهري، والشافعي، وأحمد.

وقد جاء عند أحمد، وأبي داود بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «رَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنَتَهُ زَيْنَبَ عَلَى أَبِي الْعَاصِ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ -وَفِي رِوَايَةٍ: بَعْدَ سَنَتَيْنِ-، لَمْ يُحْدِثْ شَيْئًا».

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال: هاجرت زينب رضي الله عنها مع ابنها وأبي زوجها أبي العاص قبل أن

يسلم، فلم يفرق النبي ﷺ بينهما. صححه ابن حجر. قال الزهري: كانت هذه القصة قبل أن تنْزل الفرائض. وقال قتادة: قبل أن تنْزل سورة براءة. وقال أبو عمر: يحتمل أنّها لم تحض حتى أسلم زوجها. وهذا الخلاف، إنما هو في المدخول بِها، فإن كانت غير مدخول بِها، فلا خلاف في انقطاع العصمة بينهما؛ إذ لا عدة عليها.

وإن كان الزوجان نصرانيين، فأسلمت الزوجة ففيه خلاف، والصواب: الوقوف إلى تمام العدة، وهو قول مالك، وأحمد، والشافعي، وكذا الوثني تسلم زوجته، فإن أسلم في عدتِها، فهو أحق بِها. قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوان رضي الله عنه، وبين إسلام زوجته، نحو من شهر، ولم يبلغنا أن امرأة هاجرت إلى رسول الله ﷺ، وزوجها كافر مقيم بدار الحرب إلا فرَّقت هجرتُها بينه وبينها، إلا أن يَقْدم زوجها مهاجرًا، قبل أن تنقضي عدتُها. ومن العلماء من قال: يفسخ النكاح بينهما، ولا سبيل إليها إلا بخطبة، وما قاله ابن شهاب الحق.

قوله: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ أي: من أهل المرتدة، فليردوا المهر الذي دفعتم إليهم، ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي: يقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة: ردوا إلى الكفار مهرها. قال ابن العربي: وكان هذا حكم الله مخصوصًا بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة.

قوله: ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ أي: فاقتصصتم وصنعتم كما صنعوا بكم، يقال: عاقب، وعَقَب، وعقّب، وأعقب، وتعقّب، واعتقب، وتعاقب إذا غنم. قال ابن قتيبة: فغزوتم معاقبين غزوًا بعد غزو، وقال ابن بحر: أي: فعاقبتم المرتدة بالقتل، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم﴾ أي: من المسلمين الذين لحقت زوجاتهم بالكفار ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي: من الغنيمة والفيء، وقيل: يُعطى من صداق من لحق بالمسلمين، والقول الأول الصواب. وقيل: إن امتنعوا من أن يغرموا مهر هذه المرأة التي ذهبت إليهم، فانبذوا العهد إليهم، حتى إذا ظفرتم فخذوا ذلك منهم. قال الأعمش، والزهري، والثوري: هي منسوخة، وقال عطاء: بل حكمها ثابت، والقول الأول أظهر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ جاء عند الشيخين عن عائشة رضي الله عنها: «كَانَتِ

الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.) -وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ -. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ: انْطَلِقْنَ، فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ. لَا وَاللهِ! مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ (وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَّا امْرَأَةً يَمْلِكُهَا)، غَيْرَ أَنَّهُ بَايَعَهُنَّ بِالْكَلَامِ، وَاللهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا بِمَا أَمَرَهُ اللهُ، يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ: قَدْ بَايَعْتُكُنَّ. كَلَامًا».

وعند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «شَهِدْتُ الْفِطْرَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، يُصَلُّونَهَا قَبْلَ الْخُطْبَةِ، ثُمَّ يُخْطَبُ بَعْدُ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى يَوْمَ الْفِطْرِ رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُصَلِّ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا-. خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يُجَلِّسُ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَشُقُّهُمْ حَتَّى جَاءَ النِّسَاءَ مَعَهُ بِلَالٌ، فَقَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ حِينَ فَرَغَ مِنْهَا: آنْتُنَّ عَلَى ذَلِكِ؟ قَالَتِ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ -لَمْ يُجِبْهُ غَيْرُهَا-: نَعَمْ. قَالَ: فَتَصَدَّقْنَ. فَبَسَطَ بِلَالٌ ثَوْبَهُ، ثُمَّ قَالَ: هَلُمَّ لَكُنَّ فِدَاءٌ أَبِي وَأُمِّي! فَيُلْقِينَ الْفَتَخَ وَالْخَوَاتِيمَ -وَفِي رِوَايَةٍ: تُلْقِي الْمَرْأَةُ خُرْصَهَا وَسِخَابَهَا- فِي ثَوْبِ بِلَالٍ».

وعند الترمذي بسند صحيح من حديث أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها قالت: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ، فَقَالَ لَنَا: فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ. قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنَّا بِأَنْفُسِنَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَايِعْنَا! -تَعْنِي: صَافِحْنَا- فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ».

قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾ أي: لا يئدن الموءودات، ولا يُسقطن الأجنة خشية الإملاق، أو لئلا تحبل، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

قوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ بالنميمة، ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: فروجهن بالزنا ومقدماته، من قبلة، أو مفاخذة، كما لا يلحقن برجالهن ولدًا من غيرهم. وكانت المرأة في الجاهلية تلتقط ولدًا، فتلحقه بزوجها، وتقول: هذا ولدي منك. وقيل: ما بين يديها ورجليها: كناية عن الولد؛ لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها، وهذا الأخير أقرب، والأول وارد.

قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ عام في كل معروف أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ به، ومن ذلك ما جاء عند الشيخين من حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْنَا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وَنَهَانَا عَنِ النِّيَاحَةِ، (فَقَبَضَتِ امْرَأَةٌ يَدَهَا)، فَقَالَتْ: أَسْعَدَتْنِي فُلَانَةُ، أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا. فَمَا قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، (فَانْطَلَقَتْ وَرَجَعَتْ، فَبَايَعَهَا)». وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ قال: «إِنَّمَا هُوَ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللهُ لِلنِّسَاءِ».

وعند الشيخين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وحوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، ولَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، (وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ)، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ-، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ: إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ. فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَا نَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا نَنْتَهِبَ، وَلَا نَعْصِيَ، بِالْجَنَّةِ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ».

قوله: ﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: اليهود، والنصارى، والمشركين، وكل من استحق الطرد واللعنة.

قوله: ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فتركوا العمل لها، وآثروا الدنيا وملذاتها، وقد يئسوا من الثواب بعد الموت.

قوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: الأحياء منهم ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. وقيل: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ الذين في القبور من الخير والرجوع إلى الدنيا، وهذا الأخير هو المختار. وقد ختم الله عز وجل السورة بما بدأها به من ترك موالاة الكفار.

انتهى تفسير سورة الممتحنة، ولله الحمد.

  

سورة الصف

وهي مدنية بالإتفاق.

جاء عند الترمذي بسند جيد، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَذَاكَرْنَا، فَقُلْنَا: لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ الأَعْمَالِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ لَعَمِلْنَاهُ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ جاء عند مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «وَكُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا بِإِحْدَى الْمُسَبِّحَاتِ، فَأُنْسِيتُهَا، غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، فَتُكْتَبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ، فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

والملتزم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين: نذر تقرُّب، كقوله: لله عليّ صلاة ونحو ذلك، فهذا يلزم الوفاء به إجماعًا، ونذر مباح، وهو ما علق بشرط رغبة، كقوله: إن جاء غائبي فعلي صدقة، أو علّق بشرط رهبة، كقوله: إن كفاني الله شرّ كذا فعليّ صدقة، فاختلف العلماء فيه، فمالك، وأبو حنيفة: يلزمه الوفاء به، وهو الصحيح، وقال الشافعي في أحد أقواله: لا يلزم.

والقسم الآخر: ما ليس بنذر، وإنما هو وعد مجرّد، كما لو قال لغيره: تزوج، ولك عليّ كل يوم كذا، فتزوج، فقيل يلزم، وعليه فيكون داخلاً في الآية، واستدلوا بسبب نزول الآية، وقيل: لا يلزم، والقول الأول هو الصحيح. وهو في مكارم الأخلاق وحُسن المروءة، وقد أثنى الله عز وجل عليهم بقوله: قال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، وعند الشيخين من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»، وفي رواية عند مسلم: «وَإِنْ صَامَ

وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾.

والاستفهام في الآية على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذبًا، وأما في المستقبل فيكون خُلْفًا، وكلاهما مذموم. وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية على معنى: لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون، فيكون الكلام محمولًا على ظاهره في إنكار القول.

قوله: ﴿كَبُرَ﴾ بمنْزلة بئس.

قوله: ﴿مَقۡتًا﴾ منصوب على التمييز، وقيل: على الحال. والمقت، والْمَقَاتة مصدران، يقال: رجل مَقيت، وممقوت، إذا لم يحبه الناس.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ جاء عند أحمد واللفظ له، والترمذي بسند جيد من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عزَّ وَجَل يُحِبُّ ثَلاثَةً، وَيُبْغِضُ ثَلاثَةً. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ الذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ عزَّ وَجَل؟، قَالَ: رَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَقِيَ الْعَدُوَّ مُجَاهِدًا مُحْتَسِبًا فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَأَنْتُمْ تَجِدُونَ فِي كِتَابِ اللهِ عزَّ وَجَل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾، وَرَجُلٌ لَهُ جَارٌ يُؤْذِيهِ فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ وَيَحْتَسِبُهُ حَتَّى يَكْفِيَهُ اللهُ إِيَّاهُ بِمَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ، وَرَجُلٌ يَكُونُ مَعَ قَوْمٍ فَيَسِيرُونَ حَتَّى يَشُقَّ عَلَيْهِمُ الْكَرَى أَوْ النُّعَاسُ فَيَنْزِلُونَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ فَيَقُومُ إِلَى وُضُوئِهِ وَصَلاتِهِ».

قوله: ﴿صَفّٗا﴾ أي: يصفون صفًا، والمفعول مضمر، أي: يصفون أنفسهم صفًا.

قوله: ﴿مَّرۡصُوصٞ﴾ أي: متراص ومتلاصق، من رصصت البناء، إذا لاءمت بينه وقاربته، حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرّصيص، وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيفَ تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ».

والمعنى: إثبات محبة الله للمجاهدين في سبيل الله، الثابتين في أماكنهم كثبوت البناء، وهو تعليم رباني لكيفية قتال العدو.

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ قد سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: مالوا عن الحق ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أي: أمالها عن الهدى والطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ وقرئت: (من بعدي).

قوله: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ جاء عند الشيخين من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»، وعند مسلم من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ». وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل، التي يراد بها التفضيل، والمعنى: أحمد الحامدين لربه، وكذا محمد، منقول من صفة، وهي في معنى محمود، أي: في الدنيا والآخرة، وفي السماء والأرض، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حُمِد مرة بعد مرة، كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة، وقد سماه الله عزَّ وَجَل قبل أن يسميه أهله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾.

وقد جاء عند أحمد وغيره بسند جيد عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ حين قالوا: ما كان أول بدء أمرك؟: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ

الشَّامِ».

قوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ نعت لما جاء به الرسول، وقرئت: (ساحر) نعتًا للرجل.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ بالإضافة، وقرئت: (متمٌّ نورَه)؛ لأنه فيما يستقبل، وقد سبق بيان ذلك في سورة التوبة، عند قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

قوله: ﴿تُنجِيكُم﴾ أي: تخلصكم، وقرئت: (تُنَجِّيكم).

قوله: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبونها ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو نصر من الله، وقيل: رفع على البدل من ﴿أُخۡرَىٰ﴾، أي: ولكم نصر من الله، والأول الصواب، فـ ﴿نَصۡرٞ﴾ تفسير لـ ﴿أُخۡرَىٰ﴾، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ أي: عاجل، كفتح مكة وما بعدها من بلاد فارس، والروم.

قوله: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ قرئت: (أنصارًا لله)، والمعنى: كونوا أنصارًا لدين الله، ولرسوله ﷺ.

قوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم أصفياؤه وخواصه، وقد قيل: إنهم اثنا عشر رجلًا، وهم أول من آمن به من بني إسرائيل، وقد جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ». الحديث.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أنصارًا، وكانوا حواريين لرسول الله ﷺ، بل كانوا سمعه وبصره، وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به عن عبد الله بن حَنْطب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما، فقال: «هَذَانِ السَّمْعُ والْبَصْرُ».

وجاء عند الطبري عن قتادة: أن الحواريين من أصحاب النبي ﷺ كلهم من قريش، فسمى العشرة المشهورين إلا سعيد بن زيد وحده، وحمزة، وجعفر بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون. صححه ابن حجر.

وقد كان رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي بسند جيد عن جابر رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْمَوْقِفِ، فَقَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ».

وعند أحمد بسند جيد من حديث جابر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَبِثَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتَّبِعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ... حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ عز وجل لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَيَاتِيهِ الرَّجُلُ، فَيُؤْمِنُ بِهِ، فَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ،

فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَى دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ بَعَثَنَا اللهُ – عز وجل – فَاتَمَرْنَا، وَاجْتَمَعْنَا سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَّا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ، فَدَخَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّه الْعَبَّاسُ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي لَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءوكَ! إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ. فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ ﷺ فِي وُجُوهِنَا، قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ! هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ. فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ».

ولهذا سماهم الله ورسوله ﷺ: الأنصار، وصار ذلك علمًا عليهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

قوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى عليه السلام افترقوا بعد رفعه إلى السماء، وقد تقدم ذلك في سورة آل عمران.

قوله: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: غالبين وقاهرين وعالين بالحجة والبرهان والسنان، والمعنى: أُيِّدوا في زمانهم، على من كفر بعيسى عليه السلام، من فِرق النصارى، وأُيدوا ببعثة النبي ﷺ، والذي جاء ليؤكد حقيقة عيسى عليه السلام ومكانته، ولذا فأمة محمد ﷺ، لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال، مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقد سبق ذكر ذلك، كحديث ثوبان، وابن عمرو، وجابر، وعقبة بن عامر، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند مسلم، وحديث معاوية رضي الله عنه المتفق عليه.

انتهى تفسير سورة الصف، ولله الحمد.

  

سورة الجمعة

وهي مدنية بالإجماع.

جاء عند مسلم من حديث ابن عباس، وأبي هريرة رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ سُورَةَ الْجُمُعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ».

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» وفي رواية لمسلم: «وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، وفي رواية لمسلم: «الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلائِقِ».

وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»، وعند أبي داود بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلا الْجِنَّ وَالإِنْسَ... ».

وعند أبي داود بسند جيد عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ؛ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟ – وَفِي رِوَايَةٍ: يَقُولُونَ: بَلِيتَ– فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ».

وعند الطبراني بسند حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتِ الْجُمُعَةُ عَلَيَّ فِي كِفَّةٍ كَالْمِرْآةِ الْبَيْضَاءِ، فِي وَسَطِهَا كَالنُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ، وَقَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ؛ لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا، ولِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، وَنَحنُ نَدْعُوهُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ».

وعند أبي داود بسند جيد عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثِنْتَا عَشْرَةَ» يريد: ساعة، «لا يُوجَدُ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَل شَيْئًا إِلا آتَاهُ اللهُ عزَّ وَجل، فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ».

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ. وَقَالَ بِيَدِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَوَضَعَ أَنْمَلَتَهُ عَلَى بَطْنِ الْوُسْطَى وَالْخِنْصِرِ)، قُلْنَا: يُقَلِّلُهَا يُزَهِّدُهَا». ولمسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة: «هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلاةُ».

والجمع بين أحاديث ساعة الجمعة هو القول بأنّها تنتقل، فأحيانًا كما في حديث جابر رضي الله عنه، وأحيانًا

كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه، وإن كان ما في حديث جابر، أكثر وآكد.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ عطف على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، أي: بعث في الأميين، وبعث في آخرين منهم، أو منصوبًا بالعطف على الهاء والميم في قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، أي: يعلمهم ويعلم آخرين من المؤمنين.

وقد جاء عند الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾. قَالَ: (قُلْتُ): مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ، حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رضي الله عنه، وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ (أَوْ رَجُلٌ) مِنْ هَؤُلَاءِ».

وعند البزار، والطبراني بسند لا بأس به عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي أَنْزِعُ أَرْضًا وَرَدَتْ عَلَيَّ، وَغَنَمٌ سُودٌ وَغَنَمٌ عُفْرٌ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِيهِمَا ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ، فَنَزَعَ، فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَمَلأَ الْحَوْضَ، وَأَرْوَى الْوَارِدَةَ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًا أَحْسَنَ نَزْعًا مِنْ عُمَرَ، فَأَوَّلْتُ أَنَّ السُّودَ: الْعَرَبُ، وَأَنَّ الْعُفْرَ: الْعَجَمُ».

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ أي: كُلفوا العمل بها وضُمنوا أحكامها، وهو من الْحَمَالة، أي: الكفالة.

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ هي جمع سِفْر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قُرئ. والحمار لا يدري ماذا على ظهره، وهكذا اليهود، وفي هذا تنبيه لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه هذا الذم، وفي آية أخرى، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾، وقد روى الإمام أحمد بسند لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا». قال الشاعر:

زوامــل للأســفار لا علــم عنــدهم بجيــــدها إِلَّا كَعِلْــــمِ الْأَبَــــاعِرِ

وقال آخر:

يَحْمِـــلُ أَسْـــفَارًا لَـــهُ وَمَـــا دَرَى إِنْ كَـــانَ مَـــا فِيهَـــا صَـــوَابًا وخطـــا

إِنْ سُـــئِلُوا قَـــالُوا كَـــذَا رَوَيْنَـــا مَـــــا إِنْ كَـــــذَبْنَا وَلَا اعْتَـــــدَيْنَا

كَبِيـــرُهُمْ يَصْـــغُرُ عِنْـــدَ الْحَفْـــلِ لِأَنَّـــهُ قَلَّـــدَ أَهْـــلَ الْجَهْـــلِ

قوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: المثل الذي ضربناه لهم.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾. قال الشاعر:

وَمَـــنْ هَـــابَ أَسْـــبَابَ الْمَنَايَـــا يَنَلْنَـــهُ وَلَـــوْ رَامَ أَسْـــبَابَ السَّـــمَاءِ بِسُـــلَّمِ

وقال آخر:

وَكَفَـــى بِـــالْمَوْتِ فَـــاعْلَمْ وَاعِظًـــا لِمَـــنِ الْمَـــوْتُ عَلَيْـــهِ قَـــدْ قُـــدِرْ

فَـــاذْكُرِ الْمَـــوْتَ وَحَـــاذِرْ ذِكْـــرَهُ إِنَّ في المـــوت لـــذي اللـــب عـــبر

كـــل شـــي سَـــوْفَ يَلْقَـــى حَتْفَـــهُ فِـــي مَقَـــامٍ أَوْ عَلَـــى ظَهْـــرِ سَـــفَرْ

وَالْمَنَايَـــــا حَوْلَـــــهُ تَرْصُـــــدُهُ لَـــيْسَ يُنْجِيـــهِ مـــن المـــوت الحـــذر

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمكلفين بالإجماع، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسند جيد عن طارق بن شهاب رضي الله عنه: «الْجُمُعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي جَمَاعَةٍ؛ إِلَّا أَرْبَعَةً: عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، أَوِ امْرَأَةٌ، أَوْ صَبِيٌّ، أَوْ مَرِيضٌ». قال أبو داود: طارق بن شهاب قد رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئًا. وعند مسلم من حديث ابن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهم: أنّهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ». وعند أبي داود بسند جيد عن أبي الجعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ».

قوله: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ سميت جمعة لأنها مشتقة من الجمع؛ لأن أهل الإسلام

يجتمعون في يومها كل أسبوع، وفيه كمل جميع الخلائق، قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «... وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ». وجمعها: جُمَع، وجُمُعات، يقال: الجمْعة بسكون الميم، والجمُعة بضم الميم، والجمَعة بفتح الميم. و ﴿مِن﴾ بمعنى في، أي: في يوم الجمعة، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في الأرض.

قال ابن سيرين: جمّع أهل المدينة من قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة. وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن كعب بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ تَرَحَّمَ لأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا سَمِعْتَ النِّدَاءَ تَرَحَّمْتَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَمَّعَ بِنَا فِي هَزْمِ النَّبِيتِ، مِنْ حَرَّةِ بَنِي بَيَاضَةَ، فِي نَقِيعٍ يُقَالُ لَهُ: نَقِيعُ الْخَضِمَاتِ. قُلْتُ: كَمْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ».

وعند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّ أَوَّلَ جُمُعَةٍ جُمِّعَتْ -بَعْدَ جُمُعَةٍ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَسْجِدِ عَبْدِ الْقَيْسِ بِجُوَاثَى مِنَ الْبَحْرَيْنِ».

قال الزهري، وأحمد، وإسحاق: تجب الجمعة على من سمع النداء. وقال الشافعي: اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذن صيتًا، والأصوات هادئة، والريح ساكنة، وموقف المؤذن عند سور البلد.

وعند الشيخين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّاسُ يَنْتَابُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَالْعَوَالِي، فَيَأْتُونَ فِي الْغُبَارِ، يُصِيبُهُمُ الْغُبَارُ (وَالْعَرَقُ)، فَيَخْرُجُ مِنْهُمُ (الْعَرَقُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: أَرْوَاحٌ-، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ أَنَّكُمْ تَطَهَّرْتُمْ لِيَوْمِكُمْ هَذَا. وَفِي رِوَايَةٍ: لَوِ اغْتَسَلْتُمْ».

وقد كان النداء يوم الجمعة كما جاء عند البخاري من حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: «كَانَ النِّدَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوَّلُهُ إِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ عَلَى الْمِنْبَرِ، عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما -وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ ﷺ مُؤَذِّنٌ غَيْرَ وَاحِدٍ-، فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه وَكَثُرَ النَّاسُ زَادَ النِّدَاءَ الثَّالِثَ عَلَى الزَّوْرَاءِ». والمقصود بالنداء الثالث: الإقامة للصلاة. وقد اجتهد فيه عثمان رضي الله عنه ليتأهب الناس لحضور الخطبة؛ لأن المدينة اتسعت وكثر أهلها، وهو اجتهاد مسدد. وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه أمر أن يؤذَّن في السوق قِبل المسجد؛ ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد، فجعله عثمان رضي الله عنه أذانين في المسجد.

قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: اقصدوا وامضوا على أقدامكم بجد واجتهاد، وبقلوبكم ونياتكم، وقد جاء عند سعيد بن منصور والطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما سمعت عمر يقرؤها قط إلاّ فامضوا إلى ذكر الله، قيل لعمر: إن أُبي بن كعب يقرؤها: (فاسعوا)، قال: أما إنه أعلمنا وأقرؤنا للمنسوخ، وإنما هي: (فامضوا)». صححه ابن حجر.

وقيل: هو العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَن

﴿لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾. قال الشاعر:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ فَلَمْ يُدْرِكُوهُمْ وَلَمْ يُلَامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

والمعنى: فاعملوا على المضي إلى ذكر الله من صلاة وخطبة، والكل محتمل، والثاني أقرب. ولا يقال: المقصود بالسعي هنا: الجري والاشتداد، كما قد يتبادر من اللفظ، وقد أنكر الصحابة والفقهاء والعلماء أجمعون هذا القول، وقد قال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي قتادة، وأبي هريرة رضي الله عنهما: «إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا».

وقد اختلف العلماء في وقت الجمعة، فقيل: بعد الزوال؛ لحديث أنس رضي الله عنه عند البخاري: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي الجُمُعَةَ حِينَ تَمِيلُ الشَّمْسُ، وفي رواية: كُنَّا نُبَكِّرُ إِلَى الجُمُعَةِ، ثُمَّ نَقِيلُ». وهو قول الجمهور في السلف والخلف.

وذهب أحمد إلى أنّها تُصلى قبل الزوال؛ لحديث سلمة رضي الله عنه عند الشيخين قال: «كُنَّا نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْجُمُعَةَ، ثُمَّ نَنْصَرِفُ وَلَيْسَ لِلْحِيطَانِ ظِلٌّ نَسْتَظِلُّ فِيهِ». وبحديث سهل رضي الله عنه عند الشيخين قال: «مَا كُنَّا نَقِيلُ وَلَا نَتَغَدَّى إِلَّا بَعْدَ الْجُمُعَةِ». ولمسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «ثُمَّ نَذْهَبُ إِلَى جِمَالِنَا فَنُرِيحُهَا حِينَ تَزُولُ الشَّمْسُ». وما ذهب إليه الجمهور هو الراجح، وما استدل به أحمد من حديث سلمة رضي الله عنه فمردود بالرواية الأخرى لسلمة رضي الله عنه، وهي عند مسلم: «كُنَّا نُجَمِّعُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ نَرْجِعُ نَتَتَبَّعُ الْفَيْءَ».

وأما حديث سهل رضي الله عنه فموجّه بحديث أنس رضي الله عنه السابق قال: كنا نبكر إلى الجمعة، ثم نقيل. وكان رسول الله ﷺ يصلي الجمعة حين تميل الشمس. رواه البخاري. والمقصود بالتبكير: التقدم إليها، كما جاء عند الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ، الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَبْشًا، ثُمَّ دَجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ، وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»، وفي رواية: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً... » الحديث.

والمقصود بهذه الساعات المذكورة: ساعات النهار الزمانية الاثنتي عشرة، وقد سبق ذكرها في حديث جابر رضي الله عنه عند أبي داود بسند جيد.

وقد اختلف العلماء في الغسل، هل هو واجب؛ استدلالًا بحديث أبي سعيد رضي الله عنه عند الشيخين قال: قال رسول الله ﷺ: «الْغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»، أو مستحب؛ استدلالًا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ، وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا»، وكذا بحديث سمرة

عند أبي داود، والترمذي، والنسائي بسند جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَمَنِ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ»، وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين: «أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لِمَ تَحْتَبِسُونَ عَنِ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ النِّدَاءَ تَوَضَّأْتُ. فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعُوا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِذَا رَاحَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ؟». فأمر عمر رضي الله عنه بالغسل ولم يأمره بالرجوع.

والصحيح: التوسط، وهو الوجوب على أصحاب المزارع، والمواشي، ونحو ذلك ممن يظهر منهم، العرق، والرائحة غير المحمودة، وذلك لحديث عائشة رضي الله عنها السابق قالت: «كَانَ النَّاسُ يَنْتَابُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَالْعَوَالِي، فَيَأْتُونَ فِي الْغُبَارِ، يُصِيبُهُمُ الْغُبَارُ (وَالْعَرَقُ)، فَيَخْرُجُ مِنْهُمُ (الْعَرَقُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: أَرْوَاحٌ-، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ أَنَّكُمْ تَطَهَّرْتُمْ لِيَوْمِكُمْ هَذَا. وَفِي رِوَايَةٍ: لَوِ اغْتَسَلْتُمْ». والاستحباب على من ليسوا كذلك.

وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ، أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا».

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ»، وأما قوله ﷺ: «وَاجِبٌ» فهو من باب التأكيد على استحبابه، ولذلك جاء في الرواية الأخرى عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «... وَأَنْ يَسْتَنَّ، وَأَنْ يَمَسَّ طِيبًا إِنْ وَجَدَ»، وهذه ليست واجبة بالاتفاق.

وكذا يستحب لبس الثياب النظيفة، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «رَأَى عُمَرُ حُلَّةً -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ إِسْتَبْرَقٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: سِيَرَاءَ- عَلَى رَجُلٍ تُبَاعُ -وَفِي رِوَايَةٍ: عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ-، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْتَعْ هَذِهِ الْحُلَّةَ؛ تَلْبَسْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: لِلْعِيدِ-، وَإِذَا جَاءَكَ الْوَفْدُ...». الحديث.

وعند أبي داود، وابن ماجه بسند حسن عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوِ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبِ مِهْنَتِهِ».

وهل تسقط الجمعة إذا كانت في يوم عيد أم لا؟

الصحيح: عدم سقوطها، خلافًا لأحمد؛ لحديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عند مسلم قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾. قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ».

وعند أبي داود بسند جيد عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: «أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِيدَيْنِ اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ،

فَصَلَّى الْعِيدَ ثُمَّ رَخَّصَ فِي الْجُمُعَةِ، وقَالَ: مَنْ شَاءَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيُصَلِّ».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود بسند لا بأس به قال: قال رسول الله ﷺ: «قَدِ اجْتَمَعَ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا عِيدَانِ، فَمَنْ شَاءَ أَجْزَأَهُ مِنَ الْجُمُعَةِ، وَإِنَّا مُجَمِّعُونَ».

ومن لم يشهد الجمعة، يصليها ظهرًا وحدانًا؛ لما جاء عند أبي داود بسند جيد عن عطاء بن أبي رباح قال: «صَلَّى بِنَا ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي يَوْمِ عِيدٍ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ أَوَّلَ النَّهَارِ، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْجُمُعَةِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْنَا، فَصَلَّيْنَا وُحْدَانًا، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالطَّائِفِ، فَلَمَّا قَدِمَ ذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: أَصَابَ السُّنَّةَ».

وخطبة الجمعة واجبة، ودليل ذلك، أنّها تحرم البيع، ولولا وجوبها ما حرمته؛ لأن المستحب لا يحرم المباح. قال القرطبي: ما كان من ذكر الرسول ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين، والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله، فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم، وهم بعكس ذلك فهو من ذكر الشيطان، وهو من ذكر الله على مراحل.

قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا أمر إباحة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾؛ لأنه أمر جاء بعد حظر لشيء مباح.

قوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: من طلب دين أو دنيا.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: لا تنشغلوا وتنهمكوا بالدنيا وتلهوا عن ذكر الله، لا سيما إذا كنتم في السوق. وقد جاء عند الترمذي وغيره بسند حسن عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَال: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ».

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه: «بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ -وَفِي رِوَايَةٍ: الْجُمُعَةَ- إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنَ الشَّامِ- (تَحْمِلُ طَعَامًا)، فَالْتَفَتُوا إِلَيْهَا، حَتَّى مَا بَقِيَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ». وقد اختلف العلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة، فقيل: اثنان، وقيل: ثلاثة، وقيل: أربعة، وقيل: اثنا عشر، وقيل: بأربعين رجلًا، وهو قول الشافعي، وقيل غير ذلك. قال مالك: إذا كانت قرية فيها سوق ومسجد فعليهم الجمعة من غير اعتبار عدد. وكتب عمر بن عبد العزيز: أي قرية اجتمع فيها ثلاثون بيتًا فعليهم الجمعة. وقد جاء عند البخاري وقد سبق: «إِنَّ أَوَّلَ جُمُعَةٍ جُمِّعَتْ -بَعْدَ جُمُعَةٍ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَسْجِدِ عَبْدِ الْقَيْسِ بِجُوَاثَى مِنَ الْبَحْرَيْنِ». والصواب: أنّها لا يشترط عدد معين، فمتى وجد جماعة مستوطنون، في قرية أو مدينة، سواء، كانوا ثلاثة، أو أكثر، أقيمت فيهم

الجمعة.

قوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ دليل على أن قيام الخطيب على المنبر، شرط في الخطبة، وعلى هذا جمهور الفقهاء، خلافًا لأبي حنيفة. وقد جاء عند مسلم من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه: «أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أُمِّ الْحَكَمِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْخَبِيثِ! يَخْطُبُ قَاعِدًا! وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾».

وعند مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ قَائِمًا، ثُمَّ يَجْلِسُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ قَائِمًا، فَمَنْ نَبَّأَكَ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ جَالِسًا فَقَدْ كَذَبَ؛ فَقَدْ وَاللهِ صَلَّيْتُ مَعَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَيْ صَلَاةٍ».

وعند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ خُطْبَتَيْنِ، يَقْعُدُ بَيْنَهُمَا. وفي رواية: كَمَا تَفْعَلُونَ الْآنَ».

والخطبة شرط في انعقاد الجمعة، لا تصح إلا بها، وهو قول الجمهور، وقيل: هي مستحبة، والصواب: الأول؛ لذم من ذهب وترك الرسول ﷺ قائمًا، ولأن الرسول ﷺ لم يصلها إلا بخطبة.

ويستحب أن يخطب الخطيب متوكئًا على قوس أو عصا؛ لما جاء عند أبي داود بسند حسن من حديث الحكم بن حزن رضي الله عنه قال: «شَهِدْنَا الْجُمُعَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا-أَوْ: قَوْسٍ...». الحديث.

وعند أبي داود بسند لا بأس به عن البراء رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نُووِلَ يَوْمَ الْعِيدِ قَوْسًا، فَخَطَبَ عَلَيْهِ».

ويسلِّم إذا صعد المنبر؛ لحديث جابر رضي الله عنه عند ابن ماجه بسند لا بأس به: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ سَلَّمَ».

وليس يشترط في الخطبة شروط محددة من وضوء أو ذكر معين، فما تناوله اسم الخطبة أجزأ، وقد جاء عند الشيخين من حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمِنْبَرِ: (وَنَادَوا يَا مَالِ)». وفي حديث أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها قالت: «لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحِدًا سَنَتَيْنِ، أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ. وَمَا أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ».

ويجب السكوت للخطبة على من سمعها، ومن تكلم حينئذ فقد لغا، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ»، وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا»، ولكن الصحيح صحة صلاته، ولكن مع نقص الأجر وحصول الإثم.

ومن دخل والإمام يخطب ركع ركعتين؛ لحديث جابر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عند الشيخين قال: «جَاءَ رَجُلٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: أَصَلَّيْتَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ أَوْ قَدْ خَرَجَ فَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ»، ولمسلم في رواية: «وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا».

وكان السلف يكرهون النوم والإمام يخطب، ويقولون فيه قولًا شديدًا، وقد جاء عند أبي داود، والترمذي، وابن خزيمة عن ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

انتهى تفسير سورة الجمعة، ولله الحمد.

  

سورة المنافقون

وهي مدنية.

جاء عند الشيخين من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «كُنْتُ مَعَ عَمِّي -وَفِي رِوَايَةٍ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ (وَفِي رِوَايَةٍ: غَزَاةٍ) أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ- فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا -وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ حَوْلِهِ-، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ (لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي) لِلنَّبِيِّ ﷺ، (فَدَعَانِي)، (وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَامَنِي الْأَنْصَارُ)، فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ (وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، وَكَذَّبَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَصَدَّقَهُمْ)، فَأَصَابَنِي غَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، (وَقَالَ عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَقَتَكَ). فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى قَوْلِهِ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾)، (وَأَرْسَلَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَهَا، وَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ)».

وجاء عند الترمذي بسند جيد قال: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا إِلَيْهِ، فَسَبَقَ أَعْرَابِيٌّ أَصْحَابَهُ، فَيَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ. قَالَ: فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَعْرَابِيًّا فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَانْتَزَعَ قِبَاضَ الْمَاءِ، فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَغَضِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا، يَعْنِي الْأَعْرَابَ، وَكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَأْتُوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ، فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: لَئِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. قَالَ زَيْدٌ: وَأَنَا رِدْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ، فَأَخْبَرْتُ عَمِّي، فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ، قَالَ: فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، قَالَ: فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ، فَقَالَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ مَقَتَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَكَ وَالْمُسْلِمُونَ. قَالَ: فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ. قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ، إِذْ أَتَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، إِلَّا أَنَّهُ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي. فَقَالَ: أَبْشِرْ، ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ، فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

قوله: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحلف، وعبّر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب، ويحتمل على ظاهره، وأنّهم يشهدون أن محمدًا رسول الله ﷺ، اعترافًا بالإيمان، ونفيًا للنفاق عن أنفسهم، وهذا القول هو الصواب.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: سترة، فاغترِ بهم غيرهم، فصدوهم عن سبيل الله، وليس يرجع إلى قوله: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وإنما يرجع إلى سبب نزول الآية. قال الشافعي: إذا قال: أشهد بالله، ونوى اليمين كان يمينًا.

قوله: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم، وكان عبد الله بن أبي وسيمًا جسيمًا صبيحًا ذلق اللسان.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وقرئت: (خُشْبٌ). جاء عند الشيخين، قال زيد بن أرقم ﵁: «كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ». وقد شُبهوا بالخشب، واحدتُها: خَشَبة، وذكر اليزيدي أنه جمع الخشباء، كقوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، واحدتُها: غلباء، وقيل: جمع خشاب، نحو: ثمرة، ثمار. فهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام، فهم كالخشب المسندة إلى الحائط، لا تسمع ولا تعقل، أو كالخشب التي قد تآكلت، فهي مسندة بغيرها، لا يعلم ما في بطنها.

قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كل أهل صيحة عليهم، وفطن بهم وعلم بنفاقهم، وكل هذا لريبهم ولجبنهم وخورهم، قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾. فهم أبدًا وجلون من أن ينزل فيهم أمر يبيح دماءهم ويهتك أسرارهم.

قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ أي: لا تثق بقولهم، ولاتمل إلى كلامهم، واحذرممايلتهم لأعدائك، وتخذيلهم لأصحابك.

قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لعنهم، وهي كلمة ذم وتوبيخ، وقد تقول العرب: قاتله الله، ما أشعره! فيضعونه موضع التعجب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ وقرئت: (لَوَوْا) أي: حركوا رؤوسهم، رفعًا وخفضًا، على وجه السخرية والاستهزاء. وقد جاء عند ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير مرسلًا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا لَمْ يَرْتَحِلْ حَتَّى يُصَلِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ بَلَغَهُ أَنَّ عبدَ الله ابن أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ قَالَ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فَارْتَحَلَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ آخِرَ النَّهَارِ، وَقِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ: ائْتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ لَكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَ هَذِهِ الآيَةَ». قال ابن كثير: إسناده صحيح إلى سعيد بن جبير. قال ابن كثير: قوله: في غزوة تبوك، فيه نظر، وليس جيدًا؛ لأن عبد الله بن أبي لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفة من الجيش، وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق. فإن قيل: كيف أخبر عن عبد الله بن أُبي بفعل الجماعة؟ قيل: العرب تفعل هذا إذا كنّت عن الإنسان.

وقد جاء عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه قال: «كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ (لَعَّابٌ)، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ (غَضَبًا شَدِيدًا) حَتَّى تَدَاعَوْا-، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصارِ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ. فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا؟! أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعْهُ؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ. وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ».

قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهذا من أهل التوحيد، وأما الكفار فقد جاء فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ

ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ نصب على جواب التمني بالفاء.

قوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالجزم عطفًا على موضع الفاء، وقرئت: (وأكون) عطفًا على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾.

وجاء عند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أحدٍ، يَدخلُ الجنة، يُحبُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّ لَهُ ما علَى الأرضِ من شَيءٍ، غَيرُ الشَّهِيد؛ فإنه يتَمنى، أَنْ يَرْجِعَ، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى من الكرَامةِ».

انتهى تفسير سورة المنافقون، ولله الحمد.

  

سورة التغابن

وهي مدنية، وهو الأصح، وقيل: مكية، وقيل: مكية ومدنية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٦
زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ
بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ٩﴾

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ جاء عند الترمذي بسند جيد عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى، فَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا... ». وقد سبق حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الشيخين فيمن يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، ومن يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وكذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ». وكذا حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما عند الشيخين، وفيه: «...إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

والمعنى: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق الكفر، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه. قال الشاعر:

يَـا نَـاظِرًا فِـي الـدِّينِ مَـا الْأَمْـرُ ... لَا قَـدَرٌ صَـحَّ وَلَا جَبْـرُ

والقدر سر الله في خلقه ما دام في الدنيا، فإذا ماتوا انكشف هذا السر، ولم يطلع الله عليه أحدًا، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فهو العالم به وحده.

قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

قوله: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي: عنهم؛ لأنه الغني الذي كمل غناه، كما قال سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ أي: ظنوا. قال شريح: لكل شيء كنية، وكُنية الكذب: زعموا.

قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: يوم يجمع الأولين والآخرين، والإنس والجن، وأهل السماء وأهل الأرض، كل عبد وعمله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي: يوم القيامة. قال الشاعر:

وَمَا أَرْتَجِي بِالْعَيْشِ فِي دَارِ فُرْقَةٍ ... أَلَا إِنَّمَا الرَّاحَاتُ يَوْمَ التَّغَابُنِ

وسمي بهذا الاسم لأنه غَبَن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار، فأخذ أهل الجنة الجنة، وأخذ أهل النار النار، فوقع الغبن؛ لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ».

أي: إنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، ولا يقومون بواجبهما، ومن لم يقم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

يقال: غبنت فلانًا، إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة لك، ويقال: غَبَنت الثوب وخبنته، إذا طال عن مقدارك فخطت منه شيئًا، فهو نقصان، والمَغَابِن: ما انثنى من الحِلَق نحو الإبطين والفخذين. فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره

في الإحسان وتضييعه الأيام.

قال بعض السلف: التغابن في ثلاثة أصناف: رجل علم علمًا فعلَّمه وضيعه هو ولم يعمل به فشقي به، وعمل به من تعلمه منه فنجا به، ورجل اكتسب مالًا من وجوه يسأل عنها وشح عليه، وفرط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيرًا، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه، ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد، وعمل السيد بمعصية وبه فشقي.

وقد قال بعض الفقهاء: لا يجوز الغبن في المعاملة الدنيوية، وكل من اطلع على غبن كثير في مبيع، فإنه مردود، وهو من باب الخداع المحرم شرعًا في كل ملة، لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه لأحد، فمضى في البيوع، إذ لو حكمنا برده، ما نفذ بيع أبدًا؛ لأنه لا يخلو منه، والفرق بين القليل والكثير، أصل في الشريعة معلوم. وقد قدر المالكية الثلث لهذا الحد.

وأما الفرق بين تغابن الدنيا وتغابن الآخرة أن تغابن الدنيا يستدرك، إما برد أو بربح في بيع آخر أو سلعة أخرى، وأما تغابن الآخرة فلا درك له أبدًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ أي: للصبر والرضا والثبات على الإيمان، ويجعل في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقد جاء عند مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: « وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ، قَالَ: هَؤُلَاءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَاتُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدَعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَقِهُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ

أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾». وليس العدو هنا بذاته، وإنما بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوًا. والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. و ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، لأنّهم كلهم ليسوا بأعداء.

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: بلاء واختبار، لا يخلوان من اشتغال القلب بهما، ولذلك لم يذكر الله سبحانه (مِن) في هذه الآية، فهم يحملونكم على كسب المحرم ومنع حق الله تعالى، فلا تطيعوهم في معصية الله، فكم من رجل أكل عياله حسناته، قال بعض السلف: العيال سُوس الطاعات. وقد جاء عند أبي داود، والترمذي بسند لا بأس به عن بريدة رضي الله عنه قال: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رضي الله عنهما عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ، يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَنَزَلَ فَأَخَذَهُمَا، فَصَعِدَ بِهِمَا، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ. ثُمَّ أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ». وعند ابن ماجه بسند لا بأس به، والبزار بسند جيد من حديث يعلى العامري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ، مَجهلةٌ، مجْبَنَةٌ»، وفي رواية: «مَحْزَنَةٌ».

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: جهدكم وطاقتكم، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ».

انتهى تفسير سورة التغابن، ولله الحمد.

  

سورة الطلاق

وهي مدنية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ١ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ٣ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ٥﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خوطب النبي ﷺ بلفظ الجماعة تعظيمًا وتفخيمًا، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث عمر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ رضي الله عنها، ثُمَّ رَاجَعَهَا».

قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ في عدتهن، أي: في الزمان الذي يصلح لعدتهن، وقيل: في قُبل أو لقبل عدتهن، أي: في إقباله وأوله حين يمكنه الدخول في العدة والشروع فيها، فتكون لها محسوبة، وذلك حالة الطهر، وهذا القول هو الصواب، وقيل: قبل العدة آخر الطهر، حتى يكون القُرْء الحيض. جاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: «أَنَّهَا طُلِّقَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُطَلَّقَةِ عِدَّةٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ طُلِّقَتْ أَسْمَاءُ بِالْعِدَّةِ لِلطَّلَاقِ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ أُنْزِلَتْ فِيهَا الْعِدَّةُ لِلْمُطَلَّقَاتِ».

وأما الزوجات غير المدخول بهن خرجن بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، ولذا فمن طلق في طهر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السنة، وإن طلقها حائضًا نفذ طلاقه على قول وأخطأ السنة. وقيل: لم ينفذ طلاقه؛ لأن طلاقه محرم ومُحدث ومخالف للسنة، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»، وعند مسلم في رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وهو مذهب سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين، وطلاق السنة كما فسره حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقد جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «طَلَّقْتُ امْرَأَتِي وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى

عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَرَدَّهَا عَلَيَّ وَلَمْ يَرَهَا شَيْئًا، وَقَالَ: إِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ لِيُمْسِكْ. وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ».

وعند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا طَلَّقَ امْرَأَةً لَهُ وَهِيَ حَائِضٌ تَطْلِيقَةً وَاحِدَةً -وَفِي رِوَايَةٍ: فَذَكَرَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُرَاجِعَهَا، ثُمَّ يُمْسِكَهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ عِنْدَهُ حَيْضَةً أُخْرَى، ثُمَّ يُمْهِلَهَا حَتَّى تَطْهُرَ مِنْ حَيْضِهَا، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا حِينَ تَطْهُرُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُجَامِعَهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ. وَكَانَ عَبْدُ اللهِ إِذَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ لِأَحَدِهِمْ: إِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهَا ثَلَاثًا فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْكَ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَكَ. وَفِي رِوَايَةٍ (مُعَلَّقَةٍ): لَوْ طَلَّقْتَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَنِي بِهَذَا. وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ يُونُسَ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ، فَقَالَ: طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَسَأَلَ عُمَرُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُرَاجِعَهَا، ثُمَّ يُطَلِّقَ مِنْ قُبُلِ عِدَّتِهَا. قُلْتُ: فَتَعْتَدُّ بِتِلْكَ التَّطْلِيقَةِ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ عَجَزَ وَاسْتَحْمَقَ!. وَفِي رِوَايَةٍ: حُسِبَتْ عَلَيَّ بِتَطْلِيقَةٍ».

وعند أبي داود بسند لا بأس به عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «طَلَّقَ عَبْدُ يَزِيدَ -أَبُو رُكَانَةَ وَإِخْوَتِهِ- أُمَّ رُكَانَةَ، وَنَكَحَ امْرَأَةً مِنْ مُزَيْنَةَ، فَجَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: مَا يُغْنِي عَنِّي إِلَّا كَمَا تُغْنِي هَذِهِ الشَّعْرَةُ -لِشَعْرَةٍ أَخَذَتْهَا مِنْ رَأْسِهَا-؛ فَفَرِّقْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ. فَأَخَذَتِ النَّبِيَّ ﷺ حَمِيَّةٌ، فَدَعَا بِرُكَانَةَ وَإِخْوَتِهِ، ثُمَّ قَالَ لِجُلَسَائِهِ: أَتَرَوْنَ فُلَانًا يُشْبِهُ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا؟ -مِنْ عَبْدِ يَزِيدَ- وَفُلَانًا يُشْبِهُ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبْدِ يَزِيدَ: طَلِّقْهَا! فَفَعَلَ. ثُمَّ قَالَ: رَاجِعِ امْرَأَتَكَ أُمَّ رُكَانَةَ وَإِخْوَتِهِ. فَقَالَ: إِنِّي طَلَّقْتُهَا ثَلَاثًا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ، رَاجِعْهَا. وَتَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾».

وعند الدارقطني من حديث عبد الرزاق، أخبرني عمي وهب بن نافع قال: سمعت عكرمة يحدث عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: الطلاق على أربعة وجوه، وجهان حلالان، ووجهان حرامان، فأما الحلال فأن يطلقها طاهرًا عن غير جماع، وأن يطلقها حاملًا مُستبينًا حملُها، وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض، أو يطلقها حين يجامعها، لا تدري اشتمل الرحم على ولد أم لا.

قوله: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق، حتى إذا انفصل المشروط منه -وهو الثلاثة قروء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾- حلت للأزواج، وللزوج أن يراجعها فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدة، وهذا يدل على أن العدة هي الأطهار، وليست بالحيض، ويؤكده ويفسره قراءة النبي ﷺ: «لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ»، وقُبُل الشيء: بعضه، لغة وحقيقة، بخلاف استقباله، فإن يكون غيره.

قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة،

ولا يجوز لها الخروج لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثمت، ولا تنقطع العدة، والرجعية والمبتوتة في هذا سواء على قول، وقيل: هذا في حق الرجعية دون المبتوتة، كما سيتبين بعد قليل من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، وهو الصواب، وإلى هذا القول ذهب طائفة من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد، وقالوا: لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها. وعدم إخراجها لصيانة ماء الرجل، وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، كقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، فهو إضافة إسكان، وليس إضافة تمليك.

وقد جاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: «طُلِّقَتْ خَالَتِي، فَأَرَادَتْ أَنْ تَجُدَّ نَخْلَهَا، فَزَجَرَهَا رَجُلٌ أَنْ تَخْرُجَ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: بَلَى فَجُدِّي نَخْلَكِ؛ فَإِنَّكِ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا». وهذا من المتعارف عليه، وهو خروج المعتدة بالنهار في حوائجها، بخلاف الليل، وقد جاء عند مسلم من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! زَوْجِي طَلَّقَنِي ثَلَاثًا، وَأَخَافُ أَنْ يُقْتَحَمَ عَلَيَّ؟ فَأَمَرَهَا فَتَحَوَّلَتْ. وفي رواية: أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصٍ طَلَّقَهَا الْبَتَّةَ وَفِي رِوَايَةٍ: آخِرَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ، فَزَعَمَتْ أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَسْتَفْتِيهِ فِي خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا، فَأَمَرَهَا أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى رضي الله عنه. وفي رواية: أَنَّ زَوْجَهَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، فَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سُكْنَى وَلَا نَفَقَةً. وفي رواية: قَالَ مَرْوَانُ: لَمْ نَسْمَعْ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَّا مِنِ امْرَأَةٍ؛ سَنَأْخُذُ بِالعِصْمَةِ الَّتِي وَجَدْنَا النَّاسَ عَلَيْهَا. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ -حِينَ بَلَغَها قَوْلُ مَرْوَانَ-: فَبَيْنِي وَبَيْنَكُم الْقُرْآنُ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ الْآيَةَ. قَالَتْ: هَذَا لِمَنْ كَانَتْ لَهُ مُرَاجَعَةٌ، فَأَيُّ أَمْرٍ يَحْدُثُ بَعْدَ الثَّلَاثِ؟ فَكَيْفَ تَقُولُونَ: لَا نَفَقَةَ لها إِذَا لَمْ تَكُنْ حَامِلًا؟ فَعَلَامَ تَحْبِسُونَهَا؟».

وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا لِفَاطِمَةَ (أَلَا تَتَّقِي اللهَ؟!) -، أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ لَهَا خَيْرٌ فِي ذِكْرِ هَذَا الْحَدِيثِ. وَفِي رِوَايَةٍ: يَعْنِي فِي قَوْلِهَا: لَا سُكْنَى ولَا نَفَقَةَ». وفي رواية معلقة عند البخاري: «عَابَتْ عَائِشَةُ أَشَدَّ الْعَيْبِ، وَقَالَتْ: إِنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ فِي مَكَانٍ وَحْشٍ، فَخِيفَ عَلَى نَاحِيَتِهَا؛ فَلِذَلِكَ أَرْخَصَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ». وقال عمر رضي الله عنه فيما رواه مسلم: «لَا نَتْرُكُ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا نَدْرِي لَعَلَّهَا حَفِظَتْ أَوْ نَسِيَتْ، لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾».

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: الزنا، فتخرج، ويقام عليها الحد، وقيل: البذاء على أحمائها والاستطالة عليهم، وقيل: كل معصية، كالزنا، والسرقة، والبذاء على الأهل، أو الخروج، أو النشوز على الأهل وأذيتهم. ولعل هذا أقرب الأقوال.

قوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ فيقلب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة

عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم، فيراجعها، ومن هنا جاء التحريض على طلاق الواحدة، والنهي عن الثلاث.

قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾.

قوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ﴾ أي: على الطلاق، أو على الرجعة، وقد جاء عند أبي داود، وابن ماجه بسند جيد عن عمران بن حصين ﵄: «أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ ثُمَّ يَقَعُ بِهَا، وَلَمْ يُشْهِدْ عَلَى طَلَاقِهَا، وَلَا عَلَى رَجْعَتِهَا، فَقَالَ: طَلَّقْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ، وَرَاجَعْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ، أَشْهِدْ عَلَى طَلَاقِهَا وَعَلَى رَجْعَتِهَا، وَلَا تَعُدْ». وعلى هذا فالإشهاد مستحب ومندوب إليه، حتى لا يقع بينهما التجاحد، ولا يُتهم في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدّعي الباقي ثبوت الزوجية فيرث.

وقد أوجب الإشهاد في الرجعة أحمد بن حنبل في أحد قوليه، والشافعي كذلك؛ لظاهر الأمر، وقال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، والشافعي في القول الآخر: إن الرجعة لا تفتقر إلى القبول، فلم تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، وخصوصًا حل الظِّهار بالكفارة، وذهب مالك إلى أنه إذا جامع أو قبّل أو باشر يريد بذلك الرجعة فهو مراجع، وإن لم يرد ذلك فليس بمراجع. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا قبّل أو باشر أو لامس بشهوة أو نظر إلى الفرج فهو رجعة، والأظهر أنه إذا تكلم بالرجعة أو وطئها صارت مراجعة على كل حال، نواها أو لم ينوها، وإذا ادّعى الزوج بعد انقضاء العدة أنه راجع امرأته في العدة فإن صدّقته جاز، وإن أنكرت حلفت، فإن أقام بينة أنه ارتجعها في العدة ولم تعلم بذلك لم يضره جهلها بذلك، وكانت زوجته، وإن كانت قد تزوجت ولم يدخل بِها، ثم أقام الأول البينة على رجعتها، فقيل: الأول أحق بِها، وقيل: الثاني، والصواب: القول الأول، فإن كان الثاني قد دخل بِها فلا سبيل للأول إليها، ويتحمل تفريطه وعدم إظهار وإعلان مراجعته لها.

قوله: ﴿ذَوَىۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ من الذكور، لا من النساء.

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي: تقربًا إلى الله في إقامة الشهادة على وجهها إذا مسّت الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير.

قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ أي: من كل شدة وضيق في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يرجو ولا يدري ولا يأمل، وقد جاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ». وبالمقابل جاء عند أحمد، وابن حبان بسند جيد عن ثوبان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كفاه ما أهمه، فأعطاه ما يرجو، وأمّنه مما يخاف، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يومًا، فَقَالَ: يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». وَفِي رِوَايَةٍ عند أحمد بسند جيد: «تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ... وَفِيْهَا: وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا». وعند أحمد بسند لا بأس به عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَزَلَ بِهِ حَاجَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ كَانَ قَمِنًا مِنْ أَنْ لا تَسْهُلَ حَاجَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللهِ آتَاهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ بِمَوْتٍ آجِلٍ».

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ وقرئت: (بالغٌ)، أي: قاض أمره فيمن توكل عليه، وفيمن لم يتوكل عليه.

قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي: لكل شيء من الشدة والرخاء أجلا وتقديرا ينتهي إليه، قال الربيع بن خثيم: إن الله تعالى قضى على نفسه، أن من توكل عليه كفاه، ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وثق به نَجّاه، ومن دعاه أجابه، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: التي انقطع عنها الحيض لكبرها.

قوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ أي: إن شككتم في كونه حيضًا أو استحاضة، وارتبتم فيه، وقيل: تيقنتم، وهو من الأضداد، وقيل: إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه، فهو ثلاثة أشهر، وهذا هو الأظهر، والمرتابة في عدتِها لا تنكح حتى تستبرئ نفسها من ريبتها، ولا تخرج من العدة إلا بارتفاع الريبة، فإن طُلقت المرأة الشابة وغيرها فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفع عنها بغير يأس منها استؤنى بها، هل هي حامل أم لا، فإن استبان حملها فإن أجلها وضعه، وإن لم يستبن فعدتُها سنة، وبه قال مالك، وأحمد، وإسحاق، وكذا من تأخر حيضها؛ لمرض أو لغير مرض، وكذا التي جُهل حيضها بالاستحاضة، لكن إذا علمت إقبال حيضتها أو إدبارها اعتدت ثلاثة قروء.

قوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي: لصغر سنهن، فهذان الصنفان، عدتُهن كما قال تعالى: ﴿ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾.

قوله: ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: ومن كانت حاملًا فعدتُها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت، وهذا في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، وهو نص الآية الكريمة. وقد

جاء عند مسلم، وعند البخاري معلقًا من حديث سبيعة بنت الحارث الأسلمية رَضِوَاللَّهُعَنهَا: «أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ -رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ- فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ، تُرَجِّينَ النِّكَاحَ؟ فَإِنَّكِ وَاللهِ! مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، وَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي. وَفِي رِوَايَةٍ مَوْصُولَةٍ: أَفْتَانِي إِذَا وَضَعْتُ أَنْ أَنْكِحَ». قال ابن شهاب: فلا أرى بأسًا أن تتزوج حين وضعت، وإن كانت في دمها غير أن لا يقربها زوجها حتى تطهر.

وفي حديث أبي سلمة رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِوَاللَّهُعَنهُمَا، وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِوَاللَّهُعَنهُ جَالِسٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا (بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً)! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخِرُ الْأَجَلَيْنِ. قُلْتُ أَنَا: (﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾). قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي. -يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ- فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلَامَهُ كُرَيْبًا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا، فَقَالَتْ: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ (بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً)، فَخُطِبَتْ، فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، (وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيمَنْ خَطَبَهَا)». وفي حديث ابن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنهُ عند البخاري قال: «أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ وَلَا تَجْعَلُونَ لَهَا الرُّخْصَةَ؟! لَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ الْقُصْرَى بَعْدَ الطُّولَى».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴿١٢﴾﴾

قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أي: المطلقات طلاقًا رجعيًا، أو كنّ حوامل،

قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وقد اختلف العلماء في المطلقة ثلاثًا، فقيل: لها السّكنى ولا نفقة لها،

وهو مذهب مالك والشافعي، وقيل: لها السكنى والنفقة، وهو قول عمر ﵁، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وقيل: لا نفقة لها ولا سكنى، وهو اختيار أحمد، وإسحاق، وأبي ثور، وهو الصواب كما قدمنا؛ لحديث فاطمة بنت قيس ﵂ كما عند مسلم.

قوله: ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ من وسعكم وسعتكم، يقال: وجدتْ في المال أجِد وُجُودًا، ووَجْدًا، ووجدًا، وجِدَةً، والوِجْد: الغنى والمقدرة.

قوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ أي: يضاجرها لتفتدي منه بمالها، أو تخرج من مسكنه، وقيل: يطلقها، فإذا بقي يومان من عدتِها راجعها، ثم طلقها، والمعنى عام، وهو النهي عن المضارة بأي شكل من أشكالها، وكذا النهي عن التضييق، سواء كان في السكن، أو في النفقة أو غير ذلك، والمطلوب: التعامل بالمعروف.

قوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ لا خلاف بين العلماء، في وجوب النفقة والسكنى، للحامل المطلقة ثلاثًا، أو دون ذلك، حتى تضع حملها، فأما الحامل المتوفى عنها زوجها، فينفق عليها من جميع المال حتى تضع، وقيل: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، والحق: القول الأول.

قوله: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾ أي: المطلقات ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أجر مثلها، ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ أي: وليقبل بعضكم يا أيها الأزواج والزوجات من بعض، ما أمره الله به، من المعروف بالجميل، والجميل منها: إرضاع الولد من غير أجرة، والجميل منه: توفير الأجرة عليها للإرضاع، والمقصود: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾.

قوله: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ أي: في أجرة الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي الأم رضاعها، وأبت الأم أن ترضعه، أو اختلفوا في القيمة ولم يصلوا إلى نتيجة فليس له إكراهها.

قوله: ﴿فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ أي: أجنبية غير أمه، لكن إن لم يقبل، أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر.

قوله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه، حتى يوسّع عليهما إذا كان موسَّعًا عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾.

قوله: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ وهذه الآية أصل في وجوب النفقة للأولاد على الوالد دون الأم، وقد جاء عند الشيخين عن عائشة ﵂ قالت: قالت هند ﵂ أم معاوية لرسول الله ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل علي جناح أن آخذ من

ماله سرًا؟ قال: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَولدِكِ بِالْمَعْرُوفِ».

قوله: ﴿عَتَتۡ﴾ أي: عصت، يعني أهل القرية.

قوله: ﴿عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي: منكرًا، بخسف، وجوع، وقحط وسائر المصائب.

قوله: ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أي: عاقبة كفرها.

قوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ أي: هلاكًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، وجيء بلفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ ونحو ذلك؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقي في الحقيقة، وما هو كائن فكأن قد.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل من ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أو نعت لهم.

قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنزل قرآنًا، وأرسل رسولًا، وقيل: بدل من ﴿ذِكۡرٗا﴾، على أن يكون ﴿رَّسُولٗا﴾ بمعنى رسالة، أو على أن يكون على بابه، ويكون محمولًا على المعنى، كأنه قال: قد أظهر الله لكم ذكرًا رسولًا، فيكون من باب بدل الشيء من الشيء، وهذا الأظهر، ويجوز أن ينتصب ﴿رَّسُولٗا﴾ على الإغراء، والتقدير: اتبعوا رسولًا، والذكر: الشرف، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾، ثم بيّن هذا الشرف، فقال: ﴿رَّسُولٗا﴾، وهو محمد ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، والأظهر: القول الأول.

قوله: ﴿مُبَيِّنَٰتٖ﴾ وقرئت: (مبيَّنات)، واختاره أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، والقراءة الأولى على معنى: يبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ يعني سبعًا طباقًا، بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة، كما بين السماء والسماء، وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقيل: هي سبع أرضين، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق، بخلاف السماوات، والأظهر: القول الثاني. وقد جاء عند الشيخين من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ»، وعند ابن حبان بسند صحيح من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ» وقد سبق عند تفسير آية الكرسي، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه، لكنه غريب مردود، وهو عند البيهقي قال: «فِي كُلِّ أَرْضٍ نَحْوُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام» قال البيهقي: إسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما صحيح، ولا يلزم أن يكون في غير هذه الأرض

من الأرضين خلق مميز، ودعوة الإسلام إنما هي مختصة بأهل الأرض العليا.

قوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يتنزل القضاء والقدر، من السماوات السبع إلى الأرضين السبع، أو ما بين الأرض السفلى والسماء السابعة.

انتهى تفسير سورة الطلاق، ولله الحمد.

  

سورة التحريم

وهي مدنية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أي: لم يُحرِّم عليك ما حرّمته، ولكن ضممت إلى التحريم يمينًا، فكفِّر عن اليمين. جاء عند الحافظ الضياء المقدسي بسند جيد عن عمر رضي الله عنه قال: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ: لَا تُحَدِّثِي أَحَدًا، وَإِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ. فَقَالَتْ: أَتُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ؟ قَالَ: فَوَاللهِ لَا أَقْرَبُهَا. قَالَ: فَلَمْ يَقْرَبْهَا نَفْسَهَا حَتَّى أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وَجل: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾».

وعند الشيخين عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قَالَ فِي الْحَرَامِ: يُكَفِّرُ»، وفي رواية عند البخاري: «إِذَا حَرَّمَ امْرَأَتَهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَقَالَ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾». ولفظ مسلم: «إِذَا حَرَّمَ الرَّجُلُ عَلَيهِ امْرَأَتَهُ فَهُوَ يَمِينٌ يُكَفِّرُهَا». ولهذه الآية سبب نزول آخر، وهو ما جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ! أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَدْ حَلَفْتُ)، (فَلَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا). فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إِلَى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ لِقَوْلِهِ: بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا».

وجاء من طريق آخر أيضًا متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَيُحِبُّ الْعَسَلَ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ أَجَازَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْهُنَّ، فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ، فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: أَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهَا عُكَّةَ عَسَلٍ، فَسَقَتْ رَسُولَ اللهِ

ﷺ مِنْهُ شَرْبَةً. فَقُلْتُ: أَمَا وَاللهِ لَنَحْتَالَنَّ لَهُ! فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِسَوْدَةَ، قُلْتُ: إِذَا دَخَلَ عَلَيْكِ فَإِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكِ، فَقُولِي لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ: لَا، فَقُولِي لَهُ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ -وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ- فَإِنَّهُ سَيَقُولُ: سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ، فَقُولِي لَهُ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ! وَسَأَقُولُ ذَلِكِ، وَقُولِيهِ أَنْتِ يَا صَفِيَّةُ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى سَوْدَةَ، قُلْتُ: تَقُولُ سَوْدَةُ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ! لَقَدْ كِدْتُ أَنْ أُبَادِرَهُ بِالَّذِي قُلْتِ لِي وَإِنَّهُ لَعَلَى الْبَابِ؛ فَرَقًا مِنْكِ، فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ قَالَ: سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ. قُلْتُ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ قُلْتُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَدَخَلَ عَلَى صَفِيَّةَ فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ قَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ؟ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ. قَالَتْ: تَقُولُ سَوْدَةُ: سُبْحَانَ اللهِ! لَقَدْ حَرَمْنَاهُ. قَالَتْ: قُلْتُ لَهَا: اسْكُتِي».

والمغافير: بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة فيها حلاوة، واحدها: مَغْفُور، وجرست: أكَلَت، والعرفط: نبت له ريح كريح الخمر.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللهُ لَهُمَا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ - فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ؛ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الْأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ. قَالَ: فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّى فَرَغَ، ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ! إِنْ كُنْتُ لَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا مُنْذُ سَنَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ هَيْبَةً لَكَ. قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، مَا ظَنَنْتَ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي، فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَّرْتُكَ بِهِ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: وَاللهِ! إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ-. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا. فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ وَلِمَا هَا هُنَا؟ وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ؟ فَقَالَتْ لِي: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَومَ حَتَّى اللَّيْلِ-، فَقَامَ عُمَرُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ! إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟ فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَاللهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ. فَقُلْتُ: تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللهِ وَغَضَبَ رَسُولِهِ ﷺ! يَا بُنَيَّةُ، لَا يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا. يُرِيدُ عَائِشَةَ -وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تَسْتَكْثِرِي النَّبِيَّ ﷺ، وَلَا تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ، وَلَا تَهْجُرِيهِ، وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكِ-. قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ لِقَرَابَتِي مِنْهَا، فَكَلَّمْتُهَا، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ:

عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى تَبْتَغِي أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ؟! فَأَخَذَتْنِي وَاللهِ أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ، فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا، وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الْأَنْصَارِ -وَفِي رِوَايَةٍ: نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا-، إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ، فَقَالَ: افْتَحْ، افْتَحْ! فَقُلْتُ: جَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟ فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ: اعْتَزَلَ -وَفِي رِوَايَةٍ: طَلَّقَ- رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ! فَقُلْتُ: رَغَمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ! فَأَخَذْتُ ثَوْبِي، فَأَخْرُجُ، حَتَّى جِئْتُ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِذَا الْبُكَاءُ مِنْ حُجَرِهِنَّ كُلِّهَا-، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ يَرْقَى عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، قُلْتُ: (مَا يُبْكِيكِ؟ أَوَلَمْ أَكُنْ حَذَّرْتُكِ؟) أَطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَت: لَا أَدْرِي! هُوَ ذَا فِي الْمَشْرُبَةِ. فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ الْمِنْبَرَ، فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ الْمَشْرُبَةَ-، وَغُلَامٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَسْوَدُ عَلَى رَأْسِ الدَّرَجَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. فَأَذِنَ لِي =وَفِي رِوَايَةٍ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَرَفَعَ إِلَيَّ بَصَرَهُ فَقَالَ: لَا -وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَكِنْ آلَيْتُ مِنْهُنَّ شَهْرًا-. فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ! ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: أَسْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ رَأَيْتَنِي وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ إِذَا قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ. فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ لَهَا: لَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ أَوْضَأَ مِنْكِ وَأَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ! -يُرِيدُ عَائِشَةَ-، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ تَبَسُّمَةً أُخْرَى، فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ=، قَالَ عُمَرُ: فَقَصَصْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ هَذَا الْحَدِيثَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ! فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ. وَكَانَ مُتَّكِئًا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَلَسَ- فَقَالَ: أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! اسْتَغْفِرْ لِي».

ولمسلم في رواية: «لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى، وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ! وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَقُلْتُ: لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ! أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ، فَقُلْتُ لَهَا: يَا حَفْصَةُ! أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يُحِبُّكِ، وَلَوْلَا أَنَا

لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ. وَفِيهَا: ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ: يَا رَبَاحُ! اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ، وَاللهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا. فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنِ ارْقَهْ. وَفِيهَا: وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ، فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مَعَكَ، وَمَلَائِكَتَهُ، وَجِبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَأَنَا، وَأَبُو بَكْرٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ.. وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ -وَأَحْمَدُ اللهَ- بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ؛ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنْ شِئْتَ. فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ، وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا، ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَنَزَلْتُ، فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ، فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ». والجمع بين ما سبق أن يقال: نزلت في الجميع، وهنالك نظائر لذلك.

قوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ أي: طلبًا لرضاهن، وهي معاتبة على ترك الأولى، ولم تكن صغيرة فضلًا عن كونها كبيرة.

قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ تحليل اليمين: كفارتُها، قال تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾. وقد اختلف العلماء في الرجل يقول لزوجته: أنت عليّ حرام، على أقوال، منها: لا شيء، كالذي يحرم الماء والطعام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، وما لم يحرمه الله فليس لأحد أن يحرمه، ولا أن يصير بتحريمه حرامًا. ومنها: تكون يمينًا يكفرها، كما هو ظاهر الآية، وتأويل ابن عباس رضي الله عنهما كما سبق، حيث لزمت رسول الله ﷺ الكفارة، قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، فسماه يمينًا. ومنها: تجب فيها الكفارة، وليست بيمين، ومنها: أنّها ظهار فيها كفارة الظهار، قاله أحمد، وإسحاق. ومنها: أنه إذا نوى الظهار كان ظهارًا، وإن نوى تحريم عينها عليه بغير طلاق تحريمًا مطلقًا وجبت يمين، وإن نوى طلاقًا صار طلاقًا، وإن لم ينو شيئًا فعليه كفارة يمين، وهذا هو الصواب. ومنها: إن

نوى ثلاثًا فثلاثًا، وإن واحدة فواحدة، وإن نوى يمينًا فهي يمين، وإن لم ينو شيئًا فلا شيء عليه، وهذا القول له وجاهة. والسبب في هذا الاختلاف عدم وجود نص ظاهر صريح صحيح يعتمد عليه في هذه المسألة، وهذا في الزوجة، أما الأَمَة فلا يلزم فيها شيء من ذلك، إلا أن ينوي به العتق عند مالك، وذهب عامة العلماء إلى أن عليه كفارة يمين، وهو الأَوْلى.

قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ تحريم مارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين أسر إلى حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ فأخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لمصافاة كانت بينهما، وكانتا متظاهرتين على نساء النبي ﷺ.

قوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلعه الله على أنّها قد نبأت به.

قوله: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي: عرّف حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعض ما أوحي إليه من أنّها أخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما نَهاها عن أن تخبرها، وأعرض عن بعض تكرمًا؛ لأن اتهام الناس ومجاهرتهم بسوء الظن فيهم يؤدي إلى إفسادهم. وقد قيل: ما استقصى كريم قط.

وقد قيل: كان هذا هو سبب طلاق الرسول ﷺ لحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حتى قال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما جاء عند الحاكم من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ تَطْلِيقَةً، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، طَلَّقْتَ حَفْصَةَ، وَهِيَ صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَهِيَ زَوْجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ! فَرَاجِعْهَا». حديث حسن.

قوله: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ ظانة أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخبرته بذلك، فقال: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: حفصة، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو حث لهن على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: زاغت ومالت عن الحق، وهو أنّهما أحبتا ما كره النبي ﷺ من اجتناب العسل، واجتناب جاريته، وكان رسول الله ﷺ يحب العسل، والنساء، والصَّغْوُ: الميل للشيء، ولم يقل: قلبكما؛ لأن من شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما لأنه لا يشكل، وقد قيل: كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به؛ لأنه أمكن وأخف.

قوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: تعاونا عليه بالإيذاء.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ جِهارًا غير سرٍّ يقول: «أَلاَ إِنَّ آلَ أَبِي لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» وفي رواية: «وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ، أَبُلُّهَا بِبَلاهَا».

قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: أعوان، مبتدأ وخبر، وهو بمعنى ظهراء، كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾، أي: رفقاء. قال أبو علي: قد جاء فعيل للكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۞ يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾.

قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ قد تقدم ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: «اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَيْرَةِ عَلَيهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ».

قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ أي: منهن ثيب، ومنهن بكر، وسميت الثيب ثيبًا، لأنّها راجعة إلى زوجها، إن أقام معها، أو إلى غيره إن فارقها، وقيل: لأنّها ثابت ورجعت إلى بيت أبويها، وهذا الظاهر، وأما البكر فسميت بذلك، لأنّها على أول حالتها، التي خلقت بها، والتنوع بين الثيبات والأبكار أشهى إلى النفس.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي: اعملوا على وقاية أنفسكم من النار بالأعمال الصالحة، واعملوا على وقاية أهليكم ومن تحت أيديكم من الأولاد وسائر القرابات من النار بالوصية والموعظة الحسنة والذكر والدعاء لهم، وجاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير. رواه الحاكم، وقال ابن حجر: رواته ثقات.

وعند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالإِمَامُ رَاعٍ، وَهو مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِه، وَهي مَسْئُولَةٌ عَنْهم، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَهو مَسْئُولٌ عَنْه، ألاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكلكم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وعند أحمد، وأبي داود بسند جيد عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ».

قال الفقهاء: وهكذا الصوم ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية. وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾. وقد جاء عند مالك بسند صحيح: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَيْقَظَ أَهْلَهُ لِلصَّلاةِ يَقُولُ لَهُمُ: الصَّلاَةَ، الصَّلاَةَ! ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾.

قوله: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ أي: الزبانية، لا يرحمون إذا استرحموا، قد حُبّب إليهم عذاب الكفرة الفجرة، كما حُبب للإنسان الماء عند شدة العطش، فهم غلاظ الأقوال والأفعال، وشداد الأبدان.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ نظيره: قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ وهي فرض على الأعيان، في كل الأحوال، وكل الأزمان، وهي الإقلاع عن الذنب، فلا عودة بعدها إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، والندم على ما سلف منه في الماضي وبعضه والاستغفار منه إذا ذكره.

وعند أحمد، وابن ماجه بسند جيد عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ». ثم إن كان الحق لآدمي، ردّه إليه بالطريقة المناسبة، إن كان قادرًا عليه، فإن لم يكن قادرًا، فيعزم أن يؤديه إذا قدر في أعجل وقت وأسرعه.

قال القرطبي: يجمع التوبة النصوح: الاستغفار باللسان، والإقلاع عن المعاصي بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الخلان.

وقال أبو بكر الدقّاق: التوبة النصوح: رد المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات.

وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود ﵁ قال: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ».

وأصل التوبة النصوح من الخلوص، يقال: هذا عسل ناصح، إذا خلص من الشمع، وقيل: مأخوذة من النصاحة، وهي الخياطة؛ لأنّها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته ويوثقه، ولأنّها جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم كما يجمع الخياط الثوب ويلصق بعضه ببعض.

قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ عسى من الله عز وجل موجبة أو واجبة، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجه بسند حسن، عن ابن مسعود ﵁: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ

لَهُ». قد سبق الحديث في تكفير التوبة للسيئات، بل وتبديلها بالحسنات.

قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: لا يعذبه، ولا يعذب الذين آمنوا معه.

قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين، وقد تقدم في سورة الحديد.

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: مخالطة الذين كفروا للذين آمنوا لا تجدي عنهم شيئًا، ولا تنفعهم عند الله إن يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، وفي مثل امرأة نوح، وامرأة لوط عليهما السلام درس؛ فقد كانتا يؤكلانِهما ويضاجعانِهما ويعاشرانِهما أشد العشرة والاختلاط.

قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاها على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة. وقد انعقد الإجماع على أنه ما بغت امرأة نبي قط.

قوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لم يدفع نوح، ولا لوط عليهما السلام مع كرامتهما على الله عن زوجتيهما لما عصتا شيئًا من عذاب الله؛ لأن العذاب، إنما يدفع بالطاعة، لا بالوسيلة.

قوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: في الآخرة، وهكذا سيقال لكفار مكة، وكل كافر وطاغوت حارب ربه وعادى رسوله ﷺ وآذى أولياءه وأفسد في أرضه.

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها: آسية، وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، أنّهم لا تضرهم مخالطة الكافرين، إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، وقد كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فما ضرّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، وهذا من عدل الله عز وجل، أن لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه.

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ روى أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا قال: إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد، في يديها، ورجليها، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلقتها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة. صححه ابن حجر.

قال العلماء: لقد اختارت الجار قبل الدار، وفي هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي: لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون اللعين وتعذيبه وعمله اللئيم، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ

عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». وجاء عند أحمد بسند لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ رَضِي الله عَنْهنَّ أَجْمَعِينَ».

قوله: ﴿وَمَرْيَمَ﴾ أي: واذكر مريم، وقيل: هو معطوف على ﴿ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾، والمعنى: وضرب الله مثلًا لمريم بنت عمران وصبرها على أذى اليهود.

قوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: عن الفواحش وما رام اليهود بها، وقيل: الفرج هنا: الجيب؛ لأنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جيبها، ولم ينفخ في فرجها، وكل خرق في الثوب يسمى جيبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها، ونفخ الروح في جيبها، فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، وهذا هو الصحيح.

قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي: بقدره وشرعه، ومن ذلك: قول جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، وكل ما جاء به عيسى عليه السلام.

قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ على الجمع، قرئت: (بكتابه)، والكتاب يراد به الجنس، فيكون في معنى كل كتاب أنزل الله تعالى.

قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من المطيعين.

انتهى تفسير سورة التحريم، ولله الحمد.

  

سورة الملك

وهي مكية بالإجماع.

وتسمى هذه السورة (المنجية) لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر، فقد جاء عند الترمذي وحسنه من حديث ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «ضَرَبَ بَعْضُ أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خِبَاءَهُ -أي: خيمته- عَلَى قَبرٍ وَهُوَ لا يَحسِبُ أَنَّهُ قَبرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنسَانٌ يَقرأُ سُورَةَ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فأخبره بذلك، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هِيَ المَانِعَةُ، هِيَ المُنجِيَةُ، تُنجِيهِ مِن عَذَابِ القَبرِ». وجاء عند أبي داود بسند حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سُورَةٌ مِنَ القُرآنِ، ثَلاثُونَ آيَةً، تَشفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغفَرَ لَهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾». وعند الترمذي بسند جيد عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قدَّم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل مَنْ نَصَبَ موتَه بين عَينيه، فالموت أمر وجودي؛ لأنه مخلوق، والحياة كذلك، وهي شاهد معلوم، والكل وُجِد للابتلاء والاختبار. ومما يقال: لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر، والمرض، والموت، وإنه مع ذلك لوثَّاب.

وقد أذل الله عز وجل الكبراء، والعظماء، والطغاة، والفراعنة بالموت، وجعله بلسمًا للصلحاء والأتقياء والبررة والمحسنين.

قال بعض أهل العلم: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار. والحياة عكس ذلك.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، و(أَحْسَنُ) صيغة مبالغة من الحُسن، ليحث على تقديم الأفضل والأجود، قال الفضيلُ: أي: أخلصُه وأصوبُه، وقال: إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكونَ خالصًا صوابًا، قال: والخالصُ إذا كان لله ﷻ، والصوابُ إذا كان على السُنَّة.

قوله: ﴿طِبَاقًا﴾ أي: طبقة بعد طبقة، وقد سبق حديث الإسراء، وأنّهن متفاضلات، بينهن خلاء، ولكل سماء أبوابُها وخزنتها، لا يدخل فيها أحد إلا بإذن من الله.

قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وقرئت: (تفوُّت)، أي: تباين، وهما لغتان، مثل: التعاهد، والتعهد، والتحامل، والتحمّل، والتظاهر والتظهر، وتصاغر وتصغّر، وتضاعف وتضعّف، وتباعد وتبعّد، كله بمعنى. يقال: تفاوت الأمر، إذا تباين وتباعد وفات بعضها بعضًا، والمعنى: لا اعوجاج فيها ولا تناقص ولا تباين ولا عيب، بل هي مستقيمة مستوية، وإن اختلفت صُوره وصفاته.

قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي: رُدّ طرفك مرارًا إلى السماء، وقلِّبْه جاهدًا بذلك ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: من شقوق أو خلل. وأصل الفطور من التفطر والانفطار، وهو الانشقاق.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين، مرة بعد مرة، وهي هنا للتكثير، وإنما أمر بالنظر مرتين في الشيء؛ لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى.

قوله: ﴿خَاسِئًا﴾ أي: خاشعًا صاغرًا متباعدًا عن أن يرى شيئًا من ذلك، يقال: خسأت الكلب، أي: أبعدته وطردته، وانخسأ الكلب، وخسأ بصره خَسئًا، وخُسُوءًا، أي: سَدِر لم يكد يبصر، والخاسئ: الذي لم ير ما يهوى.

قوله: ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: قد بلغ الغاية في الإعياء، ويجوز أن يكون مفعولا من حسره، بُعْدُ الشيء. يقال: قد حَسَر بصره يَحسِر حُسورًا، أي: كلّ وانقطع نظره من طول مدى، فهو حسير محسور.

قوله: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: جمع مصباح، وهو السراج، وتسمى الكواكب مصابيح لإضاءتها.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾ أي: شهبها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، قال تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، فالمصابيح لا تزول، ولا يرجم بها، وإنما ينفصل منها شيء يرجم به، من غير أن ينقص ضوؤها أو صورتها. وقد سبق في سورة الصافات كلام قتادة، وقال محمد بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلًا، ويتخذون النجوم علة.

قوله: ﴿شَهِيقًا﴾ أي: صوتًا، والشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، وقد مضى ذلك.

قوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: تغلي من شدة لهبها وغضبها عليهم، كما تقول: فلان يفور غيظًا.

قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتقطع وينفصل بعضها عن بعض، وأصل الكلمة: (تتميز).

قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي: جماعة من الكفار.

قوله: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي: سؤالًا على جهة التوبيخ والإهانة.

قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: معشر الرسل.

قال تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي: سماع من يعي ويفكر.

قوله: ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: عقل من يميز وينظر. ودل هذا على أن الكافر في الدنيا لم يعط من العقل شيئًا، وقد جاء عند أحمد وأبي داود بسند جيد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَن يَهلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعذِرُوا مِن أَنفُسِهِم».

قوله: ﴿فَسُحْقًا﴾ أي: فبعدًا لهم من رحمة الله، وهو منصوب على المصدر، أي: أسحقهم الله سحقًا، أي: أبعدهم بُعدًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ
وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾
ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ
صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن
دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾
أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: ألا يعلم السر من خلق السر، والقلب الذي فيه السر، وقيل: ألا يعلم الخالق، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وهذا القول أقوى.

قوله: ﴿ذَلُولًا﴾ أي: سهلة، ليس المشي فيها بالحزونة والغلظة، تستقرون عليها، والذلول: المنقاد الذي يذل لك، والمصدر: الذُّل، وهو اللين والانقياد.

قوله: ﴿فَٱمۡشُواْ﴾ أمر إباحة، وفيه إظهار الامتنان.

قوله: ﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: جبالها ووهادها وآكامها ونواحيها وفجاجها، وأصل المنكب: الجانب، ومنه: منكب الرجل، والريح النكباء، وتنكب فلان عن فلان. والسعي في السبب لا ينافي التوكل، وقد جاء عند أحمد، والترمذي، وابن ماجه بسند جيد عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَو أَنَّكُم تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كَمَا يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا».

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاب من في السماء عن عصيتموه وخالفتم أمره مكذبتم رسله، وهي آية مشيرة إلى علو الله ﷻ على خلقه، ووجوده بذاته فوق سماواته وعرشه، والأخبار في هذا كثيرة جدًا، لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل معاند.

قوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: كما خسف بقارون.

قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تذهب وتجيء، والمور: الاضطراب، وإذا خُسف بالإنسان دارت به الأرض، فهو المور.

قوله: ﴿حَاصِبٗا﴾ أي: حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط ﵇ وأصحاب الفيل، وقيل: ريح فيها حجارة أو حصباء، والكل محتمل.

قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وقرئت: (نكيري) في الوصل.

قوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ أي: باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها؛ لأنهن إذا بسطنها صففن قوائمها صفًا.

قوله: ﴿وَيَقۡبِضۡنَ﴾ أي: يضربن بها جُنُوبَهن، ويقال للطائر إذا بسط جناحيه: صاف، وإذا ضمهما فأصابا جنبه: قابض؛ لأنه يقبضهما. وقيل: يقبضن أجنحتهن بعد بسطها إذا وقفن من الطيران، وهو معطوف على ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ عطف المضارع على اسم الفاعل.

والمقصود أنّهن يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾.

قوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾ استفهام إنكار، أي: حزب ومنعة لكم، ولا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله.

قوله: ﴿يَنصُرُكُم﴾ أي: فيدفع عنكم ما أراد بكم إن عصيتموه، ولفظ الجند يُوَحّد، ولهذا قال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾.

قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: من سوى الرحمن.

قوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ أي: مَن هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده؟ أي: لا أحد يرزق إلا الله.

قوله: ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ أي: تمادوا ﴿فِي عُتُوّٖ﴾ أي: طغيان، ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: عن الحق.

قوله: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ أي: منكّسًا رأسه، لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله، فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه.

يقال أكب الرجل على وجهه، فيما لا يتعدى بالألف، فإذا تعدّى قيل: كبّه الله لوجهه، بغير ألف.

قوله: ﴿سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: معتدلًا ناظرًا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله، وهكذا الكافر يمشي، لا يدري أعلى حق هو أم على باطل، أما المسلم فيعلم علم اليقين أنه يسير على طريق مُستقيمٍ، نهايته بإذن الله: جنات النعيم.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ونظيرها: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾.

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ونظيرها: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ ٣٠﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ﴾ مصدر بمعنى مُزْدَلفًا، أي: قريبًا عيانًا، وهو عذاب الآخرة.

قوله: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقرئت (سئت) بإشمام الفم، أي: فُعل بهم ما يسوؤهم، فتبين ذلك على وجوههم، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾.

قوله: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تفتعلون من الدعاء وتستعجلون وتتمنون وتسألون، وقد كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾، وقيل: تكذبون، والمعنى: هذا الذي كنتم تكذبون من أجله تدّعون الأباطيل والأحاديث، والقول الأول أظهر، يقال دعوت بكذا، إذا طلبته، وادعيت: افتعلت منه.

قال النحاس: ﴿تَدَّعُونَ﴾، وتدْعون بمعنى واحد، كما يقال: قدر، واقتدر، وعدى واعتدى، إلا أن افتعل معنى: شيء بعد شيء، وفعل يقع على القليل والكثير.

قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ وقرئت: (أهلكني) بتسكين الياء وفتحها، أما ﴿مَّعِيَ﴾ فالكل فتحها، أي: أماتني، وكانوا يتمنون موت محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾.

قوله: ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ أي: أخّر أجلنا قليلًا.

قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: من يخلصهم من عذاب أليم، إذًا لا حاجة بكم إلى التربص بنا، ولا إلى استعجال قيام الساعة.

قوله: ﴿غَوۡرٗا﴾ أي: غائرًا ذاهبًا في الأرض لا تناله الدلاء، ونظيرها قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾.

قوله: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ أي: جارٍ ظاهر تراه العيون، فهو مفعول، وقيل: هو من مَعَن الماءُ، أي: كثُر، فهو على هذا فعيل، وقيل: بماء عذب، والقول الأول هو الأظهر، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «يَرحَمُ اللهُ أُمَّ إِسمَاعِيلَ، لَو تَرَكَت زَمزَمَ لَكَانَت عَينًا مَعِينًا». أي: لو تركتها فلم تحوّضها وتقل بيدها هكذا، والماء يفور، لكان ماءً ظاهرًا، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾، وقال تعالى: ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾.

انتهى تفسير سورة الملك، وله الحمد.

  

سورة القلم

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾

قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ وقرئت بإدغام النون الثانية في هجائها في الواو، وهو قسم رباني بالقلم؛ لما فيه من البيان، كاللسان، وهو واقع على كل قلم مما يكتب به من في السماء ومن في الأرض، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾. قال الشاعر:

إِذَا أَقْسَمَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ ... وَعَدُّوهُ مِمَّا يُكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَمْ

كَفَى قَلَمُ الْكُتَّابِ عِزًّا وَرِفْعَةً ... مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمْ

وقد جاء عند أبي داود والترمذي بسند جيد من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». فخلق الله القلم الأول، فكتب ما يكون في الذكر، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض.

قوله: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ أي: وما يكتبون، أي: الناس، وقيل: الملائكة الكتبة، والأول أولى.

قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ هو جواب القسم، وهي نفي، وقد كانوا يقولون: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾. والمعنى: ما أنت بفضل ربك وما أرسل إليك وأنزله عليك بمجنون.

قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ جاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها وقد سألها سعد بن هشام بن عامر: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى؟ قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ». فما أمره به القرآن فعله، وما نهاه عنه تركه، وعند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه قال: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا لِمَ صَنَعْتَ، وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ»، وعند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الآخَرِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ». وعند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها،

قالت: «مَا ضَرَبَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ».

وحقيقة الْخُلُق في اللغة: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب؛ لأنه يصير كالخِلْقة فيه، وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخِيم بالكسر: السجية والطبيعة، لا واحد له من لفظه، وخِيم: اسم جبل، فيكون الخلق بالطبع المتكلف، والخِيم: الطبع الغريزي.

وقد اجتمعت مكارم الأخلاق في شخصه ﷺ، وقد جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند حسن، قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ». وكان مع ذلك يدعو في كل صلاة بقوله كما رواه مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ»، وكان يقول لأصحابه كما جاء عند الترمذي وحسَّنه، من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» وفي رواية بسن حسن عند أحمد: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنَ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ قَالَ: هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ».

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: فسترى ويرون يوم القيامة، حين يتبين الحق والباطل.

قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: أيكم الذي فتن بالجنون والضلال، والباء صلة، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾، وقيل: بأيكم الفتنة، وهو مصدر على وزن المفعول، ويكون معناه الفتون، كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول، أي: عقل ولا جلادة. قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ ... لَحْمًا وَلَا لِفُؤَادِهِ مَعْقُولَا

أي: عقلًا، والقول الأول أظهر. وقيل: الْمَفْتُونُ: المعذب، من قول العرب: فتنت الذهب بالنار، إذا حَمَّيْته، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعذبون.

قوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: تترك ما أنت عليه من الحق وتركن إلى آلهتهم، وقيل: ودوا لو تلين، فيلينوا معك، والادهان: التليين لمن لا ينبغي له التليين، وقيل: ودوا لو تصانعهم في دينك، فيصانعونك في دينهم، وقيل: ودوا لو تداهن في دينك، فيداهنوا في أديانِهم، وكلها محتملة، وأقربُها: القول الأول، والأخير. قال الشاعر:

لَبَعْضُ الْغَشْمِ أَحْزَمُ فِي أُمُورٍ ... تَنُوبُكَ مِنْ مُدَاهَنَةِ الْعِدَهْ

يقال: ادهن الرجل في دينه، وداهن في أمره، أي: خان فيه، وأظهر خلاف ما يضمر، وقيل: داهنت بمعنى واريت، وادهنت بمعنى غششت.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: كثير الحلف.

قوله: ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: حقير وضيع؛ لقلة رأيه وتمييزه، ومن كان كذلك اتقى بالأيمان الكاذبة التي

يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعملها في كل وقت في غير وقتها.

قوله: ﴿هَمَّازٍ﴾ أي: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، وقيل: الذي يغتاب في الغَيبة، وهذا الأخير هو الأصح.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نمَّ نمًّا، ونميمًا ونميمة، أي: يمشي ويسعى بالفساد، وقد جاء عند الشيخين من حديث حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»، وعند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ مِنْ كَبِيرٍ. ثُمَّ قَالَ: بَلَى؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ. قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ عُودًا رَطْبًا، فَكَسَرَهُ بِاثْنَتَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى قَبْرٍ، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا».

قال الشاعر:

وَمَوْلًى كَبَيْتِ النَّمْلِ لَا خَيْرَ عِنْدَهُ ... لِمَوْلَاهُ إِلَّا سَعْيُهُ بِنَمِيمِ

قال الفراء: نميم، ونمام لغتان، وقيل: النميم جمع نميمة.

قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل.

قوله: ﴿عُتُلٍّ﴾ أي: شديد جافي، وقيل: إنه الذي يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب، مأخوذٌ من العتل، وهو الجر، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾، وفي الصحاح: وعتلت الرجل أعتله، وأعتُله، إذا جذبته جذبًا عنيفًا، ورجل معْتَل، قال ابن السكيت: عتله، وعتنه، باللام والنون جميعًا، ورجل عَتِلٌ بَيِّن العَتَل، أي: سريع إلى الشر، ويقال: لا أنعتل معك، أي: لا أبرح مكاني. وقال عُبيد بن عمير: العُتل: الأكول الشروب القوي الشديد. وقال معمر: هو الفاحش اللئيم. قال الشاعر:

بِعُتُلٍّ مِنَ الرِّجَالِ زَنِيمِ ... غَيْرِ ذِي نَجْدَةٍ وَغَيْرِ كَرِيمِ

وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ».

ومحصل الأقوال، أنها لفظة تحمل مجموعة من الصفات الذميمة: كالشديد الجافي، السريع إلى الشر، السيء في معاملته لغيره، الجافي عن الإيمان، الشديد في الخصومة، الظالم لغيره، العنيف في تعامله،

الفاحش اللئيم، الأكول الشروب الغشوم، وقد اجتمعت هذه الخصال في فرعون هذه الأمة أبي جهل لعنه الله، وفي زميله وصديقه في الشر والكفر الوليد بن المغيرة، فبئس التابع والمتبوع.

قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما جاء عند البخاري: «رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَهُ زَنَمَةٌ، مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ»، والزنمة: الأذن المقطوعة، والمعنى أنه كان مشهورًا بالسوء كشهرة الشاة المقطوعة الأُذُن من بين أخواتها، وكان الوليد دَعِيًا في قريش، ليس من أصلهم. قال الشاعر:

زَنِـيمٌ لَـيْسَ يُعْـرَفُ مَـنْ أَبُـوْهُ ... بَغِـيِّ الْأُمِّ ذُو حَسَـبٍ لَئِـيمِ

وكان الوليد ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده.

قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ وقرئت: (أأن)، و (آن)، وفي القراءتين استفهام توبيخ، والقراءة الأولى بغير استفهام مفعول لأجله. والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين، ودل على هذا الفعل، قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي: سنخطمه في الدنيا بالسيف، ونسمه في الآخرة على أنفه سمة يعرف بها، وقد خطم أنفه يوم بدر، يعني الوليد، ومات مخطومًا، يقال: وسمته وسمًا، وسِمةً، إذا أثّرت فيه بِسِمة وكَيّ، والخرطوم: طرف الأنف من الإنسان، ومن السباع: موضع الشفة، وخراطيم القوم: ساداتُهم، وقيل: سنُلحق به عارًا وسُبَّة حتى يكون كمن وُسِم على أنفه، والعرب تقول للرجل يُسب سُبة سوء قبيحة باقية: قد وُسم ميسمَ سوء، أي: أُلصق به عار لا يفارقه، كما أن السمة لا يُمحى أثرها، وهذه الأقوال لها اعتبار، ولا مانع من اجتماع الجميع في الدنيا والآخرة، والقول الأول أقربُها، ويقال للخمر: الخرطوم، وجمعه: خراطيم.

وكان الوسم في الوجه لدى المعصية قديمًا عند الناس، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ؟ قَالُوا: نُحَمِّمُهُمَا، وَنَضْرِبُهُمَا». والتحميم يكون بالفحم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ

﴿٣٣ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ٣٦ أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ
لَمَا تَحْكُمُونَ ٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن
سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ٤٢﴾

قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: اختبرناهم وأعطيناهم أموالًا ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وهي معروفة الخبر عندهم، وقيل: هي في الطائف؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾، فسميت بذلك، وقيل: بأرض اليمن.

قوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم: لنجذنّها وقت الصباح قبل أن يخرج المساكين. أن يجنوا ثمرها في الصباح، قبل أن يخرج المساكين، ولا يتصدقوا منه بشيء.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: ولم يقولوا: إن شاء الله.

قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: أمر عذاب، والطائف غالبًا ما يكون بالليل.

قوله: ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المظلم، وسمي الليل صريمًا لأنه يقطع بظلمته عن التصرف، وقد يقال للنهار: الصريم، لأنه ينقطع وينصرم من الليل، والمقصود أنّها احترقت، فصارت كالليل الأسود برمادها، وقيل: صارت كالزرع المحصود، فالصريم بمعنى المصروم، وفي هذا دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وعند الشيخين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

قوله: ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتسارون ويخفون كلامهم؛ لئلا يعلم بهم أحد، وهو من خَفَت يَخْفِت، إذا سكن ولم يُبِنْ.

قوله: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قصد وقدرة في أنفسهم، ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم، وقد جاء عند سعيد بن منصور، عن عكرمة قال: هم ناس من الحبشة، كانت لأبيهم جنة، إلى أن قال: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: أمر مجتمع. صححه ابن حجر. والحرد: القصد، حَرَد يَحْرِد بالكسر حردًا، أي: قصد، تقول: حَرَدت حَرْدك، أي: قصدت قصدك، وقيل: على منع، من قولهم: حَارَدَت الإبلُ حِرادًا، أي: قلّت ألبانُها، والْحَرُود من النُّوق: القليلة الدر، وحارَدَتِ السَّنَةُ، إذا قلَّ مطرها وخيرها، وقد يأتي الحرد بمعنى الغضب، ومنه قيل: أسدٌ حاردٌ، وليوث حوارد. وقيل: على انفراد، يقال: حرد يحْرِد حُرُودًا، أي: تنحى عن قومه

ونزل منفردًا ولم يخالطهم، ويقال: رجل حريد من قوم حرداء، وكوكب حَريد، أي: معتزل عن الكواكب. قال الشاعر:

كأنه كوكب في الجو مُنْحَرِد

وخلاصة القول أنهم جاؤوا صباحًا باكرًا منفردين واثقين من خطتهم في منع المساكين حقوقهم الواجبة لهم.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: محترقة لا شيء فيها أنكروها وشكوا فيها. وقال بعضهم لبعض: إنا لضالون أي: ضللنا الطريق إلى جنتنا، وقيل: أي: إنا لضالون عن الصواب في غدونا وعلى نية منع المساكين، فلذلك عوقبنا، والثاني أظهر، والأول محتمل.

قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: هي هذه، ولكنّا حُرمناها بما قدمت أيدينا، وقد سبق حديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ». رواه أحمد من حديث ثوبان رضي الله عنه.

قوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعقلهم وأعدلهم وأمثلهم، وأحسنهم رأيًا؛ لأن الوسط من كل شيء أحسنه كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: هلا تستثنون، أي: تقولون إن شاء الله، وكان استثناؤهم تسبيحا، وكان أوسطهم أمرهم بالاستثناء، فلم يطيعوه. وقيل: أمرهم أن يقولوا: سبحان الله، ويشكروه على ما أعطاهم، وقيل: هلا تستغفرون من فعلكم وتتوبون إليه من خبث نيتكم، والكل محتمل، والقول الثاني أظهرها.

قوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضًا، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب.

قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: متجاوزين الحد حتى أصابنا ما أصابنا.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ وقرئت: (يبَدِّلنا) ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: أخصلوا وصدقوا وتضرعوا أن يبدلهم خيرا منها في الدنيا، ويجزيهم ثوابَها في الدار الآخرة.

قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: ليس الأمر مفوضًا إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين.

قوله: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾ أي: لكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي.

قوله: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: إن لكم في هذا الكتاب ما تختارون وتشتهون، أي: ليس لكم ذلك، والمعنى أن لكم، بالفتح، ولكنه كُسر لدخول اللام، تقول: علمت أنك عاقل، بالفتح، وعلمت إنك لعاقل، بالكسر.

قوله: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ﴾ أي: عهود ومواثيق.

قوله: ﴿عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾ أي: مؤكدة استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة، وهذا زيادة في التوبيخ.

قوله: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ وكُسرت (إِنَّ) لدخول اللام في الخبر، والمعنى أنه هل سيحصل لكم ما تريدون وما تحكمون.

قوله: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: سل يا محمد هؤلاء المتقولين: أيهم كفيل بما تقدم ذكره، وهو أن لهم من الخير ما للمسلمين، والزعيم: الكفيل والضمين، وقد مضى في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا. ثُمَّ قَالَ: يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ! لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا. فَيُقَالُ: اشْرَبُوا. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ! لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا. فَيُقَالُ: اشْرَبُوا. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: (فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ) -وَفِي رِوَايَةٍ: فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ-، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؛ وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا. قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. -وَفِي رِوَايَةٍ: فَيَقُولُونَ: لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا! مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا-، (فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا. فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ)، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ. فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا...».

وجاء عند مسلم من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «... ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ

الطَّلِّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾، ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ».

وقيل: المعنى: كشفت الشدة أو القيامة عن ساقها، كقولهم: شَمّرت الحرب عن ساقها. قال الشاعر:

فَتى الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا ... وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

وقال آخر:

قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا ... وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

وهذا القول الثاني قول مجازي، محجوج بقول حقيقي، وهو القول الأول، وهو قول من لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. وفي الآية والحديث إثبات الساق لله ﷻ إثباتًا يليق بجلاله، فليس كمثل ساقه شيء، ولا يمكن التطرق إلى تكييف ذلك ذهنيًا، ولا تمثيل ذلك أو تشبيه ذلك واقعيًا، وكذا ما جرى مجراه يثبت لفظًا ومعنى، ويُمرّ كما جاء، بدون تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل، على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ٤٥ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤٧ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾

قوله: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ أي: معافون أصحاء، يسمعون ويعقلون حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، فلا يجيبون.

قوله: ﴿فَذَرۡنِي﴾ أي: دعني ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ وهذا تهديد رعيب رهيب، لا يعلم منتهاه إلا هو سبحانه، وهو وعيد شديد من الجبار العزيز، موجه إلى المخلوق الحقير الذليل الذي سولت له نفسه تكذيب الوحي الإلهي والقرآن المجيد.

قوله: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: سنأخذهم على غفلة، قال الحسن: كم مستدرج إليه بالإحسان، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه، والاستدراج: ترك العجلة، وأصله: النقل من حال إلى حال، كالتدرج، ومنه قيل: درجة، أي: منْزلة بعد منْزلة، واستدرج فلان فلانًا، أي: استخرج ما

عنده قليلًا، ويقال: درّجه إلى كذا، واستدرجه، بمعنى: أدناه منه على التدرج، فتدرج هو، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وقد مضى في سورة الأعراف.

قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، جاء في الصحيحين من حديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾».

قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قوله: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من غرامة ذلك مثقلون لما يشق عليهم من بذل المال، وقد تقدم ذلك في تفسير ذلك في سورة الطور.

قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي: يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة، وقد مضى خبره في سور (يونس، والأنبياء، والصافات).

قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مملوء غمًا وكربًا، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والكظم: الحبس، ومنه قولهم: فلان كظم غيظه، إذا حبس غضبه، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

قوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾ أي: تداركه ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهي عبادته السابقة ومقولته اللاحقة. وهي قوله في بطن الحوت: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لنبذ عاريًا مذمومًا مبعدًا من كل خير، أو للبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

قوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ردّ إليه الوحي، وشفّعه في نفسه وفي قومه، وقبل توبته، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

قوله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا

﴿هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: يعتانونك بعيونهم، وينفذونك بأبصارهم، يقال: زَلَق السهم، إذا نفذ، ويقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه، ويقال: زَلَقه يَزْلِقه، وأزلقه يُزلقه إزلاقًا، إذا نَحّاه وأبعده، وزلق رأسه يزلقه زلقًا، إذا حلقه، ورجل زَلِق، وزُمَلِق، وزُمَالق، الذي يُنْزل قبل أن يجامع.

وقد عصمه الله عز وجل نبيه ﷺ، وقال له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، والإصابة بالعين غالبًا ما تكون مع الاستحسان والإعجاب، ونادرًا ما تكون مع الكراهية والبغض، والعين حق، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ». وجاء عند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا».

وجاء عند أبي داود بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ يُؤْمَرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ»، وعند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنِي أَنْ أَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ»، وعندهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: اسْتَرْقُوا لَهَا؛ فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ».

وعند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَخَّصَ فِي الْحُمَةِ، وَالنَّمْلَةِ، وَالْعَيْنِ»، (والحُمَةُ: السُّم، والنملة: قروح تخرج في الجنب)، وقال عمران رضي الله عنه عند البخاري، وبريدة رضي الله عنه عند مسلم: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَينٍ أَوْ حُمَةٍ»، وقد روي الأول مرفوعًا عند الترمذي، والآخر مرفوعًا عند ابن ماجه، وجاء عند أحمد بإسناد لا بأس به من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُولِعُ الرَّجُلَ بِإِذْنِ اللهِ، فَيَتَصَاعَدُ حَالِقًا، ثُمَّ يَتَرَدَّى مِنْه».

وعند ابن ماجه بسند جيد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: «مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ! فَمَا لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: أَدْرِكْ سَهْلًا صَرِيعًا! قَالَ: مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ؟ قَالُوا: عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ. قَالَ: عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟! إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ. ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ، فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيَغْسِلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْفَأَ الإِنَاءَ مِنْ خَلْفِهِ».

وعند الشهاب وأبي نعيم بسند لا بأس عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ». وفي رواية عند أبي يعلى بسند حسن: «جُلُّ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِتَابِهِ، وَقَدَرِهِ بِالْأَنْفُسِ. يَعْنِي بِالْعَيْنِ».

وقد كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن، والحسين رضي الله عنهما كما جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ويقول: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ،

وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»، وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما رواه مسلم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»، وعنده من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقَاهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ».

وقيل: معنى ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: يهلكونك ويقتلونك، من زهقت نفسه، وأزهقها، والمعنى الأول هو المعتبر، والقول الثاني داخل فيه.

انتهى تفسير سورة القلم، ولله الحمد.

  

سورة الحاقة

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾

قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: القيامة، وسميت بذلك لأن الأمور تُحَقُّ فيها، ويصير كل إنسان حقيقيًا بجزاء عمله، وهي واقعة حق اليقين. قال الأزهري: يقال: حاققته، فَحَقَقته أحقه، أي: غالبته، فغلبته، فالقيامة حاقة؛ لأنّها تُحق كل مخاصم في دين الله بالباطل. وفي الصحاح: خاصمه، وادعى كل واحد منهما الحق، فإذا غلبه قيل: حَقه، ويقال للرجل إذا خاصم في صغار الأشياء: إنه لَنَزِق الحِقاق، ويقال: ما له فيه حق ولا حقاق، أي: خصومة، والتحاق: التخاصم، والاحتقاق: الاختصام، والحاقة، والحَقّة، والحق ثلاث لغات بمعنى، تقول العرب: لما عرف الحَقّة مني هرب، و (ٱلۡحَآقَّةُ) مبتدأ.

جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، قَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ».

قوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ جملة اسمية في محل رفع خبر المبتدأ، واللفظ استفهام، معناه التعظيم والتفخيم لشأنِها، كما تقول: زيد، ما زيد؟ على التعظيم لشأنه.

قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ أي: القيامة، وسميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده. ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه وقوارص لسانه، جمع قارصة، وهي الكلمة المؤذية، وقوارع القرآن: الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجن والإنس. وقيل: مأخوذة من القرعة في رفع قوم وحط آخرين.

قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالفعلة الطاغية، وهي الصيحة المجاوزة لحد الصيحات من الهول، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾، وقيل: أهلكوا بطغيانهم وكفرهم، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ». رواه الشيخان من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والصبا: ريح تهب من جهة الشرق، وهو ما حدث مع الأحزاب، والدبور عكسها، ريح من قبل المغرب.

قوله: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: عتت بغير رحمة ولا بركة على عاد، فقهرتهم لشدة هبوبها، وقيل: عتت على خزانها، فلم تطعهم ولم يطيقوها من شدة هبوبها، غضب لغضب الله، والأول أقرب.

قوله: ﴿حُسُومًا﴾ أي: متتابعة، لا تفتر ولا تنقطع، الحسوم: التِّباع، من حَسْم الداء، إذا كوي صاحبه؛ لأنه يُكوى بالمكواة، ثم يتابع ذلك عاليه.

وقيل: هو من قولك: حسمت الشيء، إذا قطعته وفصلته عن غيره، وقيل: الحسم: الاستئصال، يقال للسيف: حُسام؛ لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته، والمعنى أنها حسمتهم وقطعتم وأذهبتهم، فلم تُبْق منهم أحدًا، فهي القاطعة بعذاب الاستئصال، وقيل: الحسوم: الشؤم، يقال: هذه ليالي الحسوم، أي: تحسِم الخير عن أهلها.

وخلاصة القوم أنها أيام مشائيم، تتابعت عليهم حتى قطعتهم ومزقتهم حسمتهم عن بكرة أبيهم، فلم تبق منهم أحدًا.

و﴿حُسُومًا﴾ منصوب على الحال، وقيل: على المصدر، أي: تحسمهم حسومًا، ويجوز أن يكون مفعولًا له، أي: سخرها عليهم هذه المدة للاستئصال، وروى الطبرى عن ابن مسعود ﵁، قال: متتابعة. وحسنه ابن حجر، والقول الأول أقربها.

قوله: ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي: بالية أو خالية الأجواف لا شيء فيها، قال تعالى في سورة القمر: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وقيل: خاوية عن أصولها من البقاع، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾، أي: خربة لا سكان فيها، والقول الأول أقرب؛ لأن النخل إذا بليت خلت أجوافها.

قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي: فرقة أو نفس حية باقية على وجه الأرض، كلهم ذهبوا، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾، ولم يجعل الله لهم خلفًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ
أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ
فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ
مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ

ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾

قوله: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ وقرئت: (ومَن قِبله) أي: ومن معه ومن تبعه من جنوده، واختاره أبو عبيد، وأبو حاتم. والقراءة الأولى على معنى: ومن تقدمه من القرون الخالية والأمم الماضية.

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: أهل قرى قوم لوط عليه السلام، وسميت بذلك لأنها ائتفكت بهم، أي: انقلبت.

قوله: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ مصدر من الخطأ العظيم، أي: بالفعلة الخاطئة، وهي المعصية والكفر.

قوله: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: موسى عليه السلام، وقيل: موسى ولوط عليهما السلام، وقيل: ﴿رَسُولَ﴾ بمعنى رسالة، وقد يعبَّر عن الرسالة بالرسول.

ومن كذّب برسول فقد كذب بالجميع، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذا القول أقرب.

قوله: ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عالية زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم، ومنه سمي الربا، لأنه يأخذ من الذهب أو الفضة أو ما يقابلهما من النقد أكثر مما يعطي، يقال: ربا الشيء يربو، إذا زاد وتضاعف.

قوله: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: في السفن الجارية، والمحمول نوح عليه السلام وأولاده، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك.

قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ أي: تحفظها وتسمعها وتفهمها ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: حافظة سامعة، فيقال: وَعَيْتُ كذا، إذا حفظته في نفسي أعيه وعيًا، ووعيت العلم، ووعيت ما قلت، كله بمعنى، وأوعيت المتاع في الوعاء.

قال الزجاج: يقال لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيته، ولما حفظته في نفسك: وعيته.

والأذن الواعية هي الأذن التي عقلت عن الله تعالى، وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل.

قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: رُعت من أماكنها. قال الفرّاء: لم يقل: فدُكِكْن، لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، والأرض كالجملة الواحدة، ومثله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾، ولم يقل: كُنّ. ولعل حمل الأرض: تبديلها بغيرها، والله أعلم. وهذا الدك كالزلزلة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وقيل: بسطتا بسطة واحدة، ومنه: انْدَكّ سنام البعير، إذا انغرس في ظهره.

قوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت وتفطرت للتنزل الإلهي وللملائكة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

قوله: ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ أي: ضعيفة متخرقة، يقال: وَهَى البناء يَهِي وَهْيًا، فهو واهٍ، إذا ضعُف جدًا، ويقال: كلامٌ واهٍ، أي: ضعيف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أي: الملائكة، اسم للجنس.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ أي: على أطرافها حين تتشقق؛ لأن السماء مسكنهم، وقيل: أبوابها، وقيل: على أرجاء وحافات الدنيا حين ينزلون إلى الأرض، والقول الأول أقرب. وواحد الأرجاء: رَجًا، مقصور، وتثنيته: رَجَوان، مثل: عصا، وعَصَوان.

قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: فوق رؤوسهم، وقيل: فوق أهل القيامة، والأول أقرب.

قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ أي: من الملائكة. وقد اختلف في العرش هنا، هل هو العرش العظيم، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والصواب هو القول الأول. وقد جاء عند أبي داود، وابن أبي حاتم بإسناد جيد عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ: إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ». وفي رواية: «يَخْفِقُ الطَّيْر سَبْعِمِائَةَ عَامٍ». وعند أبي يعلى من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَدْ مَرَقَتْ رِجْلاهُ الأَرْضَ السَّابِعَةَ، وَالعَرْشُ عَلَى مِنْكَبِهِ، يقُولُ: سُبْحَانَكَ أَيْنَ كُنْتَ وَأَيْنَ تَكُونُ». صححه ابن حجر.

قوله: ﴿لَا تَخۡفَىٰ﴾ وقرئت: (لا يخفى)؛ لأن تأنيث ﴿خَافِيَةٞ﴾ غير حقيقي.

قوله: ﴿خَافِيَةٞ﴾ أي: خفية، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾.

قوله: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ أي: هلم وتعالوا، يقول ذلك ثقة بالإسلام، وسرورًا بنجاته؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح، والشمال من دلائل الغم. قال الشاعر:

أَبِينِي أَفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي فَأَفْرَحُ أَمْ صَيَّرْتِنِي فِي شِمَالِكِ

وقيل: المعنى: خذوا، ومنه الحديث المتفق عليه من حديث عمر ﵁: «إِلا هَاءَ وَهَاءَ»، أي: يقول كل واحد لصاحبه: خذ. قال ابن السِّكِّيت والكسائي: العرب تقول: هاءَ يا رجلُ اقرأ، وللاثنين: هاؤما يا رجلان، وهاؤم يا رجال، وللمرأة: هاءِ، وهاؤما، وهاؤُمْنَ، والأصل: هاكم، فأبدلت الهمزة من الكاف، قاله القتيبي.

وقيل: إن (هَاؤُمْ) كلمة وضعت لإجابة الداعي عند النشاط والفرح. وقيل: إن ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ منصوب عند الكوفيين بـ﴿هَآؤُمُ﴾ وعند البصريين منصوب بـ﴿ٱقۡرَءُواْ﴾؛ لأنه أقرب العاملين، وهو الأقرب.

وقد اختار أبو عبيد أن يتعمد القارئ الوقف على (حِسَابِيَهْ)، و (مَالِيَهْ)، و (سُلطَانِيَهْ)، ليوافق اللغة في إلحاق الهاء في السكت، ويوافق الخط.

قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: أيقنت وعلمت، قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه، فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه، فأساء العمل.

قوله: ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب.

قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية، كقولك: ماء دافق، أي: مدفوق.

قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: ثمارها وعناقيدها، وهي جمع قطف، وهو ما يُقْطف من الثمر عمومًا، والقطف، والقِطَاف: وقت القطف.

قوله: ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ أي: لا تكدير فيه ولا تنغيص.

قوله: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ أي: قدمتم من الأعمال الصالحة.

قوله: ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أي: في الدنيا.

قوله: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ أي: موتى لا حياة بعدها، وكان الموت في الدنيا أكره شيء إليه.

قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي: لم يدفع عني جاهي عذاب الله وبأسه.

قوله: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الملائكة.

قوله: ﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: شدّوه بالأغلال.

قوله: ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ قيل: بذراع الملك، وقيل غير ذلك، والله أعلم بأي ذراع، وقد جاء عند أحمد، والترمذي عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ رَصَاصَةً مِثْلَ هَذِهِ -وأشار إلى مثل الجمجمة- أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، هِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، لَبَلَغَتِ الأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ، وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأسِ السِّلسِلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ أَصْلَهَا أَوْ قَعْرَهَا». صححه الترمذي.

قوله: ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ قيل: تدخل عنقه فيها، ثم يُجر فيها، وقيل: تدخل في دبره حتى تخرج من فيه، فيجر فيها.

قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي: على الإطعام، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء. قال الشاعر:

أَكُفْـــرًا بَعْـــدَ رَدِّ الْمَـــوْتِ عَنِّـــي   وَبَعْـــدَ عَطَائِـــكَ الْمِائَـــةَ الرِّتَاعَـــا

أراد: بعد عطائك، فبيّن أنه عُذب على ترك الإطعام، وعلى الأمر بالبخل، كما عُذب بسبب الكفر. والحض: التحريض والحث، والطعام عبارة عن العين، وأضيف للمسكين للملابسة التي بينهما.

قوله: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ أي: ليس في النار صديق ولا قريب يرق له ويدفع عنه.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ فعلين من الغسل، فكأنه ينغسل من أبدانهم، وهو صديد أهل النار ودماؤهم، السائلة من جروحهم وفروجهم ولحومهم، قال تعالى في موضع آخر: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، والضريع قد يكون من الغسلين.

قوله: ﴿ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾ أي: المشركون واليهود والنصارى وأتباعهم وأشباههم.

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: أقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: بالأشياء كلها، ما ترون منها وما لا ترون.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾. وقيل: هو رسول الله ﷺ، للقرينة، وهي قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، وليس القرآن قول الرسول ﷺ، إنما هو قول الله ﷻ، وأضاف القول إلى الرسول ﷺ لأنه تاليه ومبلغه والعامل به، وهذا القول هو الأظهر، وأما في سورة التكوير فأضافه إلى الرسول الملكي، والقرينة واضحة؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسِل، ثم قال في سورة التكوير: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ أي: محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾، وكل سياق إنما يبين المقصود به القرينة المحتفة به.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلًا تؤمنون، وقليلًا تذكرون، وقرئت: (ما يؤمنون)، و(ما يذكرون).

قوله: ﴿تَقَوَّلَ﴾ أي: تكلف وأتى بقول من قِبل نفسه.

قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بيدنا اليمنى، وهي أقوى وأشد بطشًا. وفيه إثبات اليد اليمنى لله ﷻ، وقيل: لأخذنا منه بيمينه، وقيل: لأخذناه بالقوة، وتكون مِنْ صلة. وقيل: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالحق، والقول الأول هو الصواب.

قال الطبري: هذا الكلام خرج مخرج الإذلال، على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب، كما يقول السلطان لمن يريد هوانه: خذوا يديه، أي: لأمرنا بالأخذ بيده وبالغنا في عقابه، وهذا المعنى محتمل.

قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ أي: نياط القلب، وهو عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه،

وقيل: هو حبل القلب الذي في الظهر، وهو النخاع، والموتون: الذي قُطع وَتينه، والمقصود لأهلكناه.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي: بالقرآن.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ﴾ أي: القرآن، وقيل: التكذيب، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي القرآن العظيم تنزيل من الله عز وجل، وهو حق صادق لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، وقيل: حقا يقينًا ليكون ذلك حسرة عليهم يوم القيامة، والصحيح الأول.

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الذي أنزل عليكم هذا القرآن العظيم، الذي هو حق اليقين، وحسرة على الكافرين.

انتهى تفسير سورة الحاقة، ولله الحمد.

  

سورة المعارج

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠﴾

قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ قرئت (سأل سايل) بغير همزة، فمن همز فهو من السؤال، والباء تكون صلة، أو بمعنى عن، والسؤال بمعنى الدعاء، أي دعا داع بعذاب، يقال: دعا على فلان بالويل، ودعا عليه بالعذاب. ويقال: دعوت زيدًا، أي التمست إحضاره. أي: التمس ملتمس عذابًا للكافرين، وهو واقع بهم لا محالة يوم القيامة، أو سأل سائل عذابًا واقعًا.

والسائل قيل: جماعة من قريش، وقيل: رسول الله ﷺ، والقول الأول أظهر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾، وقيل: سألوا على من سيقع العذاب ولمن يكون، فقال الله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، ومن قرأ بغير همز فله وجهان: الأول: أنه لغة في السؤال، وهي لغة قريش، تقول العرب: سال يسال، مثل: نال ينال، وخاف يخاف. والثاني: من السيلان، أي: سال سيل بعذاب واقع، والصواب الأول.

قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ أي: ذو العلو والدرجات الفواضل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾. وقيل: روح الميت حين يقبض، والقول الأول يكون من باب ذكر الخاص بعد العام.

قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الله في السماء، وهي محل بره وكرامته، وهو فوقها بذاته.

قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ وقد مضى الجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، ولعل المقصود من هذه الآية كما قال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». وقد جاء عند ابن أبي حاتم بسند جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: يوم القيامة. صححه ابن كثير. ويكون المعنى فيه تقديم وتأخير، والتقدير: سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع في يوم كان

مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه.

قوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي: أهل مكة يرون العذاب بعيدًا غير كائن.

قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ لأن كل ما هو آت قريب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، وقد أخبر النبي ﷺ قرب وقوعه ببعثته ﷺ فقال كما عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ».

قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف المصبوغ المنفوش، ولا يقال للصوف عِهن إلا أن يكون مصبوغًا، ويقال للصوف الأحمر: العهن، وهو أضعف الصوف.

وواحد العهن: عهنة. وقيل: العهن: الصوف ذو الألوان، فشبّه الجبال به في تلونها ألوانًا، والمعنى أنها تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع، وقيل: تتغير الجبال فتصير رملًا مهيلًا، يحرك أسفله فينهال عليه من أعلاه، ثم عِهنًا منفوشًا، ثم هباء منبثًا، والأقوال متقاربة.

قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قرئت: (ولا يُسأل)، فالكل مشغول، والمشغول لا يُشغَل، قال تعالى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

والقراءة الثانية على معنى: لا يسأل حميم عن حميمه، ولا ذو قرابة عن قرابته، بل كل إنسان يسأل عن عمله، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرونَهم، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس، والتابعين والمتبوعين، والكبراء والضعفاء، فيبصر الرجل أباه وأخاه وعشيرته، وكل مخلوق، كما يبصر المظلوم ظالمه، والمقتول قاتله، ولكن لا يسأله ولا يكلمه، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعدها.

قوله: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته.

قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ أي: عشيرته ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تنصره، وقيل: أمه التي كانت تربيه، والأول أظهر.

قوله: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: ويود لو فُدِي بهم لافتدى.

قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: ذلك ذلك الافتداء.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى حقًا، وتمام الكلام: ﴿يُنجِيهِ﴾، أو بمعنى لا، ويكون تمام الكلام عليها.

قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: تتلظى نيرانها، كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، و (لَظَىٰ) من التلظي، والتِظاء النار: التهابُها، وتلظيها: تلهُّبها، وهي اسم مؤنث معرف لا ينصرف.

قوله: ﴿نَزَّاعَةً﴾ وقرئت (نزاعة)، فالنصب على الحال، والرفع خبر ثانٍ لـِ إن، أو بدل من (لَظَىٰ)، أو تكون خبر إن.

قوله: ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: جلدة الرأس، ويقال لليدين والرجلين والرأس من الآدميين، ويقال لكل ما ليس مقتلًا: الشوى، ويقال: رماه فأشواه، إذا لم يصب المقتل، وشَوَى الفرس: قوائمه، لأنه يقال: عبل الشوى، أي: غليظ القوائم. والشَّوى: رذال المال، والشيء الهين اليسير، وقيل: هي القوائم والجلود. وخلاصة القول: أنها نزاعة لجلدة الرأس وللقوائم والأيدي والأرجل وللجلود.

قوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: تدعو من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان. ودعاؤها أن تقول: إليَّ يا مشرك، إلي يا كافر، تدعوهم بأسمائهم بلسان فصيح، وقيل: تُهلك، والعرب تقول: دعاك الله، أي: أهلكك الله. فدعوتها إياهم: تعذيبهم. والكل محتمل، والأول أظهر، وقيل: لما كان مصير من أدبر وتولى إليها كانت كالداعية لهم.

تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحبّ.

قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: المال، جعله في وعائه ومصرفه، ومنع منه حق الله تعالى، فكان جَموعًا منوعًا، جاء عند الشيخين من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَنْفِقِي وَلا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ، وَلا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ».

قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي: الكافر.

قوله: ﴿هَلُوعًا﴾ أي: شديد الحرص سيئ الجزع، والهلع: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، وقد هَلِعَ يهْلَع فهو هَلِع وهَلُوع، على التكثير، والمعنى: لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي، وقد جاء عند أحمد، وأبي داود بسند جيد من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ». وقد خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه، ويهرب مما يكرهه ويسخطه، ثم تعبده بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره، فمن مسه الخير فلم يشكر، ومسه الضر فجزع ولم يصبر كان إنسانًا هلوعًا، والعرب تقول: هِلواعة، وهِلواع، إذا كانت سريعة السير خفيفة.

قوله: ﴿جَزُوعًا﴾، و﴿مَنُوعًا﴾ نعتان لـِ: ﴿هَلُوعًا﴾.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ فيه: دلالة على أن ما سبق هو الإنسان الكافر، وليس الإنسان الذي هو اسم جنس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي: الزكاة المفروضة؛ لقوله: ﴿مَّعۡلُومٞ﴾، وما سوى الزكاة ليس بمعلوم.

قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي: لا يأمنه أحد من المؤمنين، فالكل يخافه ويشفق منه، وقيل: غير مأمون لمن أشرك أو كذب أنبياءه، والأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ وقرئت: (لأمانتهم) أي: أمانات الدين، وأمانات الناس من الودائع؛ لأن الأمانة اسم جنس، فيدخل فيها جمع الأمانات.

قوله: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾ وقرئت: (بشهادتهم) على التوحيد، وهي تؤدي عن الجمع، وكما سبق، المصدر قد يفرد وإن أضيف إلى جمع، كقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ بينها وبين قوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ فرق، فالدوام: المحافظة على أدائها، فلا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، وأما المحافظة فهي مراعاة إسباغ الوضوء لها، ومراعاة مواقيتها، وإقامة أركانها وواجباتها، وإكمال سننها وآدابها، وعدم ارتكاب ما يحبطها من الآثام، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة ترجع إلى أحوالها.

قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، والمعنى: ما بال يسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم، وإنما ليعيبوك ويستهزئوا بك، وقيل: مسرعين نافرين منك منطلقين، والقولان محتملان، والثاني أظهر.

قوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: عن يمين النبي ﷺ وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ أي: حِلَقًا

حِلَقًا، وجماعات، والعزين: جماعات في تفرقة، وقد جاء عند مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَآنَا حِلَقًا، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ؟ قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟». وواحد ﴿عِزِينَ﴾ عِزة. وفي الصحاح: العزة: تالفرقة بين الناس، والهاء عوض من الياء، والجمع: عِزًى، على فِعَل، وعِزون وعُزون بالضم، ولم يقولوا عِزات، كما قالو: ثبات. قال الأصمعي: في الدار عِزون، أي: أصناف من الناس.

قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي: من المشركين الذين يجتمعون حول الرسول ﷺ فيستهزئون به وبأصحابه، وربما قال بعضهم: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئًا لنعطين أكثر منهم.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة، كما خلق سائر أجناسهم، فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تُستوجب بالإيمان والتقوى، وقبل ذلك رحمة الله، وكل من عرف أصله وفصله لا يليق به التكبر والغرور والأنفة، وقد كان المهلب بن أبي صفرة مرة يمشي متبخترًا، فقال له مطرف بن عبد الله بن الشخير: ما هذه المشية التي يبغضها الله؟ فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أوَّلك نطفة مذرة، أي: فاسدة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فمضى المهلب وترك مشيته. ونظم هذا الكلام محمود الوراق، فقال:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ ... وَكَانَ فِي الْأَصْلِ نُطْفَةً مَذِرَهْ
وَهُوَ غَدًا بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِهِ ... يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَهْ
وَهُوَ عَلَى تِيهِهِ وَنَخْوَتِهِ ... مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمِلُ الْعَذِرَهْ

وقال آخر:

هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرُمَةٌ ... وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَوْسَاخِ مَضْرُوبُ
أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذْنٌ رِيحُهَا سَهِكٌ ... وَالْعَيْنُ مُرْمَصَةٌ وَالثَّغْرُ مَلْهُوبُ
يَا ابْنَ التُّرَابِ وَمَأْكُولَ التُّرَابِ غَدًا ... قَصِّرْ فَإِنَّكَ مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبُ

وقيل: المعنى: من أجل ما يعلمون من الأمر والنهي والثواب والعقاب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: نهلكهم ونذهب بهم، ونجيء بخير منهم في الفضل والطوع

والمال، يطيعون ولا يعصون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين، قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ وقرئت: (نَصْبٍ) وهما لغتان، مثل: الضَّعف والضُّعف، قال الجوهري: والنصب: ما نُصب فعبد من دون الله، وكذلك النُّصْب، وقد يحرك، والجمع: الأنصاب، وذا النُّصْب، أي: إياك، وذا النُّصْب والنُّصُب: الشر والبلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وقال الأخفش والفراء: النُّصُب جمع النَّصْب، مثل: رَهْن، ورُهُن، والأنصاب جمع نصب، فهو جمع الجمع. وقيل: النصب والأنصاب واحد، وقيل: النصب جمع نصاب، وهو حجر أو صنم يذبح عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وقد قيل: نصْب ونُصْب ونُصَب بمعنى واحد، كعَمْر وعُمْر وعُمُر، ذكره النحاس. والمعنى: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يبتدرون أيهم يستلمه أولًا، لا يلوي أولهم على آخرهم.

قوله: ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي: يسرعون، والإيفاض الإسراع، قال الليث: وفضت الإبل تفض وفضًا، وأوفضها صاحبها، يقال: وفض، وأوفض، واستوفض، بمعنى: أسرع، فالإيفاض متعد، والذي في الآية لازم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: في الدنيا أن لهم فيه العذاب.

انتهى تفسير سورة المعارج، ولله الحمد.

  

سورة نوح

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠﴾

قوله: ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ أي: بأن أنذر قومك، ويجوز أن تكون (أن) بمعنى المفسرة، فلا يكون لها موضع من الإعراب؛ لأن في الإرسال معنى الأمر، فلا حاجة إلى إضمار الباء.

قوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ جزم بجواب الأمر.

قوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ صلة، وقيل: للتبعيض، أي: بعض ذنوبكم، وهو الذي لا يتعلق بحقوق المخلوقين، وقيل: إنها بمعنى عن، والتقدير: يصفح لكم عن ذنوبكم، وهو المختار.

قوله: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ أي: ينسئ لكم في أعماركم، وقد قضى الله قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك اللهه في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عو جلوا بالعذاب، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها العمر حقيقة، كما جاء عند الشيخين من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». وقيل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم في عافية دون أن يصيبكم عقوبات أو شدائد، والأول أظهر.

قوله: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون، فـ (لو) بمعنى إن، وقيل: التقدير لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لم يؤخر، والقول الثاني أظهر، والأول محتمل.

قوله: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ﴾ وقرئت: (دعائيَ).

قوله: ﴿فِرَارٗا﴾ أي: تباعدًا.

قوله: ﴿كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ أي: إلى أسباب المغفرة ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ لئلا يسمعوا دعائي، ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروه ويسمعهوه، وذلك لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت، وليعرفوه صراحة إعراضهم عنه.

قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ تفخيم.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ وقرئت: (إنّيَ).

قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: نوّع لهم الدعوة؛ ليكون أنجع فيهم، ولكن هيهات، فلا الجهر والإعلان أنفع، ولا الإسرار أنجع. وقرئت: (إنّيَ).

قوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي: كثير المغفرة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ وهذا مقام من مقامات الدعوة، وهو الأسلوب الترغيبي. وقوله: ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي: ذات غيث كثير، وفي هذه الآية دلالة على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار، ويستجلب به الأموال والأولاد.

قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لما لم ينفع معهم أسلوب الترغيب عمد إلى أسلوب الترهيب، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: عظمة وجلالًا وتوقيرًا ومهابة، والوقار: العظمة، والتوقير: التعظيم.

قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقد مضى في سورة المؤمنون، والطور في اللغة: المرة والمرحلة، والمقصود أن من فعل هذا، وأوجدكم على هذا الشكل حقيق أن تعظموه وتقدروه حق قدره.

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في سماء الدنيا، كما يقال: أتاني بنو تميم، وأتيت بني تميم، والمراد: بعضهم. وإذا كان في إحداهن فهو فيهن، تقول: أعطني الثياب المُعلمة، وإن كنت إنما علّمت أحدها. وقيل: (فِيهِنَّ) بمعنى معهن، والتقدير: خلق الشمس والقمر مع خلق السماوات والأرض. قال الشاعر:

وَهَـلْ يَـنْعَمَنَّ مَـنْ كَـانَ آخِـرُ عَهْـدِهِ ثَلَاثِـينَ شَـهْرًا فِـي ثَلَاثَـةِ أَحْـوَالِ

(في) هنا بمعنى مع، عند جمهور أهل اللغة.

قوله: ﴿نُورًا﴾ أي: لأهل الأرض، وقيل: وجهه يضيء لأهل الأرض، وظهره يضيء لأهل السماء، والقول الأول الأول هو الحق والصواب.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ أي: خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من طين، وأنتم نسله وذريته.

قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ أي: عند موتكم في الدنيا.

قوله: ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ يوم البعث والنشور.

قوله: ﴿بِسَاطٗا﴾ أي: مبسوطة.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ وقرئت: (ووُلْدُه) وهي لغة في الولد، والمعنى: اتبعوا كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالًا في الدنيا، وهلاكًا في الآخرة.

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ أي: كبيرًا عظيمًا. يقال: كبير وكُبَار وكُبَّار، مثل عجيب وعُجَاب وعُجَّاب بمعنى، ومثله طويل وطُوَال وطُوَّال. يقال: رجل حسن وحُسَّان، وجميل وجُمَّال، وقُرَّاء للقارئ، ووضَّاء للوضيء.

ومن مكرهم: تحريش سفلتهم على قتل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو تغريرهم كل من أراد الإيمان، وذلك بما أوتوا من الدنيا والولد وغير ذلك من الصدر عن توحيد الله وطاعة نبيه ﷺ.

ومن ذلك قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا (وَدٌّ) فكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا (سُوَاعٌ) فكَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا (يَغُوثُ) فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا (يَعُوقُ) فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا (نَسْرٌ) فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لآلِ ذِي الْكَلاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ». وجاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قوله: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ وهذا من قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي: أضل كبراؤهم كثيرًا من أتباعهم، وقيل:

الأصنام، أي: ضل بسببها كثير، نظيره قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، فأجرى عليهم وصف ما يعقل؛ لاعتقاد الكفار فيهم ذلك، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: عذابًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾. وقيل: إلا خسرانا، وقيل: فتنة بالمال والولد، والكل محتمل.

قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ وقرئت: (خطاياهم)، أي: من خطاياهم، وما صله مؤكدة، وقيل: من أجل خطاياهم. قال قوم: خطايا وخطيّات واحد، جمعان مستعملان في الكثرة والقلة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

والمراد بخطيئتهم: الشرك وما جاء تبعًا له مما سبق ذكره.

وقوله: (فَأُدْخِلُواْ) أي: بعد إغراقهم، نقلوا من تيار البخر إلى حرارة النار، وهذا يدل على عذاب القبر، وهو العذاب في البرزخ، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

قوله: ﴿دَيَّارًا﴾ أي: من يسكن الديار، يقال: ما بالدار من ديار، أي: أحد، وقيل: الديّار: صاحب الدار، والمعنى لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا ديارًا، وهذا من صنيع تأكيد النفي. وقد كان دعاؤه عليهم بعدما قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، فلما علم عواقبهم دعا عليهم بالهلاك أجمعين. قال ابن العربي: فإن قيل: لم جعل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوته سببًا لتوقفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة، وقد جاء هذا عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا؟ قلنا: قال العلماء: في ذلك وجهان: أحدهما: أن تلك الدعوة نشأت عن غضب وقسوة، والشفاعة تكون عن رِضا ورقة، فخاف أن يُعاتَب ويقال: دعوت على الكفار بالأمس وتشفع لهم اليوم؟! الثاني: أنه دعا غضبًا بغير نص ولا إذن صريح في ذلك، فخاف التبعة فيه يوم القيامة، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا». والوجه الثاني أقرب.

وفي هذه الآية أصل الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معين لم تُعلم خاتمته فلا يُدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله من أهل السعادة، ولكن إذا كان ظالمًا معتديًا بلسانه أو بفعاله على الدين وأهل الدين فإنه يدعى عليه ولا يُتورع في ذلك، والأفضل من ذلك أن يُدعى له بالهداية والرشاد والاستقامة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ دعا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوة لنفسه ولوالديه، وكانا مؤمنين، وقد قيل: كان بينه وبين آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عشرة آباء، كلهم مؤمنون، وهو خبر إسرائيلي، لا يصدّق ولا يكذّب.

قوله: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ أي: ولمن دخل مسجدي ومصلاي مصليًا مصدقًا بالله، وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم، فجعل المسجد سببًا للدعاء بالمغفرة، وقد جاء عند الشيخين من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ». وقيل: لمن دخل ديني، والكل محتمل.

قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عامة إلى يوم القيامة. وقد جاء عند أحمد، وأبي داود، والترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُصَاحِبْ إِلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلا تَقِيٌّ».

قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي: هلاكًا ودمارًا وخسارًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾، وهي عامة في كل كافر ومشرك.

انتهى تفسير سورة نوح، ولله الحمد.

  

سورة الجن

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى
ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ
سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ
يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ
فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا
۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا
طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن
يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾

قوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ! قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ؛ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟ فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾. فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، (وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ)».

وقيل: قد رأى رسول الله ﷺ الجن، وهو أثبت، فقد روى مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ! فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَدْنَاكَ، فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ! فَقَالَ: أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.. فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فَقَالَ: لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا؛ فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ مَعَهُ». قال ابن العربي: وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد شاهد، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سامع، وليس

الخبر كالمعاينة. قال البيهقي: الذي حكاه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي ﷺ وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، كما حكاه، ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى، فذهب معه وقرأ عليهم القرآن، كما حكاه ابن مسعود رضي الله عنه.

واختلف أهل العلم في أصل الجن، فقيل: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم عليه السلام، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطان.

وقيل: الجن هم ولد الجان وليسوا بشياطين، وهم يؤمنون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس. والقول الأول هو الحق والصواب، وقد سبق حديث عائشة رضي الله عنها في خلق الملائكة، وخلق إبليس، وخلق آدم عليه السلام.

قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي: في فصاحة كلامه وبلاغة مواعظه وعظيم بركته، وفي هذا تعجب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجن بتدبرها القرآن.

قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: إلى معرفة الله سبحانه، وكل ما هو من مراشد الأمور.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ وقرئت: (وإنّه) بكسر الهمزة في هذا الموضع، والمواضع الآتية: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، و﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، و﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾،﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾،﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾، عطفًا على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وهذه لا يجوز فيها إلا الفتح؛ لأنها في موضع اسم الفاعل، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الكسر. و﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمة ربنا وجلاله، ومنه قول بعض السلف: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جدّ في عيوننا. أي: عَظُم وجلَّ.

وقيل: غناه، ومنه قيل للحظ: جَدّ، ورجل مجدود محظوظ، أي: عَظُم في عيوننا، وقيل: الجدُّ: الملك والغنى والسلطان، ومنه قيل للحظ: جَدّ، ورجل مجدود، أي: محظوظ، وفي الحديث المتفق عليه من طريق المغيرة رضي الله عنه في دعاء النبي ﷺ دبر الصلاة، وفيه: «وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»، أي: ذا الغنى منك الغنى.

والأظهر: العموم، يعني عظمته وجلاله وغناه وآلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي: إبليس لعنه الله، وقيل: السفيه: اسم جنس لكل جاهل زعم أن لله صاحبة أو ولدًا، وقيل: هم كفرة من الجن، والكل محتمل، والأول أقرب.

قوله: ﴿شَطَطًا﴾ أي: جورًا وكذبًا، وأصله: البعد، فيُعَبّر به عن الجور، لبعده عن العدل، وعن الكذب،

لبعده عن الصدق. وقيل: الشطط، والاشتطاط: الغلو في الكفر، والكل معتبر، فإبليس هو مادة الباطل، والزور، والظلم، والشرك، والكفر.

قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ أي: فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولدًا، وأما الآن وقد سمعنا القرآن فقد تبين لنا الحق والصواب.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وذلك من قول الرجل إذا نزل بوادٍ: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه.

قوله: ﴿فَزَادُوهُمۡ﴾ أي: الجن ﴿رَهَقٗا﴾ أي: خطيئة وإثمًا وكفرًا وخوفًا وإرهابًا وذعرًا، والرَّهق: الإثم وغِشيان المحرَّم، ورجل رَهِقٌ، إذا كان كذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾، وأضيفت الزيادة إلى الجن لأنّهم كانوا سببًا لها، ولا ريب أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك عظيم.

قوله: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ﴾ أي: الجن.

قوله: ﴿مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا﴾ أي: زيد في حرسها من حفظة الملائكة، والحرس جمع حارس، وجمع الحرس: أحراس. زيجون أن يكون (حرسًا) مصدرًا، على معنى: حُرِست حراسة شديدة.

قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا﴾ أي: من السماء.

قوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ﴾ أي: مواضع يُقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء، وقد مضى الحديث عن رمي الجن بالشهب في أكثر من موضع.

قوله: ﴿شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ أي: قد أرصد له ليرجم به، فهو فَعَلٌ، بمعنى مفعول، كالخبط، والرصد: الحافظ للشيء، والجمع: أرصاد، والواحد: راصد.

قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ وهذا الكلام منهم أدب جم، حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، وإن كان من خلق الله، والخير والإرشاد أضافوه إلى الله ﷻ، وقد ورد عند مسلم من حديث عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...». والمعنى لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولًا، وهو قول الجن فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي ﷺ، وقيل: لما آمنوا وانصرفوا إلى قومهم منذرين قالوا ذلك.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ أي: قبل استماع القرآن، وهو من قول الجن لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وهو الأظهر، وقيل: قالوا هذا بعد استماعهم للقرآن.

قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ أي: دون الصالحين في الصلاح.

قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ أي: فِرقًا شتى، وأديانًا مختلفة، وأهواء متباينة.

والمعنى: لم يكن كل الجن كفارًا، بل كانوا مختلفين، فمنهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء، ومنهم بعد بعثة الرسول ﷺ كذلك، ومنهم بعد اختلاف الأمة، قدرية، ومرجئة، وخوارج، ورافضة، وسُنة، وقد جاء عند أحمد بن سليمان النجَّاد في أماليه بسند جيد عن الأعمش قال: تروح إلينا جِنّي، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز، فأتيناهم به، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدًا، فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم، فقلت: فما الرافضة فيكم؟ قال: شَرُّنا. قال الحافظ أبو الحجاج المزني: إسناده صحيح. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي، قال: سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد:

قُلوبٌ بَرَاهـا الْحُـبُّ حَتـى تعلَّقـت ... مَـذَاهبُها فِـي كُـلِّ غَـرب وشَـارقِ
تَهـيم بِحُـبِّ اللهِ، واللهُ رَبُّهـا ... مُعَلَّقـةٌ بِـاللهِ دُونَ الخَلائـقِ

و(قِدَدًا) توكيد لـ (طَرَآئِقَ)، واحدها: قِدة، يقال: لكل طريق قِدة، وأصلها من قَدِّ السيور، وهو قطعها. والقِد بالكسر: سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ، ويقال: ماله قِدٌّ ولا قِحْف، فالقِد: إناء من جلد، والقِحف من خشب.

قوله: ﴿هَرَبًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: هاربين.

قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: نقصانًا، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي: عدوانًا، وهذا قول أخبر الله عز وجل عن الجن بقوة إيمانهم وصحة إسلامهم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: وأنا بعد استماع القرآن مختلفون، فمنا من أسلم، ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: الجائرون العادلون عن الحق، والمقسط: العادل إلى الحق، يقال: قسط إذا جار،

وأقسط إذا عدل، فالمقسطون العادلون، كما جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عز وجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ أي: قصدوا طريق الحق وتوخَّوه، ومنه: تحري القِبلة.

قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أي: هؤلاء الكفار يا محمد، أو الخلق كلهم ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: على طريق الإيمان والإسلام والهدى.

قوله: ﴿مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي: كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، يقال: غَدِقَتِ العينُ تَغْدَق، فهي غَدِقة، إذا كثر ماؤها.

قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم في نعمة الماء، والذي هو أصل المال والخير والرزق، وقد قيل: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ -وَفِي رِوَايَةٍ: قِيلَ: وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ؟ قَالَ: زَهْرَةُ الدُّنْيَا-. (ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا، فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَثَنَّى بِالْأُخْرَى)، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، قُلْنَا: يُوحَى إِلَيْهِ. (وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ)، ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا أَوَخَيْرٌ هُوَ؟ (ثَلَاثًا) إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَإِنَّهُ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ، إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَاجْتَرَّتْ- فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، ثُمَّ رَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ-، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالْآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وعند مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».

قوله: ﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ وقرئت: (نسلكه)، واختار الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم، أي: ندخله ﴿عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ أي: شاقًا شديدًا موجعًا لا راحة معه، والصعد في اللغة: المشقة، تقول: تصعّدني، إذا شق عليك، ومنه قول بعض السلف: ما تصعدني شيء ما تصعدني خُطبة النكاح، أي: ما شق علي. والصعد مصدر صَعِد، يقال: صَعِد صَعَدًا، وصُعودًا، فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعد المعذب، أي: يعلوه ويغلبه،

فلا يطيقه. وقال أبو عبيدة: الصعد مصدر، أي: عذابًا ذا صعد، والمشي في الصعود يشق، والصعود: العقبة الكؤود.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة، واحدها: مسجد، أضيفت لله تشريفًا وتكريمًا، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا»، وعند الشيخين من حديث عثمان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ».

وقيل: المراد بالمساجد: الأعضاء التي يسجد عليها، واحدها: مسجد، يقال: سجدت سجودًا، ومسجدًا، كما تقول: ضربت في الأرض ضربًا ومضربًا، كما قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَى الْجَبْهَةِ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ-، وَالْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ، وَلَا نَكْفِتَ الثِّيَابَ وَالشَّعَرَ». وقيل: المساجد هي الصلوات التي بها السجود، والأقوال كلها محتملة، وأظهرها القول الأول.

ويجوز إضافة المسجد إلى شخص تعريفًا، فيقال: مسجد فلان، وإن كانت ملكًا لله تشريفًا، وقد جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر ﵄: «سَابَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي قَدْ أُضْمِرَتْ، فَأَرْسَلَهَا مِنَ الْحَفْيَاءِ، وَكَانَ أَمَدُهَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ، وَسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضَمَّرْ، فَأَرْسَلَهَا مِنْ ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ، وَكَانَ أَمَدُهَا مَسْجِدَ بَنِي زُرَيْقٍ». وهذه الإضافة بحكم المحلية.

وقد جوز العلماء وضع الصدقات فيها، وحبس الغريم، وربط الأسير، والنوم فيها، وسكنى المريض، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عري عن الباطل، ولكن لا تُنشَد فيها الضالة، ولا يُباع فيها ولا يُشترى. وقد قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﵁: «مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا»، وفي حديث بريدة ﵁ عند مسلم: «إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ».

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي: محمد ﷺ حين كان يصلي ببطن نخلة.

قوله: ﴿لِبَدًا﴾ أي: يركب بعضهم بعضًا ازدحامًا وحرصًا على سماع القرآن. وقيل: هو من قول الجن لقومهم حين رأوا صلاة النبي ﷺ وأصحابه، وقد جاء ذلك عند الترمذي بسند جيد من حديث ابن عباس ﵄ قال: «قَوْلُ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، قَالَ: لَمَّا رَأَوْهُ يُصَلِّي، وَأَصْحَابُهُ يُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ، وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، قَالَ: تَعَجَّبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ، قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾». وقيل: تلبدت الإنس والجن على هذا لأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره، والقول الثاني، والثالث واردان، والثالث أظهرها. و(لبدًا): جماعات، وهو

من تلبّد الشيء على الشيء، أي: تجمع، ومنه: اللِّبْد الذي يفرش لتراكم صوفه، وكل شيء ألصقته إلصاقًا شديدًا فقد لبّدته، وجمع اللّبدة: لِبَد، ويقال للشَّعر الذي على ظهر الأسد: لِبدة، وجمعها: لِبد. ويقال للجراد الكثير: لِبد، وفيه أربع لغات: لِبَد، ولُبَد واحدتها: لُبْدة، ولُبُد واحدتها: لَبْد، مثل: سَقْف، وسُقُف، رَهْن، ورُهُن، ولُبَّد، مثل: راكع، ورُكّع، وساجد، وسُجَّد. وقيل: اللُّبد: الشيء الدائم، ولُبُدًا جمع لبيد، وهو الجَوْلَق الصغير، وفي الصحاح: وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: جمًا، ويقال: الناس لُبَد، أي: مجتمعون، واللبد: الذي لا يسافر ولا يبرح منزله.

قال أبو عبيد: وهو أشبه. والبزلاء: الرأي الجيد، وفلان نَهاض ببزلاء، إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ وقرئت: (قال)؛ لأنهم كانوا يحالون أن يداهنهم.

قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ أي: من كفر أو عذاب أو موت، ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ أي: ولا نفعا ولا حياة ولا هدى، والمعنى: إنما عليّ التبليغ والدعوة إلى النفع والرشاد والهدى.

قوله: ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لا يدفع عني أحد عذابه لو تركت دينه أو قصرت في الدعوة إليه.

قوله: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: نصيرًا وحرزًا وملتجأ ألجأ إليه. قال الشاعر:

يَا لَهْفَ نَفْسِي وَلَهْفِي غَيْرُ مُجْدِيَةٍ عَنِّي وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللهِ مُلْتَحَدُ

قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: فإن فيه الأمان والنجاة والسلامة، وهو مهمتي والذي أملكه بتوفيق، وقيل: هو استثناء منقطع من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: إلا أن أبلغكم، أي: لكن أبلغكم ما أرسلت به. وقال الزجاج: وقال الزجاج: منصوب على البدل من قوله: (ملتحدًا) والمعنى: ولن أجد من دونه ملتحدًا إلا أن أبلغ ما يأتيني من الله ورسالاته، أي ومن رسالاته التي أمرني بتبليغها. وقيل: هو مصدر، و(لا) بمعنى لم، و(إن) للشرط، والمعنى: لن أجد من دونه ملتحدًا إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغًا. والقول الأول أقربها، والثاني له وجه.

قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ أهم أم المؤمنون ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: من قيام الساعة أو العذاب، والأول أظهر.

قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ﴾ وقرئت: (ربّيَ).

قوله: ﴿أَمَدًا﴾ أي: غاية وأجلًا.

قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

وقوله: ﴿رَّسُولٖ﴾ يعم الرسول البشري والملكي، قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ وهذا بطريق الوحي إليهم، وهي معجزة له ودلالة على صدق نبوته، وليس المنجم ومن ضاهاه، ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير، ممن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله،، مفترٍ عليه، بحدسه، وتخمينه، وكذبه، متعاون مع الشياطين، قال بعض السلف: يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم، إلا ما تَهتدون به في ظلمات البر والبحر، وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار.

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ أي: يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله، وقد مضى معنى (رصدًا).

قوله: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ أي: الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، علم المشاهدة الذي يترتب عليه الصواب والجزاء، وقيل: ليعلم الرسول ﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما أبلغ هو الرسالة، وفيه حذف يتعلق به اللام، أي: أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق، والقولان محتملان، والقول الأول هو الأظهر.

قوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أي: أحاط علمه بما عند الرسل وما عند الملائكة، وقيل: ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط بما لديهم فيبلغوا رسالاته، والأول أقرب.

قوله: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ أي: في حال العدد، منصوب على الحال، أو على المصدر، أي: أحصى وعدّ كل شيء عددًا.

انتهى تفسير سورة الجن، ولله الحمد.

  

سورة المزمل

وهي مكية على الراجح، إلا آيتين منها، وقيل: مدنية.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْ زِدْ
عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ
فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ
وَكِيلًا ٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ١١ إِنَّ
لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا
١٤ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ
أَخْذًا وَبِيلًا ١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ١٨
إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المتزمل بثيابه حال نومه بالليل، فأدغمت التاء في الزاي، وكذلك ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

وفي أصل (المزمل) قولان: أحدهما: المتحمل، يقال زمل الشيء، إذا حمله، ومنه الزاملة؛ لأنها تحمل القماش، أي: متاع البيت، ويقال له: سقط المتاع. والثاني: أن المزمل: المتلفِّف، يقال: تزمل، وتدثّر بثوبه، إذا تغطى، وزمّل غيره، إذا غطاه، وكل شيء لُفِّف فقد زُمِّل ودُثِّر.

وقيل: يا أيها المتزمل بالنبوة والملتزم للرسالة، وقيل: يا أيها المزمل بالقرآن، والقول الأول أظهر،

أي: المزمل بثيابه، المتغطي بالقطيفة حال نومه. وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه، فإنه لما سمع قول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ونظر إليه أخذته الرِّعدة، فأتى خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ». رواه الشيخان من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: ﴿قُمِ﴾ بكسر الميم لالتقاء الساكنين، وقد قيل: إن ﴿قُمِ﴾ هنا معناه: صلِّ، عبر به واستعير له حتى صار عرفًا بكثرة الاستعمال. قال بعض أهل العلم عند قوله: ﴿قُمِ﴾: فيه تأنيس وملاطفة لنبيه ﷺ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه، وأنه في كنفه ورضاه ومحل رعايته وعنايته. وقد جاء عند الشيخين من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين غاضب فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأتاه وهو نائم في المسجد وقد لصق بجنبه التراب: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ». إشعارًا له أنه غير عاتب عليه، وملاطفة له.

قوله: ﴿ٱلَّيْلَ﴾ حده من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقد جاء عند مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

قالت: «إنَّ الله ﷻ افترَضَ قِيَامَ اللَّيلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ الله ﷺ وَأصحَابُهُ حَولًا، وَأمسَكَ الله خَاتِمَتَهَا اثنَي عَشَرَ شَهرًا فِي السَّمَاء، حَتَّى أنزَلَ الله فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ الليلِ تَطَوعًا بَعدَ فَرِيضَةٍ...». الحديث.

قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي: يسيرًا، وهو ما دون النصف، وقيل: ما دون الثلث، وذلك لراحة الجسد.

قوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، وقيل: نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، والقولان متقاربان، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾.

وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن صلاة النبي ﷺ بالليل؟ قالت: «كَانَ يَنَامُ أَوَّلَهُ وَيقُومُ آخِرَهُ، فَيُصَلِّي ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ وَثَبَ، فَإِنْ كَانَ بِهِ حَاجَةٌ اغْتَسَلَ وَإِلاَّ تَوَضَّأَ وَخَرَجَ». وكان رسول الله ﷺ يقول كما جاء عند الشيخين من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: «أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا». وصلاة النبي ﷺ ليلًا وتفاصيلها تجدها في كتابنا (الجمع بين دواوين السنة الثمانية عشر).

قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني، والترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام، ومنه ثغر رَتِل، ورَتَل، إذا كان حسن التنضيد. قال بعض السلف: تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه وقلبك بفهم معانيه، وسرّك بالإقبال عليه.

وقد جاء عند مسلم من حديث حفصة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا». وعند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: أنه سئل: «كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا. ثُمَّ قَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يَمُدُّ بِبِسْمِ اللهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ»، وعند أحمد، وأبي داود، والترمذي بسند جيد من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنّها: «ذَكَرَتْ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ تَنْعَتُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً». وعند أحمد، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا».

وجاء عند أبي داود بسند صحيح عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ». ورواه الدارمي، وزاد: «فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا».

وعند الشيخين من حديث أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى ﵁: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

وعندهما من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ».

وعند الشيخين عن أبي وائل قال: «غَدَوْنَا عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، فَقَالَ رَجُلٌ: قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ الْبَارِحَةَ. فَقَالَ: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ! إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا الْقِرَاءَةَ، وَإِنِّي لَأَحْفَظُ الْقُرَنَاءَ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ النَّبِيُّ ﷺ: ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حم».

قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ جاء عند الشيخين عن عائشة ﵂: «أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ ﵁ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ. قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، (فَيَفْصِمُ عَنْهُ) وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا». وقال بعض السلف: القرآن ثقيل، لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد، كما قال تعالى عن الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾. وكما أنه ثقيل حال نزوله على نبيه ﷺ، فهو ثقيل في الميزان يوم القيامة.

قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أوقاته وساعاته؛ لأنها تنشأ أولًا فأولًا، يقال: نشأ الشيء ينشأ، إذا ابتدأ وأقبل شيئًا بعد شيء، فهو ناشيء، وأنشأه الله، فنشأ، ومنه: نشأت السحابة، إذا بدأت، وأنشأها الله. فـ ﴿نَاشِئَةَ﴾ فاعلة، من نشأت تنشأ، فهي ناشئة، ومن قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، والمراد: إن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم، والأظهر أن كل ساعة من الليل تسمى ناشئة؛ لأن الليل ينشأ بعد النهار، وقيل: الناشئة: القيام بالليل بعد النوم، ومن قام أول الليل قبل النوم فما قام ناشئة.

قوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ وقرئت: (وِطاءً)، أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، وقيل: هي من قولك: اشتدت على القوم وطأة سلطانِهم، أي: ثقل عليهم ما حمّلهم من المؤن، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ». والمعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار، وذلك أن الليل وقت منام وتودع وإجمام.

والجمع بين القولين أن قراءة (وِطاءً)، وهي التي اختارها أبو عبيد، المقصود بها: القول الأول، وهي مصدر واطأت وِطاء، ومواطأة، أي: وافقته، وفلان يواطئ اسمه اسمي، وتواطئوا عليه، أي: توافقوا.

وقراءة (وَطئًا) هي التي اختارها أبو حاتم، والمقصود بها: المعنى الثاني. وقيل: القراءتان بمعنى، والمقصود به: المعنى الأول؛ لأن الوطء: الثبات، تقول: وطئت الأرض بقدمي، والقولان محتملان، وكل منهما مما يعطيه اللفظ، وتقتضيه اللغة، ويصححه الواقع.

قوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: القراءة بالليل أقوم قولًا، وأتم نشاطًا، وأعظم إخلاصًا، وأكثر بركة منها بالنهار، كما أنها أشد استقامة، وأصوب قراءة، وأثبت حفظًا؛ لأنه زمن التفهم، فالأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه.

وفي هذا بيان فضل صلاة الليل على صلاة النهار، لا سيما إذا كانت في الثلث الأخير من الليل، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» وَلِمُسْلِمٍ فِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدُومٍ وَلَا ظَلُومٍ؟. وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ».

قوله: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تطوعا كثيرا، وقيل: تصرفا في حوائجك، والسبح: الجري والدوران، ومنه ومنه: السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه، وفرس سابح: شديد الجري.

وقيل: السبح الفراغ، أي: إن لك فراغًا للحاجات بالنهار، وفراغا لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، ويقال: (سَبْخًا). أي: خفة وسعة واستراحة. قال الشاعر:

فَسَبِّخْ عَلَيْكَ الْهَمَّ وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ ... إِذَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ شَيْئًا فَكَائِنُ

يقال: سبخ الله عنك الحمى، أي: خففها. وسبخ الحر: فتر وخف. والتسبيخ: النوم الشديد. والتسبيخ أيضًا: توسيع القطن والكتان والصوف وتنفيشها، يقال للمرأة: سبخي قطنك. ويقال لقطع القطن: سبائخ، والمسبخ من القطن: ما يسبخ بعد النَّدف، أي: يُلَف لتغزله المرأة، والقطعة منه سَبِيخة، وكذلك من الصوف والوبر. والسبخ: التردد والاضطراب، والسبخ أيضًا: السكون، فعلى هذا يكون من الأضداد، والقول الأول أقرب، والثاني محتمل.

قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: انقطع إلى عبادة الله، فلا تشرك به أحدًا، يقال: بتلت الشيء، إذا قطعته، ومنه قولهم: طلقها بَتَةً بَتلةً، وهذه صدقة بتة بتلة، أي: بائنة منقطعة عن صاحبها، ومنه: مريم البتول؛ لانقطاعها إلى الله، ويقال للراهب: متبتل؛ لانقطاعه عن الناس وانفراده بالعبادة. وقد جاء عند الشيخين من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «رَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لَاخْتَصَيْنَا».

وخلاصة القول أن المأمور به من التبتل هو الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ

أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾، والتفرغ للعبادة عند الفراغ من احتياجاته الدنيوية كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾، وأن المنهي عنه من التبتل هم سلوك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، ولكن لا شك أنه عند فساد الزمان وخفة الأمانات ومروج العهود تكون العزلة لمن لا يستطيع الخلطة خيرًا له من الخلطة، والغُربة أفضل من التأهُّل، ويكون الحال كما قال الرسول ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»، رواه البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ قرئت: (ربِّ) بالخفض على نعت الرب تعالى.

قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك.

قوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ تَهديد ووعيد، لا يعلم مداه إلا من أخبر به، لو وُجِّه إلى الجبال الراسيات لذابت خوفًا وهلعًا كما يذوب الملح في الماء، جاء عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللهِ يَا رَبِّ».

قوله: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ أي: قيودًا ثقيلة، واحدها: نِكل، وهو ما يمنع الإنسان من الحركة، وقد سمي نِكلًا لأنه ينكل به لقوته وثقله.

قوله: ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي: من غسلين، وزقوم، وضريع، متعلق بالحلق لا يجري، لا هو نازل ولا هو خارج، والغُصة: الشَّجا، والمنْزل غاص بأهله، أي: ممتلئ بهم.

قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا﴾ أي: رملًا مجتمعًا.

قوله: ﴿مَّهِيلًا﴾ أي: سائلا متناثرًا، إذا وطئته بالقدم زل من تحتها، وإذا أخذت أسفله انْهال، وأصله: مهيول، وهو مفعول من قولك: هِلْت عليه التراب أهيله هَيلًا، إذا صببته، يقال: مهيل ومهيول، ومكيل ومكيول، ومدين ومديون، ومعين ومعيون، وأهلت الدقيق، لغة في هِلْت، فهو مُهال، ومَهيل.

قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ أي: محمد ﷺ، أرسله إلى الناس كافة، لاسيما قريش والعرب عمومًا.

قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ أي: موسى عليه السلام.

قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ أي: ثقيلا شديدا، وضرب وبيل، وعذاب وبيل، أي: شديد، وقيل:

ثقيل وغليظ.

واستوبل فلان كذا، أي لم يحمد عاقبته، وماء وبيل، أي: وخيم غير مريء، وكلأٌ مستوبَل، وطعام وبيل، ومستوبل، إذا لم يُمرئ ولم يُستمرأ، ويقال للعصا الضخمة: الوبيل. والمَوبِلة: الحزمة من الحطب، وكذلك الوبيل.

والمقصود أنه أخذهم أخذًا ثقيلًا شديدًا وغليظًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ توبيخ وتقريع، والمعنى: كيف تتقون ويحصل لكم أمان من العذاب يومًا يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا؟ ويحتمل التقدير: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أحسن وأولى، وقد جاء عند مسلم من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «... يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾، ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا».

وعند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ...» الحديث.

قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ أي: متشققة لشدته وهوله، أي: بسببه، وقيل: متشققة فيه، وقيل: مشققة له، أي: لذلك اليوم، والقول الأول أظهرها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ هذه الآية تفسير لقوله في أول السورة: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، حيث انتقل الأمر من الواجب إلى المباح، فهذه الآية ناسخة لفرضية قيام الليل، كما تقدم في أول السورة من حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم.

قوله: ﴿تَقُومُ﴾ أي: تقوم.

قوله: ﴿أَدْنَىٰ﴾ أي: أقل.

قوله: ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ وقرئت: (ثلْثي) بإسكان اللام، و(ونصفِه وثلثِه) بالخفض، والمعنى: تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه، واختار أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، إذ كيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه، وقراءة النصب عطفًا على ﴿أَدۡنَىٰ﴾، والتقدير: تقوم أدنى من ثلثي الليل، وتقوم نصفه وثلثه، قال الفراء: وهو أشبه بالصواب؛ لأنه قال أقل من الثلثين، ثم ذكر نفس القِلة، لا أقل من القلة، وهذا القول هو الأظهر. والمعنى: تارة تقوم النصف، وتارة تقوم الثلث، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، والله تعالى لا يخفى عليه مما تفعلون من قيام وتهجد.

قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: علم الله أنكم لن تطيقوا فرض قيام الليل إذا أوجبه عليكم.

قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ تخفيف بعد تثقيل، ويسر بعد عسر.

قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ عبَّر عن القيام بقراءة القرآن، وأطلق اسم الجزء وأراد به الكل؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: صلاة الفجر، وقد جاء عند أبي داود، وابن حبان بسند جيد من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ». وجاء من حديث تميم الداري رضي الله عنه عند ابن السني بسند جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَتَيْ آيَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوتُ لَيْلَةٍ».

وقد استدل أصحاب أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه، واعتضدوا بحديث المسيء صلاته، الذي عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»، وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه الثابت عند الشيخين قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»، وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ خِدَاجٌ خِدَاجٌ غَيْرُ تَمَامٍ»، وعند ابن خزيمة بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُجْزِئُ صَلاةٌ مَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ».

قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ فخفف عن الكل، وما جعل عليهم في الدين من حرج، وقد سوّى الله

تعالى بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على النفس والعيال والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلًا على أن كسب المال الحلال بمنْزلة الجهاد، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ، الصَّائِمِ النَّهَارَ».

قال بعض السلف: ما خلق الله موتة أموتُها بعد الموت في سبيل الله أحب إليَّ من الموت بين شعبتي رحلي أبتغي فضل الله ضاربًا في الأرض.

وخلاصة القول أن قيام الليل ليس بواجب، استدلالًا بحديث: «أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ»، وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين قال: قال رسول الله ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ»، وإنما هو مستحب، وذلك لحديث عائشة رضي الله عنها الذي سبق في مطلع السورة، وهو صريح في المسألة، ولحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عند الشيخين قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»، ولو كان فرضًا ما أقرّه النبي ﷺ ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان يذمه غاية الذم.

وأما حديث علي رضي الله عنه عند أبي داود وغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا، فَإِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ» صححه ابن خزيمة، فهو محمول على الاستحباب، ثم هو نص في الوتر، لا في قيام الليل ثم إنه قد زاد الترمذي قوله: «الوِتْرُ لَيْسَ بِحَتْمٍ كَهَيْئَةِ الصَلاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَلَكِنْ سُنَّةٌ سَنَّهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ»، وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ... » فهما محمولان على من نام عن الصلاة المكتوبة، لحديث سمرة رضي الله عنه عند البخاري، عن النبي ﷺ في الرؤيا قال: «أَمَّا الَّذِي يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفِضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ»، فيحمل مطلق حديث أبي هريرة، وابن مسعود رضي الله عنهما على مقيد حديث سمرة رضي الله عنه، ثم إنه قد ثبت في الصحيحين من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال للرجل الذي جاء يسال عن الإسلام: «... خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لا إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ...»، وقد بقي قيام الليل في حق رسول الله ﷺ واجبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾.

قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وبهذا استدل من قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة دون تحديد مقاديرها، إذلم يتبين ذلك إلا بالمدينة.

قوله: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ القرض: القطع، فالمقرض يقطع قدرًا من ماله ويدفعه إلى غيره،

والمتصدق يقطع قدرًا من ماله ويجعله لله تعالى.

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ جاء عند البخاري من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ قَالَ: فَإِنَّ مَالَه مَا قَدَّمْ، وَمَالَ وَارِثِه مَا أَخَّرْ».

قوله: ﴿هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ نصبت كل منهما على المفعول الثاني لـ ﴿تَجِدُوهُ﴾، و﴿هُوَ﴾ فصل عن البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب، و﴿أَجۡرٗا﴾ تمييز.

انتهى تفسير سورة المزمل، ولله الحمد.

  

سورة المدثر

وهي مكية بالإجماع.

جاء عند الشيخين من حديث أبي سلمة: «أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾! فَقَالَ: لَا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَتَرَ عَنِّي الوَحيُ فَتْرَةً-، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ الْوَادِيَ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي -وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَفَعْتُ رَأْسِي-، فَإِذَا هُوَ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ- جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا. وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ-، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا. وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾». والجمع بين هذا الحديث، وبين حديث عائشة رضي الله عنها المتفق عليه، أول شيء نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أن السؤال في حديث جابر رضي الله عنه كان عن نزول سورة كاملة، فبيَّن رضي الله عنه أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل تمام سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة، كما جاء عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا...» وهذا يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا: لقوله: «فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ». وهو جبريل عليه السلام حين أتاه بأول سورة العلق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فيه ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفة، ولم يقل: يا محمد، يا فلان؛ ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، كما تقدم عند قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

أصلها ﴿المتدثر﴾ قلبت التاء دالًا، والدثار: ما فوق الثوب الذي يلي الجسد، ومنه ما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه عندما قسم رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين ووصف الأنصار بأنهم أقرب الناس إليه والناس بعدهم، فقال ﷺ: «الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ».

قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: خوّف المشركين عذاب الله إن لم يحققوا توحيده ويستسلموا لشريعته ويؤمنوا برسوله ﷺ.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: قدّس ونزّه، واجعل في صلاتك: الله أكبر، أي: أكبر من كل شيء وأعلى وأجل من كل كائن. وهذه العبارة هي المتعبد بها في الصلاة، وعند النسك. والفاء في ﴿فَأَنذِرْ﴾، و﴿فَكَبِّرْ﴾ دخلت على معنى جواب الجزاء، كقولك: زيدًا فاضرب، أي: زيدًا اضرب، فالفاء صلة.

قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: الثياب الملبوسة على الظاهر، طهّرها من النجاسة، وقد استدل بعضض العلماء بهذه الآية على وجوب طهارة الثوب، وهو قول الشافعي، وليست عند مالك بفرض، وكذلك طهارة البدن، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل، وقيل: عملك فأصلح.

ويقال إذا كان الرجل خبيث العمل: إن فلانًا خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا: إن فلانًا طاهر الثياب، ومن ذلك: ما جاء عند أبي داود بسند جيد من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يُبْعَثُ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا». وعلى مذهب أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يستدل بهذا الحديث للقول الأول، حيث يرى أنها الثياب الملبوسة، ولذلك لما حضره الموت دعا بثياب جُدُد فلبسها، وقيل: الثياب: القلوب، تطهر من الإثم والغدر. قال الشاعر:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وقيل: النفس، والعرب تكني عن النفس بالثياب. قال الشاعر:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

وقيل: الجسم. قال الشاعر:

رَمَوْهَا بِأَثْيَابٍ خِفَافٍ فَلَا تَرَى ... لَهَا شَبَهًا إِلَّا النَّعَامَ الْمُنَفَّرَا

أي: ركبوها -أي: الإبل- فرموها بأنفسهم.

وقيل: الأهل، والعرب تسميهم ثوبًا، ولباسًا، وإزارًا، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، فيكون المعنى: طهّر نساءك، فلا تختر إلا العفائف، ولا تعاشرهن إلا في موقع الولد، في القبل دون الدبر.

وقيل: الخُلق؛ لأن خُلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، وقال الشاعر:

وَيَحْيَى لَا يُلَامُ بِسُوءِ خُلْقٍ ... وَيَحْيَى طَاهِرُ الْأَثْوَابِ حُرُّ

أي: حسن الأخلاق.

وقيل: دينك فطهِّر؛ لما ثبت عند الشيخين من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ. قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الدِّينَ». والقول الأول والثالث مجتمعان هو الأرجح. قال الشاعر:

إِذَا المرءُ لَمْ يَدْنَس مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُه ... فَكُلّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيه جَمِيلُ

قوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ وقرئت: (والرِّجْز)، وهما لغتان، مثل: الذِّكر والذُّكر، والرجز: الأوثان، قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، والرُّجز يأتي بمعنى الصنم، أو العذاب، أو النجاسة والمعصية.

قوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ أي: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق، وقيل: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، ولا تعظمه في عينك أن تستكثر من الخير، وإنما عملك منّة من الله عليك إذ جعل لك سبيلًا إلى عبادته، والمعنيان محتملان، والأول أظهر، يقال: مننت فلانًا كذا، أي: أعطيته، ويقال للعطية: المنّة، فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها.

قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي: على أداء فرائضه وعبادته وقضائه؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه.

قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي: نفخ في الصور، والناقور فاعول من النقر، كأنه الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب: الصوت، ويقال: نقّر باسم الرجل، إذا دعا مختصًا له بدعائه، وقد جاء عند الترمذي وصححه من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ، مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟». وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، قَالَ: كَانَ زُرَارَةُ بْنُ أَوْفَى قَاضِيَ الْبَصْرَةِ، فَكَانَ يَؤُمُّ فِي بَنِي قُشَيْرٍ، فَقَرَأَ يَوْمًا فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾، خَرَّ مَيِّتًا.

قوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ أي: خلقته وحده، لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته. قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان مؤذيًا للرسول ﷺ، وقيل: ذرني وحدي معه فأنا أكفيكه، وقيل: انفردت بخلقه ولم يشركني فيه أحد فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه، والقول الأول أظهر. وقيل: الوحيد الذي لا يعرف أبوه، وكان الوليد معروفًا بأنه دَعِيٌّ، كما ذكرنا عند قوله: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ أي: واسعًا كثيرًا لا ينقطع.

قوله: ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ أي: حضورًا عنده لا يسافرون، بل مواليهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى.

قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أي: بسطت له في العيش بسطًا، حتى أقام ببلدته مطمئنًا مترفّهًا يرجع إلى رأيه، والتمهيد عند العرب: التوطئة والتهيئة، ومنه: مَهْدُ الصبي.

قوله: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ أي: أزيده في المال والولد.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي: قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة، ويكون الكلام متصلًا بالكلام الأول، وقيل: بمعنى حقًا، ويكون ابتداء، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ﴾ أي: سأكلفه وسأُلجئه، والإرهاق في كلام العرب: أن يُحمل الإنسان على الشيء.

قوله: ﴿صَعُودًا﴾ أي: جبل من نار يتصعد فيه، ثم يهوي كذلك فيه أبدًا، وقيل: سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه، والأول محتمل.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: هيّأ الكلام في نفسه، والعرب تقول: قدرت الشيء، إذا هيأته. وكان الوليد قد سمع النبي ﷺ يقرأ القرآن، فقال لقومه: والله لقد سمعت منه كلامًا، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالكذب، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر، فقالت قريش: صبأ الوليد، لتصبون قريش كلها، فقيل له: إذا لم يكن شعرًا ولا جنًا ولا كهانة فما هو؟ ففكر في نفسه، فقال: ما هو إلا سحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۖ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧﴾

قوله: ﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لُعن، وقيل: قهر وغُلب، وكل مُذَلّل مُقَتَّل. وقيل: عُذّب، وهو من باب الدعاء، والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ تعجب، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ أي: لُعن لعنًا بعد لعن على أي حال قدّر.

قوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأي شيء يرد الحق ويدفعه.

قوله: ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قطّب بين عينيه في وجه النبي ﷺ والذين آمنوا مستنكرًا دعوتَهم له إلى الإسلام، والعَبْس مصدر يَعْبِسُ عبساً وعُبُوسًا، إذا قطّب، والعَبَس: ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها.

قوله: ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كلح وجهه، وتغير لونه، والعرب تقول: وجه باسر واضح البسور، إذا تغير واسودّ. وقيل: العبوس في الوجه بعد المحاورة، والبسور في الوجه قبل المحاورة.

قوله: ﴿سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ أي: يأثره عن غيره، والأثرة مصدر قولك: أثرت الحديث آثِره، إذا ذكرته عن غيرك، ومنه: حديث مأثور: إذا نقله خلف عن سلف.

قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ أي: المخلوقين، يختدع به القلوب كما تختدع بالسحر.

قوله: ﴿سَقَرَ﴾ أي: جهنم، وسميت بهذا الاسم من سَقَرَتْهُ الشمسُ، إذا أذابته، ولوّحته، وآلمته، وأحرقت جلده ووجهه، ولا ينصرف للتعريف والتأنيث.

قوله: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تترك لهم عظمًا ولا لحمًا ولا دما إلا أحرقته، ولا يبقى من فيها حيًا، ولا تذره ميتًا، وكرر اللفظ للتأكيد، ثم يعادون من جديد.

قوله: ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ أي: مُغَيِّرة، يقال: لاحه، إذا غيّره، والعرب تقول: لاحه البرد والحر والسقم، إذا غيره. وقيل: اللوح: شدة العطش، يقال: لاحه العطش، ولوّحه، أي: غيّره، والمعنى أنها معطشة للبشر. وقيل: تلوح للبشر من مكان بعيد حتى يردها عيانًا، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾، والقول الأول أقرب، والثاني محتمل.

قوله: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ أي: سقر تسعة عشر من الملائكة، ومالكٌ أحدهم، يلقون فيها أهلها، وهم خزنتها، وقيل: هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وقد ثبت عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا». والقول الأول أظهر.

ولا يمكن أن نقول: هم قليلون؛ لأن العبرة ليست بالعدد، وإنما بالقوة والعظمة، ألا ترى أن الله عز وجل أخبر بأن الذين يحملون عرشه ثمانية: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾، والعرش أعظم من

النار بمراحل، ولكن لا يمنع غيرهم.

وقد قيل: إن أبا جهل لما سمع هذه الآية قال لقومه: ثكلتكم أمهاتكم، أسمعُ ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم -أي: العدد والشجعان- فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ فقال أبو الأسود بن كَلَدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة -يقولها مستهزئًا- ولا تعليق على هذه المقالات السخيفة من جهلة حمقاء، إلا أن يقال: أين هم الآن؟ وسنراكم ونرى مصيركم غدًا، وحينها نرى ما أنتم فاعلون عندما ترون النار من مكان بعيد؟ ثم يقال: من الذي نزع أرواحكم فأرداكم جثثًا هامدة؟ ثم أليس الذي قتلك يا أبا جهل غلامان حديثة أسنانُهما ولم تستطع لهما مقاومة؟ ثم يقال: يا كلدة ألستَ دعوت الرسول ﷺ إلى المصارعة، وقلت: إن صرعتني آمنت بك؟ فصرعك مرارًا، فلم تؤمن، وقد وردت المصارعة النبوية مع ركانة، ولا منافاة بين القصتين، فقد صارع ذا وذاك، ثم يقال: ما أكثر جنس هذه المقالات من طواغيت الأمس وطواغيت اليوم، وهي مقالات تُضحكهم قليلًا، وستُبكيهم كثيرًا، يحسبها الجاهلون شطارة، وهي بلادة، وحماقة، وحقارة.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لم نجعلهم رجالًا فتتعاطون مغالبتهم؛ لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرحمة، ولا يستروِحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمَن هوادتُهم، ولأنهم أشد خلق الله بأسًا وأقواهم بطشًا.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بلية وضلالة وفتنة للذين كفروا، كأبي جهل، وأبي الأسود بن كلدة، وأضرابِهما إلى يوم القيامة، والمعنى أنها سبب كفرهم وسبب عذابِهم.

قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ليوقنوا أن عدة خزنة جهنم موافقة لما في التوراة والإنجيل، ومن لأن هذا العدد، معروف عندهم، ومطابق، لما بأيديهم من التوراة، والإنجيل، ويحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أي: بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ، ولأنهم كلما صدقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثم ازدادوا إيمانًا لتصديقهم بعدد خزنة جهنم.

قوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي: خلاف وشك وارتياب، وكان أهل مكة أكثرهم شاكّين، وبعضهم قاطعين بالكذب. وقيل: أي: نفاق. ولكن يقال: هو إخبار بما كان، وبما سيكون مستقبلًا، والمخبر به العليم الخبير، ولذا فالمرض هنا: النفاق والشك معًا، قال الليث: المثل: الحديث. ومنه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: حديثها وخبرها.

قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: وما يدري ما عدد ملائكة الله في سماواته وأرضه وما بين ذلك إلا هو، وعند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ. وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ». وَفِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه عند الطبراني بسند لا بأس به، قال ﷺ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ، وَلا شِبْرٍ، وَلا كَفٍّ، إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قَالُوا: جَمِيعًا سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا».

وجاء عند ابن نصر المروذي من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ بسند لا بأس به، قال ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ يَقْطُرُ دَمْعُهُ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ مَلَكًا قَائِمًا يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَرْفَعُوا رُءُوسَهُمْ، لَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُءُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُءُوسَهُمْ وَنَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللهِ قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ كَمَا يَنْبَغِي لَكَ».

قوله: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: دلائل وحجج، وقيل: وما هذه النار التي هي سقر إلا عظه، وقيل: ﴿وَمَا هِىَ﴾ أي: الجنود، والقول الثاني هو الأظهر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أي: العظائم، وكان ذلك بعد القسم، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقًا، فلا يوقف عليها، وأجاز الطبري الوقف عليها، وجعلها ردًا للكافرين الذين يزعمون أنّهم يقاومون خَزَنة جهنم. أي: ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار، وقيل: المعنى: أي: والقمر. والأظهر: ما ذهب إليه ابن جرير رحمه الله.

قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وقرئت: (إذا دَبَر)، وهما لغتان بمعنى: ولّى، يقال: دبر وأدبر، وكذلك: قَبل الليل وأقبل. وقد قالوا: أمس الدابر والمدبر، وهذا هو الأظهر. وقال بعض أهل اللغة: دبر الليل: إذا مضى، وأدبر: أخذ في الإدبار. وقال قطرب: من قرأ (دَبَر) فيعني: أقبل، من قول العرب: دبر فلان، إذا جاء من خلفي. قال أبو عمرو: وهي لغة قريش. واختار أبو عبيد: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ قال: لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه.

قوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي: إذا أشرق، وفي الحديث عند أبي داود بسند جيد من طريق رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَسْفِرُوا بِالْفَجْرِ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلأَجْرِ». أي: طولوه إلى الإسفار، ويقال: سَفَرَ، وهما لغتان: سفر وجه فلان، وأسفر، إذا أضاء، والإسفار: الإنارة، وسفرت المرأة: كشفت عن

وجهها، فهي سافر، وقيل: من سَفَر الظلام، أي: كنسه كما يسفر البيت، أي: يُكْنَس، ومنه: السَّفير، لما سقط من ورق الشجر وتحاتَّ، يقال: إنما سمي سفيرًا لأن الريح تسفره، أي: تكنسه، والمِسْفَرة: المِكْنَسة.

قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أي: الدواهي والعظائم، ويقال: الكُبَر: اسم من أسماء النار.

قوله: ﴿نَذِيرًا﴾ أي: النار، وقيل: المراد بالنذير: محمد ﷺ، أي: قم نذيرًا للبشر، وقيل: القرآن، والقول الأول أظهر، وهو منصوب على الحال، وقيل: هو في موضع المصدر، كأنه قال: إنذارًا للبشر، أي: أنذر إنذارًا، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري، والقول الأول أصح.

قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ أي: إلى الخير والطاعة، وقوله: ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: إلى الشر والمعصية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾، وهو وعيد وتَهديد، وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلّصها، وإما أوبقها، وليست ﴿رَهِينَةٌ﴾ تأنيث رهين في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين؛ لأن فعيلًا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هو اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة، بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين. والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك.

قوله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: فإنّهم لا يرتَهنون بذنوبهم، وهم المؤمنون المخلصون.

قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أي: ما أدخلكم، يقال: سلكت الخيط في كذا، أي: أدخلته فيه. فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، يا فلان.

قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم ونتكلم فيما لا نعلم، وكلما غوى غاوٍ غوينا معه.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت، كقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾. وقد قال رسول الله ﷺ عن عثمان بن مظعون لما مات: «أما هو فقَد جَاءَهُ اليَقِينُ مِن رَبِّه». رواه البخاري من حديث أم العلاء بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

قوله: ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: الملائكة والنبيون، وفي هذا دلالة على صحة الشفاعة للمذنبين، وقد سبق هذا

المبحث.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: في فرارهم عن موعظة محمد ﷺ، ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ وقرئت: (مُنَفَّرة)، أي: الحمر الوحشية نافرة مذعورة، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، وأبو حاتم، يقال: نفرت، واستنفرت بمعنى، مثل: عَجِبت، واستعجبت، وسخرت، واستسخرت.

قوله: ﴿فَرَّتْ﴾ أي: نفرت وهربت ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من رماة يرمونها وصيادين يصطادونَها. وقيل: هو الأسد، من القَسْر، وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، وقيل: هم عُصَب الرجال، وهو قول تابع للأول. ويقال: القسورة بلسان العرب: الأسد، وبلسان الحبشة: الرماة، وكل شديد عند العرب، فهو قسورة وقَسْور. والقول الثاني أظهر، والأول محتمل.

قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي: يعطى كتبًا مفتوحة منزلة عليه من الله عز وجل، كما كان ينزل على رسول الله ﷺ من الوحي، وقيل: كانوا يقولون: إن كان محمد صادقًا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار، والأول أقرب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس يكون من ذلك، الذي هو إعطاء الصحف المنشرة، وقيل: حقًا، والأول أجود.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: حقًا إن القرآن عظة.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اتعظ به.

قوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ وقرئت: (وما تذكرون)، أي: وما يتعظون، أو تتعظون، واختار الأولى أبو عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، واختار الثانية أبو حاتم؛ لأنه أعم.

قوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: أنا أهل أن أُتقى ممن اتقاني، فأنا أهل أن أغفر له أو أنا أهل أن يتقيني عبدي، والمقصود أنه سبحانه أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب.

انتهى تفسير سورة المدثر، ولله الحمد.

  

سورة القيامة

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾

قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أقسم، واللام صلة مؤكدة، وقد اختلف المفسرون في تفسير (لَآ)، فقال بعضهم: هي صلة للزينة، وهذا يجري في كلام العرب، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أي: أن تسجد. وقال بعضهم: (لَآ) ردٌّ لكلامهم حين أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين؛ لأن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ، وذلك كقولهم: لا والله لا أفعل، فاعتبرت (لَآ) ردٌّ لكلام قد مضى، وكقولك: لا والله إن القيامة لحق، كأنك أكذبت قومًا أنكروا. وفائدتُها: توكيد القسم في الرد، والأظهر أنّها تأتي صلةً للتوكيد، وردًا لما أنكروه تارةً، وتارةً تأتي صلةً للزينة، وهي جارية في لسان العرب، وذلك بحسب السياق وما يدل عليه، فإن أمكن حمله على القول الثاني بُدئ به، وإلا فالقول الأول.

قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: أقسم أيضًا بنفس المؤمن، الذي لا تراه إلا يلوم نفسه ويعاتبها، يقول: ما أردت بكذا؟ يلوم على ما فات ويندم، فالشر: لم فعله؟ والخير: لماذا لم تستكثر منه؟ وقيل: إنها ذات اللوم. أي: لائمة تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها، والكل وارد، والأول أظهر. وهو صفة مدح، وقيل: الملومة المذمومة، وفي نفس الفاسق والكافر، يلوم نفسه ويتحسر في اللاخرة على ما فرط في جنب الله، والثواب: القول الأول.

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي: فنعيدها خلقًا جديدًا بعد أن صارت رفاتًا، والإنسان هنا: الكافر المكذب بالبعث.

قوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: أصابعه، واحدها: بنانة، ونبه بالبنان على بقية الأعضاء؛ لأنها أصغر العظام، فَخُصت بالذكر لذلك، ومن قدر على إعادة أصغر العظام، وأدق التجاويف،

والخطوط، في أطراف الأصابع، فهو على جمع كبار العظام أقدر، وقيل: نجعل أصابع يديه ورجليه في الدنيا شيئًا واحدًا كخف البعير، لا يمكنه أن يعمل بها شيئًا، ولكنا فرقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء، والقول الأول هو الصواب، وقيل: نجعل أطراف أصابعه مستوية.

قوله: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: يكذب بما أمامه من البعث والحساب. وقيل: ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: يعمل المعصية ويسوف التوبة، يقول: سوف أتوب، ولا يتوب، وهو من أمل إلى أمل، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: متى يكون، على وجه الإنكار والتكذيب.

قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ وقرئت: (بَرَقَ)، والمعنى: على هذه القراءة: لمن بصره عند الموت من شدة شخوصه، فتراه لا يطرف، وقيل: عند رؤية يوم القيامة، وهذا الأقرب. والمعنى على القراءة الأولى: فزع وبهت وتحيّر. والعرب تقوم للإنسان المتحير المبهوت: قد بَرِقَ، فهو بَرِقٌ. وقيل: برق يبرق: شق عينيه وفتحهما.

قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه، فهو في الدنيا إلى انجلاء، وفي الآخرة لا يعود، وقيل: غاب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، والمعنيان متقاربان.

قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ أي: في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسفه، ولم يقل: جمعت؛ لأن المعنى: جمع بينهما، على تغليب المذكر، أو حملًا على المعنى، كأنه قال الضوءان. وقيل: كأنهما ثوران عقيران. وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فقيل: يجمع الشمس والقمر فلا يكون تعاقب الليل والنهار، وقيل: يكوران في جهنم، وهو الصحيح.

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ أي: أين المهرب من جهنم حذرًا منها. وهذا الإنسان هو الكافر، وأما المؤمن فقد وثق ببشرى ربه. وقيل: أين المفر من الله استحياء منه، والقول الأول هو الحق والصواب. ويقال في اللغة: المِفر والمَفر، مثل: مِصح ومَصح. قال الشاعر:

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقْبِــلٍ مُــدْبِرٍ مَعًــا ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

أي: فرس جيد الكرّ والفرّ.

قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي: لا مفر ولا ملجأ من النار، والوزر في اللغة: ما يُلجأ إليه من حِصن أو جبل. وقد كانوا في الدنيا إذا فزعوا تحصنوا في الجبال، كما قال الشاعر:

وَلَقَــدْ تَعْلَــمُ بَكْــرٌ أَنَّنَــا ... فَاضِــلُو الــرَّأْيِ وَفِــي الــرَّوْعِ وَزَرْ

أي: ملجأ للخائف.

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ أي: المنتهى والمرجع والمآب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾.

قوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: البار والفاجر، ﴿يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ﴾ أي: بأول عمله، ﴿وَأَخَّرَ﴾ من عمله، وقيل: بما أسلف من عمل سيء أو صالح، أو أخر من سنة سيئة أو صالحة يعمل بها بعده، وهذه أظهر الأقوال. وقد جاء عند ابن ماجه، وابن خزيمة بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ». وفي حديث أبي هريرة ﵁ عند مسلم، قال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». وفي حديث جرير ﵁ عند مسلم، قال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ». قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾، ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾.

والمقصود أنه يخبر بجميع أعماله، قديمها وحديثها، أولها وآخرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾.

قوله: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ أي: هو البصيرة، كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، أو شاهد أو حكم عليها، وقد سبق مبحث شهادة الجوارح على صاحبها، والبصيرة الشاهد. قال الشاعر:

كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْنًا بَصِيرَةً ... بِمَقْعَدِهِ أَوْ مَنْظَرٍ هُوَ نَاظِرُهُ

يُحَاذِرُ حَتَّى يَحْسِبَ النَّاسَ كُلَّهُمْ ... مِنَ الْخَوْفِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ سَرَائِرُهُ

وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان هنا: الجوارح، فالمعنى: بل اجوارح على نفس الإنسان بصيرة. وقال ناس: الهاء في ﴿بَصِيرَةٞ﴾ هي التي يسميها أهل الإعراب: هاء المبالغة، كالهاء في قولهم: داهية، وعلامة وراوية، وهو قول أبي عبيد. وقيل: ﴿بَصِيرَةٞ﴾ يعني: بصير بعيوب غيره، جاهل بعيوب نفسه، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: ولو أرخى ستوره، والستر بلغة أهل اليمن: مِعذار. والمعنى: وإن أخفى عمله فنفسه شاهدة عليه، وقيل: ولو اعتذر وجادل، فقال: لم أفعل شيئًا لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، وقيل: ولو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ

مَعْذِرَتُهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، فالمعاذير على هذا مأخوذ من العذر، وهذا القول هو الأظهر. قال الشاعر:

وَإِيَّـاكَ وَالْأَمْـرُ الَّـذِي إِنْ تَوَسَّـعَتْ ... مَـوَارِدُهُ ضَـاقَتْ عَلَيْـكَ الْمَصَـادِرُ
فَمَـا حَسَـنٌ أَنْ يَعْـذِرَ الْمَـرْءُ نَفْسَـهُ ... وَلَـيْسَ لَـهُ مِـنْ سَـائِرِ النَّـاسِ عَـاذِرُ

وقد اعتذر رجل إلى إبراهيم النخعي، فقال له: قد عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبُها الكذب. والمعاذير والمعاذر جمع مَعْذِرة، ويقال: عذرته فيما صنع أعذِره عُذْرًا، وعذرا، والاسم: المعذرة، والعُذْرى. وكذلك العِذْرة، وهي مثل: الرِّكْبة والجِلْسة.

وقد استدل بِهذه الآية على قبول إقرار المرء على نفسه، وفي الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا».

وأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دَين فهذا أمر متفق عليه إذا تحققت شروطه وزالت موانعه، ولا يصح الإقرار إلا من مكلف، لكن بشرط ألا يكون محجورًا عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحق نفسه، فإن كان لحق غيره كالمريض كان منه ساقط ومنه جائز، وبيانه في مسائل الفقه.

وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعدما أقر في الحدود التي هي خالص حق الله، فقال أكثرهم: يقبل رجوعه بعد الإقرار، وقيل: لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهًا صحيحًا، والصواب: جواز الرجوع مطلقًا، لما رواه البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي زَنَيْتُ! فَأَعْرَضَ عَنْهُ، حَتَّى رَدَّدَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ أَحْصَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ».

وعند أبي داود، والترمذي بسند لا بأس به عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذَا الْحَدِيثِ؛ كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَ الرَّجُلَ: إِنَّا لَمَّا خَرَجْنَا بِهِ فَرَجَمْنَاهُ، فَوَجَدَ مَسَّ الْحِجَارَةِ صَرَخَ بِنَا: يَا قَوْمُ! رُدُّونِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّ قَوْمِي قَتَلُونِي وَغَرُّونِي مِنْ نَفْسِي، وَأَخْبَرُونِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ قَاتِلِي! فَلَمْ نَنْزِعْ عَنْهُ حَتَّى قَتَلْنَاهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ: فَهَلَّا تَرَكْتُمُوهُ وَجِئْتُمُونِي بِهِ؟ لِيَسْتَثْبِتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُ، فَأَمَّا لِتَرْكِ حَدٍّ فَلَا».

وأما العبد المملوك فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين: إما أن يقر على بدنه، أو على ما في يده وذمته، فإن كان الأول وكان فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه، وقد قال رسول الله ﷺ: «... مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ» رواه مالك، وفي

حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بنحوه عند الحاكم، وحسنه العراقي. وأما القسم الثاني: فلا يقبل قوله فيه، ولا إقرار عليه؛ لأن العبد لا يملك، فجميع ما في يده لسيده.

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: القرآن، وقد جاء عند الشيخين من حديث سعيد بن جبير، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ - (وَفِي رِوَايَةٍ: يَخْشَى أَنْ يَنْفَلِتَ مِنْهُ). وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ؛ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ-، -فَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا. فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا. فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ-، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾، قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ، ثُمَّ تَقْرَؤُهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾، قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ، وَأَنْصِتْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ. قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَمَعَ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَطْرَقَ-، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا أَقْرَأَهُ». وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾.

قال الشعبي: إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبه له وحلاوته في لسانه، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض. وقيل: محافة أن ينساه، قال تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: تفسير ما فيه من الحدود، والحلا والحرام، والوعد والوعيد، وقيل: إن علينا أن بينه بلسانك كما في الحديث، والكل معتبر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾

قوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا أيها المشركون، وقرئت: (يحبون).

حقًا تحبون الدنيا على حساب الآخرة.

قوله: ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: الجنة، وقرئت: (ويذرون)، واختار هذه القراءة أبو حاتم، والقراءة الأولى اختيار أبي عبيد.

قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: من النضرة والحسن والنعمة والإشراق، يقال: نَضَرهم الله ينضرهم

نضرة ونَضارة، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ».

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: مبصرة لربها وناظرة إليه، وهي رؤيا عين، وهو أعظم نعيم يتفضل الله عز وجل به على عباده، وقد سبق حديث صهيب رضي الله عنه عند مسلم عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وعند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «...وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». وقد مضى هذا البحث مشبعًا فلا حاجة إلى تكراره.

وقول القائل: تنتظر ثواب ربِّها، خطأ بيّن، وتحريف جلي، ومعتقد فاسد؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا، بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون: نظرت إليه، إذا أرادوا نظر العين، فإن أرادوا الانتظار قالوا: نظرته. قال الشاعر:

إِنِّـي إِلَيْـكِ لِمَـا وَعَـدْتِ لَنَـاظِرٌ ... نَظَـرَ الْفَقِيـرِ إِلَـى الْغَنِـيِّ الْمُوسِـرِ

قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: كالحة كاسفة عابسة، وهي وجوه الكفار، وفي الصحاح: بسر الفحل الناقة وابتسرها، إذا ضربها من غير ضَبَعَة، وبسر الرجل وجهه بسُورًا، أي: كلح، يقال: عبس، وبسر. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: توقن أن يفعل بها الهلاك والشر ودخول النار. والفاقرة: الداهية والأمر العظيم، يقال: فقرته الفاقرة، أي: كسرت فقار ظهره. ويقال: فقرت أنف البعير، إذا حزرته بحديدة، ثم جعلت على موضع الحز الجَرِير، وهو حبل من أدم يخطم به البعير، وعليه وتَرٌ ملوي؛ لِتُذَلِّلَهُ بذلك وتروضه، ومنه قولهم: عمل به الفاقرة.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر، أي: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة.

قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ جملة مستأنفة، أي: بلغت النفس أو الروح الحلقوم، وقيل: حقًا إن المساق إلى الله إذا ارتقت النفس إلى التراقي، وهي جمع تَرْقُوة، وهي العظام المكتنفة لنقرة النحر، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر، موضع الحشرجة، وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت.

قوله: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: من الرقية والشفاء، أي: من راقٍ يرقي، وهل من طبيب يشفي؟ قال الشاعر:

هَـلْ لِلْفَتَـى مِـنْ بَنَـاتِ الـدَّهْرِ مِـنْ وَاقِ ... أَمْ هَـلْ لَـهُ مِـنْ حِمَـامِ الْمَـوْتِ مِـنْ رَاقِ

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس، أي: فمن يقدر أن يرقي من الموت، وقيل: من رَقِي يَرْقَى، والمعنى: من يَرْقَى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟ والكلام للملائكة. والقول الأول الصواب.

وأظهر عاصم وقوم النون في: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾، واللام في قوله: ﴿بَلْ رَانَ﴾، لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المرقة، وبرّان في تثنية البر. وقرئت بترك الإظهار وكسر القاف، وما ذهب إليه عاصم في غاية القوة.

قوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي: فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة. قال الشاعر:

فِـرَاقٌ لَـيْسَ يُشْـبِهُهُ فِـرَاقُ ... قَـدِ انْقَطَـعَ الرَّجَـاءُ عَـنِ الـتَّلَاقِ

قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: اتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، وقيل: التفت ساقا الإنسان عند الموت ويبستا من شدة الكرب، فضرب إحدى رجليه على الأخرى، وقيل: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، والقول الثالث أحسنها، والقول الأول محتمل، والعرب أحيانًا تذكر الساق في المحن والشدائد العظام، ومنه قامت الدنيا على ساق، وقامت الحروب على ساق.

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: المرجع، وقيل: ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ المصدر من ساق يسوق، كالمقال، من قال يقول، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختر افتخارًا بذلك، وقيل: من المَطَا، وهو الظهر، والمعنى يلوي مطاه. وقيل: أصله: يتمطط، وهو التمدد من التكسّل والتثاقل عن الداعي إلى الحق، وذلك من قلة الاكتراث. والْمَطِيطَة: الماء الخائر في أسفل الحوض، لأنه يتمطى، أي: يتمدد. وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي بِالْمُطَيْطِيَاءِ، وَخَدَمَهَا أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، أَبْنَاءُ فَارِسَ وَالرُّومِ، سُلِّطَ شِرَارُهَا عَلَى خِيَارِهَا». والمطيطاء: التبختر ومد اليدين في المشي.

والمقصود: أنه جذل أشر بطر كسلان، لا همة له ولا عمل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، لأبي جهل وأضرابه، أي: الويل لك حيًا، والويل لك ميتًا، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار.

قالت الخنساء:

هَمَمْـتُ بِنَفْسِـي كُـلَّ الْهُمُـوم ... فَـأَوْلَى لِنَفْسِـي أَوْلَـى لَهَـا

سَـــأَحْمِلُ نَفْسِـــي عَلَـــى آلَـــةٍ فَإِمَّـــا عَلَيْهَـــا وَإِمَّـــا لَهَـــا

فالآلة: الحالة، والآلة: السرير الذي يحمل عليه الميت. وقيل: المعنى: أنت أول وأجدر بهذا العذاب. قال الأصمعي: (أَوْلَىٰ) في كلام العرب: مقاربة الهلاك، كأنه يقول: قد وَلِيتَ الهلاك، أي: دَانَيْتَ، وأصله من الوَلْي، وهو القُرْب، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، أي: يقربون منكم.

وقال النحاس: العرب تقول أولى لك: كدت تهلك ثم أفْلَتّ، والتقدير: أولى لك وأولى بك الهلكة. وقيل: يحق لك أن تمشي متبخترًا أشرًا بطرًا وقد كفر بخالقك وبارئك، وهو على سبيل التهكم والتهديد، كقوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾، وهذا القول أحسنها، يليه القول الأول.

قوله: ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ أي: يُخلّى مهملًا، فلا يؤمر ولا ينهى، ومنه يقال: إبل سُدى، إذا تُركت بلا راعٍ.

قوله: ﴿مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ وقرئت: (تمنى)، واختار الأولى أبو عبيد لأجل المني، واختار الثانية أبو حاتم لأجل النطفة.

قوله: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ جاء عند أبي داود بسند لا بأس به قال موسى بن أبي عائشة: «كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ قَالَ: سُبْحَانَكَ! فَبَلَى. فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ». ولا يضر عدم تسمية الصحابي.

انتهى تفسير سورة القيامة، ولله الحمد.

  

سورة الإنسان

منها المكي ومنها المدني، جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَة، و ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾». وبنحوه من حديث ابن عباس ﵄ عند مسلم.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾

قوله: ﴿هَلۡ﴾ أي: قد. قال سيبويه والكسائي والفراء وأبو عبيدة: (هَلۡ) تكون جحدًا، وتكون خبرًا، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرره بأنك أعطيته، والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ وقيل: هي بمنْزلة الاستفهام، ويكون جوابها: نعم قد أتى.

قوله: ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أي: مضت أزمنة ما كان آدم ﵇ ولا غيره من الخليقة شيئا مذكورًا، وقيل: الجنس من ذرية آدم ﵇، والحين: تسعة أشهر، مدة حمل الإنسان في بطن أمه، والقولان حسنان.

قوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ أي: من ماء يقطر، وهو المني، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة، قال عبد الله بن رواحة ﵁:

مَــا لِــي أَرَاكِ تَكْــرَهِينَ الْجَنَّــهْ ... هَــلْ أَنْــتِ إِلَّا نُطْفَــةٌ فِــي شَــنَّهْ

والشنة: القربة. وجمعها: نُطَف، ونِطَاف.

قوله: ﴿أَمۡشَاجٖ﴾ أي: أخلاط، واحدها: مِشْج ومَشِيج، مثل: خِدْن، وخَدِين. يقال: مشجت هذا بهذا، أي: خلطته، فهو ممشوج، ومشيج، مثل: مخلوط وخليط، وهو هنا: اختلاط النطفة بالدم. وقيل: ﴿أَمۡشَاجٖ﴾: أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة. وقيل: الأمشاج: الحمرة في البياض، والبياض في الحمرة، وهو اختيار كثير من أهل اللغة.

والمقصود: أن الإنسان هو عبارة عن ماء أبيه وماء أمه، وماء أبيه أبيض غليظ، وماء أمه أصفر رقيق، وتحصل هذه الخلطة في رحم أمه.

قوله: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، وقد مضى مرارًا وتكرارًا.

قوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل،

وإنزال الكتب، فآمن أو كفر، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: إما أن يختار السعادة وإما أن يختا الشقاوة، كما جاء عند مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا». وهو كما تقول: قد نصحت لك وهديتك الطريق المستقيم، إن شئت فالتزمه واهتد به، وإن شئت فَحِد عنه واتركه، وقيل: (إن) جزاء، و(ما) صلة، أي: بيّنا له الطريق، أن شكر أو كفر، قال ذلك الكوفيون، واختاره الفراء، ولم يجزه البصريون؛ إذ لا تدخل إن للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل. والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ وقرئت: (سلاسلًا) بالتنوين، وقرئت بالوقف بغير ألف، وبتخفيف الألف، وقرئت بالوقف بغير ألف، وبالوقف مع الألف، فمن صرف له عدة حجج، منها ما حكي عن العرب في صرف جميع ما لا ينصرف، إلا أفْعَل منك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي: أهل الصدق الممتثلين أمر الله، واحدهم: بَرٌّ، مثل: نهر وأنهار، وقيل: بار، مثل: شاهد وأشهاد. وفي الصحاح: وجمع البر: الأبرار، وجمع البار: البَرَرة، وفلان يَبَرُّ خالقَه، ويتبرَّره، أي: يطيعه، والأم برّة بولدها.

قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: شوبُها وخلطها. وقيل: طعمها. وقيل: لونها، والقول الأول أرجح.

قوله: ﴿كَافُورًا﴾ أي: ممزوجة بالكافور، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، فتمزج بالكافور والزنجبيل، وتُختم بالمسك، وقيل: الكافور: عين في الجنة؛ لقوله في الآية التي تليها: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، فـ (عَيْنًا) بدل من ﴿كَافُورًا﴾، وقيل: حال من المضمر في (مِزَاجُهَا)، وقيل: نصب على المدح، كما يُذكر الرجل فتقول: العاقلَ اللبيبَ، أي: ذكرتم العاقل اللبيب، فهو نصب بإضمار أعين، وقيل: يشربون عينًا، والقول الأول أقربها. ويقال كافور وقافور، ويقال لوعاء طلع النخل: الكافور والكُفَرَّى.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠

عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي: يشرب منها ويروى وينتفع، ومثله: فلان يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاما حسنا. وقيل: يشرب منها وتكون الباء بدل من ﴿مِن﴾، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ أي: يشققونها شققًا، كما يفجر الرجل النهر هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد، وتتبعهم، حيث مالوا مالت معهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾.

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ أي: لا يخلفونها، وحقيقة النذر: ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله من الطاعات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾، أي: ما ألزموا أنفسهم بإحرامهم من الحج، وقد جاء عند البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلا يَعْصِهِ».

قوله: ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾ أي: عاليًا داهيًا فاشيًا ممتدًا، والعرب تقول: استطار الصدع في القارورة والزجاجة إذا امتد واستطال، ويقال: استطار الحريق، إذا انتشر، واستطار الفجر، إذا انتشر ضوؤه. قال حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء عند الشيخين:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ   حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

قوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: قلته وحبهم إياه وشهواتهم له، وكان الربيع بن خثيم إذا جاءه سائل قال: أطعموه سُكَّرًا، فإن الربيع يحب السكر، وقيل: على حب الله، والأول هو الصواب، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أعظم الصدقة أجرًا، قال رسول الله ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى... » أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه.

قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ قيل: المحبوس من المسلمين، وقيل: من الكافرين، وقيل: العبد المملوك، وقيل: المرأة، والقول الأول أظهرها.

قوله: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقولون لهم ذلك بلسان الحال والمقال: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نريد مكافأة ولا ثناء.

قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾ أي: تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى: نخاف يومًا

ذا عبوس.

قوله: ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ أي: طويلًا. وقيل: القمطرير: الشديد، تقول العرب: يوم قمطرير، وقُمَاطِر، وعصيب بمعنى، واقْمَطَرَّ، إذا اشتد، يقال اقمطرّ اليوم وازمهَرّ اقمطرارًا وازمهرارًا، ويوم مُقمطر إذا كان صعبًا شديدًا، فالقمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاد، وهذا هوالصواب، وقيل: العبوس بالشفتين، والقممطرر بالجبهة والحاجبين؛ لأن الوجوه الكافرة تتغير من شدائد ذلك اليوم. يقال: رجل قمطرير، أي: منقبض ما بين العينين، واقمطرّت الناقة، إذا رفعت ذنبها وجمعت قُطْرَيها وزمّت بأنفها.

قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ أي: أعطاهم حين لقوه ورأوه أي: ﴿نَضۡرَةٗ﴾ حسنًا وجمالًا، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾.

قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: على ترك الشهوات، قال الشاعر:

كَـــم قَتيـــل بشَـــهوةٍ وَأَسِـــيرٌ ... أُفٍّ مِـنْ مُشـتَهِي خِـلافَ الجَميـلِ

شَـــهوَاتُ الإنْسَـــان تُوْرِثُـــهُ الـــذُّل ... وَتُلْقيـــهِ فِـــي الـــبَلاءِ الطَّويـــلِ

قوله: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ أي: لا حرًا كحر الشمس، ولا برد مفرطًا، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «اشْتكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا! فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهْوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ».

قوله: ﴿وَذُلِّلَتۡ﴾ أي: سُخِّرت ﴿قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾.

قوله: ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ﴾ وقرئت بالتنوين: (قواريرًا)، وقرئت عند الوقف بغير ألف، وبتحقيق الألف.

قوله: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ وقرئت بالتنوين: (قواريرًا)، وقد سبق الحديث عن توجيه ذلك عند أهل اللغة عند قوله تعالى في هذه السورة ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾. وقوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ أي: قدّرها لهم السقاة الذي يطوفون بها عليهم بغير زيادة ولا نقصان، فلا يفضل عن الرِّي ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة.

قوله: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي: خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾، وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل؛ لطيب رائحته؛ لأنه يحذو اللسان، ويهضم المأكول، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نِهاية النعمة والطيب، وقيل: الزنجبيل عين في الجنة، لقوله: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا﴾، أي: في الجنة.

قوله: ﴿تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾ السلسبيل: اللذيذ، وهو فعلليل من السلالة، تقول العرب: هذا شرابٌ سلِسٌ، وسَلْسَال، وسَلْسَلٌ، وسَلْسَبيل بمعنى، أي: لذيذ الطعم. وفي الصحاح: وتسلسل الماء في الحلق: جرى، وسَلْسَلْتُهُ أنا: صببته فيه، وماء سَلْسَل، وسَلْسَال: سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه. والسُّلاسلبالضم مثله.

وصرفت ﴿سَلۡسَبِيلٗا﴾ لأنها رأس آية، كقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾. والمقصود أنهم تارة يمزج بالكافور لبرودته، وتارة بالزنجبيل لحرارته؛ ليعتدل الأمر.

قوله: ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾ أي: ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤًا مفرقًا في عرصة المجلس. واللؤلؤ إذا نُثر على بساط كان أحسن منه منظومًا.

وقيل: شبهوا باللؤلؤ المنثور لأنّهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذا شُبهن باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنّهن لا يُمتهنَّ بالخدمة.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ﴾ أي: يا محمد ﴿ثَمَّ﴾ أي: هنالك في الجنة، وهي ظرف مكان، وقيل: التقدير: وإذا رأيت يا محمد ما ثَمَّ، أي: ما هناك، وتكون (ما) مضمرة، كقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: ما بينكم، والقول الأول أظهر، والثاني وارد.

قوله: ﴿وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾ أي: مملكة لله عناك، وسلطانًا باهرًا عظيمًا. وقد جاء في جزاء آخر من يدخل الجنة ما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا: رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي، أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟!. فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً».

وعند مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ، وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ فَأَعْلاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عز وجل: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ

أَعۡيُنٖ...﴾ الآيَةَ».

قوله: ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ وقرئت: (عالِيْهم) بتسكين الياء، واختاره أبو عبيد، والمعنى: تلي أبدانهم، كما هو المعهود في اللباس، وقد يُرى الرجل عليه ثياب يعلوها أفضل منها.

قوله: ﴿خُضۡرٞ﴾ قرئت بالجر على نعت السندس، ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾ بالرفع عطفًا على الثياب، والمعنى: عاليهم ثياب سندس وإستبرق. وقرئت: ﴿خُضۡرٞ﴾ نعتًا للثياب، و(وَإِسۡتَبۡرَقٍ) نعتًا للسندس، واختاره أبو عبيد، وأبو حاتم لجودة معناه؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتًا للثياب، فهي مرفوعة، وأحسن ما عطف الإستبرق على السندس عطف جنس على جنس، والمعنى: عاليهم ثيابٌ خضرٌ من سندسٍ وإستبرق، أي: من هذين النوعين. وقرئت: (خضرٍ) نعتا للسندس، (وإستبرقٍ)، والمعنى: عاليهم ثيابُ سندس خضرٍ وثيابُ وإستبرقٍ.

قوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ وفي سورة الحج: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾، والمقصود أن لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم، فتارة يلبسون كلا منها مفردًا، وتارة يجمعونها.

قوله: ﴿شَرَابٗا طَهُورًا﴾ أي: طهّر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الردئية. ويروى عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية وجعل يحرك شفتيه وفمه، كأنه يَمَصُّ شيئًا، فقيل له في ذلك، فقال: أجد لذته عند قراءته.

قوله: ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ أي: مقبولًا، نجزي على القليل منه كثيرًا.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾

قوله: ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ أي: التطوع في الليل، وقد تقدم هذا المبحث في سورة المزمل.

قوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ﴾ أي: بين أيديهم ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ أي: عسيرًا شديدًا، وهو يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾. وقيل: ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها.

قوله: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾ أي: خلقهم، يقال: فرس شديد الأسر، أي: الخَلْق، ويقال: أسره الله، إذا شدّد خلقه.

واشتقاقه من الإسار، وهو القِدّ الذي يشد به الأقتاب، يقال: أَسَرْتُ القَتَب أسرًا، أي: شددته وربطته، ويقال: ما أحسن أَسْر قتبه، أي: شده وربطه، ومنه قولهم: خذه بأسره، إذا أرادوا أن يقولوا: هو لك كله،

كأنهم أرادوا تَعْكِيمه وشده لم يفتح ولم يُنقص منه شي، والعكام: الخيط الذي يعكم به المتاع، يقال: عكمت البعير: شددت عليه العكم، ومن ذلك الأسير؛ لأنه يكنف بالإسار، والمعنى: سويت خلقك وأحكمته بالقوى، ثم أنت تكفر بي.

قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: جئنا بأطوع لله منهم، وقيل: لغيرنا محاسنهم إلى أسمج صورة وأقبحها، والأول أظهر، قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة.

قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ قرئت: (يشاءون).

قوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نصبت على تقدير: ويعذب الظالمين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرًا لهذا المضمر.

وفي سورة الشورى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ارتفع ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى، فلم يجر العطف على المنصوب قبله، فارتفع بالابتداء.

انتهى تفسير سورة الإنسان، ولله الحمد.

  

سورة المرسلات

وهي مكية إلا آية منها.

جاء عند الشيخين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ بِمِنًى إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، وَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا، وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا، إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اقْتُلُوهَا. فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا».

وعند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إِنَّ أُمَّ الْفَضْلِ سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ! وَاللهِ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ، إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ. وَفِي رِوَايَةٍ: ثُمَّ مَا صَلَّى لَنَا بَعْدَهَا حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٩﴾

قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ أي: الرياح يتبع بعضها بعضًا، كعرف الفرس، تقول العرب: الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد، إذا توجهوا إليه فأكثروا، و﴿عُرْفًا﴾ نصبت على الحال من ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، ويجوز أن تكون مصدرًا، أي: تباعًا، ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر، كأنه قال: والمرسلات بالعرف، وقيل: هي الملائكة المرسلة بالإحسان والمعروف بأمر الله تعالى، وقد جاء عند الحاكم، قال أبو هريرة رضي الله عنه: الملائكة أرسلت بالمعروف. صححه ابن حجر. وقيل: هم الأنبياء، أرسلوا بالتوحيد، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ أي: الرياح تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحُطامه، كما قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾، يقال: عصف بالشيء، أي: أباده وأهلكه، وناقة عصوف، أي: تعصف براكبها، فتمضي كأنّها ريح في السرعة، وعصفت الحرب بالقوم، أي: ذهبت بِهم. وقيل: الملائكة يعصفون بالريح وبروح الكافر، والأول أظهر.

قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ أي: الرياح يرسلها الله عز وجل نشرًا بين يدي رحمته تنشر السحاب للغيب، وقيل: الملائكة تنشر كتب الله، أو تنشر السحب، وقيل: الأمطار تنشر النبات، والنشر بمعنى

الإحياء، يقال: نشر الله الميت، وأنشره، أي: أحياه، والقول الأول أقربها.

قوله: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ أي: الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل، وقيل: تفرق بين السحاب، وقيل: السحابات الماطرة، تشبيهًا بالناقة الفارق، وهي الحامل التي تخرج وتند في الأرض حين تضع، ونوق فوارق، وفرق، وربما شبهوا السحابة التي تنفرد عن السحاب بهذه الناقة. والقول الأول أرجح.

قوله: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أي: الملائكة، والمقصود به جبريل عليه السلام، وسمي باسم الجمع لأنه كان ينْزل بها.

قوله: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ أي: عذارًا وإنذارًا لخلقه، وقد قيل: من أعذر فقد أنذر، وقد نصبت على المفعول به، وقيل: على البدل من (ذِكْرًا)، أي: فالملقيات عذرًا أو نذرًا، وهذا أظهر، وقيل: على الحال من الإلقاء، أي: يلقون الذكر في حال الإعذار والإنذار.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أي: ذهب ضوؤها ومحي نورها، كطمس الكتاب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾، يقال: طمس الشيء، إذا دُرس وطُمس، فهو مطموس، والريح تطمس الآثار، فتكون الريح طامسًا، والأثر طامسًا بمعنى مطموس.

قوله: ﴿فُرِجَتۡ﴾ أي: فُتحت، قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ وقرئت: (وقتت)، أي: جمعت لوقتها ليوم القيامة، وذلك للقضاء والفصل بينهم وبين الأمم، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، والهمزة في (أُقِّتَتْ) بدل من الواو، فتكون: وقتت، وقد سبقت القراءة. قال الفراء: وكل واو ضُمت، وكانت ضمتها لازمة، جاز أن يبدل منها همزة، تقول: صلى القوم إحدانًا، تريد: وِحدانًا، ويقولون: هذه وجوه حسان، وأُجُوه.

قوله: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ﴾ استفهام على التعظيم.

قوله: ﴿أُجِّلَتۡ﴾ أي: أُخرت. والجواب: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أتبع التعظيم تعظيمًا، والمعنى: وما أعلمك ما يوم الفصل؟ قال تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

قوله: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: عذاب وخزي، وكررت هذه الآية؛ لأن لكل مكذب بشيء عذابًا سوى تكذيبه بشيء آخر.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦ وَجَعَلۡنَا فِيهَا

رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾
ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ
صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾
هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ
فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ جاء عند أحمد وابن ماجه بسند حسن من حديث بُسْرِ الْقُرَشِيِّ رضي الله عنه، قال: «بَزَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ وَضَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ وَقَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَّى تُعْجِزُنِي ابْنَ آدَمَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟».

قوله: ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي: وقت التصوير، وقيل: الولادة، وهو من ستة أشهر أو تسعة أشهر أو تزيد قليلًا، وهو الأظهر.

قوله: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ وقرئت: (فقدّرنا)، وهما لغتان بمعنى، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند الشيخين في الهلال: «فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ»، أي: قدّروا له المسير والمنازل. والعرب تقول: قَدَر عليه الموت، وقدَّر، قال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾. وقيل: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ من القدرة، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم والكسائي؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾، ومن شدّه فهو من التقدير، أي: فقدّرنا الشقي والسعيد فنعم المقدرون. وقيل: قدّرنا أي: ملكنا، فنعم المالكون، والكل محتمل، والقول الأول أظهر، أي: من التقدير، وقد سبقت القراءة السبعية الدالة على ذلك.

قوله: ﴿كِفَاتًا﴾ أي: ضامّة، تضم الأحياء على ظهورها، والأموات في بطنها، وفي هذا دلالة على وجوب مواراة الميت ودفنه، يقال: كَفَتُّ الشيء أَكْفِتُه، إذا جمعته وضممته، والكَفْت: الضم والجمع، وقيل: ﴿كِفَاتًا﴾: أوعية، ويقال للنِّحي: كِفْت، وكفيت؛ لأنه يحوي اللبن ويضمه. قال الشاعر:

فَأَنْتَ اليَومَ فَوقَ الأرضِ حيّا ... وَأَنْتَ غَدًا تَضُمُّكَ فِي كِفَاتٍ

وخرج الشعبي فنظر إلى الجبّان، فقال: هذه كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت، فقال: هذه كفات الأحياء، والمعنيان متقاربان، فهي وعاء للأحياء والأموات، تستوعبهم وتضمهم أحياءً على ظهرها، وأمواتًا في بطنها. قال الخليل: التكفيت: تقليب الشيء ظهرًا لبطن، أو بطنًا لظهر. ويقال: انكفت القوم إلى منازلهم، أي: انقلبوا، وقد نصبت على الحال، أي: منها كذا، ومنها كذا، وقيل: نصبت بوقوع الكفات عليه. قال الأخفش: ﴿كِفَاتًا﴾ جمع كافتة، والأرض يراد بها الجمع، فنعتت بالجمع.

قوله: ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ أي: الجبال الطوال، ومنه يقال: شمخ بأنفه، إذا رفعه كبرًا.

قوله: ﴿فُرَاتٗا﴾ أي: عذبًا زلالًا، يشرب ويُسقى منه الزرع، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ، وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ، وَالنِّيلُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»، وقد سبق حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الإسراء، حين رأى رسول الله ﷺ نهرين ظاهرين، ونهرين باطنين: «وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالْفُرَاتُ». رواه الشيخان.

قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي: يا أيها الكفار ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: إلى النار، وها أنتم تشاهدونها عيانًا.

قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ أي: دخان ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع، تشعّب.

ثم وصف الظل بقوله: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: ليس كالظل الذي يقي حر الشمس، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾، وقال هنا: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: لا يدفع من لهب جهنم شيئًا، واللهب ما يعلو على النار إذا اضطرمت، من أحمر، وأصفر، وأخضر.

وقيل: الشعب الثلاث: الضريع، والزقوم، والغسلين. وقيل: اللهب، ثم الشرر، ثم الدخان؛ لأنها ثلاثة أحوال. والحاصل أن النار إذا ارتفع لهبها ودخانها فمن شدتها تنقسم ثلاث شعب.

قوله: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ جاء عند البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾، قَالَ: كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الْخَشَبَةِ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَوْ أَقَلَّ-، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ، فَنُسَمِّيهِ الْقَصَرَ». والشرار واحده: شرارة، وهو ما يتطاير من النار في كل جهة، وأصله من شرَّرْت الثوب، إذا بسطته للشمس ليجف.

والقصر: البناء العالي، وهو واحد القصور، وهو في الآية في معنى الجمع على طريق الجنس، أي: الحصون والمدائن في العظم، وهو الأظهر. وقيل: القصر جمع قَصْرة، مثل: جمرة وجمر، وتمرة وتمر. فالقصرة: الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ. وقيل: القصر: الجبل، ثم شبهه في لونه بالجمالة الصفر. وقصر الظلام: اختلاطه، ويقال: أتيته قصرًا، أي: عشيًا، فهو مشترك.

قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ﴾ أي: حبال السفن، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال، وقرئت: (جمالات) جمع جمالة، كأنه جمع جَمَل، نحو حجر، وحجارة، ويجوز أن تكون الجماللان جمع جمال، كما يقال: رجل، ورجال، ورجالات. وقيل: شبهها بالجمالات، لسرعة سيرها، وقيل: لمتابعة بعضها بعضًا.

قوله: ﴿صُفۡرٞ﴾ أي: الإبل السود، والعرب تسمي السود من الإبل صفرًا. قال الشاعر:

تِلْــكَ خَيْلِــي مِنْــهُ وَتِلْــكَ رِكَــابِي هُــنَّ صُــفْرٌ أَوْلَادُهَــا كَالزَّبِيـــبِ

أي: هن سود، وسميت بذلك لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة، كما قيل لبيض الظباء: الأدم؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرة، والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود؛ لما يشوبها من صفرة.

قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ قيل: هو من قول الله، وهو الأظهر، وقيل: هو من قول الملائكة. أي: يوم القيامة مواطن ومواقيت، وهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها، ولا يؤذن لهم في الاعتذار. وقيل: تنطقون، لكن لا ينطقون بحجة نافعة، ومن نطق بما لا ينفع فكأنه ما نفع، وكذلك الاعتذار، والكل محتمل.

والفاء في ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ نسق، أي: عطف على ﴿يُؤْذَنُ﴾ ويجوز النصب، والرفع، لا سيما وهو أواخر الكلام، ولو قال: فيعتذروا لم يوافق الآيات، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾، وقرئت: (فيضاعفُه)، بالنصب والرفع وجهان.

قوله: ﴿كَيْدٌ﴾ أي: حرب وحيلة في الخلاص من الهلاك.

قوله: ﴿فَكِيدُونِ﴾ أي: فحاربوني واختلوا لأنفسكم وقاوموني، ولن تستطيعوا حربي، ولن تجدوا محيصًا من الهروب من قبضتي، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القدسي عند مسلم: «... يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي».

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا دُعوا إلى الصلاة مع المصلين امتنعوا من ذلك واستكبروا، ومن لطيف ما نقل عن الإمام مالك أنه دخل المسجد بعد صلاة العصر، وكان ممن لا يرى الصلاة بعد العصر، فجلس ولم يركع، فقال له صبي: يا شيخ قم فاركع، فقام فركع ولم يحاجه بما يراه مذهبًا، فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الذين إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ. وقد ذكر القرطبي هذه القصة بصيغة (يُذكر).

قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون؟ كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

انتهى تفسير سورة المرسلات، ولله الحمد.

  

سورة النبأ

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ
۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧
يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥
جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُوا۟ فَلَن
نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾

قوله: ﴿عَمَّ﴾ لفظ استفهام، ولذلك سقطت منه ألف (ما) ليتميز الخبر عن الاستفهام، وكذلك: فيم، وممّ، إذا استفهمت، والمعنى: عن أي شيء؟ وأصل (عَمَّ): عن ما، فأدغمت النون في الميم، لأنّها تشاركها في الغنَّة.

قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: قريش ومن كان معهم.

قوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: يتساءلون عنه، والتقدير: عم يتساءلون؟ يتساءلون عن النبأ العظيم.

قوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي: منهم المصدق، ومنهم المكذب بالقرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾، وقيل: البعث بعد الموت، وهو الأظهر؛ لدلالة الآيات التي بعد ذلك، والأول محتمل.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ رد عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن، فيوقف عليها، ويجوز أن تكون بمعنى (حقًا)، أو (ألا)، فيُبدأ بها.

قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: حقًا ليعلمن صدق ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن، وما ذكره لهم من البعث بعد الموت.

قوله: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذكورًا وإناثًا؛ لتتكاثروا.

قوله: ﴿سُبَاتًا﴾ أي: راحة لأبدانكم، ومنه قيل ليوم السبت: سبتًا، الذي كان يوم الراحة لبني إسرائيل، وقيل: أصله التمدد، يقال: سبّت المرأة شعرها، إذا حلّته وأرسلته، ورجل مسبوت الخلق، أي: ممدود،

وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد، فسميت الراحة سبتًا، وقيل: أصله القطع، يقال: سَبَتَ شعره سَبْتًا إذا حلقه، وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسّبات يشبهه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح، ويقال سَيْر سَبْت، أي: سهل لين.

قوله: ﴿لِبَاسًا﴾ أي: تلبسكم ظلمته وتغشاكم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾.

قوله: ﴿مَعَاشًا﴾ أي: وقت معاش، يطلب فيه ما يُعاش به، وعلى هذا يكون اسم زمان، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى العيش، والأول أظهر.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: وقّادًا، وهو الشمس، والوهاج: الذي له وهج، يقال: وهج يهج وهْجًا، ووهَجًا، ووهجانًا، ويقال للجوهر إذا تلألأ: توهَّج.

قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾ أي: السحاب التي تنعصر بالماء ولما تُمطر بعد، كالمرأة المعصر، التي قد دنا حيضها ولم تحض. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾، ويقال أيضا للرياح: المعصرات؛ لأنها تلقح السحاب وتعصره فيكون المطر، وفي الصحاح: المعصرات: السحائب تُعتصر بالمطر، وأعصر القوم، أي: أمطِروا، والمِعصر: الجارية أول ما أدركت وحاضت، يقال: قد أعصرت، كأنّها دخلت عصر شبابِها أو بلغت، والجمع: معاصر، والعَصَر بالتحريك للملجأ الذي يُلجأ إليه، والعصرة أيضًا: الملجأ.

قوله: ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي: صبابًا متتابعًا، يقال: ثَجَجْت دمه، فأنا أثجه ثجًا، وقد ثج الدم يثج ثجوجا، وكذلك الماء، والثجاج في الآية: المنصب، وقيل: الصباب، وهو متعد، كأنه يثج نفسه، أي: يصب. وقد جاء في الحديث عند الترمذي وابن ماجه بسند لا بأس به عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْعَجُّ والثَّجُّ». والثج إراقة الدماء وذبح الهدايا. وجاء عند أبي داود بسند جيد من حديث حمنة بنت جحش رضي الله عنها أنا قالت للنبي ﷺ: «إِنَّمَا أَثُجُّ ثَجًّا».

قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ أي: ملتفة بعضها ببعض؛ لتشعب أغصانها، ولا واحد له، وقيل: واحد الألفاف: لِفٌّ، ولُفّ.

وقيل: لفيف، كشريف، وأشراف، وقيل: هو جمع الجمع، يقال جنة لَفّاء، ونبت لِفٌّ، والجمع: لُفٌّ، مثل: حُمر، ثم يجمع اللف ألفافًا، ويجوز جمع ملتفة، ويقال: شجرة لَفّاء، وشجرٌ لُفّ، وامرأة لفاء، أي: غليظة الساق مجتمعة اللحم. قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي: وقتًا ومجمعًا وميعادًا للأولين والآخرين.

قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي: أممًا وزمرًا وجماعات، كل أمة مع إمامهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: طرقًا ومسالك لنزول الملائكة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: لا شيء، كما أن السراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباءً، قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾.

قوله: ﴿مِرْصَادًا﴾ أي مرصدة ومترصدة ومعدة ومتطلعة لمن يأتي، مفعال من الرصد، وهو كل شيء كان أمامك، وقيل: ترصد من يمر بها، وقيل: محبسًا، وقيل: طريقًا وممرًا، فلا سبيل إلى الجنة حتى يقطع جهنم. وفي الصحاح: المِرصاد: الطريق. وقيل: المكان الذي يرصد فيه الواحد العدّ، نحو المضمار. وفي الصحاح: الراصد: الشيء الراقب له، والقول الأول هو المعتبر في تأويل الآية.

قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ وقرئت: (لبثين)، وهما لغتان، واختارها أبو حاتم، وأبو عبيد.

قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾ أي: دهورًا غير منتهية لا تنقطع، كلما مضى حُقُب جاء حُقُب، والحِقْبة: السَّنة، والجمع: حِقَب.

وقد استدل بهذه الآية على فناء النار مطلقًا، سواء نار العصاة أو نار الكافرين، ووجه الاستدلال أن الحقب زمان محدد وينتهي، وهو استدلال في غير محله، تنسفه الآيات الأخرى التي لا يسع المجال لذكرها هنا، وكذا النصوص النبوية الصحيحة الصريحة، ثم هو مردود حتى في اللغة، أولًا: لا دلالة على نهاية الحقب هنا، فلم يقل: لابثين خمسة أحقاب، أو عشرة أحقاب أو نحو ذلك، وإنما جاء اللفظ مطلقًا (أَحْقَابًا)، وكان الحُقُب أبعد شيء عند العرب، وهو أقصى ما يبلغه خيالهم، وهي كِناية عن التأبيد.

ثانيًا: ذكر الحقب دون الأيام والشهور والسنين أهول في القلوب، وأدل على الخلود الأبدي، قال قطرب: الْحُقُب هو الدهر الطويل غير المحدود، وقال ابن كيسان: لا غاية للحُقُب، وهو بمثابة الأبد.

والمقصود: أن النار لا تفنى ولا تبيد، والكافرون فيها خالدون مخلدون أبدًا أبدًا، قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، فلا عدد هنا لمدة المكث، وإنما هو الخلود السرمدي، وكلما مضى دهور وأزمان عقبتها دهور وأزمان أخرى، وهذا هو الحُقُب. ومن تكلم بفنائها تكلم بغير علم، ورجم بغيب، وأقصى ما يقال في هذه المسألة أن تُمَر كما جاءت، كما أمَرّها الرسول ﷺ، فلم يثبت أنه تكلم عن فنائها، لا في نص مفهوم ولا منطوق، بل المفهوم والمنطوق من أقواله ما سبق ذكره، وهو البقاء والدوام الأبدي لنار

جهنم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما تقسيم النار إلى قسمين: نار تفنى، وهي نار العصاة الموحدين، ونار تبقى، وهي نار المشركين والكافرين، فهو تقسيم ما أنزل الله به من سلطان، وليس له دليل ولا برهان، فالنار كما جاء في الوحي نارٌ واحدة، وقد قال النبي ﷺ كما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ...» الحديث، ولكنها طبقات ودركات، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وكما قال النبي ﷺ عن عمه أبي طالب كما جاء عند الشيخين من حديث العباس رضي الله عنه حين قيل له: « يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ. قَالَ: نَعَمْ؛ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

وأما العصاة الموحدون فإنما يقال: أولًا: بانتهاء عذابهم في النار، إما خلال فترة البرزخ، وإما خلال يوم القيامة الذي مقداره خمسين ألف سنة، أو بخروجهم من النار حين يردون الصراط فيكدسون، والنار باقية هي هي، وإنما خرجوا بشفاعة النبي ﷺ، ثم بشفاعة الشافعين من النبيين والملائكة والمؤمنين، ثم بشفاعة الجبار جل جلاله، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «...فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ أي: برد الشراب، وكل شيء له راحة وروح، وأما برد الزمهرير فهو برد لا راحة معه، بل هو العذاب الأليم، وقيل: البرد: النوم، والعرب تقول: منع البردُ البردَ، يعنى أذهب البرد النوم، والقول الأول أعم وأرجح.

قوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلًا منه.

قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: موافقًا لأعمالهم؛ لأن الوفاق بمعنى الموافقة، كالقتال بمعنى المقاتلة، و﴿جَزَآءً﴾ نصب على المصدر، أي: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم، وقيل: هو جمع الوِفق. والوفق، واللفق واحد، وقد قيل: وافق اعذاب الذنب، فلا ذنب أعظم وأسوأ من الشرك، ولا عذاب أعظم وأسوأ من النار، والجزاء من جنس العمل، كما تدين تدان.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون ﴿حِسَابًا﴾ أي: محاسبة على أعمالهم، وقيل: لا يرجون ثواب حساب، والأول أظهر.

قوله: ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا كبيرًا، كما يقال: خرقت القميص خِرّاقًا. قال الفراء: هي لغة يمانية فصيحة، فكل فعل في وزن فَعَّل، فمصدره فِعّال، مشدد في لغتهم، ويجوز: كذابًا، بالتخفيف، وهو مصدر، قال أبو علي: التخفيف والتشديد جميعًا مصدر المكاذبة، قال الشاعر:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

أي: النفس، والمراد أنه يصدق نفسه تارة بأن يقول: إن أمانيها محققة، وتكيبها بخلافه، أو على العكس، ويجوز: كُذّابا، جمع كاذب، يقال: رجل كذّاب، أي: البليغ في الكذب.

قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿مَفَازًا﴾ أي: فوزا ونجاة وخلاصًا من النار، ولذلك قيل للفلاة إذا قلّ ماؤها: مفازة، تفاؤلًا بالخلاص منها.

قوله: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، جمع كاعب، وهي الناهد، يقال: كعبت الجارية تَكْعب كعوبًا، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعيبًا، ونَهَدت تَنْهد نهودًا، والنواهد اللواتي برزت أَثْداؤهنَّ بروزًا ولم يتدليا كما يتدلى ثدي المرأة الكبيرة أو المرضع؛ لأنّهن أبكار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

قوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي: مُترعة مملوءة، يقال: أدهقت الكأس إذا ملأتُها، وكأس دهاق، أي: ممتلئة، وهذا هو الأظهر. وقيل: متتابعة يتبع بعضُها بعضًا، ومنه: ادَّهقت الحجارة ادِّهاقًا، وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض، فالمتتابع كالمتداخل، وقد جاء عند البخاري من حديث عكرمة في هذه الآية قال: «مَلْأَى مُتَتَابِعَةً. قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: اسْقِنَا كَأْسًا دِهَاقًا».

والكأس: الخمر، فالتقدير: خمرًا ذات دهاق، أي عصرت وصُفّيت، وفي الصحاح: وأدهقت الماء، أي: أفرغته إفراغًا شديدًا، قال أبو عمرو: والدق بالتحريك: ضرب من العذاب، والمدهوق: المعذب

بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه. وقال ابن الأعرابي: دهقت الشيء: كسرته وقطعته، وكذا: دهدقته.

قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ أي: باطلًا، وهو ما يُلغى من الكلام ويُطّرح، ومنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه، قال ﷺ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ».

قوله: ﴿وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ أي: لا يُكذب بعضهم بعضًا، ولا يسمعون كذبًا، ولا يتكاذبون فيما بينهم.

قوله: ﴿عَطَآءً حِسَابٗا﴾ أي: كثيرًا كافيًا، يقال: أحسبت فلانًا، أي: كثّرت له العطاء حتى قال: حسبي، ومنه: حسبي الله، أي: كافيني. ويقال: حسّابًا، أي: كفافًا، تقول العرب: حَسَّبْت الرجل، إذا أكرمته، قال الشاعر:

إِذَا أَتَاهُ ضَيْفُهُ يُحَسِّبُهُ

قوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ وقرئت: (ربُّ) مبدأ. وقرئت: (الرحمنُ) أي: خبر، وأما على قراءة الجر فنعت لقوله: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، وقرئت (ربِّ) بالجر و(الرحمنُ) بالرفع على الابتداء، أي: هو الرحمن، واختاره أبو عبيد، وقال: هذا أعدلها؛ لأن (ربِّ) قريبة من قوله: (من ربِّك) فيكون نعتًا له، ورفع (الرحمن) لبعده منه على الاستئناف، وخبره ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾، أي: لا يسألونه إلا فيما أُذن لهم فيه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما: «...وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلا الرُّسُلُ».

قوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: جبريل عليه السلام؛ لشرف مكانته عند الله، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾. وقيل: أشرف الملائكة. وقيل: هم بنو آدم؛ لأنهم ذوو روح، ورجح هذا ابن كثير، وتوقّف ابن جرير، والقول الأول هو الحق، وذكر الملائكة بعد ذكر الروح من باب ذكر العام بعد الخاص.

قوله: ﴿صَفّٗا﴾ أي: صفوفًا؛ لأنه مصدر، والمصدر ينبئ عن الواحد والجمع، كالعدل، والصوم، ويقال ليوم العيد: يوم الصف، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾، وهذا حين العرض والحساب.

قوله: ﴿صَوَابٗا﴾ أي: حقًا، ورأس الحق: لا إله إلا الله، وأصل الصواب: السداد من القول والفعل، وهو مِن أصاب يصيب إصابة، كالجواب، من أجاب يجيب إجابة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الكائن الواقع حق اليقين.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: مرجعًا بالعمل الصالح، وطريقًا يهتدي إليه، ومنهجًا يمر

به عليه.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ أي: عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأنه من مات فقد قامت قيامته؛ فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى مقعده من النار، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ هَذَا: مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قوله: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ أي: كنت حيوانا أو بهيمة فأرجع إلى التراب. وعند الحاكم بسند حسن قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْبَهَائِمُ، وَالدَّوَابُّ، وَالطَّيْرُ، وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تُرَابًا، فَذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾».

انتهى تفسير سورة النبأ، ولله الحمد.

  

سورة النازعات

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾

قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي: الملائكة تنزع أرواح بني آدم، فأما الكافر فتنزع روحه نزعًا، كالسفود ينزع من الصوف الرطب، وأما المؤمن فتسيل روحه كما تسيل القطرة من فم السقاء، وقد سبق بيان ذلك في حديث البراء رضي الله عنه الثابت عند أحمد وغيره.

قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي: إغراقًا، والمقصود: المبالغة في النزع. قيل: يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنها تغرق؛ لأن الملائكة تغرق في نزعها، وأما المؤمن فيرى نفسه عند النزع كأنما أنشط من عقال، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ أي: تنشط نفس المؤمن فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير: إذا حل منه. والعرب تقول: أُنْشِطت، وكأنما أُنْشِط من عقال. ورَبْطها نَشْطُها، والرابط الناشط، وإذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نَشطته، فأنت ناشط، وإذا حللته فقد أنشطته وأنت مُنْشِط. فنفس المؤمن عند الموت تنشط للخروج، إذا رأت مكانها في الجنة محبة للقاء الله. والنشط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة: عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت، مثل عقدة التكة. ويقال نشط بمعنى أنشط، لغتان.

قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ الملائكة؛ لنشاطها تذهب وتجيء بأمر الله حيثما كان، وقيل: تنشط أرواح الكفار ما بين الجلد والأظفار، حتى تخرجها من أجوافهم نشطا بالكرب والغم، والقول الثاني أظهر. قال الأصمعي: بئر أنشاط: أي قريبة القعر، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة. وبئر نَشوط، قال: وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى تنشط كثيرًا. ويقال: نَشَطت الدلو أُنْشِطُها بالكسر، وأنشُطها بالضم، أي: نزعتها.

وقيل: الناشطات: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق: أي تذهب. وفي الصحاح: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ النجوم من برج إلى برج، كالثور الناشط من بلد إلى بلد. والهموم تنشط بصاحبها.

وقيل: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ للكافرين، تجذب أرواحهم بشدة، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ للمؤمنين، تجذب أرواحهم برفق.

قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ أي: الملائكة تنزل بأمر الله كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمره،

كما يقال للفرس الجواد: سابح، إذا أسرع في جريه، قال الشاعر:

وَالْخَيْـــــلُ تَعْلَـــــمُ حِـــــينَ تَسْــــــ ـــبَحُ فِـــي حِيَـــاضِ الْمَـــوْتِ سَـــبْحَا

فالملائكة تسبح في نزولها وصعودها، وقيل: هي النجوم تسبح في أفلاكها، وكذا الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، والقول الأول أقربُها.

قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أي: الملائكة تسبق غيرها إلى الخير والعمل الصالح، وتتسابق مسرعة في تنفيذ أوامر الله كلمح البصر، وقيل: الملائكة تتسابق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وقيل: النجوم يسبق بعضها بعضًا في السير، وقيل: هي الخيل التي تسبق في الجهاد، والقول الأول أظهرها.

قوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ أي: الملائكة تدبر ما قضاه الله تعالى في الكون من تقلب أحوال، وقبض أنفس، وكل ملَك له وظيفته، فمنهم موكل بنُزول الوحي، وهو التدبير الشرعي، وهو جبريل عليه السلام، ومنهم موكل بتدبير القطر، وهو ميكائيل عليه السلام، ومنهم موكل بقبض الأنفس في البر والبحر، وهو ملك الموت، ومنهم موكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام، وكذا بقية الملائكة. وكل ما سبق قسم رباني، والله يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس لنا ذلك إلا به، وقد سبق تقرير هذا.

قوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ جواب القسم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾، وهي النفخة الأولى.

قوله: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وهي النفخة الثانية، قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، هي نفخة القيام من القبور، وسميت بالرادفة لأنها تردف الأولى وتتبعها، وكل شيءٍ جاء عقيب شيء فهو رديف له، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند حسن من حديث أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ». يقال: رجف الرعد يرجف رَجْفًا، ورجِيفًا، أي: أظهر الصوت والحركة، ومنه سميت الأراجيف، لاضطراب الأصوات بها وإفاضة الناس فيها.

قوله: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أي: خائفة وجلة قلقة مُسْتَوفِزة مرتكضة غير ساكنة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾، والمراد: قلوب الكفار، يقال: وجف القلب يجِف وجيفًا، إذا خَفَق، كما يقال: وجب يجب وجيبًا، ومنه: وجيف الفري، والناقة في العدو، والإيجاف: حمل الدابة على السير السريع، و (قُلُوبٌ) مبتدأ، و (وَاجِفَةٌ) صفتها.

قوله: ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ خبر، كقوله تعالى: ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ﴾، والخاشعة: المنكرة الذليلة من هول ما ترى، قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾.

قوله: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته، أي: رجع من حيث شاء، قال الشاعر:

أَحَافِرَةً عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارِ

يقول: يقول: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شبت وصلعت؟ وفي المثل: النقد عند الحافرة. أي عند أول كلمة. ويقال: التقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة. أي عند أول ما التقوا.

وقيل: الحافرة: العاجلة، أي: أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصبر أحياء كما كنا؟

وسميت الأرض بالحافرة لأنّها تحفر فيها القبور، فهي بمعنى المحفورة، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، و ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾، ولأنّها مستقر الحوافر، كما سميت القدم أرضًا، لأنّها على الأرض. وقيل: القبور، وقيل: الحافرة: النار؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، والقول الأول والثاني بمعنى، وهو الأظهر.

والحِفرة: الأرض المنتنة بأجساد موتاها، من قولهم: حَفِرَت أسنانه، إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها، فيقال: في أسنانه حَفَر، وقد حَفَرت تحفِر حَفْرا، مثل: كسر يكسِر كسرًا، إذا فسدت أصولها.

قوله: ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ وقرئت: (ناخرة)، أي: بالية متفّتتة، يقال: نخر العظم، أي: بلي وتفتت، واختار الأولى أبو عبيد، واختار الثانية الفراء، والطبري؛ لوفاق رؤوس الآي. وفي الصحاح: والناخر من العظام: التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نخير، ويقال: ما بِها ناخر، أي: ما بِها أحد، والعرب تقول: نخر الشيء، فهو نَخِر وناخر لغتان بمعنى، كقولهم: طمع وطامع، وحذر وحاذر، وبَخِل وباخل، ويقال لشدة هبوب الريح: نخرة الريح، والنُّخْرة، والنُّخَرة: مقدم أنف الفرس والحمار والخنْزير، يقال: هشم نُخْرَته، أي: أنفه.

قوله: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: رجعة خائبة كاذبة باطلة، فهي كرة خسران، وأهلها خاسرون، كما يقال: تجارة رابحة، أي: يربح صاحبها، والكر: الرجوع، والجمع: كرَّات.

قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: نفخة واحدة، فالقضية سهلة.

قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها، وسميت بذلك لأن فيها نومهم وسهرهم، والعرب تسمي الفلاة وجه الأرض: ساهرة، بمعنى: ذاتِ سَهَر؛ لأنه يُسهر فيها خوفًا منها، فوصفها بصفة ما فيها. وفي الصحاح: يقال: الساهور: ظل الساهرة، وهي وجه الأرض الأعلى.

وهذا المقصود بالآية والله أعلم، وقيل بأقوال أخرى. ويقال: الساهوركالغلاف للقمر يدخل فيه إذا

كسف، كما تزعم العرب في الجاهلية. وقيل: الأرض البيضاء المستوية، وهذا القول تابع للقول الأول.

قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ما آتاك، ولكن أُخبرت به، فإن فيه عبرة وعظة، وقيل: قد آتاك، وقيل: هل سمعت بخبره؟ وفي هذا الخطاب تسلية لرسوله محمد ﷺ.

هل جاءك يا محمد أو سمعت بخبر نبي الله موسى؟ والجواب: ما أتاك وما سمعت به، ولكن أُخبرت به، وهذا الأسلوب من أساليب التشويق والترغيب لسماع القصة وكأنها تذكر لأول مرة، وذكر الله هذه القصة للاستفادة مما فيها من عبر وعظات، وتسلية لرسول الله ﷺ وأصحابه، وتهديدًا للكفار والمشركين، فليس هم أقوى وأشد من فرعون وقومه الذين عاقبهم الله على كفرهم عقوبتين الغرق والنكال في الدنيا، والحرق بالنار في الآخرة، فالحذر الحذر أن تكونوا مثلهم.

قوله: ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو ماد على مقربة من البيت المقدس، وقد تقدم في سورة طه.

القول في تفسيرقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾

قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ وقرئت: (تزَّكّى)، أي: تسلم، وتشهد أن لا إله إلا الله، فتطهر من الذنوب، وتكون زكيًا مؤمنًا.

قوله: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: وأرشدك إلى طاعة الله ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ أي: تخافه وتتقيه.

قوله: ﴿ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي: العلامة العظمى، وهي المعجزة في العصا، واليد البيضاء، وفلق البحر، وهي إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته.

قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾. أي: فأهلكه الله تعالى وعاقبة عقوبة الدنيا

قوله: ﴿وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ يعنى قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، والمعنى: أمهله الله في الأولى، ثم أخذه في الآخرة، فعذبه الله تعالى بكلمتيه القبيحتين المشينتين، وقيل: نكال الأولى هو أن أغرقه، ونكال

الآخرة هو العذاب في الآخرة، وهذا أظهر الأقوال، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾. و﴿نَكَالَ﴾ منصوب على المصدر، والمعنى: نكل الله به، وقيل: منصوب بنزع حرف الصفة، أي: فأخذه الله بنكال الآخرة، فلما نزع الخافض نُصِب، والنكال: العقوبة حتى يُعتَبَر بصاحبها، يقال: نكَّل فلان بفلان، إذا أثخنه عقوبة، ومنه: النكول عن اليمين، والنِّكْل: القيد. وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة.

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ استفهام تقريع وتوبيخ، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾. وهو استفهام للتقريع والتوبيخ، وأصل البناء: ضم الشيء إلى شيء برباط وإحكام ليكون شيئًا واحدًا.

قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي: رفعها فوقكم كالبناء.

قوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: أعلى سقفها في الهواء، يقال: سمكت الشيء، إذا رفعته في الهواء، وسَمَك الشيء سموكًا: ارتفع. قال الفرّاء: كل شيء حمل شيئًا من البناء وغيره فهو سَمْك، وبناء سَمُوك، وسنام سامِك، أي: عال، والمسموكات: السماوات، ويقال: المسمكات كمكرمات، ويقال: اسْمُك في الدَّيم، أي: اصعد في الدرجة.

قوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: خلقها خلقًا مستويًا، لا تفاوت فيه ولا شُقوق ولا فطور.

قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعله مظلمًا، غطش الليل، وأغطشه الله، كما يقال: أظلم الليل، وأظلمه الله. والغَطَش والغَبش: الظلمة. ورجل أغطش: أي: أعمى، أو شبيه به، وقد غَطِش، والمرأة غطشاء، ويقال: ليلة غطشاء، وليل أغطش وفلاة غطشى لا يهتدى لها.

وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضاف إلى السماء، ويقال: نجوم الليل؛ لأن ظهورها بالليل.

وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضاف إلى السماء، ويقال: نجوم الليل؛ لأن ظهورها بالليل.

قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرز نَهارَها وضوءها وشمسها، وأضاف الضحى إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء، وهو غروب الشمس وطلوعها.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بسطها، والعرب تقول: دحَوْتُ الشيءَ أدحوه دحوًا، إذا بسطته، ويقال لعُشّ النعامة: أُدْحِيّ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض، وقيل: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ سواها، ومنه قول

زيد بن عمرو:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا
دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا ... بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا

وقيل: ﴿بَعۡدَ﴾ بمعنى: مع، كأنه قال: والأرض مع ذلك دحاها، كما قال تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، ومنه قولهم: أنت أحمق، وأنت بعد هذا سيئ الخلق.

قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا عَنِّي إِلَيْكِ فَإِنَّنِي ... حَرَامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَاكَ لَبِيبُ

أي: مع ذلك لبيب، وقيل: ﴿بَعۡدَ﴾ بمعنى قبل، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: قبل الفرقان، قال الشاعر:

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا ... خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وزعموا أن خراشًا نجا قبل عروة. وقيل: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ هو ما جاء بعدها: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾، والمعنى: أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. وقد مضى خلق السماوات والأرض، وترتيب ذلك في سورة البقرة وفُصلت.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي: الداهية العظمى، وهي النفخة النهائية، التي يكون معها البعث، وسميت بذلك لأنها تطمّ على كل شيء، فتعم ما سواها لعظم هولها؛ أي: تقلبه، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وفي أمثال العرب: جرى الوادي فَطَمَّ على القَرِيّ، والقري: مجرى الماء في الروضة، والجمع: أقرية، وأقراء، وقريان. ويضرب المثل عند تجاوز الشيء حده، قال الشاعر:

إِنَّ بَعْضَ الْحُبِّ يُعْمِي وَيُصِمُّ ... وَكَذَاكَ الْبغض أدهى وأطَمّ

يقال: طم الفرس طميمًا، إذا استفرغ جهده في الجري، وطم الماء، إذا ملأ النهر كله، والطم: الدفن والعلو، والطامة عند العرب: الداهية التي لا تستطاع.

قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي: زجرها عن الشهوات المحرمة، قال بعض السلف: أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق، فنعوذ من ذلك الزمان، قال الشاعر:

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَع يَرْمِينَنِي ... بِالنَّبْلِ قَدْ نَصَبُوا عَلَيَّ شِرَاكَا
إِبْلِيسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَى ... مِنْ أَيْنَ أَرْجُو بَيْنَهُنَّ فِكَاكَا
يَا رَبُّ سَاعِدْنِي بِعَفْوٍ إِنَّنِي ... أَصْبَحْتُ لَا أرجو لهن سِوَاكَا

قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ أي: قيامها، كرسوّ السفينة، وقيل: منتهاها، ومرسى

السفينة حيث تنتهي، وقد مضى في سورة الأعراف بيان ذلك، وقد جاء عند البزار من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾».

قوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها؟ وليس لك السؤال عنها، أو فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانه ولست ممن تعلمه؟

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: ليس علنها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله، فهو وحده الذي يعلم وقتها على التعيين، قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني الكفار: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: في دنياهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي: قد عشية ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: قدر الضحى الذي يلي تلك العشية. والمراد: تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾، وقيل: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: في قبورهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، والقول الأول أظهر. قال الفراء: يقول القائل: هل للعشية ضحى؟ وإنما الضحى لصدر النهار، ولكن أضيف الضحى إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتَها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار.

انتهى تفسير سورة النازعات، ولله الحمد.

  

سورة عبس

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

قوله: ﴿عَبَسَ﴾ أي: كلح بوجهه، يقال: عبس وبسر.

قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرض بوجهه.

قوله: ﴿أَن جَآءَهُ﴾ مفعول له في موضع نصب، والمعنى: لأن جاءه الأعمى. وقد جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «أُنْزِلَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى: أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرْشِدْنِي! وَعِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الآخَرِ، وَيَقُولُ: أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَاسًا؟ فَيَقُولُ: لَا. فَفِي هَذَا أُنْزِلَ». وكان اجتهادًا منه ﷺ طمعًا في إسلام أشراف قريش؛ لأن في إسلامهم إسلامًا لقومهم وأتباعهم، وكان النبي ﷺ واثقًا من إيمان صاحبه ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وقد جاء عند الشيخين من حديث سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ».

وقد كان العتاب ا لإلهي فيه شيء من التعظيم لعبده ﷺ؛ لأنه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، ولم يقل: عبستَ وتوليتَ، ثم اقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسًا له: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: ابن أم مكتوم يزداد طهارة في دينه عند تعليمك له القرآن وزوال الجهل عنه، وقيل: وما يدريك أن الذي طمعت في إسلامه سيسلم، والأول أظهر، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

قوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ يعني: يتعظ بما تقول، ﴿فَتَنفَعَهُ﴾وقرئت: (فتنفعُه) عطفًا على ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾، وقراءة النصب على جواب لعل، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾، ثم قال: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾.

قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: كان ذا ثروة وغنى.

قوله: ﴿تَصَدَّىٰ﴾ أي: تعرّض له وتصغي لكلامه، والتصدِّي: الإصغاء، وأصله: تتصدى، من الصد، وهو ما استقبلك وصار قبالتك، يقال: داري صدد داره، أي: قبالتها، ونصب على الظرف، وقيل: من الصَّدَى، وهو العطش، أي: تتعرض له كما يتعرض العطشان للماء، والمصادة: المعارضة.

قوله: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن؟ إنما أنت رسول، وما عليك إلا البلاغ. وفي هذه الآية الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: ما الأمر كما تفعل مع الفريقين، أي لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغني، وإعراضك عن المؤمن الفقير. والوقف على كلا على هذا الوجه: جائز. ويجوز أن تقف على ﴿تَلَهَّىٰ﴾ ثم تبتدئ كلا على معنى حقًا.

قوله: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: السورة، أو آيات القرآن، وهذا الأخير هو الصواب، وقال تعالى في سورة المدثر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾، ولذلك قال بعدها: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: القرآن.

قوله: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾ أي: عند الله؛ لما فيها من العلم والحكم والتشريع الذي شرعه العليم الكريم، ولذا نزل بها كرام الحفظة من اللوح المحفوظ.

قوله: ﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ أي: رفيعة القدر والذكر عند الله، ويكفي أنها كلامه سبحانه.

قوله: ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي: من كل دنس وزيادة ونقصان، ومصانة عن أن ينالها إلا المطهرون، فلا ينالها الكافرون والمشركون.

قوله: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ أي: الملائكة الذي جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، وقيل: كتبته، وهم الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، واحدهم: سافر، كقولك: كاتب وكتبة، يقال: سَفَرْتُ، أي: كتبت، والكتاب هو السِّفْر، وجمعه: أسفار، وإنما قيل للكتاب سِفْر، وللكاتب سافر لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه، يقال: أسفر الصبح، إذا أضاء ووضح، وسَفَرتِ المرأة، إذا كشفت النقاب عن وجهها، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة: أصلحت بينهم، قال الشاعر:

فَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي ... وَلَا أَمْشِي بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم، والجمع: سفراء، مثل: فقيه، وفقهاء، وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ

الْبَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»، والقول الأول هو الأظهر. قال البخاري: سفر الملائكة سفرت: أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين الناس.

قوله: ﴿كِرَامِۭ﴾ أي: كرام على ربهم، وكرام في أخلاقهم.

قوله: ﴿بَرَرَةٍ﴾ أهل للصدق، ومنه: ومنه: بَرَّ فلان في يمينه، أي: صدق، وفلان يَبَرُّ خالقه، ويتبرره، أي: يطيعه. والمقصود أنهم مطيعون لله، صادقون في أعمالهم، ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن والسنة أن يكون أقواله وأفعاله على الهداية والسداد والرشاد.

قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: لعن الكافر.

قوله: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي: أيّ شيء أكفره؟ وقيل: ﴿مَآ﴾ تعجب، وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله، ما أحسنه! وأخزاه الله، ما أظلمه! والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما كرنا بعد هذا. وقيل: ﴿مَآ﴾ استفهام توبيخ، والمعنى: أي شيء دعاه على الكفر؟ والقولان الأخيران وجيهان، وأولهما أوجه.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي: يسره للخروج من بطن أمه، ثم يسره وبيّن له طريق الخير والشر، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، وعند الشيخين من حديث عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ...» الحديث.

قوله: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جعل له قبرًا يوارى فيه إكرامًا، ولم يجعله مما يُلقى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي، وهي الوحوش والبهائم. ولم يقل: قَبَره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، يقال: قبرت الميت، إذا دفنته، وأقبره الله، إذا صيره بحيث يُقْبَر، وجعل له قبرًا، والله أطرده، أي: صير طريدًا.

قوله: ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ أي: أحياء بعد موته، وقرئت: (نشره)، وهما لغتان فصيحتان بمعنى، يقال: أنشر الله الميت، ونشره.

قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لا يقضي أحد ما أُمر به، وقيل: كلا ليس الأمر بقول هذا الإنسان الكافر من أنه أدى حق الله عليه في نفسه وماله، وهذا القول وجيه. وقال الأنباري: الوقف على ﴿كَلَّآ﴾ قبيح، والوقف على ﴿أَنشَرَهُۥ﴾، و﴿أَمَرَهُۥ﴾ جيد. فـ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقًا.

قوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي: إلى مدخله ومخرجه، وقد روى أحمد عن الضحاك بن سفيان رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: يَا ضَحَّاكُ مَا طَعَامُكَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ. قَالَ: ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَاذَا؟ قَالَ: إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنِ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا». حديث حسن. وجاء

عند أحمد من حديث أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند لا بأس به قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا؛ وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَحَهُ فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ». ومعنى (قزَّحه): مزجه وتبَّله بالكمون والكزبرة ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَقَضْبًا﴾ أي: القت والعلف، وسمي بذلك لأنه يُقْضَب، أي: يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة، وأهل مكة يسمون القت: القضب. وقيل: هو الرطب؛ لأنه يُقضب من النخل، ولأنه ذكر العنب قبله، وقيل: جميع ما يقضب، مثل: القت والكراث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلحا، وهذا القول الأخير أظهرها؛ لعمومه وشموله.

قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي: عظامًا شجرها، يقال: شجرة غلباء، ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مصمت العنق، لا يلتفت إلا جميعًا، ورجل أغلب بيّن الغلب، إذا كان غليظ الرقبة، والأصل في الوصف بالغَلَب: الرقاب، فاستعير. وحديقة غلباء: ملتفة، وحدائق غُلْب، واغلولب العشب: بلغ والتف بعضه ببعض، والغُلْب جمع أغلب.

قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أي: ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، كالتين والخوخ وغيرها.

قوله: ﴿وَأَبًّا﴾ أي: ما تُنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام سوى ما ذكر، جاء عند ابن جرير بسند جيد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: قد عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. وهو محمول على أنه لا يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض. قال الشاعر:

جِـــذْمُنَا قَـــيْسٌ وَنَجْـــدٌ دَارُنَـــا وَلَنَـــا الأَبُّ بِـــهِ وَالْمَكْـــرَعُ

الجِذم: الأصل. والمكرع: مفعل من الكرع، وهو الماء الصالح للشرب. وسمي أبًا لأنه يُؤَبُّ، أي: يؤم ويُنْتَجَع. وقيل: هو التين.

قوله: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي: الصيحة التي تكون عند القيامة، وهي النفخة النهائية، وسميت بذلك لأنها تَصُخ الأسماع، أي: تُصِمُّها، فلا تسمع إلا ما يدعى به للأحياء، وقيل: تصيخ لها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه، ومنه الحديث الذي رواه أبو داود بسند جيد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال ﷺ: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ؛ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالإِنْسَ». والقول الأول أظهر. قال الخليل: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: صيحة تَصُخُّ الأذن صخًا، أي: تُصِمُّها بشدة وقعتها. وأصل الكلمة في اللغة: الصك الشديد، وقيل: من صخّه بالحجر، إذا صكه. ومن هذا الباب: قول العرب: صختهم الصاخة، وباتتهم البائتة، وهي الداهية. وقيل: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي التي تورث الصمم وإنها

لمسمعة.

قوله: ﴿يُغْنِيه﴾ أي: يشغله عن غيره، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث الشفاعة قال: «...فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ...»، وعند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ»، وعند الترمذي بسند جيد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً. فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: أَيُبْصِرُ أَوْ يَرَى بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ؟ قَالَ: يَا فُلَانَةُ ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾».

قوله: ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ أي: مشرقة مضيئة، قد علمت ما لها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين.

قوله: ﴿ضَاحِكَةٞ﴾ أي: مسرور فرحة ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ بما آتاها الله من الكرمة.

قوله: ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ أي: غبارٌ ودخان.

قوله: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: كسوف وسواد وذلة وشدة، والقتر في لغة العرب: الغبار، جمع القترة.

انتهى تفسير سورة عبس، ولله الحمد.

  

سورة التكوير

وهي مكية إجماعًا.

جاء عند أحمد، والترمذي بسند لا بأس به من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾

قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفّت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها، وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وأصل التكوير: الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها، أي: لاثها وجمعها، فهي تكوَّر ويُمحى ضوؤها، وقيل: نكِّست، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: تهافتت وتناثرت وانصبت وتساقطت.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: الحوامل من النوق، الواحدة: عُشَراء، أو التي عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضًا، ومن عادة العرب أن يُسَمُّوا الشيء باسمه المتقدم، يقول الرجل لفرسه وقد قَرِح: هاتوا مُهْري، يسميه بمتقدم اسمه، وإنما خص العشار بالذكر؛ لأنها أعز ما تكون عند العرب، ومالها وعيشها أكثره منها، وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة، قال الشاعر:

تَـرَى الـمـرءَ مهجـورًا إذا قـلَّ مالُـه ... وبيــت الْغَنِــيِّ يُهْــدَى لَــهُ وَيُــزَارُ
وَمَــا يَنْفَــعُ الــزُّوَّارَ مَــالُ مَــزُورِهِمْ ... إِذَا سَــرَحَتْ شَــوْلٌ لَــهُ وَعِشَــارُ

يقال: ناقة عشراء، وناقتان عشراوان، ونوق عِشارٌ، وعُشَراوات، وقد عَشَّرت الناقة تعشيرًا، أي: صارت عشراء. وقيل: السحاب يعطل ما يكون فيه، وهو الماء فلا يمطر، وقيل: الديار، وقيل الأرض التي يُعَشَّرُ زرعها، تُعطل فلا تزرع، والصواب والحق هو القول الأول. وقد قيل: لا يكون في القيامة ناقة عشراء، ولكن أراد الله عز وجل به المثل، وأنه لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها مع عزتها ونفاستها، واشتغل بنفسه، ولكن يقال: العشار موجودة في بداية يوم القيامة وظهور أشراطها الكبرى، وهو المقصود بالآية. وقيل يراها أصحابُها يوم القيامة كذلك، لا سبيل لهم إليها.

قوله: ﴿حُشِرَتۡ﴾ أي: جُمعت حتى يقتص لبعضها من بعض، ثم يقال لها: كوني ترابًا، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ وقرئت (سُجِرت) أي: ملئت من الماء، والعرب تقول: سَجَرت الحوض أُسَجِّره سجْرًا، إذا ملأته، وهو مسجور، والمسجور والساجر في اللغة: الملآن. وقيل: أُرسل عذبُها على مالحها، ومالحها على عذبها، حتى امتلأت وصارت البحار بحرًا واحدًا، وقيل: صار بحرًا واحدًا، ثم أوقدت فصارت نارًا، وهو من سجرت التنور أسجره سجرًا، إذا أحميته وأوقدته نارًا، والقول الثاني أقرب.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أي: يقرن الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح، وكل شكل بشكله، كما قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: أشكالهم، وقد روى ابن مردويه عن سماك بن حرب قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: سمعت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ هو الرجل يزوج نظيره من أهل النار؛ ثم قرأ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾. صححه ابن حجر.

وجاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة آخر من يخرج من النار، وفيه قال رسول الله ﷺ: «...يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ...». قال تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾ أي: المقتولة، وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤودها، أي: يثقلها حتى تموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله، قال الشاعر:

وموءودة مَقْبُورَةٌ فِي مَفَازَةٍ ... بِآمَتِهَا مَوْسُودَةٌ لَمْ تُمَهَّدِ

وقال آخر:

سَـــمَّيْتُهَا إِذْ وُلِـــدَتْ تَمُـــوتُ وَالْقَبْـــرُ صِـــهْرٌ ضَـــامِنٌ زِمِّيـــتُ

وكانوا يدفنون بناتهم أحياءً لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، والثانية: إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفًا من السبي والاسترقاق، وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا ويمنعون منه. قال الفرزدق:

وَمِنَّـــا الَّـــذِي مَنَـــعَ الْوَائِـــدَاتِ فَأَحْيَـــا الْوَئِيـــدَ فَلَـــمْ يُـــوأَدِ

قوله تعالى: ﴿سُئِلَتْ﴾ أي: على أي ذنب قتلت؛ ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها، فإنه إذا سأل المظلوم فما الظن بالظالم إذا؟ وقد جاء عند أحمد، وأبي داود بسند لا بأس به عن خنساء بنت معاوية الصريمية، عن عمها رضي الله عنه قال: «قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَنْ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْوَئِيدُ فِي الْجَنَّةِ». وجاء عند أبي داود بسند لا بأس به من حديث عامر بن شراحيل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْوَائِدَةُ وَالْمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ»، وفي حديث سلمة بن يزيد عند أحمد بنحوه، وزاد: «إِلا أَنْ تُدْرِكَ الْوَائِدَةُ الإِسْلامَ فَيَعْفُوَ اللهُ عَنْهَا».

ولعل الجمع بينهما أن يقال: بعض من وأد في الجاهلية في النار، وهم من قد علم الله كفرهم مسبقًا، وتكون من التبعيضية محذوفة، وهي مرادة، وكذا في الحديث الأول، يقال: بعض من وأد في الجاهلية من أهل الجنة، وهم الذين قد علم الله منهم الإيمان لو كُلِّفوا. وفي هذا دلالة عظيمة على علم الله بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، وقد يقال: لعل النبي ﷺ قال الحديث الثاني قبل أن يتبين له أن الوئيد في الجنة.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ وقرئت: (نُشِّرَت)بالتشديد، أي: فتحت بعدما كانت مطوية، وقد كانت طويت بالموت، ونشرت يوم القيامة ليقف كل إنسان عل صحيفته فيعلم ما فيها. فالقراءة الأولى نشرت مرةواحدة، والقراءة الثانية على تكرار النشر للمبالغة في تقريع العاصي وتبشير المطيع.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ أي: كما يُكْشط الجلد عن الكبش وغيره، والقشط لغة فيه، فالكشط: قَلْع عن شدة التزاق، وكَشَطْتُ البعير كشطًا: إذا نزعت جلده، ولا يقال: سلخته؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلَّدته. وانكشط أي: ذهب، فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء، وقيل: تُطوى، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾، فكأن المعنى: قلعت فطويت، وهذا هو الأظهر.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ وقرئت (سُعِرت) بالتخفيف، من السعير أي: أُوقِدت فأضرمت للكفار، وزيد في إحمائها، يقال: سَعَّرْتُ النار، وأسعرتُها، وقراءة التشديد معناها: أوقدت مرة بعد مرة.

قوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عدي بن حاتم ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ جاء عند مسلم من حديث عمرو بن حريث ﵁ قال: «صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ الْفَجْرَ، فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾»، أي: أقسم بالنجوم التي تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، يقال: خَنَس يَخْنَسُ خنوسًا: إذا تأخر، وأخنسه غيره، إذا خلفه ومضى عنه، والْخَنَس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلها خُنس. وقيل: الظباء، وقيل: البقر الوحش، والقول الأول هو الحق.

قوله: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ أي: النجوم التي تكنس في وقت غروبها وتتأخر عن البصر لخفائها، وقد جاء عند ابن جرير بسند جيد عن خالد بن عرعرة قال: سمعت عليًا ﵁ وسئل عن ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ فقال: هي النجوم، تخنس بالنهار، وتكنس بالليل. والكنس: جمع كانس، وكانِسة، وكذا الخنس جمع خانس، وخانسة، و﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ جمع جارية، من جرى يجري. وقيل: ﴿ٱلۡخُنَّسِ﴾البقر، و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: الظباء، في خُنَّس، إذا رأين الإنسان خنسن وانقبضن وتأخرن ودخلن كِناسهن. وقيل: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: الظماء والبقر، والصواب كما أسلفنا: المراد بالخنس، والجوار الكنس: النجوم.

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: أدبر بظلامه. قال الفراء: العرب تقول: عسعس، وسَعْسَع، إذا لم يبق منه إلا اليسير. وقال الخليل، وهو قول كثير من علماء الأصول: عسعس الليل، إذا أقبل أو أدبر، وهو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره، والأظهر أن المراد بذلك: إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾. وأصل العس: الامتلاء، ومنه قيل للقدح الكبير: عُسّى؛ لامتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه، وأطلق على إدباره لانتهاء امتلائه على ظلامه لاستكمال امتلائه به. ويقال للذئب: العسعس، والعَسْعاس، والعسّاي؛ لأنه يَعُسّ بالليل ويطلب، ويقال للقنافذ: العَسَاعس؛ لكثرة ترددها بالليل.

قوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: امتد حتى يصير نهارًا واضحًا، يقال للنهار إذا زاد: تنفس، وكذلك الموج إذا نفخ الماء، ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيل: إذا انشق وانغلق، ومنه تنفست القوس أي: تصدعت، وهذا القول أظهر.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾أي: القرآن ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أي: جبريل ﵇، وهذا جواب القسم. وقيل: محمد

ﷺ، والقول الأول هو الحق؛ للآية التي بعدها.

قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾.

قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: عند الله ﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذي مكانة.

قوله: ﴿مُّطَاعٍ﴾أي: مطاع في السماء، وفي الملأ الأعلى، وقد سبق حديث الإسراء في فتح أبواب السماء له عند صعوده بمحمد ﷺ.

قوله: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي: مؤتمن على الوحي الذي يجيء به.

قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ أي: محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية، وقد سبق تفصيل ذلك في سورة النجم.

قوله: ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: مطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو بيّن، أي من جهته تُرى الأشياء، وقيل: أقطار السماء ونواحيها، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ قرئت (بظنين)، فعلى القراءة الأولى: ماهو ببخيل، أي: لا يضن عليكم بما يعلم، بل يُعلِّم الخلق كلهم كلام الله وأحكامه. قال الشاعر:

أَجُودُ بِمَكْنُونِ الْحَدِيثِ وَإِنَّنِي ... بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَالَنِي لَضَنِينُ

والغيب: القرآن وخبر السماء. وعلى القراءة الثانية: ماهو بمتهم، والظنة: التهمة.

واختار هذه القراءة أبو عبيدة؛ لأنهم لم يبخلوه، ولكن كذبوه، ولأن الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقول: ماهو على كذا، وإنما يقولون: ما أنت على هذا بمتهم. وقيل: (بظنين): ضعيف، يقال: رجل ظنين، أي: ضعيف، وبئر ظنونٌ، إذا كانت قليلة الماء.

والظنون: الرجل السيئ الخلق، فهو لفظ مشترك، والمقصود أنه لم يكن رسول الله ﷺلحظة بخيلًا ولا متهمًا، وقد روى ابن أبي حاتم بسند صحيح: أن ابن عباسرضي الله عنهما كان يقرأ: بـ(ضنين)، قال: والضنين، والظنين سواء، أي: ما هو بكاذب، والظنين: المتهم، والضنين: البخيل.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: بعقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقًا من عند الله؟ قال الزجاج: فأي طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بُيِّنت لكم؟ يقال: أين تذهب؟ وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب قولهم: ذهبت الشام، وخرجت العراق، وانطلقت السوق، أي:

إليها.

انتهى تفسير سورة التكوير، ولله الحمد.

  

سورة الانفطار

وهي مكية بالإجماع، وقد سبق حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ...» الحديث.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: تشققت، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾، والفَطْر: الشقُّ، يقال: فطرته، فانفطر، ومنه: فَطَر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء: شقق، وسيفٌ فُطار، أي: فيه شقوق.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت، نثرت الشيء أنثره نثرًا، فانتثر، والاسم: النِّثار، والنُّثار: ما تناثر من الشيء، ودُرٌّ منثَّ، شُدِّد للكثرة.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: فجر بعضها في بعض، فصارت بحرًا واحدًا من نار، وقيل: ذهب ماؤها ويبست حين فجرت وتفرقت، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قُبلت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء، يقال: بعثرت المتاع: إذا قلبته ظهرًا لبطن، وبعثرت الحوض، وبعثرته إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: ما الذي غرك حتى كفرت بربك الكريم؟ والجواب: إنه الشيطان الرجيم، وحُمقه، وجهله العظيم، قال الشاعر:

يَـا كَـاتِمَ الـذَّنْبِ أَمَـا تَسْـتَحِي ... اللهُ فِـي الْخَلْـوَةِ ثَانِيكَـا
غَـرَّكَ مِـنْ رَبِّـكِ إِمْهَالُـهُ ... وَسَـتْرُهُ طُـولَ مَسَـاوِيكَا

وقال آخر:

يَـا مَـنْ غَـلَا فِـي الْعُجْـبِ وَالتِّيـهِ ... وَغَـرَّهُ طُـولُ تَمَادِيـهِ
أَمْلَـى لَـكَ اللهُ فَبَارَزْتَـهُ ... وَلَـمْ تَخَـفْ غِـبَّ مَعَاصِيـهِ

قوله: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ وقرئت: (فعدّلك) واختار الثانية أبو عبيد، وأبو حاتم، والمعنى: جعلك معتدلًا سَويّ الخلق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وقد جاء عند أحمد، وابن ماجه بسند لا بأس به من حديث بشر بن جحّاش القرشي رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَصَقَ يَومًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ اللهُ: ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ».

قوله: ﴿فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: شبه أب، أو أم، أو خال، أو عم، حسنًا أو قبيحًا، طويلًا أو قصيرًا، ذكرًا أو أنثى. وقيل: إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حيوان.

وقد جاء عند مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَثَرُهُ، وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلا يُزَادُ فِيهَا وَلا يُنْقَصُ»، وفي رواية: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلا يَنْقُصُ». ويجوز أن تكون ﴿مَّا﴾ بمعنى الشرط والجزاء، أي: في صورة ما شاء يركبك ركبك.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقًا، أو ألا.

قوله: ﴿بَلْ﴾ لنفي شيء تقدم، وهو إنكارهم للبعث وتحقيق غيره.

قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالحساب، وهذا التكذيب هو الذي حملكم على مواجهة الكريم بالمعاصي.

قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي: رقباء من الملائكة.

قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي: لا يغيبون عن العذاب لحظة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها.

قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعجب من حال الإنسان الذي لا يعرف هذا اليوم الشديد ولا يعمل له لينجو من عذابه.

قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ﴾ وقرئت (يومُ) بالرفع على البدل من ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أو نعت لـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أو بإضمار هو، وأما النصب فعلى أنه موضع رفع؛ لأنه مضاف غير متمكن، كما تقول:

أعجبني يوم يقومُ زيد، قال الشاعر:

مِـــنْ أَيِ يَـــوْمَيَّ مِـــنَ الْمَـــوْتِ أَفِـــرُّ أَيَـــوْمَ لَـــمْ يُقْـــدَرْ أَمْ يَـــوْمَ قُـــدِرْ

فاليوم الثانيان مخفوظان بالإضافة، إلا أنهما نصبا في اللفظ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محض، وهذا اختيار الفراء، والزجاج. وقيل: منصوب على المحل، والتقدير: في يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، وقيل: بمعنى: إن هذه الأشياء تكون يومَ، أو على معنى: يدانون يومَ، أو بإضمار اذكر، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أي: لا ينازعه فيه أحد، كما قال سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وقال: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

انتهى تفسير سورة الانفطار، ولله الحمد.

  

سورة المطففين

وهي مدنية، إلا آيات منها.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو
وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ كَلَّآ إِنَّ
كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ
بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ
يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ
مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ
٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا
يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا
ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾

قوله: ﴿وَيۡلٞ﴾ أي: شدة العذاب ﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أي: الذين ينقصون مكاييلهم وموازينهم، والمطفِّف مأخوذ من الطَّفِيف، وهو القليل، والمطفف: المقِلّ حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن، والطُّفاف، والطُّفافة: ما فوق المكيال، وإناء طُفاف، إذا بلغ الملء طِفافه، تقول منه: أطففت، وطفاف المَكُّوك، وطَفافه: ما ملأ أصباره، وكذلك: طَفُّ المكُّوك وطَفَفُه، والأصبار: الجوانب، يقال: أدهقت الكأس إلى أصبارها، أي: إلى رأسها.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ أي: استوفوا عليهم الكيل وأخذوا الزيادة، وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا، فلا يرضون للناس ما يرضونه لأنفسهم.

قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أي: كالوا لهم، أوزنوا لهم، فحذفت اللام فتعدى الفعل فنُصب، ومثله: نصحتك، ونصحت لك، وأمرتك به، وأمرتكه.

قوله: ﴿يُخۡسِرُونَ﴾أي: ينقصون، والعرب تقول: أخسرت الميزان، وخسرته.وقد أمر الله عزوجل بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وقد

روى ابن ماجه بسند لا بأس به من حديث ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: أقبل علينا رسول ﷺ فقال: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ -وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:...وذكر منها: وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ».

قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ إنكار وتعجب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف، ألا يخافون؟

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»، وقد جاء عند أبي داود بسند لا بأس به من حديث عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام بالليل كبّر عشرًا، وحمد الله عشرًا، وسبّح عشرًا، وهلّل عشرًا، واستغفر عشرًا، وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر وتنبيه عما هم فيه من تطفيف الكيل والميزان، وقيل: بمعنى حقًا.

قوله: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي: في الأرض السابعة، وفيها جهنم، وقد تقدم حديث البراء رَضِوَاللَّهُعَنْهُ بسند جيد، وفيه: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الأَرْضِ السُّفْلى» يعني الكافر، والسِجِّين: الحبس والضيق الشديد، فِعِّيل من السجن، كما يقول: فِسِّيق، وشِرِّيب.

قال ابن كثير: ﴿سِجِّينٍ﴾ مأخوذ من الشجن، وهو الضيق، وقد علم أن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون، كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى منتهى السفولي المطلق، والمحل الأضيق، أي: المركز في وسط الأرض السابعة، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

قوله: ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوب، كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحى، وأصل الرقم: الكتابة.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر، أي: ليس هو أساطير الأولين، وقيل: حقًا ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ وقرئت بالوقف على﴿بَلْ﴾ لتوضيح اللام، جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾». يقال: ران على قلبه ذنبه يرينُ رَيْنًا، وريُونًا، أي: غلب. قال: أبو عبيد كل ما غلبك وعلاك فقد ران بك، ورانك، وران عليك، قال الشاعر:

وَكَـمْ رَانَ مِـنْ ذَنْـبٍ عَلَـى قَلْـبِ فَـاجِرٍ ... فَتَـابَ مِـنَ الـذَّنْبِ الَّـذِي رَانَ وَانْجَلَـى

ورانت الخمر على عقله، أي: غلبته، وران عليه النعاس، إذا غطاه، ويقال: قد أران القوم، فهم مُرِينون، إذا هلكت مواشيهم وهزلت، ويقال: قد رِين بالرجل رِيْنًا، إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾أي: حقًا ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ أي: لا يرونه. قال مالك والشافعي: لما حجب أعداءه بالسخط فلم يروه تجلى لأوليائه بالرضا حتى رأوه. قال الشافعي رحمه الله: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته، وقد تقدم مبحث الرؤية لرب العالمين في الآخرة في أكثر من موضع.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: ملازموها ومحترقون فيها غير خارجين منها.

قوله: ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ أي: تقول لهم خزنة جهنم تقريعًا وتوبيخًا ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي: حقًا، أو ليس الأمر كما يقولون ولا يظنون، بل كتابهم في أسفل سافلين، وكتاب المؤمنين في: ﴿عِلِّيِّينَ﴾ أي: في السماء السابعة تحت العرش، وهوموضوع على صفة الجمع، ولا واحد له من لفظه، كقولك: عشرون، وثلاثون، والعرب إذا جمعت جمعًا ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية قالوا: في المذكر والمؤنث بالنون، وإعرابه كإعراب الجمع، كما تقول: هذه قِنَّسْرون، ورأيت قنسرين. وقيل: واحدها: عِلِّي، وعليه، وهو فِعِّيل من العلو.

قوله: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشهد عمل الأبرار وما سُطر في كتبهم مقربو كل سماء من الملائكة، وقد جاء في حديث البراء ﵁ خبر روح المؤمن حين يُصعد بها إلى السماء، وقد سبق تخريجه.

قوله: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي: نَعْمة، والنِّعمة: التنعيم، يقال: نعَّمه الله، وناعمه، فتنعم، وامرأة منعّمة، ومناعَمَة بمعنى.

قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ أي: الأسرة في الحجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ ما أعد لهم من الكرامات. وما أعد للفجار من العذاب والويلات.

قوله: ﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بَهجته وغضارته ونوره، يقال: نضر النبات، إذا ازْهرّ ونوّر.

قوله: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ أي: من شراب الخمر الصافي الذي لا غش فيه، قال الشاعر:

أَمْ لَا سَـبِيلَ إِلَـى الشَّـبَابِ وَذِكْـرِهِ ... أَشْـهَى إِلَـيَّ مِـنَ الرَّحِيـقِ السَّلْسَـلِ

قوله: ﴿مَّخۡتُومٍ﴾ أي: يختم به آخر جرعة، وقيل: إذا شربوا ففني ما في الكأس انختم ذلك بخاتم

المسك، وقيل: آخر طعمه ورائحته رائحة المسك. وقيل: ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يُفُك ختامها الأبرار، والخاتم والخِتام متقاربان، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر. مثل نَفْض، بمعنى منفوض، وقبض، بمعنى مقبوض، والقول الثالث أظهرها.

قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌ﴾ وذلك لأن سبيل الأشربة أن يكون الكَدَر في آخرها، فوصف شراب الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. وقيل: خلْطه مسك.

قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ ما ذكرناه من أمر الجنة ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فليرغب الراغبون، وليتسابق المتسابقون، وليبارد المبادرون، يقال: نَفَستْ عليه الشيء أَنْفِسه نفاسة، أي ظننت به ولم أحبَّ أن يصير إلي. قال تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: مزاج الرحيق ﴿مِن تَسۡنِيمٍ﴾ أي: شراب ينصبُّ عليهم من علوٍ، وهو أشرف ما في الجنة، وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه: سنام البعير؛ لعلوه من بدنه، وكذلك: تسنيم القبور.

قوله: ﴿عَيۡنًا﴾ قيل: هي منصوبة على الحال من﴿تَسۡنِيمٍ﴾، وقيل: نصب على المدح، وقيل: مفعول به كقوله: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٌ فِي يَوۡمٍ ذِي مَسۡغَبَةٍ ١٤ يَتِيمًا﴾، وهذا قول الفراء، إنه منصوب بـ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ وعند الأخفش: منصوب بـ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾، أي: يسقون عينًا، والقول الأول أظهرها، وهو اختيار الزجاج.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأضرابهم وأشباههم ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كعمّار، وصهيب، وبلال رضي الله عنهم ﴿يَضۡحَكُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: يشيرون بأعينهم، ويعيِّرونَهم بالإسلام، ويعيبونَهم به، يقال: غمزت الشيء بيدي، وعند الشيخين قالت عائشة رضي الله عنها: «كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِجْلَايَ فِي قِبْلَتِهِ، فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي فَقَبَضْتُ رِجْلَيَّ، فَإِذَا قَامَ بَسَطْتُهُمَا». وغمزته بعيني، ويقال: غمزه، أي: عابه، وما في فلان غَمْزه، أي: عيب.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ أي: انصرفوا إلى أهلهم وأصحابِهم وذويهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ وقرئت: (فاكهين)، وهما لغتان، أي: معجِّبين منهم، ومُعجبون بما هم عليه من الكفر، متفكهون بذكر المؤمنين والتعليق عليهم.

قوله: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لأعمالهم، موكلين بأحوالهم، رقباء عليهم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾أي: يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا.

قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ أي: هل جُوزي ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾ بسخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بِهم ذلك أم لا؟ والجواب: نعم، قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله، وقيل: أنه متعلق بـ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: ينظر المؤمنون هل ثُوِّب الكفار وجوزوا، فيكون معنى ﴿هَلْ﴾: التقرير، والقول الأول أقرب، والثاني محتمل.

انتهى تفسير سورة المطففين، ولله الحمد.

  

سورة الانشقاق

وهي مكية بالإجماع، وقد سبق حديث: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ...». وجاء عند الشيخين من حديث أبي رافع قال: «صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْعَتَمَةَ، فَقَرَأَ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، فَسَجَدَ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: سَجَدْتُ بِهَا خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ؛ فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ فِيهَا حَتَّى أَلْقَاهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾

قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي: سمعت، وحُق لها أن تسمع، ومنه قوله ﷺ كما عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»، أي: ما استمع الله لشيء، قال الشاعر:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

أي: سمعوا.

وقال آخر:

إِنْ يَأْذَنُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا ... وَمَا هُمْ أَذِنُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وقيل: أطاعت، وحُقِّ لها أن تطيع ربَّها؛ لأنه خلقها، وقيل: وحُق لها أن تفعل ذلك، قال الشاعر:

فَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَهْلًا وَمَرْحَبًا ... وحُقَّتْ لها العتبى لدينا وقَلَّتِ

والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بسطت ودُكت جبالها، وزال منها كل انثناء، ومدت مد الأديم.

قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي: أخرجت أمواتَها، وما في بطنها من كنوزها ومعادنِها، كما تلقى الحامل ما في بطنها عند الشدة، قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ،

فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ، فَلا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا».

قوله: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي: ممن على ظهرها من الأحياء والكنوز، وقيل: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ منها، أي: خلا جوفها، فليس في بطنها شيء.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: جنس الإنسان.

قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي: عامل وكاسب؛ لأن الكدح في كلام العرب: العمل والكسب، قال الشاعر:

وَمَـا الـدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَـانِ فَمِنْهُمَـا ... أَمُـوتُ وَأُخْـرَى أَبْتَغِـي الْعَـيْشَ أَكْـدَحُ

وقال آخر:

وَمَضَـتْ بَشَاشَـةُ كُـلِّ عَـيْشٍ صَـالِحٍ ... وَبَقِيـتُ أَكْـدَحُ لِلْحَيَـاةِ وَأَنْصِـبُ

أي: أعمل، وقيل: ﴿كَادِحٌ﴾ بمعنى راجع، والقول الأول أظهر، والقول الثاني محتمل.

قوله: ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ أي: ملاقٍ ربك، وقيل: ملاق عملك، وهو الأظهر، وقد جاء عند أبي داود الطيالسي بسند لا بأس به من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلاقِيهِ»، وعند مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «...يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ».

قوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قَالَتْ: فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ». وجاء عند أحمد بسند جيد من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ: اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا. فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا الْحِسَابُ الْيَسِيرُ؟ قَالَ: أَنْ يَنْظُرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ».

قوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: أزواجه في الجنة من الحور العين، وقيل: يرجع إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا ليخبرهم بخلاصه وسلامته، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿مَسْرُورًا﴾أي: مغتبطًا قرير العين.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي: يمد يده اليسرى من وراء ظهره، أي: تُثنى يده إلى ورائه، ويعطى كتابه بها كذلك.

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ أي: بالهلاك والثبور، يقول: يا ويلاه، يا ثبوراه.

قوله: ﴿وَيَصۡلَىٰ﴾ وقرئت: (ويُصْلَى).

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ أي: في الدنيا. قال بعض السلف: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، ووصف أهل النار بالسرور والضحك فيها والتفكه. وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه ابن حبان بسند جيد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: لن يرجع حيًا مبعوثًا، فيحاسب ثم يثاب أو يعاقب، يقال: حار يحور، إذا رجع. قال لبيد:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضُوئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بعد إذا هُوَ سَاطِعُ

ومنه: الخبز الحُوَّارى؛ لأنه يرجع إلى البياض، فالحور في كلام العرب: الرجوع، ومنه قوله ﷺ كما عند مسلم من حديث عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺإِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ». يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة. وكذلك: الحور، والمعنى: الرجل يكون صالحًا، ثم يتحول إلى رجل سوء، وفي المثل: حُورٌ في محارة، أي: نقصان في نقصان، يُضرب للرجل إذا كان أمره يُدْبِر.

والحور: الاسم، من قولك: طَحَنت الطاحِنة فما أحارت شيئًا، أي: ماردت شيئًا من الدقيق، والْحُور: الهلكة.

قوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس الأمر كما ظن، بل يحور إلينا ويرجع.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ من يوم خلقه إلى أن يبعثه، وهل هو شقي أو سعيد.

قوله: ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ أي: بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة، وقيل: البياض، والقول الأول هو الصواب. وقد جاء عند مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَالًا رضي الله عنه فَأَقَامَ الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ... ثُمَّ أَخَّرَ الْمَغْرِبَ حَتَّى كَانَ عِنْدَ سُقُوطِ الشَّفَقِ...» الحديث. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ: كأنه الشفق، وكان أحمر. وفي الصحاح: الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة. وقد قيل: أصل الكلمة من رقة الشيء، يقال: شيء شَفِق، أي: لا تماسك له لرقته، وأشفق عليه، أي: رق قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رِقة القلب، وكذلك: الشفق.

وقيل: الشفق: النهار كله؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾. والشفق أيضًا: الرديء من الأشياء، يقال عطاء مُشفّق أي: مقلل.

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جمع وضم ولف ما كان منتشرًا بالنهار في تصرفه. والوَسْق: ضمك من الشيء بعضه إلى بعض، تقول: وسَقْتُه أَسِقُ وَسْقًا، ومنه قيل للطعام الكثير المجتمع: وَسْقٌ، وهو ستون صاعا، وطعام مُوسَق، أي: مجموع، وإبل مُسْتَوْسِقه، أي: مجتمعة، وقيل: ما ساق شيء إلى حيث يأوي، فالوَسْق بمعنى الطرْد، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمُر: وسِيقه، وقيل: ما جنَّ وستر، وقيل ما حمل، وكل شيء حملته فقد وسقته، والعرب تقول: لا أفعله ما وَسَقَتْ عيني الماء، أي: حملَتْه، ووسَقَت الناقةُ تسِق وَسْقًا، أي: حملت وأغلقت رحمها على الماء، فهي ناقة واسِق، ونوقٌ وِسَاق، مثل نائِم، ونيام، وصاحِب وصِحاب، ومواسيق أيضًا، وأوسقت البعير: حَمَّلته حمله، وأوسَقَت النخلة: كثر حملها. وقيل: وما عُمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار.

ومحصلة القول أنه قسم بالليل وما جمع وضم ولفّ وجلل بظلمته ما كان منتشرًا بالنهار، وقد جاء عند سعيد بن منصور: قال ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا في هذه الآية: الليل وما دخل فيه. صححه ابن حجر.

قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: تَمّ واجتمع واستوى واستدار، يعني: في أيام البيض، وهو افتعال من الوَسْق، الذي هو الجمع، يقال: وسقته، فاتسق، كما يقال: وصلته، فاتّصل، ويقال: أمر فلان مُتَّسِق، أي: مجتمع على الصلاح منتظم، ويقال: اتسق الشيء، إذا تتابع.

قوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ وقرئت: (لترَكبَنَّ). جاء عند البخاري عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال في هذه الآية: «حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ». وعلى القراءة الثانية: لتركبن يا محمد حالًا بعد حال. وجاء عند مسلم من حديث عمرو بن العاص رَضِوَاللَّهُعَنْهُ موقوفًا قال: «إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ...» ثم ذكر حالته قبل الإسلام، وبعد الإسلام والرسول ﷺ حي، وحالته بعدما توفي رسول الله ﷺ. والمعنى أن الإنسان من حين يخلق إلى حين يبعث تعتريه أحوال، فشدة بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وحياة بعدها موت، بعده بعث، ثم جزاء، وما بين ذلك كان فطيمًا بعد رضيع، وشيخًا بعد شباب، قال الشاعر:

كَـذَلِكَ الْمَـرْءُ إِنْ يُنْسَـأْ لَـهُ أَجَـلٌ ... يَرْكَـبْ عَلَـى طَبَـقٍ مِـنْ بَعْـدِهِ طَبَـقُ

ويدخل في ذلك ما جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟» كما يدخل فيه ما رواه البخاري من حديث أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلاَّ الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ». والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد: وقع في بناتِ طَبَق، وأصلها من الحيّات، إذ يقال للحية: أم طَبَق، لتحوِّيها. والطبق في اللغة كما أسلفنا: الحال.

وهذا دليل على حدوث العالم وإثبات الصانع، قال الحكماء: من كان اليوم على حالة، وغدًا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه. وقيل لأبي بكر الوراق: ما الدليل على أن لهذا العالم صانعًا؟ فقال: تحويل العادات، وعجز القوة، وضعف الأركان، وقهر المنية، ونسخ العزيمة.

ويقال: أتانا طبق من الناس، وطبق من جراد، أي: جماعة. ويقال لقرن من الناس: طبق، والطبق أيضًا: عظم رقيق يفصل بين الفَقَارين. ويقال: مضى طبق من الليل، وطبق من النهار، أي: معظم. والطبق واحد الأطباق، وهو لفظ مشترك.

قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعهم؟ وهو استفهام تعجب وإنكار.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب، وبما يكتمون من الأفعال السيئة، وهو مأخوذ من الوعاء الذي يَجْمع ما فيه، يقال: أوعيت الزاد والمتاع، إذا جعلته في الوعاء، قال الشاعر:

الْخَيْـرُ أَبْقَـى وَإِنْ طَـالَ الزَّمَـانُ بِـهِ   وَالشَّـرُّ أَخْبَـثُ مَـا أَوْعَيْـتَ مِـنْ زَادِ

ووعاه أي: حفظه، تقول: وعيت الحديث أعيه وعْيًا، وأذن واعية، أي: حافظة.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص، قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، يقال: مَنَنْتُ الحبل، إذا قطعته. وقد تقدم. وقيل: ليس استثناءً، وإنما هو بمعنى الواو، والمعنى: والذين آمنوا.. لهم أجر غير ممنون، والقول الأول أظهر.

انتهى تفسير سورة الانشقاق، ولله الحمد.

  

سورة البروج

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي: ذات النجوم، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، أو ذات منازل الكواكب والشمس والقمر، فالقمر يسير في كل برج منها يومين وثلثًا، فذلك ثمانية وعشرون يومًا، ثم يستسِرّ ليلتين، وتسير الشمس في كل برج منها شهرًا، وهي الْحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسرطان، والأسد، والسُّنبلة، والميزان، والعَقْرب، والقوسُ، والْجَدْي، والدلو، والحوت. ويقال للقصور: البروج، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، والقول الأول داخل في الثاني.

قوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْيَوْمُ الْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ». وروى البزار عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا: «الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة». حسنه ابن حجر.

قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. والجمع بين ما سبق أن يوم القيامة يوم موعود ويوم مشهود، وله أوصاف أُخر، أما يوم عرفة فهو يوم مشهود، وهذا أخص أسمائه، وكذا صلاة الفجر مشهودة، قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، ولا يمنع أن يكون هناك ثمَّ شهود أيضًا، فالأمة الإسلامية شاهدة على الأمم، وكذا الجوارح شاهدة على أصحابِها، والرسل شاهدون على أممهم، والملائكة شاهدون على الخلق، والمال شاهد على صاحبه، والأرض شاهدة على من عليها.

قوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ أي: لُعن الذين حفروا الأخدود فأقدوا فيه النار وعذبوا فيه المؤمنين، في الدنيا والآخرة، وقيل: إخبار عن قتل أولئك المؤمنين، والأول هو الحق والصواب. والأخدود: الشق العظيم المستطيل الذي في الأرض كالخندق، وجمعه: أخاديد، ومنه: قيل لمجاري الدموع: الخدّ، وسميت المخدة بذلك، لأن الخد يوضع عليها، ويقال: تخدّد وجه الرجل، إذا صارت فيه أخاديد من جراح.

قوله: ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال من ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾.

قوله: ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ أي: الحطب.

قوله: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ أي: عندها، والمعنى أن الذين خددوا الأخاديد، وأضرموا النيران قاعدون يلقون فيها المؤمنين، وقد جاء عند مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا، فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ، فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلامِ، فَجِيءَ بِالْغُلامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ

يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ! فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ».

وفي هذا الحديث تعليم للأمة الإسلامية لتوطن نفسها على ما تلقى من الأذى والآلام والمشقات، ولتتأسى بمثل هذا الغلام، والذي هو بمنزلة طالب العلم في الأمة في صبره وتصبره، وتصلبه على الحق وتمسكه به، وبذله لنفسه في حق إظهار دعوته ودخول الناس في دين الله، مع صغر سنه وعظم صبره، وكذا الراهب، والذي هو بمنزلة العالم في الأمة، صبرعلى التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس، وهم بمنْزلة العامة في الأمة، لما آمنوا ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا عن دينهم، وقد قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾. وقد جاء عند أبي داود، والترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ: كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ». وجاء عند ابن ماجه بإسناد لا بأس به من حديث أبي الدرداء ﵁ قال: أوصاني خليلي ﷺ «أَنْ لا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِّعْتَ وَحُرِّقْتَ...». ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يترخصوا، ويكفي قصة عاصم، وخبيب، وبلال ﵃. وسنة الابتلاء سارية جارية على قدمين وساقين، جعلنا الله ممن إذا ابتلي صبر، ومن إذا أُنعِم عليه شكر حتى نلقى الله ﷻ غير مبدلين ولا ضالين ولا مُضلين.

قوله: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ أي: حضور يعرضون الكفر، فمن أبى ألقوه في النار، وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: مع، أي: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود، والأول أولى.

قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: ما نَقَم الملك وأصحابه من الذين حرقهم إلا أن جريرتَهم الإيمان والتصديق ﴿بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: حرقوهم بالنار، والعرب تقول: فتن فلانٌ الدرهم والدينار، إذا أدخله الكور لينظر جودته، ودينار مفتون، إذا كان جيدًا، ويسمى الصائغ: الفتان، وكذا الشيطان، وورق فتين، أي: فضة محترقة، ويقال: للحرة: فتين، أي: كأنها أُحرقت حجارتُها بالنار، وذلك لسوادها.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ أي: من صنيعهم. قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!.

قوله: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ جواب القسم الذي بدأ به السورة، أي: أخذه للجبابرة والظلمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وقيل: يبدئ لهم عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده عليهم في الآخرة، وهذا عند الطبري، والأول هو الجدير بالصواب.

قوله: ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ أي: المتودد إلى أوليائه بالمغفرة والرحمة، أو الوادّ لأوليائه، فعول بمعنى فاعل.

قوله: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ وقرئت: (المجيدِ) نعتًا لـ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾، وقيل: لـ﴿رَبِّكَ﴾، والقراءة الأولى نعتًا لـ﴿ذُو﴾، وهوالله سبحانه، واختاره أبو عبيد، وأبو حاتم. والمجد هو نهاية في الكرم والفضل. وقد سبق هذا المعنى.

قوله: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: لايمتنع عليه شيء يريده، ورُفعت ﴿فَعَّالٞ﴾ لأنه خبر لمبتدأ محذوف، وقيل: على الاستئناف؛ لأنه نكرة محضة، وقيل: رفع على وجه الإتباع لإعراب ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾، والقولان الأوليان وجيهان، وقد قيل لبعض السلف وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعّال لما أريد.

قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ أي: قد أتاك ﴿حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ أي: خبر الجموع المكذبة لأنبياء الله ورسله، المعذبة لأولياء الله وحزبه.

قوله: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من ﴿ٱلۡجُنُودِ﴾.

قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: من هؤلاء الذين هم حولك من المشركين ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾ أي: لك ولما جئت به.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ أي: هم في قبضته، لا يفوتونه ولا يعجزونه.

قوله: ﴿مَّجِيدٌ﴾ أي: متناهٍ في الشرف والكرم والبركة والبيان لأحكام الدنيا والدين، منزَّل غير مخلوق.

قوله: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وقرئت بالرفع: (محفوظٌ)، نعتًا لـ﴿قُرْءَانٌ﴾ أي: مكتوب في لوح، وهو محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه، وهو أم الكتاب.

انتهى تفسير سورة البروج، ولله الحمد.

  

سورة الطارق

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ قَسَمٌ، و﴿ٱلطَّارِقِ﴾ هو ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أي: الذي ترمى به الشياطين، وكل من أتاك ليلًا فهو طارق، ولهذا سمي النجم بذلك؛ لأنه يطرق ليلًا، ومنه: ما جاء عند الشيخين من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَطَالَ أَحَدُكُمُ الْغَيْبَةَ فَلا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا»، ولمسلم في رواية: «يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ»، وعند الشيخين أيضًا من حديث أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَطْرُقُ أَهْلَهُ، كَانَ لا يَدْخُلُ إِلاَّ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً»، قال الشاعر:

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُورًا بِأَوَّلِهِ ... إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا

لَا تَفْرَحَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أَوَّلُهُ ... فَرُبَّ آخِرِ لَيْلٍ أَجَّجَ النَّارَا

ويقال لكوكب الصبح: الطارق. وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل طارقًا لاحتياجه في الوصول إلى الدق. وقال قوم: إنه قد يكون نهارًا، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين، أي: مرتين، ومنه قوله ﷺ كما جاء عند أحمد بسند لا بأس به عن عبد الرحمن بن خَنْبَش التميمي رضي الله عنه: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ، إلا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ».

قوله: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ كما قال في سورة الصافات: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ أي: مضيء، والعرب تقول: اثقِب نارك، أي: أضِئها. والثقوب: ما تشعل به النار من دُقاقِ العيدان.

قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ وقرئت: (لَمَا) بالتخفيف، جواب القسم في أول السورة، و﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، وما مؤكدة صلة، والمعنى على القراءة الثانية: إن كل نفس لعليها حافظ، وقيل: إن كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها من الآفات حتى يسلمها إلى القدر، وقد روى ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما. صححه ابن حجر.

وقيل: يحفظون الرزق والعمل والأجل والخير والشر، والكل محتمل وعلى القراءة الأولى: ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ، وهي لغة هذيل، ويقول قائلهم: نشدتك لَمّا قمت. ونظير هذه الآية: قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، والحافظ الحقيقي هو الله، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾.

قوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أي: من المنيّ، والدفق: صب الماء، أدفقه دفقًا: صببته، فهو ماء دافق، أي: مدفوق، كما قالوا: سر كاتم، أي: مكتوم، ولا يقال دَفَق الماء، وإنما يقال: دُفق الماء، ويقال: دفق الله روحه، إذا دعى عليه بالموت، وسمي بذلك؛ لأنه ذو اندفاق بشدة.

قوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ أي: الظهر، وفيه لغات: صُلْب، وصُلَب، وصَلَب، وصالب.

قوله: ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ قيل: ترائب المرأة، وهي صدرها وما بين ثدييها، الواحدة تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر.

وقيل: ﴿ٱلتَّرَآئِبِ﴾: ترائب الرجل، والتقدير: يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، وقيل: من صلب الرجل وترائبه، وصلب المرأة وترائبها، وهذا القول في غاية القوة، ولذلك يشه الرجل والديه كثيرًا، وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني. والمكثر من الجماع يجد وجعًا في ظهره وصلبه، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسًا من الماء. وجعلها ماءً واحدًا لا متزاجهما.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾ أي: رد الماء في الإحليل أو الصلب ﴿لَقَادِرٞ﴾، وقيل: على رد الإنسان ماء كما كان، وقيل: على رد الإنسان بعد العموت لقادر، والكل حاصل، ولكن المختار: القول الأخير؛ للآية التي بعدها.

قوله: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: تُمتحن وتختبر، قال الشاعر:

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ ... صَلُوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينِ

وقيل: تعرف، قال الشاعر:

قَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ تَزْدَرِينِي ... فَالْيَوْمَ أَبْلُوكَ وَتَبْتَلِينِي

أي: أعرفك وتعرفني. وقيل: تُخرج مُخَبَّآتُها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر، وأضمره من إيمان أو كفر.

والمقصود أن سريرة كل مكلف غدًا تعرف وتظهر وتكشف علانية، لا يخفى منها خافية.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ قسم.

قوله: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي: المطر، قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه ابن حجر، وقد رواه ابن أبي حاتم،

يعني ترجع كل سنة بمطر بعد مطر. وقد يسمى المطر أوْبًا كما يسمى رجعًا.

وقيل: ذات الشمس والقمر والنجوم يَرجِعن في السماء، تطلع من ناحية وتغيب في أخرى. وقيل: ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد، والقول الأول هو الأظهر.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ أي: تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار، ونظيره: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾. وقيل: ذات الحرث، وقيل: ذات الطرق، وقيل: ذات الأموات؛ لانصداعها عنهم للنشور، والقول الأول هو الحق والصواب.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ جواب القسم، أي: يفصل بين الحق والباطل. وقد قال علي رضي الله عنه عن القرآن كما جاء عنه بسند جيد: هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ. رواه الترمذي في حديث طويل مرفوع وهو أشبه بالموقوف.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: بالباطل واللعب، والهزل ضد الجد، وقد هَزَل يَهْزِل. قال الشاعر الكميت:

أَرَانَـا عَلَـى حُـبِّ الْحَيَـاةِ وَطُولِهَـا ... يَجِـدُّ بِنَـا فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ وَنَهْـزِلُ

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكرًا.

قوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: وأنا أكيدهم وأمكر بهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

قوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أخرهم ولا تسأل إهلاكهم.

قوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ تأكيد، أي: قليلًا وقريبًا، قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. ومَهْل، أمهِل بمعنى، مثل: نزِّل وانزِل، وأمهله: أنظره، ومهله تمهيلًا، والاسم: المُهْلة، والاستمهال: الاستنظار، وتَمَهَّل في أمره، أي: اتَّأد، واتْمَهْلل اتْمِهْلالًا، أي: اعتدل وانتصب، والاتْمِهلال أيضا: سكون وفتور، ويقال: مهلًا يا فلان، أي: رفقًا وسكونًا. والرويد في كلام العرب: تصغير رُود، وقيل: ﴿رُوَيْدًۢا﴾ بمعنى مهلًا، والقول هو الأقرب، وتفسير رويدك أسهل؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أَفْعِل دون غيره، ونصبت ﴿رُوَيْدًۢا﴾ إما على نعت للمصدر، أي: إمهالًا رُويدًا، وإما على الحال، أي: أمهلهم غير مستعجل لهم، وهذا القول أظهر.

انتهى تفسير سورة الطارق، ولله الحمد.

  

سورة الأعلى

وهي مكية عند الجمهور، وقيل: مدنية.

جاء عند البخاري من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا: مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلالٌ، وَسَعْدٌ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فِي سُوَرٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ».

وثبت عند الشيخين من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ اقْرَأْ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، وَ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وَنَحْوَهَا».

وجاء عند مسلم من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الظُّهْرِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ قَرَأَ خَلْفِي بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، وَلَمْ أُرِدْ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ بَعْضَكُمْ خَالَجَنِيهَا».

وجاء عند مسلم من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ».

وعند أبي داود بسند جيد من حديث أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْوِتْرِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَقُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَاللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ». ورواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح بلفظ: «وفي الركعة الثانية بـ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ولا يُسَلِّمُ إلا في آخِرِهِنَّ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ جاء عند أبي داود بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». وقد تظاهرت النصوص الصحيحة على أن

المصلي يقول: سبحان ربي الأعلى في حال سجوده، كما أنه يقول: سبحان ربي العظيم في حال ركوعه، ومنها حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم. و﴿ٱسۡمَ﴾ صلة، قُصد بِها تعظيم المسمى، والمعنى: عظِّم وقدِّس ونزِّه ربك الأعلى، وقيل: نزه اسم ربك عن أن تسمي به أحدًا سواه، وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكر إلا وأنت خاشع معظم ولذكره محترم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، ولم يجعلوا الاسم هو المسمى، وهذا هو الأظهر. وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. والقول الثاني هو الأظهر.

قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: قدَّر ووفق لكل شكل شكله، وأرشد وهدى المخلوق لصالح معاشه وتحصيل رزقه، كما هدى الإنسان المكلف للسعادة والشقاوة، وقد تقدم بيان ذلك، قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، فجعل لكل دابة ما يصحلها وهداها له.

قوله: ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أي: النبات والكلأ الأخضر، قال الشاعر:

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حزازات النفوس كما هيا

قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ أي: ما يقذف به السيل إلى جوانب الوادي من الأشياء من الحشيش والقماش، وهو ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء، وقماش كل شيء: فتاته، وكذلك الغثَّاء، والجمع: الأغثاء، والغثاء: الشيء اليابس، ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبِس: غُثاءٌ، وهَشِيم، وكذلك للذي يكون حول الماء من القماش غثاء.

وحكى أهل اللغة: غثا الوادي وجَفَأ، وكذلك الماء إذا علاه من الزَّبَد والقماش ما لا ينتفع به.

قوله: ﴿أَحۡوَىٰ﴾ أي: أسود، وفي الصحاح: والحوّة: سمرة الشفة، يقال: رجل أحوى، وامرأة حواء، وبعير أحواء، إذا خالط خضرته سواد وصفرة. وتصغير ﴿أَحۡوَىٰ﴾: أحيوِ، في لغة من قال: أسَيْوِد، قيل: يجوز أن يكون﴿أَحۡوَىٰ﴾ حالًا من ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء، يقال: قد حَوِيَ النبت، ويجوز أن يكون ﴿أَحۡوَىٰ﴾ صفة لـ﴿غُثَآءً﴾، وهذا هو الأظهر، والمعنى أنه صار كذلك بعد خضرته.

قوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بشرى من الله بأن أعطاه آية بينة، وهو أن يقرأ على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أمِّيٌّ لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه، وقد سبق الحديث عن هذا في سورة القيامة.

قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهو سبحانه لم يشأ أن تنسى شيئًا، وشاء أن تحفظ فلا تنسى، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، ولم يشأ، وقد شاء سبحانه أن يبقى الخلود، وكقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقد شاء أن يعذبَهم ويجعل مصيرهم في الدرك الأسفل من النار، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا، وهو وحدة واحدة، فلا يؤمن ببعضه ويكفر ببعض، وإنما يُرَدّ

متشابهه إلى محكمه، ومجمله إلى مفصله، ومشكله إلى مبينه، وهذا هو المقصود بقوله سبحانه: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للطريقة اليسرى، وهي عمل الخير الموصل لجنة الفردوس الأعلى.

قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: الموعظة، والتقدير: أو لم تنفع، فحُذف، كما قال تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، قال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع، وقال ابن شجرة: الذكرى نافعة بكل حال، وقيل: ﴿إِن﴾ بمعنى (ما)، أي: فذكّر ما نفعت الذكرى، وهذا القول له وجاهة وفيه قوة، والمعنى: ذكّرْ حيث تنفع الذكرى. ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في مقدمة مسلم: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»، وقال عليٌّ رضي الله عنه كما عند البخاري: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟».

قوله: ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: من يتقي الله ويخافه.

قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذكرى ويُبعد عنها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: الشقي في علم الله.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه.

وقد جاء عند مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ».

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، ودار حيث تدور الفضيلة، فعمل الصالحات، وأقام الواجبات من صلاة وزكاة وصيام وحج، وطهر أعماله من الرياء والسمعة، وخلع الأنداد، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله خالصًا من قلبه، وقد جاء عند ابن أبي حاتم بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: «نَزَلَت فِي صَلاةِ العِيدِ، وَزَكَاةِ الفِطرِ».

قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ جاء عند أحمد بسند لا بأس به من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ».

قوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ جاء عند مسلم من حديث المستورد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»، قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى؟.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، وقيل: من قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى آخر السورة، وقيل: هذه السورة، وقيل: إن هذا القرآن ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: الكتب الأولى، والقول الثاني هو الأظهر، وهو اختيار ابن جرير، وابن كثير. وقد روى البزار عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «كَانَ كُلُّ هَذَا فِي صُحُفِ إبرَاهِيمَ وَمُوسَى». صححه ابن حجر.

وكان في الْحِكَم: على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، ومَرَمّة لمعاش، ولذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ وعجبًا لمن أيقن بالقدر كيف يَنصَب؟ وعجبًا لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ وعجبًا لمن أيقن الحساب غدًا ثم هو لا يعمل.

انتهى تفسير سورة الأعلى، ولله الحمد.

  

سورة الغاشية

وهي مكية بالإجماع.

جاء عند مسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٍ ٧ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٌ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ١١ فِيهَا عَيۡنٌ جَارِيَةٌ ١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرۡفُوعَةٌ ١٣ وَأَكۡوَابٌ مَّوۡضُوعَةٌ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٌ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾

قوله: ﴿هَلۡ﴾ أي: قد، كقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـًٔا مَّذۡكُورًا﴾، وقيل: خرجت مخرج الاستفهام لرسوله ﷺ، والمعنى: إن لم يكن أتاك فقد أتاك ﴿حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، أي: القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وفزعها.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي: وجوه الكفار ذليلة ساكنة، يقال: خشع في صلاته، إذا تذلل ونكّس رأسه، وخشع الصوتُ: خفي، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾.

قوله: ﴿عَامِلَةٌ﴾أي: في هذه الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملًا، ويقال للسحاب إذا دام برقُه: قد عمل يعمل عملًا، وذا سحابٌ عَمِل.

قوله: ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي: تَعِبَة، يقال: نَصِب يَنصَب نَصَبًا، إذا تعب، ونَصْبًا، وأنصبه غيره. قيل: أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله والكفر به، أو أنصبوا أنفسهم في الدين، ولكن لم يكونوا مخلصين، أو أنصبوا أنفسهم في العبادة، ولكن على غير سنة رسول الله ﷺ، وقد روي عن بعض السلف أنّه أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل، أي: شعث وسخ رث الهيئة، عليه سواد، فلما رآه بكى، فقال له الراهب: ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمرًا فلم يصبه، ورجا رجاءً فأخطأه، وقرأ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾. ورجل مُتَقَهِّل: يابس الجلد سيئ الحال، مثل المتقحل، والتقهل: شكوى الحاجة، والقهل:

كفران الإحسان، وقد قَهَل يَقْهَلُ قَهْلًا، إذا أثنى ثناء قبيحًا، وأقهل الرجل: تكلف ما يعيبه ودنس نفسه، وانقهل: ضعف وسقط.

قال البخاري: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: النصارى. ومثل هؤلاء الرهبان في أمة محمد ﷺ مَنْ يسمون بالخوارج، وقد جاءت الأخبار فيهم متواترة، منها حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين، وفيه قال رسول الله ﷺ: «تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مَعَ صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، وفي لفظ عند الشيخين «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ». والحاصل أنه يدخل في هذه الآية الكفار، والمشركون، واليهود، والنصارى، والمبتدعة، والخوارج، والمنافقون.

قوله: ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديدة الحر، وقد أُوقدت وأحميت المدة الطويلة، ومنه: حَمي النهار، وحَمِي التنور، أي: اشتد حره، وقيل: اشتد حَمِيّ الشمس، وحَمْوُها، وهي دائمة الحمى، لا ينقطع حَمْيُها، وتحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها أو تُرام مُماستُها، كما يحمي الأسد عرينه. وحَمْيُها من شدة غيظها وغضبها، قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

قوله: ﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: اشتدّ حرها؛ لأن الآني: الذي قد انتهى حره شِدّةً، من الإيناء، من أَنَى يأني، كرمى يرمي، بمعنى التأخير، ومنه قوله ﷺ فيما رواه أبو فيما رواه أبو داود بإسناد لا بأس به من حديث عبد الله بن بُسْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: اجْلِسْ، فَقَدْ آذَيْتَ » وفي رواية: «اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ، وَآنَيْتَ». وآناه يؤنيه إيناءً أي: أخّره وحبسه وأبطأه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو أخبث الطعام وأشنعه، ومثله في الدنيا: الشِّبْرِق، إذا يبس لا تقربه دابة ولا بَهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وشوك لاصق، قال البخاري: قال مجاهد: الضريع: نبت يقال له: الشبرق، يسميه أهل الحجاز بذلك إذا يبس.

والمقصود أنه شيء يكون في النار يشبه الشوك، قد انتهى في مرارته ونتنه وحرارته، ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: ذات نعمة، وهي وجوه المؤمنين، نَعِمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح.

قوله: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الصالح راضية حين أعطيت الجنان والنعيم.

قوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ وقرئت (لا يُسْمع)، و(لاتُسْمعُ)، أي: كلامًا ساقطًا غير مُرضٍ. واللغو واللَّغا، واللاغية بمعنى، وقراءة (لا تُسمع) لأن اللاغية اسم مؤنث، فأنث الفعل لتأنيثه، قال تعالى: ﴿لَّا

يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾.

قوله: ﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي: وسائد، الواحدة نُمْرُقة.

قوله: ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾ أي: واحدة إلى جنب الأخرى.

قوله: ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي: البسط والطنافس التي لها خَمْل رقيق، واحدتُها: زُروبِيّة.

قوله: ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾ أي: مبسوطة، وقيل: كثيرة، وقيل: بعضها فوق بعض، وقيل: كثيرة متفرقة في المجالس، وهذا هو الأظهر، قال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾.

قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ استفهام تعجب، وخص الإبل؛ لأنّها كثيرة عند العرب، ينيخها الصغير والكبير، ويذللها ويحمل عليها الثقيل من الحِمل وهو بارك، فينهض بثقيل حِمله، وليس هذا لسائر الحيوانات، فأراهم عظيمًا من خَلقه مسخرًا لصغير من خلقه، ولما كانت سيفنة البر صُبرت على العطش، حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العَشْر فصاعدًا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم، ومن الإبل الحلوبة، ومنها الركوبة، ومنها الأكولة، ومنها الحمولة، ولم يذكر الفيل مع أنه أعجوبة؛ لأن العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنْزير لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب درّه.

قوله: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ أي: بسطت ومدت. وقد جاء عند الشيخين -واللفظ لمسلم- من حديث أنس ﵁ قال: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: اللهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: اللهُ. قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: اللهُ. قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا، وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا، قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا، قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».

قوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ أي: يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ أي: واعظ.

قوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ أي: بمسلط عليهم فتقتلهم. وفي الصحاح: المسيطر، والمصيطر: المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله، وأصله

من السطر؛ لأن من معنى السطر: ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر، ومسيطر، يقال: سيطرت، وسَطَره، أي: صَرَعَه، ولغة تميم: المسيطرون.

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن من تولى عن الوعظ والتذكير.

قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ أي: جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾. وقيل استثناء متصل، والتقدير: لست بمسلط إلا على من تولى وكفر، فأنت مُسلط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر.

قوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي: رجوعهم بعد الموت، يقال: آب يئوب، أي: رجع.

انتهى تفسير سورة الغاشية، ولله الحمد.

  

سورة الفجر

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ
لِّذِي حِجْرٍ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ
جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ
أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ١٧ وَلَا
تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ
ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ
ٱلذِّكْرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا
ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾

قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ قسم بالفجر المعروف، الذي هو انفجار الظلمة عن النهار كل يوم، وقيل: هو النهار كله، وعبر عنه بالفجر؛ لأنه أوله، وقيل صلاة الفجر، وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الفجر شهر المحرم، وهو فجر السنة» قال ابن حجر: حسن الإسناد، ولعله أن يكون له حكم الرفع.

وكلها محتملة، والقول الأول أظهرها.

قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي: عشر الأضحى، وليلة النحر داخلة فيها، وقد جعلها الله موقفًا لمن لم يدرك الوقوف بعرفة، و قد جاء فيه ما رواه البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ. قالوا: وَلا الجِهَادُ؟ قال: وَلا الجِهَادُ، إلا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ»، وجاء عند أحمد من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: قال: «إِنَّ العَشْرَ: عَشْرُ الأَضْحَى، وَالوَتْرَ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعَ: يَوْمُ النَّحْرِ». قال ابن كثير: رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعة نكارة، والله أعلم، وصححه النحاس.

قوله: ﴿وَٱلشَّفْعِ﴾ أي: الاثنان.

قوله: ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ وقرئت: (الوِتر)، وهما لغتان بمعنى، أي: الواحد، والمقصود: الصلاة الشرعية، إذ منها شفع، ومنها وتر، وقيل كما سبق في الحديث: «وَالوَتْرَ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعَ: يَوْمُ النَّحْرِ»، وقيل: الشفع: الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، والوتر: الخالق سبحانه وتعالى، وقد قال

رسول الله ﷺ: «...إنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ». رواه الشيخان. قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾، وقيل: الشفع: الصلوات المكتوبة سوى المغرب، والوتر: صلاة المغرب، وفي حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عند ابن خزيمة بسند لا بأس به: «صَلاةُ المَغْرِبِ وِتْرُ النَّهَارِ»، وقيل غير ذلك، والكل محتمل، والقول الأول أظهرها، ويليه القول الثاني.

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وقرئت (يسري)، وقرئت بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف. قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقًا لرؤوس الآي، قال الفرّاء: قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها.

وقيل: إذا ذهب، وقيل: إذا جاء وأقبل، وهذا هو الأظهر، والكل محتمل.

قوله: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾ جواب القسم، والمعنى: إن في ذلك قسمًا، وقيل: هي على بابِها، من الاستفهام الذي معناه التقرير، كقولك: ألم أُنعم عليك؟ إذا كنت قد أنعمت عليه. وقيل: المراد التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه، والمعنى: بل في ذلك مَقْنع، والقول الأول أظهره، والثاني محتمل.

قوله: ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ أي: لذي لُبّ وعقل، وقيل: لذي حلم، وقيل: لذي ستر من الناس. والحجر، والعقل، والحلم بمعنى، وهو الأظهر، وأصل الحِجر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حجر، ومنه سمي الحَجَرُ حَجَرًا، لامتناعه بصلابته، ومنه: حَجَر الحاكم على فلان، إذا ضبطه ومنعه عن التصرف، وسميت الحُجْرة حجرة لامتناع ما فيها بها، ومنه: حجرالبيت؛ لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرًا مَّحۡجُورًا﴾.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي: بقلبك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد: العموم.

قوله: ﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقوم عاد.

قوله: ﴿إِرَمَ﴾ اسم لعاد، وهو أبوهم، وقيل: اسم القبيلة، وقيل: اسم لبلدتِهم وقبيلتهم، تسمية لهم باسم جدهم إرم، والقول الثاني أقرب، ويكون بدلًا من ﴿عَادٍ﴾ أو عطف بيان زيادةً في التعريف بِهم، وهؤلاء عادٌ الأولى، الذين أرسل إليهم هود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ويقال: للعلم: الإرم.

قوله: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ أي: ذات الطول، يقال: رجل مُعَمَّد، إذا كان طويلًا، وكانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وكانوا أشد الناس في زمانِهم خِلقة وأقواهم بطشة، و﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ تذكر وتؤنث.

والواحدة عمادة، وفلان طويل العماد، إذا كان منْزله معلمًا لزائره. وقيل: ذات القوة والشدة، والأول أظهر.

قوله: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: القبيلة لم يخلق مثلها لقوتِهم وشدتِهم وعظم تركيبهم.

قوله: ﴿جَابُواْ﴾أي: قطعوا، ومنه فلان يجوب البلاد، أي: يقطعها، وإنما سمي جيب القميص لأنه جِيبَ، أي: قطع. قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾.

قوله: ﴿بِٱلۡوَادِ﴾ أي: بوادي القرى.

قوله: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ أي: الجنود والعساكر الذين يشدون له أمره وملكه.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ يعني عادًا، وثمود، وفرعون.

قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أفرغ عليهم وألقى، يقال: صب على فلان خِلعة، أي: ألقاها عليه.

قوله: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي: نصيب عذاب، وهو رجز من السماء، ويقال: شدته؛ لأن السوط كان عندهم نِهاية ما يُعَذّب به، قال الشاعر:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَـرَ دِينَـهُ   وَصَبَّ عَلَى الْكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابِ

قال الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن السوط هو عذابُهم الذي يعذِّبون به، فجرى لكل عذاب، يقال: ساطه يسوطه سوْطًا. والسوط: خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه سمي المِسْواط، ويقال: سَوَّط فلان أموره، أي: خلطها، ويقال: أموالهم سَوِيطة بينهم، أي: مختلطة، ويقال: ساط دابته يسوطها، أي: ضربَها بسوطه.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ أي: يَرصُد عمل كل إنسان، يسمع قوله ونجواه حتى يجازيه به، وسيعرض الخلائق كلهم عليه. قال بعض السلف: القرآن دليل المؤمن، والخوف محجته، والشوق مطيته، والصلاة كهفه، والصوم جُنَّته، والصدقة فكاكه، والصدق أميره، والحياة وزيره، وربه عزوجل وراء ذلك كله بالمرصاد. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد.

وعن عمرو بن عبيد، أنه قرأ هذه السورة عند المنصور، حتى بلغ هذه الآية، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ يا أبا جفر. عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من تُوعِّدَ بذلك من الجبابرة.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر ﴿إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: امتحنه واختبره بالنعمة.

قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ أي: فيفرح بذلك ولا يحمده.

قوله: ﴿فَقَدَرَ﴾ وقرئت: (فقُدِّر).

قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ وقرئت: (ربّيَ) في الآيتين، أي: أولاني هوانًا، وهذه صفة الكافر الذي لايؤمن بالبعث، إنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، وقد يقع في هذه الصفة بعض جهلة المسلمين، الذين لم يستنيروا بنور العلم الشرعي.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما يُظن، فليس الغِنى لفضله، ولا الفقر لهوانه، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفراء: ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع بمعنى: لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله عزَّ وَجَل ويشكره على الغنى والفقر.

قوله: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ وقد كانو يأكلون ماله إسرافًا وبدارًا أن يكبروا. وفيه الأمر بإكرام اليتيم، كما جاء عند الشيخين من حديث سهل بن سعد ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا. وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى».

قوله: ﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ﴾ أي: لا يأمرون أهليهم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، ولا يحض بعضهم بعضًا، وأصله: تتحاضون، فحذف إحدى التاءين، لدلالة الكلام عليها، وهو مفاعلة من الحضّ، وهو الحث.

قوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: ميراث اليتامى، وأصله: الوراث، من ورِثت، فأبدلوا الواو تاءً، كما قالوا في تُجاه، وتُخمة، وتكأة، وتؤدة.

قوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: شديدًا، وقيل: جمعًا من قولهم: لممت الطعام لَمًّا إذا أكلته جمعًا. وأصل اللمم في كلام العرب: الجمع، يقال: لممت الشيء أَلُمُّه لَمًّا، إذا جمعته. ومنه يقال: لَمّ الله شعثه، أي: جمع ما تفرق من أموره، ومنه قولهم: إن دارك لَمُومَة، أي: تلمّ الناس وترُبُّهم وتجمعهم، وقيل: اللمم: الجمع الشديد، ومنه حجرمَلموم، وكتيبة ملمومة، فالآكل يلُم الثريد فيجمعه لُقمًا، ثم يأكله يَسِفُّه سفًا. قال الحطيئة:

إِذَا كَــانَ لَمًّــا يَتْبَــعُ الــذَّمُّ رَبَّــهُ ... فَـلَا قَـدَّسَ الـرَّحْمَنُ تِلْـكَ الطَّوَاحِنَـا

يعني: يجمعون في أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم، فلا يفكرون أكلوا من خبيث أم من طيب.
وكان أهل الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم، وتراثهم مع تراثهم

قوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، حلاله وحرامه، والجم: الكثير، يقال جمّ الشيء يَجُم جُمومًا، فهو جَمٌّ وجامٌّ، ومنه: جم الماء في الحوض، إذا اجتمع وكثر، قال رسول الله ﷺ كما عند الترمذي بسند حسن:

إِنْ تَغْفِــرِ اللَّهُــمَّ تَغْفِــرْ جَمَّــا ... وَأَيُّ عَبْــدٍ لَــكَ لَا أَلَمَّــا

والجَمَّة: المكان الذي يجتمع فيه الماء، والجَموم: البئر الكثيرة الماء، والجُمُوم المصدر.

قوله: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: مرة بعد مرة، زلزلت فكسّر بعضها بعضًا، فتكسر كل شيء على ظهرها، ومنه سمي الدكان لاستوائه في الانفراش.

قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: لفصل القضاء، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى

ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾.

قوله: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفوفًا.

قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: يتعظ ويتوب، وهو الكافر أو الفاسق ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومن أين له الاتعاظ والتوبة، والموقف موقف جزاء وثواب، لا موقف توبة أو عمل؟

قوله: ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي: لحياة لا موت فيها، وقيل: لنجاتي من النار، فأكون فيمن له حياة سعيدة في الجنة. وقد جاء عند أحمد بإسناد لا بأس به من حديث محمد بن أبي عميرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللهِ، لَحَقَّرَهُ ذَلِكَ اليَوْمَ، وَلَوَدَّ أَنَّهُ يُرَدُّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنْ الأَجْرِ وَالثَّوَابِ».

قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ﴾ أي: كعذاب الله، فالعذاب بمعنى التعذيب ﴿أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ بمعنى الإيثاق، ومنه قول الشاعر:

أَكُفْــرًا بَعْــدَ رَدِّ الْمَــوْتِ عَنِّــي وَبَعْــدَ عَطَائِــكَ الْمِائَــةَ الرِّتَاعَــا

قال أبو علي: ويجوز أن يكون المعنى: لا يعذب أحدٌ أحدًا مثل تعذيب هذا الكافر، والقول الأول هو الحق والصواب.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾أي: المخلصة بتوحيد الله، الموقنة بثواب الله، المخبتة لأمر الله، الراضية بقضاء الله، الآمنة من عذاب الله، المطمئنة بذكر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، جاء عند ابن أبي حاتم بسند لا بأس به عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قرأت عند النبي ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن هذا لحسن، فقال له النبي ﷺ: «أَمَا إِنَّ المَلَكَ سَيَقُولُ لَكَ هَذَا عِنْدَ المَوْتِ».

قوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى الله وجواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته، وقيل: إلى صاحِبك وجسدك، وقد رجح الأخير الطبري، والصواب القول الأول، وإليه ذهب ابن كثير.

قوله: ﴿رَاضِيَةً﴾ أي: في نفسها ﴿مَّرْضِيَّةً﴾أي: رضيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها. جاء عند النسائي بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا حُضِرَ المُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللهِ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ المِسْكِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ

هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الأَرْضِ! فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الهَاوِيَةِ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلائِكَةُ العَذَابِ بِمِسْحٍ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللهِ عزَّ وَجل، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الأَرْضِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ! حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الكُفَّارِ».

وعند البزار: «قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلنَّفْسِ: اخْرُجِي! قَالَتْ: لاَ أَخْرُجُ إِلاَّ كَارِهَةً. قَالَ: اخْرُجِي وَإِنْ كَرِهْتِ» قال ابن حجر: إسناده صحيح.

وجاء عند وابن ماجه بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «المَيِّتُ تَحْضُرُهُ المَلائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عزَّ وَجل، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَلا يُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلانٌ، فَيُقَالُ: لا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى القَبْرِ».

قوله: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي: في حزبي المفلحين، كما قال تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقيل: فادخلي في أجساد عبادي، والأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أي: معهم، وكما تقدم، هذا يقال للنفس المطمئنة عند الاحتضار وفي يوم القيامة، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره.

انتهى تفسير سورة الفجر، ولله الحمد.

  

سورة البلد

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾

قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي: أقسم بهذا البلد، أي: مكة، وقد أقسم الله عزوجل به في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ وحرف ﴿لَآ﴾ ليست بنفي القسم، وإنما هو صلة مؤكدة للقسم، كقول العرب: لا والله لفعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأفعلن. وقيل: هي بمعنى ألا، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي: في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، ومثل ذلك في كلام العرب كثير، تقول لمن تَعِده الإكرام والحِباء: أنت مُكرمٌ مَحْبُوٌّ. وقيل: أنت مقيم فيه وهو محلك من غير حرج ولا إثم، وقيل: هو حلال لك ساعة من نَهار، فأنت في حل ممن قاتلك أن تقاتله، وقيل: أنت فيه محسن وأنا عنك فيه راض. وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حِلٌّ، وحَلال، ومُحِلٌّ، ورجل حرامٌ، ومُحْرم، والقول الأول، والأخير أظهر الأقوال.

قوله: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ قسم بِهم لأنّهم أعجبُ ما خلق الله عز وجل على وجه الأرض؛ لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة والصديقون والشهداء والصالحون. وقيل: الوالد: آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: وما نسل، والأظهر: العموم في كل والد وكل مولود. قيل: ﴿مَا﴾ مع ما بعدها في موضع المصدر، أي: ووالد وولادته، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾.

قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب القسم، أي: في شدة ونصب وعناء من مكابدة الدنيا، وأصل الكبد: الشدة، ومنه يقال: تَكَبّد اللَّبَنُ: إذا غلُظ وخَثُر واشتد، ومنه: الكَبِد، لأنه دم تغلَّظ واشتد، ويقال: كابدت هذا الأمر: قاسيت شدته. وقيل: الكبد: الاستواء والاستقامة، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾. وقيل: في ظلمة وجهل، وقيل: غير ذلك، والقول الأول هو الحق والصواب.

قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ أي: لن يعاقبه الله ويسأله عن كل صغيرة وكبيرة عن شبابه

وعمره وماله وعلمه.

قوله: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أي: أنفقت مالًا كثيرًا، وقد أنفقه رياءً وسمعة، أو عداوة لله ولرسوله ﷺ ﴿لُّبَدًا﴾ جمع لَبْدَة، وهو ما تلبد، وقد سبق في سورة الجن.

قوله: ﴿وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ وبهما يصلح نطقه، ومنهما حروف مخرجها شفوي كالباء والفاء والميم، وفيهما كمال جمال وجهه وتناسقه.

قوله: ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ ليستر بهما ثغره، وتصغيرهما: شفيهة، والجمع: شِفاةٌ، ويقال: شَفَهَات، وشَفَوات. قال الأزهري: يقال: هذه شَفَة في الوصل، وشَفَةٌ، بالتاء والهاء. قال قتادة نعم الله ظاهرة، يقررك بِها حتى تشكر.

قوله: ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي: طريق الخير والشر، وقد روى الطبري، والحاكم ذلك عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صححه الحاكم، وحسنه ابن حجر، والمعنى: بَيّناهما بما أرسلنا من الرسل، وأنزلنا من الكتب، ويقال: للطريقين العاليين: النَّجدين.

فالنجد: العلو، وجمعه: نجود، ومنه سميت نجد؛ لارتفاعها عن انخفاض تهامة.

قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أي: فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه عدواة لله ورسوله ﷺ، هلا أنفقه لاقتحام العقبة الدنيوية؟ وقيل: عقبة جهنم يوم القيامة، وهو الأظهر، وذلك بفك الرقاب، وإطعام المساكين. والاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، وقَحَّم الفرس فارسه تقحيمًا على وجهه، إذا رماه، والقُحْمة: المَهْلَكةُ والسِّنة الشديدة، يقال: أصابت الأعراب القُحْمة، إذا أصابَهم قحط فدخلوا الريف، والقُحَم: صعاب الطريق. وقيل: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أي: فلم يقتحم العقبة.

قال المبرِّد وأبو علي: ﴿لَا﴾بمعنى لم، وذكره البخاري عن مجاهد.

قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ قال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يخبر به. والمعنى: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين، والخطاب للنبي ﷺ؛ ليعلمه كيفية اقتحام العقبة، ويبلِّغ ذلك لأمته، وقد جاء بسند لا بأس به قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَئُودًا». رواه الحاكم بسند حسن من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وقرئت: (فكَّ رقبة) على الفعل الماضي، و(رقبة) مفعول به، أي: أعتق رقبة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ». والفك: هو حل القيد والرِّق، وسمي المرقوق رقبة؛ لأنه

بالرق كالأسير المربوط في رقبته، وسمي عتقها فكًا كفك الأسير من الأسر، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وأَكْثَرُهَا ثَمَنًا».

قوله: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ وقرئت: (أو إطعامًا)، و﴿مَسۡغَبَةٖ﴾ نعت لليوم، أي: مجاعة، والسَّغَب: الجوع، والساغب: الجائع، وإطعام الطعام فضيلة، وهو مع السغب أفضل.

قوله: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ أي: قرابة، يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي؛ لأن الأقربين أولى بالمعروف، وقد جاء عند الشيخين من حديث زينب امرأة بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَوَجَدْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى الْبَابِ حَاجَتُهَا مِثْلُ حَاجَتِي، فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلَالٌ، فَقُلْنَا: سَلِ النَّبِيَّ ﷺ: أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامٍ لِي فِي حَجْرِي؟ وَقُلْنَا: لَا تُخْبِرْ بِنَا. فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَنْ هُمَا؟ قَالَ: زَيْنَبُ. قَالَ: أَيُّ الزَّيَانِبِ؟ قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللهِ. قَالَ: نَعَمْ، لَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ». وجاء عند أحمد، والترمذي، والنسائي بسند جيد عن سليمان بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ». وسمي يتيمًا لضعفه، يقال: يَتُم الرجل يُتْمًا، إذا ضعف. قال بعض أهل اللغة: اليتيم: الذي يموت أبوه.

قوله: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ أي: لا شيء له، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب، أو هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ليس بينه وبين الأرض شيء. قال ابن حجر: إسناده صحيح. وقيل: هو من التّريب، وهي شدة الحال، يقال: تَرِب، إذا افتقر.

قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: لا يقتحم العقبة حتى يكون من الذين آمنوا، أي: صدّقوا، فإن شرط قبول الطاعات: الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، جاء عند مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ؛ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

وقيل: أي: فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾. وقيل: أي: ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم عند الله، وقد وجاء عند الشيخين من حديث حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ: مِنْ صِلَةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ، هَلْ لِي فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺأَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ».

وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى (الواو)، والتقدير: وكان هذا المعتق والمطعم من الذين آمنوا، والكل محتمل، والمقصود كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ

أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضًا على جميع أنواع الصبر، وقد سبق ذكرها.

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: بالرحمة على الخلق، مساكين كانوا أو يتامى أو أسارى أو غير ذلك ممن يستحق الرحمة والعطف والحنان.

قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال؛ لأنهم مشائيم على أنفسهم.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ وقرئت: (موصدة)، لغتان بمعنى، أي: مطبقة مغلقة، وأهل اللغة يقولون: أوصدتُ الباب، وآصَدتُهُ، أي: أغلقته، فمن قال: أوصدت، فالاسم: الوِصاد، ومن قال: آصدته، فالاسم: الإصاد.

انتهى تفسير سورة البلد، ولله الحمد.

  

سورة الشمس

وهي مكية.

وقد تقدم حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين، حينما أمر النبي ﷺ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقرأ بها في صلاته.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ١٥﴾

قوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أي: ضوئها وإشراقها، وهذان قسَمَان، والضحى مؤنثة: يقال: ارتفعت الضحى، وهي فوق الضَّحْو، وقد تُذكر، فمن أنّث، ذهب إلى أنّها جمع ضَحْوة، ومن ذكّر، ذهب إلى أنه اسم على فُعَل، نحو: صُرَد، وهو فوق العصفور، ونُغَر، وهو فروخ العصفور، وهو ظرف غير متمكن، مثل سحر، تقول: لقيته ضحًا، وضحًا، إذا أردت به ضحى يومك لم تنونه، وقيل: الضُّحى النهار كله: وقيل: بعد طلوع الشمس بقليل، فإذا زاد فهو الضَّحاء. قال المبرد: أصل الضُّحى من الضُّحّ، وهو نور الشمس، تقول: ضَحَوة، وضَحَوَات، وضُحى، والضِّح: نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض. والمقصود أن الله عزوجل أقسم بالشمس ونَهارها.

قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: تبعها، يقال: تلوت فلانًا، إذا تبعته، وقيل: أخذ منها، والأول أظهر.

قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: جلَّى الظلمة وكشفها، وإن لم يجر لها ذكر، وقيل: جلّى الشمس وكشفها، وهذا القول أظهر. وقيل: جلّى الأرض وكشفها بضيائه، وقد رجح القول الأول القرطبي، ورجح الأخير ابن كثير.

قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي: يغشى الشمس، فيذهب بضوئها عند سقوطها، وقيل: يغشى الليل بالظلَم، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قيل: قَسَمَان، والمعنى: ومن بناها، فهو قسم بالسماء، وبذاته سبحانه، وهذا هو الأظهر، وحكُي عن أهل الحجاز: سبحان ما سبحت له. وقيل: وبنيانِها، فـ ﴿مَا﴾مصدرية، كما قال تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بغفران ربي.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ قيل أيضًا: قسمان، والمعنى ومن طحاها، وهو الأظهر، وقيل: وطحوها، أي: وبسطها، مثل: دحاها، فالمعنى واحد، فالطحو: البسط، طَحَا يطحُو طحْوًا، وضحى يَطْحِي

طَحْيًا، وطَحَيت: اضطجعت. وقيل: قسمَها، وقيل: خلقها.

وقيل: ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز. قال أبو عمرو: طحا الرجل إذا ذهب في الأرض، يقال ما أدري أين طحا، ويقال: طحا به قلبه، إذا ذهب به في كل شيء، والقول الأول أظهرها وأشهرها.

قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أيضًا قسمان، أي: ومن سواها، وقيل: وتسويتها، والأول أظهر، والنفس: كل نفس منفوسة، وتسوية النفس: خلقها وتَهيئتها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟».

قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أي: عرّفها طريق الفجور ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: وعرّفها طريق التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، وقد جاء عند مسلم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه يقول: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».

وعند مسلم من حديث أبي الأسود الديلي قال: «قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ: أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ. فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يَدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللهُ! إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزُرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾».

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ جواب القسم، والمعنى: لقد أفلح من تزكى، فَزَكَتْ نفسه بطاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ وهذا الأولى، وقيل: من زكاه الله بالطاعة.

قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: خسرت نفسٌ دسّها الله بالمعصية وأضلها وأغواها، قال سعيد بن جبير: دسَّاها: أغواها. أخرجه الطبري، وصححه ابن حجر، وقيل: خاب من دسّ نفسه في المعصية وأغواها، وهذا الأولى. والفاجر أبدًا خفيّ المكان، زَمْرُالمروءة، أي: قليل غامض الشخص، ناكس الر أس بركوب المعاصي. قال أهل اللغة: والأصل: دسَّسها، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأُبدلت سينه ياء، كما يقال: قصّيْت أظفاري، وأصله قصَّصْت أظفاري، ومثل قولهم: تقضَّض، تقضّى.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بسبب طغيانها وخروجها عن الحد في الكفر والعصيان.

قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ أي: نهض أشقى القوم لعقر الناقة، وقد جاء عند الشيخين من حديث عبد الله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب، وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ...» الحديث، وعند ابن أبي حاتم بسند لا بأس به من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَلَا أُحَدِّثُكُمَا بِأَشْقَى النَّاسِ: رَجُلَيْنِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ -يَعْنِي: قَرْنَهُ- حَتَّى يَبُلَّ مِنْهُ هَذِهِ. يَعْنِي: لِحْيَتَهُ».

قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: احذروا ناقة الله، منصوب على التحذير، كقولك: الأسد الأسد، والحذار الحذار، والمعنى: احذروا عقرها ودعوها، كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي: ذروها وشربها، وقد مضى في السور السابقة بيان ذلك بالتفصيل.

قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عقرها الأشقى، وأضيف إلى الكل؛ لأنّهم رَضُوا بفعله، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

قوله: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أي: أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر، وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب وترديده، يقال: دمّمْت على الشيء، أي: أطبقت عليه، ودمم عليه القبر: أطبقه، وناقة مدمومة: ألبسها الشحم، فإذا كررت الإطباق قلت: دَمْدَمْت، والدمدمة: إهلاك باستئصال. وفي الصحاح: ودمْدمْت الشيء، إذا ألزقته بالأرض وطَحْطحْته.

قوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: سوّى عليهم الأرض، وذلك أن الصيحة أتت على صغيرهم وكبيرهم.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ وقرئت: (فلا)، أي: فعل الله ذلك بهم غير خائف من أحد تبعة، وقيل: لم يخف الذي عقر الناقة عُقبى ما صنع، والأول هو الحق والصواب.

انتهى تفسير سورة الشمس، ولله الحمد.

  

سورة الليل

وهي مكية بالإجماع.

وقد تقدم حديث جابر رضي الله عنه عند الشيخين في قراءتها في الصلاة.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغطِّي النهار، أو الأرض، أو الخلائق، والمقصود أنه أقسم بالليل الذي يغشى كل شيء بظلمته.

قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: إذا انكشف ووضح وظهر.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أي: والذي خلق، فيكون الله قد أقسم بنفسه، وقيل: معناه: خلق الذكر والأنثى. وقد جاء عند الشيخين عن إبراهيم، عن علقمة قال: «قَدِمْتُ الشَّأْمَ، فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا. فَأَتَيْتُ قَوْمًا فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِي، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُو الدَّرْدَاءِ. فَقُلْتُ: إِنِّي دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُيَسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَيَسَّرَكَ لِي. قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ. قَالَ: أَوَلَيْسَ عِنْدَكُمْ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ صَاحِبُ النَّعْلَيْنِ -وَفِي رِوَايَةٍ: السِّوَاكِ- وَالْوِسَادِ -وَفِي رِوَايَةٍ: أَوِ السِّرَارِ-، وَالْمِطْهَرَةِ؟ وَفِيكُمُ الَّذِي أَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ؟ -يَعْنِي عَمَّارًا-، أَوَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ سِرِّ النَّبِيِّ ﷺالَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ؟ -يَعْنِي حُذَيْفَةَ-، -وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: بَلَى-، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ يَقْرَأُ عَبْدُ اللهِ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾؟ قَالَ عَلْقَمَةُ: وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى. قَالَ: (وَفِي رِوَايَةٍ: مَا زَالَ هَؤُلَاءِ حَتَّى كَادُوا يُشَكِّكُونِي)، أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَكَذَا (وَفِي رِوَايَةٍ: وَاللهِ لَقَدْ أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺمِنْ فِيهِ إِلَى فِيَّ)، وَهَؤُلَاءِ يُرِيدُونِي عَلَى أَنْ أَقْرَأَ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾! وَاللهِ لَا أُتَابِعُهُمْ». وقراءة الجمهور أشهر وهي في المصحف الإمام العثماني. والمقصود بـ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ جميع الذكور والإناث من بني آدم، والجان والبهائم.

قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ جواب القسم، والمعنى: إن عملكم لمختلف، فساعٍ في فكاك نفسه، وساعٍ في عطبها، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: «...كُلُّ

النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا». وواحد ﴿شَتَّىٰ﴾: شتيت، مثل: مريض، ومرضى، وقيل للمختلف: شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه، والمعنى: فمنكم مؤمن، ومنكم كافر، ومنكم فاسق، ومنكم منافق، ومنكم المنفق ومنكم البخيل.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: بذل واتقى محارم الله.

قوله: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالجنة وبالخلف من الله عزوجل على عطائه وإنفاقه.

قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها. وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»، وعند الشيخين من حديث علي ﵁ قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتّكِل؟ فقال: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾».

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: ضنّ بما عنده، فلم يبذل خيرًا، واستغنى عن ربه.

قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للشر والعسر في أسباب الخير والصلاح، حتى يعسر عليه فعلها، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾. ومعنى التيسير في هذه الآية: التهيئة، والعرب تقول: قد يسرت الغنم، إذا ولدت أو تَهيأت للولادة، وهذا التيسير بمنْزلة البشارة في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. والبشارة في الأصل على المفرح والسارّ.

قوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: إذا مات وهلك. يقال: رَدِيَ الرجلُ يَرْدَى رَدَى، إذا هلك، وقيل: إذا سقط في جهنم، ومنه (المتردية) أي: الساقطة من مرتفع. و﴿مَا﴾ قد تكون استفهام توبيخ، أو جحد، أو نفي، وهذا الأخير أظهر.

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: نبينه بأحكامه من حلال أو حرام، أو طاعة أو معصية. وقيل: من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقيل: معناه: إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال، كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، و﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وكما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، وهي تقي البرد، والقول الأول أظهر، والثاني محتمل.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الآخرة والدنيا ملكنا، وهذا الأظهر، فمن طلب الدنيا والآخرة من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: ليس يتصدق ليجازى على نعمة أو يد أو مِنة، إنما يبتغي وجه ربه الأعلى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.

قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن ابتغاء، ولذلك نصبت، كقولك: مافي أحد في الدار إلا أسدًا، ويجوز الرفع على لغة من يقول: يجوز الرفع في المستثنى، قال الشاعر:

وَبَلْـــــدَةٌ لَـــــيْسَ بِهَـــــا أَنِـــــيسُ إِلا الْيَعَـــــــافِيرُ وَإِلا العِـــــــيسُ

واليعافير جمع يعفور، وهو ولد الظبية وولد البقرة الوحشية، والعيس: إبل بيض تخالط بياضها شقرة، جمع أعيس وعيساء، وفي التنزيل قال تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مفعولًا له على المعنى.

قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾أي: سوف يعطيه في الجنة ما يُرضي أضعاف ما أنفق، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

انتهى تفسير سورة الليل، ولله الحمد.

  

سورة الضحى

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾

قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ قسَم، وتقدم الحديث عنه، والمراد به: النهار؛ لقوله تعالى بالمقابل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وفي سورة الأعراف، ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾. أي: نَهارًا.

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن، يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة، يقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية، يقال: سجا الليل يسجو سجوًا، إذا سكن، والبحر إذا سجا سكن.

وقيل: غطى كل شيء، وسجو الليل: تغطيته، مثلما يُسجى الرجل بالثوب، وقيل: إذا أقبل، وقيل: إذا ذهب. والقول الأول أقربُها وأشهرها.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب القسم، أي: تركك. جاء عند الشيخين من حديث جُندَب بن عبد الله بن سفيان رضي الله عنه قال: «اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ (وَفِي رِوَايَةٍ: لَيْلَةً أَوْ) لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ (وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ قُرَيْشٍ)، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ؛ لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ! فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾».

قوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبغضك ربك منذ أحبك. وترك الكاف؛ لأنه رأس آية، والقَلْي: البغض، فإن فتحت القاف مددت، تقول: قلاه يقليه قِلًى وقلاءً، كما تقول: قريت الضيف أقريه قِرًى وقَرَاء.

قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي! وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ». وجاء عند ابن جرير بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزًا كنزًا، فسُر بذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوۡفَ

يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾، فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. قال ابن كثير: إسناده صحيح، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

قوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك، وذلك أن أباه ﷺ توفي وهو حمل في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد رسول الله ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، وكان يحوطه ويغضب له بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين الأصنام والأوثان، وكل ذلك بقدر من الله وحسن تدبيره لعبده وخليله وخيرته من خلقه.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ أي: غافلًا عما يراد بك من أمر النبوة، فأرشدك، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يغفل. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾. وقيل: كنت وحيدًا لا أحد على دينك، فهديتُ بك الخلق إليّ، والقول الأول أظهر، وقيل: غير ذلك.

والضلال قد يطلق ويراد به ضد الهدى وقد يطلق ويراد به النسيان، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾، وقد يطلق ويراد به الغفلة، كما في هذه الآية، وقد يطلق ويراد به الحيرة والطلب والضياع؛ لأن الضال طالب ومتحير وضائع، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾، أي: في محبتك.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾ أي: فقيرًا ذا عيال، لا مالك لك ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾ أي: بخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يقال: عال الرجل يعيل عَيْلة، إذا افتقر، قال الشاعر:

وَمَـا يَـدْرِي الْفَقِيـرُ مَتَـى غِنَـاهُ ... وَمَـا يَـدْرِي الْغَنِّـي مَتَـى يَعِيـل

وهذا الغنى الحسي، كما أنه أغناك سبحانه بالغنى المعنوي، وهو غنى النفس، وعند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ أي: لا تسلّط عليه بالظلم، وادفع إليه حقه، واذكر يتمك، ولا تحتقره. وفي ذلك دلالة على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه، وقد جاء عند أحمد بسند لا بأس به عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ، فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَاسَ الْيَتِيمِ». وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا رأى يتيمًا مسح رأسه وأعطاه شيئًا. قال أكثم: الأذلاء أربعة: النمام، والكذاب، والمدين، واليتيم.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ أي: لا تزجره ولا تغلظ به القول، ولكن رُدّه ببذل يسير أو رد جميل،

واذكر فقرك. قال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال؛ يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء؟ وأما السائل عن الدِّين فجوابه فرض على العالم على الكفاية، كإعطاء سائل البر سواء، وقد جاء عند أبي داود، والترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، ورواه أبو يعلى من حديث ابن عباس ﵄ وزاد: «وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» صححه ابن حجر.

وقد كان أبو الدرداء ﵁ ينظر إلى أصحاب الحديث ويبسط رداءه لهم ويقول: مرحبًا بأحبة رسول الله ﷺ. وجاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِيكُمْ رِجَالٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ يَتَعَلَّمُونَ، فَإِذَا جَاءُوكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا».

و﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ و﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ منصوبان بالفعل الذي بعده، وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل.

قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء والتحدث بنعم الله والاعتراف بها شكرًا، وقد جاء عند أبي داود، والترمذي بسند جيد قال رسول الله ﷺ: «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ». وروى عبد الله بن أحمد في زوائده عن النعمان بن بشير ﵄ بنحوه بسند لا بأس به، وزاد: «وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ، والتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ».

وجاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ، فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ».

وروى الطبراني عن رجل من الصحابة بإسناد جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وظَلَمَ فاسْتَغفرَ، وظُلم فغَفَرَ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ».

وجاء عند أبي داود، والترمذي، والنسائي بسند جيد من حديث مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ ﵁، قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ؛ فَقَالَ: أَلَكَ مَالٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ قَالَ: قَدْ آتَانِي اللهُ مِنَ الإِبلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ! قَالَ: فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ».

انتهى تفسير سورة الضحى، ولله الحمد.

  

سورة الشرح

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: قد شرحنا وفتحنا لك صدرك، استفهام تقرير، وقد شرح حسًّا، كما سبق ذكر ذلك في مطلع سورة الإسراء... وقد سئل بعض السلف عن علامة انشراح الصدر، فقال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت قبل نزول الموت.

قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: حططنا عنك ذنبك، كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. قيل: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عَبَدَ صنمًا أو وثنًا.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقله وأوهنه حتى سمع نقيضه، أي: صوته. وأهل اللغة يقولون: أنقض الحِمل ظهر الناقة، إذا سمعت له صريرًا من شدة الحمل. وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل مع كونها مغفورة لشدة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها. وقيل: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها حتى لا تثقل عليك، والقول الأول أظهر.

قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: في الشرائع السابقة، وفي عالم الملائكة، وفي هذه الشريعة، فليس متشهد ولا صاحب صلاة ولا تأذين إلا وهو ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وعند البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيل فَقَالَ: يَقُول رَبّك أَتَدْرِي كَيْف رَفَعْت ذِكْرك؟ قَالَ: الله أَعْلَم، قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي». صححه ابن حبان، وأخرجه الشافعي وسعيد بن منصور، وعبد الرزاق، صححه ابن حجر. قال حسان رضي الله عنه:

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنَ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرشِ محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ

ومن لم يشهد أن محمدًا رسول الله لم ينتفع بشيء، وكان من الكافرين، حتى ولو صدق بكل شيء.

قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تكرير لتأكيد الكلام، كما يقال: ارْمِ ارْمِ، قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ونظيره في الجواب: بلى بلى، لا لا، وذلك

للإطناب و المبالغة، ومن عادة العرب إذا ذكروا اسمًا معرفًا ثم كرروه فهو هو، وإذا نكّروا ثم كرروه فهو غيره. وهما اثنان؛ ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر. قال بعض السلف: والله لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، ولن يغلب عسر يسرين. وهذا الوعد لنبيه ﷺ ولأمته من بعده. وقد جاء عند البزار من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْبَلاءِ» حديث حسن. ومما يروى عن الإمام الشافعي:

صَبرا جَميلًا مَا أقرَبَ الفَرجا … مَن رَاقَب اللهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَن صَدَق اللهَ لَم يَنَلْه أذَى … وَمَن رَجَاه يَكون حَيثُ رَجَا

وقال أبو حاتم السجستاني:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ القلوبُ … وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرحيبُ
وَأَوْطَأَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ … وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الخطوبُ
وَلَمْ تَرَ لِانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا … وَلَا أَغْنَى بحيلته الأريبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوط مِنْكَ غَوثٌ … يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ المستجيبُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ … فَمَوْصُولٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ
ومولانا الإله فخيْر مولًى … له إحسانه ولنا ذنوب

وقال آخر:

وَلَرُب نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى … ذَرْعًا وَعِنْدَ اللهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلْقَاتُهَا … فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

ومن فاته يسر الدنيا لم يفته يسر الآخرة، وقد أُخرج رسول الله ﷺ من مكة حزينًا، فرجع إليها بعد مدة فرحًا مسرورًا.

وروى الحاكم بسند قوي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه بلغه أن أبا عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حصر بالشام وقد تألب عليه القوم، فكتب إليه عمر: سلام عليك أما بعد، فإنه ما ينْزل بعبد مؤمن من منْزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجًا، ولن يغلب عسر يسرين.

قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: من صلاتك، وقيل: تبليغ الرسالة، وقيل: دنياك، وهو الأظهر.

قوله: ﴿فَٱنصَبۡ﴾أي: في قيام الليل وكثرة الاستغفار والذكر والدعاء. والمعنى: إذا فرغت من أمر الخلق فاجتهد في عبادة الحق.

انتهى تفسير سورة الشرح، ولله الحمد.

  

سورة التين

وهي مكية، وقيل: مدنية، والقول الأول أقرب.

جاء عند الشيخين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فِي الْعِشَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨﴾

قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قسم بالتين المعروف، وبالزيتون المعروف، والذي يعصر منه الزيت، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾. وقيل: ﴿ٱلتِّينِ﴾: دمشق، و﴿ٱلزَّيْتُونِ﴾ بيت المقدس، وهذا اختيار الطبري، وهو اختيار غريب، والحق والصواب: القول الأول، وهو الحقيقة، ولا يعدل عنها إلى مجاز إلا بدليل. وخص التين لجمال مظهره، وطيب مخبره، ونَشْر رائحته، وسهولة جناه. قال الشاعر:

التِّـــينُ يَعْـــدِلُ عِنْـــدِي كُـــلَّ فَاكِهَـــةٍ   إِذَا انْثَنَـــى مَـــائِلًا فِـــي غُصْـــنِهِ الزَّاهِـــي

وخص الزيتون لما فيه من البركة والمنافع، قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾، وقد جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ». وهو أكثر أدم الشام، والمغرب يصطبغون به ويستعلمونه في طبيخهم، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وقد مضى الحديث عنه.

قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي: الجبل الذي نادى الله عز وجل عبده موسى عليه السلام عليه، وسينين، وسيناء بلغة النبط، وواحد ﴿سِينِينَ﴾ سِينِيّتين. وقال أبو علي: ﴿سِينِينَ﴾ فعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه كما كررت في زِحليل، للمكان الزلق، وكِرْدِيد، للقطعة من التمر، وخِنذِيذ، للطويل. ولم تنصرف ﴿سِينِينَ﴾ كما لم تنصرف سيناء؛ لأنه جعل اسمًا لبقعة أو أرض، ولو جعل اسمًا للمكان أو للمنْزل أو اسمًا مذكرًا لانصرف؛ لأنك سميت مذكرًا بمذكر. وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما كما قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي: مكة، وسمي بذلك لأنه آمن، ومن دخله كان آمنًا، قال تعالى: ﴿أَنَّا

جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾، وبهذا احتج من قال أن التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس؛ لأنه مأوى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبجبل المقدس لأنه مقام الأنبياء، وبمكة لأنّها أثر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ودار محمد ﷺ.

قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جواب القسم.

قوله: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: أحسن اعتدال واستواء وصورة وشكل، وقد مضى بيان ذلك في أكثر من موضع.

قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النار، وقيل: أرذل العمر، واختاره ابن جرير، لكن القول الأول هو الحق.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على القول الأول: الاستثناء متصل، وعلى القول الثاني: الاستثناء منقطع، والتقدير إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنه لا يَخْرفُ ولا يَهرمُ، ولا يَذهبُ عقل من كان عالمًا عاملًا به. وقد قيل: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر.

قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ استفهام توبيخ وإلزامٍ للحجة، والمعنى: إذا عرفت يا أيها الإنسان حالك ومآلك فما يحملك على التكذيب بيوم الدين؟ وقيل: المعنى: فمن يكذبك أيها الرسول ويقدر على تكذيبك بعد هذا البيان بالدين؟ واختاره الطبري، لكن القول الأول أظهر، وهو الذي اختاره ابن كثير.

قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أتقن الحاكمين صنعًا، وأعدلهم قضاءً؟ وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي، وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجابًا.

انتهى تفسير سورة التين، ولله الحمد.

  

سورة العلق

وهي مكية بالإجماع، وهي أول سورة نزلت من القرآن بالإجماع.

وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا (الصَّالِحَةُ) -وَفِي رِوَايَةٍ: الصَّادِقَةُ- فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ! قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ! فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ! فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾-. فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: بَوَادِرُهُ-، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ل، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي! فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ -وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ-: -وَفِي رِوَايَةٍ: أَيْ خَدِيجَةُ! مَا لِي؟ - لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا -وَفِي رِوَايَةٍ: أَبْشِرْ-، وَاللهِ! مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ-، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: بِالْعَرَبِيَّةِ- مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمٍّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ (وَفِي رِوَايَةٍ: أُوذِيَ)، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. (ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ). (وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ)».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾

قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحًا باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة، فمحل الباء من ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾: النصب على الحال، وقيل: بمعنى على، أي: اقرأ على اسم ربك، يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وقيل: الباء صلة، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ تأكيد، وتم الكلام.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ أي: الكريم.

قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي: بالخط والكتابة، وسمي قلمًا لأنه يُقْلَم، أي: يقطع، ومنه تقليم الأظافر.

والأقلام ثلاثة: القلم الأول: الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب مقادير الخلائق، والقلم الثاني: أقلام الملائكة بأيديهم يكتبون به المقادير والأعمال، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي حبة، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ». والقلم الثالث: أقلام الناس يكتبون بها كلامهم ورسائلهم ومؤلفاتهم. والكتابة من جملة البيان المخصوص به الآدمي، وهو عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب.

قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فقال عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، وقال عن نبيه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾، وقال عن عموم عباده: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ أي: حقًا، والمقصود به: أبو جهل. وقد جاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ»، وقد روى مسلم هذا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ. قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ. قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوْلًا، وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ -قَالَ عُبَيْدُ اللهِ وَابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى: لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ، ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا

تُطِعْهُ﴾».

قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي: الرجوع والمرجع، وكلها مصادر، يقال: رجع إليه رجوعًا، ومرجعًا، ورُجعى على وزن فُعلى.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ أي: أبو جهل.

قوله: ﴿عَبْدًا﴾ أي: محمدًا ﷺ.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد ﷺ على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكًا؟.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يعني أبا جهل، وهو استفهام تعجب من هذا الذي جمع بين التكذيب والإعراض، وبين محاربة الهدى والتقوى.

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ تقرير وتوبيخ، أي: حركاته وتصرفاته وغبشه ونزغاته؟.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر.

قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: أبو جهل عن أذاك يا رسول الله ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ أي: لنأخذن ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾، فلنذلنه في الدنيا. وقد فعل الله به ذلك يوم بدر، فقد جاء عند الشيخين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «مَنْ يَنْظُرُ مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ؟ فَانْطَلَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ حَتَّى بَرَدَ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَخَذ بِلِحْيَتِهِ-، فَقَالَ: آنْتَ أَبَا جَهْلٍ؟ قَالَ: وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ. قَالَ سُلَيْمَانُ: أَوْ قَالَ: قَتَلَهُ قَوْمُهُ. قَالَ: وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: فَلَوْ غَيْرُ أَكَّارٍ قَتَلَنِي!». وأما في الآخرة فينتظر قوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾، وهذه الآية وإن كانت في أبي جهل فهي عظة للناس وتَهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة، وأهل اللغة يقولون: سَفَعْت بالشيء، إذا قبضت عليه وجذبته جذبًا شديدًا، ويقال: سَفَعَ بناصية فرسه، وقيل: هو مأخوذ من سفعته النار والشمس، إذا غيّرت وجهه إلى حال تسويد، كما قال الشاعر:

أَثَافِيُّ سُفْعًا في معرس مرجل ونوى كَجِذْمِ الْحَوْضِ أَثْلَمَ خَاشِع

والناصية: شعر مقدم الرأس، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان، كما يقال: هذه ناصية مباركة. وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته. والمقصود أن أبا جهل سيجتمع عليه أنواع العذاب، من سفع وضرب وجر، ثم طرح في النار.

ثم قال سبحانه على البدل: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: ناصية أبي جهل، والمراد: هو كاذب في قوله، خاطئ في فعله؛ لأنه أراد الصواب فصار إلى غيره.

قوله: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: أهل مجلسه وعشيرته فليستنصر بِهم، والنادي في كلام العرب المجلس الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون، وقد جاء عند أحمد، والترمذي بسند جيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي، فَجَاءَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا؟ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَزَبَرَهُ -أي: زجره- فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا بِهَا نَادٍ أَكْثَرُ مِنِّي، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَوَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ العَذَابِ».

قوله: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي: الملائكة الغلاظ الشداد، واحدهم: زِبْنِيّ، وقيل: زَبَانِيّ، وقيل: هم اسم للجمع، كالأبابيل، وهو مأخوذ من الزَّبْن، وهو الدفع، ومنه المزابنة في البيع، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل.

قوله: ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾ أي: فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ أي: صل، فالسجود هنا: سجود الصلاة، ويدخل في ذلك سجود التلاوة.

قوله: ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ أي: تقرّب إليّ بالطاعة والعبادة، ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾. وقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ وَ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾». وأصله عند الشيخين. وعبر بالسجود لقوله ﷺ كما جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»، وعند مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «...فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عزَّ وَجَل، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ».

انتهى تفسير سورة العلق، ولله الحمد.

  

سورة القدر

وهي مدنية، وقيل: مكية، والقول الأول هو الحق والصواب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤﴾

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقال تعالى: ﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: ليلة القدر، وقد تقدم الحديث عن إنزال القرآن، والحاصل أن جبريل عليه السلام أخذه من ربه عَزَّ وَجَلَّ بدون واسطة، ورسول الله ﷺ أخذه من جبريل عليه السلام بدون واسطة، وبدأ إنزاله في ليلة القدر، وفي شهر رمضان المبارك، واستمر ينْزل منجمًا ثلاثًا وعشرين سنة.

قوله: ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ وقد سميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق والسعادة والشقاوة ونحو ذلك. وقيل: سميت بذلك لعِظمها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدرٌ، أي: شرف ومنْزلة. وقيل: لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا وثوابًا جزيلًا، وقيل: غير ذلك، والكل معتبر، والقول الأول هو المتعين.

قوله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقدِّر ذلك بثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، وهذه الليلة خصصت بِها هذه الأمة تعويضًا لها عن طول العمر الذي أعطيه الأمم الغابرة، ثم هو تكريم وتشريف ورفعة لها وزيادة في درجاتِها، وحكى الخطابي الإجماع على ذلك.

قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تَهبط من كل سماء ومن سدرة المنتهى، فينْزلون إلى الأرض، ويؤَمِّنون على دعاء الناس، وقد جاء عند أحمد، وأبي داود الطيالسي بسند لا بأس به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في ليلة القدر: «إِنَّهَا لَيْلَةُ سَابِعَةٍ، أَوْ تَاسِعَةٍ وَعِشْرِينَ، إِنَّ الْمَلائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى».

قوله: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريل عليه السلام مما ينزل أيضًا، وفيه ذكر الخاص بعد العام.

قوله: ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمره.

قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر قدَّره، كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمر الله.

قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ أي: سلامة وخير كلها لا شر فيها، فلا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو أذى،

وقيل: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، والقولان وجيهان.

قوله: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: إلى طلوع الفجر. وقد جاء في تعيينها عدة نصوص، وقد صارت ليلة واحد وعشرين، كما جاء عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، كما أنّها صارت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أيضًا ليلة ثلاث وعشرين، كما في حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه عند مسلم، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء عند البخاري من حديث عبادة رضي الله عنه، وعند مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنّها ربما كانت ليلة واحد وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم كما عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قال: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ».

وقال كما عند الشيخين من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «الْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ»، وفي رواية: «فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الغَوَابِرِ»، ولذلك جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»، ولمسلم في رواية: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مَا لا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ»، ولذلك جاء عند الشيخين من حديث عائشة، وأبي سعيد رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتكف، بل جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند الشيخين: أنه اعتكف سنة من السنوات شهر رمضان كله يلتمس ليلة القدر، ثم اعتكف أزواجه من بعده.

والحاصل أنّها في كل سنة، وأنّها في رمضان خاصة، وأنّها في العشر الأواخر، وأنّها تنتقل في أيام الوتر منها في الغالب، وأوكدها: الليلة السابعة، جاء عند الطبراني بسند جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا عمر رضي الله عنه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنّها في العشر الأواخر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فقلت لعمر: «إني لأعلم أي ليلة هي، فقال عمر: وأي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضي، أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر رضي الله عنه: من أين علمت ذلك؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: خلق الله سبع سماوات، وسبع أرضين، وسبعة أيام، وإن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، فقال عمر رضي الله عنه: لقد فطنت لأمر ما فطنا له». قال: قتادة: وأراد بقوله: ويأكل من سبع قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾. قال ابن كثير: إسناد جيد قوي، ومتنه غريب جدًا، فالله أعلم.

وربما كانت في الشفع منها على النادر، وقد جاء عند أبي داود الطيالسي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْلَةُ الْقَدرِ لَيلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ» قال ابن كثير: إسناد رجاله ثقات، وله شاهد عند أحمد من حديث بلال رضي الله عنه، وقد جاء عند مسلم من حديث زر بن حبيش قال: «سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه، فَقُلْتُ: إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: مَنْ يَقُمِ الْحَوْلَ يُصِبْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ. فَقَالَ: رَحِمَهُ اللهُ! أَرَادَ أَنْ لَا يَتَّكِلَ النَّاسُ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِي رَمَضَانَ، وَأَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، وَأَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ. ثُمَّ حَلَفَ لَا يَسْتَثْنِي أَنَّهَا لَيْلَةُ

سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، فَقُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؟ قَالَ: بِالْعَلَامَةِ الَّتِي أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنَّهَا تَطْلُعُ يَوْمَئِذٍ لَا شُعَاعَ لَهَا».

وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تَذَاكَرْنَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَذْكُرُ حِينَ طَلَعَ الْقَمَرُ وَهُوَ مِثْلُ شِقِّ جَفْنَةٍ؟».

ومن علاماتِها أيضًا ما جاء عند أحمد بسند لا بأس به من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بَلْجَةٌ، كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا، سَاكِنَةٌ سَاجِيَةٌ، لا بَرْدَ فِيهَا وَلا حَرَّ، وَلا يَحِلُّ لِكَوْكَبٍ أَنْ يُرْمَى بِهِ فِيهَا حَتَّى تُصْبِحَ، وَإِنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتَهَا تَخْرُجُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَلا يَحِلُّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ».

وفي فضل ليلة القدر ما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ...».

وعند أحمد، والنسائي بسند جيد قال رسول الله ﷺ عن شهر رمضان: «... لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ»، ورواه ابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه.

ويستحب الإكثار من الدعاء فيها، وقد جاء عند أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي».

انتهى تفسير سورة القدر، ولله الحمد.

  

سورة البينة

وهي مكية، وقيل: مدنية، وهو الصواب.

جاء عند الشيخين من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله لأُبي بن كعب ﵁: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: نَعَمْ. فَبَكَى»، وجاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أُبي بن كعب ﵁: أن رسول الله ﷺ قال له: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ. فَقَرَأَ عَلَيهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، فَقَرَأَ فِيهَا: إِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ، لا الْيَهُودِيَّةُ وَلا النَّصْرَانِيَّةُ، مَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ...».

وروى مسلم من حديث أُبي بن كعب ﵁ قال: «كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ! فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَآ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي ضَرَبَ فِي صَدْرِي فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: يَا أُبَيُّ! أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ: اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ: اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا. فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي. وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم، فيموتوا أو يزولوا أو يبرحوا حتى تقوم عليهم الحجة، وتبين لهم الحق ويأتيهم الرسول، فالانفكاك هنا بمعنى الانتهاء، والعرب تقول: ما انفككت أفعل كذا، أي: ما زلت، وما انفك فلان قائمًا، أي: ما زال قائمًا، وأصل الفك: الفتح، ومنه: فك الكتاب، وفكُّ الخلخال.

ولكن لما تبينت الحجة، وظهرت المحجة، وجاءهم الرسول ﷺ حسدوه كلهم وجحدوه بغيًا وعدوًا، وهذا هو القول الصحيح في هذ الآية. وقيل: لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فعلى هذا تكون ﴿مُنفَكِّينَ﴾ بمعنى هالكين، وهذا القول قد يدخل في القول الأول.

قوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رسول الله ﷺ هو البينة، فهو مرفوع على البدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

قوله: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ جمع صحيفة، يعني محمدًا ﷺ وما يتلوه من القرآن الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

قوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: في الصحف المطهرة كتب من كتب الله قيمة عادلة محكمة، ليس فيها خطأ؛ لأنّها من عند الله، من قول العرب: قام يقوم، إذا استوى وصح. قال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب. فكيف قال: في الصحف فيها كتب؟ فالجواب: أن الكتب هنا بمعنى الأحكام، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِيٓ﴾، بمعنى حكم، وقال رسول الله ﷺ كما جاء عند الشيخين: «لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ»، ثم قضى بالرجم، وليس ذكر الرجم مسطورًا في الكتاب، فالمعنى: لأقضين بينكما بحكم الله. وقيل: الكتب القيمة: القرآن؛ لأنه يشتمل على أنواع البيان، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: القرآن والرسول الكريم ﷺ، فكل منهما موافق لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، فمنهم من آمن، كعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومنهم من كفر.

قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: هؤلاء في التوارة، والإنجيل، والقرآن ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: إلا ليعبدوا الله ويوحدوه، فاللام بمعنى أن، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: أن يبين لكم، وكقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾

قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: في العبادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم. قال الزجاج: ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ نعت لموصوف محذوف، والتقدير: ذلك دين الأمة القيمة بالحق، أي: القائمة بالحق، وهو قول وجيه. قال الخليل: ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ جمع القيم، والقيم، والقائم واحد. وقال الفراء: أضاف الدين إلى ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ وهو نعته لاختلاف اللفظين، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة، وقد استدل الزهري، والشافعي وغيرهما على أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ

وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

قوله: ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي: الخليقة، وقرئت: (البريئة) بالهمز، من قولهم: برأ الله الخلق، وهو البارئ الخالق، وقال سبحانه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾. قال التراب: إن أخذت البرية من البَرَى، وهو التراب فأصله غير الهمز، تقول: بَرَاه الله يبروه بَرْوًا، أي: خلقه، ولا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ من بَرَيْت القلم، أي: قدَّرته، فتدخل فيه الملائكة، وهو قول ساقط؛ لأنه يجب منه تخطئة قراء الهمز.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ استدل بِهذه الآية بعض الصحابة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين الصادقين من هذه الأمة على الملائكة.

انتهى تفسير سورة البينة، ولله الحمد.

  

سورة الزلزلة

وهي مكية، وقيل: مدنية، والقول الأول الصواب.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: حُركت في أصلها ومن أسلفها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

قوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ مصدر لتأكيد الزلزال، ثم أضيف إلى الأرض، كقولك: لأعطينك عطيتك، أي: عطيتي لك، وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها.

قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: مافي بطنها من كنوز وأموات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، وقد سبق حديث: «تَقِيءُ الأَرْضُ أَفلاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» كما عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما مضى الحديث عن معنى هذه الآية بشيء من التفصيل. وكانت العرب تقول إذا كان الرجل سفاكًا للدماء: كان ثقلًا على ظهر الأرض، فلما مات حطت الأرض عن ظهرها ثِقلها.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ من مؤمن وكافر: ﴿مَا لَهَا﴾ زلزلت وأخرجت أثقالها؟ ولأي شيء ذلك؟ وهي كلمة تعجب، فالمؤمن قال ذلك لغرابة المشهد وعظمته، والكافر قال ذلك لكفره وجحوده بأشراط الساعة وما جاء في الشريعة. وقد يكون المراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هنا الكافر خاصة، والأظهر: القول الأول.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ جاء عند أحمد، والترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَرَأَ رَسُولُ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا». وجاء عند ابن ماجه بسند جيد من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ أَجَلُ أَحَدِكُمْ بِأَرْضٍ أَوْثَبَتْهُ إِلَيْهَا الْحَاجَةُ، فَإِذَا بَلَغَ أَقْصَى أَثَرِهِ قَبَضَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ، فَتَقُولُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَبِّ هَذَا مَا اسْتَوْدَعْتَنِي».

قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قال البخاري: أوحى لها، وأوحى إليها، ووحى لها، ووحى إليها واحد، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى، وقد يكون الوحي هنا مضمنًا بمعنى: أذن لها.

قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يرجعون عن موقف الحساب ﴿أَشۡتَاتٗا﴾ أي: فرقًا وأنواعًا، ما بين شقي وسعيد، ومأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾، ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾.

قوله: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: ثواب أعمالهم. قيل: هذا الصدور إنما هو عند النشور، يصدرون أشتاتًا من القبور، فيصار بهم إلى موقف الحساب ليروا أعمالهم في كتبهم، ويُروا جزاءه، فكأنّهم وردوا القبور فدفنوا فيها ثم صدروا عنها، وهذا القول وإن لم يكن مشهورًا إلا أنه في غاية القوة، والله أعلم.

قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ: فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ؛ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ؛ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ. وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْحُمُرِ، فَقَالَ: مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾».

وقد قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، قال بعض أهل اللغة: الذر أن يضرب الرجل بيده الأرض، فما علق بها من تراب فهو الذر، أي: كل واحد مما لزق به من التراب، وقد جاء عند الشيخين من حديث عدي بن حاتم ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»، وجاء عند أحمد، وابن ماجه بسند جيد من عن عائشة ﵂ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعْمَالِ،فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا»، وجاء عند البزار من حديث أبي هريرة ﵁ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ فِي جزِيرَةِ العَرَبِ قَدْ رَضِي مِنْكُمُ الْمُحَقَّراتِ». وصححه ابن حجر.

وأخرج أحمد من حديث سهل ﵁ بسند لا بأس به قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ». والآثار في بيان أن فعل الخير مهما كان قليلًا مطلوب، وفعل الشر مهما كان حقيرًا مذموم ومرهوب كثيرة.

انتهى تفسير سورة الزلزلة، ولله الحمد.





سورة العاديات

وهي مكية، وقيل: مدنية، والقول الأول أرجح.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ قسم بالخيل تعدو في سبيل الله.

قوله: ﴿ضَبْحًا﴾ أي: تضبح إذا عدت، أي: تحمحم ويصدر من أنفاسها صوت. وأصل الضبح، والضُّباح للثعالب، فاستعير للخيل، وهو من قول العرب: ضبحته النار، إذا غّيرت لونه ولم تبالغ فيه، ونصب ﴿ضَبْحًا﴾ على الحال، وقيل: على المصدر، أي: تضبح ضبحًا، والضبح، والضّبع بمعنى العدو والسير، والمعنى: مد اضباعها في السير. وقد يطلق على الإبل: العاديات؛ لإشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي. ويكون معنى: ﴿ضَبْحًا﴾ بمعنى ضبعًا، أي: تمد أعناقها عند السير. قال أبو صالح: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل: التنفس.

قوله: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ قسم بالخيل حين توري النار بحوافزها، وهي سنابكها، وقيل: الإبل تطأ الحصى، فتخرج منه النار، والقول الأول أظهر. وأصل القدح: الاستخراج، ومنه: قدحت العين، إذا أخرجت منها الماء الفاسد، واقتدحت بالزند، واقتَدَحتُ المرق: غرفته، ورِكيّ قَدُوح: تغترف باليد، والقديح: ما يبقى في أسفل القدر فيغرف بجهد، والمقدَاحة: ما تُقدَح بن النار، والقدّاحة، والقدّاح: الحجر الذي يوري النار، يقال: وَرَى الزند يري وَرْيًا، إذا خرجت ناره. ونصبت ﴿قَدْحًا﴾ بما نصبت به ﴿ضَبْحًا﴾.

قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ قسم بالخيل تغير على العدو عند الصبح، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. وقيل: هي الإبل، والقول الأول هو الصواب. والإغارة: سرعة السير، ومنه قولهم: أشرِق ثبير كيما نُغير، وثبير: جبل على يمين الذاهب إلى عرفة، أي: ادخل في الشروق، وهو ضوء الشمس.

قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: غبارًا، فالخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به. قال حسان رضي الله عنه فيما رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها:

ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي إنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ فِي كَنَفَيْ كَدَاءِ

وفي الصحاح: والجمع: نِقاع، وأنقع، مثل: بحر، وبحار، وأبحر، يقال لمحبس الماء: النقع، وكذلك

ما اجتمع في البئر منه. وقيل: رفع الصوت.

قوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: توسطت بركبانِها العدو الذي أغاروا عليهم، يقال: وسَطْتُ القوم أسِطُهم وَسْطًا، وسِطَةً، أي: صِرت وَسْطهم، ويقال: وسّطن من وسَّطت القوم، وتوسّطتهُم، والمعنى واحد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ جواب القسم، أي: لكفور جحود لنعم الله، فيذكر المصائب وينسى النعم، قال الشاعر:

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ ... وَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى مَنْ ظَلَمْ
إِلَى مَتَى أَنْتَ وَحَتَّى مَتَى ... تُحْصِي الْمَصَائِبَ وَتَنْسَى النِّعَمْ

وقال آخر:

كَنُودٌ لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ ... كَنُودًا لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ يُبَعَّدِ

أي: كفور، يقال: كَنَدَ يَكْنِد كُنودًا، فهو كنود، وامرأة كنود، وكُنُد.

ومن علامات الكنود: أنه يأكل وحده، ويمنع رِفده، ويضرب عبده، ويعصي ربه، ويكفر نعمته، حقود، حسود، جهول، هلوع، جحود.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: وإن الله على ابن آدم لشاهد، وقيل: إن الإنسان لشاهد على نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾، والقول الأول أشهر، والقول الثاني محتمل.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان بلا خلاف ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال بأصنافه وأنواعه، ومنه قوله ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾.

قوله: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: لقوي في حبه للمال، وقيل: لبخيل، ويقال للبخيل: شديد، ومتشدد. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: البخل وما فحش من الأقوال والأفعال، والقول الأول أظهر.

قال ابن زيد: سمى الله المال خيرًا، وعسى أن يكون شرًا وحرامًا، ولكن الناس يَعدُّونه خيرًا، فسماه الله خيرًا لذلك، وسمي الجهاد سُوءًا، وهو خير قطعًا، فقال: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ على ما يسميهم الناس.

قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي: أُثير وقُلب وبُحث، فأخرج ما فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾

قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ميز وأبرز ما فيها من خير وشر، فظهر للعيان، كما قال تعالى:

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

قوله: ﴿لَّخَبِيرُۢ﴾ دخلت اللام لدخول ﴿إِنَّ﴾ على المبتدأ.

انتهى تفسير سورة العاديات، ولله الحمد.

  

سورة القارعة

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: القيامة، وسميت بذلك؛ لأنّها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، والعرب تقول: قرعتهم القارعة، وفقَرتْهُم الفاقرة إذا وقع بهم أمر فظيع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾، وهي الشديدة من شدائد الدهر.

قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: أيّ شيء هي؟ استفهام تفخيم وتعظيم.

قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استفهام تعظيم وتفخيم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ﴾ أي: كالفراش الذي هو الطير الذي يتساقط في النار والسراج، الواحدة: فراشة، وقيل: هو الْهَمَج الطائر من بعوض وغيره، ومنه: الجراد، يقال هو أطيش من فراشة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا». وفي رواية: «وَالْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ».

قوله: ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أي: المتفرق، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فأول حالهم كالفراش، لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد؛ لأن لها وجهًا تقصده، وقد مضى هذا المعنى.

قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ الذي ينفش باليد، أي: تصير هباءً وتزول، كما قال تعال: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ وقد سبق هذا المعنى.

قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي: جهنم، وسماها (أُمًا) لأنه يأوي إليها كما يأوي الولد إلى أمه، ولا مأوى له غيرها، قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، جاء عند النسائي بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللهِ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ

مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ؛ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا. فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ! وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْحٍ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللهِ. فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الأَرْضِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ! حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّار»، وعند البزار: «قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلنَّفْسِ: اخْرُجِي! قَالَتْ: لَا أَخْرُجُ إِلَّا كَارِهَةً. قَالَ: اخْرُجِي وَإِنْ كَرِهْتِ». صححه ابن حجر. قال أمية بن أبي الصلت:

فَالْأَرْضُ مَعْقِلُنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا ... فِيهَا مَقَابِرُنَا وَفِيهَا نُولَدُ

وسميت بالهاوية؛ لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها. جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا». وقيل: يهوي في النار على أم رأسه، والهاوية: الْمَهْوَاة، وتقول: هوت أمه، فهي هاوية أي: ثاكلة، والْمَهْوى، والْمَهْوَاة: ما بين الجبلين، وتَهاوى القوم في المهواة، إذا سقط بعضهم في إثر بعض.

قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ أي: ما هي؟ وهو الأصل، فدخلت الهاء للسكت، وقرئت: (ما هِيَ نارٌ) بغير هاء في الوصل، ووقفوا بها.

قوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ أي: شديدة الحرارة، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً! قَالَ: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»، وجاء عند أحمد في رواية: «وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لأَحَدٍ».

وجاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِير».

وفي الصحيحين من حديث النعمان رضي الله عنه وغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا». وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ». وبنحوه عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وجاء عند الشيخين من حديث العباس رضي الله عنه: «نَعَمْ؛ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

انتهى تفسير سورة القارعة، ولله الحمد.

  

سورة التكاثر

هي مكية باتفاق المفسرين، وروى البخاري أنّها مدنية.

جاء عند البخاري من حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾»، وفي حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»، وعند مسلم من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه، وزاد: «وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⑧﴾

قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شغلكم، قال الشاعر:

فَمِثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٌ ... فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

أي: شغلكم وأنساكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، يقال: لهيت عن كذا أَلْهَمُ لِهيًا، ولِهْيانًا، إذا سلوت عنه وتركت ذكره، وأضربت عنه، ولَهّاه به تلهيه، أي: علّله.

قوله: ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: المكاثرة.

قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زوّارًا ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منْزله من جنة أو نار، يقال لمن مات: قد زار قبره، والمقابر جمع مَقْبَرة، ومَقْبُرة، والقبور جمع القبر، قال الشاعر:

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالصُّخُورِ

أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا ... عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ

ويقال: الْمَقْبَر، ويقال: قبرت الميت أقْبِره، وأقبِره قبرًا، أي: دفنته، وأقبرته، أي: أمرت بأن يقبر. وقد جاء في زيارة القبر للأحياء ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»، وعند مسلم أيضًا من حديث بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا...». هذا في حق الرجال، أما النساء فالقول الذي يعوّل عليه هو ما جاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ». وذلك لقلة صبرهن وكثرة جزعهن.

وينبغي لمن زار القبور أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها البهائم، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، ونفع الميت بما يدعو له، ويتجنب المشي على المقابر والجلوس عليها، ويسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلّم عليه وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته له كمخاطبته حيًا.

ثم يعتبر بمن صار تحت التراب فريدًا وحيدًا، فانقطع عن الأهل والأحباب بعد أن قاد الجيوش والعساكر، وجمع الأموال والذخائر، ونافس الأصحاب والعشائر، فجاءه الموت على غرة في وقت لم يحتسبه، فصاروا إلى التراب، فمحا محاسن وجوههم، وفرّق أجزاءهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وتيتمت أبناؤهم، واقتسم غيرهم أموالهم وتِلادهم.

وعند الشيخين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ». وكانوا بالأمس يتكلمون بملء أفواههم، ويضحكون بملء أشداقهم، في غدوٍّ ورواح، وحل وارتحال، فصاروا في ومضة بصرٍ رهناء القبور استعدادًا ليوم البعث والنشور، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر وتنبيه.

قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة حتى صرتم إلى المقابر، وإضافة العلم إلى اليقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾. وقيل: إن ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة بمعنى إلا، وقيل: هي بمعنى حقًا، والقول الأول أرجح الأقوال.

قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ وقرئت: (لَتُرَوُن) وعيد، والتقدير: لترون الجحيم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فهي للمؤمنين ممر، وللكفار دار ومقر.

قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: مشاهدة بعين الرأس، وهذا تفسير الوعيد المتقدم: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ»، وجاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ

وَنُرْوِّكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟».

وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟ قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا. فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي. فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ. فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ». واسم هذا المضيف كما ذكرته كتب السير: أبو الهيثم بن التَّيْهان ﵁.

انتهى تفسير سورة التكاثر، ولله الحمد.

  

سورة العصر

وهي مكية، وقيل: مدنية، والأول أرجح.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قسم بالدهر، قال الشاعر:

سَبِيلُ الْهَوَى وَعْرٌ وَبَحْرُ الْهَوَى غَمْرُ   وَيَوْمُ الْهَوَى شَهْرٌ وَشَهْرُ الْهَوَى دَهْرُ

وقيل: الليل والنهار، وقيل: الغداة والعشي، يقول: إذا جاءني أول النهار وعدته آخره. وقيل: هو ما بين زوال الشمس وغروبِها، وقيل: آخر ساعة من ساعات النهار، وقيل: صلاة العصر، وهي الوسطى، والقول الأول هو الأظهر، وأقسم به سبحانه لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها، وما فيها من الدلالة على الصانع سبحانه.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: جنس الإنسان، وهو جواب القسم.

قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: لفي غبن وخسارة وعقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، يقال: خُسْر، وخُسُر، مثل: عُسْر، وعُسُر.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثناء من الإنسان الخسران.

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بفعل الطاعات وترك المحرمات. وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

انتهى تفسير سورة العصر، ولله الحمد.

  

سورة الهمزة

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ④ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ⑥ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ⑨﴾

قوله: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أي: القتّات، وقيل: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، وقد سبق بيان ذلك في سورة القلم.

قوله: ﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: العياب، وقيل: الذي يغتاب من خلفه إذا غاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾، وقيل: اللمزة: الذي يلمز بلسانه ويعيب غيره. قال سفيان الثوري: يهمز بلسانه، ويلمز بعينيه، قال الشاعر:

إِذَا لَقِيتُـــكَ عَـــنْ سُـــخْطٍ تُكَاشِـــرُنِي وَإِنْ تَغَيَّبْـــتُ كُنْـــتَ الْهَـــامِزَ اللمـــزة

وقد مضى هذا المبحث، وحاصل القول أن الهماز بالقول، واللماز بالفعل.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ وقرئت (جَمَّع) واختاره أبو عبيد، أي: جمعه بعضه على بعض وأحصى عده، كقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، والمقصود: الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة، كما قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يقال: عدّده، وعَدَدَه بإظهار التضعيف، لكن بالشعر.

قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: يظن أن ماله يبقيه حيًا لا يموت، أو يزيد في عمره.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ ليطرحن وليلقين ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهي نار الله، وسميت بذلك لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه وتُهشمه.

قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ تعظيم لشأنِها وتفخيم لأمرها.

قوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ التي أوقد عليها آلاف الأعوام حتى صارت سوداء قاتمة.

قوله: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي: تأكل وتحرق جميع أجسادهم، حتى إذا بلغت الفؤاد عادت أجسادهم من جديد، فرجعت تأكلهم من جديد، وخص الأفئدة لأنه الأصل، والألم إذا صار إليه مات صاحبه، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، وقيل: تعلم ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، يقال: اطّلع فلان على كذا، أي: علمه، وقد قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فوصفها بِهذا، فلا يبعد أن

توصف بالعلم، والكل محتمل، والأول أقرب.

قوله: ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أي: مغلقة ومطبقة، يقال: آصدت الباب، إذا أغلقته.

قوله: ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ وقرئت: (عُمُد) أي: بعمد ممددة، فالفاء بمعنى الباء، فتنطبق، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه رَوْح، ولا يخرج منه غم، وينقطع الكلام، فيكون كلامهم فيها زفيرًا وشهيقًا. وقيل: ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ يعذبون بها ويضربون، واختاره الطبري، وقيل: العمد: السلاسل، أي: هم في سلاسل وأغلال مطوّلة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة، والكل محتمل، وأظهرها القول الأول. والعَمَد، والعُمُد جمعان صحيحان لعمود، مثل: أديم وأَدَم وأُدُم، واختاره أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة ﴿عَمَدٖ﴾ اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ وجمع القلة: أعمدة، يقال: عَمَدت الشيء، فانعمد، أي: أقمته بعماد يعتمد عليه، وأعمدته: جعلت تحته عَمَدًا.

انتهى تفسير سورة الهمزة، ولله الحمد.

  

سورة الفيل

وهي مكية بالإجماع.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تُخبر وتعلم وتسمع، وهو استفهام تقرير، والخطاب لمحمد ﷺ، وهو عام لجميع أمته.

قوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ أي: الفيل المعروف، والجمع: أفيال، وفُيول، وفِيلَة، ولا يقال: أفيلة، والأنثى: فيلة، وصاحبه: فَيَّال، ويقال: رجل فِيلَ الرأي، أي: ضعيف الرأي، ورجل فال، أي: ضعيف الرأي مخطىء الفراسة، وقد فال الرأي يَفيل فُيولة، وفَيَّل رأيه تفييلًا، أي: ضعّفه، فهو فَيِّل الرأي. وكان من قصة أصحاب الفيل أن أبرهة قصد مكة ليهدم الكعبة ويصرف الناس إلى كعبة اليمانية، فأقبل بخيله ورجله، وقضه وقضيضه، وجنوده وفيلته، فلما بلغوا أطراف مكة من جهة مزدلفة سأل عن كبير قريش وسيدهم، فأرسل إليه، فلما جاء عبد المطلب قال له أبرهة: إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تَعْرضوا لي بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ولا بأموالكم. فلما رجع عبد المطلب إلى قومه وأخبرهم أنّهم لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده، فأخذوا شغف الجبال تخوفًا من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، فقال:

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَا يَا رَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمْ حِمَاكَا
إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَا إِنَّهُمْ لَنْ يَقْهَرُوا قُوَاكَا

فلما أصبح أبرهة سار لدخول مكة، حتى إذا بلغ وادي محسر بين منى ومزدلفة وإذا بالطير الأبابيل، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾.

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مَهْلِك، على كل سهل وجبل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به يسقط أَنْمُلة أنملة، ينتثر جسده، حتى خَفَتَ وصار مثل الفرخ، فلما بلغوا به صنعاء انصدع صدره عن قلبه، فهلك شر هلكة، ومات شر ميتة.

وقد جاء عند ابن اسحاق بطريق جيد عن عكرمة قال يعقوب بن عتبة: أول ما رأيت الحصبة والجدري بأرض العرب من ذلك العام، وأنه أول ما رؤي به مرائر الشجر: الحرمل، والحنظل، والعثر ذلك العام.

وكان عام الفيل هو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، وقيل: يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر رمضان، والقول الأول أشهر.

وكانت قصة الفيل توطئة لمبعثه، وتمهيدًا لشأنه، وتهيئة لدعوته ورسالته، ولسان الحال يقول: لم تنصروا يا معشر قريش على الحبشة لخير فيكم، ولكن صيانة البيت العتيق، الذي سيشرف ببعثة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. ولما تلا عليهم هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة، وقد سبق في سورة الفتح: أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تَهبط به على قريش «بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ! فَأَلَحَّتْ؛ فَقَالُوا: خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ!، أي: حرنت، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ. ثم قال: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا. ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ» رواه البخاري. وذكرنا ما جاء عند الشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَلا وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلا تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي، أَلا وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، أَلا وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ...».

قوله: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطال وتضييع، في شذر مذر. قال عبد المطلب:

أَنْـتَ مَنَعْـتَ الْحَـبَشَ وَالْأَفْيَـالَا ... وَقَـدْ رَعَـوْا بمكـة الأجبـالا

وَقَـدْ خَشِـينَا مِـنْهُمُ الْقِتَـالَا ... وَكُـلُّ أَمْـرٍ لَهُـمُ مِعْضَـالَا

شُكْرًا وَحَمْدًا لَكَ ذَا الْجَلَالَا

قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا﴾ جاء عند ابن جرير بسند لا بأس به من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْرِ، وَأَكُفٌّ كَأَكُفِّ الْكِلَابِ». وعن عكرمة بسند لا بأس به: طَيْرًا خُضْرًا، خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ، لَهَا رُءُوسٌ كَرُءُوسِ السِّبَاعِ. وعن محمد بن كعب قال: هِيَ طَيْرٌ سُودٌ بَحْرِيَّةٌ، فِي مَنَاقِيرِهَا وَأَظْفَارِهَا الْحِجَارَةُ. قال ابن كثير: هذه الأسانيد كلها صحيحة أخرجها ابن جرير.

قوله: ﴿أَبَابِيلَ﴾ أي: مجتمعة متتابعة، بعضها في إثر بعض، وقيل: مختلفة متفرقة، تجيء من كل ناحية من هاهنا وهاهنا، والقول الأول أظهر، يقال: فلان يؤَبِّل على فلان، أي: يعظم عليه ويكثر، وهو مشتق من الإبل المؤبلة، وهي الأقاطيع، يقال: جاءت إبلك أبابيل، أي: فرقًا، واحدها: إبَّول، مثل: عِجَّوْل، وقيل: إبِّيل، مثل: سِكِّين، وقيل: إبَّال. قال رؤبة الحجاج:

وَلَعِبَـتْ طَيْـرٌ بِهِـمْ أَبَابِيـلْ ... فَصُـيِّرُوا مِثْـلَ كَعَصْـفٍ مَـأْكُولْ

وقيل: واحدها: إبّالة، وقيل: إيبال، مثل دينار، ودنانير.

قوله: ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم.

قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل، وقد سبق الحديث عن السجيل والعصف، وهو جمع واحده: عَصْفه، وعُصافة، وعَصِيفة.

انتهى تفسير سورة الفيل، ولله الحمد.

  

سورة قريش

وهي مكية، وهو الصواب، وقيل: مدنية.

وقد جاء عند البيهقي وغيرهم بسند لا بأس به عن أم هانئ بنت أبي طالب ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَضَّلَ الله قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِلالٍ: أَنِّي مِنْهُم، وأَنَّ النبوّة فِيهِم، والْحِجَابَة والسِّقَايَة فيهِمْ، وَأَنَّ الله نَصَرَهُم عَلَى الْفِيلِ، وَأَنَّهُم عَبَدُوا الله عِشْرِينَ سَنَةً لا يَعْبُدُهُ غَيْرُهُمْ، وأَنّ الله أَنْزل فِيهِم سُورَةً مِن القُرْآنِ. ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ قيل: هي متصلة بسورة الفيل، والتقدير: أهلكت أصحاب الفيل لكي تأمن قريش على رحلتيها في الشتاء والصيف، ويألفوا الخروج فلا يجترئ أحد عليهم. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن ما بين السورتين: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وهذا هو الصواب. قال ابن جرير: الصواب أن اللام لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. وذلك لإجماع المسلمين على أنّهما سورتان منفصلتان مستقلتان، ويقال: أَلِفْتُه إلفًا، وإلافًا. قال الجوهري: وفلان قد ألِف هذا الموضع يألفه إِلْفًا، وَآلَفَهُ إِيَّاهُ غَيْرُهُ. وَيُقَالُ أَيْضًا: آلَفْتُ الموضع أولِفه إيلافًا. وكذلك: آلفت الموضع أُولفه مُؤالفة وإلافًا.

قوله: ﴿قُرَيۡشٍ﴾ أي: بنو النضر بن إلياس بن مضر، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي، دون بني كنانة ومن فوقه، وقد جاء عند ابن ماجه بسند لا بأس به من حديث الأشعث بن قيس ﵁ قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي وَفْدِ كِنْدَةَ، وَلَا يَرَوْنِي أَفْضَلَهُمْ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَسْتُمْ مِنَّا؟ قَالَ: نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، لَا نَقْفُو أُمَّنَا، وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا»، وجاء عند مسلم من حديث واثلة بن الأسقع ﵁ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ». وربما قالوا: قُرَيْشِيّ. فإن أردت بقريش: الحي صرفته، وإن أردت به: القبيلة لم تصرفه. وسبب تسميتهم بهذا الاسم: إما لتجمعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع والالتئام، وكانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصيّ بن كلاب في الحرم حتى اتخذوه مسكنًا، قال الشاعر:

أَبُونَــا قُصَــيٌّ كَــانَ يُــدْعَى مُجَمِّعًــا ... بِــهِ جَمَــعَ اللهُ الْقَبَائِــلَ مِــنْ فِهْــرِ

وإما لأنّهم يأكلون من مكاسبهم، والتقرش: الاكتساب، وقد قَرَشَ يَقْرُشُ قَرْشًا، إذا كسب وجمع، وإما لأنّهم كانوا يفتشون الحاج المحتاج، فيسدون خلته، والقرش: التفتيش، وإما تشبيهًا لدابة في البحر يقال: لها القرش، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلى.

قوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ بدل من الإيلاف الأول للبيان، وهو مصدر آلف، إذا جعلته يألف، وإِلف هو إلفًا. و﴿رِحۡلَةَ﴾ منصوب على المصدر، أو على الظرف، أو بوقوع ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ أي: وما قد ألفوه من رحلة الشتاء إلى اليمن، والصيف إلى الشام، وكانت لا تشق عليهم، بل يجدون فيها لذةً وسعادة وأمنًا، وقيل: رحلة الشتاء البقاء بمكة، ورحلة الصيف: إلى الطائف، قال الشاعر:

تَشْتِي بِمَكَّةَ نَعْمَةٌ ... وَمَصِيفُهَا بِالطَّائِفِ

وقد قسم الناس الزمان إلى أربعة أقسام، شتاء، وربيع، وصيف، وخريف، وهي منة من الله عز وجل على قريش، ويقال: آلف يؤلف، وكانوا متآليفين مترابطين، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم، قال الشاعر:

وَالْخَالِطُونَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ ... حَتَّى يَصِيرَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

قوله: ﴿أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ أي: بعد الجوع، ومن ذلك: صنيع هاشم، وعطف غنيهم على فقيرهم.

قوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ أي: عصمهم وحفظهم من اعتداء الناس في حلهم وترحالهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾، فإذا تعرض لهم أحد في طريق تجارتهم قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم. وهذه هي حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

انتهى تفسير سورة قريش، ولله الحمد.

  

سورة الماعون

وهي مكية، وقيل: مدنية، والقول الأول أرجح.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي: يا محمد ومن تبعك ﴿يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالجزاء والحساب، والتقدير: أمصيب هو أم مخطئ؟.

قوله: ﴿يَدُعُّ﴾ أي: يقهر ويدفع ويزجر ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾. وكانوا كما أسلفنا لا يورثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحُسام.

قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ أي: لا يأمر ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء، وقد سبق في سورة الحاقة عند قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يعني لا يرجو لصلاته ثوابًا، وإن تركها لم يخش عليها عقابًا، فتراه يؤخرها عن وقتها، وإن أتى بها أتى بها بقلب غافل وفؤاد شارد، ينقرها نقر الغراب، لا يتم فيها ركوعًا ولا سجودًا ولا قيامًا ولا جلوسًا، يكثر فيها الحركات والعبث، من تشبيك للأصابع أو فرقعتها ونحو ذلك. قال عطاء بن دينار: الحمد لله قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولم يقل: في صلاتِهم ساهون، والمعنى: عن وقتها أو أركانِها أو شروطها، أو عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ولكن يغتفر ما لا بد منه في الغالب، من حديث نفس أو وسوسة، وذلك لا يخلو منه مسلم.

وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلًا عن غيره، ومن ثَم ثبت سجود السهو في الصلاة، وبقدر السلامة من ذلك يحصل الأجر والثواب. وقد جاء عند ابن جرير من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في هذه الآية قال: «هُمُ الذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلاةَ عَن وَقتِهَا» صححه البيهقي والحاكم. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. وقد أخبر الله عزَّ وَجَل عن صلاة المنافقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وقال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لا

يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلا قَلِيلًا».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾ أي: من الرياء ورؤية الناس طلبًا لسمعة الدنيا والمنْزلة، لا لمرضاة الله، وقد جاء عند الشيخين من حديث جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ»، وبنحوه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند مسلم، وفيه: «وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ». وجاء عند ابن ماجه بسند لا بأس به من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى. فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»، وروى الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا نَعَايَا الْعَرَبِ! -ثَلَاثًا- إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ».

قوله: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ أي: زكاة أموالهم، وما فيه منفعة، وقيل: يمنعون الماء والنار والملح، وما لا يحل منعه، قال الشاعر:

يَمَجُّ صَبِيرُهُ الْمَاعُونَ صَبًّا

وقد جاء عند أبي داود والنسائي عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا نَعُدُّ الْمَاعُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: عَوَرَ الدَّلْوِ وَالْقِدْرِ» صححه ابن حجر. والقول الأول هو الحق، ومن منع الماء وما لا يحل منعه كان في منع الزكاة أولى وأجدر، والماعون من أعان يعين، والعَوْن هو الإمداد بالقوة والأسباب الميسرة للأمر، وقيل: من الطاعة والانقياد، وحكى الأخفش عن أعرابي فصيح: لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعًا تعطيك الماعون، أي: تنقاد لك وتطيعك، قال الشاعر:

مَتَى تُصَادِفْهُنَّ فِي الْبَرِينِ ... يَخْضَعْنَ أَوْ يُعْطِينَ بِالْمَاعُونِ

انتهى تفسير سورة الماعون، ولله الحمد.

  

سورة الكوثر

وهي مكية، وقيل: مدنية، والأظهر: القول الثاني.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ③﴾

قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ جاء عند مسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا -وَفِي رِوَايَةٍ: فِي الْمَسْجِدِ- إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيّ آنِفًا سُورَةٌ. فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ النُّجُومِ، فَيَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ! إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحَدَثَتْ بَعْدَكَ».

وقد سبق في مطلع سورة الإسراء عند البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ». وجاء عند الترمذي بسند جيد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذْ عُرِضَ لِي نَهْرٌ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، قُلْتُ لِلْمَلَكِ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللهُ، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى طِينَةٍ، فَاسْتَخْرَجَ مِسْكًا...»، وجاء عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الكَوْثَرُ هُوَ الخَيرُ الذِي أَعْطَاهُ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ».

وجاء عند الترمذي بسند جيد من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْكَوْثَرُ: نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ». وجاء عند أحمد بسند لا بأس به عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه، وفيه: «فِي الْجَنَّةِ طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجُزُرِ. قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَذِهِ لَنَاعِمَةٌ! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا».

والكوثر فوعل من الكثر، مثل: النوافل من النفل، والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر: كوثرًا. قال سفيان: قلت لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: بكوثر، أي: بمال وفير كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياع، والكوثر من الغبار: الكثير، وقد تكوثر، إذا كثر، والعظيم من الأمر كوثر.

قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي: الصلاة المفروضة، وغيرها من الصلوات المستحبة.

قوله: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ أي: ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول فيما رواه الشيخان من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا»،

وجاء عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِذَا قَالُوهَا، (وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا)، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ». قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. والمعنى: اجعل صلاتك كلها لربك خالصًا دون ما سواه من الأنداد، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان؛ شكرًا له على ما أعطاه من الكرامة والخير الذي لا كفء له وخصك به.

قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك ومبغض ما جئت به.

قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: الأقل الأذل المنقطع، وقد جاء عند البزار بسند جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ أَتَوْهُ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَهْلُ السِّقَايَةِ وَالسِّدَانَةِ، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ؛ فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الصُّنَيْبِيرُ الْمُنْبَتِرُ مِنْ قَوْمِهِ، يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ. فَنَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾». قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذي لا ولد له، وقيل: لا ولد له ولا أخ، ومن الدواب: الذي لا ذَنَب له، وكل أمرٍ انقطع من الخير أثره فهو أبتر، والبتر: القطع، بترت الشيء بترًا: قطعته قبل التمام، والانبتار: الانقطاع، والباتر: السيف القاطع، يقال: بُتِر يُبْتَرُ بترًا، قد أبتره الله، أي: صيره أبتر، ويقال: رجل أُباتِر: الذي يقطع رحمه.

ومن الحيات ما يسمى بالأبتر، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ، وَاقْتُلُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ وَالأَبْتَرَ، فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ الْبَصَرَ، وَيَسْتَسْقِطَانِ الْحَبَلَ».

فالمقصود أن المشركين هم المبتورون المقطوعون من كل خير، لا أنت يا رسول الله، وكما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

انتهى تفسير سورة الكوثر، ولله الحمد، ساقانا الله منه شربة لا نظمأ بعدها أبدًا.



سورة الكافرون

وهي مكية، وقيل: مدنية، والقول الأول أصح.

جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ». وجاء عند أحمد، وأبي داود، وابن حبان بسند جيد عن نوفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ».

وقد جاء عند أبي داود، وابن حبان بسند جيد من حديث أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوتِرُ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وَ﴿اللهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ﴾». ورواه النسائي بلفظ: وفي الركعة الثانية بـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ولا يُسَلِّم إلا في آخرهنَّ». وجاء عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فِي رَكْعَتَي الطَّوَافِ». وجاء عند مسلم ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِهِمَا فِي رَكْعَتَي الفَجْرِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ وهذا التكرار من باب التأكيد والإفهام، وهو مشهور مرغوب بلسان العرب. وقيل: على هذا: على مطابقة قولهم: تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده، أي: إن هذا لا يكون أبدًا. وقيل: كرر للتغليظ؛ لأن القوم كرروا عليه مقالهم مرة بعد مرة، وقيل: المرة الأولى نفي العبادة في الحاضر، والثانية في المستقبل، حكاه البخاري عن بعض المفسرين. وقال ابن تيمية: المراد بقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾: نفي الفعل؛ لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفي لقبوله؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلًا لذلك، ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي.

وقيل: المعنى الإجمالي: قل يا أيها الكافرون، لا أعبد الأصنام التي تعبدونَها، ولا أنتم عابدون لله عزَّ وجل الذي أعبده؛ لإشراككم به واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين، فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي: مثل عبادتكم، فـ ﴿مَآ﴾ مصدرية، أي: ولا أنتم عابدون مثل عبادتي، التي هي التوحيد، وقد جاءت ﴿مَآ﴾ لمن يعقل، ومنه قولهم: سبحان ما سخّركن لنا، والكل

محتمل، والقول الأول أقربُها وأظهرها، وما ذهب إليه ابن تيمية في غاية الحسن.

قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فيه معنى التهديد؛ لقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، أي: إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا، وقيل: كان هذا قبل نزول آية السيف. واستدل الإمام الشافعي وغيره بهذه الآية على أن الكفر كله ملة واحدة، فيرث اليهودي من النصراني، وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان كلها ما عدا الإسلام كالشيء الواحد في البطلان، وذهب أحمد ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود، وبالعكس؛ لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى» صححه ابن حجر، وابن باز.

انتهى تفسير سورة الكافرون، ولله الحمد.

  

سورة النصر

وهي مدنية بالإجماع.

جاء عند مسلم من حديث عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قَالَ: صَدَقْتَ». وجاء عند البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ-: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ. قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ. قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾؟ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا -وَفِي رِوَايَةٍ: فَتْحُ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ-. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي. أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

قوله: ﴿إِذَا جَآءَ﴾ أي: قد، ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك.

قوله: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: عون الله ونصره رسوله ﷺ على قريش وسائر الكافرين، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيثُ الأرض، إذا أعان على نباتِها من قحطها، يقال: نصره على عدوه ينصره نصرًا، أي: أعانه، والاسم: النصرة، واستنصره على عدوه، أي: سأله أن ينصره عليه، وتناصروا: نصر بعضهم بعضًا.

قوله: ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ أي: فتح مكة، وقيل: فتح المدائن وسائر البلاد، والقول الأول هو الأظهر، والمعنى: إذا فتحت مكة، وهي قريتك التي أخرجتك، ودخل الناس في دين أفواجًا، قد انتهت مهمتك فتيهأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

وقد جاء عند أحمد بسند جيد، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ». وقد جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن رباح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَفَدَتْ وُفُودٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ الطَّعَامَ، فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ

يَدْعُونَا إِلَى رَحْلِهِ، فَقُلْتُ: أَلَا أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوَهُمْ إِلَى رَحْلِي؟ فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ، ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِيِّ، فَقُلْتُ: الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ. فَقَالَ: سَبَقْتَنِي؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَدَعَوْتُهُمْ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَلَا أُعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ ثُمَّ ذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ، فَقَالَ: أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ، وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى، وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَّرِ، فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ. قَالَ: فَنَظَرَ فَرَآنِي، فَقَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ! قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ. فَأَطَافُوا بِهِ، وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا وَأَتْبَاعًا، فَقَالُوا: نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ، وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ. ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى -وَفِي رِوَايَةٍ: أُحْصُدُوهُم حَصْدًا-، ثُمَّ قَالَ: حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا. قَالَ: فَانْطَلَقْنَا، فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا. قَالَ: فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ! ثُمَّ قَالَ: مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ-. فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الْوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا، فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ، فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ. قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟ قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ. قَالَ: -وَفِي رِوَايَةٍ: فَمَا اسْمِي إِذًا؟ – كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ، وَيَقُولُونَ: وَاللهِ مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ. فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَغْلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ، وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ، فَأَتَى عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ، وَفِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْسٌ، وَهُوَ آخِذٌ بِسِيَةِ الْقَوْسِ، فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ جَعَلَ يَطْعُنُهُ فِي عَيْنِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا فَعَلَا عَلَيْهِ، حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَ وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ».

وجاء عند البيهقي بسند لا بأس به عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ رَأَى النِّسَاءَ يَلْطِمْنَ وُجُوهَ الْخَيْلِ بِالْخُمُرِ، فَتَبَسَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ؟ فَأَنْشَدَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه:

عَدِمْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَتِفَيْ كَدَاءُ

يُنَازِعْنَ الْأَعِنَّةَ مُسْرَجَاتٍ ... يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ادْخُلُوا مِنْ حَيْثُ قَالَ حَسَّانُ».

ولم يغنم رسول الله ﷺ شيئًا، وقد جاء عند أبي داود بسند جيد عن جابر رضي الله عنه: «أَنَّهُ سُئِلَ: هَلْ غَنِمُوا يَوْمَ الْفَتْحِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا».

قوله: ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: جماعات، فوجًا بعد فوج، وقد حصل وتحقق ذلك، وذلك لما فتحت مكة، قالت العرب: أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان، فأقبلوا مسلمين مستسلمين.

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». وعنها عندهما قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ». وعند مسلم في رواية: «قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ أَحْدَثْتَهَا تَقُولُهَا؟ قَالَ: جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَتْحُ مَكَّةَ-. إِلَى آخِرِ السُّورَةِ». فإن قيل: فما أذنب رسول الله ﷺ حتى يؤمر بالاستغفار؟ فالجواب:

أولًا: الاستغفار يجب الإتيان به لا لطلب المغفرة فقط، وإنما للتعبد أولًا، ولطلب المغفرة ثانيًا.

ثانيًا: الاستغفار أمر للرسول ﷺ من ربه، ليكون متعلقًا به متواضعًا له، سائلًا راغبًا متضرعًا على رؤية التقصير في أداء الحقوق، لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال، وقد جاء عند الشيخين من حديث أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي، وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ثالثًا: هو تنبيه لأمته أن يحذوا حذوه، فإنه كان يستغفر في كل يوم أكثر من مائة مرة وهو النبي المعصوم، فكيف ببقية أمته الخطائين ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا.

رابعًا: قد يكون استغفارًا لأمته، وهو قول مرجوح.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، قال ابن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يومًا، ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يومًا، ثم نزل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يومًا، ثم نزل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، فعاش بعدها واحدًا وعشرين يومًا، وقيل: سبعة أيام، وقيل غير هذا، ولا أعلم هل هو ثابت عن ابن عمر رضي الله عنهما أو لا، لكنه قول في غاية الحسن؛ لموافقته بعض النصوص

الثابتة في هذه المسألة، وقد أشرنا إلى هذا في المقدمة بشيء من التفصيل.

انتهى تفسير سورة النصر، ولله الحمد.

  

سورة المسد

وهي مكية بالإجماع.

جاء عند الشيخين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ! فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ (وَفِي رِوَايَةٍ: جَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ! -لِبُطُونِ قُرَيْشٍ-، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا)، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ (وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ)، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ! مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وَقَدْ تَبَّ». وقد زاد الحميدي: «جَاءَتِ امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: لَوْ تَنَحَّيْتَ لا تُؤْذِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا. فَأَقْبَلَتْ حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، هَجَانَا صَاحِبُكَ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لا، وَرَبِّ هَذِهِ الْبِنْيَةِ، مَا يَنْطِقُ بِالشِّعْرِ وَلَا يَتَفَوَّهُ بِهِ. فَقَالَتْ: إِنَّكَ لَمُصَدَّقٌ. فَلَمَّا وَلَّتْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: مَا رَأَتْكَ؟! قَالَ: لَا، مَا زَالَ مَلَكٌ يَسْتُرُنِي حَتَّى وَلَّتْ». قال البزار: لا نعلم يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر رضي الله عنه. وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ؟ يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

قوله: ﴿تَبَّتْ﴾ أي: خسرت وخابت وضلت وهلكت، وخصَّ اليدين بذلك لأن العمل أكثر ما يكون بهما، وقد يعبر عن النفس باليدين، كما قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، أي: خسرتا، وخسر هو، والعرب تعبر ببعض الشيء عن كله، تقول: أصابته يد الدهر، ويد الرزايا والمنايا، أي: أصابه كل ذلك.

قوله: ﴿وَتَبَّ﴾ هذا خبر، والأول دعاء، كما يقال: أهلكه الله، وقد هلك. وأبو لهب هو عم الرسول ﷺ، واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وامرأته العوراء أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه، وكلاهما كان شديد العداوة للنبي ﷺ وقد سماه الله بكنيته لشهرتها، ولوجود العبودية لغيره في اسمه. وقيل: اسمه كنيته، وقد كان أهله يسمونه بذلك لتلهب وجهه وحسنه، فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النور، أو أبو الضياء، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب، والتي هي مصيره إلى الأبد.

قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: ما دفع عذاب الله، لا مال، ولا ما كسب من جاه وولد، وولد الرجل من كسبه، وقد مضى بيان ذلك و﴿مَآ﴾ يجوز أن تكون نافية، أو استفهامًا، أي: أي شيء أغنى عنه؟ والقول الأول أقرب.

قوله: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ أي: تحمل الحطب وتضعه في طريق الرسول ﷺ ليلًا، وقيل: ستحمل الحطب غدًا وتلقيه على زوجها وهو في النار ليزداد عذابًا؛ لأنها كانت عونًا له في الدنيا على الكفر والجحود، وقيل: أي: حمالة النميمة بين الناس، والعرب تقول: فلان يَحْطِب على فلان، إذا ورَّش عليه. وقد قال أكثم بن صيفي لبنيه: إياكم والنميمة، فإنها نار محرقة، قال الشاعر:

إن النميمة نار ويك محرقة ... ففر عَنْهَا وَجَانِبْ مَنْ تَعَاطَاهَا

وقد قيل: نار الحقد لا تخبو، والقول الأخير هو الأظهر، وهو اختيار ابن جرير. وقيل: كانت تعير رسول الله ﷺ بالفقر، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لبخلها، فعيرت بالبخل.

قوله: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: في عنقها.

قوله: ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۢ﴾ أي: من ليف. وجمع الجيد: أجياد، والمسد جمعه أمساد، وقد يكون من صوف. وكانت قبحها الله تحتطب في حبل تجعله في جيدها، وسيكون غدًا حبلًا من نار، سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا. وقيل: كان في جيدها قِلادة فاخرة من درع، أي: خرز أبيض تخرج من البحر. والمسد: الفتل، يقال: مَسَد حبله يَمْسِده مَسْدًا، أي: أجاد فتله. ودابة ممسودة الْخَلْق، إذا كانت شديدة الأسر، ورجل ممسود، أي: مجدول الخلق، وجارية حسنة الْمَسْد، وممسودة، والمساد على فعال، لغة في المِسَاب، ويقال: مسأب، كمنبر، وهو نَحيّ السمن وسقاء العسل. والمقصود أنّها ستجندل في النار بحبل من مسد في عنقها، وقد يكون هذا الحبل هو الذي كان عليها ومعها في الدنيا، وقد لا يكون، والله على كل شيء قدير.

وهذه السورة من معجزات النبوة الظاهرة، فإنه منذ نزل هذا الوعيد لأبي لهب وامرأته لم يُفكِّرا ولم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحدٌ منهما، لا ظاهرًا ولا باطنًا، لا سرًا ولا علنًا. بل ازداد كفرهم وحنقهم، وتضاعفت أذيتهم للرسول ﷺ، وقد هلك أبو لهب شر هلكة بعدما ظهر في بدنه قروح أمثال الطاعون، فقتلته، وأقام ثلاثة أيام لم يدفن حتى أنتن، فاحتمله أولاده إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رضموا عليه الحجارة أي: جعلوا الحجارة بعضها على بعض، وأما زوجته العوراء فخنقها الله بحبلها.

انتهى تفسير سورة المسد، والحمد لله.



سورة الإخلاص

وهي مكية، وقيل: مدنية، والقول الأول أظهر.

جاء عند أحمد والترمذي بسند لا بأس عن أُبَيٍّ بن كعب ﵁: «أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ! فأنزل الله هذه السورة». وأخرج البيهقي من حديث ابن عباس ﵄ لكن بلفظ: «صِفْ لَنَا رَبَّكَ». حسنه ابن حجر. وقد روى البخاري، ومسلم عن حديث عائشة ﵂ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ». وجاء عند البخاري معلقًا بصيغة الجزم: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ».

وجاء عند البخاري عن أبي سعيد ﵁: «أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ». وفي رواية له: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟ (فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟) فَقَالَ: اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ». وبنحوه من حديث أبي الدرداء ﵁ عند مسلم.

وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة ﵁: «احْشُدُوا؛ فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ. فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ. ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؛ أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

وجاء عند مالك والترمذي بسند جيد عن أبي هريرة ﵁ قال: «أَقْبَلْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَجَبَتْ. قُلْتُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ».

وجاء عند أبي داود والترمذي والنسائي بسند لا بأس به من حديث عبد الله بن خبيب الجهني ﵁ قال: «خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصَلِّيَ لَنَا، فَأَدْرَكْنَاهُ فَقَالَ: قُلْ، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا. ثُمَّ قَالَ: قُلْ، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا. ثُمَّ قَالَ: قُلْ فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

وجاء عند أحمد بسند لا بأس به عن معاذ بن أنس الجهني ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁: إِذَنْ أَسْتَكْثِرَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ».

وجاء عند البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)». وقد سبق بيان قراءتها في الوتر، وفي إحدى ركعتي الفجر، وركعتي الطواف، وسيأتي أنّها تُقرأ دبر كل صلاة. وجاء عند أبي داود بسند لا بأس به عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول فيمن سأل عن الله: «قُولُوا: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عديل، واحد بذاته، واحد في أسمائه، وواحد في صفاته، ليس كمثله شيء. روى البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فقوله: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فقوله: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ».

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الذي لا جوف له، فليس بحاجة إلى أكل أو شرب، لم يلد ولم يولد، باق بعد خلقه، سيدٌ قد انتهى في سؤدده، كامل لا عيب فيه، تصمد إليه الخلائق كلهم في حوائجهم ومسائلهم. قاله أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة، وكذا البيهقي، ووافقهما ابن كثير، رحم الله الجميع، وكل معنى من المعاني السابقة له شواهده اللغوية، وقد جاء الثاني عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عند الترمذي بسند لا بأس به. والثالث جاء عن الحسن وقتادة.

قوله: ﴿كُفُوًا﴾ أي: نظيرًا ولا سميًا ولا قريبًا، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

انتهى تفسير سورة الإخلاص، ولله الحمد.

  

سورة الفلق

وهي مكية.

جاء عند البخاري عن زرِّ بن حبيش، قال: «سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ -وَفِي رِوَايَةٍ: قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا! -، فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: قِيلَ لِي فَقُلْتُ. فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ». وجاء عند مسلم من حديث عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ، لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾». وجاء عند أبي داود، والترمذي، والنسائي بسند جيد عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَقرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ». صححه ابن حجر، وابن حبان، وزاد: «وآية الكرسي» وصححها المنذري. وعند الطبراني: و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، جوده البيهقي، والمنذري، وابن حجر.

وعند النسائي في اليوم والليلة بسند حسن من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ».

وجاء عند أبي داود بسند جيد من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالأَبْوَاءِ إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِـ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وَ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وَهوَ يَقُولُ: يَا عُقْبَةُ، تَعَوَّذْ بِهِمَا؛ فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا. قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلَاةِ». وقد تقدم قراءة المعوذتين مع سورة الصمد عند النوم، رواه البخاري.

وجاء عند الشيخين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ- الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: لِبَرَكَتِهَا»، ولمسلم في رواية قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ، نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ».

وجاء عند الترمذي، والنسائي، وابن ماجه بسند جيد عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الإِنسَانِ، حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا».

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

قوله: ﴿ٱلۡفَلَقِ﴾ أي: الصبح، كما اختاره البخاري في صحيحه، تقول: أبين من فلق الصبح، وفَرَق الصبح، وقيل: كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والصبح والنوى والنبات والماء، يقال: فلقته، فانفلق،

وتفلّق، ويقال: فَلَقْت الشيء فلقًا، أي: شققته، قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، والقولان محتملان، والأول أظهر. وجمعه: فُلْقان، مثل: خَلَق، وخُلْقان، والفلق: مِقطرة السجان، وهي خشبة فيها خروق، كل خرق على قدر سعة الساق، يدخل فيها أرجل المحبوسين، مشتق من قطار الإبل. والفِلْق: الداهية والأمر العجب، تقول: أفلق الرجل، وافتلق، وشاعر مُفْلِق، وقد جاء بالفِلق، أي: الداهية، والفِلق: القضيب يُشق باثنين، فيعمل منه قوسان. وقولهم: جاء بفُلَق فُلَق، وهي الداهية، ومرّ يفتلق في عدوه، أي: يأتي بالعجب من شدته.

قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: إبليس وذريته من الشياطين وأتباعه من الإنس، وشر كل ذي شر.

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ جاء عند أحمد والترمذي بسند جيد من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، اسْتَعِيذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ» أي: إذا غاب. وقيل: ﴿وَقَبَ﴾ بمعنى: نزل، يقال: وقب العذاب على الكافرين، إذا نزل، والمعنيان متقاربان، والمقصود: إذا نزل القمر في منازل مغيبه. وقيل: غاسق الليل إذا وقب: غروب الشمس، حكاه البخاري عن مجاهد، والقول الأول هو الصواب.

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أي: الساحرات اللائي ينفثن في عُقد الخيط حين يَرْقِين عليها، شبه كما يعمل من يرقي، وقد جاء عند الشيخين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ -وَفِي رِوَايَةٍ: الْيَهُودِيُّ. (وَفِي رِوَايَةٍ: حَلِيفٌ لِيَهُودَ، كَانَ مُنَافِقًا) -، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، (وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِي. وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ إِذَا كَانَ كَذَا)، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ! أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: فِيمَا فِيهِ شِفَائِي)؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ. قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَمُشَاقَةٍ)، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ (وَفِي رِوَايَةٍ: تَحْتَ رَاعُوفَةٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَذَرْوَانُ بِئْرٌ فِي بَنِي زُرَيْقٍ) فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأُخْرِجَ)، فَجَاءَ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ! كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، أَوْ كَأَنَّ (رُؤُوسَ) نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَهَلَّا؟ -تَعْنِي: تَنَشَّرْتَ-)، قَالَ: (وَفِي رِوَايَةٍ: لَا)، قَدْ عَافَانِي اللهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا. فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ (وَفِي رِوَايَةٍ مُعَلَّقَةٍ: الْبِئْرُ)».

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحسد: تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها،

والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل، فالحسد شر مذموم، والمنافسة مباحة، وهي الغبطة في قوله ﷺ كما في الصحيحين: «لا حَسَدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ»، وقد قيل: المؤمن يغتبط، والمنافق يحسد، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون، عدو لنعمة الله، ساخط على قسمة الله، مضاد لفعل الله، لا ينال في المجلس إلا الندامة، ولا في الخلوة إلا الجزع والغم، ولا من الخلق إلا بُعدًا، ولا من الخالق إلا مقتًا، قال الشاعر:

قُــلْ لِلْحَسُــودِ إِذَا تَــنَفَّسَ طَعْنَــةً ... يَــا ظَالِمًــا وَكَأَنَّــهُ مَظْلُــومُ

وقد تقدم الحديث عن الحسد في سورة النساء. وقد جاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَاهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ». وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند مسلم أيضًا: «مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ».

انتهى تفسير سورة الفلق، ولله الحمد.

  

سورة الناس

وهي مكية، وقد سبق فضلها ومواطن قراءتها في مطلع سورة الفلق.

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي: الموسوس، والتقدير: من شر ذي الوسواس، وهو: الشيطان، والوسوسة: حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وَسْوسة، ووِسْوَسَة، ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلي: وَسْواس.

قوله: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي: المختفي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ يعني النجوم؛ لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: الذي يخنس إذا ذكر العبد ربه، أي: يتأخر ويعرض، يقال: خَنَسته فخَنَس، أي: أخّرته فتأخر، وأخنسته، وقد جاء عند أبي دواد وأحمد بسند جيد عَنْ رَجُلٍ، قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَثَرَتْ دَابَّتُهُ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ! فَقَالَ: لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي. وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللهِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ». وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان واختفى وتأخر ورجع عن وسوسته، وإن لم يذكر الله تعاظم وتمكن وغلب صاحبه.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ لأنه كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث صفية رضي الله عنها: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ...». وجاء عند مسلم عن أبي العلاء، أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي، يَلْبِسُهَا عَلَيَّ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا. قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّى».

وجاء عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلًا، فَغِرْتُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ رضي الله عنها أَغِرْتِ؟ فَقُلْتُ: وَمَا لِي لَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَمَعِي شَيْطَانٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ». وهنا سؤال: هل يختص ببني آدم، كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، والصواب: دخولهم في ذلك، ولفظ الناس هنا ذُكر تغليبًا.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ اختلف فيها، هل تفصيل لقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ثم بينهم بقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؟ وهذا يقوّي ما رجحنا. وقيل: هو تفسير للذي يوسوس في صدور الناس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فشيطان الجن يوسوس سرًا، وشيطان الإنس يوسوس علانية، والقول الأول أظهر. وقد جاء عند أحمد، وأبي داود، والنسائي بسند لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ -يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ- لأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ! فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ».

انتهى تفسير سورة الناس، وهي التمام،

سائلين الله لنا وللمسلمين حسن الختام،

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

  